

الإلياذة

هومير وس

ترجمة

سليمان البستاني

الكتاب: الإلياذة

الكاتب: هوميروس

ترجمة: سليمان البستاني

الطبعة: ٢٠١٨

الناشر: وكالة الصحافة العربية (ناشرون)

ه ش عبد المنعم سالم - الوحدة العربية - مذكور- الهرم - الجيزة
جمهورية مصر العربية
هاتف: ٣٥٨٢٥٢٩٣ - ٣٥٨٦٧٥٧٦ - ٣٥٨٦٧٥٧٥
فاكس: ٣٥٨٧٨٣٧٣



E-mail: news@apatop.com http://www.apatop.com

All rights reserved. No part of this book may be reproduced, stored in a retrieval system, or transmitted in any form or by any means without prior permission in writing of the publisher.

جميع الحقوق محفوظة: لا يسمح بإعادة إصدار هذا الكتاب أو أي جزء منه أو تخزينه في نطاق استعادة المعلومات أو نقله بأي شكل من الأشكال، دون إذن خطي مسبق من الناشر.

دار الكتب المصرية

فهرسة أثناء النشر

هوميروس

هوميروس الإلياذة / هوميروس

- الجيزة - وكالة الصحافة العربية.

١٤٧٩ ص، ١٨ سم.

الترقيم الدولي: ١ - ٥٩٧ - ٤٤٦ - ٩٧٧ - ٩٧٨

أ - العنوان رقم الإيداع: ٢٢٩١٤ / ٢٠١٧

الإلياذة

وكالة الصحافة العربية
«ناشرون»



الإهداء

إليك يا والدي أهدي كتابي هذا، فأنت أولى به من كل حيٍّ وميت، وما هو إلا ذرَّةٌ من فضلك وجزءٌ من عنايتك ببنيك وتفانيك بنفع ذويك وبنِي جلدتك، فإن عجزت عن أداء واجب الوفاء بحياتك، فلا أقلَّ من أن أشهد الملاء على عرفاني جميلك وأنت في عالم الأرواح.

ديباجة الكتاب

هذه إلياذة هوميروس أُرِفُّها إلى قراء العربية شعراً عربياً، ولقد استنفدت وسعي في نظمها وإلحامها راجياً أن تكون مُحْكَمَة التعريب خَلِيَّة من شوائب اللكنة والعُجْمَة.

وقد صَدَّرتها بمقدمة أتيت فيها على سيرة صاحب الإلياذة وأشرتُ إلى منظوماته ومنزلته عند القدماء ورأي المتأخرين فيه وأقوال العرب في شعره، وبحثت في الإلياذة وموضوعها وطرق تناقلها قبل الكتابة ثم في جمعها وكتابتها وسلامتها من التحريف مع ما فيها من قليل الدَّخِيل والساقط والمكْرَّر والمغْلَق، وأتيت على تحليلها وتشريحها، وبسط ما فيها من الفائدة للأدب والتاريخ وسائر العلوم والفنون والصنائع، وأوضح ما كان من الأسباب الداعية في صدر الإسلام إلى إغفال العرب نقلها إلى لغتهم، وتطرَّقت إلى التعريب، فقصصت حكاية المعرَّب في وضع هذا الكتاب. وذكرت مناهج العرب في نقل الكتب الأعجمية والطُّرق التي يجدر بالنَّقْلَة التعويل عليها، وساقني ذلك إلى النظر في التعريب الشعري، ثم إلى النظم على الإطلاق وأوزان الشعر وقوافيه ووقع كل منها في معانيه، وجوازات الشعر من مأنوسٍ ومكروهٍ إلى غير ذلك مما يُعَدُّ من خصائص هذه الصناعة، وانتقلت إلى المقارنة بين الإلياذة والشعر العربي، فوطَّأتُ لذلك بالشعر القديم وأصله، وسبب

طموسه، ومناشدات سوق عُكاظ، وشأن لغة قريش فيها وفضل القرآن في جمع أشتات اللغة وتوحيدها وإحكام بلاغتها في النظم والإنشاء، وقابلت بين لغة قُريش المُضَرِّيَّة ولغة الإلياذة اليُونِيَّة، وفصلت أطوار الشعر العربي مميزًا بين طبقات الشعراء من عهد الجاهليين حتى يومنا، وأثبت مزايا كل طبقة منها مع تعيين مدَّتها وأسماء، فحولها وإيراد ما اتسع له المقام من نفيس شعرهم، ثم أشرت إلى مغامر الشعر العربي ومناهج المولَّدين في أبواب الشعر وفنونه وأساليبه وعلوم الأدب العربية وتاريخها، وانتهيت إلى أسباب الضعف والانحطاط في شعر المحدثين وجنوح النوابع من أبناء هذا العصر إلى سد الخلل وتعديل الخطوة، وأفردت بابًا للملاحم أو منظومات الشعر القصصي مما يماثل الإلياذة، فأشرت إلى ضروب الشعر عند الإفرنج، وقابلت بين ملاحم الأعاجم والملاحم العربية من الشعر الجاهلي، وجمهرة أشعار العرب، واستطردت من ذلك إلى إلقاء نظرة على الجاهليتين؛ جاهلية العرب، وجاهلية اليونان ثم إلى ملاحم المولَّدين، ورجعت بعد هذا إلى الحقيقة والمجاز، وما يلصق بالمعاني الشعرية من التشبيه والكناية والاستعارة والبديهيَّات، وما ينتابها من النقل والسرقة وتوارد الخاطر، وما قد يطرأ عليها من التغيُّر بفعل الحضارة، وألَّمت إلى مسالك الأعاجم في ذلك مبيِّنًا مزية العربية على لغاتهم في بعض الأحوال، وذيلت المقدمة بخاتمة في الشعر واللغة عارضت فيها بين العربية واليونانية، وبحثت في اتساع العربية وثروتها

القديمة، وكثرة مترادفاتهما، وتعدّد المعاني فيها للفظ الواحد مع إيضاح فائدة ذلك وضرره، وإيراد أسباب الضّعف في تأدية ما استُحدث من المعاني العصرية، وأشرت إلى نهج العرب بالتوسع في اللغة والاصطلاح، وختمت بخلاصة موجزة في ما تراءى لي من الداء والدواء والنهضة الحديثة، ومستقبل اللغة والشعر.

وقد علّقت على الكتاب شرحًا توخّيت فيه الفائدة والتفكيك، ورصّعته بزهاء ألف بيتٍ مما قاله العرب في مثل معاني الإلياذة أو حوادثها، وضمّنته كل ما تجدر معرفته من أخلاق الأمة العربية «في جاهليتها وبدائيتها وحضارتها، والمشهور من أساطيرها وعباداتها والمأثور من آدابها وعاداتها ومناهج شعرائها وأدبائها، ومواقف ملوكها وأمرائها وساستها وزعمائها» إلى غير ما هنالك مما أوضحته في باب حكاية المعرّب (ص: ٧٢).

وقد مثّلت المتن الشعري مطبوعًا بالشكل الكامل وأودعت الشرح كثيرًا من رسوم الآلهة وغيرهم مما يحسن الاطلاع عليه. وأضفت فهرسًا لتلك الرسوم وآخر للقوافي ومعجمًا للألفاظ اللغوية، ومعجمين آخرين لجميع مواد الكتاب من أعلام وتاريخ وعلم وصناعة وخلق وعادة وهلمّ جرّاً.

تلك هي على الجملة محتويات الكتاب «فإن أحسنت وفيه
منتهى جهدي فذلك من حسنات الاجتهاد، وإلا فحسبي أن أفتحه باباً
يلجّه من وفقه الله إلى سبيل السداد».

مقدمة



هوميروس

اسمه ولقبه

اختلف المؤرخون في اسم صاحب الإلياذة، ولكنهم متفقون على أن «هوميروس» لقبٌ لُقّب به لأمر جليل تخلل حياته فعرف به، وأهمل اسمه على نحو ما اتفق لكثيرين من شعرائنا الذين غلبت ألقابهم وكناهم على أسمائهم كطرفة بن العبد، والشمّاخ، والنابعة والفرزدق والأخطل والمتنبّي وأبي العلاء، وللكتّاب أقوالٌ مختلفة في ذلك اللقب نظير ما لكتّابنا من المذاهب المتضاربة في أصل تلك الألقاب والكنى؛ ولهذا حاموا حول اللفظة اليونانية وجعلوا يستنبطون من معانيها ما شاءوا، فوضعوا لكل معنى يُستخرج منها حديثًا مما يمكن وقوعه لشاعرنا، فمن قائل أنه لما كانت كلمة هوميروس (Ὅμηρος) بمعنى الرهينة غلب عليه هذا اللقب لوقوعه أسيرًا في حربٍ فكان من جملة الرهائن، على أن الداهيين هذا المذهب ليسوا على بينة من تلك الحرب، فمنهم من يجعلها بين أزمير وساقس، وهو مذهب بروكلوس وعنده أن الشاعر اعتقل في ساقس، ومنهم من يقول بل أخذ إلى كولوفون، وقال آخرون: «بل وقع أسيرًا في قبضة الفرس»، ومن قائل: «إن اللفظة منحوتة من كلمتي (ὁμῶς σρεῖν) ومعناها «المتكلم في المجلس» أي: الخطيب أو المشير وهو قول سويداس، وكل ما يُستخرج من هذا النحت يصح أن يتفق لصاحبنا، ومن قائل أنها مشتقة من لفظة (ὁμῆρειν) بمعنى التابع أو اللاحق أخذًا من قول فلوطرخوس أنه

لحق بالليدين من مدينة أزمير، وهناك أقوالٌ أخرى أجدرها بالذكر قول هيرودوتس وإيفوروس: «أن اللفظة مركبة من ثلاث كلمات» (ο μη ορων) بمعنى الكفيف البصر، وهو تخريجٌ حسنٌ يصحُّ التعويل عليه؛ لأنه لم يثبت في الأثر شيءٌ مما يؤيد الأقوال السابقة ولكنه ثابتٌ أن بصره كُفَّ وهو لم يكد يتجاوز سن الشباب، وقد أشار إلى ذلك في أبيات من منظومته «الأوديسية». وفي معجم ألكسندر «أن لفظة هوميروس مفردةٌ كان يراد بها «الأعمى» في مدينة كومة وبها لقب الشاعر».

وأما اسمه فأشهر ما قيل فيه أنه كان ميونيدس أي: ابن ميون؛ لأن ميون ملك ليديا تزوج أمه كريثيس، والطفل على يدها فدعاهُ باسمه وهو يعتقد أن أبا ذلك الطفل من الجن، وقيل: «بل كان والد هوميروس داماسوغوراس ووالدته أثراً ومسقط رأسه مصر». وقيل: «بل كان اسم هوميروس ميليسا جينيس» وهي رواية هيرودوتس، وعليها المعوّل كما سيجيء.

نسبه

لا يعلم شيء ثبت عن نسب هوميروس وحسبه، وإن لدينا مما استبقاه المتقدمون أقوالاً متباينة لا يمكن الأخذ بشيء منها، وصفوة ما عوّل عليه الكتبة منها سيران كتيهما هيرودوتس وفلوطرخوس، ثم وجد المتأخرون بعد التمهيص أنهما لا تخلوان من تناقض يؤدي إلى الظن

أنهما لُفقتا بعد حين كقول هيرودوتس أن هوميروس نبغ في القرن السابع أي: قبل حملة الفرس الكبرى على بلاد اليونان، وقوله في تاريخه: «إن هوميروس تقدمه بأربعمئة سنة مع أنه كان يدون بنفسه سير تلك الغزوة تدوين الشاهد الحي». وليس في ما بين أيدينا من منظوم هوميروس ما يشير إلى أسرته وعترته مع أنه كان أحرص الناس على تدوين الأنساب كما يتضح لمن يتصفح الإلياذة، ولا أخاله إلا آتياً على تلك النسبة في شيء مما فقد من شعره إذ ليس في محفوظ أشعاره ذكرٌ لأبيه، وأما أمه فيزعم بعض الشراح أنها هي المعنية بقوله في النشيد الثاني عشر:

كمراءة عالت الأطفال عادلة قد أمسكت عود ميزان تعادله

لا تخسر الصوف مثقالاً تضنُّ به

وعلى هذا فلا يمكن استخلاص شيء من كتبه عن نسبه، وجميع ما لدينا من رواية السلف عنه لا يتجاوز حد الحدس، ولا سيما أن شهرته النامية ومنزلته السامية حبيتا إلى كتبة كل قبيلة من اليونان أن تدّعيه فتنازعتهم مدائنهم وأتي كلٌّ منهم ببرهان، وأشهر تلك المدائن ثمان وهي: أزمير، وسلاميس (وتدعى اليوم كولوري) ويوس (نيو) ورودس، وخيوس (ساقس) وكولوفون، وأرغوس وأثينا، ولعله أقام زمناً في كلٍّ منهم وأخلف فيها أثراً من شعره فكان داعياً إلى تلك الدعوى، وإن رجلاً هذا شأنه لا بدّ أن يدّعيه كل فريق من قومه بعد أن ادّعاه الأجانب، فقد ذكر أفستاثيوس رواية أسندها إلى إسكندر بافيوس زعم فيها أن هوميروس

ولد في مصر قال: «كان أبوه يدعي داماساغوراس، وأمه أثرا فلما وُلد عنيت بتربيته نبيَّةً من ولد أوروس الكاهن، وكان يتحلَّب الشَّهَد من ثدييها إلى فم الطفل فكان إذا أقبل الليل يتغنى بصوت كصوت تسعةٍ من الطير مختلفة الأجناس، وإذا لاح الفجر يصبح وهو يلاعب تسعًا من الورق، وأوعز إلى أبيه أن يبني هيكلًا للقيان منشدات السماء فبناه وقص الخبر على ابنه لما بلغ أشُدَّه، فكانت تهيجُه ذكرى الحمام وترنم به في شعره».

ومهما يكن من الخطب في تلك الأقاويل، فإنَّا نتبع الفريق الأعظم من الكتبة في التعويل على النسبة التي كتبها هيرودوتس وإليك مجملها:

مولده ونشوؤه

هو ابن كريشيس ابنة ميلانوفوس ولدته أمُّه على ضفة نهر ميليس في ضاحية أزمير ودعته ميليسا جينيس أي: ابن النهر ميليس، وكان في أزمير إذ ذاك معلم كُتَّاب يدعى فيميوس، فاستأجرها لغزل الصوف الذي كان يتقاضاه أجره من تلامذته، وكانت كريشيس صناع اليدين ذات راحة وسكينة فأعجب بها فيميوس وخطبها لنفسه، وما زال يمنيها بالعود حتى أجابته إلى طلبه. وكان جلُّ ما استمالها به قوله لها: إنه توسم في الغلام من الفطنة والذكاء ما جعله واثقًا أنه سيكون نابغة عصره إذا عُهِد إليه بتربيته، فإذا رضيت به بعلاً لها فهو يتبنى ابنها، ويعكف على تهذيبه

وتثقيفه، وبرّ فيميوس بوعده، فعُني به فإذا به قد فاق جميع أقرانه ثم ما انقضت بضعة أعوام إلا وهو يكاد يظهر على أستاذه.

مدرسته

وتوفي فيميوس ولا وارث له إلا هوميروس ثم ما لبث أن توفيت كريثيس، فخلت المدرسة لهوميروس فأقام مقام أستاذه فأعجب به بنو أزмир، وطارَت شهرته فقصدهُ الداني والقاصي، وأصبح مجلسه ديوان الأدب وكعبة الحكمة، وكانت أزмир لذلك العهد محطاً لرحال التجار تستورد إليها الحبوب من تلك البقاع الخصبة فتمتار منها المدن المجاورة، فأصبح الغريب القادم إليها إذا فرغ من عمله أو سنحت له فرصة يهرع إلى مجلس الأستاذ الفتى؛ ليلتقط درر حكيمته، وممن كان يختلف إليه ربّان سفينة من ذوي العلم والدهاء اسمه منتس يحمل الحبوب إلى أزмир من لوقاديا، فشغف بحديث ميليسا جينيس وجعل يحسن له الأسفار ويزين له مشاهدة الأمصار وهو في عنفوان الصبا قبل أن يدركه العجز؛ ليزداد حكمة واطلاعاً ووعدته أن يحمله على سفينته فيتخذهُ خدناً عزيزاً وإلفاً كريماً، وما زال به حتى حمله على مغادرة المدرسة والتدريس واللاحاق به رحالة على متن البحار.

أسفاره

وكان ميليسا جينيس شديد المراقبة كثير البحث لا يقع بصره على شيء إلا تحرّاه ولا طرق مسمعه خبرٌ إلا استجلاه، فطالت الرحلة

وهو في أثنائها يخزن الفوائد ويجمع الأخبار حتى انتهى به التّطواف إلى إيبيريا (إسبانيا) وأقلعت منها السفينة إلى أزمير، فعرجت على إيثاكة (ثياكي) في الأرخبيل اليوناني، وهناك رمدت عينا ميليسا جينيس، فاضطر منتس على كُرِه منه أن يستبقيه فيها لدى صديق له حميم من أهل تلك الجزيرة يدعى منظور، فأنزله منظور في داره وكان مضيافاً طيب العنصر، رحب الصدر، كريم الخلق ليس في بلاده من يضاهيه شهرة بتلك الخلال، ولم تكن العلة لمتنع الفتى من البحث والتحري فظل وهو على فراش المرض يلتقط شوارد الفوائد، ومن جملتها أخبار أوديس (أوديسس) وأسفاره (فكانت له أساساً بنى عليه منظومته الأوديسية، وجعل فيها اسم منظور مرادفاً للحكمة والبر فخلد بها ذكره أبد الدهر).

وبقي ميليسا جينيس نزير منظور إلى أن عاد الرّبان منتس إلى إيثاكة فأنزله إلى سفينته واستأنفا الأسفار إلى أن بلغا كولوفون، فاشتد عليه الرمد حتى فقد بصره جملةً وظلّ كفيفاً إلى أن مات.

شروعه في قرض الشعر

ولما كُفَّ بصره قصد أزمير وأقام فيها زمناً ينظم الشعر، فضاقت ذات يده وبرحت به الحاجة، فعوّل على الشخوص إلى كومة، وسار يقطع هرْمُس (وهو نهر كديز أو سرابات) إلى أن بلغ به السير إلى (نيونتيخوس) وهي بلدة من مستعمرات الكوميين. قيل: إنه وقف فيها إلى حانوت تاجر جلد، فأنشد أبياتاً شكّا فيها بؤس الغريب الشريد

المتصور فاقة وجوعاً، وكان ذلك أول عهده بالإنشاد على مسمع الناس، فأصابت تلك الأبيات موضع رفق وعطف من فؤاد ذلك التاجر؛ فرحب به وآواه إليه، فجلس في الحانوت وأنشد على مسمع جماعة ممن حضر مقاطيع من شعره في وصف حملة أمفياروس على ثيبة وبضع ترانيم دينية، فأجّله القوم وأكرموا مثواه، فأقام بينهم وصناعته الإنشاد.

قال هيرودوتس: «ولا يزال أهل تلك البلدة حتى يومنا يفتخرون بالإشارة إلى المجلس الذي كان ينتابه فينشده فيه، ولذلك الموضع عندهم حرمةً ومنزلةً سامية وفيه شجرة صفصاف يزعمون أنها زُرعت يوم قدم ميليسا جينيس فأقام بين ظهرائهم».

تتمة أسفاره

أقام الشاعر بضعة أعوام في نيونتيخوس ثم قلَّ رزقه فيها فبرحها إلى كومة، وقصد الموضع الذي كان يجتمع فيه مجلس الشيوخ، وأنشد ما تيسر فارقص الحضور طرباً فطابت نفسه وعظمت أمانئُه فسألهم أن يقوموا بنفقته على أن يقول فيهم من الشعر ما يُطير شهرة مدينتهم في الآفاق ويخلد لها جميل الذكر. فلم يكن في من حضر إلا من استصوب السؤال وأوعزوا إليه أن يقول قوله هذا في المجلس وهو ملتئم وهم من ورائه يعضدون. فعمل بإشارتهم، ولما اجتمع الشيوخ أدخل إلى قاعة الاجتماع، فانتصب خطيباً وأعاد الكلام الذي ألقاه على عامة الناس وخرج ينتظر الجواب. فخلوا إلى شورايم وكان معظمهم ممن يرغب في

موافقته، فإذا بواحد منهم قد قام فاعترض وقال: «لئن جنحنا إلى القيام بنفقات عميان الشعراء لثلقين على عواتقنا زُمراً منهم لا قبل لنا بهم». فأدّى بهم ذلك إلى الانقلاب عن عزيمتهم.

ومن ثم لُقّب ميليسا جينيس بهوميروس، ومعناها أعمى بلغة الكوميين وتنوسي اسمه، فنقم هوميروس على كومة وأهلها، ونظم قصيدة رثى بها حاله، واستنزل اللعنة على من يتغنى بمدحها ومدحهم من الشعراء، وغادرها إلى فوقيا على مقربة من أزمير وجعل يطرق منتدياتها فينشد فيها الأشعار.

وكان في تلك البلدة معلم كتّاب ذميم الخلق يسمّى ثستوريدس، فلما رأى ما كان من رواج بضاعة الشعر دعاه إلى منزله يقيم فيه ضيفاً كريماً على أن يلقنه كل ما نظم وما سينظم من الشعر فما وسع هوميروس إلا القبول فراراً من الفقر، فأكب ثستوريدس على النسخ حتى استتم كل منظومات هوميروس، فأقفل أبواب مدرسته وسار إلى جزيرة ساقس، وأقام فيها ينشد شعر نزيله ويدّعيه. فبلغ هوميروس أمره فعزم على تعقبه ولم يبال بما اعترضه من مشاق فوصل الجزيرة بعد معاناة الأهوال، ونزل في بلدة من ثغورها تدعى بوليسوس فاتخذها بعض وجهائها معلماً لأولاده، فأقام عنده وعكف على نظم الشعر ثم أذاع منظومات خلاصة «كحرب الزرازير» و«حرب الضفادع والفيران» و«الكركوفة» فتناشدها الناس

وتناقِلها الركبَان، وكان ثستوريدس كلما علم بحلول هوميروس في مكان فرَّ منه إلى مكان آخر.

ولما رسخت شهرة هوميروس في ثغور الجزيرة سأل صاحب منزله أن يذهب به إلى عاصمتها، فشخص إليها وفتح مدرسةً يعلم فيها النظم وطرائقه فعظَّم أمره وعلت منزلته، وأكبر الناس قدره فطاب عيشه واتسعت حاله بينهم، فأزوجه بنتًا فولدت له ابنتين، وجادت قريحته فنظم وأبدع، وكان وفياً ذكَّاراً للجميل، فأودع شعره كل حلَّةٍ محمودة خلَّد بها ذكر المحسنين إليه ولا سيما منظور الذي عني به أثناء رمله في إيثاكة، قال هيرودوتس: «جعل هوميروس منظور في منظومته الأوديسية رفيقاً لأوديس، وأبرزه بمظهر من الصدق والوفاء عظيم حتى أن ملك إيثاكة استخلفه على بيته وعياله عند ما شخص في من شخص إلى طروادة».

فلهج الناس في كل قطر بذكر هوميروس حتى ملأت شهرته بلاد يونيا، وبلغت هيلادة، فأوعز إليه أن يقصد إغريقيا، فطرب لذلك الإيعاز فأقلع إلى ساموس، وقضى فيها فصل الشتاء يتكسَّب بالإنشاد في منازل الأغنياء.

مرضه ووفاته

ولما انقضى الشتاء عوَّل على السفر إلى أثينا فركب سفينة مع جماعة من أهل ساموس، فبلغوا جزيرة يوس وأرسوا في مضيق على مقربة

من الثغر ففاجأ هوميروس الداء، فنزل إلى البر وانطرح على الجرف، ولم تقو السفينة على مواصلة السير لشدة الأنواء، فأقاموا أيامًا في مكانهم وأهل الجزيرة يتهافتون أفواجًا لمحادثة هوميروس، وقد بلغ بهم الإعجاب منتهاه لما كان ينثر عليهم من غرر الأقوال ودرر الأمثال، ولكنه ما لبث أن توفي لاشتداد الداء، فاجتمع رفاقه وأهل الجزيرة ودفنوه قرب الشاطئ.

ولما مرّت السنون وذوت نضارة الشعر، وانحطت منزلته اجتمع أهل الجزيرة إلى قبر هوميروس، فنقشوا عليه بيتين من الشعر معناهما: إن من هذا النبات الأخضر غطاء للرأس المقدس رأس الشاعر هوميروس شبيه الآلهة الذي كان يتغنى بمدح الملوك والأبطال.

فذلك ما تقدم

تلك خلاصة ترجمة هوميروس بنص هيرودوتس، وهي وإن كانت لجلائها وصراحتها وتقدم عهدا أخرى بالثقة مما سواها فإنها لم تخل من مظان اعتراض رماها بها المتقدمون فضلاً عن المتأخرين، ولكن جلّ ما يعترض به مقصودٌ على العرض لا يكاد يتناول الجوهر بشيء، قال هيرودوتس: «إن تسثوريذس عكف على نسخ منظوم هوميروس مع أنه لم يثبت قط أن اليونان كتبوا لعهد هوميروس؛ لأن الحروف الفينيقية لم تشع عندهم إلا بعد حين». على أن هذا القول لا يعبت بأساس الرواية إذ المراد إثبات أن تسثوريذس كان سارقًا فسيان إذن أن يكون ناسخًا أو

مستظهرًا، وزعم بعضهم أن تلك السيرة كتبت بعد زمن هيروdotس وعزيت إليه، فعلى فرض ثبوت هذا الزعم فلا ريب أنها كتبت بيد خبير فنسبتها إلى هيروdotس لا تنقض حقائقها، وأما إغفال هيروdotس أمورًا مما أثر عن هوميروس كرحلته إلى مصر، وما أشبه فليس مما يفسد الحوادث التي أثبتها إذ قلما تجد مترجمًا أو مؤرخًا يلم بأحوال مترجمه وأعماله بكلياتها وجزئياتها؛ بل ربما حصل التفاوت في نصوص كتبة الوحي والمحدثين، فإن في كل من الأناجيل شيئًا مما أغفل في غيره، وما كان ذلك لينقض شيئًا من الحقائق المسطرة فيه، ويقال مثل ذلك في السير النبوية والأحاديث.

وحاصل القول أنه كان للقدماء مزاعم كثيرة في هوميروس مما أسند إلى السلف، وتنوّل بالتواتر أو استنبط من فقرات من أناشيده، ولقد أوغل بعضهم في البحث أو الاستنباط حتى وضع سلسلة نسبة رواها سويداس وغيره تتصل من أفلون إلى كريثيس والدة هوميروس، قالوا: «كانت كريثيس ابنة ميون بن فرسيس وفوكميذا ابنة أفلون، وكان فرسيس أخا هسيودس الشاعر وكلاهما من ولد ذيوس بن مينالفس بن أبيفراذس بن أوفيمس بن فيلو تربس بن هرمونيدس بن أرفيوس بن واغروس من القينة قليوبة، وكان واغروس ابنًا لفيروس من الحوراء ميثونة، وفيروس ابنًا للينوس الشاعر، ولينوس هذا من ولد أفلون، وثووسة ابنة فوسيد». تلك نسبة لا يثبت منها مع ما هو متواتر من أقوال المتقدمين إلا أن اسم

والدة هوميروس كان كريثيس ولا علم لهم بأبيه، ولعل هوميروس نفسه لم يكن يعرف أباه وهو شأن كثيرين من نوابغ الأعصر الخالية، ومن جملتهم فرجيليوس نابغة شعراء اللاتين، أما سائر حلقات السلسلة، فإذا استجلي كنهها اتضح منه أنه يُرمى به إلى إعظام قدر الشاعر، وإصاقه بأعلى نسبة يفتخر به، ووصفه بأجل وصف يزين عظام الرجال، فما في تلك السلسلة إلا الشاعر والحكيم والملك والعظيم فضلا عن الآلهة كأفلون صاحب القيثارة وفوسيد رب البحار والمطربات القيان والهور الحسان، وإذا أضفنا إلى ذلك معاني سائر الأسماء كهوميونيدس من رقة النغم وحسن الإيقاع، وفيلوتربس من حب السرور، وإبيفراذس من الذكاء، وفوكميذا من الحكمة علمنا أن واضع تلك السلسلة رمى بها مرمى الأقدمين من التعبير عن الحقيقة بالرمز واللغز وتجسيم الصفات، فكأنه قال: تلك هي أوصاف هوميروس الشاعر الحكيم المطرب العظيم الرحالة الفهامة والمؤرخ العلامة إلى آخر ما هنالك من صفات الإجلال والتبجيل.

وأما سائر الروايات المخالفة لترجمة هيرودوتس فأكثره موضوع لأسباب قد يمكن استجلاء بعضها بالتحري والمقابلة. ولنتخذ مثالا على ذلك زعم بعضهم أنه وُلد في مصر. فإذا علمنا أن مصر كانت لذلك العهد مورد العلم ومنهل الحكمة، ومحط ركاب الطلبة من كل فجّ حقيق، وعرفنا أن رجلاً كهوميروس لا بد من أن يحثه الشوق إليها فيقيم

فيها زمنًا طويلًا ويخالط عامتها وسوقتها فيختبر الخلق والعادة، ويتصل بالكهان والأخبار فيدخر ويستفيد، وثبتت لدينا صحة ذلك من كثرة مآخذه عن المصريين مما نبهنا عليه في مواضعه، ورأينا تهافت القدماء على انتحال نسبة هوميروس إليهم، إذا تبيينًا كل هذا ذهبت عنا غرابة هذا الزعم، ثم إذا تطرقنا إلى النظر في قولهم: «إنه ربي في حجر بيت عظيم الكهنة» على ما تقدم فلا يصعب علينا أن نرى في تلك الرواية تحريفًا لنص التوراة في نشأة موسى الكليم، وكم من رواية على هذه الشاكلة وضعت لنبي أو عظيم، فنقلت فُنُسبت إلى غيره في كل بلاد الله، وتغيرت الأسماء وتحولت المجريات إلى ما يلائم المكان والزمان والأصل واحد.

فلا غرابة بعد هذا في تشعب الأقوال عن شاعر يلهج الناس بذكره منذ نحو ثلاثين قرنًا، وأن تتباين المزاعم في اسمه ولقبه ونشأته وأسرته وسيرته في صباه وشيخوخته. فإذا ولد اختلفوا في أبيه، وإذا دبَّ اختلفوا في ربيه، وإذا شب تنازعتهم الأمصار، وإذا شرع في السباحة قالوا: «رحل فقيرًا على نفقة غيره أو غنيًا على نفقة نفسه». وإذا أنشد الشعر ذهب فريقٌ إلى أنه أنشده مترنمًا محتسبًا كامرئ القيس وعبد يغوث في الجاهلية وابن المعتز وأبي فراس في الإسلام، وقال الأكثرون: «بل تغنى به مستجدًا مكتسبًا كزهير ولبيد والحطيئة ومتنبي المشرق أبي الطيب، ومتنبي المغرب ابن هاني». وهكذا ظلُّوا يتقوّلون في مناحي حياته إلى أن تناولوه ميتًا، فأماتوه بعضهم كمدًا ميتة نحويًا سيبويه، قالوا:

كان شاخصاً إلى ثيبة فخرج على يوس، وإذا بفتية يصطادون سمكاً فسألهم عن مقدار صيدهم فقالوا: «أفلتنا بعدد ما أمسكنا، واصطدنا بعدد ما لم نصطد» فأغلق عليه فهم المراد، وعظم عليه الأمر فمات قهراً.

والخلاصة أن الترجمة المعزوة إلى هيرودوتس هي لدى التحقيق أصدق ما كتب عن سيرة حياته. وليس في ما كتب أرسطوطاليس وإسطنبولون ما يندُّ عنها كثيراً، وأما المدن اليونانية التي أدعته فللكثير منهن نصيبٌ من صحة الدعوى، قال غينيو في مقدمة معجم هوميروس لتيل وهاليز داروس: ١ «أحق البلاد بهوميروس أزمير باعتبار مولده وصباه، وكومة باعتبار شروعه في قرض الشعر، وساقس باعتبار نبوغه في النظم، ويوس بالنظر إلى بقاء وفاته فيها».

تاريخ ظهوره

للمؤرخين أقوالٌ مختلفة في تعيين الزمن الذي ظهر فيه شيخ الشعراء وهي تتراوح بين بدء القرن الثاني عشر والقرن السابع قبل الميلاد، ورواية هيرودوتس القائل أن هوميروس تقدمه بأربعمئة سنة ما زالت أجدرهنَّ جميعاً بالثقة؛ لانطباقها على منقول الثقات من قدماء المؤرخين والأثر المتصل إليهم بالتواتر. فعلى هذا يكون نبوغ هوميروس في منتهى القرن العاشر أو بدء التاسع قبل الميلاد أو نحو سنة ٩٠٠ لأن مولد هيرودوتس كان في أوليات القرن الخامس ق.م. يؤيد ذلك:

(١) أن مؤرخي الرومان مجمعون على أن هوميروس نبغ قبل بناء رومية بقرن ونصف، فإذا أضفنا ذلك إلى ٧٥٣ وهي السنة التي بنيت فيها رومية كان نبوغ هوميروس نحو سنة ٩٠٣ ق.م.

(٢) أن من مرويات شيشرون الروماني أن هوميروس كان معاصراً ليكرغس الشارع اللقدماتوني، وقد أيدَ إسطرابون تلك الرواية، وقال: «إن ليكرغس قصد ساقس طمعاً بمحادثة هوميروس والأخذ عنه، وعهد ليكرغس بين القرنين التاسع والعاشر، ولا يجرح تلك الرواية قول فلوطرخوس الذاهب إلى أن ليكرغس إنما أخذ شعر هوميروس عن حفيد الشاعر، فقد يمكن أن يكون ذلك في حياة الشاعر أو بعدها بقليل».

(٣) يؤخذ من الأنساب المنقولة على قطع الممر التي وجدت في أوائل القرن السابع عشر في جزيرة فاروس في الأرخيل الرومي، والمحفظة في مكتبة أكسفورد أن هوميروس كان حيّاً سنة ٩٠٧ ق.م. ولا غرو أن تكون تلك النقوش موضع ثقة؛ لأنها كتبت باعتناء حكومة أثينا، ودونت فيها أشهر حوادث اليونان من سنة ١٥٨٢ إلى ٢٦٣ ق.م. فإذا ثبت لدينا أن نبوغ هوميروس كان في أخريات القرن العاشر رجح في الظن أن بينه وبين دمار إليون التي سمى الإلياذة باسمها نحوًا

من أربعمئة سنة، وأنه كان معاصرًا لأحاب ملك إسرائيل وسوا ثاني ملوك الدولة الخامسة والعشرين في مصر، وكلٌّ من مصر وفلسطين في ذلك الحين كان في معامع الاضطراب والانقلاب، كما كانت بلاد اليونان في أبَّان سكونها بعد أن ماجت بالجالية المتدفقة إليها تدفق السيل، وهو ولا ريب زمن احتكاك الأفكار وانفجار القرائح بنفيس الأشعار.

منزلته عند القدماء

قال إسطرابون (في الكتاب الأول والفصل الثاني من جغرافيته) «إذا قيل الشاعر عُني به هوميروس». وقد لقبه في أول صفحة من الكتاب المذكور بالفيلسوف، ووضعه في مقدمة الجغرافيين، وقال في موضع آخر: «إن رائد هوميروس إنما كان الحقيقة، وأما الخيال فإنما اتخذته حلية وشئ بها شعره، فبهر بها النواظر فعلقت بها الخواطر، وهذا هو السرُّ في شغف ناشئة اليونان كافةً بمطالعة شعره».^٢ وقال في وصف أزمير: «إن من خطتها ما يدعى بالهوميرويوم وفيه هيكل ونصب لهوميروس، وللأزميريين إعجابٌ به لا يفوقه إعجاب ولهذا صكُّوا نقودًا صُفْرِيَّة يتداولونها وعليها اسمه ورسمه».^٣



الهوميرويوم أو هيكل هوميروس.

وإن في مؤلفات هيرودوتس، وفلوطرخوس، وبلينيوس، وشيشرون وسائر مؤرخي اليونان والرومان ممن نبغ قبل إسطرابون وبعده ما يؤيد كلام إسطرابون أو يربو عليه، وقد روى سيمونيدس ونيوكريدس أن أهالي ساقس شادوا له معبدًا وعبدوه وتداولوا نقوده كما فعل أهل أزمير، وزعموا أن الطائفة المعروفة بالهوميرية إنما كانت من نسله قالوا ذلك تأييدًا لدعواهم فيه كما قال غيرهم: «بل هي طائفة من الشعراء تحدّث هوميروس في النظم والإنشاد».



سليم ما علفه



نقود هوميروس.

وكان أرسطوطاليس في مقدمة المعجبين بهوميروس، وقد ألصق
نسبه بالآلهة فقال: «سُطت طائفة من قرصان أزميز أثناء الجلاء اليوني
على فتاة من جزيرة يوس، وهي حبلى من أحد الآلهة؛ فسيوها واحتملوها
إلى بلدتهم فولدت الشاعر».

وكان الإسكندر المقدوني كلفًا بمطالعة منظومات هوميروس، واستكتب منها نسخة نقحها له أستاذه أرسطوطاليس كان يحتملها معه حيثما توجه، ثم اتخذ لها غلافًا خوذَة مرصعة من أسلاب دارا ملك الفرس فكانت جليسه في حله وأنيسه في ترحاله يتحدى نهج مواقعها، ويترنم ببدائعها ويتمثل بها في كل ما عنَّ له من الأقوال والأفعال، ولطالما كانت تعروه هزة الطرب إذا أنشد بعض أبياتها، ولا سيما بيته القائل بوصف أغاممنون:

مليكٌ بأحوال السياسة عارفٌ عزوم بصماء المعامع جبارٌ

ومن مأثور أقواله وهو واقف إلى قبر آخيل بطل الإلياذة: «طوباك فقد أوتيت منتهى السعادة بقيام شاعر كهوميروس يخلد ذكرك».

وإنك لا تكاد تتصفح كتابًا من كتب الأدب والتاريخ مما كان يوثق به عند قدماء الغرب إلا رأيته مشحونًا بالشواهد المنقولة عن شاعرنا مشفوعة بالإطراء والإكبار، وكانوا يقتبسون من أقواله على نحو ما يقتبس اليهود من التوراة والنصارى من الإنجيل والمسلمون من القرآن والحديث، كل ذلك مما مهّد سبيل إحلاله عندهم ذلك المحل الرفيع حتى تنازعتهم البلاد وشغفت به العباد، وعني الملوك والعلماء بجمع شتات قريضه، وعكف الرفيع والوضيع على إدخاره كنزًا لا ينفد.

وكان فقهاء اليونان ومشرعوها يتجشمون الأسفار؛ لجمع ما تفرق من تلك الغرر في أطراف البلاد فينظمون عقدها ويلقونها على

العامة؛ تهذيباً لأخلاقهم وتثقيفاً لعقولهم والملوك يبذلون لهم المال عوناً لهم على بلوغ تلك الغاية. قالوا: وأول من فعل ذلك ليكرغس لعهد هوميروس أو بعده بقليل، وحذا صولون حذوه ففعل في أثينا فعل ليكرغس في إسبرطة حتى لقد كان يضطر الشعراء أن ينشدوا قطعاً متوالية من هوميروس؛ حفظاً لها في ذهن الأمة واستبقاءً لانتساقها على السياق الذي نظمها به الشاعر. وإن لفيثسيستراتوس ملك أثينا يداً مشكورة في تبويب تلك المنظومات على النمط الذي اتصلت به إلينا، فاتخذ جماعة من كبار العلماء ووسع عليهم في الرزق ليتفرغوا لتلك المهمة، ومن جملة مرويَّات الأعصر الغابرة أنه تألفت طائفة من أدباء اليونان صرفت همها إلى النظر في الشعر الهومييري، فنقحته ونبذت منه الدخيل وألقتة إلى الخلف على ما نراه عليه اليوم، وكانت تلك الطائفة مؤلفة من سبعين عالماً مثلما تألف المجمع السبعيني الذي نقل التوراة من العبرية إلى اليونانية لعهد بطليموس فيلادلفيوس. وأما العامة فإنها تلقت تلك الفرائد تلقياً للآي المنزل، فكانت فكاهتها في مجالسها ومرجعها في مباحثها ومرماها في تثقيف أحداثها وقبلتها في غدوها وآصالها. وما انتشر فن الكتابة حتى انتشرت في النوادي والمنازل فوق انتشارها في أذهان الخلق، فكان الساقط السافل عندهم من خلا رأسه أو منزله من شيء من منظومات هوميروس. وهم يتنافسون بحفظها ويتناشدونها كما تتناشد خاصة الفرس والجمُّ الغفير من عامتهم أقوال

الفردوسي صاحب الشهنامه وسعدي صاحب الكلستان لعهدا هذا أو كما يتناشد أدباؤنا الحكم والأمثال المقتطعة من أقوال نوابغ الشعراء، ومما يروى في هذا الصدد أن الكيياذس القائد اليوناني لم يتمالك وهو فتى أن انهال على أستاذه بالشتم ثم بلغت به الحدة أن ضربه؛ لأنه لم تكن عنده نسخة من شعر هوميروس وهو ذنبٌ في ذلك العصر عظيم، ومن هذا القبيل أيضًا ما يقال عن زويلوس الكاتب إذ تصدى لانتقاد هوميروس في القرن الرابع ق.م. فقامت الأمة وقعدت وقبضت على المنتقد وصلبته ثم رجمته رجمًا، ومهما يكن من صحة هاتين الروايتين ففيهما من المعنى ما لا يخفى على اللبيب.

ولا يظنُّ المطالع أن هوميروس إنما نال تلك الخطوة عند قومه وبني ملته. بل كانت هذه منزلته عند الرومان ومن يليهم من أمم الغرب، فاللاتين كانوا يترنمون بأقواله ترنمهم بشعر نابغتهم فرجيليوس، وما فرجيليوس إلا نابغة من مريدي هوميروس شغف بتلاوة شعره، وكان شاعرًا بليغًا، فنظم الإنياذة على نسق الإلياذة، وأجاد في تحدي أستاذه، وأما أمم أوروبا فإنها أقبلت على ذلك الشعر منذ نشأتها، ولم يتخلل إقبالها فتورًا إلا عقود أعوام معدوداتٍ في بدء النصرانية كما سنبين في باب نقل الإلياذة إلى العربية، وفي ما سوى ذلك كانت منظومات هوميروس ولا تزال عندهم في المنزلة الأولى بين منظومات البشر أجمعين، وكان بعض العامة من الإفرنج في القرون الوسطى يتخذون منها الأحراز والتعاويد،

ويلجئون إلى استخراج المغيبات مما يستنبطون من معاني الأبيات التي تبدو لهم إذا فتحوا كتابه أيًا كانت، وأبلغ من كل ذلك أن لفيقًا من الأطباء المشهود بعلمهم كانوا يعالجون بعض المرضى بالشعر الهومييري، فإذا استوصفوا علاجًا للحمى الرباعية أمروا بوضع نسخة من النشيد الرابع من الإلياذة تحت رأس العليل.

تلك كانت منزلة هوميروس عند اليونان والرومان ومن يليهم من أمم أوروبا.

رأي المتأخرين فيه

لم يزل الشعر الهومييري في المنزلة الأولى بين منظومات الشعراء، وليس بين كتب الأدب والتاريخ والشعر كتاب تداولته الأيدي وتناقلته الألسن، واستشهد به الأدباء والكتبة والمؤرخون ونقل مرارًا متوالية إلى معظم لغات الحضارة نشرًا وشعرًا كديوان هوميروس حتى لقد جعل تدريسه فرضًا في كثير من مدارس القوم تلقَّنه الفتية أصلاً وترجمة، ومما يذكر في هذا الصدد اعتراض بعضهم على إنفاق الساعات الطوال في إلقائه على طلبة جامعة برلين، فلما بلغ ذلك الاعتراض ولهلم الأول قيصر ألمانيا قال: «دعوا الأساتذة يكثروا من تلقين شعر هوميروس فإن الأمة التي يرسخ في ذهنها وصف صبا الأمم على ما يبسطه هوميروس لا يسارع إليها العجز والهرم». ومن أقوال رينان الفيلسوف الفرنسي الحديث: «إذا مر على عهدنا ألف عام انقرضت جميع التأليف التي بين أيدينا، ولم يبق

منها إلا كتاب واحد وهو ديوان هوميروس» وإذا كان المتقدمون قد أطلقوا عليه لقب «الشاعر» فقد لقبه المتأخرون «بأُمير الشعراء» وما انتقاد بعض الكتّاب فقراتٍ متفرقة من شعره إلا مدعاةٌ لزيادة انتشاره واتساع شهرته.

فما سام الشمس العلى حطّةً غمامٌ يسرّ أذيالها

وأما بنو الشرق فهم وإن جهل معظمهم اسم هوميروس فضلاً عن وجود منظوماتٍ له إلا أن ذوي الاطلاع من متأخريهم قدروه حق قدره كما أن بعض علمائهم في الزمان الغابر أعظموا شأنه وأجلّوه، وإنّ صفوة أدبائنا في هذا العصر شاعرون بالحاجة الماسة إلى نقله إلى العربية، ويذكرني هذا حديثاً مع منيف باشا ناظر المعارف العثمانية قال في أثنائه: «لو أن الشاعر العربي القائل: كأني أُميُروسٌ لدين محمدٍ ... عمل حقيقةً للشرق ما عمل هوميروس للغرب لما تعدانا الغرب هذا الشوط البعيد». وقد غاب عنه وعني عرفان ذلك الشاعر، ومما قاله لي السيد جمال الدين الأفغاني في محضرٍ من الأدباء: «إنه ليسرنا جدّاً أن تفعل اليوم ما كان يجب على العرب أن يفعلوا قبل ألف عام ونيّفٍ. ويا حبذا لو أن الأدباء الذين جمعهم المأمون بادروا بادئ بدء إلى نقل الإلياذة، ولو ألجأهم ذلك إلى إهمال نقل الفلسفة اليونانية برمتها». وسأذكر في باب «الإلياذة» سبب إغفال نقلها إلى العربية.

ذلك قول عامة المتقدمين والمتأخرين وخاصتهم في هوميروس وشعره، أما الشعر فلا سبيل إلى إنكاره لأنه موجودٌ يُتلى، وأما هوميروس نفسه فقد قامت طائفة من الباحثين في أواخر القرن الثامن عشر بزعمه أن وُلِّفَ الألماني، وتألَّبت على إنكار وجوده بتاتاً، وما لبث مذهبهم أن انتشر انتشار الشرار ثم ما لبث أن خبا خَبْوَه على ما سنبسطه في الكلام على الإلياذة.

قول العرب فيه

ليس في ما بين أيدينا من التآليف العربية ما يشير إلى أن ديوان هوميروس نُقل إلى لغة العرب، فهو بلا ريب لم يُعَرَّب وإن كان معروفاً عند خاصة العلماء في بغداد لعهد العباسيين إذ كان يتناشده الأدباء من نَقْلَةِ الكتب المقربين من الخلفاء بأصله اليوناني ونقله السرياني، والظاهر أن الإلياذة كانت منتشرة بين الخاصة في بلاد الفرس والكلدان في زمن الدولة العباسية؛ لأن ثاوفيلس الرهاوي الذي نظمها بالسريانية كان منجم المهدي ثالث خلفائهم كما أثبتنا في حواشي الإلياذة ^(٢٥). قال ابن أبي أُصَيْبَةَ في كتابه «عيون الأنباء في طبقات الأطباء» نقلاً عن يوسف بن إبراهيم في ترجمة حنين بن إسحاق أثناء تنكُّر حنين وهو عاكفٌ على درس الطب: ^٤ «فتبَّنت خُرشي (جارية الرشيد الرومية) ذلك الغلام (وهو إسحاق المعروف بابن الخصي) وأدَّبتَه بآداب الروم وقراءة كتبهم، فتعلم اللسان اليوناني علماً كانت له فيه رئاسة، فكنا نجتمع في مجالس أهل

الأدب كثيرًا فوجب لذلك حقه وذمامه، واعتل إسحاق بن الخصي علة فأتيته عائداً، فإني لفي منزله إذ بصرت بإنسان له شعرة قد جللته وقد ستر وجهه عني ببعضها وهو يتردد وينشد شعراً بالرومية لأوميرس رئيس شعراء الروم فشبهت نغمته بنغمة حنين، وكان العهد بحنين قبل ذلك الوقت بأكثر من سنتين، فقلت لإسحاق بن الخصي: هذا حنين فأنكر ذلك إنكاراً يشبه الإقرار، فهتفت بحنين فاستجاب لي».

فيؤخذ مما تقدم أن اليونانية كانت معروفة لذلك العهد في بغداد تقرأ وتُدْرَس حتى في بيوت الخلفاء، وأن منظومات هوميروس كانت معروفة فيها بين المشتغلين بلغات الأجانب ومعظمهم إذ ذاك من النصارى.

وأما سائر ما ذكر عن هوميروس في كتب العرب فليس إلا شذرات مقتطعة من كتب اليونان المعربة برعاية العباسيين والمؤلفات التي وضعها كبار المُعَرِّبين والمؤلفين من الكلدان؛ كابن ماسويه، وابن الخصي، وحنين بن إسحاق، مثال ذلك قول ابن أبي أصيبعة في عيون الأنباء: «وكان الشعراء في ذلك الزمان على ما ذكره حنين بن إسحاق أوميرس إلخ»^٥. وقوله في ترجمة أرسطوطاليس: «ومن كتبه كتاب في مسائل من عويص شعر أوميرس في عشرة أجزاء»^٦. وقوله في ترجمة جالينوس عند ذكر الكتب التي اعترض حنين بن إسحاق على نسبتها إليه: «ومنها كتاب الطب على رأي أوميرس»^٧. ومن هذا القبيل قول

البيروني: «أميروس المتقدم عند اليونانيين كامري القيس عند العرب» ٨. ومثله قول ابن خلدون في مقدمته: ^٩ «إن الشعر لا يختص باللسان العربي بل هو موجود في كل لغة سواء كانت عربية أو عجمية، وقد كان في الفرس شعراء وفي يونان كذلك، وذكر منهم أرسطو في كتاب المنطق أميروس الشاعر وأثنى عليه». ومثله قول ابن أبي أصيبعة: ^{١٠} «قال أفلاطون وقد كان مارينون (أغاممنون) ملك اليونانيين الذي يذكره أميروس الشاعر باسمه وجبروته، وما تهيأ لليونانيين في سلطانه رُمي بشدائد في زمانه وخوارج في سلطانه». ويدرج في هذا الباب قول الشهرستاني: ^{١١} «أميروس الشاعر من القدماء الكبار الذي يجريه أفلاطون وأرسطوطاليس في أعلى المراتب، ويستدلُّ بشعره لما كان يجمع فيه من إتقان المعرفة ومتانة الحكمة، وجودة الرأي وجزالة اللفظ». وأما الشواهد التي أوردها الشهرستاني من كلام هوميروس في كتاب «الملل والنحل» والبهاء العاملي في «الكشكول» فلا شك أن فيها اختباطاً واقتضاباً على نحو ما جرى لكتّاب العرب في أكثر ما استشهدوا به من كلام الأعاجم.

وقد أكثر أبو الفرج الملقب المعروف بابن العبري من ذكر هوميروس في تاريخه حتى دون حكايته مع ماجن سأله أن يهجيّه طمعاً في الشهرة من وراء ذلك الهجو فأبى هوميروس؛ فتهدده بالشكوى إلى رؤساء اليونانيين فضرب له هوميروس مثل الكلب الذي نكل الأسد عن

مبارزته، فقال الكلب: «سأمضي إلى السباع فأشعرهم بضعفك» فأجاب الأسد: «لئن تعيرني السباع بالضعف أحب إليّ من أن ألوث شاربي بدمك». ١٢

وخلاصة القول أن هوميروس كان له شأنٌ مذكور عند نقلة الكتب من بطانة الخلفاء، ولكن إمام أدباء العرب بأقواله كان إمامًا ناقصًا بقي منحصرًا في أفراد معدودين من كبار الكلدان. وأما منظوماته فالثابت أنها لم تُعَرَّب.

منظوماته

نقصر الكلام في هذا الباب على الإلماع إلى ما نُسب لصاحب الإلياذة من الشعر مما ثبت له ومما لم يثبت، وأما البحث في شعره من حيث هو وأساليبه وطرائق نظمه وتشابيهه واستعاراته وفائدة ذلك للعلم والتاريخ والآداب، فنستقيه إلى الكلام على الإلياذة بُعيد هذا.

إن لهوميروس منظومات كثيرة لا غرو أن يكون المفقود منها شيئًا كثيرًا، فإن العلماء ما زالوا حتى الآن يعثرون حينًا بعد حين على قطع مبعثرة في عاديّات القدماء من تلك القطع المختزنة في دفائن الأرض، وإن العهد لقريب بالعثور على مقاطيع مكتوبة على ورق البردي في عاديّات مصر مما لم يدرج في ديوانه، على أن درة تلك القلادة إنما هي الإلياذة بلا خلاف. بل هي كانت ولا تزال درّة عقد ما نظم الشعراء في كل عصر وبلاد مما تقدم زمن هوميروس وما تأخر عنه.

الأوذيسية

ويتلوها الأوذيسية وهي ملحمة تقصر عن الإلياذة بضعة آلاف من الأبيات يغلب على الظن أن الشاعر نظمها في شيخوخته، وموضوعها رحلة أوديس أثناء عودته إلى بلاده بعد انتهاء حرب طروادة، والقصة بأجمعها لا تتناول إلا أربعين يومًا ولكن فيها من الحقائق وتنوع المباحث ما يكاد يعادل الإلياذة، وهي كشقيقتها في أربعة وعشرين نشيدًا، ولكنها باعتبار وقائعها تقسم إلى أربعة أقسام؛ يشتمل القسم الأول منها على ما حصل لأوديس في منتهى المدة الطويلة التي نزل بها على الإلاهة كاليسو في جزيرة أوجيجيا، وعشاق امرأته ساعون إذا ذاك في تبديد ثروته وتقويض دعائم ملكه، وابنه تليماخوس وهو فتى يافع مهتم في إحباط مساعيهم حتى إذا أعيته الحيلة شخص بإيعاز آثينا إلهة الحكمة إلى فيلوس وإسبرطة متطلعًا أخبار أبيه. وفي القسم الثاني وصف مغادرة أوديس لجزيرة أوجيجيا وبلوغه بلاد الفاقين حيث نزل وقص عليهم خبره، ثم غادرهم إلى إيثاكة مقر حكمه، وفي القسم الثالث تفصيل الخطة التي اختطها هو وابنه تليماخوس في منزل خادمه الأمين الراعي أفميوس للضرب على أيدي أولئك البغاة، وفي القسم الرابع وصف انتقامه منهم واستقراره في ملكه.

معارضة الأوديسية بالإلياذة

إن بين الأوديسية والإلياذة شبهًا كبيرًا في النهج والسياق مما يدل على أن الناظم واحد، فكلاهما قائمة على أساس بسيط مرجعه إلى موضوع واحد، ففي الإلياذة «كيد أخيل» وفي الأوديسية «رحلة أوديس» وعلى هذين الأمرين مدار جميع حوادث الروائيتين بما تخللهما من القصص والتاريخ، وما وراء الطبيعة ودونها، وكل واحدة من الروائيتين منحصرة الوقائع في أيام قليلة في منصرم أعوام طوال، فالإلياذة لا تتناول سوى ستة وخمسين يومًا من حصار عشر سنين، والأوديسية لا تتجاوز في مدتها الأربعين يومًا من رحلة أوديس، وكما أن مطالع الإلياذة يلمّ استطرادًا بتاريخ ذلك الحصار وما تقدمه وما يليه، ويتمثل حالة البلاد بالنظر إلى التاريخ والجغرافية والدين والآداب والأخلاق والعادات، فكذلك يحيط مطالع الأوديسية علمًا بما لقي أوديس في تلك الرحلة منذ نزل بكاليبسو فشغفت به وأمسكته في جزيرتها سبعة أعوام، ويقف على حالة البلاد التي ألقته الأقدار إليها، وينزل إلى أعماق الجحيم، ويصعد إلى أعالي السماوات، ويطوف حول الأرضين تطواف الشاهد البصير، وكلاهما متماسكة الأجزاء مترابطة المعاني لا تقرأ نشيدًا منهما إلا أنست به نفس سائر الأناشيد، ومع هذا فقد يُعترض على وحدة الناظم بما بين اللحمتين من التباين في قوة التركيب وحدة التصور وجزالة اللفظ، فإن الإلياذة في كل ذلك فوق شقيقتها، وإنما هو اعتراض مردود

بشوت أن الإلياذة متقدمة على الأوديسية نظمها الشاعر في أبان عمره ومخيلته على نصارتها ومادته بمعظم غزارتها، ولكن في الأوديسية من إصابة المرمى، وسداد الرأي، ورسوخ الحكم، وسعة العلم ما لا يقصر عما في الإلياذة.

سائر منظومه

وأما سائر المنظومات المعزوة إلى هوميروس فسواء ثبتت له أو لم تثبت فلا تزيد رفعةً وشأنًا بل خيرٌ له أن لا تكون له، والراجح عند أهل التحقيق أنها من غير نظمه، وإن نسب هيرودوتس بعضها «كحرب الضفادع والفيран» و«حرب الزراير» وجماعة «الكركوفة» وهي قصائد لا تتجاوز المئات من الأبيات، وليس فيها شيء مما يدل على أنها من نتائج تلك القريحة السيالة والذهن المتوقد. ونسبتها إلى الإلياذة والأوديسية كنسبة بعض قصائد المتنبى المنظومة في صباه والمثبتة في أول ديوانه إلى سائر قصائده الرائعة. وقد ذهب أرسطوطاليس إلى أن هوميروس نبغ في الشعر الهزلي نبوغه في الشعر القصصي، واستدلوا على ذلك بالمنظومة «مَرَجِيتس» وهي قصيدة يصف فيها الناظم رحلة مرجيتس الغني المتغطرس، ولم يبق منها إلا أجزاء متقطعة.

ومما ينسب إليه أيضًا ثلاثة وثلاثون مزمورًا ترنم فيها بمدح الآلهة، وقص فيها بعض أخبارهم، وترسل بالابتهال إلى أفلون، وعطارد (هرمس) والزهرة، وذيميتير، والمريخ (آريس) وأثينا، وهيرا، وهرقل قلب

الأسد، وإسقليبيوس إله الطب، وهيفست إله النار، وفوسيد وزفس،
والشمس والقمر والأرض وهمَّ جرّا.

وقد نسبوا إليه أيضاً بعض مقاطيع وأهاجي في أبيات قليلة،
والأظهر أن تلك المقاطيع والزبور وأشباهاها مما ألصق بديوان هوميروس
لجهل رواتها أسماء أصحابها.

الإلياذة

تمهيد

الإلياذة أو الإلياس نسبةً يونانية إلى إليون عاصمة بلاد الطرواد، وهي الملحمة التي نحن بصددھا وضعھا هوميروس على أسلوب بسيط وبنائها على موضوع واحد هو «غيظ آخيل أو احتدامه» ونهج بها نهجاً متناسقاً قص في أثنائه حوادث متسلسلة لا تتشعب وقائعها بتعدد الأشخاص مهما كثروا وكثرت. فهي بهذا المعنى سلسلة واحدة من أولھا إلى آخرھا، وهو مذهب معظم الرواة والقصاصين من القدماء، ولا سيما الشرقيين لميلهم إلى البسيط من القصص بخلاف رواة الأوروبيين في العصر الحديثه فإنهم يفرعون الحوادث ويكثرون من تدخل الأشخاص بوقائع متشعبة مما يئول في نظرهم إلى زيادة تفككه القارئ، ولعل المتأخرين مصييون برأيهم هذا في الزمن الحاضر وخصوصاً؛ لأنهم بعد انتشار فن الطباعة أصبحوا في غنى عن استظهار أقاصيصهم على نحو ما كان القدماء يحفظون رواياتهم حرفاً حرفاً عن ظهور قلوبهم. ومعلوم أن البسيط المتناسق أسهل حفظاً من المركب المتشعب.

ولا بد لنا قبل بسط موضوع الإلياذة من الإلماع إلى حرب طروادة تلك الحرب التي خلد هوميروس ذكرھا باقتطاع شذرة منها موضوعاً لأناشيده.

كانت مملكة طروادة أثناء تلك الحرب ممتدة من جنوبي آسيا الصغرى إلى الهِلِسْبُنْطُس وهو مضيق الدردنيل، وملكها فريام وقاعدتها إليون، وتدعى أيضاً طروبيا (أو طروادة) وقد غفت آثارها منذ قرون، ولكنه قد يؤخذ مما تُوصَل إليه بالبحث أنها كانت واقعة في سفح الجبل القائمة عليه الآن قرية بونار باشي.

أما بلاد الإغريق فكانت ممالك صغيرة تتحالف أحياناً وتتشاق أخرى، وبينها وبين بلاد الطرواد صلة تجارة ونسب، وحدث أن منيلاوس ملك إسبرطة غاب عن عاصمته في مهمّة، وأن فاريس بن فريام أوفد برسالة إلى إسبرطة، فنزل ضيفاً على منيلاوس وهو غائب وما زال بهيلانة امرأة فاريس حتى استهواها فأحبته ووافقته على الفرار معه إلى بلاده. فقامت الإغريق وقعدت لذلك النبأ. ولما أعتيهم الحيلة في استخلاص هيلانة تأهبوا للحرب، واستصرخوا جميع قبائلهم؛ ففزع إليهم القاضي والداني، وعقدوا لأغاممنون أخي منيلاوس وملك ميكينيا، فكانت الرئاسة إليه منذ نشوب الحرب إلى أن خبت جذوتها بدمار إليون، فساروا جيشاً كثيفاً يعيشون في بلاد الطرواد يخربون المدائن ويقتلون الرجال، ويسبون النساء، وينهبون الأموال إلى أن بلغوا إليون العاصمة فحاصروها وأقاموا على حصارها عشر سنين. فساءت حال الفريقين، ونفدت الأرزاق وبادت المقاتلة، وكاد الإغريق ينشون إلى أهلهم ويقنعون بسلامة من بقي منهم لو لم يوافهم داهيتهم أوديس بخدعةٍ مكنتهم من فتح إليون.

موضوعها

تناول هوميروس أياً ما قلائل من السنة العاشرة لحصار إليون وبنى عليها منظومته وشرع فيها بقوله:

ربة الشعر عن آخيل بن فيلا أنشدنا وأروي احتداماً وبيلاً

إشارة منه إلى أنه سيدور حول ذلك الاحتدام منذ اتقد إلى أن خمد. وهو موضوع يكاد يحسبه شعراؤنا تفهها لبساطته، ويعجبون لقريحة علقته به؛ فأنتجت نحواً من ستة عشر ألف شطرٍ أو شعر مع أن معلقة امرئ القيس ومطلعها ينبئ بمجموع أوسع وموضوع أجمع تقصر بجمالها عن مئة بيت. وإنك مع هذا إذا طالعت الإلياذة كلها لا تكاد ترى فيها حشواً ولغواً بل لا تتمالك أن تستزيد منها في مواضع كثيرة.

ومجمل القصة أنه كان في جملة السبايا فتاة جميلة وقعت في سهم آخيل عنتره الإغريق، فانتزعها منه أغاممنون زعيم الزعماء، واستخلصها لنفسه فعظم الأمر على آخيل وكاد يبطش بأغاممنون لولا أن أثينا إلهة الحكمة هبطت من السماء وصدته قسراً، فانكفأ عنه واعتزل القتال هو وعشائره، فحمي وطيس الحرب بين الإغريق والطوراد وأخيل في عزله يتحرق غيظاً؛ فاشتدت عزيمة الطوراد لاحتجاب آخيل فنكّلوا بالإغريق في مواقع كانت الغلبة في معظمها لهم، فلما ثقلت الوطأة على الإغريق أوفدوا الوفود استرضاءً لأخيل فما زاد إلا عتواً وكبراً، فوقعت هيبة هكتور زعيم الطوراد وابن ملكهم فريام في قلوب الإغريق وما زالت

تتوالى له الغلبة بعد الغلبة حتى كاد يحرق سفائنهم ويردهم خائبين . وكان لأخيل صديقٌ حميم هو فطرقل فتى جمع بين كرم الخلال وبسالة الأبطال صحب أخيل في معتزله، وهو مع هذا يتلظى أسى لنكبة قومه ويستغفر أخيل للأخذ بيدهم، وأخيل كالحجر الأصم لا يرقُّ ولا يلين . ولما اشتدت الأزمة على الإغريق وكاد يقضى عليهم جعل فطرقل ينتحب كالطفل؛ فأذن له أخيل أن يتقلد سلاحه ويحمل على الطرواد بجند المرامدة قوم أخيل . فحمل عليهم حملةً مزقت شملهم وردتهم على أعقابهم، وإذا به خرَّ قتيلا أمام هكتور فدارت الدائرة بموته على قومه فولّوا مدبرين وهكتور يضرب في أردافهم، ولما علم أخيل بموت فطرقل قتيلا تسعر حزناً على حليف وده، والنهب حقداً على الطرواد وتحول غضبه من عن الإغريق إليهم، ونهض للأخذ بالثأر فصالح أغاممنون وأغار على الطرواد فبطش بهم بطش الأسود بالحملان؛ فلاذوا بالفرار وتحصنوا في معاقلهم ما خلا هكتور فإنه برز له فقتله أخيل ومثّل به، ولكنه ما لبث أن سكن جأشه وخبا غيظه، فانقلب ذلك الغيظ رفقاً وعطفاً إذ رقّ لشبية فريام فألقى إليه بجثة ابنه وسيره آمناً، فانتهت القصة بسكونٍ وسلام.

نظمها وتناقلها

إذن لزم من تماسك أجزاء الإلياذة أن تكون منظومة واحدة، فلا يلزم أن تكون نظمت وأنشدت جزءاً واحداً، ولا يؤثر على مجموعها أن

تكون أنشدت في قطر واحد أو أقطار مختلفة، فهذا نقلها العربي وما هو بالشيء المذكور إزاء الأصل اليوناني، وقد نظم في أربع من قارات الأرض. ولا فرق أن يكون الشاعر نظمها تطرُّبًا بمعانيها أو تطلُّبًا بأغانيها. تلك جميعها مباحث لا فعل لها في جوهر الإلياذة، فليس لنا هنا أن نطيل النظر فيها. وإنما يجب النظر في طريقة اتصالها على سعتها من السلف إلى الخلف.

ذهب برتلمي سنت هيلر^{١٣} إلى أن اليونان كانوا يكتبون لعهد هوميروس، وهو قولٌ لم يؤيده أثرٌ حتى الساعة. ومع هذا فعلى فرض صحة هذا المذهب فإن الكتابة عندهم كانت في زمن طفولية لا تكاد تتسع إلا لتدوين ما عظم من حوادث التاريخ، وإلا لخلفت ولو أثراً ضعيفاً كما خلّفت في مصر وبابل. فلا ريب إذن أنها إنما حُفظت أولاً في أذهان الرواة فتناقلوها جيلاً عن جيل.

وقد يُستغرب تناقل الإلياذة في أول أمرها استظهاراً على ما فيها من كثرة الأبيات واتساع المباحث وتنوع الأحاديث. على أنه يتضح لدى التروي أن ذلك الاتساع كان من مسهلات حفظها وعلوقها في ذاكرة المنشدين. وهو ثابت أن الإنشاد مهنةٌ كانت ولا تزال شائعة بين أجيال شتى من الناس. وكان للرواة والمنشدين منزلةٌ يحسدون عليها؛ ولهذا تطالَّ إليها كل ذي علم واسع وذاكرة نيرة. وكثيراً ما كانت باب رزق لكل

ضرب كُفَّ نظره، فتحوّل نور بصره إلى بصيرته، فادخرت في محفوظها ما تقصر عن رسمه أقلام الخطّاطين.

ذكر سقراط وأفلاطون وغيرهما أن المنشدين كانوا يتهافتون إلى مجتمعات الناس في أثينا وسائر مدن اليونان فينشدون ما حفظوه من الإلياذة وغيرها، وكان قيام هؤلاء المنشدين بين العامة والخاصة من لوازم كل احتفال وطني وعيد ديني. فتقام لهم في أثينا وساقس وتيوس وأرخمينا، ومدائن أخرى أسواق كسوق عكاظ ومربد البصرة يتناظرون فيها، وتُعَدُّ لهم الجوائز السنوية فيحرزها المبرّز منهم، ويحرص عليها حرص الفائز بإكليل الغار بعد الانتصار، ولطالما كان يجنح الواحد منهم إلى التغني ببطل معين أو روايةٍ مخصوصة، فيفني العمر بالقائها حيناً بعد حين على ما هو اليوم شأن القصّاصين في مصر، وبر الشام، والأقطار العجمية، ويؤخذ على ذلك دليلٌ من نفس هوميروس إذ أنطق أوديس في الأوديسية (ن ٩ — ١٢) بما يربو على ألفين ومئتي بيت نفساً واحداً. على أنه لا يلزم مما تقدّم أن راوياً واحداً ينشد الإلياذة كلها أو يحفظها لهذا الغرض.

وقد أسهب مثفرد^{١٥} وغروت^{١٥} وغيرهما في ذكر الأدلة الساطعة على إمكان بقاء الإلياذة محفوظة في الأذهان قبل شيوع الكتابة مما لا متّسع لنا لنقله، وحسبنا إيراد شيء من الأدلة الحديثة منها، وما يتصل بأزماننا مما يرتاح إليه قراؤنا ولا سيما العرب منهم.

العميان وإنشاد الشعر

بحث فُورِيل^{١٦} في الأغاني اليونانية في الأعصر الأخيرة، فقال في مقدمته: «أنها لا تزال على ما كانت عليه في سالف الزمن، والغريب أنها بقيت مهنة العميان، وهي مهنةٌ تحببهم إلى الناس بل تجعل لهم مقامًا ذا نفع بالنظر إلى حالة الأمة وأخلاقها وتصوراتها، وشأنهم التنقل من بلد إلى آخر فيطوفون أطراف بلاد اليونان وجزرها وهمُّهم استظهار جميع ما وسعه ذهنهم من الأشعار والأناشيد القديمة والحديثة، فكلهم يعرف منها شيئًا كثيرًا، ويبلغ ما يحفظه بعضهم إلى حد الغرابة والإعجاز. فإذا ذخروا هذه الأغاني، فإنما ادخروا كنزًا ثمينًا يطوفون به فيلقونه بضاعة ذات قيمة وحيثما حلوا اجتمعت الناس إليهم، فيأخذون في الإنشاد بما وافق المقام ويتعشون بما ينفعهم به مستمعوهم، وهم في الغالب يؤثرون الإنشاد بين عامة الناس؛ لأن العامة أكثر إقبالًا عليهم وأقلُّ تعنتًا في انتقاء المواضيع، ولا يزالون كما كانوا لعهد هوميروس يتغنون على نغم القيثارة أو الكنَّارة، وهم فئتان: فئة تنشد محفوظها من شعر الشعراء، وهي الفئة الكبرى، وفئة قليلة تنشد من محفوظها ومنظومها وهي أرفع منزلة وأوسع جاهًا، وهكذا فإن هؤلاء المطربين هم الآن كما كانوا في القدم رواة الأخبار والتواريخ وشعراء الأمة».

حفاظ الشعر عند سائر الأمم وخصوصاً العرب

قال غريم: ^{١٧} «إن الألمان كانوا يسلكون هذا المسلك وإن الأناشيد الجرمانية كانت تنشد كأناشيد اليونان على نغم القيثارة».

ومن قول فوريل أيضاً: ^{١٨} «إن الروايات والقصص كانت تنشد في فرنسا على هذا النمط في القرنين الثاني عشر والثالث عشر، وكان الراوي إذا أراد الإنشاد دعا الجماعة إلى استماع أغنية تاريخ جميلة (une belle chanson d'histoire) ثم يتغنى على نغم شبابة عربية ذات ثلاثة أوتار، وإذا أخذ فيه العياء ظل ينغم زمناً بلا إنشاد. تلك كانت الوسيلة المثلى لإلقاء الروايات والأقاصيص».

ونقل إلكسندر شدركو: ^{١٩} «إن حفاظ العجم يتلون لك من شعر شعرائهم ما لا تكاد تصدق أن ذاكرةً تعيه لكثرت، فقد يظل المنشد يتغنى بأشعار الشهنامة (وهي إلياذة الفرس) نهائراً كاملاً» وما أدراك كم بيتاً يقال في نهار.

أما العرب فلم يكن في أمة من أمم الأرض شأنٌ للإنشاد أرفع منه عندهم، وهذه أخبار عكاظ والمربد تملأ الأسفار بصرف النظر عن أخبار الشعراء المنبشرين في كل أصقاع البلاد العربية لا مهنة لهم إلا إنشاد الشعر. وهذه أخبار الخلفاء، وقد كان ما يجيزون به الشعراء من أبواب النفقة الطائلة مما لا يبقى معه ريب أن إنشاد الشعر كان الضالة المنشودة والمفخرة التي يتسابق إليها الرفيع والوضيع.

وإذا طالعت أخبار الشعراء المُترجمين في كتاب الأغاني وغيره رأيت بعضهم كهوميروس أميين لا يقرءون ولا يكتبون؛ بل ربما احتاج أبلغهم إلى قارئ صغير كما فعل طرفة بن العبد والمتلمس أثناء شخوصهما إلى عمرو بن هند ملك الحيرة إذ اضطرا إلى استرضاء غلام حدث ليقرأ لهما كتابًا، وكلاهما من فحول الشعراء (شرح الإلياذة ص: ٤٤٩) وهؤلاء أصحاب المعلقات والمجمهرات والملحقات كان فريق كثير منهم أميًا.

وأما مبلغ الذاكرة عندهم فمما لا يفوقه شيء في أخبار اليونان والرومان والإفرنج، وفي أخبارهم ما لو حذف منه شيء كثير لربا باقيه على مرويات اليونان قديمهم وحديثهم. فإذا علمت أن أبا العلاء المعري سمع محاورة إسرائيليين بالعبرية، وهو في شأن غير شأنهما ثم طلب بعد مدة مديدة للشهادة، فأعاد تلك المحاورة وهو لا يفقه من العبرية حرفًا - إذا علمت ذلك فما ظنك تعي ذاكرته من الشعر لو توخى الحفظ - وإذا قيل لك أن الإلياذة مؤلفة من زهاء ستة عشر ألف بيت؛ فيصعب الأخذ بقول القائلين أنه أمكن استظهارها فما بالك لو سمعت ما ذكروا عن غرائب حافظة حمّاد الراوية إذ امتحنه الوليد بن يزيد، ووكل به من يسمع إنشاده فأنشد تباعًا ألفين وتسعمائة قصيدة من شعر الجاهلية. أو لو قيل لك أن الأصمعي كان يحفظ ستة عشر ألف أرجوزة كاملة ما خلا

القصائد والمقاطيع وأخبار العرب بدوهم وحضرهم. وهذا قولٌ مهمما أنس فيه من المبالغة لا يخلو من صحة بعضها كافٍ لإثبات ما نتوخاه.

هذا وإني ممن يعتقدون انحطاط قوى الذاكرة وارتقاء قوى المخيلة في أزماننا هذه بناءً على الناموس القاضي بتلقي القوى البشرية وانحطاطها بكثرة المزاوله وقتلتها. ومع هذا فالحافظة مهمما ولدت خاملة لا تلبث أن تقوى بالمثابرة على الاستظهار، فمثلها في تدرُّجها من الضعف إلى القوة مثل يد النجار والحداد وقلم الكاتب. وفي عصرنا هذا من حَقَّاق التوراة والإنجيل والقرآن مئاتٌ وألوفٌ عرفتُ بعضهم بالذات، ولقد طالما اضطررت في حينٍ من الزمن إلى مراجعة خبرٍ أو آية في التوراة وإلى جانبي المرحوم المعلم داود الحاج، فكنت إذا ذكرت له طرفاً مما أريد أشار فوراً إلى السفر والفصل، وكثيراً ما كان يعين العدد؛ فأتصفح الكتاب فإذا هو كما قال. وحفظة القرآن منتشرون في كل صقع من بلاد الإسلام، ومنهم الجرم الغفير من كفيافي البصر كرواة سائر الأمم. ويقال مثل ذلك في حفظة الإنجيل من المسيحيين، ولا سيما وعَّاظ الإنجيليين.

أما رواة الشعر فهم في البلاد الشرقية أكثر منهم في أقطار الغرب حيث قصت الكتابة على الاستظهار القديم، وقد شهدت بنفسي مصداق قول شذركو في منشدي الفرس، فإذا جلست إلى الواحد منهم

وهو ينشد شعر الفردوسي أو جلال الدين الرومي أو قصص كلستان
سعدي شعرًا ونثرًا لظننته يتلو كتابًا يتصفحه حرفًا حرفًا.

وإذا جلت في بادية العرب وسمعت منشديهم ينشدون على نغم
ربابتهم ألوفاً من الأشعار قلت: تلك كنارة هوميروس، وهؤلاء لا أولئك
هم المنشدون الذين ذكرهم سقراط وأفلاطون، ومثفرد وغروت وفوريل،
وغرم وشدزكو.

ولقد تيسر لي أثناء تجولي بينهم أن التقطت منهم قصائد شتى
جمعتها في ديوان سأمثل منتخباته بالطبع، وكثيرًا ما كنت أسمع القصيدة
من غير راوٍ فإذا هي هي.

وليس بالأمر اليسير بإزاء ما تقدم محفوظ زجالي مصر، وقوالي
لبنان، وشعراء أهل الأرياف في إسبانيا والبرتغال، فقد استبقت الذاكرة
بضع قصائد بل مطالع من معنى اللبنانيين مما علق بها في الصغر منذ
بضعة عقود من السنين فاستنشدتها بعضهم في الصيف الماضي فإذا هي
عندهم على حالها لم تزد ولم تنقص.

وقد ذكر كتاب الإفرنج كثيرين ممن عُنوا بحفظ كتابٍ أو منظومةٍ
فما لبثوا أن أدركوا بغيتهم كما كولي (Maenuly) الذي أنشد نصف
منظومة ملتن الإنجليزية في الفردوس الغابر. وإذا ساغ لي أن أذكر لنفسي
ولرفاقي في الصغر مثلاً من ذلك قلت: إننا كنا نتسابق إلى حفظ ملحمة
ملتن المذكورة حتى تيسر لي مرةً سرد نشيدٍ كاملٍ منها، ونصف الثاني مع

قسم غير يسير من منظومة سيدة البحيرة لولتر سكت. وكان أستاذنا العم
المرحوم المعلم بطرس البستاني يشوقنا إلى حفظ ألفية ابن مالك، وما
زال بي حتى استظهرتها واستنشدني منها مئتي بيت تبعاً في حفلة
امتحان.

وليس ما أذكره في هذا الباب على سبيل الاستطراد شيئاً مذكوراً
بإزاء محفوظ الرواة الذين لا همَّ لهم إلا اختزان الشعر والقصص في
حوافظهم، فالمنظومات فيها كالمتاع المنضود في حانوت حافل بأصناف
المنسوجات ينشرون منها ما شاءوا أيّان شاءوا على نية أن يطووه إلى
موضعه. وكلما نشره مرة زاد زهاء ورواء، وإذا تلقّاه أحدٌ عنهم فإنما
يتلقى رسمه، والأصل باقٍ في ملكهم لا تبلغه يد مشترٍ أو سارق. فأمثال
هؤلاء هم الذين استبقوا للخلف منظومات هوميروس إلى أن كُتبت.

جمعها وكتابتها

إذا علمت كيف تهافت الحكماء والعظماء على تلقي الإلياذة
وتلقينها للناس يوم لم يكونوا يكتبون، وعرفت كيف أكبَّ الحفاظ على
ادخارها تبادر إلى ذهنك أنه لم تكد الكتابة تنتشر في بلاد القوم حتى
أقبلوا على جمعها وتدوينها، وإن لنا في الأثر أمثلة أخرى مما تلي وانتشر
قبل أن يجمع في كتاب ليحفظ ويُنقل أو نبذ فأهمل. وليس هذا خاصاً
بالشعر بل قد تُتناقل الحكم والروايات النثرية قروناً طوياً. وهكذا

حفظت تواريخ الجرمان والسكنديناف، ومنظوماتهم قروناً قبل أن يدوّن منها شيء في كتاب.^{٢٠}

وهو معلومٌ أيضاً أن القرآن على غزارة مادّته، وتشابه آياته انتشر ورسخ في حواظ الصحابة كاتبهم وأميهم بل ربما كان أرسخ في ذهن الأمي.

وليس لدينا شيء مما يمكن معه تعيين الزمن الذي بوشر فيه بكتابة الإلياذة، ولا شك أن فيسيستراتس كان من صفوة المتشغلين بهذا العمل الخطير كما تقدم حتى لقد عثروا في بعض مخطوطات رومية على أسماء أربعة من الشعراء استعان بهم على ضبط منظومات هوميروس، وهم: أونومكريثس، وزوفيرس، وأرفيوس، وكُنكيلوس، ولكن الظاهر أن نسخة فيسيستراتس لم تكن النسخة الأولى، وأنه شرع في كتابة تلك المنظومات منذ أواسط القرن السابع ق.م. أي قبل نحو قرن كامل، ولا ريب أن من ولي صولون إلى زمن فيسيستراتس جمعوا منها نسخاً مما ذكره علماء مدرسة الإسكندرية أو أغفلوه؛ بل لعل الكتابة في زمن صولون نفسه كانت تتسع إلى مثل هذه الغاية. وأن جميع معاصري فيسيستراتس أثنوا الثناء الجميل على ما فعل، ولكن الغريب أن علماء الإسكندرية لم يذكروا نسخته في جملة ما حسبه من النسخ التي كانت بين أيديهم، فإما إنها لم تصل إليهم وهو محالٌ مع شهرتها، وإما إنهم كانوا يعلمون أنها إنما كانت نسخةً تقدمتها نسخٌ كثيرة؛ فأغفلت في

جملة ما أُغفل وهو الأظهر، وكانت في الإسكندرية إذ ذاك نسخٌ شتى نقلت عن مجموعات أرغس وخيوس (ساقس) وأكرت، وقبرص، وغيرها من مدائن اليونان مما يدل على سعة الانتشار. فعمد علماء الإسكندرية إلى تلك النسخ ومن جملتها النسخة التي كتبها أرسطوطاليس للإسكندر، وقابلوها بعضاً على بعض ثم وضعوا النسخة التي تداولتها الأيدي إلى هذا الزمن. وكانوا رهطاً من فحول العلماء، بل كانوا أعلم أبناء زمانهم كزينودوتس الأفسسي، وأرسطوقارنس البيزنطي، وأعلمهم طراً أرسطرخس السامثراقي وهو الذي قسم كلا من الإلياذة والأوديسية على ما قيل إلى أربعة وعشرين نشيداً^{٢١} على عدد حروف الهجاء عندهم.

القول في سلامتها من التحريف والتصحيف

لم يُعن البشر في زمن من الأزمان بنسخ كتاب وتمحيصه وحفظه ونشره عنايتهم بالإلياذة وأختها الأوديسية، ولا يستثنى من هذا الإطلاق إلا الكتب التي رُفعت عليها أسس الأديان كالتوراة، والإنجيل، والقرآن، ومع هذا فلست ممن يقول بسلامة الإلياذة بجميع أجزائها من كل تحريف وتصحيف أو زيادة ونقصان، وأيُّ كتاب أجمع الناس على أنه لم تعبث به قطُّ يدُ كاتب، ولم تتنبه جائحة زمان، أفليس في بعض نسخ التوراة عباراتٌ مختلفاتٌ عنها في نسخ أخرى، وإن منها أسفاراً كاملة يعدّها فريقٌ قانونية وينكر ذلك فريقٌ آخر، أوليس من يقول بضياع بضعة أناجيل، واختلاط أسفارٍ أخرى من العهد الجديد، ومن ينكر عناية

الخليفتين: أبي بكر الصديق، وعمر بن الخطاب في جمع أجزاء القرآن في صحفٍ مكتوبة، ومبلغ جهدهما وجهد الخليفة عثمان بعدهما في ضبط قراءته، والنظر في كل آية من آيه حتى إذا رأى عمر أن آخر سورة التوبة مفقود ظل يبحث عنها حتى وجدها مع أبي خزيمة الأنصاري، وفعل فعله عثمان إذ فقدت آية من الأحزاب فالتمسها ووجدها مع خزيمة بن ثابت الأنصاري، وهل سد ذلك أفواه المعترضين من بعض فرق الغلاة والمعتزلة! أو لم يتواتر أيضًا أن بعض كتبة الوحي لنبي الإسلام كعبد الله بن أبي سرح في أول إسلامه كانوا يعمدون إلى تبديل كلام بآخر.

ولكن النبي ﷺ كان حيًّا؛ فاثبتوا أنه كان يضرب على أيدي أولئك المحرّفين، ويردُّ الكلم إلى مواضعه. أما الإلياذة وقد تناشدها الرواة نحوًا من قرنين ولا ضابط لها سوى أذهان المنشدين فلم تكن ثمَّ قوة بشرية قادرة على حفظها من أولها إلى آخرها على ما نطق بها هوميروس مهما بُذل في سبيل ذلك من العناية والهمة. بل ربما لو بُعث هوميروس نفسه، وأنشدها مرة أخرى لما تمالك عن تغيير حرفٍ وتبديل شعر، على أنه لا ريب أن التحريف والتصحييف قليلان جدًّا في جميع ما اتصل بنا منها لما رأيت من عناية القوم بها اللهمَّ إلا أن تكون هناك أجزاء مفقودة برمتها مما لا يدخل تحت هذا الحكم، ومع هذا فارتباط أجزائها بلا انقطاع يدل على أنه إن كان ثمة مفقود فهو قليل، وإننا الآن

موردون استجلاء لهذا البحث أمثلة مما ذكره الشراح وما لم يذكروه من الدخيل، والساقط، والمكرّر، والمُغلق.

الدخيل

ذكر هوميروس في النشيد الثامن أنه عند غروب الشمس تحاجز الجيشان، فانكفأ كلٌّ منهما إلى معسكره، والطرواديون على بيّنة من الفوز في غدهم لما أوتوه من أنباء الغيب فأقاموا ليلهم ينتظرون بزوغ الفجر لينقضّوا على أعدائهم، ثم وصفهم ووصف نيرانهم وقال:

فبين السّفينِ الراسياتِ وزَنُشس لوامعُ نيرانٍ بذاك المعرّسِ

تؤجُّ لدى إليون في ألف مقيسٍ يؤججها خمسون في كل مقيسٍ

ودونهم بين العجال جيادهم وقوفٌ لدى ذاك القَظيمِ المُكَدَّسِ

وهنا في بعض النسخ أربعة أبيات مفادها أنهم ضحّوا بالضحايا فلم تقع لدى الآلهة موقع قبول لما استقر في نفوسهم من كراهة إليون عاصمة الطرواد وملكها وملته، فذهب بعض الشراح وذهبنا مذهبيهم إلى أن هذه الأبيات دخيلة فأغفلوها وأغفلناها؛ لأن فوز الطرواد في ما يلي يدل على أنها في غير موضعها بل هي مناقضة للمعنى على خطٍّ مستقيم؛ لأن زفس كبير الآلهة كان في زمن مولادة للطرواد.

وفي النشيد الثالث عشر يوعز فوليداماس إلى هكطور زعيم
الطرواديين أن يجمع إليه زعماء الجيش ويشاورهم في الأمر، فيقول
الشاعر:

تَلَقَّاهُ هَكْطُورٌ قَوْلًا مُصَيِّبًا وَقَالَ لِفُولِيدَمَاسٍ مُّجِيبًا

وهنا في بعض النسخ بيت يقول: «أن هكطور وثب إلى الأرض
من مركبته» وهو لا شك دخيلٌ من غير نظم الشاعر؛ لأن سياق الحديث
يدل على أن الطرواد غادروا مركباتهم، وزحفوا مشيًا على الأقدام.

هذا وإن في الإلياذة بضعة أبيات لا أرى لها محلًا أصلاً، ولو
خُيرت لحذفها ولكنه لا سبيل إلى ذلك؛ لأنها مثبتة في كل النسخ،
مثال ذلك قول إيريس إذ أنفذها زفس برسالة إلى هيرا وأثينا، فبعد أن
بَلَّغَتْهُمَا قَوْلُهُ كَجَارِيِ الْعَادَةِ قَالَتْ لِأَثِينَا: (ن ٨)

وَأَنْتِ أَيَا شَرِّ الْكِلَابِ وَقَاحَةً أَتَلَقَّيْنِ بِالرِّيحِ الثَّقِيلِ أَبَا الْوَرَى

فإنها تجاوزت حد مهمتها وفاهت بكلام بذيء لم يُقَهْ به زفس،
ولم يتفق للشاعر أن أتى بأمثاله فضلاً عن أنه كلامٌ لا يجوز أن يوجَّه إلى
أثينا ربَّة الحكمة، وحيثما ذكرها هوميروس فإنه يذكرها بالتعظيم والتبجيل.

ومثل ذلك قوله بلسان فطرقل في النشيد السادس عشر متهمكماً

على قبر يون، وهو مهوٍ قتيلاً من مركبته إلى الأرض:

وهكطور صاح به قائلاً: فيا للباقتة كيف يجري

فلو من سفيتته واثبًا إلى اليم غاص للجّة بحر
لصاد حليزًا ولو صدع النّو ء يكفي الجماهير شرّ الطوى

وفطرقل هذا على بسالته وعزته مثال الحلم، والحصافة، والدّعة،
فلا يصح أن ينطق بمثل هذا التهكم على قتيل انقضى أمره، ولا سيما أنه
قبل أبيات انتهر صاحبه مريون لمخاطبته عدوًا بكلام فظّ فقال له:

علام أخي ذا الكلام المهينُ وأنت بلوثك سامي التّهى
أتزعم أن حديد الكلام يصدّ الطراود يوم الصّدام
فماذا بدافعهم عن قتيلٍ حواليه تَصْطَكُ لامٍ بلام
ولن يرجعوا عنه حتى يضاف صريعًا لذاك الهمام همّام
فللحرب فعلٌ وللسلم قولٌ وهذا أوانُ الوغى لا اللّغا

الساقط

ويقابل هذه الزيادة نقصانٌ قليل في إيراد بعض الروايات مثال
ذلك قصة بليروفون، فإنها مبتورةٌ بترًا فسواءً التقطها هوميروس من
التوراة، فمثّل به يوسف الصديق أو تناولها من مصدر آخر فلا يأتي
المطالع على آخرها إلا وهو متطلع إلى أسباب انحراف الآلهة عن ذلك
الرجل البار، وقد أفضنا بهذا البحث في موضعه:

المكرّر

وهناك أبياتٌ مكررةٌ قد يمكن وضعها في ثلاث مراتب:

(١) ما كان واجب التكرار كالبلاغ الذي يلقي إلى الرسول، فيؤديه كما ألقى إليه وهو كثير.

(٢) ما كان جائزه وهو: إما مقصود من الشاعر لبلاغته، وإما دخيلٌ بقلم النساخ في أحد موضوعيه لكثرة تغني الناس به، وانطباقه على المعنى في الموضوعين. مثال ذلك وصف اصطدام الجيشين في النشيد الرابع إذ يقول:

تَدَفَّقَتِ الْأَجْنَادُ أَيَّ تَدَفَّقٍ إِلَى الْحَرْبِ تَجْرِي فَيَلْقَا إِثْرَ فَيْلَقٍ
كَثَائِرُ أَمْوَاجِ الْبَحَارِ تَهِيْجُهَا مِنْ اللَّحِجِ أَنْوَاءٌ بَغِيرِ تَرْفِقٍ
يُدْفَعُ بَعْضًا بِبَعْضِهَا فَوْقَ لُجْهَا إِلَى حَيْثُ فَوْقَ الْجَرْفِ بِالْغُنْفِ تَلْتَقِي

فبعض أبيات هذه القصيدة مكرّرٌ في مثل هذا الموقف في النشيد الثامن.

ومثل ذلك قوله في وصف هكطور وهو مقبل على الأعداء: (ن)

(١٥)

أَفْلَوْنَ هَاتِيكَ الْعِزَّائِمَ مَانِحُ وَهَكْطُورٌ لِلْإِبْلَاءِ وَالْحَرْبِ جَانِحُ
كَمَهْرٍ عَتِيٍّ فَاضٍ مَطْعَمُهُ عَلَى مِرَابِطِهِ يَبْتَثُّهَا وَهُوَ جَامِحُ
وَيَضْرِبُ فِي قَلْبِ الْمَفَاوِزِ طَافِحًا إِلَى حَيْثُ وَجْهَ الْأَرْضِ بِالسَّيْلِ طَافِحُ

يرَوِّضُ فِيهِ إِثْرَ مَا اعْتَادَ نَفْسُهُ ويطربُ أن تبدو لديه الضحاضُ
وَيَشْمُخُ مَخْتَالًا بِشَائِقِ حَسَنِهِ يطير وأعراف النواصي سوايحُ
وتجري به من نفسها خُطَوَاتُهُ إلى حيث غصَّت بالحجور المسارُخُ

فهذه الأبيات بعينها واردة بوصف فاریس في النشيد السادس:

(٣) ما كان مكروهاً والأجدر به أن يُعدَّ من باب الدخيل كقول
هيرا، وهي تستمد رافة زوجها زفس بالإغريق: (ن ٨)
ولكننا نرثي لحال الأغارق يُبيدُهُمُ المقدور تحت اليلامقِ
أطعنا فلا نأتي الكفاح وإنما نمدُّهُمُ بالرأي خوف البوائقِ

فهذا كلام سبقت أثينا فخطبت به زفس في نفس النشيد فما
بقي محل لإعادته.

وأغرب من هذا تكرار خطاب أغاممنون في النشيد التاسع، وهو
الذي يقول في مطلعهِ:

أَحْبَائِي وَالْأَقْيَالِ وَالصَّيْدِ خَلَّتْنِي رَمَانِي زَفْسٌ فِي حَبَائِلِ آتِيَا

فهو خطاب ألقاه بنفسه في النشيد الثاني وقصد به هنا غير ما
قصد هناك، ولعل ما قاله في هذا الموضع مما فُقد أصله فعوّض النَّسَاحُ
عنه بأبيات سابقة حسبوها تليق بالمقام.

المُعَلَّق

ولقد أغلق عليّ فهم المراد من مخالفة أثينا لأبيها زفس مخالفة بلغت حد العصيان، وهي ربة الحكمة والسداد تعرف أنها لا قبل لها به، ويشقّ عليها الخذلان فلا تأتي أمراً يورثها الندم، فكيف قامت بعد هذا تتهدد وتتوعد بكلام ملؤه العتو، ثم ما لبث أن استألمت، وتدججت بالسلاح لتنخرط في سلك مقاتلة نهاها زفس عن الأخذ بيدهم، فصدعت بالأمر وقالت: «أطعنا فلا نأتي النزال» ثم خالفت قولها، وانتقضت عليه انتقاضاً كاد يؤدي بها، وحبذا لو كانت هذه الرواية في بضعة أبيات إذن ليتيسر لي أن ألتمس للشاعر عذراً، فأجزم بكونها دخيلة ولكنها مندمجة في الرواية اندماجاً، ولا سبيل إلى إفرازها منها إلا إذا اختل نظام سياق الحديث فلا بد إذن من أن تكون من نظم الشاعر أدرجها هنا لأمر غمضت عليّ حكمته. وخصوصاً أن الشاعر يتوخى الحقيقة في كل أقواله صريحة كانت أو رمزية، ويرمي في كل معانيه إلى بث حكمة ونشر فضيلة، وليس في هذه الرواية شيء من ذلك. على أنه إذا صحّ انتقادنا، فليس بعجيب أن يشدّ الشاعر هذا الشذوذ في مظنة واحدة من منظومة تملأ هذا المجلد الضخم.

وعلاوة على ما تقدم ربما لا تخلو الإلياذة من ألفاظ بل من أبيات لعبت بها أيدي النساخ، ولكنه ليس في شيء منها ما يشوه وجه تلك الخريدة العذراء فلا يزيدنا تقادم العهد إلا بهاءً ورواءً، فهي كزهره

هوميروس وقومه تتوالى عليها الأعقاب وتنقضي الأحقاب، وهي هي تلك
الفتية العذراء ربة الجمال الخلاب.

الرأي الوُلُفي

أو القول في كونها منظومة واحدة أو منظومات شتى

توالت الأحقاب على الإلياذة والناس يتناشدونها ويتناقلونها وهم
مُعجبون ببلاغتها، وانتساقها مُكبّرون ذكاء تلك القريحة السيالة التي
تفجّر منها ذلك المنهل العذب، فلما كان القرن الثامن عشر قامت
عصابة من العلماء، وأنكرت على هوميروس إنشاء الإلياذة وما يتبعها من
سائر شعره، وقالت: «بل هي قصائد متفرقة لشعراء كثيرين رواها الرواة،
وعني بجمعها المشغفون بمطالعة الشعر» وكان من نتيجة قولهم هذا أن
هوميروس رجلٌ وهمي خلقته مخيلات الشعراء.

ذلك ما يُدعى في عرف الإفرنج بالرأي الوُلُفي نسبةً إلى وُلُف
العالم الألماني، وإن لم يكن هو السابق إلى بث ذلك المذهب، وإنما
نُسب إليه لأنه كان أشدَّ دعاة وتيسر له نشره في زمن ثوران أفكار
وانتفاضٍ على كل كبير، وقد سبقه إليه أفراد ذوو شأن في عالم الأدب
فلم يكن لكلامهم شيء من الوقع.

بدأ الخوارج على هوميروس وإلياذته وسائر منظوماته بنشر
دعوتهم في أواخر القرن السادس عشر وفي مقدمتهم كازوبون^{٢٢} الفرنسي

فأنكر وجود هوميروس، وكون الإلياذة من نظم شاعر واحد، فلم يكذباً بقوله أحد إلى أن مات فدُفن مذهبه معه، ثم بُعث ذلك المذهب على يد هيدلين قسّ أوبنيك^{٢٣} فكان أشد من سلفه، وكأنه نبّه أفكار العلماء إلى بحث جديد فحذا بعضهم حذوه وأشهرهم مواطنه بيرو^{٢٤} ووُد^{٢٥} وبنجلي^{٢٦} الإنكليزيان وتبعهم فيكو الإيطالي^{٢٧} فأرعى بكتابته على جميع من تقدمه، ولكن صاحب القدح المعلّى في هذا المضمار إنما كان وُلّف الألماني^{٢٨} فشدد الحملة وما كاد ينشر مقدمته على الشعر الهوميروفي في أخريات القرن الثامن عشر^{٢٩} حتى فشا مذهبه في ألمانيا، وانتشر منها إلى أقطار أوروبا، فهدم أركان عظمة هوميروس من أسسها، وعمّ القول بين جميع المشتغلين بآداب اليونان أن هوميروس إنما هو هيّ بن بيّ الإغريق راوية لم تلده أنثى، وإنما ولدته قصائد الشعراء المندرسة أسماؤهم في غوامض الغيب، وإنّ ما ينسب إليه من المنظوم ليس إلا مجموع قصائد عني بجمعها في زمن فيسيستراثس في القرن السادس قبل المسيح، واشتد أزر ولف والذاهبين مذهبه بروح ذلك العصر المتطلع إلى التشبث بكل رأي جديد، والرامي إلى تقويض كل مذهب تقادم عليه العهد من أصول الدين إلى أصول التاريخ حتى قواعد الإنشاء، فنسج على منواله بعض العلماء كهيّن الألماني في مقدمته على الإلياذة^{٣٠} وشايه نبيّه الدانمركي^{٣١} وهردر^{٣٢} وغدري هرمن^{٣٣} وولهم ملّر وكثيرون غيرهم، ومعظمهم من الألمان مع أن النافخين في ذلك البوق

كانوا في بدء الأمر من الفرنسيين، وكأنهم أرادوا أن ينكروا على رجل فرد الاستثثار بتلك السلطة الفكرية؛ فوزعوها على عامة الشعراء كما أنكروا على الملوك والحكام الاستثثار بالسلطة الحاكمة؛ فهضوا إلى توزيعها على الأمة.

ولم ينقض العقدان الأولان من القرن التاسع عشر حتى خمدت ثورة الأفكار، وانشى العلماء إلى إعادة البحث، وإمعان النظر ثم ما لبث ذلك المذهب أن تلاشى أو كاد على يد جماعة من فطاحل العلماء، وفي مقدمتهم أُنْفَرِدُ مُلَرٌ^{٣٤} فإنه لم يقصر بحثه على الفلسفة والخيال بل تعهد بنفسه جميع المواقع المذكورة في شعر هوميروس وغيره من كتيبة الأقدمين، وكتب تاريخًا مطولًا لآداب قديماء اليونان توفي سنة ١٨٤٠ وهو يشتغل فيه، وقد أثبت بما جمع من الأدلة وجود هوميروس، وأن الإلياذة من نظمه. ولم يكن ولكر بأقل من مُلَرٍ تضلعًا في هذا البحث، فإنه كتب الأسفار الطوال بتاريخ اليونان، ووصف آدابهم وأفاض في الشعر الهومييري^{٣٥} فتداعت على يده ويد ملر دعائم المذهب الولفي، ولكن الذي قَوَّضَهَا تقويضًا إنما كان غريغور نِتْسِش، وله في تاريخ اليونان المجلدات الضخمة والحجج المسندة إلى البينات.^{٣٦}

وهكذا فإن الألمان الذين شَنُّوا هذه الغارة أثاروا من جماعتهم من تصدَّى لدفعها بسواعد أشد وأدلة أقوى، ومع هذا فلم يزل بينهم من يقول بالرأي الولفي مع أن معظم علمائهم، ومحققي الإنكليز

والفرنسيس، ومُشايي فيكو الإيطالي قد نبذوه منذ طويل، وإن المقام ليضيق عن ذكر أسمائهم جميعًا فضلًا عن إيراد أدلتهم فنجتزئ بالإشارة إلى بعضهم ممن اشتهر بولوج هذا الباب كالأستاذ بلاكي^{٣٧} في كتابه «هوميروس والإلياذة» والأسقف ثرؤل^{٣٨} وغروت^{٣٩} في «تاريخ اليونان». وغلادستن^{٤٠} في كتابه «هوميروس وعصره». وغينيو في مقدمة المعجم الهوميري^{٤١} ولوبريفوست في حواشي ترجمة الإلياذة^{٤٢} وبرتين في «المسألة الهوميرية»^{٤٣}.

وليس لنا في هذا المقام الضيق أن نفصل الأدلة التي أوردوها، ومع هذا فلا بد من إلقاء نظرة مجملة على الإلياذة؛ لاستجلاء ما إذا كان يصح القول بكونها من نظم غير واحد من الشعراء.

علمنا مما تقدم في فذلكة سيرة هوميروس ورأي المتقدمين والمتأخرين فيه أنه لم يبق محلّ للريب في نظر المحققين أن شاعرًا يلقب بهوميروس نبغ في القرون الغابرة، ونظم الإلياذة والأوديسية، وقد أجمعت النصوص التاريخية والآثار العادية على أنه كان بمنزلة يقصر عن إدراك شأوها سائر الشعراء، فما بقي من ثمّ سبيل إلى إنكار وجوده.

وإنما بقي علينا أن نعلم ما إذا كانت الإلياذة كلها من نتاج تلك القريحة الوفاة.

وحدثها

لقد علم المطالع اللبيب من سياق كلامنا، ولا سيما من بحثنا في سلامة الإلياذة من التحريف والتصحيف، والزيادة والنقصان أننا إذا أنكرنا على ولف مذهبه لا نتطَرَّف في الإنكار إلى حد الأخذ بمذهب الدكتور شليمَن الألماني^{٤٥}؛ الذاهب إلى إثبات حقيقة الكلبي والجزئي فيها، وإسناد كل ذلك إلى المكتشفات الأثرية، فاعتقادنا إذن مقصور على أن هوميروس هو ناظم الإلياذة، وأنه هو ناسج بردها، وناظم عقدها من أولها إلى آخرها بصرف النظر عن الحقائق التاريخية البحتة، وعمّا قد يتخللها من ساقط ودخيل.

قال غروت في «تاريخ اليونان»: ^{٤٥} «إن تعداد القبائل في النشيد الثاني لا يمكن إلا أن يكون جزءًا من كل، أي: إنه لا بد أن تكون فيه إشارة إلى حوادث مقبلة، وإلا فإذا أخذ منفصلاً فلا لذة فيه للسامع، والأذن لا شك تملُّ توالي تلك الأسماء والأعلام ما لم تكن النفس مرتاحة إلى أنه يُرمى بها إلى الإشارة إلى وقائع تعقبها على الأثر، وإن في آثار القوم ما يثبت أن ذلك الجدول الجغرافي كان حتى في أيام صولون شائعاً شيوعاً عاماً حتى قيل: إن صولون نفسه عمد إلى تحشية شطر فيه؛ ليتسنى له ربح الخطر الذي عُقد رهانه بينه وبين الميغاريين، كما أن الميغاريين أضافوا إليه شطراً يقوي حجتهم، ومن ثم يتضح أن اليونان

كانوا قد ألفوا قبل فيسيستراثوس بزمن طويل سماع الإلياذة منظومةً واحدةً متناسقة الأجزاء متتابعة المباني».

وهو قولٌ لا شك سديدٌ في بابه، ولكنه لا يدفع حجة القائلين: «إنه إذا صح أن تكون الإلياذة على سلامتها في ذلك الزمن قد لا يصحُّ أن تكون اتصلت إلينا على تلك السلامة». فدفعاً لهذا الاعتراض حسبنا أن نوجه نظر المطالع إلى ما أسلفنا عن عناية الأقدمين بحفظها نقيّةً من الشوائب، ولا سيما في باب «جمعها وكتابتها».

وإننا موردون في ما يلي تحليلاً موجزاً لتلك المنظومة بل تشريحاً لذلك الجسم المتماسكة فقراته، المترابطة عضلاته يتضح منه أنه لا بد من أن تكون منظومة واحدة لشاعر واحد، وهو بحثٌ لم يتصل بنا نظيره في ما طالعناه من كتب القوم.

تحليلها وتشريحها

الأشخاص

خذ الإلياذة وتصفح أية صفحة شئت منها، واقراً حتى يقع بصرك على بطلٍ من أبطالها سواءً كان من مغاوير الكماة أو من عُرض الجند، ثم انتقل إلى معجم الأعلام وانظر في الصفحات التي ورد فيها ذكر ذلك الرجل، واقراً ما وصف به فيهن جميعاً، فتبين أنه هو هو حتى تكاد تنطق باسمه قبل أن تبلغه مهما تباينت المواقع، وتباعدت الأناسيد.

فهذا آخيل يبدو لك لأول وهلة قرماً عنيداً، وشهماً حقوداً، وولياً ودوداً، وصارماً عتياً ترتسم حسناته وسيئاته في مخيلتك من تلاوة أول جزء من أول نشيد، وتعلم أنه الفتى الغضوب بُيت الإلياذة على وصف غضبه، فلا تقرأ نشيداً منها سواءً ظهر فيها ذلك البطل أو لم يظهر إلا وتشعر أنه لا يزال محتدماً بسعير الحقد والغيط إلى أن يتيسر للشاعر تهئية الأسباب المؤدية إلى إخماد تلك الجذوة في آخر الكتاب، فإذا به كما تستلزم دواعي السيادة والكرامة ساكن الجأش على رفعة نفسه، وقد جمع في صدره من كرم الخلال ما يكاد يضيق عنه أرحب الصدور، وليس في الكتاب كله عبارة واحدة يشدُّ بها الناظم عن هذا المرمى، وهيهات أن يتفق هذا التناسب لغير ناظم واحد.

ثم انظر إلى هكطور فهو حيثما رأيته حامي الدمار، دَفَّاع العار، عزوماً حزوماً مقداماً عن غير طيش، ورِعاً عن صدق عقيدة ذا ذكاء ونيرة يتمسك من دينه بما لصق بمعبوداته، وينبذ ما دون ذلك من خرافات القوم. يعلم أنه عماد قومه فيسير سير الزعيم الهَمَّام، ويحسن الذود والكر والإبلاء، ولا يفتأ على المثال الذي صور به الشاعر حتى يذهب شهيد الدفاع، ويموت ميتةً يُحسد عليها.

وإذا انتقلت من هذين الزعيمين إلى سائر أبطال الإلياذة، وتأملت كل رجالها ونسائها رأيت أن الشاعر رسم لكل رسماً لا ينحرف فيه بشيء عن الوضع الذي وضعه له سيان ذلك في أول الكتاب وآخره.

- فأغاممنون الأمير الخطير والقائد الكبير.
 - وآنياس البطل الورع والحليف الباسل.
 - وإياس رب بأس فعّال غير قوّال.
 - وذيوميذ الفتى المقحام يهون له نرق الشباب ركوب الأهوال.
 - ونسطور الشيخ الحكيم حنّكته صروف الأيام.
 - وأوذيس الداهية الدهماء والبلية الصماء.
 - وفطرقل الفتى الكريم والخل الحميم.
 - وفريام الملك الصبور والهزم الوقور.
 - وفاريس العاشق المتأنق.
 - وأنذروماخ الزوجة الأمانة.
 - وإيقاب الأم الحنون.
 - وهيلانة الفتاة الغالب هواها على قواها الشاعرة بسوء المصير.
- وإذا نظرت بعد ذلك إلى غير من تقدم ممن ذكره أو قلّ
تهيأت لك النتيجة نفسها.
- فاغينور في النشيد الرابع هو نفسه ذلك المحراب في النشيد
الحادي والعشرين.
 - وأنطيلوخ في النشيد الرابع هو نفسه ذلك الشاب العزوم
المتسرع في النشيد الثالث والعشرين.

وقل مثل ذلك في ماخاوون وطبه، وهيلينوس وعرافته، وفينكس
وصداقته، ومريون وأمانته، وهلمَّ جرًّا. وقد تأتي على تلاوة اسمٍ ذكر
بطريق العرض، فلا ترى له شأنًا خاصًّا، ثم إذا أُعيد ذكره بعد مئات أو
آلاف من الأبيات رأيتَه على صفته لم يتغير بشيء عما ذكر به للمرة
الأولى، وقد لا يرد ذكره سوى مرتين أو ثلاث. مثال ذلك أذميت
وأفرميدون، وأفروطسيلاس، وأفغياس، وأقطور، وأقلوثيس، وأكماس،
والقميد وأمفيماخُس، وثرسيلوخ، وثواس، وأمثالهم كثيرون.

الأعلام الجغرافية

ثم إذا تناولت البلدان والجبال والوهاد والبحار والأنهار رأيت أنه
اتبع تلك الخطة فما ناقض نفسه بكلمة مما وصف به بلدة أو علمًا
جغرافيًا، ودونك بعض الأمثلة:

- فارسية لاصقٌ ذكرها بنهر سليس، وزعيم جندها أسيس بن
هرطاقس في النشيد الثاني، وفي الألف الأولى من أبيات الإلياذة وهي
هي ونهرها وزعيمها بعد أربعة آلاف بيت في النشيد الثاني عشر.
- وبفراسا هي البلدة الكثيرة الأنعام، وهي موصوفة بذلك في
النشيد الحادي عشر في منتصف الكتاب، ويتكرر ذكرها بنفس الوصف
في النشيد الثالث والعشرين أي: بعد نحو من خمسة آلاف بيت عربي
أو ثمانية آلاف شعر يوناني.

• وتينيدس البلدة المقدسة الموالية لآفلون، وهي كذلك في غير موضع.

وإن المجال ليضيق عن أمثلة ما تقدم، فإنها تفوق الحصر، وقد توخينا في الأمثلة الثلاثة السالفة الذكر بلادًا قليلة الشهرة، فإذا كانت وحدة المرمى فيها هذه فما بالك بالمدن الشهيرة كإليون.

وقل مثل ذلك في البحار والأنهار كالأوقيانس، وزنثس، والإسكندر، وكل ما في الإلياذة من ييس وماء.

وإذا أردت إجمالاً سهلاً لهذا التفصيل، فخذ القسم الجغرافي في النشيد الثاني، واقتطع منه أية مملكة شئت من ممالكهم وأسماء زعمائها، ثم تصفح المعجم، فإذا رأيت تلك الأسماء قد تكرّر ذكر شيء منها فإنما يتكرر بما لا يشذ عما مرّ أمامك هذا إذا لم ينطبق عليه كل الانطباق، ولو فصلت بين الموقعين الأناشيد الطوال.

ارتباط أجزاءها

ثم إذا تأملت تماسك أجزاء الإلياذة وارتباطها بعضها ببعض رأيت أن ناظم النشيد الأول إنما هو ناظم النشيد الأخير، فكأنما هي مرقاة يصعد بك صاحبها درجةً بعد أخرى حتى تستقرّ في آخرها وأنت متبين كل ما وراءك، فإذا بدأت بخصام آخيل وأغاممنون تطلعت إلى ما وراء ذلك الخصام، فييسطه لك الشاعر بسطاً يزيد إيضاحاً كلما خطوات خطوة. فهناك جدال وخشية قتال، وحنق واعتزال، ووساطة رجال، وينتهي

الأمر بما ترتاح إليه نفسك شأن القصّاص الذي يروي لك خبرًا واحدًا
بنفس واحد.

وإذ أمنت في تواد آخيل وفطرقل بدا لك من خلال الفصول
الكبار صديقان حميمان يتوادان؛ فيترافقان، فيغضب أحدهما لغضب
الآخر فيتواليان في السراء والضراء، وإذا مات أحدهما فلا تنقضي أحزان
الآخر حتى انقضاء حياته، وكل ذلك بحديث طويل تتخلله أحاديث
أطول تكاد تشطُّ بقائل واحد عن تلك الخطة المرسومة، فما الظن لو
تعدد القائلون.

وقس على ذلك جميع حوادث الإلياذة.

وإذا رجعت بعد هذا إلى أعظم مظنةٍ لاعتراض المعترضين وهي
إصاق النشيدين الأخيرين بالإلياذة رأيت أنهم إنما أتوا بأوهن الحجج
كما أثبتنا مسهبين في مقدمة النشيد الثالث والعشرين فلا نسوق البحث
هنا إلا في ما لم يسبق لنا ذكره في ذلك الموضع.

خذ الألعاب في ذلك النشيد وانظر إلى أرباب كل ضربٍ من
ضروبها تر أنها لم تُلصق بالإلياذة إلا لكونها جزءًا طبيعيًا منها، وإن
المتبارزين فيها لم يكن يصح سواهم لوقوف كلٍّ منهم موقفه.

ففرسان السباق أفميل وهو الذي قيل في خيله في النشيد

الثاني:

أجود الخيل عندهم تلك أحجا ر لدى ابن ابن فيرس أفميل

قد تساوت قدًا وسنًا ولونًا وجرت كالطيور فوق الطلول

وذيو ميذوله مطهّما آنياس، وقال عنهما الشاعر في النشيد
الخامس:

وامض واقتد مطهّمي آنياس خير ما في الدنيا من الأفراس

وألحق نسبتهما هناك بجلاد زفس أبي الآلهة. ثم لما أبرز الشاعر
ذيو ميذ في حلبة السباق أعاد تلك الذكرى.

ومنيلاوس وهو زوج هيلانة وأخو أغاممنون والمتسبب بحرب طروادة.

وأنطيلوخس بن نسطور الفتى الباسل صديق أخيل.

ومربون الحوذي الماهر. وهم جميعًا أجدر الفرسان بخوض ذلك
الميدان.

وإنّ ما قيل في السباق يمكن إطلاقه على النضال والطعان والحضر
والصراع وغيرها.

فلسفتها وآدابها

وإذا أمعنت النظر في فلسفة الشاعر وخلائقه وآدابه رأيت أنه
رمى فيها كلها إلى أمور خاصة برجل واحد، فهو وإن جرى أبناء زمانه في
كثير من عاداتهم ومعتقداتهم فقد خالفهم في أمور أخرى لسلامة في
ضميره ونظر بعيد في ترقيتهم، وهو حيثما جارا هم فلا ينحرف في

مجاراته، وحيثما خالفهم فقد راعى ما انطبع عليه من آداب النفس التي جعلته أرقى أهل زمانه، فعصره عصر فسق وفجور وقد شجبهما حتى في نفس الآلهة وزمنه زمن بطش بالأسرى وقد طعن بقتلتهم وحسبك في هذا الباب أن تتصفح المواضيع التي أفاض بها بمدح المرأة، وأتى على إطرء صفات الأمهات والزوجات والبنات والأخوات حتى السيئات في قرن كانت المرأة فيه من جملة المتاع وسلعة تشرى وتباع.

وهناك أدلة كثيرة أفاض بها الشراح بالنظر إلى التاريخ واللغة مما يضيق دونها المقام.

سبب الريب

ولا بد لنا في ختام هذا الفصل من كلمة بشأن منشأ الارتباب في آراء كثيرين من الكتبة والمؤرخين.

إن مظان الريب كثيرة في الكتب القديمة التي بين أيدينا، ووجوه الاعتراض دامغة في بعضها حتى يتعذر في بعض الأحيان إرجاعها إلى أصل معلوم أو مؤلف معين، وعندنا من أمثال ذلك كتاب ألف ليلة وليلة، وقصة عنترة العبيسي وأشباههما؛ ولهذا تطرفت زمرة من المشتغلين في التاريخ والآداب إلى إنكار كل قديم، وبث الريب حتى في وجود مسميات وأشخاص تكرر ذكرها في التاريخ، وثبت وجودها ثبوت الشمس في رابعة النهار، فهل نعجب بعد هذا إذا تصدت فئة منها إلى إنكار هوميروس وقد انطوت عليه آلاف الأعوام وهذا فوريل ٤٦ الباحث

في آثار القدماء ينكر على الفردوسي هوميروس الفرس نظم الشهنامة، والفردوسي ابن الأمس بالنسبة إلى هوميروس وشهنامته قبله الفرس في غدوهم وأصالهم، وإذا سألت أصغر صغير فيهم فصل لك تفصيلا كيف نُظمت، ولمن نظمت، وما كان من أمر ناظمها بحياته وبعد مماته.

الإلياذة ومعارف عصرها

إذا قال الشعراء: «ما أحرى هوميروس أن يكون أمير الشعراء» قال العلماء: «وما أحرانا أن نتخذ ديوانه خزانةً نضد فيها معارف عصره من علمٍ وأدبٍ وصناعةٍ وتاريخٍ، فقد صرف الأدباء نظرهم عن جميع من تقدم من شعراء أمته، ولقبوه أبا الشعر، واتخذ العلماء والمؤرخون أقواله حجةً يرجعون إليها في استقصاء علوم القدماء».

وليس في الإمكان بسط الكلام على جميع ما أفاضوا به في هذا الباب، وإنما نلّم به إلمامًا موجزًا مع إيراد أمثلة يسيرة نطنها وافية بالمرام. ونترك البحث في الشعر وأدبه إلى ما يلي من الفصول.

الإلياذة والتاريخ

لا شك أن هوميروس استقى من موارد طمس الزمان ذكرها، فنقل ولا نعلم عن نقل، ودون حوادث كثيرة مما أثبتها الأثر وما لم يثبتها، ولكن ثبوت البعض يرجح في الظن ثبوت الكثير مما بقي، وقد أشرنا في الشرح إلى نبذ من الحوادث التاريخية التي لم يذكرها المؤرخون، فهو بهذا الاعتبار أول المؤرخين في قومه، وإن هيرودوتس الملقب بأبي

التاريخ يستمد من معارفه، ويستشهد بقوله كلما أُغلق عليه أمرٌ واضطُرَّ إلى إثبات حجة. وإذا رجعت إلى مؤلفات جميع المؤرخين من اليونان والرومان والإفرنج رأيتها مرصعة ترصيعًا بالشواهد الهوميرية مما يثبت لك علو مكانته في التاريخ.

الإلياذة والجغرافية

إذا قيل: إن هوميروس هو أول مؤرخ، قيل أيضًا: إن قدمه في الجغرافيا أرسخ ومنزلته أرفع، فهو واضع هذا العلم وعلمه الأسنى إذ تعهد بنفسه معظم المواقع التي ذكرها ووصفها وصفًا لم يسبقه إليه المتقدمون، ويكاد المتأخرون يقصرون عن الإتيان بمثله، وحسبك الرجوع إلى القسم الجغرافي لتعلم أنه لم يكن لجغرافي أن يلمَّ إلمامه بهذا الفن حتى اليوم، وإن إسطرابون أبا الجغرافيا بعده يعترف له بالفضل والسبق ٤٧ وجميع مباحثه مؤيدة بشواهد من الشعر الهوميري حتى لقد يمكن اعتبار جغرافيته شرحًا لمتن ثلاثة أرباعه في الإلياذة وأكثر باقيه في الأوديسية. وقد حداني حبُّ الاستطلاع يومًا إلى عد الشواهد التي أخذها إسطرابون من منظومتي هوميروس، فإذا بها مئتان وتسعة وأربعون بيتًا من الإلياذة، ومئة واثنان عشر بيتًا من الأوديسية ما خلا الأبيات المكررة في عدة مواضع، وما أدراك ما يمكن أن يُكتب من الشرح على هذا المتن الطويل.

الإلياذة وسائر العلوم

أفردت في معجم الإلياذة بابًا لكل من العلوم التي طرق هوميروس أبوابها وألحقته بهذا الكتاب، وعيَّنت فيه الصفحات التي ورد فيها ذكر العلم المراد إرشادًا للمطالع.

وسترى منه أن الإلياذة أشبه بدائرة معارف جمعت بين سطورها جميع علوم العصر.

الطب

فإذا أخذت الطب مثلاً رأيت هوميروس أَلَمَّ بجميع علومه من جراحة، وتشريح وفسيولوجيا، وبحث في النبات والعقاقير والصيدلة والعلاج، ووصف الأمراض والأوبئة.

الفلك

وإذا طلبت الفلك وعلم الهيئة ذكر لك كل ما بلغه منهما علم زمانه، فوصف السماء والأبراج وتطرق إلى التنجيم، فبحث في تأثير طوالع النجوم، وذكر الظواهر الجوية وفعلها في الأحياء.

الحرب

وإذا تطلعت إلى الحرب والفنون والعسكرية أفاض لك بتفصيلها إفاضةً تُدهش لها، ففصّل لك مواقف الجيوش وحركاتها بهجومها ودفاعها، وزحفها وتعبئتها، وأبان لك أسباب الظفر ووجوه الاندحار، ووصف أركان الحرب والتمرين العسكري، والحرس والكمين والمبارزات،

ويبحث في الأسرى، والأسلاب، والبدل العسكري، والتتريس والجواسيس، وديوان القضاء في المعسكر، والعيون، والأرصاد والطلائع، ويبيِّن أحوال الحصار وإقامة الحصون وحفر الخنادق، ولم يغفل عن ذكر الخيم والمضارب، وأرزاق الجند وأطماعه. ولم يغادر شاردة إلا قيدها حتى الراية والنيران، والرقص الحربي والألعاب العسكرية.

ثم فصل لك أنواع القتال وأصناف الأسلحة والدروع، فوصف الشكَّة والخوذة، والمغافر، والتروس والرماح والسيوف حتى الفؤوس والمخاذف والحجارة.

السياسة والحكومة

وإذا تطرقت إلى السياسة بحث لك في الحكومة والملوك، وسلطتهم وما يعرض لهم وعليهم، وموقفهم تجاه الرعية وبالعكس، وحذر من الفوضى. وذكر خدع السياسيين وحيلهم. وأشار إلى الشرائع والمجالس والخراج والإقطاعات، وأحاط بأحوال الوفود والسفراء والتحالف، والتعاهد، والخطابة في الرعية.

الدين

وإذا رغبت في الوقوف على دين القوم أسهب لك بذكر معبوداتهم، ونسبتهم إلى العباد ونسبة الخلق إليهم، ووصفهم فردًا فردًا بين ذكرٍ وأنثى وأوضح صفة كلٍّ منهم بنفسه، وبالنسبة إلى زملائه، وهياً لك مزاياهم كباراً وصغاراً، وقسمهم إلى طبقات ودرجات مع بيان منزلة

كل طبقة على حدة، وأتى على ذكر العبادات والصلوات والضحايا والأدعية. ووصف الروح ومصيرها، وبحث في عالم الأرواح، وسائر ما يتطلع إليه الراغب في الوقوف على أحوال العبادة في ذلك الزمان.

الفنون وسائر الأعمال

وقل مثل ذلك في الفنون الجميلة من نقش وغناء، وموسيقى وتصوير، وكل منقول ومعقول من معارف الإنسان وأعماله كالحرث والزراعة، والتجارة والمعاملات حتى العرافة، والعيافة، والكهانة، وتفسير الأحلام.

الإلياذة والصنائع

وكأن هوميروس عني عناية خاصة بصناعات زمانه، فأسهب بوصف الكثير منها إسهاباً تخال إذا قرأته أنه كان ينتمي إلى كل فريق من الصنائع.

فبينما تراه وشَّار سفن إذا به صانع مركبات، وبينما هو نجَّار حاذق إذا به بناءً ماهر ومهندس، ثم تخاله صيقلاً، وحداداً، وحفَّاراً، ونقَّاشاً، وخرَّاطاً، وصبَّاعاً وصائغاً، وليس هو بأعمال النساء أقل إلماماً منها بأشغال الرجال، وحسبك من هذا تطريزه وغزله، ونسجه وحياته.

سبب حياتها وخلودها

لم يكن هوميروس أول من نظم الملاحم أو منظومات الشعر القصصي، ولا مبتدعاً لطرق إنشادها، وأساليب ترصيعها بشواهد العلم

والتاريخ، فتلك سليقة ألفتها أمتّه، وأكثر الأمم في غوامض أيام البداوة والجاهلية، وقد حسبوا لمن تقدم من شعراء اليونان سبعين منظومة كملحمتيه منهما إلياذتان الكبرى والصغرى، وأوذيسية واحدة، وقد بادت جميع تلك المنظومات، ولم يقوَ على مكافحة الزمان سوى تينك المنظومتين، فقد بقيتا كلؤلؤتين برّاقتين في قلادة الأدب، وكسفتا بأشعتهما سائر ما بقي من نظائرها، وخلّدتا لليونان مجداً لا يمحوه تقادم العصور، وكرور الدهور.

ولم يشع شيوعهما بين البشر شيء من المنظوم والمنثور إلا كتب الدين، ولا تزالان كما كانتا منذ ثلاثة آلاف عام في المقام الأول بين نتاج القرائح.

وليس ما تقدّم من إبداعهما خلاصة العلم والسياسة وتوابعهما من أسباب ذلك البقاء في شيء فإن طلاب العلم، ولا سيما في العصور الغابرة فئة ضعيفة تطلب العلم من أبواب أخرى تتلقنّها من كتب وضعت لها، والعلم كل يوم في شأن يتقلب ويتغير، وينحط ويرتقي، فما صلح منه في الأمس لا يصلح في الغد، وما كان منه في اليوم صواباً ساطعاً أصبح بعده خطأ فادحاً، فلا بد من أن تكون ثمّة أسباب ثابتة مغرسها في النفس، ومنبتها في القلب لا تتغير بتغير زمان، ولا تتأثر بترقّ وحضارة.

فإن هوميروس إنما نقر على أوتار الأفئدة فأثارها، ونفخ في بوق الأرواح فأطارها، ومزج الحقيقة بالخيال مزجاً يخيّل لك أنهما تآلفا

فتحالفًا، وسبر أعماق النفس في سذاجتها، وتحزّى الفطرة في بساطتها،
وهاج العواطف والشعائر، وتكلم بجلاء لا تشوبه مسحة التكلف،
فأسهب موضع الإسهاب، وأوجز موضع الإيجاز، ومثّل تمثيلًا ناطقًا،
وفصّل تفصيلًا صادقًا عن عقيدة وإخلاص.

وإذا أضفنا إلى ذلك بلاغة الشعر، وتناسق النظم، ودقة السبك،
ورقة المعنى، والسهولة والانسجام ذهبت عنك غرابة ذلك الخلود.

قال غيزو:^{٤٨} «وإن ما يرى في شعر هوميروس من مزج الخير
والشر، والضعف بالقوة، واتحاد الأفكار والمشاعر بمظاهر مختلفة،
وتنوع الأفكار والأقوال، وبسط أحوال الطبيعة والأقدار على أنماطٍ
متباينة كل ذلك يثّ الأُمّال الشعريّة بما لا يماثلُه مثيل؛ لأنّ فيه أسَّ كل
أساس، وحقيقة الإنسان والعالم» وعندي أن من أقوى عوامل البقاء في
الإلياذة والأوديسية مع استجماع ما تقدّم من الأسباب أن بذورهما وقعت
من كفّ صالحة على أرضٍ صالحة إذ نظمتا بلغةٍ سهلة في عصرها، فلم
يكن يغلّق فهم شيء من معانيهما على أقلّ الناس علمًا، فشغف بهما
القوم وتناولوهما وتناقلوهما، وحرصوا على ادخارهما؛ لأنهما مستودع
الجمال، والمرء حريص على استبقاء كل جميل.

انتشارها ونقلها من اليونانية إلى سائر اللغات اللاتينية

كان انتشار الإلياذة بين اليونان كانتشار نور الشمس عند بزوغها، فما كان يبرق منها بارق من فم الشاعر حتى يتهافت عليه كل رفيع ووضيع، ثم ما لبث أن تطرق هذا التهافت إلى الرومان، فنقلوها إلى لغتهم وترنموا بإنشادها، وشد شعراؤهم على التقاط دررها، وتحدي معانيها حتى أقاموا على تلك المعاني دعائم منظوماتهم الكبرى وفي مقدمتهم فرجيليوس كبير شعراء اللاتين.

الهندية والفارسية

وقد روى إيليانوس المؤرخ^٩ أن الهنود نقلوها إلى لغتهم، وأن ملوك الفرس كانوا يتغنون بها بالفارسية. ولعل الفردوسي استمد منها كثيرًا من معاني الشهنامة، واتخذ الإلياذة مثالًا لمنظومته الغراء.

السريانية

ولم تكن سائر الأمم أقل شغفًا بها، فعلق بها السريان كغيرهم، ونقلها ثاوفيلس الرهاوي إلى لغته شعراً.

لغات الإفرنج

ولا تسلم عما كان من علق الإفرنج بها، فقد نقلت مرارًا شعراً ونثرًا إلى كل لغة من لغاتهم حتى صارت أشهر كتاب عندهم جميعًا، وطبعت كل ترجمة منها مرارًا عديدة.

وأشهرها ترجمة جيزارتي^{٥٠} ومُنْتِي^{٥١} إلى الإيطالية. ومُنْبِيل^{٥٢} إلى الفرنسية. وفُوس^{٥٣} إلى الألمانية ويوب وجايمن وكوير^{٥٤} إلى الإنجليزية. وأصدق هؤلاء النقلة مُنْتِي، وهو ويوب أبلغهم شعرًا.

إغفال العرب نقلها إلى لغتهم

كان العرب من أحرص الملل على علوم الأدب، وأحفظهم للشعر، وأشغفهم بالنظم، ومع هذا فلقد يأخذك العجب لبقاء الإلياذة محجوبةً عنهم وهي منتشرة هذا الانتشار بين قبائل الأرض، ومنظومة بلغة سامية كلغتهم يتناشدها الأدباء المقيمون بين ظهرائهم في مقر الخلافة العباسية.

وإن لذلك أسبابًا إذا تبيَّنَّاها زال العجب لإغفالها في ما سلف مع وضوح الحاجة الماسة إلى تعريبها في هذا العصر، وإن مرجع تلك الأسباب إلى ثلاثة: الدين، وإغلاق فهم اليونانية على العرب، وعجز النقلة عن نظم الشعر العربي.

الإلياذة والنصرانية

أشرنا فيما مرَّ إلى إقبال أمم أوروبا على الشعر الهوميري، وقلنا: «لم يتخلل إقبالهنَّ فتورٌ إلا عقود أعوام معدودات في بدء النصرانية». فإذا خذل المسيحيون هوميروس وهو معروف عندهم، ونبدوا شعره وهو متلوٌّ في مجالسهم، فما أحرى المسلمين في أوائل الإسلام أن يطرحوه ولا أثر له في أذهانهم، ويعرضوا عن أقواله وهم لا يعرفون منها شيئًا.

كان هوميروس في ذروة مجده في الممالك الرومانية عند انتشار الدين المسيحي، فكان لا بد من تقويض أركان الوثنية، وهي ممثلة أصدق تمثيل في الشعر الهومييري، فبات إغفال ذلك الشعر ضربة لازب لحدثا عهد المسيحيين بدينهم ولزوم أخذهم به موردًا صافيًا لا تشوبه أساطير السلف من عبدة الأوثان، ولكن بعض الدعاة غالوا في اتخاذ الطرق المؤذية إلى تلك الغاية؛ فاتهموا هوميروس بابتداع البدع وتحريف آي التوراة؛ ليصوغ منها ما وافق مذاهب قومه من القصص المستنبطة منها كعصيان الشيطان وطردهم من الجنة، وتلبس فرسيس بصورة موسى أول أمره، ومماثلة بليروفون ليوسف الصديق، وأمثال ذلك مما أشرنا إليه في الشرح، ولهذا كانوا ينادون بتحريمها خشيةً من أن تفسد عقيدة الناشئة المنتصرة، وكان من لوازم قولهم أن هوميروس لم يكن الناقل لخرافات الأولين بل الواضع لها المنادي بها.

تلك كانت الحال بين عامة المسيحيين، وأما علماءهم كالقديس إيرونيمس^{٥٥} فما زالوا مكين على تلاوة أشعار هوميروس معجبين ببلاغتها وسمو معانيها.

وما رسخت قدم النصرانية في البلاد حتى أفرجوا عن هوميروس وإلياذته وسائر منظوماته، فانطلقت تلك الخرائد من عقالها، وبرزت بحلٍ قشبية فعادت إلى اختلاب الألباب في مجالس الآداب.

الإلياذة والإسلام

وإنَّ ما قيل عن النصرانية في نشؤها يصدق على الإسلام في قرونه الأولى، إذ لا ريب أن أئمة الأئمة لو فرضنا وقوفهم ذلك الحين على محتويات الإلياذة لما ارتاحوا إلى بثها بين العامة؛ لئلا تكون من مفسدات الإيمان.

وزد على ذلك أن العرب لم يكادوا يخرجون من مهامه البداوة حتى ملكوا الأمصار، وانتشروا في سائر الأقطار، وأسسوا الممالك الكبار، وما استقر الملك للأمويين في الشام حتى بدت لهم الحاجة إلى استخراج كتب العلم، وما توطدت دعائم الدولة العباسية في العراق حتى نظَّم الخلفاء مجالس النقلة؛ لتعريب علوم المتقدمين من الفرس والهنود واليونان، فلاح لهم أنهم أحوج إلى العلوم منها إلى الشعر والأدب، وكانت حاجتهم الكبرى إلى علم الطب، ثم إلى علم الكلام للمناضلة عن الدين؛ فعمدوا إلى تعريب طب أبقراط وجالينوس، وفلسفة أرسطوطاليس ونظائرها، وأغفلوا الإلياذة وجميع ما يجري مجراها من كتب الشعر والأدب.

ثم إنه ليس في لغات الأرض لغةٌ يربو شعرها على الشعر العربي، ويزيد شعراؤها عددًا على شعراء العرب وهم جميعًا مخلصو الاعتقاد في شعرهم، ورعين في تعبده، فلا يخالون في الإمكان وجود شعرٍ أعجمي يجاري قصائدهم بلاغةً وانسجامًا، ودقةً وإحكامًا.

فهذا أيضاً كان من دواعي تقاعدهم عن الإقبال على شعر
الأعاجم اكتفاءً بما لديهم من درر ذلك البحر الزاخر.

على أنني أعتقد أنه لو طال زمن عظمة الدولة العباسية أو لو
تأخر زمن تبوء المأمون أريكة الخلافة جيلين لكانت بعض مقاطيع
الإلياذة تتلى الآن في أندية الأدب، ولا يطعن بهذا القول قيام دولة
الأندلس بعد حين، واشتغالها في الأدب، فإن الأمويين الأندلسيين تفننوا
بآداب العرب، ورقوا درجاتٍ في مراقبة الشعر، ولكنهم لم يضاهاوا
العباسيين في بغداد بشيء من إقبالهم على التقاط فلسفة الأعاجم
وتعريب كتبهم.

وبعد هاتين الدولتين لم تقم للعرب دولةٌ حريضة نظيرهما على
اختزان العلوم من مخابئها، وادخار الآداب من مناشئها، فإن كلاً من دولة
الفاطميين بمصر، ودول المغرب كانت، منصرفة إلى مشاغل أخرى فضلاً
عن قلة النقلة في أزمانها من المتضلعين في لغات الأعاجم فوق لغتهم.

نقلة العرب

وهناك أيضاً حازان طبيين وقفوا عقبةً صماء في وجه تعريب
الإلياذة شعراً في القرون الأولى، ولعلهما لا يقلان شأنًا عن حواجز الدين
أو يزيدان وهما:

أولاً: أن معربي الخلفاء كابن الخصي، وابن حُنين، وآل بختيشوع لم يكونوا عرباً، وإن تفقهوا بالعربية على أساتذتها، فلم يكن يسهل عليهم نظم الشعر العربي، وهم إنما كانوا بنظر العرب علماء أكثر منهم أدباء، وإن كانوا حريصين على آداب لغاتهم حتى حلّوا جيد السريانية بقلادة الإلياذة منظومةً شعراً كانوا يترنمون به في مجالسهم، ولا يشذ عن هذه القاعدة إلا قليلون معظمهم من الفرس الذين تفرغوا لآداب العرب، فبرزوا فيها كابن المقفع، وهؤلاء أيضاً لم يكونوا في عداد الشعراء.

وثانياً: أن شعراء العرب أنفسهم لم يكونوا يحسنون فهم اليونانية، فلم يكن فيهم من يصلح لتلك المهمة.

وإن قيل: إن عجز النقلة عن الإجابة في نظم الشعر العربي لم يكن مانعاً من تعريب الإلياذة نشرًا كما عُربت شهنامة الفردوسي. قلنا: «إن الارتباط بين الفرس والعرب كان أكثر منه بين العرب واليونان، وشتان بين ناظم الإلياذة وناظم الشهنامة، فذلك من عبدة الأصنام، وهذا من أدباء الإسلام، ومع ذلك فلم يقدّم بين العرب من تجرد لتعريب الشهنامة إلا بقيام ملك يُحسن فهم العربية والفارسية طرب بتلاوة الأصل، فأراد أن يطرب أمتَهُ بتلاوة التعريب؛ فوسّع بالرزق على رجل توسّم فيه الكفاءة، وهيئات أن يتيسر ذلك في غير تلك الحال.^{٥٦}

ثم إنه لا يخفى أن الشعر إذا تُرجم نشرًا ذهب رونقه، وبُهِت رَواؤُهُ». والظاهر أن هذا الحكم انطبق على تعريب الشهنامة، فأهمَلها الناس وإلا فما ذهبت ضياعًا، وبقيت أثرًا بعد عين نقرأ عنها في كتب التاريخ، وليس في الأدباء من روى لنا منها حديثًا مذكورًا.

وخلاصة القول أنه مهما يكن من الحوائل التي كانت تصد الأدباء عن نقل الإلياذة، وتحول دون إبرازها للعامة فما بقي لتلك الحوائل أثرٌ في زمننا بل صار من لوازم العصر إلباسُها حلَّةً عربيةً تجاري لغتنا لغات أبناء الحضارة، وخصوصًا أن ما فيها من أساطير دين الوثنية قد باد أثره، فصار من المحتوم أن يبقى خبره عبرةً للمعتبر.

التعريب

حكاية المعرب في تعريب الإلياذة

سألني الجُمُّ الغفير من أصدقائي الأدباء كيف عرِّبَتُ الإلياذة؟ وما حداني إلى تعريبها؟ فكتبت الفصل الآتي، ولعله لا يخلو من فائدة لمن قُضي عليه أن يسير في مثل هذه العقبة.

كلفَت منذ الصغر بمطالعة الشعر القصصي، ولا سيما ما تعلَّق منه بالخياليَّات وعبادات الأقدمين، ولما كانت لغتنا تكاد تكون خلوةً من ذلك الشعر، وفروض الدروس تستنزف الوقت، ولا تبقي معها بقية لقراءة ما شدَّ من مثل ذلك عن معيناتها؛ فتحول دون استقاء المياه من مواردها

كنت ألتقط ما سقط عرضاً من أفواه الأساتذة أو ورد شاهداً في كتب التدريس، فاجتمعت لديّ نبذ ضمّنتها بعض قصائد لفّققتها، ولم أتمّ العقد الثاني من أعوام الحياة، ولا يطالبني المطالع اللبيب بأمثلة من تلك القصائد، فحسبي هزء نفسي بي دون هزئه إذ لا أتمالك من الضحك كلما خطر على البال شيءٌ مما علق في الذاكرة، فهناك يَمُّ مختبطٌ اختلطت فيه آلهة الكلدان بآلهة اليونان والرومان، وأنزلت معبودات مصر موضع معبودات الهند والصين، واشتبه الذكور بالإناث، والتبست الأعلام الإفرنجية بالأسماء اليونانية على نحو ما دَوّن الكتبة في كثير من أخبارهم عن أُمم القرون الخالية، وهذا ولا بدع شأن كل كاتب تطاول إلى فنّ دخله من غير أبوابه.

فلما حكمت نفسي، وأصبحت متصرفاً مطلقاً في استعمال أوقات العطلة أدركت أنني لم أعرف شيئاً مع سابق الظن بسعة الاطلاع، فانتهيت إلى حيث كان يجب أن أبتدى، فعمدت إلى تلك المنظومات، ولم أكن بعد قرأت شيئاً منها قراءة صحيحة ما خلا «الفردوس الغابر» لمِلْتُن، وقرأت جميع ما وصلت إليه كلّ كتاب بلغته إذا كنت من قرائها، وإلا فبترجمته إلى لغةٍ أعرفها.

وكنت كلما قرأت منظومةً من المنظومات القديمة والحديثة زاد إعجابي بالإلياذة؛ لأنها وإن كانت أقدمهنّ عهداً، فهي لا تزال أحدثهنّ رونقاً، وأبهرهنّ رواءً وأكثرهنّ جلاءً، وأوسعهنّ مجالاً، وأبلغهنّ جميعاً.

نسج صفوة الشعراء على منوالها فلم يبلغوا شأوها، واستقوا من بحرها فملئوا بحارهم، ولم ينقصوها شيئاً.

فقلت: ما أخرى لغتنا العربية أن تحرر مثالا من هذه الدرة اليتيمة، فهي أولى بها ممن تناولها من ملل الحضارة، فليس في شعر الإفرنج ولغاتهم ما يوفر لها أسباب البروز بحلة أجمل مما تهيئه معدّات لغتنا، فالشعر اليوناني بلغة قريبة إلى الفطرة كلغتنا، والبحث في جاهلية قوم كجاهليتنا، وليس في شعراء ملّة من الملل من انطبقت معانيهم على معاني الإلياذة بالحكمة والوصف الشعري كالمقدمين من شعرائنا.

فناجتني النفس بتعريبها مع علمي بخطورة الموقف، ووعورة المسلك وطول الشقة، وقلت: تلك ملهاة تقضي بها أوقات الفراغ، فإذا فتح الله وفسح في الأجل زففتها إلى القراء، وإلا فلا أقلّ من أن أروّض نفسي بها وهي خير ما تروّض به النفوس، وعزمت منذ نظمت أول بيت منها على أن لا أغادرها حتى آتي على آخرها.

تعريب الأصل

فخططت لنفسى خطةً، وقلت: لأنظمنّ منها أمثلةً من حيث اتفق لي وأعرضها على الأدباء، فأتسم ما يكون من وقعها في النفوس، وأتبين مواطن الخلل، فخير لي أن أتبينها قبل التوغل في العمل، فتوكلت على الله وعمدت إلى ترجمة فرنسية منها كانت بين يديّ، وألقيتها إلى جانب ترجمة إنكليزية، وأخرى إيطالية، وفتحت الكتاب الفرنسي من ثلثه الأول، فإذا بأخيل وأغاممنون يتخاصمان، وأخيل ينهال على أغاممنون بالسباب والشتيمة، فنظمت الأبيات التي مطلعها:

يا مليكًا بنشوة الراح مُثَقَّلٌ ...

فعربتها على الطريقة المألوفة في النظم، وكانت أول ما نظمت من الإلياذة. وذلك في أخريات سنة ١٨٨٧ بمصر القاهرة. ثم فتحت الكتاب من ثلثه الثاني، فإذا بي في معتركٍ عنيف في أول النشيد الخامس عشر فنظمت القصيدة التي مطلعها:

تجاوزتِ الطرود حدَّ الخنادقِ يصلّمهم فيها حسام الأغارقِ

فكانت قصيدةً طويلة توثّقت بها من اتساع اللغة للمعاني والقوافي، ونهجت فيها نهجًا جديدًا مما كنت أعددته في ذهني وستراه مفصلاً في باب «النظم في التعريب».

ثم فتحت الكتاب من ثلثه الأخير، فإذا بي في الصفحة الثالثة من النشيد الثالث والعشرين، فرجعت إلى أوله، ونظمت منه نحو مئة بيت رجزاً مصرعاً ومقفى على أسلوبٍ استحسنته وحسبته وافيًا بمرامي لتعريب كل النشيد على سياقه.

فحملت جميع ما تجمع لدي من القصائد الثلاث بمسودَّاتها، وجعلت أعرضها على من زارني وزرته من الأدباء والشعراء ممن أَلَف الشعر العصري، ومن نشأ على انتهاج الشعر القديم، فاستحسنوا وجاملوا، فزدت بمجاملتهم نشاطاً، وأنست من بعضهم ربةً وخشية علي من الملل والقنوط؛ لوفرة ما يتبع هذا العمل الشاق من العناء الفادح، وكثرة ما يستلزم من النفقات لو مُثِّل بالطبع، وليس قراء العربية وطلاب أمثال هذا الكتاب ممن ينشط على المجازفة بمثل تلك النفقات، وشق النفس، وضياح الأوقات: على أن ذلك كان أقل ما تجزع له نفسي إذ أقدمت وليس بي جشع للربح من وراء هذا العمل بل أنا راضٍ بالخسارة لو حصلت ليس ذلك ترفعاً عن الكسب، ولكن لغرامٍ في النفس تستسهل الصعب في سبيله.

فقلت: لقد حان إذن أوان الشروع، فرجعت إلى أول نشيد وأخذت في النقل تباعاً حتى أكملته، ونظمت نصف النشيد الثاني، وكنت أثناء النظم أقابل الترجمات بعضاً ببعض، فأرى فرقاً يصعب عليّ

معه تبين الرجحان لنسخة دون أخرى، فأوقفت النظم، وقلت: لا بد إذن من الرجوع إلى الأصل اليوناني إذ لا يصلح النقل من غير أصله.

وكانت معرفتي باليونانية قاصرةً إذ ذاك لا تكاد تتجاوز القراءة البسيطة، وبعض أصولٍ ومفردات لا تشفي غليلاً، فأخذت أبحث عن أستاذ يروي غلتي، فأرشدت إلى عالمٍ من الآباء اليسوعيين، وأبلغت أنه متضلّع باليونانية تضلّعه بالفرنسية، وكنت أعلم أن الآباء اليسوعيين لا يسعهم التفرغ لإلقاء دروس خاصة خارج مدارسهم، فكان لا بد إذن من رضا الأستاذ وأذن الرئيس، فوفقني الله إلى الحصول على الأمرين، فشكرت لهما هذه المنّة، وجعل أستاذاً يلقني أصول اللغة، ويفسر لي فصولاً من الإلياذة، وأنا مُكب على الدرس متفرغ للاستفادة، وبعد أن قضيت معه أشهراً، وعلمت منه أنه يسعني أن أستتم الدرس وحدي، وأن أتناول تعريب الإلياذة من أصلها مع الاستعانة بكتب اللغة وتفسيرها، فارقت شاكراً ولبثت مدةً أجهد النفس بالمطالعة ثم استأنفت التعريب.

وكان بنفسي شيءٌ مما عرّيته من النشيد الأول والثاني، فرجعت إلى إمعان النظر فيه ومقابله على أصله، فرأيت خللاً أُلجّاني إلى التنقيح والتصحيح، فكنت لا أحجم عن تغيير البيت والبيتين، وربما أعدت نظم مقاطيع برمتها، ولم يقع لي شيءٌ من هذه الإعادة في سائر الأناشيد إلا أن يكون في استبدال فقرةٍ أو شطرٍ بغيرهما أو تغيير قافيةٍ بأخرى مما

يقع لكل ناظم، وفي ما سوى ذلك كنت أجهد النفس بإحكام البيت على قدر الاستطاعة قبل كتابته.

ولم أكد أستقر في مصر حتى حدا بي حادي الأسفار التي ألفتها منذ الصبا فبرحت القاهرة سنة ١٨٨٨ وفي النفس شغفٌ بها وحينئذٍ إليها، فأنتهى بي التطواف إلى العراق بعد أن طرقت الهند، وأطراف العجم، فأقمت فيها زهاء سنتين اضطرت إلى طي الإلياذة في معظمهما، ولم يتسنَّ لي العود إليها إلا بضعة أسابيع، على أنني لم أجمع بأديب منها إلا عرضت عليه شيئاً من منظومها وأدباء العراق مولعون بسماع الشعر.

ثم شخصت إلى الآستانة، واتخذتها مقاماً طيباً لبثت فيه سبع سنوات كنت كثير التنقل في أثنائها بين الشرق والغرب، فيومٌ بسوريا، وسنة بأوروبا وأمريكا، والمرجع إلى الآستانة. وكانت الإلياذة رفيقي حيثما توجهت أحتلس الأوقات خلسةً فلا تفرغ اليد من عمل إلا عدت إليها، ولطالما مرت الأسابيع والأشهر، وهي طي الحجاب ثم هبت بها من رقبتها وعاودت العمل، وكثيراً ما حصل ذلك في رؤوس الجبال، وعلى متون البواخر وقطارات سكك الحديد، فهي بهذا المعنى وليدة أربع أقطار العالم.

وكنت حيث حللت أتوخى الاستفادة من أهل ذلك المحل، ولا سيما في الآستانة حيث هياً لي حسن التوفيق أن اتصلت ببعض أدباء

اليونان عشاق هوميروس وإلياذته كاستافريذس ترجمان السفارة الإنجليزية، وكاروليدس أحد أساتذة كلية خلكي اليونانية بالآستانة، وبعضهم من قراء العربية، فكنت أشاورهم في بعض ما التبس وأُغلق، وهم لا يَضُنُّون وأقرأ لهم أجزاءً من المنظوم العربي فتعروهم هزة الطرب مستبشرين بتعريب أعظم منظومة لأعظم شعرائهم.

وهكذا ظللت بين وقوف ومسير إلى أول صيف سنة ١٨٩٥ فخرجت بعائلتي إلى مصيف فنار باغجه في ضواحي الآستانة، وظللت فيها أربعة أشهر فرغت في نهايتها من عناء التعريب.

كتابة الشرح

على أنني منذ شروعي في النظم كنت أطمح إلى ما وراء ذلك إذ لو عرضت الإلياذة على قراء العربية عاريةً من الشروح لما خالوها إلا هيكلًا شعريًا لا تربو فائدته على شيء مما بين أيديهم من الدواوين وما أكثرها في لغتنا.

فرايت أن أعلق عليها شرحًا أنتهج فيه أسلوبًا جديدًا لم ينتهجه أحد من الشراح بغية أن يأنس القارئ العربي بالرجوع في نظره إلى أخلاق أمته في جاهليتها، وبعض حضارتها والمشهور من أساطيرها وعباداتها، والمأثور من آدابها وعاداتها ومناهج شعرائها وأدبائها، ومواقف ملوكها وأمرائها وساستها وزعمائها، والإعجاب باتساع لغته في الوضع لكل معنى من المعاني الفطرية مع عجزها في الحال عن تأدية بعض الأوضاع

العصرية، وجميع ما يتناول وصف حالة العرب ولغتهم وحالتهم الاجتماعية. كل ذلك بالمقارنة والمقابلة مع ما كان من نظيره في الأمم الغابرة، ولا سيما في أمم اليونان، ويرتاح المطالع الإفرنجي من قراء لغتنا إلى الولوج في باب لا أظن أحداً ولجه من قبل، فيبحث وينقب، ويسترشد فيرشد على ما جرى عليه في سائر الشؤون، ونحن عن معظم ذلك غافلون.

ولهذا لم يكن لي بدُّ من مطالعة الأسفار الطوال والمجلدات الضخمة من كتب العرب والأعاجم في الأدب والشعر والتاريخ، وإذا ألقيت نظرك على باب الشواهد في العجم في ذيل الكتاب ورأيت أنني اضطررت إلى الاستشهاد بمئتي شاعر عربي بين جاهلي، ومخضرم، ومولّد فضلاً عما نقلته من شعر الأعاجم عذرتني على ما أضعت من الوقت في شرح الكتاب إذ ربما قرأت ديوان الشاعر كله طمعاً بيت واحد: ولو جمعت الزمن الذي صرفته في النظم لما زاد عن نصف مثله مما صرفته في تدوين الشرح.

وفي أوليات سنة ١٨٩٦ دعاني داعٍ حثيث إلى القاهرة، والنفس تشتاقيها فانتهزتها فرصةً، وانتقلت بعائلتي إليها ولكن أموراً هامةً حالت دون تمثيل الكتاب بالطبع أخصها اشتغالي بعمل شاقٍ آخر هو «دائرة المعارف». ولكنني كنت أختلس أويقاتٍ يسيرة أرتب الشرح في أثنائها حتى انتهيت منه عام ١٩٠٢ فباشرت الطبع.

ولست بمعتذرٍ لأبناء وطني عن انقضاء كل هذا الزمن قبل إنجاز العمل الأخير، فقد أَلَفنا التَّأني والمطل، وإن الواحد منا ليشرع في طبع مئتي صفحة فتمر الأعوام ولا يَتَمُّها. على أن ابن الغرب تعتريه الدهشة لمثل هذا التراخي، وهو في بلاده لا يكاد يسمع بتأليف كتاب حتى يراه مطبوعًا تتداوله الأيدي، فلمثل هذا اللائم أقول: «إن الحالة عندنا على خلاف ما تعهد، فليس في بلادنا شركات تأخذ على نفسها طبع الكتب على نفقتها فتعد المال والرجال، بل لا بد عندنا وإن توفرت النفقات أن يتولى المؤلف في مثل هذه الأحوال طبع كتابه بنفسه، وإن استعان بصديق أو غيره على مراجعة مسودَّة فلا يغنيه ذلك عن أن يكون هو المصحح المنقح، وإذا زدت على هذا أن دواعي صحة الجسم تلجئني كل سنة إلى إيقاف العمل بضعة أشهر إذ أضطرُّ أن أبرح مصر إلى لبنان أو غيرها من بلاد الله اتَّضح أني أسرعت في طبع الإلياذة مع إبطائي في إعدادها».

المعجم والمقدمة

وفي منصرم ربيع السنة الماضية (١٩٠٣) كان الفراغ من طبع الإلياذة وشرحها، فحملت الكتاب معي إلى لبنان حيث قضيت الصيف، وانتهزت فرصة الفراغ والراحة لكتابة المعجم، وحالما وصلت القاهرة في آخر الصيف أخذت في إنشاء هذا الفصل وسائر فصول المقدمة: وهكذا فقد كان الفراغ من هذا الكتاب حيث كان الشروع فيه أي في

قاهرة مصر، وأراني كما أسلفت لك لم أدخر وسعاً في تحبير تعريبه وتنميقه، ولم آل جهداً في تطبيق شرحه وتنسيقه، فإن أحسنت وفيه منتهى جهدي فذلك من حسنات الاجتهاد، وإلا فحسبي أن أفتحه باباً يلجّه من وفقه الله إلى سبيل السداد.

أصول التعريب

لقد جرى الكثيرون من نقلة لغات الإفرنج إلى العربية على أصول ابتدعوها لأنفسهم، فشطّوا بأكثرها عن منهج الصواب، فأجروا قلمهم بل هو جرى بهم مطلق العنان يحبر ما يريد دون ما أراد الواضع، فمن متصرفٍ بالمعنى يزيد وينقص على هواه فيفسد النقل ويضيع الأصل، ومن متسرعٍ يضنُّ بدقائق من وقته للتثبت من مراد المؤلف فيلتبس عليه فهم العبارة؛ فينقلها على ما تصورت له لأول وهلة، فتعكس عليه المعاني على كُرهٍ منه، ومن ماسخٍ يلبس الترجمة ثوباً يرتضيه لنفسه فيثقل بالمعاني على ما يطابق بغيته، ويوافق خطته حتى لا يبقى للأصل أثراً، ومن عاجزٍ يجهد النفس ما استطاع وهو وإن أجهدها ما شاء غير كفوءٍ لخوض هذا الباب.

ثم يقوم هؤلاء الكتّاب ويسمُّون ما كتبوا تعريباً، وأولى بهم أن يسمّوه تضميناً أو اختصاراً أو معارضةً أو مسخاً.

ولكنهم جميعاً أولى بالعدر والعفو من فئة أخرى يأتي الواحد منها على الكتاب فينقله كله أو بعضه، ثم يعرضه على الناس تأليفاً من نتاج قريحته، وهؤلاء هم السرقة الدجالون.

على أن لدينا والحمد لله رهطاً من ذوي الذمة والعلم يتوخون الصدق، ويتحرّون الضبط والأحكام، ويجيدون الرسم فيأتي مثلاً صادقاً، فإذا نقلوا قالوا نقلنا وإذا تصرفوا قالوا لغرضٍ تصرفنا، وإن ضمّوا قالوا لأمرٍ ضمّنا، وإن عارضوا قالوا لسببٍ عارضنا، فهؤلاء إذا صحت كفاءتهم هم الذين يجب أن يُصدّق خبرهم، ويُقتفى أثرهم.

معربو العرب

وإذا رجعنا إلى الثّقلة الأوائل رأينا أن زمرةً كبيرة منهم كانوا من هذا الفريق الأخير، وهم على تفاوت إجادتهم في تأدية المراد ممن قصد الفائدة الحقّة وتوخى الصدق والدقة.

وقد سلكوا في التعريب مسلكين نقلهما البهائم العاملي في الكشكول عن الصلاح الصفدي قال: «وللترجمة في النقل طريقان:

أحدهما طريق يوحنا بن البطريق، وابن الناعمة الحمصي وغيرهما، وهو أن ينظر إلى كل كلمة مفردة من الكلمات اليونانية وما تدل عليه من المعنى، فيأتي الناقل بلفظة مفردة من الكلمات العربية ترادفها في الدلالة على ذلك المعنى فيشبهها وينتقل إلى الأخرى كذلك حتى يأتي على جملة ما يريد تعريبه، وهذه الطريقة رديئة لوجهين:

أحدهما: أنه لا يوجد في الكلمات العربية كلمات تقابل جميع كلمات اليونانية؛ ولهذا وقع في خلال التعريب كثير من الألفاظ اليونانية على حالها، الثاني: أن خواص التركيب والنسب الإسنادية لا تطابق نظيرها من لغة أخرى دائماً، وأيضاً يقع الخلل من جهة استعمال المجازات وهي كثيرة في جميع اللغات. الطريق الثاني في التعريب طريق حنين بن إسحاق والجوهري وغيرهما، وهو أن يأتي الجملة فيحصل معناها في ذهنه ويعبر عنها من اللغة الأخرى بجملة تطابقها سواءً ساوت الألفاظ أم خالفتها، وهذا الطريق أجود ولهذا لم تحتج كتب حنين بن إسحاق إلى تهذيب إلا في العلوم الرياضية؛ لأنه لم يكن قيماً بها بخلاف كتب الطب والمنطق والطبيعي والإلهي، فإن الذي عرّبه منها لم يحتج إلى إصلاح.

وإن هذين الطريقين اللذين أشار إليهما الصلاح الصفدي منذ زهاء ستة قرون هما المذهبان المعول عليهما في النقل حتى يومنا، وليس وراءهما مذهب ثالث في التعريب الصحيح؛ أما الطريقة الأولى فهي كما قال رديئة: «إذا أُريد بها استجماع محصل المعاني» وهي أيضاً أنها تذهب بطلاوة التركيب فلا تبقى لها أثراً، ولا تصلح للكتب التي تتداولها الأيدي من الخاصة والعامة، ولا ترتاح إليها نفس مطالع، وقلما تجد قارئاً يقوى على استتمام صفحة منها، ولكنها مع هذا مفيدة لطالب اللفظ دون المعنى؛ ولهذا جرى عليها بعض كتّاب الإفرنج في بعض التأليف المراد بها تعليم اللغات، وانتهجوها في نقل كثير من كتب الأدب والشعر

كمنظومات هوميروس وفرجيليوس إذا أُريد بها إفادة طلاب اليونانية واللاتينية دون طلاب الإلياذة والإنيادة، ويشترط لصحة فائدتها أمران: أولهما: أن يكتب الأصل بلغته ومردفًا في اللغة المنقول إليها، والثاني: أن يكون بإزائها ترجمة أخرى على الطريقة الثانية التي هي طريقة حنين؛ لاستجلاء المعنى، وإلا اختلطت المعاني على المطالع وغاب عنه فهم قوة العبارة؛ لأن الجمل على الطريقة الأولى تأتي مختلة التركيب مقلوبة الوضع، فما يجب تقديمه في لغة يجب تأخيرها في أخرى، وما يجب إثباته في الأصل يجب تقديره في النقل وهلمَّ جرًّا، فلا طلاوة ولا إحكام، ولا إعراب، ولا انسجام.

أما الطريقة الثانية فهي التي عَوَّل عليها الجمهور لحصول الفائدة فيها من الوجه المطلوب، وهو نقل المعاني ورسمها رسمًا صحيحًا ينطبق على لغة النقل ومشرب قرائنها، فإذا قرأ المطالع فيها كتابًا معرَّبًا، فإنما هو يقرأه عربيًّا، ولا يقرأه أعجميًّا كما يحصل في الطريقة الأولى؛ ولهذا يصح أن يقال: «إن طريقتنا إنما هي طريقة حنين بن إسحاق والجوهري».

مسلك المعرَّب في تعريب الإلياذة

علمت مما تقدم أن المعرَّب تحرَّى الصدق في النقل مع مراعاة قوام اللغة، وعسى أن يكون ممن كُتب لهم التوفيق، وأقول زيادةً للإيضاح أنني وُطنت النفس على أن لا أزيد شيئًا على المعنى، ولا أنقص منه، ولا أقدم، ولا أؤخر إلا في ما اقتضاه تركيب اللغة، فكنيت أعمد إلى الجملة

سواءً تناولت بيتًا أو بيتين أو أكثر أو أقل، أسبكها بقلب عربي أجلو رواءه على قدر الاستطاعة، ولا أنتقل إلى ما بعدها حتى يخيل لي أنني أحكمتها.

ولما كان الشعر العربي يختلف طولًا وقصرًا باختلاف أوزانه كان لا بد من حصول التفاوت في النسبة بين عدد أبيات الأصل، وعددها في النقل، وليس في اليونانية شطرٌ وبيتٌ كالعربية، فكل شطر منها بيتٌ تامٌّ كالرجز في عرف بعض العروضيين، إذ يعتبرون كل شطر منه بيتًا كاملاً، ثم إنه كثيرًا ما يحصل الترابط فيها بين بيتين وأكثر بما لا يجوز إتيان نظيره في العربية؛ ولهذا لم يكن في دائرة الإمكان أن يُنقل البيت اليوناني بيتًا أو شطرًا عربيًا، إذ كلما كثرت أجزاء بحر الشعر العربي زاد اتساعه لاستيعاب المعاني، فالطويل والبسيط مثلاً يستوعب البيت منهما ما لا يتسع له السريع والمنسرح، وهذان تاقمين يستوعبان ما لا يتسع له المجزوء من سائر الأبحر، فبهذه النسبة يمكن اعتبار كل بيت من الطويل والبسيط بمثابة زهاء بيتين من الأصل اليوناني، ويقرب منهما الكامل التام، وكل بيتين من الخفيف والسريع، والمنسرح والرجز والمتقارب، والمتدارك والوافر، والرمل واحدًا الكامل مقابل ثلاثة أبيات من اليونانية، فجاءت الأبيات العربية بين العشرة والأحد عشر ألف بيت نقلًا عن أصل عدده بين الستة عشر والسبعة عشر ألف بيت.

وكنْتُ أثناء مطالعتي ترجمات الإفرنج أنكر أمورًا كرهت أن ينكرها غيري عليّ فاجتبتّها، مثال ذلك: تصرف البعض منهم تصرفًا غريبًا، فيبدلون معنى بآخر ولفظة بغيرها، ولهم في ذلك أعذارٌ تافهة أشرنا إليها في مواضعها، وأغرب من هذا ما يقدمون عليه من الحذف والإضافة، فقد رأيت في بعض المواضع أبياتًا كثيرة قضاها عليها بالحذف، وأبياتًا كثيرة حسّنت لهم أنفسهم إضافتها حتى إن أحدهم حاك من أربعة أبيات أربعة وثلاثين بيتًا ضمّنها معاني لم تخطر على بال هوميروس.

المحافظة على الأصل

فكان معظم همي أن لا أحجف مثل هذا الإحجاف، فلم أتصرف بشيء من المعاني، وحافظت على الألفاظ ما أمكن فإن حذفت لفظة فهي إما من مكررات الأصل التي يحسن تكرارها في لغتها، ولا يحسن في لغتنا، وإما من الألفاظ التي يمكن استخراجها من المعنى، وقد يمكن أن تكون من الألقاب والكنى التي يستغنى عن إيرادها كل حين، وإن زدت لفظة فهي؛ إما مما يقتضيه سياق التعبير العربي، وإما قافية لا تزيد المعنى ولا تنقصه، وإن قدمت أو أخرت فكل ذلك في فسحة قصيرة يقتضيها السبك العربي، وكان هذا أعظم قيدٍ قيدت به نفسي.

اجتناب الوحشي والحوشي

ثم إنني اجتنبت ما أمكن حوشي الكلام ووحشيّه؛ طمعًا بأن لا تحقره الخاصة، ولا يغلق فهمه على العامة، وإذا اضطررت إلى إثبات

كلمة لغوية فتلك؛ إما لفظةٌ وضعية لا يمكن استبدالها بغيرها، وإما قافيةٌ لا يمكن العدول عنها، وإما تعبيرٌ ليس ما يفصله في الكلام المأنوس.

الألفاظ التي لا مرادف لها في العربية

وليت هذا منتهى الإشكال في تعريب الإلياذة، فقد اعترضت لي ألفاظ وتراكيب وصفية بعضها غير مألوف في العربية، وبعضها لا يقابله مرادفٌ أصلاً، فاضطرت إلى انتقاء ألفاظ يمكن إطلاقها على المعنى المراد ونهت عليها، وإلى نهج أسلوب في التركيب الوصفي لا يختل معه نظام العربية، ودونك أمثلة يسيرة من ذلك:

لآلهة اليونان طعامٌ وشرابٌ يعبر عنهما بلفظتين لا مرادف لهما في العربية، فعبرت عن الشراب بالكوثر والسلسيل كما أوضحت في الشرح: وعبرت عن الطعام بالعنبر؛ لأن هذا لفظها باليونانية (Αμβροσία) وهو عندهم طعامٌ وطيب بآن واحد كما أوضحت.

وعند القوم آلهة وشبه آلهة كثيرون لا شبيه لهم عند العرب، فلم توضع لهم أسماءٌ خاصة بهم، فحيثما أتيت على لفظة من مثل هذا رجعت إلى معنى اللفظة اليونانية، وعربتُها بما رادف ذلك المعنى أو قاربه، فدعوت ربات الغناء ومنشدات الآلهة «القيان» والقينة في العربية الجارية المغنية، ودعوت ربات اللطف البهجات والخرائد، فاللفظة الأولى أخذاً عن مفاد المعنى، واللفظة الثانية تشبيهاً بالكلمة اليونانية التي تماثلها في اللفظ (Χαριτες) كما أوضحت في الشرح.

وأما الموصوفات العلوية الموضوعة لمعنى معين، فقد سميتها بأسمائها التي تنطبق عليها في العربية، فسميت آلهة الفتنة «فتنة» ورب الهول «هولا» وإله الشقاق «شقاقاً» والساعات «ساعات» والصلوات «صلوات» وهلمَّ جرّاً.

التراكيب الوصفية

وفي الإلياذة تراكيب وصفية ملازمة لكثيرٍ من أعلامها، وقد يكثر تكرارها فيها إلى حيث يُكره ذلك في العربية كوصف آخيل بخفة القدم، ووصف هكطور بهز الخوذة، والقول في نسطور أنه راعي الشعب، وفي زفس أنه أبو الآلهة والبشر، ففي مثل هذه الأحوال خففت التكرار وانتقيت ألفاظاً حسببتها خفيفةً على المسمع العربي فقلت: طيار الخطي، وهياج التريكة وما أشبه.

تعريب الأعلام

ثم إنه لم يكن بالأمر السهل تعريب الأعلام بما لا يمجُّه الذوق العربي وخصوصاً أنني أعلم أن قارئ أمثال الإلياذة لا بد أن يستثقل في أول الأمر توالي أعلام أعجمية لم يألَف سمعه شيئاً منها، ولكنه إذا نفر من تلاوتها أولاً لا يلبث أن يألَفها بعد تلاوة قصيدة أو بعض قصيدة.

وقد كانت لي هذه الأعلام في النشيد الأول عشرةً في سبيل إحكام النظم، فكان لا بد من وضع أصولٍ اعتمد عليها في سائر الأناشيد وليس في كتب العرب ما يماثل هذه الأصول، وإن في كتاب

سيويه باباً للتعريب، ولكنه اقتصر في معظمه على تتبع بعض الألفاظ مما استعمله العرب من أعلام الأعاجم وغيرها، والنظر في ما ألحق منها بالبناء العربي كـهَرَج، وَجَوْر، ودينار، ودياج، ويعقوب، وإسحاق، وما لم يلحق به كـكُركم وَخُرَّم، وَخُرَّاسان.

وجميع ما كتب الخفاجي في شفاء الغليل، وأبو حيَّان في ارتشاف الصَّرَب من لسان العرب، والثعالبي في فقه اللغة، والسيوطي في المزهر، وغيرهم ممن طرق هذا الباب لا يكاد يتعدَّى الألفاظ الفارسية وقليلًا من غيرها، ومحصله أيضًا أنه لم يضع العرب قواعد مطردة يمكن الرجوع إليها في مثل هذه الحال، وإذا أردنا القياس على ما جاء في الكتب العربية من الأعلام اليونانية زادت المعضلة إشكالًا، فإن أيدي النساخ قد لعبت بها كل ملعب هذا فضلًا عن أنهم لم يجروا بها على نمطٍ معلوم في زمن من الأزمنة إلا في أحوال محصورة وأسماء مشهورة، وزد على هذا أن أكثر أعلام الإلياذة غير مذكور في كتب العرب، ولا ريب عندي أن المعربين والمؤرخين تَوَخَّوا ما أمكن حسن التطبيق في تعريب الأعلام، ولكن عدم جريهم على خطة واحدة وسَنِّ معلوم ذهب بذلك الجهد ضياعًا، فقالوا مثلاً: «أرسطاطاليس، وأرسطوطاليس، وأرسطاليس، وأرسطوليس» وبتروه أيضًا، فقالوا: «أرسط». وقالوا: «أسقليبيوس، وإسكولابيوس، وإسكليبي، وأسقولاب» وأمثال ذلك كثيرة في النثر فما بالك لو نظمت شعرًا.

تلاعب النساخ

وأما تحريف النساخ وتصحيْفهم فمما لا يدركه حصر، فكثيراً ما تقرأ فيلقوس، وفيلثوس، وفيلنوس، وقيلبوس، وقنلتوس، ويكون المراد فيلبس أبا الإسكندر، وتقرأ بودنطه، وتيرنطه، وبيرنطه، وبورنطا والمراد البيزنطية، وخذ أي كتاب شئت من كتب التاريخ من البيروني، والمسعودي إلى ابن الأثير وابن خلدون حتى المقرئ، وانظر فيه إلى الأعلام اليونانية، فيشكل عليك إرجاعها إلى أصلها.

وكثيراً ما نرى الاسم الواحد مكرراً في صفحات وهو في كل صفحة بهجاء مختلف عما قبله وما بعده، فإذا فتحت القرمانى طبع بغداد صفحة ٢٣٦ وقرأت أنطياقوس، ثم رأيت أبطيحش بالباء والحاء فما أدراك أن المراد بهما أنطيوخوس إذا لم تكن هناك قرينة ترشدك.

ومن بلاء النسخ أيضاً تحويل الفكر من علمٍ مشهور إلى علمٍ مشهور؛ فتضيع فائدة الرواية بجملتها كقولهم في يوليوس قيصر بولس أو بولوس، وأين بولس من يوليوس؟

ولا يصح إرجاع اللوم في خطأ النساخ إلى المؤلفين والمؤرخين إلا حيث اجتزءوا بالنقل من نسخ مُصحَّفة، وإلا فلا ريب أن القاضي الفاضل مثلاً لم يفسد شيئاً من الأسماء الإفرنجية في ما كتب عن الصليبيين، فلم يقل الاستبارية والاستنارية، كما نقل ابن الأثير وابن

خلدون بل قال: «الاسبتالية» على لفظها الإفرنجي (hospitaliers).

عود إلى تعريب الأعلام

بقي عليّ أن أذكر الأصول التي جرّيت عليها في تعريب الأعلام: جرت للإفرنج عادةً في نقل كثير من الأعلام اليونانية عن الأصل اللاتيني دون اليوناني، ولا سيما في أسماء المعبودات، فإذا أرادوا أثينا آلهة الحكمة، قالوا: «مينرفا» بلفظها اللاتيني، وإذا أرادوا فوسيد أو فوسيدون إله البحار قالوا: «نبتون» والسبب في ذلك أن معبودات الرومان كانت تماثل معبودات اليونان من أوجه شتى، ولها عند كلٍّ من الفريقين أسماءٌ توافق روح لغته ومعانيها، وإذا كان الإفرنج أقرب عهداً بالرومان، وقد تناولوا أسماء معبوداتهم عن اللاتينية على ما دَوَّنَها فرجيليوس وغيره من الشعراء والكتّاب أطلقوا تلك الأسماء على الأعلام اليونانية أيضاً لمماثلتها لها في المفاد، على أن كثيرين من محققهم قد أخذوا يرجعون إلى الأصل ويذكرون كلِّ علمٍ باسم لغته.

وهكذا فعلت في تعريب المعبودات، فسميت كل معبودٍ باسمه اليوناني، وإن كان لبعضها ذكرٌ في كتب العرب، فقلت: زفس ولم أقل زاوِش كما قال أبو نواس: «ولا المشتري» وإن ورد بهذا اللفظ في كتب العرب، وقلت: «هرمس» ولم أقل: «عطارد» وقلت: «آرس» ولم أقل: «المريخ» كما قال: العرب أو بهرام كما قال العرب والفرس، وذلك؛ لأن

مشتري العرب، وعطاردهم، ومريخهم، وبهرامهم هم غير أمثالهم عند اليونان، وليس لهم في كتبنا وصفٌ معيّن ينطبق على المفاد اليوناني، ولم أتوسع في شيء من هذا الباب إلا باسم عفروذيت، فقد أطلق عليها اسم الزهرة لقب الشبه بين الزهرتين في أساطير القومين.

وفي سائر الأعلام حفظت الأصل اليوناني مع مراعاة صحة اللفظ العربي على قدر الإمكان.

وتابعت العرب في الأسماء الشائعة، فأبقيتها على حالها، فلم أقل: «أَلِكْسَنْدَر» أو «أَلِكْسَنْدَرُوس» على ما يقتضيه اللفظ اليوناني؛ بل قلت الإسكندر لإجماع العرب على كتابته بهذا الهجاء.

وجاريت الإفرنج وكثيرين من كتاب العرب بزيادة حرف الهاء في أوائل الأسماء المبتدئة بحرف علة ثقيل، فقلت: «هوميروس، وهَلِيس، وهيرا، وهيبا» كما قالوا: «هيروُدس، وهيروُدوتس، وهرقل، وهيلانة» مع أنه لو روعي رسم الحروف اليونانية وعُلم أنه لا هاء فيها لوجب أن يقال: «إيروُدس، وإيروُدوتس، وإرقل وإيلانة». على أن العرب لم يراعوا ذلك في كل الأحوال؛ ولهذا قالوا: «أوميروس وأسيودس» بدل هوميروس وهسيودس.

ومثل ذلك يقال في زيادة العين في أوائل نحو عشرة أسماء، فإن ذلك يقربها إلى اللهجة العربية، فأخفّ علينا أن نقول: عسقلاف من أن نقول: أسقلاف وعفروذيت بدل أفروذيت.

وجاريت الإفرنج وبعض العرب أيضاً في بتر بعض الأسماء، ولا سيما الطويل منها فقلت: طرطار بدل طرطاروس، وطفطام بدل طفطاموس، ومريون بدل مريونس، وإسكمندر بدل إسكمندريوس، وفوسيد بدل فوسيدون كما قال العرب: «هرقل» بدل «هرقليس»، و«تيوفيل» بدل «ثيوفيلوس» وخصوصاً أن ملازمة هذه السين للأعلام اليونانية كملازمة الحركة والتنوين للمعرفة والنكرة، ففي الحركة العربية غنى عنها.

الحروف التي لا مقابل لها في اليونانية

وليس في اليونانية طاءً ولا قاف، ومع هذا فهما كثيران جداً في الأعلام اليونانية واللاتينية المعربة، فقالوا: «أنطيغونس، وأنطيوخس، وقبرس، وقسطنطين، وقيصر» بدلاً من أنتيغونس، وأنتيوخس، وكيرس، وكنستنتين، وكيسار، وأخالهم أحسنوا بالنظر إلى انطباق تعريبهم على اللهجة العربية، فجازيت من سلك هذا المسلك وقلت بالطاء: طروادة وطرتا، وطيطان وأمثالها، وبالقاف قرونس، وقبريون، وقليارُس، وربما اجتمع الحرفان كما في طفقير.

ويقال مثل ذلك في الصاد، فهي ليست من حروف اليونانية، ومع هذا فقد قلت: صوقوس كما قالوا: صولون وصوفياً.

واليونانية خلّو من حرف الدال، فكل دالٍ فيها ذالٌّ، فراعت في هذا الباب جودة اللفظ، وحافظت على إبقاء معرّبات المتقدمين على

حالتها فقلت: «الإسكندر، والإسكندر، وداماس، ودردانيا بالذال، وذريون، وذيتير، وذيفوب بالذال».

الحروف التي لا مقابل لها في العربية

وفي اليونانية حروف ليست في الهجاء العربي كالفاء B فهي مقام الباء في الحروف السامية، وموقعها موقع هذه أي ثانية في الحروف، فكما عبّر اليونان بها عن بائنا لخلو لغتهم منها يجب أن نعبر عنها بالباء لخلو لغتنا من حرفهم، ويشمل هذا التعريف جميع الألفاظ التي يدخل هذا الحرف بهجائها، وهي كثيرة كباتيا، وبريسا، وبورس وبرياس.

وفيها حرف آخر لا مقابل له في العربية، وهو الباء الفارسية II فقد اخترت لها الفاء لقرب مخرجها إليها فقلت: «فريام، وفطرقل، وفوذالير» كما قالوا: فرسيّس، وأفلون، وفيداس، ومن معربي القدماء من اختار لهذا الحرف الباء العربية، فقالوا: بطرس بخلاف كثيرين من معربي السريان الذين يقولون: فطرس، فعولت على هذا الوجه إلا حيث وقع تكرار الحرف أو ثقل اللفظ بالفاء، فأرجعته إلى الباء وقلت: «فينبّس وبفلغونة، وأولمب» ولم أقل: «فينفس، وأولمف، وففلغونة»

ولا فرق في اليونانية بين الجيم والغين، فيعبر عنهما فيها بحرف واحد P مخرجه بين الغين العربية والجيمين، أي: الجيم المصرية والجيم السورية، فقد اخترت أن أعبر عنها بالغين، فقلت: «غلاطيا، وغرطينة»

إلا في أحوال قليلة رأيت فيها الجيم أوقع في الأذن سواءً كان مصرياً أو سورياً كجبرينا ومجيس.

تنافر السين والشاء

والشاء والسين كثيرتان في الألفاظ اليونانية، وقد تجتمعان معاً فيشكل على العربي لفظهما إذا كان أولهما ساكناً، ففي مثل هذا قلبت الشاء تاءً فكتبت أغستين بدل أغستين، وأنقل من ذلك اللفظ إذا وقعت الشاء بين سينين نحو مَنَسِثَس فكتبتها منستس، وأما إذا كان الساكن الثاني، فإني أبقيته على حاله لسهولة لفظه إذ لا يصعب مثلاً أن يقال تسطور.

الپاء والفاء

ومع أني تحاشيت الپاء الفارسية، والفاء اليونانية في النظم فلم أتحاشهما في الشرح، فالعربية واليونانية لغتان قديمتان، وللنقلة فيهما أوضاع رأيت أن لا أتعدّها في الشعر إلا فيما لم يتركوا باباً رغبةً في استبقاء الصبغة الفطرية على حالها، وأما الشرح فهو بلسان عصري، وقد اضطررت فيه إلى إيراد أعلام قديمة وحديثة وقع فيهما هذان الحرفان، فأبقيتهما على حالهما؛ دفعاً للبس كما يفعلون مثلاً في اليونانية الحديثة إذا أوردوا علماً إفرنجياً أحد حروفه الباء، وهي ليست موجودة في لغتهم فيعبرون عنه بحرفين **MH** وليس من ذلك شيء في اليونانية القديمة.

طريقة ابن خلدون

وقد تعرض للقارئ أثناء مطالعته كتب الأعاجم حروف كثيرة لا نظير لها في العربية، فكان قدماء الكتّاب من العرب يكتبونها بما يقارب لفظها من حروفهم، وهو نقص غير خاص بالعربية، ولكنه يتطرق إلى كل لغة من سائر اللغات، ومنشؤه من التباين في النطق بالحروف بين لغة وأخرى، فمهما كانت الصور التي يرسم بها الإفرنجي أكثر حروف الحلق، وبعض الحروف العربية كالحاء والعين والقاف والضاد، فليس بالأمر السهل عليه أن يتلفظ بها على وضعها العربي، ومع هذا فقد اتخذ لها بعض الكتّاب الحديثين صوراً فارقة تميزها بالرسم؛ دفعاً للإشكال كأن يضعوا نقطة فوق حرف k ليشيروا أنها في الأصل قاف، وليست كافاً، ونقطة فوق حرف h أو تحته ليشيروا أنها حاء وليست هاء، و d منقوطة يعبر بها عن الضاد، وإذا أريد بها الطاء ألحقوا بها حرف h. والعين ساكنة يعبر عنها بضمة، ومتحركة بحرف حركتها مع الضمة المذكورة وهلمَّ جرّاً.

وليس كتّاب العصر بأول من انتبه إلى هذا البحث، فقد قال ابن خلدون في مقدمته:

«ليست الأمم كلها متساوية في النطق بتلك الحروف، فقد يكون لأمة من الحروف ما ليس لأمة أخرى، والحروف التي نطقت بها العرب هي ثمانية وعشرون حرفاً كما عرفت، ونجد للعبرانيين حروفاً ليست في

لغتنا، وفي لغتنا أيضاً حروف ليست في لغتهم وكذلك الإفرنج والترك والبربر وغير هؤلاء من العجم، ثم إن أهل الكتاب من العرب اصطَلَحُوا في الدلالة على حروفهم المسموعة بأوضاع حروف مكتوبة متميزة بأشخاصها كوضع ألف، وباء، وجيم، وراء، وطاءٍ إلى آخر الثمانية والعشرين، وإذا عرض لهم الحرف الذي ليس من حروف لغتهم بقي مهملاً عن الدلالة الكتابية مغفلاً عن البيان، وربما يرسمه بعض الكتاب بشكل الحرف الذي يليه من لغتنا قبله أو بعده، وليس ذلك بكافٍ في الدلالة بل هو تغيير للحرف من أصله، ولما كان كتابنا مشتملاً على أخبار البربر وبعض العجم، وكانت تعرض لنا في أسمائهم أو بعض كلماتهم حروف ليست من لغة كتابتنا ولا اصطلاح أوضاعنا اضطررنا إلى بيانه، ولم نكتف برسم الحرف الذي يليه كما قلناه؛ لأنه عندنا غير وافٍ بالدلالة عليه، فاصطلحت في كتابي هذا على أن أضع ذلك الحرف العجمي بما يدل على الحرفين اللذين يكتنفانه؛ ليتوسط القارئ بالنطق بين مخرجي ذينك الحرفين فتحصل تأديته، وإنما اقتبست ذلك من رسم أهل المصحف حروف الإشمام كالصراط في قراءة خلف، فإن النطق بصاده فيها معجم متوسط بين الصاد والزاي، فوضعوا الصاد ورسموا في داخلها شكل الزاي، ودل ذلك عندهم على التوسط بين الحرفين، فكذلك رسمت أنا كل حرف يتوسط بين حرفين من حروفنا كالكاف المتوسطة عند البربر بين الكاف الصريحة عندنا والجيم أو القاف مثل

اسم بلكين، فأضعها كافاً، وأنقطها بنقطة الجيم واحدة من أسفل أو بنقطة القاف واحدة من فوق أو ثنتين^{٥٧} فيدل ذلك على أنه متوسط بين الكاف والجيم أو القاف، وهذا الحرف أكثر ما يجيء في لغة البربر، وما جاء من غيره، فعلى هذا القياس أضع الحرف المتوسط بين حرفين من لغتنا بالحرفين معاً؛ ليعلم القارئ أنه متوسط فينطق به كذلك، فنكون قد دللنا عليه ولو وضعناه برسم الحرف الواحد عن جانبه لكننا قد صرفناه من مخرجه إلى مخرج الحرف الذي من لغتنا، وغيرنا لغة القوم، فاعلم ذلك والله الموفق للصواب بمنه وفضله».

ذلك ما أشار به ابن خلدون منذ خمسة قرون، وهو مقتبس من كتابة أهل المصحف، فلم يعبأ الكتاب بكلامه أو هم لم يشعروا بحاجة ماسة إليه إذ كادت تنطوي صحف التعريب في الأعصر المتأخرة. على أن أبناء العصر أخذوا يشعرون بتلك الحاجة، فجعل بعضهم يميز بين رسم الحروف الأعجمية البحتة.

وليس عسيراً علينا أن نستمد من الفرس كثيراً من الحروف التي ليست في أوضاع العربية، فتسدُّ مسدّاً ما نقص عندنا من حروف الإفرنج؛ لأن الفارسية على ما لا يخفى أقرب بوضعها ومنشئها إلى لغات الغرب منها إلى اللغات السامية، فلما عدل الفرس بعد الإسلام عن حروفهم الفهلوية إلى الحروف العربية رأوا أن حروفها لا تؤدي جميع منطوق اللفظ بلسانهم، فزادوا من عندهم حروفاً لما نقص عن مدلول لفظهم في

لغة العرب، فرسموا الپاء والجيم، وفرقوا بين الجيم والزيم، وبين الكاف والگاف وزاد الترك الكاف الخرساء.

ولا يفوتنَّ المطالع اللبيب أننا إذا أشرنا باستعمال هذه الحروف، فإنما نشير بها في الأعلام الأعجمية المعربة ليس إلا، وهي على كل حال لا تصلح في الشعر إذ يجب أن يبقى على صبغته العربية؛ ولهذا استعملتها في الشرح دون المتن.

على أن النقص ليس كله في الحروف الصحيحة، ولكنه يتمشى أيضاً إلى الحركات أو حروف العلة الإفرنجية، فالحركات العربية ثلاث فقط يقابلها ثلاثة حروف علة، وليس منها شيء ينطبق على لفظ è و o و u و eu و é وأمثالها مما هو شائع في لغات الغرب.

ولبعض كتّاب الترك طريقةً حسنة في الدلالة على حركات ألفاظهم التي لا يمكن التعبير عنها بالحركات العربية، ذلك أنهم يتخذون من الفتحة فتحتين ثقيلاً وخفيفة، وكذلك من الكسرة كسرتين، ومن الضمة أربع ضمّات اثنتين ثقيلتين، واثنتين خفيفتين يسمّون واحدةً من كل من الثقيلتين والخفيفتين مبسوطة والأخرى مقبوضة، وباختلاف رسم هذه الحركات قائمةً أو منحيةً أو مقلوبةً فوق الحرف أو تحته تجتمع لديهم ثمانى حركات يستتمون بها التعبير عن جميع ما يقتضيه منطوق لسانهم.

وليست العربية في حاجة إلى شيء من ذلك للدلالة على منطوق ألفاظها فحركاتها كافية وافية، ولكن الحاجة فيها إلى ما يمثل بعض منطوق اللغات الأعجمية كما تقدم.

ولقد وضع الشيخ إبراهيم اليازجي منذ بضع سنوات أربع حركات تمثل بعض الحروف الفرنسية وهي ترسم فوق الحروف فتدل على لفظ **Ui** و **ó** و **o** و **u** و **eu**. وقد جرى فيها على الجمع بين حركتين أو ثلاث مراعيًا بذلك مخارج الحركات كما راعى ابن خلدون مخارج الحروف.

وإن في استعمال هذه الحركات مع الحروف الفارسية مسهلًا كبيرًا للدلالة على أصل كثير من الحروف الأعجمية، وقد لا يصعب مع التوسع بها قليلًا، والاصطلاح على أوضاع لسائر حروف الأعاجم التي لا نظير لها في العربية والفارسية أن يتوصل كتاب العرب إلى الدلالة على منطوق جميع الحروف في سائر اللغات، وإن كان النطق ببعضها يظل مستحيلًا على من لم يألف قراءة اللغة المعربة أعلامها، والتلفظ بحروفها الأصلية، وعلى كل حال لا يجوز الإكثار من هذه الاصطلاحات، ولا يسوغ استعمالها إلا في أحوال خاصة.

النبر

وقد راعيت النَّبر، أي: موقع المد في اللفظة (accent) ما أمكن فقلت مثلاً: آرس ولم أقل أريس إلا حيث اضطررتني ضرورة الشعر، ورجائي أن يكون ذلك قليلاً.

التصرف بالحروف والحركات

ولم أتصرف في الحروف والحركات إلا فيما ندر، ووجهتي في ذلك تقريب اللفظة لمسمع القارئ العربي دون أن أعبت بمادة الأصل كما قلت مثلاً: صَفِيَّة تعريباً لاسم أنثى أصلها صَفِيوُ أو سَفِيو.

وأما حروف العلة التي نعبر عنها بحركاتٍ فقد تحاشيت تغييرها عن مواضعها كما وقع في كثير من كلام العرب في الشعر، ولا سيما المولدين منهم كقول ابن هانئ:

وَنَحَتْ بنو العباس منك عزيمةً قد كان يعرفها المليك الهَرْقُلُ

وكان حقه أن يقول هِرْقُل، فغلبته القافية، وأمثال هذا كثيرة في شعر المتنبي وأبي تمام وغيرهما.

الألفاظ المعربة من اليونانية

وقد نهت على الكلمات اليونانية الأصل كالأسطول والمينا، والليمان، والنوتي، وما يشته في كونه يونانيّاً كالعفريت والعنبر وما يشابه اليونانية كالخريدة.

هذا جلُّ ما توحيته؛ إحصاءاً لتعريب الإلياذة وحاشا أن أزعج
الفلاح بكل ما توحيته أو أدعي الصلاح بكل ما تحريت، ولكنه لا
يريني أن أدعي إخلاص النية، وصدق الاجتهاد، فقد أتيت ما أتيت وأنا
واثق من نفسي أنها لم تدخر جهداً في هذا السبيل.

النظم في التعريب

لا بد للشاعر في تعريب منظومة كالإلياذة أو نظم ملحمة على
مثالها من أن يقف طويلاً، ويتردد برهناً قبل أن يعين أوزان منظومته
وقوافيها، وليس لنا في أوضاع السلف أصولٌ نرجع إليها في مثل هذه
الحال، وهيئات أن يتسنى وضع مثل هذه الأصول فيتقيد كل بحر من
بحور الشعر ببابٍ من أبوابه أو تتعين كل قافية من القوافي لمعنى من
المعاني، فقد نظم العرب كل معنى على كل بحر وكل قافية وأجادوا،
والقريحة الجيدة نقادةٌ خيرة إذا طرقت باباً انفتح لها ملء رغبته، فتقع
على البحر والقافية وهي لا تعلم من أين تأتي لها أن تقع عليهما، وإنما
هو الشعور الشعري يدفعها إلى حيث يجب أن تندفع.

فالشاعر المجيد إذا تصوّر أمراً، فإنما يتصوّر له ذلك الأمر على
كماله فتهيئ له السليقة جمال الشكل كما هيأت له جمال المعنى،
فيجتمع له أحكام التناسب بين اللفظ والمعنى، والوزن والقافية، فكل
بيت بنى عليه قصيدته، فهو الأساس الذي يصح أن يستند إليه ويبني
عليه.

ولا يخرج عن هذه القاعدة إلا الشعر المنظوم لأغراض معلومة، ودعت الحاجة إلى تقييده بقيود لا مناص له منها كالأراجيز المنظومة في العلوم، وبعض الموشحات والأغاني المربوطة بأنغام معينة، فالشاعر مقيد فيها بنمط لا يتيسر له العدول عنه إلى غيره.

وفي ما سوى ذلك فالشاعر مطلق اليدين يتصرف بالشعر كيف شاء، وله أن يرتضي ما تيسر له من الأوزان والقوافي، وهي في الغالب تبرز له من نفسها بشكلها الأنيق وقوامها الرشيق.

على أن قريحة الشاعر، وإن كان مجيداً ليست كيد النسّاج تنطلق في العمل أيّان حركها العامل، فقد يضطرب الجنان، وينحبس اللسان، والذهن وقّاد، وقد يكون القلم سيالاً، فيجف فيه المداد، فالإمساك عن النظم في مثل هذا الاعتقال خيرٌ من إجهاد النفس فلا يلبث العقل أن ينحل من نفسه، وإذا طال الخمول، فليشحذ الشاعر قريحته بتلاوة جيد الشعر، فهو كالجلاء للسيف الصدى.

ولكنه قد يحصل خلاف ما تقدّم، فتتراكم المعاني وصورها، وتندفق التخيالات تدفقاً يكاد يذهب بها شتاتاً، فيتيهى للشاعر رسم مطلع بيتين أو أكثر على أبحر مختلفة، فيحار في الاختيار، ويميل إلى الاسترشاد.

أوزان الشعر وأبوابه

ولهذا رأيت أن أذكر في ما يلي ما تيسر لي استخراجُه من شعر العرب بالنظر إلى ترابط بحور الشعر بمواضيعه وأبوابه، فقد راعيت هذا الترابط في بعض الأناشيد؛ فأدّت تلك المراعاة إلى فائدةٍ يحسن التعويل عليها في بعض الأحوال.

ولا شك أن العروضيين نظروا إلى أبحر الشعر من هذه الوجهة، ولكنهم لم يزدوا على تسميتها بأسماء تنطبق توسعاً على مسميات مواضيع القصائد المنظومة عليها فقالوا: هذا طويل، وذاك بسيط، وذلك خفيف أو سريع وهلمَّ جرّاً، ووقفوا عند هذا الحد.

ولكنه يستفاد من هذه التسمية أن لكل بحر ساحلاً يقف عنده، ويرشد اسمه إليه فإذا قلنا: هذا بحرٌ طويل علمنا أنه لا يسوغ أن ننظم عليه الأهازيج والموشحات والأغاني، وإذا قلنا: هذا بحرٌ مقتضب أو مجتث علمنا أنهما لا يصلحان للمنظومات على إطلاقها، ولا يصح فيهما تدوين الروايات والتواريخ.

ولو أردنا أن نضع أصولاً وافية لهذا البحث لوجب أن نرجع إلى منظوم نوايغ الشعراء، ونقابل بين أبوابه وبحوره؛ فتظهر لنا أغلبية كل وجه من كل بحر، وهو بحث طويل لا يتسع له هذا المجال.

فحسبنا إذاً فتحاً لهذا الباب أن نبه إليه، ونذكر موجزين خلاصة ما اتضح لنا بالتطبيق والمقابلة.

فالطويل بحرٌ خضمَّ يستوعب ما لا يستوعب غيره من المعاني،
ويتسع للفخر والحماسة والتشابه، والاستعارات وسرد الحوادث، وتدوين
الأخبار، ووصف الأحوال، ولهذا ربا في شعر المتقدمين على ما سواه من
البحور؛ لأن قصائدهم كانت أقرب إلى الشعر القصصي من كلام
المولدين، خذ مثلاً لذلك معلقات امرئ القيس، وزهير، وطرفة، ولامية
الشنفري، وقصيدة عبد يغوث الحارثي التي مطلعها:
ألا لا تلوماني كفى اللوم ما بيا فما لكما في اللوم نفعٌ ولا ليا

والبسيط يقرب من الطويل، ولكنه لا يتسع مثله لاستيعاب
المعاني، ولا يلين لينه للتصرف بالتركيب والألفاظ مع تساوي أجزاء
البحرين، وهو من وجه آخر يفوقه رقةً وجزالة؛ ولهذا قلَّ في شعر أبناء
الجاهلية، وكثر في شعر المولدين، مثال الشعر الجاهلي قول تائبٍ شراً:
يا عيد ما لك من شوق وإيراق ومن خيالٍ على الأبواب طراقٍ

وقول عبدة بن الطبيب:
هل حبل خولةً بعد الهجر موصولٌ أم أنت عنها بعيد الدار مشغولٌ

ومثال شعر المولدين قول ابن زريق:
لا تعذليه فإن العذل يوجعه قد قلت حقاً ولكن ليس يسمعه

وقول أبي تمام:
السيف أصدقُ أنباءً من الكتبِ في حدِّه الحد بين الجدِّ واللَّعبِ

والكامل أتمُّ الأبحر السباعية وقد أحسنوا بتسميه كاملاً؛ لأنه يصلح لكل نوعٍ من أنواع الشعر، ولهذا كان كثيراً في كلام المتقدمين والمتأخرين، وهو أجود في الخبر منه في الإنشاء، وأقرب إلى الشدة منه إلى الرقة ومنه معلقتا عنتره ولبيد، وقصيدة الحادرة قطبة بن جرول:

بكرت سُميّة بكرةً فتمتعِ وغدت غدوّ مفارقٍ لم يربعِ

وإذا دخله الحذو وجاد نظمه بات مطرباً مرقصاً، وكانت به نبرة تهيج العاطفة كقولهم:

يا دمية نُصبت لمعتكِفِ بل ظبية أوفت على شرفِ
بل درّة زهراء ما سكنت بحرًا ولا اكتفت ورا صدفِ

وهو كذلك إذا اجتمع فيه الحذو والإضمار كقول المخبل السعدي:

ذكر الرّباب وذكرها سقمُ فصبا وليس لمن صبا حلمُ

وقول الحارث اليشكري:

لمن الديارُ عفون بالحبسِ آياتها كمهراق الفُرسِ

والوافر أَلين البحور يشتد إذا شددته، ويرق إذا رققته، وأكثر ما يجود به النظم في الفخر كمعلقة عمرو بن كلثوم، وفيه تجود المراثي، ومنها كثير في شعر المتقدمين والمتأخرين كقول الخنساء:

يذكرني طلوع الشمس صخرًا واذكره لكل طلوع شمسِ

وقول المهلهل:

أهـاج قـذاء عـيني الإـذكـارُ هـدؤاً فـالدمـوع لـها انـحدارُ

وحسبك من شعر المولدين مرثية أبي الحسن الأنباري:

علوّ في الحـياة وفي المـماتِ لعمرك تـلك إحـدى المعـجزاتِ

ومرثية المتنبي:

نعدُّ المشـرفية والعـوالي وتقتلنا المنون بلا قتال

والخفيف أخف البحور على الطبع وأطلاها للسمع، يشبه الوافر
لينا ولكنه أكثر سهولة، وأقرب انسجامًا، وإذا جاد نظمهُ رأيتُهُ سهلا
ممتنعًا لقرب الكلام المنظوم فيه من القول المنثور، وليس في جميع
بحور الشعر بحرٌ نظيره يصح للتصرف بجميع المعاني، ومنه معلقة
الحارث بن حلزة الشكري.

والرمل بحر الرقة فيجود نظمهُ في الأحزان والأفراح والزهریات؛
ولهذا لعب به الأندلسيون كل ملعب وأخرجوا منه ضروب الموشحات،
وهو غير كثير في الشعر الجاهلي، وأكثره في مثل ما تقدم ومع هذا
فلعنتره فيه شيءٌ من الحماسة، وللحارث الشكري قصيدةٌ وصفية
إخبارية أبدع فيها ومطلعها:

عجبٌ خـولة إذ تنكرني أم رأت خـولة شيخًا قد كبر

والسريع بحرٌ يتدفق سلاسة وعذوبة يحسن فيه الوصف وتمثيل
العواطف، ومع هذا فهو قليلٌ جدًّا في الشعر الجاهلي، ومنه قول
الخنساء:

وصاحبٍ قلت له صالحٌ إنك للخيل بمسـتمـطرٍ

والمـتقارب بحرٌ فيه رنةٌ ونغمة مطربة على شدةِ مأنوسة، وهو
أصلح للعنف منه للرفق، ومنه قصيدة بشامة بن عمرو:
هجرت أمانةً هجرًا طويلا وحملك النأي عبأ ثقيلا

وقصيدة ربيعة بن مقروم:

من آل هند عرفت الرسوما بجمران قفراً أبت أن تريما

والفرس يصرَّعونه كالرجز، وعليه نُظمت شهنامة الفردوسي.

والمُحدَث أو متدارك الأخفش بحرٌ أصابوا بتسميته الخبب
تشبيهاً له بخبب الخيل، فهو لا يصلح إلا لنكتة أو نغمة أو ما أشبه
وصف زحف جيش أو وقع مطر أو سلاح، وهو قليل في الشعر القديم
والحديث.

والرجز ويسمونه حمار الشعر بحرٌ كان أولى بهم أن يسموه عالم
الشعر؛ لأنه لسهولة نظمه وقع عليه اختيار جميع العلماء الذين نظموا
المتون العلمية كالنحو والفقه والمنطق والطب، فهو أسهل البحور في

النظم ولكنه يقصر عنها جميعاً في إيقاظ الشعائر، وإثارة العواطف، فيجود في وصف الوقائع البسيطة، وإيراد الأمثال والحكم.

تلك هي الأبحر العشرة التي نظمتُ عليها الإلياذة، فقد ترى النشيد كله بحرًا واحدًا، وقصيدة واحدة، وقد تتعدد فيه الأبحر والقصائد على مقتضى ما تراءى لي من سياق الكلام.

وأما الأبحر الستة الباقية وهي المضارع والمقتضب، والمجث، والهزج، والمديد، والمنسرح فالأربعة الأولى منها لا تصلح لقصرها لمثل الإلياذة، ولا يجود نظمها في ما خلا الأناشيد والتواشيح الخفيفة، والمديد قل من ينظم عليه وهو ثقيل على السمع، والمنسرح لم يتفق لي نظمة في الإلياذة لغير سبب مقصود.

القوافي

القوافي والأوزان اليونانية والإفرنجية

إذا سمع العربي لفظة «شعر» علم فوراً أن المراد به بالنظر إلى اللفظ الكلام المقفّى الموزون، ورسخت في ذهنه القافية رسوخ الوزن، وليس الأمر على هذا الإطلاق في سائر اللغات إذ ليس في اليونانية ولغات الإفرنج أبجر وتفاعيل، وإنما هذه من خصائص لغة العرب، ومن حذا حذوهم من أبناء الشرق كالسريان، والفرس، والترك، وأما بنو الغرب، فلهم أقيسة وأوزان خاصة بهم، فالقياس عبارة عن عد الأجزاء أو المقاطع التي يتألف منها الشطر أو البيت، والغالب فيها أن تكون اثني عشر مقطعاً، وهو ما يسمونه بالإسكندري نسبة إلى إسكندر دوبرناي، وهو أشبه شيء برجز العرب، وهذا القياس البسيط يقوم عند الإفرنج مقام جميع أبجر الشعر وتفاعليه عند العرب، وأما الإلياذة وما جرى مجراها من الشعر اليوناني ففيه الوزن تزيد أجزاؤه وتنقص بحسب التفاعيل، فهناك أسباب خفيفة وثقيلة تتألف منها أوتاد مجموعة ومفروقة تقوم مقام التفاعيل العربية، والأساس في كل ذلك طول المقطع أو قصره، وكون حرف العلة القائم مقام الحركة في العربية ممدوداً أو غير ممدود، وبعبارة أخرى يراعى في المقام الأول موضع النبرة من اللفظة.

وأما القافية فليست من لوازم الشعر في كل اللغات، فالفرنسوية لا يصلح شعرها بدون قافية والإنجليزية فيها الشعر المقفّى وغير المقفّى،

ومثلها الإيطالية والألمانية، فهذا الاعتبار نُقلت الإلياذة إلى لغات الإفرنج بالشعر المقفى كترجمة بوب، والشعر غير المقفى كترجمة مُنتي، وأما الأصل اليوناني فهو موزون غير مقفَى وقافية كل بيت قائمة بنفسها لا تراعي فيها المماثلة لأية قافية كانت من القصيدة أو النشيد.

القوافي في لغة العرب

والعربية لا يصلح شعرها بدون قافية؛ لأنها لغةٌ قياسية رنانة يجب أن يراعى فيها القياس والرنّة، وفيها من القوافي المتناسبة ما يتعذر وجود نظيره في سائر اللغات، فلا يسوغ لها أن تبرز عُطْلاً مع توفر ذلك الحلي الشائق، فإذا اقتصر الإفرنج على صوغ شعره كالرجز العربي لكل شطرين قافيتان متناسبتان ينتقل منهما إلى غيرهم، واضطُرَّ إلى تكرارهما بعد حين أو لو اختار أن يعري شعره من القوافي بتاتاً، فعذره في ذلك أن لغته هكذا خُلقت، بل لو أجهد نفسه في مواضع كثيرة لتعذر عليه تعزيز قافيتين بثالثة، والشاعر العربي بخلاف ذلك، فإن كثيراً من ضروب القوافي تنهال عليه انهيار الغيث، وإذا انحبست فلا تنحبس إلا لقصر باع أو لقرع بابٍ ضيق أو لتجاوزه الحد في إطالة القصيدة المنظومة على قافية واحدة.

تناسب القوافي والمعاني

وقوافي الشعر كبحوره وجود بعضها في موضع، ويفضله غيره في موضع آخر وحسبك دليلاً أن جميع قراء الشعر يطربون لبعض القوافي

دون البعض الآخر، وإذا نظم شاعرٌ واحد قصيدتين على بحرٍ واحد بمعنى واحد، ونَفَس واحد، فلا ريب أن القافية الغناء تميل بالسامع إلى إشارها على أختها، ولا ريب أن اختيار قافية القصيدة أبعد مثلاً من اختيار بحرهما، وذلك بنسبة ما يربو عدد القوافي على عدد البحور والمرجع في ذلك إلى سلامة الذوق وغزارة المادة، فالقريحة الجيدة في غنى عن أصول توضع لها بهذا المعنى لو فرضنا من الممكن وضع مثل هذه الأصول، فهي من نفسها تقع على القافية والبحر بلا جهد ولا تردد. ومع هذا فلا بأس من إيراد بعض ملاحظات تتراءى للناظم أثناء النظم، وللقارئ أثناء المطالعة.

الشعر كالنغم الموسيقي والقافية رسته أو قراره، فحيثما جاد النغم وتناسق إلى منتهاه حسن وقعه في الأذن وانشرح له الصدر، وطربت له النفس، فكل نغم أطرب أرباب الصناعة وذوي الأذن السمّاعة، فهو الحسن، وهكذا الشعر فلا يحسن وقعه في نفوس قرائه وسامعيه ما لم يكن جيداً، وقد يُستهان بالمعنى البليغ لضعف قافية أو وقوعها في غير موضعها.

القوافي الضيقة والثقيلة

وأول ما يجدر بالشاعر اجتناب القوافي الصعبة الضيقة، فإنه يُضطر معها إلى استعمال الكلام المنبوذ والوحشي المهمل، ويضيق في وجهه باب التصرف بالمعاني على ما يتصورها، فيعضل عليه النظم وعلى

قارئه الفهم، ولنضرب لذلك مثلاً نابغة من نوابغ الشعراء أبا الطيب المتنبي. فخذ قصيدته التي مطلعها:

أُمساورُ أُم قرن شمسٍ هذا أُم ليث غاب يقدم الأستاذا

وقابلها بمعظم شعره فيبدو لك من استغلاق العبارة والتكلف ما يحملك على الظن أنها ليست من نظمه لو لم تكن مثبتة في ديوانه، وإن أردت برهاناً أقرب فانظر في محبوكات صفي الدين الحلي، وكلها منظومة في باب واحد، واقرأ الثائية، والخائية والظائية، وإن كنت صبوراً جلدًا فأتهم قراءتها من أولها إلى آخرها، وقل لي بعد ذلك رأيك فيها.

ففي مثل هذا المأذق الضيق يضطر الشاعر إلى اتخاذ جميع البيت تنمةً للقافية مع أن الغرض من القافية أن تكون تنمةً للبيت مندمجةً في معناه، فإذا كُره في القافية وهي كلمة واحدة أن تكون حشواً للبيت، فكم يُكره أن يكون جميع البيت حشواً للقافية ما لم يكن مبنياً عليها لغرض مقصود.

رئة القافية

وكما أن العرب نظموا جميع المعاني على جميع البحور، فقد كان هذا شأنهم في القوافي، فلم يقيدوا قافيةً بباب من الأبواب، وخيرٌ للقوافي أن تبقى مطلقة يتخير منها الشاعر ما شاء فتأتيه أرسالاً، فإن سلم ذوقه جاءته منقاداً طوعاً فحلّت محلّها، وإلا فلا يسلم الذوق كرهاً.

ولكنه يجوز للباحث أن يلقي نظره على منظومات الشعراء، ويمحصها بالنقد والمقابلة، فإذا فعلنا ذلك بدا لنا مثلاً: أن القاف تجود في الشدة والحرب، والدال في الفخر والحماسة، والميم واللام في الوصف والخبر، والباء والراء في الغزل والنسيب، وإنما هو قولٌ إجمالي إذا صح من باب التغليب فلا يصح من باب الإطلاق؛ لأن مناحي التحول من نغمةٍ إلى أخرى في قافية الحرف الواحد أكثر من أن تحصى، فنغمة الراء مضمومة تختلف عنها مكسورة ومفتوحة، وهي وما قبلها متحرك غيرُها وما قبلها ساكن أو ممدود بحرف علة، ورنَّتها في بحرٍ تختلف عنها في بحر آخر، وهكذا إلى ما لا نهاية له.

وغاية ما يقال في هذا الباب أن المعاني الشعرية كالآلئ المنثورة لا مرشد إلى إحسان نظمها في سِمطها خيرٌ من سليقة الناظم، فإن جادت الصناعة بهرت البصر وإلا جاءت ركاًماً بعضها فوق بعض، وذهب خلل بنائها بنضارة روائها.

جوازات الشعر

ليس المقام مقام بحثٍ في بيان اللغة وعروضها، ومع هذا فلا بد لي من إبراد نبذةٍ يسيرة في ما رأيت اجتنابه وإتيانه من الجوازات الشعرية؛ استتماماً لبيان النهج الذي نهجته في التعريب.

لو أراد الشاعر أن يحتجَّ لكل خطأ يرتكبه في النظم بشاردةٍ من شوارد شعر العرب لما عدم سبيلاً إلى التخلص من معظم ما يتورط فيه

عجزاً وجهلاً، على أن الطويل الباع القويم البراع تأبي نفسه أن يتورّك على
شدوذٍ فارطٍ وقِدَحٍ ساقطٍ، ولو كان صاحبهما من شيوخ الشعراءِ كما مرّ
القيس، وزهير بن أبي سلمى. فأَيُّ شاعرٍ مجيدٍ يرتضي جزم المضارع بغير
جازم بناءً على ورود ذلك في معلقة زهير بقوله:
وإنَّ سفاه الشيخ لا حلم بعده وإن الفتى بعد السفاهة يحلم

ومن يُقبل على إيراد المتنافرات في شعره اقتداءً ببيت فذٍّ لا مرئٍ
القيس إذ قال:

غداً ثرها مستشزراتٌ إلى العلى تصلُّ العقاص في مثني ومرسلٍ

بل من يقدم اليوم على قبض مفاعيلن الأولى من أحد شطري
الطويل كما جاء في الشطر الثاني من بيت امرئ القيس بآخر لفظة
«عقاص»، ومثله قول طرفة:

أُمونٌ كألواح الأران نصأتها على لاحبٍ كأنه ظهر برجدٍ

وقول الشنفرى وقد قبضها في الشطر الأول:

غداً طاوياً يعارض الريح هافياً يخوت بأذنان الشعاب ويعسلُ

ولا تخلو قصيدة من شعر الجاهليين من مثله، جاز لهم ذلك
لنغمةٍ كانت لهم في تلاوة الشعر يضيع معها الفرق في الطويل بين
مفاعيلن ومفاعلن، وليست للمولدين تلك النغمة إلا في شيءٍ من إنشاد
أهل العراق، ويضارعهم بها الفرس في إنشاد الشعر العربي والفارسي إذ

يَمُرُّونَ عَلَى يَأْ مَفَاعِيلِن مَرًّا خَفِيفًا، فَلَا يُشْعِرُ بِحَذْفِهَا إِذَا حُذِفَتْ وَقَدْ
يَسْكُنُونَ اللَّامَ وَلَا حَرْجَ.

وقد ضبط العروضيون جوازات الشعر، ولكنَّ لكل ناظم ضعفًا من
وجه، فتكثر استباحته في ضروبٍ لا يستبيحها غيره، ويمتنع الواحد عما
لا ينكره الآخر؛ ولهذا رأيت أن أذكر ما أنكرت، وما لم أنكر من تلك
الجوازات:

استبحت صرف ما لا ينصرف حيث اقتضاه الوزن بلا تكلف إلى
منعه.

قصرت الممدود قليلا، ولم أستبح مد المقصور مطلقًا.
لم أصل المقطوع إلا بهمزة أنَّ بعد لو، ولم أقطع الموصول إلا
في أول الشطر وهذا قليل جدًا.

لم أشدد المخفف، ولم أخفف المشدَّد إلا إذا كان حرف قافية.
لم أسكن المتحرك إلا في ضمير الغائب والغائبة بعد الواو كما
في «وَهُوَ» و«هِيَ» ولم أحرك الساكن إلا حيث وجب تحريكه في الدرج
لالتقاء الساكنين أو في القافية لإطلاقها، أو ما جاز تحريكه على
الإطلاق كالميم اللاحقة بالضمير نحو «هُم» و«كُم».

لم أجتنب تحريك العلم المنادى إذا اقتضاه الوزن.

لم أستجز إخلاس حرفٍ في ما سوى «أنا» وحروف العلة
الساقطة طبعاً بدرج الكلام قبل الساكن كالواو والياء في «أولو الحكمة»
و«ذوي العلم».

لم أشبع إلا ما جاز إشباعه كهاء الضمير الغائب الساكن ما قبلها
نحو منه أو وجب كالهاء المذكورة المتحرك ما قبلها نحو «به».

سكنت في موضع أو موضعين السين الواقعة في آخر العلم
الأعجمي نحو أوديس؛ مجاراةً لمن يحسب أن هذا الحرف مع ملازمته
لأكثر تلك الأعلام يصح اعتباره حركةً بنفسه.

وأما ما فرط في كلام العرب من غريب المسوغات كمنع صرف
المتصرف، وتذكير المؤنث، وتأنيث المذكر، وفك المدغم فيجب أن
يعتبر شاذاً، ولا يجوز أن يقتدى بشيء منه.

عيوب القافية وسنادها

لا حاجة بي إلى تقييد عيوب القافية كالإكفاء والإجازة، والإقواء
والإصراف فإن صغار الطلبة لا يجمعون في قوافي القصيدة الواحدة بين
«فالح وشامخ» أو «كمين وعميد» أو «رجلٌ وحملٌ» أو «رأسٌ ونفسا»
وإنما أقول كلمةً في السناد:

فمنه ما يجب نبذه مطلقاً كسناد التأسيس في الجمع بين
المؤسس وغير المؤسس، كأن تكون قافية «بتصبر» وأخرى «يتظاهر».

ومنه المكروه، وإن ورد قليلا في شعر البلغاء كسناد الإشباع أي: الجمع في القوافي بين نحو «مكارم» و«تفاقم» باختلاف حركة الدخيل.

ويقرب من هذا سناد الرّدْف وهو أن يكون بيت مردفًا بحرف علة، وآخر غير مردف كالجمع بين «قوم» و«حلم» وهو أكثر ورودًا في الشعر الصحيح.

ومنه الجائز الشائع وهو سناد الحذو، وسناد التوجيه أي: اختلاف حركة ما قبل الروي بين الفتحة والضمّة والكسرة نحو «قَدُم» و«قَدَم» و«قَدِم».

وهذا النوع الأخير كثيرٌ في كلام النواغ من المتقدمين والمتأخرين، ومع هذا فقد اجتنبت في تعريب الإلياذة جميع أنواع السناد جائزها ومكروهها.

تكرار القافية

وأما تكرار القافية فليس من مذهبي وإن أجازته العروضيون، فلم أستبحه في النظم، ولم أكرر قافيةً واحدةً في كل الإلياذة بلفظها ومعناها طالت القصيدة أو قصرت، ولا يستثنى من ذلك إلا حيث تكررت الأبيات في الأصل، ووجب إعادة العبارة بنصّها أو حيث كان النظم رجزًا أو متقاربًا مصرّعًا، فهناك كل بيت قائم بنفسه تقطع القافية بانتهاؤه، فإذا اتفق تكرارها بعد أبيات، فكأنما هي واقعة في قصيدة أخرى.

التجنييس

لم أتَوَخَّ التجنييس في شيءٍ من النقل بل ربما نبذته إذا ظهر منه ثَقَلٌ أو تكلف، فإنه أَسْمَحُ شيءٍ في الشعر إذا تسَقَّطَ الشاعر تسَقُّطًا.

قال لي صديقٌ من عليّة الأدباء، وقد جرى أمامه ذكر البيت القائل:

بالدُّنا لا تطمعن في مَصْرِفي عنهما فضلا بما في مَصْرِفي

هذا بيتٌ لشاعرٍ نفاخر به الشعراء، فوالله لو خُيِّرَ بين أن أُشْنِقَ أو يُنسب لي هذا البيت لاخترت الشنق، ينيئك هذا بمبلغ الانقباض الذي تحدثه في النفس أمثال هذا التكلف، ومع هذا فقد أثبتُ ما جاء عفوًا في الكلام بلا تلمُّس مثال ذلك:

بهما النُّورُ عن الأرض ارتفع وغمامُ التبر بالنُّور سَطَعَ
وحُباب القطر في أكنافه كحُبوب الدرِّ للأرض وقعَ

ذلك هو النهج الذي آليت على نفسي أن أنهجه في كل الكتاب، وإنني أبرأ إلى الله من العصمة، فإذا فرضت مني فارطةً على خلاف ما ذكرت، فإنما تلك هفوةٌ زلَّ بها القلم، وجلَّ ربك ولي العصمة والسداد.

ضروب النظم في التعريب

بقي عليّ تتمّة لهذا الباب أن أذكر ضروب النظم التي جريت عليها في تعريب الكتاب:
رُبَّ من ترجو به دفع الأذى عنك يأتيك الأذى من قبله

فقد يأتي الضرر من حيث يُرجى النفع، فإن اتساع القوافي في اللغة العربية من جملة أسباب التضيق على الشعراء إذ مهما طال الشاعر باعًا، فلا يأتي على عددٍ معلوم من الأبيات حتى يكاد يستنزف القوافي السائغة؛ ولهذا كان من المستحيل نظم الألوف المؤلفة على قافية واحدة، وهذا من جملة أسباب ضعف الشعر القصصي في العربية، وإذا فرضنا وجود قافية تتسع لمثل هذا المجال، فالأذن تملُّ توالي النغمة الواحدة لأطيب الألحان، فهذه تائية ابن الفارض الكبرى وقلَّ من يقرؤها مع أن حَقَّاط شعره يعدُّون بالآلوف كما أبنَّا في موضعٍ آخر، وإذا لجأنا إلى الرجز في مثل هذا السياق الطويل فلدينا من سائر البحور ما يفوقه جزالةً في بعض المواقف، وقوةً في مواقف أخرى.

زارني صديقٌ من نوابغ شعراء العصر، وقال: «بودّي نظم الحادثة التاريخية الفلانية، وهي تستغرق نحو خمسمائة بيت في سياق واحد، وإنه ليعز عليّ أن ألزم قافيةً لمثل هذا العدد، ولا أحب أن أنظمها رجزًا، والمقام لا يؤذن بتقطيعها قصائد» قلت: وما قولك لو جعلتها نشيدًا مسبَّعًا أو مثنىً لا تستعيد القافية فيها إلا مرةً كل بضعة أبيات، فتدخلها

قوافي أخرى تطيب لها نفس القارئ، فلا يملؤها ويتسع لك المجال
فتتخلص من العسف والتكلف، فاستحسن وأظنه فعل.

ولهذا نوّعت النظم على طرق شتى متبعاً الخطة التي تقدم
بسطها، ومراعياً لكل ضرب من ضروب النظم مقاماً حسبته ينطبق عليه،
فربما قطعت النشيد قصائد مختلفة، وربما نظمته قصيدة واحدة،
ووسّعت لنفسه في استنباط ضروب غير مطروقة، ولكنني لم أخرج
بشيء منها عن أصول الشعر واللغة.

فاستعملت النظم الشائع من قصائد وتخميس وأراجيز، وسلكت
مسالك أخرى دعوتها بأسماء رأيتها تنطبق عليها وهي:

المثنى

وفيه تبنى القصيدة على قافية يُرجع إليها في كل بيتين مرة،
وعروض البيت الثاني فيه مطلقة من القافية على نحو ما اصطاح عليه
المتأخرون في الرباعي أو الدوبيت الأعرج ومثاله:

لو تربّصت والعجاج استطارا	ونجِعُ الدماء سال وفارا
وتبصّرت بابن تيزيسٍ لم	تدرِ أيُّ الجيشين منه أغارا
مستشيطاً ينقضُّ فوق الأعادي	ينهب السهل بين عادٍ وغادٍ
كخليج يضيق بالسيل مجرا	ه فيستأصل الجسور الكبارا

وهكذا إلى آخر القصيدة.

والمربع

ومثاله:

كسا الفجرُ وجهَ الأرضِ ثوبًا مزعفرًا
على قمّةِ الأولمبِ تُصغي مهابةً
فقال: «ليعلم كلُّ ربٍّ وريةً
فلا يبنذن الأمر عاصٍ بل أذعنوا
لنصرة أي القوم من يجر منكم
وإلا فمن شمم الألمبِ براحتي
إلى حيث أبواب الحديد قد استوت
إلى هوةٍ بين الجحيم وبينها

وزفسُ أبو الأهوال في أرفع الذرى
لمنطقه الأربابُ ألف محضرا
بما اليوم في صدري فؤادي أضمرأ
لأنفذ ما أبرمتُ أمرًا مقدرا
ياوئن منكوبا يخضبه الدمُ
إلى الظلمات الدُّهم يلقى ويُرجم
على عتب الفولاذ والقعرُ مُظلمُ
مجال كأقصى الجوِّ عن أسفل الثرى

المثمن أو المربع المسمط

ومثاله:

قضيض الجيش مذ دُعرا هزيمًا كالظبا نفرا

إلى إليون حيث هناك خلف حصاره انحصرا

يُجفّف في ظلال قلاعِهِ عرقًا به سجت

كتائبه ويروي غلّة فيها قد استعرا

وراءهم الإخاءة والجواشن في عواتقهم

جَرَوْا لَكِنَّ هَكَطُورًا تَرَبَّصْ يَرْقُبِ الْقَدْرَا
لَدَى أَبْوَابِ إِسْكِيَّا قَضَاءِ الشُّومِ ثَبَّطْهُ
وَبَابِنِ أَيَاكَ آفَلَوْنُ أَحْدَقُ يَصْدُقُ الْخَبْرَا:



«عَلَامٌ وَأَنْتَ مِنْ بَشَرٍ جَرِيتَ تَجَدُّ فِي إِثْرِي

أَتَجْهَلُ أَنِّي رَبٌّ فَثُرْتُ بِلَاهِبِ الشَّرِّ
تَرَكْتُ هُنَاكَ طُرُودًا تَفَرُّ إِلَى مَعَاقِلِهَا
وَجِئْتُ هُنَا فَلَا لَنَا لَنْ تَفُوزَ تَعْسْتُ بِالظَّفَرِ
فَلَسْتُ بِمَائَةٍ أَبَدًا» فَقَالَ آخِيلُ مُتَقَدِّمًا
«أَزْجَاجُ السَّهَامِ وَشَرُّ آلِ الْخُلْدِ وَالْكَبِيرِ
أَرَى أَنَايَتِي عَنْ سَوْرِهِمْ مَكْرًا وَإِلَّا كَمْ
فَتَى عَضَّ الْحَضِيضُ قَبِيلَ مَا بِحَصَارِهِ اسْتَتَرَا

وَالْمَوْشَحُ الْمَسْبُوعُ

ومثاله:

ما اشتمل الفجر بثوب الجساد
من يمه يبرز فوق البلاد

يرمقه معبودها والعبادُ

حتى انبرت دون الخلايا تئيس
فأبصرت آخيل فوق الثرى
في تحف الرب هفست تئيس
معانقاً فطرقل واري الفؤادُ



يشهق بالعبرة هامي الجفون
وحوله أصحابه يندبون

وسطهمُ حلَّت بتلك الشجون
ويده اجتَرَّت وقالت: ألا
مهما طما الخطب وطمَّ البلا
دع ثمَّ فطرقل على الترب إذ
في قدر الأرباب بالغيب بادُ

والموشح المثنى

ومثاله:

سار هكطور حثيثاً وأتى
فتلقتَه نساءً وبنات
باب إسكِيَّة والزَّان طليلُ
منه علمًا تتقصَّى سائلاتُ

عن بنيهنَّ وإخوانٍ ثقاتُ

ويعول وأخلاً فأمر
ويصلين لأرباب البشرُ
أن ييادرن على ذاك الاثرُ
ولزاهي قصر فريام مضى
علَّها تدفع عنهن الأذى

هو صرّحْ شيدَ بالنحت الجميلُ فوق أبواب رواق مستطيلُ

•••

ضمنهُ صفٌ بديع المنظرِ غرّفٌ قد بنيت بالمرمرِ

كلها خمسون مُلس الحجرِ

لبنى فريام شيدت مضجعا وثّوت أزواجهم فيها معا

ويحاذيهن صفٌ رُفعا

فيه بالإيناس والرغد ثوى مع كل ابنة الصهر الحليلِ

وفيه المنظومة مبنية على قافيتين، وهما هنا الألف المقصورة،
واللام كما ترى وله لازمة في أوله يبنى عليها، وتؤسّس قافيته في ختام
الدور الأول ببيتين، وأما في سائر الأدوار فبيت واحد.

والموضح المردّف

ومثاله:

كان نسطورُ لدى كأسِ الشراب مصغياً يسمعُ عَجّاً واصطخاب

فلما خاوون قال: «أفكر فما علّة ينجمُ عن قرع الحراب

حولَ تلكِ الفُلكِ فتیانُ الوحي نقعُهم يعلو مَه لا تَبْرَحَا

واشربِ الخمرة صرفاً ريثما هيكميذا لك تحمي المسبحا

وتنقي الجرح من هذا الخضاب



وأنا ماضٍ أرى ماذا جرى بالسُّرى وأقتال تُرسا أكبرا
كان تُرسيميدٌ قد غادره مؤثِّراً تُرس أبيه نسطراً
وعلى رُمحٍ طويلٍ قبضا بستانٍ قاطعٍ صُفراً أضاً
والى الباب عدا مستشرفاً فلهُ لاح القضا أبَيَّ قضا

ببني الإغريق قد جلَّ المصاب

والمستطرد

وهو ما تبني القصيدة فيه على قافيتين فأكثر، يُرجع إلى كل
واحدة منها كلما استطرد إلى الموضوع الذي قيلت في أوله، مثال ذلك
محاورة آخيل وفينكس فخطاب آخيل بقصيدة سينية من المثنى:
قال آخيل: «يا أذيسُ المؤانس لي فاسمعُ فإنني لا ألبسُ
لي مقالٌ فلن أحولنَّ عنه فعهِ واطرحنَّ عنك الوسائسُ
من يقل غيرَ ما تيقنُ فكرا كان عندي من الجحيم أشراً
فالذي قد أسرتُ هاكم جهاراً لجميع الإغريق لستُ بناكسُ

وجواب فينكس بقصيدة رائية من المثنى أيضاً:

فاستمم الحديث والقوم طراً بوجوم خالوا التصلب مُراً
ثم فينكس والدموعُ هوامٍ لاشتدادِ الوبالِ قال مُصراً
إن تكن عن تحدمٍ واحتدادٍ راغباً عن لقاء جيش الأعادي

وطلبتَ المآبَ يا ابني المُفدَّى كيفَ ألقى على بَعادِكَ صبرا

وهكذا فكلما تكلم أحدهما رجع إلى قافيته، وقد يقع هذا الاستطراد في غير الخطاب، والجواب كأن يكون بين الخبر والإنشاء أو غير ذلك مما يقتضيه المقام.

مصرع المتقارب

وعلاوةً على ذلك استحسنَت تصرُّيع المتقارب كما فصلت في الفقرة الأولى من النشيد السادس بعد المطلع الآتي:

خَلْتُ ساحةَ الحربِ من كلِّ ربٍّ فعجَّ العجاجُ بطعنٍ وضربٍ
فمن سيموئسٍ إلى زَنْثُسٍ قِراعُ السيوفِ ومدُّ القسي

مصرع الرجز ومقفاه

وجمعت في النشيد الثالث والعشرين بين مصرع الرجز ومقفاه التصريح للإنشاء والتقفية للخطاب، وأتبعَت هذا النسق في كل النشيد المذكور.

الإلياذة والشعر العربي

الشعر القديم

لقد يُعجز الباحث في تاريخ الشعر العربي أن يرجع ببحثه إلى ما وراء قرنٍ قبل الهجرة، وإن مُعظم ما عزاهُ بعض الكتاب إلى من تقدم

ذلك العهد ليس إلا من باب التخرُّص، فلا يصحُّ وضعه موضع ثقة بل يجب نبذُه والحكم بأنَّه إنما وُضع لتتمة حديث أو تنميق رواية، وكأنَّ فطرة العرب الشعرية تدفعهم إلى ترصيع كل رواية من رواياتهم بأبيات ينقلونها من حيثُ تيسر لهم النقل، وإن أعياهم ذلك عمدوا إلى وضع شيء مما تجود به قرائحهم؛ ولذلك كانت جميع تآليفهم مشحونة بالشواهد الشعرية مما يجوز الحكم بصحة نقله وما لا يجوز، فإذا ساغ لنا الآن أن نقول بصحة مآخذ الشعر الجاهلي الحديث من المهلهل بن ربيعة إلى زهير بن أبي سلمى، فإنه قيل في زمنٍ كان فيه الشعر في إبانهِ، وسوق عكاظ في ربَّيعانها، والحقَّاف والرواة منبثون كأسلاك البرق يدوِّنون وينقلون، ويحرصون على ادِّخار مسموعهم ومحفوظهم، والقراءة مألوفة والكتابة معروفة، والشعر بمنزلةٍ يُحسد عليها فيُختزن اختزان الدرِّ المنضود، ومع هذا فإنَّ بعضه لا يخلو من النقد والشُّبُهات، ولكن من لنا بدليل واحد يثبت صحة إسناد الشعر المرويِّ عن شعراء القبائل البائدة، وكهَّانها من طسم وجديس، وعاد وثمرود، ومن ذا الذي يتقن اليوم مثلاً أن مهذا الكاهنة هي القائلة يوم أنذرت قوم عاد بالهلاك:

إنني أرى وسط السحاب نارا	تنثر من ضرامها الشرارا
يسوقها قومٌ على خيولٍ	تهتف بالأصوات والصهيل
وهي عذابٌ يآل عادٍ فاعلموا	فوحّدوا الله لكي ما تسلموا
ثم استجبروا بالنبي هودٍ	نبي رب واحدٍ معبودٍ

فقد أتاكم عن قريبٍ داهيه فليس نبقى منكم من باقيه

وأقلُّ ما يقال في هذه الأبيات أنها بلغةٍ ما قطُّ نطق بمثلها قوم
عاد بل هي دون لغة بني الجاهلية المشهور شعرهم بيننا.

وليست أمثال هذه الرواية بالشيء المذكور إزاء الشعر العربي
المنسوب إلى قدماء الأعاجم، ثم إلى آدم أبي البشر، وأمنا حواء ثم إلى
الملائكة وإبليس وأشباه هذا مما هو غير خليق بالذكر، ولا يجدر
بالكاتب أن يتكلف عناء الإشارة بإطراحه، على أنه يجب التنبيه أن
جهايزة كتاب العرب عمومًا قد أنكروا على العامة القول بصحة إسناد
هذه الروايات. ومن كلام ابن عباس: «من قال أن آدم قال الشعر فقد
كذب على الله ورسوله».

أصله

لكن الكتاب كسائر الناس يندفعون بسائقة الطبيعة إلى التطلع
إلى أصل كل مجهول، فلما بحث كتاب العرب في الشعر بحثوا في
أصله، وجعل كلٌّ منهم يستخرج حجةً مما يحسنه له اجتهداه، فقال قائلٌ
منهم: «أوّل من هدّبه عديّ بن ربيعة، واستنبط من لقبه دليلًا فقال: إنه
لقب بالمهلhel؛ لأنه أوّل من هلhel الشعر وقصد القصائد، وقال الغزل».
وذهب بعضهم إلى أن أول شعراء العرب هو ربيعة، وقيل بل هو مضر،
وصعد آخرون إلى ما وراء ذلك الزمن بأحقاب، فقالوا بل هو عادٌ أبو

القبيلة المشهور، وقيل بل ثمود، وقيل بل حمير، وأمثال هذه الأقوال مما لا يتجاوز الأساطير الموضوعية وبأباه العقل، ويعجز النقل عن إثبات شيء منه.

على أنه إذا ثبت لدينا فساد هذه الروايات فلا يثبت مطلقاً أن العرب لم يقولوا الشعر قبل القرن الخامس للميلاد، فإن طبيعتهم وطبيعة بوادهم وحواضرهم كانتا لعهد الهجرة، وقبلها بقرنٍ على ما كانتا عليه قبل عشرات من القرون، فقد يصحُّ الفرض أن النهضة الشعرية كانت تتفاوت ارتقاء وارتقاء بين زمنٍ وزمن، ولكنه لا يصح القول أن جذوتها لم تلتهب إلا لهذا العهد القريب، فارتقاء بلاغة الشعر متقدِّمٌ على ارتقاء بلاغة النثر لملازمة الأفكار الشعرية للفطرة البشرية، وإذا كان الشعر مدوَّناً قبل الإلياذة بعصور في لغات الهنود والمصريين، وبلادهم معتقلة بقيود الحضارة فما بالك بالعرب، وهم في بداوتهم وجاهليتهم يطوفون في عالم الخيال فلا قيد ولا عقل يطرقون البوادي والقفار، فينقرون فيها على ما شاءوا من الأوتار، ويسامرون النجوم فلا يستر الجو عنهم شيئاً من بهائها، وهم جميعاً بين هائمٍ وهاجعٍ، ومُدافعٍ ومنافرٍ ومفاخرٍ، وكل تلك الأحوال تهيج السليقة الشعرية حتى في الأفئدة الخاملة، وهم هم اليوم في باديتهم أولئك الرعاة الغزاة منذ ألفي عام والشعر على تغير لغته وزوال إعرابه ما زال أنيسهم وسميرهم في الحل والترحال، وسيظل كذلك إلى ما شاء الله.

طموسه

لا ريب بعد ما تقدم أن الشعر العربي القديم دَرَسَ أثره، وطَمَس خبره، وأن ما يُنقل منه لأيماننا حديث الوضع من مخترعات الكتاب، ولعله يأتي زمن يتوصل فيه الباحثون في عاديَّات الأيام الخوالي إلى اكتشاف شيءٍ مما قد يكون غُلّق منه لَعَرَض، ولكن افتراض حصول ذلك قليل الجدوى بالنظر إلى لغة الشعر العربي من عهد شعراء الجاهلية المعروفين حتى يومنا؛ لأنه إذا وجد شيءٌ من الشعر الراقي إلى ما فوق القرن الرابع للميلاد، فإنما يكون بلغة غير لغة امرئ القيس، وإذا كانت لغة أصحاب المعلقات ونظائرها يُشكل فهمها على معظم قراء العربية مع جميع القيود التي قيدت بها اللغة من عهدهم، فما يكون مبلغ فهمنا من لغة تلك العصور، ولا ضابط لها ولا قيد.

عكاظ

وهو معلومٌ أيضاً أن منطوق لغة العرب كان يختلف ويتباعد بتباعد القبائل؛ ولهذا كثرت المترادفات في اللغة العربية إلى ما لا نظير له في لغةٍ أخرى، ولو طال الأمد على تلك الفوضى، ولم تقم سوق عكاظ لباتت لغة العرب لغاتٍ لا يتفاهم أصحابها، وانفصلت كلٌّ منها عن الأخرى انفصال العربية عن شقيقتيها العبرية والسريانية، فلما عظم شأن السوق العكاظية، وأخذ الشعراء يؤمُّونها من أطراف البلاد يتناشدون فيها، ويتنافسون كان معظم همهم انتقاء الألفاظ الفصيحة المشهورة عند

أكثر القبائل طمعًا بكثرة المستحسنين لشعرهم، فاشتركت الألفاظ وعمت التعابير المألوفة بين الجميع، فاتّقت اللغة شر التفريق، وأمنت ألفاظها من التبعر بين شتيت القبائل.

وقد كان ذلك شأن العرب في اختيار الفصيح من الكلام في نظائر عكاظ كذي المجاز في الجاهلية، ومريد البصرة في الإسلام.

القرآن ولغة قريش

إذا ثبت أن لعكاظ ونظائرها فضلًا في تمحيص ألفاظ اللغة، فالفضل العظيم في استحيائها واستبقائها إنما هو للقرآن، فهو الذي أحكم تراكيبها، وأبدع في تنسيق أساليبها، وصعد بالبلاغة إلى أوج مراقبها، بل هو الذي جمع جامعتها، وهذّب عبارتها، ولما ارتفع منار الدين الإسلامي كانت اللغة العربية تنتشر بانتشاره على وتيرة واحدة في مشارق الأرض ومغاربها، ولا عبرة بما كان يعتور لغة العامة من الركة واللكنة بمخالطة الأعاجم، ويُعد عهد الجُم الغفير من الجالية العربية بالانقطاع عن أصولها، فإن القرآن كان ولا يزال رائد الكتّاب يرجعون إليه في مواضع الإشكال، ويتمثلون بعبارته، ويتفقهون ببلاغته، فكان من مُعجزة حفظ اللغة العربية الفصحى على أسلوب واحد منذ ثلاثة عشر قرنًا مع تفرق حَفَظَتِها وتشتت المتكلمين بها.

وفضل القرآن على الشعر العربي يكاد يضاهي فضله على لسان العرب؛ لأن بلاغة التعبير تهيج الفطرة الشعرية سواءً كانت العبارة نثرًا أو

شعراً؛ ولهذا كثر لفظ القائلين في أوائل الإسلام أن القرآن كلامٌ شعري، فجاءت الآية بتكذيبهم وَمَا عَلَّمْنَاهُ الشُّعْرَ وَمَا يَنْبَغِي لَهُ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْآنٌ مُبِينٌ فلذلك أجمع أئمة العرب على أن الشعر لا يُعدُّ شعراً ما لم يكن مقصوداً بالوزن، فإن جاءت العبارة موزونةً على غير قصد فليست من الشعر في شيء، وأمثال ذلك كثيرة في القرآن والحديث، فمن الآيات القرآنية فَمَنْ كَانَ مِنْكُمْ مَّرِيضًا أَوْ عَلَى سَفَرٍ، وَوُأَخْرَجَتِ الْأَرْضُ أَثْقَالَهَا، وَلَنْ تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّى تُنْفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ، ومن الحديث: «هل أنت إلا إصبغ دُميت وفي سبيل الله ما لقيت».

وإنَّ للإفرنج اسلوباً نثرياً في الكتابة يتعمدون في تنميق العبارة بما لا يجوز إتيان مثله في النثر البسيط، ويتوخَّون فيه إثارة العواطف والخوض في عالم الخيال، ومذهبهم فيه بخلاف مذهب العرب إذ يعدُّونه من فنون الشعر، وإن تجرَّد من القلب الشعري، ولم يقصد به الوزن والتقفية.

وإذا كان اللسان العربي خلواً بعرف العرب من هذا النوع من الشعر، فإن في القرآن من البلاغة ما لم يجتمع له نظير في نثرٍ ولا في شعر، فلا غرو إذن أن يكون هو الناهض بهذا اللسان، تلك النهضة التي وطَّدت أركان فصاحته، وهذَّبت مقول الشعراء حتى أربَّت بلاغة التركيب وجزالة اللفظ في شعر المخضرمين والمولَّدين ممن أكثروا من تلاوته وسماعه على مثله في شعر من تقدمهم من فحول الشعر الجاهلي —

قال ابن خلدون: «وكلام الإسلاميين من العرب أعلى طبقةً في البلاغة من كلام الجاهلية؛ لأنهم سمعوا القرآن، وحفظوه، وهو في أعلى طبقة من البلاغة وحفظوا الحديث أيضاً؛ ولذلك نجد شعر حسان، والحطيئة، وجريز، والفرزدق، وذي الرمة والأحوص، وبشار أبلغ من شعر امرئ القيس، والنابغة، وعنترة، وابن كلثوم، وزُهَيْر ونحوهم».

وخلاصة القول أن لغة الأعراب في البداية، ومنطوق سائر العرب في حواضرهم ما زالوا يتراوحان بين الصعود والهبوط، والتقارب والتباعد حتى هذبهما شعراء عكاظ، وأتى القرآن فكان فيه القول الفصل والمنهج القويم، والحجة الكبرى والأساس الوطيد.

وإذ كانت عكاظ بين نخلة والطائف في الحجاز، ولقریش الحجاز منزلة لا تعادلها منزلة بين العرب، ولهم سدانة الكعبة كان الشعراء الوافدون من اليمن، وبادية الشام، وهضاب نجد، وبرق تهامة، وسائر أطراف البلاد العربية يتشبهون جهدهم بلغة قریش المضربة، وكان إذ ذاك اللغة المعول عليها بين أكثر قبائل الحجاز، ونجد فقويت وما لبثت أن فازت بالغلبة في منظوم الشعراء، ثم جاء القرآن فأحكمها ذلك الإحكام الذي يُدهش له الأعجمي فضلاً عن العربي، وهُجر ما سواها من لغات سائر القبائل في النثر والشعر إلا بقية من الأصول النحوية والاصطلاحات التركيبية.

وكانت لغة قريش تزداد رسوخاً في أذهان الشعراء وشيوخاً بين العرب كلما دانت قبيلةٌ منهم بالدين الإسلامي بعد سماع آي القرآن، ولا سيما بعد أن قام الشعراء القُرشيون فأخذوا بأطراف البلاغة، فكان لهم القَدح المَعْلَى في الشعر كما كان لهم من قبل في رفعة القدر.

وهو غير خاف أنه كان لقريش بصَرٌ في الشعر في الجاهلية، ومع هذا فلم تكن لهم فيه مقامات عالية ولم يرتفع شعراؤهم بطبقتهُم إلى طبقة نوايغ الشعراء من سائر القبائل؛ لأن العرب كانت تقرر لهم بالتقدم في كل شيء إلا الشعر، ولما استنهضتهم بلاغة القرآن، وأقبلوا على النظم وأجادوا فيه أيما إجادة، ونبغ منهم الفحول كعمرو بن أبي ربيعة كبيرهم والحارث بن خالد المخزومي، والعرجي، وأبو دهل، وعبيد الله بن قيس الرقيات أَقَرَّتْ لهم العرب بالشعر أيضاً.

وأما سائر قراء العربية والمتكلمين بها بعد حين من ملل الأعاجم ممن دان بالدين الإسلامي أو انتشرت بينهم قبائل العرب، فما عرفوا إلا لغة القرآن والحديث، وما تبعهما من كتب الفقه وعلم الكلام مما استُمدَّ جميعاً منهما، ومعظم ذلك من لغة قُريش، وإذا رجعنا إلى علم النحو الذي يقوم عليه عماد التركيب والتعبير في اللغة رأينا أنه إنما نشأ بفضل القرآن؛ لأنه وُضع قبل كل شيء لضبط القراءات القرآنية، ثم لما كُتبت أسفار اللغة وسائر العلوم العربية وغير العربية كان القرآن والحديث مرجعاً للاستدلال على صحة التعبير، وإحكام التركيب، وضبط المفردات،

فكانت لغة قريش في كل ذلك هي اللغة السائدة؛ فحفظها الشعراء وأصبحت في شعر المخضرمين والمولّدين أنقى منها في شعر أبناء الجاهلية إذ قلَّ الخليط فيها من سائر لغات العرب، وهكذا صارت لغة جميع كتّاب العربية من عرب وأعاجم، ولا عبرة بما طرأ عليها من الخلل والانحطاط وزوال الإعراب بين عامّة المتكلمين بها، فإن الفساد يتطرّق بمرور الزمان إلى كل لسان، وحسب العربية مزينةً على سائر اللغات الحيّة أنه ليس بينهم لغةٌ غيرها حفظت أصول شعرها وكتابتها منذ أربعة عشر قرناً، وبقيت واحدةً في جميع أطراف الأرض بين العرب وغير العرب، والمسلمين وغير المسلمين.

مقابلة بين لغة قريش المصّرية ولغة الإلياذة اليونية وكيف عاشت الأولى وتلاشت الثانية

قد يفهم من عنوان هذا الفصل أننا لا نقصد فيه المقابلة بين لساني العرب واليونان بالنظر إلى ما بينهما من الصلة أو الشبه والاختلاف في المنشأ والوضع والاشتقاق والتركيب، فتلك أمورٌ ليس هذا موضع البحث فيها، ولكنه لا بدّ لنا من النظر إلى سبب تلاشي لغة الإلياذة لزمان يسير من استحكامها، وبقاء لغة قريش حيّةً طوال هذا الدهر.

إن سنّة النموّ والتحول وتفرّع الأصل الواحد إلى أصولٍ شتّى تشمل اللغات كسائر المخلوقات، فقد قلنا: إن لسان العرب في

الجاهلية تفرق إلى فروع كاد كلٌّ منها يقوم لغةً بنفسه، ويمتنع التفاهم بين أصحابه، فجاء القرآن وأزال الخلاف، وأوثق عرى الارتباط، فسادت اللغة القرشية، وهكذا كانت لغة قدماء اليونان فروعاً كثيرة مرجعها إلى فرعين كبيرين الدُّوري واليوني يتكلمهما سكان قلب بلاد اليونان ومستعمراتهم في صقلية وبعض بلاد إيطاليا وغيرها، فهما بمثابة لغة نجد عند العرب مع ما يتبعها من أطراف الحجاز. ويلحق بهما فرعٌ ثالث هو الأيولي، وكان لغة فريق من سكان آسيا الصغرى وتساليا وتوابعهما، فمُنشآت فنداروس وثيوكريتس كانت باللغة الدورية، ومنظومات هوميروس وهسيودس كانت باللغة اليونانية، وإن بين اللغتين على تقاربهما فرقاً يضاهي نظيره بين لغات جنوبي الحجاز ونجد واليمن، وكلما كانت تمتد فتوحات اليونان ويكثر الاختلاط كان يطرأ على تينك اللغتين تغييرٌ يبعدهما عن وضعهما، وكان كلٌّ من الشعراء والكتّاب ينطق بلغة زمانه ومكانه حتى باتت لغة كل من بني الفرع الواحد تتميز عن الأخرى بالتعبير والتركيب، فاللغة اليونانية مثلاً هي التي نطق بها هوميروس في أخريات القرن التاسع للميلاد، وهي التي كتب بها ثوكيديدس وهيرودوتس في القرن الخامس وديموستينيس في القرن الرابع، ومع هذا فالفرق بين لغتهم ولغته غير يسير بل قد تجد فرقاً بين لغة أبناء كل قرنٍ وآخر، حتى لقد ذهب كرتيوس في تاريخ اليونان إلى أنه في زمن الإسكندر لم يكن يحصل التفاهم بين المكدونيين واليونان، وقال فلوطرخوس: «إن فيلبس

وابنه الإسكندر جنحا إلى إثثار لغة جبرتهما على لغة قومهما فعدلا إليها في بلاطهما وبطانتهم».

وعلى الجملة فقد ظلّ هذا التغيّر يتعاظم حتى باتت اللغة اليونانية الحديثة لغة قائمة بنفسها، ولها أصولٌ بعضها أقرب إلى اللغات الحديثة منها إلى لغة الإلياذة؛ ولهذا ترى نوايغ كتّاب اليونان العصريين مع شدة ما بهم من الغيرة على إحياء اللغة اليونانية القديمة والتشبه بها في بعض ما ينشئون لم يغنهم كل ذلك عن نقل الإلياذة هوميروس وأشباهها بالترجمة إلى اللغة اليونانية الحديثة، فكأنهما لغتان منفصلتان.

وأما العربية فليس هذا شأنها، فإن أصول اللغة ما زالت على ما نطق به شعراء الجاهلية، وغاية ما يشكل فهمه على قرائها مفرداتٌ لم تألفها العامة، و مترادفاتٌ متشابهات وتعبير غير مأنوسة في عصرنا.

ولكن التباعد بين لغات العامة محصورٌ في الكلام العامي، فالحجازي واليمني والنجدي، والعراقي، والمصري، والسوري، والمغربي، وإن اختلفت مصطلحاتهم في كل قطر من أقطارهم فهم جميعًا يكتبون بلغةٍ واحدة على أصول لا تختلف شيئًا بين إقليم وإقليم، وجميع هذه الأصول مبنية على أصول لغة القرآن.

وإن اختلاف منطوق العامة غير خاصٍّ بالعربية، بل هو يتناول جميع اللغات الحية حتى إذا نظرت إلى أرقاهنّ كالفرنسية والإنجليزية رأيت فرقًا بينًا في كلام العامة بين منطوق أبناء قُطرٍ وقُطر، وإن اتحدت

أصول اللغة الفصيحة بين جميع الناطقين بها من أبناء تلك اللغة وغير أبنائها، وإذا رجعنا بالتخصيص إلى اليونانية الحديثة رأيناها على توحد لغتها الكتابية متشعبة فروعاً بمنطوق عامة أبنائها، فلغة أثينا غير لغة إكريت، وكلتاها تختلفان عن لغات ساقس، وقبرس، وجزر الأرخيل، وآسيا الصغرى.

وخلاصة ما تقدم أن اللغة العربية أطول اللغات الحيّة عمراً، وأقدمهن عهداً والفضل في كل ذلك للقرآن، فالإلياذة وبلاغتها وسائر منظومات هوميروس وهسيودس على علو منزلتهما لم تقم للغة اليونية دعامة ثابتة حتى في بلادها، ولم تقوَ على مقاومة التيار الطبيعي، ولكن القرآن وطّد أركان لغة قريش في بلادهم وأذاعها في جميع البلاد العربية، وسائر البلاد التي طال فيها عهد الاحتلال الإسلامي أو كثرت مخالطة العرب الضارين في أقطار الأرض للجهاد والتجارة.

أطوار الشعر العربي

أو طبقات الشعراء بالنظر إلى أزمانهم ومزينة كل طبقة منهم

هذا بحثٌ لو تعمّدنا الإفاضة فيه لاضطررنا إلى التثبت من أحوال كل عصرٍ من عصور العرب، والنظر في شئون الشعراء وطرائفهم وفنونهم، ومناحي نظمهم، والرجوع إلى مراميتهم في شعرهم، وطرق معاشتهم، وبيان أنواع اقتباسهم من الأعاجم واقتباس الأعاجم منهم بالنقل والملابسة إلى غير ذلك مما يؤدي إلى تدوين سفر طويل، ومع

هذا فلا بد من أن نلّم بالموضوع إمامًا إجماليًا؛ لئلا يفوتنا استجماع أطراف الحديث الذي توخّيناه، وعسى أن يكون لنا في مستقبل الزمن متسعٌ لإعادة النظر فيه أو ينهض إليه باحثٌ من أدبائنا، فيلججه من جميع أبوابه ويوفّيه حقه بما لا يتيسر في هذا المقام.

من الكتاب من يقسم الشعراء بالنظر إلى أزمانهم إلى ثلاث طوائف أو طبقات أولها شعراء الجاهلية ثم المخضرمون، وهم الذين أدركوا الجاهلية والإسلام، ثم المولّدون وهم سائر الشعراء، ومنهم من يزيد طبقةً رابعة وهي طائفة المحدثين، فيحصر المولّدين في فئة قليلة من أبناء أوائل الإسلام كالفرزدق وجريّر والأخطل، ويجعل جميع من أتى بعدهم في عداد المحدثين.

وإننا نأحون في بحثنا نحو أصحاب التقسيم الأخير بالتسمية دون الترتيب، ومستدركون ما يجب استدراكه؛ لاختلاط الطبقات الثلاث الأولى بعضها ببعض وواضعون حدًّا فاصلاً بين كل طائفةٍ وأخرى، وباحثون في تماسك هذه الحلقات، وأسباب ترقّي الشعر العربي حيناً من الدهر، ثم انحطاطه في كلام المحدثين حتى أيام النهضة الأخيرة غير مغفلين في كل ذلك أوجه المقابلة مع منظوم صاحب الإلياذة.

النهضة الجاهلية

ليس بالأمر السهل تعيين الزمن الذي بدأت فيه نهضة الجاهليين لاندثار منظوم الشعراء مما تقدم على الشطر الأخير من القرن الخامس

للميلاد أو ما تقدم على الهجرة بقرن ونصف قرن، على أنه لا ريب أن النهضة الجاهلية المتصلة بالإسلام بدأت قبل الهجرة بقرنين أو أكثر؛ لأننا إذا قرأنا شعر المهلهل والشنفرى، والمثقب العبدى والبراق بن روهان، وغيرهم ممن تقدم على الهجرة زهاء قرن وربع أو ما يُنيف رأينا فيه من البلاغة وحسن الانسجام ما لا يجوز الحكم معه أنهم كانوا في طليعة شعراء العرب بل لا بد من أن يكونوا نسجوا على منوال نوابغ سبقوهم، ولكن لنا من وجه آخر مساعاً للحكم أن تلك النهضة لم تستحكم إلا في القرن الأول قبل الهجرة، ولم تبلغ أوج علاجها إلا في بضعة عقود من السنين الملاصقة للإسلام، ودلينا على ذلك أن شعر معظم المتأخرين في الجاهلية كلبيد بن ربيعة، وزهير بن أبي سلمى، وعنترة العبسي، والأعشى، والنابغة الذبياني أرقى من شعر معظم المتقدمين عليهم في الزمن كالبراق وأبي دؤاد، والحارث بن عباد وأمثالهم، ولا يضعف هذا الحكم نبوغ بعض المتوسطين بين الفريقين كامرئ القيس، وطرفة بن العبد، والحارث بن حليمة اليشكري، وعمرو بن كلثوم، وغيرهم ممن لاصق الأولين، ونبغ في منتصف القرن السادس للميلاد فكانوا نبراس تلك النهضة، وقادة زمامها إذ يتيسر لنا بهذا الاعتبار أن نعين زمن استحكام النزعة الشعرية في نحو ذلك العهد أي: سنة ٥٣٢ للميلاد أو قبل الهجرة بتسعين عامًا، وهو زمن نبوغ امرئ القيس أول أبناء الفريق المتوسط بين متقدمي الجاهليين ومتأخريهم.

ومما يؤيد هذا القول أن كتاب العرب قَسَمُوا الشعراء إلى طبقات باعتبار جودة الشعر، كما قسموهم إلى طبقات بالنظر إلى التاريخ، فجعلوا أصحاب الطبقة الأولى من متأخري الجاهليين ومتوسطيهم كأصحاب المعلقة جميعاً، والنابعة، والأعشى الأسدي، وعديّ بن زيد، وعبيد بن الأبرص، وأمّية بن أبي الصلت، وعدّوا سائر من تقدمهم في الطبقة الثانية إلا المهلهل، فإنهم اختلفوا بين أن يكون من الثانية أو الأولى.

الحدُّ الفاصل بين شعراء الجاهلية والمخضرمين

إذا حسبنا لاستحكام النزعة الشعرية الجاهلية تسعين عاماً، وجعلنا طليعتها امرأ القيس، فإننا نحسب لطور الشعر الجاهلي بأسره مئة وخمسين عاماً أولها سنة ٤٧٢ للميلاد وآخرها سنة الهجرة النبوية، وزعيم جنده عديّ بن ربيعة الملقّب بالمهلهل، وهو معلومٌ أن بعض شعراء الجاهلية أدركوا صدر الإسلام، وماتوا في زمن النبي كزهير، وهو الذي قيل فيه أن النبي نظر إليه يوماً وعمره مئة سنة، فقال: «اللهم أعذني من شيطانه» قيل فما قال بعد ذلك شيئاً من الشعر، ومنهم من مات في زمن الخلفاء الراشدين كعمرو بن معدي كرب، ومنهم من عمّر حتى انقضت دولة الراشدين، وقامت دولة بني أمية؛ كلبيد المتوفى في خلافة معاوية، وعمره على ما قيل مائة وخمسة وأربعون سنة، فأمثال

هؤلاء يحصل الإشكال في تعيين طبقتهم، فتلتبس بين طائفتي الجاهليين والمخضرمين.

وقد قيل في تفسير المخضرم هو من ذهب نصف عمره في الجاهلية ونصفه في الإسلام، أو هو من أدرك الجاهلية والإسلام على الإطلاق تشبيهاً بالناقاة المخضرمة التي قُطع طرف أذنها كأن ما ذهب من عمره في الجاهلية ساقطاً لا يعتدُّ به، وقُلَّ من ينطبق عليه القول الأول من فحول شعراء الجاهلية كلبيد العامري الذي عمَّر طويلاً في الجاهلية والإسلام، وأما الذين أدركوا الجاهلية والإسلام فكثيرون؛ كزهير، والخنساء، والحطيئة ممن نبغ في الجاهلية، وأبى ذؤيب العجلي، وكعب بن زهير، وحسان بن ثابت ممن نبغ في الإسلام؛ ولهذا نظر البعض في تعيين الطبقة إلى القرب والبعد من الإسلام، فكان زهير عندهم جاهلياً، وليبد مخضرمًا، وربما وضعوا لبيد في طبقتين، فقالوا: «هو جاهلي ومخضرم» وعندنا أنه إذا صح أحد هذين القولين بالنظر إلى الشاعر وصفته، فلا يصحُّ شيءٌ منهما بالنظر إلى الشعر وصبغته، وإلا لوجب أن نجعل معظم المخضرمين في طبقة الجاهليين أيضًا، فتختلط الطبقتان مع أن لكل منهما مزية خاصة بها على ما سنبينه في ما يلي.

فلذلك وجب اعتبار الصبغة الشعرية في أقوال أمثال هؤلاء، فمن قال الشعر قليلًا في الإسلام أو لم يقله عُدَّ جاهلياً كزهير، ومن ربا قوله في الإسلام بعد أن أسلم وحفظ القرآن ككعب ابنه فهو مخضرم، ويقال

مثل ذلك في حسّان بن ثابت شاعر النبي فهو زعيم المخضرمين، وإن قضى نصف عمره في الجاهلية، وقال فيها الشعر الحسن.

على إنني لا أعلم بأي مساغٍ يُعدُّ لبيد والخنساء من المخضرمين، فأما لبيد فإن جميع شعره ولا سيما معلقته من لباب الشعر الجاهلي، ولم يرووا له في الإسلام إلا بيته القائل:

الحمد لله إذ لم يأتني أجلي حتى لبست من الإسلام سربالا

وقيل: إن الخليفة عمر استنشدَه أيام خلافته من شعره، فانطلق وكتب سورة البقرة في صحيفة ثم أتى بها، وقال: «أبدلني الله هذه في الإسلام مكان الشعر» فسُرَّ عمر بجوابه، وأجزل عليه العطاء.

وأما الخنساء فجميع شعرها قبل الإسلام وبعده فخرٌ وثناءٌ، ونفسه واحدٌ وصبغته واحدةٌ، وكله جاهليٌّ ولا وجه لعدّها بين المخضرمين إلا أن نحسب من الشعر حماسياتها الشربة المسجّعة كقولها لأبنائها يوم وقعة القادسية: «يا بنيّ إنك أسلمتم طائعين، وهاجرتم مختارين، والله الذي لا إله إلا هو إنكم لينو رجل واحد كما أنكم بنو امرأة واحدة، ما هجنت حسبكم، ولا غيّرت نسبكم، واعلموا أن الدار الآخرة خيرٌ من الدار الفانية، اصبروا، وصابروا، ورابطوا، واتقوا الله لعلكم تفلحون، فإذا رأيتم الحرب قد شمّرت عن ساقها، وجلّت ناراً على

أرواقها، فتيّمموا وطيسها وجالدوا رئيسها، تظفروا بالمغمم والكرامة في دار الخلد والمقامة».

فإن في هذا الكلام مسحةً من بلاغة المخضرمين، ولكننا قد قدمنا أن العرب لا تعد هذا الكلام من الشعر في شيء؛ لأنه غير مصوغ في قالب الشعري، وإن كانت معانيه شعرية، فالخنساء وليد وأمثالهما في عُرفنا يجب أن يعدوا من شعراء الجاهلية بالنظر إلى شعرهم، وإن صح أن يُحسبوا من المخضرمين بالنظر إلى امتداد حياتهم.

وهو ثابتٌ أيضاً أنه في أوائل الإسلام حصلت فترةٌ في الشعر، فاسكتت الشعراء ثم هبوا إليه هبةً جديدة، وألبسوه ثوباً قشياً، قال ابن خلدون: «إن الشعر كان ديواناً للعرب فيه علومهم وأخبارهم، وكان رؤساء العرب ينافسون فيه، وكانوا يقفون في سوق عكاظ لإنشاده، وعرض كل واحد منهم ديباجته على فحول الشبان وأهل البصر، حتى انتهوا إلى المناغة في تعليق أشعارهم بأركان البيت الحرام، ثم انصرف العرب عن ذلك أول الإسلام بما شغلهم من أمر الدين والنبوة والوحي، وما أدهشهم من أسلوب القرآن ونظمه، فسكتوا عن الخوض فيه زماناً ثم استقر ذلك، وأونس الرشد في الملة، ولم ينزل الوحي في تحريره وسمعه النبي، وأثاب عليه فرجعوا إلى دينهم منه».

فهذه الفترة التي ذكرها ابن خلدون وغيره من مؤرخي العرب هي الحدُّ الفاصل بين الطُّور الأول والطُّور الثاني من أطوار الشعر العربي،

فجميع ما تقدمها شعرٌ جاهلي، ويلحق به قليلٌ مما تأخر عنها من قول شعراء الجاهلية الذين أدركوا الإسلام وأسلموا، وبقي شعرهم على صبغته الجاهلية الصرفة كعبدة بن الطيب كلما سنّبت في الفصل التالي بإيراد مثالٍ من شعره في الإسلام.

الطبقة الأولى أو شعراء الجاهلية

خاض العرب في الجاهلية عباب بحر الشعر، وولجوا كلّ بابٍ من أبوابه فوصفوا وترسلوا، وتغنّوا وتغزّلوا، ومدحوا وهجوا، ورثّوا ودونوا الأخبار، وضربوا الأمثال ووضعوا الحكم، وتنافروا وتفاخروا وشاعرهم مندفعٌ في كل ذلك بسائقة الطبيعة يفكر في محسوسٍ بين يديه، ومنظورٍ أمام عينيه، وعاطفةٍ بين جنبه، وشعيرةٍ تختلج في صدره، وصورةٍ مرسومةٍ في مخيلته منعكسةٍ عن طُرق معيشته وفطرته. لا يتطلّع إلى ما وراءها ولا يتكلف الزخرف والتسميق.

وكانوا يسددون قولهم نحو كبد الحقيقة فلا يخطئونها، ويقولون الشعر عن شعورٍ حيٍّ، ولا يتخطّون إلى ما وراء مشهودهم ومعقولهم فجاء شعرهم مثلاً صادقاً لبدائيتهم وحضارتهم، حتى لو اندثرت جميع أخبارهم وآثارهم، وما بقي إلا شيءٌ من شعرهم لتيسر للباحث أن يستخرج منه وصفاً كاملاً لجميع أحوالهم كما استخرج الباحثون كثيراً من غوامض جاهلية اليونان من شعر هوميروس.

ويسري هذا الحكم على جميع شعراء الجاهلية من عبدة الأوثان واليهود والنصارى، ومن أدرك الإسلام وأسلم أو لم يسلم، وهم في ذلك سواء في اليمن ونجد، والحجاز، والعراق وبوادي الشام، وسائر أطراف بلاد العرب، فالشاعر منهم إما بدويٌّ عريقٌ في البداوة، وإما حضريٌّ لاصقٌ بأبناء البادية، وكلاهما متخلقٌ بأخلاق الجاهلية ينزع إلى رسم الحقيقة رسمًا ناطقًا، فإذا روى حادثه بسطها بسطًا جليًا، وألمَّ بها إلمامًا واضحًا يغنيك عن التخرص والتنقيب نظير ما فعل هوميروس في إيراد كل حوادثه، وإليك مثالًا قول المهلهل بعد وقعة السَّلان إذ حضرها مع أخيه كليب، وفرَّ ابن عنق الحية من وجهها:

لو كان ناهٍ لابنٍ حيَّةٍ زاجرًا	لنهاه ذَا عن وَقْعَةِ السَّلاَنِ
يَوْمَ لَنَا كَانَتْ رِئَاسَةُ أَهْلِهِ	دُونَ الْقَبَائِلِ مِنْ بَنِي عَدْنَانِ
غَصِبَتْ مَعَدَّ غُثَّهَا وَسَمِينُهَا	فِيهِ مُمَالَاةٌ عَلَى غَسَّانِ
فَأَزَالَهُمْ عَنَّا كُليبٌ بطعنةٍ	فِي عَمْرِ بَابِلَ مِنْ بَنِي قَحْطَانِ
وَلَقَدْ مَضَى عَنْهَا ابْنُ حِيَّةٍ مُذْبِرًا	تَحْتَ الْعِجَاجَةِ وَلِخُتُوفِ دَوَانِ
لَمَّا رَأَيْنَا بِالْكَلابِ كَأَنَّا	أَسَدٌ مَلَاوِثَةٌ عَلَى خَفَّانِ
تَرَكَ الَّتِي سَحَبَتْ عَلَيْهِ ذِيولَهَا	تَحْتَ الْعِجَاجِ بِذَلَّةٍ وَهَوَانِ
وَنَجَا بِمَهْجَتِهِ وَأَسْلَمَ قَوْمُهُ	مُتَسَرِّبِلِينَ وَوَاعِفَ الْمَرَّانِ
يَمْشُونَ فِي حَلْقِ الْحَدِيدِ كَأَنَّهُمْ	جُرْبُ الْجَمَالِ طُلَيْنَ بِالْقَطْرَانِ

نَعِمَ الْفَوَارِسُ لَا فَوَارِسٌ مَذْحِجٍ يَوْمَ الْهِيَاجِ وَلَا بَنُو هَمْدَانَ
هَزَمُوا الْعِدَّةَ بِكُلِّ أَسْمَرٍ مَارِنٍ وَمُهَنَّدٍ مِثْلَ الْغَدِيرِ يَمَانِي

وَإِذَا وَصَفَ شَيْئًا فَإِنَّهُ يَسْتَجْلِيهِ عَلَى عِلَّتِهِ، وَيَسْتَمُتُّ بِتَبْيَانِ حَالَتِهِ
عَلَى طَبِيعَتِهِ كَقَوْلِ عَبْدِ بْنِ الطَّبِيبِ يَصِفُ نَاقَتَهُ وَيَشَبِّهُهَا بِالثَّوْرِ الْوَحْشِيِّ
الْمَتَذَرِّ أَمَامَ الْكَلَابِ:

تَرَى الْحَصَى مُشَفَّتًا عَنْ مَنَاسِمِهَا كَمَا تُجْلَجِلُ بِالْوَعْلِ الْغَرَابِيلُ ٥٨
كَأَنَّهَا يَوْمَ وَرْدِ الْقَوْمِ خَامِسَةً مُسَافِرٌ أَشْعَبُ الرُّوقَيْنِ مَكْحُولُ ٥٩
مُجْتَابٌ نِصْعٍ جَدِيدٍ فَوْقَ نُقْبَتِهِ وَلِلْقَوَائِمِ مِنْ خَالِ سِرَاوِيلِ ٦٠
مُسَقَّعُ الْوَجْهِ فِي أَرْسَاعِهِ خَدَمٌ وَفَوْقَ ذَاكَ إِلَى الْكَعْبَيْنِ تَحْجِيلُ ٦١
بَاكِرُهُ قَانِصٌ يَسْعَى بِأَكْلِهِ كَأَنَّهُ مِنْ صَلَاءِ الشَّمْسِ مَمْلُوءُ ٦٢
يَأْوِي إِلَى سَلْفَعٍ شَعْنَاءَ عَارِيَةٍ فِي حِجْرِهَا تَوَلَّبَ كَالْقِرْدِ مَهْزُولُ ٦٣
يَشْلِي ضَوْرَايَ أَشْبَاهًا مُجْوَعَةً فَلَيْسَ مِنْهَا إِذَا أَمَكِنَ تَهْلِيلُ ٦٤
يَتَبَعْنَ أَشْعَثَ كَالسَّرْحَانِ مُنْصَلَتًا لَهُ عَلَيْهِنَّ قَيْدَ الرُّمَحِ تَمْهِيلُ ٦٥
فَضَمَّهُنَّ قَلِيلًا ثُمَّ هَاجَ بِهَا سَفْعٌ بَادَايَهَا شَيْنٌ وَتَنْكِيلُ ٦٦
فَاسْتَنْبَتَ الرُّوْعُ فِي إِنْسَانٍ صَادِقَةٍ لَمْ تَجْرِ مِنْ رَمْدٍ فِيهَا الْمَلَامِيلُ ٦٧
فَانْصَاعَ وَانْصَعْنَ يَهْفُو كُلُّهَا سَدَكٌ كَأَنَّهُنَّ مِنَ الضُّمْرِ الْمَرَاجِيلُ ٦٨
فَانْقَضَ يَنْفُضُ مَذْرِيئَيْنِ قَدْ عَثَقَا مُخَاوِضٌ غَمَرَاتِ الْمَوْتِ مَخْذُولُ ٦٩
شَرَوْى شَيْهَيْنِ مَكْرُوبًا كَعُوْنَهُمَا فِي الْجَنْبَتَيْنِ وَفِي الْأَطْرَافِ تَأْسِيلُ ٧٠

كِلَاهِمَا يَبْتَغِي نَهْكَ الْقِتَالِ بِهِ
 يُخَالِسُ الطَّعْنَ إِيشَاغًا عَلَى دَهْشٍ
 حَتَّى إِذَا مَضَّ طَعْنًا فِي جَوَاشِنِهَا
 وَلَّى وَصُرْعَنَ فِي حَيْثُ التَّبَسُّنِ بِهِ
 كَأَنَّهُ بَعْدَ مَا جَدَّ النَّجَاءَ بِهِ
 مُسْتَقْبِلَ الرِّيحِ يَهْفُو وَهُوَ مُبْتَرِكٌ
 يَخْفِي التُّرَابَ بِأُظْلَافٍ ثَمَانِيَةٍ
 لَهُ جَنَابَانِ مِنْ نَفْعٍ يُثَوِّرُهُ
 إِنَّ السَّلَاحَ غَدَاةَ الرُّوعِ مَحْمُولٌ ٧١
 بِسَلْهَبٍ سِنْخُهُ فِي الشَّانِ مَمْطُولٌ ٧٢
 وَرَوْقُهُ مِنْ دَمِ الْأَجَوَافِ مَعْلُولٌ ٧٣
 مُضَرَّجَاتٌ بِأَجْرَاحٍ وَمَقْتُولٌ
 سَيْفٌ جَلَا حَدَّهُ الْأَصْنَاعُ مَسْلُولٌ
 لِسَانُهُ عَنْ شِمَالِ السُّدُقِ مَعْدُولٌ ٧٤
 فِي أَرْبَعِ مَسْهُنٍ الْأَرْضَ تَحْلِيلٌ ٧٥
 فَفَرَجُهُ مِنْ حَصَى الْمَعَزَاءِ مَكْلُولٌ ٧٦

وهذا الشعر وإن كان مقولاً في أوائل الإسلام، فقائله جاهلي
 وليس في شعر أبناء الجاهلية ما يفوقه تمثيلاً لنزعتهم الشعرية، ومثله قول
 بشر بن عوانة في الأسد:

أَفَاطِمُ لَوْ شَهِدْتَ بِبَطْنِ خَبْتٍ
 إِذَا لَرَأَيْتَ لَيْثًا زَارَ لَيْثًا
 تَبْهَنْسَ ثُمَّ أَحْجَمَ عَنْهُ مُهْرِي
 أَنْبَلُ قَدَمِي ظَهَرَ الْأَرْضِ إِنِّي
 وَقَلْتُ لَهُ وَقَدْ أَبْدَى نِصَالًا
 يُكْفِكِفُ غِيلَهُ إِحْدَى يَدَيْهِ
 وَقَدْ لَأَقَى الْهَزْبُ أَخَاكَ بِشَرَا ٧٧
 هَزْبَرَا أَغْلَبَا لَأَقَى هَزْبَرَا ٧٨
 مُحَاذَرَةً، فَقُلْتُ: عُقِرَتْ مُهْرَا ٧٩
 رَأَيْتُ الْأَرْضَ أَتَبَتْ مِنْكَ ظَهْرَا
 مُحَدَّدَةً وَوَجَّهَهَا مُكْفَهْرَا
 وَيَسْطُ لِلْوُثُوبِ عَلَيَّ أُخْرَى

يُدِلِّ بِمِخْلَبٍ وَبِحَدِّ نَابٍ
 وَفِي يُنْأَيِّ مَاضِي الْحَدِّ أَبْقَى
 أَلَمْ يَبْلُغْكَ مَا فَعَلْتُ ظَبَاهُ
 وَقَلْبِي مِثْلُ قَلْبِكَ لَيْسَ يَخْشَى
 وَأَنْتَ تَرُومُ الْأَشْبَالَ قُوَّتَا
 فَفِيمَ تَسُومُ مِثْلِي أَنْ يُؤَلِّي
 نَصَحْتُكَ فَالْتَمَسْ يَا لَيْثُ غَيْرِي
 فَلَمَّا ظَنَّ أَنَّ الْغِشَّ نَصَحِي
 مَشَى وَمَشَيْتُ مِنْ أَسَدَيْنِ رَامَا
 هَزَزْتُ لَهُ الْحَسَامَ فَخَلْتُ أَنِّي
 وَجَدْتُ لَهُ بِجَائِشَةٍ أَرْتُهُ
 وَأَطْلَقْتُ الْمَهْنَدَ مِنْ يَمِينِي
 فَخَرَّ مُجَدَّلًا بِدَمٍ كَأَنِّي
 وَقُلْتُ لَهُ يَعِزُّ عَلَيَّ أَنِّي
 وَلَكِنْ رُمْتُ شَيْئًا لَمْ يَرْمُهُ
 تُحَاوِلُ أَنْ تُعْلَمَنِي فِرَارًا!
 فَلَا تَجَزَعُ فَقَدْ لَاقَيْتَ حُرًّا
 فَإِنْ تَكُ قَدْ قُتِلْتَ فَلَيْسَ عَارًا

وَبِاللَّحْظَاتِ تَحَسَّبُهُنَّ جَمْرًا
 بِمَضْرِبِهِ قِرَاعِ الْمَوْتِ أَثْرًا
 بِكَاطِمَةٍ غَدَاةٍ لَقِيتَ عَمْرًا
 مُصَاوِلَةً فَكَيْفَ يَخَافُ ذَعْرًا؟!
 وَأَطْلُبُ لَابِنَةَ الْأَعْمَامِ مَهْرًا
 وَيَجْعَلُ فِي يَدَيْكَ النَّفْسَ قَسْرًا؟
 طَعَامًا؛ إِنَّ لَحْمِي كَانَ مُرًّا
 وَخَالَفَنِي كَأَنِّي قُلْتُ هُجْرًا
 مَرَامًا كَانَ إِذْ طَلَبَاهُ وَعَرَا
 سَلَلْتُ بِهِ لَدَى الظُّلُمَاءِ فَجْرًا
 بِأَنْ كَذَبْتُهُ مَا مَنَنْتُهُ غَدْرًا ٨٠
 فَقَدْ لَهُ مِنَ الْأَضْلَاعِ عَشْرًا
 هَدَمْتُ بِهِ بِنَاءَ مُشْمَخِرَا
 قَتَلْتُ مُنَاسِبِي جَلَدًا وَفَخْرًا
 سِوَاكَ، فَلَمْ أَطِقْ يَالَيْثُ صَبْرًا
 لَعَمْرُ أَيْبِكَ قَدْ حَاوَلْتَ نُكْرًا
 يُحَاذِرُ أَنْ يُعَابَ فَمُتَّ حُرًّا
 فَقَدْ لَاقَيْتَ ذَا طَرَفَيْنِ حُرًّا

وهذا هو بالنفس نسق هوميروس في استتمام مزايا موصوفاته، وإن هذه الإفاضة في التمثيل ضعفت كثيرًا في شعر المخضرمين ومن يليهم.

وقد كان ذلك أسلوب الجاهليين في جميع ما مثّلوه بشعرهم مما يتناول أحوال الحرب والسلم، والعادة والخلق، والمعيشة في الإقامة والتسيار.

وإذ كان محسوسهم خشنًا ومطالعاتهم غير ممتدة كثيرًا إلى ما وراء الحروب، وأخبار القبائل كان معظم شعرهم في ما وافق ذلك المحسوس وتلك المطالعات، فأفاضوا في وصف البوادي والقفار، وأكثروا من وصف معيشتهم وأحوالها ومدح الكرم والوفاء وقرى الضيف، وأسهبوا في ذكر ما لديهم وحواليهم من سلاح وخيل وإبل، وما أشبه من معدّات زمانهم ومكانهم.

ومع هذا فإن لغتهم وإن كانت فيها شيء كثير من خشونة معيشتهم، فقد كانت متسعة للغرام، والحكم الرائعة، والحماسة ووصف الشعائر والأخلاق، فتلك جميعها أمورٌ منطبعة في فطرة الجاهلي انطباعيًا في نفوس أعرق الخلق في الحضارة، بل ربما كانت أصفى وأنقى في أذهان أبناء البادية، فأئى شعر في الفخر والحماسة أسمى من قول السموأل:

إِذَا الْمَرْءُ لَمْ يَدْنَسْ مِنَ اللَّؤْمِ عَرِضُهُ فَكُلُّ رِذَاءٍ يَرْتَدِيهِ جَمِيلٌ

وَأِنْ هُوَ لَمْ يَحْمِلْ عَلَى النَّفْسِ ضِيمَهَا
تُعِيرُنَا أَنَا قَلِيلٌ عَدِيدُنَا
وما قلٌّ من كانت بقاياها مثلنا
وما ضَرَرْنَا أَنَا قَلِيلٌ وجارنا
لنا جبل يحتله من نجيره
رسا أصله تحت الثرى وسما به
هو الأبلق الفرد الذي شاع ذكره
وَأَنَا لِقَوْمٍ مَا نَرَى الْقَتْلَ سُبَّةً
يقرب حب المَوْتِ آجالنا لنا
وَمَا مَاتَ مِنَّا سِيدٌ حتف أنفه
تسيل على حد الطبات نفوسنا
صُفُونَا فَلَمْ نَكْدِرْ وأخلص سرنا
علونا إلى خير الظهور ووطننا
فنحن كماء المزن ما في نصابنا
وننكر إن شئنا على الناس قولهم
إذا سِيدٌ مِنَّا خلا قام سِيدٌ
وما أحمدت نازًّا لنا دون طارق

فَلَيْسَ إِلَى حُسْنِ الثَّنَاءِ سَبِيلُ
فقلت لها إِنَّ الْكَرَامَ قَلِيلُ
شبابٌ تسامى للعلی وكهولُ
عزیزٌ وجار الأکثرین ذلیلُ
منيع يرد الطرف وهو كليلُ
إِلَى النَّجْمِ فرع لَا يَنَالُ طَوِيلُ
يعزُّ علي من رامه ويطولُ
إِذَا مَا رَأَتْهُ عَامِرٌ وسلولُ
وتكرهه آجالهم فتطولُ
وَلَا طَلَّ مِنَّا حَيْثُ كَانَ قَبِيلُ
وَلَيْسَتْ عَلَى غَيْرِ الطَّبَاتِ تَسِيلُ
إِنَاثُ أَطَابَتْ حَمَلَنَا وفحولُ
لوقتٍ إِلَى خَيْرِ الْبَطُونِ نزولُ
كَهَامٌ وَلَا فِينَا يُعَدُّ بِخِيلُ
ولا ينكرون القول حين نقولُ
قَوْلٌ لَمَا قَالَ الْكَرَامُ فعولُ
ولا ذَمَّنَا فِي النَّازِلِينَ نَزِيلُ

وأيا منّا مشهورةً في عدونا	لها غررٌ معلومةٌ وحجولٌ
وأسيافنا في كل شرقٍ ومغربٍ	بها من قراع الدارعين فلولٌ
مُعَوَّدَةٌ أن لا تسَلَّ نصالها	فثَغْمَدٌ حتَّى يُسْتَبَاحَ قَتيلٌ
سَلِيٌّ إن جهلتِ الناسَ عنا وعنهمُ	فليس سواءَ عالمٌ وجهولٌ
فإن بني الريان قطب لقومهمُ	تدورُ رحاهم حولهم وتجولُ

وأي قول في الحكمة أحسن من قول زهير:

وَأَعْلَمُ مَا فِي الْيَوْمِ وَالْأَمْسِ قَبْلَهُ	وَلَكِنِّي عَنْ عِلْمٍ مَا فِي غَدٍ عَمٍ
رَأَيْتُ الْمَنَايَا خَبَطَ عَشَوَاءَ مَنْ تُصِبُ	ثَمْتُهُ وَمَنْ تُخْطِئُ يُعَمَّرُ فَيَهْرَمُ
وَمَنْ لَا يَصَانَعُ فِي أُمُورٍ كَثِيرَةٍ	يُضَرَّسُ بِأَنْيَابٍ وَيُوطَأُ بِمَنْسَمٍ
وَمَنْ يَجْعَلُ الْمَعْرُوفَ مِنْ دُونِ عَرْضِهِ	يَفْرَهُ وَمَنْ لَا يَتَّقِ الشَّتْمَ يَشْتَمُ
وَمَنْ يَلُكُ ذَا فَضْلٍ فَيِيْخُلُ بِفَضْلِهِ	عَلَى قَوْمِهِ يَسْتَغْنِ عَنْهُ وَيَذْمُ
وَمَنْ يَوْفُ لَا يَذْمُ وَمَنْ يَهْدُ قَبْلَهُ	إِلَى مَطْمَئِنِّ الْبَرِّ لَا يَتَجَمِّمُ
وَمَنْ هَابَ أَسْبَابَ الْمَنَايَا يَنْلَنُهُ	وَإِنْ يَرْقُ أَسْبَابُ السَّمَاءِ بِسَلَمٍ
وَمَنْ يَجْعَلُ الْمَعْرُوفَ فِي غَيْرِ أَهْلِهِ	يَكُنْ حَمْدُهُ ذِمًّا عَلَيْهِ وَيَنْدَمُ
وَمَنْ يَعِصْ أَطْرَافَ الزَّجَاجِ فَإِنَّهُ	يَطِيعُ الْعَوَالِي رُكْبَتِ كُلِّ لَهْذَمٍ
وَمَنْ لَا يَذْدُ عَنْ حَوْضِهِ بِسِلَاحِهِ	يَهْدُمُ وَمَنْ لَا يَظْلُمُ النَّاسَ يَظْلَمُ
وَمَنْ يَغْتَرِبُ يَحْسَبُ عَدُوًّا صَدِيقَهُ	وَمَنْ لَا يَكْرُمُ نَفْسَهُ لَا يَكْرَمُ

ومن لم يزل يسترحل الناس نفسه
ومهما تكن عند امرئ من خليقة
وكائن ترى من صامت لك معجب
لسان الفتى نصف ونصف فؤاده
وإن سفاة الشيخ لا حِلْمَ بَعْدَهُ
سألنا فَأَعْطَيْتُمْ وَعُدْنَا وَعُدْتُمْ
ولا يعفها يوما من الذل يندم
وإن خالها تخفى على الناس تعلم
زيادته أو نقصه في التكلم
فلم يبق إلا صورة اللحم والدم
وإنَّ الْفَتَى بَعْدَ السَّفَاهَةِ يَحْلُمُ
وَمَنْ أَكْثَرَ التَّسْأَلِ يَوْمًا سَيُحْرَمُ

وإليك مثلاً في الغزل من يتيمة سويد بن أبي كاهل اليشكري:

بَسَطْتُ رَابِعَهُ الْحَبْلَ لَنَا
حُرَّةٌ تَجْلُو شَتِيَّتًا وَاضِحًا
صَقَلْتُهُ بِقَضِيبٍ نَاضِرٍ
أَبْيَضَ اللَّوْنِ لَذِيذًا طَعْمُهُ
تَمْنَحُ الْمِرَاةَ وَجْهًا وَاضِحًا
صَافِي اللَّوْنِ وَطَرَفًا سَاجِيًا
وَقُرُونًا سَابِغًا أَطْرَافُهَا
هَيَّجَ الشُّوقَ خَيَالَ زَائِرٍ
آنَسَ كَانَ إِذَا مَا اعْتَادَنِي
وكَذَلِكَ الْحُبُّ مَا أَشْجَعُهُ
فَوَصَلْنَا الْحَبْلَ مِنْهَا مَا اتَّسَعَ ٨١
كَشَعَاعِ الشَّمْسِ فِي الْغَيْمِ سَطَعَ ٨٢
مِنْ أَرَاكِ طَيِّبٍ حَتَّى نَصَعُ ٨٣
طِيبِ الرِّيقِ إِذَا الرِّيقُ خَدَعُ ٨٤
مِثْلَ قَرْنِ الشَّمْسِ فِي الصَّحْوِ ارْتَفَعَ
أَكْحَلَ الْعَيْنَيْنِ مَا فِيهِ قَمَعُ ٨٥
غَلَّتْهَا رِيحُ مِسْكِ ذِي فَنَعُ ٨٦
مِنْ حَبِيبٍ خَفِرٍ فِيهِ قَدَعُ ٨٧
حَالَ دُونَ النَّوْمِ مَنِّي فَاْمْتَنَعُ
يَرْكَبُ الْهَوْلَ وَيَعْصِي مَنْ وَرَعُ

فَأَيُّ لَيْلٍ مَا أَرْقُبُهُ وَبِعَيْنَيَّ إِذَا نَجَمٌ طَلَعَ ٨٨
وَإِذَا مَا قُلْتُ لَيْلٌ قَدْ مَضَى عَطَفَ الْأَوَّلُ مِنْهُ فَرَجَعَ
يَسْحَبُ اللَّيْلُ نُجُومًا ظَلَعًا فَتَوَالِيهَا بَطِيئاتُ التَّبَعِ
وَيُرَجِّحُهَا عَلَى إِبْطَائِهَا مُغْرِبُ اللَّوْنِ إِذَا اللَّوْنُ انْقَشَعَ ٨٩
فَدَعَانِي حُبٌّ سَلَمَى بَعْدَ مَا ذَهَبَ الْجِدَّةُ مِنِّي وَالرَّيْعُ ٩٠
خَبَّلْتَنِي ثُمَّ لَمَّا تُشْفِينِي فُقُودِي كُلِّ أَوْبٍ مَا اجْتَمَعَ
وَدَعْتَنِي بِرُقَاهَا إِنَّهَا تُنْزِلُ الْأَعْصَمَ مِنْ رَأْسِ الْيَفْعِ
تُسْمِعُ الْخُدَّاتِ قَوْلًا حَسَنًا لَوْ أَرَادُوا غَيْرَهُ لَمْ يُسْتَمَعَ
كَمْ قَطَعْنَا دُونَ سَلَمَى مَهْمَهَا نَازِحَ الْعَوْرِ إِذَا الْآلُ لَمَعَ
فِي حَرُورٍ يَنْضَجُ اللَّحْمُ بِهَا يَأْخُذُ السَّائِرُ فِيهَا كَالصَّقَعِ ٩١

وهم وإن لم يبلغوا في الغزل رقة المتأخرين، فلهم بوصفه سداجة
لقول كثيرًا من المعنى في الكلام القليل، ولا سيما أثناء مزجه بذكر
الحروب كقولهم في ما ينسب إلى عنتره:

ولقد ذكرتك والرماح نواهلٍ مني وبيض الهند تقطر من دمي
فوددتُ تقبيل السيوف لأنها لمعت كبارق ثغرك المتبسم

تلك كانت على الجملة منازعهم في شعرهم، وذلك هو نتاج
قرائح الجاهلية، وأنت ترى أن أصحاب تلك القرائح لم يكونوا أبناء

جاهلية جهلاء من الجهل بل ما أحراهم أن يكون أطلق عليهم ذلك لشيوع عبادة الأوثان بينهم، ولعلّ هذا هو المراد بما جاء في سورة المائدة: أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ إذ قالوا في تفسيرها الملة الجاهلية.

وقد أوردنا من قولهم فضلاً عما تقدم أمثلة شتى من مرادفات أقوال هوميروس في شرح الإلياذة.

ومدة هذا الطور الشعري زهاء مئة وخمسين عاماً، ومن صفوة فحولته امرؤ القيس وطرفة بن العبد، والحارث بن حلزة، وعمرو بن كلثوم، وعنترة العبسي، وزهير بن أبي سلمى، ولبيد بن ربيعة وهؤلاء هم أصحاب المعلقات، والنابعة الذبياني، والمهلهل والأعشى الأسدي وعدي بن زيد، وعبيد بن الأبرص، وبشر بن أبي خازم وأمّية بن أبي الصلت والسموأل والشنفري ودريد بن الصمّة.

ومزيته البساطة والبداهة، واقتفاء الفطرة، وتمثيل الحقيقة في رسم الطبيعة، فهو في جميع ذلك أعلى طبيعة من شعر المتأخرين من العرب، ولا يفوقه شيء من شعر المتقدمين من سائر الأمم حتى اليونان والرومان.

الطبقة الثانية أو شعراء المخضرمين وشعراء الدولة الأموية

علمت أن النهضة الشعرية كانت في ريعانها عند ظهور الإسلام، فجاء القرآن وأسكت الشعراء، وما أسكتهم إلا ليزيد نهضتهم استحكاماً ويملاً حوافظهم ببلاغته الخلابة، فاندفعوا اندفاع السيل المنهمر،

وأذهانهم ملاءى بما ادخرت من الشعر الجاهلي، وما ضُمَّت إليه من
البلاغة القرآنية، فاجتمعت لهم بداهة الفكر، وسمُوَ التصوُّر ودقة التعبير.

وقد ألحقتُ شعراء الدولة الأموية بالمخضرمين

أولاً: لأن النفحة القرآنية أثارت نفوسهم إثارتها للمخضرمين؛
لقرب عهدهم بها، فنَفَسَ حَسَّان ونَفَسَ الفرزدق واحد، وجريـر يماثل
كعب بن زهير، ومثله الأخطل وإن كان نصرانيًّا، بل ربما علت طبقة
شعراء الدولة الأموية عمن تقدمهم من المخضرمين في البلاغة لشبوبيهم
عليها وتأسَّلها في نفوسهم.

وثانيًا: لأن الشعراء كانوا أَعَزَّ نفسًا وأرفع شأنًا في الدولة الأموية
منهم في الدولة العباسية وما وليها، وسببه أن الدولة الأموية قامت على
كُره من الفريق الأعظم من المسلمين، فكانت في حاجة إلى استمالة
الشعراء، فدلُّوا وعزُّوا ولم يهينوا كما هانوا بعد ذلك الزمن إذ باتوا يطلبون
الزلفى تقرُّبًا من الخلفاء ويطانتهم طمعًا بمال وجرًّا لمغنم، وشتان ما كرامة
المتزلف والمترفع، فحسَّان مدح النبي ولكنه مدحه شغفًا بمناقبه، وتصح
المشاكلة بينه وبين الفرزدق في مدح زين العابدين علي بن الحسين،
ولكنها لا تصحُّ بينهما وبين مُدَّاح معظم المولَّدين والمُحدثين.

وثالثًا: لأن شعراء العرب حتى أواخر الدولة الأموية لم يألَفوا ترف
الحضارة المتسرب إليهم من الرومان والفرس بالمخالطة، فبقيت مسحة

الفطرة الجاهلية ظاهرة في شعرهم، فهم والمخضرمون طبقة واحدة لا يتخللها فاصل.

ثم إنه بالنظر إلى معنى لفظة المخضرم في عُرف كُتَّاب العرب لا ينكر إطلاقها على شعراء الدولة الأموية؛ لأنهم قد يعنون بها كل متوسط بين عصرين كما أطلقوها على مخضرمي الدولتين الأموية والعباسية يريدون بهم الذين أدركوا الثانية من شعراء الأولى، فلا بأس علينا بهذا الاعتبار أن نطلقها توسعاً على شعراء الدولة الأموية لتوسط كثيرين منهم بين الخلفاء الراشدين ودولة بني أمية، والتصاق الباقيين بهم.

فيبقى علينا النظر في المتأخرين من شعراء بني أمية الذين أدركوا دولة بني العباس، فأمثال هؤلاء يقال فيهم ما تقدم في متأخري الجاهليين الذين أدركوا الإسلام، فمن ربا شعره في دولة الأمويين، وبقيت فيه صبغة المخضرمين كان مخضرمًا، ومن ربا شعره في دولة العباسيين، فكان قوله أميل إلى الرقة منه إلى البلاغة كان مولدًا، ولا يخرج عن هذا التعريف إلا نواغق قليلون كبشَّار بن بُرْد الذين عاصر الدولتين، ولبس الحلتين، وفصل من الشعر ما شاء لما شاء فكان من أبلغ المخضرمين بقوله:

أبي طلل بالجزع أن يتكلما وماذا عليه لو أجاب متيما
وبالجزع آثار بقين وباللوى ملاعب لا يعرفن إلا توهما

ومن أرق المولدين شعرًا بقوله:

لمستُ بكفي كُفَّه أبغى الندى ولم أدر أن الجود من كُفَّه يعدي

فلا أنا منه ما أفاد ذوو الغنى أفدتُ وأعداني فأتلفتُ ما عندي

ومثل بشار في المخضرمين مثل النابغة الجعدي في الجاهليين،
فللنابغة شعرٌ جاهليٌّ عريقٌ في البداوة، وهو القائل أيضاً:

الحمد لله لا شريك له من لم يقلها فنفسه ظلما
المولج الليل في النهار وفي الليـل نهاراً يفرّج الظلما
الحافظ الرافع السماء على الأر ض ولم يبن تحتها دوما
الخالق البارئ المصور في الأر حام ماءً حتى يصير دما

وليس في شعر المخضرمين شيءٌ ينطبق على المعاني القرآنية
ويمثل بلاغتها كهذه الأبيات.

وقد كان شعر المخضرمين آية في علو الطبقة ومتانة السبك يربو
بهما على ما تقدم عنه، وما تأخر من سائر الشعراء، ولكن مبلغهم من
الراقي في الحضارة أضعف فيهم نزعة المتقدمين الفطرية، فقصوروا فيها
عن المتقدمين، ولم يمكنهم من التألق في المعيشة بما استتب للعرب
بعدهم من مزيّنات العمران، فلم يدركوا شأو المولدين بالركة والتصرف
بالمعاني، وفي ما سوى ذلك كان شعرهم غاية الغايات.

ولا فرق في ذلك بين شعراء النبي والخلفاء الراشدين كحسان بن
ثابت وكعب بن زهير، وشعراء الدولة الأموية كذي الرمة وعبيد الراعي بل

ربما كان شعر الدولة الأموية أعرق في البلاغة كما تقدم، وفي ما يلي من أمثلة شعرهم ما يؤيد هذا القول.

قال حسان يمجد النبي ويفتخر:

الله أكرمنا بنصر نبيه	وبنا أقام دعائم الإسلام
وبنا أعزَّ نبيه وكتابه	وأعزَّنا بالضرب والإقدام
في كل معترك تطير سيوفنا	فيه الجماجم عن فراخ الهام
ينتابنا جبريل في أبياتنا	بفرائض الإسلام والأحكام
يتلو علينا النور فيها محكمًا	قسمًا لعمرك ليس كالأقسام
فكون أول مستحلِّ حلاله	ومحرِّم لله كل حرام
نحن الخيار من البرية كلها	ونظامها وزمام كل زمام
الخائضو غمرات كل منية	والضامنون حوادث الأيام
سائل أبا كربٍ وسائل تُبَّعَا	عنا وأهل العثر والأزلام
إنا لنمنع من أردنا منعه	ونجود بالمعروف للمعتام
وترد عادية الخميس سيوفنا	ونقيم رأس الأavid القمقام
فلئن فخرت بهم لمثل قديمهم	فخر اللبيب به على الأقوام

ودونك مثلاً من مشوبة كعب بن زهير التي مطلعها: بانث سعاد ... وقد وجَّهها إلى النبي يعتذر إليه، فأمنه بعد أن كان أهدر دمه.

تسعى الوشاة بجنيها وقولهم إنك يا ابن أبي سلمى لمقتول

وقال كلّ خليل كنت آمله
فقلت خلّوا سبيلي لا أباكُم
كلّ ابن أنثى وإن طالت سلامته
نبئت أنّ رسول الله أوعدني
مهلاً هداك الذي أعطاك نافلة ال
لا تأخذني بأقوال الوشاة ولم
لقد أقوم مقاماً لو يقوم به
لظنّ ترعد إلا أن يكون له
لا ألهيّنك إنّي عنك مشغول
فكلّ ما قدّر الرحمن مفعول
يوماً على آلة حذاء محمول
والعفو عند رسول الله مأمول
قرآن فيها مواعظ وتفصيل
أذنب وإن كثرت فيّ الأقاويل
أرى وأسمع ما لو يسمع الفيل
من النبي بإذن الله تنويل

فقد جمع في هذه الأبيات القليلة بين الاعتذار والحكمة،
والمدح والفخر بأبداع أسلوب، وأبلغ عبارة.

ومن قول الأخطل في الهجو:

وكنّت إذا لقيتُ عيّد تيم
وتيمّاً قلتُ أيُّهم العيّدُ
لئيم العالمين يسود تيمّاً
وسيدهم وإن كرهوا مَسودُ

وقد زعم الأخطل أنه أهجى العرب بهذين البيتين.

ومن أمثلتهم في النسيب قول ذي الرمة:

ألا يا اسلمي يا دار مي على البلى
ولا زال منهالاً بجرعائك القطرُ
لها بشرٌ مثل الحرير ومنطقٌ
رخيم الحواشي لا هراء ولا نزرُ

وعينان قال الله كونا فكانتا فعولان بالألّباب ما تفعل الخمر

ومن أبلغ من الإمام علي بن أبي طالب إذ قال مبتهلاً لله تعالى:

لك الحمد يا ذا المجد والجود والعلّا	تباركت تعطي من تشاء وتمنع
إلهي وخلاقي وحرزي وموئلي	إليك لدى الإعسار واليسر أفرغ
إلهي لئن خيبتني أو طردتني	فمن ذا الذي أرجو ومن أتشفع
إلهي لئن جلّت وجمت خطيتي	فعفوك عن ذنبي أجلّ وأوسع
إلهي لئن أعطيت نفسي سؤلها	فها أنا في روض الندامة أرتع
إلهي ترى حالي وفقري وفاقتي	وأنت مناجاتي الخفية تسمع
إلهي فلا لقطع رجائي ولا تنزع	فؤادي فلي في باب جودك مطمع
إلهي أجرني من عذابك إنني	أسيرٌ ذليلٌ خائفٌ لك أخضع
إلهي فآنسني بتلقين حجتني	إذا كان لي في القبر مثوى ومضجع
إلهي لئن عدّبتني ألف حجة	فجبل رجائي منك لا يتقطع
إلهي إذا لم ترعني كنت ضائعاً	وإن كنت ترعاني فلست أضيع
إلهي إذا لم تعف عن غير محسن	فمن لمسيء بالهوى يتمتع
إلهي لئن قصرت في طلب النقي	فلست سوى أبواب فضلك أقرع
إلهي اقلني عشرتي وامسح حويتي	فإني مقرٌ خائفٌ أتضرع
إلهي لئن خيبتني أو طردتني	فما حيلتي يا رب أم كيف أصنع

إلهي حليف الحب بالليل ساهرٌ يناجي ويبكي والمغفل هَجَعُ
وكلهم يرجو نوالك راجيًّا لرحمتك العظمى وفي الخلد يطمعُ
إلهي يميني رجائي سلامةً وقبح خطيأتي عليّ يشنعُ

وإن من أصدق الأمثلة على علو طبقة هذه الطائفة من الشعراء
قصيدة الفرزدق في مدح زين العابدين علي بن الحسين التي قيل: إن
أهل البيت لم يمدحوا بمثلها؛ ولهذا أوردناها بطولها وهي: ^{٩٢}

هَذَا الَّذِي تَعْرِفُ الْبَطْحَاءُ وَطَأْتَهُ وَالْبَيْتَ يَعْرِفُهُ وَالْحُلَّ وَالْحَرَمُ
هَذَا ابْنُ خَيْرِ عِبَادِ اللَّهِ كُلَّهُم هَذَا التَّقِيُّ النَقِيُّ الطَّاهِرُ الْعَلَمُ
إِذَا رَأَتْهُ قَرِيشٌ قَالَ قَائِلُهَا إِلَى مَكَارِمِ هَذَا يَنْتَهِي الْكَرَمُ
يَنْمِي إِلَى ذُرْوَةِ الْعِزِّ الَّتِي قَصُرَتْ عَنْ نَيْلِهَا عَرَبُ الْإِسْلَامِ وَالْعَجَمُ
يَكَادُ يُمَسِّكُهُ عِرْفَانٌ رَاحَتَهُ رَكْنُ الْحَطِيمِ إِذَا مَا جَاءَ يَسْتَلِمُ
يَغْضِي حَيَاءً وَيُغْضِي مِنْ مَهَابَتِهِ فَلَا يَكْلِمُ إِلَّا حِينَ يَبْتَسِمُ
مَنْ جَدُّهُ دَانَ فَضْلُ الْأَنْبِيَاءِ لَهُ وَفَضْلُ أُمْتِهِ دَانَتْ لَهُ الْأُمَمُ
يَنْشَقُّ نُورُ الْهَدْيِ عَنْ نُورِ غَرَّتِهِ كَالشَّمْسِ يَنْجَابُ عَنْ إِشْرَاقِهَا الظُّلُمُ
مَشْتَقَّةٌ مِنْ رَسُولِ اللَّهِ نَبْعَتُهُ طَابَتْ عُنَاصِرُهُ وَالْخَيْمُ وَالشَّيْمُ
هَذَا ابْنُ فَاطِمَةٍ إِنْ كُنْتَ جَاهِلَهُ بِجَدِّهِ أَنْبِيَاءُ اللَّهِ قَدْ خَتَمُوا
اللَّهُ فَضَّلَهُ قَدَمًا وَشَرَّفَهُ جَرَى بِذَاكَ لَهُ فِي لَوْحِهِ الْقَلَمُ

وليس قولك من هذا بضائره
كلتا يديه غياث عم نفعهما
سهل الخليقة لا تخشى بواده
حمال أقال أقوام إذا فدحوا
ما قال لا قط إلا في تشهده
لا يخلف الوعد ميمون نقيته
عم البرية بالإحسان فانفصلت
من معشر حبههم دين وبغضهم
إن عد أهل التقى كانوا أئمتهم
لا يستطيع جواد بعد غايتهم
هم الغيوث إذا ما أزمة أزممت
لا ينقص العسر بسطا من أكفهم
يستدفع السوء والبلوى بحبهم
مقدم بعد ذكر الله ذكرهم
يأبى لهم أن يحل الذم ساحتهم
أي الخلائق ليست في رقابهم
من يعرف الله يعرف أولية ذا

العرب تعرف من أنكرت والعجم
يستوكفان ولا يعرفهما العدم
يزينه أثنان حسن الخلق والكرم
حلوا الشمائل تحلو عنده نعم
لولا التشهد كانت لاءه نعم
رحب الفناء أريب حين يعترم
عنه القتارة والإملاق والعدم
كفر وقربهم منجى ومعتصم
أو قيل من خير أهل الأرض قيل هم
ولا يدانيهم قوم وإن كرموا
والأسد أسد الشرى والبأس محتدم
سيان ذلك إن أثروا وإن عدموا
ويستزاد به الإحسان والنعم
في كل بدء ومختم به الكلم
خيم كريم وأيد بالندى عصم
لأولية هذا أو له نعم
فالدين من بيت هذا ناله الأئم

فهذا جلُّ ما يمكن إيرادُه في مثل هذا الموضع من شعر أبناء هذه الطبقة ومزيتِه، كما ترى بلاغةً في المعنى، ومتانةً في التعبير، وإحكام في التركيب مع ميلٍ إلى الرقة، وتلك أيضًا من مزايا الإلياذة، فإن بلاغة الأصل لا تفوقها بلاغةً في الكلام اليوناني، فإن ظهر تقصيرٌ في التعريب فتبعتهُ على المعرب دون المنشئ، وإن فيها من متانة التعبير ما لا يفوقه شيء في شعر جميع الأمم، ولا سيما في مشاكلة الألفاظ للمعاني، وحكاية الأصوات مما أشرنا إليه في مواضعه.

ومدة هذا الطور الشعري مئة وخمسة وثلاثون عامًا تبتدئ من الهجرة، وتنتهي بقيام الدولة العباسية.

وعروة وصله من الطور الأول أو طبقة الجاهليين النابغة الجعدي وأمثاله، ومع الطور الثاني أو طبقة المولدين بشَّار بن بُرد.

وفحوله في صدر الإسلام حسان بن ثابت، وكعب بن زهير، وعبد الله بن رواحة، ومالك بن نُؤيرة، والعباس بن مرداس، والنمر بن تولب، وأبو ذؤيب العجلي، وفي عصر الدولة الأموية القطامي، والأخطل النصرانيان، وجريير الخطفي والفرزدق وعبيد الراعي، وذو الرمة، والكميت بن زيد، وأرطاة بن سمية، والأعشى بن ربيعة والأعشى التغلبي.

الطبقة الثالثة المولودون أو شعراء عصر العباسيين

قامت الدولة العباسية سنة ١٣٢ للهجرة (٧٥٠م) والسلطنة الإسلامية موطدة الدعائم مشيدة الأركان، وغزاة العرب ضاربون في المشارق والمغارب يقوضون ما تداعى من مباني الفرس والرومان، فينبذون الأنقاض البالية، ويشيدون على أساس الحزم دولةً قيض الله لها أن تكون دولة العزّة والسلطان في ذلك الزمان، فامتألت خزائن الخلفاء بكسب المجاهدين وجباية الأموال، وتسرب ما فاض منها إلى بيوت المقرّبين وصنائعهم من أميرٍ وفقيرٍ، وعميدٍ وشريدٍ، فذاقوا حلو حضارة الدولتين الهاويتين، وتبدلوا مرقعة عمر ذلك الدثار الرثّ الذي ضمّ بين رُدينه عماد الإسلام والمسلمين ببزّة الخبز والديباج، وغلالته من لبنٍ وتمرٍ، وأيسر الإدام بشهي طعامٍ لُمأظته الفالودج والسكباج، وذلك الرّحل على بعيرٍ قارحٍ يمتطيه الخادم والمخدوم، وهما سواءٌ في شرع الإسلام بالسروج الموشاة على الجياد المطهّمة تحفُّ بها مواكب الحشم والغلمان، فعلت القصور ووُشيت الخدور، وزها الرياش، وانبسط المعاش، والشعراء من أفراد تلك الأمة يرقون رُقِيَّها في معارج العمران.

زعموا أن شاعراً بدويّاً من رعاة الماشية ممن دبّ وشبّ بين الكباش والنعاج قدم حاضرةً عامرةً، فأكرمه صاحبها فمدحه بهذين البيتين:

أنت كالدّلّو لا عدمناك دلّوًا من كثير العطا قليل الذنوبِ

أنت كالكلب في الحفاظ على الو د وكالتيس في قراع الحروب

فهمَّ بعض أعوان الأمير بقتله، فقال الأمير: «خل عنه فذلك ما وصل إليه علمه ومشهوده، ولقد توسمت فيه الذكاء فليقم بيننا زمنًا، وقد لا نعدم منه شاعرًا مجيدًا». فما أقام بعض سنين في سعة عيش، وبسطة حال حتى قال الشعر الرقيق الآخذ بمجامع القلوب، وهو في زعم بعضهم صاحب الأبيات التالية:

يا من حوى ورد الرياض بخدّه	وحكى قضيب الخيزران بقدّه
دع عنك ذا السيف الذي جرّده	عينك أمضى من مضارب حدّه
كلّ السيوف قواطع إن جردت	وحسام لحظك قاطع في غمده
إن رمت تقتلني فأنت مخيرٌ	من ذا يعارض سيدًا في عبده

ومهما يكن قدر الصحة من هذه القصة المرويّة على أساليب مختلفة، فإن فيها إشارة بيّنة إلى تأثير الأحوال بأفكار الرجال، وفعل الحضارة بقرائح الشعراء.

وهذا كان شأن الشعراء في زمن الدولة العباسية، فإنهم رتعوا في أرجاء ذلك الملك الفسيح متربعين بعد شطف العيش على الطنافس الوثيرة في المنازل الأنيقة أمام الحداثق الغناء، وخلفاؤهم يصعدون بالأمة في سلم المدنية يحرصون على استثمار ذلك الفتح المبين؛ فيدّخرون ما تلقّوه عمن تقدمهم، ولا يألون جهدًا في إحكامه وإلقائه حتى بهروا الغرب

بما تجمع لديهم من ذخائر السلف النفيسة، وإن التحف الغراء التي كان هارون الرشيد ينفخ بها شارلمان من غرر تلك الكنوز، ومن جملتها ساعته التي تلقاها سلطان المغرب آية من الآيات لا تبقي مجالاً للريب في مبلغ الثروة العباسية، واستحكام النهضة وسريانها من العراق إلى مصر والشام والأندلس، وسائر البلاد التي طرقها المسلمون.

فلا بدع، وكل ذلك مشهود الشعراء أن تشقف أذهانهم وتروّض نفوسهم، وتتسع مداركهم، ويرق تصوّرهم ويمرحوا في روضٍ من الشعر أريض يجولون فيه جولةً لم تتوفر أسبابها لسلفائهم.

ولهذا لم يكن لشاعر جاهلي أو مخضرم أن يبدع إبداع الرقاشي بقوله:

نبهت ندماني الموفي بدمته	من بعد أتعاب طاساتٍ وأقداح
فقال خذ واسقني واشرب وغن لنا	يا دار مشواي بالقاعين فالساحي
فما حساً ثانياً أو بعض ثالثة	حتى استدار وردّ الراح بالراح

أو يرق رقّة أبي نواس بقوله:

ومستطيلٍ على الصهباء باكرها	في فتية باصطباح الراح حدّاق
فكل شيءٍ رآه ظنه قدحاً	وكل شخص رآه قال ذا الساقبي

فلا ريب أن هذين القولين أوقع في النفس من قول عنترة:

ولقد شربت مع الندامى بعد ما	ركد الهواجر بالمشوف المعلم
بزجاجة صفراء ذات أسرة	قرنت بأزهر بالشمال مفدم

فإذا أبدع عنثرة بهذا الوصف في زمانه بين قوم يهيمون في
الفلوات على ظهور الإبل بين مضارب البادية، فإنه لا يطرب جلساء أبي
نواس والرقاشي في محافل الأنس، ومغاني التأنق والعيش الرغيد.

وقد بلغ المولّدون الدرجة القصوى من التصرف بالمعاني، وجزالة
اللفظ ودقة السبك، فصعدوا بالشعر درجةً لم يبلغها المتقدمون،
وهيئات أن يدركها المتأخرون، وكان هذا ديدن الفريق الأعظم منهم في
جميع الأبواب التي طرقوها، فأبى غزل أرق من قول أبي نواس:

حامل الهوى تعبُ	يسـتخفه الطـربُ
إن يكن يحق له	ليس ما به لعبُ
تضحكين لاهيةً	والمحبُّ ينتحبُ
كلما انقضى سببُ	منك جاءني سببُ
تعجبين من سقمي	صحتي هي العجبُ

وقول البحري:

كيف أغدو من الصباة خلواً	بعد ما راحت الديار خلأً
قف بها وقفة تردُّ عليها	أدمعاً ردّها الهوى انضاءً
إن للبين مئةً لا تؤدّي	ويداً في ثماضرٍ بيضاء
حجبوها حتى بدت لفراقٍ	كان داءً لعاشقٍ ودواء
أضحك البين يوم ذاك وأبكى	كلّ ذي صبرةٍ وسرّ وساء

فجعلنا الوداع فيه سلامًا وجعلنا الفراق فيه لقاءً
ووشت بي إلى الوشاة دموع الـ عین حتی حسبتها أعداء

وأي تشبيه أبدع من قول ابن المعتز في القلم:
قلمٌ ما أراه أم فلكٌ يجـ ري بما شاء قاسمٌ ويسيرُ
راكعٌ ساجدٌ يقبل قرطاً ساكما قبّل البساط شكورُ
وقوله:

من لي بقلبٍ صيغ من صخرةٍ في جسدٍ من لؤلؤٍ رطبِ
جرحتُ خديّ بلحظي فما برحتُ حتى اقتصّ من قلبي

ومثله قول ابن الرومي في قوس الغمام:
وساقٍ صبيحٍ للصبحٍ دعوته فقام وفي أجفانه سنّة الغمضِ
يطوف بكاسات العقار كأنجم فمن بين منقضٍ علينا ومنقضِ
وقد نشرت أيدي الجنوب مطارفاً علي الجو دُكًا والحواشي على
الأرضِ
يطرّزها قوس السحاب بأخضرٍ على أحمرٍ في أصفرٍ إثر مبيضِ
كأذيال خودٍ أقبلت في غلائلِ مصبغةٍ والبعض أقصر من بعضِ

وأيُّ كلام في المدح أطلّى من قول ابن هانئ:
قد طيّب الإفطار طيب ثنائه من أجل ذا تجد الثغور عذابا

لم تدنني أرضٌ إليك وإنما
ورأيت حولي وفد كل قبيلةٍ
جئتُ السماءَ ففتّحت أبوابا
حتى تؤهّمت العراق الزابا

ومن تُرى أعلى كعباً بالحكمة والزهد من أبي العلاء، وهو القائل:
غير مجدٍ في ملتي واعتقادي
وشبيهة صوتُ النعي إذا قيـ
أبكتُ تلكم الحمامة أم غنـ
صاح هذي قبورنا تملأ الرُحـ
خفف الوطاء ما أظنّ أديم أل
وقبيحُ بنا وإن قدم العهد
سر إن استطعتَ في الهواء رويداً
ربّ لحدٍ قد صار لحدّاً مراراً
ودفينِ على بقايا دفين
فاسأل الفرقدين عمّن أحسّا
كم أقاما على زوال نهار
تعبٌ كلها الحياة فما أعـ
إنّ حزناً في ساعة الموت إضعا
خلق الناس للبقاء فضلت

نوح باكٍ ولا ترنم شادٍ
س بصوت البشير في كل نادٍ
ت على فرع غصنها الميادٍ
ب فأين القبورُ من عهد عادٍ
أرض إلا من هذه الأجسادِ
د هوانُ الآباءِ والأجدادِ
لا اختيالاً على رفاتِ العبادِ
ضاحك من تزاحم الأضدادِ
في طويل الأزمان والآبادِ
من قبيل وآنسًا من بلادِ
وأنا را لمدلجٍ في سوادِ
جبٍ إلا من راغبٍ في ازديادِ
فُ سرورٍ في ساعة الميلادِ
أمةٌ يحسبونهم للنفاذِ

إنما ينقلون من دار أَعْمَا لِي إِلَى دار شَقْوَةٍ أو رِشَادِ
ضَجَعَةِ الموتِ رِقْدَةً يَسْتَرِيحُ الـ جِسْمُ فِيهَا والعِيشُ مِثْلُ السَّهَادِ

ومن أبدأع إبداع أبي الطيب بالتصرف بالمعاني، وجمع شتاتها،
ويكفيك قوله:

غَابَ الأَمِيرُ فغَابَ الخَيْرُ عن بَلَدٍ	كَادَتْ لَفَقْدِ اسْمِهِ تَبْكِي مَنَابِرُهُ
قَدْ اشْتَكْتُ وَحْشَةَ الأَحْيَاءِ أَرْبَعُهُ	وَجَبَّرْتُ عَنِ أَسَى المَوْتَى مَقَابِرُهُ
حَتَّى إِذَا عُقِدْتُ فِيهِ القَبَابُ لَهُ	أَهْلَ لِلَّهِ بِأَدْيِهِ وَحَاضِرُهُ
وَجَدَدْتُ فَرَحًا لَا الغَمُّ يَطْرُدُهُ	وَلَا الصَّبَابَةُ فِي قَلْبٍ تَجَاوِرُهُ
إِذَا خَلْتُ مِنْكَ حَمَصٌ لَا خَلْتُ	فَلَا سَاقَهَا مِنَ الوَسْمِيِّ بَاكِرُهُ
أَيَّدَا دَخَلَتْهَا وَشُعَاعُ الشَّمْسِ مُتَقَدِّ	وَنُورُ وَجْهِكَ بَيْنَ الخَلْقِ بَاهِرُهُ
فِي فِيلِقٍ مِنْ حديدٍ لَوْ قَذَفْتُ بِهِ	صَرَفَ الزَّمَانَ لَمَّا دَارَتْ دَوَائِرُهُ
تَمْضِي المَوَاكِبِ والأَبْصَارِ شَاخِصَةً	مِنْهَا إِلَى المَلِكِ المِيمُونِ طَائِرُهُ
قَدْ حَرَنَ فِي بَشَرٍ فِي تَاجِهِ قَمَرٌ	فِي دَرَعِهِ أَسَدٌ تَدْمَى أَظْفَارُهُ
حَلَوْ خِلَاقَتَهُ شَوْسُ حَقَائِقِهِ	تَحْصِي الحَصَى قَبْلَ أَنْ تَحْصِيَ
تَضَيِّقُ عَنِ جَيْشِهِ الدُّنْيَا وَلَوْ رَجُبَتْ	مَآثِرُهُ كَصَدْرِهِ لَمْ تَبْنِ فِيهَا عَسَاكِرُهُ
إِذَا تَغْلَغَلَ فِكْرُ المَرءِ فِي طَرَفٍ	مِنْ مَجْدِهِ غَرَقَتْ فِيهِ خَوَاطِرُهُ
تَحْمِي السِّيفِ عَلَى أَعْدَائِهِ مَعَهُ	كَأَنَّهُنَّ بَنُوهُ أَوْ عَشَائِرُهُ
إِذَا انْتَضَاهَا لِحَرْبٍ لَمْ تَدْعُ جَسَدًا	إِلَّا وَبَاطِنُ العَيْنِ ظَاهِرُهُ

فقد تيقن أن الحق في يده وقد وثقن بأن الله ناصرُهُ
 تركن هام بني عوفٍ وثعلبةٍ على رؤوس بلا ناسٍ مغافرُهُ
 فخاض بالسيف بحر الموت خلفهم وكان منه إلى الكعبين زاخرُهُ
 حتى انتهى الفرسُ الجاري وما وقعت في الأرض من جيف القتلى حوافرُهُ

وأي حنين أوقع في النفس وأعظم إثارةً للعاطفة، وأصدق رسمًا
 لرقعة شعر المولدين من فراقية أبي الحسن علي بن زريق البغدادي، وإن
 لنا من سمو معاني القصيدة التالية وجزالة ألفاظها عذرًا على إيرادها كلها
 مثالاً على شعر النوايع من أبناء هذه الطبقة: ^{٩٣}

لا تعذليه فإن العذل يولعه قد قلت حقًا ولكن ليس يسمعه
 جاوزت في نصحه حدًا أضرَّ به من حيث قدّرتِ إنَّ النصح ينفعه
 فاستعملي الرفق في تأديبه بدلًا من عنفه فهو مضنى القلب موجهه
 قد كان مضطلعًا بالخطب يحمله فضلعت بخطوب البين أضلعه
 يكفيه من لوعة التشيت أن له من النوى كل يوم ما يروّعه
 ما آب من سفرٍ إلا وأزعجه عزمٌ إلى سفرٍ بالرغم يزمره
 تأبى المطالب إلا أن تكلفه للرزق سعيًا ولكن ليس يجمعه
 كأنما هو في حلٍ ومرتحلٍ موكلٌ بفضاءٍ الله يذرعه
 إذا الزمان أراه في الرحيل غنى ولو إلى السند أضحى وهو يقطعه
 وما مجاهدة الإنسان واصلهً رزقًا ولا دعة الإنسان تقطعه

قد قَسَمَ الله بين الناس رزقهم
لكنهم كلفوا حرصًا فلست ترى
والحرص في الرزق والأرزاق قد قسمت
والدهر يعطي الفتى من حيث يمنعه
أستودع الله في بغداد لي قمرًا
ودعته وبودي لو يودعني
وكم تشفع بي أن لا أفارقه
وكم تشبث بي يوم الرحيل ضحى
لا أكذبُ الله ثوبُ العذر متخرق
إنني أوسع عذري في جنايته
أعطيت ملكًا فلم أحسن سياسته
ومن غدا لا بسًا ثوب النعيم بلا
إعتضت من وجه خلّي بعد فرقه
كم قائل لي ذقت البين قلت له
هلاً أقمت فكان الرشيد أجمعه
لو أنني لم تقع عيني على بلد
يا من أقطع أيامي وأنفدها
لا يطمئنُ بجنبي مضجع وكذا
ما كنت أحسب أن الدهر يفجعني

لا يخلقُ الله من خلقٍ يضيعه
مستزفًا وسوى الغايات يقنعه
بغى ألا إن بغى المرء يصرعه
عفوًا ويمنعه من حيث يطعمه
بالكرخ من فلك الأزرار مطلعه
صفو الحياة وإنني لا أودعه
وللضرورات حال لا تشفعه
وأدمعي مستهلّات وأدمعه
منني بفرقه لكن أرقعه
بالبين عنه وقلبي لا يوسعه
وكل من لا يسوس الملك يخلعه
شكرٍ عليه فعنه الله ينزعه
كأساً أجرعُ منها ما أجرعُه
ألذنب والله ذنبي لست أدفعه
لو أنني حين بان الرشيد أتبعه
في سفرتي هذه إلا وأقطعه
حزنًا عليه وليلي لست أهجعه
لا يطمئنُ به مذ بنت مضجعه
به ولا أن بي الأيام تفجعه

حتى جرى الدهر فيما بيننا بيد
 وكنت من ريبٍ دهرٍ جازعًا فرقًا
 بالله يا منزل القصر الذي درست
 هل الزمان معيدٌ فيك لذتنا
 في ذمة الله من أصبحت منزله
 من عنده لي عهد لا يضيع كما
 ومن يصدع قلبي ذكره وإذا
 لأصبرن لدهرٍ لا يمتعني
 علمًا بأن اصطباري معقبٌ فرجًا
 علّ الليالي التي أضنت بفرقتنا
 وإن تغلّ أحدًا منا منيته
 وإن يدم أبدًا هذا الفراق لنا
 غبراء تمنعني حقي وتمنعهُ
 فلم أوقّ الذي قد كنت أجزعهُ
 آثاره وعفت مذ بنت أربعه
 أم الليالي التي أمضته ترجعه
 وجاد غيث على مغناك يمرعه
 عندي له عهد صدق لا أضيعهُ
 جرى على قلبه ذكرى يصدعهُ
 به ولا بي في حال يمتعه
 فأضيق الأمر إن فكرت أوسعهُ
 جسمين تجمعمني يومًا وتجمعه
 لا بد في غده الثاني سيتبعهُ
 فما الذي بقضاء الله نصنعهُ

وإن المقام ليضيق عن الاستزادة من هذه النفائس، فإن ما أوردناه
 منها ليس إلا ذرّة من ذرّة.

نظرة في شعر المولدين

لم يكن لفريقٍ من الناس أن يدعي الكمال حتى الشعراء،
 والمولدون مع بلوغهم من البلاغة، وإحكام الصنعة أقصى الدرجات

فإنهم يؤاخذون، ولا سيما المتأخرين منهم على مغامر ترجع إلى خلال أربع:

الخُلة الأولى: اقتضاب الوصف الشعري فلا تبرز الحقيقة جليّة على فطرتها في كثيرٍ من شعرهم، ويستثنى من ذلك الحكم والأمثال، وكذلك الأبحاث العلمية التي ليست من لباب الشعر، ويندر أن شاعراً يعمد إلى وصفٍ فيستتمه ويرسمه رسماً جليّاً كاملاً كما رأيت في أسد بشر، وثور عبدة، فترى الأفكار متزاحمة والمعاني متلازّة في منظوماتهم، فتختلُّ اللُحمة بينها، وتأتي متراكمة، فيفوت السامع شيء كثير مما تصوّروه وقصّروا في تصويره، فهم بهذا الاعتبار قد عدلوا عن منزع الفطرة، وأبعدوا عن البداهة الجاهلية، وتحوّلت معهم المقاصد الشعرية إذ بات مرماهم فيها جرّ المغانم، ودفع المغارم. وإن كلامنا في كل ذلك إجمالاً لا يؤخذ منه خلو شعر المولدين جميعاً من بدائع الوصف التام، وإجادة التصوير فقد تجد في شعر المولدين ما يضاهي منحى الجاهليين، وإن رمت مثلاً لذلك فاقرأ قصيدة المتنبي التي مطلعها:

في الخدِ إن عزم الخليط رحيلاً مطرٌ تزيد به الخدود نحولاً

الخُلة الثانية: تبدُّ لهم في المديح حتى جعلوا الشعر صناعة للتكسب، ومهنة للاسترزاق فكاد يمتهن الشعر، وتنحط طبقة الشعراء في عيون عظماء الأمة، ولو تتبععت أقوال فحولهم؛ كالبحتري، وأبي تمام، والمتنبي ما رأيته يتعدّى المدح للمحسن إليهم، والهجاء للممسك عنهم،

بل ربما هجوا ممدوحهم، ومدحوا مهجّوهم؛ طمعًا وتشفيًا كما كان شأن المتنبي مع كافور. ولا يستثنى منهم سوى أفرادٍ خرجوا ترفُّعًا من موقف الذلّة والمسكنة، إما لسعةٍ في حالهم، ورفعة في درجتهم الموروثة كابن المعتز، وأبي فراس، فذلك من أبناء الخلفاء، وهذا من نسل الأمراء، وإما لحكمة فطروا عليها، وأنفة في طباعهم ورُهد في نفوسهم كالمعري، وما أقل أمثاله بين المتقدمين والمتأخرين؛ ولهذا كان المعري يرجح كثيرًا في ميزان الرجال على المتنبي وأمثاله مع أن الرجحان بيّن للمتنبي في ميزان الشعراء.

الخُلَّةُ الثالثة: ابتذال الغزل ووصف الغرام حيث لا محرك إليه إلا التوطئة للمديح، فجاء أكثر ما نُظم من هذا القبيل غير مثير للعاطفة، ولا مؤثر في النفس، وإن كثر فيه الحنين والأنين بخلاف ما يقصد به شخص معين كما رأيت في قصيدة ابن زُرَيْق. وهو ثابتٌ أن التوطئة بالغزل ليست من بدع المولدين بل هي خطةٌ درج عليها الشعراء من أيام الجاهلية، على أن الجاهليين لم يبتذلوها ولم يتعمدوها إلا في أحوال مخصوصة كان يزدان بها شعرهم، ولم يصف شاعرهم في أكثر المواقف إلا غرامًا برح به كما ترى في غزليات امرئ القيس وعنترة، وإذا تعدّى تلك الخطة فلم يتعدّها إلا قليلًا، بخلاف المولدين إذ كانوا يتكلفون الغزل تكلفًا كأنه من لوازم الاستهلال.

والظاهر أن كثيرين من ذوي الرؤية والنقد كانوا ينكرون تلك الطريقة حتى في إبان الزمن العباسي.

قال الإبيسيهي: «مدح أبو العتاهية عمرو بن العلاء ٩٤ فأعطاه سبعين ألفاً، وخلع عليه خلعاً سنية حتى أنه لم يستطع أن يقوم، فغار الشعراء منه فجمعهم وقال: يا لله العجب ما أشد حسد بعضكم لبعض إن أحدكم يأتينا ليمدحنا، فيتغزل في قصيدته بخمسين بيتاً فما يبلغنا حتى يذهب رونق شعره» قد تشبب أبو العتاهية بأبيات يسيرة ثم قال:

إني أمنتُ من الزمان وصرفه لما علقْتُ من الأمير جبالا
لو يستطيع الناس من إجلاله جعلوا له حرَّ الوجوه نعالا
إن المطايا تشتكك لأنها قطعت إليك سباسباً ورمالا
فإذا وردن بنا وردن خائفًا وإذا صدرن بنا صدرن ثقالا

وإذا أردت دليلاً محسوساً على صحة هذا النقد فخذ قصيدتين من مختار شاعرٍ واحدٍ وطأ الشاعر بالغزل في إحداهما، وولج الموضوع تَوًّا في الأخرى فتبدو لك فوراً مزية مطلع الثانية على الأولى.

فمن مختار ابن هانئ قصيدته في مدح المعز ومطلعها:
فمن في مائِمٍ على العشاق ولبسن الحداد في الأحداق
ويكين الدماء بالعنم الرط ب المكنى وبالخدود الرقاق

وقصيدته في المعز أيضاً ومطلعها:
ما شئت لا ما شاءت الأقدارُ فاحكم فأنت الواحد القهارُ

وكأنما أنت النبي محمدٌ وكأنما أنصارك الأنصارُ

ومن مختار المتنبي قوله في سيف الدولة مستهلاً:

لعينيك ما يلقي الفؤاد وما لقي وللحب ما لم يبق مني وما بقي
وما كنت ممن يدخل العشق قلبه ولكن من يبصر جفونك يعشق

وقوله في مطلع آخر قصيدة قالها وهي في سيف الدولة أيضاً:
فدى لك من يقصر عن هداكا فلا ملكٌ إذن إلا فداكا
وإن قلنا فدى لك من يساوي دعونا بالبقاء إن قلاكا

أفلا تُراك تؤثر مطلع رائية ابن هاني وكافية المتنبي على قافيتيها.
ولا يجب أن يستفاد مما تقدم أننا ننكر التوطئة على الإطلاق،
فإنها إذا جادت ووقعت في موضعها ووافقت موضعها، فإنها تشق شغاف
القلب وتذكي شرارة النيرة، فتهيم بها البصائر كما يقع لسامع قصيدة أبي
تمام التي مطلعها:

السيف أصدق أنباء من الكتب في حده الحد بين الجد واللعب
بيض الصفائح لا سود الصحائف في متونهنَّ جلاء الشك والريب

فقد أراد مدح المعتصم العباسي على إثر فوزه ذلك الفوز المبين،
وتنكيله بجيوش الروم وفتحته عُمورية، فوطاً لمدحه توطئة استهلها بما
تقدم، وما أجملها توطئة لمثل ذاك المديح.

ومما يُحمد عليه المولدون بهذا المعنى توطئتهم للثرء بالزهد
وأشباهه.

الخُلة الرابعة: تجاوزهم في المجون وبذاءة التعبير إلى ما لا
يستبيحه أدب المجالس، ويغضُّ من قدر الشعر ومنزلة الشعراء، وهذا
أيضًا ليس من بدع المولدين بل سبقهم إليه شعراء الجاهلية والمخضرمون
حتى أودعه امرؤ القيس معلقته، وفي أهاجي جرير والأخطل والفرزدق ما
لا يُعد مفخرة لأمثال أولئك الفطاحل، ولكن الجاهليين كانوا يأتونه عفوًا
على البداهة، فاستمسك به المخضرمون وأوغلوا فيه إيغالًا أدَّى
بالمولدين إلى التفنن به تفننهم في سائر ضروب الشعر، وفحشوا فيه
فحشًا فاضحًا، ومن ذا الذي يقرأ أهاجي أبي تمام لمقران، والمتنبي لابن
كيعلغ، ومجونيات الصفي الحلي، ولا ينكر أن تشان بدائع منظوماتهم
بتلك السفاسف الهجينة، وأغرب من هذا أن كثيرًا من تلك البذاءات
ممتزحٌ بدررٍ من المعاني تضيق عنها أرحب القرائح، فإذا قرأت قصيدة
المتنبي التي يستهلها بقوله:

لهوى النفوس سيرة لا تُعلم عرضًا نظرت وختل أني أسلمُ

فإنك ترى فيها من غرر المعاني، وأبكار الأفكار ما جرى أكثره
مجرى الأمثال، وتنوقل جيلًا بعد جيل في أندية الأدب وحسبك منها
قوله:

ذو العقل يشقى في النعيم بعقله وأخو الجهالة في الشقاوة ينعمُ

والناس قد نبذوا الحفاظ فمطلق
 ينسى الذي يولي وعافٍ يندم
 لا يخذعك من عدوٍ دمعته
 وارجم شبابك من عدوٍ ترحم
 لا يسلم الشرف الرفيع من الأذى
 حتى يراق على جوانبه الدم
 والظلم من شيم النفوس فإن تجد
 ذا عفة فلعللة لا يظلم
 ومن البلية عدل من لا يرعوي
 عن جهله وخطاب من لا يفهم

ومع هذا فإنك لا تتمالك من الإنكار على الشاعر خلط هذه
 النفائس بتلك الخسائس.

وأقبح من كل ذلك تشبيههم بما لم يشرعه الله، ولم يسق إليه
 الطبع، ولم يفش قبلهم في شعر الجاهليين وإنما هو بدعة اقتبسوها
 بملاسة المدنية الجديدة، فما أوغل إمامهم أبو نواس في ذلك النهج
 البذيء حتى هبوا إلى تحديده.

والظاهر أن ذلك التراخي كان مندمجاً بروح العصر فانتهجته
 الشعراء، وسلك مسلكهم صفوة الأدباء كالبديع الهمداني والحريري،
 وسمّوه أحماضاً كأنه فكاهة مستملحة يتطلبها كل أديب أريب؛ ولهذا
 قال الحريري في مقدمة كتابه: «وما قصدت بالأحماض فيه إلا تنشيط
 قارئيه».

ذلك ما يعاب عليه المولدون ما خلا رهطاً منهم سما أدباء،
 وتهذب عقلاً ونفساً.

أما إلياذة هوميروس فهي على ما وصلت إلينا نقيّة من تلك المغامز لا يؤاخذ صاحبها على شيء من هذا الخلال الأربع، أما الخُلة الأولى فلأن الشاعر جاهلي وحيثما تصفحت شعره رأيته أبدع في الوصف ورسم الحقائق، وأما الثانية والثالثة، فلأنهما مخالفان لطبعه، وذلك بادٍ في كل منظومه، وأما الرابعة فقد تحاشاها الشاعر لسموٍ في أدبه مع ما كان فاشيًا في عصره من الاستسلام للشهوات كما أثبتنا في ترجمته؛ ولهذا جاءت إلياذته نقية لا يتخللها شيءٌ مما تحظر قراءته حتى على الغادة العذراء.

مناهج المولدين في أبواب الشعر وفنونه وأساليبه

لم يقتصر المولّدون من الشعر على نظمه بل نظروا فيه ومَحْصوه، وانتقدوه، وعارضوه بعضًا ببعض، وبحثوا فيه بحثًا علميًا، ووضعوا أصوله ويؤبوا فصوله، وجمعوا مختاره، وعينوا فنونه ووازنوا بين الشعراء، وكتبوا في كل ذلك الأسفار الطويل بين نشرٍ وشعرٍ مما لا يتسع له بحثنا.

وقد جعلوا الشعر بالنظر إلى معناه أبوابًا حصرها أبو تمام في عشرة، وأبلغها ابن أبي الإصبع العدواني إلى ثمانية عشر، وهي: الغزل، والوصف، والفخر، والمدح، والهجاء، والعتاب، والاعتذار، والأدب، والزهد، والخمريات، والرثاء، والبشارة، والتهاني، والوعيد، والتحذير، والملح والسؤال، والجواب، وزادوا عليها الزهريات، والحكم، والمجون، والحماسة، وهي أشرفها عندهم وأجادوا في كل ذلك.

وتفننوا في الشعر تفنناً لم يعرفه الأوائل إلا قليلاً، فأفاضوا في التشطير، والتخميس، والمعمى، والأحجية، واللغز، والدوبيت الفارسي الذي خالفوا فيه أوزان الشعر العربية.

وأكثر من كلف منهم بذلك متأخروهم كالحريري، وابن الفارض، وصفي الدين الحلبي، وأن تخميس الصفي لحماسية السموأل من أجود ما قيل بهذا ومطلعها:

قبيحٌ بمن ضاقت عن الرزق أرضُهُ وطولُ الفلا رحبٌ عليه وعرضُهُ
ولم يُبلِ سربالَ الدجى منه ركضُهُ إذا المرء لم يدنس من اللؤم عرضُهُ
فكل رداء يرتديه جميلٌ

وفي ديوان ابن الفارض كثير من الدوبيت واللغز كقوله:

يا ليلة وصلِ صباحها لم يلح من أولها شربُهُ في قدحي
لما قصُرت طالت وطابت بلقا بدرٍ محني في حبه من منحي

وقوله ملغزاً في بقله:

ما اسمُ قوتٍ لأهلِهِ مثل طيبٍ تجبُهُ
قلْبُهُ إن جعلتُهُ أولاً فهو قلبُهُ

وللحريري أَلغاز وأحاجي، ومعميات، وأحسنها بل أحسن ما قيل بهذا المعنى يائيته الطويلة التي مطلعها:

عندي أعاجيب أرويهـا بلا كذبٍ عن العيان فكنوني أبا العجبِ

وأما التاريخ الشعري فلا نعلم له شيوعاً عند المولدين، وإنما هو من فنون المحدثين أو المتأخرين، ولكنه بلا ريب مأخوذ عن أصل قديم جداً؛ لأن الحساب بالحروف أقدم من جميع الشعر العربي المعروف، وقد استعمله اليونان والعربون والرومان قبل العرب، ولكنهم لم يلصقوه بالشعر، على أن جميع هذه الفنون ليست إلا من فكاهات الشعر، ولا يجب أن تعد من بدائع النظم.

أما الموشح الأندلسي فهو من محاسن الاستنباط الشعري، قيل اخترعه مقدم بن معافر شاعر الأمير عبد الله بن محمد المرواني في أواخر القرن الثالث للهجرة، وقيل في أصله أقوال أخرى لا محل لذكرها، كانوا ينظمونه على أساليب شتى أشهرها جعل اللازمة بيتين، وكل دور بعدها خمسة أبيات كقول الخطيب الأندلسي:

جادك الغيث إذا الغيث هما	يا زمان الوصل بالأندلس
لم يكن وصلك إلا خلماً	في الكرى أو خلسة المختلس

دور

إذ يقول الدهر أسباب المنى	تنقل الخطو على ما ترسم
زمر بين فرادى وثنا	مثلما يدعو الوفود الموسم
والحيا قد جلل الروض سنا	فسنا الأزهار فيه تبسم
وروى النعمان عن ماء السما	كيف يروي مالك عن أنس

فكسَاه الحسن ثوبًا مُعلما يزدهي منه بأبهى ملبسٍ

كانوا ينهجون هذا النهج في طوال الموشحات، ولهم في ما
سوى ذلك طرقٌ كثيرة تغنّوا عليها، وخالفوا فيها أوزان الشعر المشهورة،
وتراهم ينقرون في بعضها على أوتار الأفئدة كما ترى في قول ابن أبي
بكر الأبيض في مطلع موشح:

ما لَدَّ لي شربِ راحِ على رياضِ الأقاحِ

لولا هضمِ الوشاحِ إذا آسى في الصباحِ

أو في الأصلِ أضحى يقولُ ما للشـمولِ

لطمّت خـدّي

وللشـمالِ هبّت فـمـالُ غصنِ اعتـدالِ

ضممه بردي

مما أبـاد القلوبـا يمشي لنا مستريا

يا لحظه رَدَّ ثوبـا وبـا لمـاه الشـنـيا

بـرد غـيلـ حـبِّ عـيلـ لا يـسـتمـيلـ

فيه عن عهدي

ولا يـمـزال في كل حالٍ يرجو الوصالِ

وهو في الصـدِ

وقول عبادة القراز:

بدر تم. شمس ضحا غصن نقا. مسك شـم

ما أتم. ما أوضحا ما أورقا. ما أنم

لا جرم. من لمحا قد عشقا. قد حرم

ومما يذكر للمولدين استطراداً ضروبٌ كثيرةٌ من الشعر العامي كالموالي
وفي أصله أقوال أشهرها: أن هارون الرشيد أمر بعد نكبة البرامكة أن لا
يرثيهم أحدٌ بشعر، فرثت إحدى جواريتهم جعفرًا بشعر غير مُعَرَّب حتى لا
يُعد شعراً، وجعلت تقول بعد كل شطر يا مواليا قالت:

يا دار أين ملوك الأرض أين الفرس أين الذين حموها بالقنا والترس

قالت نراهم رمم تحت الأراضي الدرس سكوت بعد الفصاحة ألسنتهم خرس

هذا الذي يقوله المؤرخون في أصل الشعر العامي، والذي نراه أنه

أقدم من ذلك العهد بل نخاله معاصراً للشعر الجاهلي، وللبغداديين أيضاً

من هذا النوع القوما، قيل كانوا ينشدونه عند السحور في رمضان سمي

بذلك من قول المغنين «قوما نسحر قوما» وجعلوه على وزن هذه

الكلمات الثلاث، وتفرع عنه فروع دعوها الزهري والخمري وغيرهما،

ولهم غير ذلك من الشعر العامي مما لا محل لذكره.

وللأندلسيين كثيرٌ من هذا النوع مما تفرع عن الموشح، ومما

تغنّت به العامة كالزجل وفروعه عروض البلد، والمزدوج والكارى والملعبة

والغزل ولا تزال بقايا كل ذلك في جميع البلاد التي غلبت فيها العربية،

وأخصها الزجل المصري والزهيري البغدادي والمعنى السوري، ولا يدخل

في عدادها القصيد البدوي؛ لأنه من بقايا الشعر الجاهلي الفصيح.

وأحرز المولدون أيضاً قصب السبق في الحكم والمواعظ، وجمع شوارد الأمثال وأول رافع منهم لذلك اللواء أبو العتاهية فإنه نظم فيها أرجوزة طويلة قيل إنه ضمنها أربعة آلاف مثل، وهي من بدائع نظمها قوله:

حسبك مما نبتغيه القوتُ	ما أكثر القوت لمن يموتُ
الفقر في ما جاوز الكفافا	من اتقى الله رجاء وخافا
هي المقادير فلمني أو فذر	إن كنت أخطأت فما أخطأ القدر
لكل ما يؤذي وإن قل ألم	ما أطول الليل على من لم ينم
من جعل التَّمَام عينًا هلكا	مُبْلَغك الشرَّ كباغيه لكَا
إن الفراغ والشباب والجده	مفسدةٌ للمرء أي مفسده
ما زالت الدنيا لنا دار أذى	ممزوجة الصفو بألوان القذى
الخير والشر بها أزواجُ	لذا نتاجٌ ولذا نتاجُ
من لك بالمحض وليس محضُ	يخبثُ بعضٌ ويطيب بعضُ
لكل إنسانٍ طبيعتانِ	خيرٌ وشرٌّ وهما ضدانِ

وجرى كثيرون من شعراء المولدين مجرى أبي العتاهية في جمع الحكم والأمثال في القصائد الغراء، فمنهم من نظمها مجردة عما سواها من المقاصد كأبي الفتح البستي في النونية المعروفة التي مطلعها:

زيادة المرء في دنياه نقصانُ وريحه غير محض الخير خسرانُ

وكلَّ وجدانٍ حظٌ لا ثبات لهُ فإن معناه في التحقيق خسرانُ

ومثلها لامية ابن الوردى:

اعتزل ذكر الأغاني والغزل وقل الفصل وجانب من هزل
ودع الذكر لأيام الصبا فلأيام الصبا نجم أفل

ومنهم من أودعها قصائد قيلت لمقاصد معلومة كما فعل ابن
دُرَيْد في منظومته المعروفة بالمقصورة الدريدية، وقد أراد بها مدح الشاة
ابن ميكال وولديه ومطلعها:

يا طيبة أشبه شيءًا بالمها ترعى الخزامى بين أشجار النقا
إمّا تَرى رأس حاكمي لونه طرةً صبح تحت أذيال الدجى
فكل ما لاقيه مغتفر في جنب ما أسأره شحط النوى

ومن هذا القبيل قصيدة الطغرائي المعروفة بلامية العجم، إذ قالها

لغرض في نفسه، ومزج فيها الحكم بالفخر كما ينبئك مطلعها:
أصالة الرأي صانتي عن الخطل وحلية الفضل زانتي لدى العطل
مجدي أخيرًا ومجدي أولًا شرع والشمس رآد الضحى كالشمس في الطفل

وأبناء هذا الفريق الأخير من الشعراء يتجاوزون حد الحصر،
ويندر أن ترى شاعرًا لم يودع شعره شيئًا من الحكم والأمثال بل كان
كثيرون منهم يوطئون بها للمدح والهجاء، والوصف والثناء، فتقوم لديهم
مقام التوطئة بالغزل.

ويقال في الجملة: إن المولدين مع تبذلهم في المدح طرقوا جميع أبواب الشعر مما تقدم ذكره، ولكنهم قلما اقتصر الشاعر منهم في القصيدة الواحدة على باب واحد بل كانوا يمزجون مزجاً يُملأ أحياناً، ولكنه يُطرب أحياناً كثيرة ولا سيما في القصائد الطويلة التي لا بد من تفكيكه سامعها بما يشيه هنيهة عن مرمى الشاعر، وربما جمع شاعرهم بين الغزل والحكم والأمثال، والزهريات والفخر، والمدح في قصيدة واحدة وأطربك في كل ما قال لبلاغته، وطلاوة شعره وحسن تصرفه، وحسبك مثلاً من ذلك قصيدة ابن الرومي المسماة حديقة الشعر، وهي التي مدح بها إسماعيل بن بلبك في ما ينيف على مئتي بيت، فيينا تخاله مستهلاً بزهرية، فيقول:

أجنت لك الوجد أغصاناً وكثباناً فيهن نوعان تفاح ورمان
وفوق ذلك أعناب مهذلة سودّ لهنّ من الظلماء ألوان
وتحت هاتيك عناب تلوح به أطرافهنّ قلوب القوم قنوان

إذا بك تراه متغزلاً، فيقول:

غصون بانٍ عليها الدهر فاكهة وما الفواكه مما يحمل البان
ونرجس بات ساري الطلّ يضربه وأقحوان منير النور ريان
ألفن من كل شيء طيب حسن فهنّ فاكهة شتى وريحان

فإذا أسكرك بنشوة تلك الصهباء وقف خطيباً واعظاً، فقال:

ثمار صدقٍ إذا عاينت ظاهرها لكنها حين تلبو الطعم خطبان

بل حلوة مرّةً طورًا يقال لها شهد وطورًا يقول الناس ذيفانُ

.....

.....

تلك الغصون اللواتي في أكمّتها نعم وبؤس وأفراح وأحزان
يبلو بها الله قومًا كي يبين له ذو الطاعة البرّ ممن فيه عصيان
وما ابتلاهم لإعناتٍ ولا عبثٍ ولا لجهلٍ بما يطويه أبطانُ
لكن ليثبت في الأعناق حجته ويحسن العفو والرحمن رحمنُ

ثم إذا تخلص إلى المدح أودعه المعاني الشائقة، والحكم
الرائعة، وإذا انتقل منه إلى العتاب وطلب النوال ألبس ذلك جلبابًا بهيّا،
واختتم بما لا يصلح سواه أن يكون تاجًا لتلك الغادة الهيفاء فقال:

وإن أبيت فحسبي منك عارفةٌ إن امتداحك عند الله قربانُ
والحر يسغب دهرًا وهو ذو سعةٍ والعفّ يطوي زمانًا وهو سغبانُ
وللبلاء انفراج بعد أزمتهٍ ورعبة الدهر أعجاف وأسمانُ
وللإله سجالٌ من فواضله كل امرئٍ ناهلٌ منه وعالانُ
أن لا يُعني على دهري أخو ثقةٍ من العباد فإن الله معوانُ
أو يبطل الحق عند الناس كلهم فليس للحق عند الله بطلانُ
خذاها أبا الصقر بكرًا ذات أوشية كالروض ناصي عراراً فيه حودانُ
وأسلم لراجيك مسعودًا وإن تربت ممن يعاديك آناف وأذقانُ

وهكذا فإنه يظل يرتقي بك درجةً بعد أخرى، وهو يهيجك طرباً
حيثما وقف بك ويحوم حول مطلبه حتى يلجئك إلى استتمام سماعه فلا
تشعر إلا وقد أتيت على قصيدته برمتها، وأنت مشغوف بطلاوتها فقلت:
«هلاً زادني منها رحمه الله».

وهذا المنزع بعينه هوميروس في إلياذته، ولو لم تكن حديقة ابن
الرومي خليةً من أخبار الشعر القصصي لقلت هي شطر من تلك الملحمة
التي خلب بها هوميروس عقول رواة وقرّائه، وكأني بابن الرومي وفيه
لمحةٌ من كنيته التي كان يعير بها في زمانه إلى جرثومةٍ في أصله أو
عرفانه كانت تحمله على تحدّي هوميروس في كثيرٍ من أساليبه ومعانيه
وتشبيهاته.

وللمولدين أقوالٌ ساحرةٌ في التشابه والكنائيات والاستعارات،
وكانوا كلما أبعدوا عن الحقيقة فقصروا فيها عن الجاهليين أوغلوا في
الخيال، ففاقوا المتقدمين بسعة التصوّر وضروب المجاز.

علوم الأدب عند المولدين

ليس من شأننا هنا التعرض لجميع ما تنطوي عليه علوم الأدب
في عرف بعض العلماء من نحوٍ وتصريفٍ، ولغةٍ واشتقاقٍ وأمثالها بل
نقصر الكلام على ما كان منها خاصاً بالشعر كالعروض أو ملازمًا له
كالبديع والبيان.

فالمولّدون هم الذين فتحوا باب البحث في صناعة الشعر،
وقيّدوا شوارده، وفصّلوا قواعده، وشاركهم في ذلك النحاة والأدباء
وعلماء اللغة، فضبطوا الأوزان ووزنوا المعاني، وصيروا قرض الشعر علمًا
بعد أن كان ملكة لا ضابط لها إلا القياس السماعي.

وقد كان ذلك القياس يكفل استبقاء تلك الملكة أيام كان العرب
في معتصمهم يتخالطون في البوادي والحوضر، وتجمعهم سوق عكاظ
كل عام، فتُقَوَّم ما أعوجّ من منطقهم، ولا يخالطهم الأعاجم مخالطةً
تعبث بلسانهم على أن إيغالهم في أطراف المعمور، وانتشار لغتهم
انتشارًا لم يكن انتشار اليونانية واللاتينية بإزائه شيئًا مذكورًا، وامتزاجهم
بسائر الملل كل هذا أحدث انقلابًا ألجأهم إلى تقييد أصول الشعر على
إثر تقييد أصول اللغة.

العروض

فكان أول ما استلفت نظرهم ضبط الأوزان، فوضع الخليل بن
أحمد علم العروض نحو سنة ١٥٠ للهجرة أي: في أوائل العصر
العباسي عصر المولّدين.

ويقول بعض المتقدمين من كتّاب العرب: «إن العروض علمٌ
خاصٌّ بالعربية، وأن الخليل استنبطه، ولم يسبقه إليه أحدٌ في لغةٍ أخرى
مع أن أرسطوطاليس ضبط قواعده للغة اليونان، وله فيه تأليفٌ يعوّل
عليه» ولأكثر اللغات قواعد ضابطة لأصول الشعر وعروضه، ويؤخذ من

قول ابن خلكان في ترجمة الخليل أنه أَلَمَّ باليونانية، وفك معي أرسل إليه فيها، ولكنه لا يثبت من كل ذلك أن الخليل وقف على كتاب أرسطوطاليس في العروض واعتمد عليه، وخصوصاً أن العروض العربي مختلف في جميع أوضاعه عن عروض اليونان، ومن جرى مجراهم، وعلى كلِّ فإن للخليل فضلاً على الشعر العربي يضاهي أبي الأسود الدؤلي على نحو اللغة بل يربو عليه؛ لأنه لم يكن للخليل مرشد إلى استنباطه، ولا شريك فيه، ولا يكبر على الخليل أن يكون مستنبطاً بلا دليل سابق يسترشد به؛ لأن الاستنباط كان في طبعه، وله مما خلا العروض استخراجات كثيرة تدلُّ على سعة عقل لم يقدرها ابن المقفَّع قدرها إذ قال: «علم الخليل أكبر من عقله».

والغريب أنه كاد يبلغ بهذا العلم حد الكمال منذ فكر فيه وضعه إذ قيَّد جميع البحور التي انتهجها العرب، ولم يُزِدْ عليها من بعده إلا بحرٌ واحد هو المُحدَث أو الخَبَب، ويقال له: المتدارك أيضاً؛ لأن الأُخفش تداركه على الخليل، ولا عبرة بما استعمل المولَّدون من الأوزان الفارسية كمنقول الفاريابي والدُّوبيت، وما عدلوا به عن الأوزان المألوفة في الموشحات والأغاني، وما زادوا فيه من تقييد العلة والزحاف، فذلك عرضٌ ينفسح للتسوع فيه مجالٌ رحب؛ ولهذا يصحُّ أن يقال: إن علم العروض خُلِقَ كاملاً؛ لأن الخليل أحكم تمثيل جميع القوالب الشعرية وتطبيقها على جميع منظوم العرب في الجاهلية.

البديع

رأيت أن المولدين تفتنوا في الصناعة الشعرية، ونهجو منهاج لم يسبقهم إليها الجاهليون والمخضرمون، وتلاعبوا بالألفاظ والمعاني، فمست الحاجة بعد صوغ تلك القوالب إلى توشيتها والنظر في إحكام زخرفها، فوضعوا علم البديع بفرعيه اللفظي والمعنوي، فكان اللفظي ألصق بالشعر منه بالنثر، والمعنوي يتناول جميع فنون الإنشاء من شعرٍ ونثرٍ على حدٍّ سواء.

وأول من كتب في البديع فيما نُقل إلينا شاعرٌ كُلفَ بأنواع التشابه والاستعارات، فكان قوله فيهما حجة الكتاب والشعراء ألا وهو ابن المعتز العباسي، ولم يكن بين المولدين من هو أولى منه بوضع هذا الفن، فكتب في صنعة الشعر، ووضع رسالة في البديع كانت أساس هذا العلم، وذلك في أوائل الشطر الأخير من القرن الثالث للهجرة أي: بعد أن وضع الخليل علم العروض بأكثر من قرن.

ولا بدع أن يكون واضح هذا العلم شاعرًا، وإن كان العلم بنفسه غير خاصٍ بالشعر كالعروض، فالعلماء والشعراء يتعاونون على إحياء الأدب، فالشاعر صَنَاجَة جيش العلماء، والعالم نبراس جند الشعراء.

وهكذا فإننا نعدُّ من مآثر المولدين وضع علمين عربيين استبطنهما استنباطًا بالنظر إلى العربية، وهما: العروض، والبديع اللفظي.

البيان

أما البيان بما يشمل من علم المعاني والبديع المعنوي فليس من وضع العرب بحصر المعنى، وإن كانوا طبقوه على التراكيب العربية، فقد استمدُّوا أصوله من اليونان والسريان والفرس كما استمدوا المنطق من كتاب أرسطوطاليس وغيره من علماء المتقدمين، وكان للفرس في البيان اليد الطولى، ولجعفر البرمكي كلامٌ فيه ما زال يُنقل عنه، على أن للمولدين فيه النظر العالي والفضل الواسع بما أحسنوا في تبويبه، وأحكموا في ترتيبه حتى ألبسوه حلةً عربية، ومع هذا فلم يبلغ حتى يومنا درجة الكمال التي بلغها العروض والبديع اللفظي.

فهذه علومٌ ثلاثة وضعها المولِّدون إحكامًا للصناعة الشعرية وأساليب الإنشاء، وليس من شأننا أن نتطالَّ إلى ذكر سائر العلوم التي لها علاقةٌ بالشعر قريبةٌ أو بعيدة، فهي كثيرةٌ ولا سيما في هذا العصر حيث لا غنى للشاعر عن الإلمام، ولو قليلاً بكثير من العلوم.

أطوار شعر المولِّدين ومزاياه

كانت مخالطة المسلمين للأعاجم في عصر العباسيين على خلاف ما كانت عليه لعهد الدولة الأموية، فإن الأمويين كانوا لأغراضٍ ليس من شأننا البحث فيها يترفعون في أغلب الأمور عن الأجانب، فظلوا على قريتهم منهم بعيدين عنهم بالمجالسة والمحادثة والامتزاج، فخفي عنهم كثيرٌ مما كانت معرفته غير ضارة، وأما العباسيون فاختلفوا

بالأعاجم اختلاطاً مكنهم من استطلاع خفياهم وقربوا إليهم كل ذي جاهٍ وسياسةٍ، وعلمٍ وأدبٍ، وأجزلوا العطاء لكل عضوٍ مفيدٍ في ذلك الملك الواسع سواءً كان عربياً مسلماً أو يهودياً عبرانياً أو نصرانياً سريانياً أو فارسياً أو يونانياً، فأحاطوا بكل معارف زمانهم وألف أبناء دولتهم أنواع معيشة البشر، فاتسعت على أثر ذلك معارف الشعراء وتفننوا في صناعتهم على وجوه لا عهد للمتقدمين بها.

وهذا كان شأنهم في جميع البلاد التي ملكوها، والشعراء على مذهب ملوكهم يقتبسون من كل وادٍ ونادٍ، فعمت النهضة الشعرية وكانوا جميعاً فيها سواء.

ولكن زمن تلك النهضة طال كثيراً واتسع نطاقها اتساعاً عظيماً، فظهر فرقٌ في منظوم الشعراء بالنسبة إلى الزمان والمكان، وهو ما نريد إجمال الإشارة إليه.

على أنه لا يجب أن يؤخذ من قولنا أن المولدين يُقسمون بالنظر إلى الأزمنة والأمكنة إلى طبقاتٍ تنفرد كلٌ منها بمزية خاصة بها إذ قد ترى شاعرين بينهما قرون، ونهجهما واحد، وأساليبهما متفقة، ومعانيهما متقاربة، وقد نشأ كلٌ منهما في بلاد، فإنما نحن ناظرون إذن إلى النزعة الغالبة في كل عصرٍ وقُطرٍ.

فإذا أمعنت في شعر المولدين بالنظر إلى الزمان رأيت شعار المتقدمين منهم الرقة والرواء، وظل هذا شأنهم حتى أواخر القرن الثالث

للهجرة أي: نحو ١٧٠ عامًا، والباعث الأعظم لذلك ولوجههم في ترف العيش، ونضارة الحضارة، وهم وإن ظلّ كثيرون منهم في عيشٍ خشن إلا أن من لم يتمتع منهم فقد نظر وخبر، وقد يَفْضُل وصف الرقيب وصف الحبيب، وأوّل من مهّد ذلك السبيل مخضرمو الدولتين؛ كبشّار بن بُرد، ومروان بن أبي حفصة، وتابعهم خلفاؤهم كأبي العتاهية وأبي نواس والبحري، وما زالوا على ذلك حتى قام ابن المعتز، وابن الروي، وبهما خُتم ذلك العصر الزهّي عصر الرونق والبهاء، فإذا قرأت شعر جميع من تقدم ذكره رأيتَه يسيل عذوبةً وسلاسةً، وقد تميز برقته وانسجامه.

وتبعثهم الطبقة الثانية من المولدين، وكانت أدمغة الشعراء قد امتلأت حكمةً وفلسفةً مما نضج من ثمار العلم، فأوغلوا في المعاني الدقيقة وتطلبوا الأفكار السامية وصاغوا للتشبيه قوالب شائقة من الكناية والاستعارة، فوسعوا أبواب المجاز وأخذوا بناصية الخيال فقربوه من الحقيقة، وشعارهم في كل ذلك سمو التصور، وكان هذا ديدنهم من المتنبي وأبي فراس الحمداني وابن هاني، وأبي العلاء المعري، وأبي إسحاق الصابي، وأبي إسحاق البستي، والشريف الرضي حتى الخفاجي، وابن زيدون الأندلسي في مدة زهاء ١٧٠ عامًا كمدة الطبقة الأولى.

ثم أتت الطبقة الثالثة في أواخر القرن الخامس للهجرة، والشعر بحكم البناء موطن الأركان والعلوم البيانية مفصلة القواعد، فعمدوا إلى تنميق الشعر والتفنن بزخرفة وتوشيته بأنواع البديع، والمجيدون منهم

يحكمون رصف المعنى الدقيق باللفظ الرشيق، ولكن بعضهم أفسدوا بهجة المعاني بتوخي التجنيس، ومع هذا فقد كان منهم نوابغ لا يكادون ينحطون منزلةً عن تقدمهم كالطغراني (وهو متوسط بين هذي الطبقة والطبقة الثانية) وابن خفاجة الأندلسي وابن قلاقس الإسكندري، وابن النبيه المصري، وابن الفارض، والبهاء زهير المصري، والشاب الظريف، وصفي الدين الحلبي خاتمهم، وطالت مدة هذه الطبقة من المولدين نحو ٢٦٠ عامًا أي: إلى حوالي سنة ٧٣٠هـ، فكان عصر المولدين جميعًا ستمئة عام.

وأما بالنظر إلى المكان فأبناء البلاد العربية ظلوا جانحين إلى البساطة الجاهلية؛ لانطباع تلك الأخلاق في نفوسهم، وبرز المصريون في الرقة والعدوبة لدماثة في خلقهم، ورقة في طبعهم، وغلبت البلاغة والمتانة في العراقيين لشدة في فطرتهم وملابستهم لأهل البادية، ومال الأندلسيون وسائر أهل المغرب إلى التفنن بأساليب الشعر، ووصف الغياض والرياض لنضارة أرضهم، ووقف السوريون بين المصريين والعراقيين، فجمعوا بين رقة الأولين وبلاغة الآخرين، ولكنهم لم يبلغوا مبلغ فريق منهم في إحكام صنعته.

طبقة المحدثين أو المتأخرين

ليس في عصر المتأخرين ما يستوقف النظر، فهو عصر الانحطاط والتقليد فإن الدول العربية كانت قد دالت، وتغلب الأعاجم

على ممالك الإسلام، ولولا القرآن لبادت لغة قريش المضرية كما تقدم وبانت في عداد اللغات الميتة، وقامت في إثرها لغات لا يتفاهم أصحابها، والعباسيون وهم أصحاب ذلك اللواء الخافق بين المشرقين كانوا قد هبطوا من سماء مجدهم لقرونٍ خلت، ولكن أسس العلم أرسخ من أسس الدول، فالدول تدول وملكها يزول، وتبقى معالم حضارتها وعرفانها، ولولا ذلك لانطفأت جذوة النهضة العباسية في أواخر القرن الثالث للهجرة حين لم يبق للعباسيين من حقيقة السلطان إلا طيف خيال، وكان شاعرهم ابن المعتز آخر من أسلم تلك الراية البيضاء بيد الجالاد الذي تولّى قتله، ولكن قاهر الدول ومبيدها يذل دون إبادة معارفها؛ ولهذا تعاقبت الأحقاب وشرارة النهضة العباسية لاهبة تتضرم في أفئدة الشعراء تضرمها في عقول العلماء، ولم تخمد إلا بعد أن بلغت الحد المقضي لكل مفطورٍ ومنطور.

ومع هذا فإن تلك الجذوة ما زالت ترسل قبساً تذكو به قريحة شاعرٍ حيناً بعد حين حتى لا تخلو الأرض في زمنٍ من شعراء العرب، وحسبك النظر إلى ابن نباتة المصري في القرن الثامن، وابن حجر العسقلاني في القرن التاسع، وعبد الباقي المعروف عند الترك بملك شعراء الروم في القرن العاشر، وابن معنوق الشهاب الموسوي في القرن الحادي عشر، وعبد الغني النابلسي في القرن الثاني عشر.

ويقال مع ذلك إجمالاً أن الانحطاط في الشعر العربي أخذ يظهر قبل انقضاء عصر المولدين، وبات التقليد شعار المتأخرين، وحذا لو كان تقليدًا صحيحًا بل هو شؤّه وجه الشعر، ولا سيما في القرنين الأخيرين إذ بات شاعرنا، ولا إمام له بأحوال عصره فضلًا عن أحوال المتقدمين يتحدّى امرأ القيس، فيضرب في البوادي والقفار، وهو في بيتٍ موصل الأبواب، ويسوق الظعن وهو على متن قطار البخار، ويطرنم ببهجة الرقمتين وينيلهما من كرمه صفات جنة عدن، ولا يدري أنهما مطمئنان من الأرض في بادية قفرة تقتله أشعة الشمس إذا وقف إليهما ساعة واحدة، وهو لو فطن ينتقل في موطنه في روضٍ أريض، وجناتٍ تجري من تحتها الأنهار، حتى لو أردت أن تستدل من شعرهم على شيء من حالة مجتمعهم لأعياك ذلك، وغاية ما يرسم في ذهنك صورًا مشوّهة لا يُعلم لها رأسٌ من ذيل.

ولما كانت الكنانة فارغة من سهام المعاني عمدوا إلى قذف الألفاظ مزوّقة بحليةٍ يتسترون من ورائها وما هم بمتسترين، حتى كأن قداماء العروضيين كانوا ينظرون إليهم عندما وضعوا للشعر ذلك التعريف الناقص، فقالوا: «هو الكلام المقفّى الموزون» ولم يزيدوا.

الشعر العصري

لم يبق للشعر بعد تلك الرقدة الطويلة إلا أن يهبَّ هبةً جديدة بطورٍ جديد، وروح حية، وفي الأمة والحمد لله بقيةً متأهبةً لولوج ذلك

الباب الرحب، وهي شاغرة منذ نصف قرن بوجوب مجارة الزمان، وعالمة أن التصدي لمصادمة تيار الترقى غرور عاقبته الزيف والخذلان؛ ولهذا شرع النوايح من أبناء هذا العصر في تعديل الخطأ، فكانت لهم اليد البيضاء، وأسفر جهدهم عن إبراز الشعر الرقيق بالثوب الأنيق، وما هو إلا قبس فاض من غرة هلال سيتكامل بفضلهم بدرًا إن شاء الله.

الملاحم أو منظومات الشعر القصصي

بحث العرب في أبواب الشعر وضروبه وفنونه، ودعوها جميعًا بأسماء تنطبق عليها، ولكنه لم يتصل بنا أنهم وضعوا اسمًا لمنظومات الشعر القصصي من نظائر الإلياذة إلا أن يكون ذلك ما استحدثه أهل المغرب، وسمّاه بعضهم بالملاحم، وهو عندهم كالملاعب بالشعر العامي ما تضمن من المنظوم أحوال أمة أو قوم وفُصلت فيه وقائع الحروب والتاريخ، ولعلمهم أخذوا ذلك من التحام القتال، والملحمة في اللغة: الواقعة العظيمة، وربما قصد بها الإحكام من لَحَم الأمر بمعنى: أحكمه؛ لأن من ألقاب صاحب الشريعة الإسلامية «نبي الملحمة» وقالوا في تفسيرها: «نبي القتال أو نبي الصلاح، وتأليف الناس كأنه يؤلف أمر الأمة.

ويقول العرب أيضًا: ألحم فلان الشعر، وحاكه بمعنى: نظمه تشبيهًا لبית الشعر ببית الشعر، وبالثوب المحك كأنهم يريدون الإشارة

إلى تأليف أجزائه بإحكام اللّحمة بينها، ومنه الملحمت لمختاراتٍ سيعٍ من قصائدهم سيأتي ذكرها.

ومهما يكن من النسبة المعنوية بين لفظ المُلحمت والشعر القصصي، فالنسبة بينه وبين الملاحم أظهر؛ ولهذا سمّينا إلياذة هوميروس وأشباهاها بالملاحم تفادياً من استحداث لفظة لم يسبق لها استعمال بين الكتاب.

ضروب الشعر عند الإفرنج

قلنا: أن العرب قسموا الشعر من حيث المعنى إلى أبوابٍ كالغزل والمدح، والهجاء والرثاء إلى آخر ما هنالك من أبواب الشعر، وهو معلومٌ أن في شعر جميع الأمم شيئاً من هذه المعاني. ولكن الإفرنج ينهجون في تقسيم أبواب الشعر نهجاً آخر يجارون فيه العرب بالبحث في أكثر هذه الأبواب وغيرها مما لم يذكره العرب، ويخالفونهم بالرجوع إلى حصرها جميعاً في باين: الشعر القصصي، وهو الذي عبّرنا عن منظوماته بالملاحم والشعر الموسيقي، وهو ما نُعبر عن منظوماته بالقصائد أو الأغاني، ويسمون الأول «إبيك» والثاني «ليريك». وكلا الفظين يونانيُّ الأصل، فالأول من إيوس (επος) بمعنى الغناء أو (επο) أپو بمعنى الكلام، والثاني من ليرا (lyra) بمعنى القيثارة أو الكنّارة أو آلة طرب أخرى تشبه العود المعروف عندنا، ومعناها يحصر المعنى واحد كما ترى إذ يُرجع بهما في الأصل إلى المقصود من الشعر

في أقدم أزمانه، وهو التغني بالحنانه والتطرب بمعانيه والتلهي بإنشاده، ولكنهم فصلوا في الاصطلاح بين البابين، وجعلوا لكلٍ منهما مزايا خاصة به، وضمَّنوهما سائر أنواع الشعر، ذلك أنه لا بد في الشعر من أن يُرمى به إلى أحد أمرين؛ إما بسط أحوال العالم بمظاهره البارزة، وإما التعبير عن شعائر النفس الخافية عن الأبصار، وإبراز التصورات الكامنة في الصدور، ومُعظم ما يقال من الشعر لا يخرج عن إحدى هاتين الحالتين، فالشاعر القصصي بهذا الاعتبار يعبر عن شعائر غيره، والشاعر الموسيقي إنما يعبر عن شعائر نفسه.

فإذا نظرنا على هذا القياس إلى الأصل الشعري في بعض أسفار التوراة واتخذناها مثالاً جاز لنا أن نُلحق سفر أيوب بالشعر القصصي، ونعتبره ملحمةً من صفوة الملاحم، ونُلحق الزبور ونشيد الأنشاد بالشعر الموسيقي، وهما من أبدع الأغاني والقصائد التي نطق بها البشر.

وقد ألحقوا بهذين البابين باباً ثالثاً دعوه «دراما» من لفظة دراما اليونانية (δραμα) بمعنى العمل أو الصنعة، وهو ما نستحسن التعبير عنه بالتمثيلي؛ لأنهم يقصدون به غالباً منظوم الروايات التمثيلية، وهو متوسط بين القسمين السابقين، ولكل من هذه الأقسام الثلاثة فروعٌ لا محلٌّ لإيرادها.

إلا أنه لا يترتب على ما تقدّم أن منظومات الشعراء يجب أن ينتمي كلٌّ منها إلى قسمٍ من هذه الأقسام، ويلصق به غير متجاوزٍ إلى ما

سواه، بل قد يكثر التداخل بينها، ولا سيما في منظوم البلغاء، فإلياذة هوميروس ملحمة من الشعر القصصي بالنظر إلى ما تضمنته من سرد الوقائع والأخبار، وما تجاوزت به إلى ما وراء الطبيعة من شئون الآلهة وملاستهم للبشر في أعمالهم، وإيضاح حقائق الفضائل والردائل بطريق الإخبار، ولكن فيها قطعاً من أبداع ما قيل في الشعر الموسيقي، وحسبك منها رثاء آخيل لفطرقل، وتفجعه عليه في مواضع مختلفة منها، وأن وداع هكتور لزوجته في النشيد السادس ما زال على قدمه المثل الذي ينسج على منواله أرباب الشعر التمثيلي، وليس بين المتقدمين ولا المتأخرين من أدرك شأوه، وأجاد إجادته فيه مع كل ما أحسن راسين الفرنسي في روايته «أندروماخ».

ويقارب هوميروس في الضرب على جميع الأوتار شكسبير الإنكليزي، فالمشهور عنه أنه من أنصار الشعر التمثيلي، ومع هذا فإذا أخذت مثلاً رواية «هملت» رأيت فيها من معاني القصائد والملاحم ما يوقفك دهشة وإعجاباً، وقل مثل ذلك في رواية «السيد» لكرني الفرنسي «وأندروماخ» السالفة الذكر، وفوست لغوته الألماني، وأشباه ذلك من منظوم نوابغ الإيطاليين وغيرهم.

وهو معلومٌ أيضاً أن الشائع عن العرب بين الإفرنج أنهم لم يضربوا إلا على وتر الشعر الموسيقي، ولم يتخطوا في النظم إلى ما وراء

القصائد والأغاني، ولكنه قولٌ مبالغ فيه بل زعمٌ موهومٌ فيه كما سنبين في باب «ملاحم العرب».

ملاحم الأعاجم

قد يتبادر إلى الذهن أن رسم الظواهر أقرب إلى الفطرة وأيسر تناولاً من رسم الخوافي الكامنة في النفس؛ ولهذا كان الشعر القصصي في أكثر الملل متقدماً على الشعر الموسيقي وفنونه، والصواب أن الأغاني والقصائد أقدم من الملاحم والملاحم أقدم من التمثيليات لأن أقدم ما نطق به الإنسان من الشعر إنما كان أغنية يتطرب بها، أو أنشودة تقذفها النفس إشعاراً بعاطفة من نحو حب ودعاء وغيظ ورجاء، أو ملهاة ينشدها الكبير ليتلهى بها الصغير، فهذه القطع الصغيرة تقدمت بلا ريب على المنظومات الطويلة من أشباه الإلياذة إذ لا تتوفر معدات نظم الملاحم إلا في الشعوب الراقية بعد أن تألف نظم المقاطيع القصيرة مئات من الأعوام، ولكن قد يمكن أن يكون ارتقاء الشعر القصصي متقدماً على ارتقاء الشعر الموسيقي، وأن تقدم الموسيقى بالوضع كما أن ارتقاء بلاغة الشعر متقدمة على بلاغة النثر، وإن كان النثر متقدماً بالوضع. أما التمثيليات فهي من نتاج الملاحم فجاءت متأخرة عنها بالطبع؛ لأنه كان أيسر على الشاعر في غابر الأزمان أن ينطق بلسان جميع ممثليه كما هي الحال في الملاحم من أن يجعل كلاً منهم ينطق بلسان نفسه في محل مُعدّ لذلك كما هو الواقع في التمثيليات.

والشعراء في جميع الملل يجارون المؤرخين في تدوين الوقائع، وهم وإن قصرُوا عن المؤرخين في تعيين المواقيت وتفصيل الحوادث إلا أنهم يسبقونهم في تعريف الشعائر والأخلاق، ووصف أحوال المجتمع البشري وتبيان علاقة الخالق بالمخلوق؛ لهذا لم يكن في الأمم قديمها وحديثها أُمَّةٌ أدركت شأواً مذكوراً في الحضارة إلا وقام نوابغ الشعر القصصي ييسطون أحوالها، ويجيدون الرسم بنافذ الكلام بما يفوق إجادته بقلم الرسّام.

فلقدماء المصريين شعراً كثير يستدلُّ عليه من عاديّاتهم، وإن كان الزمان قد أباد ملاحمهم الطويلة، فإن في ما وجد من القطع المتبعثرة بين الآثار ما يدلُّ على أنها كانت ذات شأنٍ خطير، وحسبك منها شعر نبتاهور.

وللهنود ملاحم بقي بعضها ولا تزال «المهابهارتا» آية في بابها وقد تُرجمت منها قطعٌ كبيرة إلى لغات الإفرنج.

وللعبرانيين ملاحم لا يزال بعضها في التوراة، ولقدماء الجرمانيين والسكنديناقيين ملاحم كانوا يحلّونها محلاً رفيعاً.

واليونان كانوا منذ القدم مشغفين بالشعر القصصي، ولهم فيه منظوماتٌ كثيرة قبل ملحمتي هوميروس أشرنا إليها في موضعها.

والرومان ساروا على إثر اليونان، فأبدعوا في هذا الفن وقد أشرنا مرارًا إلى إنيادة فرجيليوس.

وقام الإفرنج على أثار تينك الدولتين، وتغنّوا قرونًا بمنظومات رولان في فرنسا، وهيلدبراند ونيولنغن في ألمانيا إلى أن قام نوابغ المتأخرين كدنتي الإيطالي، وملثن الإنكليزي ومن حذا حذوهما.

ثم إذا انشينا إلى ملل الإسلام من غير العرب رأينا أنها ليست بالأقل حظًا من هذا الفن، وهذه شهنامة الفردوسي في أخبار ملوك العجم مما يعجب به ويُحسد عليه، وقد ذكرناها في غير موضع من هذا الكتاب.

وإن للفرس اليد الطولى في هذا الفن، ولهم فيه غير ملحمة الفردوسي منظومات كثيرة كشهنامة القاسمي الكونابادي التي نظم فيها وقائع الشاه إسماعيل وأهداها إلى الشاه طهماسب، وجعلها نظيرةً لتيمورنامة الهاتفي، ومثلها شاهية مجد الدين البابري النسائي في وقعة الخوارزمي.

وللترك أيضًا يدٌ في الشعر القصصي كمنظومة شهودي في أربعة آلاف بيت، وإن أغرب ما روي في هذا الباب ما نقل عن شهنامة الشاعر التركي الملقب بالفردوسي الطويل، قالوا: إنه نظمها في مليون وستمئة ألف بيت، وكتبها في ثلاثمئة وثلاثين مجلدًا فلما عُرضت على السلطان

بازيد العثماني أمر بانتخاب ثمانين مجلدًا، وإحراق الباقي فتألم المؤلف، وترك بلاد الروم وذهب إلى خراسان، فمات فيها كمدًا.^{٩٥}

ملاحم العرب

إذا قلنا: إن العرب نظموا الملاحم، فلسنا بزاعمين أن في لغتهم شيئًا يماثل إلياذة هوميروس، وشهنامه الفردوسي، وفردوس ملتن بالشعر الحي، ولكن إذا صحت الأدلة المؤدية إلى أن أيوب كان عربيًا، ولا أخالها بعيدة الاحتمال كان ذلك السفر البديع المحفوظ في التوراة ملحمةً عربية الأصل متقدمةً بوضعها على ملاحم اليونان والرومان.^{٩٦}

ولكن الأخذ بهذا القول ليس مما يضم دُرّة يتيمة إلى خزائن الأدب العربية، فيزيد في مفاخر العرب أو يفيد لغتهم فائدة تذكر لهم وتؤثر عنهم، فالأصل العربي في عالم الغيب وهو على فرض المحال لو وجد لما كان فيه من عربية مُضَرَّ شيءٍ يعوّل عليه، ولما وُجد بين العرب من يفكُّ منه عبارةً واحدة؛ لاختلاف أوضاع اللغة ومبانيها في ذلك العهد البعيد، فهي بهذا الاعتبار آرامية أو عربيةً أخرى أقرب إلى عبرية التوراة منها إلى عربية قريش.

ومن يعلم بالنظر إلى أيوب نفسه إلى أي فريق من القبائل كان ينتمي، وما كانت حالة العرب والعربية في أيامه، ومن كتب أو استكتب ذلك السفر من قومه أو غير قومه، والحاصل أن إلماينا إلى ذلك السفر إنما هو قبيل التذكرة والحرص على الإشارة إلى أمرٍ خطير.

ثم إذا رجعنا إلى الشعر القديم المنسوب إلى قدماء العرب في اليمن ونجد والحجاز، فلا نلبث أن نتحقق أنه من النظم الموضوع حديثاً لغرضٍ كما أوضحنا، وزد على هذا أنه لا يربو على عددٍ معلوم من المقاطيع، وليست جميعها على شيءٍ من الشأن في الشعر قصصياً كان أو موسيقياً، وأيضاً فلا فائدة من الإلماع إلى ما سبق من النظم في اللغة اليمنية الحميرية التي هُذِّبت وكتبت قبل لغة قريش بقرون، فالبحث إذن يجب أن يكون في الشعر الباقي باللغة العربية المضربة.

نظرة في الجاهليتين جاهلية العرب وجاهلية اليونان

إن أقدم ما اتصل بنا من الشعر الجاهلي الجلي مقولٌ معظمه في مثل المواقف التي قال فيها هوميروس إلياذته، فهناك شياطين وجنّيات تلقن الشعراء فصيح الكلام تلقين القيان لهوميروس، وفي مثل ذلك يقول الأعشى:

دعوت خليلي مسحلاً ودعوا له جهنّام جدعاً للهجين المذمّم

وجهنام تابعة عمرو بن قطن، ولكل من فحول شعراء الجاهلية جنّة أو شيطان يلقنه الشعر، وهناك ملوك كبار على قبائل صغار تتكاثف وتتخالف؛ دفعاً لعار وأخذاً لثأر، فتثور حرب البسوس بين بكر وتغلب، وتتلاحم عبس وفرارة على إثر سباق داحس والغبراء، ويكادون يفنون بعضهم بعضاً كما كاد يفنى الطرواد واليونان وحلفاؤهم، وهناك أيام تتصاول وتتجاول فيها قبائل منهم، فيشتهر أمرها ويذيع ذكرها كيوم الكلاب، ويوم الجفار، ويوم النصار ويتغنى الشعراء بحديثها تغني هوميروس بيوم القنطرة ويوم الأيتول والكوريت، وما أشبه ذلك مما يفوق الحصر.

وإذا نظرت إلى الأشخاص ذهشت لما يبدو لك من الشبه في الأحوال والأقوال، فمن بطلٍ كعنتره ترتجف لصوته القبائل ارتجافها لصوت آخيل يُغاظ مثله، فيعتزل القتال فينكل العدو بقومه حتى يهب من عزلته، فيفعل فعل آخيل في عودته، ومن خطيبٍ كنسطور يقف واعظاً

موقف قس بن ساعدة، فيرشد ويرغب ويرهب، ومن أخوة وأخوات، وأزواج وزوجات، وبنين وبنات، وآباء وأمهات يقولون ويفعلون في جاهلية العرب نظير قولهم وفعلهم في جاهلية اليونان مما ستراه بالمقابلة في تعاليق الشرح، ولو اتسع لنا المقام لما عدنا سبيلاً إلى إبراز نظير لكل من رجال الإلياذة ونسائها.

وإذا حوّلت نظرك إلى اللباس والرياش وطرق المعاش رأيت مع سبق اليونان في حلبة الحضارة مشاكلةً باهرة في حالة المعيشة الفطرية، والسذاجة الخلقية، والحرية الجاهلية: سراً كأكسيل يتسابقون إلى قرى الأضياف كحاتم الطائي، وبينون بيوتهم على مضرب السبل في قارعة الطريق، وأمراء كآخيل وفطرقل يأمرّون وبنهون، ولديهم الحشم والجوار، ومع هذا فهم بيدهم يتولّون توزيع الزاد على الأضياف، وينحرون الذبيحة بمُداهم على نحو ما نحر الأمير الكندي ناقته للعذارى، وأبناء ملوك كولد فريام لا تعيهم مع غناهم رعاية المواشي، وتربية الأنعام كما قال خالد بن الوليد لماهان الأرمني: «وأما ما ذكرت من فقرنا ورعينا الإبل والشاة، فما منا من لم يرع، وأكثرنا رعاة ومن رعى منا كان له الفضل على من لم يرع».^{٩٧} وسبايا تشرى وتباع، وأسرى تُقتل وتفتدى وتسرح بإحسان إلى غير ذلك مما لا نهاية له وسترى منه جانباً غير يسير مفصلاً بالمقابلة في موضعه.

ملاحم الجاهليين

ليس في وقائع عرب الجاهلية وأيامهم ما يضاهي خطورة وقائع الحرب الطروادية، ولكن تلك الوقائع لا تخلو بنفسها من شأن نسبي مذكور، فلا بد إذن من اتخاذ إحداها مثالاً للمقابلة، وإن أوّل ما يستلفت الأنظار حرب البسوس.

تلك حربٌ تناقل العرب أخبارها، وتناشدوا شعرها على مرّ القرون حتى أيامنا هذه، وصاغوها بقوالب شتى لا يصلح قالبٌ منها لصوغ الملاحم التامة كالإلياذة، ومع هذا فإن جميع ما قيل فيها من الكلام المنظوم أقرب نسبة إلى الشعر القصصي منه إلى الموسيقى، فكل قصيدة منها قطعة من ملحمة، ولكن تلك القطع غير ملتزمة؛ لفقدان اللحمة بينها فهي كالحجارة المنحوتة قد أحكمت صنعتها، وبقيت ملقاة في أرضها غير مرصوفة بالبناء، ثم إذا نظرت إلى أشهر الرجال والنساء فيها رأيتهم جميعهم شعراء، فكلّيب يقول الشعر، ومثله زوجته جلييلة وأخوه مهلهل، وكذلك مرّة شاعر، وابنه حساس شاعر، وكلّ ذي شأن في القصة من غريب وقريب شاعر كالحارث بن عباد، وجحدَر بن ضبيعة، فمجموع شعرهم أشبه من هذه الوجه بالشعر التمثيلي؛ لأن لكل حادثة شاعراً ينطق بها بخلاف نهج شعر الملاحم كالإلياذة إذ ترى هوميروس فيها ينطق بلسان الجميع.

وقد يخال الباحث في هذا التقارب، ثم ذلك التباعد بين منظوم الجاهليتين أنه ربما كانت قصة حرب البسوس ملحمة في أصلها، ففقدت منها أجزاء أدت إلى تفرق ما بقي، ولكنه يتضح لدى الإمعان أن ذلك لم يكن، وإن العرب في الجاهلية لم ينظموا الملاحم الطويلة المحكمة العرى مع توقُّد القرائح، وتوفر معدات الفصاحة في اللغة؛ لأن ذلك النسق في النظم لم يكن في طبعهم فلم يتخطَّوا إلى ما وراء الطبيعة، وكانوا مع عبادة الأصنام يميلون إلى التوحيد، وكان التسليم للأحكام العلوية من سندهم قبل الإسلام، فلم يوغلوا في التخيلات الشعرية إلى النظر في أحوال الآلهة وما يترتب على ذلك من تفرُّع البحث الواحد إلى أبحاث متعددة على ما هو شأن الأمم الآرية، وكلُّ ما يرى من الشبه بين أحوالهم وأحوال قدماء اليونان إنما هو من المظاهر التي ألفت بينها طرق المعيشة الجاهلية، وإذا نظرت إلى حالة اليونان بما كانت عليه مع تلك الخشونة من الانتظام والدربة رأيت أنهم كانوا أيام حرب طروادة أقرب شبهًا بالعرب في أيام الخلفاء الراشدين، ثم كانوا في أيام هوميروس أي في زمن نظم الإلياذة قد بلغوا من الحضارة مبلغًا لم يكن للعرب في جاهليتهم منه إلا النزر اليسير، فلم يسع أبناء الجاهلية أن يتجاوزوا بنظمهم أحوال فطرتهم وطرق معاشهم، فكانوا ينتقلون بالشعر من باب إلى آخر انتقالهم من حيٍّ إلى حيٍّ يجيدون في كل ما

يقولون، ولكنهم لا يطيلون المقام، فلا يشيدون المنازل الفسيحة المشيدة الأركان.

وليس من اللازم أن يكون شعر جميع الأمم على نسق واحد بل ربما كان هذا التباين من الأسباب المؤدية إلى إبراز أنواع الجمال كافة على اختلاف صوره وأشكاله، فالشاعر القصصي من اليونان وخلفائهم كان إذا قص حادثة رواها كلها شعراً، وأما الشاعر العربي فينشد الشعر حيث يحسن وقعه، وأكثر ما يكون ذلك في الوصف والخطاب والجواب، ويقول الباقي نثراً، وفي هذه الطريقة نوعٌ من التفكيه المأنوس، وهي طريقة شعراء البادية حتى يومنا، جلستُ مرةً إلى حلقة شاعر منهم ينشد على نغم ربابته، فشرع في مقدمةٍ نثرية قصيرة حتى بلغ إلى وصف حسناء، فجعل يتغنى بالشعر على نغم آلة الطرب، فلما استتم قصيدته رجع إلى الكلام النثري بضع دقائق حتى بلغ وصف وقعة بين قبيلتين، فرجع إلى الإنشاد وهكذا ظل يتراوح قوله بين نثر وشعر نحو ثلاث ساعات، وذلك أيضاً شأن القصّاصين في كثير من الحواضر العربية.

فلا سبيل إذن للزعم بوجود ملاحم لعرب الجاهلية على نحو ما يراد منها بعرف الإفرنج، ولكن للجاهليين نوعاً آخر من الشعر القصصي مما يعز وجوده في سائر اللغات، وذلك في الملاحم القصيرة المقولة في حوادث مخصوصة، فجميع شعراء الجاهلية وبعض المخضرمين قد سلكوا هذا المسلك وأجادوا فيه، ولو تصفحت كتاب الأغاني،

ومفضليات الضبي، وأمثالهما من كتب الأدب والشعر رأيتها ملأى بهذه المنظومات الغراء، وحسبنا بياناً لذلك أن نلقي في سبيلنا نظرةً على جمهرة أشعار العرب.

جمهرة أشعار العرب

هو كتاب ألفه أبو زيد محمد بن أبي الخطّاب القرشي المتوفى سنة ١٧٠ للهجرة، وشرح فيه المنظومات التي اختارها العرب من نفائس شعر الجاهليين والمخضرمين، وجعلوها سبع رتبٍ في كلٍ منها سبع منظومات، وقد أوردها المؤلّف ببعض خلاف في الترتيب عن المتواتر المشهور، فجعل النابغة والأعشى بين أصحاب المعلقات، وحذف معلقة الحارث الشكري فكانت المعلقات ثمانى والمجمهرات ستاً، وهي في ما يلي مرتبة على ما هو شائع بين كتّاب الأدب والتاريخ.

المعلقات ودُعيت كذلك أحياناً من قولهم أنها كانت معلقة بأركان البيت، وأصحابها: امرؤ القيس، وزهير بن أبي سلمى، والحارث بن حلزة، وليد بن ربيعة، وعمرو بن كلثوم، وطرفة بن العبد، وعنترة العبسي. والمجمهرات ولعلها دُعيت كذلك تشبيهاً لها بالناقاة المجهرة، وهي في اللغة المتداخلة الخلق كأنها جمهور الرمل أي: إنها عالية الطبقة محكمة السبك، وأصحابها: النابغة الذبياني، وعُبيد بن الأبرص، وعديّ بن زيد، وبشر بن أبي خازم، وأمّية بن أبي الصلت، وخدّاش بن زهير، والنّمر بن تَوَلَب.

والمُنْتَقِيَات أَي: المختارات، وأصحابها: المسيّب بن علس،
والمرفّش، والمتلمّس، وعروة بن الورد، ومهلهل بن ربيعة، ودريد بن
الصمة، والمتنخل بن عويمر الهذلي.

والمُذَهَّبَات أَي: المكتوبة بماء الذهب، وأصحابها: حسان بن
ثابت الأنصاري، وعبد الله بن رواحة، ومالك بن عجلان، وقيس بن
الخطيم الأوسي، وأحيحة بن الجلاح، وأبو قيس بن الأسلت، وعمرو بن
امرئ القيس.

والمراثي: وأصحابها: أبو ذؤيب الهذلي، ومحمد بن كعب
الغنوي، وأعشى باهلة، وعلقمة بن عبدة الحميري، وأبو زُييد الطائي،
ومتمم بن نيرة، ومالك بن ريب النهشلي التميمي.

والمشوبات، وهي التي شابها الكفر والإسلام، وأصحابها: النابغة
الجعدي، وكعب بن زهير، والقطامي، والحطيئة والشمّاخ بن ضرار،
وعمر بن أحمر، وتميم بن أبي مقبل.

والمُلَحَّمَات، ولعلمهم أرادوا بهذه التسمية الإشارة إلى إحكام
نظمها، وإلحام شعرها كما تقدم، وأصحابها: الفرزدق، وجربير الخطفي،
والأخطل التغلبي، وعبيد الراعي، وذو الرّمة، والكميت، والطرمّاح بن
حكيم الطائي.

فهذه تسع وأربعون منظومة لتسعة وأربعين شاعرًا إذا تصفحتها تبينت لك في كثير منها مزايا هذه الملاحم القصيرة المختصة بلغة العرب، ولا سيما ما قيل منها في الجاهلية كالمعلقات، فإنك ترى فيهن من سرد الحوادث وتفصيل الوقائع، وتمثيل المشاهد وبداهة الفكر ما يعدُّ في أعلى طبقات الشعر القصصي، وفيهن أيضًا من بديع التصور والسذاجة، وحسن التصرف البديهي، وإجادة الرصف، وإبداع الوصف، وإحكام التشبيه ما يسمو بهنَّ إلى أرفع درجات الشعر الموسيقي، فهن بهذا المعنى قد جمعن بين محاسن الطريقتين في الشعر العربي كما جمعت إلياذة هوميروس بين أطراف المحاسن في الشعر اليوناني.

فالمعلقات إذن رأس الملاحم العربية، وأقربهن إلى منظومات الشعر القصصي على ما يراد به في العُرف معلقة الحارث بن حلزة؛ لإفاضته في وقائع بكر وتغلب، وتغنيه بفوز قومه ونكال عدوه، ومفاخر عشيرته على ما يماثل تغني هوميروس في الإلياذة، وتليها بهذا المعنى معلقة عمرو بن كلثوم ثم معلقة زهير.

ويلحق بالمعلقات باعتبار أنها ملاحم عربية مجمهرة بشر بن أبي خازم، وأمّية بن أبي الصلت، ومنتقيات مهلهل بن ربيعة، وذُرَيْد بن الصمة، والمتنخل بن عويمر، ومذهبة قيس بن الخطيم، ومشوبة النابغة الجعدي، وملحمت الفرزدق، والكميت والطرماح.

وأنت ترى أن معظم أصحاب الملاحم من الجاهليين، وإن أحسنها المعلقات وجميع أصحابها من أبناء الجاهلية، وقد عرا الشعر القصصي بعدهم ضعفٌ أَلَمعنا إليه فلا حاجة إلى التكرار.

ملاحم المولدين

إذا قصر المولّدون عن الجاهليين بالبداهة الفكرية، فقد رأيت أنهم فاقوهم بسموّ التصوّر والرقّة، وصعدوا فوقهم درجات في سلم البلاغة بفضل القرآن، ولو لم تتغير مناحي شعرهم لما تقدم بسطه من الأسباب لأبدعوا في جميع الأساليب الشعرية، ولكنهم لم يستموا الاقتباس، وإلاّ فلو استرشدوا ببعض السور القرآنية كسورة يوسف، وسورة مريم وسورة الأنبياء مما يعد نبأً نيرًا للملاحم لفاقوا الجاهليين بالشعر القصصي كما فاقوهم بالشعر الموسيقي.

ومع هذا فإن للمولدين نوعاً من الملاحم خاصاً بهم، وهو المقامات المسجّعة بما يتخللها من الشعر كمقامات الهمداني والحريري، ولكن التجرد فيها للإغراب في اللفظ يحول الفكر فيها عن التصرف بالمعنى على أن للفظ أحياناً رناتٍ مطربةً بنفسها، وهذا النوع من الإنشاء من خصائص اللغة العربية، وإن كثرة القوافي في اللغة تسوق إلى التسجيع حتى لقد يكون ذلك حيث لا مسوّغ له كالأبحاث العلمية، والتفاسير القرآنية حتى كتب التاريخ التي لا يستحسن فيها الإكثار من الشعر والسجع.

ويلحق بالمقامات القصص التي يمتزج بها الشعر والنثر كقصة
عنترة العبسي، وكثير من القصص التي تتداولها العامة في جميع البلاد
العربية.

وإن من أحسن ملاحم المولدين ملحمة نثرية جمع فيها صاحبها
شتيت المعاني، وأوغل في التصوُّر حتى سبق دنتي الشاعر الإيطالي،
وملئَن الإنكليزي إلى بعض تخيلاتهما ألا وهي رسالة الغفران لأبي العلاء
المعري، ولكن استغلاق عبارتها وفقدان الطلاوة الشعرية منها ينحطان بها
عن درجة أمثالها من ملاحم الأعاجم، وأما المنظومات الإخبارية،
والأراجيز التاريخية التي يقصد بها تدوين الأخبار، فهي كثيرة في كل
عصرٍ من عصور العرب في الشعر الفصيح والعامي، وقد باد مُعظم ما
قيل منها في الجاهلية، وهي أشبه شيء بالأراجيز العلمية، وكتب التواريخ
المسجَّعة كتاريخ العتبي، وليست في الغالب إلا سلسلة حوادث مصوغة
في قالب الشعري البسيط لا تتناول إلا القليل من بديع التصور الذي
يهيج النفس، ولا مجال فيها للخيال، ومن هذا القبيل أرجوزة ابن عبد
ربه^{٩٨} في إخبار الملك الناصر عبد الرحمن الأندلسي التي مطلعها:

سبحان من لم تحوهِ أقطارُ ولم تكن تدركه الأبصارُ
ومن عَنَت لوجهه الوجوهُ فما لَهُ نَدٌّ ولا شيءُ

فهذه وأمثالها مما لا يعد من نفائس الشعر القصصي ولا
الموسيقي.

وقد شاعت هذه الطريقة في بلاد المغرب، ونظموا فيها
الموشحات المعروفة بالملاعب بالشعر العامي وأبدعوا في بعضها إبداعاً
يكاد يلصقها بالشعر الفصيح كملعبة الكفيف المكناسي في السلطان أبي
الحسن المريني.^{٩٩}

هذا جلُّ ما يمكن إيرادَه بالإيجاز عن ملاحم العرب، وهي كما
تُرى جامعةٌ بين أعلى طبقات الشعر وأدناها.

الحقيقة والمجاز

التشبيه والكناية والاستعارة

نظر هوميروس إلى الحقائق نظرة الباحث الخبير، فتجلت له من
وراء حجاب الخيال، وأمن في أحوال الطبيعة حسيَّها ومعنويَّها، فبرزت
له بأبهى مظاهرها، فاستوحى قِيانه، فأوحى إليه وحي الآلهة للأنبياء.

عمد إلى الرسم غير متكلف ولا متأنق والصدق مرمأه، والبداهة
دليله فسلك سبيلاً عدلاً غير ذي عوج، فما تعرَّض ولا أضلته المجاهل.

رأى أن الحقيقة في غنى عن التستر والتبرُّج، فذلك يخفي
جمالها، وهذا يشوب كمالها، فأبرزها على فطرتها فإذا بها فتانةٌ للقلوب،
خلابةٌ للبصائر.

علم أن معارضة الأشباه والنظائر من مزيلات الأوهام المقربات
إلى الإفهام فأكثر من التشبيه والمقابلة حتى ألمَّ بكل أحوال البشر،

وسائر المخلوقات، وإن أحسن شيء في تشبيهاته حلولها جميعاً محلها،
فإذا تجلت له الصورة رسمها بصراحةٍ واتساقٍ غير مداجٍ، ولا محاذرٍ
فأطنب وأوجز، وصعد وهبط على ما يقتضيه الموقف.

فإذا وصف فارسين متساويين شدةً وبأساً شبههما بليثين كما قال
في هكطور وفطرقل، وهما يقتتلان حول جثة بطلٍ طروادي:
... وهكطور عن خيله نزلاً وفي طلب الجثة اقتتلا ...
كليثين بينهما ظيئةً بها فتكا فوق طود علا ...

وإذا وصفهما وقد ذلَّ أحدهما للآخر شبّه أحدهما بالليث،
والآخر بالظبي كقوله في متيلاوس وفاريس:
كاليث يضوره السغب والظبي لديه يضطرب
فعليه منقضاً يثب ولو القناصون اقتربوا
بضراء تقبل للصد

وإذا بدت له الشدة قبل النزال، وحب البروز من الاعتزال رأى
أن الجواد العتي المنقطع على مربطه أقرب إلى تلك الصفة من الليث،
فحلّه من عقاله وأجراه جري جواد امرئ القيس.

وإذا نزل به إلى ساحة القتال، فانهزمت من وجهه الأبطال عدل
عن التشبيه بالحيوان الفرد إلى ما هو أوقع في النفس، فمثّله بالسيل
الجارف.

وأبرز لك بالتشبيه الصادق جميع صفات البشر، وما يقابلها من صفات الحيوان بجميع حالاته، فنظر إلى الكبير منها والصغير، والقوي والضعيف، والوحشي والداجن، فوصف الأسود، والذئاب، والخرانيص، والمها، والطبي، والأيلة وغير ذلك مما يستدلّه الإنسان، والخيّل، والحمير، والبغال، والكلاب، والبقر، والمعز، والغنم، وغير هذا مما دخل في حظائر الناس.

وتناول الطيور من النسور والعقبان إلى البط والأوز، والرهو والغرائق، والزراير والحمام، وانعطف إلى الزحافات والدبابات، والديدان، وانتهى إلى الهوام والحشرات، فوصف الأفاعي وشبهه بالصراصر والزنابير، والنحل والذباب، وإنَّ اللَّهَ لَا يَسْتَحْيِي أَنْ يَضْرِبَ مَثَلًا مَا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا.

ولقد عابه بعض المتسرّعين على التشبيه بصغار الحيوان، ولكنك إذا نظرت إلى كل ما قال فيها علمت أنه إنما ذكر الشيء الحقيق؛ ليستخرج منه الأمر الخطير وتلك عبرة يجب أن يُنظر إليها بعين الإعظام والإكبار، فأى تشبيه لعصبة تذود عن حوضها، وتتفانى في الدفاع عن العرض والمال أوقع من قوله قول الشنفرى مشبهاً بالنحل والزنابير: مثل الزنابير ذبت عن خشرمها والنحل لا يتخلّى عن خليّته

وأي تمثيلٍ لجيشٍ كئيف يمور، وجندٍ من حول زعمائها تدور
أصحُّ من قوله قول عنترة مشبهاً بالذُّباب:

خلصوا بضفته في عدةٍ غمضت	يصلون نار انتقام داخل الكبد
مثل الذُّباب إذا حان الربيع وقد	حامت بعنةٍ راعي العنز والتَّقد
تهافتت تبتغي الألبان هاجمةً	على القصاع بلا حصر ولا عدد
وكل سيد قومٍ قام منفرداً	بهم كراعٍ بما يستاق منفرد

ثم إنه نظر إلى الطبيعة، فتناول بتشبيهاته منها كل ما يلوح
للناظر، ويروق الخاطر، فوصف النار من القبس والشرار إلى الحريق
الذي يلتهم الغاب، ويدمر المدن الكبار، ووصف الأهواء والأنواء من
النسيم العليل إلى الزوبعة، والعاصفة، والإعصار الويل، وجميع المهاب
من صبا ودبور، وجنوب وشمال، والسحب والأمطار من البخار
المتصاعد حتى الغيم المتلبد، ومن القطر إلى الغيث المدرار، والسيل
الهدَّار، وأحاط بالبروق والرعود، وظواهر الجو من قوس قزح حتى
الشهب الثواقب، وضرب في الفيافي وصعد الجبال، فمثَّل بالتشبيه
جميع ما فيها من شجر، وغاب، وصخر، وتراب، ووصف الورقة الجافة،
والشجرة الشماء، وارتقى إلى عالم الأفلاك، واتخذ ما شاء لموصوفاته من
شمسها وقمرها، وثوابتها، وسياراتها، ثم خاض عباب البحر فأخذ بناصية
حيثانه، ونيبانه، وسائر سكانه من حيوان وجان، وتلقى عجابه، واستقبل
أمواجه، ومثله صافياً وساكناً ومشتدّاً، ومربداً ومزيداً مرعداً، وجال

الأقطار وعبر الأنهار، فولج جوف الأرض فمَثَّل ما فيها، وما تحتها، وما فوقها وما يَكْنفها من ماءٍ وهواءٍ.

وَإِذْ فَرَّغَ مِنْ ذَلِكَ مَدْبُورَهُ إِلَى أَحْوَالِ الْبَشَرِ، فَأَخَذَ يَقَابِلُهَا بَعْضًا بَعْضٍ فَمَا أَلْهَاهُ الْمَلِكُ الْوَقُورُ، وَالزَّعِيمُ الْجَسُورُ عَنِ الْجَنْدِيِّ الْفَقِيرِ وَالطَّرِيدِ الْكَسِيرِ، وَمَا أَغْفَلَ عَامِلًا وَلَا صَانِعًا، وَلَا تَاجِرًا، وَلَا زَارِعًا، وَتَطَرَّقَ إِلَى الشُّتُونِ الْبَيْتِيَّةِ فَمَا غَادَرَ أَبًا، وَلَا أُمًّا، وَلَا زَوْجًا، وَلَا زَوْجَةً، وَلَا أَخًا، وَلَا أُخْتًا، وَلَا ابْنًا، وَلَا ابْنَةً، وَأَلَمَ بِكُلِّ قَرِيبٍ وَنَسِيبٍ، وَبَحَثَ فِي أَطْوَارِ الْحَيَاةِ، فَمَثَّلَ حَالَةَ الشَّيْخِ، وَالْكَهْلِ، وَالشَّابِّ وَالطِّفْلِ، وَهُوَ فِي كُلِّ ذَلِكَ مُسْتَنْفِرٌ إِلَى الْخَيْرِ مُنْفَرٌّ مِنَ الشَّرِّ يَشْتَدُّ مَوْضِعَ الشَّدَةِ، وَيَرِقُّ مَوْضِعَ الرِّقَةِ، فَيَقِفُ بِكَ تَارَةً تَرَقَّبُ الْعَوَاصِفَ وَالْأَنْوَاءَ، وَقَدْ أَكْفَهَرَ الْجَوُّ وَاضْطَرَبَ الْيَمُّ، وَمَادَتِ الْجِبَالَ، وَزَلَزَتِ الْأَرْضُ زَلْزَالَهَا، ثُمَّ يَنْشِي بِكَ طَوْرًا، وَقَدْ هَاجَ الْعَاطِفَةُ، وَاسْتَنْزَلَ الْحَنَانَ بِالتَّمَثِيلِ الْنَافِذِ، وَالتَّشْبِيهِ السَّهْلِ الْمَمْتَنِعِ، فَتَرَى وَصْفَهُ فِي مُعْظَمِ ذَلِكَ غَرِيبَ الصَّنْعَةِ قَرِيبَ التَّنَاوُلِ، فَأَيُّ وَصْفٍ لِلْأَنْدِ أَصْدَقُ مِنْ لِيَاذِ الطِّفْلِ بِأُمِّهَا إِذْ يَقُولُ:

شَهَقَتْ كَطْفَلٍ جَرَتْ تَسْرَعُ	وَمِنْ دُونِهَا أُمُّهَا تَهْرَعُ
فَتَعْلَقُ فِي ذَيْلِ أَثْوَابِهَا	وَمَقْلَتِهَا صَبَبًا تَهْمَعُ
وَتُرْسِلُ طَرْفًا بَلِيلًا إِلَيْهَا	عَسَاهُ بِذَلَّتِهَا يَشْفَعُ
وَتَجْذِبُهَا وَهِيَ ضَارِعَةٌ	لِتَحْمِلُهَا فَتَكْفُ الْبَكَ

وأي تمثيل أصدق وأرق من قوله مشبهًا موت فتى غض الإهاب
في مقتبل الشباب، وقد مال رأسه على صدره وهو يُحتضر:
فرأس الفتى لما بمجنته مني بمغفره المسرود أثقل ينحني
كزهرة خشخاش بيّان روضةٍ يثقلها طلُّ الربيع فتشي

ومن مزايا شعره أنه كان يطلق عنان التصور في التشبيه، فلا
يوقف القول إلا حيث وقف الخيال، فقد يتناول تشبيهه أبياتًا، وتندرج
فيه تشبيهات أخرى، وقد يشبه في شطر أو بعض شطر، وهذا أيضًا من
مزايا الشعر الجاهلي التي أسلفنا أنها ضعفت في المولدين، وإن أجادوا
الرسم كابن المعتز ما خلا أفرادًا قليلين تناولوا المعاني، فألمّوا بجميع
أطرافها كابن الرومي.

وكان مبغضًا للإغراب باللفظ والمعنى لا يقول إلا ما ترضاه
الخاصة وتفهمه العامة، ينتحي مجازة الفطرة وإنطاق الطبيعة يسعى إلى
الحقيقة، ولا يتوخى المجاز، فلا يتطلبه في شعره، ولا يتجنبه إذا عبّر عن
فكره؛ ولهذا كان كالجاهليين من العرب كثير التشبيه قليل الكنايات
والاستعارات لا يأتي المجاز إلا مرسلاً، فجاء جميع ما ورد منه في شعره
آية في بابه على قلته كقوله: وأغمض عينيه ستر المنون، وقوله: أو تفغر
الحرب المهدمة الفما. وأمثال ذلك من الاستعارات البسيطة السهلة.

البديهيّات

أما بديهيّاته فحدث عنها ولا حرج، فلقد تراه يخوض بحر المعاني، فينثر ما النقط منها من أبكار الأفكار، ثم يلفت يمينًا وشمالًا فيدرك بعين بصيرته ما طرق فكر سامعيه، فمدُّ بصره إلى مخيلة ذوي الألباب منهم، ويستخرج ما ارتسم في أذهانهم بسياق الحديث فيعبر عنه ببداهة ترتاح إليها النفس ويطمئن الخاطر، فإذا أتى مثلاً على وصف وقعة التحم فيها القتال، وتلاحمت الرجال وتعالى الصياح، وتألّق السلاح علم أنه يخيل للسامع شيء من البديهيّات المطروقة فقال له:

والأرض تحت الرّجل والعجل مادت لثقله هاته الملل

أو قال:

وكان السهول طارت شرارًا بمسير الإغريق فوق السهول

أو قال:

وفوق الصدور الطامحات تألّقت صوارمهم والسمر أي تألّق

وأمثال ذلك من المعاني التي لا يحتاج فيها إلى شحذ ذهن وإعمال فكرة، وهي مع هذا ليست مما يستهان فللمعنى البديهي إذا حلّ محله خف على الطبع، وقد يؤثر بحسن وقعه على كثرته تأثير المعاني المبتكرة على قلتها.

النقل والسرقة وتوارد الخاطر

يسوقنا واجب الاستطراد في هذا البحث إلى مؤاخذه بعض الباحثين في الشعر العربي إذ يضعون البديهيّات موضع المبتكرات، فينكرون على كل شاعر متأخر أن ينتحل معنى سبق إليه، فيخلطون بين السرقة وتوارد الخاطر، فلهذا لا نرى رأي صاحب «الإبانة عن سرقات المتنبي» بقوله: إن ابن الرومي، وأبا الهندي، ومحمد بن هاشم العاري، والمتنبي تناقلوا بعض عن بعض معنى طول الليل، فقال ابن الرومي: فكأنّ ليلتنا عليّ لطولها ثبتت تمخّض عن صباح الموقف

وقال أبو الهندي:

يا ليل هل لك من صباح أم هل لنجمك من براح

وقال العاري:

سهرت ليلي فنوم العين متبول كأن ليلي يوم الحشر موصول

وقال المتنبي:

من بعد ما كان ليلي لا صباح له كأن أوّل يوم الحشر آخره

فهذا من المعاني البديهيّة التي تتوارد فيها خواطر الشعراء وغير الشعراء، وإنما الفرق في التصرف فيها أفلا ترى أن كلا من الأربعة تصرف تصرفاً مخالفاً للآخر.

ومثله قول صاحب «الموازنة بين أبي تَمَّام والبحري» أن أبا تمام
كان نافلاً لما قال:

كأن بني نهان يوم وفاته نجوم سماءٍ خرَّ من بينها البدرُ

أخذه من قول جرير في رثاء الوليد بن عبد الملك:
أمسى بنوه وقد جَلَّتْ مصيبتهم مثل النجوم هوى من بينها القمرُ

أو من قول مريم بنت طارق وهي تترثي أخاها:
كنا كأنجم ليلٍ بينها قمرُ يجلو الدجى فهوى من بينها القمرُ

وما أخرى هذا المعنى أن يكون شائعاً في أُمَّةٍ صفا جُؤ أرضها،
وسامرت القمر والنجوم طول ليلها، فليس هذا كله من باب النقل، وإنما
النقل في مثل ما استشهد به صاحب الإبانة من قول المتنبي:

حتى رجعت وأقلامي قوائل لي المجدُ للسيف ليس المجد للقلَمِ
أكتب بنا أبداً بعد الكتاب به فإنما نحن للأسياف كالخدمِ

فهو مأخوذ من قول ابن الرومي:
كذا قضى الله للأقلام مذ خُلقت أن السيوف لها مذ أُرهِفت خدَمُ

ومثله لما استشهد به صاحب الموازنة من قول أبي تمام:
مضوا وكأن المكرمات لديهم لكثرة ما أوصوا بهنَّ شرائعُ

فإنه منقول عن أبي نواس إذ قال:
سَنَ للناس الندى فنَدوا فكأن البخل لم يكنِ

وأما شعراء اللاتين والإفرنج فلم يحاذروا مثل هذه المحاذرة في نقل أمثال هذه المعاني، ولا سيما بالنظر إلى الإلياذة، فإنهم أغاروا عليها غارة شعواء فطوقوا بمعانيها أجياد منظوماتهم من الملاحم إلى التمثيليات إلى القصائد، فنقلوا ونسخوا ومسحوا، وسلخوا واقتبسوا وعارضوا، وضمّنوا وتصرفوا وهم في الغالب لا يضمرون السرقة بل يفاخرون أن يعلم أنهم تحدّوا هوميروس حتى لو نظرت إلى تلك المنظومات لرأيت المعاني الهوميرية مزدحمة فيها بتصرّف أو بغير تصرف، ولا سيما مما أبعد فيه هوميروس ببصره، فاستنبطه بالتصور من المماثلات البديعة أو استخرجه بالتشبيه من مكنونات الطبيعة كقوله في مثل معنى امرئ القيس بوصف جواده:

كجلمود صخرٍ قد انتزعا	وفي الصدر هكطور مندقُ
وهبَّ الطراود والتصقوا	من الشم سيلٌ به اندفعا
له الغاب مرتجة ترتجف	إلى القعر حيث بعنفٍ يقفُ

فنقله فرجيليوس إلى «إنياذته» اللاتينية فقال (ن ١٢).

As veluti montis saxum de vertice praeceps

Quum ruit avulsum vento, seu turbidus imber

Proluit, aut annis solvit sublapsa vetustas.

**Fertur in abruptum mango mons improbus
actu،**

Exsultatque solo; silvas, armenta, tirosque

Involvens secum... :

وأخذه عنه تاسو الإيطالي فقال «في أورشليمه»: (ن ١٨)

Qual gran sasso tal hor, che o la vecchiezza

Solve da un monte, o svelle ira de'venti

Ruionosa dirupa, e porta, e spezza

Le selve, e con le case anco gli armenti

Tal giù trahea de la fubline altezza

L'horribil trave e merli, e arme, e gente،

Diè la torre a quel moto une, o duo crolli؛

Tremar le mura, e rimbombaro i colli.

ومثله قوله بلسان زفس بعد مشاجرة بينه وبين أخيه فوسيدون

أسفرت عن ارعواء فوسيدون واستكانته:

ففوسيد في بطن العباب قد التجا ومن نار غيظي في حزازته نجا

والا لأهممت فاتكات أكفنا بنا عرقاً يهمل به كل عارق

وكان اصطدامً بالعوالم يحدقُ ويزعج أرباب الجحيم ويقلقُ

فيا نعم مسعاه له ولعزّي فإنّا كُفينا فلق تلك الفلائقِ

فأخذه ملئُ الإنكليزي لوصف ارتداد جبريل عن إبليس، فقال
في «فردوسه»:

...Not only Paradise

**In this commotion, but the starry cope
Of heav'n, perhaps, and all the elements
At least had gone to wrack, disturb'd and
torn**

**With violence of this conflict, had not soon
Th' Almighty, to prevent such horrid fray,
etc**

وكثيراً ما نقلوا عنه التصورات الغريبة، والمعاني الطويلة المتشعبة
بأصولها وفروعها، وتصرفوا فيها كما نقل فولتير الفرنسي نجوى زفس
للطرواد إذ قال:

كتيبةٌ تلك ضمّت جلّهم عدداً جنداً تمدُّ إلى كيد العداة يدا
كادت تجوز حفير القوم عابرةً إذا بطير لها تحت السماء بدا

تطيراً وهو عن يسرى السرى وردا	فاستوقفت جزعاً في الجرف حائرة
بأفعوان خضيبٍ تحت قبضته	نسرٌ مخالفه في الجو قد نشبت
ما بين أظفاره في الجو يصطفقُ	فالأفعوان وفيه لم يزل رمقُ
في بارز الصدر حيث التفت العنقُ	حتى عليه التوى بالعنف يلسعه
وراح تحت مهبِّ الريح ينطلقُ	فصاح عن ألمٍ مرٍّ وأفاته
حيًّا وطروادة ارتاعت لرؤيته	والأفعوان هوى للأرض مختضبًا

فقال فولتير منصرفاً ومتفناً في مقدمة منظومته «كاتيلينا» :

**Tel on voit cet oiseau qui porte le tonnerre،
 Blessé par un serpent élançé de la terre؛
 Il s'envole, il entraîne au séjour azure
 L'ennemi tortueux don't il est entouré.
 Le sary tombe des airs. Il déchire, il dérore
 Le repile acharné qui le combat encore؛
 Il le perce; il le tient sous ses ongles
 vainqueurs؛
 Le monster, en expirant, se débat, se replie؛
 Il exhale en poison les restes de sa vie؛**

Le rejette en fureur, et plane au haut des cieux

وإن أمثال هذه المنقولات عن المعاني الهوميرية مما يملأ الأسفار، ولم يُعب عليها هؤلاء الشعراء إلا من تعمّد السرقة، وشفّ نهجه عن ادعاء الابتكار على نحو ما نرى الكثيرين من المتطفلين على الشعر في هذا العصر.

فعل الحضارة في استهجان المستحسن واستحسان المستهجن في التشبيه والمجاز

إن ممّا بُهت له بعض المتأخرين من نقلة الإلياذة، وأشكل عليهم في لغاتهم تشبيه الإنسان في بعض أحواله بأنواع من الحيوان ينظرون إليها بعين المهانة، ويضعها هوميروس موضع العزة والكرامة، وهذا ولا ريب من نتائج طول العهد بالحضارة، ولا أعلم أي حسنة لهذه الحضارة تُمدح عليها أم سيئة تؤاخذ عليها، وإنما أعلم أن في أصناف كثيرة من الحيوان مزايا يعز على الإنسان أن يتصف بأحسن منها، ولا أذكر حيواناً تقادم العهد على وضعه موضع الحس والهوان كالكلب، فقد عرّض هوميروس بذكره مراراً للسباب والتحقير، وهكذا فعل أكثر الكتاب من المتقدمين، وفي شعر العرب، وكلام مؤرخيهم وأدبائهم من هذا المعنى ما لا يدركه حصر، فلا يكادون يشيرون إلى شخص يريدون إزدراءه أو شتمه إلا قالوا «هذا العليج الكلب» و«هذا الكلب البذيء» وما أشبه، فكأنهم

تناسوا جميع ما في هذا الحيوان الأمين من كرم الخلال، وأغاروا على شيء من الدناءة فيه، وإن كان لم يستأثر بها دون سائر الحيوان ناطقاً كان أو غير ناطق، ومع ذلك فقد وفى هوميروس كل صفة حقها، فهو إذا وصف الكلب بالبذاءة فما أغفل سائر ما فيه من الخصال، فأطراً أمانته ومهارته في تقفي القنيسة، وبسالته في تأثر الضواري، وفعل فعله شعراء الجاهلية مما عرضناه بشعر هوميروس في موضعه.

وأما ما بقي من الحيوانات فقد اقتطع منها هوميروس صفات حميدة وصف بها كبار قومه وكرامهم، وهو ما أردناه بقولنا: «إنه أشكل على بعض كتّاب الإفرنج، وتقل عليهم نقله إلى لغاتهم». فإذا شبّه رجلاً صبوراً بالحمار رأيتهم يتشاقلون بنقل الكلمة بل ربما أكلوا الحمار برمته كما فعل پوپ في النشيد الحادي عشر، وعذرهم في ذلك أنه يشوّه وجه ترجمتهم، وإذا شبه هوميروس عظيم القوم بالثور عظم عليهم الأمر وحسبوها ورطةً يجب التملص منها، وربما بدّلوا حيواناً بحيوان، فجعلوا الخنازير دبةً، والكلاب ذئاباً، وهم يزعمون أنهم لطفوا المعنى ولا أخالهم فعلوا.

ولستُ بمنكرٍ أن الانقلاب الذي طرأ على مفاد التعبير عندهم قد أصابنا منه شيء كثير، فليس منا من يستحسن تشبيه كريم قوي الجنان رابط الجأش بالحمار، ولا تشبيه باسلٍ مغوار بالخنزير على أن

اليقين أن أبناء الجاهلية من كل قوم لم يكن هذا شأنهم أيام كانت الفطرة
تأخذ بالظاهر ولا تتكلف التأويل، وتشبث بالحقيقة مهما ثقلت.

وحسبنا أن نرجع إلى أيام جاهليتنا، وما وليها من مُقتبل الإسلام
ونتصفح معاجم لغتنا فنرى أن هوميروس لم يأت شيئاً فرياً، قال في
أساس البلاغة: «الثور الفحل من البقر والسيد، وبه كَتَّى عمرو بن معدي
كرب». ومما يذكر هنا استطراداً أن الثور لا يزال لقباً مكرماً في
السودان، ويقال مثل ذلك في الجَدَع بمصر، وهي من الجَدَع، وفي
محيط المحيط الجذع من البهائم قبل الثني والشاب الحدث، ومنه قول
دُرَيْد:

يا ليتني فيها جَدَعٌ أخبَّ فيها وأضغ

وفي كتب اللغة الكباش الحمل وسيد القوم وقائدهم، والمنظور
إليه فيهم ومنه قول لبيد:

بكتائب رجع تعود كبشها نطح الكباش كأنهن نجوم

وقول أسد بن ناعصة:

ولرب كبش كتيبة غادرته يكو لجبهته صريعاً أطحلا

متنجعاً قد دق في حيزومه صدر القناة على الفرار مجدلاً

والقرم الفحل ثم استعمل للسيد العظيم على التشبيه له بالفحل،
وقد اجتمع في قول المتنبي بمدح سيف الدولة:

ولكننا نداعب منك قرماً تراجعت القروم له حقا

أي: نمازح منك سيدًا صارت الرجال بالنسبة إليه كالنفاق بالنسبة إلى فحول الجمال.

والرُتُ الخنزير الذكر، وأجرى مجازًا على الباسل المقدام، فيقال: هو رتٌ من الرتوت، وهو من رتوت الناس أي: من عليّتهم وسادتهم «أساس».

والقبُّ الجمل والرئيس والملك، والفنيق الفحل المكرّم من الإبل لا يؤذى، ولا يُركب، والسيد المسنّ من المعز والرئيس، والأصيد الملك والبعر الذي فيه داء الصيد، وهلمّ جرًا.

ويقال مثل ذلك في بعض ما برز من أعضاء الحيوان كالناب والخرطوم، والأنف والقرن، فهي وإن كانت مما قد يستهان به الآن لم يوضع أكثرها في الكلام عن الناس إلا للرفعة والسيادة، فإذا راجعت كتب اللغة قرأت: الخراطيم أسياذ القوم، أنياب القوم ساداتهم، ومنه قول الشاعر:

كنت لهم في الحدثان نابا ألقى العدى وضغما وثأبا
ولم أكن هردبـة وجأبا (أساس)

القرن السيد تشبيهاً بقرن الثور لبروزه، أنف القوم سيدهم، ومنه قول الحطيئة في بني أنف الناقة:

قوم هم الأنف والأذناز غيرهم ومن يساوي بأنف الناقة الذنا

ولا عبرة بما قيل إن العرب كانت تعبر بني أنف الناقة بذلك
اللقب.

وليس النعت بهذه الأوصاف مما خُصَّ به بنو الجاهلية بشعرهم،
بل اتصل منه شيء بشعراء التابعين والمولدين حتى أنه ليندر أن ترى شيئاً
من هذه الألفاظ في كلام المؤرخين كقول العتبي في السلطان محمود بن
سبكتكين، وأقبل كالفحل الفنيق، ولا تكاد تجد مؤرخاً لا يقول قول ابن
خلدون: «وكان فحل ذلك الشول، وكبش تلك الكتائب إلخ» وأمثال
هذه الألفاظ لا تثقل على مسمع العربي حتى يومنا، بل لا يزال بعضها
مما يحلى به جيد الكلام.

وإننا بهذا الاعتبار نقسم هذه الألفاظ إلى أربعة أقسام: ما
أهملت حقيقته وجازه كالرّت والقبّ، فلا نرى من يستعملها لإنسان ولا
لحيوان.

وما بقيت حقيقته ومجازه كالفحل والكبش فهما وإن كانا
موضوعين للحيوان، فقد يوصف بهما الإنسان وصف تكريم، فنقول:
«هو فحلّ من فحول الشعراء، وكبش من كباش الهيجاء».

وما أهملت حقيقته وبقي مجازه كالجدع عند العامة في مصر،
فهي إنما تستعمل للإطراء، وإن كانت لا تزال على معناها الوضعي في
أماكن أخرى.

وما أهمل مجازَه، وبقيت حقيقته كالثور والحمار وهو أكثرها، فما منا من يرضى أن يلقب حمارًا، ولو قيل له ذلك كان لقب مروان بن محمد الخليفة الأموي الحازم، لُقِّب به على ما أجمع المؤرخون؛ لصبره ورباطة جأشه وشجاعته، قال القرماني: «ويقال في المثل فلانٌ أصبر من حمار في الحروب، وهو أيضًا اللقب الذي لقب به يعقوب ابنه يساكر في التوراة، وليس من يسره أن يكنى بالثور، وإن كانت تلك كنية عمرو بن معدي كرب سيد العرب، وما من أحد يرتاح أن يقال له أنف الناقة، وإن وضع الحطيئة ذلك اللقب موضع رفعة وإجلال، وقد تأبى أن يعرف أحدنا بالجمل، وإن عُرف به ابن عم النبي حمزة بن عبد المطلب، على أننا من وجه آخر لا نرى غضًا من قدر من يُلقَّب بالسرحان، وإن كان ذلك لقب الذئب أو يكنى بأبي خالد، وإن كانت تلك كنية الكلب».

مزينة العربية على لغات الإفرنج في هذا الباب

لما كنت قد آليت على نفسي أن لا أحرف الكلام عن مواضعه، وأن لا أعبت بوصفٍ أو تشبيهٍ، فأميل به عن أصله الوضعي تفاديًا من ثقل على الآذان عمدت إلى نهج بقي بالمرامين: استبقاء الأصل على وضعه، ونبد الألفاظ التي باتت بعرف الحضارة من باب الحوشي الساقط في المدح، فلا يُمدح بها كبيرٌ ولا صغير، وفي لغتنا والحمد لله متسعٌ فسيحٌ لمثل هذا المجال بخلاف لغات الإفرنج التي لا محاد لكتّابها عن استعمال اللفظة بعينها، وإلا اضطرُّوا إلى تبديلها أو إغفالها أصلاً.

فإذا عرض لي مثلاً تشبيه رجلٍ باسلٍ بالخنزير الذكر ينفسح لي بابٌ في كتب اللغة لانتقاء كلمة أخرى، فأقول الرُّت أو الخرنوص فلا أغير شيئاً من المعنى، وأكفي مئونة أنفة القارئ، وإذا اضطررت إلى استعمال لفظة الحمار بمقام المدح، وهو تشبيه شبه به إياس البطل الباسل عمدت إلى كلمة أخرى فقلت «الجأب» وهو الحمار عينه.

وإذا آنست رنة خشنة على الأذن بذكر الكلاب بهذا اللفظ قلت: «النواهس» و«الغضف» و«الضراء» وما أشبهه.

وإذا خشيت هجنة بأن يقال: قطع البقر قلت: «الصوار» وهو هو.

ولزيادة الإيضاح أضرب لك مثلاً واحداً مما ستري أشباهه بمطالعة الإلياذة:

أطراً الشاعر بسالة هكطور في واقعة فشبهه وهو يتعقب الأعداء
بالكلب الذي يتأثر الأسد المدعور أو الخنزير البري، فقال:

وهكطور صدر الجيش يجري ويلعب ويكسأ في الأرداف من يتعقب

كأغضف هولٍ قد تأثر ضيغماً تدعّر أو خرنوص بر يككب

فأراني لو قلت: ككلبٍ كبيرٍ قد تأثر ضيغماً أو خنزيراً الخ لما
زدت على المعنى ولا أنقصتُ، ولكن شتان ما وقع هذا التعبير، وما ذاك
على المسامح.

الخاتمة

في الشعر واللغة

الشعراء

قال بعضهم:

للسادة الشعراء فضلٌ ثابتٌ ولهم مقامٌ شامخٌ ومكانٌ

وهم سلاطين الكلام ألا ترى كلَّ امرئٍ منهم له ديوانٌ

نظر صاحب هذين البيتين إلى الشعر العربي من حيث إنه دليل
البلغاء وحجة اللغويين، وشاهد الخطأ والصواب، ولكنه لو أراد الزيادة
لقال: إن سلطان الشعراء يمتدُّ إلى ما فوق ذلك، وإن الشعر ربحانة
النفوس ومبدد البئوس، وقد كان في غابر العهد سجل الحكمة، ومنهل
النغمة، ومحط الفخار، ومطمح الأبصار، وأن شاعراً واحداً كان يرفع

قبيلةً ويخفضها، ويعزُّها ويدلُّها فينفذ كلامه في الإحساس، ولا نفوذ أحكام الأمر المستبد بالناس، وأن سلطة الشعراء في الجاهلية كانت تباري سلطة الرؤساء، والقبائل تستثمر سلائق الفتیان أیان توسمت فيها الذكاء استثمار بني الحضارة كل غرسٍ زهي، وفرعٍ زكي، فإذا نبغ فتاهم، وقال قولاً نافذاً تباشر به الكهول والشبان والشيوخ والولدان، وخرجت النساء بالمزاهر وغنين ورقصن، وقلن أزف الفرج فقد صينت الأعراض، وحفظت الأنساب، وارتضت الأحساب وحمي الذمار وتخلدت الآثار، وطارَت البشائر فأقبلت الوفود من سائر العشائر كأنهم في يوم نصرٍ عظيم.

ولطالما قال شاعرهم أبياتاً، فتناقلتها الركبان وأومضت وميض البرق فبهرت الأنظار، وقضت الأوطار. قالوا: إن الأعشى الأكبر كان يأتي سوق عكاظ في كل عام فيتجاذبه الناس في الطريق للضيافة طمعاً بمدحه إياهم في سوق عكاظ، فمرَّ يوماً ببني كلاب، وكان فيهم رجل يقال له المحلق فقير الحال، ضيق المعاش، وله ثماني بنات لا يخطبهنَّ أحد لمكان أبيهنَّ من الفقر، وخمول الذكر، فقالت له امرأته ما يمنعك عن التعرض لهذا الشاعر وإكرامه، فما رأيت أحداً أكرمه إلا وأكسبه خيراً، فقال: ويحك ما عندي إلا ناقتي، فقالت يخلفها الله عليك، فتلقاه قبل أن يسبق إليه أحدٌ من الناس، وكان الأعشى كفيلاً يقوده ابنه، فأخذ المحلق بخطام الناقة، فقال الأعشى: من هذا الذي غلبنا على الخطام

فقال: فتى شريفٌ كريم، ثم أتى به منزله وأكرمه، ونحر الناقة وجعلت
البنات يدرن حوله، ويبالغن في خدمته، فقال: ما هذه الجواري حولي،
فقال المحلق: بنات أخيك، وهنّ ثمان نصيهنّ قليل، فقال الأعشى:
هل لك حاجة، فقال: تُشيد بذكري فلعلي أشهر فتخطب بناتي، فنهض
الأعشى من عنده ولم يقل شيئاً، فلما وافى سوق عكاظ أنشد قصيدته
التي أنشأها في مدحه، وهي التي يقول فيها:

لعمري لقد لاحت عيونٌ كثيرةٌ إلى ضوء نارٍ بالبقيع يحرقُ
تشبُّ لمقرورين يصطليانها وبات على النار الندى والمحلّق

فاشتهرت القصيدة، ولم تمضِ سنة حتى زوّج بناته،
ويسرت حاله وإن في كتب العرب من أخبار شعراء الجاهلية ما لا تُعد
هذه الرواية بجانبه أمراً خطيراً.

وكان المولّدون مع تبدّل الجم الغفير منهم، وانحطاط منزلتهم
عن شعراء الجاهلية ينالون بشعرهم أبعد المطالب. روى ابن خلكان أنه
قدم بين يدي المأمون نصر بن منيع، وكان قد أمر بضرب عنقه، فقال
نصر يا أمير المؤمنين: اسمع مني كلماتٍ أقولها، فقال: قلْ فأنشأ يقول:
زعموا بأن الصقر صادف مرةً عصفور برٍ ساقه التقديرُ
فتكلم العصفور تحت جناحه والصقر منقضٌّ عليه يطيرُ
إني لمثلك ما أتمم لقمةً ولئن شويت فإني لحقيرُ
فتهاون الطير المدلّ بصيده كرمًا وأفلت ذلك العصفورُ

فعفا المأمون عنه.

وأما الأموال التي كان يستدرها الشعراء بشعرهم فمما يفوق التصوّر، وهم وإن كانوا يجازون بها أحياناً محاذرةً من هجوهم، وإلجاماً لألسنتهم، فكثيراً ما كانوا ينالونها بما أطربوا، وأرقصوا، وخلبوا العقول. ذكروا أن ابن باجة التجيبي آخر فلاسفة الإسلام بالأندلس أنشد أبا بكر الصحراوي صاحب سرقسطة موشحاً في مدحه، فأطربه حتى كاد يفقده الرشد فما بلغ قوله:

عقد الله آية النصر لأمير العلاء أبي بكر

حتى شق الممدوح ثوبه من شدة الطرب، وحلف لا يمشي ابن باجة إلا على الذهب، فحاف الشاعر عاقبة الأمر، فجعل في نعله ذهباً ومشى عليه.

تلك كانت منزلة الشعراء عند العرب في سالف الزمن، وتلك هي أيضاً منزلتهم في سائر الملل، فإن في أخبار شعراء الفرس ما يضاهي أخبار شعراء العرب، وقد علمت أن اليونان ما زالوا يصعدون بهوميروس حتى أخرجوه من مصاف البشر، وأحلوه بين الآلهة، وبنوا له المعابد. وكانوا يتعاطون ويتنافرون، ويتنافسون، ويتحمسون على نحو ما كان يفعل العرب في سوق عكاظ، وشعراؤهم في كل ذلك كخييل الرهان «فالسابق السابق منها الجواد». ذكروا أن فنذاروس الشاعر الموسيقي الذي نبغ بعد هوميروس بأربعة قرون كان إذا جلس للإنشاد في الحفلات

الأولمبية وغيرها تحمّس له الشعب، وشقت نعرتهم كبد السماء، وكلّلوه بأكاليل الظفر، فلما مات أخذوا الكرسي الذي كان يجلس عليه في موقف الإنشاد ووضعوه بين أنصاب الآلهة وشاد له أهل ثيبس هيكلاً، وأقاموا له فيه نصباً، وهو بعدُ حي، ولما اكتسح الإسكندر بلدة ثيبس، ودمر بيوتها أمر أن لا يُمس بيت فنذاروس بسوء.

وكم من شاعر أثار خواطر أمة بأسره، فاستنفر وأجيب واستصرخ فتألبت له جيوش الكلام، فغلبت كتائب الحسام، وفي الأثر أن صاحب الشريعة الإسلامية كان ينصب لحسان بن ثابت منبراً في المسجد يقوم عليه ينافح عنه، فكان ذلك على قريش أشد من وقع النبل، وإن حسناً قال له: «لأسلك منهم (أي: من قريش) سلّ الشعرة من العجين، ولأفريئهم فري الأديم» فصبّ على قريش من هجائه شآبيب شرّاً، فقال له: «شفيت يا حسان وأشفيت» ثم قال: «حسان حاجزٌ بيننا وبين المنافقين».

وليس العهد ببعيد بما كان من نفوذ سهام الشعر البليغ في بلاد المغرب من عهد يبرن إلى هذه الأيام.

ولسنا بآملين في هذا العصر أن يثب شعراؤنا إلى تلك المنصة الشامخة، وإنما نطمع أن يظلوا سائرين بنهضتهم سيراً حثيثاً، ويجاروا تيار الترقى فلا يطمو عليهم، ولهم في ذلك الفوز والفلاح، وللأمة الخير والصلاح.

اتساع العربية للشعر

قال أبو بكر الخوارزمي: «من روى حوليات زهير، واعتذارات النابغة، وحماسيات عنتره، وأهاجي الحطيئة، وهاشميات الكميت، ونقائض جرير، وخمريات أبي نواس، وتشبيهات ابن المعتز، وزهريات أبي العتاهية، ومراثي أبي تمام، ومدائح البحري، وروضيات الصنوبري، ولطائف كشاجم، ولم يخرج إلى الشعر فلا أشبَّ الله قرنه» وهو كما ترى قول متحمسٍ مولعٍ بالشعر، وقد أنالته الفطرة منه حظاً وافراً، وإلا فالخروج إلى الشعر متعذراً على من لم يكن ذلك في طبعه، على أن هذا القول صادقٌ على من كان الشعر في سجيته، فإن مطالعة نفيس الشعر تشحذ الذهن، وتهذب اللفظ وتجلو المعنى، فتستقيم بذلك وجهة الشاعر المطبوع.

واللغة العربية شعريّة بطبيعتها؛ لتفرّع مفرداتها، وتنوّع اشتقاقاتها القياسية على أسلوبٍ لا يُرى له مثل في اللغات الآرية، والقوافي مزدحمة فيها ازدحاماً يسهل النظم، وهي بخلاف ما يزعم بعض الأعاجم جزلة التركيب محكمة الانسجام، وفيها من طرق الحذف والتقدير، والتقديم والتأخير ما ينفسح معه المجال للشاعر لصوغ عبارته على قوالب شتى، وتلك مزينةٌ تمدح عليها اللغة في الشعر، وإن عييت في النثر حيث يُقصد الجري على نمطٍ واحدٍ جلي، وهي على الجملة متسعة للشعر أكثر منها

للنشر، فشعرها منذ القديم أرفع طبقةً من معظم نشرها، وجيده أسهل مثلاً من جيد النشر حتى لقد تجد النشر شعراً في كثيرٍ من الأحوال.

ولا شك أن الزمان قد طوى كثيراً من ألفاظها الوضعية، ولكن ما بقي منها فوق حاجة الشعراء لتأدية المعاني الفطرية والأفكار البديهية، والأوصاف الخلقية والحقائق الحكيمية، وسائر ما توحى تدوينه قدماء الشعراء كهوميروس، وفنذاروس، وفرجيليوس وهوراس، فهي بهذا المعنى لا تقصر بشيء عن لغة الإلياذة اليونانية المشهورة بجزالة تركيبها، ورقتها وانسجامها، وإحكام وضع المفردات فيها.

مقابلتها باليونانية

ولا ترجح اليونانية على العربية إلا باتساعها لمشاكله الألفاظ للمعاني، وتوفر أسباب النحت فيها لصوغ الألفاظ المركبة، وفي ما سوى ذلك لا أحال لها رجحاناً بل ترجح العربية في اتساع المفردات، وتشعب طرق التركيب، والخروج بقياس الاشتقاقات إلى ما لا نهاية له من المعاني.

ثروتها وألفاظها الوضعية

ولقد بدا لي أثناء التعريب من ثروة العربية في الألفاظ الوضعية القديمة ما أغناني عن الانحراف بالمعنى على نحو ما اضطرَّ إليه بعض نقلة الإفرنج على ما تقدّم في الفصل السابق، ورأيت من المماثلة بين اللغتين في دقة الوضع ما يُدهش له الناظم والناثر، وينبئك ذلك أن

العرب لم يغفلوا وضع شيء من الألفاظ الدالة على جميع مطالعاتهم ومحسوساتهم حتى أصبحت مفردات اللغة في زمنهم رابيةً على حاجة التعبير، ولا سيما في الحسيات، وما هذا النقص البادي الآن في إحكام التعبير، وخصوصاً في المعنويات إلا نتيجة إهمال الخلف اقتفاء آثار السلف.

وهو معلومٌ أن الإلياذة نظمت في زمنٍ كانت أحوال المعاش فيه قريبةً لأحواله بين قدماء العرب؛ ولهذا كان على المعرب أن يقابل معانيها بما رادفها من لغة العرب بلا انحرافٍ ولا تأويل، واللغة متسعةٌ لذلك، فإذا وصف الناظم السلاح، وهو سلاح العرب ففي اللغة لفظةٌ بل ألفاظٌ للدلالة على كل ما قال من الشكَّة أي: السلاح الكامل إلى الحجر فلا يُعَدُّ الناقل وسيلةً للتعبير عن كل ما ذكر من السيوف، والممدى ومناصلها وأعمادها، والرماح والزجاج، وكعوبها وأسننتها وصعاداتها، والدِّلاص والأبدان والدروع وحلقها، وزردها وقُشرها، والخوذ، والترايك والمغافر ويضها وقوانسها وعذباتها، والتروس والجواشن وحرايبها وحمائلها وهُدَّابها، والقسي وما لازمها من النبل المقذذ، والسهم المريش والوتر والقُوق والفرّض والسرية والنيزك، وسائر ما أهمل أو كاد يهمل من معدّات الهجوم والدفاع كالفأس والمخدفة والفتيس، وإذا أتى على ذكر الخيل فما من لغةٍ أوسع من العربية بأوصافها، وتمثيل عدوها وجريها وتطبيقها، وتقريبها وحُضرها وارتفاعها، وإذا ذكر الحروب وعليها مدار

الإلياذة، فلم تتفنن أمةً فوق العرب بوصف القتال والنزال، والمجاوله والمصاوله، والمشق والرشق والحذف والقذف، والمماصعة والنفح بالمناصل والضرب بالمغاول، والوخز بالعوامل، وقس على ذلك جميع ما تناول وصف الأحوال المعاشية والروابط القومية، والأحكام العرفية، والمناظر الطبيعية من وهادٍ وهضاب ومطرٍ وسحابٍ، وبحرٍ وبرٍ، وزرعٍ وضرعٍ، وماءٍ وهواءٍ، وأرضٍ وسماء بل قد تجد خزانة العربية أجمع، وثروتها أوسع بما حوت من الألفاظ المفردة التي لا يعبر عنها في لغات الأعاجم إلا بعبارات، وإنني موردٌ لك الآن أمثلةً ما عُبر عنه في اليونانية بكلمتين فأكثر، ويتيسر رده في النقل العربي إلى كلمةٍ واحدة في الأفعال والأوصاف والموصوفات، ذلك كالسَّلهب للجواد الطويل، والأجيد للجواد الطويل العنق، والأجرد للفرس القصير الشعر، والقبُّ للخيل الضامرة، والقياديد للخيل الطويلة، والتَّبيع والتبيعة لولد البقرة لحولٍ واحدٍ، والحولي لابن سنة من ذوات الحوافر وغيرها، والسديس للذي أتم خمس سنين، والجبهاء للعريضة الجبهة. والأكبس لمن أقبلت جبهته، وأدبرت هامته من الناس، والطَّحُور للقوس البعيدة المرمى، والرَّجاج والمطارد للرماح القصيرة، والثَّلَّة لجماعة الغنم والمعز، والرَّعيل للقطعة من الخيل، والصوار لقطيع البقر، والدسيع لمفرز العنق من الكاهل، والوتيرة لما بين المنخرين، والبأديل للحم بين الأبط والشدوة أو

لحم الثدي، وصرّح بمعنى رمى ولم يُصَب، وأمثال ذلك مما سترى منه في الإلياذة شيئاً كثيراً.

الحقيقة والمجاز في بعض ألفاظ اللغتين

ومن جميل المشاكلة بين اليونانية والعربية في الأصل والتعريب على نمطٍ واحدٍ جري بعض الألفاظ مجرى واحداً باللغتين في الحقيقة والمجاز، فمن ذلك ما تشترك فيه معها لغاتٌ كثيرة كإطلاق لفظة الشيوخ (γερωντες) بطريق المجاز على الزعماء وكبار القوم، ومنه ما لا يكاد يتعدّاهما إلى غيرهما كاستعمال لفظة (Χαίτη) للشعر وورق الشجر، ويقابلها الفرع بالعربية.

الفرق بينهما في نسج العبارات

وبين اليونانية والعربية فرقٌ كبير في نسج العبارات وتركيب الجمل من حيث التقديم والتأخير، وصيغ الاشتقاق والجموع والحروف، والنحت وتركيب الأسماء، ولكن نهج كل لغة حسنٌ في بابه، وأسباب الفصاحة متيسرة لأبناء كل لغة إذا أحكموا الرصف على نهجهم.

المتراذفات وتعدد معاني اللفظ الواحد

ولكن للعربية مزيّتين في مفرداتها تقصر اليونانية وسائر اللغات عن مجاراتها فيهما، وهما كثرة المترادفات في الألفاظ الدالة على المعنى الواحد، وتعدد المعاني للفظ الواحد، فقد ذكروا عشراتٍ ومئاتٍ من

الألفاظ الموضوعية لمسميات معيّنة من الحيوان كالأسد والحية، والبعير والناقة والفرس والثور، والكلب والهر والمأكولات كالتمر واللبن والعسل، والمشروبات كالماء والخمر، والسلاح كالسيف والرمح، والصفات كالطويل والقصير، والكبير والصغير، والشجاع والجبان، والكريم والبخيل، وغير ذلك من مألوفهم كالنور والظلام، والشمس والقمر، والسحاب والمطر، والتراب والحجر، ولهم مثل ذلك في الأفعال، فقد عدّ أحدهم أكثر من ألف فعل يمكن إطلاقها على معنى واحد، ويقابل ذلك تعدد معاني اللفظ الواحد، فإذا تصفحت معاجم اللغة، وقرأت باب الخال والحال، والعين، والعجوز وأمثالها تولّك العجب لكثرة معاني كل كلمة منها.

ولقد يعلم اللبيب أن كل تلك المترادفات لم توضع في اللغة على نية الوضع بل وقع ذلك اتفاقاً: إما لمنقولٍ عن الأعاجم، وإما لاختلاف المدلولات في لغات القبائل المتباعدة، وأما للمح صفةٍ مقصودة يتغير بها المعنى تغيراً طفيفاً لا يُشعر به لوحدة المسمى، فالخمرة مثلاً إنما سميت كذلك لاختمار موادّها، فإذا قيل الراح لُمح إلى الروح والارتياح أو الرحيق نُظر إلى صفائها وطيب رائحتها، أو السلسيل قُصدت سهولة مساعها وهلمَّ جرّاً، ولكن هذه المميّزات فُقدت في الاستعمال، وأصبحت المترادفات متشابهةً يقوم كلٌّ منها مقام الآخر مع أنه لا يوجد في الأصل ترادف تامّ في مفردات اللغة إلا في ما

صدر عن لغتين لقبيلتين مختلفتين؛ كالليث والورد للأسد أو نقل من لغة الأعاجم إلى العربية مع بقاء اللفظ العربي فيها كالميناء من اليونانية للفرضة البحرية.

وإن للناظم فائدة من هذا الاتساع إذ يتيسر له أن يلتقط من هذه المترادفات ما وافق بحره وقافيته، فقد اتفق لي أثناء التعريب أن استعملت كثيراً من أسماء الأسد كالليث والغصنفر، والضرغام والقسورة، والهزبر والورد والضيغم، ولكن هذه الفائدة لا تذكر في جنب ما يلقيه هذا التراكم من العثرات في سبيل المنشئ النادر والطالب الراغب في الإحاطة بأوابد اللغة وشواردها حتى لقد يرتبك بها الشاعر في بعض الأحوال، ومن ذا الذي تحثه الدعوى إلى زعم الإلمام بجميع هذه المترادفات بل أي حافظة تعي خمسمئة اسم للأسد، ومئتين للحية، ومئتين وخمسين للناقة، وما عسى أن تكون الجدوى من وجود أربعمئة اسم للداهية، ونعم القول قول النعالي: «إن تكاثر أسماء الدواهي من الدواهي». فأمثال هذه المترادفات عبء ثقيل على كاهل اللغة، فإنما يحسن حفظها في مطوّلات المعاجم للرجوع إليها في استجلاء غوامض الكلام والشعر القديم ضناً بذلك الذخر الثمين أن يتشتت وتذروه عوامل الغموض والنسيان، ولكنه لا يجدر بالطلاب والكتاب أن يتشبثوا بوحشيتها ومهملتها؛ لئلا تستغل عباثهم، وتجهد قريحتهم على غير جدوى، فيتعبون ويُتعبون، وتثقل روحهم على روح المطالع.

الألفاظ المهملة

وقد جرت للعرب منذ القديم عادة حميدة في مجاراة الزمان وسنن الطبيعة، وإهمال ما تقادم العهد على نبذه، فكانوا يتحاشون في شعرهم ونثرهم إيراد الألفاظ المهملة في عصرهم، وفي روايات الأصمعي كثيرٌ من كلام الأعراب المتوغلين في البداوة مما لم يكن يفهمه أهل زمانه؛ لإهمال النطق به والعدول عنه إلى مرادفٍ أسهل وأطلى، وأيضًا فإنهم لم يكثروا من استعمال الألفاظ الدالة على معاني مختلفة إلا في ما شاع من معانيها مطّرحين ما غمض منها أو احتاج إلى تأويل؛ ولهذا كان شعر المولدين أقرب مما سواه إلى فهمنا، لقرب عهده منا وخلوه من كثيرٍ من غوامض الكلام، ويتلوه شعر المخضرمين ثم شعر الجاهليين، فحسبنا أن نتبع خطتهم فنبلغ بالنظر إلى عصرنا ما بلغوا بالنسبة إلى عصرهم، فيسقط ما قضى عليه الزمن بالسقوط ويبقى ما صلح للبقاء.

عجز العربية عن تأدية المعاني الحديثة

يؤخذ مما مرَّ أن العربية قد خُصَّت بشروّة في مفرداتها واتساع في طرق تعبيرها تفاخر بهما سائر اللغات القديمة والحديثة، ولكن تلك الشروّة وذلك الاتساع قد يمسيان بالإهمال وسوء الاستعمال ضيقًا وفقراء، فإذا شكونا الزيادة فما أحرانا أن نشكو النقصان، فقد مرّت القرون وتعاقت الأجيال واللغات الحديثة جاريةً مع العلم والحضارة جري الشقيق الشقيق، والعربية كانت حتى هذا الزمن القريب ثابتةً في موقفٍ

واحد كأن باب الاجتهاد قد أوصد في وجهها، وليس في سنن الخلق ما يوجب ذلك الإيصاد بالنظر إلى اللغة، بل إذا تتبعنا خطة السلف من عهد الجاهليين إلى انقضاء العصر العباسي رأينا أبناء هذه اللغة عاملين على تمحيصها وتهذيبها، وإبداعها كل ما بدر وصدر من نتاج العلم أو اقتضته ملابسة سائر الملل، فكانت في مقدمة اللغات اتساعاً لكل مادة ومعنى، ولم تكن تضيق عبارة ناظم ولا ناثر عن تأدية كل مقادٍ عصري، فما بالها وهي لا تزال ذلك البحر الزاخر تضيق الآن عن كثير من التعبيرات العلمية والصناعية والسياسية، ولا مسميات فيها لكثير من أسماء الاختراعات، والآلات الحديثة والأدوات البيتية، أفكان يرضى قداماء العرب بهذا النقص، وقد وضعوا الأسماء العديدة لخشبات الصنّاع والقذور والقصاع، والدلاء وحبالها والناقة وعقالها والملوك، والزعماء والعوارف والوفود والفيوج، والأحلاف والأحزاب والأنصار والطلائع والسرايا والعهود والمواثيق، وسائر ما دعتهم إليه حاجة أو عرف.

ولا ينحصر هذا النقص في ما تقدّم بل يمتد إلى كثير من المعاني العصرية والتعبيرات الخيالية، والتصورات التي استحدثتها الزمان، فالعربية في حاجة إلى نظرٍ في كل ذلك، وهو أمرٌ طبيعي لا مناص منه إذ لو نُشر هوميروس، وامرؤ القيس، وأرادا تمثيل جميع هذه الأحوال بلغتيهما لاضطربت عبارتهما، وأشكل عليهما التعبير، ولو ركب النابغة سفينة

البحار لما أجاد بوصفها إجادته بوصف سفينة البر، أي: ناقته الضاربة في فيافي البيداء.

نقل الألفاظ الأعجمية واستحداث الألفاظ العربية

وكان شغف العرب بلغتهم يدفعهم إلى الحرص عليها، ومباراة الأعاجم بها فما بدت لهم ثغرة إلا وسدوها ولا حلية إلا وزينوها بها حتى أنه لم يكن يثقل على طباعهم أن ينقلوا إليها مئات من الألفاظ الأعجمية، ثم ردوها إليهم ألوفاً مؤلفة، بل لم يستكفوا من التصرف ببعضها، وصوغ الأفعال منها وتصريفها، وإن كانت غير مصرفة في الأصل، فقالوا «فلسفة» و«تفلسف» و«زنديق» و«تزندق» و«طرّاز» و«طرّز» و«دهقان» و«دهقن وتدهقن».

ولكن هذا الأخذ عن الأعاجم لم يكن إلا نزرًا يسيرًا بجانب ما استخرجوه من مفردات لغتهم، وطبقوه على المعاني المستحدثة، ولا سيما في العلوم التي لم يكن لها أثر في الجاهلية، والاصطلاحات التي اقتضاها انتظام أحكامهم وتوغلهم في الحضارة، فإنهم لما شرعوا في وضع العلوم العربية؛ كالصرف والنحو، والمعاني والبيان، والبديع والعروض، والدينية كعلم الكلام والتفسير والفقه والحديث، والعلوم الطبيعية والرياضية، وسائر ما نقلوه من كتب الأعاجم كالفلسفة والمنطق، والطب والفلك، والحساب والهندسة والجبر، والكيمياء شرعوا في كل ذلك، وليس في لغتهم إلا شبه شيء مما يشير إلى مدلولاته، فما كان

أيسر عليهم من أن يستخرجوا من لغتهم أوضاعاً استكملوا بها جميع مدلولاتهم العلوم العربية والدينية، ومعظم مدلولات العلوم الطبيعية، واتسعت لغتهم لكل ذلك حتى عَوَّل الأعاجم على كثير من موضوعاتهم، ونقلوها إلى لغاتهم «الجبر، والسمت، والقلبي، والنظير، والكحول، والسموم».

نهج العرب وتوسعهم في اللغة

ولما اتسعت أحكام سياستهم، وتغيرت طرق معاشهم، وازدادت تصوراتهم بما رأوا، وسمعوا، وقرءوا، وكتبوا وضعوا أسماء وأفعالاً لكل ما استحدث لديهم من طعام وشراب، ولباس، ومتاع، ونظام حكومة، وطريق سياسة، وتوسعوا في المعاني الشعرية والأساليب الإنشائية، فكانت اللغة تجاريهم في النمو والسعة.

اصطلاحاتهم

وإن أردت الثبت من توسعهم في ذلك الاستحداث، فدونك كتب اللغة فلا تكاد تجد صفحة منها خاليةً من الاصطلاحات الموضوعة بعد الإسلام، وإليك أمثلة منها:

الدَّور الحركة، وعود الشيء إلى ما كان عليه ... والدَّور عند الحكماء والمتكلمين والصوفية هو توقُّف كل من الشيئين على الآخر ... وقياس الدَّور عند المنطقيين هو أن تؤخذ نتيجة القياس وتضم إلى عكس إحدى مقدمتيه ... والدَّور في الحميات عند الأطباء عبارة عن

مجموع النوبة أو زمانها ... والدور عند الموسيقيين القطعة المستقلة من الشغل ... وعلم الأدوار علم الموسيقي ... والدور عند الشعراء القطعة من الموشح ونحوه...

الدرجة المرقاة ... ودرجات الأمزجة عند الأطباء مراتبها في الشدة والضعف ... والدرجة عند أهل الجفر وأرباب علم التفسير تطلق على حرفٍ من حروف سطر التفسير ... وعند أهل الهيئة تطلق على جزء من ٣٦٠ جزءاً من منطقة الفلك ... ودرجة الكوكب عندهم هي مكانه من فلك البروج، ومنها درجة طلوع الكوكب، ودرجة غروب الكوكب، ودرجة ممر الكوكب ...

الحال ... عند الحكماء كيفية مختصةً بنفس أو بذى نفس ... وتطلق عند الأطباء على ثلاثة: أمور الصحة، والمرض، والحال المتوسطة ... وعند الأصوليين على الاستصحاب ... وعند السالكين على ما يَرُدُّ على القلب من طرب أو حزن أو بسط وقبض ... وعند النحاة على لفظ يدلُّ على الحال أي الزمان ... وعند أهل المعاني على الأمر الداعي إلى التكلم على وجهٍ مخصوص ...

وإن من تصفح كتاب «التعريفات» أو الكشف للتهانوي يرى أن تعريف قسمٍ من هذه الاصطلاحات قد اضطر العلماء إلى تأليف المجلدات الضخمة.

سبب وقوف اللغة

والحاجة أم الاختراع، فلما كان أبناء هذه اللغة مشغولين بها كانوا يتقدمون فستقدم، ويرتقون فترتقي، فلما وقفوا وقفت، وانحصرت سجلاتها في خزائن أفراد من العلماء معدودين، وما كان وقوفها لعجزٍ فيها أو نفاذ في معدن جوهرها الواضح، ولكنها عوامل قاهرة أصابت أهلها، فأقعدتهم معظم هذا الزمان، وما هبَّت نسمات النهضة الأخيرة في مصر وسوريا حتى أسرع أبناء القطرين إلى استخراج تلك الكنوز الدفينة، ولو تابعت التأليف العلمية التي فتح لها محمد علي وخلفاؤه أرحب الأبواب، وتواصل تدريس العلوم العالية بها، أو لو لم تُصَبَّ سوريا بما أصيبت به مصر من ضرورة التقاعد عن وضع المؤلفات العلمية؛ لانتقال الدروس في تلك العلوم إلى اللغات الأجنبية لما أعوزنا الآن تعبيرٌ في علمٍ من العلوم أو فنٍّ من الفنون، ولما رأيت ناشئة هذا العصر إذا احتاجت إلى تعبيرٍ علمي عمدت إلى لسان أعجمي.

النهضة الأخيرة ومستقبل اللغة والشعر

ولكن تيار الأفكار إذا اندلع بأمة قصَّ السدود، وتجاوز الحواجز، فإن أبناء العربية شاعرون أن حياتهم بحياة لغتهم، وقد علموا الآن أنه لا مُعين لهم غير أنفسهم على بلوغ أمنيته منها، فإذا أخلصوا النية فلا حائل يصدهم عن النهوض بها، ولا ننكر أنهم أعادوا الكرة فوثبوا بها وثبةً جديدة في هذه الآونة المتأخرة، وهذه سجلاتهم

وجرائدهم قد صعدت في مرقاة الكمال درجاتٍ لا عهد لهم بها قبل أعوام، وأصبح الكثير من اصطلاحاتها الحديثة «كالمجلة والجريدة والصحافة والمنطاد» مقبولا عند الخاصة والعامة كأوضاع القدماء، وإن في مؤلفات الكتّاب والأدباء ما يعدُّ لهم فخراً في هذا الموقف الحرج، وأعظم من كل ذلك انتشار الميل إلى المدارس الوطنية، فلغة البلاد لا تحيا إلا بمدارس البلاد.

والشعر من توابع اللغة ولوازمها، فإذا ارتفع شأن اللغة فبشر الشعراء، على أن مطلب الشعراء يختلف عن مطلب العلماء والمؤلفين، فحاجة الشاعر أيسر وموادها أوفر، وذخيرته في دماغه، فإذا جلاها العلم كانت له، ولبني لغته مورداً صافياً ومنهلاً عذباً، وفي الأمة والحمد لله فطاحل خرجوا عن جادة التقليد البحث، فمالوا ميل الزمان وأخذوا يسعون إلى استجلاء المعنويات سعي رصفائهم إلى استجلاء الحسيات، وما هي إلا جولةٌ وأختها مدةٌ من الزمن حتى تستعيد صناعتهم مقامها الشامخ، ومجدها الباذخ.

Guignant. Dict d'Homère et des (١)
Homérides par N.Theil et Hipp. Hallez
d'Arros. Paris ١٨١٤

(٢) إسطرابون كتاب ١ فصل ٢.

(٣) إسطرابون كتاب ١٤ فصل ١.

(٤) عيون الأنباء جزء ١ ص: ١٨٥.

(٥) عيون الأنباء جزء ١ ص ٣٦.

(٦) عيون الأنباء جزء ١ ص ٦٩.

(٧) عيون الأنباء جزء ١ ص ١٠١.

(٨) الآثار الباقية عن القرون الخالية لأبي الريحان محمد البيروني
الخوارزمي. طبع باريز ص: ٨٦.

(٩) ابن خلدون. باب أشعار العرب وأهل الأمصار.

(١٠) عيون الأنباء جزء ١: ١٨٥.

(١١) كتاب الملل والنحل جزء ٢: ١٥.

(١٢) تاريخ مختصر الدول لابن العربي طبع بيروت ص: ٦١.

- Barthélemy Saint-Hilaire, Iliade (١٣)
 .d'Homère traduite en vers français
- .Mitford, History of Greece p.١٣٥ (١٤)
- .Grote, History of Greece Vol. II p.١٤٥ (١٥)
- Fauriel, chants populaires de la Grèce (١٦)
 .moderne.١٨٢٤
- .Grimm, Deutsche Heldensage, p. ٣٧٣ (١٧)
- Romans de chevalerie, Revue des deux (١٨)
 .mondes, XIII. P.٥٥٩
- Alexander Chodzko, specimens of the (١٩)
 popular poetry of Persia, London ١٨٤٢.
 .Introduct. P.١٣
- .Grote, History of Greece Vol. II p.١٤٩ (٢٠)
- .Mariners accounts Vol. II p.٣٧٧
- .American Cyclopaedia Vol. VIII p.٧٨٠ (٢١)
- .Casaubon, ١٥٥٩-١٦١٤ (٢٢)
- .Hedelin, Abbé d'anbignae, ١٦٠٤-١٦٧٢ (٢٣)

Conjectures académiques sur l'Hiade, Paris

. ۱۷۱۵

.Perrault, ۱۶۱۵-۱۶۸۸ (۲۴)

.Wood, ۱۶۳۲-۱۶۹۵ (۲۵)

.Bentley, ۱۶۶۱-۱۷۴۲ (۲۶)

.Vieo, ۱۶۶۸-۱۷۴۴-Milan ۱۸۳۷ (۲۷)

.Wolf, ۱۷۵۷-۱۸۲۴ (۲۸)

.Prolegomena, ۱۷۹۵ (۲۹)

.Heyne, Leips. ۱۸۰۲ (۳۰)

.Niebuhr, ۱۷۷۶-۱۸۳۱ (۳۱)

.Herder, ۱۷۴۴-۱۸۰۳ (۳۲)

.Hermann. ۱۸۰۶ (۳۳)

.Ottfried Muller, ۱۷۹۷-۱۸۴۹ (۳۴)

.Welker, der epische Cyklus, ۱۸۳۵-۱۸۴۹ (۳۵)

.Gregor Nitzsch, ۱۷۹۰-۱۸۶۱ (۳۶)

Professor Blackie, Homer and the (۳۷)

.Hind

- .Bishop Thirwall, History of Greece (٣٨)
- .George Grote, History of Greece (٣٩)
- Gladstone, Treatise on Homer and the (٤٠)
- .Homeric age, ١٨٨٣
- .Guignault, Notice sur Homère (٤١)
- .Leprévost, Notes sur Iliade (٤٢)
- .G. Bertin, la question Homérique ١٨٩٧ (٤٣)
- Heinrich Schlieman, Ithaque, le (٤٤)
- ؛Péloponnèse et Troie, Paris ١٨٦٩
- ؛Trojanische Alterthümer ١٨٧٤
- .Atlas Trojanischer Alterthümer ١٨٧٥
- .Grote, History of Greece, Vol II p. ١٥٧ (٤٥)
- Fauriel, l'origine des épopées (٤٦)
- .chevaleresques, ١٨٣٦
- .إسطنبولون الكتاب الأول. (٤٧)
- Guizot, Cours d Histoire moderne, ٧me (٤٨)
- .Vol. Ip. ٢٨٥

.Aelian, I. ١٢ Cap. ٤٨ (٤٩)

.Cesarotti (٥٠)

.Monti (٥١)

.Monbel (٥٢)

.Voss (٥٣)

.Pope, Chapman, William Cowper (٥٤)

.Saint Augustin, Confess. I. I. Cap. ١٤٠ (٥٥)

(٥٦) نقل شهنامة الفردوسي إلى العربية الفتح بن علي البغدادي
الأصبهاني نثرًا للملك المعظم عيسى بن العادل أبي بكر الأيوبي، وأتم
ترجمتها سنة ٦٧٩. (كشف الظنون)

(٥٧) قال ابن خلدون: «بنقطة الكاف واحدة من فوق» لأنه مغربي،
وأهل المغرب ينقطون القاف بنقطة واحدة من فوق، والفاء بنقطة من
أسفل، وأردف ذلك بقوله: «أو ثنتين» للدلالة على نقط القاف في غير
بلاد المغرب.

(٥٨) المشفتر المتفرق، ويجلجل يُحرَّك، فيذهب دقائقه ويبقى جلاله،
والوغل الرديء.

(٥٩) الخامسة واردة الخمس، والمسافر الخارج في أرض إلى أخرى،
وأراد به الثور الوحشي، وأشعب الروقين الذي انشعب قرناه.

(٦٠) المجتاب اللابس، والنصع الأبيض، شبه الثور لبياضه بلابس ثوب أبيض، ونقبتة لونه، والخال برود فيها خطوط سود وحممر.

(٦١) السفعة سواد يضرب إلى الحمرة، والخدم جمع خدمة وهي الخلخال.

(٦٢) مملول أي: كأنه منشو في ملة، وهي الرماد الحار.

(٦٣) يأوي أي: الصائد إلى امرأته، والسلفع الجريئة البذئة، والتولب ولد الحمار شبّه ابنها به.

(٦٤) يشلي بدعو، والضواري الكلاب المضرة، والتهليل أن لا يصدق الحملة يقال قد هلّ الفارس إذا قصر.

(٦٥) يعني الكلاب، وأراد بالأشعث القانص، والسرحان الذئب، والمنصلت المنجرد في أمره، وقيد الرمح قدره.

(٦٦) السفع السود، قوله: «بآذانها شَيْنٌ» أي: آذانها مقطعات ببرائنها، وذلك لقولهم: إن الكلب إذا عدا فاجتهد في عدوه، قطع أذنه بمخالبه لدنوها منها.

(٦٧) أي: لما نظر الثور إلى الكلاب قد هاجت به ثبت الروع في عينه لما عاينه، وقوله: صادقة أي: صلبة صحيحة النظر لا تكذبه، والملاميل: جمع ملمول، وهو المكحال يريد أنه لم يكن بعينه رمد يجري له فيها ملمول.

(٦٨) يهفو أي: كأنه يطير فوق الأرض من الخفة، وانصاع أخذ ناحية، والسدك الملازم، يقول كل الكلاب ملازم للثور لا يفارقه، والمزاجيل المزاريق يُرَجَل بها.

(٦٩) أي: فاهتز الثور حميةً وانفًا من الفرار من الكلاب، والمدريان القرنان. وعنقًا صلبًا. ومخذول أي: لا عون له.

(٧٠) شروى الشيء مثله، وقوله: «شبيهين» يعني: القرنين شبههما بالرمحين، والمكروب الشديد القتل، وأصل ذلك في الحبل، ثم قيل لكل ممتلى شديد مكروب، وأراد بالجنبتين الجنبين. والتأسيل الاستواء والطول.

(٧١) كلاهما أي: كلا القرنين، والنهك الشدة والاستقصاء.

(٧٢) أي: يطعنهما مخالسة لكثرتهما، والإيشاغ الخفة، والسلهب الطويل، وسنخ الشيء أصله، والشأن ملتقى كل قبيلتين من قبائل الرأس الأربع. والممطول الممدود.

(٧٣) مض أوجع وأحرق، والجواشن الصدور، والمعلول الذي سقي الدم مرة بعد مرة أخذ من العلل وهو الشربة الثانية، وإنما قال دم الأجواف؛ لأن الثور يعتمد مقاتل الكلاب.

(٧٤) المبترك المعتمد في سيره لا يترك جهدًا، وقوله: «مُسْتَقْبَل الريح» يستروح بها جوفه لحرارة التعب.

(٧٥) يخفي التراب يستخرجه لشدة عدوه، وقوله: «مسهنَّ الأرض تحليل» أي: على قدر تحلّة اليمين كأنه أقسم ليمسن الأرض.

(٧٦) الجنابان الناحيتان يقول: قد ارتفع له من جانبه غبار من شدة عدوه، والمعزاء الأرض ذات الحصى أي: أنه لشدة عدوه يرد الحصى على فرجه، فكأنه إكليل له، وهذا غاية شدة العدو.

(٧٧) الخبت: المطمئن من الأرض وفيه رمل، والهزير: الأسد.

(٧٨) الأغلب من صفات الأسد للمبالغة في الغلب.

(٧٩) تبهنس: تبختر.

(٨٠) الجائشة النفس. يتهكم على الأسد، ويقول: أظهرت له أنني جدت له بنفسي، ولكن نفسي كذبت له تلك الأمانة، وفتكت به.

(٨١) الحبل بمعنى الوصل أو العهد والميثاق، وما اتسع أي: بقدر امتداده.

(٨٢) الشتيت الثغر المفلج.

(٨٣) أراد بالقضيب الناضر المسواك.

(٨٤) يقال: خدع ريقه إذا تغير.

(٨٥) الساجي القليل التحرك، والقمع كمد في لحم الموق.

(٨٦) القرون الذوائب، وغللتها: دخلت فيها، والفع: الكثرة.

(٨٧) الخفر الحياء، والقدع الرد يقال: قدعته أي: رددته.

(٨٨) ويروى: ويعينني أي: يتعيني بقول: إنه ساهرٌ ليس ينام، فهو يراعي النجوم.

(٨٩) المغرب الأبيض يعني: بياض الصبح، وانقشع ذهب، ويزجيتها يسوقها.

(٩٠) الربيع: أول الشباب.

(٩١) الحرور: الريح الحارة، والصقع: حرارة تصيب الرأس.

(٩٢) قال الفرزدق هذه القصيدة يوم حج هشام بن عبد الملك الأموي، وطاف بالبيت وأراد أن يستلم الحجر الأسود فلم يصل إليه لكثرة الزحام، فنُصب له منبر فجلس عليه وحوله جماعة من أهل الشام، فبينما هو كذلك إذ أقبل زين العابدين يريد الطواف، فلما انتهى إلى الحجر الأسود تنحى الناس له حتى استلم الحجر، فقال رجل من أهل الشام: «من هذا الذي قد هابه الناس هذه المهابة» فقال هشام: «لا أعرفه» مخافة أن يرغب فيه أهل الشام، وكان الفرزدق حاضراً، فقال: أنا أعرفه، وأنشد بعد ذلك هذه القصيدة، فغضب هشام وحبس الفرزدق بعسفان فعلم زين العابدين وأرسل إليه أربعة آلاف درهم، فردّها الفرزدق، وكتب إليه إنما مدحتك بما أنت أهلٌ له فأعادها زين العابدين، وقال: «تعاون

بها على دهرك، فإنَّا أهل بيت النبي إذا وهبنا شيئاً لا نستعيده». وقالوا: «كفى بالفرزدق أن يكون قال هذه القصيدة حتى يدخل الجنة».

(٩٣) كانت له ابنة عمّ كلف بها أشد الكلف، ثم ارتحل عنها من بغداد لفاقةٍ علته، فقصد أبا الخير عبد الرحمن الأندلسي في الأندلس ومدحه بقصيدة بليغة، فأعطاه عطاءً قليلاً، فقال ابن زريق: «إنا لله وإنا إليه راجعون سلكت القفار والبحار إلى هذا الرجل، فأعطاني هذا العطاء». ثم تذكر فراق ابنة عمه وما بينهما من بُعد المسافة، وتحمل المشقة مع ضيق ذات يده، فاعتل غمّاً ومات، قالوا: وأراد عبد الرحمن بذلك أن يختبره، فلما كان بعد أيام سأل عنه، فتفقده في الخان الذي كان فيه، فوجدوه ميتاً وعند رأسه رقعةٌ مكتوبٌ فيها هذه القصيدة.

(٩٤) المستطرف ص: ٢٧١

(٩٥) كشف الظنون. ولغات تاريخية ٤: ١٥٨.

(٩٦) يقول كثيرون من كتّاب العرب أن سفر أيوب كُتب بالعربية شعراً، ثم نقله موسى إلى العبرية، ولكنهم لا يأتون بحجة تؤيد هذا القول، ولعلهم قالوا ذلك بالتواتر أو نقلاً عن مصادر مجهولة لعهدنا، وإن في تواريخ العرب أخباراً ووقائع وأنساباً كثيرة منقولة عن كتب قديمة مفقودة، وهكذا يختلط الصحيح منها بالفساد، ويتعذر الرجوع إلى الأصل، وأما أنصار هذا الرأي من علماء العصر فلهم أدلةٌ ترجح بالبحث صحة قولهم، فلا ريب أن أيوب كان من أبناء البادية العربية، وإن تعدّر حتى

الآن تعيين الخطة التي أقام فيها، وفي ذلك يقول هان وإيولد وشلتمن:
«إن وقائع هذا السفر تمثل الحياة البسيطة على حقيقتها، وتوضح بالرسم
الصادق معيشة الشيخ العربي للقبيلة البدوية» ثم إن هذا السفر أقرب
إلى العربية من سائر أسفار التوراة العبرية، وقد أشار رينان في مقدمته
«لسفر أيوب» إلى كثرة الكلمات الآرامية فيه.

(٩٧) واقدى ١ : ١٥٦ .

(٩٨) العقد الفريد ج ٢ : ٢٨٨ .

(٩٩) ابن خلدون ١ : ٥٣١

النشيد الأول خصام آخيل وأغاممنون

مُجْمَلُهُ

لما اكتسح الإغريق «اليونان» بلاد الطرواديين عاثوا في مدائنهم، وسبوا نساءهم، وحاصروا إليون عاصمة بلادهم عشر سنوات على ما مرَّ بك في المقدمة، وكان في جملة السبابا فتاتان فتّانان تدعى إحداهما خريسييس «أوخريسا» والأخرى بريسييس «أوبريسا» أجمع زعماء الجيش على تمليك الأولى منهما لأغاممنون ملك ملوكهم، والثانية لآخيل ملك المرميدونة وبطل الإغريق على الإطلاق، فحمل خريس كاهن أفلون ما غلا وعز من المتاع والمال إلى معسكر الإغريق فكاگا لابنته خريسا، وبذلك افتتح هوميروس أناشيدهُ.

فجنح الزعماء إلى إجابة ملتمس الكاهن الشيخ، ولكن أغاممنون أغلظ له المقال ورده خائبًا، فأنشئ من حيث أتى يستغيث الآلهة أفْلُون، فأغاثه وضربهم بوباء «فغدت جندهم تخرُّ فلولاً» فثقل عليهم الرزء ولم يفقهوا له سببًا، فهاجت الحمية صدر آخيل، ودعاهم إلى مجلس شورايم للمفاوضة في استطلاع كنه الأمر، فلما اجتمعوا أنبأهم العرّاف كلخاس أن أفلون ناقم منهم لخيبة كاهنه، وأنه لا سبيل إلى استرضائه ما

لم يستلينوا قلب الشيخ برد فتاته إليه، فعظم الأمر بادئ بدء على أغاممنون، ثم ما لبث أن لان وأذعن لحكم كلخاس على أن تساق إليه سبية أخرى بدلاً منها، فعارضه آخيل واشتد الخصام بينهما حتى كاد آخيل يفتك بأغاممنون لولا أن أثينا «إلهة الحكمة» هبطت من السماء وصدته قسرًا، ثم توسط بينهما نسطور الحكيم إخمادًا للفتنة فما زاد إلا احتدامًا، وارفض الجمع على غير وفاق واعتزل آخيل القتال.

وأما أغاممنون فلم يزد إلا اغترارًا واعتزازًا بما له من السيطرة على سائر الأنصار، فأمر بإرسال خريسا إلى أبيها، وبعث فقبض على بريس سبية آخيل، وأحلّها في خيمه في جملة ما ملك، فشق الأمر على آخيل، وتظلم إلى أمه ثيتيس (إحدى بنات الماء) فأسمعت صوت تفجعه من لجة البحر، فشقت العباب إليه، واستقصته الخبر ورقيت إلى زفس أبي الآلهة تلتمس الأخذ بيد آخيل، والانتقام له من الإغريق، فوعد زفس بخذلهم وإعلاء شأن الطرواد إلى أن يطيب آخيل نفسًا، ففطنت هيرا زوجة زفس لما جرى من الحديث بينه وبين ثيتيس، وفي نفسها حزازة على الطرواد فهتّت بالاعتراض عليه، فأوسعها وعيدًا وزجرًا وبادر هيفست، وسوّى الخلاف وأدار السلاف، فظل الأرباب في طرب ونعيم إلى أن خيم الظلام، فتوسد كل مضجعه ونام.

تستغرق وقائع هذا النشيد اثنين وعشرين يومًا، تسعة أيام مدة الوباء ويومًا مدة اجتماع الزعماء ونزاع الملكين، واثنى عشر يومًا مدة إقامة زفس بين

الأثيوبية، ومجرى الحوادث أولاً في معسكر الإغريق، ثم في بلدة خريسا،
وأخيراً في الألمب.

النشيد الأول

رَبَّةَ الشَّعْرِ عَنْ آخِيلِ بْنِ فِيلَا	أَنْشَدِينَا وَارَوِي احْتِدَامًا وَبِيلَا ١
ذَاكَ كَيْدٌ عَمَّ الْأَخْيَاءَ بِلَاهُ	فَكِرَامِ الْنفُوسِ أَلْفَتْ أَفْلُولَا ٢
لَأَذِيسٍ أَنْفُذَنْ مِنْحَدَرَاتٍ	وَفَرَى الطَّيْرُ وَالْكَلابُ الْقِيُولَا ٣
ثُمَّ مَا شَاءَ زَفَسٍ مِنْ يَوْمٍ شَبَّتْ	فَتْنَةٌ بِالْشَقَاقِ تَنْذُرُ أَوْلَى ٤
بَيْنَ أَتْرِيذٍ سَيِّدِ الْقَوْمِ ثَارَتْ	بَصَالَاهَا وَالْمَجْتَبَى آخِيلَا ٥
أَيُّ رَبِّ قَضَى؟ فَمَا غَيْرَ فِـ	بُؤْسٍ وَزَفَسٍ وَنَكَالًا تَنْكِيلَا ٦
فَابِنْ لَاطُونَةَ بِأَتْرِيذٍ رَامِ الْـ	سُوءِ مَنْ سَامَهُ جَفَاءً ثَقِيلَا ٧
فَدَهَى جَيْشَهُ بِشَرِّ وَبَاءِ	فَغَدَتْ جَنْدَهُ تَخَرُّ فُلُولَا
مَنْ أَهَانَ الْمَلِيكَ كَاهِنَهُ الْهَمَّ	خَرِيْسًا لَمَّا أَتَى الْأَسْطُولَا ٨
يَفْتَدِي بِنْتَهُ بِغُرِّ الْهَدَايَا	وَجَمِيعِ الْإِغْرِيقِ يَدْعُو ذَلِيلَا
سَيِّمِ الْعَاهِلِينَ مَنْ وَلَدَ أَتْرَا	وَلَقَدْ قُلَّ صَوْلَجَانًا أَثِيلَا ٩
عَسْجَدِيًّا أَعْلَامِ ذِي النَّبْلِ فَيُو	سَ عَلَيْهِ بَدَتْ تَجَرُّ ذِيُولَا ١٠
قَالَ: «فَرَعِي أَتْرَا وَقَوْمُ أَخَايَا	مَنْ حَذَيْتُمْ طَرًّا حَذَاءً جَمِيلَا
مِنْحَتَكُمْ آلُ الْأَلْمَبِ اعْتَزَازًا	قَهْرَ فَرِيَامٍ ثُمَّ عَوْدًا جَلِيلَا ١١
فَبَفِيُوسِ فَرَعِ زَفَسِ الْمَعْلَى	مَنْ سَهَامِ الرَّدَى يَهِيلُ هُمُولَا ١٢

إقبلوا فديتي وردُّوا فتاتي»
آثروا حفظ حرمة الشيخ فيهم
غَيْر أن المقال ساء أغامم—
قال: «يا شيخُ فاحذر القرب من فلـ
ليس في الصولجان هذا ولا في
لن تنال الفتاة بل سوف تبقى
تدرك العجز وهي تنسج قطنًا
وتلي مضجعي فقم واخشَ غيظي
ذعر الشيخ فانشئ واجمًا في
ثم في عزلةٍ دَعَا ودُعاه
«رب يا ذا قوس اللّجين استجبني
يا ولي السمّث يا عون كلاً
إن أكن قد زيّنت هيكلك الوها
ولسوق السّخال والثور زَكِي—
فبأبناء دانو نيلك الصُّـ
فرغ الشيخ فاستجاب أفلو
حاملاً وهو مزمهر على كتـ
حانقًا كُلِّما خطا ارتجت التّبـ
ورمى الفلك من بعيدٍ بسهم

فجميع الإغريق ضجوا قبولا ١٣
وارتضاء الفكاك منه بديلا
نُون أترا فرده مخذولا
كي سواء رجعت أم أنت باقي
ذي عصابات رآه لك واقي ١٤
ببلادي أرغوس مثل البواقي
ضمن صرحي بغربةٍ وانسحاق
إن ترم آمناً لحاق الرفاق
جرف بحر يعجُ في الآفاق ١٥
لابن لاطونةٍ أفلون راقبي
حق مولى تينذس إحقاقي ١٦
وخريس يا رب خذ بنطاقي ١٧
ج أو ما ضحيت بالإحراق
ت فسالت بشحمها المهرق
مُ لتفتك بدمع هذي المآقي» ١٨
ن بأعلى الأولمب وانقض حالا
فيه قوسًا وجعبة ونبالا ١٩
ل عليه كالليل بالهول مالا
من لجين فزلزلت زلزالا

ضرب الغصف والبغال فألقى
 فتولت نيران موتاهم إثـ
 شهدت ثم ربة الأذرع اليـ
 فعلیهم حئت فألهمت القر
 فدعاهم للربيع عاشـ يوم
 «أرانا أيا أترید والخطب قد عرا
 نتيه ولات الحين والرزء فادح
 فسل قائفاً أو كاهناً أو مفسراً
 على ما أفلون من الجيش ناقم
 عساه يزيل السخط إن نتقي له
 فلما انتهى آخيل هب ابن ثسطر
 ففیبوس أولاه النهى وبهديه
 خبير يعلم الغيب ماض وحاضر
 «أتأمروني آخيل أن أكشف الذي
 سأفعل إن تقسم بأن تدفع الأذى
 سيغضب قولي سيداً ذا خطورة
 وليس لمرء يغضب الملك حيلة
 فلا بد أن يقتص وهو سجية

شرّ سهم فجنـدل الأبطالالا ٢٠
 ر وباء بالفتك تسعاً توالى ٢١
 ضاء هيرا دم الأراغس سالالا ٢٢
 م أخـيلاً أن ادراًن الوبالا
 واستوى قائماً عجولاً فقـالا ٢٣
 نخوض على الأعقاب ذا اليوم أبحرا ٢٤
 وهذا الوبا والحرب قد أفنيا السرى
 رؤى الخلق إذ زفس رؤى الخلق سـرى
 يـقل أقبالقربان والنذر قصـرا
 من العنز والحملان ذبحاً مكفرا
 أجل ذوي العرفان كلخاس وانبرى ٢٥
 لساحل إليون بأسطولهم سرى
 ومستقبل فانساب فيهم محذرا
 يغيظ إلهـا ينفذ النبـل أسطرا
 بكفك والإفصاح عني مجهرا
 لديه الأخائيون تعنو كما ترى ٢٦
 وإن كظم السلطان غيظاً وأضمرا ٢٧
 فهل لك إنقاـذي إذا الأمر أظهر؟

فقال أخيل: «فا أَمَنَّ وهات ما
بحق أفلون مقرب زفسنا
فما اختلجت نفسي بصدري ومقلتي
ونفس أغاممنون قيل قيولنا
فلما اطمأن الشيخ قال: «فما على
ولكن أتريدًا على الكاهن اعتدى
فإن لم تؤب فالويل فيكم فخيّم
لترجع لأهليها بلا فدية ولا
فيعطى خريسًا ثم نستدفع الأذى
فقام أغاممنون ذو الطول مغضبًا
وقال وعيناه تطاير منهما
«أيا منبئ السوء الذي لم يفه لنا
بقولٍ وفعلٍ لم تقم قط حكمةً
تقول إله النبل قد شد صائلا
ولم تدر أني جانح لبقائهما
فليست بحسن القد والخذ دونها
ومهما يكن من ذا فأخلي سبيلها
أود زوال السخط عنهم وإنما
فيبدو لي الإغريق أني لم أكن

لديك من الإنذار بالغيب مخبرا
ورب بما أولاك جئت معبرا
بعيني من الإغريق لا تخش منكرا
إذا كنت تعني لن تمسّ وتعثرا^{٢٨}
ذباح أو نذرٍ هوى السخط مسعرا
وأمسك عنه بنته وتجبّرا
وليس يُداني الجبر منكم مكسرا
بدليلٍ وتؤتون الذبيح المسطرا
ونستعطف الربّ الغضوب لما جرى
يميّزه الغيظ العنيف تسعرا
شرار لكلخاس الولي معزرا
بخير ولكن ظل بالشر منذرا^{٢٩}
وها أنت للأسرار جئت مفسرا
لأنني لم أرض الفداء المقررا
وقد فضلت زوجي كليتمنسرا^{٣٠}
ولا بسمو العقل والفعل مخبرا
إذا كان خيرا للجنود لتظفرا
أروم جزاءً أرتضيه فأصبرا^{٣١}
بلا سلب كي لا أهان وأصغرا^{٣٢}

وكلكم فينا شهودٌ بأنني
 فقال المجتبى آخيل: «مهلاً
 أأطمع كل مخلوق أترجو
 فليس لهم وتعلم بيت مال
 فما لنا من المدن اللواتي
 وكيف يليق سهم الجند نجو
 فعُد وأرجعن فتاة قوم
 وموعدنا إذا إليون دكت
 بأضعافٍ مثلثةٍ وأوفى
 فصاح يجيب: «يا آخيل يا من
 فلسنت بخادعي أبداً وإنني
 أرد سبيتي وذهاب سهمي
 نعم أرضى إذا ضمنت سرانا
 وإلا خلتنى أعتاض قسراً
 هناك أحلّه خيمي بنفسي
 سنبحت، واقدفوا فوراً هنا في
 نراه بالأرادم والضحايا
 يسير أياس إيذمن أذيس

حرمت نصيبي والقضاء تقدرا»
 أيا أتريند يا سامي المقام ٣٣
 مكافأة الأراغسة العظام
 يضم كنوز أموال ركام
 دكنا شاع بين ذوي السهام
 وقد نالوا على هام وهام
 أثاروا غيظ رشاق السهام
 بنعمة زفسنا مولى الأنام
 نجيزك فاعبر حرج المقام
 حكى الأرباب دع هذي المسالك ٣٤
 تراني غير منقادٍ لقالك
 وسهمك فائزٌ خطرا ببالك ٣٥
 لذلك لي جزاءٌ مثل ذلك ٣٦
 بمال أياس أودس أو بمالك
 ومن وافيت فليحنق هنالك
 غرابٍ في عباب البحر حالك ٣٧
 وذو الحسناء فوق اللج سالك ٣٨
 به أو أنت أعجبهم بحالك ٣٩

عسانا بالتزلف والضحايا
 فقال أخيل يشزره غضوبًا:
 وهل في القوم بد فتى خداعا
 علمت بأنني لم آت بغضًا
 فقط علي لم ييغوا بسوء
 وما نهبوا بأم البهم فنيا
 ففيمما بيننا لجج عماق
 واليوننا أممناها التماسًا
 وندفع عن منيلا شر بؤس
 ورممت سبيبة ما نلت إلا
 حبانيتها الأخاء وأنت منهم
 فإن نمرح بطرواد زمانًا
 وأمسينا نقسم ما سلبنا
 فحظك قد تراخى عنه حظي
 وأرضي قسمتي وأسير فيها
 سأقلع راجعًا ولدي خير
 وأشهد لست تلقى بعد خذلي
 فقال: «إذن وقد رمت انهزامًا
 فلي بسواك عزوة خير رهط
 لرب النبل ندرئ المهالك»
 «أيا طمعًا تدثر بالشنار
 تغرُّ هنا فييدر في بدار
 بأقوام الطراودة الكبار
 وما سلبوا خيولي أو ثياري
 وذات الخصب زرعى في ديارى ٤٠
 وغابات على الشم القفار
 لما يرضيك نأخذها بشار
 وعند وقد جزيت بالاحتقار
 ببطشي إثر إعلاء الغبار
 أيا كلبًا يصول بطرف عار
 وعثنا بالممدائن بالبوار
 فلي نزر وتحظى بالخيار
 وباعى حملت ثقل الطواري
 لفلكي مفعمًا شرر الأوار
 أعواد موطني وأحل داري
 كنوز المال في جرف البحار» ٤١
 فقر فلسنت ملتسمًا بقاكا
 أجلوني وزفسن لى سواكا

وفيمما بين كل قيول زفس
فلم تألف سوى شغب وقال
بفلذك عد لأهلك في سراكا
لئن تغضب وإن تذهب سواء
وزد قهراً بأني مذ خريسا
أسيرها بصحبي في سفيني
فتاتك منك أعتاض اقتداراً
ويخشى من سواك هنا بوجهي
فأحزن آخيل وقد ضاق صدره
أعن جنبه يستلّ ماضي عضبه
وبصرع أتريداً على الفور أم يرى
رأى وإذا من جنة الخلد أهبطت
رسولة هيرا تلك من لكليهما
ولم يرها من زمرة الجمع غيره
تحقق مرتاعاً ثبوت هبوطها
«أيا ابنة رب الترس زفس أجتني
فأنبئ والإنباء ظني صادق
أجابته زرقاء اللّواحق: «إنما

أنا لم أقل قط فتى قلاكا
وإن تبسل فربّ قد حباكا ٤٢
وسد بين المرامد مُشتهاك ٤٣
فليس بمزعجي هذا وذاكا ٤٤
بغى عني فبوس لها انفكاكا
وفي نفسي أسير إلى حماكا
فتعلم ما مداي وما مداكا ٤٥
مفاخرتي فلا يهوى هواكا
ونازعه في صدره عاملاً فكر
ويأخذ في تشيتهم عائل الصّبر
سبلاً لكظم الغيظ في أهون الأمر
أثينا وجرت به بأشعاره الشقر ٤٦
تبرّ ولا تختار برّاً على برّ
بدت خلفه والعين حمراء كالجمر
فبادر يشكو شدة الأمر والوزر:
هنا لتري كيد ابن أترا وتستقري
سيلقى بما قد غرّه حتف مغرّ
أتيت لأسري الغيظ عنك عسى يسري

يأيعاز هيرا مرتضاة كليكما
وفي كفك الفتاكة أغمد حسامها
وأصدقك الوعد اليقين فخذ به
ثلاثة أضعاف الذي سينالُهُ
فقال: «أراني يا إلهة مجبرًا
فذلك خيرٌ من يطع سادة العُلَى
وأغمد تعلو كَفُّهُ فَوْقَ قبضةٍ
فسارت أثينا للألمب لقومها
وغيظ أخيل ظلَّ غير مسكنٍ
«يا مليكا بنشوة الراح مَثَقَلْ
لم تكن قطَّ كفاء خوض المنايا
لم تقدر قط صيدهم بكمين
هو خيرٌ علمت أن تسترد الـ
أنت ذا الشعب قد فرست بظلمٍ
كنت لولا هذا أأتريد في ذا الـ
لك مني نبوءة ويمين
محجنٌ لن يزهو له ورقٌ مذ
كيف يزهو وقاطعُ الحد عرًا
إي وذا الصولجان وهو وليّ

بعثت فخل الشر وادفع لظي الشر ٤٧
وقابل أغاممنون ما شئت بالزجر
فسوف تنال الجبر من بعد ذا الكسر
ستحرز يومًا فانتصح واستمع أمري»
على الطوع مهما كان في النفس من قهر
يُثَبُّ ولهُ من بعدُ أجرٌ على أجرٍ
لجينية نصل الحسام الذي يفري
بدارة رب الترس في قمة القصر
ومال على أتريد بالشم والنَّهْر: ٤٨
يا لحاظ الكلاب يا قلب إيل ٤٩
بين قوم الإغريق إن يعل قسطل
كل هذا يريك موتًا معجَّل ٥٠
سهم ممن يصد قولك إن ضلَّ
حيث بين الأنذال كنت المفضَّل
حين تلقى هونًا أخيرًا وتخذلَّ
١٠ أثقلت في ذا الصولجان الميجَل
راح عن جذعه على الشم يفصل
ه وهيات بعد ذلك يخضلَّ
لجموع الإغريق في العقد والحل

بين أيديهم يناط وهم حَفَّ
 قسمي وهو ألوة لك كبرى
 حين هكطور فيه يبش بطشاً
 فبك النفس تصطلي وهي حقى
 وإذا انتهى ألقى أخيل إلى الثرى
 واحتلّ مجلسه وأترىذ على
 فانساب بينهما الموفق نسطر
 وهو الخطيب أخو الفصاحة والنهى
 قد كان يحكم ثالث الأجيال في
 متجللاً برزانة ورصانة
 «رأه أي رزية صماء قد
 لا شك فريام وكل بنييه والـ
 إذ يعلمون لما اختصامكما أيا
 فاستعصما بنصائحى فكلاكما
 ولقد صحبت بما مضى صيداً أشد
 لم ألق قط ولن أرى في ذا الورى
 أو إكسذ أوئيس بن أغيس من
 أوذريس راعي الورى والمُجْتَبى

ساظ شرع لزفس فيهم تنزل
 سوف ييكي أخيل جيش منغل
 وتروم الذايد عنه فتفشل
 منك إذ كدت خير شهم وأيسل
 بالمحجن المزدان في قتر
 الذهب ٥٢ كرسية متسعر بلظى الغضب
 والشهد من شفثيه بالنطق انسكب ٥٣
 في فيلس فأراد إخماد الشغب
 لها بعد أن جيلين عاصر واصطحب ٥٤
 في مجمع الإغريق مُنتصباً خطب
 هجمت على أرض الأخائيينا
 طروادة الباقون يبتهجونا
 من فقتما بأسا علا ويقينا
 دوني حئولاً جمّة وسنينا
 د وقد رَعُوا لي حرمة وشئونا
 بين الرجال كفير ثو أو كينا
 قد كان مثل الخالدين رزينا
 فوليفم قوم خلوا صلدينا

كانوا أشدَّ العالمين وقاتلوا
وعلى قنطرة الجبال سطوا ولم
وصحبهم واستقدموني جملةً
فوجدتهم جهدي وألقيت الرما
ويكل شورا هم إذا رأبي بدا
لكما بهم مثل أطيعاني إذا
فاحذر أيا أتريد غصب فتاته
هي لابن فيلا قد حباه بها بنو
وتجاوزن آخيل عن ملك حوى
ولئن تفق بأسا وأمك ربةً
وهو الأشد قوئ وأكشر عدةً
وأخيل صاف وراعني فلقد غدا
فقال أغاممنون: «يا شيخ حكمةً
يروم امتلاك الأمر والنهي إنما
وإن تكن الأرباب أولته شدة
أجاب أخيل للحديث مقاطعاً
فإن رحت منقاداً لقول تقوله
ولكن لي قولاً صريحاً فخذ به:
ولن أتصدى للدفاع لأيكم

قومًا شدادًا في النزال شبينا ٥٥
يذروا لهم أثراً يُرى مأمونا ٥٦
من موطني فيلوس ملتسمينا
ن بمثلهم في الروع كان ضنينا
تخذوه بالإجماع متفقينا
وخذه رأياً صائباً ورصينا
مهما علوت أماجداً وقرونا
إغريقاً حقاً له مضمونا
شأناً علا شأن الملوك ركيناً
كانت فزفس زاده تمكيناً
وانبذ أيا أتريد عنك ضغونا
في ذا الوغى حصن الأخائينا» ٥٧
نطقنا ولكن ذا المقاتل يستعلي
بعلمي من لا يتقيّه ولا يدلي
فهل هم أباحوا أن يهين أولي الفضل
«بأمرك مر غيري فلم يمثل مثلي
إذا فادعني ندلاً وأوضع من ندل
لأجل فتاتي لست متضياً نصلي
لسلبكم بالعنف ما نلت بالعدل

ومن دُونِهَا احذر أن تمد يدًا لما
ير الجيش ما تبدي ورمحي عاجلاً
كذا انفصلا بعد اختصام وحدة
فأخيل في فطرقل والصحب قافلا
وأتريد ألقى للعباب سفينةً
وفيها خريسا والضحايا لفيبس
ومذ مخرت أتريد نادى بجنده
ولبؤه والأقذار في البحر أفرغوا
وأذكوا لها في الجرف ناراً تصاعدت
بذا اشتغلوا طراً وأتريد لم يزل
دعا أوربائاً ثم تلثيبوس من
وقال: «أذهب اقتادا بريساً بزندها
وإن هو يأبى جنته بعصايةٍ
سارا يسوقهما الأمر العنيف على
بين المرامدة الغضى أخيل بدا
رأهما فتلظى واحترامهما
فاستوقفا وجلاً والقلب أنباه
«يأمر سلي زفس والناس أدنوا عجلاً

حوت سفني وافعِل إذا تقت للفعِل
يسيل دما كالسود فابل إذا تبلي»
وفض اجتماع الحشد من بعد ذا الفصل
إلى فلكه والخيم في منتهى السهل ٥٨
بعشرين ملاخاً تنقَى بلا مهل
وربّانها أوديس ذو الفضل والعقل
وضوءاً وتطهيراً فقاموا إلى الغسل
وقادوا الضحايا خيرة الثور والسّخل ٥٩
دُخاناً إلى الزُّرقا روائحها تُغلي
بهاجسه في كيد أخيل ذا شغل
له لم يزالا أصدق الصحب والرسَل
إلى هنا من خيم أخيل ذي الثُّبل ٦٠
بنفسي فيزداد انخذالاً على خذل»
البحر المخوف على رغم على ألم
لدى سفينته السوداء والخيم
والخوف صدّاهما عن واجب الكلم ٦١
فقال مبتدراً بالبشر والسّلم
ما الذنب ذنبكما إن تقصدا علمي

أترىذ بيغي بريساً فأأتين بها
ليأخذها وعند الخالدين وعند
لئن تولّت سرى الإغريق نازلةً

... ..

لا شك أودى به الغيظ المشوم فلم
حتى إذا قاتلوا في ظل فلكهم
فقام فطرقل يمضي أمره وأتى
تسلّمها وسارا وهي مكرهة
فغادر الربع آخيل وسار إلى
وصاح يبسط ذرعاً وهو يحدق في
«أماه ثيتيس مذ أولدتني وقضى
علي ضن بنذر المجد حيث أغا
هبت وقد سمعت من لجها صعداً
من قرب نيرا أبيها الشيخ طائراً
فعانقته وصاحت: «يا بُنيّ علا
قال والنفس صعدت زفرات
قدس إتيون ثيبه مُذ دهمنا
وزع الكسب ها هنا وخريسا
فاتانا خريس كاهن فيبو

فطرقل يا مجتبي زفسٍ فهيت قم
عد الناس والمعتدي فليشهدا قسمي
واستدفعوا العار واضطروا إلى هممي ٦٢

... ..

يذكر ولم يترؤ الأمر بالحكم
ظل الأخاءة في أمن وفي سلم»
بها بقلب بنار البث مضطرم
لفلك ملك المكينين ذي العظم ٦٣
الجرف الخلي يفيض الدّمع كالديم ٦٤
بحر طغى مستمداً رحمة الرّحم: ٦٥
زفسٌ بقصر حياتي فليصن شيمي ٦٦
ممنون في طوله يسطو على قسمي
مثل الدخان من الأمواج كالتّسم
علت فألفته يُهمي دمع محتدم
م ذا البكاء فبح بالضيم لا تجم»
«ليس تجدي لما علمت الإعادة ٦٧
وارتفدنا منه أجلّ ارتفاده ٦٨
نال أترىذ غادةً أيّ غاده
س مثير السهام يلقي المقادة

يَفْتَدِي بَنْتَهُ بِغَرِّ الْهَدَايَا
صَوْلَجَانُ مَنْ عَسَجِدٍ وَعَصَابَا
فَاتَانَا مَسْتَنَجِدًا مَسْتَجِيرَا
«سَيِّمَا الْعَاهِلِينَ مِنْ نَسْلِ أَتْرَا»
آثَرُوا حَفْظَ حَرَمَةِ الشَّيْخِ فِيهِمْ
فَابِنِ أَتْرَا اسْتَشَاطَ يَطْرَدُهُ مِنْ
ذَعْرِ الشَّيْخِ وَانْتَشَى بِلُدْعَاءِ
فَرْمَانَا سَهْمًا فَبَدَّدْنَا وَالْـ
طَفَقَتْ جَنْدُنَا تَخْرُ رَكَامًا
فَقَهُ الْأَمْرَ كَاهِنٌ ذُو سَدَادٍ
فَطَلَبْتَ اسْتَرْضَاءَهُ فَاَنْبَرَى أَتْرَا
وَأَعَدَّ الْوَعِيدَ ثُمَّ قَضَاهُ
فَأَعَدُّوا سَفِينَةً سَيَّرُوهَا
ثُمَّ سَارُوا وَأَوْفَدُوا بِنْدُورٍ
وَبَذَا الْحَيْنَ قَامَ مِنْ خِيَمِي الرِّسْ
لَا بَنِ أَتْرَا يَسْتَصْحِبُونَ بَرِيْسَا
أَنْصَفِيهِ إِذَا اسْتَطَعْتَ وَسِيرِي
وَاسْتَغِيثِي إِنْ كُنْتَ حَقًّا بِقَوْلٍ

وَيُؤْمِنَاهُ صَوْلَجَانُ السَّيَادَةِ
تُ أَفْلُونُ فَوْقَهُ مِيَّادَهُ
رَاجِيَا مِنْ جَمِيعِنَا إِنْجَادَهُ
فَجَمِيعُ الْإِغْرِيقِ حَقُّوا مَرَادَهُ ٦٩
وَقَبُولُ النَّفَاسِ الْوَقَادَهُ
بَيْنَنَا مَوْرِيًّا عَلَيْهِ احْتِدَادَهُ
وَفَبُوسِ اسْتِجَابِهِ وَاسْتِجَادَهُ
أَسْهَمَ الدُّهُمُ أَنْفَذَتْ بَدَادَهُ
بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضِهَا مَقَادَهُ
وَاحْتِدَامُ الْإِلَهِ أَدَّى مَفَادَهُ
رِيذَ حَالًا يَيْدِي عَلَيَّ اشْتِدَادَهُ
وَأَرَادَ الْإِغْرِيقُ مَنْعَ الزِّيَادَةِ
بَخْرِيْسَا إِلَى أَبِيْهَا مُعَادَهُ
شَائِقَاتٍ لِلرَّبِّ خَيْرَ وَفَادَهُ
لُ بِسَهْمٍ أُوتِيَتْ حَقُّ الْجَلَادَهُ
أَنْجَدِي ابْنًا عَلَيْكَ أَلْقَى اعْتِمَادَهُ
لِلْغُلَى فِي الْمَبِ رَبِّ الْعِبَادَهُ
أَوْ بِفَعْلٍ خَلَبَتْ يَوْمًا فَوَادَهُ

مرة قد رويت خير إفاده
 لنا استطالوا على ولي الإباده٧٠
 كم غيم العلى ويدجي اسوداده
 لك يقيه من ورطة مرتاده
 بار حالاً دَعَوْتُ يدي جهاده٧١
 بريارا في عُرف أهل السعاده
 من فسيح الألمب رام افتقاده
 من قرون أقام يوري زناده٧٢
 وارعووا عن مكيدة نَقَّاده٧٣
 قَبَّلِي ركبتيه وارجي مداده
 ب الفلك قهراً وينجد الطرواده
 أنه قد أصاد شرَّ إصاده٧٤
 حَطَّ مجد المِخْرَابِ أَيْان قاده٧٥
 وهل ولدتك كي تشقى وتشقيني
 لم تلق ضُرّاً وتذرف دمع مشجون
 في طالع السَّوءِ للأحزان والهون
 ولم تزل بين مرغوم ومحزون
 فوق الألمب سأمضي ساعة الحين
 تشكو عسى يرعوي رفقاً ويدنيني

باعتزاز سما بقصر أبي كم
 عند ما فُوسِدَ وهيرا وآثي
 وتجاروا لغل زفس الذي ير
 لم يكن بين عصبة الخُلْدِ إلّا
 فابتدرت الأغلال بالحلّ والجـ
 «مئة أذرْعاً له وهو يدعى
 ولدى الناس إيجيون يُسمَّى»
 من أبيه أشدُّ بأساً وعند ابـ
 فاقشعر الأرباب منه هلوْعاً
 أقصدي زفس ذكرِيه بهذا
 ليبد الإغريق بالجرف قر
 ليروا طيش ملكهم وهو يدري
 وابن أترا يرى بمجد علاه
 قالت وأهمت دموع الحزن: «والهفا
 ما ضر لو كنت عند الفلك مغتبطاً
 فقد ولدتك أشقى الخلق وأسفي
 تكاد تبلغ آجالاً مُعَجَّلَةً
 نعم إلى قمه بالثلج ضافية
 أشكو إلى زفس قذّاف الصواعق ما

وأنت ظل عن الإغريق معتزلاً
 بالأمس للأوقيانس سار زفس مع ال
 يقضي برحلته اثني عشر يوم صفا
 فركبته متى يأتي أقبل في
 وغادرته بقلب لاهب حنقاً
 هذا وأوذس ماض في ضحيته
 طوى الشراع إلى قعر السفينة وال
 وقام يجذف للمرفأ ويطرح مر
 فأخرج الذبح والحسناء تتبعه
 «أيا خريس أغاممنون أرسلني
 لفيس بضحابانا نقرّبهما
 آوى إليه ابنة رقت عواطفه
 صفوا على المذبح الزدان ذبحهم
 وللسماء خريس مدّ في لهف
 «يا رب كلا وذا قوس اللجين ويا
 ويا ولي خريس قد أجبت دعا
 أجب سؤالي وعن أبناء دأنوس
 كذا دعا وأفألون استجاب وهم

بقرب فلكك لا تلوي على لين
 أرباب في دعوة جلى التزاين
 بالأتبيين في رهط العرانين ٧٥
 قصر النحاس عسى يصغي ويكفيني
 لغصب غادته الميساء مفتون
 إلى خريسا وذاك الثغر مذ وصلا ٧٦
 حبال حلّ وحالاً أنزل الدقلا ٧٧
 ساة ويوثق شد الجمل معتقلا ٧٨
 ٧٩ إلى مقام فبوس فانشى وتلا
 لرد بتتك واستدراك ما حصلا
 جننا عساه يزيل الشخط والعللا
 لها وباشرت الإغريقة العملا
 ذرؤا الشعير وكل كفه غسلا ٨٠
 يد الضراعة يدعو الرب مبتهلا
 مولى بقوته تينيدسا وصلا ٨١
 دعوته وبلوت القوم شرّ بلا
 أزل وباءً على أعناقهم ثقلا ٨٢
 دعوا وذرؤا شعيراً طاهرًا فضلا

والذابح الذبح أعلى رأسه وكذا
بالشحم غشَّى حواشيها وأتبعها
فأضرم الشيخ خشباً مقطَّعةً
وحوله بسففيد مخمَّسةٍ
حتى إذا ذابت الأفخاذ واجتعلوا
ثم اشتووه وهبوا للطعام ولم
لما اكتفوا بكئوس الرِّاح طافِحةً
ظلوا نهارهم ييغون بالنعيم الـ
وعظَّموه بأنشادٍ له نُظِمَت
حتى إذا أبرزت وَزْدِي أَنْمُلُهَا
عادوا لقومهم والريح مسعفةً
هبوا إلى نشر مبيض الشراع على
راحوا ومركبهم شق العباب على
كادوا يطiron حتى قومهم بلغوا
القوة بين عَصَادَاتٍ مِثْلَةِ
وظل أخيل حانقاً عند فلكه
يُوجج في أحشائه نار غُرْلَةٍ
وفي فجر ثاني عشر يوماً مقامه
ولم تك ثيتيس لتنسى وعودها

من بعد تجريده أفخاذه عزلاً ٨٣
الأحشاء داميةً من فوقها وشلا
والخمر صبَّ عليها والصلا اشتعلا
أطرافها فتية الإغريق والنبل
باقي الحشا اقتسموا اللحم الذي فضلاً ٨٤
يكن بهم قط شاك لم ينل جُعلا
داروا وفيتهم قد رتَّلت جدلاً
شادي تقبَّل ربَّ منهم انتفلاً ٨٥
فطاب نفساً بطيب اللحن واجتذلاً ٨٦
بنت الصباح وذات الفجر مُنْجلاً ٨٧
لهم بفيض إله ذبحهم قبل
أكناف سارية ثم انشوا عجلاً
تلاطم الموج يدوي حوله قللاً
فللرصيف استجروا المركب العجلاً
وبين فلكٍ وخيم فُرِّقوا جُملاً ٨٨
بعيداً عن الشورى افتخار البواسل
ووجدٍ لضجَّات الوغى والجحافل ٨٩
أتى زفس في رهط الخلود الأفاضل ٩٠
فشقَّت عباباً حال بين المراحل

تجاوزت الجو الفسيح إلى السما
على القمة العليا بهن قد استوى
تدنّت إليه وانبرت مستجيرة
ومالت بيسراها تقبّل ركبة
«أبا الخلق زفسًا إن صدقتك خدمة
أجر ولدي أدنى الرجال إلى الردى
وأعدمه سهمًا فلا تطرحه يا
أفز جيش طروادا ليعظم قدره
فأبطأ رگام الغيوم ولم يجب
وماذا الذي تخشى فخل تعلّلا
فأعلم بين الخالدين مذلّتي»
لذلك عبر ضيق إن نمي هنا
فتوغر صدري إذ بكل نيممة
وتزعم أني للطراود ناصر
سأنظر فيما تبتغين وهاكها
ففيها بدار الخلد عهدٌ مصدّق
وحرك جفنه فمادت شعوره
بعد هذا الحديث سار الإلاهان

إلى حيث زفسٌ بالجبال العواطل
بعيدًا عن الباقيين جم المخايل ٩١
ومست يميني ذقن مولى العواهل
وتلتمس الحسنى بكل الوسائل
بقولي وفعلي بين رهط الأمائل ٩٢
فقد حطّهُ أترىذ حطّة خاذل
حكيمًا تجلّت فيه عُزُّ الشمال
ويُنزله الإغريق أسمى المنازل
على الركب انقضّت وصاحت «الأصل
وقل أو أشر بالوعد أو رفض نائلي
فقال مبيًا زفرة المتناقل: ٩٣
لهيرا انبرت لي بالجفا والقلاقل
بمجتمع الأرباب تثقل كاهلي
فَهَبِي ولا تنظرك هبةً عاجل
إشارة وعد بالإجابة قائل
وثيق وطيد لن يمس بطائل
وزلزل عرش الخلد أقوى الزلازل ٩٤
فثيتيس للعباب العسوف

عاد للصرح في المقام المنيف
 حرمةً واختشاء هَوْلٍ مخيف
 صاد كانت ما بين تلك الصفوف ٩٥
 ذات رجل اللّجّين بالمعروف
 وتلقّته بالكلام العنيف
 قمت تدني إليك طيّ السُّجوف ٩٦
 «إن أغب رمت سر غير أليف»
 «لا ترجي استطلاع كل صروفي
 غير عرفان حقك المألوف
 لك يروي له أقلّ الحروف
 أتبقّى بعلمي الموقوف» ٩٧
 ثم قالت: «وما الذي ترويه ٩٨
 تبغّي أجر أنت ما تشتهيه
 بحر أن تعتلي بمكرٍ وتيه
 رُكّتين ابتغاء أمرٍ بديهي
 ظي أخيل بكلّ ما يبتغيه
 دي ألوف الأبطال كي ترتضيه» ٩٩
 لك وأكثر ثقله التّمويه ١٠٠
 بل تذوقين طعم خذل كربه

من أعالي الأولمب غاصت وزفس
 نهضت أرباب العلى لأيهما
 حل في عرشه وهيرة بالمر
 أبصرته يلقي ابنة الشيخ نيرا
 فعليه مالت سريعاً بعزم
 «من ترى أيها الإلاه المُداجي
 قد كرهت استيداع شرك عندي
 قال ربُّ الأرباب والناس طرّاً
 لا تطيقين لا وإن كنت زوجي
 ذاك لا خالد ولا بشرٌ قبـ
 وحذار السؤال عمّا أرى أن
 رمقته بطرف عين مهابة
 أنا لا أطلب التفحص عما
 إنما خشيتي من ابنة شيخ الـ
 وافت الفجر والتفتك بلثم الـ
 وبقيناً أشرت بالوعد أن يحـ
 وبمرأى الإغريق في فلکهم تر
 قال: «غاليت في مراقبتي ويد
 لن تنالي بذاك إلا نُفوري

ولئن كنت قد صدقت بما قل
فالزمي الصمت في مكانك إِيَّا
ليس يُنْجِيكَ من ثَقِيلِ ذِرَاعِي
جَلَسْتُ أَصْمَتَ وخارت فؤادًا
فتصدى الحدّاد ذو الشّان
«فدح الأمر إن تكونا لأجل النّد
وإذا ما أوسَعْتُمَا جفَاءً
لك نصحي مهما تعي حكمةً أن
خشيةً أن يشتدّ زجرًا فتمسي
هكذا شاء قاصف الرعد وهو الـ
وهو كفوء لهدّ كل قوانا
سكني غيظه بعذب الأحاديـ
ثم زجّى لها وقد قام كأسا
همدي الرّوع كلما اشتدّ إنّي
لست كفأ مهما علقت بقلبي
ساقبي العزم مرّةً لانتصارٍ
ورمى بي من السماء فدحرجـ
فوق لمنوس خائر العزم أُمِيطُ

ست لأستحسن ما أجريه
ك خلأفا وهاك أمري فَعِيه
في أَلْمِي جميع من حل فيه»
وبنو الخلد بلبوا بلبالا ١٠١
هيفست لتسكين أمه ثم قال: ١٠٢
اس بالارض تُنْشَبان القتالا
كيف نبغي الصفا وننعم بالا
تتقيّه وأن تليني المقالا
كأس أفرحنا بذاك وبالا
أعظم الفائق الجميع كماالا ١٠٣
بعروش قد أعظمتنا جلالا
ث فيرضى عَنّا ويحسن حالا
طفحت قال: «هاك خمراً زلالا ١٠٤
مشفق أن يسومك استذلالا
لدفاع أراه أَمَرًا محالا
لك فاجترّني برجليّ حالا
ت نهاري حتّى سنا الشّمس زالا
لدى السّنت فالنقطت معالا: ١٠٥

يبهي اليدين من بعد أن هشَّ
 وأدار السُّلاف دورًا على البا
 مقبلاً يستقي من الدَّن صرفًا
 فعلا الضحك بينهم إذ رأوه
 لبشوا يؤلمون يومهم بيـ
 وفيوس بضرب قيشاره والـ
 وإذ الشَّمس بالخباء توارت
 نهضوا للمنام ضمن صروح
 وكذا زفس رام مضجعه حيـ
 وإلى جانيه من فوق عرشٍ
 ست وبشَّت تناولتها فمالا
 قين يسقي يمينهم فشمالا
 وهو يجري ويحسن الإقبال
 هارغًا فيهم بقصرٍ تعالى ١٠٦
 من طعامٍ يُؤتى وحظٍ توالى
 حُورٌ ينشُدن بهجتهً وجمال
 كلُّ ربٍ مضى يروم اعتزالا
 شاد هيفست بالسنا تتالالا ١٠٧
 ثٌ لذيذ الهُجوع يلقي الظَّلالا
 عسجدي هيرا تشوق اعتدالا

هوامش

(١) الاحتدام الويل: هو الغضب الشديد المشنوم، شرع
 الشاعر في استنشاد الإلهة (Θεα) والمراد بها إلهة الشعر والقريحة،
 وبنى منظومته على كيد آخيل بن فيلا أشد أبطال القوم بأسًا.

كان اليونان في جاهليتهم ورعين في عبادتهم مخلصين في
 معتقدتهم يجنحون إلى التماس عون آلهتهم في كل شأن من شئونهم،
 ويعتقدون الوحي والإلهام؛ ولهذا شرع الشاعر في استمداد المعونة من
 ربة الشعر؛ لتبث فيه روح النظم والإنشاد بل زاد على ذلك بأن جعلها

هي المنشدة، فمكانها هي صاحبة الفضل، وهو إنما كان ناقلاً يملئ على
الماء ما يتلقنه من فيض روحها، وهنا ينتهي الورع وسلامة الاعتقاد، هذا
فضلاً عما تجد النفس من الارتياح بالاستكانة والاستسلام إلى عضد
قوي يتوكأ عليه، فتصرف عنها إليه عبء العناية بالعمل أثناء القيام بأمر
خطير، ولقد هذا حذو هوميروس سائر الشعراء في جاهلية اليونان
والرومان، ولا سيما في مطولات ملحمتهم كقول فرجيليوس كبير شعراء
اللاتين: **Musa, mihi causas memora** ... ولما انتشرت
النصرانية في البلاد الأوروبية، وانصرف أهلها إلى عبادة إله واحد هو رب
الشعر والشعراء، وكل معقول ومحسوس لم يبق لربات الأغاني والأناشيد
محل في عقيدتهم، ومع ذلك فإن فريقاً منهم ظل يستمد عونهن على
سبيل الاستعارة، فكان شاعرهم كأنما يستغيث خصلة من صفات الباري
عز وجل ألا وهي فيض الغوث الإلهي، وعلى هذا قال تاسو في فاتحة
منظومته «أورشليم المحررة»: **O Musa, tu spira al petto**
mio celesti ardori وقال ملثن الإنكليزي في «الفردوس
الغابر» **Sing heavenly Muse** فاستنشدا ربة الأغاني وعرفاها
بالمنشدة السماوية، وهلمَّ جرّاً.

أما العرب في جاهليتهم فلم يكونوا على شيء من هذا النزلف
إلى معبوداتهم، ولا إلى جنيات الشعر اللائي كن بزعمهم يوحين إليهم،

ولم يكن شاعرهم يستنشد إلا سليقته مستحثاً فطرته الشعرية ليس إلا،
فإن امرأ القيس وقف موقف المنشد والمستنشد بقوله:

قفا نبك من ذكرى حبيب ومنزل بسقط اللوى بين الدخول فحومل

وهكذا يقال في استهلال طرفة:

لخولة أطلال بريقة ثمهد لخولة أطلال بريقة ثمهد

وقس عليهما، على أنه لما جاء الإسلام، ورسخت صحة الدين
في أذهان العرب أخذوا يفتتحون مصنفاتهم ومؤلفاته بالبسملة عملاً
بالحديث القائل: «كل أمر ذي بال لا يبدأ فيه ببسم الله الرحمن الرحيم
فهو أبتى» «أو أقطع أو أجزم» ثم يأتون بالحمدلة، والصلاة والسلام
على النبي، فإنك لا تكاد تجد مؤرخاً أو مؤلفاً أو شاعراً نظم في علم أو
فن إلا رأيته نحا هذا النحو إلا في قصار المنظومات كقصائد المدح،
والهجاء، والغزل، والرتاء، فليست كلها بأمور ذات بال.

(٢) الإخاء أو الآخائيون قبيل من الناس يُظن أنهم قدموا من
تساليا، ونزلوا ببلاد الأرغوليدة، وكانوا أثناء حرب طروادة أعز اليونان
شأناً؛ ولهذا كثيراً ما يطلق هوميروس اسم الآخائيين على جميع اليونان
من باب التغليب.

(٣) آذيس: إله الجحيم، والقيول: الزعماء والأبطال، كانوا
يعتقدون أنه لا بد لنفس الميت من الانحدار إلى جحيم، فإن كان من
أهل الهناء عبر النهر العظيم على صراط مستقيم إلى ديار النعيم، وإن

كان من أهل الشقاء لبث في عذاب مقيم، بعد أن ذكر الشاعر كيد
آخيل أتى على وصف وبال ذلك الكيد على الجيش، فبدأ بالشر
الآهون، وهو هلاك أبطاله، وانتهى بالشر الأعظم، وهو وقوع الطير
والكلاب بجثث القتلى، ولم يكن بالممكن أن يأتي بأبلغ من هذا
الوصف؛ لأنهم كانوا يؤثرون دك معاقلهم وتدمير مدنهم، وفناء مقاتلتهم
عن بكرة أبيها على عار بقاء قتلاهم في العراء خصوصاً أنهم كانوا
يعتقدون أن إحراق الجثة ودفنها يسهلان على الميت اجتياز السبيل إلى
مقام السعادة، وأشعار العرب مشحونة بمثل هذا المعنى أي: عبث الطير
والوحوش بجثث القتلى نجتزئ منها بذكر شيء من شعر عنتره قال:

تقلبه وحش الفلا وتنوشه من الجو أسراب النسور القشاعم

وقال:

تحوم عليه عقبان المنايا وتحجل حوله غربان بين

وقال:

وبالسيف قد خلفت في القفر منهم عظاماً ولحمًا للنسور الكواسر

وقال:

كم فارس غادرت يأكل لحمه ضاري الذئاب وكاسرات الأنسر

ولكن العرب لم يروا رأي اليونان فما افتراس الكواسر شلو القليل
غضاضة عليه، ولا دون ذلك عقبة تقف في سبيله إلى الجنة، بل ربما
كانت تلك أمنية البطل المحراب، قال العبسي:

فيا رب لا تجعل حياتي مذمة ولا موتي بين النساء النوائح
ولكن قتيلاً يدرج الطير حوله وتشرب عقبان الفلا من جوانحي

وقد وضع هوميروس الكلاب موضع الوحوش لسبيين: أولهما:
قصد المبالغة في ما نالهم من الهوان، والثاني: مراعاة موقفهم في
الحرب، فإنهم إنما كانوا يقاتلون حول بلدة آهلة بالسكان، فلم يكن
للوحش من سبيل إلى بلوغ القتلى والجنود محدقة بهم من كل جانب.

(٤) زفس كبير آلهتهم وهو المشتري، ولم أر له ذكرًا بلفظه
اليوناني في شعر العرب، وهو زاوئش أبي نواس بقوله:

صورة المشتري لدى بيت نور الـ ليل والشمس أنت عند انتصاب
ليس زاوئش حين سار أمام الـ حوت والبدر إذ هوى لانصاب
منك أسخى بما تشح به الأنفـ س عند انتفاض در الحلاب

ولكن أبا نواس أخذ هذا التعبير عن الفرس دون اليونان يؤيد ذلك
قوله بعد هذه الأبيات:

لا وبهـرام تستقل به العقـ رب بالليل رائدًا بالحساب
منك أمضى لدى الحروب ولا أهـ ول في العين عند ضرب الرقاب

وبهـرام الفرس هو أريس اليونان إله الحرب

وقال: إن غضب آخيل إنما كان بمشيئة زفس، وقد فسر
فلوترخوس كلمة زفس (Ζεύς) هنا بمعنى القدر ليدراً عن أبي الآلهة

شائبة القضاء بفتنة بين عباده، ويرد على ذلك بأن زفس هو رب القدر ولا قدر إلا بقضائه، وأحسن ما يمكن من التخريج في هذا المعنى أن يقال أنه تجاوز عن إخماد تلك الفتنة بل أذن في شوبها عقاباً لليونان؛ لتغاضيه عن إجحاف أغاممنون بحق آخيل على ما سيأتي.

(٥) ذكر هنا أن تلك الفتنة كانت بين أتريد وآخيل، وأتريد أو أتريذس كنية أغاممنون زعيم زعماء اليونان، ومعناها ابن أترا أو أتراوس، وهي صيغة يونانية للإعلام، وقد تطلق أيضاً هذه الكنية على منيلا أو منيلاوس أخي أغاممنون، وكلاهما حفيد أترا لا ولده، والعرب تكني بالجد والجدة، ومن فوقهما كقول الفرزدق في زين العابدين: هذا ابن فاطمة إن كنت جاهله بجده أنبياء الله قد ختموا

ولم يكن زين العابدين ابن فاطمة بل حفيدها، ولم يكن النبي جده بل جد أبيه، ونقول السموأل بن عاديا، وعاديا جده لا أبوه، وقد لقب آخيل هنا وفي غير موضع بالمجتبي؛ إما إعجاباً به، وإما إشارة إلى إعرافه بسمو النسب فإن فيه شيئاً من دم الآلهة على ما سيأتي، والكنى والألقاب كثيرة في الشعر اليوناني ككثرتها في الشعر العربي، وأكثرها للتعظيم.

(٦) لما فرغ من استنشاد الآلهة، وأتى على ذكر الموضوع والعلة والنتيجة، وقف مستفهماً عن الإله المسبب لتلك النوائب، قال أفستاثيوس: «ثم توارى الشاعر كأن كل ما يلي من الحديث موحى إليه به

من إلهة الشعر، وتراه في سياق النظم يستنشد لها حينًا بعد حين؛ لئلا تغرب عن ذهن القارئ». ١ هـ، وكأنها أخذت تقص عليه، فقالت: إن السبب فيوس إله الشمس، وهو المعروف أيضًا باسم أفلون، وعطفت عليه زفس؛ لأن فيوس وسائر الآلهة لا يستطيعون أمرًا ما لم يؤازرهم زفس عليه.

(٧) ابن لاطونة هو فيوس، يقول: إنه رام بأغاممنون سوءًا لما لقيه منه من الجفاء.

(٨) الهم الشيخ الهرم، أي: إن السبب في غضب الآلهة إهانة الملك أغاممنون لكاهن خريس.

(٩) ولدا أترا هما: أغاممنون ومنيلا كما تقدم، وقلّ حمل.

(١٠) المسجد الذهب، إن في قدوم الكاهن رافعًا بيده صولجان إله إشارة إلى أنه أتى بهيئة المستجير، وقد كان من عاداتهم أن يتخذوا صوالج تقام في هياكل معبوداتهم، فصولجان القمر كان فضيًّا، وصولجان أفلون كان ذهبيًّا.

(١١) الأولمب أو الأولمبس: جبل كان فيه مقام زفس، ومجلس شورى الآلهة، اشتهر بهذا الاسم ثلاثة جبال: أولها: السلسلة الممتدة بين تساليا ومكدونيا، وتعرف الآن قماتها العليا باسم لاشا، وهي التي كان

فيها منتدى الآلهة، والثاني: هو المدعو الآن كشيش طاغ وراء مدينة بورصة «عمُوريّة». والثالث: هو جبل الأطاغ الواقع بين بولي وأنقرة.

(١٢) قال أفستاثيوس: «إن في خطاب الكاهن خريسيس» أو خريس» حد الإعجاز في البلاغة، فإن جيش اليونان كان قادمًا من بلاد شتى بعضها ملكية، وبعضها شوروية، فاسترضاهم جميعًا بقوله: «فرعي أترا وقوم أخايا» بأن جعل خطابه موجّهًا للملوك وعامة الشعب «واحتذاء الحذاء الجميل صفة من صفات اليونان في شعر هوميروس» ثم أدى بعبارة موجزة أبلغ ما يمكن أن يقال في هذا المقام، فإنه دعا لهم بالنصر ومعاودة الأوطان، وهما غاية أمانهم واستحلفهم بإلهه أفلون استحلًا ولا يخفى ما يتضمن هذا الاستحلاف من الوعيد الخفي، وأفلون أو فيبوس كان ابن زفس؛ لأن الآلهة عندهم كالبشر بعضٌ أبناء بعض.

(١٣) بعد أن فرغ الكاهن من خطابه قال: «فجميع الإغريق ضجوا قبولًا» وإجماعهم هذا يدل على أنهم حكموا حكمًا صوابًا، وأن أغاممنون إنما جار وتعسف، وهم مع ذلك لم يقاوموه خوفًا من اختلال نظام الجند؛ لأنه كان القيل الأعظم.

(١٤) قد استطال أغاممنون على أفلون بكلامه في هذا البيت، وسيعلم القارئ أن هذا الإله كان مظهرًا للطرواد، فلم يكن من العجب أن يحط اليونان بسورة الغضب شيئًا من كرامته، وخصوصًا لأن فريق

أنصارهم من الآلهة كان يحثهم أحياناً على العبث بكرامة الفريق الآخر حتى أثينا إلهة الحكمة أمرت ذيوميذ «في النشيد الخامس» أن يطعن الزهرة ربة الغرام.

(١٥) إن في ذعر الشيخ ووجومه وانثنائه راجعاً من حيث أتى، وهو لم ينبس ببنت شفة لجواباً بليغاً على كلام أغاممنون، فإن هذا الصمت أوقع في النفوس من كل جواب، وحسب القارئ أن يتصوره راجعاً على تلك الحال، والبحر يعج كأنه يناجيه بما في نفسه، فيعلم ما كان عليه من الكآبة وانقباض الصدر، ورب صمت أبلغ من خطاب.

(١٦) ذو قوس اللجين لقب من ألقاب أفلون إله الشمس، وقد يلقب برشّاق النبال أو زجاج السهام، ولا يخفى ما بين هذا اللقب وأشعة الشمس التي يمثلها أفلون من النسبة المعنوية، تينيذس جزيرة تجاه ساحل طروادة على مقربة من مدخل الدردنيل كانت فيها معابد لأفلون، ويسمىها الترك بوزجه أظه أي: الجزيرة الشهباء.

(١٧) خذ بنطاقي أي: أعني وأجرني، ولي السمنث أو السمنثي لقب آخر لأفلون كان يطلقه عليه أهالي تينيذس وسواحل بلاد طروادة، وكان في أرض طروادة بلدة تدعى سمنثا إلا أن اليونان كانوا يرجعون بأصل هذه التسمية إلى اشتقاق آخر، قال إسطرابون: «أنه من كلمة (Σμινθιοι) ومعناها الجرذان». ذلك أن آل طفقير لما نزحوا من أكريت إلى البر المقابل أوحى إليهم أن ينزلوا حيث يبادر السكان إلى

استقبالهم، فأتت الجرذان ذات ليلة وسطت على حمائلهم وجلود تروسهم، فقالوا: إن الآية قد فسرت، وأقاموا حيث كانوا وشادوا هيكلًا لأفلون ولقبوه بالسمنثي، كلاً بليدة كانت قرب ثيبة وخريسا كان فيها معبد لأفلون الكلي، وهو لقب آخر له، وخريسا بلدة كانت في منتهى خليج أذرमितة عند مصب كيلوس على مقربة من ثيبة كان فيها خريس كاهنًا لأفلون، وهي غير خريسا الجزيرة المحاذية للمنوس.

(١٨) أراد بأبناء دانوس جماعة اليونان، بعد أن استعطف الإله بألقاب التبجيل، وذكره بما تستوجهه عبادته وخدمته له من الرعاية ناشده أن ينتقم له لما يذرف من دموع الكآبة، وهذا أول دعاء في شعر هوميروس، وسرى في البيت التالي أنه لم يكذب يفرغ الكاهن من دعائه حتى استجيب، وقد نهج في كل شعره هذا المنهج لينبه القارئ على وجوب الصلاة، وفائدة الورع، وصحة العبادة وهو نهج حسن، واعتقاد رصين راسخ في كل دين.

(١٩) مزمهر: محتدم غيظًا.

(٢٠) الغضب الكلاب.

(٢١) قيل: إنه في السنة العاشرة لحصار طروادة تفشّى وباء في معسكر اليونان، فسرى بين الناس والحيوانات، أما بين الناس فلعله كان من شدة الحر وفرط العناء، وأما بين الحيوانات فلعله كان من ذلك ومن فساد الأطعمة وقتلتها، فصاغها هوميروس بقالب جميل، فجعل المسبب

أفلون إله الشمس وأشعتها نباله، وأسهم الرزايا ونبال المنيا استعارة لطيفة
واردة في كثير من الشعر القديم والحديث، قال أبو الطيب:

رمانى الدهر الأرزاء حتى فؤادي في غشاءٍ من نبال
فصرت إذا أصابتنى سهامٌ تكسرت النصال على النصال

ومن كلام داود النبي: «فيرمهم الله بسهم وضرباته تكون بغته»
«مز ٦٣» وزاد في حسن التعبير ودقة المأخذ، فجعل الخطب النازل
عقاباً لأغامنون على كفره به، وإهانته لكاهنه كل هذا حثاً على البر
والنقوى، أما كون الكلاب والبغال سرى إليها الداء قبل الناس ففيه نظر
دقيق، قال الموسيوداسيه: «إنها لطريقة حسنة لردع البشر عن السوء،
فلهم في ضرب الحيوان موعظة يتعظون بها لو اتعظوا، فيتوبوا ويرعوا
قبل أن يحل بهم السخط، وتنكبهم النوائب فترضى العناية عنهم فلا
تسومهم العذاب، فإن ضربات مصر أنزلها الباري عز وجل على هذا
النمط، فضربت الخيل والحمير وغيرها من عجماءات الحيوان، فلما لم
يعتبر المصريون ضربهم الله بأنفسهم».

(٢٢) هيرا امرأة زفس وظهيرة اليونان، والأراغس اليونان من باب
التغليب كما قيل الأخائيون في غير موضع، وكما نطلق عليهم الآن اسم
اليونان، وما هم كلهم يونان.

(٢٣) إن في انتداب هيرا لآخيل دون سواه من الزعماء لعقد
المجلس لحكمة يفقهها القارئ إذا علم أن كلام الشاعر رمزي. قال

فلوترخوس: «إن آخيل كان أعلم الملوك بحالة الوباء لما سبق له من درس الطب على خيرون». وزاد أفستاثيوس: «إن هيرا أوحى إلى آخيل ما أوحى؛ لأنه كان أعلمهم بفساد الهواء، وهي إلهة الهواء كما سترى في ترجمتها». واسم الهواء باللغات الإفرنجية مشتق من اسمها اليوناني (Ηρη).

(٢٤) لما حشد آخيل رؤساء الجند قام فيهم خطيباً فوجه كلامه إلى أغاممنون لثلاثة أسباب؛ أولها: أنه زعيمهم، والثاني: أنه كان المتسبب بهذا الوباء، والثالث: أن اليونان لم يقدموا على هذه الحرب إلا انتصاراً له ولأخيه منيلا، فذكر ثقل الرزء عليهم حتى كادوا يضطرون إلى القفول على لجة البحر وهيئات، ثم طلب استطلاع كنه السر في غضب أفلون، ولا سبيل إلى ذلك باعتقادهم إلا بالعرافة والكهانة، وتفسير الأحلام، وهي عادة جرى عليها القدماء في كل الملل والنحل، وأمثلتها كثيرة في التوراة، وكانت شائعة في جاهلية العرب وحسبك منها أخبار شق وسطيح، وكان العراف عند العرب ساحراً ومنبئاً بالغيب وطبيباً أيضاً. قال الشاعر:

جعلت لعراف اليمامة حكمة وعراف نجد أن هما شفياني

ومن قولهم في استفحال الأمر وبلوغ درجة القنوط: «إذا سال بك العراف لا ينفعك العراف». وأخيراً عمد آخيل إلى ذكر الوسيلة التي

كانت في ظنه حسنة لاسترضاء الإله، فقال: عساه أن يرضى إذا كفرنا
عما سلف، فضحينا له بخيار العنز والحملان.

(٢٥) كان كلخاس بن ثسطر عرّافاً وناخذاة أي: دليلاً لهم في
البحر، فلهذا كان معزز الجانب لشدة ما بهم من الحاجة إليه، فإنه لم
يحمل مع من حمل على بلاد الطرواد في أول الأمر، فضلوا الطريق
وأبحروا إلى ميسيا ظناً منهم أنها طروادة، وأخذوا يعيشون فيها ثم ما لبثوا
أن تبين لهم الخطأ فرجعوا عنها، وذهب أغاممنون بنفسه إلى ميغارة،
فأتى بكلخاس لما كان يؤثر عنه من معرفة سلك البحار، فقاد سفنهم في
الربيع الثاني إلى حيث كانوا قاصدين.

(٢٦) يشير إلى أغاممنون.

(٢٧) قال ابن الوردي:

جانب السلطان واحذر بطشه لا تعاند من إذا قال فعل

(٢٨) أشار كلخاس إشارة لطيفة إلى أغاممنون، وأما آخيل في
جوابه فصرح تصريحاً؛ لأنه كان ملكاً مثله، ولا يفضلُه أغاممنون إلا
بالرئاسة الوقتية، وفي كلام آخيل في هذا الموضع دلالة واضحة على ما
سيرد من وصف بأسه وعلو جانبه من وجه، وحقده وجفائه، وقلة رعايته
لرئاسة الرؤساء من وجه آخر.

(٢٩) كان أغاممنون حاقداً على كلخاس؛ لأنه أنبأه قبل بضع سنين بأن سيضطر إلى التضحية بابنته أفيجينيا؛ ولهذا لقبه بمنبئ السوء ووصفه بما يلي، على أن أغاممنون مع غيظه وحدته كان أحلم من أجباب ملك إسرائيل بما أنبأه ميخا بمآله «فقال ليوشافاط ألم أقل لك أنه لا يتنبأ عليّ بخير بل بشر «٢ أي ٨: ١٧» ثم أمر بسجنه وقال: «قوتوه خبز الضيق وماء الضيق إلى أن أرجع بسلام» «٢ أي ١٨: ٢٦».

(٣٠) أن في قول أغاممنون هذا اعترافاً بحبه لها قال ذلك؛ ليتصل بعض المتصل من ذنبه، وليكون له من حبه شافع يماسكها عن أبيها، ثم أردف هذا الاعتراف بقوله: «فأخلي سبيلها» ليزداد فضله بالإفراج عنها مع شغفه بها، قاله بوب.

(٣١) أي: إنه اشترط عليهم أن يعوضوه بدلاً منها.

(٣٢) الظاهر أنهم كانوا يفاخرون بإحراز السبايا والأسلاب؛ لأنها تدل على بسالة محرزيها، ولا يقابلها عند العرب إلا المفخرة بالأسرى والقتال أي: الخيل التي يرمى عنها فارسها في ساحة القتال، فإن إحرازها كان محط الفخار في جاهلية العرب ولا يزال، وربما فخروا أيضاً بالسي كقول الشاعر:

وعادوا بالغنائم حافلات وعدنا بالأسارى والسبايا

أما سائر المكاسب فقلما كان العرب يحرصون على حفظها بل ربما كانوا يجودون بها كلها، ثم افتخروا أنهم لم يبقوا على شيء منها، وحسبوا أن الأثرة بها وصمة عار ذميم، قال عنترة:

أنا إذا حمس الوغى نروي القنا ونعفُ عند تقاسم الأنفال
وقال: يا عبل لا تخشي علي من العدى يومًا إذا اجتمعت علي جموعها
فيكون للأسد الضواري لحمها ولمن صحبنا خيلها ودروعها

وهكذا كلام كله يشير إلى أن البطل الباسل كان يترفع عن اختصاص نفسه بما حق له من سلب العدو، قال أبو تمام:

هيات زعزعت الأرض الوقور به عن غزو محتسب لا غزو مكتسب
إن الأسود أسود الغاب همته يوم الكريهة في المسلوب لا السلب

أما السبايا قبل الإسلام فكانت عندهم في جملة المتاع، ولم يرد عن ملك منهم ظفر بسبية، فقال: إنها خير من زوجه الحليلة، كما قال أغاممنون، وإن شغف بحب السبية فوق شغفه بالزوجة، ولم يرفع قدر السبيات عند العرب إلا في صدر الإسلام بعد أن كثر السبي من الروم والفرس، وكان منهن نساء محمودات ولدن أولادًا نبغوا في الإسلام؛ كالسيتين الفارسيتين اللتين كانتا لولدي أبي بكر الصديق وعمر الفاروق، واسكلا التي أخذت للمهدي من طبرستان، فكانت أم ولده إبراهيم وغيرهن كثيرات، ووجه المقابلة فيما تقدم أن اليونان كانوا أوفر حكمة، وأكثر رعاية للنساء، وأما العرب فكانوا آبي نفسًا، وأسخى طبعًا.

(٣٣) لم نر شاعرًا أكثر من هوميروس مراعاة لحق كل ذي حق في كلامه، فإنه وإن كان المقام مقام مهاجاة بين آخيل وأغاممنون فإن كلاً منهما يلقب الآخر بما يظنه فيه من المحمدة والمذمة، فهو ينطق بلسان الطبيعة بلا تكلف، فترى آخيل يعترف لأغاممنون بسمو المقام، ثم يصفه بالطمع الشديد، وأغاممنون يندد بآخيل ويسلبه ما عز لديه، وهو مع هذا يشبهه بالآلهة كما ستري في جوابه، قال عنترة:

إذا جحد الجميل بنو قرادٍ وجازى بالقبيح بنو زيادٍ
فهم سادات عيس أين حلوا كما زعموا وفرسان البلاد

(٣٤) كثيرًا ما يشبه هوميروس رجاله بالأرباب لصفة يمتازون بها فأخيل وهكطور لبأسهما، وأوديس لحكمته، وفاريس لجماله، وهلم جزًا، وعلى هذا جرى شعراء العرب في التشبيه بالملائكة والأنبياء.

قال ابن هاني:

وكأنما أنت النبي محمدٌ وكأنما أنصارك الأنصارُ

وقال أبو الطيب المتنبي:

يا أيها الملك المصطفى جوهرًا من ذات ذي الملكوت أسمى من سما

(٣٥) جملة سهمك فائز حالية معترضة بين المبتدأ والخبر، والمعنى هل خطر ببالك أن ترد سبتي التي كانت سهمي ويبقى سهمك بيدك.

(٣٦) سرانا: جيوشنا.

(٣٧) الغراب الحالك: السفينة السوداء.

(٣٨) الأرادم: الملاحون، والحسناء خريسا فقد رضي أغاممنون هنا أن يسيرها إلى أبيها.

(٣٩) تستعمل العرب هذا التعبير بهذا المعنى فتقول: «فلان عجيب الحال وأمره عجب وعجيب». قالوا: سئل إسحاق الموصلي عن المخلوع فقال: «كان أمره كله عجبا».

(٤٠) ففيما مسقط رأس آخيل، وكانت قاعدة مملكة فيلا أبيه، وإليهم الأبطال.

(٤١) كان آخيل معتزاً ببأسه فتهدد أغاممنون بالقفول إلى أوطانه موقناً أنه إذا غادر ساحة القتال يندحر اليونان، فيذل أغاممنون فيشفي حزازة صدره منه، وما أحسن قول عنترة في هذا المعنى:
سيدكرني قومي إذا الخيل أصبحت تجول بها الفرسان بين المضارب

وأحسن منه قوله:

سيدكرني قومي إذا الخيل أقبلت وفي الليلة الظلماء يفقد البدر

وقوله:

ستذكرني المعامع كل وقتٍ على طول الحياة إلى الممات

(٤٢) أراد أغاممنون بقوله هذا أن يحط من شأن آخيل؛ لأن الفضل بكونه باسلاً لرب أولاده البسالة لا له، وفيه مع هذا اعتراف صريح بشدة بأسه، أما قوله بفاتحة جوابه: «إذا وقد رمت انهزاماً» فهو كلام لم يكن يعتقد أنه أغاممنون، ولم يقله إلا تحقيراً لآخيل في أعين الجند، وتخفيفاً لوجدتهم عليه شأن الخصم الذي يتظاهر بالإزراء بخصمه مع ما يكنه له من الإعظام.

(٤٣) المرامد أو المرميدونة قوم آخيل كانوا كالأخائيين من البلاسجة، قال كلافقيه في تاريخ جاهلية اليونان أن آخيل كان لهذا السبب أول ملوك اليونان بعد إغاممنون.

(٤٤) أراد أن يزيد آخيل علماً بقلّة عبئه به ويزيده كيداً بهذا العلم، قال أبو العلاء:

أقل صدودي أنني لك مبغض وأيسر هجري أنني عنك راحل

(٤٥) يرى المطالع أن الفتنة تشتد شيئاً فشيئاً بين الملكين، وكلما طال المجال خشتت اللهجة، واذكر آخيل بطشه وأغاممنون علو منزلته بما له من السيطرة العامة، فإنه طلب بادئ بدء بدلاً من خريسا بلا تخصيص، ثم زاد حنفاً فخصص سبايا إياس وأوذيس وآخيل، ولما تناهى به الغيظ عمد إلى طلب سبية آخيل دون سواها.

لست أدري أهي سنة في خلق الله أم تحامل من المشترعين
والشعراء أن تُعزى نشأة الفتن والشُرور إلى ربّات الجمال، وبنات جنسهن
منذ أغوت أمتنا حواء أبانا آدم، فقد علمنا أن عادة حسناء كانت العلة في
تلاحم أمتين عظيمتين وهي هيلانة زوج منيلا، وإن شئت فقل زوج
فارس، وإن عذراء أخرى كانت السبب في انهيار غضب الآلهة على
اليونان، فكادوا يبیدون بالوباء وهي خريسا، ثم ما لبثوا أن تفاقم الخطب
عليهم بسبب فتاة ثالثة هي سبية آخيل، وسنرى في ما يلي أن معظم
الفتن التي ثارت بين الأرباب نشأت عن مكامن صدر الأنثى حتى في
السماء، نرى هذا في شعر هوميروس مع أنه لم يوف شاعر ما وقى من
حق بنات الجنس الجميل بكل أحوالهنّ، ومدح أخلاقهنّ وإثبات
فضائلهنّ، وهن بنات وأخوات وأزواج، وأمّهات أحراراً ورفيقات، على أن
هوميروس كان مصوراً قصر عن شأوه في وصف أحوال الطبيعة كل شاعر
ورسام، فالتمّ بها من كل أطرافها ومثل ما حسن منها وما ساء، وللمعجبين
بوليات المحاسن أن يقولوا دفاعاً عنهن في هذا الموضع، وأشباهه أنه لما
كان الجمال مطمح بصر الرفيع والوضيع، وللنساء منه النصيب الأوفر
كان هو منشأ للنزاع، فما بعد ذلك جريرة لصاحب ذخر ثمين يتنازع
الناس على إحرازه، فإن كان ثمة إثم فهو إثم المتنازعين من الرجال.

(٤٦) أشعار جمع شعر. وأثينا: إلهة الحكمة.

(٤٧) زرقاء اللواظ صفة لأثينا، والزرقاء شعار السعة ونسبتها المعنوية للحكمة ظاهرة، وهيرا امرأة زفس، وإلهة الهواء يلقبها بيضاء الذراعين إشارة إلى النقاء.

(٤٨) إن في هبوط إلهة الحكمة على آخيل وحديثها معه لتمثيلاً رمزياً بديعاً لحالة ما يتناوب الغضوب تبعاً من الحمق والتروي، كاد يدفعه ضيق الصدر في أول الأبيات إلى الفتك بأغاممنون وجماعته حتى انتضى حسامه وهو لا يشعر بما فعل، فإذا بأثينا هبطت من السماء ولم يرها سواه أي: إنه انتبه عند انتضاء السيف أنه إنما يأتي منكراً، فتأني وناجته نفسه بوجوب الإرعواء لما له من المكانة بينهم، فلا بد أن يضطروا إلى بأسه لدفع الأعداء، فيزيد شأنه علواً وينحط خصمه في أعين قومه، فسكن جأشه وأغمد سيفه، ثم غادرته أثينا أي: الحكمة، فعاوده الغيظ ولكن سورته كانت قد همدت بما استبقت فيه من الأثر، فأجتزأ عن البطش بالسباب كما سترى.

(٤٩) كل فئة من الناس تشبه بما حولها من مكونات الطبيعة، فبلاد اليونان كثيرة الجبال والهضاب والغاب، فتكثر فيها الأيلة؛ ولهذا أكثر شعراء اليونان من تشبيه قلب الجبان بقلب الأيل كما أكثر العرب؛ لانبساط بلادهم وكثرة الظباء والنعام بها من التشبيه بالطبي والنعامة كقول الشاعر:

أسد عليّ وفي الحروب نعامة فتخاءً تفزع من صفير الصافر

وقول أبي تمام:

إن يعد من حرها عدو الظليم فقد أوسعت جاحمها من كثرة الحطب

والظليم فرخ النعامة، وأما لحاظ الكلاب فكناية عن البذاءة والقحة.

(٥٠) بعد أن وصف أغاممنون بالسكر والبذاءة والجبن زاد كلامه إيضاحًا بقوله «لم تقد قط صيدهم بكمين» إذ كانوا يتخيرون أبسل المقاتلة ليكنموا للعدو، فترصد الأعداء على هذه الصفة كان عنوان البأس والشجاعة؛ لأنه يقضي على فئة قليلة بمقاتلة جيش كبير.

(٥١) اعترض بعض الشراح على هوميروس بجعل آخيل يقسم بالصولجان، ولا يقسم بزفس أو غيره من الآلهة محتجين عليه أن الصولجان قطعة من خشب لا تملك نفعا ولا ضرا، وهو اعتراض في غير محله، ولا أرى له قسما أوفى بالمرام من هذا القسم في هذا الموضع، فقد تقدم أن إلهة الحكمة غادرت، فلم يكن له أن يوجه نظره إلى الآلهة، فكان من البديهي أن يقسم بشيء محسوس يملأ بصره، ولم يكن ثمة إلا الصولجان، فأقسم به وهو شعار الملك والقوة عند اليونان كما كان عند كثير من الأمم، ولنا في سفر احشويرش في التوراة شاهد بين عليه، فكأنه أقسم بما له من القدرة والعظمة، هذا فضلا عما هناك من

حسن التمثيل بقوله بعد هذا: «هيهات يخضل» أي: إن عصا الملك التي قطعت من شجر الجبال، وعريت من ورقها لا يعاودها رونقها وزهاؤها، وهكذا لن يتمكن بيننا التواد بعد قطع علائق التصافي وحسن الولاة، ثم إن القسم بالمحسوس أسهل منلاً وأقرب من القسم بغير المحسوس سواء أريد به قوة غالبية أو لم يرد، فقد كان حلف العرب بالبيت والركن، والخطيم وزمزم أكثر منه بمعبوداتهم وأصنامهم.

(٥٢) القتر جمع قثير المسامير، لم يذكر الشاعر أصولجان آخيل كان بيده أم صولجان أغامنون، ولا أخاله إلا صولجان أغامنون، وإن كان بيد آخيل؛ لأن قوله: «وهو ولي لجموع الإغريق» يدل على أنه كان صولجان صاحب السيطرة الكبرى، فلما كان آخيل هو المنتدب لحشد المجلس كان له أن يتناول صولجان السيادة من صاحبه، فإن أوديس تناوله منه في النشيد الثاني عندما أخذ يطوف على زعماء الجيش.

(٥٣) إن تشبيهه نطق نسطور بالشهد لأشهى من الشهد، وقد استعاره من هوميروس كتبة الإفرنج، وهو وارد كثيراً في كلام العرب شعراً ونثراً أخذاً عن الطبيعة مأخذ هوميروس نفسه.

فمن ذلك قول الصاحب بن عباد للقاضي أبي الحسن علي بن عبد العزيز:

بالله لفظك هذا سال من غسل أم قد صببت على أفواهنا العسلا

وقول الثعالبي للأمير أبي الفضل عبد الله الميكالي:

سبحان ربي تبارك الله ما أشبه بعض الكلام بالعدل
مثل كلام الأمير سيدنا نظمًا ونثرًا يسير كالمثل

ويقولون: كلامٌ له من الهواء رفته، ومن الماء سلاسته، ومن
السحر نفثته، ومن الشهد حلاوته، وما أشبه.

(٥٤) فسر البعض كلمة (Iéveç) بمعنى قرن فيكون عمر
نسطور زهاء الثلاثمائة سنة وهو غير معقول، ولكن الأكثرين يفسرونها
بمعنى جيل من الناس، وهُوَ الصَّوَابُ ومُعَدَّلُ مدة الجيل نحو ثلاثين سنة.
قال بعضهم: إن عمره أثناء حروب طروادة كان نحوًا من ستين أو أكثر
قليلاً، على أن عقيلة داسيه أتت بحجة أخرجت منها أنه كان خمسًا أو
ستًا وثمانين ذلك أن قُدِّرَت المدة المنقضية بين حرب القناطرة التي
ذكرها بخطابه، وحرب طروادة هذه بخمس أو ست وخمسين سنة، ولم
يكن عمره إذ ذاك بأقل من عشرين تضاف إليها عشر سني الحرب،
فتبلغ ما تقدم، وهذا يقرب من قول هيرودوتس إذ يجعل سني الجيل
ثلاثًا وثلاثين سنة، فيكون عمر نسطور بين الثمانين والمئة.

ومن غريب الاتفاق في الخطأ أن بعض كتاب العربية يقيمون
الحيل مقام القرن كما جرى لبعض مفسري اليونانية.

(٥٥) شين جمع شبة، وهو البطل الباسل.

(٥٦) القنطرة جمع قنطورس أو قنطير، وهو مخلوق خرافي كان يأوي إلى أكم تساليا، وأجمها زعموا أنه له شطر إنسان قائماً على شطر حصان كما ترى في الرسم، والأصل في هذه الخرافة أن القوم كانوا فرساناً محنكين فما زال أصحابهم يبالغون في إطرائهم حتى ألصقوا الفارس بالفرس، وهم إنما كانوا في بدء أمرهم كبنى عمران بقول المتنبي:
 الثابتين فروسة كجلودها في ظهرها والطعن في لباتها
 فكانها نتجت قياماً تحتهم وكأنهم ولدوا على صهواتها



القَنْطُورُسُ أو القَنْطِيرُ.

والقنطورس أيضاً أحد الأبراج الثمانية والأربعين التي رسمها بطليموس، ونقلها عنه العرب، فغيروا رسمه ومثلوه بهيئة دب ممتطٍ

حصاناً، ولا ريب أن لفظة القنطير عند العرب بمعنى الداهية مأخوذة من هذه المادة.

(٥٧) شبه آخيل بالحصن وقد شبه به إياس في ما يلي، والعرب تشبه بالحصن والمعقل أما للدلالة على علو الهمة بالذود والكفاح على ما يراد هنا كقول العبسي عنترة.

أنا الحصن المشيد لآل عبيس إذا ما شادت الأبطال حصنا

وأما للدلالة على الحكمة وأصالة الرأي اللتين تقومان مقام الحصون، كقول الزمخشري من إنشاد أبي زيد.

كهولٌ معقل الطرداء فيهم وفيان غصارفة فروغ

لا شيء أليق بالمقام من توسط نسطور خطيب اليونان وحكيمهم بين الملكين المتخاصمين، ولا كلام أبلغ ولا أرق من كلامه، شرع أولاً في إعظام البلاء والتهويل بشماتة الأعداء، ثم ذكرهما أنه أرشد منهما فيجدر بهما الانقياد إليه لما مرَّ عليه من سني الاختبار الطوال، ولما مر له من النصيح والإرشاد لأقوال ليسوا دونهما عزوة واقتداراً، وفصل تفصيلاً ليطول بهما المجال فيتلطف الغضب، ثم تزلف إلى كل منهما بما يرضيه غير مؤثر أحدهما على الآخر، ولم يكن من تصد الشاعر أن يكون هذا الخطاب فاصلاً كل نزاع، وإلا لانتهدت القصة عند هذا الحد، ولكنه لم يكن حسناً أيضاً أن يذهب كلام الخطيب ضياعاً، فكان له شيء من حسن الوقع في نفسيهما، فإن أغاممنون أجابه بقوله: «يا شيخ

حكمةً نطقت» وقال آخيل بعده: «لأجل فتاتي لست منتضيًا نصلي»
فيتضح من ثم إن الشر قد هان بفضل نسطور، وراح كل منهما في
سبيله، فمضى آخيل إلى سفنه واعتزل القتال، وأخذ أغاممنون في
استرضاء أفلون؛ دفعًا للوباء عن الجيش كما سيحيى.

(٥٨) فطرق رفيق آخيل وصديقه الحميم.

(٥٩) المراد بالسخل هنا العنز، أراد أغاممنون أن يستتم البر في
استرضاء أفلون، فبعث بضحايا في السفينة الذاهبة إلى أبي خريسا في
البر المقابل لطروادة، وضحي بضحايا أخرى في معسكره، ولم يكونوا
يضحون إلا وهم على وضوء كسائر الملل المستتيرة بشيء من نور
المدينة في تلك القرون المظلمة.

(٦٠) بريسا ابنة بريسييس كاهن زفس في لزييسة، سباهها اليونان
في من سبوا من تلك البلدة عندما اكتسحوها في طريقهم، فكانت عند
اقتسام السبايا سهم آخيل.

(٦١) لا يماثل بلاغة صمت أبي خريسا، وهو راجع مذعور على
جرف البحر إلا صمت رسولي أغاممنون أمام آخيل، قال أفستاثيوس:
«إن الشاعر تنصل هنا من تبعات كثيرة كانت لزمته لو تكلمنا، فإنهما لو
بلغا رسالتهما لاضطرا إما أن يبلغاها ببعض الانكسار، وفيه غض من شأن
أغاممنون، وإما أن يبلغاها كما أمرا، وفي ذلك وسيلة لإثارة غيظ آخيل،
على أنهما بصمتهما قضيا مهمتهما، ولطفا من غضب آخيل، فأمر

بتسليمها إليهما كأنه سامح غير مجبر». ١ هـ، قلت: وفي هذا زيادة إعظام لهية آخيل في قلب الصديق والعدو، واستطراق إلى مدح أخلاقه وشهادة بأنه مع شدة قسوته لا يخلو من الحلم وسعة الصدر كما يتضح من خطابه لهما.

(٦٢) كأنه أراد أن يقسم هنا أنه إذا نكل العدو بقومه لا ييسط يده للذود عنهم، ففكر أنه تجاوز منه في الحقد، فقطع الكلام، ورجع إلى تعنيف أغاممنون بكلام أشبه بالعتاب منه بالسباب.

(٦٣) ملك المكينيين أغاممنون، لم تكن بريسا تجهل مكانة أغاممنون، ومع هذا فإنها لم تذهب إليه عن طيبة خاطر بل «سارت مكرهة» ولم يغرها حوله وطوله؛ لأن الحب طائر لا يقع إلا حيث يطيب له التغريد والتنكير، فقد وجدت في قلب آخيل الصلد مرتعاً ليناً رحباً، فأقام حبها فيه واستطاب المقام، وزد على ذلك أن آخيل كان فتى في ريعان شبيبته، وأغاممنون كهلاً قضى على شبابه، وأي فتاة لا تؤثر الشباب على الكهولة؟

(٦٤) لم يكن يجدر بآخيل بعد فوز خصمه وتسليمه بتسيير بريسا صاغراً على ما كان عليه من حدة المزاج، وعلو الشأن، وشدة البأس وشغفه بها إلا أن يطلب العزلة في البراح، ويطلق لنفسه العنان، فتهيج بما أكنت من الجأش، فهام على جرف البحر وتفجرت عبراته على ما رأيت، قال بعضهم: «لم يكن يليق ببطل كآخيل أن يذرف

الدمع» وهو قول من لم تمر نسمات العواطف على فؤاده بل نقول: إنه لم يكن يليق به إلا أن يبكي؛ لأنه وإن كان بطلاً بأسلاً، فقد كان شهماً غيوراً محبباً محسناً، وقد اجتمعت لديه دواعٍ كثيرة بعضها يكفي لشق أصاب الصدور إذا لم تفض منها الدموع، فتوسع ضيقها وتحمد لهيها، والبكاء سنة جرى عليها كل الشعراء، وفطرة تعجز عن مقاومتها بسالة الأبطال، أفلا ترى بكاء بطل العرب عنترة العبسي القائل:

يا عبل لولا الخيال يطرقني قضيت ليلى بالنوح والسهير

أو لم يفتح شيخ الشعراء الكندي معلقته بالبكاء بقوله: قفا نبك
الخن، أو لم يجمع الناس على أن الدمع ملطف للأحزان، ومخفف لحرارة
الأشجان، كقول أبي تمام في وصفه:

واقعا بالخدود والبرد منه واقع بالقلوب والأكباد

ومن هذا القبيل قول امرئ القيس:

وإن شفائي عبرة مهراقة فهل عند رسم دارسٍ من معول

وقول ذي الرمة:

لعل انحدار الدمع يعقب راحة من الوجد أو يشفي نحبيّ البلبال

وقول الفرزدق:

فقلت لها إن البكاء لراحة به يشتفي من ظن أن لا تلاقيا

أو لم يجعل بعض الشعراء البكاء محجة يتسابق إليها، ومحمدة
يرغب فيها كقولهم:

ولو قبل مبكاها بكيت صباة بسعدي شفيت النفس قبل التدم
ولكن بكت قبلي فهيج لي البكا بكاهها فقلت الفضل للمتقدم

أولا تراهم أيضًا وصفوه في كل أحواله حتى ذكروه في السرور
كقول الصفي الحلبي:

طفح السرور عليّ حتى أنه من عظم ما قد سرني أبكاني

أما شعراؤنا المتأخرون فقد أساء أكثرهم التقليد في هذا كما
أسأوه في غيره، حتى إنك تكاد لا تجد في بعض أشعارهم إلا بكاءً
واستبكاءً وتباكياً يضحك الباكي.

(٦٥) الرحم القرابة. لم يبق لآخيل بعد أن عانى ما عانى إلا أن
يشكو ظلامته لذات رحمه أمه ثيتيس.

(٦٦) ثيتيس إحدى بنات الماء من صغار الآلهة تزوجت فيلا،
فأولدها آخيل وموطنها مع أبيها نيرا وأخواتها في قعر البحر، إن كلام
آخيل في هذا البيت يشير إلى قصة سيرد ذكرها في النشيد التاسع؛
مفادها أن آخيل كان عالمًا أنه قدر له في القضاء المحتوم أما أن يعيش
عمرًا مديدًا في سعة ورفاءٍ وخمول ذكر، وأما أن يهلك في عنفوان الصبا،
ويعيش في شقاءٍ ونصب ويخلد ذكره، فاختار قصر الحياة مع المجد

الأثيل غير طامع في طويل العمر ورغد العيش، ولا يخفى ما في هذا الاختيار من العزة والإباء، وما أحسن قول العبسي:
لا تسقني كأس الحياة بذلة بل فاسقني بالعز كأس الحنظل
كأس الحياة بذلة كجهنم وجهنم بالعز أطيب منزل

(٦٧) انتقد بعض الشراح على هوميروس إعادة الحديث في مواضع من شعره، لعلهم مصيبون في هذا الموضوع خاصة لافتتاح آخيل كلامه بقوله: إن أمه كانت عالمة بواقعة الحال «فلا تجدي الإعادة» ولكن له شافعاً بهذا التكرار بما زاد القارئ علماً به من تاريخ دخول خريسا في حياة أغاممنون، وهي حادثة لم يسبق ذكرها، وأما سائر ما ورد من التكرار في ما يلي، فأكثره واقع في محله أما لأنه كلام رسل بلغ كما قيل، وإما لأنه كلام أعيد لزيادة وقعته في النفوس.

(٦٨) ارتقد بمعنى كسب. ثيبة أو ثيقاس، ويقول العرب: طيبة أو طيوقة بقلب الثاء طاء، والقياء باء أو واوا اسم لعدة مدن. حسب إسطفانوس البيزنطي تسع مدائن بهذا الاسم أشهرها قاعدة بيوتيا مسقط رأس فنذاروس، وأفامينتداس، وطيبة مصر الشهيرة عاصمة صعيد مصر، وأما ثيبة المرادة هنا فهي عاصمة مملكة إيتيون أبي أندروماخ امرأة هكتور وهي واقعة في كيليكي الطروادية، وكانت عندهم من جملة المدائن المقدسة؛ ولهذا دعاها بقدس إيتيون.

(٦٩) حقوا: أوجبوا.

(٧٠) قال بعض الشراح: «إن في تذكير زفس بخروج فوسيد وهيرا وآثينا عليه لدهاء عظيمًا؛ لأن ثيتيس إذا أعادت على زفس تلك الذكرى هاجت فيه عاطفة الانتقام من هؤلاء الآلهة الذين تعاونوا في سالف الزمن على غله، وهم هم نصراء اليونان، فإذا نكل زفس باليونان، فكأنه نكل بهم، فأعز أخيل بذلهم وأدى واجب الوفاء لثيتيس التي كفته بدهائها شرهم.

(٧١) المراد بالجبار بريارا المذكور في البيت التالي، كان أشهر الطيطان وأشدّهم بأسًا، قال هوميروس: إنه كان ذا مئة ذراع، وذكر قرحيلوس (ن ٦) أنه كان له خمسون رأسًا وخمسون فمًا تقذف بالنيران المضطربة، وهو الذي استصرخته ثيتيس لنجدة زفس لما تألب عليه الآلهة قبل أن رسخت قدمه في حكم العالمين.

(٧٢) قرون أو قرونس: زحل وهو أبو زفس.

(٧٣) ذهب الشراح مذاهب شتى في هذه الخرافة، فقال قوم: إن اليونان لما كانوا قد أخذوا طرق عبادتهم عن الملل السابقة لهم في المدنية كالمصريين، والآشوريين والفينيقيين كان هذا الحديث مزيجًا من اعتقادات هذه الملل، وقال آخرون: إنهم كانوا يلمّون بعض الإلام بما جاء في التوراة عن عصيان بعض الملائكة، فحفظوا الرواية مشوّهة، فصاغوها باعتصاب بعض الآلهة على زفس زعيمهم، وأما الذين يرون كل

كلام هوميروس رموزاً تشير إلى حقائق راهنة فيقولون الآلهة بالعناصر التي تمثلها، فيقولون: إن تلك العناصر كانت متألبة على زفس ممثل الرقيع فتغلب عليها، وربما كانت وساطة ثيتيس بنت الماء إشارة إلى ما للعنصر المائي من الشأن في توازن الكون.

(٧٤) الإصادة: الأذى.

(٧٥) العرانيين: الأسياذ والمقصود الآلهة، في هذين البيتين إشارة إلى خطة قديمة في عبادة الأثيوبيين ذكرها أفستاثيوس، وقال: «إنه كان لهم عيد سنوي يحتفلون به اثني عشر يوماً يضحون فيه بالضحايا لزفس، وسائر الآلهة». وقول هوميروس أن زفس ذهب في دعوتهم لا يفيد أنه آكلهم على ظاهر العبارة بل يريد أن يظهر اهتمامه بهم أثناء احتفالهم بعبادته، وقد أوضح في ما يلي أن الآلهة لا يواكلون البشر.

(٧٦) خريسا البلدة التي تقدم ذكرها، انتقل الشاعر هنا من حديث آخيل وأمه إلى مقابلة أوديس رسول اليونان لخريس كاهن أفلون، وفي الأبيات التالية وصف تاريخي لا مثيل له في ما لدينا من آثار الأقدمين عن طريقة التضحية للآلهة كما سترى.

(٧٧) الدقل: سارية السفينة.

(٧٨) الجمل: حبل السفينة.

(٧٩) الذبح الذبيح.

(٨٠) كانت العادة أن يذر الشعير على رأس الضحية محمّسًا وممزوجًا بالملح.

(٨١) كل هذا البيت ألقاب لأفلون مر ذكرها.

(٨٢) أبناء دانوس اليونان.

(٨٣) كانت العادة أن يوجهوا رأس الضحية إلى السماء إذا ضُحي بها للآلهة العليا، وإلى الأرض إذا ضُحي بها للآلهة السفلى أو آلهة الجحيم.

(٨٤) اجتمعوا: اقتسموا.

(٨٥) انتفل: تبرأ.

(٨٦) كانت العادة أن يعزلوا الأفخاذ ويغشوها بطبقتين من الشحم، ويضعوا فوقها قطعة صغيرة من كل عضو من أعضاء الذبيح، ثم تضرم النار تحتها وهي على المذبح حتى إذا اشتعلت أخذوا يصبون الخمر على اللهب حتى تحترق بجملتها ضحية، ويدعونها العنيرة وأول نتاج الأبل ويدعونها القرع، ولم يزالوا على ذلك إلى أن أبطله الإسلام.

(٨٧) منجلأ أي: مستبينًا.

(٨٨) خيم جميع خيمة، وجمل زرافات.

(٨٩) يتحرق آخيل للطعن والضرب تحرق عنثرة بقوله:

أحن إلى ضرب السيوف القواضب وأصبو إلى طعن الرماح اللواغب

وقال:

فتى يخوض غبار الحرب مبتسمًا وينثني وسانان الرمح مختضب

وقال:

وأفرح بالسيف تحت الغبار إذا ما ضربت به ألف ضربه

(٩٠) انقضت هذه الأيام الاثنا عشر بلا حرب، وهي أطول مدة يمر عليها هوميروس في الإلياذة، ولا يصف ما جرى بها، ولكنه لم يفت القارئ أن اليونان كانوا مشغولين أولاً بمصائبهم، ثم بإنفاذ الرسل والهدايا والضحايا إلى خريسا كل هذا مع اضطرارهم إلى إحراق جثث موتاهم ودفنها استغرق تلك الأيام، أم الطرواد فكانوا في موقف الدفاع، واغتتموها فرصة للـم شعـثهم، وتحصين معـاقـلهم.

(٩١) المخايل: التصورات.

(٩٢) أبو الخلق، وأبو الآلهة والبشر، والأب مطلقاً كنى يطلقها هوميروس على زفس (المشتري) مع أن زفس نفسه في أساطيرهم كان ابن قرونس (زحل) ولكن دولة قرونس كانت قد دالت في ذلك الزمن.

(٩٣) كان اليونان يمثلون آلهتهم تمثيلاً محسوساً (على نحو من اعتقاد المشبهة من فرق الإسلام التي كانت تشبه الخالق بالمخلوقات، وتمثله بالحادث) وينسبون إليهم جميع ما يروى عن البشر من العواطف وحاسات: اللين، والغضب، والحلم، والظلم، والحب، والبغض، والغيرة،

والاستكانة، فإذا وصف هوميروس حديثاً أو واقعة بين الأرباب علمنا منها وصفاً دقيقاً للفطرة البشرية في بعض شئونها، وفي ما يلي من الحديث أبدع تمثيل لحالة الزوجة التي تغار على زوجها، وتتطرق إلى استطلاع مكنونات ضميره، فتغضب فتلين فتدل فتدل، والزوج الذي يتناقل من تشوّف امرأته إلى ما وراء ما يحق لها عرفانه، فيحاذر، فيلاطف، فيقسو، فيصلح، وقد اتخذ الشراح هذا الموضوع وسيلة للإسهاب في انتقاد طباع النساء إلا أن عقيلة داسيه، وهي منهن أوّلت الحديث تأويلاً فلسفياً، فاعترضت على هيرا زوجة زفس، ولكن اعتراضها كان دينياً فلامتها على إزعاج زوجها من حيث أنه ممثّل العناية الإلهية، فلم يكن لها أن تتطلب التطلع إلى أحكامه، على أنني أميل إلى الاستمسك بظاهر العبارة بلا تأويل ولا تخريج، فأرى من ثمّ إن هوميروس لم يقصد إلا الإتيان على وصف أخلاق النساء والرجال، فأظهر كلاً من الحسن والقيح في موضعه، وهو وإن كان قد أبان محل الانتقاد في طبائع النساء فقد أثبت لهن الفضل في مواضعه؛ لأنه كان أميل الناس إلى رفع شأن المرأة، وقد أحلّها محلاً لم يُحلّها فيه أحد قبله ولا بعده إلى ما يقارب أيامنا هذه، وحسبك بهذا شاهداً على بصيرته الوقادة وعارضته النقّادة، ورحم الله الأديب القائل:

إنما المرأة امرأة بها كل ما تنظره منك ولك
فهي شيطان إذا أفسدتها وإذا أصلحتها فهي ملك

(٩٤) اصطنع فيداس نصبًا لرفس كان آية من آيات الصناعة،
فسئل عما أرشده إلى إبداعه ما أودعه من مظاهر الجمال والجلال، فقال
كلام هوميروس في هذا الموضع.

(٩٥) يعلم القارئ من هذا البيت كيف لا تألو المرأة جهدًا من
مراقبة زوجها، فتعلم من حركاته وسكناته ما لا يخطر له على بال، وإن
كان على حذر منها، فإنه قال قبلا لثيتيس «هبي ولا تنظرك» مع أنها
كانت حاضرة ناظرة.

(٩٦) سألها هنا من قبيل التجاهل؛ لأنها كانت عالمة أنه إنما
حادث ثيتيس.

(٩٧) استعطفها وتهدها معًا شأن الزوج الذي يعترف بحق
امراته، ويحب أن تنتهي عما وراء ذلك.

(٩٨) عين مهاة في الأصل (Βοωπις) أي: عين بقرة على
الإطلاق. عبرت عنها بالمهاة أي: البقرة الوحشية، وهو تشبيه كثر حتى
ابتذل في شعر العرب، قال علي بن الجهم:
عيون المهى بين الرصافة والجسر جلبن الهوى من حيث أدري ولا أدري

ولقد يشبه العرب بعيون البقر الأهلية أيضًا كقول أبي تمام:
بيض فهن إذا رمقن سوافرًا حور وهن إذا رمقن صوافرًا

ولا عجب أن يستحسن اليونان عيون البقر الأهلية بحضارتهم
استحسان العرب عيون البقر الوحشية في بداوتهم، بل العجب أن كثيرين
من شراح الإفرنج استقبحوا هذا التشبيه؛ لبعد عهدهم برعاية الماشية
حتى أن البعض من المتشيعين لشاعرنا بالغوا في تأويل أصل الكلمة،
وجعلوا لها معنى لم يتصوره هوميروس، ولا بدع أن يشبه شعراء الجاهلية
بهذا التشبيه، وشعراؤنا من متأخري العرب المقلدين لا يكادون يشبهون
العيون الحسان إلا بلحاظ المهى والغزلان حتى لقد يتوسعون فيجعلون
كل الفتاة كل المهابة.

(٩٩) كان لهيرا باعث آخر غير الغيرة على تعنيف زفس ذلك
إنها كانت ميالة إلى اليونان تخشى أن ينكل زفس بهم؛ ارتضاءً لثيتيس،
وهذا شافع آخر لها بتطفلها عليه.

(١٠٠) لما رأى زفس أنه لا سبيل إلى إسكاتها باللين عمد إلى
القسوة والإشعار بما له من السلطان، فكأنه يقول قول الشنفرى:
ولا جبا أكهى مربّ بعرسه يطالعها في أمره كيف يفعل

(١٠١) لم يغادر هوميروس شاردة من أحوال الخلق إلا دونها،
فإنه بعد أن وصف نزاع الزوجين قال في التوطئة لراضيهما: «وبنو الخلد
بلبلوا بلبالاً»، فليتصور القارئ رب بيت عظيم نازع امرأته على مرأى
حشمه وأتباعه، فكل ذلك البيت يبلبل بلبالاً عظيماً، وهذا كلام يزيد قوة
تعبيره وقعا لزيادته في رونق الحديث، وإثباته واقعة حقّة لا بد منها وفتحها

الباب لوساطة المتوسطين بين المتخاصمين هذا فضلاً عما يظهر من أبهة زفس وعظمته.

(١٠٢) هيفست إله النار والحرارة، وهو قُولكانوس الرومان، ومنه اتخذ العرب كلمة بركان لجبل النار، قال إفيستاثيوس: إن الذين يتولون كلام هوميروس تأويلاً رمزياً يرن هيفست أولى الآلهة بالتوسط بين الإلهين المتخاصمين؛ لأن زفس يمثل السماء، وهيرا تمثل الهواء، فإذا اضطرب الهواء أربدت السماء، ولا يحصل التوازن إلا بفعل الحرارة التي يمثلها هيفست، وقد كانوا يعتقدون أن مولده في السماء؛ لأنها مبعث الحرارة، قالوا: وكان سقوطه في جزيرة لمنوس؛ لكثرة ما فيها من البراكين، ويرسمونه أعرج إشارة إلى ما ناله من التشويه بسقوطه، أي: لتغير حالة الحرارة بانبعاثها إلى الأرض.

(١٠٣) قاصف الرعد لقب من ألقاب زفس.

(١٠٤) لم تكن خمر الآلهة كخمر البشر بل كانت شراباً سماوياً يأمن شاربوه الموت.

(١٠٥) أراد هيفست أن يهوّن على هيرا مصابها، فذكرها بمصابه وعجزه هو وسائر الآلهة عن مقاومة زفس، فنفعتها الذكرى، ورام إذهاب ما لديها من بقية سورة الغضب «فرجى لها الكأس» فنال بغيته، السنت جيل من الناس آوى إلى ثراقة، وخرجت جالية منه فاحتلت لمنوس، قاله إسطرابون، وزعم بعض الكتاب أن ألسنت طائفة هندية

هجرت بلادها منذ بضعة آلاف عام، وأتت فاستقرت في أوروبا، ومنها نشأت قبائل الزنكانة الرّحل (المعروفين في مصر باسم الغجر، وفي سوريا باسم النّور، ويدعون كواولة في العراق، وبوهيمين في أوروبا) وهو قول لا يؤيّده دليل.

(١٠٦) أفرغ هيفست كل حيلته في نزع آثار الكآبة والاضطراب من ذلك المجلس مع مراعاته حرمة زفس، فلم يخاطبه بشيءٍ إجلالاً له بل وجه خطابه إلى هيرا أمه، وناولها الكأس وانثنى يسقي الباقي بنفسه متطفلاً على مقام الساقى؛ ليهيج بواعث الزهو والضحك بوقوفه موقفاً لم يكن يجدر به؛ لعرجه ودقة ساقيه، وضخامة جسمه.

(١٠٧) كان يلقب هيفست بالحدّاد والصانع الحاذق، وهو الذي شاد قصور الآلهة في السماء، قال بوب: «إن قول المنجمين باثني عشر برجاً تحلها السيارة مأخوذ من قول هوميروس: إن هيفست بنى لكل إله بيتاً».

النشيد الثاني

سياسة أغاممنون واحصاء سفن الإغريق وبلادهم وقبائلهم ورؤسائها
مُجْمَلُهُ

ظل زفس فاكراً ليلته في التكييل باليونان؛ إعلاء لشأن آخيل
«فعن له إرسال طيفٍ مموهٍ» يحث أغاممنون على أن يشد بخيله ورجاله
على الطرود بغية أن يناله وجيشه الفشل فيرجعون إلى استعطاف آخيل،
فاغتر أغاممنون وطمع في فتح إلون وآخيل بمعزل عن القتال، على أنه
لم يكن على يقين من انقياد الجند إلى إشارته إذ كان مشفقاً من فتور
هممهم على إثر الوباء والسؤم من طول مدة الحصار، وتشط آخيل
بقومه، فلما كان الصباح عمد إلى حيلة يختبر بها عزيמתهم، فجمع القواد
وكشف لهم عما داخله من الريبة، ثم قال لهم: إن في عزمه أن ينادي
بالرحيل والانقلاب إلى الأوطان؛ ليرى ما يكون من أمر الجند؛ فإذا أنس
منهم رغبة في معاودة الديار وترك الحصار بادر القواد إلى صدهم
والهجوم بهم، فلما وافقوه على رأيه بلسان نسطور عقد المجلس العام،
وخطب في الجند منادياً بالقفول، وما انتهى حتى جرى كل فريق إلى
سفنه يتأهب للإقلاع بها، فاعترضهم أوديس عملاً بأمر أثينا، واجتر
صولجان السيادة من يد أغاممنون وطاف فيهم يستنهض الهمم ويقوي
العزائم بالوعد والوعيد، ولم يثن حتى عاد بهم إلى مجلس شوراهم،
فتصدى له ثرسيت السفية بنفثات خبثه ولؤمه، فزجره أوديس، وضربه

ضربة أو هنت قواه، وغادره عبرة للمعتبر، والجمع يضح مستوصباً العقاب، ولما انتظم عقد المجلس نهض أوديس، فخطب وأطنب بذكر الأيمان ومواعيد الآلهة لهم بالظفر، ثم تلاه نسطور فشدد، وأرشد وأشار بحشد الجيش كتائب يزحف بكل قبيلة منها أميرها، ولما ثبتت قدمهم وذكت همهم أصدر أغاممنون أمره بالتأهب للقتال، فضحوا بضحاياهم وتناولوا طعامهم، وقاموا إلى السلاح، وهنا أخذ الشاعر في سرد أسماء الملوك والأمراء وتعداد سفائنهم، وذكر بلادهم وقبائلهم، أما زفس فلم يكن غافلاً عما يعملون، فبعث بإيريس إلى فريام ملك طرودة توقفه على ما كان من عزم الإغريق، فعبأ هكتور جند الطرواد وأنصارهم على هضبة محاذية لإليون، وتريص فيهم إلى أن تلتحم الحرب، ثم ختم هوميروس نشيده بسرد قبائل الطرواد وحلفائهم.

لا يستغرق هذا النشيد إلاّ قسمًا من اليوم الثالث والعشرين، ومجرى وقائعه في معسكر الإغريق على جرف البحر ثم في معسكر الطرواد.

النشيد الثاني

دجا الليل والأرباب والناس نوّمٌ ولكنّ زفسًا نابذّ سنة الكرى ١
 بإعزاز آخيل وإهلاك جملةٍ لدى سفن الإغريق ظلّ مفكرا
 فعنّ له إرسال رؤيا خبيثةٍ لأتريذ تغريبه بأمرٍ تصوّرا

فنادى أنيروسًا وقال: «ألا فطر
إلى سفن الإغريق لج خيمةً بها
أعد كلُّما أُلْقِيَه: فليمض مقدِّمًا
تألفت الأرباب طرًّا وفوزه
وهيرا استلانتهم فأجمع رأيهم
فطار ولم يلبث أن اجتاز فلُكهم
فألُفاه فيمن حوله نَوْمًا دنا
وقال وقد حاكاه إذ كان عالمًا
«لم يا ابن أترا القرم تهجع ما
من قد تولَّى أمر أُمته
فاحفظ كلامي زفس بي لك من
مالتي إلى الإغريق رَأْفَتَه
في كل من والاك تزحف إذ
أربابنا طرًّا قد اتفقوا
وعلى بني الطرود زفس قضى
وحذار أن تنقاد للوسن الـ
كذا أغراه بالوعد احتيالا
فلاح له وما أغواه يعلو
ولم يعلم نوايا الرب لما

أيا أيها الطيف المداجي مبشِّرًا ٢
أقام أغاممنون أنبيء بما ترى ٣
على الحرب وليعدد لذاك المعسكرا
على بلد الطرودة اليوم قُدِّرًا
على رزء إليون وبالألّا مكرًّا
لخيم أغاممنون بالغيب مخبرًا
لدى رأسه واحتاز هيئة نسطرا
لديه ابن نيلا خير شيخ موقرا: ٤
ذا شأن مولى يملك الأمرا
أننى ينام الليلة الحرى
قاصي أعاليه لقد أسرى
فأراد أن تستدفع الضُّرًّا
قد حان فتح البلدة الكبرى ٥
ولقول هيرا أذعنوا طرًّا
بالويل فاخير أمره خبرًا
حالي فتنسى بعده قسرا
وغادره يرى ما لن ينالا
بذاك اليوم إليون احتلالا
عليه قدر الحرب السَّجالا

أَعَدَّ لَجَمَلَةِ الْقَوْمِينَ يَوْسَا
أَفَاقَ وَصَوْتَ رَبِّ الطَّيْفِ يَدَوِي
تَدَثَّرَ فِي شِعَارٍ ذِي بَهَاءٍ
وَأَوْثَقَ خَفَّهَ الزَّاهِي وَأَلْقَى
وَأَمْسَكَ صَوْلَجَانًا خَالِدِيًّا
وَأَمَّت رُبَّةَ الْفَجْرِ الْمَعَالِي
تَبَشَّرَهُمْ بِطَرِّ الصُّبْحِ لَمَّا
وَنَادَى فِي الدُّعَاةِ بَأْنَ يَصِيحُوا
فَلَبُّوهُ وَأَقْبَلَتِ السَّرَايَا
وَقَدْ عَقَّدَ الشُّيُوخُ قَبِيلَ هَذَا
بِهِمْ أَتْرِيذُ نَادَى مُسْتَشِيرًا
«سَمِعًا أَصِيحَابِي رَأَيْتَ دَجِيَّ
فِي شَكْلِ نَسْطُورٍ وَهَيْئَتِهِ
«لَمْ يَأْبَنِ أَتْرَا الْقَرْمَ تَهْجَعُ مَا
«مَنْ قَدْ تَوَلَّى أَمْرَ أُمْتِهِ
«فَاحْفَظْ كَلَامِي زَفْسُ بِي لَكَ مِنْ
«مَالَتِ إِلَى الْإِغْرِيقِ رَأْفَتُهُ
«فِي كُلِّ مَنْ وَالَاكَ تَزْحَفُ إِذْ
وَأَرْزَاءُ إِذَا اشْتَبَكُوا اقْتَتَالَا
حَوَالِيهِ فَهَبَّ وَقَامَ حَالَا ٦
وَأَرْدَفَ حَلَةً تَزْهَوُ جَمَالَا ٧
عَلَى كَنْفِيهِ سَيْفًا قَدْ تَلَالَا
لَأَهْلِيهِ وَنَحْوِ الْفَلَكَ مَا لَا ٨
لِزَفْسٍ وَالْمِيَامِينَ امْتِثَالَا ٩
أَغَامَمْنُونَ بَيْنَ الْقَوْمِ جَالَا
بِأَعْلَى الصَّوْتِ لِلشُّورَى ارْتِحَالَا
شِكَاةٍ إِلَيْهِ تَتَضَلُّ انْتِضَالَا ١٠
بِجَانِبِ فَلَكَ نَسْطُورٍ احْتِفَالَا ١١
لَمَّا زَعَمُوا مِنَ الْأَمْرِ احْتِمَالَا: ١٢
طَيْفَ الْكَرَى وَاللَّيْلِ قَدْ صَرًّا
مَتَمَثَّلًا لِي قَالَ مَذْخَرًّا
ذَا شَأْنُ مَوْلَى يَمْلِكُ الْأَمْرَا
أَنْبَى يَنَامُ اللَّيْلَةَ الْحَرَّى
قَاصِي أَعَالِيهِ لَقَدْ أُسْرَى
فَأَرَادَ أَنْ تَسْتَدْفِعَ الضُّرَّا
قَدْ حَانَ فَتْحُ الْبَلَدَةِ الْكُبْرَى

«أربابنا طرًّا قد اتَّفَقُوا
«وعلى بني الطرواد زفس قضى
مَنْ ثَمَّ عني غاب محتجِبًا
أو كيف نغري الجند في عجلٍ
فأنا سأبلوهم وأدفعهم
وعليكم أنتم بجهـدكم
فكذا انتهى واحتلَّ مجلسه
هو ملك فيلوس التي رَكَمَتْ
«لو غير أتريدِ رؤاه روى
لرغبت عن تصديقه عَلَنَّا
لكنَّ مولى القوم كلَّهم
هَيُّوا نرى أنَّى يُتاح لنا
ومضى من النادي كذاك مضى
دانوا لمرشدهم وأقبلت الـ
كالنحل من كهفٍ خشارمها
تحكي عنا قيدًا علقن على
هم هكذا اندفعوا إليه زرا
وأمام جرف البحر قد طفقوا
ورسول زفس شهرة انتدبت

ولقول هيرا أذعنوا طرا
بالويل فاخبر أمره خيرا
لكنني أهيت مضطرا
حتى يكرروا للقا كرا
بالقول فوق سفينهم فرا
تستهضون العزم والصبرا
وبهم رقى نسطور منتصبا
برق الرمال ببشره خطبا
يا معشر الحكَّام والنُّجبا
وزعمت أن يزعمه كذبا
بالنفس رؤيا النفس قد رقا
أن ندفع الإغريق كي تشا
بعضاه كل من ملوكهم ١٣
أجناد للشورى بحشدهم ١٤
هرعت بجمع فاج مزدحم ١٥
نور الربيع بزاهر الأكم
فاتِ فمن فلكٍ ومن خيم
متعاقبين لمجمع الأمم
فسعت تجوب بعزمها بهم ١٦

فتهافتوا والربع مضطرب
وعلا الضجيج وتسعة بعلا
واسترعوا الأسماع للنبلا
حتى إذا بالجهد قد جلسوا
وافى أغاممنون منتصبًا
«هو صنع هيفست وفيه جبا
فأباحه زفس القاتل أر
وفلبس أولى هرْمُس هبةً
فبموته أبقاه خير جدا
فإلى أغاممنون جاء به
في آل أرغوليذة وكذا
فعليه بين القوم متكئا
«إليكم مقال يا بني دانو فقد
وقد كان والانني بإيماء رأسه
ولا نشي للأهل إلا بسبيها
فقدت صناديد الرجال وقد قضى
نعم ذاك أمر شاء الأمر الذي
ولا شك يسري ذكر خذلنا إلى

والأرض تشكو ثقله القدم
أصواتهم نهضوا لكفهم
محكمي زفس قيلولهم ١٧
والصمت يسمع وقعة الكلم
بالصولجان الفائق العظم ١٨
زفس العظيم بغابر القدم
غوص الرسول الأصيد الحكم ١٩
فجبا به أترا أخوا الهمم ٢٠
لئستس المشهور بالنع ٢١
يقضي به أحكام محتكم
بجزائر وفرت بقرهم
خطب المليك بكل جمعهم: ٢٢
رمانى زفس في حبال آتيا ٢٣
بأنا باليون نذك المراميا ٢٤
فمان وما أغواه فيما رمانيا ٢٥
علي إلى أرغوس أرجع خاسيا ٢٦
يقوؤ أركان البلاد العواليا
بنينا ومن يحيا السنين الأواتيا

وشدّته جننا نُؤمُّ الأعدايا
قليلٌ وأغفلنا الصعاب التواليا ٢٧
تصافٍ وكلُّ قومه أمّ جاريا
ككتوس بنو إليون أجرت ضوافيا
كثيرٌ من العشرات منهم ساقيا ٢٨
بنجّادهم يلقون عوّنا مُباريا ٢٩
أتاهم وبالعزم الشّديد التقايا
وما لبثوا طروادةً لن أفاجيا
سفائننا كادت تُسام تَداعيا ٣٠
وأزواجنا لازلن عنّا نوائيا
يرمن ولا يبلغن منّا التّدانيا
بعودتنا إنني أرى زفس قاضيا ٣١
لإليون فتحًا فيه نلقى الأمانيا
بينهم في شورى الملوك حضورا
بحر تبدي الأمواج عجّا كبيرا
بهما غيمٌ زفس عنقًا أثيرا ٣٢
سنبل الزرع مائدًا موتورا ٣٣
بين ماضٍ للفلك يجري مغيرا
هُ غُيومٌ الغبار منه نُشورا

إذا علموا أنّا بوفرة جيشنا
ولم نجن إلا خيبةً وعيديهم
فلو عُددٌ إغريق وطروادةً على
وقسمت الإغريق بالعشرات والـ
لداروا جميعًا بالمُدّام ولم ينل
كذا دُوننا كانوا عدادًا وإنّما
فمن كل فجٍ كل أيهم فاتك
فصدّوا جُنودي راغمين تجلّدي
فتسعة أعوامٍ مضت لحصارنا
ولم أدرك الأمر الذي جئت أبتغي
بأصرحنا بين البنين وأهلنا
فهيهؤا أطيعوني الهزيمة مغنم
وأصدّقكم وعدًا يقينًا فلن نرى
بلبل النطق قلب من لم يكونوا
عج بالجميع منتداهم كما في الـ
إذ بإيقارة صباً وجنوب
أو كما ترفع الدبور بأرضٍ
هكذا بلبلوا وراحوا شتاتًا
بقوى صوته يصيح وتعلو

وكذا بين راغبٍ هم يُدْنِيهِ
وصديد الذين للعود تاقوا
يعجلون التطيف في تُرع الـ
ثم أولاً هيرا لعادوا وإن خطَّ
قالت لآثينا: «أيا ذات القُوى
أُيْغادر الإغريق منهزمين فو
يدعون فريامًا يفاخر معجَّبًا
من بعد أن هلكت أراجلهم لدى
عجلاً إليهم أمسكي كلاً بليـ
فبحينها اندفعت من الأولمب للـ
وجدت عُبُوسًا أودسًا من قد حكي
لم يعتمد مسودَّ مركبه ومنـ
وقفت ونادته: «أيا ابن ليرتس
تدعون فريامًا يفاخر معجَّبًا
من بعد أن هلكت أراجلكم لدى
عَجَلًا إلى الأجناد أمسكهم بليـ
في الحال أدرك صوتها طرح العبا
والى أغاممنون أسرع جاريًا

سها إلى البحر ساعيًا مغرورا
خرق الجو بهجةً وجورا
فلك وجر الأركان عنها عُبوراً ٣٤
قضاء بفوزهم مسطورا
أسفاً أيا ابنة زفس رب الجُنة ٣٥
ق البحر للأوطان شرَّ هزيمة
بدويه في هيلانة المسبية ٣٦
إليون هدرًا والمنازل شطت
من القول لا يمضي لهم بسفينة»
سفن السَّراع فبلغت في لحظة
زفسًا بنور حجاه لم يُستلفت ٣٧
له النفس غاصت في عباب الكأبة
أكذا تؤمُّون الدِّيار بذلة
بدويه في هيلانة الأزغيَّة ٣٨
إليون هدرًا والمنازل شطَّت
من القول لا يمضي لهم بكتيبة»
ء لأوربات الفيج عالي الهممة ٣٩
واجترَّ منه صولجان السَّطوة ٤٠

ثم انبرى بين السفائن والجأ
ويبادر الأقيال إن مرؤوا به
«أو كيف صاح يليق كالأنزال تر
أرجع جُودك إن أتريدًا له
ولقد جهلت مرامه ولسوف تلـ
فَتَرَوْ واحذر غيظه إذ لم نكن
من كان مولى زفس ليس يذله
وإذا رأى أحد الرِّعاع مصوَّنًا
وله يقول: «اجلس ولا تُبدِ الحراك
أفكنت من أهل الوغى والرأي فس
أو جملة الإغريق أقيال فلا
لا يستقيم الأمر إلا إن يكن
فلنرضخن إذا لَمَن زفس ارتضى
فكذا بفصل القول خاطبهم وعا
تركوا السفائن والخيام مهروليـ
كال موج في جرف البحار يعجُّ والـ
ثم استكانوا في مجالسهم سوى
سفة لهُ قذف الشتائم ديدن
وقحّ تجاوز كلِّ حدٍ وهو إن

بين الملوك وبين أهل الإمرة
مستوقفًا ومُحرَّضًا بالرَّقَّةِ
تعدون خوفًا فارتدع لنصيحتي
أربُّ ليلوننا بكل طريقة
لقاء يُعاقبنا بشرَّ عُقوبة
طرًّا لديه بين أهل الندوة
بل صانه بكرامية ومَوْدَّة» ٤١
بالصَّولجان عليه مال بضربة ٤٢
أيا جبانًا قد خلا من نَحْوَة
تمثل بمن يعلو وَعِندك فائت
أشقى مالا من تَسَلَّطِ جُملة ٤٣
فردُّ يُخوِّل صولجان الصَّولة» ٤٤
للملك والأحكام بين الأمة
د الجيش للشورى بأعلى صَجَّة
من بكل جمعهم ولم يتشتت
لَمَج الدَّوي به بقاصف عَجَّة
تُرْسيت لم يدعن لذاك ويسكت
وخصومة الحُكَّام أقبح خطَّة
يستضحك القوم استطال بهجة

لم يَرْعَ قَطَّ مقامه وغدا بهم
 قد كان أكبس وهو أحول أعرج
 كتفاه قُوسًا لضيق صدره
 يختصُّ أودس وابن فيلا حقه
 وآلآن مال على أغاممنون بالـ
 فنفسهم منه اشمازت وهو لم
 «قل يا أغاممنون ما تشكو إذا
 وبدائع الغادات من سبي بها
 أطمعت في ذهبٍ يأتيك من
 إن ما أتيتك أو أتى غيري له
 أم هل تروم أسيرةً أخرى لها
 لا لا فليس يليقُ كلُّ الجيش للـ
 وأعاركنُ أيًا نساءً ولا أقو
 وليبق ذا الملك الغرور وذُخْرُهُ
 فقد اعتدى تَوْأً على من فاقهُ
 لو كان ذا قلبٍ لكنت لقيت في
 فعلى أغاممنون راعي الشعبِ ثر
 فله انبرى أوديس يلهب صدرُهُ
 خُلِقًا خُلِقًا شرَّ أهل الحملة ٤٥
 وشعوره كادت تعدُّ بشعرة ٤٦
 وبصدره لم يحو غير ضغينة
 أبدًا بكل تحاملٍ وشتيمة ٤٧
 قذف الشديد مُعَنَّفًا بتعنُّتٍ
 يعبأ وخاطبه بأهجن لهجة
 ولقد جمعت لديك أجزل ثروة
 نحبوك إن نفتك بأية بلدة
 إليون مُلتمسٌ قبول الفدية
 بابن يُكبَّل بالقيود الجمّة ٤٨
 تبدي غرامك إن خلوت بعزلة ٤٩
 بلوى يساق بميل رأس الأسرة
 ل أراجلاً فلنقفلن بخزية ٥٠
 فيرى بذلك ما لنا من عزوة
 بأسًا وآخيلٌ تقاعد بالتي
 أثر اعتدائك منه آخر حطّة»
 سيّت أثار كذا أوار نميّة
 غيظًا وخاطبه بقول مُبكِت

«صه يا رعاة من تكون لتبغى
فلأنت أوضع قادم في جُند أتد
أفكنت كفاً للخطاب مندداً
أو من ترى منّا بقسمته ذرى
وعلى أغامنون فاك فَعُرت إذ
نبأى فخذ مُصدّقاً فلئن أر الـ
لا ظلّ رأسي فوق كنفى عالفاً
إن لم أجردك العباءة والدثا
من ثمّ بادره وأوهن ظهره
برزت بمنكبه دماء بثورها
بسذاجة البلداء ينظر حوله
فتساق فوق الفلك مُختضباً من الـ
وجماعة الإغريق لم يتمالكوا
يتداولون بقولهم: «لله كم
بالحزم في الآراء والتّدير في الـ
لكنه لم يأت أجمل حكمةً
لا شك أحمَد نفسه بنكالها
وأقام هدام المدائن أودس
وتليه آئينا بهيئة صارخ

لدد الملوك بنطق أخبث صيّت ٥١
بريدٍ لدى إليون فاخساً واصمت
بالصيد تتدب الملا للعودة ٥٢
أو ما يكون مآل تلك الرّجعة
أبناء دانوسٍ حبّته بتحفة ٥٣
تهذار منك كما رأيت بمُقَلّتي
لا كنت والد تيلماخ ييمتي
رَ إلى بقايا كُّل آخر سُترة
شُورى تردد أنةً في أنة»
بالصولجان بضربةٍ دمويةٍ
فأكبَّ ييكى واستكنَّ برعدة
ويكفكف الدّمع السّخي يتشُمّت ٥٤
عن فرط قهقهةٍ لتلك الخيبة
قد حاز أودس من جليل مزية
هيجاء أيّان انبرى لمهمةً
من ردعه سفهاً يصول بفتة
عن أي تزيب الملوك بكلمة»
بعصا السيادة واقفاً بعزيمة ٥٥
يدعو جموعهم بكل سكينه ٥٦

حتى جميع صفوفهم علمًا تحي
 «تحمُّلك الإغريق كلَّ ملامةٍ
 لديك لقد آلوا قبيل ارتحالهم
 وها هم كولِدِ جرَّعٍ وأرامل
 لتلك إذن بلوى تفاقم ضرُّها
 ولا شك يغتمون إن يمض شهرهم
 فكيف وقد باتت حنول اغترابهم
 وأزواجهم عنهم نأين فلا أرى
 ولكن كل العار في عودة السرى
 لنبلو صبحي صدق كلخاس منبئًا
 شهدتم وما مُتُّم وفي الأمس خلت ذا
 وهيأت الأسطول في بحر أفلسٍ
 إلى ساحةٍ عظمى لديها تفجَّرت
 رفعنا على طهر المذابح جُملة
 إذا أفغوان هائلٌ قد بدا لنا
 من المذبح الدامي استطال مخضَّبًا
 وفي رأسها عصفورة وفراخها
 إليها سريعًا همَّ مُزْدردًا على

ط برأيه فأتى بأفصح خطبة ٥٧
 أتريد إمَّا اليوم خابت وعودها
 لآليون لا يشنون عزمًا يُيِّدُها
 تناهى حينًا للبلاد هُجودها
 وما اليأس إلا أسها ومعيدها
 بفلكهم والنوء ظلٌ يُميدها
 سنين طوالا تمَّ تسعًا عديدها
 ملامًا إذا البأساء شطت حدودها
 بخيبتهم مهلاً فسوف نعوذها ٥٨
 بما قد علمتم آية وأعيدها
 قديمًا سرايانا استتمت جنودها
 لأُمَّة فريامٍ يُعَلِّدُ وعيدها ٥٩
 من الماء عينٌ فاض سيلاً بروذها
 مئات الضحايا واستطار وقودها
 بمعجزةٍ من أمر زفس ورودها
 إلى السَّاحة الشَّماء وثبًا يريدها
 ثمانية ما كاد يُنْقَفُ عودها
 تغاريدها والأم شُقَّتْ كُبُودها

جوانبه حتى اشرب يصيدها
بحكمة مبيدها استتب جُودها
ولكن لكلخاس تجلّت عقودها
ولكن خفايا السرّ وافت وفودها
لنا نصرّة في الغيب خطّ خلودها
من الطير مغتالاً وأنتم شهودها
نخب فيأتي عاشرٌ ونسودها»
يسيراً وإليون تحط سعودها»
هلاهل سرّ للسماء صُعودها
«هذرتم كوليد طال جهلاً قُعودها ٦٠
وأقسامنا هل تضمحل عهودها؟
بأيمان صدقٍ موثقات بُودها
بها قد تواتقنا أباد وجُودها؟
بيطل أقاويلٍ بعيدٌ مفيدها
عهدتك وليعل الحروب وصيدها
مغادرة الهيجاء أنت عيدها
مواعيد رب الثُرس صدقاً يشيدها
سفائنا للفتك جننا نقُودها
بشائر نصرٍ قاصفات رعودها ٦١

ترددت أنات الأسي وترف في
ولمّا فَرّاهَا تسعة صار صخرة
فردنا عجباً والتشاؤم رابنا
فقال: «تولّتكم من الأمر دهشةٌ
»يرينا بهذا زفس معجزةً بها
«كما أفعوان الضير أمسك تسعةً
»كذاك لدى إليون تسعة أخوّل
وقد كادت الأنباء تكمل فالبثوا
فهلهمت الإغريق والفلك ردّدت
فبادر نسطور الوقور مخاطباً
كأنكم لم تشهدوا قط مصرعاً
فأين الضحايا والقرايين أحرقت
وأيّن مدامّ قد أرقنا وأيمنّ
لقد طال منّا وكلُّ قتالنا
تقلّد أيا أتريز بالحزم مثلما
ودع حانقاً أو حانقين تعمّدا
فلن يرجع ما لم نخب أو تتح لنا
وعندي يقين أنا عندما على
لنا سلفاً بالرأس أوماً مُعلّناً

فلا تفكروا بالعود ما لم تقوّموا
 فيظفر كل منكم بسبيّة
 ومن تاق للأوطان فليأت فلّكه
 فخذ بشعار الحزم أترىذ مُثبّتا
 لتتظم الأجناد بين قبائل
 فتعلم من منهم أشدّ تثبّتا
 وتعلم ما إليون منّع حصنها
 هنالك أترىذ قال خطيّا
 فلو لي بُصرة زفس وفا
 بما بك من حكمّة عشرة
 ولكنما رافع الجوب يشقي
 فينني شبّ وبين أخيل
 ولو أنا في صراط سوي
 فقوموا إلى الزاد صحي ومن ثم
 أعدّوا تروسًا وحدّوا قنيّا
 وبالعجل افتقدوا المركبات
 فهبوا ولا تفكروا بسواها
 إلى أن تحول جيوش الدّياجي

لهيلانة ثارًا لبؤس يكيدها
 وتدمر إليون وتحرز غيدها
 فيعلم أن النفس حان خُمودها ٦٢
 نصائح أحكامٍ لديك أجيدها
 يُؤلّى عليها بالمعامع صيدها ٦٣
 ومن قلّ عزّما إذ يدنّى بعيدها
 أو هنّ بجندٍ أم قضاء يذودها
 «لقد فقت يا شيخ كل خطيب ٦٤
 س ثمّ فيوس الإلاه الغضوب ٦٥
 لذلك إليون تحت ضروبي ٦٦
 فؤادي بكل شقاق مريب ٦٧
 خلافٍ وإنّي أصلُ الشبوب
 لأرغمت طروادة عن قريب
 للكرّ نمضي ونشر اللهيّب
 وزيدوا غداء خيول الكروب
 فذا اليوم يوم إله الحروب
 فلا فترة بعد ذاك الهبوب
 فيرفضُ بالقسر كل صخوب

مَجِّنَّ عَلَا فَوْقَ دَرَعِ خَضِيبٍ
وَلِلْخَيْلِ فِي ذَاكَ مُرُّ النَّصِيبِ
بَجَرَّكُمْ فِي عَجَالِ الْخُطُوبِ
طَعَامِ الْكِلَابِ وَطَيْرِ السُّغُوبِ ٦٨
دَوِيًّا كَعَجِ الْبَحْرِ بِالْجَرْفِ يَقْصِفُ
لَأَعْلَى حَزِيرِ الصَّخْرِ بِالْمَوْجِ يَقْدَفُ ٦٩
بِهَا أَضْرَمُوا نَارًا وَلَمْ يَتَوَقَّفُوا
لَأَرْبَابِهِمْ كُلِّ لِمَنْ كَانَ يَأْلَفُ ٧٠
إِلَى زَفْسٍ أَتْرِبْذُ غَدَا يَتَزَلَّفُ
لَأَدْبَتِهِ صَيْدِ السَّرَى فَتَأَلَّفُوا ٧١
وَأَيَّاسُ آيَّاسٌ قَلِيلًا تَخَلَّفُوا
بِحِكْمَةِ مَوْلَى الْخَالِدِينَ يَعْرِفُ
لَمَّا بِأَخِيهِ مِنْ عَنَا النَّفْسِ يَعْرِفُ ٧٢
وَفِيهِمْ أَغَامِنُونَ يَدْعُو يَهْتَفُ ٧٣
يَارَاكُمُ الْغَيْمُ يَا مَنْ فِي الرِّقِيعِ عَلَا
حَتَّى بِفَرِيَامٍ نَصْرًا نَبْلُغُ الْأَمَلَا
لَهْلَبِ يَلْتَهُمُ الْأَبْوَابُ مُحْتَمَلَا
بَصْدَرِهِ وَنَذِيقِ الْقَوْمِ شَرَّ بَلَا
فَتَكْدُمُ الثَّرَابُ مِنْ أَصْحَابِهِ الثُّبَلَا

وَرَشَّخَ الصُّدُورَ يَسِيلُ عَلَى
وَتَخْدَرُ أَيْدِيكُمْ فِي قَنَاهَا
فَتَسْبَحُ مِنْ عِيَّهَا عَرْقًا
وَمَنْ يَتَنَاءُ فَذَاكَ حَذَارُ
فَلَمَّا انْتَهَى ضَجُّ الْجَمِيعِ تَحُمُّسًا
كَنُوطُسٍ إِذْ مِنْ كُلِّ صَوْبٍ وَهْبَةٌ
وَسَارُوا شَتَاتًا هَارِعِينَ لَخِيمِهِمْ
طَعَامِهِمْ نَالُوا وَزَكَّوْا تَقَادُمًا
وَقَدْ سَأَلُوهُمْ كَفَّ رِزْءٍ وَيْنِهِمْ
فَضَحَى بِشُورٍ مُرْبِعٍ بَعْدَ أَنْ دَعَا
وَأَوَّلَهُمْ نَسْطُورٌ ثَمَّ إِذْ مِنْ
تَلَا ذِيْمِيذْ ثَمَّ أَوْدِيسُ مِنْ غَدَا
وَجَاءَ مِنْيَلَا الْقَرْمُ مِنْ غَيْرِ دَعْوَةٍ
لَدَى الثُّورِ قَامُوا ثَمَّ ذُرُّوْا شَعِيرَهُمْ
«يَا مَنْ تَفَرَّدَ فِي مَجْدٍ وَفِي عَظَمٍ
لَا تَحْجُبُ الشَّمْسُ وَالظُّلُمَاءُ تَعْقُبُهَا
أُذْكَ شَائِقُ قَصْرِ شَادِهٍ وَأَرَى الْـ
وَدَرَعَ ذِي الْبَطْشِ هَكَطُورٍ أَمْرُقُهَا
وَحَوْلَهُ فِتْيَةٌ تَنْقُضُ سَاقِطَةً

لكنما ابن قرونٍ لم يصل أملاً
بل زاد محنتهم وبلاً وما عرفوا
والذابيح الذَّبِيحَ أعلى رأسه وكذا
بالشحم غَشَّى حواشيها وأتبعها الـ
وأضرموا النار خشباً مُقَطَّعةً
حتى إذا ذابت الأفخاذ واجتعلوا
ثم اشتووه وهبوا للطعام ولم
لما اكتفوا قام نسطور الوقور على الـ
«أترىذ مولى الموالي فنَهَبَ إلى
لِتَهْتَفَنَ دُعاة الحرب جامعةً
ولنجريَنَّ جميعاً نحو فيلقهم
في الحال لَبَّى أغامنون متدباً
بأجهر الصوت نادوهم وما لبثوا
والصيد من حول أترىذٍ مكتبةً
مُثيرةً خطوات الجند نافخةً
ترنو بمائي عَيْنِهَا مُشَدَّدةً
أهدابه مئةً كلِّ لقاً مئةً
دارت عليه مُدَلَّاةً وَقَدْ سُبِكَتْ

آوى الضحية لكن أثقل العمال ٧٤
دعوا وذروا الشعر الرَّافع القَبَلَا
من بعد تجريده أفخاذه عزلاً
أحشاء داميةً من فوقها وشلاً
سعيها بسفافيد الحشا اشتعلاً
باقي الحشا اقتسموا اللحم الذي فضلاً ٧٥
يكن بهم قط شاك لم ينل جُعلاً
أقدام مُنْتَصِباً بالقول مُرْتَجِلاً
فعلٍ يخولنا الرَبُّ الذي فَعَلَا
لدى السَّفائن أبطال الوَعَى عَجَلَا
نهيج فتنة رب الحرب والجدلا»
كل الدعاة لحشد الجند والعُمد
أن أقبلوا مستتمي العَدِّ والعُدِّ
صفوفها وأثينا فوق كُلِّ يد
بين النفوس اقتحام الهول والشدد ٧٦
قُلُوبهم وبدت بالمجوب الخلد ٧٧
من العُجُول ولا تنحلُّ للأبد ٧٨
من عسجدٍ خالص بالنور مُتَّقِدِ

حتى سَعَوْا وَأَوَّارَ الْحَرْبِ لَاحَ لَهُمْ
 تَمْضِي فَيَالِقُهُمْ فِي أَدْرُعٍ سَطَعَتْ
 كَالنَّارِ مُلْهِمَةً غَابًا عَلَى جَبَلٍ
 وَغَادَرُوا الْخِيَمَ وَالْفَلَكَ السَّرَّاعَ وَفِي
 كَمَا تَكَاثَفَ طَيْرُ الْبَرِّ مِنْ بَجَعٍ
 تَعَجُّ فِي مَرْجٍ أَسْيُوسٍ بِكَيْسَطِرٍ
 تَسَاجَلَتْ بَعَرَارٍ خَارِقٍ فَدَوَتْ
 وَلِلْحَوَافِرِ وَقَعٌ وَالنِّعَالِ لَهَا
 حَتَّى بِسَاحِلِ إِسْكََا مُنْدَرٍ وَقَفُوا
 حَلَّوْا بَضْفَتَهُ فِي عَدَّةٍ غَمَضَتْ
 مِثْلَ الذَّبَابِ إِذَا حَانَ الرَّبِيعُ وَقَدْ
 تَهَافَّتَتْ تَبْتَغِي الْأَلْبَانَ هَاجِمَةً
 وَكُلُّ سَيِّدٍ قَوْمٍ قَامَ مِنْفَرْدًا
 فِي الْحَالِ يَجْمَعُ شَتَّاهُمْ إِذَا امْتَزَجَتْ
 وَيَبْنِيهِمْ بِشِعَارِ الْفَخْرِ مُتَشَحًّا
 وَقَدْ حَكَى زَفْسٌ عَيْنَيْهِ وَهَامَتِهِ
 فِي ذَلِكَ الْيَوْمِ قَصَّافِ الرُّعُودِ قَضَى
 فَكَانَ كَالْفَحْلِ مَا بَيْنَ الصُّوَارِ مَتَى

أَشْهَى مِنَ الْعَوْدِ لِلْأَزْوَاجِ وَالْوَلَدِ
 فَوْقَ الرَّقِيعِ لِأَعْلَى قُبَّةِ الْجِلْدِ
 وَالتُّورِ مَنبَعَثٌ مِنْهَا عَلَى أَمَدٍ
 ذَاكَ الْفَضَا انْتَشَرُوا فِي حُلَّةِ الزَّرْدِ
 وَمِنْ أَوْزٍ وَرَهْوٍ بَالِغِ الْجِدِّ ٧٩
 مِنْ كُلِّ فَجٍّ عَصَابَاتٍ عَلَى الْجُدِّ ٨٠
 تِلْكَ الرِّيَاضُ لَهُ فِي حَشْدٍ مُخْتَشِدٍ ٨١
 خَفَقَتْ يَفْتَتْ جِسْمَ الْجِلْمَدِ الْأَجْدِ ٨٢
 عِدَادُ أَوْرَاقٍ رَوْضٍ بِالرَّبِيعِ نَدَى
 يَصْلُونَ نَارَ انْتِقَامٍ دَاخِلَ الْكَبْدِ ٨٣
 حَامَتِ بُعْنَةٌ رَاعِي الْعَنْزِ وَالنَّقْدِ ٨٤
 عَلَى الْقَصَاعِ بَلَا حَصَرٍ وَلَا عَدَدٍ
 بِهِمْ كِرَاعٍ بِمَا يَسْتَأَقُ مِنْفَرْدٍ
 بَيْنَ الْأَلُوفِ بِأَرْضِ الْبَرِّ إِنْ يُرَدِّ
 أَتْرِبُذَ قَامَ بِمَجْدٍ بِادْخِ الْعَمَدِ
 فَوْسِيذُ صَدْرًا وَآرِيَسًا قُؤَى جَسَدِ
 أَنْ لَا يَضَاهِيهِ بَيْنَ الْجُنْدِ مِنْ أَحَدٍ
 يَقُمُ شَمُوخًا عَلَى قِطْعَانِهِ يَسُدُّ ٨٥

القسم الجغرافي

وهو يتضمن أيضاً أسماء الملوك والرؤساء

يا قيان الأولمب لي قلن من كا	ن بذاك الوغى رءوسًا وجندا ^{٨٦} ؟
فلأنتن بالخفا عالماتٌ	للإلهات كُـلُّ علمٍ أعدًا
إنما نحن شهرة الأمر نروي	عن خفايا الأصول نَقْصُرُ حدًا
ضِقتُ دَرعًا لو لي فؤاد نحاسٍ	وبصوتي مهما تعمدت جُهدًا
لا ولو لي تصيح عشرة لسنٍ	لم أطق للجموع ذكرًا وسردًا
بيد أن القيان من نسل رب الـ	جوب يؤتيني إذا شئن رفا
لست أحصي إذن سوى عدد الفلد	كـ وكل القواد بالحرب عدا ^{٨٧}
والبيثيون بأمر ليطس	إفروثوينورٍ وفينـيلاوس ^{٨٨}
وأركسـيلاس وإكلـورينس	وبعضهم من أهل وعر أولس
إغراي إسكولس سخينس هيريا	ومن هضابٍ زدن في إتيونيا
وثسـبيا وسهل ميكاليسا	هرمة إيرثريـة إيليسا
وبعضهم من قوم إليوننا	أو كاليا هـيلا وفيتيوننا
وميديوننا زاهر المقام	كذلك ثسبا مجمع الحمام
وكوفس كُوزُونيا أتريسس	وهاليرتا روضة المستأنس
وهيفثيس المباني الشئى	ومن فلاطيا وإغليـسنتا
وقدس أنخستا التي فيها زَكت	غاب أفلون التي تباركت
وأرنيا ذات الكروم المخصبة	وميديا ونيسة المقرنة

ومنتهى البلدان أنثيدونا
كل بها عشرون شهماً ومئه
وأسفليدون وأرخيومين
كذا أخوه عسقلاف جهّزا
لآرس فرعان بالخففاء
بقصر أكثر بن آزيا هما
من بعد أن ساق اشتداد الحبّ
وقوم فوقيا بأربعينا
جميعها سوداء فيها يرؤس
كلاهما ابنا ذي العلى إيفيتس
ووعر فيثس ومن فانوفة
وأنموريا وهيمبولس
وفئة من نهر ليلايا أتت
وقوم لقربا بأربعينا
بأمر آياس بن وبلا الفائق
وهو أخو الخفة في الشجعان
لكنه لدى آياس القرم
وجنده من قينس أوفنطة

وقد أتوا في سفن خمسينا
من فتية مقدمة مُلبّاه ٨٩
من مينس قيلهما يلمين
فلگا ثلاثين عليها برزا
وأستيوخا الغادة العذراء
قد ولدا بعد القران لهما
لخدرها القاصي إله الحرب ٩٠
سفينة يسرى البيوتينا
أفسستروفوس وإسخيذيس
فرع نبولس قد أتوا من دولس
وقدس إكريسا وقياريسة
ومن قفيس الساحل المقدس
وغادرت ضفافه بما أذهت
سفينة جاءوا مسلحين
بطعنه كل سرى الأغارق
لأمته درع من الكتان ٩١
إبن تلامون صغير الجسم
قليارس بيسا ومن إسكرفة

كذلك من ترفا ومن إثرونس
وأوجيا ذات الرياض المؤنسه
وجند أوييا بأربعينا
وهم جميعاً عصبة الأباتنة
موطنهم هسيتية الكروم
كذلك إيرترية وخلكس
ومن كرسيتية ومن ستيرا
وهو ابن خلكودون عالي الجنب
وهم ذوو الغدائر المسترسلة
يغنون شقَّ الصَّدرِ بالدُّرُوع
وجهزت سفائنُ خمسونا
ألموطن البهي لابن الأرض
ربيها المأثور إيرخشاوس
حيث بحول الحول فتیانهم
يرؤسها أمهر هادٍ يهدي
وينظم القوم ذوي الثُّروس
لم يحكه من دون نسطور أحد
وجُهَّزت مراكبُ اثنا عشر
وقد أتت في قوم سالامينا

على ضفاف نهر بُوْغريس
مما وراء أوييا المُقدَّسه
سفينةٌ سوداء هم آتونا
ذوي القوى المجربات الثابتة
والبلد المعمور في ديوم
وفرضة بحرِيَّةٌ قرنش
دانوا إلى أمر أليفينورا
أميرهم من نسل ربِّ الحرب
تلوه بالبأس وفرط العجلة ٩٢
بأسلٍ عاليَّة الفُرُوع
مصبوغةٌ سوداء من آثينا
مريد آثينا وصافي العِرض ٩٣
في الهيكل المعمور بالنفائس
حبًّا بها يُذبح قربانهم
يوم النزال عجالات الجند
وهو منستس بن فيتيوس
بل فاقه نسطور سنًا وانفرد
فيها أياس بن تلامون أمر
ووليت فلك الأثينيينا

وجند أرغس ماسس إيوننا
كذا ترنشا البلدة المسورة
كذلك إيجينا وآسينا التي
جميعهم من فتية اليونان
واسْتَيْل بن قفانوس الجري
من نسبة يُعزى لطاليونا
سَفْنُهُم سودّ ثمانون وقد
ووافدو ميكينيا البهيّة
وقوم هيفيريسيا فلينا
والجند من إكلونيا النفيسه
وقُطر هليقا وما قد جاوره
وأرض سَكُونَا التي فيها حكم
جميعهم جاءوا على فُلِكٍ ميه
وهم أَجَلُ القوم بأسًا وعَدَد
قد ماس بالشّكة بافتخار
بسفنٍ سَتَيْنِ جُنْدُ ميسه
ووعر لقدمونيا العميقه
بريسيا كذا هلوس البحر

وأترزيننا ثم هرميوننا
وأفدورة الكروم النّصره
على خليج قدّمًا شُيِّدت
قيولهم ذِيَوْمَذ الطعمان
كذلك أُرِيَال بن ميكست السّري
وشدّة يحكي المخلّدينا
ولّوا ذِيَوْمَذ الأمير المُعتمَد
وأرنيّا قورنش الغنيّة
وروض آرشيريا إجيوننا
كذلك من ديار غُونُويسه
كذلك إغبالا البلاد العامره
أذرست أوّلًا على تلك الأمم
بهمّةٍ على الجميع مُربيّه
بهم أغامنون بالأمر انْفَرَدَ ٩٤
لما حوى من عظم اقتدار
أرض الحمام وكذا فاريسه
كذا سري إسبرطة الأنيقه
وأوجيا ذات ابتسام النّغر

أوتيليا أمكلياً ولاءس
في عزلة يهئون العُدّه
يستنهض الهِمّات والحميّه
جيرنيا بطلها المشهور
سفنّه كيرة تسعينا
بقوم فيلوس وإيفيجينيا
وأرض مجرى ألفس ثريونا
حيث لنسل زفس القيان
يعودُ من منزل أفريتيس من
لأنه ادّعى بإحسان النّعم
ضربته بكيدهنّ بالعمى
أنسينه نفائس الأشعار
وقوم أرقادية الآتونا
بقرب قبر أفتيس من فازوا
وأهل أرخومينس ذات النّعم
وريفيا ستراتيا وفينيا
وتيجيا فراسيا يقودهم
وهم صناديد محنّونا
أرسلها أتريد عوناً لهم

دانّت إلى أخيه مينيلوس
ونفسه بينهم مُشْتدّه
للذب عن هيلانة المسبيّه ٩٥
والفارس السامي التّهي نسطور
كانت بها جاء مع الباقينا
قيفارس فتيليا آرينيا
وآفيا العظمى هلس ثريونا
ثاميرس قد لاح باطمئنان
أوخاليا وغيظهن مكمّتن
أكثر منهنّ ومن كلّ الأمم
ثم استلبن من حجاه النّغما
ومهنة الضّرب على القيثارة ٩٦
من لحف طودٍ أجد كيلينا ٩٧
حيثُ بدا يوم الوغى البرازُ
كذا أنسفا حيث هبّات التّسم
كذاك إستمفالس منتينا
أغافنور أنكوس عميدهم
جاءوا على سفائن سبعينا
إذ جهلوا صناعة الفلك هم ٩٨

ومن بأرضٍ وليت هرمينيا
 بفراسيا ثم الأليذا الواسعة
 كلَّهم من إيفيا قد ركبوا
 لكل عشرة أميرٍ يرؤس
 كذا ابن أقطيا ط ثلغيوس
 ابن أريت المنتمي لأكثر
 ابن أغستين بن أفغياسا
 وميجس الذي أتى مهزوما
 غيظًا على أبيه فيلاوس من
 بأربعين مركبًا سوداء
 من جزر قدسية الديار
 بإيخناذة غدت مشهوره
 ومن يحاكي زفس بالرأي الأغر
 من صفحتها صبغت بالأحمر
 من قوم إيتاكا وكيفالينيا
 ومن أغيليفا ومن زاكنش
 وأربعون مركبًا سودًا أتت
 من أولنس ووعر كائيدونا
 أليسيا والوعر في أولينيا
 كذا مرسينوس تلك الشاسعة
 وقد أعدوا أربعين مركبًا
 ابن عمارنقا الفتى ذيورس
 وأمفماخ الفارس العوس
 كذا فلكسين الحقيق المخبر
 ذي الطول والكُلُّ تسامى باسا
 قدمًا إلى ديار ذو لخيوما
 كان حبيب زفس في ماضي الزمن
 يقوم من يلي أليذا جاء
 قاصية في شاسع البحار
 ودُلخيوم البلدة المعموره
 أذيس في مراكب إثني عشر
 أتى بها بما له من عسكر
 ذات السرى البهم وإكروكيليا ٩٩
 وعبرها ونيرتس وسامس
 يقوم إيتولية ممن حوت
 والثغر خلكتيس وإفلورونا

كذلك من مقاتلي فيلينا
إذ وينس وولده الأمجاد
وجند إقريطش ذات المئة
ملكهم والطاعن الشديد
جاءوا من المدائن الكبار
إغنوسة ميليتس ولكئتس
وقومهم من سائر البلاد
وتسع سفن بجنود رُؤُوس
من كل ليثٍ للوغى مُندفق
وابن هرقل قَيْلُها الكبير
وأستيوخا أمه من إيفرس
لما غزا مدائنًا عظيمه
فضل في صرح أبيه ممتعا
خال أبيه لكمنيوس قَتَلَ
ففرَّ من أبنائه وحفده
حتى إذا عانى مشقَّات الأسي
جعلها ثلاثه أقسامًا
وزفس رب الخلق قسام القسم
وفي ثلاثٍ بنى سيما أتى

زعيمهم ثُوَاس أنذرْمُونَا
وميلغير كلهم قد بادوا ١٠٠
مدينة يايذُمِينِ أَتَتْ ١٠١
كذلك مريون الفتى العنيد
غُرْطِينَة المتينة الحصار
ليكستس ريتية وفستس
على ثمانين أتوا عِدَادِ
من لِنْدُسٍ إيليسس كاميرُس
قد قَسِمُوا إلى ثلاث فِرَقِ
أطْلوفليم الطاعن المشهور
سبى أبوه في ضفاف سَلِيس
فيها بنو زفس العلى مقيمه
حتى إذا بعزمه ترعرعا
وكان ذاك الشيخ قارب الأجل
بالبحر في أتباعه وعُدَّده
دفعه البحر لأرض رُؤُوسَا
بكل قسم فئة أقاما
أولاهم الودَّ وأَجْزَلَ النِّعَمِ
إبن شروفس وأغاليا الفتى

نيريس أجمل أهل الحملة
لكنّه طَبْعًا ضعيف الباس
وفي ثلاثين ملا فيلبُس
من كان من رهط الهرقليينا
ونيسرس إكرانثس كاسوس
تتلوهم أرغوسة الفلاسجه
قد عرفوا باسم الهالينيينا
مع أهل آلوفّا وإطراخينا
كذا هَلاّس موطن الحسان
قد غادر الحرب بما قد آلى
وظل عند الفلك مشدّد الأرق
وكان من لرئيسة سبّاهها
وذلك ثيبة وفرعي إيبنس
الباسلين من بني سيلفيس
لكنه بعيد هذي المُدّه
بني فلاقا وفراسا الخضرا
وجند إفتيلون ذات الزّهر
وأهل إيتونا الوفيرة النعم

إلا ابن فيلا القَرَمَ عالي الهمة
ولم يكن إلا بنزر الناس ١٠٢
وأنطفوس ولدي ثسّالس
من جُزُر كالذّنية آتونا
كذاك أرض أورفيلس كوس
بسفنٍ خمسين سارت هائجه
أو مر مدُون أو أخائيينا ١٠٣
وإثيا ثم الألوستيينا
زعيمهم آخيل عالي الشان
فاعزلوا الكفاح والنزالا
على بريسا مضمراً كل الحق
بشرّ حربٍ عممت بلاها
جندل مينيّا وإيفسترفُس
فضل نائياً بذاك المجلس
ينهض للحرب بكل شدّه
قدس ذميتيرا الرياض الغرّا ١٠٤
وأنثرون فوق جرف البحر
بأربعين مركبًا سودًا نظم

إفروطسيلاس الفتى المحراب
وهو ابن إفكلوس صاحب الغنم
قد كان أوّل الصّناديد الأوّل
وفي فلاقا بيته لم يكْمَل
وجنده بفرط حزنهم لقد
لكنه أقل حسناً وكبر
وأهل بييا وإغلاميرا
سفنهم أتين إحدى عَشْرَةَ
وهو ابن ألكستا مجيدة النّسا
يسبع فلأهل أوليزونا
زعيمها فيلكتيس التّابِل
جميعهم فاقوا بضرب النبل
يلقى بلمنؤوس عنا التّكال
وسوف يذكرونه طرّاً على
شقّ عليهم أمره كثيرا
لذاك ولّوا أمرهم ميدونا
وجند إترمكاو إيتوم الأصم
بإمرة ابني أسقليب الآسي
أشهر من أتقن علم الطب

لكنّه قد ضَمَّهُ الثّراب
إبن فلاخس بن آريس النقم
على العدى انقضّوا فألفى الأَجلا
وعرسه تبكيه ملء المقل ١٠٥
ولّوا فذرقسّا أخاه المعتمد
وإن يكن ممن بئسه اشتهر
وهورييياس ثمّ فيرا
أفمِل أذميت وليّ الأمره
أجملهن بنات فليسا ١٠٦
ثوما كيا ميليبيا مثيونا
كل بخمسين أتت تناضل
لكن مولاهم شتيت الشّمل
مُلّقى بجرح حيّة عُضال
سُفْنهم وهو يقاسي العلال
لكنهم راموا لهم أميرا
إبن سفاح وبليس ورينا
أوخاليا حيث أريت قد حكم
مخاؤون وفولذير الباس
على ثلاثين جروا للحرب

وجيش أرمينا كذا أستيريا
 وشامخ الطيطان مُبيض القمم
 وأورفيل بينهم زعيم
 وجند أرغيسا وأولوسونا
 فولفت زعيمها ذو البأس
 وهو ابن هيفوداميا الحسناء
 يقتص من مرده القناطره
 طردهم من أرض فيليونا
 لم ينفرد فولفت بالأمر بل
 ابن كزولنٍ سليل كينا
 وغوثيس بجند كيفوس على
 بغتية الإينان والفرييه
 ومن ربي جدول طيطارسيس
 بموجه الفضي لا يمتزج
 «من الستكس مُثقل الأيمان»
 ثم فروثو بن تنشر يدونا
 وجرف فيناوس من أهالي
 فهذه أمائل البلاد
 وأرض مجرى السيل في هيفيريا
 بأربعين مركبًا سودًا عَزَمَ
 ابن أيمون الفتى العظيم
 أرثا وغرتونا وإيليونا
 ابن فريثوس سليل زفس
 قد وَصَّعته وأبوه نائي
 ويلتقيهم بالنبال المطر ١٠٧
 إلى شوامخ الأثيكينا
 لئنتس ابن آرسٍ معه استقل
 بسفنٍ سوداء أربعينا
 مراكب اثنين وعشرين تلا
 مما يلي دودونة القرييه
 ذاك الذي ينصبُّ في فينيس
 إذ ذاك من لج الستكس يخرجُ
 لذا طفا كالزيت للعيان ١٠٨
 بمن أتى من غاب فيليونا
 مغنيسيا بأربعين تالي
 وجملة الملوك والقواد

من سما في تلك السرى والخيل^{١٠٩}
 ر لدى ابن ابن فيرس أفمیل
 وجرت كالطيور فوق الطلّول
 ها لنشر الهول الرهيب الويل
 من تلامون بعد بأس أخيل
 ومن الخيل حاز كل أصل
 كيد أتريد لارتواء العليل
 راق والنبل فوق جُرفٍ طويل
 وخيول في الحندقوق الجزيل
 غير ملفين للوغى من سبيل
 أثقلهم بكُلّ حُزنٍ ثَقِيل^{١١٠}
 بمسير الإغريق فوق السهول^{١١١}
 رجّ آريم يوم هول مهول
 غاضبًا قبر تيفس المَقْتُول^{١١٢}
 ن بشوراهم يبحث جليل^{١١٣}
 وإذا بغتة بأدهى رسول
 نفس إيريس كالنسيم العجول
 ن على قبر أيسيتيس النبيل

قَيْنَة الآن أنشدني وقولي
 أجود الخيل عندهم تلك أحجا
 قد تساوت فدًا وسنًا ولونًا
 في ربي فيريا أفلّون ربًا
 وأشد الأبطال بأسًا أياس به
 فابن فيلا قد فاقه بكثير
 ظلّ ما بين فلكه فاكرا في
 وذووه الكرات يرمون والمز
 بعجالٍ قد سترت في خيام
 ورعوس الأجناد تاهوا شتاتًا
 كفّ مولاهم وزحف سواه
 وكأن السهول طارت شرارًا
 رجّت الأرض تحت وقع خطاهم
 عندما زفس بالصّواعق يرمي
 قوم طروادة شيوخ وفتيا
 تحت أبواب قصر فريام قاموا
 من لدى زفس بالبلاغ أتتْهم
 وابن فريام فولت حارسًا كا

رامه الشَّعْب راصداً ثمَّ يرعى
لِيُوَافِي مخبراً إن رأى أمـ
شَابَهَتْهُ صوتاً وشكلاً وقالت
«أيها الشيخ والحروب شدادٌ
كم ولجت الهيجاء لكنمّا أعـ
هجموا كالزَّرمال أو ورق الأشـ
فسرايا الأحلاف عندكم مخـ
فليُكْتَب ذوبه كلُّ نزيل
فعلى الفور فضَّ هكطور جمعاً
هرع الجند للسلّاح جميعاً
فتحوها ساعين بين عجالٍ
زَعَقَاتٌ من دونهنَّ صديدٌ
وتراموا بذلك السهل حتى
قد دعاها الأرباب قبر مرينٍ
ثم هكطور قام ينظّمهم يـ
وعلى رأسه تَوْجُ سَنَاءٌ
آل طروادةٍ لديه أقاموا
وَهُمْ أوفَرُ القبائل عدداً

قوم أرغوس خارج الأسطول ١١٤
—راً خطيرا بعدوه المكفول
لأَيِّهه بأصدق التَّمثِيل
كمصافٍ تلهو بقالٍ وقيل
سداؤنا اليوم ما لهم من مثل
ـجار هكطور هاك فاسمع مقولي
—تلفاتٌ بالسنِّ وعقـول
(ولك الأمر فوق كل نزيل)«
ولذا الصوت لم يكن بجهولٍ
وجميع الأبواب تحت القفول
ورجال بين القنا والنُّصول
بعجـيجٍ وهيعةٍ وصـهيل
قَتَّةٍ شرفت بمجدٍ أثيلٍ
والملا باتيا لجهل الأصول
من أصيلٍ بقومه ودخيلٍ
خوذة وهو صاحبُ التَّبجيل
لضرام الوَغَى بصبرٍ معولٍ
واقْتِدَاراً أشدُّ كُلِّ قَيْلٍ

أحلاف الطرواديين

وهو ابن أنخيس أخو الذكر الأعز
 والت أباه فوق طور إيده
 أرخيلخ ثم أكاماس البطل
 في منتهى طروادة الشديدة
 يجري أتوا يأمرهم فندرس
 وقوسه من فضل آفلونا
 وآفسا وشامخات تيريا
 أمفيس ثم الفتى أدرستس
 مستلثمًا درعًا من الكتان
 نهاهما بعلمه الحقيق
 لذاك أضمن له أذنيهما
 وأرض إفرقطين سستوسا
 يجري بها أميرهم آسيس
 على جياذ الخيل من آرسبا
 طعنة الرماح جاءت عارجه
 طفطام هيفوت كذا فيلاوس ١١٥
 قد قدما من حيث هلسبنتس ١١٦

وآنياس الدردنين أمر
 وأمه الزهرة المجيده
 وليه ابنا أنطفور بالعمل
 ومن بزيلىا بلحف إيده
 من أغنيا أرض بها أيسيفس
 ألنابل المرد ابن ليقاؤونا
 وساكنو أدرستيا وفيتيا
 بولدي ميرفس من فرقوتس
 وجاء أمفيس للطعان
 أبوهما عن ملتقى الإغريق
 لكن مقادير الردى سقنهما
 وقوم فرقوتس وآبيدوسا
 وقُدس آرسبا التي سليس
 وهو ابن هرطاقس فورًا لى
 ومن لريسا زمر الفلاسجه
 بأمر فرعي آرس ابني ليشس
 وأكماس والفتى فيرؤس

يحيط في قوم الثراقيينا
مريد زفس وابن كييس تالي
ثم فرخمس بالفيونيينا
حيث يرى أكسييس العريض
وفيلمين الشهم ذو البأس الأشد
ذوي البغال الشمس ملء البر
وجند أغياللة والبهية
كذلك إكرامنا وإيريش
بقوم هاليزونة القصية
وجاء بالميسة إخرؤميس
وليس في عرافة الانباء له
ياكيد يلقاه ووسط النهر
وبالفريجة انبرى فرقيس
من أرض أسكينية محمولا
بولدي تاليمن أنطيفس
أتت جماهير الميونيينا
وقاربا ذات لسان البربر
من طود إفثيروس جم الغاب
وضفتي ميندر ميليستس

وأوفموس بن إتريزينا
بقوم كيكونية الأبطال
حدب القسي قوم آميدونا
في سفح هاتيك الربي يفيض
بالفلغونة الأنيتيين جند
وجيش سيساموس معهم يجري
ضفاف فرثينيس الزهية
ويفستروفت الفتى مع أذيس
من أرض آليا مقر الفضة
كذلك العراف أونوموس
نفع يرى إذ سوف يلقي أجله
دماؤه بين الدماء تجري ١١٧
كذلك الكاهن أسكينوس
كلاهما للحرب صبرا عيلا
ومستل من قوم هور غيغس
في سفح إتمولوس ناشينا
جاءت أهاليها وفودا تنبري
وشامخ الميكال للسحاب
بأمر أمفيماخس ونستس

من نسل نميئون وذاك الأول
 تبرججا في ساحة الهيجاء
 لكن ذا العسجد لا يقيه
 يصصره مجندلا بالنهر
 وغايه النجدة ليقئونا
 كذاك معصوم الحجى إغلوكس
 بخلل التضار جاء يرفل
 لحمقه كالغادة العذراء
 من بطش آخيل إذا يأتيه
 مستلبا منه جزيل التبر
 قد فرعوا بأمر سرفيدونا
 من برقي تروى بماء زنش ١١٨

هوامش

(١) أتينا على نهاية النشيد الأول، وقد خيم الظلام وتوسد كل مضجعه ونام، وإذا بنا في استهلال النشيد الثاني في مشهد من أجل المشاهد: نرى الناس وأربابهم نياما إلا زفس ممثل العناية الإلهية لا يجمع ولا يكرى بل يتدبر شئون الخلق.

وشتان على ما سئرى ما رب الوثنيين وربنا عز وتعالى الذي «لَا تَأْخُذُهُ سِنَّةٌ وَلَا نَوْمٌ» فإن زفس يتنعم بلذيد الرقاد إذا شاء، فنؤل ذلك باستراحة البارئ تعالى من عناء الفكرة بأمر الخلق كما نصت التوراة عن استراحته في اليوم السابع على أنه من لنا بتأويل رقاد زفس في النشيد الرابع عشر، وقد استولى عليه الهجوع على غرة منه؟

(٢) أونيروس رب الطيف، وإن شئت فقل علم للطيف كما تقول ثعالة علم للتعلب، وذؤالة علم للذئب، لقد أسهب الشراح في الكلام

على هذا التعبير، فمن منتقد مكفر لهوميروس، وقائل أنه لم يكن يجدر به أن ينزل زفس منزلة لا تليق بأبي الآلهة والبشر بإرسال طيف كاذب يخدع أغاممنون بما لا يكون، ومن مدافع يدرأ عنه تبعة هذا القول بشرح ما يلي من الوقائع، ونفي الخداع عن الطيف؛ لأن الحرب انجلت ذلك اليوم عن انتصار اليونان لا عن انكسارهم، أما نحن فلا نرى في السياق إلا وصفاً شعرياً تقتضيه قوة الربط، وحسن التسلسل، وهب أن في إنفاذ الطيف الغرار منتقداً أفلا ترى أكثر الأديان تعترف أن الخير والشر من خلقه البارئ عز وجل، فنستعيز بِرَبِّ الْفَلَقِ * مِنْ شَرِّ مَا خَلَقَ وَأَنْ اللَّهَ قَدْ يَسْلُطُ الْآفَاتِ عَلَى الْبَشَرِ، وإذا أراد بقوم سوءاً خَتَمَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَعَلَى سَمْعِهِمْ ۖ وَعَلَى أَبْصَارِهِمْ غِشَاوَةٌ أُولَئِكَ فِي كِتَابِ الْيَهُودِ وَالنَّصَارَى وَالْمُسْلِمِينَ مَا يَقْرَبُ مِنْ هَذَا كَتَسْلُطِ الرُّوحِ الْخَبِيثَةِ عَلَى نَفْسِ أَيُّوبَ لِيَلُوهَ بِهَا رَبُّهُ؟ ولنا شاهد آخر من التوراة ذكره داسيه في شرح أرسطاطاليس، وغروت في تاريخ اليونان، وفيه من المماثلة لطيف الإلياذة ما يبعث على الظن أن هوميروس لم يكن مستنبطاً بل ناقلاً، وهو هذا: «فقال الرب من يغوي آحاب ملك إسرائيل حتى يصعد ويسقط في راموت جلعاد، فقال هذا كذا، وقال ذاك كذا، ثم خرج روح ووقف بين يدي الرب، وقال، أنا أغويه، فقال له الرب: بماذا؟ فقال: أخرج وأكون روح كذب في أفواه جميع أنبيائه، فقال: إنك تغوي وتقتدر فأخرج واصنع هكذا» ٢ أي ١٨ : ١٩ . هذا كلام رمزي قاله ميخا النبي على

سبيل المجاز؛ ردًا على كذبة الأنبياء، فصاغه هوميروس بقلب الحقيقة كجاري عادة اليونان في تجسيم ما وراء الطبيعة.

(٣) كانت سفن اليونان مدناة إلى الشاطئ والخيام على مقربة منها يعبر منها مشيًا إلى السفن، فلم يكن ثمة فاصل يذكر وإلا لاستغرنا قوله: اذهب «إلى سفن الإغريق ولج خيمة بها أقام أغاممنون» فسفن الإغريق في الإلياذة عبارة عن معسكر اليونان كمضارب خيامهم.

(٤) كان ابن نيلا الشيخ نسطور أكثر الناس حرمة لدى أغاممنون، فظهر الطيف بهيئته زاده هيبة وزاد كلامه رسوخًا.

(٥) أي: إليون عاصمة بلاد الطرواد.

(٦) لا شيء أشبه من هذه الرؤيا بحالة الرؤى الطبيعية، فإن الطيف نزل على رأس الرائي متخذًا هيئة شيخ وقور، وكلمه كلامًا ينطبق كله على حدسه وأمانيه إذ كان يرجو رحمة زفس، فيعينه على فتح إليون، ويطمع في ما لهيرا زوجة زفس من الشأن في مجتمع الأرباب، ويعلم أنها ظهيرته ونصيرة قومه، فما كان أقرب ليقينه من أنها تستميل سائر الآلهة إلى نصرة الإغريق، ثم إن الطيف غادر أغاممنون فاستيقظ وما هو بمستيقظ؛ لأن دوي ذلك الصوت لا يزال في أذنيه وحواليه. وكان ذلك عند طرّ الفجر كما سترى بعد أبيات، وهو كما تقول العرب ميقات أصدق الأحلام، كل هذا تمثيل صادق على خرافته بديع على بساطته.

(٧) إذا أتى شاعرنا على ذكر أمر رأيته وصفه على علاته، ومر على دقائقه بلا تكلف كما ترى هنا في وصفه أغاممنون يلبس ثيابه، ويشك في سلاحه بعد أن هب مدعورًا من رقادته، فإنه يشرح ذلك بإسلوب يخيل لك أنك تراه على تلك الحال، فيجعل لشعره في مواضع كهذه رونقًا لم يكن له شيءٌ منها لو شانتته مسحة التكلف.

(٨) قال صولجانًا خالديًا؛ لأنه من صنع الآلهة كما سيجيء عما قليل في هذا النشيد.

(٩) الميامين الآلهة.

(١٠) السرايا الشكاة: الجند المسلحة. تنتضل: تتسابق وتتفاخر.

(١١) الاحتفال الاجتماع، الشيخ باليونانية (Ιέρωντος) ومعناه فيها الرجل المسن، وهي كلمة تطلق أيضًا على الأمير والزعيم كما تطلق في العربية والعبرية، وسائر اللغات السامية، وهو المراد بها هنا كما ستري بعد فض المجلس، فإنه استعاض عنها بالملوك كأنهما كلمتان مترادفتان.

(١٢) نهض أغاممنون من رقادته مصممًا على الائتمار بأمر الطيف، فبث الدعاة ينادون بعقد المجلس العام أي: الذي تحضره كل الجند، ثم عقد ريشما يحتشد الجيش مجلسًا خاصًا مؤلفًا من الشيوخ؛

ليفأوضهم بما كان من أمر الرؤيا ويستشيرهم بما عسى أن يفعل، وسنرى في خطاب أغاممنون حيلة من حيل السياسيين الذين يعلنون ما لا يسرون؛ لينالوا ما يؤملون، قال ديونيسيوس: وأعجب بقوله الجرم الغفير من الشراح.

«لم يكن أغاممنون يطمع في شيء طمعه في دفع الجيش إلى قتال عنيف، ومع هذا فقد كان يخشى أن تعييه الحيلة على أثر اعتزال آخيل، ويشفق أن تعصي الجنوب أمره لو أمر تشفياً منه لما نالهم من الغيظ لاحتجاب آخيل عنهم، فعن له توصلاً لبغيته أن يعقد مجلس الشيوخ، ويسبر ضمائر الجند بحثهم على معاودة الأوطان ومغادرة الحرب، فينهض سائر الأمراء ويشنون عزمهم عن الرحيل، وإذا اعترض بأنهم لو تمسكوا بإنفاذ مضمون أمره لأخفق بمسعاها، فالجواب أنه يتطلع ببصيرته إلى وراء ما كانوا يبصرون، ولم يكن جل اعتماده على الخطاب الذي ألقاه لرد عزيمتهم بل خشي أيضاً إنهم ربما كانوا ناقلين عليه أمراً كتموه إياه، فلم يكن له مناص من تبين ميلهم قبل دفعهم إلى ساحة الحرب، ففتح لهم الباب لإعلان ما تكنه ضمائرهم، وأسّر بخفايا أفكاره إلى الأمراء؛ تلافياً لسوء العقبي، ففاز فوزاً مبيتاً، ولم تكد الجنود تهم بركوب البحر حتى أوقفها نسطور وأوديس».

(١٣) لم يكد ينتهي نسطور من كلامه حتى فض مجلس الأعيان، وسار تتبعه الملوك إلى مجلس الشورى، ولم يفه أحد منهم

بحرف لما كان له من هيبة التسلط بقوة الصدق والإقناع لا بقوة السيطرة وعلو المنزلة، ولا شك أن أغاممنون أثر عقد مجلسه بقرب مضارب نستطور توصلاً إلى تلك النتيجة.

(١٤) فرغ من وصف المجلس الأعلى، فشرع يصف اجتماع المجلس الشوروي العام، وحسبنا في الإشارة إلى ما أودع كلامه من التمثيل البليغ أن نستلفت نظر المطالع إليه منذ بعث أغاممنون دعائه إلى الجند إلى أن انتظم عقد المجلس، وما تخلل ذلك من اندفاعهم من الفلك والخيام كالنحل المتطائر من خلاياه، وتعاقبهم متهافتين زرافات إلى دار الندوة، وسعي الشهرة بين صفوفهم، وعلو ضجيجهم بادئ بدء، وقيام تسعة منادين يكفونهم عن الجلبة والغوغاء، واستتباب الهدوء والسكينة حتى باتوا كلهم آذاناً واعية، ووقوف الخطيب بصولجانه، وكل هذا بكلمات قلائل لا تتخللها لفظة حشو وترتسم في ذهن القارئ والسامع رسماً يكاد يكون حيّاً.

(١٥) هذا أول تشبيه مفصل ورد في الإلياذة، وسترى في ما يلي من كثرة التشابيه وتنوعها، ودقتها وبلاغتها ما يدل على أنه لم يقم بين الخلق شاعر سبر غور الطبيعة سبر هوميروس، ولك هنا الشاهد الأول على صحة هذا القول، وهو تشبيهٌ علق به كثير من الشعراء بعد هوميروس، وفي مقدمتهم قرجيليوس. ولا أخال أحداً من الشعراء رواة

إلياذة هوميروس أبدع بهذا المعنى إبداع الشنفرى على خلو ذهنه منها،
قال يصف نفسه وقومه:

دعا فأجابته نظائر نحل
مهلهلة شيب الوجوه كأنها قداح بكفتي ياسر تتقلقل
أو الخشرم المبعوث حنث ذبره محايض أرداهن سام معسل
مهتره فوه كأن شدوقها شقوق العصي كالحات وبسل
فضج وضجت بالبراح كأنها وأياه نوح فوق علياء ثكل

(١٦) كان اليونان لعهد هوميروس يمثلون الصفات بموصوفات
حية تحسب في مصاف الآلهة أو دونهم، ولكنها خالدة مثلهم كالفتنة
والهول، والرعدة والشهرة، وهي أسماء تدل على مسمياتها، فشهرة هنا
علم حي؛ ولهذا جردناها من أداة التعريف، ومنعناها من الصرف.

(١٧) أي: إن التسعة المنادين استرعوا سمع الجند للأمراء
الذين حكمهم زفس عليهم.

(١٨) أطل الشاعر هنا الكلام على صولجان أغاممنون، وما
أطاله عبثاً بل أراد أن يثبت فضلاً عن الرواية الخرافية علو منزلة
أغاممنون؛ لأن الصولجان عنوان السيادة والملك على الإطلاق، فليس
لأغاممنون إذن مزية على سائر الملوك بصولجانه إلا أن تكون ثم مزية
على كل صوالجهم، فذكر أنه صنع رب تناقلته الآلهة ثم حبت به أتراس

جد أغاممنون، فهو إذن ملك ورث الملك كابرًا عن كابر، وأدلي إليه بعضا السيادة من زفس ملك الملوك ورب الأرباب.

(١٩) قاتل أرغوص هو هرمس رسول زفس الوارد ذكره في البيت التالي، وهو عطارد العرب، أما أرغوص فهو شخص خرافي كان له مئة عين ناظرة إذا نام أغمض نصفها فقط، وقيل بل لم يكن يغمض إلا عينين إذا هجع، وحدث أن زفس هام بانبنة أيناخوس النهر، فثارت عليه هيرا بغيرتها فاضطر إلى مسخ عشيقته بقرة، فعهدت هيرا بحراستها إلى أرغوص فاستماله هرمس يومًا بصوت قيثارته، وظل يعزف حتى استولى عليه سبات عميق، فقام إليه وقطع رأسه، فاقتلعت هيرا عيونه وألقتها على ذيل الطاووس، قال أمر الطاووس إلى ما نراه عليه اليوم، إن بين أرغوص هذا، وأرغوس مملكة أغاممنون فرقًا ظاهرًا بالتهجئة اليونانية ولفظ الواو، ونظرًا لتعذر إبراز هذا الفرق في التعريب كتبنا إحدى الكلمتين بالصاد والأخرى بالسين.

(٢٠) فيلبس أو أترأوس جد أغاممنون.

(٢١) ثيستس ابن فيليس وأخو أترأوس، قلنا المشهور بالنعم، وفي الأصل الخراف.

(٢٢) يقول: إن أغاممنون قام يخطب واقفًا وهو متكئ على عصاه أو صولجانه، تلك كانت خطتهم في الخطابة، وهي خطة خطباء جاهلية العرب إذ كان يقف الخطيب على المنبر حيث يوجد منبر، وإذا

خطب في العراء علا نشزًا من الأرض أو خطب على الراحلة، ولا بد له من أن يأخذ بيده العصا أو المخصصة أو القوس، وقد يخطب ويده القناة، قال معن بن أوس المزني:

فلا تعطي العصا الخطباء يومًا وقد تكفي المقادة والمقالا

وقال جرير بن الخطفي:

من للقناة إذا ماعِيَّ قائلها وللأعنة يا عمرو بن عَمَّار

وقال كُثَيِّر:

إذا قرعوا المنابر ثم خطبوا بأطراف المخاصر كالغضاب

(٢٣) آتي (Aṭṭ) الداهية والنازلة والقدر جعلها بعض المترجمين نكرة، ففسروها بمعناها، وجعلها آخرون علمًا جريًا على عادة هوميروس في تجسيم الصفات، فنقلوها بلفظها وفعلنا هنا فعلهم، هذا خطاب ألقاه أغاممنون على مسمع كل الجيش، وكله سياسة ودهاء ينبئك بقوة الخدعة عند ذوي المقامات الذين يعلنون على رءوس المألأ عكس ما يذيعون بين خاصتهم، ويستندون إلى أو هن الحجاج؛ ليفنّد السامع كلامهم بكلامهم، فتقوم العامة إلى مخالفتهم، وهي إنما تقوم لتعصيد مطالبهم، وعندما يرجعون في ظاهر الأمر إلى القول بقول الجمهور يفوزون بمأربين: أحدهما: التظاهر بإرضاء أمتهم، والرجوع عن مآربهم لإبلاغها مآربها، والثاني: إنفاذ نفس رغائبهم المكتومة.

(٢٤) إذا كان زفس قد والى أغاممنون بدك إليون عاصمة بلاد الطرواد، فالواجب أن يقيم حتى يدكها لا أن ينادي بالقفول إلى الأوطان، فكأنه يقول لهم: إذا حششكم على العودة، فإنما أفعل عن جزع وسآمة لا عن تبصر وترؤ.

(٢٥) ذكرهم بطمع الكسب والسي، ثم ادعى أن زفس مان عليه وخدعه، وهما حجتان أوهن من الأولى على صدق ظاهر الدعوى، فكأنه يقول: إذا غادرنا الحرب فالتنا فرصة المكاسب، ثم إن تطاوله على زفس برمييه إياه بالمين والخداع يقلل من ثقة الجمهور بكلامه، ويحمله على عدم الأخذ به، وهو الأمر الذي يرمي إليه ببصره.

(٢٦) لا دليل يؤيد نقض زفس لعهد، والقضاء على اليونان بالرجوع خاسئين، وهذا كلام آخر أتى به عمدًا غير سديد.

(٢٧) مهما اجتمع لديهم من الأسباب لمغادرة إليون وشأنها، فعار العودة وخلود المذلة إلى جيل فجيل موجبان ما فوقهما موجب للبقاء، وزد على ذلك ما رماهم به من الحين والإحجام بقوله: إن الأعداء قليل عديدهم؛ لأن رجوعهم عن فئة قليلة يزيدهم منقصة ومذلة، فهو يريد أن يحقر أعداءهم في أعينهم فلا يبقى لهم سبيل إلى الرجوع عنهم.

(٢٨) أي: لو قام الطرواديون في حالة أمن وسلم مقام السُّقاة لليونان لما نال كل عشرة من اليونان ساقياً واحداً من الطرواد، فهم إذن لا يبلغون عشرين عدداً.

(٢٩) قوله في ما تقدم أن الأعداء لا يبلغون عشر اليونان لا يشمل إلا الطرواديين؛ لأنه استثنى هنا حلفاءهم، وسيأتي ذكر عدد الجيشين بوجه التقريب.

(٣٠) هنا حجة أخرى واهنة على الإقلاع؛ لأن السفن المتداعية إلى الخراب لا تصلح لركوب الجند.

(٣١) بعد أن ملأ آذانهم بمهيجات الإقدام أمرهم بالإحجام، فأطاعوا أمره لسؤمهم، ولكنه هياً لهم سبيل الرجوع عن عزمهم والإذعان لكلام أوديس، وهو نوع من أنواع الإيهام البياني البديع.

(٣٢) أيقارة جزيرة بين ساموس وبتاموس في الأرخيل الرومي تدعى الآن نيكاريا، وريح الصبا أي: الشرقية، وريح الجنوب في شعر هوميروس (Ερνο) و(Νοτος) أفروس ونوطوس، وهما علمان أو كما تقول العرب ملكان يحملان الريح إلى حيث يدفعها زفس من الغيوم التي يركمها في الجو.

(٣٣) الدبور الريح الغربية، واسمها زفيروس (Ζέφυρο) وكثيراً ما نراها في الإلياذة ريحاً عاصفة، وأما في الأوديسة، فقد أشير بها أحياناً إلى النسيم اللطيف بالنسبة إلى موقع البلاد التي ذكرت فيها؛ ولهذا صارت زفير (Zúphyre) بالإفرنجية مرادفةً لمعنى النسيم على الإطلاق لا لمعنى الريح، شبه اندفاع الجند إلى السفن بعج الأمواج إشارة إلى الجلبة والضجيج، ثم بسنبِل الزرع إشارة إلى اتجاههم وجهة

واحدة، ولنا هنا مغزيان آخران، وهما: أولاً: اضطرابهم لخطاب أغاممنون إذ سمعوا منه ما لم يكن بحسبانهم، فكانوا كاليم الذي تتقاذفه الأمواج، ثم ارتياحهم إلى الرحيل، فمالوا ميلة الزرع الذي تحني رأسه هبة النسيم.

(٣٤) كانت حربهم في البر على مقربة من جرف البحر، وكانت سفائنهم لاصقة بالشاطئ ومستندة إلى عمد وأركان على ضحضاح رقيق من الماء، فكان لا بد لهم من عمل شاق قبل تهيئتها للإقلاع بها.

(٣٥) الجنة الترس، ورب الجنة لقب آخر من ألقاب زفس كراكم الغيم، وقاصف الرعد، إن في إرسال هيرا لآثينا سبيين: أولهما: إن آثينا كانت من الآلهة الموالية لليونان، والثاني: أنها إلهة الحكمة إشارة إلى أن الحكمة اقتضت أن يرجع الجيش عن عزمه؛ لأنه لم يكن من الصواب والحزم أن يغادروا إليون بعد أن حصروها تسع سنوات، وأفنوا الجرم الغفير من مقاتلتها وجيشهم لا يزال كثير العدد وفير العدد.

(٣٦) فريام: ملك طروادة.

(٣٧) أوديس ملك إيثاكة، ووالد تليماخ، وهو بطل أوديسة هوميروس كان أدهى اليونان كما كان نسطور أحكمهم.

(٣٨) الأرخية نسبة إلى أرغوس أي: اليونانية.

(٣٩) الفيح: الرسول، والسفير، والساعي، كان أوربات أحد فيجي الإلياذة المشهورين، وهما: أوربات، وتلشيبوس.

(٤٠) لا يستغربنَّ المطالع تجرُّؤ أوديس على اجتزار عصا الملك من يد أغاممنون، فإنه كان داهية اليونان، وبطلًا من أبطالهم المغاوير، وملكًا من ملوكهم فكان له على أغاممنون الدالة الكبرى، وكان في ذلك الحين يسعى في إنفاذ مأرب هو واحد في نفس كليهما، فلم يكن بالكثير على أغاممنون أن يلقي إليه بها من تلقاء نفسه؛ ليرى الجند أن أوديس يخاطبهم بلسان داهيتهم من وجه وسطوة زعيم زعمائهم من وجه آخر، ثم إن الواقف على أحوال جاهلية الأمم يعرف ما لتلك العصا أو ذلك الصولجان من الهيبة في القلوب، ولقد يذكرني هذا بعضا شيوخ المنتفق في بادية العراق، وبعض حواضرها لعهد قريب لا يتجاوز الثلاثين عامًا حيث كانوا إذا أرادوا قضاء لبانة أو جبي مال ألقوا بعضا من عصيهم تعرف بعضا الشيخ إلى أحد أتباعهم، فكان حاملها نافذ الأمر، مرعي الجانب كيف توجه، ولو كان عبدًا رفقًا.

(٤١) قال ليبد:

رأيت التقى والحمد خير تجارة رباحًا إذا ما المرء أسبح ثاقلا

(٤٢) نرى أوديس يجول بين الصفوف ويكيل لكل بكيله، فيكلم كرام القوم بما لا يمس كرامتهم، ويخاطب لثامهم بقرع العصا، فيجدح لكل من سويقه، والله در أبي الطيب القائل:
إذا أنت أكرمت الكريم ملكته وإن أنت أكرمت اللئيم تمردا

(٤٣) من كلام الأفوه الأودي حكيم الجاهلية قوله:

ولا سراة إذا جُهِّالهم سادوا فإن تولت فبالأشرار تنقادُ
إذا تولى سراة الناس أمرهم نما على ذاك أمر القوم فازدادوا

(٤٤) قال ديونيسيوس: إن جميع ملوك اليونان لأول عهدهم كانوا مقيدين بمجلس شوروي سواء اتصل إليهم الملك بالأرث أو الانتخاب كما يتضح من شعر هوميروس وغيره، فإن في ما رأيناه من نزاع آخيل وأغاممنون، وما سنراه من الوقائع المتوالية، ولا سيما استطالة ثرسييت على أغاممنون بعد أبيات من هذا النشيد حجة قوية على أن الملك لم يكن مستبدًا بأمره ورأيه بين أصحابه وأتباعه بل كان «يشاورهم في الأمر» كما فعل خلفاء العرب في صدر الإسلام، وكما نصّت الشريعة الإسلامية، ولم يكن الملوك فضلًا عن هذا يأنفون من مخاطبة عامة الجند، وتلقي اعتراضهم وتحاملهم بالصبر الجميل كما لم يأنف الفاروق عمر من قوله على المنبر: «يا أيها الناس من رأى منكم فيّ عوجًا فليقومه» ولم يغضبه قول واحد من عامتهم «والله لو رأينا فيك عوجًا لقومناه بسيوفنا» فقال: «الحمد لله الذي أراني من يقوم عوج عمر بسيفه»، ومثل هذا قول أبي بكر الصديق في خطبته يوم بويع بالخلافة: «وإنما أنا متبع، ولست بمبتدع، فإن استقمت فتابعوني، وإن زغت فقوموني» ولقد زعم بعض الشراح استدلالًا بهذا البيت أن هوميروس كان يميل إلى الملك الاستبدادي المطلق، وهو زعم تؤيد فسادة كل إنشاد الإلياذة، فإنه إنما عني بحصر صولجان السطوة بيد فرد واحد زمن

الحرب كما يستفاد من سياق الحديث، وهي خطة متبعة في كل الأزمان إلى يومنا حيث يكون القائد الأكبر واحدًا لا غير مهما تعددت أركان حربه بتعبيرنا الحديث، وحقيقة الحال أن أغاممنون لم يكن زعيم ملوك اليونان إلا أثناء الحرب لا قبل ولا بعد، وقد قام بأعباء قيادة الجند والرئاسة الدينية على ما يظهر من توليه شئون العبادات كما كانت الخلافة والإمامة بيد واحد عند العرب، وانحصر كلتا الميزتين بيده لم يغنه شيئًا من اعتراض المعترضين، والرضوخ لرأي سديد يبدو من غيره وإن كره، ولكننا نراه في ساحة القتال يتهدد الجبان النكس بالقتل مستبدًا لا معارض له إذ يصبح حينئذ الأمر الناهي المطلق، وفي كل ما تقدم أدلة قاطعة على انتساق النظام العسكري عندهم، ووضع الحرية والانقياد موضعهما.

ويجدر بنا أن نبين في هذا الموضع أن تلك كانت طريقة العرب في تولية الزعامة الكبرى لواحد منهم إذا تعددت القبائل المتحالفة على الحرب، وسنذكر طرق تحالفهم في موضعها من النشيد الثالث، وحسبنا هنا أن نقول أنهم كانوا حيثما اجتمعت عدة قبائل منهم على حرب نهجوا هذا النهج، فرأسوا عليهم أميرًا واحدًا يأمر وينهى فيهم جميعًا، فإذا انتهت حربهم لم تبق له مزية على سائر الأمراء، وكان من عادتهم أن يقتنعوا بين أهل الرئاسة، فمن خرجت عليه القرعة ولوه الإمارة كبيرًا كان أو صغيرًا، ولكن حيثما اتفق أن يكون بينهم أمير أحرز المقام الأول

بمكانته وسنه ونسبه، وأقرّ الجميع له بالسبق كانوا يولونه بالإجماع بلا اقتراع ولا نزاع، كما ولّوا حرب بن أمية على قبائل قريش في حرب الفجار.

ثم إنه ليأخذنا العجب من إغفال العرب نقل الإلياذة إلى العربية مع إنها نقلت إلى لغات لم تكن شيئاً مذكوراً بجانبها، قال ابن العبري في «مختصر تاريخ الدول» طبع بيروت صفحة ٤١: «وخربت مدينة إليون الخراب الذي هو من أعظم الرزايا عند قدماء اليونانيين، وقد رثاها أوميروس الشاعر في كتابين نقلهما من اليوناني إلى السرياني ثاوفيل المنجم الرهاوي» (توفي سنة ٧٨٥م وكان منجماً للخليفة المهدي). وقال صفحة ٢١٩-٢٢٠: «وكان ثاوفيل هذا على مذهب الموارنة الذين في جبل لبنان من مذاهب النصارى، وله كتاب تاريخ حسن، ونقل كتابي أوميروس الشاعر على فتح مدينة إليون في قديم الدهر من اليونانية إلى السريانية بغاية ما يكون الفصاحة». ولقد أكثر العلماء من البحث والتنقيب، فلم يعثروا على أثر لترجمة الرهاوي، قيل: «إن العلامة السمعاني الماروني عثر على نسخة منها، فحملها في ما حمل إلى رومية من نفائس المخطوطات في أواسط القرن الثامن عشر، وأصابته عاصفة في البحر فطغت المياه على السفينة، فغطت كثيراً من تلك النفائس ومن جملة منظومات الرهاوي» ولم يتصل بنا منها غير هذين الشطرين اللذين يؤلفان البيت الذي نحن بصدد، وهما منقولان عن السمعاني.

اللا؟ من؟ ماذا؟ من؟ فم؟ لا؟ لا؟

(٤٥) كان زهير بن أبي سلمى مدًا لحرم بن سنان، فاشتهر أمر هرم وذاع ذكر محامده في مشارق بلاد العرب ومغاربها، ولا يزال كذلك منذ نيف وثلاثة عشر قرنًا، وقد سأل الخليفة عمر أحد أولاد زهير «ما فعلت الحلل التي كساها هرم أباك» فقال: «قد أبلأها الدهر» قال عمر: «ولكن الحلل التي كساها أبوك هرمًا لم يبلها الدهر». وهجا نصير الدين الطوسي المعروف بالفردوسي، والملقب بهوميروس الفرس السلطان محمود الغزنوي بقصيدته المشهورة التي مطلعها.

فبذل له الأموال الطائلة؛ استرضاءً له لعله يتوصل إلى إخفاء تلك القصيدة وإبادتها لئلا تخلد في بطون التواريخ، فخشى ذلك الغازي

الفاثك بالألوف وآلاف الألوف، ورقيقة تنمي عنه خبر السوء، وهي خارقة من خوارق قوى الشعراء الفطاحل، وهذا شاعرنا لم يذكر أحدًا بمليح أو قبيح إلا خلد ذكره بل جعل اسمه مرادفًا للخلة التي ميزه بها، فصار آخيل مرادفًا للبأس، ونسطور للحكمة، وأوذيس للدهاء، ولم يكن هوميروس هجاءً بما اتصل إلينا من شعره، ولكنه جمع في هذا الموضع من المعاييب في ثرسيث ما يجعل السامع يشمئز من مجرد ذكره حتى صارت هذه الكلمة في كثير من اللغات مرادفة لقبيح الوجه، وفاسد القلب، والسفيه الغرور السفيل الفخور، ويغلب إطلاقها على الحسود الذميم، والنمام اللئيم، والسليط الزنيم.

(٤٦) الأكبس من أدبرت جبهته، وأقبلت هامته، زاد على معاييب خلقه معاييب خلقه؛ ليزيده حطة في ذهن السامع، فيعلم موضع حقارته في عين الجند، والقبح أقبح ما يكون بصاحب الوجه القبيح، والله در القائل:

أيا مليح الوجه كن محسنًا لا تجمعن الزين بالشئين
ويا قبيح الوجه كن محسنًا لا تجمعن بين قبيحين

(٤٧) لا شيء أدل على بذاءة الطبع، والحسد من التحامل والتناول على أبعد الناس همة كآخيل، وأوفرهم ذكاءً وعقلًا كأوذيس، وكلام الشاعر هنا توطئة لاشمئزاز الجند منه، ولكننا لا نرى ثرسيث مكترثًا لذلك بل جل همه أن يضحك القوم ولو هزؤًا به، وهذا يمثل لك

حالة من نضب ماء الحياء الحياء من وجهه، فلا يبالي أساء الناس أم سرهم، وما أحسن قول أبي تمام بهذا المعنى.

يعيش المرء ما استحيا بخير ويبقى العود ما بقي للحاء
فلا والله ما في العيش خير ولا الدنيا إذا ذهب الحياء
إذا لم تخش عاقبة الليالي ولم تستحي فافعل ما تشاء

(٤٨) أي: هل لا تزال تطمع في الذهب يأتيك فكأًا لأسير ألقيه أنا أو غيري بين يديك، إن في هذا الكلام لمنتهى القحة من رعاه كثرسيت إذ ادعى بأسًا فوق بأس أغامنون، ورماه بمذمتين طمعه في الكسب والنهب، وخلوه من الشأن في إحراز الأسرى إذ ليسوا لديه بشدة بأسه بل ببسالة جنده وأتباعه.

(٤٩) في هذا الكلام إبهام بل إيهام مقصود، فإنه أشار إلى سبية علق بها أغامنون، ولم يقل أهي خريسا التي اعترف بشغفه بها أم بريسا التي لم يعلم أحد بعد شيئًا من منزلتها عنده، ولكن الظاهر من خبت النية أنه أراد كليهما، واتخذ من حب أغامنون للأولى حجة على لزوم غرامه بالثانية متذرعًا بذلك إلى إثارة الغيظ بأفئدة أصحاب آخيل، وإلقاء الفتنة بينهم وبين أغامنون، والفتنة محجة يسعى إليها الحسود بخيله ورجله، وسرى في النشيد التاسع أن ثرسيت وجه إلى إغامنون هذه التهمة زورًا وبهتانًا؛ لأن أغامنون أثبت بالأيمان المغلظة أنه لم يدر في خلده قط أن يقربها.

(٥٠) لما كان ثرسيث ساعياً بكليته إلى الغض من شأن الملك تناهت به القحة إلى رمي الجند بأعظم صفات الجبن، فخطبهم خطاب النساء؛ ليهيجهم حقاً على زعيمهم، ولكنه ساء فألاً بل هو دهاء عظيم من شاعرنا أن جعل لأغاممنون خصيماً كثرسيث تثقل رؤيته كما يثقل منطقته على كل الجيش، ومن استقبحت صورته وفعله استقبحت رأيه، وإن كان صواباً، فقد رأى الشاعر أنه لا بد من معارض يقف في وجه أغاممنون، فلو جعله رجلاً من ذوي المكانة وأصالة الرأي لوقع كلامه وقفاً سيئاً في نفس الجميع، فلم يكن أوفى بالمرام من نَمِّمٍ حسود لا يشفع بأقواله شيء من مظاهر أعماله.

(٥١) الصيت: الشديد الصوت.

(٥٢) الصيد جمع أصيد، وهو السيد والرئيس.

(٥٣) أبناء دانوس والدانويون اليونان.

(٥٤) التشتت الخيبة، لقد جمع الشاعر بثرسيث أقبح الصفات، ومثلها كلها أصدق تمثيل، فأبدع هنا بوصف حالة الجبان الرعديد الذي إذا استقوى شمش وتمادى في الغرور والكبر، وإن استضعف ذل ذلة الأنذال، وهكذا فإن ثرسيث لما أنس من الجيش ارتياحاً لمغادرة القتال، والقول إلى الأوطان بلغت منه القحة ما بلغت ظناً منه أن الجيش ظهره والموقف نصيره، فلما تصدر له أوديس ولم يكن في الجمع من يذود عنه بدأ جنبه بأقبح مظاهره، وقد ختم الشاعر

هذا المشهد بقهقهة الجمع كما ترى في البيت التالي، وهي خاتمة تنبئك بما في طبيعة الجندي من الاشمئزاز من تشدق المتبححين، وقلة العبء بفلسفة المتفلسفين، والشماتة بخيبة الغرور المختال، وفيها أيضاً إشارة إلى أن نفوسهم طابت عن الرحيل، فمالوا إلى القتال ترفعاً عن أن يقفوا منقادين لرأي حقير، ولسان حالهم يقول:

إذا وقع الذباب على طعام رفعت يدي ونفسي تشتهيه
وتجنب الأسود ورود ماءٍ إذا كان الكلاب ولعن فيه

لا بأس أن نذكر هنا أمراً تنبه إليه بعض الشراح، وهو أنه لم يرد ذكر لثريت بعد هذا الموضع في كل إنشاد الإلياذة كأن هذا الإضراب عن ذكر اسمه مقصود من الشاعر لوضعه في أدنى درك الحقارة، وأبلغ من هذا أنه لم يذكر نيريوس الجميل إلا مرة واحدة أيضاً، ثم تناساه كأنه نزل جمال الجسد إذا عرا عن محامد الأخلاق وعزة النفس منزلة قبح الصورة والسيرة وفساد السريرة، أفيظن لهذا صاح الصور قباح السير؟

(٥٥) هدام المدائن لقب لأوديس؛ لأنه كان يفعل بدهائه ما لا تقوى عليه حراب الجيوش، وهو الذي مكن اليونان من فتح إليون عاصمة طروادة.

(٥٦) كثيراً ما نرى أثينا إلهة الحكمة موازنة لأوديس إشارة إلى أن الرجل الرصين لا يأتي أمراً إلا عن حكمة وتروؤ.

(٥٧) لقد أسهب الشراح بوصف بلاغة الشاعر، وحسن تصرفه، ودقة سياسته في هذا النشيد، واستشهد علماء فن الخطابة بما ورد فيه من الخطب المتوالية، وكلها واقع في موقع ليس لشاعر أن يجعلها في أليق منه، فقد مر الكلام على ما حوى نطق أغاممنون من الحنكة والدهاء، ولم يكد ينتهي حتى انبرى أوديس بدهاءٍ أعظم أتى به من وجه آخر، فشرع أولاً في استنهاض همم الزعماء، فحرضهم بالركة واللين وغالى بخطارة موقفهم، فأصاب محل الضعف فيهم ونال بغيته منهم، وانثنى ثانياً على عامة القوم وسفلتهم، فزجرهم زجراً وردهم إلى سواء السبيل، وثلث بردع ثرست بدربة، وحذق أطلق بهما لسان الجميع بالثناء عليه، فكان له بكل ذلك أحسن توطئة لهذا الخطاب الرابع الذي يلقيه على مسمع الجمع كافة؛ ليحسن لهم المّقام ويوطد ثقتهم بالفتح المبين، وصدق النبوءات المشيرة إلى فوزهم في عامهم، ومن دهاء أوديس في خطبه أنه إذا تطلّع إلى بغية يتطلبها من الزعماء وجه كلامه إلى عامة الجند، وإذا قصد الجند خاطب أمراءهم فإنه لما قال للعامة: «لا يستقيم الأمر إلا أن يكن فردٌ يخول صولجان الصولة» أراد أن يفقه الرؤساء هذا القول فلا يتجاوز كل حده، ولما شرع هنا في ملامة أغاممنون قصد إبلاغهم جميعاً ما يترتب على خمولهم وتثبطهم من العار والحطة، وهذا منتهى البلاغة في الإيهام.

(٥٨) لا يخفى ما في كل هذا الكلام من حسن التدبر، فإنه تظاهر بعذرهم على سؤمهم وضجرهم، وقد استمهلهم من وجه ديني، فكأنه فرض عليه الثبات بحكم القدر المحتوم، وإن ساءهم حيناً، والرضوخ للأقدار يسهل احتمال الأزمات الشداد.

(٥٩) أفلس ثغر كان قديماً في بيوتيا تجمعت فيه سفن الإغريق عند الحمل على طروادة، ومحلّه الآن بلدة مكروفاثي، أشار بذلك إلى تشاغلهم بالفتنة بين آخيل وأغاممنون.

(٦٠) لقد يتبادر إلى الذهن أنه لم يبق بالجيش حاجة إلى خطاب نسطور بعد أن هاج حميتهم أوديس على أنه سيتضح للمطالع أن الشاعر نهج في كل هذا النشيد نهجاً بديعاً، فأنطق كلا من رجاله حكمة لا تصلح إلا له، ولا يصلح إلا لها فقضى كل منهم وطره، وتألّوا جميعاً على إدراك المطلب العام، وهكذا فإن أغاممنون استطلع ضمائر القوم فسير غورها، وأوديس شدد عزائمهم وقادهم بحبال دهائه إلى طلب القتال، فبقي على نسطور وهو صاحب القول الفصل، والشيخ الذي أجمع الناس على إجلال قدره أن يستفزهم براسخ هيئته إلى الإقدام عاجلاً على مهاجمة الأعداء، فكرر وذكر، ونصح وزجر، ونهى وأمر، ووعد وأوعد، وهي مقادة لم تكن لتلقى إلا إليه، وخطة لا يعول بها إلا عليه.

(٦١) كانوا إذا استوحوا خفية من زفس، وقصفت الرعود على أثر استيحائهم استبشروا بتحقيق أمنيته كما جرى لهم قبل أن حملوا على بلاد الأعداء كرر لهم نسطور ذلك لترسخ الذكرى.

التفاؤل والتشاؤم من غرائز البشر، وقد عجزت الحضارة والعلم من سمو مبلغهما عن استئصال شأفته، ولقد يحسب ذوو الأماني والحاجات حتى في عصرنا أنهم إذا ابتلوا بأمر أو راموا غرضًا تحوّلت إليه أنظار القوى العلوية والسفلية، وعني به الحي والجماد فبات كل ما يحيط بهم رموزًا وأدلة تشير إلى ذلك الغرض، فلا لوم بعد هذا على جاهلية القوم إذا تفاءلوا أو تشاءموا بما يتراءى لهم من نجم وبرق، وطائر وحيوان، ذكر هوميروس في مواضع من إلياذته تفاؤلهم وتشاؤمهم بالبرق والبرق والطير، ولكن كل ما ذكره من هذا القبيل ليس إلا نذرًا قليلًا بجانب ما اتصل بنا من أسباب التفاؤل والتشاؤم عند قدماء العرب مما بادت آثاره وما لم تبد، من ذلك أنهم إذا كانوا حول مريض وسمعوا داعيًا يقول: «يا سالم» استبشروا بسلامة مريضهم، وإذا كان أحدهم طالبًا لحاجة وسمع قائلًا يقول: يا غانم أو يا ظافر أيقن بالفوز والظفر، وتلاعبوا بالألفاظ تيمناً وإشفاقاً فسمّوا الملسوع سليماً، والتهلكة مفازة، والموت أبا يحيى وهلم جرّاً، واتخذوا من الأصوات والحركات دلالات ونبوءات، فقالوا: إن اختلاج العين يبشر بلقاء الحبيب ومنه قولهم: ظلت تبشرني عيني إذا اختلجت بأن أراك وقد كنا على حذر

وقالوا: إن اليد اليمنى إذا نبضت دلت على شيء يدفع إليها فتأخذه، وإذا نبضت اليسرى دلت على شيء يؤخذ من صاحبها، وإذا سمع طنين في الأذنين كان في ذلك إشارة إلى قرب بلوغ نبأ من الأنباء، وإذا كان الطنين في الأذن اليمنى دل على نسيمة، وهو يدل في اليسرى على مدح وثناء، وهذا من المزاعم الباقية، وفيها يقول أهل العراق: «الأذن اليمنى عدو مبين، والأذن اليسار صديق سار». وكان بعضهم يتطيرون بالأبل ومنه قولهم:

زعموا بأن مطيهم سبب النوى والمؤذونات بفرقة الأجباب

ولكل ما تقدم وأمثاله أسباب بعضها مجهول وبعضها معلوم، فالتشاؤم باليوم شائع في أكثر بلاد الله، وسببه أنه يأوي في الغالب إلى المحلات الخربة، والتشاؤم بالعطاس عند العرب قيل: إن سببه دويبة مكروهة يقال لها العاطوس، وهو من المزاعم البائدة عند العرب، ولكنه شائع كل الشيوع بين فريق عظيم من عامة العجم، ويقيدونه بالعدد، فإذا أقبل تاجرهم مثلاً على شراء سلعة فعطس تشاءم، فعدل عن الشراء فإذا عطس بعدها ذهب الشؤم وحل اليمن مكانه فعاد إلى عزمه، ولم تكن تخلو هذه الاعتقادات مع ما يخالطها من فاسد الوهم من أمور معقولة ترجع إلى حكمة ثابتة من ذلك تشاؤمهم من نومة الضحى، ويسمونها نومة الخرق يعتقدون أنها تورث الخوف والغم، ولا يكون صاحبها إلا بليداً ومن نومة العصر ومن عواقبها في اعتقادهم الجنون ومنه قولهم:

ألا إن نومات الضحى تورث الفتى خبالاً ونومات العصور جنون

ومما يُدرج في هذا الباب ما رواه ابن خلدون إذ قال: «زعم بعض الخواص من المسلمين أن المدينة إذا كثر فيها غرس التاريخ في الدور تآذنت بالخراب حتى أن كثيرًا من العامة يتحاشى غرسه فيها، وقيل مثل ذلك في الدفلى أيضًا، وسببه كونه من الترف الذي ينشأ عن زيادة الحضارة؛ لأن هذه الأشجار لا تكون إلا للزينة، وهي تسبب الخراب؛ لأن زيادة الترف تكون سببا للجبن والرخاوة اللذين يعقبهما الانقلاب وذل العبودية».

وقد أباد الإسلام كثيرًا من هذه الاعتقادات وأضعف كثيرًا، ولكنه لم يحرم التفاؤل على إطلاقه ومن المرويات الماثورة: «تفاءلوا بالخير تجدوه» وهي حكمة لا تخفى على اللبيب، ومن هذا القبيل ما روي في الحديث: «توقع خيرًا تلق خيرًا، وتوقع شرًا تلق شرًا» أما الطيرة فهي محرمة، وفيها ورد الحديث: «لا طيرة في الإسلام» وسنأتي في النشيد الثاني عشر على بيان أمرها.

(٦٢) هنا يتهدد نسطور المتخلف منهم بالقتل، وإن كان شيخًا عاجزًا وهم لا شك يتلقون كلامه مكبرين لعلمهم أنه لا يعدم فتى ذا بأس ينفذ أمره إذا أمر.

(٦٣) لما استتم نسطور الكلام في مخاطبة الجيش رجع فوجه الخطاب إلى أغاممنون قاضيًا بالكر العاجل؛ لئلا تفتر الهمم بطول

الانتظار، ورسم لهم خطة الهجوم بكلمات جمعت من الحكمة شيئاً كثيراً، وحسبنا قوله لنتنظم الأجناد بين القبائل يُؤلَّى على كل قبيلة منها زعيمها، ثم دفعه إياهم إلى التخاطر بالبسالة والإقدام بقوله: فتعلم من منهم أشد تثبناً الخ، فإنه لم يكن يصلح في ذلك الموقف الخطير أن تكون زعماء القبائل إلا منها؛ لأن الجيش وإن كان واحداً، فلم يكن مؤلفاً من ملة واحدة بل من ممالك شتى تجمعها جامعة الاتحاد، فلا يرتاح كل قبيل منهم إلا الائتثار بأمر أمير غير أمير بلاده، ثم إنه فضلاً عن المطعم العام كانت كل فئة منهم تطمع بالتميز ببأسها، فتحرز فضلاً صرفاً لها لا يمازجه منزع أجنبي، وهكذا كانت قبائل العرب قبل الإسلام إذا تحالفت بقيت تحت زعامة أمرائها كما سنبين بُعيد هذا عند تعداد قبائل الأحلاف، وقد ظلت العرب على هذا النهج إلى أن جاء الإسلام وجمعتهم جامعة الدين، فصاروا كأنهم قبيلة واحدة تسعى وراء مطلب واحد فلم يبق بهم من حاجة إلى مراعاة تلك الحال في كل حين.

(٦٤) لما فرغ أوديس من خطابه صوّب الجيش كلامه، فخرق صوتهم الجو، ولما انتهى نسطور صمت الجميع، ولم يكن ذاك الدوي بأجمل من هذا الصمت، فإن الشاعر قد وفى كلاً حقه؛ لأن أوديس كان على دهائه بطلاً مغواراً، فتحمس الجيش لحماسته، ونسطور كان حكيماً جليلاً وشيخاً يكاد يدركه العجز، فصمتوا هيبة وإجلالاً، وقام أغاممنون بأداء فرض الشاء عليه بعبارة تشف عن إعظامه قدره، وإكباره سداد رأيه،

ولا يفوتنَّ المطالع ترقى بلاغة الشاعر في خطب رجاله من أغاممنون إلى أوديس إلى نسطور إلى أغاممنون فكأنها سلسلة متماسك بعضها ببعض، كلما نظرت إلى حلقة منها شاقك حسننها، وإذا نظرت إليهنَّ جميعاً عجبت لحسن الارتباط، وتناسب كل واحدة مع أختها، ولا غرو فهذا شأن هوميروس في أكثر شعره.

(٦٥) فالاس آثينا إلهة الحكمة.

(٦٦) يقول: إنه لو أتاح لي الآلهة أن يكون في جيشي عشرة حكماء نظيرك لكنت ذلت طروادة، حسبنا بهذا القول دليلاً على مكانة أصالة الرأي عندهم، فإن زعيم الزعماء أثر عشرة حكماء على فيلق جرار، وهذا الكلام وإن كان يخالف من وجه قول بعض الشعراء العرب كأبي تمام القائل:

السيف أصدق أنباء من الكتب في حده الحد بين الجد واللعب

فهو ينطبق كل الانطباق على قول الأكثرين ومنهم أبو الطيب القائل:

الرأي قبل شجاعة الشجعان هو أول ولها المحل الثاني

وسرى في النشيد التاسع بيتاً تكاد تجزم إذا قرأته أن أبا الطيب عرّب بيته هذا عنه، وهو قوله:

فلم تؤت بأس الكف والبأس أول وأوتيت فخر الملك والعز ثانيا

(٦٧) الجوب الترس، ورافع الجوب زفس، أراد أغاممنون أن يذهب بقية ما في صدور القوم من الوجد عليه لاعتدائه على آخيل، فاعتذر قبيل استنهاضهم للتأهب وألقى على زفس «أو القدر» تبعة ذلك الخصام كأنه اضطر إليه بقوة غالبية، ومن ثم استطرق إلى إصدار الأوامر وتخلصن بتوعد المتنبائي منهم بالقتل تأييدًا لقوة الزعامة وسطوة الملك، فوقف أولاً موقف الخطيب وتدرج منه إلى موقف القائد الأمر الناهي كما سترى من سياق الخطاب.

(٦٨) السغوب الجوع كالسغب.

(٦٩) نوطس ممثل الريح الجنوبية كما تقدم، وحزير الصخر: مجتمع الصخور الغليظة، أي: إن اندفاعهم إلى مضاربهم كان كاندفاع الموج تقذف به الريح لأعالي الصخور.

(٧٠) لا يستفاد من هذا البيت أنهم كانوا على عبادات مختلفة، فإنهم كانوا جميعاً يدينون لجميع الآلهة، ولكن لكل فئة منهم ميلاً خاصاً لرب من الأرباب، وكل رب له ولاء خاص لفئة أو لبلاد، فاختلفهم بعبارة أخرى إنما هو كاختلاف بعض النصارى في تشفع قديس دون آخر في ظروف معلومة، وهم مخلصون الاعتقاد بصلاح الجميع أو كاختلاف المسلمين في الانتماء إلى طرائق ومذاهب مخصوصة مع إجماعهم غالباً على أنهم جميعاً على صراط سوي.

(٧١) المربع من الثيران الذي بلغ الخامسة من سنه.

(٧٢) لما كان أتريد أي: أغاممنون كبير القوم كان يجدر به أن يضحى لرفس كبير الآلهة، وأن يجتمع على مائدته كبار الأمراء بدعوة خاصة منه، فحضر نسطور وأيدومين والإياسان الخ، وقد رتبهم الشاعر ترتيباً لم أر أحداً من الشراح فطن له مع ما فيه من دقة المراعاة، فجعل أولهم نسطور إجلالاً لشبيهه، وقفى بإيدومين؛ لأنه كهل له حق التصدر على الفتیان إياس بن تيلامون، وإياس بن ويليوس وذيوميذ، أما أوديس فإنما وضع بعد الشبان، وإن كان كهلاً يضاهي الأرباب بحكمته كما قال الشاعر؛ لأنه كان بمثابة أخ لأغاممنون لعظم ما له عليه من الدالة، وما لذاك به من الثقة، فكان يليق والحالة هذه أن يتأخر لغيره مجاملة كما تأخر منيلا وأغاممنون عن الجميع، ولا يسعني قبل الانتقال من هذا البحث وجل قُرَّائي عرب، ومن كرام العرب إلا أن أنتقد قول الشراح الذين عابوا هوميروس على جعله منيلاوس يحضر مأدبة لم يدع إليها، فقالوا: إن في قدومه طفيلياً غضاضة من شأنه، وهو قول لا يقوله إلا الناشئ بين قوم وهنت فيهم عرى الإخاء، وهو والعياذ بالله من شوائب التمدن الحديث، أما الواقف على أحوال جاهلية الملل وبدواتها حتى وعريق حضارتها في بلاد المشرق كجزيرة العرب يعترف معي أنه لو جعل هوميروس منيلاوس في عداد المدعوين لأتى شيئاً منكراً، ولو فرضنا أن في إغفاله دعوته تقصيراً فقد أبدى الشاعر نوعاً من العذر بقوله: إن منيلاً

لم يكن ليطالب أخاه بتلك الدعوة؛ لعلمه بكثرة مشاغله، وهب إنه لم يقل ذلك وليته لم يقله، فلا محل للوم الشاعر، فإن نساء بادية العرب وحواسرها كانت تقول في انتياب الشدد «الزوج موجود، والابن مولود، والأخ مفقود» إشارة إلى أنه لا يقوم مقام الأخ مخلوق، أفإذا أولم الأب وليمة وابنه في ربعه كما كانت الحال في مضارب الإغريق يعد الابن طفيلًا إذا قدم من حيث لم يُدعَ، فكيف إذن والأخ في بلاد المشرق وجاهلية كل الأمم أن لم يكن أكثر دالة من الابن فهو بمنزلته أو يقاربه؟ ولا يدخل هنا الحنو الوالدي بشيء.

(٧٣) قد أتينا في شرح النشيد الأول على ذكر طرائفهم بالتضحية لآلهتهم فلا حاجة إلى الإعادة، وقد كرر الشاعر في ما يلي بعض أبياته من ذلك النشيد.

(٧٤) ابن قرون زفس.

(٧٥) اجتمعوا: اقتسموا.



التضحية عند اليونان.

(٧٦) لم يكن يجدر بهوميروس وهو الذاهب إلى أن العون الإلهي، مصدر كل عمل خطير إلا أن يختتم هذا الباب بتوسط الإلهة أثينا، وقد فعل، فبعد أن تشبّطوا عن القتال وقدح زعمائهم زناد فكرتهم ودهائهم، وأفرغ خطباؤهم جعبة نصاحتهم وبلاغتهم، فبلغوا منهم المرام لم ير الشاعر أصلح من ربة الحكمة ورقيبة المعارك للهبوب بهم هبة واحدة، فأبرز صورة من أبدع الصور الشعرية.

(٧٧) المحبوب الترس، وقد لقبه بالخالد؛ لأن كل ما ينتمي إلى أبناء الخلود خالد لا يعتريه فساد ولا اضمحلال، ولا يخفى ما في إبراز أثينا على تلك الصورة من العظمة والسمو، وسرى في النشيد الخامس وصف هذا المجن ببلاغة يقف لها الشعراء هيبة وإجلالاً، ولم ينزع الشاعر في هذا الموضع إلى بلوغ سمو ذلك الوصف؛ لأنه إنما وقف هنا بالإلهة موقف المشير المشير لا كما وقف بها هناك موقف المغوار الجبار.

(٧٨) أي: إن كل هدب من أهداب الترس المدلاة من حواشيه تساوي قيمتها مئة عجل.

(٧٩) الحيد طول العنق. قال عنتره:

كأن السرايا بين قوِّ وقارة
عصائب طيرٍ ينتخين لمشرب

(٨٠) الجدد الشواطئ. كيسطر أو كيسطروس نهر ينصب قرب أفسس في نواحي أزمير، واسمه الآن كوجك مندر.

(٨١) تساجلت الطير تسابقت، والعرار صياح بعض الطيور.

(٨٢) الأجد القوي.

(٨٣) في عدة غمضت أي: في عدد وافر لا يدرك قدره.

(٨٤) العنة الخطيرة، والنقد صغار الغنم، والمراد به هنا الغنم على الإطلاق.

(٨٥) الصوار القطيع من البقر، أتم الشاعر هنا تأهيب الجيش للقتال، وهبَّ بهم هبواً متتابعاً كالجدوة التي تضطرم عن شرارة، فتظل تلتهب حتى تلتهم نيرانها كل ما تناولت، وما كدنا نراهم على أهبة القفول حتى رأيناه يتذرع بألف وسيلة؛ لاستنهاض همهم، وما زال حتى وقف بهم في ساحة القتال جيشاً منتظماً متألِّباً للكر بقلب واثق بالظفر غير هيَّاب، كل ذلك بنسق يشف عن مجرى طبيعي لا يشوبه تكلف ولا عناء، أما التشابيه المتعاقبة ولا سيما في الأبيات الأخيرة ففي كل منها مرآة تنعكس عن صور الطبيعة بأبهى المشاهد، فترى الشاعر يرسم للمطالع والسامع كل ما انجلي لحواسه فيشركه بلذة مرئياته ومسموعاته وتصوراته حتى لا تفوته منها فائتة، فإنه عند قيامهم مدججين بالسلاح

شبه بريق أدرعهم بالنور المتدفق من غاب ملتهبة على رؤوس الجبال بما
يشبه نار عبيد بن الأبرص بقوله:

ودنا يضـيء ربابـه غاباً يضـرمه حريقـه

وعند تهافتهم إلى المعسكر شبههم بالطيور المتساجلة بمرج
أسيوس كما شبه سلعة ابن الخرشب الأنماري خيل قومه بالعقبان
الخدارية بقوله:

ولو أنها تجري على الأرض أدركت ولكنها تهفو بتمثال طائر

خدارية فتحاء ألق ريشها سحابة يوم ذي أماضيب ماطر

ثم شبه جلبتهم بعرار تلك الطيور وهو مشهد لا شك شاهده فاطر
في نفسه فما ضن به بل ألقاه إلى راوي شعره، وقد انتقد عليه في هذا
التشبيه؛ لأن الطيور المتساجلة على هذا النمط لا تكون على انتظام يليق
بجيش زاحف على العدو، وفات المنتقد أن ذلك التهافت إنما كان قبل
انتظام عقد الجيش، وأن تلك الطيور نفسها بعد هبوبها تنتظم أسراباً،
وكأني بالمنتقد لم يتأن بقراءته حتى يأتي على آخر هذه الأبيات، أو يبلغ
أول النشيد الثالث حيث يصف الشاعر انتظام الجيش وسكونه ودريته
بما يشف عن إمام تام بمواقف الجند في ساحة القتال.

ثم ما عتم بعد هذا أن شبه كثرتهم بورك الربيع؛ زيادةً لهيتهم هذه، وهنا أيضاً توطئة لتعداد فرقهم كما ستري.

وزاد بوصف أقدامهم فقال: إنهم كالذباب المتهافت على الألبان بحظائر الرعاة في الربيع، وقد عيب على هذا القول؛ لأنه وإن كان صادقاً في حد نفسه فهو دون سائر التشابيه سموّاً خصوصاً؛ لأن المقام مقام مدح وإعجاب، وهذا الانتقاد على هوميروس قديم العهد ذكره أفستاثيوس وغيره، على أن الشاعر كما تقدم كان يمثل الطبيعة على علاقتها وفي ذلك سر طلاوة شعره، أفلا ترى أن عنترة ترنم بذكر الذباب ترنم هوميروس، فأورد معنى الشعر اليوناني وزاد عليه بقوله:

وخلا الذباب بها فليس يبارح غرذاً كفعل الشارب المترنم
هزجاً يحك ذراعاه بذراعاه قدح المكب على الزناد الأجزم

ومن هذا القبيل قول الآخر في البعوض:

إذا البعوض زجلت أصواتها وأخذ اللحن مغنياً لها
لم تطرب السامع زامراتها صغيرة كبيـرة أداتها
تقصر عن بغيتها بغاتها ولا يصيب أبداً رمايتها

رامحة خرطومها قناتها

ورب تعبير تمجده الأنفس في عصرنا كان في أيامه مقبولا
ومستحسنا، فمن منا اليوم إذا أتى على وصف أدبة أقيمت للغيد الحسان
يتشبه بشيخ شعراء العرب بقوله:
ويوم نحررت للعدارى مطيتي فيا جبذا من رحلها المتحمل
فطل العذارى يرتمين بلحمها وشحم كهذاب الدمقس المفتل

مع أننا إذا تلونا شعر امرئ القيس أخذتنا هزة الطرب والإعجاب،
ولا يفوتنك أيضاً أن ما يصلح للتعبير في لغة لا يصلح في أخرى، على
أنه وإن ساغ للمترجم أن يلفظ العبارة، فلا يسوغ له أن يبدل معنى بآخر
أو يغفلها أصلاً، فإن بوب مثلاً استهجن لفظ «الذباب» فوضع موضعها
الحشرات مع أنني أرى «الحشرات» أثقل على سمعنا من الذباب في
الشعر، وربما كانت أخف منها على آذان الإنكليز، وهو العذر الذي
يلتمس له، وأما هبس الذي أغفل العبارة برمتها وأكل بترجمته الذباب
كله، فأى عذر يلتمس له اللهم إلا أن يكن أراد التلخيص والتقليد لا
الترجمة الصحيحة.

وبعد أن تكامل الجند شرع الشاعر في تنظيمهم كل فئة بإمرة
زعيمها، وأي تشبيه أصدق من الرعاة التي تتبين خرافها من بين القطعان
والقطيع الذي يحن إلى التحيز إلى راعيه، ولم يفته بعد كل ما ذكر أن
يختم المقال بوصف القائد العام أغاممنون، فوصفه وصفاً بالغاً في الأبهة
والكمال، وشبهه بأعظم الآلهة، وانتقى له من كل إله أعظم صفة فيه

وجسّمها جرياً على سنن الميثولوجيا، فجعل له هامة زفس وعينيه، وزفس زعيم الآلهة ففي ذلك إشارة إلى الرئاسة، وفي الهامة والعينين رمز إلى الحكمة وبُعد النظر، وفوسيد إله البحار والصدر إشارة إلى السعة، وفيه رمز إلى اتساع سلطته، وأريس إله الحرب اتخذ له منه قوة الجسد، وتشبيه البشر بالآلهة كثير في شعر اليونان، ومثله التشبيه ببعض صفات الأنبياء والأولياء بشعر العرب كقولهم في القصيدة المنسوبة إلى يزيد، وما أخالها إلا للوأواء الدمشقي صاحب الدالية التي مطلعها:

نالت على يدهالها حكم لقمان وصورة يوسف ونغمة داوود وعفة مريم
ولي حزن يعقوب ووحشة يونس وأسقام أيوب وحسرة آدم

واختتم الشاعر بتشبيه أغاممنون بالفحل القائم بين الصوار، وهو تشبيه مألوف لجاهلية الأمم، قال وحشي بن حرب الحبشي قاتل حمزة بن عبد المطلب: «وخرجت أنظر حمزة وهو في عرض الناس مثل الجمل الأورق يهد الناس بسيفه، فما ضرب واحداً وأخطأ، فهززت حربتي ودفعتها عليه فوقعت بين كتفيه وخرجت من بين يديه» «قرماني»

(٨٦) القيان جمع قينة المغنيات، كنَّ في اعتقادهم بنات زفس مقامهنَّ معه يطربن الآلهة في مجالسهم، وكان الشعراء يستوحونهن في إنشادهم، ويستمد المطربون عونهن في التلحين والتوقيع، فهن ربات الشعر واللحن والإنشاد، يخاطبهن هوميروس تارة بصيغة الجمع كما فعل في هذا الموضع، وتارة بصيغة المفرد كما سيأتي بعد أبيات من هذا

النشيد، وقد لا يسميهم فيقول الإلاهة، ويعني بها إحداهنَّ كما مرَّ بنا في بدء الإلياذة، ولا يخفى أن كلمة موسيقى للفن المعروف مشتقة من موسا، وهو اسم القينة باليونانية.



شكل ١ : القيان.

(٨٧) حيثما نظرت إلى شعر هوميروس رأيت فيه صدق الورع والحث على الاستغاثة بالقوى العلوية عند الإقبال على عمل خطير، وها هو قد أقبل على تعداد جيوش الإغريق وزعمائهم، وبلادهم وسفائهم، وسرد مستطردًا مميزات البلاد من جبل وواد، وغور، ونجد، وروض، وغاب، ونسب كثير من القواد، وحسبهم وصفاتهم وسلاحهم، وفكَّه القارئ بشيءٍ من القصص الذي كانت تتداوله الألسن ويتناوله الاعتقاد من أساطيرهم، ذلك أمر جليل لم يقم بمثله أحد قبله حتى ولا بعده، ولهذا كان أثرًا تاريخيًا فريدًا في بابه لا يزال يعوّل عليه منذ بضعة آلاف من السنين، وكأنه أدرك ما سيكون له من الشأن، فأطال الاستغاثة وأبدع

وأبان عجز البشر مهما أوتوا من الحكمة والقوة عن إتيان عظام الأمور
ما لم تبذل لهم العناية عونها، وهو إبداع في وصف عظمة الخالق
ضعف المخلوق، وكَرَّمَ الله وجه علي بن أبي طالب إذ يقول:
إلهي لئن خيبتني أو طردتني فما حيلتي يا رب أم كيف أصنع
إلهي لئن خيبتني أو طردتني فمن ذا الذي أرجو ومن أتشفع

وما لبث بعد هذه الاستغاثة أن أفاض فيما أراد كأن وحياً هبط
على مدرسته، فكتبت على ذاكرته وهو لا يكتب فرسم جغرافية بلاده
رسماً شعرياً لم يُسبق إليه ولم يلحق.

ولقد يجد المطلع على أيام العرب بعض الشبه بين هذا الترتيب
في قبائل الإغريق والطرواد، وترتيب أخلاف العرب وعشائهم بحسب
نص كتبهم ومؤرخيهم، وإن كان هوميروس يتعداهم بمراحل بما أضاف
إلى نأ التاريخ والجغرافية من زخرف الشعر الذي يقتضيه موقفه، قال ابن
الأثير في يوم الفجار الثاني: «ثم إن قيساً جمعت جموعها ومعها ثقيف
وغيرها، وجمعت قريش جموعها منهم كنانة جميعها، والأحابيش وأسد
بن خزيمة، وفرقت قريش السلاح في الناس فأعطى عبد الله بن جدعان
مئة رجل سلاحاً تاماً، وفعل الباقون مثله، وخرجت قريش للموعد على
كل بطن منها رئيس، فكان على بني هاشم الزبير بن عبد المطلب، ومعه
رسول الله ﷺ «وعمره عشرون سنة» وأخوة الزبير أبو طالب وحمزة
والعباس، وعلى بني أمية وأحلافها حرب بن أمية، وعلى بني عبد الدار

عكرمة بن هاشم، وعلى بنى أسد بن عبد العزى خويلد بن أسد ...
وعلى الأحابيش الخليس بن يزيد وسفيان بن عوف هما قائداهم،
والأحابيش بنو الحارث بن عبد مناة من كنانة، وعضل والقارة والديش من
بنى الهون بن خزيمة، والمصطلق بن خزاعة سموا بذلك لحلفهم بنى
الحارث والتحبش التجمع، وعلى بنى بكر بلعاء بن فيس ... وكان على
جماعة الناس «كلهم» حرب بن أمية لمكانه من عبد مناف سناً ومنزلةً.
ثم أتى على تعداد قبائل قيس ورؤسائها كما فعل بذكر قريش.

(٨٨) ليس في هذا المجال فسحة لتراجم أعلام هذا النشيد،
ونسستوفيها إن شاء الله في كتاب نفرده للتراجم الهوميرية، وحسبنا هنا
أن نبين للمطالع اللبيب مواقع البلاد على خريطة ذيلنا بها هذا الفصل،
وحيثما وجد اختلاف بين الأسماء القديمة والحديثة فقد أشرنا إليه،

(٨٩) لما كان قصد الشاعر تفصيل المقال عن جند الإغريق
قبلاً قبلاً شرع كما رأيت في أول هذه الأبيات فذكر البيوتيين، وأسماء
قوادهم الخمسة ومدائنهم، ووصف بعضها بصفات عرفت بها توخيها أن
لا نزيد فيها ولا ننقص منها شيئاً لضيق عبارة أو ضرورة شعر، ثم انتهى
بذكر عدد سفنهم، فقال: إنها خمسون وفي كل منها مئة وعشرون،
فيكون مجموعهم ستة آلاف، وقد أضرب عن ذكر عدد المقاتلة في
سائر السفن إلا سفن فيلوكتيتس، فقال: إن في كل منها خمسين مقاتلاً،
قال تيوكذيدس المؤرخ: إن هوميروس قد اكتفى بذكر عدد المقاتلة في

أكبر السفن وأصغرها، فبناءً على هذا القول إذا أخذنا المعدل الوسط، وهو خمسة وثمانون «بين الخمسين والمئة والعشرين» وضريناه في مجموع السفن، وهو ألف ومئتان علمنا أن مجموع الجيش كان بالغاً مئة ألف وألفين.

(٩٠) من أساطيرهم أن يلمين وعسقلان زعيمى جند أسفليدون وأرخومين من بلاد مینوس كانا ولدى أريس إله الحرب إذ هام بحب أمهما أستيوخا، وهي عذراء فاقتن بها خفيةً، وأولدها الولدين المذكورين، وأبناء أريس وغيره من الآلهة ليسوا بالنزر القليل في شعر هوميروس، وفي ذلك رمز إلى تميزهم بصفة من الصفات كالبسالة في هذا الموضع.

(٩١) درع الكتان كانت نسيجاً متيناً من الكتان يرجح أنهم كانوا يطلونها بالقير أو مادة نظيره، ولعلها دلاص العرب وغيرهم من أمم المشرق، روى الإبيشي في المستطرف في قصة براز أبي الوليد بن فتحون مع العليج الرومي أنه قال للمستعين الساعة أكفي المسلمين شره، فلبس قميص كتان، واستوى على سرج فرسه إلخ.

(٩٢) كانت عادة تلك الفئة من الإغريق أن تقاتل صدرًا لصدر بالرمح، وأن يرسل أبطالهم شعورهم على كواهلهم من وراء، ويقصُّوا النواصي من الأمام حتى لا تأخذهم بها الأعداء في الصراع، وفي إرسال الشَّعر على هذا الوجه نزعة إلى إظهار البأس والشدة إذ لم يكن من شيمهم أن يولُّوا ظهورهم لعدو، فيمكنوه من القبض على نواصيهم. تلك

عادة جرى عليها العرب في جاهليتهم، وظلت في البدو بعد الإسلام حتى أيامنا هذه شهدناها في كثير من القبائل.

على أن بدو العرب الآن يطلقون في الغالب كل شعر الرأس، ويضفرونه غدائر يسمونها قصائب يرسلونها وراء ظهورهم، فإذا أقدموا على الكفاح حلُّوها وأطاروها فوق رءوسهم، فتنتشر على هاماتهم كالرايات يعتزُّون بها ويتنافسون، وكأن في طيرانها فوق رءوسهم محمَّسًا يستفزهم للبش و تكرار الكرة، وفي هذا المعنى يقول أحد شعرائهم:

ساق الكحيل والبنات تصيح فل القصايب واطعن الفرسان

(٩٣) المراد بأثينا في هذا البيت إلهة الحكمة، وفي البيت السابق البلد المشهور، وقد دُعيت المدينة باسم الإلهة تبرگا، وبني لها فيها هيكل عظيم لا تزال أثاره قائمة، وكانوا يحتفلون كل عام بعيد عظيم يضحون لها فيه بالضحايا الكثيرة، وفي خرافاتهم أنه لما أَلقت الأرض إيرخثاوس حملته أثينا إلى ذلك الهيكل، وعُني بتربيته إلى أن شبَّ، فحكم البلاد.

(٩٤) لما كان أغاممنون زعيم الزعماء كان يجدر به أن يكون قائد أعظم فرقة وأيسلها، وهكذا فالتناسب ظاهر في كل شعر هوميروس.

(٩٥) مينيلأوس أخو أغاممنون كما لا يخفى، وزوج هيلانة التي من أجلها ثارت الحرب؛ ولهذا جعل الشاعر في وصفه ووصف قومه

تحرّفًا لم يجعله في غيرهم؛ لأنهم إنما كانوا قادمين للذب عن العرض،
والأخذ بالتأّر، ومن سواهم للنجدة وطلب الفخار.

(٩٦) قد رمى الشاعر بإثبات هذه الأحداث إلى ثلاثة مقاصد:
أولها: إيراد حكاية مروية في زمانه، والثاني: تفكّهُه القارئ بعد أن أطال
في سرد الأعلام، والثالث: أن يجعلها عبرة للغرور الفخور.

(٩٧) الأجد: القوي الشديد.

(٩٨) كانت مدائن أرقاديا بلادًا برّية بعيدة عن البحر فلم يكن
لهن عمارة بحرية، فأمد أغاممنون قومها بأسطول من عنده، وكان
أغاممنون في زمنه أقوى الجميع عمارة؛ لكثرة جزائره، فولوه الزعامة لأنه
كان سلطان البحار في زمنهم كما هي إنكلترا في زمننا هذا.

(٩٩) البهم: الأبطال الأشداء.

(١٠٠) ميليجر هو ابن وينيوس ملك كاليدونيا، وأثيا ابنة
تستيروس له قصة غريبة أوردّها الشاعر في النشيد التاسع.

(١٠١) إقريطش هي إكريت أوردناها هنا بلفظها الوارد في ابن
خلدون وغيره من مؤرخي العرب.

(١٠٢) صرّح الشاعر أن نيراوس أو نيريوس أجمل الجند
وأصبحهم وجهًا ما خلا ابن فيلا آخيل، ولكن شتان بين جمالٍ في وجه
ذي بأس صنديد، وجمالٍ في وجه ذي عجز رعديد، وكأن الشاعر أنف

من المقابلة بينهما، فذكر نيريوس هنا مضطراً عند سرد أسماء الزعماء،
ثم أغفله في سائر إنشاده «راجع صفحة ٢٧٠ من الشراح»

(١٠٣) لم يكن اسم الهيلانيين لعهد هوميروس قد أطلق على
جميع اليونان، وإنما كان يطلق على سكان أفثيا نسبة إلى هيلانة ابنة ذو
قليون، لوير يقووست.

(١٠٤) ذيميتيرا إلهة الزراعة، وهي سيريس الرومان، وكأن فراسا
لنضارتها دُعيت قدساً لها.

(١٠٥) يستفاد من قوله «بيته لم يكمل» إما أنه أراد الظاهر من
مفاد العبارة طبقاً لعادتهم في ذلك الزمن من بناء بيت عند الزواج، وأما
إن ذلك الفارس غادر امرأته إيما، ولم يخلف ولداً، تقول العرب بنى علي
أهله وبأهله أي: عروسه إذا تزوجها وأصله أن الداخل بأهله كان يضرب
عليها قبة ليلة دخوله بها، فقليل للمتزوج يوم زواجه بان، ثم كثر فعم
استعماله لكل ذي زوجة ولعل بنيان اليونان من هذا القبيل.

(١٠٦) ذكر الشاعر ألكستا أم القائد أفميل، ولقبها بالمجيدة
تعظيماً لما يؤثر عنها من حميد الخلال، وتفانيها بحب زوجها أذميت
حتى أنها ماتت عن طيبة خاطر فداء عنه.

(١٠٧) القنطرة جمع قنطورس، وهو شخص خرافي أثبتنا رسمه
(ن ١) وللقنطرة وقائع كثيرة مع البشر في أساطيرهم، وسيأتي ذكرهم غير
مرة.

(١٠٨) معنى هذه الأبيات الثلاثة أن جدول طيطارسيس ينصب
في نهر فينيوس، ولا يمتزج بمائه بل يطفو عليه كالزيت لأنه «أي
طيطارسيس» فرع من الستكس، ويستفاد من هذا الكلام أن الستكس
نهر الجحيم من أنهر بلاد ثساليا كطيطارسيس مع أنه لم يعلم قط بوجود
نهر بهذا الاسم في تلك البلاد، فيرجع إذن في الظن أنهم كانوا يعتقدون
أن طيطارسيس كان متصلًا بالستكس تحت الأرض، وأما وصفه الستكس
بكونه مثقل الأيمان؛ فلأنه فضلًا عما كان له من الرهبة في قلوب البشر
كان أرباب السماء أنفسهم يعظمون الإقسام به ويتقونها.

(١٠٩) لما فرغ من تعدد السفن والجيش أراد أن يستطرد إلى
التنويه بأعظم الأبطال وأكرم الخيل، فاستنشد ربة الشعر كجاري عاداته،
ولقد يعجب المطالع العريق في الحضارة لجمع الشاعر بين الإنسان
والحيوان أي: بين الفرس والفارس كما فعل هنا، على أن الملم بأحوال
ذلك الزمان ينكر على شاعرها أن لا يفعل ذلك، وعندنا حتى اليوم في
بادية العرب شاهد محسوس على ما تقدم، فالفرس في البادية روح
الفارس، وقد يتخلى البدوي عن زوجه وولده، ويضن بفرسه؛ لأنه عون
على قضاء الحاجات، ورفيقه في الغزوات، وملاذه عند اشتداد الأزمات.

وسترى في ما يلي من شعر هوميروس ما كان للفرس من علو
 المنزل عند اليونان، حتى لقد نراه في مقام الصديق الحميم يجذل لطرب
 صاحبه، ويتفجع لأساه، ويستبسل في سبيل إنقاذه، وزد على هذا أنه قد
 أنطقه بلسان البشر، وساواه بعلية الناس بأن جعل منه فئة من نسل
 الأرباب أنزل عليها شيئاً من أنباء الغيب.

(١١٠) قد صوّر الشاعر في الأبيات الخمسة الأخيرة آخيل
 وجنوده وزعماء جيشه بصورة شائقة، فجعله معتزلاً ومستغرفاً في هاجسه
 حقناً ناقماً على أغاممنون، وجنوده، وهم معتزلو الكفاح لاهون بالألعاب
 الحربية التي يتأسى بها الجندي الباسل إذا تعذر عليه خوض معامع
 القتال، وهو يصبو إليها، ولم يفته أن يذكر العجال المسترة في ظل
 الخيام والصفانات الجياد الراتعات في مراعي الحندقوق النضرة، وأبدع
 من هذا كله وصف رؤساء الجند، واشتداد الأسى بهم لأنهم وهم أبناء
 الوغى باتوا «غير ملفين للوغى من سبيل» فتاهوا شتاتاً في ذلك الفضاء؛
 لا تطربهم ألعاب الجند كأنهم يترنمون بقول عنتره إذ يقول:

واسمعاني نغمة الأسـ	ـيا ف حتى تطربـاني
أطرب الأصوات عندي	رنـة السيف اليمـاني
وصليل الرمح في يوـ	م طـعانٍ أو رهـانٍ

وقد تقدم لنا ذكر ما يماثل هذا المعنى من قول عنتره (ن ١).

(١١١) قال يزيد بن مالك الغامدي:

يشرن بسهل الأرض مما يدسنه عجاجاً وبالحرّان نار الجاحب

(١١٢) تيفس هذا جبار أمه الأرض وأبوه طيطان، قيل كان له

مئة رأس، وهو من الجابرة الذين اعتصبوا على زفس، ولما أوقع بهم زفس نجا بنفسه ثم استأنف الكرة، ففتك به زفس تحت صخور آريم المذكورة في البيت السابق، وهو جبل في كيليكيا «من بر الأناضول».

وما أحسن قول عنترة في معنى هذه الأبيات الثلاثة:

وترى بها الرايات تخفق والقنا وترى العجاج كمثل بحر مزبد

وبوارق البيض الرقاق لوامع في عارض مثل الغمام المرعد

وحوافر الخيل العتاق على الصفا مثل الصواعق في قفار القدند

(١١٣) بقي على الشاعر بعد أن وصف معسكر الإغريق أن

يصف معسكر الطرواد، ويأتي على تعداد قبائلهم ففعل كما سترى.

(١١٤) المراد بقوم أرغوس جميع اليونان كما تقدّم.

(١١٥) ليثس مضاف إلى طفطام، وهيفوت بدل من ابني.

(١١٦) في الإلياذة أربعة أبطال باسم أكماس، وأكماس المذكور

في هذا البيت هو الذي يقتله إياس بن تلامون في النشيد السادس.

(١١٧) ياكيد كنية آخيل أي: ابن أياك وهو اسم جده، والمراد بالنهر نهر زفس الذي طغى على آخيل، وكاد يهلكه لو لم يغثه هيفست إله النار كما سيأتي في النشيد الحادي والعشرين.



(١١٨) لم يذكر الشاعر ما يشير إلى عدد الطرواد وحلفائهم كما ذكر ما أشار إلى عدد الإغريق، ولكنه استدرك ذلك في آخر النشيد الثامن حيث قال: إن نيرانهم بلغت الألف عدًا، وحول كل منها خمسون، فمجموعهم إذن خمسون ألفًا.

النشيد الثالث

براز منيلاوس وفاريس

مُجْمَلُهُ

تقدم الجيشان وكاد يلتحم القتال بينهما، فإذا بفاريس برز من بين الطرواديين وطلب مبارزة أشد الإغريق بطشاً، فبادر إليه منيلاوس يتحدم غيظاً، فأخذت فاريس الرعدة لمرآه، وقفل راجعاً فتلقاه أخوه هكطور بالتقريع والتأنيب، فاشتدت عزيمة فاريس وطلب إلى أخيه أن ينادي بإعادة البراز على شريطة أن يتفق الفريقان على أن لا يبرز إلى ساحة القتال إلا فاريس ونُدّه منيلاوس، فمن ظفر منهما أحرز الغلبة لنفسه ولقومه واستأثر بهيلانة، فتنتهي الحرب وتحقن الدماء ففعل هكطور ووافقه الإغريق، وكانت الرية إيريس ترقب حركات الجيش فأسرعت إلى هيلانة بزي حبيبة لها، وأطلعتها على دخيلة الأمر، فبادرت هيلانة إلى باب أسكية حيث لقيت الشيوخ، فدهشوا لجمالها واستطلعها الملك فريام طلع زعماء العدو، ثم أتته الرسل تستقدمه من قبل الجيشين، فذهب مستصحباً أنطينور فتعاهدوا وتوافقوا على أن لا يستأنف القتال بعد غلبة أي الخصمين، وانثنى فريام الشيخ راجعاً خشية من رؤية مشهد قد تدور الدائرة فيه على ابنه، فالتقى حينئذ الخصمان وكاد فاريس يخر قتيلاً لو لم تبادر الزهرة فتنقذه وتحمله سالمًا إلى

صرحه حيث ألقته ونادت هيلانة تمتع كلاً منهما بمراًى الآخر، فسخطت هيلانة عليه بادئ بدء، ولكنها لم تلبث أن هاجتها الزهرة بهزة الغرام، فأنستها وأنسته ما لقي من ذلة الإنكسار، أما منيلاوس فظل يتقصى أثر فاريس، ولما لم يظفر به نادى أغاممنون بثبوت الظفر لأخيه وطلب إنفاذ العهدة.

كل وقائع هذا النشيد جرت كالنشيد السابق في اليوم الثالث والعشرين ومجراها في ساحة القتال ثم داخل طروادة.

النشيد الثالث

نَظَّم القُوَاد سَرى الجند بحما الجيشين على الحد
زحف الطروادة عن بعد بصديد عالٍ مُشْتَدَّ ١

ودوي يَقْصِف كالرَّعد ٢

كالرَّهو إذا اشْتَدَّ المطر والقُرُ مَوَاطَنُه يَذَرُ ٣
في الجوِّ تَعَجُّ لَهُ زَمَر فوق الأقيانس تنتشر

للبيغمة محكمة الحشد ٤

فيعم الفتك بحملتها أما الإغريق بجملتها
فعشت بثقيل سكينتها آلت والنفس بحدَّتها

تتعاضد وارية الرِّند

والسهل طَوَّوه على الأثر والقسطل من عَجِّ الرُّمر

قد أضحى حجّاب البصر عن أكثر من مرمى حجر

ككثيف ضبابٍ مُربّد

كضباب نوطس قد نشرا في فُتّة طوادٍ فاستترا

ولرؤيته الراعي ذُعرا لَكِنَّ اللّص به نظرا

خيرًا من ليلٍ مسودّه

جد الجيشان وقد هرعا حتى همّما أن يجتمعا

فإذا فارسٌ قد طلعا وجميلٌ مُحَيّاها سَطعا

وَعَدَا يَسْتَهْدِفُ لِلطَّرْدِ

يختال بحسنٍ جبّاذ بالقوس وسيفٍ جذاذ

وبفروة فهديّ بذاذ بيديه قناتًا فولاذ

يَتَقَدَّمُ مُسْتَبِقَ الْوَفْدِ

فعليله مُنْقَضٌ يَشِب وَلَوْ الْقَنَاصُونَ اقْتَرَبُوا

بِضِرَاءٍ تُقْبَلُ لِلصَّدَّ ٩

بالعدة من أعلى العجله بالشدة بادر بالعجله

لا يبغي إلا أن يصاله يقتصن للجرم قد فعله

ومضى يتوقد بالحق ١٠

نظر الإسكندر وامتقعا فجا لمعسكره هلمعا

كالغر له فوراً طلعا صل في الغاب قد اندفعا

فيعود بقلب منه ١١

فأتاه هكطور يجري ويقول بطرفٍ محمّر

«فأريس يا وجه الشر يا زير نساءٍ مُغتَر

بجمالٍ يلهُو بالوجد

يا لَيْتَكَ عُمْرَكَ لم تولد أو مت وبضعك لم يُعْقَدْ ١٢

ولعندي خيرٌ أن يلحد خوَارُ العزم ولا ينكد

بشماتة أعداه اللد

فأليف أخاي الشُعْر ترى بك هزءاً فقهه إذ نظرا ١٣

ظَنُّوكَ لِحُسْنِكَ لَيْثَ شَرِّى فَإِذَا بِكَ خَوَّارٌ فُطِّرَا

بشعائرٍ رَعِيدٍ وَغَد

أَجْمَعْتَ الصَّحْبَ مِنَ الْوُطْنِ وَطَوَيْتَ الْبَحْرَ عَلَى السَّفَنِ

وَوَلَجْتَ بِلَادًا لَمْ تَطْنِ وَسَبَّيْتَ فِتَاةً لَمْ تَشْنِ

لَأَمَائِلِ أَبْطَالٍ أَسَدِ

لِتُذِلَّ أَبَاكَ وَأُوطَانُكَ وَالشَّعْبَ وَتَكْشِفَ أَهْوَانُكَ

وَتَسِرَ بِجَبْنٍ قَدْ شَانَكَ قَوْمًا عَرَفُوكَ وَبَهْتَانُكَ

وَبَلُوكَ عَلَى غَيْرِ الْعَهْدِ

أَحْشَيْتَ مِنْ يَلَا الْقَهَّارَا وَعَرَفْتَ وَأَكْثَرْتَ الْعَارَا

لِمَنِ الْمَسِيْبَةُ وَالْثَّارَا مَنْ يَطْلُبُ مِنْكَ وَقَدْ ثَارَا

جَنَانَ عَزَّامٍ صَلَدِ

أَفَلَا أَتَيْتَ لَهُ بِاسِكُ فِي الْحَرْبِ فَأَخْمَدَ أَنْفَاسِكُ

وَرَأَيْتَ الْعُودَ وَنَبْرَاسِكُ وَشَعُورًا قَدْ زَانَتْ رَاسِكُ

وَهَبَاتِ الزُّهْرَةِ لَا تُجْدِي ١٤

لو لم يكن الطرود أولي حين لكسوك بلا مهل

ثوباً من صخرٍ مُبتذل لوبالك والخطب الجلل ١٥

ودواهي الأرزاء الأدد» ١٦

فأجاب أخوه ذو المدد: «بالحق نطقت ولم تزد

لك قلبٌ كالصخر الأجد وبصدرك نفسك لم تمد

جهداً ترداد على جهد

كالأفوس تفذ في الخشب بذراعي قطّاع الحطب

وشّار الفلك المقتضب لقواه تضيف قوى القضب ١٧

بمجامع مصقول الحدّ

لكن ما اللوم إذا الزهره حبت الإحسان لمن ذخرة

فالربُّ إذا أسدى غرره لا خيرة في أمرٍ أمره

فلنا الإذعان لما يُسدي

وإذا ما رمت ترى شاني قل فليتحلّ الجيشان

فأجول بهذا الميدان ومنـيلا دون الأقران

والجيش حَرَاكًا لا ييدي

فالفاتك يُحَرِّزُ هيلانَه وكنوزاً تبرز بُرْهانَه
والكُلُّ يَثْقُلُ أَيْمانَه والنصل يُرَدُّ إلى الغمدِ

بوفاقٍ لا خللٍ شأنه

يبقى الطروادة في الحُبِّ ببلادهم ذات الحصب
يمضي الإغريق بلا حرب لغواني آخاي الشُّنب

وصوافن أرغوس الجُرْدِ» ١٨

فاض هكطور قلبُه بجورٍ وتَدَنَّى لساحة الميدان
وبمزراقه أَمال ذويه وقفوا بالوقار والإذعان
وعليه الإغريق أَمْطَرَتِ التَّبْ ل ووبل الحجار مثل الدُّخان
صاح يستوقف الجموع أغامم -نون: «مهلاً يا عُصْبَة اليونان
فكأنِّي بدا لهكطور أمرٌ يرتأيه لنا على الإعلان» ١٩
سكن الجأش قال هكطور: «سمعاً لمقالي يا أيها الجيشان» ٢٠
هاكم ما فاريس يلقي عليكم وهو تدرّون أس هذا الهوان

كلكم للحضيض ألقوا سلاحًا	والى الحرب يبرز القرنان
هو والباسل العزوم منيلا	عن جميع الجنود يقتلان
كل من فاز منهما يُحزِر الـ	سمال وهيلانة بغير طعان
ويُآلي الجيشان بالأمن والوفـ	ق لطول الزمان يتَّحدان»
صمتوا جملةً فقال منيلا	بصراخٍ عالٍ وثبت جنان
«فلي الآن سمعكم ليس منكم	من يعاني بلوعةٍ ما أعاني
بين فارس ذا الخصام وبينـي	قد دهاكم بفاجعات الزمان
هو بادٍ وللوغي أنا صادٍ	إنما رمت كف حربٍ عَوَان
من يسقه القضاء للحتف منّا	فليذقه وأنتم بأمان ٢١
ولطُروادةٍ بكبشين يُؤْتى	واحدٌ أبيض وأسود ثانـي
قربةً تُستباح للشمس والأرـ	ض ومنّا كبشٌ لربِّ المَثاني ٢٢
ويوافي المَلِك فريام بالنفـ	س لعقد الوفاق في ذا المكان
فبنوه لا يتَّقون زمائمًا	والتراخى طبيعةُ الفتيان

رُبَّمَا يَنْقُضُونَ مِيثَاقَ زَفْسٍ	إِنَّمَا الشَّيْخُ لَا يُخَيِّبُ الْأَمَانِي
فَيُرَاعِي الْمَاضِي وَمُسْتَقْبَلِ الْأَمْرِ	ر لِيَلْقَى السَّلَامَةَ الطَّرْفَانِ» ٢٣
سَرَّ هَذَا الْحَدِيثَ كُلَّ فَرِيقٍ	رَغْبَةً فِي ادِّرَاءِ ذَا الْحَدَثَانِ
فَتَدَانُوا بِالْمَرْكَبَاتِ وَصَفُوا	عُدَدَ الْحَرْبِ بِالْحَضِيضِ دَوَانِي
وَلِفَرِيَامٍ أَرْسَلَ النَّدْبَ هَكَطُو	ر بَفِجْنِ ثَمَّ يَسْتَقْدَمَانِ ٢٤
وَيُقُودَانِ ذَبْحَهُمْ وَأَغَامَمَ	نُونٍ يَبْغِي تَتِمَّةَ الْقُرْبَانِ
فَلتَلْثِييُوسِ أَوْعَزَ فَاجْتَا	ز إِلَى فَلَكْهُمُ بَغِيرَ تَوَانِي
وَلَهْيَانَةَ تَرَاءَتْ إِرْيَسَ	تَبْتَغِيهَا مِنْ قَاصِيَاتِ الْجَنَانِ ٢٥
وَتَزَيَّنَتْ بِزِيٍّ أَجْمَلَ بَنْتِ	لَحْمِيهَا بِحُسْنِهَا الْفَتَّانِ
«لَا وَذِيْقَا وَزَوْجَ هَيْلَيْقُؤُونِ	فَرَعَ أَنْطِينُورَ الرَّفِيعِ الشَّأْنِ»
وَجَدَتْهَا بِالصَّرْحِ تَنْسَجُ ثَوْبًا	بِحَوَاشِي الْبَرَفِيرِ وَالْأَرْجَوَانِ
وَيَرَأْسَ الْخِيَاطِ تَرْسُمُ فِيهِ	وَاقِعَاتٍ أَبْلَتْ بِهَا الْفَتَّانِ ٢٦
«قَوْمِ إِغْرِيقِيَا أُولُوا لَا دَرَعَ الْحَصِّ	د وَطُرُودَ أَصْلَبِ الْفُرْسَانِ» ٢٧

فتفانوا بها عليها وربُّ الـ	حزب أورى زنادها للتفاني
قالت: «الآن يأسنا الحور قومي	فَتَرَيْنَ الْعُجَابَ مَرَأَى الْعِيَانِ
عيلت الأُمَّتَانِ للحرب صبرًا	كَادَتَا بِالْقِتَالِ تَشْتَبِكَانِ
وهما الآن لا نكال ولا حر	ب يَأْمَنُ بِالصَّمْتِ جَالِسَتَانِ
بقنَاةٍ بِالْأَرْضِ أَرَكَزَتَاهَا	وَبَجْنٍ عَلَيْهِ تَتَكَّأْنِ
بيد أن الإسكندر الآن حتمًا	وَمِيلًا إِلَى اللَّقَا يُرْزَانِ
من يفز أنت زوجةٌ ومناه	وَعَلَيْكَ الرَّهَانُ كُلُّ الرَّهَانِ»
ثم أذكت بها حنينًا ووجدًا	لَمْنِيْلَا وَالْأَهْلَ وَالْأَوْطَانِ
باضطراب تبرقعت بنقابٍ	نَاصِعٍ تَصْطَلِي لظَى الْأَشْجَانِ
من خباها في الصرح سارت وأهمت	عَبَرَاتِ الشَّجَى وَدَمَعِ الْحَنَانِ
وليتها أثرا ابنة الندب فتشا	وَكَلِيمِنِيَا الْعِيُونِ الْحَسَانِ
جئن أبواب إسكيا حيث وافى	رَهْطُ أَدهى الشيوخ والسلطان ٢٨
مع فريام فَنُشْ وَثَمِيَّتْ	مَعَ قَلِيْطُوسَ لَمْفَسِ هِيَكْتَانِ

والـيـهـم أوكـالـغـون وأنطـيـ	نـورُ كـنـزـا الحـجـى وذخـرا البـيـان
فكـرور الأيـام أولـتـهـم عـجـ	زأ ولـكن حـزمًا وعـذب لـسـان
فـي أعـالي مـشارف البـرج قاموا	يـرتـأون الآراء بالـثـيـبـان
مـثـلـما فـي الغـاب الصـرـاصـرُ تُبـدي	بـخـفـاهـا صـرًا رقيق المـعـاني
أبـصـروها فقـال بـعضٌ لـبـعض	«يا لطـيب الشـا ولطف المـعـاني
لـيـس بـدعًا إـن كان هـذا سـناها	وعـلـيـها تـلـاحـمـت أمتـان
بـرزت رايـةً بوجـهٍ صـبيـح	غـير أن البـلاء بالـويل دانـي ٢٩
فلتـعـد للـسـفـين مـن ثمَّ تُكـفـى	وبـيـنا ذواهـي الخـذلـان»
فـدعـاها فـريـام قـال: «بـقـربـي	إـجـلـسـي الآن يا ابـنتـي بـائـتمـاني ٣٠
وانـظـري فـي السـرـاةِ أول بعـل	لـك قـدـمًا وسـائـر الإخـوان
لـم تـكوـني بـالحـق جـانيـةً بـل	قـدـر الأربـاب العـظـام الجـاني
ذاك فـوق الإغـريق قـد هـال سـُـحـطـا	وبـوبـل الوبـال قـد أبـلـاني
أخـبرـنـي مـن ذا الـذي يـتـراءى	لـى أـخـا عـزّةٍ وذـا غـفـوان

بينهم من أراه أضخم جسمًا	منه لكن أنى لذا الحُسن ثاني
لاح من فَرَطٍ هِيمةٍ ووقارٍ	لي قِيلاً موطَّد الأَرْكَانِ»
أجابت وزادت بالحياء تَحَلَّةً	«وفي وجهها لاحت من البؤس أكدار»
«لديك حمي المحبوب رُعبًا وحرمةً	لَتُوجِلني ناري ويخجلني العارُ
ألا ما طلبت الموت لَمَّا بَأْتِرتي	نأي الأهل والإخوان والبنات والجار ٣١
تَرَكْتُم واعترضت بابنك عنهم	ودمعي ما طالت حياتي مدرار ٣٢
ومهما تشأ فاسأل أَلَبَّ مُطِيعَةً	فهذا أغامنون أصيدُ قَهَار
مَلِيكَ بأحوال السِّياسة عَارِفٌ	عزومٌ بصماء المعامع جبار ٣٣
لقد كنت بالإعزاز عِرْسَ شَقِيقه	ولكنَّ ماضي الحكم كالعلم طَيَّارُ»
فأحذق فيه الشَّيخ يُعْظَم قدره	وقال: ألا كم قد أطاعتك أنفار
فطوباك أنعم إن حظك وافِرٌ	لأسمى أعالي المجد ساقطك أقدار
شخصت إلى ذات الكروم فريجيا	وقدماً بها أطرا ومغدون مغوار ٣٤
يُقودان أحصاب الفَيَّالق نُزُلًا	بجدَّة سنغاريس والجيش جَرَّار ٣٥

صحبتهم لما الأمازونة اعتدت	عليهم ببأس لم يروعه إكتار ٣٦
ولكنهم لم يبلغوا قطَّ عدَّة	جوشًا من الإغريق في إثرنا ثاروا»
ومشيئًا لأوذس قال: «من ذا	دون أتريـنـد لاح بالجئمـان
وهو أوفى ظهرًا وأوسع صدرًا	ويخوض الصفوف كالدهقان ٣٧
عنه ألقى سلاحه وبهم جا	ل مطاع الإيعاز والسُّلطان
مثل كبشٍ بهيٍّ صوفٍ أثيثٍ	يتسامى في أبـيـضِ القُطعان
أجابت: «لهذا أوذسٌ بدهائه	وإيتاكة الصَّيِّداء تلك له دار ٣٨
خيرٌ على كل الأمور مقلبٌ	له سطعت من محكم الرأى أنوار ٣٩
«نعم» قال أنطينور «حقًا صدقتنا	لأوذس لم يبرح ببالي تذكـارُ
أتى ومنيلا قومنا قبل مرسلاً	يرى ما لنا فيما سبيناك أعذار
وفي منزلي بالرحب والأنس أنزلا	لحزمهما عندي مدى الدهر آثار
لكم قد أفاضنا بيننا في فصاحةٍ	إذا دار للأبحاث والنُّطق أدوارُ
منيلا إذا ما قام أوسع منكبًا	وأوذس إن يجلس وقارٌ وإبرار

وإن خطبا يجري منيلا مبيّنًا	أدلته جريًا وما ثم إضمارُ
يجول على لبّ الحديث مُجانبًا	شُدُودًا ومُصَدِّق الشّواهد يَخْتَارُ
ويجتنب الإكثار إمّا كراهة	وإمّا لرعي السن يُلجِيه إجبار ٤٠
ولكن أُوذِسَ وَهُوَ أرشُدُ فيهما	إذا قام هَبَّت من معاطِفِه النَّارُ
فمحجّنه لا يَلْتَوِي أي لية	وتطرقُ منه بالتوقُّد أبصارُ
تخال فتى بالخطب غير مُحكِّكٍ	وشطّ به عن منهج العقل تيّارُ
ولكن إذا فاضت منافث نطقه	وصوت جهيرٌ بالنّفائس زَحَّارُ ٤١
تَنَاطَرَ من فيه النهى بردًا همى	«وسيفُ حِجَاه بالبلاغة بَنَارُ» ٤٢
يقصر عنه كلُّ ندبٍ فلا ترى	إذن عجبًا فالنطقُ للقدِّ سَتَارُ» ٤٣
قال فريام مومئًا لأياسٍ	«وأخو الحسن ذا القويّ الجنانِ
بقوى منكبيه والهُامة الشَّـ	مَاء قد فاق سائر الأقران»
فقال: «أياسُ حصنهم وتُجاهه	إذومين في أجناد إكريت أَمَارُ
تراه كرب قام فى زعمائها	تحيط به من نُجبة الصيد أنصارُ

وكم حل فينا قبل ضيفاً مكرماً	وبعلي منيلاً مكرم الضيف ميار
وها هم جميعاً سل أنبئك عنهم	لديك بدا منهم عديدون كبار
ولكن شقيقَي الودودين لا أرى	هما كستر الرّواض إن شقّ مضمار ٤٤
وفولكس صراع كل مصارع	أمن لقدمونا لم يسيرا بمن ساروا
أم احتجبا في الفلك خوف تعرّض	لعارٍ له في مسّ عرضي أوزار؟» ٤٥
وما علمت والأرض في وطنٍ خلا	تضُمُّهُما والعمرُ كالطّيفِ مرّار
في الساعة عاد الفئجّان	حملاً لثبوت الأيمان
حملين لذاك القربان	مع نحي مدام مالان

مصنوع من خير الجلد

فتقدم إذيوس السّاعي	بالكوب الصافي اللّماع
وكئوس نضارٍ سطّاع	فدنا للشّيوخ المُلتاع

ودعاه لإبرام العقد

«يا فرع لووميدون إلى دار الهيجاء فقم عجلا

للعهد دعتك سرى النبلا لتُضحيّ فاريس حملا

ومنيلا من دون الجندِ

فالفاتك يُخرز هيلانهُ وكنوزاً تبرز برهانه

والكلُّ يُنَقِّلُ أيمانه بوفاقٍ لا خللُ شأنه

والنَّصلُ يردُّ إلى الغمدِ

يبقى الطروادة في الحب ببلادهم ذات النصب

يمضي الإغريق بلا حرب لغواني آخاي الشُّنبِ

وصوافن أرغوس الجردِ»

تفطر قلب فريام ولكن أشار بشد مركبة المسيرِ

علاها والأزمنة في يديه وجد مُسارِعاً مع أنطونورِ

فجازا باب إسكيةً وجداً بذاك السهل في جهد المغيرِ

ولما بلغا لمعسكرهم بها نزلا على الرّوض النَّصيرِ

وراحا بين صفيهم وكلَّ يروم هناك إجلال الأميرِ

وأتريدٌ وأودس في وقارٍ وقد نهضا لدى الملك الوقور ٤٦

فأحضرت الفيوج الذبح عَهْدًا	على الميثاق في تلك الثغور
وصبوا فوق أيدي الصيد ماءً	وقد عمدوا إلى مزج الخُمور
نضى أتريد مشملهُ المُدَلَّى	بُعُروة غمد قرضاب كبير ٤٧
وجز الصوف عن رأس الضحايا	فوزَّع بين أقيال حضور
ومَدَّ يديه للعلياء يدعو	على لهفٍ دُعَاءِ المستجير
«ألا أأبأ علا في شم إيذا	ولي المجد والشرف الخطير
ويا شمسًا عليمه كل فعلٍ	ويا ذي الأرض يا كَلَّ النهورِ
ويا من كل حَنَاثٍ لديهم	يُضَرِّمُ بالممات لظى السَّعِيرِ
علينا فاشهدن وذاك عهدٌ	عقدناه ولم يك عهد زور
إذا فارس فاز على منيلا	وأرداه بِمِنْصَـلِّهِ الشَّـهِيرِ
له هيلانة تبقى وما في	خزائنها من المال الكثير
ونحن وفلكنا هذي سراعًا	نعود بها على لجج البُحُورِ
وإن فارس جَنَدَلَه منيلا	إلينا يُرْجَعَان بلا فتور

ونعطي جزيّةً تبقى فخارًا	بذكرها لنا أبـد الدهور
وإن نكلوا فلن أجتاز حتى	أفوز بمنتهى أربي العسير»
ووارى النصل في عُنق الصّحايا	فراحت تقشعر بلا شُعور
وتخبط خافقاتٍ في دماها	وقاموا بالقـداح إلى العـصير
أراقوها مُطَفَّحَةً وكلّ	من القومين يهتف بالزّفير: ٤٨
«أيا زفس العظيم وكل ربّ	أيـدوا كل حثّاثٍ غرور
يُراقُ دماغُهُ وبنيه طُرًّا	إراقتنا لذا الراح الغرير
ويملك عرسه بعلّ غريبٌ»	ولكن زفس لم يكُ بالنّصير
وصاح يقول فِرِيَام: «فها قد	عزمتُ على التّحجّب ضِمنَ سُوري ٤٩
لئن أشهد براز حليف روعي	تفطّرَ بي خشى قلبي الكسير
فزفس وكل آلهة البرايا	هم أدري بـوَلّاج القبور»
ومن ثَمَّ امتطى والدّبح ألقى	بمركبه وعاد إلى القصور ٥٠
وأنطينور يصحبه وسارا	إلى إليون بالجـد الوفير

وهكطور ابنه وأذيس قاما	وقاسا فسحة البون القصير
ووسط تريكة قدحين رجًا	ليعلم من له حقُّ البُدور ٥١
فمدَّ يد الصَّراعة كلُّ فردٍ	من الأجناد بالصُّوت الجهير
«ألا يا زفس يا مولى المَوالِي	وليَّ المجد والشرف الخطير
أبانا مَنْ علا في شم إيذا	أبد أيُّا بلانا بالثُّبور
من الخصمين أيَّا ثار منه	بنا شَرُّ التَّوائب والشُّرور
وأحكم بيننا رُبُطَ التَّصافي	وزج به إلى شرِّ المصير» ٥٢
فدعوا وهكطورٌ بهم مستقسمًا	رج السَّهام مُحَوَّلًا نظراته ٥٣
فبدا لديهم سهم فارسٍ أوَّلًا	ليكون أوَّل طاعنٍ بقناته
جلسوا وعُدَّتْهم بجانب جيشهم	والخيل موقفةٌ على جنباته
فأعدَّ شَكَّتْه ابن فريام وفي	رجليه أوثق خِفَّه بصلاته
بُرى اللُّجين أناطه واعتاض دِرْ	ع أخيه ليقاؤُن عن نَراته ٥٤
وتقلد السيف الصَّقيل مُرَصَّعًا	بقتيره الفضى في صَفَحَاتِهِ ٥٥

وأضاف جُنَّتَه ومُعَفَّرَه الذي	سبحت نواصيه على حلقاته ٥٦
وأجال في يُمنَاه أعظم عاسِلٍ	يُقُو المَعاصِمِ دار في راحتِه ٥٧
وإفي مَنِيلا بالسلاح مُكَفَّرًا	واستلأما كلُّ لدى لُحماته ٥٨
فَتَقَدَّما ولحاظ كل مبارزٍ	شَفَّت بوارِي الغِيظ عن غُصَّاتِه
وقفوا لدى ما خطَّطوا وكلاهما	بقناته يُضوي قلوب قلاتِه ٥٩
فرمى ابنُ فريام المَثَقَّف فالتوى	بمجنَّ أترِيذٍ على نَبَواتِه
في الحال بادره منيلا مُرسَلًا	رَشَقَاتِه مَشْفُوعَةً بصَلَاتِه
«يا زفس خذ بيدي لأنقم من فتىٍ	عرضي يدنسه بتشـوبهاته
واسحقه سحَقًا في يدي يَكُ عَبْرَةً	لنزِيل سوءٍ عَقَّ فَضْل قراتِه ٦٠
ورمى بعاسله فَأَنفَذ خارقًا	ظَهر المَجْن وبطن فُضفاضاتِه ٦١
حتى تَخَلَّل نافذًا بدثاره	فلوى المَناكِب فائِزًا بِنجاتِه
فاستلَّ أترِيذ صَقِيل حِسامِه	فوق التَّرِيكة موقِّعا بمماتِه
فَتَكسَّر الصَّمصام وسط يمينِه	وأطار فوق جبينه شذراتِه ٦٢

زَفْسًا يُؤْتِبُهُ عَلَى عِشْرَاتِهِ: ٦٣	حَقًّا أَشَارَ إِلَى السَّمَاءِ مُخَاطِبًا
يَا زَفْسَ مَعْتَسِفٌ بِمَقْدُورَاتِهِ	«مَنْ كُلِّ آلِ الْخَلْدِ مِثْلَكَ لَمْ يَكُنْ
فَإِذَا بَعْضِي طَارَ فِي كِسْرَاتِهِ	فَدَكَّدْتَ أَفْئِكَ ظَافِرًا بِأَخِي الْخَنَا
أَدْرَكَهُ فِي رَمْحِي وَفِي طَعْنَاتِهِ»	وَإِذَا بُرِّمَحِي قَدْ طَعَنْتَ بِهِ وَلَمْ
عَنْفٍ تَقْهَقِرْ مَسْرَعًا خَطَوَاتِهِ	وَانْقَضَ يَجْذِبُهُ بِخُودَتِهِ وَفِي
فَاسْتُمْسَكَتْ أَنْفَاسُهُ بِلَهَاتِهِ	وَاجْتَرَّهُ وَالسَّيْرُ يُمَسِّكُ ذَقْنَهُ
قَبْرِيسَ تَقْطَعُ بِالْخَفَا قَدَّاتِهِ ٦٤	قَدْ كَادَ يَبْطِشُ فِيهِ لَوْ لَمْ تَبْتَدِرْ
فَرَمَى بِهَا فَتَدَخَّرَجَتْ لِسْرَاتِهِ	فَخَلَّتْ لَدَيْهِ خَوْذَةٌ مَقْطُوعَةٌ
بَشَحِيذٍ نِيزَكِهِ إِلَى وَثْبَاتِهِ	فَخَلَا بِهَا أَصْحَابُهُ وَهُوَ انْتَنَى
مَنْ فُورَهَا وَصَلَتْ حِبَالُ حَيَاتِهِ ٦٥	لَكِنْ عَفْرُودِيَّتٌ وَهِيَ قَدِيرَةٌ
إِيَّاهُ بِالْأَطْيَابِ فِي حُجْرَاتِهِ ٦٦	حَجَبَتْهُ فِي رَكَمِ الضَّبَابِ مَحَلَّةٌ
بِالْبَرْجِ جَالِسَةً عَلَى شَرَفَاتِهِ	وَمَضَتْ إِلَى هَيْلَانَةٍ فَإِذَا بِهَا
فِي زِيٍّ خَادِمَةٍ عَلَى عَلَاتِهِ	فَدَنَّتْ إِلَيْهَا وَالْبَنَاتُ شَوَاحِصٌ

حاكت عجوزاً قُرِّبت من قومها	حاكت بنسج الصوف مَحْبُوكاته ٦٧
وبثوبها العُطْرِي جَرَّتْهَا وَقَدْ	صاحت بها: «فَارِيس في خلواته
يدعوك وهو تَرِينُهُ في عَرَفَةٍ	ضَمَّتْكَمَا بِبَدِيع حَسَن صَفَاتِهِ
حَتَّى تَخَالِي أَنَّهُ مَا كَانَ فِي	حَرْبٍ بِهَا يَلْقَى أَشَدَّ عُذَاتِهِ
لَكِنَّهُ فِي مَرْقَصٍ مِتَاهَبٍ	لِلرَّقْصِ أَوْ قَدْ عَادَ مِنْ سَاحَاتِهِ» ٦٨
عَرَفَتْ هِيلَانَةَ جَازِعَةً	رَبَّةَ الْحُبِّ بِحَرِّ الْحَرْبِ
دِقَّةَ الْجِدِّ وَلِحْظَ لَاهِبٍ	وَمَشُوقَ الصَّدْرِ لَمْ تَحْتَجِبْ
فَلَهَا قَالَتْ: «وَمَا أَغْرَاكَ أَنْ	تَخْدَعِنِي بَعْدَ حَسْبِي نُوبِي ٦٩
أَبَا فَرِيحِيَّةٍ بَعْدَ فَتْيٍ	تَطْرَحِنِي عِنْدَهُ بِالْوَصَبِ
أَمْ رُبِّي إِمْيُونَةٍ فِيهَا بَدَا	لَكَ مَحْبُوبٌ رَفِيعَ الْحَسَبِ
أَحْدَاغًا يَا ظُلُومًا جَنَّتَنِي	وَمَنِيلاً نَالَ فَخَرَ الْغَلَبِ ٧٠
يَتَغْيِي رَدِي لِأَوْطَانِي فَمَا	آه أَشْقَانِي وَأَدْهَى نَصْبِي ٧١
أَنَا لَا أَبْغِي فَرِيْسًا أَبَدًا	أَنْتِ أَشْرَبْتَ هَوَاهُ فَادْهَبِي

غادري الأولمب والقوم العلى	واتبعيه واحرسيه واصحبي
واحملي منه الأسى يرضك عر	سأله أو أمة لم تطب
لك لا لستُ إذن تابعه	غيد إليون إذن يشمتن بي
لن أحلن فراشا حلّه	وأنال الخزي طول الحقب
حسبي العار وما حُمُنته	من لظى النار وحرّ اللهب»
حنّقت قَبْرِيسُ ممّا قابَلت	قالت: «اخْشَي أن تهيجي غضي
واحذري منّي الجفا راغبة	عن ودادٍ لِقَاى مُنْقَلِبِ
ليس هذُ الوفق أمراً عسراً	ولك البلوى وضيق المذهب» ٧٢
وَجَلّت هيلانة واضطربت	وَتَرَدّت بِبَهِيّ الثُّقَب
إثرها صامتة سارت وقد	حجبتها بكثيف السُّحب
جاءت فإريس في منزله	والجوّاري بانتظار الطلبِ
سرن عنها وأسيرت نحوه	وهو في الغرفة ماضي اللّغَبِ
أجلستها رَبّةُ العشق على	مجلسٍ دانٍ له مُقْتَرِبِ

حَوَّلَتْ عَنْ وَجْهِهِ أَنْظَارَهَا	ثُمَّ قَالَتْ بِاللِّسَانِ الدَّرْبُ: ٧٣
«أَيْنَ مَا تَزْعُمُ مِنْ بَطْشٍ بِهِ	فَقُتَّ إِقْدَامَ مَنِيْلَا الْأَشْهَبِ
وَادَّعَيْتِ السَّبْقَ فِي طَعْنٍ وَفِي	شِدَّةِ الْبَأْسِ وَضَرْبِ الْقُضْبِ
آه لَوْ جَنَدَلْتَ فِي سَيْفٍ فَتَى	كَأَنْ بَعَالًا لِي وَكَلَّ الْأَرْبِ
آه لَوْ تَرَجَّعَ... لَا فَاحْرَصِ وَإِنْ	تَتَعَرَّضَ لِلْقَاهِ تَخِيبُ ٧٤
خَشِيْتِي يُوقِعُكَ الطَّيْشُ بِهِ	فَتُؤَافِي طَعْنَةَ الْمُعْتَطِبِ»
قَالَ: «يَكْفِي مُنِيَّةَ النَّفْسِ فَقَدْ	هَضَّتْ نَفْسِي بَعِيْفَ الْعَتَبِ
فَأَتَيْنَا شَدَّدَتْ سَاعِدُهُ	وَسَتُؤْتِي النِّصْرَ يَوْمًا عُضْبِي
لِي بَالِ الْخُلْدِ أَقْوَى عَزْوَةٍ	إِنَّمَا الْآنَ أَوَانَ الطُّرْبِ
لَمْ أَكُنْ قَطُّ كَمَا الْآنَ أَنَا	بِفِرَادٍ خَافِقٍ مَضْطَرِبِ ٧٥
لَا وَلَا يَوْمَ رَمَانَا الْخُبُّ مِنْ	لَقَدَمُونَا فَوْقَ بَحْرِ لَجْبِ
وَحَلُونَا فِي رُبَى إِكْرَانِيَا	عَنْ عَذُولِ مُزْعَجٍ مَرْتَقِبِ
لَمْ تَشْقِنِي قَطُّ هَبَّاتِ الْهَوَى	لَهَبًا أَشْغَفَ مِنْ ذَا اللَّهَبِ»

هَاج نَارَ الْوَجْدِ فِيهَا رَاقِيَا	لَسِرِيرٍ لَهُمَا مُنْتَصِبٍ
تَبَعْتَهُ وَالْكَرَى شَاقَهُمَا	بَأْمَانٍ فَوْقَ فُرْشٍ قَشْبٍ ٧٦
ظَلْ أَتْرِبْذَ كَوْحَشٍ كَاسِرٍ	يَتَحَرَّى بِشَدِيدِ الْعَجَبِ ٧٧
لَمْ يَكُنْ بَيْنَ بَنِي الطُّرُودِ وَالـ	جَيْشٍ مِنْ شَاهِدٍ إِثْرَ الْعَقَبِ
لَوْ رَأَوْهُ أَنْبَاؤًا إِذْ مَقَتُوا	هَ كَمَفَّتِ الْمَوْتَ كُلَّ الرَّتْبِ ٧٨
فَأَغَامَمْنُونِ نَادَى صَارِخًا	بِهِمْ يَدْعُو لِسَمْعِ الْخُطْبِ
«آلَ طُرُودٍ وَمِنْ وَالَاهُمْ	دَرْدَنِيِّينَ وَمَا مِنْكُمْ غَبِي
لَمَنِيلاً النَّصْرَ أَبْصَرْتُمْ فَهِيَـ	لَإِنَّهُ رَدُّوا بِذَخْرِ الدَّهْبِ
وَاحْبُونَا جَزِيَّةً تُنْمِي لِمَنْ	بَعَدَنَا الْفَوْزَ وَنُجْحَ الْطَّلَبِ»
صَجَّتِ الْإِغْرِيقُ مُسْتَحْسَنَةً	بِحَمَاهَا ضَجَّةُ الْمَطْلَبِ

هوامش

(١) الصديد: الصياح.

(٢) مر بنا في أواخر النشيد الثاني أن كتائب الفريقين تكتبت متأهبة للقتال، وافتتح الشاعر بزحف كل فئة منهما على الأخرى، ولم

يفته أن يصف كل فريق منهم بما أثر عنه من الأخلاق والعادات، ومثّل بالمقابلة حالة الجيشين، فوصف الإغريق بالصمت والسكون كما سيأتي ووصف هنا الطرواد بالصيد الشديد، فشف كلامه عن حقيقتين: أحدهما: إيثار قومه الإغريق على جماعة الطرواد، والثانية: إثبات الفرق بين أمة مبرّزة في زمنها على ما جاورها من الأمم، فاستتب نظام الجند عندها وتآلفت عناصرها، وإن كانت في الأصل مختلفة كأمة الإغريق، وأمة أخرى ملتفة من شذاذ العشائر لم تبلغ من الحضارة مبلغًا يذكر كالقبائل المتألفة لنجدة الطرواد، ويؤيد هذا القول ما رواه قدماء مؤرخي اليونان من ذم الجلبة في الحروب، وقولهم: إن ذلك إنما كان شأن البرابرة، على أن البعض يزعمون أن المراد بالصيد هنا ربما كان قرع الطبول أو نفخ الأبواق؛ لأن النقر على الآلات والعزف بها استنفارًا للمقاتلة أمر قديم في كل الملل، إلا أنه لو كان هذا الزعم صحيحًا لما أغفل هوميروس في شعره ذكر الآلات الموسيقية إبان القتال، وهو كما علمت حريص على التنويه بما جلّ وما قلّ.

ثم إن العزف والنفخ بآلات الطرب والاستنفار والضرب والنقر عليها، وإن كانت كلها أمور نشأت في أقدم العصور فقد لا نرى لها أثرًا في حروب بعض الأمم كالعرب، مع أنها كانت شائعة بين مجاورهم ومخالطيهم كالفرس واليهود، وذلك لأن الشعر كان ولا يزال في بداوتهم أعظم مثير لعواطفهم يتغنّون به في غزواتهم، فتجيش همهم وينبعثون

إلى ساحة القتال ثملين بخمرة الحمية والإقدام، وإذا أضفت إلى ذلك أناشيد العذارى والأمهات رأيت أنه اجتمع للبدوي من بواعث الاندفاع ما لا يعد دوي الطبول ونغم الآلات بجانبه شيئاً. ولهذا لبثت قبائل العرب بعد الإسلام تتغنى بالشعر في حروبها، ولم تتخذ شيئاً من آلات الأعاجم في الحروب إلا بعد أن انقضت دولة الخلفاء الراشدين ودولة بني أمية، فأخذ العباسيون فيما أخذوا عن العجم قرع الطبول والنفخ في الأبواق.

(٣) القر: البرد، ويذر: يترك.

(٤) شبه الطرواد بزحفهم على الأعداء بطير الرهو المنتشرة في الجو وفي ذلك إشارة إلى صياحهم من وجه وإلى انتظامهم من وجه آخر؛ لأن تلك الطير إذا ارتفعت في الجو علا عرارها وسارت سيراً منتظماً، وفي قوله للبغمة إشارة إلى اعتقادهم بوجود أمة من الأقزام بهذا الاسم لا يربو طول الواحد منها على ذراع كانوا يقولون بوجودها في بلاد إثراقة. قال لوير يفوست يرجح في الظن أنها كانت أمة الفيجينة الأثيوبية لتشابه الاسمين؛ ولأن الفيجينيين كانوا قصار القامات، وتقصد الغرائق بلادهم لتشتو فيها فيجتمعون عصابات عديدة ينفرونها لتنجلي عن مواطنهم.

(٥) نوطس ريح الشمال كما تقدم. بعد أن ذكر في المخمس السابق انتشار الغبار من عج الزمر حتى بات كالضباب الذي يحجب النظر إلى ما وراء مرمى حجر، استطرد فشبه ذلك الغبار بالضباب الذي

تنشره ريح الشمال على رءوس الجبال، ثم تدافعت في مخيلته التصورات فوصف وهو يسوق الحديث سوقاً موجزاً معجزاً ما يكون لذلك الغبار من الهيبة في قلوب الرعاة؛ لأنه قد يحجب عنهم مرأى الضواري فتفاجئهم على غرة منهم، وما يكون من الجدل في قلوب النصوص فيتذرعون بالتستر به إلى نيل بغيتهم على حد قول الشاعر. مصائب قوم عند قوم فوائد

كل هذا بتصرف بديع لا يخفى على المطالع اللبيب.

(٦) الطرد هنا الكر والقتال.

(٧) الجباز الجذاب، والجذاذ القاطع، والبذاذ الكاسر.

(٨) إذا التزم هوميروس إيثار صفة عن رجل بأناشيده فإنما يلتزمها فيها كلها تمييزاً له عن سواه، فترسخ في ذهن المطالع أيّان تصوره، وما أحسن ما وصف به فاريث في هذا المكان، فأتى فيه بطباق لا يخرج في شيء عن صفاته، ففاريث كما علمت هو الذي سبى هيلانة على رضى منها، ولا يحسن بمن كان سبّاء للنساء خلافاً لعقولهن إلا أن يوصف بالجمال والتأنق وحسن البزّة؛ ولهذا لم يغفل هوميروس عن إظهاره بهذا المظهر حتى في موقف الحرب.

(٩) الضراء جمع ضروة، الكلاب ضريت للصيد.

(١٠) العجلة الأولى بمعنى المركبة، والثانية بمعنى السرعة، إن بين جند الإغريق أبطالاً أشد ساعدًا وأقوى عزيمةً من منيلاوس، ولكن بروز منيلاوس لفاريس لم يكن منه بدُّ؛ لأنه زوج هيلانة سبية فاريس وهو سداد في رؤية الشاعر عظيم بأن افتتح القتال بين المتسبب في شوب نيران الحرب والمطالب بالثأر، ولا غرو أن ترى هنا منيلاوس متحدمًا غيظًا لرؤية عدوه الألد وثالب عرضه، ومنقضًا عليه كالليث المتصور جوعًا، فيتحفز للفتك بفريسته غير عابئ بما يقف في وجهه من ظبي الحراب، وتألّب الرعاة والكلاب.

(١١) قد يتبادر إلى الذهن أنه لم يكن يجدر بفارس كفاريس (الإسكندر) أن يبرز إلى ساحة القتال ويستهدف للأبطال، ثم ما يلبث أن ينهزم لرؤية فارس ليس في عداد مغاويرهم، على أنه يتضح للمتأمل أن الشاعر إنما أتى حكمة أشار إليها إشارة خفية، فإن فاريس لا يظهر في نشيد من أناشيد هوميروس بمظهر الجبان المهياب، بل حيثما برز فهو من خيرة الأبطال، ويؤيد ذلك عوده بعد هنيهة لبراز منيلاوس كما سترى، أما هزيمته الآن فقد فسرهما الشاعر تفسيرًا رمزيًا بقوله أنه فر فرار من يذعر لرؤية صل يفاجئه في الغاب، فبروز منيلاوس إليه ذكره بلا ريب بما أتى من المنكر بسبي هيلانة وكأنه كان له من نفسه زاجر قوي فربكه في أمره، وثناه عن قتال رجل أحسن إليه فتلقى إحسانه بالكفران.

(١٢) البضع العرس أو الزواج. يقول: «ليتك لم تولد قط أو مت قبل أن يعقد لك على هيلانة».

(١٣) الشُّعر أي: الطوال الشعر إشارة إلى عادة الإغريق في إطلاق شعورهم.

(١٤) يعبر هنا هكطور أخاه فاریس ضربه على عود، وجمال شعره وصباحة محياه والمحاسن التي أودعتها فيه الزهرة إلهة الجمال، ومن أحسن تعاليق عقيلة داسيه على شعر هوميروس قولها في هذا الموضع أنه يستحسن طول الشعر بين الإغريق، والإنشاد على نغم القيثارة بيد آخيل، ويجعل هكطور يستهجن كلا الأمرين في أخيه، قالت: والسبب في هذا أن الإغريق إنما كانوا يطلقون الشعر لإرهاب العدو، وفاریس لاستلفات أنظار الغيد الحسان، وآخيل كان ينشد على نغم قيثارته قصص الأبطال، وفاریس يتلو أغاني العشاق فما كان من ثم محمداً عند الإغريق كان مذمة في فاریس بنظر هكطور.

(١٥) قد اختلف الشراح في قوله: «لكسوك ثوباً من صخر» فقال قوم: إنه يريد أن يقول لرحموك بالحجارة، واعترض على هذا القول بأنه لا دليل على أنهم كانوا يرجمون، وقال آخرون: بل أراد أن يقول لقتلوك أو لدفونك؛ لأنهم كانوا يقيمون الحجارة على قبورهم، ومهما يكن من هذا الاختلاف فالمراد أنه تمنى له الموت تشفياً منه.

(١٦) هذا أول كلام نطق به هكطور في الإلياذة، وهو كلام يشف عن غيظ وأنفة لا بدع أن تكون في زعيم ذلك الجيش الباسل، وسنراه في ما يلي في أكثر المواقع، وأخرج المواقف جامعًا بين أخلاق الجندي القتاك، والزعيم الحكيم، والابن البر والزوج الرفيق، والأب الشفيق حتى لقد ذهب البعض أن الأولى أن تسمى الإلياذة باسمه لا باسم إليون قاعدة بلاده، فهو وحده في جيش الطرواد يماثل بصفاته كل ما حسن في زعماء جيش الإغريق؛ لأن لأولئك ملوكًا كثيرين أخذ هوميروس على نفسه أن يميز كلاً منهم ببعض صفات الرجال ليمثل للسامع أخلاق كبار النفوس على اختلافها، وأما الطرواد فكأن هكطور يجمع فيهم بين كل هذه الخلال ولا عيب فيه إلا أنه يحارب في فئة معتدية، وهو عيب يشفع فيه كونه سيق إلى الحرب مُكرِّهًا فاضطر إلى الذود عن وطنه وأهله.

(١٧) الوشار والأشار النشار، ووشار الفُلك بمعنى بناء السفن؛ لأن العرب على سواحل بحر عمان وشط العرب يقولون حتى أيامنا: «وَشَرَ السفينة» بمعنى بناها وإن كان أصل الوشر بمعنى النشر ليس إلّا.

(١٨) كل كلمة من كلام فاريِس تشف عن حقيقة حال الفتى الجامع بين الرقة والتأدب الملازمين للعاشق، وهو مع ذلك غير خلو من الهمة والإقدام اللذين لا بد منهما؛ لاسترضاء ربات الجمال، فإن هكطور يتلقاه بالقول العنيف فيجيبه بالكلام اللطيف، ويرد اعتراضه بدعة الأخ

الأصغر، وحذق العشاق الذين يبلغون مرادهم بعبارات مؤثرة مقنعة، ففي قوله: إنه لا لوم عليه لما خولته الزهرة من المواهب واستطراذه بقوله: «لا خيرة في ذلك الأمر» دفع عن نفسه أولاً مثلبة أخيه وحجّه ثانياً بأنها هبات علوية تجب لها الرعاية والاحترام، وهناك هبت به الحمية فطلب وساطة هكطور بتخلي الجيشين عن القتال، وبروزه فذاً لقرنه منيلاً كأنه تنبه إلى ما فرط منه فأراد أن يتلافى ويكفّر فيفتدي بلاده بنفسه، ويرفع عنها أوزار الحرب، وهو كلام كله غرر ودرر.

(١٩) قابل الشاعر في هذه الأبيات بين هكطور وأغاممنون، فجعلهما بمنزلة واحدة كلاً في قومه، فأثبت ما كان لهما من المكانة في قلوب الجميع، فإن هكطور استوقف جماعته بإشارة بمزراقه فوقفوا طوع أمره، واندفع إلى جيش الإغريق غير نابس بحرف طرياً بما لقي في أخيه من ثبوت الجأش، فما أضاع ثانية بالجواب، ولا ابتدر قومه بالخطاب، فقال بصمته أقولاً كثيرة. وأغاممنون أوعز بكلمات قلائل إلى صحبه الملتهبين غيظاً على هكطور وآل بيته، فصدهم عن الفتك به وهو قادم إليهم رسولاً لا مقاتلاً، ولم يكن من عادتهم انتهاك حرمة الرسل.

(٢٠) لقد تساءل بعض الشراح عما إذا كان يمكن التفاهم بين تلك الأمم المختلفة في هذا المقام، فليس في إنشاد هوميروس ذكر للمترجمين مع أنه بعيد النظر دقيق الفكرة في كل ما أنشد، فلم يكن من الممكن أن يغفل أمراً كهذا، والجواب أنه لا يبعد أنهم كانوا يتفاهمون؛

لأن الطرود على ما جاء في رواية ديونيسيوس كانوا إغريقي المنشأ، ومسقط رأس دردانوس ملكهم الأول في أرقادية، وعندهم كثير من الأسماء اليونانية كهكطور وإنخيسس، وأنذروماخ وأستيئاناس، ومهما يكن من صحة ذلك، فالشعر يفترض التفاهم بين كل الناس حتى بين الأرض والسما، وليس بمستبعد أن يفهم زعماء القومين كل لسان الآخر؛ لأن كل فئة منهم كانت قبل الحرب كثيرة التردد على الفئة الأخرى، فإن فارس نزل ضيفاً على منيلاوس وسلفاء ذيوميذ وغلوكوس كانوا على تواد وتحالف، وزد على ذلك أن بينهم قرابة ونسباً وبيعاً وشراءً، وأنه مر تسع سنوات ونيف على إقامة الإغريق على حصار إليون كل هذا مما يعد كل فريق منهم للإمام بلسان الفريق الآخر.

(٢١) يشف كلام منيلاوس عن مكان صدره ويمثله تمثيلاً ناطقاً، فهو صاحب العرض المثلوب المستقتل لدرء العار والأخذ بالثأر، وهو البطل الدقيق الإحساس المتألمة جميع الجيوش لنجدته، فلم يكن أولى منه بأن يندفع ويقول:

من يذقه القضاء للحتف منا فليذقه وأنتم بأمـان

ولما وطّن نفسه على أن يقتل في الذود عن قومه، والذود عن عرضه أو أن يقتل خصمه ويضع عن صحبه أوزار الحرب والاغتراب أراد أن يكون على ثقة وطمأنينة، فاستطرد إلى طلب إبرام عهدة محكمة تعقد بحضرة فريام الملك الشيخ؛ ارتياحاً منه إلى بر الشيوخ بعهادهم

واستخفافاً بميثاق من أبنائه؛ لأنه لم يكن يأمن جانبهم، وكيف يأمن
ومنهم الغادر به المنتهك حرمة.

(٢٢) كانت عادة الطرود أن يضحوا بكبش أبيض للشمس،
وبشاة سوداء للأرض ويتنقون الكبش أبيض رمزاً إلى النور والشمس
عندهم إله ذكر يكنى بأبي النور، وأما الأرض فهي أم البشر ومرضعتهم؛
ولهذا ينتقون لها شاة سوداء رمزاً إلى التراب، وقد جعل تنمة الضحية
كبشاً ثالثاً من الإغريق لأحكام الوفاق، ورب المثاني أي: القوات كناية
عن زفس، ومن جملة صفاته عندهم أنه رب العهد والضيافة.

(٢٣) ما أكثر ما قال العرب جاهليهم ومولدهم بهذا المعنى أي:
إيثار الحكمة عن الشيوخ، والطيش عن الشبان، وإليك أمثلة من ذلك.
قال النابغة الذبياني:

على حين عاتبتُ المشيب على الصبا فقلت أَلَمَّا تصحُ والشيب وازغُ

وقال المسيب بن علس:

فرايت أن الحلم مجتنب الصبي وصحوت بعد تشوق ورؤاع

وقال سويد بن أبي كاهل اليشكري:

كيف يرجون سقاطي بعدما لاح في الرأس بياض وصلع

وقال أعرابي:

ألا قالت الخنساء يوم لقيتها كبرت ولم تجزع من الشيب مجزعاً
رأت ذا عصا يمشي عليها وشيبةً تقنع منها رأسه ما تقنعا

فقلت لها لا تهزئي بي فقلّ ما
وللقارح اليعسوب خير علالة

وقال طريح الثقفي:

والشيب للحلماء من سغه الصبا
إن الشباب له لذاذة جدّة

وقال أبو الحسن العكّوك:
وأرى الليالي ما طوت من قوتي

وقال العتيبي:

قالت عهدتك مجنوناً فقلت لها

وقال الشريف الرضي:

وشيب الفتى صبح يبين عواره
وإن ضلالي في النهار لهجنة

وقال أبو تمام:

فلا يؤرقك إيماض القتير به

وقال ابن هانئ:

ولخير عيش أنت لا بسه

يسود الفتى حتى يشيب ويصلعا
من الجزع المجرى وأبعد منزعا

بدل تكون له الفضيلة مقنّع
والشيب منه في المغبة أنفع

ردته في عظمي وفي إفهامي

إن الشباب جنون برؤه الكبر

ويرمق فيه بالعيوب وينظر
وإن ضلالي في دجى الليل أعذر

فإن ذاك ابتسام الرأي والأدب

عيش جنى ثمراته الكبر

وقال الجلال السيوطي:

أما الشباب فظلمة للمهتدي وبه ضلال الجاهل المتمرد

هذا قليل من كثير أثبتناه مثلاً لغزارة مادة الشعر العربي في الحكم والمواعظ، وحسب المطالع أن يتخذه شاهداً يكفيها مئونة هذا التوسع في أمثاله من سائر المواضع.

(٢٤) بفيجين أي: برسولين.

(٢٥) إيريس رسولة الآلهة عامةً وزفس خاصةً، وهي برأي بوزانياس مشتقة من كلمة (Eris) ومعناها الشقاق والفتنة؛ لأنها كانت تحمل رسائل الحرب كما كان هرمس (عطارد) يحمل رسائل السلم.

إن هوميروس هو الذي علم الكتابة والشعراء أن يتفننوا بكتاباتهم؛ ترويضاً للفكر فينتقلون بالمطالع من باب إلى آخر انتقالاً طبيعياً لا تمل معه كتاباتهم، وها هو الآن قد انتقل بنا إلى بحث من أسمى مباحث إلياذته ألا وهو بروز هيلانة المسيية، ولقد يتوهم راوي تاريخ تلك الحرب أنها إنما كانت امرأة متصفة ببذاءة النفس، والاستسلام للهوى الفاضح حتى يكاد يعجب لتلاحم أمتين بسببها، فدفعاً لتلك المظان وزيادةً لخطورة ذلك الموقف قد أبرزها الشاعر بمظاهر يغتفر عندها ذنبها ويعظم قدرها بما فطرت عليه من فرط الجمال وطيب الخلال، فمثل بها المرأة الجامعة بين كل ما يدركه التصور من جمال الخلق والخلق، وهي مع ذلك لا يؤمن عليها من هفوة فضيحة تلقي بها وبذويها إلى وهدة

المهالك القتّالة، ولا شك أن الشاعر وقف هنا في أخرج المواقف حتى
يتسنى له أن يحجب إلى سامعه فتاة يقضي العقل بنبذها وتحقيرها؛ ولهذا
بالغ في وصف حسننها الفتان وأطراها بكلام موجز نافذ كالسهم فقال:
ليس بدعاً إن كان هذا سناها وعليها تلاحمت أمتان

وأنطق بهذا الكلام كل شيخ هرم قوّض الدهر ظهره، فما بالك
بالتفتي الغض الشباب، وأودع فيها من الحذق ما جعلها ترسم وقائع
الحرب بإبرتها على نسيج رقيق، وجعلها مثلاً لركة العواطف متوجعة لما
فرط منها تتمنى الموت كفاً وتجتنب الرجال عفة وطهارة، فتخرج
متبرقة وجلة كما قال الشنفرى:
لقد أعجبتني لا سقوطاً قناعها إذا ما مشت ولا بذات تلقّت

وهي تحن إلى الأهل والأوطان، وتذرف عبرات الشجي ودمع
الحنان، وكأن الشاعر لم يكتف بكل ما سلف تخفيفاً من هفوتها، فصوّر
لمطالعه أنها إنما أتت ما أتت من المنكر مكرهة بالقضاء والقدر لا
مختارة تتولى أمر نفسها، وسترى في ما يلي عند ذكرها ما يكاد ينسيك
أنها الجانية في ذلك الشر المتسببة في تفاقم الأمر.

(٢٦) قالت عقيلة داسيه بأحسن ما تصور هوميروس بجعله
هيلانة ترسم تاريخ الحرب على ذلك النسيج حتى لقد يخالج الفكر أن
هوميروس ملك بالأرث ذلك النسيج البديع، فأنشأ إلياذته على صورته
ومثاله.

(٢٧) الحصد: المُحكمة.

(٢٨) أبواب إسكيا هي أبواب مدينة إليون عاصمة الطرواد.

(٢٩) لم يبق للشيخ بعد أن تمادت بهم الدهشة لجمالها إلا أن شبهوها بالإلاهات الخالدات، ولو اعتقد أبو الطيب المتنبي اعتقادهم لقال قولهم ولم يقل:
بدت قمرًا وماست خوط بانٍ وفاحت عنبرًا ورنّت غزالا

وما أحسن قول الآخر بمعنى هوميروس:
تقول إذا بدا ملكٌ كريم كساهُ الله هيكَل آدميٍّ

وأقرب من ذلك إلى معنى هوميروس قول عنترة:
سجدت تعظم ربها فتمايلت لجلالها أربابنا العظماء

وكأنهم انتبهوا إلى تماديهم في الشغف بالجمال، وقد أحنى الدهر ضلوعهم وفطنوا للمخاطر المحدقة بهم من كل صوب، فأفاقوا من تلك الدهشة وهي لا تكون في الشيخ إلا هنيهةً، فقالوا خير لنا أن نتخلى عنها ونكفي نحن وأبنائنا شرها.

(٣٠) بعد أن غادر الشاعر فتیان الجند وكهولهم في المعسكرين لم يغفل عن ذكر الشيخ الذين قضت عليهم الأيام بالعجز، فوضعهم كما تقدم في مشارف البرج يتطلعون بأبصارهم، وبصائرهم إلى ما عسى أن ينجلي من وراء تلك الأزمة، وقال: إنهم كانوا يرتنون الآراء، وشبههم

بالصرصر التي تصرّ مخفية في الغاب، وهو تشبيه عابه عليه فريق من الشراح وأعجب به الفريق الآخر، على أنه يلوح للمتأمل في حالة الشيخ واحتجابه عن موقف النزال وارتياحه إلى هرم نظيره يجاذبه أطراف الحديث أنه تشبيه في محله فهو كالصرصر المتواري عن العيان يروقه صوته، ويشعر بضغفه فلا يبرح مكانه اتقاء المخاطر، ثم تدرج الشاعر إلى النطق بلسان فريام الملك، فجعله يفوه بكلام تنجلي به حقيقة حاله، فهيلانة كنته فخاطبها باللين والتؤدة، وهَوَّن عليها مصابها بإحالة جريرتها على القدر المحتوم وتوجع لمصابه، فلما آنس فيها الطمأنينة أخذ يسألها عن سراة القوم ترويحاً لنفسه وتأسياً بما يطرق فكره من سابق الذكرى، وهذه حقيقة حال الشيخ الشفيق، والحم الوديع والمصاب بغصص العيش المتحمل مصابه بالورع والاستسلام، والذي لا يزال على كبر سنه يتشوف إلى استطلاع خفايا الأمور.

(٣١) يآثرتي باختيارى.

(٣٢) إن في قيام فريام في أعالي البرج يتطلع إلى الجنود المنتشرة في ذلك السهل لمشهداً من أجمل المشاهد حسب اللبيب أن يتصوره؛ ولذلك نسج على منواله كثيرون من الشعراء ورسمه الرسامون، وتفننوا فيه وأبدعوا اقتداءً بأبي الشعراء، ولا يخفى ما في استهلال هيلانة من الرقة، وما في توجعها من بواعث الرفق بها والتغاضي عن سابق خطأها.

(٣٣) كان الإسكندر المقدوني المعروف بذي القرنين يردد هذا البيت تباعاً، ويعتبره أبلغ بيت في منظومات هوميروس كلها ويتخذه منهجاً وشعاراً، قال أبو تمام:

ملكٌ له في كل يوم كربة إقدام غرٍ واعتزام مُجربٍ

(٣٤) أطرا أو أطراوس ملك الفريجيين، وأخو مغدون وإيقاب امرأة فريام.

(٣٥) سنغريس نهر في فريجيا والجددة الشاطئ.

(٣٦) الأمازونة قوم من مقاتلة النساء اختلف المؤرخون اختلافاً كثيراً في شأنهن زعموا أنهن اكتسحن بلاداً كثيرة وبلغن بفتوحاتهن بلاد آشور وبنين عدة مدائن، وفي جملتها أفسس وأزمير، وكانت لهن ملكات تدبر شئونهن وتقودهن في الغزوات ومنهن ثالستريس التي قابلت الإسكندر، قيل كنَّ يخالطن الرجال حتى إذا علقن منهم تركنهم، فإذا ولدن استبقين البنات دون البنين، وكنَّ يحرقن ثديهن الأيمن لئلا يعوقهن في رماية النبال؛ ولهذا سمين بالأمازون (Αμαζων)

ومعناها «بلا ثدي».

(٣٧) الدّهقان والدّهقان الرئيس معرب دِهْكَان بالفارسية، ومعناها زعيم الفلاحين أو شيخ القرية.

(٣٨) الصيداء الأرض الغليظة، وهي كلمة فينيقية وبها لقت مدينة صيدا في سورية.

(٣٩) قال الكميت:

لا ينقض الأمر إلا ريث يرمه ولا تعرب إلا حوله العرب

وقال آخر:

يصير بأعقاب الأمور كأنما تخاطبه في كل أمر عواقبه

وأمثال ذلك كثيرة في شعر الجاهلية والإسلام.

(٤٠) قوله: «وأما لرعي السن» يعني: مراعاة لأوذيس الذي هو

أسن منه.

(٤١) قال أعرابي في الرشيد:

جهير الرواء جهير الكلام جهير العطاس جهير النغم

ويخطو على الأمر خطو الظليم ويعلو الرجال بخلق عمم



(٤٢) أشرنا في ما تقدم «ن١» إلى جري شعراء العرب مجرى
هوميروس في تشبيه الكلام السهل المنسجم بالشَّهْد وأمثاله، وأما
فصاحة النطق وبلاغة التعبير فكثيراً ما يشبهونها بالدر والياقوت
وأشباههما كقول الصاحب بن عباد:
فلو أن ألفاظه جُسِّمت لكانت عقود نحور الغواني

وقول عبد الله بن حامد الحامدي:
إنني أرى ألفاظك الغرا عطلت الكافور والدرًا

وأحسن من هذين قول أبي إسحاق الصابي للوزير المهلب:

لك في المجالس منطق يشفي الجوى ويسوغ في أذن الأديب سلافه
فكان لفظك لؤلؤ متخل وكأنما آذاننا أصدافه

وأما تشبيه الكلام بالبرد المنهمر كما جاء في قول هوميروس،
فقلما نرى له مثيلاً في الشعر العربي، ولعل أقرب مثال له قول يزيد بن
سياه الأصبهاني وقد أجاد:

إذا ارتجل الخطاب بدا خليج بفيه يمدّه بحر الكلام
كلام بل مدام بل نظام من الياقوت بل حُب الغمام

وهذه الرقة وهذا التفنن في التعبير من مميزات شعر المولدين.

(٤٣) لا شيء أجمل من هذه المقابلة بين أوديس ومنيلاوس وقد
تصرف الشاعر تصرفاً لطيفاً بإصدارها عن أنطينور لا عن هيلانة مع أنها
هي القائمة بإرشاد فريام حميها إلى معرفة الزعماء وأوصافهم، على أن
الشاعر كفاها هنا مئونة الخجل الذي كان يأخذها لو اضطرها فريام إلى
الإشارة إلى بعلها، أما أنطينور فلم يكن في إشارته إلى منيلاوس محذور،
فوصفه وصف خبير كما تقدم وأطراً فصاحتها على اختلاف المنهجين،
فإذا قرأت هذا الوصف علمت من إيجاز منيلاوس وجريه على تبين أدلته
بلا إضمار ولا إكثار أنه الملك الرفيع النسب العلي الشأن القليل
الالتجاء إلى الحيلة والدهاء، ورأيت من توقد ذهن أوديس، والتهاب
عينيه، ونفوذ بلاغته، وتفوقه بأساليب الحديث ما ينبئك بدعائه، وبذلك
على حسن سياسته وقوة عارضته، وزاد الشاعر على وصفهما متكلمين

وصفهما صامتين ففضل منيلاوس قائماً لاتساع منكبيه، وأوذيس جالساً لهيبته في القلوب، ومدحه قائماً أيضاً وإن كان في قامته قصر؛ لأن نفثات بلاغته تسد مسد ضخم الهامة وطول القامة.

(٤٤) الرواض أي: رواض الخيل.

(٤٥) كستور وفولكس المذكوران هما أخوا هيلانة لأُمها؛ لأن أباهما كان زفس وأما أبوهما، فكان تنداروس وأم الجميع ليذا، وكانا قد هلكا ولم تعلم هيلانة بذلك، وفي ذكر هيلانة لأخويها مرميان أولهما: التنويه بحنوها ورقة عاطفتها، والثاني: استلفات النظر مرة أخرى إلى ما كانت عليه من الخجل والوجل، وضيق الصدر، وهنا انتقل بنا الشاعر إلى مشهد جديد، وهو قدوم الرسولين إلى فريام بقرار الجيشين.

(٤٦) القيام للقدام تعظيماً وإجلالاً عادةً مرعية منذ القدم، وأما قول الأعشى:

ولما أتانا بعيد الكرى سجدنا له ورفعنا العمارا

فقد يمكن أن يكون المراد من السجود فيه الانحناء سواء كان المنحني قائماً أو قاعداً جرياً على عادة الفرس أو الركوع، وهو من الغرابة بمكان أو القيام؛ لأن السجود ورد في اللغة أيضاً بمعنى الانتصاب، وفي هذا البيت موضع أشكال آخر بقوله: «رفعنا العمارا» فرفع العمار بلا ريب من علائم التجلّة والإكرام، فبقي النظر في معنى العمار، وله في اللغة معانٍ أشهرها الرياحان الذي تزيّن به مجالس الشراب، وكان الفرس

إذا دخل عليهم داخل رفعوا شيئاً منه وحيوه به، وإذا كان العمار هنا جمع عمارة بمعنى العمامة كان المراد أنهم كانوا يكشفون رؤوسهم، فيكون العرب قد سبقوا الإفرنج إلى رفع القبعة للتحية، وعندنا الأولى أن يراد بالعمار الريحان، ومنه قول النابغة الذبياني:

رقاق النعال طيبٌ حجزاتهم يحيون بالريحان يوم السباسب

(٤٧) نضى بمعنى انتضى، والمشمّل السيف القصير والقرضاب السيف مطلقاً.

(٤٨) شرح لنا لشاعر في ما تقدم طريقة تعاقدهم وتعاهدهم، واتخذ منها وسيلة أخرى لبث روح الورع، ووجوب استمداد الغوث الإلهي فهم يضحون ويدعون وكل فئة واثقة بما عندها من صدق الأيمان، تلك كانت سنتهم في ذلك الزمان وشعائر الدين في أبنائها، وقد كانت للعرب طرائق في تحالفهم تقرب من هذه صورةً وشكلاً، ولكنها تخالفها معنى وحقيقةً إذ كانت عرى الدين عندهم منحلة، ولم تشتد إلا بالإسلام بعد انقضاء زمن الجاهلية، وأما قبل ذلك فكانوا إذا دعوا أو ضحوا مروا على الأمرين مرور المضطر بحكم العادة المقتبسة، وإنا موردون أمثلة ثلاثة من حلف المطيبين ولعقة الدم ملخصة من التواريخ العربية، قالوا: اجتمع بنو عبد مناف، فأخرجت لهم أم حكيم البيضاء بنت عبد المطلب جفنة مملوءة طيباً فوضعوها لأحلافهم في المسجد عند باب الكعبة، وقالوا من تطيب بهذا فهو منا، ثم غمس القوم أيديهم فيها وتعاقدوا هم

وحلفاءهم، ثم مسحوا الكعبة بأيديهم توكيداً على نفوسهم، وتطيب مع بني عبد مناف بنو زهرة، وبنو أسد بن عبد العزى، وبنو تميم بن مرة، وبنو الحارث بن فهر، فالمطيون خمس قبائل من قريش، وتعاهد بنو عبد الدار وأحلافهم، وهم بنو مخزوم، وبنو سهم، وبنو جمح، وبنو عدي على أن لا يتخاذلوا، ولا يسلم بعضهم بعضاً، وأخرجوا جفنة مملوءة دماً من دم جزور نحروها، ثم قالوا: من أدخل يده في دمها فلحق منه، فهو منا فجعلوا يضعون أيديهم فيها ويلعقونها فسموا لعقة الدم (ويقال لهم الأحلاف أيضاً) ولما تعاهد الفريقان على ما ذكر، وكادا يقتتلان إذ تداعيا للصالح على أن تكون حجابة الكعبة واللواء والندوة لبني عبد الدار، والسقاية والرفادة لبني عبد مناف، ودخلوا دار الندوة، وتعاهدوا وكتبوا بينهم كتاباً: باسمك اللهم هذا ما تحالف عليه بنو هاشم، ورجالات عمرو بن ربيعة من خزاعة على النصر والمواساة ما بل بحر صوفة، وما أشرقت الشمس على كبير وهب بفلاة بغير وما قام الأخشبان واعتمر بمكة إنسان.

(٤٩) أتى هوميروس في الأبيات السالفة على بيان التضحية للتواثق بين قومين، وأكثر ما كتب عن القدماء بهذا المعنى إنما هو مأخوذ من هذا الموضوع، وقد تشبه الرومان باليونان فلم يختلفوا عنهم اختلافاً يذكر، أما العرب فهم وإن كانت احتفالات تواتقهم تقارب هذا النسق من وجه، فلا يسعنا أن نحكم أنهم أخذوا منها شيئاً عن اليونان بل

كل مآخذهم كانت عن العبرانيين وعن الكلدان الذين اقتدى بهم اليونان في كثير من عباداتهم ثم عن الفرس، ولكن خصوصًا عن اليهود. راجع ما تقدم لنا بهذا المعنى (ن ١).

(٥٠) لما قضى فريام مهمته قفل مسرعًا؛ إشفافًا من مشاهدة قتال قد ينتهي بمصرع ابنه.

(٥١) التريكة: الخوذة، والقدحين أي: السهمين لكل من فاریس ومنيلاوس سهم وضعًا في الخوذة؛ ليستقسم بهما فيعلم من الطاعن الأول.

(٥٢) يظهر من دعاء الجنود كافة أن نفوسهم سئمت الحرب بعد التحامها بينهم أكثر من تسعة أعوام، فتمنوا هلاك أي من الخصمين تسبب في ذلك البلاء الفادح، وهنا إشارة أخرى إلى ما كان الجميع عليه من صحة الاعتقاد بنفوذ الحكم الإلهي بالقسط والعدل.

(٥٣) كان الاستقسام عند العرب على نحو هذا النمط، وسيأتي بيانه في النشيد السابع.

(٥٤) النترات: الدروع، وليقاوون أخو هكطور لأبيه كان آخيل قد أسره، وباعه في لمنوس فافتدى نفسه ورجع إلى طروادة، ووقع ثانية في قبضة آخيل فقتله كما سيأتي في النشيد الحادي والعشرين.

(٥٥) القتيير مسامير الدروع والتروس، وسائر أنواع السلاح.

(٥٦) الجنة: الترس، والمغفر الخوذة، ونواصي المغفر عبارة عن عذبات القونس التي كان يجعلها العرب على خوذهم تشبيهاً بالفرس.

(٥٧) العاسل: الرمح.

(٥٨) استلأماً لبسا اللأمة أي: الدرع، لحماته أقاربه أو جماعته.

(٥٩) قلاته أي: مبغضيه. يعني: أن أجناد الجيشين وقفوا عند الحد الذي خط لهم لا يتعرضون للمبارزين.

(٦٠) قراته أي: مضيفه، قال بعض الشراح: إن هوميروس لم ينطق فاريس بالدعاء إلى زفس بل أنطق منيلاوس؛ لأنه البريء المهان يلتمس إنفاذ العدل ويشكو ظلامته، وأما فاريس فليس له ظلامة يشكوها فلبث صامتاً.

(٦١) الفضفاضة: الدرع.

(٦٢) لو قرأت هذا البيت في اليونانية للاح لك في مماثلة ألفاظه ما يكاد يسمعك صوت تكسر السيف، وهذه المماثلة كثيرة في شعر هوميروس واللغة اليونانية تسهلها على الشاعر البليغ، ولقد تقفينا آثاره في بعض المواضع. ولما لم تكن هذه المماثلة مما يقيد بالترجمات لاختلاف مميزات التعبير بين اللغات، فنظننا أصبنا الغرض أحياناً،

وأخطأناه أو قاربناه أخرى وأتينا اعتباطاً بمماثلة حكاية الأصوات في مواضع لم يقصدها الشاعر والحكم في كذلك ذلك للمطالع اللبيب.

(٦٣) من تصور حالة منيلاوس واليأس والحنق اللذين أخذوا به عند ما كاد يفتك بعدوه ومحرق مهجته، فخانه السيف والرمح لا يعجب لتماديه بالكفر واستطالته على زفس نفسه بالكلام، وخصوصاً أن لوم الآلهة عند اليونان لم يكن بالكفر الفاحش.

(٦٤) قبريس هي الزهرة أي: إنها قطعت السير الممسك بالخوذة تحت الذقن.

(٦٥) عفروذيت هي الزهرة أيضاً.

(٦٦) كثيراً ما نرى هوميروس يشير إلى الحقائق إشارة رمزية زيادةً لرونق كلامه، ومراعاةً للتصور الشعري وفقاً لمعتقدات زمانه، فيحل الآلهة محل البشر في كل عمل خطير لتزول الغرابة، ويقرب تقدير الإمكان، فلهذا لا يبقى محل للاستغراب إذا عاد منيلاوس بالخيبة بعد أن كاد يقتل فاريس ثلاثاً أي: بسيفه ورمحه وذراعه، ولم يوسط الشاعر الآلهة إلا عند بلوغ الأزمة حدها إذ لم يكن يحلو للسامع بعد أن قيل له أن السيف تكسر من تلقاء نفسه أن يقال له أن قدة الخوذة انقطعت من تلقاء نفسها، فجعل القاطع الزهرة، ولا أجدر منها بملازمة فاريس الذي وقف حياته على الحب والغرام، وقول الشاعر بعد ذلك: «أنها حجبته في ركم الضباب» إشارة إلى الغبار المتصاعد من اصطدام الجيشين على أثر نكبة

فَارِيس، فَكَأَنَّ الشَّاعِرَ قَالَ ضَمَنًا أَنَّ الطُّرُودَ لَمْ يَبْرُؤُوا بِعَهْدَتِهِمْ، فَلَمَّا رَأَوْا مَا رَأَوْا مِنَ الْخَطَرِ الْمَحْدَقِ بَابِنَ مَلِكِهِمْ هَجَمُوا فَأَنْقَذُوهُ وَحَالُوا بَيْنَهُ وَبَيْنَ مَنِيْلَاوَسَ، وَهَنَا نَرَى الشَّاعِرَ يَذْهَبُ بِنَا مِنْ مَوْقِعِ الْحَرْبِ إِلَى مَنْزِلِ الْحُبِّ، وَيَرِينَا يَبْدَعُ تَصْوِيرَ تَنَازُعِ الْعَقْلِ وَالْقَلْبِ.

(٦٧) حَاكَتِ الْأَوَّلَى بِمَعْنَى شَابَهَتْ، وَالثَّانِيَةَ مِنَ الْحَيَاكَةِ.

(٦٨) قُلْنَا: إِنَّ الزَّهْرَةَ أَيْ: الْحُبَّ كَانَتْ مَلَازِمَةً لِفَارِيسَ، فَكَانَ مِنَ اللَّازِمِ أَيْضًا أَنْ تَكُونَ مَلَازِمَةً لِهَيْلَانَةَ، وَمِنْ غَرِيبِ تَفَنُّنِ الشَّاعِرِ أَنَّهُ يَظْهَرُهَا كُلَّ حِينٍ بِالْمَظْهَرِ الطَّبِيعِيِّ الَّذِي لَا يُمْكِنُ أَنْ يَحُلَّ غَيْرُهُ مَحَلَّهُ، وَالَّذِي يَرِينَا مِنْ وَجْهِ آخَرَ أَنَّ الْفَطْرَةَ مَهْمَا اعْتَرَاهَا مِنَ الرُّونْقِ وَالْبَهْرَجَةِ، فَلِأَسَاسٍ وَاحِدٍ لَا يَتَغَيَّرُ؛ وَلِهَذَا لَمَّا كَانَتْ الزَّهْرَةُ عَلَى وَشَكِّ جَمْعِ الشَّمْلِ بَيْنَ فَارِيسَ وَهَيْلَانَةَ أَبْرَزَهَا بِهَيْئَةِ عَجُوزٍ مِنْ خَصَائِصِ هَيْلَانَةَ وَالْعَجَائِزِ أَدْهَى الْخَلْقِ بِالتَّوَسُّطِ بَيْنَ الْعِشَاقِ، وَأَنْطَقَهَا وَهِيَ تَدْعُوهَا إِلَى غُرْفَتِهِ بِكَلامٍ لَوْ نَطَقَتْ بِهِ فَتَاةٌ غَضَّةُ الشَّبَابِ لِأَلْفِينَاهِ خَلْوًا مِنْ كُلِّ رَوَاءٍ، وَلَقَدْ يَتَصَوَّرُ الْمُطَالَعُ أَنَّ هَيْلَانَةَ لَمْ يَكُنْ يَرُوقُهَا أَنْ تَرَى فَارِيسَ عَائِدًا مَنَكُوبًا مِنْ حَوْمَةِ الْوُغَى، فَكَلِمَتُهَا الْعَجُوزِ أَوْ الزَّهْرَةِ بِمَا يَخْتَمُ عَلَى نَبْرَتِهَا وَيَهِيْجُ عَاطِفَتَهَا فَصُورَتُهُ لَهَا بِهَيْئَةِ الْفَتَى الْمُتَأَهِّبِ لِلرَّقْصِ فِي مُحْفَلٍ حَافِلٍ أَوْ الَّذِي يَعُودُ مِنَ الْمَرَاقِصِ الزَّاهِيَةِ، وَهُوَ بِكُلِّتَا الْحَالَتَيْنِ بِأَبْهَى مَا يَتَجَلَّى بِهِ لِنَوَاطِرِ الْحَسَنِ.

(٦٩) مهما اشتد الوجد بالمرء، وضرب الغرام على بصيرته فلا بد له من آونة يعود فيها إليه صوابه، ويتطلب الخروج عن منهج الضلال، وهذه هي حالة هيلانة في موقفها هذا، فإنها لم تفتقر بقول ربة الجمال لتنبيهها حينًا إلى ما أتته من الخطأ الفاحش، فاشمأزت من ذكرى ما اجتاحت وعنفت الإلاهة بالكلام الثقيل كأنها تلوم النفس على تماديها بالهوى الفضاح.

(٧٠) إن فوز منيلا فتح عيني هيلانة وزادها ندمًا على ندم، وإن النساء تعشق الفعال كما تعشق الجمال، وقد سبق لها أن عشقت الفارسين، فكان من البديهي أن تؤثر أطولهما باعًا وأشدّهما ذراعًا، نقول هذا وإن كانت عقيلة داسيه قالت: إن هيلانة تذكرت منيلاوس؛ لأنه عشيقها الأول ومهما انتاب قلب النساء من الحب، وخمدت جذوة الهيام بالحبيب الأول فلا بد من اضطرامها حينًا بعد حين، فترى من ثم أن هوميروس كان عالمًا بما عند النساء من الوجد المقيم للحبيب القديم، ومهما يكن من القولين فقلب النساء حليف الفائز الظافر، وقد كان ظفر منيلاوس ما بكتها على هجرانه وحرقتها ندمًا على سلوانه.

(٧١) إن في إقامة منيلاوس على حبه لهيلانة بعد رغبتها عنه لمهيجًا آخر لوجدها، ومنبهاً ومبكتًا يحملها على الندم والتشوق إلى الرجوع إليه، ولكنها علمت ما دون ذلك من الأهوال، فندبت حظها

وانكفأت باللوم على الزهرة تشفيًا منها شأن العاجز الطامع في مطلب لا يناله فيتأفف، ويلقي تبعة عجزه على من سواه.

(٧٢) أي: إنه لا يصعب علي أن أجعل الخطب يتفاقم بين الطرواد والإغريق فيعبثون بعهدتهم وتزيدون نكالًا على نكال، إذا برّح بالعاشق هيام ورأى من نفسه زاجرًا عنه، ثم قوي القلب على العقل انتحل له من نفسه أسبابًا تجيز له الانقياد لهواه، فكأن هيلانة بعد أن تنبّهت هنيهة لسوء فعلتها انتحل لها الغرام أسبابًا تثبتتها على محبة فاریس، فإنها أبصرت بذكائها أنه لم يكن لها من سبيل إلى منيلاوس، وأنه لا بد من أن يطول زمن الحرب وينكث الطرواد عهدهم، ويهيجوا الإغريق غيظًا لتملص فاریس من بين أيديهم فالرضا والحالة هذه بالحبيب القريب أولى، وتهدد الزهرة لهيلانة عبارة عن إشفاقها من أن يفتح الأمر وتطول مدة الكر والفر، وكلما انقضت السنون وقد مضى منها تسع لحصار طروادة أذبلت الزهرة زهرة جمالها، فيأتيها زمن سنطقي فيها نار حبها في قلبي فاریس ومينيلاوس، وذبول وردة الحسن أعظم مصيبة تتوقعها الرشيقة القد، النضرة الخد.

(٧٣) قلنا: إنه تم التنازع بين قلب هيلانة وعقلها، وتمت غلبة القلب على العقل، فأنت غرفة فاریس ولم يزل في نفسها بقية من الحنان إلى حبيبها الأول، فبادرته بالكلام العنيف وهو كلام لم يكن لها بد منه حتى لو أمحت ذكرى منيلاوس من فؤادها؛ لأن من دهاء النساء أن

تتوقع زلة من الرجال؛ ليعنفنهم عليها استزادةً من سلطانهن وكسرًا لشوكة الرجل وتعززه بقوته، فهذا الكلام وإن كان في حد نفسه أغلظ تعنيف فهو ينتهي كجاري العادة بالدل اللطيف.

(٧٤) ترى هنا أنها بعد أن تمت له الموت بلسانها لم يكن قلبها ليطاوعها فما عتّمت أن قطعت عبارة الشماتة، فوصلتها بخطاب الإشفاق إما لأنها رأت أنها أفرطت في اللوم، وإما لأنه عيل صبرها على كتمان حبها أو لكلا الأمرين.

(٧٥) لم يكن في الإمكان أن يتصور شاعر جوابًا لفاريس أوقع من هذا الجواب، فبدأ بالاعتذار، وألقى على أثينا تبعة الإنكسار، وجعلها تأمل النصر القريب ولم يكتف بكل ذلك، فإذهابًا لبقية ما في صدرها من غائلة الاستضعاف وفتور الحب أتاها من باب المداعبة والمغازلة اللتين تخفيان عن العيون العيوب، فتذرع بأقوى حيل الرجال ووقع على منفذ الضعف فيها ففاز ببغيته.

(٧٦) أظهر لنا الشاعر في هذا النشيد عاشقين كلاهما على خطأ، ولقد أكثر الشراح من تفنيد أخلاقهما فمن مقبح أعمال فاريس، ومن مستهجن لتصرف هيلانة، ولقد رأيت فيما تقدم المنهج العجيب الذي نهجه الشاعر تخفيفًا لما يؤخذ عليهما، وكأني به قد كان أرفق الشعراء والكتاب وسائر الرجال من قبل ومن بعد بحالة النساء، وأعرفهم بما يجب أن يكون لهن من المنزلة في المجتمع البشري، ومهما أحجم

قارئ شعره عن الاعتراف بما يجب أن يكون للنساء من المنزلة لا بد له من أن يعترف من هذه المقابلة أن هوميروس كان يرمي ببصره إلى إعلاء شأنهن، ويعتقد مع التنويه بمعاييهن بأن فيهن المنزع الأعظم للتحلي بجمال الوصف كما تحلين باللفظ والظرف، فهيلانة على كل علتها وسابق هفوتها تظهر بعواطف أرق ونيرة أدق من حببها فاريس على غضاخته وبسالته، ولا بد لي قبل الانتقال من هذا الموضوع أن آتي على ذكر أمر، وإن ساءني ذكره، وهو المقابلة بوجيز العبارة بين آداب الشاعر اليوناني والشاعر العربي في الجاهلية وبعد الجاهلية، فلست أذكر أن هوميروس جمع بين محبوبين في إلياذته مع كثرة كلامه عن العشق والعشاق إلا في موضع آخر غير هذا الموضوع، وقد أتى على ذلك بكلام تقرأه، ولا تخجل من قراءته الفتاة في خدرها، أما شعراء العرب فحيثما عنَّ لهم ذكر الحبيب والمحبوب، وإن ظلوا بعيدين عن ذكر الوصال أفحش أكثرهم في الكلام، وإذا وصفوا الوصل ذكروه بكلام بذيء يخجل الرجل من تلاوته فضلاً عن المخدرات، وحسبنا مثلاً على ذلك مراجعة معلقة امرئ القيس شيخ شعراء العرب وقوله:

وقالت وقد مال الغبيط بنا معاً
... ..

وفي كتاب ألف ليلة وليلة من أمثلة ذلك ما لا يحصى.

(٧٧) لما أفرغ الشاعر كنائه بمشهد فاريس وهيلانة رجع بنا إلى ساحة الحرب، فأرانا أتريد أخا منيلاوس كالوحش الكاسر الذي تؤخذ

فريسته من بين يديه فيتخدم غيظًا منقضًا في طلبها، ولا بدع أن يندفع
أغامنون ذلك الاندفاع لذهاب الفريسة والغنيمة من يده.

(٧٨) لا عجب أن نرى فاريِس ممقوتًا في هذا المكان كما
تمقت الموت جميع أصناف البشر؛ لأنه كان المتسبب في هلاك
الأمتين، وزد على ذلك أن الجيشين أملا حينًا من الزمن أن تنتهي الحرب
ببروزه لبراز منيلاوس، فإذا به قد احتجب فخاب أملهم؛ ولهذا قال
الشاعر إنهم لو رأوه لأنبئوا بمقامه ليؤخذ بجريسته فيقتل، وتضع الحرب
أوزارها.

النشيد الرابع نقض العهدة والوقعة الأولى

مُجْمَلُهُ

جلس الآلهة للنظر في أمر الحرب، فاستحسن زفس إلقاء الصلح، فعارضته هيرا تأبى إلا التكيل بالطرواديين وتدمير عاصمتهم، فوافقها زفس على شرط أن يهدم فيها بعد ما شاء من المدائن المستظلة بظلها، وأنفذ أثينا إلى جيش الطرواد تستفزهم إلى العبث بالعهدة، فتزيت بزى أحد أبناء إنطنيور ودفعت فندياروس على إطلاق سهم، فاندفع وأطلق سهمًا على منيلاوس فجرح جرحًا ظنه أغاممنون قاضيًا، ولكنه ما لبث أن شفي بعناية النطاسي مخاوون، وما وقف جيش الطرواد عند تلك الخيانة بل انقضوا هاجمين على الإغريق، فتربص الإغريق وهاجت أغاممنون الحمية، فخاض الصفوف يستحث همم الزعماء ويؤنب المتشبتين منهم، والتحم القتال فاستظهر جيش الإغريق وكاد يقضي على الطرواديين لو لم يبادر أفلون ويستنهض الهمم، وقاتل الفريقان قتال المستبسل اليئس حتى «كسا أديم الأرض تيار الدماء».

مجرى وقائع هذا النشيد في السهل أمام طروادة، وكلها جرت في اليوم الثالث والعشرين، وهو اليوم الذي جرت فيه وقائع النشيد السابقين، والنشيد التالين أيضًا حتى أواخر النشيد السابع.

النشيد الرابع

قد أقام الأرباب من حول زَفْسٍ
بِكُئُوسِ النُّضَارِ دارت عليهم
فبإليون أحذقوا من علاهم
قال مُذْ رام أن يُحدِّم هيرا
تلك هيرا الأَرْغِيَّةَ اخْتَضَنَتْهُ
وبمرآه سُورَتَا من بعيدٍ
تدراً الموت عنه بالبشر والآ
إنما النصر لابن أثرا يقيناً
أنسيل الدِّماء والحرب نوري
فإذا السَّلم رُمْتُم ظل فريا
وبهيلانةٍ يسيِّرُ منيلا
تَسَعَّرَتَا وقد دَنَّتَا مقامَا
فأثينا اشْمَأَزت من أبيها
على حَسَرَاتِهَا كَظَمَت وهيرا
تقول ولم تُطِقْ إخماد نارٍ
«بغيت علي يا ابن قرون هلاً
وتحبط بُغْيَتِي وتُخَيِّب جهدي

مجلساً في ذاك البلاط المُذَهَّب
هيبا والسَّلاف بالدُّور يُسْكَب ١
وبمرَّ الكلام زفس تعتب
«ذا منيلا برَبَّتَيْنِ تحجَّب
وأثينا لفوزهِ تتعصَّب ٢
إنما عفريت فاريس تصحب
ن وقته الرَّدَى وقد كاد يَنْشَب
فهلُموا نقضي بما يترتب
أم نرى حقنها على الصلح أقرب
م بإليون في ذوبه مُهَيَّب
فيسود السَّلام والدَّم يُحجَّب»
فهممتا وقد بغتا انتقاما
وكاد يبرُّها الحنق اهتضاما ٣
أبت صبراً وأغلظت الكلاما ٤
تؤجج جوفها الغالي اضطراما
بغيت تبيد آمالي انصراما
وخيلي أوهنت جسداً وهاما

على فريام قد سُقَّت السَّرايا
 فنجههم وما الأرباب طُرًّا
 فقال وقد غلا حَنَقًا: «وماذا
 عليك فما جنوا حَتَّى ترومي
 ألا لو حصنهم أعليت يومًا
 ولم تُبْقِي لملَّتْهم رُسُومًا
 إليك زمامهم ما شئت فاقضي
 ولكن عي مقالي واسمعيه
 وإن ما شئت إيقاعًا بقوم
 وهبتك ما سألت بطيب نفسٍ
 فتحت الشمس والزهر الدَّراري
 وليس لدي من إليون أوفى
 ففوق مذابحي أبدًا أقاموا
 وظل دخانها للجوَّ يعلو
 فقالت: «إن لي مدناً ثلاثًا
 وهُنَّ علِمَتْ إسْبَرَطًا وأرغسُ
 فإن ما شئت دمَّرْهُنَّ إنِّي
 وليس بنافعي صَدِّي لعلمي

تجرع آله الموت الرُّؤما
 براضيةٍ (وإن صمتوا احترامًا)
 يسومك يا ظلومهم احتداما
 دماءهم اعتسافًا واعتزاما
 وهضت اللحم تَفَرِّينَ العظاما
 لبلغ حقدك الحد التَّماما
 لئلا يورث المنع اختصاما
 إذا ما رمت أنفذت المراما
 وددت فلا تُسوميني اختكاما
 وإن أك قد تكلفْتُ الحراما
 مدائنُ جمَّةٌ حوت الأناما
 وفريامٍ وأهليه ذماما
 ذبائحهم مشربةٌ مداما
 وبالعدل استباحوها اقتساما
 علقت بهن قلبًا مُسْتَهاما
 وميكنينا التي زهت انتظاما
 أبيت لهنَّ عونًا والتزاما
 بأنك قد تملكك الرِّماما

ولكنني حكيتك بانتسابي
وقد عظممت بين بني قُروِن
فإني بنتُ ذاك وعرس زفسٍ
فعمّا أبتغي حينًا تجاوز
يرومُ بنو الخلود بنا اقتداءً
تعيث بعهدة الجيشين لكن
لان زفسٌ لقولها ثمّ قالَا
ليُتمّ قائم الشقاق ويَحَثّ
فهيَ والحرب قصدها ومُناها
خرقت مُهجة الرقيع إليهم
لسفينٍ أو جم جيشٍ يريه
بشرارٍ مُثَّثٍ بأوارٍ
وجلوا جازعين مذ أبصروها
«أبسيل الدماء زفس مشيرٌ
وهي في هيئة ابن أنطينرٍ لو
وتوارت في جيش طروادة في
فرأته بقومه من رُبي إي—
فقدأنت إليه قالت: «ألا اسمع
حَقَق الظنَّ وابتدر لميلا

لِذَاكَ فَضَلْتُ أَرْبَابًا كِرَامَا
وإن كانوا جميعُهُم عظاما ٨
ملك الكون فارع لي الدما ٩
وعمّا تبتغي أرضي دواما
فمُر تَنَقُّصْ آثِنَا اقتحاما
لينقض آل طرواد السَّلاما» ١٠
لأثينا: «هي أجيب السُّؤالَا
جيش طروادة بما قد آلي» ١١
لبت الأمر تبتغيه امثالا
كشهابٍ في الجوّ أج اشتعلا
زفس شومًا مقرَّبًا أو فالَا
يخمدُ الرُّوع أو يهيج الوبالَا
وبهم هاجس الظُّنون تعالي
أم لربط الإخاء بالوفق مالا»
ذُوق حَلَّت تحكيه شكلاً وحالا
طَلَب الشَّهْم فندروس انتحالا
سيف من قُلِّدوا الثُّروس الثقالا ١٢
يا ابن ليقاون العظيم المقالا
وارمه تكسبن فخرًا ومالا

ومقامًا عند الطَّراودِ يعلو
سيِّما عند ذلك الملك فاريد
ثم ناهيك بالذي هو يحبو
فَتَوَكَّلْ أَرَاكَ وادعِ أَفْلُو
والصَّحايا الأَبكارِ فأنذُرْ ذبيحًا
ذاك في زليلا بقصْرِكَ لَمَّا
خَدَعْتَهُ فَاغْتَرَّ واجْتَرَّ جهلا
كان بين الجبال يَقْصُصُ قَبْلا
وامتنانًا لن يعرفنَّ الزَّوالا
سِ إذا ما قتلت أترِيدُ حالا
ك هباتٍ تَنْقُلُ الأَحْمالا ١٣
ليقيامن بالعزم هالَ النَّبالا ١٤
تنقيها نقيَّةً أَحْمالا ١٥
بانتصارٍ تغدو لها ترحالا
هائل القوس من جفيرٍ تَدَلَّى ١٦
فلديه تيسٌ من الصَّخْر وَلَّى

فرماه بصدرة مفتلاً

طول قَرْنيهِ بالغًا كان قَدْرًا
من قياس الأَشْبارِ سَتَّةَ عَشْرًا
منهما عند صانعٍ ذاع ذكرا
أكمل القوس آلهَ ليس تبرا

طَرَفَيْهَا بِخَالِصِ التَّبَرِ حَلَّى ١٧

فأتاهما موقعًا باعْتِئَاء
وعلى الأرض مَدَّها باتكأ
ودُؤوه بِمَنْعَةٍ واثْقَاء
خَشْيَةً أَنْ تُبْلِي سُرَى الأعداء

ومنيلا ما نال جَرْحًا وَقَتْلًا

ثُمَّ مِنْ وَاسِعِ الكِنَانَةِ أَخْرَجَ
سَهْمٌ بُؤْسٍ مَقْدُذًا يَتَرَجَّرَج ١٨
فَوْقَ مَتْنِ الأوتارِ بالفُوقِ أَوْلَجَ
وانشَى يَنْذُرُ الدَّبِيحِ المُدَبَّج ١٩

مُدَّ يُؤَافِي بِلَادِهِ مُحْتَلًا

ثُمَّ فَرَضَ الْمَرِيضَ بِالْعُنْفِ أَمْسَكَ وَإِلَى صَدْرِهِ السَّرِيَّةَ أَضْنَكَ ٢٠

فُؤَسَتْ فُؤُسُهُ وَلَمْ تَتَفَكَّكَ فَرَمَى رُنَّتْ وَفِي السَّهْمِ نَيْزَكَ ٢١

فِي فَسِيحِ الْفَضَاءِ قَدْ غَلَّ غَلًّا

يَا مَنِيلاً طُوبَاكَ أَهْلُ الْخُلُودِ دَفَعُوا عَنْكَ كُلَّ بُؤْسٍ شَدِيدِ

فَأَتَيْنَا وَقَتَكَ سَهْمَ الْحَدِيدِ مَثَلَمَا الْأُمُّ وَابْنُهَا فِي هُجُودِ

عَنْهُ جَمَعَ الذُّبَابُ تَدْفَعُ مَهَلًا

هِيَ بِالنَّفْسِ وَجَّهَتْهُ فَمَالَا لِعُرَى عَسَجَدِ الْحَمَائِلِ حَالَا ٢٢

حَيْثُ ثَقُلَ التُّضَارُ كَالدَّرْعِ حَالَا إِنَّمَا السَّهْمُ قَطَعَ الْأَوْصَالَا

فَلَهَا وَالْجَا وَفِي الدَّرْعِ حَلًّا

وَجَرَى نَافِذًا لَجُوفِ حَزَامٍ قَدْ وَقَاهُ مِنْ غَابِرِ الْأَيَّامِ

شَقَّه خَارِقًا إِلَى الْآدَامِ وَلَجَ الْجِلْدُ وَهُوَ بِالْجَرْحِ هَامِي

بِدَمٍ أَسْوَدٍ تَعَكَّرَ شَكَلَا

ضَرَجَ الْفَخَذَ ثُمَّتَ السَّاقُ خَضَبٍ وَبَهِيَ الرَّجْلَيْنِ لَوْنًا مُحَبَّبِ

مَثَلَمَا بَرَفِيرٌ عَلَى الْعَاجِ يَسْكَبُ غَيْدَ قَرِيَا وَإِيْمِيونَةَ تَرْغَبِ

فِيهِ صَبْعًا لِلْخَيْلِ حَلِيًّا يَدْلَى ٢٣

فِيهِ قَدْ زَنَ مَنْزِلًا بِادِّخَارٍ لَمْ يَنْلَهُ إِلَّا عَزِيْزُ الْمَنَارِ

فَهُوَ فَخْرُ الْفَرَسَانِ آلِ الْفَخَارِ وَمَنَالُ الْمُلُوكِ يَوْمَ الطَّوَارِي

لَيْسَ يَرْجُوهُ بَيْنَهُمْ مِنْ ذَلًّا

فَأَغَامَمْتُونِ دَنَا وَتَحَقَّقَ ذَلِكَ الْجُرْحُ كَادَ بِالنَّفْسِ يَشْرِقُ

ومنيلا ببادئ الأمر أشفق فرأى النصل مائلاً كاد يزلق

فَتَرَوَى مُسْتَبْشِرًا مُهْتَلًا

صَحَّ قَوْمُ الْإِغْرِيقِ يَطْلُبُ حَقًّا وأخوه استشاط غيظًا وِرْقًا

يده ممسكًا أفاض وألقى: «يا شقيق الفؤاد قل أَلْتَلَقَى

حَتَفَكَ الْيَوْمَ رُمْتَ ذَا الْوَفْقِ شُغْلًا ٢٤

وَرَضِيتَ النَّزَالَ فِيهِ تُنَادِي وَحَدَّكَ الْآنَ فِي بَنِي طُرُودِ

قد رموا عن تجبرٍ وعناد وينكت داسوا سداد العهد

إِنَّمَا النَّكْتُ سَوْفَ يُمَطِّرُ خَذَلًا

وَقَفْنَا وَالْأَيْمَانَ وَالْخَمْرَ حَاشَا ودماء الكباش أن تتلاشى ٢٥

فَإِذَا زَفَسَ غَضٌّ طَرْفًا وَمَا شَا يوقع اليوم سوف ينهض جاشًا

وَيَسِيلُ الدَّمَاءُ مِنْهُمْ وَيَلَا ٢٦

سَوْفَ يَلْقَوْنَ عَنْهُ شَرَّ الْعِقَابِ ويلقون منه قطع الرقاب

وَيُنُوهُ وَأَهْلُهُمْ بَانْتِحَابِ تجرع الموت في شديد العذاب

فَعَلَى ذَا عَقْلِي وَقَلْبِي دَلًّا

وَكَأَنِّي بِزَفَسِ غَيْظٍ وَأَنَا ثُمَّ هَاجَ الْبَلَا وَرَجَّ الْمَجْنَا ٢٧

هُوَ لِلنَّاسِ حُرْمَةُ الْعَهْدِ سَنَّا خرقوها فسوف ينقم عنا

وَيَالِيُونَ يَهْبِطُ الْوَيْلُ ثَقَلَا

وَإِذَا مَا لَقِيتَ مَوْتًا عَجُولًا ولأرغوس أعتدي مخدولًا

تَتَلَطَّى نَفْسِي شَجَى يَا مَنِيلا إِذْ جَنُودُ الْإِغْرِيقِ وَالصَّبْرُ عِيلا

وَطَنًا عَزَّ يَذْكُرُونَ وَأَهْلًا

لَا يُجَلِّونَ مِنْكَ عَظْمًا دَفِينًا ظَلَّ مُلْقَى لَدَى حِمَا الْيُونَا

وَبِهَيْلَانَةِ الْعَدَى خَالُونَا فَلَنَا الْخَيْبَةُ الْعَظِيمَةُ هُونَا

وَلَهُمْ نَاطِقُ الشَّمَاةِ عَدَلًا

وَيَقُولُونَ عِنْدَ قَبْرِكَ لُؤْمًا آغَامِنُونَ هَكَذَا انْحَطَّ عَزْمَا

ظَل فِي التَّحْرِكِيهِ الدَّهْرُ حَتْمًا قَادَ جَيْشًا عَرَمَرَمًا مُدْلَهَمًا

فَانْتَنَى مُفْعَمًا وَبَالًا وَأَجَلِي

عَادَ عَنْ حَرْبِنَا بِفُلْكَ خَوَالِي لَمْ يَنْلِ غَيْرَ خَيْبَةِ الْآمَالِ

وَأَخُوهُ فِي التُّرْبِ وَالْعَظْمِ بَالِي لُجَّةُ الْأَرْضِ إِنْ يَكُنْ ذَا مَالِي

فَابْلَعْنِي وَاخْفِي اذْكَارِي أَصْلًا»

فَمَيِّلا بِعَزَّةِ النَّفْسِ سَكَنَ رَوَّعَهُ قَالَ: «فَاحْذَرِ الْجَيْشَ يُحْزَنُ

فِي ذَا السَّهْمِ قَطَّ لَمْ يَتِمَّكُنْ قَدْ وَقَتْنِي الْعُرَى وَدِرْعِي الْمُبْطَنُ

وَحَزَامَ الْحَدِيدِ أَوْقَفَ نَصْلًا» ٢٨

قَالَ: «عَلَّ الْمَقَالَ بِالْفَأَلِ صَحًّا وَلَنُرْمَ آسِيًّا لَيْسَبِرَ جَرْحَا

وَلِيُخَفَّفَ بِلِسْمِ الْبُرِّ بَرْحَا فَعَسَانَا نَلْقَى لِمَسْعَاهِ نُجْحَا»

ثُمَّ نَادَى بِتَلْشِيُوسَ: رَحَلَا ٢٩

لِمَخَاوُونَ أَسْقَلِيبِ التَّطَاسِي سَرَوْ وَأَحْضَرُهُ مَسْرَعًا خَيْرَ آسِ ٣٠

لِمَنِيلا الْمُقَدَّمِ النَّبَرَّاسِ فَيَرَى جَرْحَ نَابِلٍ ذَا بَاسِ ٣١

نال فخرًا ونحن قهراً ونكلاً»

سمع الفَيْجُ منه أمراً وَلَبَّى بين قوم الإغريق يَنْهَبُ نهباً
يتقصَّى مستطلعاً مُشْرِئاً فرآه بالعزم يَشْتَدُّ قلباً
بين أصحابه مُجَلَّاً معلّى

فأتاه مُقَطَّع الأنفاس قال: ذا الطُّولُ لَبٌّ يا خير آس
لمنيلا المُقَدَّم النَّبراس فترى جُرح نابلٍ ذا باسٍ
نال فخرًا ونحن قهراً ونكلاً»

رَقَّ قَلْبُ الطَّيِّبِ حزنًا ولَجَّأ يصحب الفيج بالفيالق فجَّأ
ألفياه كالرَّبِّ والجَمْعُ عَجَّأ حَوْلَهُ في أمثال الصِّيد ضجَّأ
فَلَهُم فرغ أسقليب تجلَّى ٣٢

سحب السَّهْم من رباط الحمائل كسر النصل وهو بالرَّأس مائل
حَلَّها ثُمَّ حلَّ دِرْعَ الغلائِل وحزَّامًا دُون المَقَاتِل حائل
بُدِّل الجَهْدُ فيه بالصَّنْع بدلا

سَبَرَ الجرح والدم امتصَّ جرًّا وعليه شافي البلاسم ذرًّا
ذاكَ سِرُّ خيرون قبلُ أسرًّا لأبيه فكان من ثَمَّ دُخْرًا
عَمَّ كُلُّ الأنام خَيْرًا وَفَضلاً ٣٣

قوم الأغارق قد لَهَوْا بجريحهم وعليهم زَحَفَتْ قوى الأعداء ٣٤
فَتَقَنَّعُوا بِسِلاحهم وتقدَّموا مستلثمين لساحة الهيجاء

أَفَلَا رَأَيْتَ مَلِيكُهُمْ قَدْ هَبَّ لَا
بَل سَار يِرح متن مركبة زَهَتْ
أَلْقَى أَرْزَمَةَ ضَابِحَات جِيَادَهَا
وَالِيهِ أَوْعَزَ أَنْ يَظْلَ بِقُرْبِهِ
وَمَضَى عَلَى قَدَمَيْهِ يَنْفِذُ أَمْرَهُ
بِالْحَزْمِ يُثَبِّتُ عَزْمَ كُلِّ كَتِيبَةٍ
«يَا أَيُّهَا الْإِغْرِيْق لَا تَتَرَدَّدُوا
أَعْدَاؤُنَا نَقْضُوا الْعَهَادَ خِيَانَةً
وَلَسَوْفَ تَفْتَرِسُ الطَّيُورُ لِحُومَهُمْ
وَلَسَوْفَ تَحْرُزُ فَلَكُنَا أَزْوَاجَهُمْ
وَيَمِيلُ بِالتَّغْنِيفِ مُحْتَدِمًا عَلَى
«يَا أَيُّهَا الْجَنْدُ الْأُولَى زَعَمُوا الْبَلَا
أَفَلَا خَجَلْتُمْ مَذَّ وَجَلْتُمْ رِعْدَةً
وَإِذَا تَمَلَّكَه الْعِيَاءُ بِجَرِيهِهِ
حَتَّى مَ يَقْعِدُكُمْ تَبَاطَوْكُمْ فَهَلْ
وَعَلَيْكُمْ تَنْقُضُ فِي جُرْفٍ طَعَا
خَاض الصُّفُوفُ يَجُوبُ فِي دَفَاعِهَا
أَلْقَاهُمْ بِدُرُوعِهِمْ وَإِذْ مَنَّ
سَاقِ الطَّلِيعَةِ يَسْتَحِيشُ مُحَلِّقًا

مُتَقَاعِدًا بِتَقَاعُسِ الْجُبْنَاءِ ٣٥
بِنَحَاسِهَا لِمَوَاقِعِ الْإِجْرَاءِ
لَأَرِيْمِذُونٍ نُخْبَةٍ الْأَمْنَاءِ ٣٦
لَيْلِهِ حِينَ مَشَقَّةٍ وَعِيَاءِ
بِمَوَاقِفِ الثُّبَلَاءِ وَالْأَمْرَاءِ ٣٧
نَهَضَتْ بِبَاسٍ ثَابِتٍ وَبَلَاءِ:
بُرج النَّفَاقِ عِمَادُهُ تَتَهَدَّمُ ٣٨
وَعَنِ الْخِيَانَةِ إِنْ زَفَسَ لِيَنْقِمَ
وَجَمِيعَ أَنْقَاضِ الْبِلَادِ تُقْصَمُ
وَبَنِيهِمْ وَدِيَارِهِمْ تَتَرَدَّدُ ٣٩
مَنْ ذَلَّ تَحْتَ الْأُزْمَةِ السَّلَآءِ: ٤٠
وَتَذَلَّلُوا بِقُوَى غَدَتِ تَتَقْصَمُ
كَالْإِيْلِ الْوَاهِي يُرَاغُ وَيَرْغَمُ
بِالْبَرِّ يَلْبِثُ جَازِعًا يَتَهَضَّمُ
رَفِئْتُمْ لِفُلُكِكُمْ الْعِدَى تَتَقَدَّمُ
لِيُمَدَّ مِنْ زَفَسٍ إِلَيْكُمْ مِعْصَمُ
لِحَمَّا بَنِي إِقْرِيطَشِ التُّجَبَاءِ
يَشْتَدُّ كَالْخِرْنُوصِ فِي الْبِيدَاءِ ٤١
مَرِيُونُ عِنْدَ السَّاقَةِ الْجَاوَاءِ ٤٢

فَاهْتَرَّ مِنْ طَرَبٍ لَشِدَّةِ بَأْسِهِ
 «حَيَّتَ مِنْ بَطْلٍ أَجَلٌ مُعْظَمًا
 وَإِذَا الْوَلَانِمِ أُولِمْتَ وَغَدَتَ عَلَى الْ
 فَلِسْهُمْ حَدٌّ وَسْهُمْ طَافِحٌ
 تَتَنَاوَلُ الْأَقْدَاحَ مَهْمَا شِئْتَهَا
 زَخْفًا تَعَوَّدْتَ الْفَخَارَ سَجِيَّةً
 فَأَجَابَ: «يَا أَتْرِيدُ سَوْفَ أَبْرُ بَالِدَ
 وَأَنَا ظَهِيرُكَ فَادْعُونَنِي إِلَى الْوَعَى
 آلَى الْعُدَاةِ فَأُخْلَفُوا فَلِيَجْرِعُوا
 جَذَلًا مَضَى أَتْرِيدُ مُنْدَفِعًا عَلَى
 أَلْفَى الْيَاسِينِ الَّذِينَ تَدَجَّجَا
 دَلَفُوا بِجَحْفَلٍ فِتِيَةٍ فَتَاكَةً
 كَغَمَامَةٍ قَارِيَةٍ سَبَحَتْ عَلَى
 فَتْلُوحٍ لِلرَّاعِي فَيَخْفُقُ سَائِقًا
 فَارْتَاخَ أَتْرِيدُ وَقَالَ مُخَاطَبًا
 «إِيهِ زَعِيمِي رَهْطِ دُرَاعِ الْحَدِيدِ
 حَسْبِي بِنَفْسِكُمَا تُثِيرُ إِلَى الْوَعَى
 لَوْ آهَ زَفَسُ وَآلِهِ مُنُّوا وَمَا

وَعَلَيْهِ قَامَ يُفِيضُ خَيْرَ ثَنَاءٍ
 يَوْمَ الْوَحْيِ وَكُلَّ مَا يَتَجَشَّئُ
 زُرْعَاءُ أَقْدَاحِ التَّفَاخِرِ تَقْسِمُ
 وَكَذَاكَ سَهْمِي لَا يُحَدُّ وَيَحْسُمُ
 حَتَّى تَطِيبَ وَأَنْتَ عَنْهَا تُجْحِمُ ٤٣
 أَبَدًا وَأَنْتَ الْفَائِزُ الْمَتَحَكِّمُ
 عَهْدِ الْقَدِيمِ وَسَابِقِ الْإِيمَاءِ ٤٤
 لِيَتَشَبَّ حَالًا سَائِرِ النَّصَرَاءِ
 مَضْطًّا جِزَاءِ الْخَلْفِ بِالْإِيْلَاءِ
 هَبَّ النَّسِيمِ لِسَائِرِ الزُّعْمَاءِ
 وَهَنَا الْمُشَاةِ كَغَيْمَةٍ سَوْدَاءِ
 بِمَنَاصِلٍ وَعَوَامِلٍ صَمَاءِ
 وَجْهِ الْبَحَارِ بِشِدَّةِ الْأَنْوَاءِ ٤٥
 سَرَبَ الشَّيَاهِ لِأَكْهَفِ الظُّلَمَاءِ
 لَهُمَا بَحْرُ الْهَوْلِ وَالْأَرْزَاءِ
 سَدَ فَإِنَّ مَثَلَكُمَا يَكُرُّ وَيُقَدِّمُ
 هَمَمَ الْجُنُودِ بِهَمَةٍ تَتَجَهَّمُ
 أَحْكَمْتُمَا كُلَّ الْكُنَائِبِ أَحْكُمُوا

لَتَهْدَمَتِ الْيُونُ تَحْتَ ذِرَاعِنَا
ثُمَّ انْتَنَى لِسَوَاهِم فَبَدَا لَهُ
قَدْ قَامَ يَنْظُمُ جَيْشَهُ مُسْتَنْهَضًا
وَالْمَلِكُ هَيْمُونُ خَرُومِيْسُ السِّ
جَعَلَ الطَّلِيعَةَ خَيْلَهُ وَعَجَالَهُ
وَالْقَلْبَ أَوْدَعَ كُلِّ نِكْسٍ وَاهِنٍ
وَبَدَا يَحِثُّهُمْ لِكُلِّ كَرِيهَةٍ
«لَا تَقْحَمُوا بِعِجَالِكُمْ وَتَبَدَّدُوا»
وَحَذَارُ تَغْتَرُّونَ فِي بَأْسٍ لَكُمْ
بِكِتَائِبِ الْأَعْدَاءِ تَنْفَرْدُونَ أَوْ
فَبَدَا يَهُونُ عَلَى الْعَدُوِّ نِكَالُكُمْ
وَبَأْيُكُمْ كَبَتِ الْجِيَادُ وَقَدْ لَجَا
بِالرُّمَحِ فَلِيلِقَ الْعُدَاةَ فَإِنَّمَا
أَسْلَفْنَا هَدَمُوا كَذَا بَدَهَانِهِمْ
طَرِبَ الْمَلِكُ لِحَزْمِ نَسْطُورِ الَّذِي
فَالِيهِ مَالٌ مُخَاطِبًا بِرِعَايَةِ
لَا كَانَ دَهْرٌ مِنْكَ جِسْمَكَ مُوهِنٌ
يَا لَيْتَ سَاقَكَ مِثْلَ قَلْبِكَ شَدَّةً
مَنْحَنَتِكَ أَرْيَابَ الْعُلَى بِأَسِ الصَّبَا

عَجَلًا وَشُمُّ عِمَادِهَا تَتَحَطَّمُ» ٤٦
بذَوِيهِ نَسْطُرُ أَفْصَحُ الْخُطْبَاءِ
وَهَنَا يِيَّاسُ نُخْبَةُ الصُّلَحَاءِ
سَتَرُ فِيلَغُونُ وَسَائِرُ النَجْدَاءِ
وَمُشَاتُهُ فِي سَاقَةِ شَهْبَاءِ
عَافَ الْإِقْدَاءَ لِيَلْتَجِيَ لِلْقَاءِ ٤٧
وَالصَّبْرُ فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ
مُسْتَهِدِفِينَ لِعَارَةِ شِعْوَاءِ ٤٨
وَمَهَارَةٍ فِي الْحَثِّ وَالْإِعْدَاءِ
أَنْ تَنْكَسُوا بِجَبَانَةٍ لِسُورَاءِ
وَبِذَاكَ أَعْظَمُ شِدَّةٍ وَعِنَاءِ
لِسِوَاهِ مِنْكُمْ مُقْبَلًا لِنَجَاءِ
هَذَا يَقِينًا أَصُوبُ الْآرَاءِ ٤٩
أَسْوَارُ كُلِّ مَدِينَةٍ شَمَاءُ
خَبَرْتُ مَخَابِرَهُ بِطُولِ بَقَاءِ
«يَا شَيْخَ صَدْرِكَ بِالْبَسَالَةِ مُفْعَمُ
وَقِيَّامِ عَزْمِكَ مُخَمَّصُ وَمُهَضَّمُ
وَلَسْنِ هَرُمَتِ وَذَلَّ قَرْمٌ يَهْرَمُ
وَأُولَى الصَّبَا طُولُ الْبَقَا مَنَحْتُهُمْ» ٥٠

فأجاب نسطرُ: «قد هَرِمْتُ وَحَبَّذَا
 زَمَنًا أُرُوثَلِيون فِيهِ مُجْنَدَلًا
 لَكِنَّمَا لَمْ تَحِبَّ آلِهَةُ الْوَرَى
 فَلَنْ مَرَحْتَ شَبِيبَتِي بِتَشْدُودِي
 أَدْعُ الطَّعَانِ وَشَأْنُهُ لِأُولِي الْقُوَى
 وَأَتَى الْإِثْنَيْنِ قَوْمَ مَنْسَتِسٍ
 وَيَلِيهِمْ بُهْمُ الْكَفَالِيِّينَ مَنْ
 فَإِذَا هُمَا لَمْ يَسْمَعَا لِحَبِّ الْوَحْيِ
 وَتَرَبَّصًا حَتَّى عَلَى الْأَعْدَا يَكْزُرُ
 فَسَمِعِي يُؤَنِّبُ عَاتِبًا بِمَلَامَةٍ
 «لَمْ يَا ابْنَ فَيْتِسِ وَنَيْتَ وَأَنْتَ يَا
 فَلِمَ التَّخَلَّفَ رِغْدَةً لِسَوَاكُمَا
 قَدْ كُنْتَ آمِلٌ فِي الصُّدُورِ أَرَاكُمَا
 أَفَلَمْ تَكُونَا وَالْوَلَائِمَ أَوْلِمْتَ
 فَهَنَّاكَ تَرْتِمَانِ بِاللَّحْمِ الشُّو
 وَهَنَّا يَسُرُّكُمَا بَأَنَّ كِتَابَنَا
 فَعَلَامَ عَنْ قَرَعِ الْقَنَا أَفْعِدْتَمَا
 فَأَجَاب أَوْذَسُ مُغْضَبًا: «أَفَلَا تَرَى

لَوْ كُنْتُ بَعْدُ بِشَدَّةِ الْأَعْضَاءِ
 أَلْقَيْتَ مُخْتَضِبًا بِبَحْرِ دِمَاءِ ٥١
 كُلَّ الْأَنْبَامِ بِجُمْلَةِ الْآلَاءِ
 فَلَقَدْ هَرِمْتَ وَخَفَضْتَ نُعْمَائِي
 وَأَوَّلُو الْقَوَى وَاعُونُ صَوْتِ نِدَائِي
 ذِي السَّبْقِ بِالْإِعْدَاءِ وَالْإِجْرَاءِ
 دَانُوا لِأَوْذَسٍ أَحْكَمِ الْحُكْمَاءِ
 وَالْجَاشِ زَعَزَعَ سَائِرَ الْأَنْحَاءِ
 سَوَاهِمَا بِسُورِيَةِ خَرْسَاءِ
 وَاسْتَنَكَرَ الْمَسْعَى بِالْإِسْتِبْطَاءِ: ٥٢
 قَلْبَ الدَّهَاءِ أَرَاكَ لَا تَتَقَدَّمُ ٥٣
 وَالْقَوْمِ خِرْصَانِ الْعَوَامِلِ قَوْمُوا
 بِسُرَّاكُمَا وَأَرَاكُمَ أَعْجَزْتُمُ ٥٤
 لِلصَّيْدِ أَوَّلَ مَنْ يَعَزُّ وَيَكْرَمُ
 يَّ وَضَافِيَاتِ الْكَأْسِ حِينَ تُقَدَّمُ
 عَشْرًا أَمَامَكُمْ تَكُورُ وَتَهْجُمُ
 وَمَوَاقِفُ الْأَعْدَاءِ ضَرَجَهَا الدَّمُ
 رَجْمًا عَلَيَّ حَكَمْتَ بِالْإِبْطَاءِ

فلسوف تنظرُ إن وددتِ قتالنا
 وترى أبا تلماخ في صدر العدى
 فأجابه متبسمًا مُذ خالَهُ
 «مهلاً أيا ابن ليرتَ لستُ مُنددًا
 وقد استوينَا بُغيَةً وشَعائرًا
 وتعدَّ عَمَّا اشتدَّ من عتبي عسى
 ولئن تسؤك من المقال صلابَةٌ
 واستأنف السَّيرَ السَّريعَ مطوفًا
 ألفاه مُتصِّبًا بظهر عِجاله
 وبقربه إstimالٌ فَلحاهما
 «أسفًا خليفَةُ تيديوس أراك من
 هلاً اقتفيتَ أباك في عزمٍ به
 لم ألقه لكن رَويتَ لمن رأى
 ولقد أتى ميكنيا وفلينك
 لحصارِ ثِيبةٍ يَجْمَعُ الأجناد في
 رَغبا بِنجدتهم فما بخلوا بها
 فأراهمُ للشُّومِ مِنْهُ إِشارةً
 نكصًا ولمَّا بُلِّغا آسُوفِسا
 فبدا لدى الإغريق أمرُ مُهمَّةٍ

بطلائع العُظماء والنبلاء
 وهنا أراك خبطت بالخيلاء
 قد غيظَ بالحُسنَى والاستِرْضاء: ٥٥
 فَلَقَدْ بَلَوْتُكَ حِكْمَةً تَسْتَعصم
 جُلَى فِدُونِكَ دُرُوءَةً تَسَنَّمُ
 بالرَّيحِ يذهب بائدًا يَتَخَرَّمُ
 فَلَسَوْفَ أَرْتُقُ ما فَتَقْتُ وَأَلِمْ: ٥٦
 لذيومِ ذِي العِزَّةِ الأَباءِ
 فِي عِزْلَةٍ عَن مَوْقفِ الإِبلاءِ
 لومًا لَذا الإِجحام والإِغضاءِ
 دُونَ الفَوارِسِ جازِعًا تَتَلَمَّمُ
 قَد كان قَبْلَ أُولي العِزائمِ يَعْزُمُ
 عَنه فِعالًا بالفِخارِ تُعْظَمُ
 ذُو البأسِ ضيقًا للجِحافلِ يَنْظُمُ
 حُلَفائِهِ وَالْجَيْشُ ثُمَّ عَرُومُ
 لَكِنَّ رَفَسَ عَلى الخِلافِ مُصَمِّمُ
 وَلوى العَزيمةَ عَن مَرامِ أَبرموا
 والخِيزانُ بَضَفَتِيهِ مُخَمِّمُ
 فَتَيديسُ خَيْرًا رَأوا وَتوسَّمُوا

بعثوه سار فَجَاءَ ابْنَا قَدْمَسٍ
 ما راعه أَنْ كَانَ مُتَفَرِّدًا لَدَى
 بَارَاهِمٍ وَاحْتَازَ أَعْظَمَ نُصْرَةٍ
 فَتَحَدَّمُوا غَيْظًا عَلَيْهِ وَأَكْمَنُوا
 وَبِرَأْسِهِمْ ذُو الْعِزْمِ لِيُفَوْقُنْطُسُ
 أَفْنَاهُمْ عَنْ بَكْرَةِ الْآبَاءِ لَا
 أَبْقَاهُ إِذْعَانًا لِأَرْبَابِ الْعُلَى
 مَا كَانَ مِثْلَ أَبِيهِ إِبَّانِ الْوَعَى
 فَوَعَى ذِيَوْمِيذُ الْمَلَامَةِ صَامِتًا
 لَكِنَّمَا إِسْتَيْنَلَ لَمْ يَرَعْهَا
 «هَلَّا صَدَقْتَ بِمَا نَطَقْتَ وَإِنَّا
 وَلَقَدْ وَثَقْنَا بِالْمَقَامَاتِ الْعُلَى
 أَبَاؤُنَا هَلَكُوا بِسُوءِ سَرِيرَةٍ
 حَقًّا ذِيَوْمِيذُ أَتَاهُ مَعْنَقًا
 مَا كُنْتَ ذَا جَهْلٍ لِأَخْنَقَ إِنْ مَضَى
 إِنْ نَالْنَا النَّصْرَ الْعَظِيمَ فَمَجْدُهُ
 وَإِذَا ذَلَّلْنَا بَانْكَسَارِ جُنُودِنَا
 فَلْنَعْتَصِمَ بِالْبَأْسِ وَلْنُقَدِّمَ إِذَا

فِي صَرْحِ إِيكَلٍ وَثَدَّ الْمُطْعَمِ
 قَوْمُ الْعِدَى وَبَدَأَ بِبَأْسٍ يُفْحَمُ
 وَلَهُ بَاتَيْنَا النَّصِيرَ الْأَعْظَمُ
 خَمْسِينَ أَخْمَسَ بِالْحَدِيدِ اسْتَلَامُوا
 وَمِیُونَ ذُو الطُّولِ الشَّدِيدِ الْأَيَّهْمُ
 نَاجٍ نَجَا إِلَّا مِیُونَ مِنْهُمْ
 فَلِذَلِكَ تِيذِيسُ وَهَذَا الْإِبْنُ
 وَأَبُوهُ لَمْ يَكْ مِثْلَهُ يَتَعَطَّمُ» ٥٧
 رَعِيًا لِحُرْمَةِ سَيِّدِ الرُّؤَسَاءِ
 وَأَجَابَ مُبْتَدِرًا بِلَا اسْتِحْيَاءٍ: ٥٨
 قَوْمٌ أَشَدُّ قُوًى مِنَ الْآبَاءِ
 شَمَّ النَّفُوسِ قَلِيلَةَ الْإِحْصَاءِ
 وَمِنَالِ زَفْسٍ صَادِقُ الْأَنْبَاءِ
 أَقْصَرَ فَمَا الْآبَاءُ كَالْأَبْنَاءِ» ٥٩
 «إِجْلِسْ حَلِيفَ الصَّمْتِ وَالْإِصْغَاءِ
 أَتَرِيدُ يَنْهَضُ هَمَّةَ الْعُمَدَاءِ
 هُوَ فَائِقُ الْأَوْصَافِ وَالْأَسْمَاءِ
 فَعَلَيْهِ أَعْظَمُ لَزْبَةِ دَهْمَاءِ» ٦٠

ثم أنبرى من فوق مركبة له
ولقد فتحنا ثيبه بفيالقٍ
فعلا لصلصلة السلاح بصدريه
تدفقت الأجناد أي تدفق
كثائر أمواج البحار تهيجها
يدفع بعضا فوق لجها
فتنقض أعلى الصخر عن ريد غنا

بهم أولياء الأمر يسمع أمرهم
تخالهم بكما لأول وهلة
وفوق الصدور الطامحات تألفت
ولكنما الأعداء قام ضجيجهم
إذا ما استدرت والكباش ثغت لها
فاوزاعهم من كل فج تألفوا
تشوقهم طورا أثينا إلى الوغى
ومن حوله هول ورعدة فتنة
نعم هي إن تشأ هزال وإن نمت

بمجمع القومين طافت مجدة
ولما تدانوا والنفوس سواخط
طعان تالقت في صدور تدججت

مجنبيين غواية الأهواء
للأرض بالإقدام والغلواء
صوت يهيج حوبة الحوباء ٦١
إلى الحرب تجري فيلقا إثر فيلق
من الريح أنواء بغير ترفق
إلى حيث فوق الجرف بالغف تلقى ٦٢
تغرغر عن قصف الهدير المصفق

وهم لا هوى نفس ولا صوت منطقي
وقد نظموا نظم الخير المحقق
صوارمهم والسمر أي تألق ٦٣
كسرب شياه بالخطائر فلق
لهن رنت تغغو بأنة مشفق ٦٤
بعدة لسن واختلاف تخلق
وطورا إله الحرب أدهى مشوق
شقيقته إلف الشقاق المفرق ٦٥
إلى فبة الرزقاء بالجو ترتقي ٦٦
ممزق جمع الشم كل ممزق
تحرقت الأجناد أي تحرق
وكر يُواري يلمقا فوق يلمق ٦٧

وزفرة مقتولٍ ونَعْرَةٌ قاتِلٍ
 يُلَاطِئُهُم دَاعِي الكِفاحِ مُشَدِّدًا
 بِسَيْلِينَ مِنْ شَمِّ الجِبَالِ تَحَدُّرًا
 رُغَابٌ طَغَا يَبْدُو بِهَائِلٍ مَنظَرٍ
 عَجَّ العِجَاجِ وَكَانَ أَوَّلُ طَاعِنٍ
 طَعَنَ ابْنَ ثَالِيسِيَّاسٍ إِيْخُوْفُوْلَسَا
 نَقَذَ السَّنَانُ بِفُودِهِ لِدِمَاجِهِ
 فِي سَاحَةِ الهِجَاءِ كَالطُّودِ ارْتَمَى
 وَاجْتَرَّهُ مِنْ أَحْمَصِيهِ لِحَلْوَةٍ
 مَا نَالَ إِلَّا خَيْبَةً وَبِدَارُهُ
 فَالْتَرَسَ مَالٌ بِمِيلِهِ عَنْ خَصْمِهِ
 فَانْقَضَ يَطْعُنُهُ بِأَسْمَرٍ عَاسِلٍ
 فَاشْتَدَّ مُعْتَرِكُ الْجِيُوشِ مُغِيرَةً
 فَسَطَا أَيَّاسٌ عَلَى ابْنِ أَنْثِيمِينَ
 نَسَبًا لِسُمُويْسٍ دُعِيَ سِمُويْسَسَا
 زَمَنًا أَتَى مِنْ طُودِ إِيْذَا أَهْلُهُ
 مَا نَالَ أَهْلُوهُ جَزَاءَ عَنَائِهِمْ
 بِقَنَا ابْنَ تِيْلَامُونٍ قُؤُوصَ عَيْشُهُ

بسيلِ دِمَاءٍ بِالأَسِنَّةِ مُهْرَقٍ ٦٨
 كَشُوبُوبٍ مَاءٍ بِالسَّحَابِ رَيِّقٍ
 يَفِيضُ بِسَفْحٍ عَنْ مَجَارِيهِ ضَيِّقٍ
 لِرَاعٍ لَدَى قَاصِي الشَّوَامِخِ مُحْدِقٍ
 أَنْطَلِيخٌ بِطَلَائِعِ الطُّرُودِ ٦٩
 فِي خُوذَةٍ سُبُكْتُ لَصَدِّ صِعَادِ ٧٠
 فَانْعَضَّ طَرْفَاهُ بِغَيْرِ رَشَادِ ٧١
 فَأَغْدَى الْفَيْنُورِ الْإِسَادِ ٧٢
 يَبْغِي اسْتِلَابَ سِلَاحِهِ الْوَقَادِ
 فِي الْحَيْنِ عَادَ عَلَيْهِ شَرٌّ مَعَادِ
 وَهَنَّاكَ آغْيُورَ بِالْمِرْصَادِ
 فَلَوَاهُ مَطْرُوحًا كَلِيلَ فُؤَادِ
 كَالذُّبِ أَفْرَادٌ عَلَى أَفْرَادِ
 «يَفْعُ تَرَعَرَعُ فَاَنْبَرِي لِطِرَادِ
 مَذَازٍ فِي شَاطِيهِ بِالْمِيلَادِ
 لِيُرُوا قِطَاعَهُمْ بِذَاكَ الْوَادِ» ٧٣
 وَقَضَى الْحَيَاةَ قَصِيرَةً الْآمَادِ
 لِمَا عَلَا بِالْقَوْمِ وَقَعَ جِلَادِ

خرق السنان لمنكبيه صدره
ملقى حكى صفصافهً ممشوقةً
ريت على عذب المياه فُقْطَعَتْ
منها يروم عجال مَرْكَبَةٌ زَهَتْ
فرمى ابن فريام الفتى أنطيفسُ
فَبَيَّتْ وَلَكِنْ أُنْفَذَتْ فِي لُوقِسِ
قد كان يحتمل القتل لسلبه
سقط القتلُ إلى الحضيض ولوقسُ
فانقض بالزرد المولق أودسُ
قصد الطلائع دانيًا متشوقًا
فتبعثروا لكنها سُلِكي مَضَتْ
نغلٌ لِفريامٍ أتى من آبدس
وَحَضَّتْ بِصُدْغِيهِ فَرَّاحٌ مُجَنَّدَلًا
نَكَّصَ الطَّرَاوِدَ لِلوَرَاءِ تَقْهَقْرًا
وتقدّم الإغريق بين هلاهلٍ
من فوق فرغامٍ أفلونٌ رأى
«يا قوم إليون الكرام تقدّموا
لا تستذلّوا فالعدى ليسوا من الـ
ليكلٍ وقع نصالكم وقنيكم

كدم الحضيض مذبل الأوراد
والرأس غَضٌّ يانع الأفناد
آصالها بقواطع الحدّاد
فتجفُّ مُلْقَاةً على الأجْدَادِ ٧٤
بقناته للقاتل المرتداد ٧٥
ذي البأس صاحب أودس الشّدّادِ
فمضت بحالبه كوري زنادِ
وَرَدَ الرَّدَى مِنْ جَمَلَةِ الوُرَادِ
لطلاب ثأر أليفه وذِيَادِ
وأطار صعْدتهُ على الأجنادِ
لذميكونٍ بالْحُتُوفِ تُنَادِي ٧٦
يجري إليه على سراع جِيَادِ
بصلاصِلٍ تَحْتَ السِّلَاحِ شَدَادِ
وكذاك هَكْطُرُ عُمْدَةِ الأمجادِ
وسعوا بجمع مشَتَّتِ الأجسادِ
فدعاهم لتصلبٍ وعنادِ
فَلَقَدْ دَعَا دَاعِي الرَّدَى البَدَادِ
فُؤُلَاذِ والجُلُودِ يَوْمَ جِلَادِ
وأخيلُ ليس بجُمْلَةِ الأعدادِ

ما زال بين الفلك مُحْتَدَمًا على
 وبجحفل الإغريق آثينا انبرت
 راحت تَهَيِّجُ نُفُوسَهُمْ وَتُثِيرُهَا
 وإذا بِصَخْرٍ مِنْ يَدَيِ فِيرُؤُسٍ
 فأصاب رَجُلَ دِيُؤُوسٍ بِشَظِيَّةٍ
 للأرض أَلْقَى يَسْتَعِيثُ بِقَوْمِهِ
 أحشاه بالرمح شق فمزقت
 فَعَدَا تَوَاسَ عَلَى الْعَدُو بِطَعْنَةٍ
 ولجت بأعلى ثديه في صدره
 فدنا وأخرجها وسلَّ حسامه
 نال المراد بسلب نور حياته
 فذووه من وسموا بعقص غدائرٍ
 فَشَاطَهُ وَثَبَّأَتْهُ مَا أَغْنِيَا
 فكذا ثوى النَّدَّانَ مَوْلَى إيفيا
 وَعَلَيْهَا تَنَهَّالَ مِنْ قَوْمَيْهِمَا
 لو كان بين صفوفهم راء يرى
 وَوَقَّتَهُ فَالَاسَ الْحَتُوفَ وَقَدْ مَضَى
 لرأى الحراب نوافذًا وخوارقًا

ما ناله من شِدَّةِ الْأَضْدَادِ ٧٧
 بين الصفوف بعزمها الْمُعْتَادِ ٧٨
 وَتَحَثُّ ذَا الْإِمْسَاكِ وَالتَّزْدَادِ
 مولى الشَّرَاقَةِ بِالْأَغَارِقِ غَادِي
 سحقت فَمَدَّ يَدَيْهِ لَا سَتِيْجَادِ
 لَكِنَّ فِيرُؤُسَ تَقَدَّمَ عَادِي
 وعلى الرمال بدت لدى الْأُنْدَادِ
 يبغى انتقامًا واري الْأَحْقَادِ
 وقفت على رئةٍ بنصلٍ بادي
 وبجوفه واره غير مِمَادِ ٧٩
 وبكسب سلبٍ لم يفز بمراد
 طَلَبُوهُ مِنْدَفِعِينَ لِلْأُنْدَادِ
 أن عاد منشئًا بغير تهادي
 وثراقَةٍ قَتْلًا بِذَاكَ النَّادِي
 أجساد قتلى باشتباك أعادي
 وَيَجُولُ بَيْنَ مَوَاقِفِ الْأَشْهَادِ
 متوشحًا من حفظها بِبِجَادِ
 ورأى السهام غَوَادِيًا وَصَوَادِي

وَالْهَوْلُ شُدَّدَ وَالتَّفَنُّنُ مُحْكَمٌ لَا تَعْتَرِيهِ لَوْمَةٌ النَّقَّادِ
وَكَسَا أَدِيمُ الْأَرْضِ تِيَارَ الدِّمَا وَعَدِيدُ قَتْلَاهُمْ بِلَا تَعْدَادٍ ٨٠

هوامش

(١) هيبيّا هذه إلهة الصبا، وهي ابنة زفس وهيرا كانت ساقية الآلهة تدير عليهم مدامة لا كمدامة البشر بل هي راحٌ عبرنا عنها بالسلاف يخلد شاربها فلا يقوى عليه الموت، ولما أقام زفس غيميذ ساقياً للآلهة كما سيأتي ظلت في خدمة زفس وأزوجها من هرقل البطل عندما أدخله في مصاف الآلهة، ومغزى هذه الخرافة أن القوة في الغالب رفيقة الصبا، وإن إبراز ربّة الصبا ساقية في مجتمع الأرباب يشير إلى أن أبناء العلى يتمتعون بشباب أبدي وسعادة لا تزول.

(٢) يقول تهكمًا هيرا الأرعنة نسبة إلى أرغوس حيث كان الناس يعظمونها ويجلونها، وينازعون أهالي ساموس دعوى ولادتها عندهم، ولقد أقام لها أهل أرغوس تمثالاً قال بوزانياس في وصفه أنه عظيم الحجم صنع جميعه من الذهب والعاج يمثلها وعلى رأسها أكلیل عليه البهجات والساعات، ويأحدي يديها رمانة وبالأخرى صولجان على طرفه طائر طيطوي.

(٣) الضمير في «تَسَعَّرَتَا» و«دَتَّتَا» يعود إلى أثينا وهيرا، ولا غرو أن يغيطهما استتباب الأمن وعقد الصلح الذي تظاهر زفس بالميل إليه في آخر كلامه؛ لأن ذلك يمنعهما من الإيقاع بالطرواد وتدمير بلدتهم،

أما زفس وهو باطنًا نصير الطرواد فلم يكن يود أن يعبثوا بالعهد بل كان يؤثر أن يأذن بقتل فاریس على أن تدمر بلاده، ومغزى هذا الاجتماع أن القوة العلوية لا تحب الشر، ولكنها تأذن به إذا تصَلَّب قلب الشرير على إتيانه.

(٤) إن في صمت أثينا وكظمها الغيظ، وانبراء هيرا وتصديها لزفس لحكمة من حكم الشاعر، فإن أثينا هي ابنة زفس فليس لها من الدالة عليه ما لهيرا زوجته، وزد على ذلك أنها ربّة الحكمة والرصانة، فهي خليقة بالصبر جديرة بالتروي، وخصوصًا أنها تعلم أن بجانبها امرأة جريئة الجنان، ذرية اللسان تكفيها مئونة العناء، وهنا لنا مثال آخر من كلام هيرا على ما للمرأة من السلطة على زوجها مهما سمت منزلته، وعلت كلمته.



شكل ١: «مجلس الآلهة» في صدره زفس على عرشه ويده صولجان المُلْك، وإلى جانبه هيرا زوجته.

(٥) يشير زفس إلى أنه إذا أتاها بغيتها ومكّنها من إيون، فلا بد من أن ينتقم منها يوماً ويوقع بصنائعها ومحبيها كما ألجأته إلى الإيقاع بخصائصه الطرود، أي: إن المرأة إذا أخرجت زوجها على إنفاذ مآربها فلا ينفذها عن طيبة خاطر بل يتربص إلى إحقاق حقه وإنقاذ رغائبه عند سنوح الفرس.

(٦) الذمام هنا بمعنى الحق.

(٧) ينبئك مفاد هذا البيت بكيد المرأة وحقدتها إذا اشتد بها الغيظ إذ تتخلى عن ألف صديق للإيقاع بعدو واحد، فقد رضيت هيرا بتدمير كل المدن التي وقفت نفسها على عبادتها توصلًا إلى تدمير بلدة واحدة لم تكن راضية عنها.

(٨) قرون أو قرونس هو أبو زفس كما تقدم وأبو جميع الآلهة، وهو زحل العرب، وساترئس اللاتين والإفرنج.

(٩) الزمام هنا الحرمة.

(١٠) لم تكتف هيرا باستئذان زفس بتهيئة الغلبة للإغريق بل رامت أن يحيق بالطرود خراب الديار وشرّ العار، فيكونون هم المنكوبين بالجهاد والناكثين للعهاد.

(١١) قد انتقد على هوميروس قوله في هذا الموضع: إن زفس أمر أثينا أن تجعل جيش الطرود يحنث بما كان قد آلى به، وهذا الانتقاد

قديم ذكره أفلاطون وسقراط وكثيرون بعدهما إذ لا يخلق بأبي الآلهة أن يأمر بنكث العهد، وليس من قصدنا أن نتشيع لشاعرنا، ونُدَّعي له الكمال وسبحان الكامل، ولكنه عيبٌ يشفع فيه مجرى الحوادث والقدر المحتوم بتدمير إليون إذ لو برَّ الطرواد بعهدتهم لانتهت الحرب وسلمت إليون وكذب القدر، وهو محال في اعتقادهم، فلهذا تصرف الشاعر هذا التصرف؛ إنفاذاً لأحكام القضاء، ثم أننا نعلم أن المعتقدات الحية تحكم بالحرية المطلقة من قِبَل الخالق للمخلوق، فيأذن له بارتكاب الأثم لا لأنه يسر بارتكبه ولكن لأن المجرم الجريمة سبق فصمم بنفسه على اجترامها، وهذا الإذن يصدر من الخالق دفعاً لتقييد الأعمال، وإحقاقاً لمبرة ذوي المبرات إذ لا يأتونها حينئذٍ إجباراً بل طوعاً واختياراً، ولا بد أن يفترض زفس هنا عالماً بالغيب، فأذن بفعلة الطرواد؛ لأنهم كانوا مزمرعين أن يفتعلوها فعملهم سابق لعلمه وعلمه لا يمنع عملهم، ذلك هو قول علماء الكلام واللاهوت في الشر البادي من الإنسان، فهو معلوم بسابق علم الهك، وصادر بإذنه وليس بأمره.

(١٢) إيسيفوس جدول صغير في بلاد طروادة لا يجري إلا بضعة أميال ثم ينصب في بحر مرمرا.

(١٣) قال فلوترخوس: «إن هوميروس إذا أراد أن تستخدم الآلهة بشراً لإنقاذ رغائبها جعلها تتخذ من البشر من يصلح لإنفاذ تلك الرغبة، فإن أثينا إذا قصدت إقناع الإغريق بأمر من الأمور وجهت به أوديس

لشهرته بالحكمة والدهاء، وإذا طلبت الفتك بالطرواد عمدت إلى بطل كذيوميد». وقد أكثر الشراح من الأسباب التي حملت أثينا على انتقاء فنداروس دون غيره للحمل على منيلاوس، ومحصلها أن أثينا لم تستحث جندياً من جنود طروادة نفسها؛ لأنهم كانوا يكرهون باريس كما مر بنا في النشيد السابق فلا يقدمون لأجله على أمر يوليهم العار فوق اختيارها من ثم من بين حلفاء الطرواد على فنداروس؛ لأنه كان زعيم فئة مشهورة بالخداع والخيانة، وهو رجل طماع بخيل يتفانى في طلب المال، وهو يعترف بنفسه في النشيد الخامس أنه إنما أتى راجلاً خوفاً على خيله واستثقلاً من نفقة علفها أثناء الحصار.

(١٤) إذا رأيت في شعر هوميروس اسم إله أو إلهة مضافاً إلى اسم بلد أو بلاد كما قال هنا: «أفلون ليقيا» فاعلم أن السبب في ذلك أن تلك البلاد قائمة بعبادة خاصة لذلك الإله أو يكون له فيها معبدٌ وما أشبه.

(١٥) الأحمال جمع حمل بمعنى الكيش.

(١٦) الجفير الكنانة، كثيراً ما نرى هوميروس يذكر مضارب الحسام، ومرامي السهام بكلماتٍ موجزة، وقد نراه كما في هذا الموضع يسهب في رمية واحدة، فيذكر القوس والمادة التي صنعت منها وطولها وصانعها وزخرفها، ثم مداها وتحوط صاحب حاملها، ثم سهمها ووترها وإطلاق السهم وحالة القوس بعد ذلك وذهاب النبلة بالفضاء الفسيح،

وما هذا الإسهاب وذاك الإيجاز إلا مراعاة للمقام، فسهم فننداروس هنا يتأتى عنه تلاحم جيشين عرمرمين والذوق الشعري يأبى إلا أن يكون له مزية تميزه عن سائر النبال فتفنن الشاعر بوصفه على هذا الأسلوب البديع؛ تفكّهة للسامع وإرساخًا للذكر في الفكر لئلا يمر عليه مرًّا فننساه.

(١٧) يتأنق الشاعر بذكر مادة القوس تأنق أوس بن حجر بقوله:
ومبضوعة من راس فرع شظية بطود تراه بالسحاب مكللا

ويترنم بمدح صانعها ترنم ذي الإصبع حرثان العدواني بمدح
صانع نباله:

قَوْمَ أَفْوَاقٍ وَتَرَصَّهَا
أُنْبُلَ عَدُونِ كُلِّهَا صَنَعَا
ثُمَّ كَسَاهَا أَحْمَرَ أَسْوَدَ فِيهِ
سَنَانًا وَكَانَ الثَّلَاثُ وَالتَّبَعَا

(١٨) المقذذ المريش من السهام.

(١٩) الفوق فرض القوس يوضع عليه السهم.

(٢٠) المريش السهم: ذو الريش والسرية الوتر.

(٢١) النيزك نصل السهم معرب نيزه بالفارسية، ومعناه السهم، لعل في هذا الْمُحَمَّس شيئًا من المشاكلة اللفظية، قال الشَّمَخ في وصف القوس:

إذا أنبض الرامون عنها ترنمت ترنم ثكلى أوجعتها الجنائز

وقال الرقاشي في وصف النبال:

مجلوزة الأكعب في استواء	سالمة من أبْن السيساء
فلم تزل مساحل البراء	تأخذ من طرائق اللحاء
حتى بدت كالحية الصفراء	ترنو إلى الطائر في السماء
بمقلعة سريعة الأقدام	ليست بكحلاء ولا زرقاء

(٢٢) الحمائل نجاد السلاح أي: إن السهم حل فيها ولم يحلَّ في مقتل.

(٢٣) شبه الدم المنفجر من جرح منيلاوس والمنصب على ساقه ورجليه بالبرفير الأحمر المنصب على العاج الأبيض، وهو تشبيه لطيف استطرد منه إلى إفادة تاريخية بقوله: إن غيد قريبا وإيمونة كن يحسنَّ صنع العاج بالبرفير، ويصطنعن من ذلك حليًّا لحياد الأمراء والملوك والفرسان المبرزين، وصناعة الصبغ بالبرفير أو الأرجوان تناولها اليونان من الفينيقيين.

(٢٤) لا أخرج من موقف أغاممنون في هذا المكان ولا كلام أوقع بالنفس من كلامه، فإنه القائد الباسل والزعيم الأكبر والأخ الشفيق الواقف إلى جانب حليف من حلفائه، وبطل طامع بافتداء الجيش بنفسه وأخ حبيب لديه، وهو جريح لا يعلم مآل جرحه، فكان من البديهي أن يستشيط غيظًا، ويدوب حزنًا ويتفطر فؤاده شفقةً وحنانًا، فأمسك بيد أخيه وكلمه الكلام المنبعث من عاطفة الرئيس الأنيس، والشقيق الشفيق

المضطرب البال الهائج البلبال، وكأنه ألقى على نفسه تبعة الإيقاع بأخيه، فأخذه الندم على إبرام ذلك الوفاق ثم رأى له منفذاً بالتأسي فلجأ إلى الورع وإخلاص الاعتقاد، فعلم الأمل أنه لا بد من أن ينتقم له زفس من أعدائه الذين عبثوا بحرمة إيمانهم وعهودهم، وكأن ذلك لم يرو غليله فبعد أن أفرغ جعبة الأمانى انثنى إلى تأمل ذلك الجرح، فخشي أن يودي بأخيه فيأس الإغريق، ويقفلون راجعين إلى أوطانهم فتشمت الأعداء، ويخيب الآمال وينال أغاممنون وذويه عاراً وبيل لا يحسوه كرور الأجيال، فتمنى عندئذ الموت بل أشر من الموت ذلك أن يمحي اسمه ورسمه، فمهما أجهد شاعر نفسه لينطق أحاً بمثل هذا النطق، فهيئات أن يبلغ المرام، وهوميروس نفسه لو تكلف أن يجري غير المجرى الطبيعي لما أتى بهذه البلاغة.

(٢٥) أي: الأيمان التي توثقوا بها، والخمر التي أراقوها، والكباش التي ضحوا بها إثباتاً لأيمانهم.

(٢٦) يذكر أغاممنون تواتق الإغريق والطرواد، ويتهدد الأعداء بعقاب زفس بما يشبه قول زهير بن أبي سلمى:

ألا أبلغ الأحلاف عني رسالاً وذيان هل أقسمتم كل مقسم
 فلا تكتمن الله ما في نفوسكم ليخفى ومهما يكتن الله يعلم
 يؤخر فيوضع في كتاب فيدخر ليوم حساب أو يعجل فينقم

ومن هذا القبيل قول الحارث بن حلزة الإشكري يذكر حلف بكر
وتغلب لما جمعهما عمرو بن هند بذي المجاز، وأصلح بينهما وأخذ
منهما الوثائق والرهون:

فاتركوا الطبخ والتعاشي وأما تتعاشوا ففي التعاشي الداء
واذكروا حلف ذي المجاز وما قد م فيه المهود والكفلاء
حذر الجور والتعدي وهل ين قرض ما في المهارق الأهواء
واعلموا أننا وإياكم في ما اشترطنا يوم اختلفنا سواء

(٢٧) كان زفس إذا أراد بقوم سوءًا رج مجنه إنذارًا بالويل.

(٢٨) إنه كما دل كلام أغاممنون على احتدامه وحزنه ورأفته يدل
كلام منيلاوس على عزة الجندي الباسل والأخ المدرك عواطف أخيه
فكان أول كلامه أنه حذر أخاه من التمادي بالحزن لئلا يضطرب الجيش
ثم سكن روعه بقوله أن جرحه لم يكن قتالًا.

(٢٩) تلشييوس أحد سفيري أغاممنون كما تقدم.

(٣٠) مخاوون بن أسقليب بطل من أبطال اليونان واحد طبييهم
المشهورين والآخر أوريفيل.

(٣١) النابل راми النيل.

(٣٢) المراد بفرع أسقليب ماخوون الطبيب، كان أسقليب هذا
(وقد يقال أسقليبيوس وأسكولابيوس) إله الطب تلقى العلم عن أستاذه

خيرون وفاقه فيه، كانوا يمثلونه بهيئات مختلفة وفيها كلها رسم أفعوان كبير، وقد اختلفوا في المراد من الأفعوان، فقليل هو للدلالة على تجدد الصحة كما يتجدد جلد الحية عامًا بعد عام، وقيل بل للدلالة على الحكمة التي يجب أن يتصف بها الأطباء اقتداء بالحية المتصفة بالتيقظ والدهاء، وذهب بلينيوس إلى أن الداعي إلى ذلك إنما كان كثرة اعتمادهم على الأدوية التي كانت تؤخذ من أجزاء جسمها.

(٣٣) كان خيرون من أبناء قرونس (زحل) فمسخ حصانًا واعتزل إلى الغابات والجبال، وتعلم فيها علم النجوم وخصائص العقاقير، وكان يأوي إلى كهف في جبل فليون، ومن ثم صار هذا الكهف أشهر مدرسة في بلاد اليونان، ترى من الأبيات الأخيرة أن علم الجراحة لم يكن عند اليونان في حد ذاته بل كان بالغًا مبلغًا عظيمًا، فسبر الجرح وامتصاص الدم منه، وذر البلاسم عليه كلها أمور تشاهد حتى في أيامنا إلا امتصاص الدم بالفم الذي كان أطباء العباسيين يعالجون به.

(٣٤) لا يستغربنَّ القارئ بعد أن رأى ما رآه من عبث الطرود بعهدتهم، وإطلاق فنداروس سهمه على منيلا أن يراهم زاحفين زحفة واحدة على الإغريق ليأخذوهم على غرة، وهم لاهون بجريحهم؛ لأنهم رأوا في ذلك السهم المنطلق من غير يد فارس إشارةً إلى أن الحرب لم تقف عند ذلك الحد.

(٣٥) إن في هذا الانتقال من الخبر إلى الإنشاء أو الخطاب تنبيهًا للمطالع وتجديدًا لرواء الشعر، وقد أكثر الشراح من تخريجه وتوجيهه والتكهن بما يعود عليه ضمير المخاطب في: «رأيت» و«لا نخاله» إلا انتقالًا بيانيًا تحول فيه الشاعر من مشهد إلى آخر على هذا الأسلوب أو تجريدًا بديعيًا انتزع من نفسه فيه مخاطبًا يخاطبه.

(٣٦) أوريميزون أو أفريميزون حوذي أغاممنون، والضابحات اللاهثات.

(٣٧) يمثل لنا هوميروس في ما يلي القائد المتيقظ الذي يخوض الصفوف ويتفقد بنفسه مواقف جنده؛ ليستنهض العزائم ويعنف المتشبطين عن القتال، ويتذرع بالحكمة لتأليف قلوب الكتائب مخاطبًا كل زعيم بما وافق مقامه وموقفه، ومهيئًا سبل الهجوم والدفاع، وقد أبدى الشاعر من التفنن وحسن التصرف ما يجعل القارئ يأتي على كل مقالته ولا يملها وإن طالت ويرى في كل سطر منها أمرًا جديدًا ينبه خاطره ويوقد فكرته.

(٣٨) إن من أعظم آفات الشعر العربي جري الشعراء على التزام قافية واحدة في طوال قصائدهم إلا ما كان منها من بحر الرجز؛ ولهذا لا نرى شعراء العرب مع كثرة أشعارهم وجزالة مبانيها، ورقة معانيها قد زادوا في منظوماتهم التاريخية على بضعة عشر بيتًا في منظومة واحدة، وأحسن ما عندنا من هذا القبيل المعلقات السبع ومجموع أبياتها كلها لا يربو على نشيد من أناشيد هوميروس مع أنهم لو نَوَّعوا قوافيهم لكان لهم في

لغتهم بحر للشعر لا يدرك قراره، فالقصيدة إذا طالت على قافية واحدة إما أن تضيق قوافيها على الناظم، فيقتضبها، وأما أن تطول على القارئ فيملها، وإن كانت كلها غرراً غراء خذ مثلاً لذلك تائية ابن الفارض الكبرى فإنها على ما جمعت من غرابة التفنن والجزالة والرقّة لا نكاد نرى لها قارئاً، مع أن حفاظ سائر منظوماته يعدون بالألوف؛ ولهذا مع التزامنا أن لا نكرر قافية في قصيدة واحدة بل في الأناشيد كلها قد تصرفنا في بعض المواضع، واتخذنا طرقاً جديدة نخالها تفي بالمقصود للنظم التاريخي سنشير إليها في مواضعها، وأما في هذا الموضع وأمثاله فقد التزمنا قافية لكل حديث، وفي ذلك ما فيه من التخفيف على مسمع القارئ والتلطيف من نغمة القافية الواحدة، فجعلنا هنا الخبر على قافية الهمزة كما رأيت في الأبيات السابقة، وكما ستري في سياق الحديث وخطاب أغاممنون على قافية الميم.

(٣٩) قال عنتره:

يا بني عامرٍ ستلقون برقاً من حسامي يجري الدماء سجاما
وتصيح النساء من خيفة السب سي وتبكي على الصغار يتامى

(٤٠) اللأواء الشديدة.

(٤١) الخرنوص والخنوص ولد الخنزير، أغفل كثيرون من نقلة الإفرنج هذا التشبيه لثقل لفظة الخنزير في لغتهم كثقله في لغتنا، على

أننا لما كنا آلىنا على نفسنا أن لا نغفل شيئاً في التعريب أثبتناه مع اجتناب اللفظ الهجين، ولا ريب أن القدماء كانوا يكثرون من تشبيه الرجل الشديد بخنزير البر، قال في أساس البلاغة: «الرت الجريء من ذكور الخنازير ثم استعمل لرئيس القوم ومقدمهم، وقالوا: هو رت من الرتوت.

(٤٢) مريون حوذى أيدومين ورفيقه، كان من جملة خطّاب هيلانة قبل الحرب ولما توثقوا جميعاً على أن يذودوا عن البعل الذي تختاره لنفسها، ووقع اختيارها على منيلاوس برّ مريون بقسمه، وحمل في من حمل على الطرواد وكان رامحاً جليلاً، ونابلاً نبياً.

(٤٣) كانت العادة في الولائم ومعاواة الشراب أن تتساوى القسمة بين المدعويين، فلا يتناول أحدهم ما يربو على حصة غيره إلا إذا امتاز بمأثرة تذكر، وفي كلام أغاممنون هنا إشارة إلى أن أيدومين كان من رؤساء الأقيال، ومغاوير الأبطال.

(٤٤) جعل أيدومين سابق إيمائه برأسه لأغاممنون بمقام الحلق والتواثق، والإيماء بالرأس واليد والحاجب من أقدم اصطلاحات البشر للدلالة على أغراض مقصودة، وهي سابقة للنطق ومرافقة للصوت، وأمثال ذلك كثيرة في الشعر العربي. قال القناني:
فقلنا السلام فاتّقت من أميرها وما كان إلا ومؤها بالحواجب

وقال آخر:

ترى الناس ما سرنا يسيرون خلفنا وإن نحن اوبأنا إلى الناس وقفوا

وقال غيره:

أشارت بطرف العين خيفة أهلها إشارة محزونٍ ولم تتكلم
فأيقنت أن الطرف قد قال مرحبًا وأهلًا وسهلاً بالحبيب المقيم

(٤٥) قارية أي: سوداء كالقار.

(٤٦) يرى القارئ أن هوميروس لا يتجاوز في شيء صفة شخص من موصوفيه فلما مر أغاممنون على أيدومين خاطبه، فأجاب وسمع جوابه فأيدومين كهل وخطه الشيب، وملك ترفع عن العيب فسمع الخطاب وأدى الجواب، وأما الأياسان فهما بطلان فتأكان وفعلان لا قوالان فاجتزأ أغاممنون بما قال لهما، وانثنى غير منتظر جوابًا.

(٤٧) إن في ترتيب جيش نسطور على هذا النسق، وفي كلامه لهم ما يدلنا على إلمام هوميروس بمقتضيات النظام العسكري، فلا أصلح للقتال من أن تكون الخيل طليعة والمشاة ساقية، والقلب من ضعفاء القوم حتى لا يهولهم المكر ولا يسهل عليهم المفر، فانتظام الجند في الحرب بلغ منذ القدم مبلغًا عظيمًا ولم يرو هوميروس تنسيق هذا النظام إلا عن نسطور؛ لأنه أحكم الزعماء وأسنهم وهي حكمة من حكمه، وقد روي عن أنيبال القرطجني أنه جرى هذا المجرى في واقعة

زاما فأودع قلب جيشه كل عاجز جبان، ولا عجب أن يبلغ نظام الجند هذا الشأو منذ القدم والحرب كانت شاغل الأمم، ومدرجة المجد والفخر، ولنا من تاريخ العرب لأوائل الإسلام آثار جمة تشهد بمعرفتهم بفنون الحرب في زمن الجاهلية حتى لقد تراهم يدعون الفيلق التام بالخميس دلالة على أنه مؤلف من خمسة أقسام، وهي: الطليعة، والساقة والقلب، والميمنة، والميسرة.

(٤٨) إذا ورد ذكر الخيل والفرسان في شعر هوميروس، فليعلم القارئ أنها المركبات وركابها؛ لأن حرب الفرسان على ظهور الخيل لم تكن معروفة عند اليونان أيام حصار طروادة.

(٤٩) أي: أن من كبت به خيله وسقط من مركبته ولجأ إلى مركبة غيره، فلا يعترضه بسوقها بل يقاتل برمحه دون التعرض لأمر آخر، وقد اختلف النقلة كثيراً بترجمة هذه العبارة، فاخترنا هذا المعنى لأنه أقرب إلى الصواب على ما يلوح لنا.

(٥٠) قوله منحتك دعاء له، وكذلك قوله: منحتهم.

(٥١) إذا شاخ المرء وعجز عن الكفاح وكلت ذراعه، فإنما يتأسى بما سلف له من البطش في غضاضة الشباب، وهكذا ذكر نسطور هنا أورثليون الجبار الذي قتله بصباه في حرب الأرقادين والفيليين.

(٥٢) ينجلي دهاء أوديس في كل زمان حتى في الأزمات الشداد، فإنه وإن كان بطلاً مقدماً لم ير من الصواب أن يكون أول من كثر على العدو بل تربص هنيهةً وتبصر.

(٥٣) ابن فتيوس هو منستس، وأشار بقلب الدهاء إلى أوديس.

(٥٤) أراكم بصيغة الجمع أي: أنتما وسراكما.

(٥٥) لم يكن أغاممنون ليعنف أوديس تعنيفه لغيره لما كان يعلم من بأسه وسداد رأيه بل أنكر عليه بادئ بدء تقاعده، فلما استجلى حقيقة الأمر ورأى من أوديس الوجد عليه جعل يسترضيه ويعتذر إليه شأن القائد الحكيم الذي إذا أساء الظن انتهر، وإن عرف الحق اعتذر.

(٥٦) انشى أغاممنون عن أوديس، وهو يقول قول طريح بن إسماعيل الثقفي:

أبغى وجوه مخارجي من تهمةٍ	زمت علي وسد منها المطلعُ
جزعاً لمعتبة الوليد ولم أكن	من قبل ذلك في الحوادث أجزعُ
ولانزعن عن الذي لم تهوهُ	إن كان لي ورأيت ذلك منزعُ
إن كنت في ذنب عتبت فإنني	عما كرهت لنانع متوزعُ

(٥٧) ما أكثر ما قال العرب قول أغاممنون بمدح الأباء وذم الأبناء كقولهم:

يفاخرون بأجداد لهم سلفوا نعم الجدود ولكن بئس من خلفوا

حتىّ لربما رأيت شاعرهم يوجه الملامة بنفسه إلى نفسه، وقومه
كمن بن أوس المزني القائل:

ورثنا المجد عن آباء صدق أسأنا في ديارهم الصنيعا
إذا الحسب الرفيع تواكلته بُناةُ السوء أوشك أن يضيعا

قد عيب على الشاعر إنطاق أغاممنون بهذا الخطاب الطويل في
هذا الموقف الضيق، ولكن مطالع هوميروس يعلم أنهم في جاهليتهم
كانوا أثناء الحروب يتذكرون كل حين سالف وقائعهم، ويعظمون الأبناء
بأعمال الآباء والعكس بالعكس، هذا فضلاً عما في هذا الكلام من
الحث والاستنهاض وإثبات أثر تاريخي قلما يعثر عليه في مكان آخر،
وعندي أنه لو عيب الشاعر على توجيه الملام لذيوميذ لكان أولى؛ لأن
ذيوميذ أبرز من البسالة كل أيام تلك الحرب ما تعجز عنه فحول
الأبطال، فلم يكن ممن يلام لتقاعس أو إهمال على أنه يظهر أن الشاعر
أتى بهذا اللوم عن قصد زيادةً في إجلال أغاممنون، وإعظام سداده إذ
كان شعاره المساواة ونبذ المحاباة.

(٥٨) إن في صمت ذيوميذ واستطالة إستينيل ما يدل على أن
ذا القدر يحترم ذا القدر، وإن الكلام البذي لا يصدر من الصدر النبيل،
ففعّل ذيوميذ يغنيه عن قوله، وأما إستينيل فلم يرع حرمة رئيسه؛ لأنه لم
يكن من ذوي الحرم المرعية، وتجاوز أغاممنون عن جوابه دليل على قلة
عبه به فلم يعامله كما عامل أوديس قبل قليل.

(٥٩) لا أعرف شاعراً أو فارساً من شعراء العرب وفرسانهم مدح نفسه وهجا سلفاءه كاستينيل اللهم إلا أن يكون الحطيئة، ولكن الحطيئة كان ذميماً دميماً هجاءً من فطرته لم ينج من مثالبه قريب ولا بعيد، فهجا أباه وأمه وزوجته وبنيه، ومات وهو يهجو نفسه ويقول:

لا أحد الأم من حُطِيَّه هجا البنين وهجا المريه

وأما الفخار بمدح النفس فكثير في الشعر العربي كقول أبي الطَّيِّب:

لا بقومي شرفت بل شرفوا بي وبجدِّي فخرت لا بجدودي

ولكنك ترى شاعرنا العربي إذا قال قولاً كهذا يستدركه بما ينفي عنه مظنة أزدراء الآباء والأجداد كقوله بعد هذا البيت:

وبهم فخر كل من نطق الضا د وعود الجاني وغوث الطريد

(٦٠) ما أحسن ما قال جحدر بن معاوية العكلي بما يقارب معنى هذه الأبيات الثلاثة:

ولا تشتم المولى تتبع إذاته فإنك إن تفعل تسفه وتجهل

ولا تخذل المولى لسوء بلائه متى تأكل الأعداء مولاك تؤكل

ومثله قول عبيد بن أيوب العتبي:

ولا تخذل المولى إذا ما ملمة ألمت ونازل في الوغى من ينازله

وأحسن منه قول الفضل بن عبد الرحمن العباسي:
وعطفاً على المولى وإن كان بينه وبينك في بعض الأمور معاتبُ
ومن ذا الذي ترجو الأبعد نفعهُ إذا هو لم تسلم عليه الأقاربُ

(٦١) الحوبة الهمة والحبواء النفس، لا أدل على كبر ذيوميد
وعزّة نفسه من صمته عن جواب أغاممنون وانثنائه بالتعنيف على زميله،
ثم تَرَجُّله وتهيئوه للكفاح، وهنا أتى بنا الشاعر إلى مشهد عظيم ألا وهو
زحف الجيشين للقتال واصطدامهما لأول مرة، وجعل توطئة كلامه في
وصف الزحف فأبدع فيه إبداعاً هيات أن يؤتى بمثله.

(٦٢) تغنن شعراؤنا بالتشبيه بالأمواج المتدافعة، فعارضوا بها
شتيت المعاني من المهيب المخوف إلى القريب المألوف، فممن تهيب
بها تهيبُ هوميروس عنثرة العبسي بقوله يصف الجيوش:
تموج كموج البحر تحت غمامة قد انتجت من وقع ضرب الحوافرِ

وأبو دهب الجمحي بقوله يصف الليل:
وليلة ذات أجراس وأروقة كالبحر يتبع أمواجاً بأمواج
وأبدع ما استخرجته مخيلة شاعر بهذا المعنى قول امرئ القيس:
وليلٍ كموج البحر أرخى سدوله عليّ بأنواع الهموم ليبتلي
فقلت له لما تمطى بصلبه وأردف أعجازاً وناءً بكل كل

ألا أيها الليل الخ

وممن تحب بها إلى ممدوح المسيب بن علس بقوله:
ولأنت أجود من خليج مفعم متراكم الآذي ذي دقاع

ومثله البحتري بقوله: «وهو مأخوذ عن أبي دهل»:
إلى فتى يتبع النعمى نظائرها كالبحر يتبع أمواجاً بأمواج

(٦٣) روى الزمخشري عن أبي النجم:
وصارمات في الأكف قضا تخالهن في الأكف شهباً

وقال ذو الرمة:
وقد جرّد الأبطال بيضاً كأنها مصايح تذكو في الذبال المفتل

وقال عنتره:
وتلمع فيها البيض من كل جانب كلمع بروق في ظلام الغياهب

(٦٤) شبه الطرواد بالنعاج التي يختلط صوتها في حظائرها
عندما يستدر لبنها، وهناك الحملان تنغو لأماتها، والأمات تنظر إلى
حملاتها، فتغو لها فيكون ثمة لجب وضوضاء، قابل الشاعر هنا بين
إقبال الإغريق على الطرواد وزحف الطرواد على الإغريق مقابلة أعرب
فيها عن انتظام الجند في الجيشين، فهياً لنا الإغريق قومًا يزحفون سكوتًا
لا كلام بينهم إلا لأولياء أمرهم، والجند تصغي وتطيع يخالهم الناظر
بكمًا، وهم يتدققون تدفق الأمواج التي تثيرها العواصف على الجرف،
فتنقض على الصخور ويتصاعد زبدها بينا أن أعداءهم في هرج ومرج

لقلة ما ألفوا من الزحف كما ترى ذلك مفسراً في البيت التالي حيث قال: إنهم أوزاع متألفون من كل فج وناد، ومتخلقون بشتيت الأخلاق، وهو وصف دقيق يؤيده التاريخ إذ كانت أمم التحالف اليوناني متقاربة الأخلاق متألفة الطباع واللغات بخلاف نجلاء الطرود الذين لم تكن لهم جامعة يعرفون بها قبيل الحرب، ولما انتهى من وصف الزحف استطرد إلى ذكر مهيجاته بصورة رمزية كجاري عادته، ومن ثم وصف اصطدام الجيش بالجيش، وأخذ في التفصيل بما ينبئك بما له من طول الباع بمعرفة أطوار الكر والدفاع.

(٦٥) الهول والرعدة والفتنة أعلام مجسمة في شعره؛ ولهذا أعربناها إعراب الأعلام.

(٦٦) لا قول أصدق من هذا القول في وصف الفتنة، فإنها في بدء أمرها كلمة خفيفة أو حركة ضعيفة لا يكاد يعباؤها، فإذا نمت لا حد لتناهيها في العظم، ومهما وصفها الواصفون فلا يأتون بأحسن من هذا الوصف، قال طرفة بن العبد:

قد يبعث الأمر الكبير صغاره حتى تظل له الدماء تصب

وقال مسكين الدارمي:

ولقد رأيت الشر بين الـ حي تبـدأه صـغاره

ولو أنهم يأسونه لتنهت عنهم كباره

وقال ضوء بن اللجلاج:

ألم تر أن الشر مما يهيجه أصاغره حتى يتم فيكبرا
وإن كمين العرّ يخفي دواؤه على أهله حتى يبين فيظهرها

(٦٧) اليلق الترس.

(٦٨) لم يبق شاعر من الإفرنج لم يعجب بهذا الكلام، وتناقلوه

خلقاً عن سلف ولا نرى عجباً أن يأتي به شاعر مطبوع؛ لأنه يتبادر إلى
كل بصيرة وقادة، وأمثاله كثيرة في منظومات العرب الذين لم يعرفوا شيئاً
من أقوال هوميروس. ولله در أبي الفوارس إذ يقول:

وكررتُ والأبطال بين تصادمٍ وتهاجم وتحزبٍ وتشددٍ
وفوارس الهيجاء بين ممانعٍ ومدافعٍ ومخادعٍ ومعربدٍ
والبيض تلمع والرماحُ عواسلٌ والقوم بين مجدلٍ ومقيدٍ
وموسد تحت التراب وغيره فوق التراب يئن غير موسدٍ
والجو أقتم والنجوم مضيئةٌ والأفق مغبر العنان الأربدٍ

(٦٩) أنطيلوخ هو ابن نسطور، وكان من جملة طلاب هيلانة.

(٧٠) الصعاد جمع صعدة بمعنى الرمح.

(٧١) الفود مقدم الرأس.

(٧٢) الفينور هو ابن خلكودون، وكان أيضاً من طلاب هيلانة.

(٧٣) قطاع جمع قطع للماشية.

(٧٤) الأجداد جمع جدّة وهي الشاطئ.

(٧٥) المرتاد: الطالب.

(٧٦) الطعنة السلكى المستقيمة.

(٧٧) لما كان آخيل بطل أبطال اليونان، وكان في أكثر الإلياذة معتزلاً القتال رأى الشاعر ونعم ما رأى أن يعيد ذكره حيناً بعد حين؛ ليظل راسخاً في ذهن السامع، ولا يذكره مرة إلا بما يعلي مكانته ويجل قدره، فتراه هنا قد آثره مفرداً على الجيش مجتمعاً، وأنطق بهذا الكلام الإله أفلون بما جعل له من الهيبة فوق ما يحرز من الفخار لو انتصر في عدة مواقع.

(٧٨) حيثما نرى إلهاً منحازاً إلى فئة رأينا آخر منحازاً إلى الفئة الأخرى، فهنا أفلون بين الطرواد يشير إلى ثبوت الجأش، وأثينا بين الإغريق إلى الإقدام والتروي.

(٧٩) مماد: مهمل.

(٨٠) يضع هوميروس نفسه موضع الشاعر وسامع الشعر، فيأبى على نفسه أن يدع سبيلاً إلى مل شعره؛ ولهذا تراه كلما أتى على وصف واقعة أو حادثة أيّاً كانت تورث الملل إذا طالت يفكه سامع شعره بنكات وتشابيه واستعارات تجتذبه إلى الإمعان فيها، وحسبك شاهداً ما ختم به

هذا الفصل فإنه بعد أن هبَّ الجند للقتال، وأتى على كل وصف بما تقتضيه الحال فأوجز في ذكر الزحف، وأسهب بعض الإسهاب الذي لا بد منه في معترك القومين ختم كلامه، ولخص مقاله بكلام جزل ترتاح النفس في البقاء عليه، فصوّر ما يتجلى لعين الناقد البصير لو تسنى له أن يجول بين هاتيك الصفوف في مأمن من الحتوف، قال عنتره:

عناجيحٌ تخب على رجالها	تثير النقع بالموت الزوَام
إلى خيل مسوَّمة عليها	حماة الروع في رهج القتام
عليها كل جبارٍ عنيدٍ	إلى شرب الدماء تراه ظامي
بأيديهم مهنّدة وسمّرٌ	كأن ظباتها شعل الضرام
فجاءوا عارضًا بردًا وجئنا	حريقًا في غريق ذي اضطرام
وأسكت كل صوت غير ضربٍ	وعترسة ومرميٍّ ورام

النشيد الخامس

بطش ذيوميذ

مُجْمَلُهُ

اندفع ذيوميذ إلى ساحة القتال بإيعاز آثينا، فقاتل قتال الأسود،
وكان آريس إله الحرب عاملاً على نجدة الطرواد، فحملته أثينا على
مغادرة ميدان الكفاح فاصطدم الجيشان، واستظهر الإغريق وجرح ذيوميذ
بسهم أطاره عليه فنداروس، ولكن الجرح لم يكن قاضياً.

فاندفع ثانية وفتك بالأعداء فتكاً ذريعاً، فاجتمع آنياس
وفنداروس على قتال ذيوميذ، فجنّ دل ذيوميذ فنداروس وكاد يفتك بآنياس
لو لم تبادر أمه الزهرة، وتحلق طائرة به، وكانت أثينا قد جعلت لزيوميذ
قوة التمييز بين الآلهة والبشر وأغرته بطعن الزهرة أيان تسنى له ذلك،
فأطار عليها سهماً وجرحها في يدها فأسرعت إلى الأولمب، وشكت إلى
أمها ما نالها من تحامل ذيوميذ عليها، فطبيت قلبها ولأمت الجرح،
وبادرت أثينا وهيرا فشكتا الزهرة إلى زفس حتى لا يتأثر لشكواها، وما
لبث ذيوميذ بعد ذلك أن قصد الإيقاع بأفلون، فرجره أفلون ونادى
بآريس لنجدة الطرواد فتزيا آريس بزي بشر وأسرع فاستنهض همم
الطرواد فهاجت الحمية هكطور وعاد آنياس سالمًا، واصطدم الجيشان
وجرت الدماء سيلاً من الفريقين، وكان أشدهم بطشاً هكطور بين

الطرواد، وذيوميذ بين الإغريق، وكان آريس نصيرًا للطرواد في تلك
 المعمعة ففازوا الفوز المبين، ففزعت هيرا وآثينا للإغريق فصعدتا إلى
 السماء واستأذنتا زفس فأذن لهما بصد هجمات آريس، فحشت آثينا
 ذيوميذ على الفتك به فطعنه وجرحه، فصعد يشكو أمره إلى زفس فأثبه
 وعنفه ثم أمر بالتتام جرحه، وعادت من ثم آثينا وهيرا إلى مقام زفس.

مجرى وقائع هذا النشيد كالنشيد السابق، وهي حلقة من حلقات يومه
 أيضًا.

النشيد الخامس

حبث فالاس ذاك اليوم عزماً	وبأساً لابن تيديسٍ منيعاً ١
ليعظم في بني الإغريق شأنًا	ويلغ فيهم الشرف الرفيعاً
وفوق صفّاح مغفره أفاضت	وفوق مجنّته قبساً بديعاً
فشَبَّ برأسه وبمنكبَيْه	شعاعٌ فاض مندفعاً سطيحاً
ككوكبة الخريف قد استحمت	بلُجّ البحرِ وامتطت الرقيعاً ٢
وألقته إلى حيث الأعادي	تكتّف من كتابها الجموعاً
«وكان بزمرة الطرواد شيخٌ	وفير المال لم يُدَنس صنيحاً
بذارس عرّفوه وكان إلّفاً	لهيفستٍ وكاهنه المُطيعاً
كذا ولداه إيذيس وفيغس	ضروب الحرب قد بلوا جميعاً»

فَكَرًّا فَوْقَ مَرْكَبَةٍ عَلَيْهِ
وَبَادِرٍ فَيَغْسُ لَمَّا تَدَانُوا
فَعَن كَتْفِيهِ مُنْعَطِفًا يَمِينًا
فَرَجَّ ذِيومَذَّ بِشَحِيذٍ نَصْلٍ
فَحَرَّ إِلَى الْحَضِيضِ وَخَارَ عَزْمًا
فَغَادَرَ مَتْنِ مَرْكَبِهِ وَلَوْلَا
فَهَيْفَسَتْ هُنَا وَارَاهَ حَتَّى
وَصَاحَ ذِيومَذَّ بِذَوِيهِ هَيُّوَا
فَجَلَّ الْخَطْبُ بِالطُرُودِ لَمَّا
فَذَا مُلْقَى تَخَضَّبَ مِنْ دَمَاهُ
بَكْفٍ إِلَهَ الْحَرْبِ فَالَاسْ أَمَسَتْ
وَبَا هَادِمَ الْأَسْوَارِ يَا بَاعِثَ الْفَنَاءِ
بِشَأْنِهِمْ دَعُهُمْ وَنَحْنُ بِمَعْزِلٍ
بَذَا نَتَوَقَّى غَيْظَهُ» وَمَضَتْ بِهِ
فَوَلَّتْ لَدَى الْإِغْرِيقِ طُرُودُ الْعَدَى
فَكَانَ أَغَامَمْنُونَ أَوَّلَ فَاتِكٍ
فَالْقَى إِلَيْهِ طَعْنَةً وَهُوَ مَدْبُرٌ
فَقَوَّضَ مَبْتَأًا إِلَى الصَّدْرِ ظَهْرُهُ
فَصَلَّتْ عَلَيْهِ شَكَّةٌ وَإِذْ مِنْ

وَأَقْدَمَ رَاجِلًا يَطْسُ الرُّبُوعَا
إِلَى مَزْرَاقِهِ طَعْنًا مَرُوعَا
مَضَى وَبَا وَلَمْ يَسْلِ النَّجِيعَا
فَشَقَّ الصَّدْرَ وَاخْتَرَقَ الضُّلُوعَا
أَخَوَهُ فَفَرَّ مُنْهَرِمًا هَلُوعَا
إِلَهُ النَّارِ أَذْرَكَهُ صَرِيْعَا
يُخَفِّفُ عَنْ حَشَا الشَّيْخِ الصُّدُوعَا
إِلَى السَّفَنِ الْجِيَادِ خَذُوا سَرِيْعَا
عَنَا بِطَلِيهِمَا جُهْدًا أَضِيْعَا
وَذَا لَا وَبُخِيَّتِهِ رُجُوعَا
وَقَالَتْ: «إِلَى مَ الْفَتَكِ يَا سَافِكَ الدِّمَاءِ
أَلَا مَا تَرَكْنَا الْحَرْبَ لِلنَّاسِ مَعْلَمَا
وَمَنْ شَاءَ زَفَسَ فَلْيَعِزُّ مُحَكَّمَا
لِضَفَّةِ إِسْكَامَنْدَرٍ حَيْثُ أَحْجَمَا
وَكُلِّ زَعِيمٍ مِنْهُمْ اجْتِاحَ أَيُّهُمَا
بِأَوْذِيْسٍ مِنَ اللَّهْلِيزُونَةِ انْتَمَى
بِمَرْكَبَةٍ يَبْغِي الْهَزِيمَةَ مَعْتَمَا
فَجُنْدِلَ مَصْرُوعًا عَلَى الْأَرْضِ وَارْتَمَى
عَلَى ابْنِ الْمَيُونِيِّ بَوْرَسَ كَرَّ مُقْدِمَا

فمن أرض طرنا كان فسطس قد أتى
لقد كاد يعلو متن مركبه على
على كتف يُمْنَى تولته طعنة
فبادر أصحاب المليك إدومين
ورام منيلا إسكمندر سترِفِ
«لقد كان بالأنضاد هولا مروعا
وقد علمته أرطميس فنونها
فمن منكبيه أولج الرُمح نافذا
أكب على وجه الحضيض بوجهه
وأقبل مريون وراء فركلس
فأنفذ تحت العظم نصل مُمَرِّقا
هو ابن السري هرْمُونَد الصانع الذي
وقد علمته شائق الذوق وابنه
فأتقن صنعا فلك فاريس جملة
وفارقه نور الحياة ولم يكن
وفيزيس وافاه مجيس طاعنا
فمر سنان الرُمح بالفك خارقا
فخر بعض النصل في التراب خابطا

فراح ونور الطرف بالحتف أظلما
رجاء نجاة والحمام تقدما
فألقتَه في ترب الحضيض ميمما
لنزع سلاح عنه كسبا مسهما
فبادره طعنا برُمح تقدما
لوحش الفلا والرمي بالبل أحكما
فلم يغن بأس فيه بالشم قد سماه
إلى الصدر لَمَّا للفرار تجشما
ومن فوقه صوت الحديد تهزما
وبادره طعنا بردف تهشما
مئاتته فانقض يجشو مهنهما
أجلته فالاس وزادته أنعما
حكاه وأعمال اليدين تعلما
فكانت عليهم وبل شر معمما
ليفقه أنباء السماء مقدا
فذالا بمسقي السنان تفصما ٦
ثناياه واقتب اللسان مصرما
ومُهَجَة أنطينور بالحزن أضرما

«هو ابنٌ له من غير زوجٍ حليّةٍ
فَجَبًّا بِأَنْطِينُورٍ مَشَوَاهِ أَكْرَمَتِ
تَلَاهِ ابْنُ ذُولْفَيُونِ كَاهِنِ زَنْشِ
تَأَثَّرَهُ أَوْرِيفَلٌ وَهُوَ قَافِلٌ
فَأَدْرَكَهُ يَبِتُّ بِالسَّيْفِ كَنْفُهُ
لَوْ تَرَبَّصْتَ وَالْعَجَاجِ اسْتَطَارَا
وَبَصَّرْتَ بَابِنَ تِيذِيسٍ لَمْ
مُسْتَشْطِطًا يَنْقُضُ فَوْقَ الْأَعَادِي
كَخَلِيجٍ يَضِيقُ بِالسَّيْلِ مَجْرًا
وَيَقْضُ السَّدُودَ وَالزُّبْدَ يَدْفَعُ
وَتَلَاشَى آمَالَهُمْ بَعِيَابٍ
فَصُفُوفِ الْعَدَى وَإِنْ زِدْنَ عَدَاً
شُتُّوا حَيْثُ ثَارَ يُعْمَلُ سُمْرًا
سَاءَ صَنْدِيدِ لَيْقِيَا أَنْ رَأَاهُ
فَعَلَيْهِ مُسَدَّدَا مَدَ قَوْسَا
لِخَلَايَا الدَّرُوعِ سَارَ وَأُولِجَ
فَجَرَّتْ تَخْضِبُ الدَّرُوعِ دِمَاءُ
«يَا خِيَارَ الْفِرْسَانِ قَوْمَ الْوَلَاءِ
إِنْ يَكُنْ صَادِقًا دَعَا ابْنَ زَفْسِ

وَعَنْدِ ثِيَانُو زَوْجِهِ الْحَلِّ قَدْ نَمَا
فَشَبَّ رَيْبًا كَالْبَيْنِ مَكْرَمًا»
وَمَنْ كَانَ كَالْأَرْبَابِ فِيهِمْ مُعْظَمًا
فَلَمْ يَجِدْهُ أَنْ يُسْتَدَلَ وَيُهْزَمَا
فَمَاتَ وَلَمْ يُدْرِكْ مَرَامًا تَوْهَمَا
وَنَجِيعَ الدِّمَاءِ سَالٍ وَفَارَا ٧
تَدْرُ أَيُّ الْجِيَشِينَ مِنْهُ أَغَارَا
يَنْهَبُ السَّهْلَ بَيْنَ عَادٍ وَغَادِ
هَ فَيَسْتَأْصِلُ الْجُسُورَ الْكِبَارَا
وَمِبَانِي الْخُرَّاتِ مِنْهُ تُزْعَزِعُ
سَاقَهُ زَفْسٍ فَوْقَهُ مِثْدَارَا ٨
ضِيقُ دَرْعَا عَنْ صَدِّهِ الْيَوْمَ صَدًّا
فَارِيَاتٍ وَصَارِمًا بَتَّارَا
يَخْرُقُ الْجَيْشَ صَائِلًا بِقَوَاهُ ٩
وَالَيْهِ أَمْرٌ سَهْمٍ أَطَارَا
وَيُمْنَى الْكَتْفَيْنِ غَارَ يُهْمَلِجُ
وَدَعَا فَنَدْرُوسَ يَنْمِي الْفَخَارَا
بَادَرُوا قَدْ أَدْمَيْتَ خَيْرَ أَخَائِي
لِي فَبِالسَّهْمِ سَوْفَ يَلْقَى الْبَوَارَا» ١٠

إنما الجرح لم يكن قتالا
جاء أَسْتَيْنًا وقال: «أخي با
فإلى الأرض واثبًا مال يجتر
قام يدعو ذُيُومًا ودماهُ
«إن تكوني يا بنت ربِّ الثُروس
وأبي قَبْلُ عنه لم تَتَخَلَّى
قربي من مرمى حرابي غرورًا
قد رمانِي وظنَّ يَفْخَرُ أَنِّي
فأصاحت وَجَدَدَتْ فِيهِ حَزْمًا
وإليه مَالَتْ تَقُولُ: «ألا كـ
فيك أنزلت كُلَّ بَأْسٍ أَيْكَا
فالحِجَابُ انجلى فَتَعْرِفُ من تد
فلئن خَلَّتْ خَالِدًا جَاءَ يَبْلُو
غير قَبْرِيسَ إن تلح لك فاطعن
وتوارت عنه فَهَبْ مُغِيرًا
ثَلَّثْتَ عَزْمَهُ فَكَّرَ يُحَاكِي
كَهْزَبِ بَيْنِ المِرَاعِي يفاجي
يبتليهِ الرَّاعِي بِسَهْمٍ فَتَزْدَا

والجريح انثنى يروم العجالا
دِرْ وأخرج سَهْمًا بكتفي غارا»
ذلك السَّهْمُ والنَّجِيعُ تَفَجَّرَ ١١
صبغت حَلَّةُ الزُّرُودِ احمرارًا
زدتني البأس يوم قَرَعَ البُيُوسُ ١٢
لا ترومي عن مبتغاي استتارا
صال وليلق من ذراعي الثُّبُورَا
من سنا الشمس لن أرى الأَنْوَارَا
ونشاطًا وشَدَّدَتْ مِنْهُ عَزْمًا
رَّ عَلَى مَوْقِفِ الْعِدَى تَكْرَارَا
وأزَلْتُ الْعِمَامَ حَتَّى أَرِيكََا
لَقَى أَنْسَا أُمَ خَالِدًا قَهَّارَا ١٣
فاجْتَبَيْهُ مَا أَنْتَ لِلصَّدِّ أَهْلُ
هَـا وَلَا تَرْهَبُ انتِقَامًا وَثَارَا» ١٤
مد أثارَتِ للبطشِ فِيهِ سَعِيرَا
بَاعَادِيهِ ضَاغِمًا هَصَّارَا
واثبًا فوق رَاتِعَاتِ النَّعَاجِ
د قَوَاهِ وَيَنْشِي لَا يُجَارِي

يَتَخَلَّى الرَّاعِي سَحِيقَ الْفَوَادِ
فَتُرَاعُ الشَّيَاهُ مَرْتِمِيَاتِ
عَائِثًا عَابِثًا مَنِ النَّفْسِ يَقْضِي
هَكَذَا فِي الْعَدَى ذِيَوْمِيذُ أَلْقَى
فَبِهْفِيفِرِنِ وَأَسْتِيئُوُوسِ
فَرَمَى عُتْقَ ذَاكَ بِالسَّيْفِ وَالْبَأِ
وَعَلَى ذَاكَ بِالثَّيْدِ مَدَّ قَنَاهُ
وَعَلَى ابْنِي أَفْرِيدْمَاسِ أَبَاسِ
«لَمْ يَفِدْهُ أَنْ كَانَ شَيْخًا خَيْرًا
لَمْ يَنْلِ مَا أَغْنَاهُ عَنْ مَصْرَعِ ابْنِي
بِهِمَا فَاتَكَّا ذِيَوْمِيذُ أَتْبَعَ
بِهِمَا لِلْهَلَاكِ أَلْقَى وَأَبْقَى
فَهُمَا عَزَّ عُمُرُهُ وَمُنَاهُ
لَمْ يُؤْمَلِ سِوَاهُمَا مِنْ وَلِيِّ
بَقِيَ الْيَأْسُ وَالتَّحَرُّقُ فِيهِ
وَذِيَوْمِيذُ حَظَّهُ الْفَتَكُ فَانْقَدَ
نَحْوَ إِيْخِيمُونَ وَأَخْرُ مِيُوسِ
ذَاكَ لَمَّا فِي الْغَابِ يَسْحَقُ عُتْقَ الْ
هَبَّ يَرْمِيهِمَا بِمَرْكَبَةٍ قَدَّ

وَلَمَّا وَاهُ يَلْتَجِي بِارْتِعَادِ
جَازِعَاتٍ يَنْفِرْنَ مِنْهُ نَقَارًا
ثُمَّ عَنْهُمْ بِالْمَفَاوِزِ يَمْضِي
رَوْعَهُ كَالْأَسُودِ لَيْسَ يُبَارَى ١٥
بَادئًا حَامِ حَوْلَ قَتْلِ النَّفْسِ
دِيلَ بِالرَّأْسِ عَنْ غُرَى الْجِدِّ طَارًا ١٦
فَرَمَاهُ ثُمَّ انْتَهَى لِسَوَاهُ
وَفَلِيذُ كَأْسِ الْحَتُوفِ أَدَارًا
مَنْ رَأَى الْخَلْقَ يَفْقَهُ التَّغْيِيرَا
هُ عَلَى حِينٍ لِلْقَتَالِ أَسَارَا
زَنْشَا مَعَ ثَوُونٍ وَأَنْسَابٍ يَهْرَعُ
لِفُنُبْسٍ أَبِيهِمَا الْإِدْبَارَا
وَارْتَا كُلَّ دُخْرِهِ وَغِنَاهُ
وَبِهِ الْعَجْزُ أَنْشَبَ الْأَطْفَارَا
حَظَّهُ وَالْأَمْوَالُ حَظُّ ذَوِيهِ ١٧
ضَّ عَلَى ابْنِي فَرِيَامٍ يُهْمِي التَّبَارَا
شَبَّ كَاللَّيْثِ فَوْقَ قَطْعِ الرُّؤُوسِ
ثَوْرٌ سَحَقًا وَيَنْشِي مُمْتَارَا ١٨
رَكْبَاهَا وَعُودَةُ الْحَرْبِ جَرَّدَ

وإلى صَحْبِهِ أشار بأن سو
 فرأى آنياس فَتَنَّا ذَرِيعَا
 تحت وقع القَنَا وَوَقَعَ السَّهَامُ انـ
 فَأَتَاهُ مِنْ بَعْدِ جَهْدٍ جَهْدٍ
 قال: «يا فندروس حَتَّى مَ قَوْسًا
 وإلى مَ اُخْتُوتِ مجدًا قديمًا
 وَأَشَدُّ الرُّمَّةِ فِي لَيْقِيَا هَلْ
 دُونَكَ الْقَرَمَ ذَا الَّذِي غَاب عَنِّي
 وَلِرَفْسٍ بَسَطْتَ كَفًّا وَأَنْقَذَ
 كم رِقَابٍ رَمَى وَكَمْ مِنْ رِكَابٍ
 فَعَسَى لَا يَكُونُ رَبًّا مَغِيْظًا
 إِنَّ غَيْظَ الْأَرْبَابِ أَذْهَى الشُّرُورِ»
 إن يكن صادقًا مَقَالِي وَطَنِّي
 ذَاكَ حَتَمًا مِجْنُتُهُ وَالْقَتِيرُ
 هَذِهِ الْخُوْذَةُ الْمُثَلَّثَةُ الْأُطـ
 فَهُوَ إِمَّا رَبُّ دِيُومِيْذَ مَثَلُ
 فَيَلِيهِ وَيُدْفَعُ الصَّمَّ عَنْهُ
 كَادَ سَهْمِي يُذَيِّقُهُ الْحَتْفَ لَمَّا

قُوا إِلَى الْفَلَكَ خَيْلَهَا إِلَّا حَرَارَا
 مِنْهُ بِالْقَوْمِ رَاحَ يَجْرِي سَرِيعًا ١٩
 سَابَ يِغْيِي ابْنُ لَيْقَوُونِ اغْتِرَارَا
 مُسْتَجِيشًا بِالْبَأْسِ بَيْنَ الْجُنُودِ
 وَسَهَامًا قَدْ اذْخَرْتَ اذْخَارَا
 هَلْ هُنَا مَنْ حَكَكَ شَأْنًا عَظِيمًا
 بَكَ قَيْسُوا مَهَارَةً وَاشْتَهَارَا
 نَوْرَ عِرْفَانِهِ أَحَقَّقْتَ ظَنِّي
 تَ لَهُ سَهْمُكَ الْمَرِيْشَ اهْتَرَارَا ٢٠
 قَدْ لَوَى مِنْ بَوَاسِلِ الْأَتْرَابِ
 لَمْ نَقْدَمْ لَهُ الضَّحَايَا الْكَثَارَا
 قال: «يَا آنياس خَيْرَ مُشِيرٍ ٢١
 فَارَى ذَا دِيُومِيْذَ الْجَبَّارَا
 هَذِهِ خَيْلُهُ السَّرَاعُ تُغْيِرُ
 رَافَ لَكِنْ لَا أَجْزِمَنَّ انْتِرَارَا ٢٢
 أَوْ إِلَى جَانِبِيهِ فِي الْغَيْمِ أَقْبَلَ
 وَيَقِيهِ وَيَرْفَعُ الْأَخْطَارَا
 غَارَ فِي الْكَتِفِ وَالْدَمَّ الْجَمَّ أَهْمَى

خَلَّيْهُ لِلْجَحِيمِ يَمْضِي وَلَكِنْ
آهَ أَيْنَ الْعَجَالُ أَيْنَ جِيَادِي
وَعَلَى الرَّحْبِ مَرْكَبَانِي إِحْدَى
وَلِكُلِّ مُطَهَّمان وَأَكْثَر
لَمْ أَعِ النَّصْحَ مِنْ أَبِي الْهَمِّ لَمَّا
قَالَ فَاهْزَبْ وَكُنْ بِصَدْرِ الْكُمَاةِ
فَهُوَ بِالْحَقِّ قَدْ أَشَارَ وَلَكِنْ
قُلْتُ تَضَوَّى الْجِيَادُ فِي تِي الدِّبَارِ
رَاجِلًا جِئْتُ أُرْسِسُ الْقَوْمَ مَغْتَدًا
قَدْ رَمَيْتَ الْعَمِيدَ أَتُرِيدُ عَنْهَا
فَجَرَّتْ مِنْهُمَا الدِّمَاءُ وَلَكِنْ
سَادَ لَا شَكَّ طَالِعُ السُّوءِ لَمَّا
وَلَّيْوْنَ قُمْتُ حَبًّا بِهَكَطُو
فَلَنْ جِئْتُ زَوْجَتِي وَأَلْفِي
لَا تَخْلَى عَنْ قِطْعِ رَأْسِي عَدُوَّ
هَذِهِ الْقَوْسِ شَرَّ سَاحِقٍ سَاسِحِقٍ
رَاحَ كَالرَّيْحِ نَفْعُهَا فِي لَا تُجَدِّ
قَالَ: «يَا فَنَدْرُوسَ مَهْلًا وَهَيَّا
فَهِيَ أَوْلَى لِلصَّدِّ أَقْبَلَ وَبَادَرِ

كَرُّهُ الْآنَ كَذَّبَ الْأَفْكَارَا
رَاجِلًا جِئْتُ طَامِعًا بِاشْتِدَادِي
عَشْرَةَ فَوْقَهَا سَدَلْتُ السَّتَارَا
تَقْضِمُ الدَّوْمَ وَالشَّعِيرَ الْمُقَشَّرَ
قَدْ تَجَشَّعْتُ لِلْوَعَى الْأَسْفَارَا
وَعَلَى الْقَوْمِ كُرٌّ بِالْمَرْكَبَاتِ
قَدْ رَأَيْتَ الْعُدُولَ عَمَّا أَشَارَا
لَا مَتْنَاعَ الْكَلَاءِ تَحْتَ الْحَصَارِ
رَأً بِقَوْسٍ مِنْهَا لَقِيتَ الشَّنَارَا
وَذِيَوْمِيذْ نَالَكَ الْجُرْحُ مِنْهَا
فِيهِمَا الْبَأْسُ زَادَ وَالْجَأْشُ ثَارَا
قَدْ تَنَاوَلْتُ هَذِهِ الْقَوْسَ وَهَمَّا
رَاقِوْمِي إِلَى الْوَعَى أَمَّارَا
وَصُرُوحِي بِعَالِيَاتِ السُّقُوفِ
إِنْ بِخَبْرِي لَمْ أَنْفِذِ الْأَخْبَارَا
وَلِجُوفِ النَّيِّرَانِ تَرْمِي فَتَحْرِقُ
لَدِي ائْتِمَارًا كَمَا عَلِمْتَ اخْتِيارَا» ٢٣
بِعِجَالِي لِكَبْحِهِ نَهْيًا
نَتَرَبِّصُ لِمُلْتَقَاهِ ابْتِدَارَا

فجيادي لسوف تَخْبِرُ خُبْرًا
وَإِذَا زَفَسَ شَاءَ نَصْرَ ذِيومِي—
فَحَذَّ السُّوطَ ثُمَّ أَجَرَ الْخِيُولَا
وَإِذَا تَبَغَّيَ النِّزَالَ فَلِي الْخِيَلِ
قَالَ: «يَا آنِيَّاسُ عِنْدِي أُحْرَى
خَشِيَّتِي لَا تَنْقَادَ لِي وَلِصَوْتِي
جَامِحَاتٍ تُغَيِّرُ بَيْنَ الْجُنُودِ
وَكَلِينَا يَجْتَاحُ وَالْخَيْلَ يَقْتَا
وَلِي الطَّعْنَ بِالْقَنَا وَالْحِرَابِ»
لِذِيومِيذٍ قَالَ إِسْتِينِلُوسُ
«يَا حَلِيفَ الْفُؤَادِ نِدَّيْنِ أَلْقَى
آنِيَّاسُ بْنُ عَفْرُذِيَّتَ وَأَنْخِي—
فَاتَّقِ الْآنَ فَاجِعَاتِ الْمَنَايَا
وَحُطِّي الْجُرْدَ فَلْنُؤَخِّرَ» فَوَافَا
«لَا تُحَدِّثْنِي بِالْفِرَارِ فَإِنِّي
لَيْسَ شَأْنِي وَشَأْنُ أَهْلِي قَبْلِي
لِي عِزٌّ لَا يَنْشِي لِلْخَطُوبِ
هَآكِهَآ رَاجِلًا أَصُولَ مَكْرًا

جَرَّبَهَا فِي السُّهُولِ كَرًّا وَفِرًّا
مَذَّ بِهَا عَنْ مَنَالِهِ نَتَّوَارَى
وَأَنَا لِلْكَفَّاحِ أَبْغِي سَبِيلَا
لِ مَا شِئْتُ فَاتَّخَذَهُ اخْتِيَارَا» ٢٤
أَنْ تَسُوقَ الْجِيَادَ مَذَّ كُنْتُ أَدْرَى
إِنْ دُفِعْنَا إِلَى الْفِرَارِ اضْطَرَارَا
فَيُؤَافِي ذِيومِيذٌ بِالْحَدِيدِ
دَ فَسَقُّهَا فَأَنْتَ أَكْفَى اخْتِيَارَا ٢٥
ثُمَّ سَاقَا بِشِدَّةٍ وَاصْطِخَابِ
عِنْدَ مَا أَقْبَلَا يَشُبَّانَ نَارَا
نَهَضَا الْآنَ يَطْلُبَانِكَ حَقًّا
سَ كَذَا فَنَدْرُوسًا الْمَغْوَارَا
لَا تَكُنْ فِي مُقَدَّمَاتِ السَّرَايَا
هَ ذِيومِيذٌ بِالْمَقَالِ ارْزُورَارَا
لَا إِخَالُ الْمَرَامَ تَبْلُغَ مِنِّي
أَنْ نُؤَلِّيَ يَوْمَ الْوَعَى الْإِدْبَارَا
جَلَّ عَنْ سُوقِ مَرْكَبَاتِ الرُّكُوبِ
وَأَتَيْنَا قَدْ حَرَّمْتَ لِي الْفِرَارَا

لَنْ تُنَجِّيَهُمَا الْجِيَادُ جَمِيعًا
 إِنَّمَا لِي بِالْأَمْرِ غَيْرَ مَرَامٍ
 لَهُمَا إِنْ أَذَقْتُ كَأْسَ الْحَمَامِ
 أَلْقِي حَالًا صُرُوعَ خَيْلِي فِي مَرٍ
 وَامض وافسد مُطَهَّي آيَاس
 تُنَجَا مِنْ جِيَادِ زَفْسِ النَّيِّ لِلْمَدِّ
 عَنْ غَنِيمِيذِ ابْنِهِ الْمَرْفُوعِ
 رَامَ أَنْحِيسُ نَسَالَهَا فَبَغَاها
 سَتَّةً أَتَنَجَّتْ فَزَوَّجَيْنِ أَبْقَى
 هَاكُهُ يَنْهَبُ السُّهُولَ انْتِهَابًا
 هَذَا حَدِيثُهُمَا انْتَهَى وَعَلَيْهِمَا
 حَتَّى إِذَا وَقَفَا عَلَى مَرْمَى الْقَنَا
 إِنْ طَاشَ سَهْمِي يَا ذِيومِيذَ فَفِي
 وَرَمَى الْقَتَاةَ فَأَوْلَجْتَ بِمَجْنَّهِ
 فَغَرَ ابْنُ لِقَاوُونَ فَاهَ كَأَنَّهُ
 «وَلَجْتَ حَشَاكَ فَأَنْتَ حَتَمًا هَالِكٌ
 قَالَ ابْنُ تَيْدِيسَ: «هَنَا رَبُّ الْوَعَى
 إِنْ فَازَ بَعْضُكُمَا وَفَرَّ مُؤَلِّيَا
 وَعَلَيْهِ صَوَّبُ طَعْنَةٍ قَذَفْتَ بِهَا

إِنْ نَجَا ذَا فَذَٰكَ أَلْقَى صَرِيحًا
 فَادْكُزْهُ إِذَا بَطَشْتَ ادْكُارًا
 وَثِينَا بِذَٰكَ أَغَلَّتْ مَقَامِي
 كَتَبِي وَاجْرَيْنَ مِنْهَا انْتِشَارًا ٢٦
 خَيْرَ مَا فِي الدُّنْيَا مِنَ الْأَفْرَاسِ
 سَلَكَ أَطْرُوسُ أَهْدَيْتَ تَذْكَارًا
 عَوْضًا نَالَ أَصْلَ خَيْرِ الْفُرُوعِ ٢٧
 خَفِيَّةً حَيْثُ أَلْقَحَ الْأَحْجَارَا
 وَإِلَى آيَاسِ ذَا الزَّوْجِ أَلْقَى
 آهَ لَوْ مِنْهُ أَبْلَغَ الْأَوْطَارَا
 بَطَلَا الطَّرُودَ بِالْعِجَاجَةِ أَقْبَلَا
 دُفِعَ ابْنُ لِقَاوُونَ يُنْشِدُ أَوَّلًا
 ظَبَّةَ السَّنَانِ لَكَ الْحَمَامُ مَعْجَلًا
 وَتَخَلَّلَتْهُ إِلَى الدُّرُوعِ تَخَلَّلَا
 رَعْدُ دَوَى مُسْتَبِشَرًا مُتَهَلَّلَا
 وَأَنَا أَنَا نَلْتُ الْمَفَاخِرَ وَالْعُلَا
 يَسْقَى الدِّمَاءَ مِنْ جَوْفِ مَفْرِيِّ الْكَلَى
 مِنْ صَوْلَتِي لَا فَوْزَ لِلثَّانِي وَلَا
 تَفْرِي وَتِيرَتَهُ فَلَاسَ مِنَ الْعَلَى ٢٨

خرقت ثناياه وجذع لسانه
فتصللت نثراته بسلاحه
فانقَضَ يَحْمِي آنياس رَفِيقَهُ
متدججًا كاللِّيثِ حَامٍ عَلَيْهِ لَا
وعليه مَدَّ قناته ومجنَّه
عمد ابن تِيذِيْسٍ لهائل صَخْرَةٍ
حَنَقًا رماه بها بغير تَكَلُفٍ
برز الأديم ومُرَّقَتِ عضلاته
مُسْتَقْبَلًا وجه الثرى بذراعه
فَارَبَدَ نَاطِرُهُ وَلَوْلَا أُمُّهُ
عَشِقَتْ أَبَاهُ قَبْلُ وَهُوَ بِأَرْضِهِ
والآن عطف الأمّهات على ابنها
أَلْقَتْ عَلَيْهِ بَضٌّ أَذْرَعُهَا وَقَدْ
سَترته في بُرْدٍ رَهِيٍّ خُوِلَتْ
ومضت به من ساحة الهيجاء تح
وَوَعَى ابْنُ قَافَانِيْسٍ ذِيُومِدٍ
وَسَعَى إِلَى خَيْلِ الصَّرِيعِ يَحْتُهَا
وَدَعَا أَحَبَ رِفَاقَهُ ذِيْفِيلَسًا

للحي حيث بَدَتْ فَخَرَّ مُجَنَّدًا ٢٩
والخيلُ شَبَّتْ تَقْشَعِرُّ تَجَفُّلًا
خوفًا عليه من العدى أن يحملا
يَخْشَى وَلَا تَلْوِيهِ جَمَهْرَةَ الْمَلَا
بهديده متشوقًا مُتَبَسِّلًا
في عصرنا بطلان لَنْ يَتَحَمَّلَا ٣٠
بِالْفَخْذِ يَسْحَقُ حُقَّةُ مُتَعَجِّلًا
فجثا على وجه الحضيض مُثْقَلًا
والحتف إثر سقوطه مُسْتَقْبَلًا
قَبْرِيسٍ مُبْصِرَةٍ لِأَدْرَكِهِ الْبَلَى
يَزْعَى الْعُجُولَ فَرَاودَتِهِ تَمَحُّلًا
عَطَفَتْ تَبَادَرِ حَيْثُ مَصْرَعُهُ انْجَلَى
خَشِيتَ عَلَيْهِ طَعْنُ مَطْلَبٍ قَلَا
رَصْدًا يَصُدُّ الْعَالِيَاتِ الذَّبَالَا ٣١
مِله عن الأعداء تَطْلُبُ مَعَزَلَا
فَاسْتَوْقَفَ الْأَفْرَاسَ ثُمَّ تَرَجَّلَا ٣٢
حَتَّى بِهَا بَيْنَ الْأَغَارِقِ أُذْخِلَا
لِدَّةً لَهُ حَاكَاهُ مَعْنَى مُجَمَّلَا

لِلْفُلْكِ سَيِّرهَ بها وهو انشى
أخذ الصُّرُوعَ السَّاطِعَاتِ بِكَفِّه
ومضى يروم ذِيُومِذًا وذِيُومِذ
مُتَقَصِّيًا يَجْرِي وَيَعْلَمُ أَنَّهَا
ليست كإَيْنِيَا مهْدَمَة الفنا
وَإِذَا بِهَا فِي لُبِّ أَوْزَاعِ الْعِدَى
نَفَذَ السَّنَانِ بِرُدِّهَا الْبَهْجِ الَّذِي
وَجَرَى لِمَعْصَمِهَا اللَّطِيفِ فَفَطَّرَتْ
بِدَمِ نَقِيِّ بِلْ عَصِيرِ رَائِقِ
فَهُمَ وَلَا خَبْزَ وَلَا خَمْرَ لَهُمَ
صَاحَتْ وَأَفْلَتَ آيَاسُ فَقَلَّه
وَمَضَى بِهِ طَمَعًا بِحِفْظِ حَيَاتِهِ
«يَا بِنْتَ زَفْسٍ كَفَى فَكُفِّي وَارْعَوِي
فَلَنْ رَجَعْتَ إِلَى الْحُرُوبِ فَذِكْرِهَا
مَضَتْ وَفِي قَلْبِهَا مِنْ غَلْبِهَا غُصَصٌ
وَنَاصِعَ الْجِسْمِ دَامَ كَادٌ يُلْبِسُهُ
فَبَادَرَتْهَا تُجَارِي الرِّيحِ طَائِرَةٌ
إِذَا بَارِيسَ يَسْرِى الْقَوْمَ تَحْجِبُهُ
أَحْنَتْ عَلَى رُكْبَتَيْهِ تَبْتَغِي عَجَلًا

لَحْثِثَ مَرْكَبَةٍ لَهُ مُسْتَعْجِلًا
وَاسْتَأَقَ بِالْعَنْفِ الْجِيَادَ مُجَفَّلًا
فِي إِثْرِ قَبْرِيسَ يَشُقُّ الْحَجَفَلَا
لَيْسَتْ عَلَى بَأْسٍ يَرْزُوقُ مَهُولًا
أَوْ مِثْلَ آثِنَا وَرَبَّاتِ الْبَلَا
فَعَدَا إِلَيْهَا طَاعِنًا مُسْتَرَسَلًا ٣٣
نَسَجَتْ لَهَا الْبَهْجَاتِ حَتَّى تَرَفَلَا ٣٤
بَشَارَاتُهُ بِدَمٍ عَلَيْهِ تَهَيَّلَا
يُعْرُوقُ أَرْبَابَ الْعِبَادِ تَسْلَسَلَا
خَلَدُوا وَمِنْ دَمِنَا وَجُودَهُمْ خَلَا ٣٥
بِيَدَيْهِ فَيُبْسُ بِالسَّحَابِ مُظَلَّلَا
وَذِيُومِذٌ بِجَهِيرِ مَنْطِقِهِ تَلَا
لَنْ تَخْدَعِي إِلَّا النَّسَاءَ الْخُمَلَا
سَتْرَيْنِ يُؤْلِيكَ الْوَيْالَ الْأَثْقَلَا
مَا بَيْنَ مُضْطَرَبِ أَمْسَى وَمِلْتَهَبِ
ثَوْبِ السَّوَادَا اشْتِدَادِ الْغَيْظِ وَالْكَرْبِ
إِيرِيسَ تَدْفَعُهَا عَنْ مُضْرَبِ الْقُضْبِ
وَالرَّمْحِ وَالْخَيْلِ أَزْكَامَ مِنَ السُّحْبِ
خَيْلًا لَهُ مُلْجَمَاتِ خَالِصِ الذَّهَبِ

قالت: «أخي أعزنيها لتذهب بي
 أنالنيه ابن إنسيٍّ أخو فحةٍ
 فقال: «دونك أفراسي ومركبتي»
 وإيرس وضروع الخيل في يدها
 حتى إذا لدري شَمَّ الألب علت
 وبادرتها بقوت الخلد وانطلقت
 هشت لها واستضمتها لمهجتها
 «وأي رب كما لو كنت جانيةً
 قالت: «فَمَا كَانَ رَبًّا جَلَّ بَلْ بَشْرًا
 لأنني آنياس رُمْتُ نَجْوَتَهُ
 فالدَّانَوِيُّونَ بالطَّرواد ما اجتزءوا
 قالت ذيونو: «صبرًا كم لنا مَثَلٌ
 فإسوةٌ لك آريسٌ وهَيْئَتُهُ
 أَلْقَاهُ فِيهِ ابْنُ أَلْوَيْسٍ أَثُوسٌ كَذَا
 وكَبَلَاهُ بِأَغْلَالِ الْحَدِيدِ وَمَا
 وكاد يَهْلِكُ لو لم تُنَمِّ مَخْبَرَهُ
 وهيرةٌ فابن أمفترون أَلَمَهَا
 ونفس آديس ذاك القرم أورثه

لِمَرْتَعِ الْخُلْدِ إِنَّ الْجُرْحَ بَرَحَ بِي
 لَا يَنْتَشِي جَزَعًا حَتَّى لِرَفْسِ أَبِي
 حلت بها بفؤاد خار مكتتب
 تستاقها وهي أجرى من سنا الشَّهْبِ
 فاستوقفتها وحثتها من القَتَبِ
 لَأَمَّهَا قَبْرُسٌ تَحْنُو عَلَى الرِّكْبِ ٣٦
 ذِيونَةُ تَسْتَقِصُّ الْأَمْرَ بِالْعَجَبِ
 جنى عَلَيْكَ كَمَا أَلْقَاكَ أَيُّ غَبِيٍّ
 ذاك ابن تينديسٍ مُسْتَمَطِّرُ الثُّوبِ
 أعزَّما لي بأهل الأرض من نَسَبِ ٣٧
 حتى إلينا انْثَنُوا بِالْبَيْضِ وَالشُّهْبِ
 بالناس يَبْلُونَ أَهْلَ الْخُلْدِ بِالنَّصَبِ
 عامًا وشهراً ثَوَى فِي السَّجْنِ لَمْ يَهَبِ
 أخوه إَفِيلُطُسُ بِالذَّلِّ وَالْحَرْبِ
 أجْدَاهُ مِنْ غَضَبٍ يَشْتَدُّ أَوْ صَخْبِ
 إِيرِيبُ إِذْ صَانَهُ هِرْمِيسُ بِالْحُجُبِ ٣٨
 بشرٌ سَهْمٌ بِأَعْلَى الثَّدِيِّ مُنْتَشِبِ
 مر العذاب بسهم عنه لم يخب

أطاره دون أبواب الجحيم له
فأم صَرَحَ أَبِي الأرباب زَفْسَ أخوا
فَذَرَّ بَلَسَمَه فَيُؤُون يِرْئَه
فيا لويل بني الإنسان إن حملوا
فالاس أغرت ذِيؤميدا عَلَيْكَ ولم
لم يَدْرِ أَنَّ على الأرباب من كَسَبَت
فلا يَهْشُ لَهُ من فَوْقِ رُكْبَتَه
فليخش بطش أخي بأس أشد قَوَى
وَلْيَفْكَرَنَّ بَأْغِيالا حليته
وسنى تَوَرَّقَها الرُّؤِيا فَتَقْلَقَها
من ثَمَّ تُوقِظ في لهف جَواريها
وطهرت يديها الجرح فانفرجت
لكن أثينا وهيرا مذ تَعَمَّدتا
قالت أثينا: «أبي هل لا يسوءك أن
لا شك قبريس رامت دفع غانية
فأنشبت بعري الإبريز راحتها
أصاخ يَبْسَم واستدعى الجريح على
دعي لآرس وآثينا الحروب ولا
لهم في السَّما هذا الحديث وفي الثَّرى

عمداً فنكص ملتاغاً على العقب
بئس بَنَبِلٍ بِعَظَم الكتف مُنْتَصِب
مذ كان من خالدي الأذهارِ وَالْحَقْب ٣٩
على بني الخلد عن حمق وعن غضب
يعلم لَصْنَعِ يَدَيْهِ أَيُّ مُنْقَلَب ٤٠
يداه شراً إلى الأوطان لم يَوُوب
طفل يقول بلطف يا أبي أجب
وصولة منك يستقره بالطَّلب
ذات الجمال وذاتِ العَقْلِ والحَسَب ٤١
فَتَسْتَفِيق بقلب ربيع مُضْطَرِب
وينتحن بدمع فاض مُنْسَكَب» ٤٢
آلامها واستكنت ثِقْلة الوَصَب
إغضاب زَفْس لما في النَّفْس مِنْ أَرْب
أقول ما كان في ذا الجرح من سبب
وجد الصَّبِّ من الطَّرواد ذي نشب
فَمَرَّقَها فرامت نحلة الكَذِب» ٤٣
رفق وقال لها: «يا مُنَيَّبِي احتسبي
تُعْني بغير لذيذ الحبِّ والطَّرب»
ذِيؤميدُ لا يَنْفَكُ إِنِّناس يَطْلُب

تَحَدَّم يَغِيهِ وَيَعْلَم أَنَّمَا
ثَلَاثًا عَلَيْهِ كَر يَأْمَل قَتْلَهُ
وَلَكِنْ ثَلَاثًا تَرَسُ فَيُيُوسِ صَدَّهُ
فَقَالَ لَهُ وَالصَّوْتُ يَدْوِي رَعِيدُهُ
«مَهْ فْتَرَبِّصْ يَا ابْنَ تَيْدِيسَ فَعَن
فَشْتَانِ بَيْنَ النَّاسِ وَالتُّرْبِ أَسْكَنُوا
فَكَفَّ ذِيُومِيذُ وَمَا كَادَ يَنْشِي
وَسَارَ أَفْلُونُ بِأَنْيَاسٍ مَسْرَعًا
فَوَاقَتْهُ أَرْطَامِيْسُ فِي بَلَسَمِ الشِّفَا
وَمَا شَاءَ فَيُيُوسِ يَشِيْعُ انْقِلَابَهُ
وَمَنْ حَوْلَهُ بَيْنَ الْفَرِيقَيْنِ مُرْقَتٌ
وَمِنْ ثَمَّ فَيُيُوسِ إِلَى آرَسِ انْشَى
«أَيَا مِمَطَرَ الْأَهْوَالِ يَا بَاعِثَ الرَّدَى
أَلَا مَا انْدَفَعْتَ الْآنَ فَوْقَ امْرِئِ عَتَا
تَأْتُرُ قَبْرِيسًا وَأَدْمَى يَمِينَهَا
فَأَغْرَاهُ ثَمَّ اخْتَارَ فَرِغَامَ مَعَزَلًا
فَمَاثَلَ آكَامَاسَ شَكْلًا وَهَيْئَةً
إِلَى مَ التَّرَاخِي وَالْعَدَى فَتَكْهَأُ أَبَدًا

يَقِيهِ أَفْلُونُ وَلَمْ يَكْ يَرْهَبْ
وَشَكَّنَهُ الْغَرَاءُ بِالْعَنْفِ يَسْلُبُ
وَرَابِعَةً قَدْ كَادَ يَسْطُو وَيَضْرِبُ
وَيَعْلُو مُجَيَّاهَ الْعُبُوسِ تَقَطَّبُ
بَنِي الْخَلْدِ لِلْإِنْسَانِ قَدْ عَزَّ مَطْلَبُ
وَقَوْمُ بَنِي الْإِسْعَادِ وَالثُّورِ أَلْهَبُوا
مَخَافَةً يَشْتَدُّ إِلَالَهُ وَيَغْضَبُ ٤٤
لِمَعْبَدِهِ فِي طُودِ فَرِغَامٍ يَذْهَبُ
وَذَيْتَا يَاكْسِيرِ الْمَحَاسَنِ يَسْكَبُ
فَأَرْسَلَ طَيْفًا مِثْلَهُ يَتَقَلَّبُ ٤٥
مُسَرِّدَةً حَصْدَاءَ وَاقْتُلْ مُجُوبُ ٤٦
يَحُثُّ خَطَاهُ لِلْوَعَى وَيَثْرِبُ
وَيَا هَادِمَ الْأَسْوَارِ حَتَّى مَ تَرْقُبُ
يَكَادُ عَلَى زَفْسٍ يَصُولُ وَيَصْخَبُ
وَأَقْبَلَ نَحْوِي بَعْدَ ذَلِكَ يَقْرَبُ
وَأَرِيْسَ لِلطَّرُوَادِ رَاحَ يُؤَنَّبُ ٤٧
وَصَاحَ: «أَلَا فَاسْطُوا عَلَى الْقَوْمِ وَاضْرِبُوا
أَفَالْجِبْنَ حَتَّى دَكَّةَ الْخُصْنِ تَرْكَبُ

فَأَنبَاسَ وَالْفَتَاكَ هَكَطُورَ قَدْ حَكَى
أَلَا مَا أَخَذْتُمْ مِنْ عِدَاكُمْ بِشَأْرِهِ
فَهَاجَتْ بِهِمْ كُلُّ التُّفُوسِ حَمِيَّةٌ
«أَيْنَ هَكَطُورِ هِمَّةٌ لَكَ قِدَمًا
قَدْ زَعَمْتَ الْخُصُونَ تَحْمِي وَلَا أُنَدِ
أَيْنَ هُمْ أَيْنَ لَسْتَ أَلْقَى كَمِيًّا
إِنَّمَا نَحْنُ نَجْدَةٌ وَعَلَيْنَا
أَنْتَ تَدْرِي فِي أَيِّ بَوْنٍ بِلَادِي
فَبِهَا زَوْجَتِي تَخْلَيْتُ عَنْهَا
وَهَنَا لَيْسَ لِي مَتَاعٌ وَلَا مَا
كُلُّ هَذَا مَا كَفَّ بِالْبَطْشِ كَفِّي
فَلَمَّاذَا لَا تُنْهَضُ الْعِزْمُ وَالْأَغْرَا
أَفَلَا خِلْتَ أَنْ ثَمَّ شِرَاكًا
وَبِهَا تَوْخِذُونَ أَخَذًا ذَرِيعًا
زُعَمَاءُ الْأَنْصَارِ دُونَكَ فَادْفَعْ
ذَاكَ ذَاكَ اعْتَبِرْ نَهَارًا وَلَيْلًا
لِمَهْجَةِ هَكَطُورِ الْحَدِيثِ مُؤَلَّمًا
تَرْجُلُ مُصْطَكِّ السَّلَاحِ مُطَوِّفًا
يَشُدُّ هَمَّاتِ الْفَوَارِسِ مِنْهَضًا

طَرِيحَ بَسِيَالِ الدِّمَاءِ مُخَضَّبِ
وَأَنْقَذْتُمُوهُ فَاسْتَجِيشُوا وَصَوَّبُوا»
وَأَقْبَلَ سَرْفِيدُونَ بِالْعَنْفِ يَخْطُبُ
أَيْنَ بِأَسْ وَبَاغُ عَزْمٍ مَتِينِ
صَارَ لَا جَيْشَ بَلْ بَالُ الْخُصُونِ
كَالْكِلَابِ التَّوَوَا لِأَسَدِ الْعَرِينِ
أَنْتَ أَلْقَيْتَ كُلَّ ثَقُلِ الْمَنُونِ
لِيقِيَا أَرْضَ زَنْثُسِ الْمَيْمُونِ
وَعُغْلَامِي وَذُخْرُ مَالٍ ثَمِينِ
لِ فَأَخْشَى أَنَّ الْعَدَى يَسْلُبُونِي
وَأَرَاكَ اعْتَزَلْتَ بَادِي السُّكُونِ
ضَ تَحْمِي مِنْ هَوْلِ هُونِ مُبِينِ
كَامِنَاتٍ لَكُمْ وَأَيَّ كَمُونِ
وَتُدَكُّ الْخُصُونُ فَوْقَ الْمُتُونِ
عَنْهُمْ بِالثَّبَاتِ سَوْءِ الظَّنُونِ
نُصِبَ عَيْنَيْكَ فَلْيَكُنْ كُلَّ حِينِ»
جَرَى جَرَى سَهْمٍ بِالْمَفَاصِلِ يَنْشَبُ ٤٨
وَفِي يَدِهِ سُمْرُ الْقَنَا تَتَلَهَّبُ
عَزِيمَتُهُمْ حَتَّى انْتَنَبَهُوا وَتَصَلَّبُوا

فَكَرُّوا وَلَكِن الْأَغَارِقُ جَمَلَةٌ
فَلَمْ يَكْ فِي الْقَوْمِينَ خَامِلُ هِمَّةٍ
وَعِنْدَ اشْتِيَاكِ الْجَيْشِ بِالْقَضْبِ وَالْقَنَا
وَقَدْ كَسَتْ الْإِغْرِيقُ ثَوْبَ عَجَاجَةٍ
كَأَنَّ مَذَارِي دِيمَتِيرِ بِيِيدَرِ
فَتَذَرِي السَّحِيقُ الرِّيحَ ثَمَّ تَهِيلُهُ
كَذَا انْدَفَعَ الْإِغْرِيقُ مِنْ تَحْتِ قَسْطَلِ
أَطَاعَ أَفْلُونَا وَشَدَّدَ عَزْمَهُ أَحَدُ
وَأَرْسَلَ مِنْ فَوْقِ الْجُيُوشِ غَمَامَةً
وَلَمَّا عَلَا وَقَعَ الْقَنَا انْقِصَ عَائِثًا
بِهِ جَاءَ فَيُّوسُ سَلِيمًا مِنَ الْأَذَى
فَخَفَ وَأَحْيَا خَفِقَ أَكْبَادَ قَوْمِهِ
فَلَمْ يَسْأَلُوا عِلْمًا وَلَمْ يَتَسَاءَلُوا
عَوَاصِفُ فَيُّوسُ وَصَعَقَةُ فِثْنَةٍ
وَأَيَّاسُ أَيَّاسُ وَأَوْدُسُ ذِيُومِدَ
يُنَادُونَ بِالْإِغْرِيقِ لِلْحَرْبِ نَهْضَةً
فَلِلصَّادِّ دُفَاعُ الْجُنُودِ تَشَبُّتُوا
كَأَنَّهُمْ وَالْجَرُّ صَافٍ رَقِيعُهُ

عَلَى صَدِّهِمْ بِالْعِزْمِ طَرًّا تَأَلَّبُوا
وَلَمْ يَكْ فِيهِمْ مِنْ يِرَاعٍ فِيهِرَبِ
جَرَتْ مَقْرِبَاتُ الْحَمَلَةِ الْأَرْضَ تَنْهَبِ
فَتَحَتِ الْخُطَى وَقَعَ وَمِنْ فَوْقِ غَيْهَبٍ^٩
تَثِيرُ سَحِيقُ التَّنِّبِ وَالْحَبُّ يَرْسِبُ
غَبَارًا كَثِيفًا وَهُوَ أَبْيَضُ أَشْهَبُ ٥٠
عَلَاهُمْ وَآرِسُ لِلْعَدَى يَتَعَصَّبُ
تَجَابَ أَثْنَا فَاَسْتَقَرَّ يُكْوَكِبُ ٥١
تُظَلِّلُ دُرَاعُ الْحَدِيدِ وَتَحْجُبُ
إِلَى سَاحَةِ الْهَيْجَاءِ أُنْيَاسُ يَلْجُبُ
شَدِيدًا حَدِيدًا يَسْتَجِيشُ وَيَلْغُبُ
وَحَفَّ بِهِ مِنْ صَفْوَةِ الصِّيدِ مُوَكَّبُ
وَدُونَ التَّحَرِّيِّ مِنْ لُظَى الْحَرْبِ أَضْرَبُ
وَأَرْسُ وَوَبْلٌ بِالذَّوَابِلِ صَيِّبُ
يَهْزُهُمْ دَاعِي الْكَفَّاحِ وَيُطْرِبُ
إِذَا هُمْ لِكُرٍّ أَوْ لَصْدٍ تَكْتَبُّوا
صَنَادِيدُ لَمْ يَخْشَوْا وَلَمْ يَتَهَيَّأُوا
غَمَائِمُ مِنْ فَوْقِ الشَّوَامِخِ تَقْطُبُ

وقد هَجَعَ الأنواء لا ثم ثَمَال
يجوب أغامنون بين صفوفهم
«شَدَّدُوا عِزْمَكُمْ وَكُونُوا رَجَالاً
وليقيم بعضكم بحرمه بعض
والتَّأَخِّيَ بَيْنَ النُّفُوسِ نَصِيرٌ
للجبان المهزوم موتٌ وعارٌ
قال هذا وانقضَّ يطعن ذيقو
ترب أنياس كان وهو لديهم
للنَّجاد السَّنان أولج يفري الـ
فالتوى تحت طعنةٍ وكُلُوم
كر نحو الإغريق يطلب ثأراً
ثم أَرْدَى أَرْسِيلُخُوسَ وإكْرِيبَ
وحفيدي أَرْسِيلُخُوسَ الذي كا
وهو ابن للنَّهر أَلْفاس أبقى
نشأ في فيرس وألفاس فيها
توأما شدة حديثان لكن
ركبا لجة البحار انتصاراً
سدل الموت فوق عينيها السـ
شبه شبليين قد غدت لَبَوَّةٌ في

تنور ولا الأنواء فيهنَّ تَلْعَبُ ٥٢
يصيح وأعقاب الخطى يتعقَّب
فوطيس الوغى عظيم الشُّؤُون
فلكم بالوفاق خير قرين
ولحفظ الرُّؤُوسِ أقوى صَمِين
والهُمام العزوم رَفَعُ الجين» ٥٣
ن بن فِرْغَاسَ بادئاً بالهجوم
كابن فِرْيَامَ ذو مقامٍ قديمٍ
تُرسَ حَتَّى حَشا الفُؤَادَ الصَّمِيمَ
وصليل السَّلاح فوقَ الكَلِيمِ
آنياس كرور ليث غشوم
ثُوتًا ابني ذِيوْكَليس الحكيم
ن أخا صولة وملك جسيم
لأنه ثروة الغنا المركوم
فاض في فيليا بخير عميم
بلوا بالنزال كل العلوم
لمنيلا وعرضه المثلثوم
تر بحكم المَيَّةِ المَحْثُومِ
أكم الغاب فوق طود عظيم

عشا فيه في شياه سمان
واستطالا حتى الرعاة أعدت
هويما مثل أرزتين على التثر
فمنيلا انبرى يُجِيل قناه
ساقه آرس لأنياس يبغي
بيد أن ابن نسطر أنطلوخا
خشية أن يمس بالضم والآ
فمضى والقرنان كادا اشتباكا
فالتوى ثم عَزُم أنياس لَمَّا
دفعاً جثة القتيلين للقو
جندلا قيل بفلغونة فيليـ
فمنيلا عليه مال بطعن
وابن نسطور صدَّ خادمه ميـ
وَرَمَاه بفهر صخر شديد
فاستطارت أعنة الخيل منه
فعليه بالسَّيف بالصُّدغ ثنى
ناشراً للهواء رجليه لكن
ظل حتى جِادَه بِخَطَاهَا

وَعُجُول بمنعة ونعيم
لهما الحتف بالسَّنان القويم
ب بجذع مقوَّض محطوم ٥٤
شائكا في سلاحه الموسوم
لمنيلا شراً لسبق الغريم
هَبَّ في إثره هُبُوب التَّسيم
مال تفنى بقتل ذاك الزَّعيم
يقرنان القنا بصدر الجُوم
لقي اثْنَيْنِ فاثْنَيْنِ لِلتَّخُوم ٥٥
م وعادا بصولة وهزيم
—مين رَوَّاع كل شَهْم عَزُوم
وأقرَّ السَّنان بالبلعوم
—ذون مذ رام نجوة المهزوم
فتوارى بزنده المقصوم
سابحات تخبُّ فوق الأديم
فتناه للأرض حد الصَّروم ٥٦
رأسه تَحَت رَمْلَهَا المَرْكُوم
طرحته للأرض دامي الكُوم ٥٧

وابن نسطور ساقها لحماه
تَحَدَّمْ هَكَطُورٌ لَمَّا هُوَ بَاصِرُ
وفي صدرهم رَبُّ الوغى يستحثهم
وَأَرِيسَ هَكَطُورًا يَلِي فَهُوَ تَارَةً
يَحِيلُ قِوَاةً أَثْقَلَتْ كُلَّ كَاهِلٍ
ولكن ذِيومِذ الإله له انجلى
كطاو بَطُونُ الْبَيْدِ صَدَّتْهُ عَنُوةٌ
فِيَعْلُوهُ إِشْفَاقٌ وَتَغْشَاهُ خَشِيةٌ
قال صَحْبِي: «هَكَطُورٌ هَوْلًا ظَنَنْتُمْ
فَاتَكُمُ أَنَّهٗ أَوَانَ الْوُغَى لَمْ
هَآكُمِ آرِسًا بِهَيْئَةِ إِنْسٍ
فَارْجِعُوا وَالصُّدُورُ مُنْقَلِبَاتٌ
وَحَفَّتْ بَنُو الطُّرُودِ زَحْفًا بِصَدْرِهِمْ
فَأَرْدَى مَنْسْتِيْسًا وَنَحْيَالِسًا مَعًا
فَهَاجَتْ بَايَاسُ الْعَوَاطِفِ فَانْبَرَى
فَاصِمَى ابْنِ إِسْلَاغُوسِ أَمْفِيْسِ الَّذِي
بَعَى نَصْرَةَ الطُّرُودِ وَالْحَتْفِ سَاقِهِ
فَأَهْوَى وَأَهْوَى طَامِعًا فِي سِلَاحِهِ
عَلَى جِثَّةِ الْمُقْتُولِ أَثْبَتَ رِجْلَهُ

مَعْنَمًا مِنْ أَجْلِ أَصْلِ كَرِيمٍ
فَصَاحَ مَغِيرًا وَاقْتَفَتْهُ الْعَسَاكِرُ
وَأَنِيُو تَثِيرُ الشَّغْبِ وَالشَّغْبُ ثَائِرٌ ٥٨
ظَهِيرٌ وَطُورًا ذُونَهُ مُتَظَاهِرُ
وَيَفْعَلُ مَا لَا تَسْتَطِيعُ الْقَسَاوِرُ
فَأَحْجَمَ كِرَّاتُ الْإِلَهِ يُحَاذِرُ
سُيُولُ غَثَّتْ عَنْهَا تَزْوُجُ النُّوَاطِرُ
فِيَنْكُصُ مُنْهَدَّ الْقَوَى وَهُوَ حَائِرٌ ٥٩
بِقِنَآهِ وَالْعَاسِلُ الْمَسْنُونُ
يَخْلُ يَوْمًا مِنْ مُرْشَدٍ وَمَعِينٍ
حَوْلَهُ حَامٍ كَالنَّصِيرِ الْأَمِينِ
لِلْعَدَى وَاتَّقُوهُ وَاتَّبِعُونِي» ٦٠
يَصَادِمُ هَكَطُورُ الْعَدَى وَيُصَادِرُ
بِمُرْكَبَةٍ قَلَّتْهُمَا وَهُوَ سَائِرُ
يَطِيرُ قِنَاةً فَرَعُهَا مُتَطَايِرُ
بِفَيْسُوسٍ قَدْ فَاضَتْ عَلَيْهِ الدَّخَائِرُ
إِلَى حَيْثُ شَكَّتْ بِالنَّجَادِ الْخَوَاصِرُ
أَيَّاسُ فَصَدَّتْهُ السَّهَامُ الْمَوَاطِرُ
يَجْرُ سَنِينَ النُّصْلِ وَالْفَتْكِ دَائِرُ

وكف يياري بالمجنّ نبالهم
وعند التحام الحرب ساقَت يد القضا
نظيران في زفس ابْنُهُ وحفيده
وَلَمَّا عَلَي مرمى القُنِّي تدانبا
«أَيُّ جهل مشير ليقية أغـ
أنت والكر فيه مذ كنت غرّاً
مان من قال أنت من نسل رَفْسٍ
بهرقل أبي كفاك مثالا
قبل أنبئت كيف جاء قديماً
بسفين ستّ ونزرٍ قليلٍ
أين شتّان أنت والحتف أفنى
ليس في رفدك الطراود جدوى
قال سرفيدون وميّزه الغيـ
فهرقل قد دك إليون لا بل
لهرقل ما برّ بالوعد لكن
ورماه وكان قبل دعاه
إنما أنت والسّنان بكفّي
ولربّ الجحيم نفسك تزجي

مَخَافَةٌ أَن يلهو فَتَدُها الجَماهُرُ ٦١
لسرفيدن إطلـوفليم يُيادر
سلیل هرقل والقرين المناظر
عليه الهرقلي استتال يفاخر
راك حتى استهدفت أيّ جنون
قد تَوَرَّطْتَ وَرَطَّةَ المَعْبُون
أين أبناء زفس من سرفدون
قلب ليث وهول كل القرون
طامعاً في جياذ لوميدون ٦٢
أمطر الويل في حما إليون
منك قومًا وأنت بادي الشُّجون
ولئن صلت فالرّدى يميني» ٦٣
ظ: «نعم بالحديث قد أنبئوني
دكها حمق لؤمدون الرّعون
متع الخيل عنه منع الصّنين
من بعيد بسهم شتم مُهين
سوف تُصمّي برأس نصلي السّنين
ولي الفخر بالمنار المصون» ٦٤

وكلّ رمى بالزُّج يحكم رَشَقَه
فمزق أفضُوليم بالنصل عنقه
ومزق سَرْفِيدُون لِلْعَظْم حُقَقَه
فأصحابه اجتَرَوْه مِن ساحةِ الوَعَى
وقد شغلوا عن نزعه لذهولهم
كذاك ارتمى الإغريق فوق قتيلهم
فَهَبَّ به الغيظ العيف فهاجَهُ
أَيطلب سرفيدون أم جُند قومِه
فعن سرفدون أشغلته يد القضا
وساقته فالاس لمجتمع العدى
فَجَنَدل كيرأُس أَلَسْتَر هليُسا
وَأَلْكَندرا إفرِيتيس نويمنا
وكاد يزيد الفُتْكَ لو لم يثب إلى
رأى فجرى يلقي الصدر مدجَّجا
وعن سَرْفِدُون غُصَّة الكرب انجلت
«أغثني ابن فريام ولا تُوقِع العِدَى
ولن يتلقَّاني على الرحب موطني
فدعني بإليون أمت ذا كرامة
فأعرض هكطور وفي القلب غُصَّة

فبالعنق مزراق وبالفخذ آخر
فعض الشرى تَنْغَضُ مِنْهُ النَّوَاطِرُ
وَلَوْلَا أبوه بادرته الْبَوَادِرُ ٦٥
لساعتِهِم والنَّصل في الجسم غائر
فأركب بالآلام والعَظْمُ خائر
يرومونَه فيهم وأوذس ناظر
وردَّد فكَرًّا رَدَّدْتَه الْخَوَاطِرُ
لِتَفْتُك فيهم من يديه الْبَوَاتِرُ
فمال إلى حيث التقتَه العشائر
وما راعه منهم نصال شَوَاحِرُ
وَإِخْرُو ميوسًا وهو كالليث كاسِرُ
صناديد لبقِيُون صيْدٌ جَبَابِرُ
طلائعهم هكطور والنقع فائر
فضاقت بهم عن مُلْتَقَاهِ الْمَعَابِرُ
فنَادى برفق والدموع بَوَادِرُ: ٦٦
عَلَيَّ فَإِنِي بالمنية شاعر
وزوجي وطفلي والكرام الأكابر
وثمة لي في لجة القبر ساتر»
تحت خطاه وهو للفتك طائر ٦٧

تسير دعاة الموت طوع حُسامه
وأصحاب سرفيدون في الحال أسرعوا
فبادر فيلَاغُون إِلْفُ وَدَادِهِ
فَعَشَّتْ عَلَى أَبْصَارِهِ ظَلَمُ الرَّدَى
فَهَيَّتْ لِبُرْيَاسٍ مِنَ الرِّيحِ نَسْمَةً
ودارت على الإغريق في دارة الوغى
ولكنهم بالصبر طُرًّا تَدَرَّعُوا
فلم يك فيهم ناكصٌ نحو فُلُكِهِ
وتحت الدِّفَاعِ الثَّبَتُ مَهْلًا تَقَهَّقُوا
فأتخن آريس وهكطور فيهم
فأولهم تنراس نِدُّ ذَوِي الْبَقَا
فإِترِخْ أُونُومٌ هَلِينُ أُرْسُبِسُ
فأورسبسا لم يجد وافر ماله
ففي هيلةٍ قد كان حيثُ ثَوَى الْغَنَا
فدارت عليه عندهم أَكْؤُسُ الصِّفَا
رَأَتْ هَيْرَةَ الْفَتَكِ بِالْقَوْمِ دَارَا
وصاحت بفالاس: «يا للمصاب
فإننا منيلا جزافا غررنا

ومن كَفَّهِ جَمْرُ الرَّدَى مُتَنَاثِر
لزانة زفس فيه والزَّانُ نَاضِرُ
وأخرج نَصْلًا أَغْفَلَتْهُ الْبَصَائِرُ
وخيَّلَ أَن قد فارقتهُ الْمَشَاعِرُ
فأنعش وارفَضَّتْ تَزُولُ الْمَخَاطِرُ ٦٨
بآرس وهكطور الدَّوَاهِي الدَّوَاتِرُ
وكل على دفع العدو مُثَابِرُ
ولا لِلْقَا الْأَعْدَاءُ بِالْصَّدِّ جَاسِرُ
يروعهم أَن المَهْدَمُ حَاضِرُ ٦٩
فمن أَوَّلِ الْقَتْلَى وَمَنْ هُوَ آخِرُ؟ ٧٠
فأورست رَوَّاضُ الْجِيَادِ الْمُكَابِرُ
وكلهم ذاق الرَّدَى وهو صَاغِرُ
وملك على أَكْنَفِ كَيْفَسٍ وَافِرُ
وبحر البيوتيين بِالْمَالِ زَاخِرُ
(ودارت عليه بِالنِّزَالِ الدَّوَاتِرُ)
وجيش الْأَغَارِقِ سِيمُ الْبَوَارَا ٧١
أيا بنت زفس وشر المآبِ
بوعد ولكننا ما بررنا

جزمنا بأن لا يعودن ما لم
نعم سوف يَحِطُّ وَعْدٌ وَعَهْدٌ
فهَيَّي الحقي بي له نَتَصَدَّى
وَقَالَاسُ أَحْرَصَ مَنْ أَنْ تُحَرِّصَ
وهيرة قامت على العجلة
وقد أوثقت ناصع العدد
وقَوِّمَتِ الْجِدْعُ هِيَا إِلَيْهَا
فذاك حديد متين صقيل
تدور على عارضات ثمان
ومن فوق أطواقها الذَّهَبِيَّةُ
لقد أحكمت دائرات عليها
ومحَوَّرُهَا مِنْ لُجَيْنِ بَدِيعِ
يقوم على حلق من نُضَارِ
وفي الصدر قوسان حيث خرج
فذا من حلي الذهب اللامعه
وشدَّتْ عَصَابَاتِ صَافِي الذهبِ
وفالاس أحشاؤها تتأجَّجُ
أماطت نقابًا لطيفًا عليها
وألقته بالعنف في صرح زفس

ينل مبتغاه وإليون تهدم
إذا ظل رب الوغى يستبدُّ
فَمِنَّا يُلَاقِي اقْتِدَارًا أَشَدًّا
فَهَبَّتْ وَلَبَّتْ وَلَمْ تَتَرَبَّصْ
تقود الجيادَ إلى العَجَلَةِ
على لب ساطع العسجد ٧٢
تضم الدَّوَالِبِ مِنْ طَرْفِهَا
وهذي نحاس نقي جميل
تطوقها حلقات ثمان
عصابات صفر بديع المزِيَّةُ
تَقْرُ العيون ارتياحًا إليها
ومن فوق ذلك عرش رفيع
وصافي لجين صُفُوفًا يَدَارِ
عمود بمضمه قد ولج ٧٣
وذاك من الفضة النَّاصِعِ
وهيرة تَصْلَى أَوَارِ الغَضَبِ
فقامت على فورها تتدجَّجُ
بديع المحاسن صُنع يَدِهَا
باعتابه عن حَزَازَةِ نَفْسِ

وقامت ومُهَجَّتْهَا اضْطَرَمَّت
وألقت على منكبيها يَمِيد
وأهدابه الدُّهُم فيه تحوم
وفيه الشَّقَاق وفيه القُؤَى
وفيه كَذَا هَامَة المَارِد
وألقت على الرَّأْس أعْظَم مِغْفَر
له طرر أربع بَاتَّقَاد
ولما اسْتَمَّت عَلَتْ تَرْكَبُ
طويل ثَقِيل متين القِئَاة
وهيرة ساطت جِيَاد الأَثِير
لأبواب أَقْصَى السَّمَاءِ سَبَحَتْ
وأعلت صَرِيحًا يَهْزُ الجِبَال
وقوف بها أَبَدًا حَضَّر
فَتَرَكَمَ غِيَمًا فَيَعْلُو القِتَام
فَشَقَّ السَّحَابَ وَيُلْغَا
بِأَعْلَى الأَلْمَبِ عَلَى ذُرُوتِهِ
هنا وقفت هيرة بالجِيَاد
«إِلَى مَ تُزَى يَا وَلِيَّ الْخُلُودِ

لِدَرْعِ أَبِيهَا بِهَا اسْتَلَامَتْ
مَجْنًا يَمِيد قُلُوبَ الْحَدِيدِ
وفيه مِنَ الرُّعْبِ كُلِّ الرُّسُومِ
وفيه اللَّحَاقُ مَهُولًا ثَوَى
أَبِي الْهَوْلِ وَالْأُرُوعِ الْوَاحِدِ ٧٤
لِزَفْسِ نَضَارَا تَأَلَّقَ أَحْمَرُ
يَقِي مئة من جِيُوشِ الْبِلَادِ
بِرَاحَتِهَا عَامِلَ أَشْهَبُ
يَحْطُمُ فَيَلْقَى قَوْمَ الْعُتَاةِ ٧٥
فِرَاحَتِ بَلْبِ الرِّقِيعِ تَطِيرُ
فَمِنْ نَفْسِهَا لَهَا انْفَتْحَتْ
وَتَمَّةٌ سَاعَاتُهَا بَاتَّصَالَ ٧٦
عَلَى كُلِّ ذَاكَ الْفَضَا تَحْفُرُ
وَتَقْشَعُهُ فَيَبِيدُ الظُّلَامُ
مَقَامًا بِهِ زَفْسٌ قَدْ ثَبَا
يَجْلِلُهُ الْمَجْدُ فِي عَزَلَتِهِ
وِرَاحَتِ إِلَى زَفْسٍ تُنْمِي الْمَرَادِ
مِظَالِمْ آرَسَ تَجُوزُ الْحُدُودِ

ألست ترى كم دما قد سفك
وهذا دمي كاد حزناً يفور
لقد بلواه أليف النفاق
ألا فإذن بآن أتأهب
فقال: «عليك بفالاس تكبح
فتلك التي عودته النكال
فسُرت وسارت بأحداسها
سراعاً تطير كبرق أضأ
فما نظر الناظر المعتلي
من الجو حتى الحصى الرَّاكده
فما لبثت أن رست بالمقر
وحلت لدى الحصن بالرَّبتين
وسمويُس أخرج من ثريته
وحول ذيوميد كلَّ يذود
هنا هيرة استوقفتها وحلت
وعزم ولا عزم خرنوص برز
فهيرا عليهم هنا أقبلت
بصوت جهير كقرع الحديد
وصاحت: «فواعار جيش جبان

وكم بالأغارق ظلماً فتك
وقبرس وفيبُس بملء السُرور ٧٧
يسوقانه وهو طبعاً يساق
وأدفعه بالدماء مخضَّب»
مظالمه فهَي أولى وأصلح
ومرَّ العذاب بيوم النزال» ٧٨
تشق الرقيع بأفراسها
لأدنى الثرى من أعالي القضا
على صخرة فوق بحر جلي
تخطّاه في عدوة واحده ٧٩
إلى حيث سيقَت كَلَمَح البصر
على ثغر مُجتمَع الجدولين
وتحت ضبابٍ كثيفٍ أحلت
لها خالِد التَّبتِ في صَفْتِه ٨٠
ببأس ولا ببأس جيش الأسود
يَصُول وَيَسْطُو وَيُبْدي العِبرُ
وهيئة إسنتتر مثَّلت
له صوت خمسين صوتاً شديداً ٨٢
وجيه الوجوه ضعيف الجنان

نعم حين كان أخيل يقف
ولم يك من منهم يجسر
وهاهم وراء الخُصُون انْبَرُوا
ففيهم نيار الحَمِيَّة ثارت
فوافته معتزلاً بالجِياد
على صدره عرق يرشح
يزيح على عيه يديه
ويمسح جرحاً به فَنَدَرُوس
فمدت إلى نير مركبته
«أذا بابن تيزيس عِلْمَا
نعم ذاك كان قصيراً صغيراً
تهيج به نفسه للقتال
فلم يك بين بني أرغُس
إلى ثِيَّيَّةٍ وَحَدَه أرسلا
فقلت اتقي بأس تلك القُرُون
فلم يملك النَّفْسَ عَمَّا تَعَوَّد
وفاز عليهم بنصر مبین
فذاك أبوك وأنت بعكسه

بكم كان جيش العدى يرتجف
إلى باب دردنس يعبر
لكم وإلى فللكم قد جَرُوا
وفالاسُ نَحْوُ ذِيومِيذَ سارت
يرطّب جرحاً قواه أباد
به كله جالساً يسبح
حمائل ترس ثقيل عليه
رماه بأثناء قرع البؤوس
يداً ثم مالت لِتَخْطِئَته
فشتان شتان بينهما
ولكنّنه كان صلباً جسوراً
ولو عنه يوماً حظرت النّزال
سواه يؤم بني قَدْ مُس
سفيراً فراح وما هُوَلاً
وكن بالمآدب إلف سكون
وَرَا حَ بِرَارِزُهُمْ يَتَعَمَّد
وكنّت له خير عون مكين
كأنك أنتجت من غير جنسه

فإِما العِياء أَباد قَوّاكَا
أَقِيكَ الرّدى وألِيكَ وأنْهَض
فقال: «نعم كل ذا أَعْلَمُ
فلا عَيَّ لا جُبْنَ قَلْبِي يُخامِر
أما قلت إن تلق قبريس فاضرب
وهالك إله الوَغى أَبدا
لذاك أَمَرْتُ الجُنود تَفْهَقِر
فقلت: «إذا يا أعز البشر
فلا تَخْشَه الآن حيث استقرّا
تقدم إليه لقرب المجال
ولا تَرْع رُبّا عِلا لا يَبْرُ
فَمِنْ قَبْلُ واتقنا بالعُهود
وها هو بين الطراود قاما
ومن بعد ذا دَفَعْتَ إِسْتِيل
وقامت بمجلسِهِ مُغْضَبَه
فأتقل يرتج جذع يَمِيد
مضت بالأزْمَة والسوط تجري
وكان ابن أُوخسيوس البطل
وبادر والدم يَخْضَبُه

وإِما جَزِغْتَ لبأس عَدَاكا
قَوّاك وأنت عن الحرب مُعْرِضُ»
وعنك الحقيقة لا أَكْتُمُ
ولكِنِّي قَدْ أَطَعْتُ الأوامر
وعن غيرها من بني الخلد أَضْرِبُ
يقاتل بالثّفس صَدْرَ العِدى
ويبقى هنا للدفاع المعسكِرُ ٨٣
إِلَيَّ فَدُونكَ فَصَلَ الخَبْرُ
ولا غير رَبِّ وكل لي أمرا
بخيلك واطعنه غير مُبال
وليس على حالة يَسْتَقْرُ ٨٤
بصدر سراياكم أن يذود
يصول ولم يَرْع ذاك الذّمّاما»
فَهَبَّ إلى الأرض حالا يَمِيلُ ٨٥
حذاء ذيوميذ بالمركبه
بربة بأس وقرن شديد
تروم لربّ الوَغى شَرَّ قَهْرِ
بريفس أَشَدَّ الأثول قتل
يصول وفالاس تَرْقُبُه

فخوذة آذيس أَلقت عليها
وغير ذيوميذ ما نظرا
وكرَّ كذاك ذيوميذ كر
فأرسل ربُّ النزال السنان
ولكن فالاسَ مَدَّت يدا
وذوميذ بالرُّمَح حالا طعن
فتحت الحِزَام الأديم تخضَّب
فصاح أريس بصوت دَوَى
كعشرة آلاف قرنٍ يصيح
فخار الفريقان واضطربا
رآه ذيوميذ وهو يطير
بُخارًا تَقَتَّم تحت الغُيوم
فأدرك أولمبِسًا بالعجل
وقَرَّ لديه يريه دماه
«أترضى ولي البرايا بما
على بعضنا بعضنا يفتري
ولوم الجميع عليك استقر
أليفة حمق خليفة نكر

لتخفَى عليه وَيَبْدو لَدَيْهَا ٨٦
فأبقى القَتيل طريحَ الثَّرى
وكل سلاح البراز شَهَر
يَمُرُّ على الثَّير فوق العنانِ
وعنه أَطاشَتُهُ فابْتَعَد ٨٧
فألقتَه في خصر رب المِحنِ
وهم ابن تيزيس الرُّمَح يسحب
يزعزع أركان ذاك الفضا
مَعًا فوق ذاك المجال الفسيح ٨٨
وآريس بالسُّحْب احتجبا
بقلب الغمام بادي الرِّفير
تَهَبُّ به عاصفاتُ السَّمووم
وجاء إلى زفس جم الوجل
يَبْتُ لَهُ حَنَقًا مشتكاه
ترى من فظائع آل السَّما
جزأفا لأجل بني البشر
لأنك أنتجت رَبَّة شَرُ
وليست لغير المفاسد تجري

فكل أهالي السَّما لك تخضع
سوى فالس عن مجازاتها
فلمست لها أبدًا تنتهر
وتطمع مغترة بأبيها
فها هي تغري ابن تيزيس أن
فأقبل يطعن قبريس باليد
ولو لم أطر بخفيف القدم
والا وعني الحمام منع
فأطرق زفس مغيظًا وقال
فلا تشك أمرك بعد إلها
فدأبك ما زال بين الأنام
فأمك هيرا وعرق العناد
يثقلني ردعها وإخالك
ولكنني لست أرضى عذابك
فلو كنت ما أنت من غير رب
وسفلت بالذل والهون عن
وفيون نادى فبلسمه
ففي الحال والموت لا يعتري
كما يخثر اللبن المختلج

أنت لها كلما شئت تردع
تجاوزت تُغفل زلَّاتها
ومن نفسها هي لا تُعتَبر
لأن قواه الشداد تقيها
يصول علينا ويرمي ويطعن
وصال عليَّ كربّ مخلد
لألقيت بين رفات الرمم ٨٩
لعانيت آلام من قد صرع ٩٠
«عتوت ولا تستقر بحال
فإنك أبغض ربّ لـديا
شقاقًا ومفسدة واختصام
سرى لك منها وهذا الفساد
تقفّيها وبذاك وبالـك
لأن لزوجي وصلبي انتسابك
لأهبطت من قبل أدنى الرتب
بني أورنس من قديم الزمن» ٩١
على الجرح ذر فألامه
بني الخلد في لحظ طرف بري
عصير من التين فيه مزج

وهيّا على عجل غسلته	وفاخر ملبسه ألبسته
وبالعجب والته والكبر أقبل	إزاء أبيه لدى عرشه حل
ومذ أخدمت نار فنته	وخفت شرارة وطأته
أئينا وهيرة أسـرعتا	ونحو أعالي السما علتـا ٩٢
فقلت اتقي بأس تلك القرون	وكن بالمآدب إلف سكون
فلم يملك النفس عمّا تَعَوَّد	وَرَاخَ بِـرَازُهُمْ يَتَعَمَّد

هوامش

(١) إذا أراد هوميروس أن يبرز تصوّره لسامع شعره وراويّه، فإنما يبرزه بصورة رائعة ونهج يشوق، فإذا تعددت المواقع سلك في كل موقعة مسلّكاً جديداً، وأبرز كل بطل من أبطاله على ما يوافق صفاته التي آلى على نفسه أن يصفه بها ليتم التناسب بين كل أجزاء الأناشيد، فحيثما رأينا آياس مثلاً فهو كالطود الراسخ لا يتزعزع، وحيثما رأينا أغاممنون فهو ذو المقام الرفيع العلي الشأن، وأوديس الداهية المقدام والنابعة الهمام، وذيوميذ السهم المنطلق والسيل المندفع، وهلم جرّاً، على أنه يربط كل ذلك بسلسلة تتماسك حلقاتها تماسكاً يجعلك لا تنسى واحدة منهنّ، وينوّع لك الحوادث وتشابيهها مهما كثرت، فلا يكاد يقتل فارسين مقتلاً واحداً أو يغير إغارتين متمثلتين كأنّه طمع في أن لا يدع لمتأخّر مجال الابتداع فوق ما ابتدع، وقد رأى هنا أن يميز ذيوميذ في واقعة هذا

النَّهار، فأظهره بمظهر من البأس ليس فوقه مظهر، ولكي يقرب كلامه إلى التصديق أفاض عليه عون فالاس أي: أثينا، فلم يبق من ثم محل للاعتراض إنه أتى أفعالاً تعجز عنها أفراد البشر، وهذا نتيجة أخرى من نتائج اعتقادهم أن المرء منفرداً غير مرموق بعين العناية لا يقوى على دفع ضرر وإتيان أمر، وأن لتلك العناية غايات لا يدركها البشر، فالاستسلام لها واجب في كل زمان ومكان.

(٢) مهما أخذ الشُّراح هذا الكلام على ظاهره، وقالوا إن النور كان يتدفق من ذيوميد، فلا أرى في هذا التشبيه البديع إلا إشارة إلى لمعان شكته، وهو كثير في كلام الشعراء، ولكن المطرب في كلام هوميروس تخلصه بوصف تلك الكوكبة ممتطية رقيق السماء، وهي صاعدة من عباب البحر، ولم أر في شعر العرب ما يقارب هذا المعنى إلا قول دريد:

تقول هلالاً خارج من سحابة إذا جاء يعدو في شليل وقونس

«الشليل ثوبٌ يلبس تحت الدرع والقونس بيضة الخوذة» والمراد بكوكبة الخريف الشعري اليمانية أو العبور كان لها شأن عظيم في مراقب الكلدان، وبنيت عليها جميع الأمم القديمة خرافات كثيرة، وفي كتب العرب أنها هي والشعري الشامية أو الغميصاء أختان أقبل عليهما سهيل من ناحية اليمن، وأقبلتا من ناحية الشام حتى انتهى الفريقان إلى شاطئ المجرة (المدعوة عند عامة سوريا بدرب التبان) وهي عندهم نهر

السماء العظيم، فخطبهما سهيل فأجابتا فعبرت إليه الشعري اليمانية؛
ولهذا سميت العبور ولم تستطع الشامية أن تعبر فجعلت تبكي حتى
غمصت عيناها فسميت بالغميصاء، وأصل هذه الخرافة من الكلدان.

(٣) قوله: أقدم أي: ذيوميد.

(٤) لما خلت المركبة من راكبيها؛ فيغس القتل، وإيديوس
المنهزم باتت مغنماً لذيوميد، فأمر صاحبه بسوق جياها إلى سفنه.

(٥) أرطيميس إلهة الصيد فهي أحكم الرماة.

(٦) القذال مؤخر الرأس.

(٧) قد نهجنا في الأبيات التالية أحد المناهج المبتكرة كما
أسلفنا في المقدمة.

(٨) لما راق الشاعر أن يتغنى بذكر بسالة ذيوميد في هذا النشيد
تفنن بالوصف والتشبيه تفنناً لا يدرك شأوه، وحسبك تشبيهه إياه هنا
بالسيل المندفق، وهو تمثيل مرّ على قرائح الكثيرين من الشعراء الذين
قرءوا الإلياذة، وقلدوا والذين تبادر ذلك إلى ذهنهم عن غير رواية أو
تقليد، ولولا معلقة امرئ القيس لقلنا إنه لم يحسن شاعرٌ إحسان
هوميروس بتهيئة ذلك السيل، وقد ضاق عنه مجراه في الخليج،
فاستأصل الجسور الكبار المعترضة له، وقض السد ودفع الزبد، وكأن
قريحة الشاعر نفسه فاضت فيضان ذلك السيل، فلم تقف عند ذلك

الحد فجعلته يقوض مباني الزراع، ويستطرد إلى ذكر سببه المنبعث من زفس إشارة إلى أن كل قوة سماوية أو أرضية إنما تنبعث من قدرة القدير.

ومهما كان من بلاغة هذا الوصف فهو لا يفضل بشيء وصف امرئ القيس إذ إذ ألمَّ بمعاني هوميروس، وزادها رواءً وتفصيلاً، ولم يغفل منها إلا ذكر اليد العليا القاضية بكل أمر، وهو إغفال عام في الشعر العربي الجاهلي. قال:

أَصَاحَ تَرَى بَرْقاً أَرِيكَ وَمِیْضُهُ	كَلَمَعَ الْيَدَيْنِ فِي حَبِي مُكَلَّلِ
يُضِيءُ سَنَاهُ، أَوْ مَصَابِيحُ رَاهِبٍ	أَمَالِ السَّلَیْطِ بِالذَّبَالِ الْمُفَقَّلِ
قَعَدْتُ لَهُ وَصَحْبِي بَيْنَ ضَارِحِ	وَبَيْنَ الْعُذِیْبِ، بُعْدَ مَا مُتَأَمَّلِي
عَلَى قَطَنِ بِالشَّيْمِ أَيْمَنُ صَوْبِهِ	وَأَيْسَرُهُ عَلَى السَّتَارِ فَيَذْبُلِ
فَأَضْحَى يَسُحُ حَوْلَ كُتَيْفَةٍ	يَكْبُ عَلَى الْأَذْقَانِ دَوْحُ الْكَنْهَبِلِ
وَمَرَّ عَلَى الْقَنَانِ مِنْ نَفْيَانِهِ	فَأَنْزَلَ مِنْهُ الْعُصَمَ مِنْ كُلِّ مَنْزِلِ
وَتَيَّمَاءَ لَمْ يَتْرُكْ بِهَا جَذَعَ نَحْلَةٍ	وَلَا أَطْمَأَ إِلَّا مَشِيدَا بَجْنَدِلِ
وَأَلْقَى بِصَخْرَاءِ الْعَرِیْطِ بَعَاعَهُ	نُزُولَ الْيَمَانِي ذِي الْعِيَابِ الْمُحْجَلِ
كَأَنَّ ثَبِيرًا فِي عَرَانِينَ وَبِلِهِ	كَبِيرُ أَنْاسٍ فِي بَجَادٍ مُزْمَلِ
كَأَنَّ دُرَى رَأْسِ الْمُجِيمِرِ غُدُوَّةَ	مِنَ السَّيْلِ وَالْغُثَاءِ فَلَكُهُ مِغْرَلِ
كَأَنَّ مَكَائِي الْجِوَاءِ غُدِيَّةَ	صُبْحَنَ سُلَافًا مِنْ رَحِيقِ مُقْلَقَلِ
كَأَنَّ السَّبَاعَ فِيهِ غَرْقَى عَشِيَّةَ	بَارْجَائِهِ الْقُصُوى أَنَايِشُ غُصْلِ

شرع في وصف البرق السابق للغيث، فقال: إنه يتألق ويميل وميضه كاليدنين تتراوحيان في حبي أي: سحب متراكم صار أعلاه لأسفله إكليلاً، فينبعث منه النور انبعاثه من مصباح الراهب أشيع فتيلته زيتاً، قال: وقعت وأصحابي أتأمله بين العذيب وضارج، ثم استطرد إلى ذكر السحاب والمطر المنهمر بعد البرق، فقال: إنه امتد من جبل قطن يمينا إلى جبلي الستار، ويدبل يساراً فشمّل مسافة عظيمة، وأخذ ينصب سيلاً من الجبال والآكام، فيقتلع أشجار الكنهبل العظام، ويلقيها على رؤوسها لشدة تدافعه، ووقع على جبل الفنان مما تناثر وانتشر من رشاش هذا الغيث ما أنزل عنه الأوعال المعتصمة فيه لشدة انصبابه، ولم يغادر نخلة في قرية تيماء ولا بناءً فاستأصل النخيل، وهدم الأبنية السماء إلا ما كان منها مشيداً بالصخر، وكان جبل ثبير والمطر يتدفق عليه كسيد قوم ملتف بكساء مخطط لكثرة ما كان عليه من الغناء والزيد، وكانت ذروة رأس المجيمر كفلكة المغزل لما أحاط بها من الإغناء، ولما استتم وصف الغيث وسوابقه أتى على وصف لواحقه، فقال نزل بصحراء الغبيط نزول التاجر اليماني المحمل عباباً أي: انبت فيها من الكلاء وضروب الأزهار وألوان النبات ما يشبه ضروب الثياب المختلفة الألوان التي ينشرها التاجر اليماني، وهو يعرضها للبيع، وانتهى بوصف ما في تلك البقاع من طائر وحيوان، فقال: إن طير المكاكي كانت (لحدة ألسنتها وتتابع أصواتها، ونشاطها في تغريدها) كمن شرب صباحاً أجود الخمر من

الريحق المفلفل الذي يشحد الذهن واللسان، وأما السباع الغرقى فكانت كأصول البصل البري (لكثرة ما تلطخت به من الطين والماء الكدر)

(٩) صنديد ليقيا هوفنداروس بن ليقاؤون.

(١٠) المراد بابن زفس أفلون؛ لأنه كان ولي فنداروس.

(١١) كان ذيوميذ راجلاً كما مر، فلهذا ترجل رفيقه حتى يجتر السهم من كتفه.

(١٢) بنت رب الترس هي أثينا التي هيأته لذلك اليوم؛ ولهذا وجه دعاءه إليها.

(١٣) كان الآلهة إذا اختلطوا بالبشر أو تمثلوا لهم بهيآتهم تشابهوا عليهم، فلا تنجلي حقيقتهم إلا لمن أرادوا أن يتجلوا له فلو لم تفتح أثينا أي: الحكمة عيني ذيوميذ لما تسنى له في ذلك العجاج أن يفرق بين العابد والمعبود، وإن من معتقد الإنسان في أكثر الأزمان أن عينيه لا تتفتحان للتمييز بين ما يعلم وما لا يعلم إلا بمشيئة فائقة وعناية خاصة، وقد جاء في التوراة من أمثال ذلك: أن الله عز وجل فتح عيني هاجر فرأت عين الماء، وفتح عيني بلعام فرأى ملاك الرب واقفاً في طريقه وسيفه مسلول بيده، وفي القرآن: يغشي الله على البصائر والأبصار ويفتحها أيان شاء.

(١٤) قبريس هي الزهرة، ولا بدع أن نرى أثينا ناقمة عليها؛ لأن قبريس ربة الهوى، وأثينا ربة الحكمة والتماذي بالهوى والحكمة أمران لا يتفقان، وإن كان مصدرهما واحداً، كما أن قبريس هي أخت أثينا لأبيها، وكلاهما ابنتا زفس أبي الأرباب والبشر، فكأنها قالت له صن حكمتك، وانبذ هوى نفسك، وافتك به وبني جنسه.

(١٥) قد انتقد على هوميروس كثرة تشبيهه بالأسود، وفات المنتقدين أن يروا تفننه في تلك التشابيه إذ لا تكاد تراه يشبه بالأسد مرة على مثل ما سبق له التشبيه به، وهذا التنوع يذهب بلا ريب بخطورة الانتقاد، ويعرب عن غزارة مادة قلما توجد في شخص واحد.

(١٦) البأديل ما بين العنق والترقوة.

(١٧) لا نكاد نرى قتيلاً يقتل حتى نرى له مصرعاً مؤثراً في النفس، وأي تأثير يحصل لقارئ الشعر أعظم من تأثيره لشيخ عاجز، واسع الجاه، كثير المال، عدم ابنين لا أمل له بثالث من بعدهما، وهذا أيضاً من حكمة الشاعر؛ تخفيفاً من الشاغل الذي يلم بالمرء لدى تلاوة فصول الوقائع الطوال التي تخر فيها الأبطال من كل جانب.

(١٨) هنا تشبيه آخر بالأسد وهو على ما ترى لا يماثل بشيء تشبيهه السابق.

(١٩) كان أنياس زعيم الدردنيين، وهو بين الطرواد وحلفائهم في المقام الأول لا يفوقه بالبسالة والهمة إلا هكتور، فشأنه في ذلك الفريق كشأن آياس وذيوميذ بين الإغريق إذ جمع بين ثبوت جأش آياس، وخفة ذيوميذ، وهو الذي بنى عليه قرجيليوس منظومته الكبرى، وهياً بالهيئة التي مثله بها هوميروس إلا أنه زاد في الإسهاب والإطناب، ومن عقب أنياس هذا كان في زعم بعض المؤرخين مؤسسو دولة الرومان.

(٢٠) الاهتوار: الهلاك.

(٢١) هذا أول كلام نطق به أنياس، وهو يشف عن ورعه وتقواه إذ أنه لما حث فنديروس على إطلاق سهمه على ذيوميذ نبّه إلى بسط كف الضّراعة لرفس، ثم سأل مرتباً ما إذا كان ذلك البطل المغوار من غير بني البشر.

(٢٢) ائتراراً أي: مجازفةً.

(٢٣) كان فنديروس زعيم الليقيين من أرمى الرماة في عصره؛ ولهذا دفعه أنياس إلى رمي ذيوميذ بسهم قد يكفيه مئونة الكر عليه، فيدخر بأسه لسائر الأبطال، وفنديروس هو مثال العاجز المتبجح، والبخيل المقتر الذي يلتمس عذراً يستر به عيوبه، فهو ذو ثروة طائلة وسعة حال، أتى بنفسه راجلاً لئلا يسأم ثقله خيله واعتذر بامتناع الكلاء، ثم لما لم ينل وطره من أغاممنون وذيوميذ إذ رماهما ألقي تبعه ذلك على قوسه، وتوعدها بالسحق والحرق، وهي حماقة لا يفوقها إلا حماقة

الكسعي في جاهلية العرب إذ خرج لصيد المهى ليلاً فمَرَّ أمامه سبعة منها، وكان كلما مر واحد رماه فيتطاير شرر سهمه من صخر يقع عليه، فحنق على قوسه وكسرها ظنّاً منه أنه أخطأ مرماه فلما رجع في اليوم التالي إلى ذلك المحل رأى أنه لم يخطئ شيئاً منها بل كان السهم ينفذ من الحيوان إلى الصخر، فندم ندامةً ضرب بها المثل، وأعظم من هذه الحماقة حماقة البفلغوني الذي روى أفستاثيوس أنه أخطأ مرماه مراراً متوالية، فتمادى به اليأس حتى شق نفسه.

(٢٤) تعلم من كل كلمة ينطق بها آنياس ما كان عليه من الإقدام الصحيح، وقلة الأثرة وصغر الدعوى، فهو مع علمه بأنه أطول باعاً من فنداروس خيره بسوق الجياد أو الجلاد، ولم يجزم بالنصر لنفسه كسائر الأبطال؛ ولهذا مدح جياده بجريها كراً وفراً وربما أراد بذلك أيضاً أن يخفف من هيبة الملتقى على فنداروس.

(٢٥) يعلم من هذا الموضع وما أشبهه أن فصائل الفرسان كانوا يقاتلون ركوباً على مركباتهم زوجاً زوجاً أحد الفارسين لسوق الخيل، والثاني للطعان والإبلاء، والقتال على هذا النمط أشبه شيء بقتال البدو في بلاد العرب إذ يمتطون الإبل أزواجاً، فالرّادف يصاول والرّديف يقاتل.

(٢٦) الاثثار: التأثر والتقفي.

(٢٧) في أساطيرهم أن غنيميذ بن أطروس ملك طروادة كان بديع الجمال طاهر الخلال، فخرج يوماً للقصص على جبل فإذا فنزل عليه

زفس بهيئة نسر، واختطفه إلى السماء، فأقام في الأولمب، واتخذ زفس ساقياً؛ ولهذا سمي الدلو وهو البرج الحادي عشر، ويقال في أصل تلك الخرافة أن أطروس كان قد أرسل ابنه غنيميد إلى ليديا؛ ليضحي لزفس، وكان طنطال ملك تلك البلاد يلقب بزفس، فأساء الظن بغنيميد وأصحابه وحسبهم عيوناً أتوا متجسسين فقبض عليهم، وأمر الغلام فقام يسقيه على الطعام.

(٢٨) الوتيرة: ما بين المنخرين.

(٢٩) قلنا: إن هوميروس يكاد ينوع قتلاته بما يقارب عدد القتلى، وذلك من حسن التصور الشعري، على أنه لا بد من التنبيه إلى أمر آخر، وهو اعتناؤه بتطبيق الطعان على ما يوافق التصديق والحقائق، ولا نخال عالماً من علماء الأقدمين كان أعرف منه بالتشريح إذ لو أخذت كل طعنة سواءً أصابت مقتلاً أو لم تصب رأيته وصفها وصف الطبيب اللبيب الذي يلم بوظائف كل عضو من أعضاء الجسد.



شكل ١: زفس بهيئة نسر يرفع غنيميد إلى السماء.

(٣٠) تزعم عامتنا زعم عامة اليونان في زمن هوميروس من أنه كلما طال عهد الإنسان تراخت قواه، وصغر جسمه، وقل عرضه وطوله وهو زعم ينبذه علماء الجيولوجيا والانثربولوجيا فإن بين حرب طروادة وهوميروس نحو خمسمائة عام، فإذا تناقصت في أثنائها قوة الرجل الواحد إلى رجلين، فمن البديهي أن لا تكون قوى رجالنا الآن شيئاً مذكوراً، ولا تفوق أعمارها أعمار الهرة وصغار الحيوان، أما المحاذفة

بالحجارة فمن أقدم ما جرى عليه الناس من قبل عهد التاريخ، والظاهر أنه حيناً بعد حين تهزهم الفطرة إلى العود على البدء، وفي براز داود وشاول ما ينبئ أن الحجر كان من خيرة أنواع السلاح، قالت شاعرة بني حنيفة:

فإن تمنعوا منا السلاح فعندنا سلاح لنا لا يشتري بالدرهم
جلاميد إملاء الأكف كأنها رءوس جبال حلقت بالمواسم

(٣١) لقد تساءل القوم كيف يصح أن هذا البرد يقي آنياس من طعان الناس، ولا يقي الزهرة نفسها كما ستري عما قليل، ولا جواب على ذلك إلا أنه كان حرراً يدفع الموت، ولا يقي من الجراح.

(٣٢) ابن قفانيس هو رفيق ذيوميذ ورديفه.

(٣٣) لقد مر أن الزهرة غيبت فاریس عن موقع القتال، ولم يصبهما أذى وأما هنا فلم يكن الأمر كذلك بل أبصرها ذيوميذ، ولم يحفل بها بل تحامل عليها وطعنها؛ لأن أثينا فتحت عينيه فأبصرها وأثارت جأشه فرماها، وفي هذا رمز لطيف إلى أن المتذرع بالحكمة يقوى على كبح الشهوات مهما اشتد به الهوى.

(٣٤) أردنا بالبهجات الفتيات الثلاث المدعوات خاريتيس (Χαριτες) باليونانية وجراسيه (Gratiae) باللاتينية و(Graces) بالفرنسية والإنجليزي، قالوا: كنّ بنات زفس وأفرينومة وفي رواية بل بنات

أفلون والزهرة، وشأنهن ترويح النفوس وإجلاء البئوس، كنَّ يرئسن حفلات الولائم والأعياد، وكان اليونان يقسمون بهنَّ ويفتتحون الولائم بشرب نخبهنَّ، وكنَّ على الجملة مثال الجمال الباهر، والسرور الطاهر.

(٣٥) لما كان آلهة اليونان بهيئة البشر بالمظهر الخارجي، والعواطف والإحساس والمطعم والمشرب كان لا بد لهم من مميزات تميزهم في كل هذه الأحوال، فهم يأكلون ولكنهم لا يذوقون الخبز، ويشربون وليس لهم خمر ولا مسكر كمسكرنا، ويجري الدم في عروقهم ولكن لا كجريه في عروق الإنس، فهم كائنات السماء، والسماء وسكانها لا يعتريها الفساد فلا تزول ولا تنقضي أيامها ولا أيام كائناتها، وهنا إشارة إلى أن الأرض وما عليها من حي وغير حي عرضة للزوال، ومجلبة للفساد والاضمحلال.



البهجات.

(٣٦) أم قيريس أي: الزهرة هي ذبونة المذكورة في البيت التالي، وهي ابنة الأوقيانوس وتيثيس، وأما أبو الزهرة فهو زفس، والانحناء على الركب لا يفهم منه أنها جثت، وإنما يراد به أنها انحنيت على ركبتي أمها، وهي عادة ذلك الزمان في استعطاف الصغير للكبير،

أما السجود للصلاة والتضرع، فيظهر أنه لم يكن معروفاً عندهم إذ لا نراهم يصلون ويدعون إلا باسطين أكف الضَّرَاعَة، وهم وقوف.

(٣٧) لأن آنياس كان ابنها على ما مرَّ.

(٣٨) ليس المراد بالهلاك الموت، وإنما العذاب الشديد، وهو تعبير شعري من وجه وديني من وجه آخر، وأمثلة ذلك كثيرة في التوراة والإنجيل والقرآن إذ يعبر بالهلاك عن العذاب.

(٣٩) كان فيون باعقدهم في زمن هوميروس طيب الآلهة، يزعم البعض أن الأصل في هذه الخرافة أنه كان نطاسياً ماهراً نشأ في بلاد مصر، ويذهب آخرون إلى أنه لقب أفلون؛ لأن الشمس تبرىء السقام وتخفف الآلام وقد صار من ثم علماً لكل طيب، كل هذه إشارات إلى روايات كانت متواترة في أزمانهم، ومحل تفصيلها في كتاب التراجم، على أنه يحسن بنا هنا أن نذكر أنها جميعها رموز إلى أمور طبيعية، فقد ذكرت ذبونة هنا تسلط البشر تسلطاً وقتياً على ثلاثة من الآلهة وهم: آريس وهيرا وأديس، فالأول إله الحرب، ويتسنى للناس كسر شوكته إذا كثرت رويتهم، وقلت نهمتهم، ثم هيرا امرأة زفس المعروفة بالخدعة والدل، وكلاهما يدينان ويدلان في بعض الأحوال، والثالث إله الجحيم وهو عبارة عن الشر، فيمكن كبح جماحه واتقاء جناحه، وليس لنا من جملة هذه الأمثال مثل لقهر أثينا ممثلة الحكمة وأشباهاها؛ لأن الحكمة لا تضل ولا تذلل.

(٤٠) علمت ذبونة أن أثينا هي التي أغرت ذيوميذ، وأمّا الزُّهرة على كونها آلهة ففاتها عرفان ذلك؛ لأنها ممثلة الهوى والهوى فضّاح تضطرب لديه الأفكار فلا تنفتح به الأبصار.

(٤١) لم تكن أغيالاً كما قال الشاعر ذات عقل رجيح؛ لأنه مذكور في تواريخ تلك الأيام أنها خانت زوجها، وهامت بغيره أثناء غيابه، ولما ألفت الحرب أوزارها وعاد ذيوميذ على أمل أن يحظى بلقيا الزوجة الأمينة والرفيقة المعينة، فإذا بها قد ألفت بمقادة الحب إلى شخص غريب علق به قلبها، فاضطر ذيوميذ إلى الفرار من بلاده فكأن الزهرة انتقمت منه بما لها من السلطة على القلوب، فإما أن يكون هوميروس جاهلاً لتلك الرواية لعدم شيوعها في زمانه، وإما أن يكون قال ما قال وهو يصفها قبل تلك الخيانة.

(٤٢) لم يكن لوالدة أن تسكن روع ابنتها بأرق من هذا الكلام، والشاعر كجاري عاداته يسهب مكان الإسهاب، ويوجز موضع الإيجاز، فالمقام مقام تعزية وتسكين ولا يسكن جأش المصاب بكلمات قلائل، فلهذا أتت أولاً على ذكر آلهة أعز جانباً من ابنتها أصيبوا بأشد من مصابها، ولم تبق لها موضعاً للهفة والقنوط، ثم أعادت الكرة على ذيوميذ فتنبأت لها بما سيناله من العقاب الشديد، ولا سيما بحرمانه البنين لذة الحياة الدنيا، وتلك شر رزية يخشاها الآباء، وسرى من كلام فينقس في

النشيد التاسع شدة تلهفهم على العقب فكأنها ذرّت لها بلسم الشفاء
وفرجت عنها كربة العناء.

(٤٣) لا بدع أن تبادر أثينا وهيرا، فتسبقان قبريس إلى زفس
فتكلمانه بما هو مأثور عنها من التحرش بالغللمان والفتيات لتخففا من
غيظه إذا اغتاظ، وتلتمسان بالهزل طمس حقيقة لا تخفى عليه، وإنما
يشوقه هزلهما فيصبر عنهما؛ ولهذا نراه باسمًا في البيت التالي كأنه
تجاوز عنهما إلى ما هو أعظم شأنًا في تلك الحال.

(٤٤) لم يتحامل ذيوميد على أفلون تحامله على الزهرة؛ لأنه
إنما كان مندفعًا بصولة أثينا، وهي لم تأذن له إلا بطعن الزهرة، أما تصديه
لأفلون فلم يكن بالأمر المعقول؛ لأنه إله ذو بطش شديد، وإذا نظرنا إلى
الأمر من وجه رمزي، فذلك أيضًا غير معقول؛ لأن أفلون ممثل الشمس
والقدر ومقاومتهما أمر محال في كل حال.

(٤٥) إن في إرسال هذا الطيف تعبيرًا شعريًا لطيفًا يشير إلى
أنهم لم يعلموا بتغيبه.

(٤٦) المسرّدة الحصداء الدرع المحكمة، والمجوب الترس.

(٤٧) فرغام أو فرغاموس قلعة إليون، وقد تطلق على البلدة
نفسها.

(٤٨) لم يتجرأ أحد من قوم هكطور تجرؤ سرفيدون عليه في هذا المقام، فعيره بما لم يكن يصبر له لو صدر من طروادي، ولكنه كلام مفحم لا يرد عليه، ولا يكذب ولا يعاب، وزد على هذا أن هكطور وصحبه كانوا في حاجة كبيرة إلى حلفاء يقاتلون معهم جنباً لجنب، ولا مطمع يغريهم على الاستبسال، فإذا غادروا الحرب كان البلاء كل البلاء على الطرواد والحلفاء لا يمسئون بأذى كما قال سرفيدون:
وهنا ليس لي متاع ولا ما الّ فأخشى أن العدى يسلبوني

أو كقول الطغرائي:
فيم الإقامة بالزوراء لا سكاني فيها ولا ناقتي فيها ولا جملي
ولهذا لم يكن لهكطور جواب أوقع من الصمت والاجتزاء عن القول بالفعل.

(٤٩) قال عنتره:
ويطربني والخيّل تعثر بالقنا خُداة المنايا وارتهاج المواكب
وضربٌ وطعن تحت ظل عجاجةٍ كجنح الدجى من وقع أيدي السلاهب

(٥٠) ذيمتير إلهة الزراعة والخصب وقد مر ذكرها، وهي سيريس اللاتين أو الإفرنج كانوا يمثلونها ويدها سنبله أو زهرة خشخاش وما أشبه، لم أر للغبار تشبيهاً أبدع من هذا التشبيه، ولعله وارد في شعر

العرب وخفي عنا أو أنه لم يحفل به شعراؤهم لقلة اشتغالهم بالزراعة في باديتهم.

(٥١) احتجاب أثينا إشارة إلى شدة الالتحام واختلال النظام كما أن انسداد الغمامة فوق الجيش في البيت التالي إشارة إلى اكفهرار الغبار.

(٥٢) لما وصف الجنود المثبتة في مكانها متهيئة للكفاح، وشبهها بالغيوم المتلبدة فوق الجبال هيأ للتصور منظرًا مهيبًا قلما يراه سكنة السهول، ثم استطرد فمثل للتصور ذلك المشهد أثناء هجوع الأنواء؛ لأنها في عرفهم كما علمت أشخاص مجسمة تهجع وتستفيق، فإذا هجعت فقد تبقى تلك الغيوم راسخة كالجبال فوق الجبال يتهيب لمنظرها الرائي، قال بعضهم: رمز الشاعر بقوله: «الأنواء فيهن تلعب» إلى ما سيكون من تمزق شمل الإغريق في تلك الواقعة، وهو تصور حسن قد يمكن أن يكون قصده الشاعر إلا أنه لا يبعد أن يكون من جملة المتممات اللاصقة بأكثر تشابيه هوميروس.



شكل ٢: ذيميترو.

(٥٣) كل كلمة من هذا الخطاب على إيجازه تقوم مقام العبارات الطوال، والجميل الفخيمة في خطب الملوك والأقيال لا سيما أن الساعة ساعة حرب لا سبيل فيها إلى إطالة الكلام، ولم يكن غير أغاممنون لينطق بمثل هذا النطق، وإن وجد بين القوم من هو أبعد منه نظرًا وأوفر حكمة؛ لأنه ليس إلا للزعيم الأكبر بعد التلطف بالمقال أن يعد البطل المقدم بحسن المصير، ويتوعد النكس الجبان بالموت والعار، وهذا من مميزات شاعرنا إذ لا يكاد يصدق في كلامه منطلق رجل

إلا إذا كان من ذلك الرجل، وما أشبه خطاب أغاممنون هذا بكلام الإمام علي بن أبي طالب يوم قام يخطب في الناس قبل واقعة صفين، قال: «وَطَّنُوا أَنْفُسَكُمْ عَلَى الْمَنَازِلَةِ، وَالْمَجَاوِلَةِ، وَالْمَزَاوِلَةِ، وَالْمَنَاضِلَةِ، وَالْمَعَانِفَةِ، وَالْمَكَارِمَةِ، وَالْمَلَازِمَةِ، وَأَثْبِتُوا وَلَا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ، وَاصْبِرُوا إِنْ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ».

ولعنتره بمعنى البيت الأخير:

لعمرك إن المجد والفخر والعلى	ونيل الأمانى وارتفاع المراتب
لمن يلتقى أبطالها وسراتها	بقلب صبور عند وقع المضارب
ويبني بحد السيف مجداً مشيداً	على فلك العلياء فوق الكواكب
ومن لم يروي رحمه من دم العدى	إذا اشتبكت سمر القنا بالقواضب
ويعطي القنا الخطي في الحرب حقه	ويبري بحد السيف عرض المناكب
يعيش كما عاش الذليل بغصة	وإن مات لا يجري دموع النوادب

وكل ذلك يجمعه قوله في موضع آخر:

من لم يعيش متعزّزاً بسنانه سيموت موت النذل بين المعشر

(٥٤) لا يغفل شاعرنا هنيهة واحدة عن تفكّهة القارئ بما ترتاح إليه النفس؛ ليرسخ في ذهنه كل ما أودع شعره من الحكمة وحسن التمثيل، ولو سرد تباعاً أسماء قاتليه ومقتوليه لكان نظمه خلواً من

الطلاوة التي اشتهر بها، وإذا قص قصة أو روى رواية، فإنما يختار لها الوضع الذي لا يمكن أن تكون في سواه، ولنا على هذا مثالٌ مقتل الأخوين هنا فقص قصتهما بنسق مؤثر، وختمها بتشبيهين بالغين في الدقة والهيبة، فكأنما اضطر راوي شعره إلى حفظ تلك الذكرى.

(٥٥) مهما اعترض شعر الإلياذة من الأفاقيص الخرافية، فهو برموزه وحسن سبكه وارتباطه منسوج على متوال لا يأباه العقل، فإن منيلاوس لم يكن من أكفاء أنياس فلما انبرى له لم يكن ذلك إلا بسوق آريس إله الحرب أي: بثوران نار الحمية في رأسه، فغيبت عن بصره سوء المصير، فكان من ثم من الحزم أن يتقدم أنطيلوخ لمعاونته على أنياس خصوصاً أن الحرب أولاها وأخراها كانت انتصاراً لمينيلاوس، فلو قتل فيها لتصرمت الآمال، وضعفت عزائم الرجال وانتهت بنكبة الإغريق، ثم إنه لم يكن في ارتداد أنياس شيء من العار؛ لأنه أصبح أمام بطلين مغوارين إذا قوي على أحدهما فلا قبل له بكليهما، قيل لعنترة العبسي: «أنت أشجع العرب وأشدّهم بطشاً فقال: لا، قيل له: كيف شاع لك هذا الاسم بين الناس؟ قال: إني أقدم إذا رأيت الإقدام عزمًا، وأحجم إذا رأيت الإحجام حزمًا، ولا أدخل مدخلا إلا إذا رأيت لي منه مخرجًا، واعتمد الضعيف الساقط فأضربه ضربةً يطير منها قلب الشجاع، فأنتشي عليه فأخذه والحرب خدعة».

(٥٦) الصروم: السيف.

(٥٧) الكلوم الجراح، يخطر على بال شاعرنا ما لا يدور في خلد شاعر، ولا تكاد تعجب بوصف أو تشبيه إلا ويبدو لك على الإثر ما هو أحسن منه أو مثله بحيث إذا خُيِّرَت في التفضيل لاحترت في الانتقاء، وحسبك شاهدًا هنا مقتل هذا الرجل الناصر رجليه للهواء، وحسن التخلص بطرحه إلى الأرض مدفوعًا بجياده.

(٥٨) أنيو زوجة آريس إله الحرب، وقيل: بل أخته كانت حوذيته تشد الخيل إلى مركبته، وترافقه أو تذهب منفردة لإثارة الحروب، فكانوا يمثلونها منتفشة الشعر ملتعبة البصر، تجري ويدها سوطٌ مخضب بالدماء.

(٥٩) لما كان الفوز للإغريق في ما تقدم، وكان لا بد من إظهار بسالة هكتور وجيشه وانشأهم على العدو، وتنكيلهم به لم يكن أجمل من تصرف الشاعر بإظهار هكتور في صدر جيشه يليه إله الحرب، ورفيقته القهارة وفيه توطئة حسنة لالتواء الإغريق التواء غير مذموم، وانجلاء الأمر لهم بواسطة ذيوميذ؛ لأن أثينا كما تقدم فتحت عينيه ليميز بين الآلهة والناس، فأحجم إحجامًا لا يشوهه عار كمن يطوي بطن البيداء فتصده سيول لا قبل له باجتيازها «فينكص منهذ القوى وهو حائر».

(٦٠) لما انجلت لذيوميذ حقيقة الأمر كان من الحكمة أن ينذر قومه بالخطر المحدق بهم، ويحثهم على التقهقر غير منقلبين على أعقابهم بل موجهين صدورهم للأعداء كجاري عادة الشجعان في ذلك

الزمان وفي كل زمان حتى لا تختل بوجوههم خطة الدفاع، ولا تنالهم طعان العدو في ظهورهم خشية العار، وقد كان من عاداتهم أن المطعون في ظهره ينبذ نبذاً من بين جماعته، وإذا مات لم يجز دفنه، وذلك عندهم منتهى العقوبة لما أسلفنا من شدة حرصهم على إحراز القبور ووصف معتقدتهم فيها.

(٦١) كثيراً ما نراهم في ساحة القتال يعكفون على الأسلاب في ثوران المعمة طمعاً بالمال والفخار؛ لأنها كانت الدليل القاطع على بأس صاحبها، وسرى ذلك بأوضح بيان في النشيد الثالث عشر أثناء مفاخرة أيدومين ومريون بما حوياه من سلاح الأعداء، ولم يكن ذلك شأن العرب كما قدمنا (ن ١). قال العبسي:

ونشرت رايات المذلة فوقهم وقسمت سلبهم لكل غضنفر

(٦٢) لوميدون هو ابن إيلوس وأبو فريام تولى طروادة ثلاثة وعشرين عاماً، وهو الذي حصنها بالحصون المنيعة، وأقام السدود وقاية لها من موج البحر، وفي أقاصيصهم أن أفلون أعانه في بناء المعقل، وفوسيد إله البحر في بناء السدود، ولما انتهى عمل الإلهين، ولم ير لوميدون بوعده لهما فشا الوباء في المدينة، وطفى عليها البحر، فلجأ الطرود إلى استخارة الآلهة، فأوحى إليهم أنه لا مناص لهم ولا نجاة ما لم يعدّ ملكهم ابنته فريسة للنون العظيم أو التنين، فرضخ الملك مضطراً ففزع له هرقل وقتل التنين، فنجت الفتاة على ما يقرب من قصة

مارجرس، وحنث لوميدون يمينه وأخلف وعده مع هرقل، فلم يعطه الجياد التي وعده بها، فانتقم هرقل ودمر البلدة.

(٦٣) بدأ أطلوفيم خطابه بالتهكم على سرفيدون إذ دعاه مشير ليقية إشارة إلى أنه كان قوَّالاً أكثر منه فعَّالاً؛ لأنه كما نقل بوب عن سبوندانوس كان زعيم قوم مضت عليهم أزمان وهم راتعون بأمن وسلام لا يلجون الحروب ولا تفاجئهم الخطوب، وانتقل الخطيب من ثم إلى المفاخرة بحسبه ونسبه، وأشار إلى خراب إليون للمرة الأولى إذ دمرها هرقل انتقاماً من لوميدون ملكها.

(٦٤) لم ينكر سرفيدون مقال ندّه، وإنما أنكر عليه أن ما جرى جرى ببأس هرقل، فألقى التبعة غصّاً من شأن هرقل على لوميدون نفسه كأنه أصيب بما أصيب عقاباً من الآلهة.

(٦٥) أبوه زفس كما تقدم، والمراد أنه لو لم تحط به العناية فيبادر صحبه إليه لهلك.

(٦٦) لقد صدق من قال: إن الشاعر لا يكون شاعرًا إلا إذا كان عالمًا، وإن لم يكن ذا علم وافر، فلا أقل من أن يلم ولو إلماً قليلاً بعلوم زمانه، ويلوح لك من شعر هوميروس أنه كان طبيباً وجراحاً، وفلكياً وصانعاً، ومؤرخاً وجغرافياً، وبالجملة فإنه وعى في صدره كل علوم عصره، ولك هنا مثال بأنه لم ينطق بلسان سرفيدون عند ما أصابته الطعنة بل لام قومه إذ لم يبادروا إلى إخراج النصل من حُقّه، ثم صمت برهة وجعله

يشعر بشدة الألم، ويستغيث وكل هذا ينطبق الانطباق التام على حالة الجريح الذي يشتد به الألم بعد فترة.

(٦٧) إن في سبب إعراض هكتور عن جواب سرفيدون خلافاً في نظر الشراح، ولعل الأقرب إلى الصواب أن الساعة ساعة كفاح لم يكن له أن يضيع منها لحظة في الكلام، ولم يكن يوسعها أن يزيد على ما فعله أصحاب سرفيدون بإسراعهم به إلى الزانة.

(٦٨) وهذا أيضاً من دقائق مطالعات الشاعر إذ أن الجريح يشعر بأشد الألم عند انتزاع السهم من جرحه، فإذا لم يكن الجرح قتالا فنسمات الريح تنعشه وتخفف آلامه.

(٦٩) المهدم إله الحرب.

(٧٠) يشر الشراح من التساؤل كلما انتزع هوميروس مخاطباً من نفسه فمن قائل: إن السؤال موجه إلى إلهة الشعر، ومن قائل غير هذا القول، ولا أخاله إلا نوعاً من التجريد البياني كان يستحسنه اليونان كما يستحسنه العرب حتى جعلوه من أنواع البديع. راجع (ن ٤).

(٧١) لما طال على القارئ مشهد القتال ثنى الشاعر نظره إلى ما كان بين الآلهة من الفرقة للفريقين، فشرع في تهيئة هيرا زوجة زفس وفالاس أي: أثينا ابنته على ما يأتي، سنبين في أول النشيد السادس مطالعتنا بشأن هذا النسق من النظم.

(٧٢) اللب ما يشد من السيور في صدر اللبّة من صدر الدابة، والمراد به هنا السيور على الإطلاق، يخال لك لدى كل وصف من أوصاف هوميروس أنه إنما يصف علمًا وقف نفسه له أو صناعة دأب عليها حياته بطولها، ولنا هنا في وصف العجلة ما يكاد يدلنا على أنه صانع عجال مع كونه شاعر ما تقدمه وما تأخر عنه من القرون الطوال.

(٧٣) المضمّد النير تقرن إليه الجياد.

(٧٤) أي: إن كل ما مرّ مرسوم عليه رسمًا ويفعل فعله جسمًا.

(٧٥) قال پوپ: «إن تصور أثينا متدججة بسلاح زفس يشير إشارة بديعة كما قال أفستاثيوس إلى أنه لا شيء ثمة إلا حكمة القدر، قال: وكان القدماء يشيرون إلى هذا الموضع بعلامة كنجمة تمييزًا لما فيها من سمو المرمي، ولا ريب أن في كل هذا السياق بلاغة وعظمة تحار لهما الأفكار، وتقصر عنهما مدارك كل ذي تصور إلا هوميروس، ولا شيء في أقواله أصرح شهادة من هذا الموضع بالقول الشائع منذ القدم أنه «لا رجل سواه أبصر هيئة الآلهة ولا أحد سواه أظهرهم للناس» فلا وصف أجمل وأبدع مما وصف به مركبة هيرا وسلاح أثينا، وترس زفس بما فيه من رسوم الشقاق والهول والرعدة، وكل نكبات الحرب التي إنما تنتاب الناس على أثر غضبه عليهم، وما أعظم ذلك الرمح الذي به يحطم زفس بقوته وحكمته الفيالق المتأهبة والكتائب المكتبة، ويغض من كبرياء الملوك الذين يسيئون إليه، على أننا لا نعجب من تناهي عظمة

هذه التصورات لدى تأملنا بما بينها من الشبه وبين ما ماثلها في الكتب المقدسة حيث يمثل الإله القدير شاكًا في سلاح النعمة، وهو منحدر بعظمته لينتقم من أعدائه، وفي مزامير داود ذكر كثير للمركبة والقوس وترس الله».

(٧٦) الإشارة إلى مداخل النعيم والجحيم بالأبواب كلاً قديم في كل الأديان فللسماء أبواب في التوراة والإنجيل والقرآن. ويرمز بالباب أيضاً إلى الواسطة والوسيلة كما جاء في الحديث: «أنا مدينة العلم وعليّ بابها». وعلى ذلك بنى البايون مذهبهم توسعاً بهذا المعنى، أما الساعات الواقعة بباب السماء، فالمراد بها الفصول تتناوب واحداً بعد واحد.

(٧٧) قبريس الزهرة، وفيوس أفلون نراهما موالين لإله الحرب؛ لأن الهوى والقدر حليفان له، وأما الحكمة أي: أثينا فلا.

(٧٨) لا شك أن فالاس أي: الحكمة أصلح من هيرا للوقوف في وجه رب الحرب؛ لأن وقوف هيرا في وجهه لا يأتي بمعنى، وهكذا نرى أن هوميروس نطق بكل ما نطق عن قياس ومنطق، فسنراه بعد أبيات وقف بهيرا تصيح دون أثينا؛ لأنها تمثل الهواء والصوت أشد وقعاً بفم هيرا منه بفم أثينا.

(٧٩) لا يعجبن القارئ لهذه المبالغة بسرعة طيران الجياد السماوية بمن عليها، فإنها هي من نتاج السماء تطير بآل السماء، وكم

من مثل لنا يشبه تلك السرعة بخطوات الملائكة بل وغير الملائكة من الجن في روايات العرب وغيرهم حتى لقد نُسبت لأبينا آدم في بعض الكتب خطوات تقارب هذه الخطى أو تزيد كخطوته من جنة عدن إلى جزيرة سرنديب (سيلان)، وأما عفريت سليمان فمن معجزاته فوق ما طرق مخيلة هوميروس، وأما سرعة الخيل فقد تفنن شعراؤنا في وصفها تفننًا لا تذكر بجانبه أقوال شعراء اليونان، ومن تلاهم أحصيت منها مرة نحو خمسين وصفًا، وبقي أمامي شيء كثير، وإنني موردٌ هنا أمثلة قليلة من أنواع مختلفة. قال سلمة بن خرشب الأنماري:

هوَيَّ عقاب عردة أشأزتها بذى الضمرات عكرشة دروم

شبه فرسه بالعقاب المنقضة على الأرنب، والظاهر أن ابن خرشب كان مولعًا بهذا التشبيه فقد سبق له نظيره. (ن ١). وقال أعرابي:
جاء كلمع البرق جاش ماطره تسبح أولاه ويطفو آخره
فما يمسس الأرض منه حافره

•••

وقال مزرد أخو الشماخ:
متى ير مركوبًا يقل باز قانص وفي مشيه عند القياد تساتل
تقول إذا أبصرته وهو صائم خباء على نشز أو السيد مائل

شبه الفرس بطير الباز، وبالسيد أي: الذئب، وهو صائم أي: قائم
وهذا كثير في كلام العرب، ومنه قول الحصين بن الحمام المرّي:
وأجرد كالسرحان يضر به الندى ومحبوكة كالسيد شقاء صلدا

وقال عنتره:

ولي فرسٌ يحكي الرياح إذا جرى لأبعد شأؤٍ من بعيد مرام
يجيب إشارات الضمير حساسةً ويغنيك عن سوطٍ له ولجام

كل ما تقدم من كلام شعراء الجاهلية، وليس المولدون دونهم
إلمامًا بهذه الأوصاف وما أرق ما قال علي بن الجهم:
فوق طرف كالطرف في سرعة الشد سد وكالقلب قلبه في الذكاء
ما تراه العيون إلا خيالاً وهو مثل الخيال في الانطواء

(والطرف المهر) ومثل ذلك قول المتنبي:

يذرى اللقان غباراً في مناخرها وفي حناجرها من آلسٍ جرغ

يريد أن تلك الخيل تشرب من نهر آلس، وتبلغ اللقان قبل أن
تستتم بلع الماء، وبين المحليين مسافة بعيدة، وللمتنبي بيت آخر وعى
معنى هوميروس بعينه وهو:

يقبلهم وجه كل سابحة أربعها قبل طرفها تصل

أي: إنها تضع قوائمها وراء منتهى بصرها، وهذا هو المراد بقول صاحب الإلياذة.

(٨٠) سَمُويِسُ نهر تجاه إليون كان إلهاً من آلهة الطرواد.

(٨١) يقال في حمام الجنان، وطيور الجنان ما تقدم لنا في القول عن سرعة الطيران أنها قديمة في معتقدات الأوائل، وقال بها المصريون قبل اليونان وزعموا أنها لم تكن تبقي من أثر إذا وقعت على الأرض، وكثيراً ما تمثل الملائكة بصور الحمام، ويرمز بها إلى الدعة والخفة والوفاء كما جاء في قصة الطوفان وغيرها.

(٨٢) قلنا: إن هيرا أي: الهواء أصلح لاستنفار الجيش، وإنما ماثلت إستنتور؛ لأنه كان نفير القوم، وكان لذوي الصوت الشديد في ذلك الزمان منزلة هامة في الجيش يقومون مقام الرسل والسفراء، ويؤدون ما تؤديه الطبول والآلات في هذه الأيام، وكانت الملوك والقواد تستخدمهم في الحروب وتفاخر بشدة صديدهم وهديدهم.

(٨٣) تَقَهَّقَرُ أي: تتقهقر وهو كثير في شعر العرب كقول

المعري:

تحاشي الرزايا كل خفٍ ومنسِمٍ وتلقى رداهن الذرى والكواهلُ
وترجع أعقاب الرماح سليمةً وقد حطمت في الدار عين العواملُ

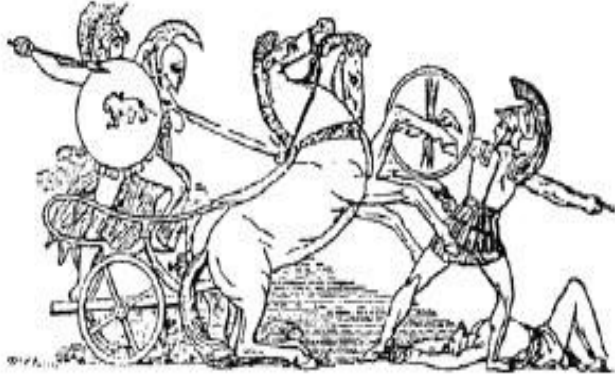
(٨٤) ذلك أصدق وصف للحرب، فهي لا تستقر على حال، ولا تراعي جانب العدل ولا تقف على حد ولا تلوي على جهد.

(٨٥) إستيل هو حوزي ذيوميذ أو رديفه دفعته إلى الأرض لتحل محله، وتلي ذيوميذ بالكفاح فلا يقهره بعد ذلك قاهر.

(٨٦) آذيس إله الجحيم، وخوذته هي التي نعب عنها في كتبنا بقبع المارد يخفي لابس على كل الناس فيرى ولا يرى، وقد ذهب اليونان هذا المذهب؛ لأنهم كانوا يعتقدون أن كل ميت يحل دار الظلمات حيناً من الزمن، فينحدر إلى مملكة آذيس ويتوارى عن الأبصار ومن ثم تأصل فيهم الاعتقاد وأخذوا يرمزون بخوذة آذيس إلى الاختفاء والاحتجاب.

(٨٧) يأول مدّ يد فالاس لإطاشة السنان بتذرع ذيوميذ بالحكمة والحنكة لإطاشته عنه.

(٨٨) يأول كل ذلك باشتداد الكفاح وارتفاع الصيد الشديد، وقد يمثلون ذيوميذ بطعن آريس على نحو هذه الصورة.



ذيوميد يطعن آريس إله الحرب.

(٨٩) لا يؤخذ من قوله هذا أنه يمكن أن يدركه الموت؛ لأن الخلود من لوازم الألوهية، ولا يمتنع عليهم مع ذلك أن يعانون العذاب حيناً من الزمن.

(٩٠) لا عجب أن ييئس إله الحرب هذه الشكوى من ربة الحكمة، ويعزو إليها ما تخلق به من قبيح الخلال، فهي التي تتولى قهره وتكيد نحره، ومن اتصف بسيئة فإنما يصف بها أبعد الناس عنها.

(٩١) في أساطيرهم أن جميع الأرباب من ذرية أورانوس ممثل السماء، قالوا: ولدته الأرض، ثم تزوجها فولدت له ثمانية عشر ولداً ومنهم قرونس (زحل) أبو زفس (المشتري)، ثم تألب قرونس وبعض إخوته عليه فخلعوه.

(٩٢) لما أجلت الإلهتان رب الوغى عن ساحة القتال، أي: لما

فترت عزائم الطرواد لم يبق ثمة داع لبقائهما على نصرة الإغريق فرجعتا
إلى السماء.

النشيد السادس

اجتماع غلوكوس بذيوميد ووداع هكتور لزوجته أندروماخ

مُجْمَلُهُ

خلت ساحة الحرب من كل رب وثار العجاج بطعن وضرب

وما كادت تخلو حتى استظهر الإغريق وولى الطرواد منهزمين،
فأوقفهم هكتور وجرى مسرعاً إلى إليون يسأل أمه الملكة أن تستمد
عون الإلهة أثينا، وتسترضيها بالضحايا والنذور دفعاً لهجمات الإغريق
ويطلبهم المغوار ذيوميد، ولما احتجب هكتور برز لذيوميد غلوكوس زعيم
الليقيين، وقبل أن يصطدما استطلع كل منهما طلع الآخر، فأدّى بهما
ذلك إلى أن تعارفا واذكرا ما كان بين ذويهما من التواد والتصافي بحقوق
الضيافة فتصافحا وافترقا على غير قتال، أما هكتور فإنه دخل إليون،
وسأل والدته أن تذهب بكبيرات العقائل فيتشفعن أثينا ففعلت، وصعد
من ثم إلى حجرة أخيه فاريس، فلقيه مع هيلانة، فمال عليه بالتقريع
والتوبيخ واستحثه على معاودة الكفاح، ثم سعى يطلب امرأته أندروماخ
فلم يجدها في منزلها، وأنبئ أنها ذهبت ترقب حركات الجيش من فوق
الأبراج فجرى عادياً، إليها فلقياها مع طفله وجرى له معها حديث ذو

شأن ثم ودعها وانصرف يجري إلى ساحة القتال، وكان فاريس قد شك في سلاحه فلحق به وخرجا مندفعين إلى السهل.

مجرى حوادث هذا النشيد في اليوم السابق ومشهد وقائعه بين نهري سيمويس وإسكندر، ثم في إلون.

النشيد السادس

ففعج العجاج بطعن وضرب ١	خلت ساحة الحرب من كل رب
قراع السيوف ومد القسي	فمن سمويس إلى زنش
أياس يشق صفوف الأعداء ٢	فبادر بالقوم أول باد
رع ابن إفسورس أكماس ٣	ففرج أول هم وباس يصـ
وجبار هول وقرم عنيد	أشد الثراقة بأسا شديد
فغارت بقلب تريكتـه	لـواه أياس بطعنتـه
فجندل ميتا غضيض الجفون	وشقت إلى المخ عظم الجبين
نزيرل أرسبا الغني الأبر	تلاه ابن نثراكسيل الأغـر
يغيث العباد ويقري الضيوف	ففي مضرب السبل كان يطوف
ليكرم بالقرب زواره ٤	وفوق الطريق بنى داره
ولم يك من عنه يلقي الطعانا ٥	أعان ولم يجده ما أعانا
وخادمه كلسيوس معا	بسيف ابن تيزديس صرعا

وخر أفلط كذاك ذريس
فراح وأبقاهما بالزفير
حفيدي حليف العلى لومدونا
نشا خفية بقلبون بحجر
ولما ترعرع ساق الشياه
فدان لبربارة قلبه
فبأسهما ابن مكست أبادا
وفوليفتيس رمى أستيالا
جرى يطعن الفرقسي فذيت
وأصمى ابن نسطور أنطيلخس
وأترىذ مولى الموالي قتل
وفيلاق ولى يروم الفرارا
وميلنشوس رمى أورفيل
فجيش الطراود والفتك دار
وأدرست شبت تغير الخيول
بغصن من الأثل والكبكه
فسحق مضمدها والجياذ
وأدرست للأرض مذ صرعا

بعامل فريال صدر الخميس
على أسفوس وفيذس يغير
وفرعين من بكره بقلبونا
فتاة أَحَبَّ أبوه بسر
فرامته إحدى بنات المياه
وعن توأمين انجلى حبه
ونال سلاحهما مستفادا
وأوذيس بالرمح مال وصالا
وطفقيِر آريتيوون يميّت
بنافذ عاسله ابلرس
إلاتوس قرم فداسا البطل
فنال بطعن لطوس البوارا
وأدرست حيّا دهاه منيل
يهم قد تراموا بباب الديار
به جامحات بتلك السهول
تباريه أنشبت المركبه
أغارَت وقد أفلتت للبلاد
إزاء محالاتها وقعها

فأدركه وهو يجري منيل
على ركبتيه ترامى ذليلا
فإن كنوز أبي بادخار
فإن تعف عني فأقتاد حيا
فرق وكاد إلى صحبه
إذا بأخيه يشق الصفوفا
«تعست منيلا وأنت تلام
بأي خنى لم يسيئوا إليكا
أجل فليبيدوا ويفن الجميع
ولا ينج ناج وتبل الجسوم
أصاخ منيلا له وارعوى
وفي خصره آغمنون ألقى
وداس على صدره واسجره
«أيا دانويون آل الطراد
فمنكم لا يتخلف كمي
فيقفل للفلك فيما ادخر
أييدوا الرجال بدار النزال

برمح طويل وسيف صقيل
وقال: «ألا فاعف وارض بديلا
حديداً وصفراً وصافي نضار
لفلكك يولك كنزاً مهيا»
يشير إلى الفلك تمضي به
ليوليه عدلا ولوماً عنيفا
علام رحمت أولاء اللئام
وأي أسى لم يهيلوا عليك
فتاهم وشيخهم والرضيع
ولا يعمل قبر وتمح الرسوم» ٨
وأدرست صد بكل القوى
سناناً يشقق أحشاه شقاً
ونسطور صاح يشدد أمره:
موالي أريس رقيب الجلال
على السلب والكسب كي يرتمي
فيلهو وذا اليوم يوم الظفر
فيخلو المجال وتَمَّ المنال» ٩

وماجت بهم نفثات الحميه
يولون نحو الديار فرارا
أجلّ العوارف يشي الرءوس ١٠
وأنياس يبغيهما منذرا
ومذ كنتما رأس كل الكماة
وحل المصاعب رأي سديد ١١
لئلا تولي اتقاء المنون
أثيرا القوى واستحثا الهمم
مولين حتى حجور النسا
أمنّا شماتة لُدّ العدى
لبشنا نذود ونحمي الذّمارا
وإن بلغ العي منا أخيره
أهكطور فاجري سريعاً سريع
جميع النبيلات تصطحب
لهيكل فالاس بالسرعة
وتدخل بالذلّ أعتابه
ليسبل فيه على ركبتيها
تقود اثنتي عشرة للضحيه

فهاجت بهم نفثات الحميه
وكاد الطراود والعزم خارا
ولولا أخو هكطر هيلنوس
لؤلّوا ولكن أتى هكطرا
«ألا مذ تحملتما الفادحات
بسل القواضب بأس شديد
قفا استوقفا الجند عند الحصون
وطوفا بهم بحفيف القدم
مخافة أن يدفعوا بالأسى
فإما التجلد منا بدا
ونحن إذا الجاش بالجيش ثارا
فلا نجوة من دواعي الضروره
وإن نهض العزم بين الجميع
إلى أمنّا طر وقل تذهب
وتمضي إلى قمة القلعة
وتفتح في الحال أبوابه
وتحمل أبهى نقاب لديها
وتنذر عند اندفاع البليه

تبائع ما قرنت تحت نير
وحت لدمع النسا والبنين
وصدت ذيوميذ روع البلاد
نعم هو ظني أشد العدى
ولست أحاشي كذاك أخيلا
فهاك تراه تَحَدَّم نارا
فما كاد يكمل قولاً وقع
وهب يغير من العجله
يهز القنا وبخوض الصفوف
فهاج الطراود بأسا وماجوا
فَصُدَّ الأغارق قتلا وزحفا
وخالوا وقد بلغ البأس حده
وهكطور والقرع يعلو صديده
«أقوم الطراود جند البئوس
فها أنا أقصد أبراجنا
لكي ينهضوا وينذر الضحية
فلا تبرحن كعهدي بكم

إذا هي منت بدرء الشرور ١٢
ومنت علينا بحرر أمين
نذير البلا وانذكاك العماد ١٣
وأطولهم صولة ويـدا
وان كان لِلرَّئِةِ ابْنًا جليلا
وأَذكى الأوارفَلَيْسَ يُجَارى»
لمهجة هكطور حتى اندفع
وعدته ترسل الصلصلة
يهيج النفوس لقرع الحتوف
وتحت خطاهم عَجَّ العجاج
وكفوا عن الطعن والضرب كفا
بني الخلد قد رقدوهم بنجده
بهم صاح كالرعد يدوي هديده
ونجادهم مستجيشي النفوس
لألقى الشيوخ وأزواجنا
يُآلوا ادراءً لهذي البليه
بتصعيدكم وتصويكم» ١٤

ولما انتهى راح تَوًّا يسير
وأهداب مجوبه الأسحم
فشق غلوكس صف الرجال
وعند التلاقي وقد بلغا
ذيوميد بادره بالسؤال
فإنك ما لحت لي قط قبلا
وإني إخالكَ فُتَّتَ الجميعة
فويل أب لم يهني ابنه
فإن كنت من قوم آل الخلود
فليكرغ قاوم آل السما
تقفى مراضع رب الخمور
فروعهن بسوط الفنا
وريع ذيونيس منه وغاصا
فضمته ثيتس إلى صدرها
وليكرغ من ثم كل إله
وزفس بلاه بكف البصر
أنا لست أبغي لقاء الأولى
فإن كنت تغذي نتاج التراب

على قدميه وكاد يطير
من الرأس تضرب للقدم ١٥
كذاك ذيوميد يبغي القتال ١٦
خلال الجيوش مرامي الوغى
«فمن أنت قل يا أشد الرجال
وسمر العوامل تفتل فلا
لأنك لم تخش فتكي الذريعا
فلا شك يهلكه حزنه
فقل وأصدقني حتى أعود
فما قام قائمه بعد ما
على طود نيسا خلال الصخور
فأسقطن من يدهن القنا
إلى لجة البحر يبغي الخلاص ١٧
تحولته الأمن في بحرها
يعيش بدار النعيم قللاه
وأهلكه عبرة للبشر ١٨
أنيلوا الصفا في الديار العلى ١٩
فأقبل وذق من ذراعي العذاب»

فقال: «علام اقتصصت الخبر
فبعضًا يبيد الهواء وبعض
ففي كل عام نبات أبدا
وكل على إثر كل مشي
ولكن إذا شئت مني الحسب
فإيفيريا بلد من بلاد
بها كان سيسيف أدهى الأنام
وكان غُلُوْكُس له ابنًا كما
ففاق بليروffen بالجمال
وقد كان فيض زفس انتصارا
ودانت له كل تلك الأمم
ولكن إفريط أضمر شرًا
فبادر يطرده مستبدا
وعن نفسه راودته فأعرض
له أضمرت أنتياكل شر
«فموتن أوفليميت من أراد
تخدم إفريط لكن خشي

ونحن كأوراق هذي الشجر
على منبت بائد النبت غض
به الغاب تنمي ربيعًا جديدًا
فجيلٌ تلاشى وجيلٌ نشأ ٢٠
فإني ممن سما وانتسب
بأطراف أرغوس أرض الجياد
سليل أيولا عزيز المقام
لهذا بليروْفُنْ قد نما
وممتدح البأس كل الرجال
لإفريط فاحتل تلك الديارا ٢١
كذاك بليروffen ذو العِظَم
له إذ رآه ترفع قدرا
وزوجة إفريط رامته وجدا
عفاً وللعرض لم يتعرض
وقالت لإفريط تهمني العبر
بأهلك سوءاً سحيق الفؤاد»
نذيرًا خفيًا ولم يبطش

وخط على رقعة مهرا
وسيره لحميه المبجل
فسار وآل العلى حرس
تلقاه بالبشر مولى البلاد
فتسع ليال كذا عبرت
ولما انجلى عاشر العشره
بدا ملك ليقية بالخطاب
فلما تناوله وتلاه
مروعة من بنات الخلود
لها رأس ليث على ذيل أفعى
ومن فمها نفثات الأوار
ولكن بآل العلى وثقا
وثنى بقتل رجال البئوس
وثلاث يفتك والمرهبات
وما كاد يفرغ حتى أقيم
فأفناه طرّاً ولم يذر
فريع المليك وكف الأذيه
وأعلاه مستبقياً بالجلال

رسوم الحمام كما أضمر ٢٢
بليقية بالكتاب ليقتل ٢٣
عليه لحيث جرى زنش
وأكرم مشواه ضيفاً وزاد
عجول بعدتها نحرت ٢٤
بوردي أنمله النضره
فألقى الرسول إليه الكتاب
لقتل الخميرة حالا دعاه ٢٥
على قمم الشم قسراً تسود
على جسم تيس من المعز يرعى
تقاذف ناراً تشير الشرار
وكل وجود لها محقا
عظام السليمة شمّ الرعوس ٢٦
أمازونة الهول حتفأ أمات ٢٧
له في الطريق كمين عظيم
له ذلك اليوم من أثر
وأيقن عزوته علويه
وأنكحه ابنته باحتفال

وشاطره الحكم والشعب رام
لذا أقطعوه هبات غزيره
وقد ولد ابنين إيسندرا
ولوذمية المجتابة ومن
ومنها نشا سرفدون المعلى
فراح يهيم على آلس
فحُطَّ لدى ساكني الخلد قدرا
فإيسندرا آرس قتلا
ولو ذمية أرطميس قلتها
وظل هفولوخ حيَّا لنا
فقد حثني أن أخوض المجالا
وأعلى منار جدودي الأولى
فهم دوخوا كل قرن عتا
فذا نسب فيه يعتز مثلي
فكف ذيوميذ مستبشرا
وقال: «إذن لك حق الإخاء
أتدري لأونفس جدِّي قديما

يقيم لديهم عزيز المقام
جنائنا حسائنا وأرضنا وفيره
كذا هفلوخ الرفيع الذرى
بها هام زفس شجًا واقرن
ولكن بليروفن سيم ذلا ٢٨
بعيدًا عن الناس والمؤنس ٢٩
وساموه بعد الترفع قهرا
بحرب السليمة روع الملا
ولم تعد من بعد أن جندلتها ٣٠
فذاك أبي وهو أرسلنا ٣١
وألقى بصدر الجيش الرجالا
أنيلوا الفخار وشادوا العلى
بليقية وبإيفيريا
وهذا إذا شئت أصلي وفصلي» ٣٢
وأركز عاسله في الثرى
عليَّ وإنني حليف الولاء
بليزوفن كان ضيفًا كريما

وعشرين يومًا له خلت
وقد أحكما للوفاق الوثاق
فجدي أهده أبهى نجاد
وجدك كأس نضار أغر
وإني أبي تيزيس ما رأيت
فقد كنت في المهد لما الأخاءه
فإننا ترانا حليفى وداد
فأنت بأرغوس ضيفي الجليل
كفاني ما في العدى من رجال
سواء بنو الخلد ساقى لباسي
وأنت كفأك بقرع البلا
وخذ للوفاق سلاحى دليلا
لِيُعْلَمَ أَنَّا نُرَاعِي الْعُهُود
هناك ترجل كل فريق
وزفس غلوكس رشداً سلب
فشكته مئة من عجول
سار هكطور حثيثاً وأتى

أقام على الرحب والسعة
قبيل حلول أوان الفراق
توشت ببرفيرها المستفاد
إلى الآن في منزلي تدّخر
ولكنني عنه هذا رويت
بثينة بادت ومنها الإساءه
وما بيننا لا يحل الجلال
وفي ليقا لك إنني نزيل
أصول عليها فتلقى الوبال
أو اجتحتها مستطيلا بنفسى
رجال تروم لها مقتلا
وهات سلاحك عنه بديلا
وحرمة آبائنا والجدود»
وبعد التصافح عهد وثيق
فقال نحاساً وأعطى ذهب ٣٣
تساوي وذى تسعة لا تعول ٣٤
باب إسكية والزان ظليل

فتلقته نساء وبنات منه علمًا تتقصى سائلات

عن بنيهن وإخوان ثقات ٣٥

وبعول وأخلا فأمراً أن ييادرن على ذاك الأثر
ويصلين لأرباب البشر

علها تدفع عنهن الأذى ولزاهي قصر فريام مضى
هو صرح شيد بالنحت الجميل فوق أبواب رواق مستطيل
ضمنه صف بديع المنظر عُرف قد بنيت بالمرمر
كلها خمسون ملس الحجر

لبنى فريام شيدت مضجعا وثبوت أزواجهم فيها معا
ويحاذيهن صف رفعا

فيه بالإيناس والرغد ثوى مع كل ابنة الصهر الحليل ٣٦

...

لبنات الملك شيد اثنا عشر منزلا طرا بمصقول الحجر

بسقوف شائقات للنظر ٣٧

ثم هكطور إلى الدار ارتقى حيث بالأم على الفور التقى
عجلا تمضي إلى لاوودقا

أجمل الغادات في ذاك الفنا فعليه أقبلت تَوًّا تميل

...

أَمْسَكَتْهُ بِيَدٍ وَهِيَ تَقُولُ وَعِلَامُ الْآنَ غَادَرَتِ السَّهُولُ ٣٨

وَالِنَا عَدَتْ تَبْدُو بِقُفُولٍ

آه مَا أَدْهَى الْأَغَارِيقُ الْأَوَّلَى دَهْمُونَا بِمَعْدَاتِ الْبَلَى

إِنَّمَا أَعْلَمُ تَبْغِي عَجَلًا

تَرْتَقِي مِنْ قِمَّةِ الْبَرْجِ الذَّرَى حَيْثُ تَدْعُو زَفْسٌ لِلْخَطْبِ الْجَلِيلِ

•••

فَاسْتَرَحْ حِينًا وَبِالِرَّاحِ أَعُودُ لِنَرْكِيهَا لِأَرْبَابِ الْخُلُودِ

ثُمَّ تُسْقَى فِيهِ رِيحَانُ الْكِبُودِ

تَنْهَضُ الْعِزْمُ وَتَفْنِي التَّعْبَا بِقَوَاكِ الْعِيُّ أَدْرِي ذَهَبَا ٣٩

بَذِيَادٍ عَنْ رِفَاقِ نَجْبَا»

قَالَ: «يَا أُمَاهُ تَنْحُطُ الْقَوَى بَارْتِشَافِي الْآنَ شَهِدَ السَّلْسِيلُ ٤٠

وَكُذَاكَ النَّذْرُ حَتْمًا حَرَّمَا يَبِيدُ دَنْسُهَا سَفْكَ الدَّمَا

أَيَجِيزُ النَّذْرُ لِي زَفْسُ كَمَا

أَنَا مَخْضُوبٌ وَغَشَانِي الْغُبَارُ فَبِدَارِ الْآنَ فِي الْحَالِ بَدَارُ ٤١

وَاقْصِدِي هَيْكَلُ فَالَاسِ الْمَزَارِ

فَهِىَ الْمَلْجَا لَهَا النَّصْرُ انْتَمَى وَاصْحَبِي الْغَادَاتِ وَالطَّيْبِ الثَّقِيلِ

•••

وَاحْمِلِي أَغْلَى وَأَعْلَى بَرْقِعَ لَكَ فِي الْقَصْرِ الْعَظِيمِ الْأَرْفَعِ

وعلى ركبتها فيه ضعي

وانذري أن ترجعي مبتدرة بالضحايا الغر ثنتي عشره

من تباع بكر مدَّخره

إن تشأ أن تدرأ اليوم الأذى وعثار الولد والأهل تقيـل

ورأت تدفع عن قدس البلاد بطل البول وهدام العماد ٢٤

فرع تيديوس رواع العباد

فاذهبي أنت ولوذي بالنقى وأنا فاريس أدعو للقا

عله يسمع نصحاً صدقا

آه لو تدفعه الأرض إلى جوفها أشفي من النفس الغليل

...

آفة أوجده زفس لنا علة حتى يزيد الشجنا

أنا إن يهلك يزل عني العنا» ٣٤

لبت السؤل وصاحت بالجوار لينادين نبيلات الديار

وأنت غرفتها حيث استطار

عابق الطيب ومنشور الشذى فوق أزر زانها الوشي الجميل

...

نسجتها غيدُ صيدا نقبا والفتى فاريس منها جلبا

عندما هيلانة قبل سبي ٤٤

فانتقت مقنعة قد وضعت فوقها مثل الدراري سطعت

وفرت ألوانها واتسعت

ومضت إيقاب في جل النسا تقصد المعبد في البرج الأثيل

•••

وثيانو بنت كيسيّس الصفي زوج أنطينور الفارس في

عجل قامت إلى الباب الخفي

فتحتّه إذ لتلك الربة جعلت كاهنة عن ثقة ٥٥

فرفعن اليد بالولولة

نحو فالاس وسلمن الردا لثيانو ربة الخد الأسيل

•••

فلها ألقّت به فوق الركب ودعت طالبة درء النوب

«يا ذمار الدار يأكل الأرب

اسحقي رمح ذيوميذ الألد واصرعيه عند أبواب البلد

فنضحي لك إن تحم الولد

ونسانا من تباع تنتقي باثنتي عشرة بالشكر الجزيل» ٦٤

•••

هكذا كان الدعا لكن أبي لرجاهن استماع الطلب

إنما هكطور لم ينقلب

بل سعى يجري إلى الإسكندر حيث وافاه بقصر أزهر

شاده قرب المقام الأكبر
حيث فريام وهكتور ثوى في أعالي قمة البرج الطويل

•••

شاده أمهر أرباب الحرف برواق عرصات وغرف
فإليه فيه هكتور ازدلف

بقناة حدها القاري انتشر بلغت طولاً ذراعاً وعشر
وعليها فتحة التبر الأغرى ٤٧

فلديه ثم فارس بدا يصقل الشكة والدرع الصقيل
عنده هيلانة بين الإماء تنفذ الأمر بحذق واعتناء
قال هكتور: «أيا أسَّ البلاء

بئس ما أفرغت من هذا الغضب والأعادي بلغت منا الأرب
ثارت الحرب وأولتنا الحرب

أنت لو خلت فتى عنها التوى سمته التعنيف بالسيف السليل
كر أو لا فأعاديننا الثفال تضرم الحصن وتجتاح الرجال» ٤٨

قال والأرباب حاكى بالجمال
«بملامي قد أصبت الغرضا فاتخذ قولي صدقاً فُرِضا

أنا لم أحق بل اخترت الرضا
إن أكن غادرت كرات الوغى فلكي أصلى لظى قلبي العليل

•••

زوجي الآن أَلَأَنْتَ لي المقال تبغني عودي إلى دار النزال

صدقت ظني والحرب سجال

فانتظرنني الآن أشكك في السلاح أو تقدمني إذا شئت الرواح

فأوافيك سريعًا للكفاح» ٤٩

صامتًا هكطور ذا القول وعى وندا هيلانة شهيدًا يسيل

•••

«آه هكطور أخي كل الشرور والرزيا الدهم من أجلي تشور

آه لو كانت رحي الريح تدور

يوم ميلادي وتيار الأوار للجبال الشم بي كالطير طار

أو رمى بي فوق أمواج البحار

قبل أن أخذل من دون الملا وأعاني ثقله الخزي الويل ٥٠

إن هذا قدر الأرباب في حكمها لكنها لم تنصف

كان أولى أن تراعي شرفي

فيكون الآن لي بعل أشد كاشف العار ودرأ الشدد

إن فاریس هو النفس اعتمد

سوف يلقي شر أعمال جنى وأرى الإصلاح أمرًا مستحيل

•••

فاسترح حينًا فأنواع العنا شملتك الآن من شرِّي أنا

وشجا فاریس زاد الشجنا

هكذا زفس علينا قدرا لنظل الدهر هُزْأً للورى»

قال: «يا هيلانة لست أرى

لي عن الجري إلى القوم غنى ما لهم عني إذا غبت بديل

•••

حرضي زوجك أن يلحق بي وأنا أمضي لقصري الأرحب

لأري فيه أعز النسب

زوجتي حيناً وطفلي المرضعا لست أدري هل قضي أن أرجعا

أو يد الإغريق تفري الأضلعا»

ثم جد السير للقصر على عجل يلقاها قبل الرحيل ٥١

•••

خاب ما أمل إذ لم يجد زوجه الحسناء بيضاء اليد

فهي مع جارية والولد

ذهبت ترقب بالبرج الأثر تصعد الأنفاس عن هامى العبر

داس بالأعتاب واقتص الخبر: ٥٢

«أين يا هذي النسا قلن لنا أنذروماخ مضت أي قبيل

هل إلى بعض بيوت الأخوات أو نساء الإخوة المستعصمات

أو إلى الهيكل تلقي الدعوات

مع بنات الحي تبغي المدداً حيث يستمددن بالدمع اليدا

من أثينا خوف كرات العدى»

قلن: «لم تذهب إلى الأهل ولا ذهبت قلب أثينا تستميل

قد بغيت الحق والحق يقال فهي في السور بيلبال وبال

علمت في قومنا حل الوبال

فرأيناها جرت نحو الحصون جري من داهمه مس الجنون

تصحب المرضع والطفل الحنون»

فانشى هكطور من حيث مضى وعلى الفور جرى والصبر عيل ٥٣

بين أسواق بمرصوف البنا أسرع السير وللباب دنا

فهنا زوجته ذات الغنا

بنت إيتيون الشهم الأبر (من بإيفلاقيا ذات الشجر

قبل في ثيبا تعلّى واستقر

والكليكيين بالعدل رعى) أقبلت تصرخ بالقلب الذليل

معها المرضع والطفل الرضيع ساطعاً بالحسن كالنجم البديع

أستيا ناساً يسميه الجميع ٥٤

إذ أبوه ذاد عنهم أجمعاً إنما هكطور والبر رعى

إسكمندريوساً الطفل دعا ٥٥

فإليه باسمًا سرّاً رنا وانبرت زوجته الدمع تهيل

«يا شقي البخت ذا البأس الوخيم سوف يلقيك بلجات الجحيم

ولي الإرمال والطفل يتيم

سوف تلقاك جماهير عداك وتلقيك مضاضات الهلاك

فلمن أبقى إذا مت سواك

آه لو ألقى إلى جوف الثرى قبل أن تلقى على الأرض قتيل

•••

إن تموتن الأسى يخلد لي وعنا النفس ودمع المقل

لا أب أسلوبه لا أم لي

فأبى آخيل ذو البطش قتل عندما ثبأ الكليكيين حل ٥٦

إنما الأرباب أولته الوجل

فارعوى منقلباً عما توى ولحر السلب لم يغ سيل

•••

أحرق الجثة في شكتها ثم واراها إلى تربتها

في ضريح شاد في جيرتها ٥٧

حوله غيد الجبال الشامخات نسل رب الترس سَحَاقِ الرُّفَاتِ ٥٨

فَدَّ غَرْسَنَ الدُّلْبِ حُبًّا بالممات

إخوتي سبعة أبطال كذا دفعةً بادوا وما لي من خليل

•••

ذلك القرم دهاهم في الحقول بين أسراب شياهٍ وعجول

وانثنى من بعد ذا الخطب يصول

ولأمي الأمر بالحكم خلا فتقفاها لتعميم البلا

ساقها للأسر في ما أرسلا

أجزلت فديتها لكنما أرطميس اتبعت شر آخيل

•••

رشقتها بسهام الغضب ٥٩ أنت أمي وأخي أنت أبي

أنت بعلي أنت كل الأرب

أنت كل الأهل لي إذ أنت حي آه فارحم وانعطف رفقا علي

آه فارفق بي وبالطفل لدي

(أنا لا أطمع أن تأبى الوحى وعن الهيجاء جننا تستقيل

إنما أرغب أن تحمي الذمار وتقي نفسك من شر البوار)

فَهُنَا السور تداعى للدمار

فبغاه كل ذي عزم وباس كذيوميذ وأتريذ أياس

وثلاثا كاد يندك الأساس

لست أدري هل أتوه عن هوى أولهم قد كان في الوحي دليل

•••

قرب تين البر فوق البرج قر وتحفظ فيه من شر أمر

فلك النجو (وللجيش الظفر)

ولي السلوى وللطفل الرجا» ٦٠ قال: «ما يشجيك يوليني الشجا

إنما الموقف أضحي حرجا

نزل الروع وبني العزم أبى أن يكون الروع في القلب نزيل

•••

بين أقوامي وريات السدول ٦١ لست أَرْضَى العار إن تعل النصول

أو عن الهيجاء يثيني الحمول

وأنا دوّمًا بصدر الفيلق شأن فريام وشأني أتقي

وأقي قومي بحدّ المحقق

آه لكن فؤادي والحجى ينبئاني أن صمصامي كليل

•••

سوف تندك بإليون القلاع وتوافينا الملمات الفظاع

كل هذا منه قلبي لا يراع

لا إذا أُمي في الترب ثوت أو أبي من دمه السمر ارتوت

أو رميم الإخوة الأرض احتوت

لا إذا الطرود بادوا وإذا خرق الزرقاء للجو العويل

بيد أن الخطب كل الخطب آه أن تكوني في سبيات العداة

تذرفين الدمع عن مر الحياه

تستقين الماء كالعبد الأسير من مسيس أو ينابيع هفير

تنسجين القطن والقلب كسير

كل بؤس كل رزء وعنا كله إن حل ذا الرزء قليل
كله لا شيء إن صح الصحيح ولديهم كنت والدمع يسبح
والذي يلقاك بي هزاً يصيح

«تلكم زوجة هكطور الشديد خير ما في القوم من قرم عنيد
كم له قرع بذراع الحديد»

«تل صدر الجيش تلاً وهُنا سبيت زوجته وهو تليل» ٦٢
فتصيحين وتصلين السعير تستجيرين ولكن من يجير
إن يكن هكطور في الترب قرير

فلك الرق وأنواع العذاب يا لحدود الأرض واريني التراب
قبل أن يدهمني هذا المصاب

وأنلني أيها الخطب البلا قبلما زوجي للسبي تُنيل» ٦٣

•••

ثم مد اليد للطفل فصد جازعاً لما رأى تلك العدد
من نواص سابحات وزرد

وبصدر المرضع الطفل ارتمى فلديه أبواه بَسَمًا
وبرفق عنه هكطور رمى

ذلك المغفر والطفل بدا يديه بين تقييل يجيل

ودعا يسأل أسياد الأنام: «أنت يا زفس وأربابًا عظام

عونكم أسأله في ذا الغلام

فليكن مثلي هَصَّار الأسود وهو في إليون بالبأس يسود

وإذا من موقف الحرب يعود

فليقل فوق أبيه قد سما سل سيف الفوز يا نعم السليل

...

وليجنذل كل جبار أبي فائزًا منه بحر السلب

تتلقاه بيادي الطرب

أمه جاذلة مما ترى» ٦٤ ثم ألقاه لها مستبشرا

وهي ضمته لصدر عطرا

بسمت باكية وهو رنا مشفقًا ينظر للطرف البليل

...

ثم ناداها وقد رام العجل «لا يشق الأمر لا يعن الوجمل

ليس موت قبل إدراك الأجل ٦٥

كل صنديد ورعديد جبان منذ تبدى بوجود للعيان

ليس ينجو من تقادير الزمان

ولكل عمل فامضي كفى واطلبي أعمال ربات السديل

...

فلك النسج وفتل المغزل ولنا أعمال سمر الذَّبَل ٦٦

وأنا الإيقاعُ بالأبطال لي»

لبس المغفر حالا ووثب ومضت تلفت من حيث ذهب

تذرف العبرة والقلب التهب

دخلت للصرح يوليها الشجا زفرات أشجنت كل الدخيل

•••

فعلا بين جواربها النحيب حين أبصرن بها ذاك اللهب

عمّت الأحزان في القصر الرحيب

هو حي وتعمدن الحداد إذ توقعن له وقع الصعاد ٦٧

لم يؤملن له حسن المعاد

لم يقل بعد أبادته العدى إنما نحن كما لو كان قيل ٦٨

مضى وبعلي الصرح فaries جانح إلى الحرب منه تستطير الجوانح ٦٩

بعده فولاذ تآلق نورها جرى وهو بين الطرق كالبرق رامح

كمهر عتي فاض مطعمه على ربائطه يبتتها وهو جامع ٧٠

ويضرب في قلب المفاوز طافحًا إلى حيث قلب الأرض بالسيل طافح

يروّض فيه إثر ما اعتاد نفسه ويطرب أن تبدو لديه الضاحض

ويشمخ مختالا بشائق حسنه يطير وأعراف النواصي سوايح

وتجري به من نفسها خطواته إلى حيث غصت بالحجور المسارح^{٧١}

كذا كان فaries وقد جد مسرعًا عليه كنور الشمس تزهو الصفائح

فأدرك هكطورًا عن الأهل قد نأى	تحت خطاه للكفاح القرائح
فقال: «أخي إني أراني مبطلًا	فعزمي مرجوح وعزمك راجح»
فقال: «أيا فاريس ما كان منصف	ليخسك القدر الذي أنت رابح
فأنت أخو البأس الشديد وإنما	بوجدك قد تشيك عنه الجوارح
ويلتاح قلبي إن لحتك جنودنا	وأنت مدار الخطب والخطب فادح ^{٧٢}
فَهَيَّ فليس الآن للبحث موضع	سنبسطة إن لم تبدنا المذاح
وإن شاء زفس أن يقيض نصره	ويدفع أقوامًا شدادًا نكافح
سترفع أقداح المسرة والتقى	وتذكي لأرباب الأنام الذبائح»

هوامش

(١) ذكرنا في المقدمة أننا توخينا النظم على أساليب مختلفة لأسباب أوردناها، وقد حدونا في القسم الأول من هذا النشيد حدو الفرس بتصريع بعض بحور الشعر كالرجز، وأكثر ما يكون ذلك عندهم في المتقارب لطلاوته وملاءمته لمفردات لغتهم، حتى إن الفردوسي الملقب بهوميروس الفرس نظم كل شهنامته وهي أطول كثيرًا من الإلياذة على هذا البحر الذي صَدَّرنا به نشيدنا، ولا يخفى أن الفرس بعد الإسلام أخذوا أوزان الشعر عن العرب، ولكنهم تصرفوا فيها على ما تقتضيه مباني ألفاظهم فاستباحوا من العلل والزحافات ما لا تستبيحه لعدم

اضطرابنا إليه في الشعر المتين، على أنه ليس هناك مانع يمنع من التفنن في النظم بما لا يخرج عن الأصول الموضوعية إلا من وجه عدم الشيوخ، فقد سبق لعرب الأندلس والشعر في أبان دولته أن ذهبوا فيه كل مذهب، ولم يكن في الخلف من عاب وانتقد، بل كانوا كمنتزع الغلّ من عنقه، وكنا كمن يأبى إلا أن يغلّ وتنقله القيود.

أما التصريح من غير الرجز على ما تقدم فهو وإن كان قليلاً جداً في الشعر العربي، إلا أن له نظائر في منظومات الأندلسيين وبعض شعراء المتأخرين ممن خالط العجم، كقول البهاء العاملي من الوافر:

ألا يا خائضاً بحر الأماني هداك الله ما هذا التواني
أضعت العمر عصياناً وجهلاً فمهلاً أيها المغرور مهلاً
مضى عصر الشباب وأنت غافل وفي ثوب العمى والغبي رافل ... إلخ

(٢) لا يكاد يعتزل الآلهة ميدان الوغى إلا ونرى اليونان ظهرُوا على أعدائهم، يريد الشاعر أن يبين بذلك مصداق الحقائق التاريخية التي تنبئ أن الظفر كان حليف قومه في كل المواقع، وقد برز هنا آياس كجاري عادته، كالطود الراسخ لا يواليه إله في واقعة من الوقائع، فكله عزم وبأس ليس بالحكيم الموالي لأثينا، ولا العشاق الموالي للزهرة، ولا الظالم المتقلب الموالي لآريس، فهو قائم برأسه وابن جده وبأسه.

(٣) أكماس هذا هو الذي يمثل هيئته آريس في النشيد السابق، وكفى بذلك مدحًا له ولأياس أيضًا؛ لأنه إنما جندل بطلا من خيرة الأبطال.

(٤) إننا نرى من كرم هذا الفارس، ونوع ذلك الكرم ما لا يعجب له أحد من قراء الشعر العربي، وإن كان موضع عجب لقراء الشعر الإفرنجي لبعد عهدهم بأخلاق الجاهلية، واليونان أيام هوميروس شعب جاهلي، لا بدع أن يكثر فيه هذا النوع من الجود، ويتفاخر ذووه بالقرى وإكرام أبناء السبيل، وإننا لا نكاد نقرأ قصيدة من الشعر العربي الجاهلي وغير الجاهلي إلا رأيناه مشحونًا بذلك الفخار، ومن قولهم بمعنى كلام هوميروس، وفيه زيادة لطيفة:

نصبوا بقارعة الطريق خيامهم يتسابقون بها إلى الضيفان
ويكاد موقدهم يجود بنفسه حبّ القرى حطبًا على النيران

ومثل ذلك قول المسيّب:
أحللت بيتك بالجميع وبعضهم متفرّق ليحل بالأوزاع

وقول زهير:
بسط البيوت لكي يكون مظنة من حيث توضع جفنة المسترفد

ومما يخرج على هذا المعنى قول حاتم الطائي:
وأبرزُ قدرٍ بالفضاء قليلها يرى غير مضمونٍ بها وكثيرها

وليس على ناري حجاب يكنها لمستوبصٍ ليلا ولكن أنيرها

ولا نظن أمة من الأمم غالت بقرى الضيف وإكرامه كالأمة
العربية، حتى نسبت تلك السُّنَّة إلى جدها إبراهيم وإليه أشار الحريري
بقوله:

وحرمة الشيخ الذي سن القرى وأسس المحجوج في أم القرى

وأم القرى مكة، وقد روى هيرودوتوس وغيره من المؤرخين شيئاً
عن نوابع الكرم في سائر الملل، ولكنه لا يذكر إزاء ما يروى عن سخاء
العرب، حتى لو أخذنا ترجمة كل فرد من مشاهير أبناء الجاهلية، ومن
بعدهم لرأيناه يصح أن يضرب به المثل المضروب بحاتم الطائي.

(٥) إن في هذه الكلام ما يهيج الرأفة على القتيل، وينبئ بقلّة
وفاء الناس ونكران الجميل؛ إذ كان ينبغي أن رجلا عرفت له الأيادي
البيضاء تتهافت الفرسان لنجدته فتقيه شر الوبال، ولهذا انتقد على
هوميروس في هذا المكان وهو انتقاد غير ثبت؛ لأنه يرمي في كل شعره
إلى وصف الحالة الطبيعية، وهي قلما توفي القسط والوفاء، ومع هذا
فموت خادمه إلى جانبه كما ترى في البيت التالي يدلّك على أن الشاعر
لم تفتته فائتة، فجعل لصاحب الجود رفيقاً وفياً يليه حتى الممات.

(٦) بنات المياه كان مسكنهن في قعر البحر، ومنهن ثيتيس أم

أخيل.

(٧) المحالات: الدواليب.

(٨) لما صار أدرست في قبضة منيلا ترامي لديه ذليلا، وأطمعه بالمال فكأكا لنفسه، فكاد منيلا يعفو عنه لو لم يبادر أغاممنون، ويعنف أخاه على رفقته بعدوٍ يجب قتله، كل هذا يلوح فظاً في بابهِ للمتحضر العريق، على أنه في حد نفسه تمثيل صادق لأطوار ذلك الزمان، حيث كان الانتقام أمنية الأماي، فالدية والفكاك والإطماع بالمال كلها أمور لم يكن في بعض الأحوال يسد شيء منها مسد دم المطلوب بالثأر، وفي أخبار العرب قبل الإسلام وبعده من أشباه ذلك شيء كثير حسبنا أن نذكر لكل زمن منه مثالا: أُرِسر عبد يغوث الحارثي من سادة بني مذحج في يوم الكلاب الثاني فقتل، ولم يغنه أن قال قول أدرست:

أَمْعِشَر تَيْمٍ قَدْ مَلَكْتُمْ فَاسْجَحُوا فَإِنْ أَخَاكُمْ لَمْ يَكُنْ مِنْ بَوَائِيَا
فَإِنْ تَقْتُلُونِي تَقْتُلُوا بِي سَيْدًا وَإِنْ تَحْرِبُونِي تَحْرِبُونِي بِمَالِيَا

ولما انقرضت دولة الأمويين، واستتب الأمر للسفاح العباسي دخل شبيل بن عبد الله على عبد الله بن علي عم السفاح، وعنده من بني أمية نحو تسعين رجلا على الطعام فأقبل شبيل وقال قول أغاممنون:

لَا تَقِيلَنَّ عَبْدَ شَمْسٍ عَشَارًا وَاقْطَعَنَّ كُلَّ رَقْلَةٍ وَغَرَّاسٍ
ذَلَّهَا أَظْهَرَ التَّوَدُّدِ مِنْهَا رِيَّهَا مِنْكُمْ كَحَرِّ الْمَوَاسِي
وَلَقَدْ غَاطَنِي وَغَاطَ سَوَائِي قَرِيبُهُمْ مِنْ نَمَارِقٍ وَكَرَاسِي

أنزلوها بحيث أنزلها الله بدار الهوان والاعتاس
واذكروا مصرع الحسين وزيداً وقتيلاً بجانب المهراس
والقتيل الذي بحرّان أضحي ثاوياً بين غربة وتناسي

فأمر بهم عبد الله فضربوا بالعمد حتى قتلوا، وبسط عليهم
الأنطاع فأكل الطعام عليها وهو يسمع أنين بعضهم، وقد رأف منيلاً
بأدرست رافة السفاح بسليمان بن هشام بن عبد الملك الأموي، حتى
دخل عليه سديف الشاعر وأنشده:

لا يغرّنك ما ترى من رجال إن تحت الضلوع داءً دويّاً
فضع السيف وارفع السوط حتى لا ترى فوق ظهرها أمويّاً

فأمر السفاح بسليمان فأخذ وقتل، ولم يكن الأنبياء في الأزمان
الغابرة أرأف بالعدوّ من سائر الناس، فقد جاء في التوراة أن صموئيل
النبي سخط على شاءول الملك لإبقائه على أجاج ملك العمالقة.

(٩) لا نرى أزمة اشتدت إلا انبرى لها نسطور، فأنفذ بقوله ما
يعجز عنه بفعله، وله لكل مقام مقال لا يصلح إلا له، فالموقف موقف
اصطدام والتحام، فلا أحكم من أن يقبّح لهم التخلف عن الإبلاء
للتهافت على سلب الأشلاء، ولما كان لا بد أيضاً من أطماع الجند
بشيء فقد أشار في آخر خطابه إلى أنهم لا يعدمون فرصة للكسب
والنهب بعد أن ينالوا الظفر فيخلو لهم المجال، وهي حكمة من حكم

هوميروس شغف بها وبأمثالها فَرَّأُوهُ من الملوك والقواد. قيل: إن الإسكندر الكبير كان يتمثل بها، ومن جملة كلام علي بن أبي طالب لرجاله في واقعة صفين قوله: «ولا تأخذوا شيئاً من أموالهم». إلا أنه أراد بذلك كمال التعفف دون التخلف إلى حين، ومما يزيد هذه الموعظة شأنًا ووقعًا ما نراه من اندحار جيش برمته وتقصيره عن بلوغ غايته لتهافته بسائقة الطمع على الكسب وإحراز المال، وحسبنا من الأمثلة التاريخية الكثيرة تلاشي بعض حملات الصليبيين لانقطاعها في طريقها على سلب الأموال.

(١٠) كان هيلينوس أخو هكتور في جيش الطرواد بمقام كلخاس العرَّاف في جيش الإغريق.

(١١) كثيرًا ما نرى سداد الرأي ملازمًا للبأس والحزم، مما ينبئك بما كان له من علو المنزلة عندهم، حتى لقد فضل الشاعر الرأي السديد على البأس الشديد في غير هذا الموضع. (راجع ن ٢).

(١٢) التبايع جميع التبعية، وهي ولد البقرة لحول واحد، أشار هيلينوس على هكتور أن يحمل أمه على أن تنذر النذور وتضحى بالضحايا لفالاس.

(١٣) كان هيلينوس يعلم بعرافته وكهانته ما لا يعلم هكتور، ولهذا عرف أن أثينا كانت موالية لذيوميد كما تقدم في النشيد الخامس، فرأى أنه لا بد من استعطافها بالنذور والضحايا لتتخلى عن ذيوميد،

فتخف وطأته عن الطرود، ولم ينبئ هكتور بكل ما علم، وإنما أشار إشارة هي بمقام الأمر الديني، ولهذا سرى هكتور مليئاً على الفور مطيعاً.

(١٤) قد انتقد على هوميروس أن جعل هكتور يغادر ساحة القتال في ذلك الموقف الحرج، وهو اعتراض غير سديد؛ لأنه إنما ذهب بمهمة لم يكن بد من قضائها، ولم يكن في القوم أحد غيره يصلح للقيام بها، ومع هذا فلم يبرح مكانه حتى أثار بهم نار الحمية وأملهم بالفرج القريب.

(١٥) المجوب: الترس، تلك إشارة إلى شدة عدوه، ويحسن بنا أن نذكر هنا أن مجانهم كانت على نوعين؛ أحدهما مجانّ الزعماء، التي كانت تستر كل الجسم فلا يبقى محل للعجب من أن تضرب أهدابها من الرأس إلى القدم، والثانية لسائر الجند وهي أصغر حجماً.

(١٦) انتقل بنا الشاعر أثناء غياب هكتور إلى مشهد براز لا نظير له في كل الإلياذة، وسنأتي عند ختامه على النظر فيه.

(١٧) ذيونيوس إله الكرمة والحمرة والسرور، وهو باخوس اللاتين يمثلونه بهيئة فتى بيده عنقود أو سنبله وقائماً وقاعداً وعرياناً ولا بساً بصور شتى.

(١٨) كان ليكرغوس المشار إليه ملك ثرافة، وكان في زعمهم مقاومًا لعبادة إله الخمر، فسخط عليه الإله وسلب حباه، فجُن وقتل ابنه وقطع ساقي نفسه متوهمًا أنهما فسيلتا كرمه، ثم قامت عليه رعيته وقطعته إربًا إربًا. والرواية التاريخية هي أن ليكرغوس لغرض من الأغراض أمر باستئصال دوالي الكرم من بلاده، فقلت الخمر فكانوا يضطرون إلى مزجها بالماء، ومن ثم نشأ زعمهم أن ثيتيس إحدى بنات الماء ضمته إلى صدرها إشارة إلى مزج الماء بالخمر.



شكل ١: ذيونيوس.

(١٩) لعل القارئ يستغرب هذا الكلام من ذيوميد، مع أنه لم يُرغَ لمنظر الزهرة ولا لهول إله الحرب، ولكنه لم يؤت تلك الجسارة إلا بإغراء أثينا أما الآن وقد غابت عنه فعاودته التقوى ورهبة الآلهة.

(٢٠) لقد أكثر الشعراء في كل زمان من ذكر تعاقب الأجيال من الناس بكل برهان وقياس، ولكنه لم يكن فيهم من أتى بأجمل من هذه المقابلة وأصدق، لأنها مع قرب منالها وبساطتها تهين للناظر إليها حالتي الاضمحلال والتجدد وفقًا لما يقول العرب: «لو دامت لغيرك لما وصلت لك». وأكثر الشعر العربي الوارد لهذا المعنى يرمي إلى التلاشي والتبدد أكثر منه إلى النمو والتجدد كقول المتنبي:

يدفن بعضنا بعضًا ويمشي أواخرنا على هام الأوالي

وقول المعري:

أرض إلا من هذه الأجساد	خفف الوطاء ما أظن أديم الد
د هوان الآباء والأجداد	وقبيح بنا وإن قدم العهد
.....	

ودفين على بقايا دفين	في طويل الأزمان والآباد

وقد جاء في التوراة ما يقارب المعنى الذي أورده هوميروس:

«كل جسد يبلى مثل الثوب؛ لأن العهد من البدء أنه يموت موتًا، فكما

أن أوراق شجرة كثيفة، بعضها يسقط وبعضها ينبت، كذلك جيل اللحم
والدم بعضهم يموت وبعضهم يولد». (سيراخ ١٤ : ١٨ و ١٩).

(٢١) ترى من هذا البيت أن إفريط أو فريتس (بلفظهم) كان
ملكًا قهارًا، أفلا يلوح لأول وهلة أن لفظة عفریت العربية منقولة عنها؟

(٢٢) لا دليل ثابت على أن الكتابة كانت معروفة عندهم لذلك
العهد، ولكنهم كانوا يتفاهمون بإشارات مخصوصة يخطونها على رقاع أو
قداح، كما خط إفريط رسوم الموت على هذه الرقعة إشارة إلى أنه يجب
أن يقتل الرسول، وسنرى في النشيد السابع أنهم لدى استقسامهم خط
كل من المقتربين خطأ على قِدْحِهِ يميزه به عما سواه.

(٢٣) حمو إفريط هو سوباتس ملك ليقية. إن أمثال هذه الوسيلة
للفتك بعدو أو بغيض كثيرة الورد في أخبار الأقدمين، وقد لا يخلو منها
عصر، وبها غدر عمرو بن هند ملك الحيرة بطرفة بن العبد صاحب
المعلقة المعروفة باسمه، ذلك أنه وفد على عمرو مع خاله المتملمس،
فأكرمهما عمرو وأقاما عنده أيامًا، وحدث أن أخت الملك أشرفت
عليهم وهم في مجلس الشراب، فرآها طرفة فقال شعرًا فيها فحقد عليه
عمرو وكان قد بلغه قوله فيه:

فليت لنا مكان الملك عمرو رغوئًا حول قبتنا تدورُ
لعمرك إن قابوس بن هندٍ ليخلط ملكه نوّك كثيرُ

فغزم عمرو على قتل طرفة تشقياً منه، وعلى قتل المتلمس اتقاء هجائه، وخاف أن تجتمع عليه قبائل بكر بن وائل إن قتلها ظاهراً، فدعاهما وكتب لهما كتابين إلى المكعبر عامله على البحرين وعمان، فلقيا بطريقهما غلاماً يرعى غنيمة ولما علما منه أنه يحسن القراءة فض المتلمس كتابه ودفعه إليه فإذا فيه: «باسمك اللهم من عمرو بن هند إلى المكعبر، إذا أتاك كتابي هذا مع المتلمس فاقطع يديه ورجليه وأدفنه حيّاً». فألقى الصحيفة في النهر وقال: يا طرفة معك والله مثلها، فقال طرفة: كلاً ما كان ليكتب لي مثل ذلك، وسار بالكتاب حتى أتى المكعبر وقُتل. (الأغاني ودائرة المعارف).

(٢٤) أقام بليروفون تسع ليال ضيفاً على ملك ليقيا، فنحر له تسعة عجول جرياً على عادة الجاهلية من عدم استبقاء شيء من أدبة إلى أدبة أخرى، ونحر العجول عندهم كنحر الجزور عند العرب، فهي إنما تنحر للضيف الجليل كما تنحر الكباش والنعاج لسائر الأضياف، وما بقي من طعام الضيفان يوزع على الحي، وإذا بقيت بعد ذلك تطرح ولا تدّخر إلى يوم تالٍ، وفي مثل ذلك يقول الشاعر:

رحلنا وخلينا على الأرض زادنا وللطير من زاد الكرام نصيبُ

ومن مرويات المتنبي وليست في ديوانه:

وإذا أتاه طعامه لعدائه رُفعت له الأستارُ والأبوابُ
وتهافت الغلمان من جيرانه فتسامع المعتزُّ والمهتابُ

(٢٥) الخميرة (Χιμαίρη) ومعناها في الأصل جدي معز (ومنها Chirnère بالإفرنجية للوهم والخيال)، مخلوقات خرافية كان مقامها في جبل خميرة في ليقية، وكانوا يزعمون أن لها رأس أسد يتقاذف الأوار من فيه على جسم تيس من المعزى، له ذيل أفعى، وكثيراً ما كانوا يرسمونها برأسين؛ رأس تيس، ورأس ليث. فلما اضطر بليروفون إلى قتلها استنجد أثينا فمكنته من القبض على فيغاسوس الجواد الطيَّار، فركب وفتك بها وهو طائر. والأصل في هذه الخرافة أن جبل خميرة في ليقيا كان في قمته بركان تتقاذف النيران من فوهته، وتحتها مراعى نضرة ترتع فيها الماشية، وفي سفحه الأفاعي السامة تؤذي المارة من الناس.

(٢٦) السليمة: شعب ليقى تلاشى واضمحل. وانقراضه لغير سبب بيّن في التاريخ حمل الرواة على الاعتقاد بأن ذلك إنما جرى على يد بليروفون؛ لأنه أحسن الجهاد في تلك البلاد.

(٢٧) الأمازونة: قوم من مقاتلة النساء مر ذكرهن ورسمهن. (ن ٣).

(٢٨) لم يذكر هوميروس سبباً لما نال بليروفون من الذل والهوان بعد ذلك العز ورفعة الشأن، فخطأه بعض الشراح لهذا الإغفال على أن بعضهم التمس له عذراً بقوله: إن ناقل هذه الرواية، إنما كان من عقبه وعزير على الولد أن يذكر أمراً ربما كان فيه غضاضة من شأن جده، وهو عذر ظاهر التمحل، والصحيح ما سنبينه في الصفحة التالية.

(٢٩) نهر آلس هو الذي عبره سيف الدولة أثناء غزوته الروم،
وذكره المتنبّي بقوله:

يذري اللقان غبارًا في مناخرها وفي حناجرها من آلسٍ جرغُ

والمعري بقوله:

بنات الخيل تعرفها دلوكُ وصارخة وآلس واللقانُ

وفيه قال أبو فراس مخاطبًا سيف الدولة بن حمدان من
القسطنطينية:

وما كنت أخشى أن أبيت وبيننا خليجان والدرب الأصمُ وآلس

وله ذكر كثير في غزوات الإسلام أيام المعتصم، وفيه يقول أبو
تمام مخاطبًا أبا سعيد الثغري الطائي أحد قواد المعتصم:

فإن يك نصرانيًّا النهر آلسُ فقد وجدوا وادي عقرقس مسلما

(٣٠) كانوا ينسبون الموت الفجائي لأرطemis؛ لأنها ربة
السهام، وربما نسبوا لها أيضًا انتشار الأوبئة تشبيهًا لها بالنبال
المتساقطة.

(٣١) لا أظن قارئًا يطالع هذه القصة إلا ويرى الشبه الساطع
بينها وبين قصة يوسف الصديق الواردة في التوراة والقرآن، وإن اختلف
المآل بين يوسف وبليروفون، فيلوح للمطالع أن انحراف الآلهة عن

بليروفون، إنما هو ذيل ملصق أتى به الشاعر توطئة لما ألم ببليروفون وولده من الخطوب الكبار، ولم يذكر لأنه ليس هنالك سبب معقول لرغبة الأرباب عن رجل اتصف بكل محمداً مأثورة وخلة مشكورة، فالقصة على ما هي مبتورةً بتراً يشوه محاسن خاتمتها، وليس في كل منظومات هوميروس إغفال كهذا، ولا يشفع فيه ما تقدم في الصفحة السابقة، أو كون الرواية كانت كثيرة التواتر في زمانه، فلم تكن به حاجة إلى زيادة إيضاح؛ لأنه أفاض وأجاد في ذكر محامد بليروفون، فكان من لوازم السياق أن يشير ولو إشارة خفيفة إلى سبب انقلاب الآلهة وإعراضهم عنه، فلا أحسب إذن إلا أن هوميروس أتم إيراد قصته، وكان ذيلها في جملة ما سقط من قلم النساخ، والغريب أن الشراح فيما قرأت لم ينتبهوا إلى هذا النقص، أما تنمة الرواية على ما جاء في غير الإلياذة فهي أن بليروفون طغا أخيراً وتجر، فحاول الوثوب إلى السماء على ظهر جواده الطيار، فسخط زفس عليه وسلط ذبابة فلصقت بالجواد فأجفل ورمى فارسه عن ظهره، فسقط إلى الأرض، وكان ما كان من خاتمة أمره، وأما ما بقي فأكثره يتفق في معناه مع قصة يوسف وإن اختلف في الاسم والمبنى، فبليروفون كيوسف بديع الجمال كريم الخلال وأفریط يكاد يماثل فوتيفار اسماً وجسماً، وزوجته أنتيا تضارع زليخا التي قيل فيها: امْرَأَةُ الْعَزِيزِ تُرَاوِدُ فَتَاهَا عَنْ نَفْسِهِ وَأَعْرَضَ عَنْهَا هُنَا كَمَا أَبَى وَاسْتَكْبَرَ هُنَا فَقَالَتْ لِرُوحِهَا هُنَا: فَمُوتِي أَوْ فُلَيْمَتِي مِنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوءًا سَحِيقًا

الفؤاد كما قالت هناك: مَا جَزَاءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوءًا إِلَّا أَنْ يُسَجَّنَ أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فوافقها أفريط على التكيل به كما ثُمَّ بَدَأَ لَهُمْ مِّنْ بَعْدِ مَا رَأَوْا الْآيَاتِ لَيْسَجُنَّهُ حَتَّى حِينٍ فساء فآلهم هنا؛ لأن آل العلي حرسوه فالله خَيْرٌ حَافِظًا ثم شوطر الملك، وأقطع كما، ولي يوسف على خزائن مصر وولي أحكامها، وسير بليروفون برسالة تقضي بقتله فلم يخن، فيفضها أو يذهب غير مذهب، كما حمل الوفاء يوسف على التحفظ بمال مولاه. ولا شك أن هذه القصة كان أمرها شائعاً في مصر في زمن هوميروس كما هو شائع في أيامنا تتمثل بها الخاصة ويتغنى بها السوق في مصر وسوريا والعراق، وهو محقق أن هوميروس زار بلاد مصر أو نقل من الثقات كثيراً من المعتقدات. ولا يخفى ما يعتري الروايات بالانتقال من الزيادة والنقصان، فإذا تأملنا هذه الرواية رأيناها باقية أكثر نقاء من غيرها.

(٣٢) لا بدع أن نرى هوميروس حريصاً على حفظ أنساب قومه، فذلك منزع جاهلية القوم، ونعم المنزع إذا لم يشبط عزيمة صاحبه، وينفخ فيه ريح الغرور كما جرى لإخواننا العرب لعهدنا هذا، والتوراة والإنجيل مشحونان بذكر الأنساب، وللعرب كلف خاص بتدوين أنسابهم حتى لقد يرتقون بأسلافهم من جد إلى جد حتى يبلغوا آدم أبا البشر مع أن من مرويات الحديث: «لا تتجاوزوا عدناناً بأنسابكم». وقلما تجد شاعراً عربياً يخلو نظمه من مفاخرة بعشيرته.

قال الفرزدق:

أولئك آباءِي فجئني بمثلهم إذا جمعتنا يا جريِرُ الجوامعُ

وقال النابغة الجعدي:

بلغنا السماء مجدنا وجدودنا وإننا لنرجو فوق ذلك مظهرًا

وقال سليم بن محرز:

وعمي جبارٌ وجدي مالكٌ هما رفعا البيت الطويل نصايه

لنا وأحلّنا بأرفع منزلٍ من المجد لا يستطيعه من يطالبه

ومثله قول لبيد:

من معشرٍ سنت لهم آباؤهم ولكل قوم سنة وإمامها

لا يطبعون ولا تبور فعالهم إذ لا يميل مع الهوى أحلامها

ومع هذا فلم يعدم العرب في كل عصر شعراء يقولون قول ابن

الوردي:

لا تقل أصلي وفصلي أبدًا إنما أصل الفتى ما قد حصل

ومثله قول راكان شيخ العجمان الشاعر البدوي العصري:

يفتخر حاشاك بالعظم الرميمٌ مفخر البزُون بالسبع الغشوم

والبزون: الهر.

(٣٣) حبذا لو جعل الشاعر تلك المقايضة عن طيبة نفس وعلو جناب من غلوكس لا عن فقد رشد، فلقد كان ذلك أليق بالمقام، على أن بعض الشراح فسروا سلب الرشد بترفع العقل، وحبذا لو كان الأصل يجيزه لهم.

(٣٤) لا تعول، أي: لا تزيد. إنما عبر هوميروس بهذا التعبير عن الثمن؛ لأنهم كانوا يتبادلون المتاع تبادلاً في ذلك الزمن، فلم يكن لديهم نقود مسكوكة بل كانت توزن المعادن وزناً. لقد لقي هنا أعداء هوميروس مجالاً متسعاً للانتقاد عليه، فولجوه من كل باب وأطالوا البحث فيه بما يضيق دونه المقام، وجل مستندهم أنه لا يعقل مع حمو وطيس الوغى أن يقف فارسان بين الجيشين، ثم يتجاذبان الحديث الطويل العريض، فيقصان القصص ويتفاخران ويتخاطران، والناس وقوف وقد عيلوا صبراً. نعم يصدق هذا الاعتراض على شاعر ينظم في هذا الزمان، ولكنه لا يخلو من التحامل على راوية روى أحداثه جرت قبل آلاف من السنين بين قوم هذه سنتهم، ولا نكاد نرى مؤرخاً أو شاعراً قديماً إلا أثبت تلك السنة، وهذه أخبار جاهليتتنا وغزوات الإسلام الأولى ملأى بمثل هذه المخاطبات في المبارزات يتنافر في أثنائها المتبارزان ويتناشدان الأشعار، ولربما أدى بهما ذلك التنافس إلى التعارف والتحاجز كما جرى لغلوكس وذيوميذ، ومن أمثاله ما ذكر ابن الأثير وغيره من المؤرخين عن بروز أبي

حُمَيد عبد الرحمن بن عوف الرواسيّ بوقعة دير الجماجم؛ إذ خرج إليه رجل من أهل الشام فقال كلُّ منهما متحمسًا: أنا الغلام الكلابي. فقال كلُّ واحد لصاحبه: مَنْ أنت؟ وإذا هما ابنا عمّ فتحاجزا. كل هذا مع ما في حديث ذيوميذ وغلوكس من الفوائد الجمّة والآثار التي لا تخرج عن جادة السياق، وإن أتت بصورة معترضة يخفف من وطأة الانتقاد، ولا ريب أن المطالع يرتاح نفسًا إلى تلاوة شيءٍ من هذا القليل بعد عناء المعارك المتصلة، فيتهيأ للإتيان على الحلقة الباقية من حوادث هذا النشيد، وهي حلقة صغيرة جمعت من وصف شعائر البشر رجالًا ونساءً كبارًا وصغارًا، ما لم تحوه مخيلة شاعر في ألوف الأشعار، ولا وصفه كاتب في طويل الأسفار.

(٣٥) لا بدع أن تهرع النساء فيتهافتن حول الزعيم الأكبر، وهو قادم من مواقف القتال، فهنّ فوق ما فُطرن عليه من حب التطلع والتشوف، مفارقاتٌ بعولا وإخوانًا وأقرباء وأولياء لا يسعهنّ إلا استطلاع أخبارهم، وهي سنّة لا بد منها في كل عصرٍ ومصرٍ، وعندنا من أمثالها ما لا يقع تحت حصر، من ذلك ما روى الواقدي وغيره عن خولة بنت الأزور؛ إذ خرج أخوها فيمن خرج من دمشق إلى أجنادين أثناء فتوح الشام قال: «فلما رجع القوم إلى مكانهم أقبلت خولة على المسلمين، وجعلت تسألهم رجالا رجالا عن أخيها».

وليس في الإلياذة ذكر لولوج النساء معامع الحرب، وإن كنَّ شاطرنَ الرجال كثيرًا من الأعمال، كغسل الموتى، وإعداد المعدات، وإقامة الصلوات، وربما استخففن بقفول، كما سترى عما قليل في كلام إيقاب والدّة هكطور، أو عنفن على خمول، كما سيأتي في كلام هيلانة عن زوجها فاريس، ولم يكن بهن حاجة إلى ما وراء ذلك؛ إذ لم تكن رجالهن تقاتل في البيداء، كما هي الحال في بادية العرب حيث تتبع النساء الرجال فتستنفر وتفزع وتسقي وتدأوي، حتى لقد يجهزن على القتلى، كما جرى لهن في بعض أيام العرب المشهورة كوقائع بكر وتغلب في حرب البسوس، وربما خضن بأنفسهن ميدان القتال خفيةً وجهرًا فقد رُوي أن خولة السالفة الذكر لما لم تقف لأخيها على أثر، وعلمت أنه أسير العدو تسلحت وتلثمت واندفعت متخفية في صدر الفرسان، وكان من بأسها ما دُهِش له خالد بن الوليد وسائر قواده، وفي روايات العرب أخبارٌ يؤخذ منها أن كثيرات من نساء حمير والتبابعة كن في الجاهلية يركبن ركوب الفرسان، ويقاتلن ويغزون ويهاجمن ويدافعن، أتى الواقدي على ذكر عجائز من بقاياهنّ رافقن جند المسلمين في صدر الإسلام إلى الشام، وكنّ لامتناع السلاح عليهن يأخذن أعمدة الخيام وأوتاد الأطناب، ويقاتلن بها قتال الفارس المقدام، وكنّ إذا انهزم رجالهن وقفن في وجوههم، وأرجعنهم على أعقابهم بكل وسيلة لينّة كانت أو فظة، وكن

يعنفنهم وينشدنهم الشعر، ويقلن لهم لستم ببعولة لنا إن لم تمنعوا عنا،
ومن قولهن في بعض تلك المواقف:

نحن بنات طارق إن تغلبوا نمـالـق
أو تدبروا نفـارق فراق غـير واثـق
هل من كريم عاشق يحمي عن العواتق

ونُقلت عن هند بنت عتبة زوجة أبي سفيان بعض أخبار على هذا
النمط قبل إسلام زوجها وبعده، ففي غزوة أحد شتمت زوجها لتقاعده
عن صد المسلمين، ثم لما أسلم وكان في الشام في جند خالد قابله
وهو منهزم، فضربت وجهه حصانه بعمودها، وأسمعته الكلام المؤلم.

وعلى الجملة فقد كان لنساء العرب في الحرب شأنٌ لم يكن
لنساء الإغريق، ومن وليهم، وأما ما جاء في الإلياذة وغيرها من كتب
اليونان عن الأمازونة، فإنما هو حادثة منفردة في بابها، سيقت النساء
فيها إلى الحرب بحكم الاضطراب لتلاشي الأبطال، وانقراض الرجال فلا
يبنى عليها قياس.

(٣٦) إن إقامة الأصهار في بيوت الأحماء من الأمور القديمة
المألوفة في كل الملل، فإن يعقوب أقام في منزل حميه لابان، والدُّمُون
بن عبد الملك الحضرمي تزوج إلى ثقيف في وجّ (الطائف)، وأقام بينهم
وصار منهم، وهلمَّ جرّاً.

(٣٧) قد يقف مطالع الشعر عند دقائق ليست من لوازم النظم، ومع ذلك فإن نفسه تتطلع إلى استجلائها، فإذا كان الناظم دقيق الفكرة بعيد النظر دَوَّنَها، وكفى القارئ مئونة الحُدس والتخمين، فهنا قصر ملك كبير ورد ذكره في الإلياذة، فوصفه الشاعر بكلمات رسمت صورته في الذهن، وملأت ذلك الفراغ، وهي مزية يسوِّنا أن شعرنا العربي يوشك أن يكون غفلا منها لشغف أصحابنا بالشعر الصرف، والإيغال في ضروب الخيال بما لا يتسع معه المجال لهذه الحقائق، خذ مثلاً القصور والمعازل والحصون الوارد ذكرها في شعر العرب، فغاية ما تعلم عنها أنها بديعةٌ منيعةٌ متينةٌ حصينةٌ، ولا تكاد تعلم شيئاً عن موقعها ووضعها واتساعها وهيئة بنائها ومادتها، وإذا ورد شيءٌ من ذلك فإنما يكون بوضع مجمل وأسلوب مبهم لا يصح أن يؤخذ منه رسمٌ صادق، ويطلق هذا الكلام على أكثر ما جاء في كلام العرب من هذا الوجه سواءً ورد على طريق العرض، كقول المخبل السعدي في المشقَّر:

ولئن بنيت لي المشقر في هضب تقصر دونهُ العصم
لتنقبن عني المنية إ ن الله ليس كحكمه حكم

وقول أوس في ريمان:

ولو كنتُ في ريمان يحرس بابهِ أراجيل أحبوش وأغضفُ ألفُ
إذن لأتتني حيث كنت منيتي يخب بها هادٍ إلى الموت قائفُ

أو كان مقصودًا بالذات، كقول السموأل في الأبلق:
بنى لي عاديًا حصنًا منيعًا وماء كلما شئتُ استقيتُ
وأوصى عاديًا يومًا بأن لا تهدم يا سموأل ما بنيتُ

وقوله في موضع آخر:
لنا جبلٌ يحتله من نجيره منيعٌ يردُّ الطرف وهو كليلٌ
هو الأبلق الفرد الذي شاع ذكره يعزّ على من رامه ويطول

وكم من شاعر تغنى بذكر الخورنق والسدير قصري الملك
النعمان في العراق، وصرح الغدير لبني غسان بالبقاء، وقصر غمدان
للملك شرحبيل الحميري في اليمن، ومارد والأبلق حصني السموأل،
ولكن من لنا باستخراج رسم تلك المباني من شعر الشعراء، وقد بسطنا
الكلام على هذا الإغفال وأسبابه في المقدمة فلا حاجة إلى الإعادة.

(٣٨) ألا ترى من هذا الكلام أن النساء كن أحرص على شرف
ذويهن منه على حياتهم، أو لا ترى من إمساك إيقاب والدّة هكطور بيده،
ومخاطبتها له بنوع من التعنيف، إنها إنما استغريت قفوله مع كل شوقها
إليه وحنانها عليه، لم تكن أمهات ذلك الزمان أقل حنانًا على بَنِيهِنَّ من
أمهات أيامنا، ولكنهنَّ كنَّ على رقة عواطفهن ذوات صبر تقتضيه لوازم
الخشونة في المعيشة، وأنفة تستلزمها المنافسة بسمو أفعال الرجال ممن
ينتمي إليهن وينتمين إليه. وليس في كلام إيقاب من سمو المرمى فوق ما

يروى لكثيرات من نساء العرب، ذهبت الخنساء بنفسها مع بنيتها وهي عجوز لما سار المسلمون لفتح فارس، فحضرت وقعة القادسية (في خلافة عمر). فشَدَّتهم وقالت: «اصبروا وصابروا ورابطوا واتقوا الله لعلكم تفلحون، فإذا رأيتم الحرب قد شمרת عن ساقها، وجللت نارًا على أرواقها، فتيّموا وطيسها، وجالدوا رئيسها، فتظفروا بالمغمم والكرامة، في دار الخلد والمقامة». فتقدموا واحدًا بعد واحد ينشدون أراجيز يذكرون فيها وصية الخنساء حتى قتلوا عن آخرهم وكانوا أربعة، فلما بلغها الخبر قالت: «الحمد لله الذي شرفني بقتلهم، وأرجو من ربي أن يجمعني بهم في مستقر الرحمة». (الأغاني وابن زيدون ودائرة المعارف).

(٣٩) هذا مذهب الجهم الغفير من الناس، ومنهم ماريولس القائل: «قليل من الخمر يفرح قلب الإنسان». قال لبيد:
تجور بذى اللبانة عن هواه إذا ما ذاقها حتى يلينا
ترى اللحن الشحيح إذا أمرت عليه لماله فيها مهيّنا

وقد ابتذل العرب الشعر في وصف الخمرة ومنافعها، حتى دوّنت فيها الأسفار؛ كحلبة الكميت، وخمريات أبي نواس، مع قولهم بعد الإسلام بتحريمها، وكأنهم اتخذوا مما يجد البعض من لذتها في هذه الدنيا مع القول بتحليلها في الآخرة وسيلة إلى التسامح بالتهافت على مدحها حقيقةً، كما هو شأن المدمنين، ومجازًا كما سلك ابن الفارض

وغيره من المتصوفة، ومع هذا فقد ذهب كثيرون من الشعراء مذهب
هكطور بدم الخمرة، كقول بعضهم:

تركت النبيذ وشرَّابهُ وصرت صديقاً لمن عابهُ
شراب يضل سبيل الهدى ويفتح للشُّر أبوابهُ

أما قول هكطور: «يا أماه، تنحط القوى بارتشافي الآن شهد
السلسيل». فالظاهر إما أنه كان يعتقد ذلك اعتقاداً، يوافقه عليه العدد
الوافر من أطباء الأبدان فضلاً عن أصحاب الأديان، وإما أنه قال ذلك
بالنظر إلى حالة موقفه وعيه ورغبته في سرعة الإياب، ولم يكن له على
كلتا الحالتين أن يلهو بشرب الراح وهو مخضب بدم القتلى، ومعفر
بغبار الكفاح.

(٤٠) أي: السلسيل الحلو، كالشهد.

(٤١) طهارة الأجسام واجبة كطهارة البواطن في كثير من الأديان
القديمة والحديثة، فبطلانها يفسد الصلاة والضحية، بل ويمنع الأجر
والنذر كما يستفاد من كلام هكطور، وقد زعم بعض الشراح أن القول
بغسل الدم قبل التضحية، وما ماثلها من العبادات يشير إلى تحريم
القتل، ولو كان الأمر كذلك لما عُدَّ غيره من المدنسات، كما يستفاد من
كلام هوميروس في عدة مواضع.

(٤٢) أعاد هكطور على أمه كلام أخيه هيلينوس.

(٤٣) أتى هكطور ليقضي مهمة واحدة فقضى ثلاثاً؛ أولاًها: إنفاذ وصية هيلينوس، والثانية: دفع فارس إلى الحرب، والثالثة: وداع امرأته وطفله، وكل ذلك بسرعة الهمام الحزوم، الذي لا يغفل أمراً واجباً، ولا يضيع لحظة لا يجني منها فائدة لنفسه أو لبني جنسه.

(٤٤) صور وصيدا مشهورتان في العهد القديم بحسن الصناعة، وإتقان المنسوجات من لباسٍ ورياشٍ، وكانت لهما علاقة متصلة مع بلاد اليونان، وللنساء فيهما مهارة بالنسج والخياطة والحياكة، سبى فارس هيلانة من إسبرطة، وليست صيدا على طريق الذهاب منها إلى بلاد الطرواد على أن بعض الرواة (وعنهم روى هوميروس) يذهبون أنه لم يسلك الطريق العدل خوفاً من أن يظفر به الإغريق إذا تبعوه، فأتى فينيقية، وبلغها ليلاً فسى ونهب ثم انقلب راجعاً، وذهب فريق من المؤرخين إلى أنه عاد تَوّاً ولم يعرج على مكان، ومن رأي بعض علماء العصر أن صيدا هذه غير صيدا السورية، بل بلدة أخرى بهذا الاسم كانت على ساحل البحر الأحمر.

(٤٥) كانت الكهانة للنساء عند اليونان كالرجال، وإن كنَّ أقل عدداً، وللرومان كاهنات مشهورات كالكيالات، ولقد تعاطين الكهانة أيضاً عند العرب، وأشهرهن طُرَيْفة الكاهنة امرأة عمرو بن عامر، التي أنبأت بانفجار سد مأرب وسيل العرم، وما لبثت نبوتها أن تحققت، وهي التي استخلفت شقاً وسطيحاً يوم أشرفت على الموت، فدعت بهما

وتفلت في فميهما، وأخبرت أنهما يسخلفانها، ومنهن الزرقاء بنت زهير التي استشارها بنو خزيمة لما نزلوا هجر، فقالت: «مقام وتنوخ، فأولد مولود، واتفقت فروخ، إلى أن يجيء غراب أبقع، أصمغ أنزع، عليه خلخال ذهب، فطار فألهب، ونعق فنعب، يقع على النخلة السحوق بين الدور والطريق، فسيروا على وتيرة، ثم الحيرة الحيرة». قال صاحب الأغاني (١١: ١٦٢): فسميت تلك القبائل تنوخ لقول الزرقاء، ثم لما تمت نبوءاتها ارتحلوا من هجر إلى الحيرة. ومنهن زبراء الكاهنة، وسلمى الهمدانية، وعفيرة الحميرية.

وللعرب أيضًا حكيما مشهورات كانوا يأترون بأمرهنَّ ويستشيرونهنَّ في المعضلات؛ كصخر بنت لقمان، وهند بنت الحسن، وجمعة بنت حابس، وابنة عامر بن الطرب وغيرهنَّ.

(٤٦) كان هيلينوس يعلم بعرافته أن ذيوميذ من موالى أثينا، فلم يوعز إلى هكطور إلا أن يستميل أثينا فيحملها على دفعه دون صرعه، وبلغ هكطور الرسالة بلاغ الرسول الأمين، أما النساء فلما أشير إليهن بذلك لم يقفن عند هذا الحد بل تمادى بهنَّ الكيد إلى الدعاء بسحق رمح ذيوميذ وإلقائه صريعًا، وهو تمثيل بديع لفطرتهنَّ نتحاشى الإطالة في وصفه، وحسبنا كلام إحدى نوابغهن عقيلة داسيه مترجمة هوميروس قالت: قلما يعتدل النساء بدعائهن على أعدائهنَّ؛ ولذا قليلًا ما يستجاب لهن دعاءً، وهو لا شك تحاملٌ لطيفٌ منها على بنات جنسها.

(٤٧) الفتحة: الحلقة.

(٤٨) كان هكطور عالماً ببواطن فارس وبوادره عارفاً كما عرف سائر الجند أنه اعتزل الكفاح مضطراً بغلبة منيلاوس، ومع هذا فلم يفه بكلمة تذكره بسابق فشله بل كلمه بما يشف عن اعتقاده أن فارس ساخط على قومه، فاعتزلهم حقداً عليهم فغادر تعنيفه عما جنى وعنفه على ما لم يجن فخفف عنه وطأة الخجل ونال منه ما أمل، وهياً بنفسه استرضاء الجيش بعودة فارس على أهون سبيل، وهذا دهاء من هكطور اتفق الشراح على استحسانه، وهو مثل صالح للمؤدب والخل النصوح يعلمان منه أن التعنيف اللفظ وكشف مواقع الضعف قد يؤديان إلى ما لا يحمد، مع أن التوبيخ اللطيف الذي لا يكسر شوكة الإحساس، ولا يزيل حجاب الحياء يؤدي إلى المطلوب بأقرب السبل، وأقوم المسالك.

(٤٩) تناسى هكطور خيبة أخيه والتمس له عذراً لتقاعده كما تقدم، فهب فارس على الإثر مضطرباً بنار الحمية لملاقاة ما فات.

(٥٠) لا نسمع كلمة لهيلانة، ولا نرى لها حركة إلا وملؤها الندم الممزوج برقة الإحساس، فتمحّل لها عذراً بإلقاء تبعه ما جنت يداها على القضاء المحتوم، وحسبنا بتمنيها الموت والاحتجاب عن عالم الوجود دليلاً على شدة بؤسها وفرط غمها، تلك حاسة فطرية في من برّحت به تصارييف الزمن، أو خالها انتابته وهي بعيدة عنه، مثال الأول قول أيوب الصديق: «لا كان نهار ولدت فيه ولا ليل قيل فيه قد حُبِل

برجل ليكن ذلك النهار ظلامًا، ولا رعاه الله من فوق ولا أشرق عليه نور ... لَمْ لَمْ أمت من الرحم ... لماذا صادفت ركبتيين تقبلانني وثنيتين ترضعانني إلخ». (أيوب ٣: ١). والمثال الثاني: ما جاء في القرآن عن لسان مريم عليها السلام: قَالَتْ يَا لَيْتَنِي مِتُّ قَبْلَ هَذَا وَكُنْتُ نَسِيًّا مَّسِيًّا وربما صدق على المثالين قول الشاعر الفارسي:
مرا أي كاشكي مادر نمیزاد وكرمیزاد کس شیرم نمیداد

ومعناه:

ليت أُمي لم تضعني أو إذا وضعتي ليتني لم أَرْضع

(٥١) شرع الشاعر هنا في سرد تلك الرواية الفريدة في بابها عن وداع هكطور لزوجته أنذروماخ، ولقد أفاض الكتابة في تبيان محاسنها بما يضيق دونه مقامنا، حتى لقد أفرد لها بعضهم المؤلفات الحسان، وأبدوا في كتاباتهم من الملاحظات ما لم يبق معه مجال للإسهاب نخص منها بالذكر رسالة رولين (Rollin) Trailé des études. ولا بدع، فهذه الرواية على تقادم عهدها لا تزال الطراز المعلم يتوخى الكتابة إدراك شأوه في كل زمان ومكان، وهي مع كل ما كتب عنها من الشروح والحواشي غنية عن كل شرح وبيان، وما على المطالع اللبيب إلا أن يتصفحها حتى يستجلي بنفسه جميع محاسنها بلا مرشد ولا دليل، وهو ميروس كسائر عظام الرجال، ونوابغ العقل، والكمال تطاولت إليه يد

كل منتقد حسود وعدو لدود على أن المتشيع له والمتفاني في تخطئته اضطرأ هنا معاً إلى الانحناء هيبةً ووقاراً لجلال هكطور وكمال أندروماخ.

(٥٢) أيُّ توطئة أجمل من هذه التوطئة للقاء الزوجين، فهو يسعى متقصياً كالبرق الخاطف غير لاهٍ عن دواعي الذود عن الوطن، لا يطمع إلا في التزود بنظرة قبل الهلاك، وهي تجري مخلوبة الفؤاد تستطلع من المشارف غير عابئة بتهافت نسوة البلاد إلى المعبد، فكأنما زوجها معبودها الأعظم لا مطعم لها في الدنيا والآخرة إلا بسلامته وسمو مكانته.

(٥٣) لم يشبط هكطور شغفه بامرأته عن اذكاره حرج موقفه ووجوب عودته فوراً فانشى من حيث أتى متصبراً، ولم يضع الوقت بالبحث عنها، ثم جمعته بها الصدفة دون زيادة التحري، ولا يخفى ما في ذلك من تنبه الشاعر إلى توفية حقوق الهمم الشماء والعواطف الغراء في آن واحد.

(٥٤) أستياناس، أي: ملك المدينة. كذا دعا الطرواد المولود اعترافاً بفضل الوالد.

(٥٥) إسكمنديوس نهر طروادي كان من جملة معبوداتهم، ويدعى أيضاً زنثس، أي: الأصفر؛ لصفرة مائه، ويقال له الآن: «قرق كوزلر»، أي: الأربعون عيناً، سمي هكطور ابنه باسمه تبركاً به. إنه لأمر طبيعي في كل ملة أن يرمي بالأسماء إلى مغامر مقصودة، أو آلهة معبودة،

أو صفات محمودة، أو رجال معدودة، وقد جرى العرب جري غيرهم، فقالوا: عبد اللات، وعبد العزى، وعبد مناف، وعبد شمس، وعلي، وعباس، وهمام، وهلمَّ جرًّا، على أنهم تفردوا بأمر قلٍّ من جاراتهم فيه وهو التسمية بمستقبح الأسماء؛ ككلب، وكليب، وذئب، وذؤيب، وضبع، وضبيعة، وزباله، ومرار، ولقد تأول الناس في ذلك تأويلات مختلفة أحسنها ما رُوي من حديث أعرابي؛ إذ سئل ف قيل له: لماذا تسمون عبيدكم بأحسن الأسماء؛ كجوهري، ومرجان، ولؤلؤ، ومسرور، وأبناءكم بأقبحها؛ كغضبان، ومرار، وكلب، وذئب؟ فقال: عبيدنا لنا وأبناؤنا لأعدائنا.

(٥٦) لما كان آخيل موضوع الإلياذة ترى الشاعر يبرزه حينًا بعد حين، أثناء احتجابه بمظاهر كلها عظيمة حتى لا يغيب عن ذهن السامع بل يزداد تشوقًا إلى رؤيته وتشوقًا إلى إحقاق الخبر بالخبر.

(٥٧) إحراق الجثة بسلاحها دليل على الرعاية والاحترام؛ وخصوصًا لأن غاية مفخر الأبطال في ذلك الزمن إحراز أسلاب القتلى، وأعظم من ذلك دليلًا على إجلال أخيل لقتيله أبي أنذروماخ بناؤه له ضريحًا، وهو عندهم الغاية والنهاية في الإكرام والتجلة.

(٥٨) كانوا يعتقدون بوجود بنات حسان في قعر البحار، وفوق الجبال القفرة، ووسط الغاب والآجام، وربما أطلقوا اسم بنات الغاب على بنات الجبال في بعض الترجمات، وهن جميعًا من المخلوقات

المؤلهة، واعتناؤهن بزرع الشجر حول ضريح ميت دليل على علو مكانته.

(٥٩) أي: إنها لم تلبث أن ماتت. كانت أرطميس (Αρτεμις) ويسمىها اللاتين ديانا (Diana, Diane)

ربة العفة والطهارة والقنص، وكانت ترمي النساء بنبالها فتقتلهن، كما كان أخوها أفلون يرمي الرجال، ويُرمز عنها بالقمر كما يُرمز عن أفلون بالشمس، ذكرها هوميروس مرارًا، وهي موالية للطرواد، وقاتلت في من قاتل معهم من الآلهة كما سيجي. كانوا يمثلونها بعذراء طويلة القامة متردية بثوب قصير، وإلى جانبها غزالة أو كلب، وكثيرًا ما كانوا يرسمونها وييمينها قوس ووراءها طائفة من العذارى الحسان.

(٦٠) لقد طرقت أندروماخ كل باب يطرق لإمساك هكتور عن الإلقاء بنفسه إلى التهلكة دون أن تعبت بهيمته ومنزلته، فهاجت فيه عواطف الحنان، وذكرته بما ألمَّ بآل بيتها من المحن، ومثلت له حبها له وتعلقها به وحذرت من عواقب مقتله إذا قتل، ولم يكن بالشيء اليسير أن يغادر امرأته أيّما وطفله يتيماً، ثم حسنت له أن يقي ثغرة السور من هجمات الأعداء، وذلك موقف لا يقفه إلا الأبطال الأشداء، فلا يكون فيه غضٌّ من شأنه، كما قال هوميروس ضمناً وقلناؤه بالتعريب صراحةً خلافاً لما توخيانه من نبذ التصرف، وعلى الجملة فقد أنطقها الشاعر بما

ليس في التصور أن تنطق بأحسن منه، زوجةً قدرت قدر الرجال وتوفرت لديها رقة العواطف وطيب الخلال.

(٦١) وفي الأصل بين الطرواديين والطرواديات الطويلات النقاب. ينبئنا هذا وذكر مقانع إيقاب قبيلة، وبرقع هيلانة، وبراقع النساء والربات في مواضع أخرى أنهن استعملن النقاب لذلك العهد، ويؤخذ من كل هذا الحديث أنهم كانوا يحرسون على إحراز الاستحسان من ربات الجمال حرصهم على إحراز المكانة بين الرجال، وذلك أمر فطري لم تكذب تعبث به والحمد لله معدّات الحضارة، ولو لم يكن للنساء من فضل على الرجال إلا دفعهم للبروز لديهنّ بأسمى المظاهر لكفى. أفلا ترى أنهنّ وإن كنّ في الجاهلية لم يشددن إلا قليلا على الفرسان بالصارم والسنان، فقد شددن من وراء رجالهن عليهم بالمنطق الفتاك واللحظ الفتان، واستنفرتهم استنفاراً لا يستنفرة صديد الفيالق وهديد الفرسان، أو لا تخال داود والبنات يغنين حوله بعد فتكه بجالوت أو جليات: أملاً فؤاداً بهن منه بتطواف الجند، وتسمن ذرى المجد. أو لا تحس من السموأل خشية من ذرابة منطقهن فوق خشيته من المناصل والعوامل، حتى أدراً ازدراءهنّ بكل ما خوله الله من بلاغة المنطق، وفصاحة اللسان، وأجهد النفس في دفع مظان «معيرته». ولو كان المعير ذكرًا لخلته اجترأ له بالمجافاة أو المهاجاة، ثم إذا تصفحت ديوان عنترة لا تكاد تجد له قصيدة تخلو من أبيات يوجه فيها الخطاب إلى عبله، فيقول قول هكطور

لأنذروماخ، ومما يحسن إirاده هنا قول عبد يغوث بن وقاص فارس بني

الحارث وهو يتغنى ساعة موته:

أنا الليث مَعْدُواً عليّ وعاديا

وقد علمت عرسي مليكة أنني

ليقًا بتصرف القناة بناييا

وكنت إذا ما الخيل شمصها القنا

بكفي وقد أنحوا عليّ العواليا ... إلخ

وعادية سوم الجراد وزعتها



أرطيميس.

(٦٢) تل: صرع، والتليل: المصروع.

(٦٣) أو ليس من فضل النساء أيضًا أن يسعرن أفئدة الرجال بنار الحمية والتفاني بحب الأوطان؟ أو لا ترى هكطور أبسل من في القوم يجد من نفسه مصبرًا على هلاك أبيه وأمه وإخوانه وخلانه، ولا يجد صبرًا على سبي امرأته، ولو بعد مماته؟ فكيف لا يتفانى بعد هذا، ولا تخط آئي البسالة على صدره كل معجزة تحار لها الأبصار وتفتح لها أبواب الأقدار؟! وللعرب من هذا القبيل شئون يوقف عندها إعجابًا. قال عنترة:

فألقتل لي من بعد عبلة راحةً	والعيش بعد فراقها منكودُ
لهفي عليك إذا بقيت سبيةً	تدعين عنتر وهو عنك بعيدُ
يا عبل قد دنت المنية فاندبي	إن كان جفنك بالدموع يجودُ
يا عبل إن تبكي عليّ فقد بكى	صرف الزمان عليّ وهو حسودُ
يا عبل إن سفكوا دمي ففَعَّالِي	في كل يوم ذكْرُهْنَّ جديدُ

(٦٤) قَبْل هكطور طفله ودعا له دعاء الأب الشفيق، ولم يفته عند استتمام الكلام أن يدعو بما يطيب قلب أمه، كل هذا تمثيل تام لما اتصف به من صدق النية وحسن الطوية، أما دقائق ذلك المشهد من أولها إلى آخرها فحسب المطالع أن يمعن النظر فيها كما قدمنا، فلا تخفى عليه خافية من بدائعها وتنسيق وقائعها.

(٦٥) من الآيات القرآنية: أَيْنَمَا تَكُونُوا يُدْرِكَكُمُ الْمَوْتُ، إِذَا جَاءَ أَجْلُهُمْ فَلَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً ۖ وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ ۚ ومن كلام الإمام علي بن أبي طالب: «الموت طالب حثيث لا يفوته المقيم، ولا يعجزه الهارب». وللشعراء أقوال كثيرة بهذا المعنى، قال الكميت:

فطأ معرضاً أن الخوف كثيرةً وإنك لا تبقي لنفسك باقياً

أي: لا تتق شيئاً فالموت يأتي في حينه.

ومثله قول الآخر:

كيف وكلّ ليس يعدو حمامه وما لا مرئ عما قضى الله مرحل

قال المعري:

والنفس تبغي الحياة جاهدةً وفي يمين المليك مقودها
فلا اقتحام الشجاع مهلكها ولا توقي الجبان مخلدها
لكل نفس من الردى سبب لا يومها بعده ولا غدها

(٦٦) اختتم هكطور كلامه بتنبيه زوجته إلى تعهد شئونها، وهو كلام على ما فيه من الرقة يشير إلى إنكار الرجال على النساء تطلعهن إلى أعمالهم. قال الخليفة الهادي لأمه وقد دخلت عنده في حاجة: «ما هذه المواكب التي تغدو وتروح إلى بابك؟ أما لك مغزل يشغلك أو

مصحف يذكرك أو بيتٌ يصونك؟ إياك إياك لا تفتحي بيتك لمسلم ولا ذمي».

(٦٧) الصعاد: جمع صعدة الأسنة.

(٦٨) قال عنتره:

لقد ودعتني عبلةً يوم بينها وداع يقين إنني غير راجع

(٦٩) لم يكد هكطور يتعدى الأبواب حتى لحق به فاریس، وكله جذوة ملتبهة همة وإقدامًا. قال أفستاثيوس: لقد وقع نصح هكطور وتعنيفه موقعا حسنا، وهي خطة اتبعها الشاعر، فأبان حسن الوقع لكل تعنيف لطيف حل محله وأصاب محجة الصواب. نقول: ولقد وهم من قال: إن الغرام مفسدة للحزم والإقدام، وإن فاریس كان نكسا جبانًا. أجل إن هوميروس مثله تمثيلا يصدق على أمثاله في كل زمان فهو رقيق الفطرة، دقيق الفكرة، جميل يحب الجمال، ويتطلب الكمال إذا ابتنى منزلا فإنما يتخير له أجمل موقع وينتدب لبنائه «أمهر أرباب الحرف»، وإذا ادخر سلاحا فيحرص على جلائه «ويصقل الشكة والدرع الصقيل»، وإذا طرب ولها فإنما يطرب على نقر القيثارة، ويحسن ضرب الأوتار وتلاوة الأشعار، وإذا لبس السلاح فإنما يشك بعدة «يتألق نورها»، فهو إذن معدن لطف وظرف لا يشوبه إلا أنه كما قال الشنفری: «مرب بعرسه» وليست هذه بالشائبة الكبرى، فهذا عبسینا يتغنى حتى في حومة الوغى بعبلة ومحاسنها. وهذا مهلهلنا لم يشبه أن كان معافر صهباء وزير

نساء، ولا بأس أن نستطرد هنا إلى وجه الشبه بين أخوي اليونان، وأخوي العرب فهكطور كليب حامى الذمار ودرّاء العار، وهو الأخ الأكبر، وفارس كالمهل المثير الأوار والآخذ بالثأر، وهو الأخ الأصغر. على أن الإلياذة تنتهي بمقتل هكطور كما بدأت حرب البسوس بقتل كليب، والتاريخ ينبئنا بما جرى بعد حين من قتل آخيل قاتل هكطور بسهم أطاره عليه فارس.

(٧٠) كأن عطارد بن قرآن كان يتصوّر هذا المعنى البديع، فأتى الطبايق بقوله:

كأني جوادٌ ضمّه القيد بعد ما جرى سابقاً في حلبة ورهان

ولقد علق الشعراء من قراء هوميروس بهذا التشبيه الجميل حتى نقله بعضهم إلى لغاتهم حرفاً بحرف، وفعلوا مثل ذلك في نقل كثير من معانيه دون أن يبينوا مأخذها، ولكن الحقيقة لا تلبث أن تبدو ولو بعد دهر.

(٧١) الحبور: جمع حجرة، أنشئ الخيل. لم أر في ما قرأت من شرح هوميروس من انتبه إلى مشاكلة هذا التشبيه لأخلاق فارس، فإنه وإن كان المراد هنا وصف همة فارس ليس إلا، فقد أتى فيها الشاعر بطباق تام بين المشبه والمشبه به؛ إذ جعل غايتيهما التزلف والتحب إلى الأنثى.

(٧٢) لقد أتى هكطور في هذا البيت والبيت السابق على وصف أخيه وصفًا تامًا مع الإلمام بكل تاريخ الحرب، وهو كلامٌ حقٌّ جمع بألفاظ قليلة ومعاني كثيرة، فأعرب له عن وده له وحرصه على حفظ كرامته، وذكره بعيوبه وسابق ذنوبه وحثه على الحرب، والكفاح بما يوافق مشربه ويلائم مذهبه، ولم يمسس شعائره بشيء يؤلمه مع مراعاة الصدق في كل ما قال.

النشيد السابع براز هكتور وآياس

مُجْمَلُهُ

لما بلغ هكتور وفاريس معسكر قومهما اضطربت جذوة الحرب، وكادت تدور الدائرة على الإغريق، فخشيت أثينا عاقبة الأمر وهمت بإغاثتهم، فلحق بها أفلون نصير الطرواد فاتفقا على إيقاف القتال في ذلك اليوم، على أن يبرز هكتور مناديًا بطلب أشد اليونان بأسًا لبرازه، فأوحيا إلى هيلينوس العرّاف أن يوعز بمآل وفاقهما إلى هكتور، فتقدم وطلب بطلا من أبطال اليونان فأخذهم الدهول والصمت، فقام منيلاوس ورماهم بالجبن والوهن وعقبه نسطور الشيخ بكلام مؤثر، فبرز منهم تسعة فاقترعوا فأصابته القرعة آياس، فشك بسلاحه وبرز لهكتور ولم يزالا بين كفاح وصدام حتى فصل بينهما الظلام، فافترقا وانحاز كل جيش إلى معسكره، فقام بين الإغريق نسطور الشيخ ونادى بإيقاف رحي القتال ريثما تدفن جثث القتلى، وقام في معسكر الطرواد أنطينور يستحثهم على التجاوز عن هيلانة وأموالها للإغريق حقنًا للدماء، فعارضه فاريس في رد هيلانة وإنما سمح بأموالها وزيادة، فبعث الملك فريام بالرسل إلى الإغريق يبلغهم مفاد كلام فاريس، ويطلب الهدنة لدفن الموتى فلما بلغت الرسل وبلغت الرسالة أباي ذيوميذ إلا الحرب فأقر الإغريق على الهدنة، فدفن كل من الفريقين قتلاه، ثم شرع الإغريق عملا

بمشورة نسطور بحفر خندق وبناء معقل لصد هجمات الطرود، فلم يرق
ذلك لفوسيد وقام يندد بالإغريق بمجمع الآلهة، فأسكته زفس، وصرف
الجيشان بعض ليلهما بالإيلام والطعام، ثم جناحا إلى الهجوع.

ينتهي اليوم الثالث والعشرون في هذا النشيد ببراز هكطور وإياس، واليوم
الرابع والعشرون بعقد الهدنة، والخامس والعشرون بدفن القتلى،
والسادس والعشرون ببناء المعقل وحفر الخندق، ومشهد الوقائع جميعه
في ساحة القتال.

النشيد السابع

كذا قال هكطور ثم جرى	إلى الباب يصحب إسكندرا ١
بصدريهما النفس تلهب جمرا	لكيد الأغارق طعنا ونحرا
وجيشهما والحشا يلهب	للقياهما هزه الطرب
كنوتية شقت اليم شقا	بملس المجاذيف والأمر شقا ٢
وخارت قواها ومن فضل رب	لها هبت الريح خير مهب
ففازوا بما أملوا ثم ثاروا	يأثرهما واستطار الغبار
فمينستس مَنْ بأرنا ولد	لآريش الملك المعتضد ٣
وفيلومذا ذات عين المها	بمصمام فاريس غرما وهي ٤
وآيون بالعتق تحت الترائك	بمزراق هكطور ألقى المهالك
وإيفينس بن ذكسيس عمد	إلى خيله والأوار اتقد

فقل بني ليقيا زجه
فعن خيله للحضيض التوى
فجند الأغارق حلت عراهم
إلى قدس إليون حثت خطاها
لقد كان يرقبها ويريد
ولما لدى الزانة التقيا
«علام من الأفق يا بنت زفس
أرفدا لقوم الأغارق حالا
لخطب طراودنا لم ترقى
«بنا اليوم هيى نكف القتال
إلى أن نشاهد يومًا أخيرا
فقلت: «نعم إنما ذا مرامي
أجاب: «فهكطور نحو البراز
فلا شك بالغيط يحتدمونا
فأقنعها وهلا نس تحقق
ولما استتما المقال فحالا
«أهكطور مَن زفس بالعقل حاكى
فقومك أجلس وقوم العدى

وغيب في كتفه زجه
غضيض العيون فقيد القوى
وفالاس فوق الألب تراهم
وفيسوس من فرغموس اقتفاها
لقوم الطراود نصرًا مجيد
على الفور بادر مبتديا: ٥
هبطت بغيط وحدة نفس
بحرب إلى الآن تجري سجلا
فسمعا فدونك أصلح حق
ومن بعد ندفعهم للنزال
لإليون مذ رمتما أن تبورا» ٦
فقل كيف تأمل كف الصدام
نحث ليدعو العدى للبراز ٧
ومن جندهم بطلا يدفعونا
بكنه حجاه القرار المصدق ٨
تقدم نحو أخيه وقال
ألا ما استمعت مطيعا أخاكا
وبين الفريقين قم مفردا

وسل يرسلوا لبراز مهول
فقد جاءني صوت آل العلى
فَسُرَّ الفتى وجرى قابضا
وسكن جيش الطراود قربه
وسر الإلاهان مما تجلى
به نزلا فوق زانة زفس
وكان الجنود بتلك السهول
عليها الترائك فوق التروس
كيِّم عليه النسيم انتشر
وهكطور نحو البراح اتجه
ويا قوم آخاي سمعًا فإني
أرى بيننا زفس قاض العهدا
إلى أن تدكوا قلاع الحصون
فبينكم خير جند الأغارق
فيخرج بالبأس منتدبا
وإني أبرم معه العهود
فإن يُعْمَلَنَّ بي اللهذما
إلى الفلك يمضي به رغدا
فيمضي لبيتي أفواجهم

إليك فتى من أشد القيول
بأنك ما آن أن تُقْتَلَا» ٩
من الوسط اللهذم الوامضا ١٠
كذا آغمنون أجلسَ صحبه ١١
وشكل عقابين في الحال حلا
بها ينظران لطرس فطرس ١٢
جلوسًا صفوفاً كثافًا تهول
وسمر العوامل تنمي البئوس
فأرجف واربد يوهي النظر ١٣
وصاح: «أجند الطراود مه
أفيض لكم ما يجول بطني
وللكل هيا الرزايا الشدادا
أو الحتف تلقوا تجاه السفين
فهل بطل لبرازي تائق
يصادم هكطورًا المجتبى
وزفس على ذاك خير الشهود
يفر بسلاحه له مغنما
ويلقي إلى صحتي الجسدا
ويذكونه هم وأزواجهم ١٤

وأولاني النصر رب السهام
 لحيث بييت أفلون ترفع ١٥
 إلى قومه الشُّعر فوق السفائن
 يوارونه في مشيد الضريح
 تمر الأنعام على السفن
 بعامل مكطور قدماً أييد
 فظل الأغارق طُراً حيارى ١٦
 ومن رد بغيته تنفر ١٧
 حشاه وصاح يفيض احتقارا: ١٨
 فوا أسفا أمرنا أين آلا ١٩
 يكن مَنْ إلى مكطير يتقدم
 فكلكم بات جنباً هلوعا ٢٠
 وها أنني بارز للطعان
 فَيُؤْتَوْنَهُ مِنْهُ وولا»
 ولكن أبيت الردى يا منيلا
 تنبطك صيد الجموع وترحم
 بيميناك أمسك ثم انتهر
 هذوت وجئت إذن منكرا

وإن نال مني مر الحمام
 بشكته نحو إليون أهرع
 وأدفع جثته غير خائن
 ففي جرف بحر هلاذا الفسيح
 وإما بمستقبل الزمن
 يقال هنا قبر قرم عنيـد
 فيخلد مجدي ويعلو منارا»
 سكوئاً فلا للقاء تجسُر
 فقام منيلا يؤجج نارا
 «نساء أنادي وليس رجالا
 فوا عارنا إذ بأبطالنا لم
 عساكم ترابٌ وماءٌ جميعا
 وليس لكم من فؤاد وشان
 وما النصر إلا لآل العلى
 وشك يجيل السلاح الجميلا
 لقد كاد يصميك مكطور لو لم
 ومولى الموالي أخوك الأبر
 «مقرب زفس منيلا أرى

فمهما بك النفس هاجتك فارهب
ونفس آخيل الذي لا سبيلا
لقد كان يجرعه أن يسابق
فهيّ اجلسن وألق العدد
وإن يكف في الحرب وقعًا أليماً
فلا شك بالأنس يلوي الركب
فدان منيلا لنصح أخيه
وشكته جردوا وانتصب
«ألا أي رزء فـؤوا حربا
ألا كم يغص خطيب المرامد
إذا ما درى أن هكطور أحمد
إلا قبل كم كان بادي الطرب
فأنمي له أصل كل الأغارق
ألا لو رآكم على ما أرى
ليسألها أن تزج بنفسه
أيا زفس يا آثنا يا أفلو
كيوم بأسوار فيّا فظيع
لدى نهر قيلادن الحرب ثارت
تصادمها بشديد الكفاح

فتى من سواك ترى يتهيب
إلى أن تقاس به وتصولا
لملقاه يوم اصطكاك اليلامق ٢١
فيغري الأغارق قرماً أشد
فيخرج من ذا البراز سليما
وإن كان ليس يهاب النوب» ٢٢
وكف وطابت نفوس ذويه
على الفور نسطور ثم خطب: ٢٣
بلاد الأخاءة قد نكبا
حكيمهم الهمُّ فيلا المجاهد ٢٤
بئوس الأغارق جنباً وأقعد
بمغناه يقتص مني النسب
ونسبتهم من قديم ولاحق
لمدَّ يدًا لموالي الورى
لآذيس زجًا لشدة بؤسه ٢٥
ألا ما أعدتم شبابي فأبلو ٢٦
وحول سُرى يردنوس السريع ٢٧
وأبطال أجناد فيلا أغارت
صناديد أرقاديا بالرماح

وايرثليون زعيم العدى
عليه سلاح المليك المجيد
ايرشوس من كان يلقي الجموعا
لذاك بفطيسه ذاع ذكرا
لدى معبر حرج بالقناه
فخر وقاتله سلبا
فظل به العمر يستلثم
فأعطاه ايرثليون الهمام
ويدعو ولا بطل يقد
فأقدمت تدفعني النفس وحدي
فأولت أثينا ذراعي انتصارا
فخَرَّ لِدَى قَدَمِي بالحضيض
فلو كنت أواه غص الشباب
وأبسل ما بكم من رجال
فلما استتم الحديث المهينا
فأولهم أول القوم سؤدد
تلاه ذيوميذ روع الرجال
فهب إذومن ثم فتاه

شديداً لدينا كرب بدا
ايرشوس ذي الصولجان الحديدي
به لا يجيل القنا والفروعا
ولكن ليكرغ أصماه غدرا ٢٨
رماه وفطيسه ما وقاه
سلاحاً له آرس وهبا
إلى حين أقعده الهمرم ٢٩
فكان به ينبري للصادم
وكل الصناديد ترتعد
وإن كنت إذ ذاك أحدث جندي
وجندلت أعلى كمي منارا
عُثْلًا غليظًا طويلا عريض
لأدرك هكطور مني العجاب
أراهم أبوا وَقَعَ هذا النزال»
لديه انبرى تسعة بيرزونا
زعيمهم آغمنون عريد
كذلك الأياسان هول القتال
مريون عد إليه الكماه

فأوريفل فشواس فأوذس
«عليكم إذن بالقдах تُجَال
يسر الأغارق إن أقدما
فكل فَتَّى قِدَحَهُ صَرَبَا
وجيشهم كله رفعَا
«أيا زفس إما أياس وإما
ونسطور تلك الأقاديع رج
وتلك أمانى الجنود جميعا
يمينا جرى يقصد الصيد قصدا
فلم يك مَنْ بالنصيب اعترف
فلما تناولوه ثم أحدق
تهللل مستبشرا ورمَاه
«أَصِيحَابُ ذَا السهم سهمي فَسُرَا
أنا عدتي أبتغي مسرعا
سكوتا لئلا لطرودا يُنَمَى
فلسنا لنخشى جِلَادَ الأعادي
فما كنت في سلميس لأربو
وكل الأغارق قامت تصيح
«أيا أبتا زفس رب المعالي

فصدهم الشيخ بالبشر يُؤْنَس: ٣٠
فَمَنْ قِدَحَهُ فاز خاض المجال ٣١
ويجذل نفسا إذا سَلِمَا
بخوذة أتريند منتصبا
لآل الخلود أكفّ الدعا
ذيوميند أو لا فأتريند حتما
فسهم أياس لديه خرج
فطاف به الفيح يجري سريعا
لهم يبرز القдах فردا ففردا
هناك إزاء أياس وقف
برسم به كان من قبل نَمَقْ ٣٢
إلى قدميه ونادى الكُمَاه
فؤادي وإنني آمل نصرا
وأنتم لزفس أفيضوا الدعا
وإن شئتم علننا فَنِعَمَا
ولا بأس لا مكر يَلُوي فؤادي
يروع حشاي براز وحرِبْ ٣٣
وتشخص نحو الفضاء الفسيح
أليف الكمال عظيم الجلال

على طود إيذا أيا من تجلى
وأما لهكطور تأبى الشَّنارَا
وإذ كان جيشهم يتضرع
وَشَكَّ بزاهي السلاح الصَّقِيلِ
يجيل القناة لحر الوطيس
يَسِيرُ كَرَبِّ القتال العسوف
كَآريس يمشي على قوم إنس
ففاضت قلوب الأغارق سُرًّا
ونفس حشا هكطر خفقا
ولكن تربص حتى الجِلاد
فأقبل آياس في كبره
بهيلا له الصانع الأمهر
على سبعة من جلود البقر
ولما إليه دنا وقفَا
فسوف ترى ما بفرد لفرد
وإن كان آخيل قلبُ الأسد
على أغمنون قد حقدا
ففينا للقياك جم غفير

أنل نصركَ اليوم آياسَ فضلا
فدع يَسْتَوِ البطلان اقتدارا» ٣٤
فآياس حُصْنُ الأخاءة أدرع
وَأَقْبَلَ جَبَّارَ رَوْعٍ ثَقِيلِ
ويَسْمُ عن ثغر وجه عبوس
لوقع خطاه ارتجاج مَخُوف
إلى الويل سيقوا بفتنة زفس
وخار فؤاد الطرواد طُرًّا
ومن هول ذا الملتقى قَلِقَا
ولم يلو مذ كان أول باد
بترس كبرج على صدره
تخيوس حَـدَف يفتخره ٣٥
غشَاء من الصُّفر يوهي النظر
وصاح بهكطور: «أقبل كفى
يجيش الأخاءة من فك أَسَدِ
وَحَرَّاقُ قلب العدو الألد
وَعَنَّا لَدَى فلكه انفردَا
فأقبل إلَيَّ وأور السعير»

أجاب: «أيا من لzfس انتماه
مه لا تخل بي رعونة ولد
ألفْتُ القتالَ وذبح الرجال
يساري بِالثَّرْسِ مثلُ يميني
ولم يك شأني غدرًا أراكا
وهَزَّ المَثَقَفَ يطعن طعنا
فشقق فولاده والجلود
فأرسل آياس رمحًا شديدًا
فبالترس للدرع للشوب أولج
ولكن هكطور أهوى وحاد
وكلهما اجتذب اللهذما
كليث يمزق لحم الرجال
فطعنة هكطور لم تنجِبِ
فقر آياس وما انقلبا
فأنفذ بالترس مُرتعدا
وهكطور عن حزمه ما انشى
تناول أسود صخر أصم
وعن كف بأس أصاب مجنّه
وصيخود صخر أشد رفع

ويا ابن تلامون قِيل السراه
وعَجَزَ نساء جَزَعْنَ لصدّ
على قَدمي وفوق العِجال
ورقصي في الحرب يعلي شئوني ٣٦
بل الحرب صدرًا لصدِرِ فَهَآكَا
مَجَنَّ آياسَ فَغَارَ وَرَنَّا
لسابعها فاستقر يَمِيدُ
على جوب هكطور يفري الحديدًا
وقد كاد شق الكمي يضرج
ولا لَغَالَتُهُ أُخْتُ النَّآدِ ٣٧
وحملق ينظر محتدما
وخرنوص برّ بعيد المنال
ولكن لواها قفا المِجْوَبِ
وبالرُمح من فوره وثبا
إلى العُنق يجري دمًا أسودا
ولكن لوجه الحضيض انحنى
غليظًا به مستشيطًا هجم
فَرُئِنَ فولاده أَي رَنّهُ
آياس فذبذبه ودفع

بعزم رحاه بقدر الرحى
ومن صلب ركبته الدم سالا
فجرد كل حسام الهوان
ولكن رسولا العلى والبشر
حكيم الأخاءة تَلْبِثُيسُ
فبينهما أسبلا الصولجانا
«كفى يا بني فكلكما
وكلكما باسل وأذيع
ولكنما الليل جاء بستره
أجاب أياس: «فهذا يقال
فإن يطعنك أُطْعِكَ امثالا»
«أجل إن ربا أياس اجتباكا
وقد فقت بالطعن كل الأغارق
فسوف نصول ولن نَجْبَنَا
ويولي من شاء عز الظفر
وشأن الأنام احترام الظلام
فَرُح يتهج بك قومك طرا
وتطرب طروادة بمآبي

على ترس هكطور فانطرحا
فأنهضه الرب فيبُسُ حالا ٣٨
وكادا على القرب يشتبكان ٣٩
أُسِيرَا يَكْفَان شَرًّا أمر
وفضل الطراود إِيذِيسُ
وثانيهما صاح يلقي الأمانا: ٤٠
لدى راكِم الغيم قَدْرًا سَمَا
فخاركما بلسان الجميع
فحسبكما اليوم طوعًا لأمره» ٤١
لهكطور فهو مُشِيرُ القتال
فقال ابن فريام هكطور حالا
ومجدًا وبأسًا وفضلا حباكا
فدعنا مجال الكفاح نفارق
ليقضى ربُّ قضى بيننا
فذا الليل خيم فوق البشر
فيرجع كل عزيز المقام
لدى الفلك والصحب تجذل فخرا
رجال الوغى وذوات النقاب

فيدخلن بي هرَّعًا داعيات
وهيَّ نبادل قبيل القفول
كفاح شديد أوان التلاقي
وأعطى أياس حسامًا صقيل
وعمدًا وزاهي نجاد ونالا
وكلَّ تجاه ذويه انقلب
رأوا أن هكطور بعد الإياس
به نحو إليون ساروا وسارا
فخفوا لخيمة سيدهم
فضحى لهم بسديس لزفس
ومن حوله اجتمعوا يقطعونا
ويلقون في جاحم وهجا
فأخرج منه ومُدَّ الطعام
وأترىذ أكرم مغتبطا
ولما أزالوا الظما والسغب
فذاك الذي قبل أعلى المنارا
«أأترىذ يا زعماء القبيل
نجميعهم سال في إسكمندر
عليك إذن ببزوغ الشفق

معابد آل الخلود الثقات
نفيس الهدايا وكل يقول
وود وطيد قبيل الفراق» ٤٢
عليه قتيير لجين جميل
حزامًا بفريره قد تالالا ٤٣
وبين الطراود فاض الطرب
سليمًا نجا من ذراع أياس
أياس إلى القوم يزهو افتخارا
به يدخلون بسؤددهم ٤٤
وهم سلخوه ببشرٍ وأنس ٤٥
وفوق سفافيدهم ينظموننا
إلى أن جميع الشوا نضجا
وكل حوى سهمه بالتمام
أياس فأعطاه صلب المطا ٤٦
بهم نسطر بالسداد خطب
فبالحلم والحكم فيهم أشارا
بأقوامنا الشعر كم من قتييل
وأرواحهم للجحيم تحدَّر
تنادي بكف قتال سبق ٤٧

ونحن بجملتنا بالعجال
ونجمع كل قتيل فتك
ونحرقهم قرب فلك السراة
فتحمل ذكراً لأبنائنا
ونبني ضريحاً لهم يقصد
لديه نُشَيْدُ سَوْرًا رَفِيعًا
ونحكم أبوابه لتجول
ومن حوله خندق يمنع
فكلهم صرحوا برضاهم
بشماء إليون قد جمهروا
فهاجوا وماجوا بلغط عظيم
«أطروادة يا بني دردنوس
إليكم حديثاً يخالج صدري
فترجع هيلانة الأَرْغُسِيَّةُ
فإننا بأيماننا لم نَبْرًا
فقام يجيب فريس الأغر
«أجل أنطنور شططت بما
لقد كان أجدر أن تنبذا

نقوم بشيرانها والبغال ٤٨
به في تصادمنا المشتبك
ونجمع منهم عظام الرفات
إذا ما قفلنا لأرجائنا
على السهل حيث علا الموقد ٤٩
يقي جيشنا والجنود جميعا
بهن متى ما تشاء الخيول
جيوش الطراود إن يُدْفَعُوا» ٥٠
وأبناء طروادة بحماهم
بأبواب فَرْيَامَ وَاتَّمَرُوا
فصاح بهم أنطنور الحكيم: ٥١
ويا حلفاء وكل الرءوس
فهيو بنا نُجَرِ أَصُوبَ فِكر
بأموالها خوف شر البليَّةِ
وإن نمتنع أخش شَرًّا أَمَرًا»
وزوج هيلانة ذات الغفر: ٥٢
يشق عليَّ بأن أعلم ما
حديثاً ورأيًا يماثل ذا

وإلا فإن كنت رمت السدادا
وأشهد رواضة الخيل أهلي
ولكن أموالها وأزید
فقام بهم بهي الجلال
«أطروادة يا بني دردنوس
إلکم حديثًا يخالـج صدري
فذا حينه وأقیموا الحرس
ويذهب قبل بروز الغزاله
إلى الأتردین بهذا الكلام
ويسألهم هدنة نبتغيها
وبعد نصول ولن نجبنـا
ويؤتي من شاء عز الظفر»
عشوا بالسلاح وبعد الشفق
إذا بهم ضمنهم مجلس
فصاح يقول بصوت ثقیل
بإمرة فريام والمؤتمر
مقالة فاريس أس الشقاق
فإن الكنوز التي سلبا
ومما حواه حالـا يزیـد

فآل العلى سلبوك الرشادا
بأنـي لن أسمحن بأهلي ٥٣
عليها فإني سريعًا أعيد»
أخو الفضل فريام يدي المقال
ويا حلفائي وكل الرءوس
ألا فانهضوا للعشا طوع أمري
يطوفوا بكم لا نقضاء الغلس
إلى الفلك إيديس بالرساله
مقالة فاريس أس الخصام
لنحرق قتلى المعامع فيها ٥٤
ليقضـي ربّ قضى بيننا
أصاخوا ارتياحًا لأمرٍ أمر ٥٥
لفلك العدى إيدبوس انطلق
لدى الفلك أتریدهم يرأس
«أأترید يا زعماء القیـل
أتيت إلکم لأنمي الخبر
عسى أن تروق فيلقى الوفاق
ويا ليتـه قبل ذا نكبا
عليها بهن سريعًا يجود

ولكن زوج النبيل منيلا
ويسألكم هدية نبتغيها
وبعد نصول ولن نجينا
وبؤتي من شاء عزّ الظفر»
فصاح ذيوميد فيهم: «حذار
فناي الكنوز وإن عُدتِ
لقد أزع النصر والطفل يعلم
فلم يك إلا من استحسنا
«سمعت إذن إيذبوس الخطاب
ولكنني سامح بزمان
بحرمتهم فليقم كل عسكر
وزفس شهيد على تي العهد»
وأيذيس لحماءه رجوع
يعالون طرا للقياه صبرا
فهبوا وبعض لجمع الشعل
كذاك الأراغس قرب السفين
ولما من اليم فوق البحار
وتبرز صاعدة للسماء

فعنها على رغنما لن يحولا
لحرق موتى المعامع فيها
ليقضي ربّ قضى بيننا
فطرا سكوّتا وعوا ذا الخبر
لإليون هذا أوان الدمار ٥٦
وهيلاننة ولـئن رُدّت
على هامهم عن قليل ستهدم»
وأترينذ تصوويه أعلنّا
فهذا الجواب وعين الصواب
لتحرق موتى الوغي بأمان
ويسترضهم بلهيب تُسعر ٥٧
ومد عصاه لآل الخلود ٥٨
وقد غص بالنبلا المجتمع
فبلغ ما كان أمرا فأمرا
وبعض بقتلى الرجال اشتغل
جروا جريهم باجتهاد مكين
بدت تتجلى عروس النهار
وفوق الفدافد تلقى السناء

تلاقى الجميع بذاك المجال
جسوم لقد شوهتها الجراح
فبالماء في مهل غسلوها
ولكن فريام حَظَرًا حَظَرُ
سكوتًا ولب الفؤاد النهب
ومذ فيت بأجيج اللهب
كذاك الأغارق بين الوجوم
ولما عليها قضى الحرق
وفي بُهْرَة الليل قبل السَّحر
ومن فوق موقدهم للجثث
وسورًا لديه عليه القلل
يليه حفير عميق وسيع
وأما بنو الخلد آل الظفر
فمن حول زفس لقد رقبوا
«من الناس مَنْ بعد يا زفسُ يرفع
ألم تر قوم أخاي الأولي
ومن حوله خندقوا مغفلينا
نعم ذكر هذا الصنيع البديع
ويغفل سور بمصر يجل

يكادون لا يفرقون الرجال
ورهج العجاج بدار الكفاح
وبالدمع في عَجَلٍ حملوها ٥٩
على قوميه أن يهيلوا العبر
أسى جمعوها لكَدْس الحطب
لإليون عادوا بقلب كئيب
مضوا يجمعون جميع الجسوم
تجأه سفينهم انطلقوا
أسيرت من الخيم خيرُ الزمر
جميعًا على السهل شادوا جدث
وأرتجة لعبور العَجَل ٦٠
على صفحتيه وشيع منيع
فقد بهتوا لاقتدار البشر ٦١
فقام بهم فوسد يصخب
لآل العلى مُقَلَّتِيه ويَضْرَع ٦٢
بنوا قرب سفنهم معقلا
لقوم الخلود الضحايا المئينا
إلى حيث فاض السَّنا سيذيع
للمويز شدتُ أنا وأفلو»

ولكن زفس وقد أنفا
أيا من يززع قلب الثرى
ليأبى الذي عنك جهدًا يُقصر
ومجدك سوف يعم الفلق
فمهلا لئن عاد بالسفن
فمعقلهم ذكَّ دُكا فيلقى
وفي الساحل اركم رمالا تقرر
كذا أتمروا في القيام الأجل
وقد نحر القوم تحت الخيام
وكان ابن إيسون راعي الأمم
أخو الملك أفنوس من لمنس
من الخمر صِرْفًا بها ألف عين
فجيش الأغارق عينا بعين
فبعض بصفر مُدامًا أنيل
وبعض شرى بجلود البقر
وبعضهم بالسبايا شرى
لهم في الخيام الطعام يعد
ولكن زفس وقد غيظ حقدا

أجاب: «أربَّ البحار كفى
شططت بما جئته مخبرا
منالا وطولا بهذا الفكر يفكر
ويمتد ما امتد نور الشفق
لفيف الأراغس للوطن
إلى لجه البحر يحق محقا
عليه تبد عينه والأثر»
وقبل المغيب أتم العمل
عجولهم يسطون الطعام
وإيفيسفيا فتاة النعم
أتت فُلُكُهُ لِنبي أرغس
هدية ود إلى الأتردين
شرى الخمر من ذينك السيدين
وبعضهم بجديد صقيل ٦٣
وبعضهم بعجول ذخر
وليلتهم قضيت بالقرى
كذاك لطرودة في البلد
بهم ززع الليل برقًا ورعدا

فهذهم الرعب والكُلُّ قام يريق على الأرض كأس المدام
ويخشى ارتشاف عصير العنب إلى أن يزكي لزفس القرب
ولما انتهوا جملة قصدوا مضاجعهم حيثما رقدوا

هوامش

(١) بسطنا الكلام في أول النشيد السادس على هذا النسق من
النظم.

(٢) النوتية هم الملاحون، وهي لفظة يونانية (Ναυτησιον) عريت والأصل فيها (Ναυτησιον) (نوطس)، وهي ربح الشمال سمي الملاحون بها لموافقة مهيبا لهم. لا بدع أن يكتر هوميروس من التشبيه بالبحار ورياحها، فبلاد قومه محاطة بالمياه وأكثرها جزر يكتنفها البحر من جهاتها الأربع، ذلك كما أكثر العرب من ذكر المغاوز والمهامة والسياسب، وجعلوا لها مئات من الأسماء والصفات.

(٣) أرنا مدينة كانت في بيوتيا. قال إسطرابون: هي التي سميت بعدئذ أكريفيون. وقال بوزانياس: بل خيرونية. وزعم آخرون أن البحر طغى عليها وأغرقها.

(٤) ذكرنا في حواشي النشيد الأول مطالعة بشأن التشبيه بعيون المها فحسبنا هنا الإشارة إليها. كان فاريس أول مندفع في تلك المعمة

حتى تقدم أخاه هكتور، وهنا دليل آخر على أنه ليس بالمحجم المهياب كما ادعى المعترضون.

(٥) الزانة هذه: هي الزانة الشهيرة على باب اسكيا. لم يكن للآلهة دخل في وقائع النشيد السابق، أما الآن وقد حمي الوطيس فلم ير الشاعر بدءاً من إطلاق العنان للتصور الشعري جلاءً لرونق الشعر، فعاد بأثينا وأفلون كما ترى، وإذا نظرنا إلى ظهورهما من وجه رمزي فيكون المراد أن أثينا ممثلة الحكمة والبسالة تهب الغلبة لليونان بانحيازها إليهم، وأفلون ممثل القدر يصدها عن تشتيت شمل الطرواد، والمغزى أنه مهما عظمت الحكمة واشتد البأس فلا سبيل لهما إلى صد القضاء المحتوم.

(٦) قوله: رمتما، أي: أنت (أثينا) وهيرا. لم يصرح الشاعر بذلك ولكنه يستفاد من جعله الفعل بصيغة المثنى المؤنث، ولا حليفة لأثينا أشد من هيرا تحرقاً لكيد الطرواديين.

(٧) البراز الأولى بمعنى البراح، والثانية بمعنى المباراة.

(٨) هيلانوس أخو هكتور، وكان عراً كما تقدم وكاهناً لأفلون، فيفترض إذن أن أفلون أوحى إليه بما كان.

(٩) حبذا لو استغنى الشاعر عن الشطر الأخير، ولعله دخيل في شعره؛ لأن في أنباء هكطور بسلامته غصاً من بأسه، وهو البطل الصنديد يشق الصفوف، ولا تروعه الحتوف.

(١٠) اللهزم الوامض: الرمح اللامع.

(١١) تقدم أنه لم يكن لهم طبول يُجرون الجند ويوقفونهم على أصواتها، فكان من ثم لا بد لهم من إشارات يتفاهمون بها، فيستدل إذن أن القبض على وسط الرمح إشارة إلى الكون، ولما رأى أغاممنون أن هكطور أوقف الطراود بادر إلى تسكين جأش الإغريق لعلمه أنه بدا لهكطور أمر ذو شأن يبتث له، وهكذا سكن الجيشان. يذكرني ذلك ما شهدت مرة في بادية العراق؛ إذ كنا في الزهيرية ولفيف من المنتفق في نحو مئة فارس وثلاث مئة هاجن بين رادف ومردوف تتبعهم الأنعام الكثيرة، فأصبحنا يوماً والربع في جلبة والأوتاد تنزع والمضارب ترفع، فعلمت أنه تراءى لرجل بينهم يدعى تويساً هو زرقاؤهم بنظره، وجهينتهم بخبره «زولٌ بعيد» لا يعلم أهو «عدوٌّ أم صديق»، فاضطرونا إلى التأهب في من تأهب حتى إذا ركب الفرسان وساروا جيشاً أنفذوا طليعةً تستطلع الخبر تجري بخيلها «هذباً»، وسائرنا من ورائها «نكد كدّاً» إلى أن صارت الطليعة على مقربة من الزول الذي أخذ يتراءى لنا فحولت أعنة خيلها، وأخذت تغير يميناً بشمال بعد أن كانت تسير شرقاً بغرب، فسكن جأش الجيش وقالوا: طليعتنا «تعرض لنا»، ففهمنا أنه ليس ثم

مطمع غزو وكسب ولا منزع قتل وسلب، ولم نلبث أن تحققنا الخبر بالخبر؛ إذ كان ذلك الزول البعيد قطع نوق وجمال لعشيرة حليفة يصحبها رعاة قلائل فأمنوهم وسيروهم.

(١٢) تهيأ أفلون وأثينا بهيئة عقابين، ووقعا على الزانة التي بباب أسكيا يراقبان منها حركات الجيشين. وحلول الآلهة وأتباعهم بل والبشر أيضاً بهيئة الطيور معتقد قلما يخلو منه دين من قديم الأديان.

(١٣) إذا أكثر هوميروس من تشبيه الفيالق بالبحار، فإنما لديه لكل مقام مقال. فلا تكاد ترى تشبيهاً كالآخر بمجمل دقائقه في كل الإلياذة، وما أصدق تشبيهه هنا للجيش الجالس صفوفاً تتألق أسلحته في ذلك الفضاء بالبحر، ينتشر عليه النسيم، فلا هو بالبحر الهائج تعبت به الأنواء، ولا هو باليَمِّ الراكد لا أثر عليه لحركة الهواء، وما أحسن ما قال العبسي في نقيض هذا المعنى:

وسارت رجالٌ نحو أخرى عليهم الـ حديد كما تمشي الجمال الروائح
إذا ما مشوا في السابحات حسبتهم سيولا وقد جاشت بهنَّ الأباطحُ

(١٤) يذكونه: يحرقونه.

(١٥) سنرى في النشيد العاشر أن أوديس وذيوميذ يرفعان سلاح دولون نذراً لأثينا، وهنا هكتور ينذر رفع سلاح خصمه لأفلون، فأثينا نصيرة الإغريق وأفلون نصير الطرواد: «وكل قوم بما لديهم فرحون».

(١٦) ذكر إسطرابون نُصبًا أقيم لأياس وآخر لأخيل في تلك الأرجاء، وقد عفت آثارهما وآثار غيرهما بمرور الأزمان، ولو لم يكن شيء سواهما يخلد ذكر هكتور لتنوسي اسمه وعفا رسمه. قال أفستاثيوس: وأما شعر هوميروس فأرسخ من الأنصاب، لا يعث به كرور الأحقاب، بل هو قائم أبد الدهر يخلد الذكر والفخر. (راجع ن ٢).

(١٧) إن تهب الإغريق من البروز لهكتور لأشبه شيء بارتياح الإسرائيليين لرؤية جلياد قبل أن برز له داود، وقد يتبادر إلى الذهن أنهم كانوا في غنى عن هذا النهيب؛ إذ كان بإمكانهم أن لا يجيبوه إلى طلبه، ولا يمسهم العار؛ لأن الطرواد كانوا الداعين إلى البراز أول مرة كما تقدم في النشيد الثالث، ثم لما نالتهم الغلبة نقضوا الميثاق، فلم يكن لهم بعد هذا أن يتطلبوا البراز. على أنه يتضح للمتأمل أن هكتور لم يجنح إلى حسم الخلاف بتلك المباراة، كما جنح فاريس للمرة الأولى وجل ما دعاهم إليه أن ينفذوا إليه بطلا يبارزه، فيقتله أو يقتل ويبقى الخلاف على حاله، وأوضح ذلك بأجلى بيان بفاتحة كلامه؛ إذ قال: إلى أن تدكوا إلخ فكانت من ثم هذه المباراة على نوع يختلف عن تلك لا موضع لذكرها بإزائها فتلك عامة تتناول الجيشين، وهذه خاصة منحصرة ببطلين.

(١٨) لم يكن منيلاوس من مغاوير الأبطال قوة، ولكنه لم يكن دونهم رباطة جأش وعلو همة، ولولا ذلك لما جدر بجميع الإغريق أن

يتألبوا للأخذ بثأره، فلا بدع إذن أن يكون أول متكلم بل لا يصلح غيره
لافتتاح الخطاب.



منيلاوس.

(١٩) إن تشبيه الرجل الجبان بالمرأة لأمر قديم مألوف، حتى
لقد يزيد العرب على ذلك فيجعلون الجبن كالبخل محمداً في المرأة
مذمة في الرجل، والشجاعة كالكرم مذمة في المرأة محمداً في الرجل.
وما أبلغ ما قال الإمام علي في خطبته لما أغار سفيان بن عوف الأسدي
على الأنبار، وعليها حسان البكري فقتله وأزال الخيل عن مسارحها،
وكان ذلك في خلافة علي فخرج حتى جلس على باب السدة، فخطب

في القوم. ومن جملة ما قال: «يا أشباه الرجال ولا رجال، ويا أحلام أطفال وعقول ربات الحجال، وددتُ أن الله أخرجني من بين أظهركم، وقبضني إلى رحمته من بينكم، وإني لم أركم ولم أعرفكم معرفة، والله حرت وهنًا ووريتم والله صدري غيظًا، وجرعتموني الموت أنفاسًا وأفسدتم عليّ رأيي بالعصيان والخذلان». (ابن الأثير).

ومن قول عبد الرحمن بن دارة الفزاري:

أيا راكبًا أما عرضت فبلغن مغلغلة عني القبائل من عكل
لئن أنتم لم تشأروا بأخيكم فكونوا نساءً للخلق وللحل
وبيعوا الردينيات بالحلي واقعدوا عن الحرب وابتاعوا المغازل بالنبل

(٢٠) أي: عساكم أن تبيدوا، أو كقول العرب: أن تصيروا هباءً منثورًا.

(بعض أبطال الإلياذة على ما في آثارهم): أغاممنون، أخيل، نسطور، أوديس، ذيوميذ، فاريس.

(٢١) اليلامق: الثروس، لو برز منيلاوس لهكطور لقتل لا محالة، ولقد علمنا ما كان من شغف أغاممنون بأخيه عند ما أصابه سهم فنداروس في النشيد الثالث، فلا غرو إذن إذا تصدى له وصدده عن البروز لهكطور، ولما كان عالمًا بتفانيه على اقتحام الأحوال ضرب له أخيل مثالاً لعله يرعوي ويرضخ؛ لأن جميع الأبطال كانت تعترف له بسبق

البأس، فإذا كان آخيل يذل لهكطور فمن الحماقة أن ينبري له منيلاوس، وقد بالغ أغاممنون تلك المبالغة تسكينًا لأخيه ودفعًا لخشية العار عنه لا لحقيقة يعتقدها.

(٢٢) المقصود بليّ الركب الجلوس لا السجود حمدًا وشكرًا. (راجع ٥).

(٢٣) هذا نسطور الحكيم مفرج الأزمت والناطق بالآيات البيّنات، يفعل بقوة اللسان ما يعجز عنه السيف والسنان، فستراه يبذل إحجامهم إقدامًا، ورهبتهم رغبة، وليس في القوم خطيب سواه يصلح لكل مواقفه، ولا سيما لهذا الموقف؛ لأنهم جميعًا كهول وفتيان فمن ذا الذي يجسر منهم أن يحرض القوم على النزال، ولا يكون المبادر إليه بنفسه، أما نسطور فيتأفف كالأب الحزين ويتأسف كالمعلم الأمين، وكلهم آذان وقلوب يحذر ويذكر ويطول العتاب، ويتحسر على زمن الشباب، ويقص قصص صباه، ويعيد ماضي ذكراه، فيبتدئ ولقاء هكطور لديهم أفدح الخطوب، ولا يكاد ينتهي حتى يبيت أمنية النفوس وريحانة القلوب.

وما أشبه موقف نسطور الشيخ الوقور بموقف عمرو بن معدي كرب يوم اليرموك. قال الواقدي: كان قد مر له من العمر مئة وعشرون سنة، فلما نظر إلى قومه وقد انكشفوا صاح في قومه: يا آل زبيد، يا آل زبيد، تفرون من الأعداء وتفزعون من شرب كأس الردى، أترضون

لأنفسكم بالعار والمذلة؟! فما هذا الانزعاج من كلاب الأعلاج، أما علمتم أن الله مطلع عليكم وعلى المجاهدين والصابرين، فإذا نظر إليهم وقد لزموا الصبر في مرضاته وثبتوا لقضائه أيدهم بنصره وأيدهم بصبره، فأين تهربون من الجنة؟ أرضيتم بالعار ودخول النار وغضب الجبار؟! قال: فعند ذلك تراجعوا وشدوا على القوم حملة واحدة.

(٢٤) فيلا أبو آخيل، تخيره نسطور مثلاً لشاسع شهرته، وتذكيراً لهم بآبائهم النائين عنهم في أوطانهم.

(٢٥) أي: لستمني الموت؛ لأنه لا بد لكل ميت من أن ينحدر إلى أديس إله الجحيم كما تقدم.

(٢٦) قلما نرى شيخاً يقول قول حكيم الجاهلية زهير بن أبي سلمى:

سئمت تكاليف الحياة ومن يعيش ثمانين حولاً لا أباً لك يسأم

أو قول لبيد:

ولقد سئمت من الحياة وطولها وسؤال هذا الناس كيف ليئد

بل معظم الشيوخ يقولون قول نسطور: ألا ليت الشباب يعود يوماً ولكن نسطور تمنى الشباب للكر والإبلاء، لا للأنس والصفاء، كما قال شاعرنا: فأخبره بما فعل المشيب

(٢٧) السرى: الجداول أو صغار الأنهار، ويردنوس: نهر سمي على رواية إسطرابون باسم البطل يردنوس المدفون على إحدى ضفتيه.

(٢٨) الفطيس: المطرقة.

(٢٩) الاستلام في الأصل: لبس اللأمة، أي: الدرع، ويطلق توسعاً على لبس السلاح.

(٣٠) جعل الشاعر أول البارزين آغاممنون مراعاة لمقامه، وتلا ذيوميذ أخفهم قدمًا، وأنفذهم حزمًا، ثم الأياسان أبطشهم وأربطهم جأشًا، وجعل خاتمتهم أوديس أدهاهم والتأني من الدهاء.

(٣١) تلك كانت الوسيلة المثلى لإرضاء الجميع، وحسم النزاع باختيار بطل منهم بالاقتراع.

(٣٢) كلا الأياسين من صناديد الرجال، وحينما ذكر الشاعر أياس مفردًا فالمراد به أياس الأكبر بن تلامون. كان كل من المستقسمين يرسم إشارة على قدحه؛ إذ لم يثبت أنهم كانوا يكتبون لذلك العهد، ولهذا خفي رسم قدح أياس عليهم جميعًا.

من أمثال العرب: كل امرئٍ أعرفُ بوسمِ قدحه. وهو يضرب للعارف بقدر نفسه، الواثق بما بين يديه؛ لأنهم كانوا يسمون قداحهم بعلامات يعرفونها بها على نحو ما رأيت في استقسام اليونان. ولكن العرب في أداني أيام الجاهلية كانوا يقرأون ويكتبون بدليل كتابتهم

للمعلقات وغيرها. ولهذا يصح عندنا ما روي عما كانوا يكتبون على قداح الاستخارة، وعلى الأزلام التي كانوا يضربونها في الميسر، أما طريقتهم في إجمالة القداح فكانت كطريقة اليونان، يجمعون القداح في خريطة يضعونها في يد رجل عدل، يسمونه المجيل أو الضريب، كما جمعت هنا في خوذة آغاممنون ووضعت في يد نسطور (وقد مر في النشيد الثالث أن الطراود وضعوها في يد هكتور)، فترى من ثم أنه لم يكن يعهد بها إلا لرجل ذي شأن لِثُؤْمُنْ غائلة الانحياز إلى فريق دون آخر، ولهذا قالت العرب: لقمان بن عاد أضرب الناس بالقداح؛ لأنه كان موكلا بها لنقاوة ذيله وأمن جانبه.

أما إجمالة القداح في الميسر، أي: المقامرة التي حرمها القرآن، فليس لها من أثر في الإلياذة.

(٣٣) هذا إياس الملقب بحصن الأخاء يفوه بأول كلام، وهو وإن لم يكن في زمرة الخطباء المفوهين بإيجازه إعجاز، وصدقه بلاغة، وقوله بفعله، وهيئته بهيئته، وسترى بعد أبيات من رسوخ قدمه وهو مقبل باسمًا عابسًا جبارًا قهارًا ما يشهد لك أن الرجال بأفعالها لا بأقوالها، فلا تعجب حينئذ إذا تهللت له قلوب الأولياء، وتخلعت لمرآه أفئدة الأعداء.

(٣٤) رأينا قبيل هذا أن الجيش تمنى بدعائه أن يبرز في استقسامهم قذح أياس، وإلا فقدح ذيوميذ أو آغاممنون، فاستجاب زفس

الدعاء الذي اجتمعت عليه الأمة، وهذا دعاء آخر يدعو الجند وضعه الشاعر هنا تنبيهاً إلى أنه سيستجاب أيضاً.

(٣٥) قال امرؤ القيس:

لها جبهة كسرة المجنّ حدّفه الصانع المقتدر

وقال الحصين المرّي يذكر دروع قومه وصنّاعها:

عليهن فتیان كساهم محرق وكان إذا يكسوا أجاد وأكرما

صفائح بصرى أخلصتها قيونها ومطرداً من نسج داود مبهما

هيلا بلدة في بيوتيا، خربت قبل زمن إسطرابون، وقال آخرون: بل كانت في قاريا. وتيخيوس صانع جلود قيل: كان في كوما فلما برّح الفقر بهوميروس شخص إلى تلك البلدة، وامتدحها ببضعة أبيات فأنزله تيخيوس في بيته، وأكرم مثواه فخلد هوميروس ذكره شكراً وامتناناً. قال اليازجي:

لئن أفادونا بأكرومة من ملقح يبلّى ومن منتج

فقد حوناهم بما ذكره يبقى بقاء الجبل الأصلج

(٣٦) من مفاخر العرب الكفاح باليمين واليسار، ولقد لقب

المأمون الحسين بن طاهر بذي اليمينين؛ لأنه ضرب بحسامه رجلاً فقدّه شطرين، وكانت الضربة بيساره، وفي مثل ذلك يقول المعري:

إذا سئمت مهنده يمين لطول الحمل بدله الشمالا

وله بما يخرج على هذا المعنى قوله:
وليس بشاغل اليمنى حسامٌ وليس بشاغل اليسرى عنانٌ

ويظهر من هذا السياق أن اليونان كانوا يتنافسون بخفة الأعضاء
في الضرب والطعن وقلة العبء بمواقف الكفاح وثقل السلاح، وهو كثير
في كلام العرب. قال عمرو بن كلثوم:
كأن سيوفنا منا ومنهم مخاريق بأيدي لاعيننا

والمخاريق جدائل يلعب بها الصبيان. وقال قيس بن الخطيم:
أجالدهم يوم الحديقة حاسراً كأن يدي بالسيف مخراق لأعب

ومثله قول معقر بن حمار:
وحامي كل قوم عن أبيهم وصارت كالمخاريق السيوف

وأما الرقص الحربي فكان كثيراً في بلاد اليونان بعد زمن
هوميروس، والظاهر أنه كان شائعاً في أيامه أيضاً وقبلها أثناء حرب
طروادة، قال عقيل بن بلال بن جرير:
يمشي إلى حدّ السيوف وقد رأى سببُ المنيّة مشيّة المختال

(٣٧) النّاد: الداهية، والمراد بها المنيّة، وهي في الأصل
(Κηρυξ) إحدى ربات الجحيم الثلاث، اللائي ينسجن أعمار البشر
فيقطعن حبل الحياة عند حلول الأجل يمثلهن الشاعر دائماً أعلاماً. قال
أبو العلاء:

فَرَمَتْهُ بِهِ عَلَى جَانِبِ الْكَرَى سَيِّ أُمُّ الْهَيْمِ أَخْتُ النَّادِ



ربان الجحيم.

(٣٨) أي: إن الجرح لم يكن قتالا، ولم يكن في القضاء أن يقتل يومئذ فنهض سليماً.

(٣٩) قلنا: إن عادة المبارزة قديمة الشيوخ، ولهذا ورد ذكرها مراراً في الإلياذة، ولقد أعجب ببراز هكتور وأياس كل قرائه من شعراء الرومان والإفرنج، فضمنوها شعرهم ونسبوها إلى أبطالهم، فانتحلها فرجيليوس، وتلاه طاسو وفيجيلون وملثن وفولتير وغيرهم، وجاء نظيرها في

شهامة الفردوسي، وقد رأينا أن البطلين تبارزا بكل أنواع السلاح من الرمح إلى الحجر، وكان الرجحان فيها كلها لأياس، تلك أثره من الشاعر لابن ملته.

(٤٠) يلقب الشاعر تلبثيوس وإيديوس برسولي العلى والبشر إلماعاً لما كان للرسل من الحرمة والرعاية، فمكانتهم دينية وذنوبية معاً، لا يمسهم أحد بسوء، ولهم أمر يكاد يكون مطلقاً يستشارون ويشيرون، وبلسانهم يعقد الصلح وتشهر الحرب، ويراقبون نظام المجامع ويرافقون جيوش المحاربين والأفراد المتبارزين، وعلى الجملة فقد كانت لهم منزلة لا تفضلها منزلة الكهنة والعرافين.

(٤١) لما كان النهار أصلح للقتال، ولا يبلغ آخره إلا والعناء أجهد القوى، جرت العادة بالكف ليلاً، واليونان كجاري عادتهم يقدسون الأوصاف والموصوفات والأخلاق والعادات، ويجسمونهنّ تجسيماً، ولهذا جرت عادتهم أن يقولوا بوجوب الانقياد والطاعة لأمر الليل والظلام، كأنهما شخصان ناطقان.

(٤٢) لقد غلبت أثره الجنس على الشاعر في تنسيق هذه المباراة، وحفظ معها شأن المتبارزين فجعل ظاهر الفوز لأياس، مع أن هكطور كان الداعي إلى البراز وأول من صوّب الطعان، ولما توسط الفيحان وأسبلا الصولجان جعل المتكلم منهما فيح الطرود إظهاراً لميلان الكفة إلى الإغريقي، وتخفيفاً من وطأة الغلبة على الطروادي، ولما

انفصلاً إذعاناً للأمر تكلم الإغريقي بما يشف عن علو همة وقلة أكرات، وأجاب الطروادي جواب البطل المقدام لا تذلل العثرات، ولا يفض بقوله من قدر خصمه؛ إذ كلما علا شأن عدوك علا شأنك بصدامه، ولم يقر له بالسبق؛ إذ فضله على الإغريق دون الطرواد، ولم يرض بالفراق إلا على موعد تلاق وأعلن أن مغادرته ساحة القتال إنما كانت اضطراراً دينياً لا مفر منه ولا مناص، وتبادل السلاح في آخر المشهد يتم رونقه، ويزيد هيئته، وينبئ بما تنطوي عليه تلك الأفئدة الصلبة من رقة الشعور، وإباء النفس، والإعجاب ببسالة البطل المغوار، وإن كانت في العدو القهار.

(٤٣) كانت تلك المقايضة وبالا على كليهما، فأياس انتحر (بعد الإلياذة) بسيف هكتور، وهكتور شدَّ (في الإلياذة) بحزام أياس إلى مركبة آخيل.

(٤٤) المراد بسيدهم: أغاممنون.

(٤٥) السِّدِّيس: الثور ابن خمس سنين.

(٤٦) المطا: الظهر، إيلام الولائم للأبطال يتناول كل جيل من البدو والحضر، وما تلك إلا وسيلة لإعلاء شأن ذي الشأن، وإشعاره بما تكنه له الضمائر من التكرمة والإعجاب، وهي مكافأة معنوية جليلة الرموز توازي الكنوز، وإلا فما قرّة العيون بإملاء البطون، أقول هذا رداً على معترض يعجب أن يكافأ بطل أعلى شأن أمته بقطعة من اللحم لا تغنيه من شيء، أما الحكمة في إفراز صلب الظهر للنزول الجليل،

فالأظهر أنها منبعثة عن الاعتقاد بأنه مقر القوة والبأس، ومن غريب توارد الخواطر الفطرية أن عرب البادية لا يزالون يألّفون حتى يومنا تلك العادة، على أنهم بدلاً من الظهر يدفعون إلى الضيف صدر الذبيحة أو كتفها.

(٤٧) يسأل نسطور أغاممنون أن يهادن العدو، ولا يزيد على قوله له أن يكف القتال؛ لأن الإغريق هم المهاجمون فإذا كفوا عن العدو كف العدو عنهم.

(٤٨) لا ريب أن هذه العجال التي تجرها البغال والثيران هي غير تلك التي تجري بها الأبطال في ساحة النزال، ولعلها من نوع عجّال الأتقال المذكورة في رحلة ابن بطوطة، ولا تزال مستعملة في كثير من البلاد.

(٤٩) لا سبيل إلى البحث في منشأ عادة الدفن؛ إذ كادت تنشأ مع نشوء الإنسان، وربما كان المراد بها أولاً مواراة الأشلء عن الضواري والكواسر، أما إحراق الجثث فثُشكِـل على الباحث معرفة الأصل الذي أخذها عنه اليونان والرومان من بعدهم؛ إذ إن المصريين والفينيقيين والعرب وأمثالهم ممن خالط اليونان كانوا يدفنون ولا يحرقون، ولعلها بقية من عادات قبائل البلاسجة الذين قدمت طائفة منهم بلاد اليونان بعد أن برحت الهند منذ عهد عهيد، ولا عبرة بما قيل، إنهم كانوا يفعلون ذلك خشية من وقوعها بيد عدو ينتهك حرمتها.

أما الضريح الذي أشار نسطور بإقامته، فهو أول ضريح عام ورد ذكره في التاريخ، وإن كانت الآثار قد أثبتت وجود المدافن العامة منذ آلاف السنين، على أن الظاهر أن ذلك الضريح لم يكن إلا نصبًا يقام تذكيرًا لا مدفنًا بدليل قول نسطور: إنهم يجمعون العظام ويحملونها عند عودتهم إلى أوطانهم ذكرًا لأبنائهم، ولا بد من القول أيضًا: إن إحراق الموتى لم يكن السبيل الوحيد لمواراتهم الموتى، بل ربما دفنوا الميت جسمًا تامًا كما دُفن أياس وأغاممنون بعد حين.

(٥٠) تذرع نسطور بدفن الموتى إلى بناء السور، وهي ذريعة كلها حكمة ودهاء؛ إذ تخفى الغاية عن الأعداء فلا يفاجئونهم أثناء العمل خصوصًا، وهم كالإغريق حريصون على دفن رفات قتلاهم، فكأنما هي فريضة دينية دنيوية تتوق إلى قضائها كل نفس ويلهو بالاشتغال بها كل فريق. إن إشارة نسطور ببناء السور وحفر الخندق بتلك الشدة لأشبه شيء بإشارة سلمان الفارسي بعد غزوة أُحُد؛ إذ أشار على النبي ﷺ بحفر الخندق حول المدينة، وقال له: في بلادنا يفعلون كذا. فكان أول خندق حُفر في الإسلام.

(٥١) حيثما انفرد الطرواد والإغريق في منتدياتهم رأيت الإغريق في سكون وانتظام، حتى أبان الشقاق والخصام، ورأيت الطرواد في هرج ومرج حتى في ساعة الفرج، كأن هوميروس أراد أن لا يفوت سامع شعره فضل قومه على أعدائهم، ولقد تقدم في أول النشيد الثالث ما كان من

هيئة الجيشين يزحفان للقتال. ولنا هنا مثال آخر في حالة السلم، ثم لا يفوتنك الفرق بين خطاب نسطور، وكله حكمة وحزم، وخطاب أنطينور حكيم الطرود وكله مع حكمته شؤم وقنوط.

(٥٢) الغفر: الشعر الناعم. وهنا مثال آخر للفرق بين إجلال الإغريق لحكمائهم وتمرد الطرود.

(٥٣) أهلي الثانية، أي: زوجي.

(٥٤) يسألهم، أي: يسأل الإغريق.

(٥٥) إن من موبقات الطبيعة تعامي الآباء عن هفوات الأبناء، واستسلامهم إلى مطالبهم؛ ولهذا انقاد فريام بضعف الأبوة إلى إجابة مطلب ابنه، فجنى على نفسه ودولته ورعيته، وأخذ على عاتقه تبعة تهوّر فارس، كما تلبس مرةً بجريرة ابنه جساس قبل حرب البسوس. قال ابن الأثير: «ولما قتل جساس كليياً انصرف على فرسه يركضه، وقد بدت ركبته فلما نظر أبوه مرةً إلى ذلك قال: لقد أتاكم جساس بداهية ما رأيته قط بادي الركبتين إلى اليوم، فلما وقف على أبيه قال: ما لك يا جساس؟ قال: طعنت طعنةً يجتمع بنو وائل غداً لها رقصاً. قال: ومن طعنت لأملك الشكل؟ قال: قتلت كليياً. قال: أفعلت؟! قال: نعم. قال: بس والله ما جئت به قومك. فقال جساس:

تأهب عنك أهبة ذي امتناع
فإن الأمر جلّ عن التلاحي
فإني قد جئت عليك حرباً
تغصّ الشيخ بالماء القراح

فلما سمع أبوه قوله خاف خذلان قومه لما كان من لائمته إياه،
فقال يجيبه:

فإن تك قد جنيت عليَّ حربًا تغصُّ الشيخ الماء القراح
جمعتُ بها يديك على كليبٍ فلا وكلّ ولا رث السلاح
سألبس ثوبها وأذود عني بها عار المذلة والفضاح

ثم إن مرة دعا قومه إلى نصرته فأجابوه:».

أما صمت هكطور في هذا المجلس ففيه حكمة كبيرة؛ إذ هو
أخو فاريِس فلا يسعه إلا أن ينصره ظالمًا أو مظلومًا، كما نصر همّام
جساسًا أخاه، وهو سيد القوم، فلا يسعه أن يجرحهم إلى الوبال فلجأ إلى
الصمت، وتوارى تحت ذيل أبيه، ثم إن الشاعر أنطق فريام بطلب الهدنة
مع أنها أمنية نسطور وقومه، وهو حسن تصرف كفى به جماعة الإغريق
مئونة ذلك الطلب، بل أنالهم فضل المنة على العدو بإجابة ملتمسه.

(٥٦) لم يكن في خطباء القوم أجدر من ذيوميذ بهذا الجواب،
فصمت أغاممنون من قبيل صمت هكطور، وصمت الباقرن مراعاة له
ولأخيه منيلاوس لدوران الحديث على هيلانة، وأما ذيوميذ فهو الشهم
الغيور والفتى الفخور يقتحم الأهوال ولا يبالى، وهو فضلا عن ذلك عدو
الزهرة وأشياعها.

(٥٧) كانوا يعتقدون أن نفوس الموتى تسخط على الأحياء، إذا لم يبادروا إلى دفن جثثها.

(٥٨) رفع العصا إشارة إلى الشهادة والإشهاد، كرفع السبابة في الإسلام.

(٥٩) عجل: جمع عجلة.

(٦٠) الأرتجة: الأبواب.

(٦١) أي: لبناء السور وأبوابه ووشيعه وحفر خندقه بيوم واحد.

(٦٢) كان فوسيد مبغضًا للإغريق، فلا عجب إذا سخط لزيادة منعته واستفّر زفس للسخط عليهم، وأسخطه أيضًا أنه إله البحار، والسور أقيم في وجهه. ثم هاج حسد أفلون زميله بتنبيهه إلى المقابلة بين هذا السور والسور الذي شاداه في مصر، واستنزل غضب زفس باستلغات نظره إلى إغفال القوم تأدية فروض العبادة، فوعده زفس خيرًا وعهد إليه بدك السور ومحو آثاره بعد جلاء الإغريق، والمغزى أن ذلك المعقل لم يكن ليقف في وجه الأمواج المتدفقة من اليم والحرارة المنبعثة من الشمس، هذا إذا ثبت أن اعتراض فوسيد وجواب زفس غير دخيلين في الإلياذة، فإن أريسطوفانس وأريسطرخوس وغيرهما حذفوا من هذا النشيد حديث الآلهة برمته، وأما أرسطاطاليس فأثبتته وقال: إن هوميروس إنما أتى به عن حكمة غراء؛ لأنه لما كان مضطرًا إلى تهئية هذا

المعقل تنميًا لشعره وتنويعًا لوقائعه هيأه على تلك الصفة، ثم إنه خشية من انتقاد العقب لخلو الأرض من كل أثر له أدار هذا الحديث بين الآلهة فمحقه محققًا، فإذا صح هذا القول فهو من غريب تصوراته وعجيب تفننه.

(٦٣) قولنا: «ألف عين» يراد به ألف وزنة أو مكيال عينًا، وهي في الأصل «ألف متر من الخمر الصرف» وكلمة متر (Μετρον) باليونانية يراد بها قاعدة الأوزان والمكاييل على الإطلاق، وهذا دليل آخر على أن النقود لم تعرف في ذلك الزمن، بل كانوا يتبادلون عينًا بعين صفرًا وحديدًا وجلودًا وعجولًا، والسبايا من جملة السلع، ولم يشع استعمال النقود إلا بعد أن مضت عدة قرون على حرب طروادة بل على منظومة هوميروس، ولسنا نعلم زمن الشروع في التعامل بها ببلاد العرب، ولكننا نعلم أنهم تداولوها في الجاهلية. قال عنترة:

ولقد شربت مع الندامى بعد ما ركد الهواجر بالمشوف المعلم

أي: بالدينار، وهم كانوا يتداولون حينئذ نقود الفرس والرومان.

النشيد الثامن الوقعة الثانية

مُجْمَلُهُ

لما طَرَ الفجر عقد زفس مجلس الآلهة وخطب فيهم مكثراً من الوعيد والتهديد قاضياً بالألا يتحرش أحدٌ منهم لنجدة أي الفريقين. فالتمست أثينا أن يأذن لها بمؤازرة الإغريق برأيها ليس إلّا. فأذن لها واعتلى مركبته وسار إلى جبل إيذا يسرّح أنظاره بين إليون ومعسكر الجيوش. فالتقت الفتان واحتدم الأوار إلى منتصف النهار. فتناول زفس قسطاسه الذهبي فرجحت كفة الطرواد فأرعد وأبرق فهذّت الإغريق الرعدة والتوّوا يتعقبهم الطرواد إلى معقلهم. وكاد نسطور يهلك لو لم يبادر ذيوميذ إلى إغاثة. فأرهب زفس ذيوميذ بالصواعق فانهمز من وجه هكطور فاستظهر هكطور وزاد إقداماً. فاستغاث هيرا بفوسيد طلباً لنجدة الإغريق فأعرض عنها. وأخذ أغاممنون يستنهض همم الإغريق ويتضرع إلى زفس ففاز الإغريق هُنيْهَةً بمعجزة منه، وأبلى ذيوميذ وطفقير بلاء حسناً ثم جُرح طفقير فوجهه صحبه إلى السفن، فانشى زفس إلى إغاثة الطرواد ففازوا فوزاً مبيناً. فطارت هيرا وأثينا إلى نصرة الإغريق فوجه زفس إليهما إيريس فعادتا صاغرتين، ورجع زفس إلى الأولمب واجتمعت الآلهة من حوله فأنبأهم بما أعد في قضائه المحتوم من اشتداد الأزمة على الإغريق حتى يخمد غيظ آخيل ويرجع إلى مقاتلة الأعداء. ولما خيم

الظلام انفصل الفريقان وأقام هكطور العيون والرقباء على الأعداء حتى لا ينهزموا ليلاً فأثار الطرود المقياس وقضوا ليلهم بسلاحهم ريثما يصبح الصباح فيعيدوا الكرة على أعدائهم.

تستغرق وقائع هذا النشيد يوماً كاملاً وهو اليوم السابع والعشرون لافتتاح إنشاد الإلياذة. ومجرى معظم الحوادث على مقربة من شاطئ البحر والباقي في أندية زفس.

النشيد الثامن

كسا الفجر وجه الأرض ثوباً مُزَعَفَرَا
على قمة الأولمب تُصْغِي مهابة
فقال: «لـيعلم كل رب وربّة
فلا يَنْبِذَنَّ الأمر عاصٍ بل اذْعَنُوا
وزفس أبو الأهوال في أرفع الذرى ١
لمنطقه الأرباب أَلْفَ مَحْضَرَا
بما اليوم في صدري فؤادي أضمرأ
لأنْفِذَ ما أبرمتُ أمراً مُقَدَّرَا

•••

لنصرة أيّ القوم من يَجْرِ منكم
وإلا فمن شُمَّ الأَلْمِبِ براحتي
إلى حيث أبواب الحديد قد استوت
إلى هُوّة بين الجحيم وبينها
يُثْوِبَنَّ منكوباً يُخَضِّبُهُ الدَّمُ
إلى الظلمات الدُّهْمُ يُلْقَى وَيُرْجَمُ ٢
على عتب الفولاذ والقَعْرُ مَظْلَم
مجال كأقصى الجو عن أسفل الثرى

•••

فتدرون كم بالطول أسمو وأشرف
وإن شئتم فابْلُوا الحقيقة تعرفوا

وَأَرْخُوا مِنَ الرِّزْقِ سِلَاسِلَ عَسَجِدٍ
 فَلَنْ تَبْلُغُوا مِنْ رَفَسٍ وَهُوَ وَلِيكُمْ
 وَلَكِنِّي أَيَّانَ شِئْتُ جَزَرْتُهَا
 وَمِنْ حَوْلِ أَوْلَمِي الرِّفِيعِ أَذِيرُهَا
 فَيَعْلَمُ كُلُّ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ مَبْلَغِي
 أَصَاخُوا سُكُوتًا حَرَمَةً وَتَهْيِيًا
 «أَجَلْ أَبْتَأِ يَا قِيَمَ الْقَوْمِ جَمْلَةً

...

وَلَكِنَّا نَرْتِي لِحَالِ الْأَغَارِقِ
 أَطْعَمْنَا فَلَا نَأْتِي النِّزَالَ وَإِنَّمَا
 وَإِلَّا فَهَذَا السَّخَطُ يَجْتَثِ أَصْلَهُمْ»
 وَقَالَ: «لَنْ رَاعَتْكَ مِنْي صَرَامَةٌ

...

وَلَا حَتَّ تَزِينُ الْخَيْلِ مِنْ تَحْتِ مَضْمِدٍ
 بِمَرْكَبَةٍ غَرَاءَ نَاطٍ صَرُوعَهَا
 وَفِي يَدِهِ سَوْطُ النَّضَارِ يَسُوقُهَا
 فَبَلَغَ إِذَا جَمَّةَ السَّيْحِ مَنَهَلًا

...

هَنَّاكَ لَدَى غَابٍ أَجَلْتُ وَهَيْكَلٍ
 لَهُ فَاحٍ نَشْرًا أَوْقَفَ الْخَيْلَ يَعْتَلِي

وحل بكبر المجد أرفع منزل
إلى سفن الإغريق وهو بمعزل
وفي الخيم هبوا للسلاح تحضراً

ومُذِّحِلها بين الضباب أحلها
يميل إلى الطُرُودِ حيناً وتارة
ففي عَجَلٍ نال الأغارق زادهم

...

تَقَنَّعَ في إليون يبرز جندهم
لتحفظ أعراض وتسلم ولُدْهُمْ
مشاة وفرساناً يُروِّعُ وفُدْهُمْ
تدفقت الأجناد تصلى تسعراً ١٠

كذاك أعاديهم وإن قل عدُّهم
يُحَرِّقُهُم داعي الضرورة للوغي
فَفَتَحَتِ الأبواب واقتحموا الوغي
ولما تَدَانَوْا والنفوس سَوَاخِطًا

...

وقرع به سود اليلامق ضُرَجَتْ
وسيل دماء فوق أرض ترجرت
بحرب على القومين ناراً تَأَجَّجَتْ ١١
لِقِسْطَاسِهِ التَّبَرِّيِّ قام مُحَرَّرًا ١٢

طعانٌ تالقت في صدور تدجَّجَتْ
وزفرة مقتول ونَعْرَةٌ قاتل
فزال ضحي الأقداس والنقع فائز
وعند انتصاف الشمس في كبد السما

...

لكل من القومين سهماً مُحَقَّقًا
وسهم بني الطرود للجو حَلَقًا ١٣
وما بين دُرَّاعِ الأغارق أبرقا
وأجدرهم بالبطش ولَّى وأدبرا ١٤

وألقى به قِدْحَيْنِ للموت والشقا
فسهم بني الإغريق مال إلى الثرى
فأرعد من أطواد إيذا هَدِيدُهُ
فَهَدَّتْهُمْ من شدة الهول رِعْدَةٌ

...

وفر أياسا البأس والجيش لاجِبُ

فَيَذُومِنْ عاد وأتريذُ هارب

بصرع جوادٍ ساق وهو يُراقِبُ
إلى المُخِّ فيه نَبْلُ فَارِسَ نَاشِبُ
وَشَبَّتْ جميع الخيل منه تَدَعُرَا

ولكنَّ نسطورًا تشبَّطَ مُخْرَجَا
بمقتل بادِي العُرْفِ في أُمِّ رأسه
فشب وأهوى خابطًا متمرِّغًا

•••

وهكطور تحت العَجِّ في خيله وَقَدْ
ولكن ذِيُومِيذٌ لُنُصْرته عمدُ ١٥
«إلى أين يا ذا المكر جِنًّا أرى تُرْدُ
فولَّيْتَ بين القوم تبغي تَسْتُرَا

فبالسيف نسطورٌ عدا يقطع القَدَدُ
وقد كاد سيف الحتف بالشيخ يرتوي
رأى فبأعلى الصوت صاح بأُوذِسِ
ألم تخش أن الطعن يُصْمِيكَ مُدْبِرَا

•••

فجدَّ يسوق الخيل للفلْكِ لا يعي ١٦
فَحَفَّ لصدر الجيش عن جأشِ أَرْوَعِ
وقال: «أجل يا شيخُ بأسك قد نعي
ولست على بأس الشباب لتصبرا

فذا شَيْخُنَا قِفْ عنه ذا القَرَمِ ندفعُ»
وأما ذِيُومِيذٌ وإن ظل مفردًا
ولما أتى نسطورٌ كَفَّ حَيْثَهُ
يصول عليك المُرْدُ في حَوْمَةِ الوَعَى

•••

فللصحب أودعَهَا فمركبتي جرت ١٧
سراعًا إذا كَرَّتْ وإن هي أدبرت
بها حسبنا جريَّ بحرب تسعَّرت ١٨
يُمْناي للفتك الذريع تضوِّرا» ١٩

فَتَبْعُكَ ذو عجز وخيلك قَصَّرتُ
وَهَيَّ احْتَبِرْ جُرْدًا بِأَطْرُوسَ تُقْفَتُ
ببأسي من إيناس من قبل نلتها
فيعلم هَكُطُورٌ بأنْ مُهَنَّدِي

•••

وأفرمذونٌ بالجياد على العجل ٢٠

فأذعن نسطورٌ وأَسْتِينِلْ قفل

يسوط وأطراف الأعنة قد سدل
أطار ذيوميذ السنان فعنه زل
فخر على وجه الحضيض مَكُورًا

وقرب ذيوميذ مضى الشيخ يعتلي
ولما لدى هكطور في الحال بلغا
وأنفذ في ثدي ابن ثيس أنيف

...

على تبعه والخيّل شبت تَطْمَحُ ٢١
فبادره أرْحُطْلِيمُسُ يَسْرَحُ
لِأَيُونْ كالخرفان والخطب يُفدح
أمام ذيوميذ الصواعق أمطرا

فأرْمَضْ هكطور بَيْثُ يُبْرَحُ
وغادره يبغي غلامًا يسوقها
وكادت سُرَى الطرواد تجري هزيمةً
ولكن زَفْسًا وهو شاهد وَهْنِهِمْ

...

بنار من الكيريت تلهب في الفضا
وأفلت نسطور العنان مُمَعَّصًا
ترى نصر زفس عنك ذا اليوم مُعْرِضًا
سيخلو لنا يوم يشاء فنُنْصَرًا»

فدمدم يدوي الرعد والبرق أومضا
ففي نيرها الخيل اقشعرت تهيبًا
وصاح: «فرارًا يا ذِيُومِيذُ أَلَا
لهكطور أولاه ومن ذا يَصُدُّهُ

...

فؤادي ونفسي بالعذاب تضرما
فتبلعني من أن أذلّ وأهزَمَا ٢٢
«ذِيُومِيذُ في الفُلك من بأسِي ارتمى»
يتاح له أن يستعز مُعَيَّرًا

فقال: «تَحَرَّيْتَ الحَقِيقَةَ إِنَّمَا
لَأَجْدُرُ بي أن تَفْتَحَ الأرضُ جوفها
وبصرخ هكطور لدى جند قومه
فقال: «وَأَنْئَى يا ابن تِيذِيُسِ ترى

...

بَلُوكْ وأبناء الطراود والملا ٢٣

يُكَذِّبُهُ قوم الدرادنة الألى

حملت على أزواجهنَّ مُجْنِدِلَا
وفوقهما وَبُلُ النبال تهيلًا ٢٤
ياثرهما يُنمي الفخار مظفرا

تُكَذِّبُ غاداتُ تَأَيَّمَنَ بعدما
ورد رءوس الخيل منهزمًا به
وهكطور هَيَّاجُ الترائك مقبل

•••

مقامًا ويزجي الزاد والكأس تُثَرِّعُ
لوهنٍ به كالغيد قد بَتَّ تَهْلَعُ
عقائنا فوق السفائن تدفَعُ
سَيُولِيكَ من قبل الحمام المَسْطَرَّا»

«ذِيَوْمِيذُ في الإغريق كم كنت ترفع
فسوف تُسَامُ الذَّلَّ بين جموعهم
خسئت فلن تعلو معاقلنا ولا
فهيئات لن تستأثرنَّ وساعدي

•••

أَيُغْفِلُهُ أم يشني لنزاله
وزَفَسُ ثَلَاثًا راعدٌ بجاله
وهكطور يَدْوِي صوته رجاله
ويا درديون النجيعُ تفجَّرا

فرَدَّدَ تيارًا يهيج بباله
ثلاثًا على الأمرين ردَّدَ فكره
يشير إلى الطرواد بالنصر معلًا
«أيا أيها الطُرُودُ يا قوم لِيَقَيَا

•••

فقد لاح لي زفسٌ يميل لنصرتي
وإهلاك أقوام الأعداي المُلْمَةِ
بما زعموا فيه انشاء عزيتمي
ودونكم مني البلاغ المقررا

فكونوا رجالًا واستجيشوا بشدة
يُخَوِّلُنِي نصرًا مبيِّنًا وعزة
بَنَوْا مَعْقِلًا غَنَّا فيا لضلّالهم
فخيلي تجتاز الحفيرَ مغيرة

•••

عليها لهيب النار لا تتوقفوا

«فإن أذن من فُلُكِ الأغارق فاقدفوا

وَيُفَنِّيهُمْ طُرًّا سِنَانٌ وَمَرْهَفٌ
«أَيَا زَنْتُ يَا فُودَزْعُسُ الْمَتَشَوِّفُ
بِهِ إِيَّهَذَا الْيَوْمَ قَدْ رُمْتُ مُخْبَرًا ٢٥

فَتَفَنَّى وَيَعْلُو لِلرَّقِيعِ هَصِيصُهَا
وَصَاحَ بَأَذَانِ الْجِيَادِ يَحْتُهَا
وَيَا إِبْتِنَّ يَا لَمَفْسُ الْكَرِّ كَرُّكُمْ

•••

وَكَمْ أَنْذَرُومَاخَ تَمَّتْ مُنَاكَمْ
تُرَاقُ عَلَيْهَا الْخَمْرُ أَنْ غِذَاكُمْ ٢٦
حَلِيلًا لَهَا غَضًّا فَخُثُوا خَطَاكُمْ
فَنَغْنَمَ تَحْتَ النِّقْعِ مَجُوبَ نَسْطَرَا

فَكَمْ رُضْتُكُمْ جَهْدِي ابْتِغَاءَ رِضَاكُمْ
وَكَمْ بَرَّهَا كَالشَّهَدِ قَدْ ذَخَرْتُ لَكُمْ
بِذَلِكَ كَمْ قَبْلِي رَعْتُكُمْ وَإِنْ أَكُنْ
فِيَا حَبِذَا كَرُّ يُدِلُّ عُذَاتَنَا

•••

وَشَهْرَتُهُ حَتَّى السَّمَاءِ تُجَلِّهُ
حَبَاهُ بِهَا هِيَفَسْتُ وَهِيَ تُظَلُّهُ ٢٧
بَلِيلَتِنَا لِلْقُلُوكِ جَيْشٌ نُدْلَلُهُ
وَهِيرَا لِذَاكَ الْخَطْبِ هَاجَتْ تَحْسُرَا

مَنْ الذَّهَبُ الْإِبْرِيزُ ذَا التُّرْسِ كُلَّهُ
وَمَنْ تَمَّ عَنْ كِنْفِي ذِيَوْمِيذَ لَأَمَةٍ
فَإِنْ نَغْنَمَ هَذِينَ لَا شَكَّ يَلْتَجِي
أَمَانِيَّ هَكَطُورٍ كَمَا شَاءَ بَنُّهَا

•••

وَصَاحَتْ بِفَوْسِيذَ الْعَظِيمِ تَحَدُّمَا: ٢٨
جَزَعَتْ لِأَرْزَاءِ الْأَرَاغِسِ مُرْغَمَا
قَرَايِينَهُمْ يَبْغُونَ قُرْبَكَ مَغْنَمَا ٢٩
فَلَا رَيْبَ أَنَّ لَنْ نُصَدَّ وَنُدْخَرَا

عَلَى عَرْشِهَا اهْتَزَّتْ فَقَلْقَلَتِ السَّمَاءُ
«وَهَلَّا أَيَا مِنْ زَعَزَعَ الْأَرْضَ بِأَسِهِ
فَكَمْ لَكَ أَزْكُوا فِي أَلْيَقَا وَإِيغَسِ
فَإِنْ نَعْتَصَبَ فِي صَحْبِهِمْ مِنْ ذَوِي الْعُلَى

•••

وَمِنْ فَوْقِ إِيذَا رَفْسٌ يُخْرِجُ مُفْرَدَاً»

فَهَيَّ بِنَا نَنْقُضُ فِي كَيْدِ الْعِدَى

فَقَالَ لَهَا وَالْغَيْظُ مَيَّرَهُ: «لَقَدْ
أَبَيْتُ لِقَا زَفْسٍ وَإِنْ تَأَلَّفُوا
فَذَلِكَ حَدِيثٌ فِي بَنِي الْخَلْدِ دَائِرٌ

شَطَطَتْ وَمَنِّي لَا تَنَالِينَ مَقْصِدَا
جَمِيعًا عَلَيْهِ فَهُوَ أَعْظَمُ سُؤْدَدًا»
وَقَدْ ثَقُلَتْ تَشْتَدُّ وَطَاءً هَكَطَرَا

•••

يَصُولُ كَارِيسٍ وَزَفْسٌ يَدِيلُهُ
لَدَى الْفَلَكَ حَتَّى الْخُصَنِ دُونَ حَفِيرِهِ
وَقَدْ كَادَتْ النِّيرَانُ تَحْرِقُ فَلُكَّهُ
فَخَاضَ صَفُوفَ الْخَيْمِ وَالْفَلَكَ رَافِعًا

وَجَيْشُ الْعَدَى يَصْطُكُ بَادٍ قُفُولُهُ
تُسَاقُ انْهَزَامًا رَجْلُهُ وَخِيُولُهُ
فَحَثَّتْ أَغَامِمُونَ هِيرَا دَلِيلُهُ
بِسَاعَدِهِ بُرْدًا مِنْ الْخَزْرِ أَحْمَرَا ٣٠

•••

تَوَسَّطَ فِي الْأَسْطُولِ حَتَّى إِذَا عَلَا
وَأَشْرَاعُ آخِيلٍ وَآيَاسٍ أُرْسِيَتْ
عَلَا صَوْتُهُ يَدْوِي: «أَيَا عَصْبَةً وَهَتْ
أَلَا أَيْنَ ذِيَاكَ التَّبَجَّحَ قَدْ غَدَا

خَلِيَّةُ أَوْذِيسٍ بِهِ تُخْدِقُ الْمَلَا
عَلَى طَرَفِيهِ شِدَّةٌ وَتَبْسُلًا ٣١
جَنَانًا وَإِنْ أَبَدَتْ بَيَانًا مُجَمَّلًا
وَأَيْنَ عَرَى عَزَمَ أَرَاهُ تَفْطَرَا

•••

فَأُفَّ لَكُمْ هَلَّا ذَكَرْتُمْ مُقَامَكُمْ
بِلَحْمِ سَمِينٍ تَرْتَمُونَ وَأَكْوُسٍ
عَلَى مِئَةٍ يَنْقُضُ أَوْ مِئَتِي فَتَى
وَعَنْ هَكَطَرٍ فَدَا عَجَزْنَا وَخَلَّتْهُ

بِلْمُنُوسَ وَالزَّادُ الشَّهْيُ أَمَامَكُمْ ٣٢
تُذِيرُونَ عَجْبًا رَاشِفِينَ مَدَامَكُمْ
فَتَاكُمْ زَعَمْتُمْ مُنْتَضِينَ حَسَامَكُمْ
سِيلْهَبٍ نَارًا فَلُكْنَا مَتَمَّرَا

•••

أَيَا زَفْسُ هَلْ مِثْلِي مَلِيكَ تَذَلَّلَا

وَمِنْ سُدَّةٍ الْمَجْدُ الْأَثِيلُ تَنْزَلَا ٣٣

على مركبي جمّ الأرادم مُقْبِلًا ٣٤
لِتُحْرَقَ أَنِّي شَادَ قَوْمَكَ هَيْكَلًا
وَلَا تُسَلِّمْنَا لِلْعَدُوِّ فَيَغْدُرَا»

•••

وأومأ يُوْتِي الجيشُ بُشْرَى نجاته
بِمُخْلَبِهِ ظُبِّي بِأَسْنَى سِمَاتِهِ
لِذِي الْوَحْيِ زَفْسٍ قَدَمُوا قُرْبَاتِهِ ٣٥
عَزِيمَتُهُمْ يَغْنُونُ فَتَكَا مَدْمُرَا

•••

أَعْتَتَّهُ يَجْتَازُ بِالْخَيْلِ خُنْدَقًا ٣٦
يَمْنَاهُ أَحْشَا آغْلَاوُسَ مَرْقَا
عَلَى حَيْنِ رَدِّ الْخَيْلِ يَجْتَنِبُ اللَّقَا
بِصَلْصَلَةٍ يَرَبَّدُ لَوْنًا وَمَنْظُرَا

•••

كَذَاكَ الْإِيَّاسَانِ اللَّذَانِ تَحَدَّمَا
حَكَى شِدَّةَ آرِيَسَ مُسْتَنْزِفَ الدَّمَا
وَتَاسَعَهُمْ طِفْقِيرُ وَالْقَوْسُ أَحْكَمَا
فِي رَفْعِهِ حَيْنًا فَحِينًا لِيَصْرَا

•••

وَيَرْشُقُهُ رَشْقًا يُعَدُّ مَنَوْنَهُ ٣٧

وَحَقَّكَ مُذْ أَقْلَعْتُ لَا جِئْتُ مُقْلِعًا
شَحُومَ عُجُولِي قَدْ دَفَعْتُ وَسُوقَهَا
فَمَهَّذْ لَنَا سَبَلَ النِّجَاةِ هَزِيمَةً

فَأَرْفَقَ زَفْسٌ رَاحِمًا عِبْرَاتِهِ
وَأَرْسَلَ خَيْرَ الطَّيْرِ نَسْرًا مَطْوَفًا
وَأَسْقَطَهُ فِي قَرْبِ هَيْكَلِهِ الَّذِي
وَمَذْ أَبْصَرَ الْإِغْرِيقَ ذَلِكَ قَوْمُوا

أَمَامَهُمْ طُرًّا ذِيَوْمِيذْ أَطْلَقَا
يَوْمُ الْعَدَى صَدْرًا لَصَدْرٍ وَزُمُحُهُ
بِعَاتِقَتِهِ وَارَاهُ يِيدُو لَصَدْرِهِ
فَخَرَّ صَرِيحًا خَابِطًا بِدِمَائِهِ

فَشُدُّوا الْقَوَى وَالْأَثَرِذَانَ تَقَدَّمَا
وَإِيذْمُنْ مَعَ تَبْعِهِ مِرْيَنَ الَّذِي
فَأَوْرِيْفُلُوسُ بَنُ الْفَتَى إِيْفِمِ تَلَا
يَوَارِيهِهَ آيَّاسٌ وَرَاءَ مِجَنَّنِهِ

فِيْحِدَقٍ فِي قَرَمٍ مِنَ الْقَوْمِ دُونِهِ

ويأتي أخاه مستظلاً بئرسه
ويصدر فيهم سيداً بعد سيد
فأزميساً ثم الفتى أو فليستساً
كطفل لحجر الأم أبدى حينه ٣٨
فجندل أرسيلوخ يفري وتينه
وأتبعه أخروميوس وذيثراً

•••

والحق ليْقُوْفُنْطُسَا وأْمُوْفَنَا
فأطرب أتريد وقام تجاهه
«أيا ابن تلامون الحبيب وغرة الـ
عسى منك يؤتى الدانويون نصرهم
وميلانفا تتابهم غصص الفنا
يُبَجِّلُهُ بين العساكر معلنا
جنود أسل ونل التبال مُرَنَّا
ويعلو أبوك الهُم شائاً ومشعرا

•••

نشأت بمغناه عزيزاً مُسَوِّداً
فزده سنا مجد وإن بان بؤنه
لئن نلت من زفس وفالاس نصره
بمركبة في خيلها أو منصّة
وإن كنت من نسل السيّة مولداً ٣٩
ودونك من أتريد عهداً مؤبداً
فبعدي قبل القوم تظفر بالجد
مُثَلِّثَةً أو غادة حسبما ترى» ٤٠

•••

فقال: «وهل داع لإنهاض همّتي
سأفتك ما أوتيت فتكاً ولم تزل
ثمانية أنفذت في فتية العدى
ولكن هذا الكلب قد عاث طاعياً
وكُلِّي عزم ناهض للملّة
طرّوحي تُصْمِي مذ هبت بشدتي ٤١
وعن كل سهم خرّ شهم سرية ٤٢
ونبلي عنه لا يزال مقصرا» ٤٣

•••

وأحدق في هكطور يرمي مسدداً
سريته والقلب منه توقّداً ٤٤

فأخطأه والسهم أُرْسِلَ صادرا
(هو ابن لفرهام وقسطنطرا التي
ورام بها زَوْجًا وفيها تَوَقَّرَتْ

إلى صدر غُرْغَثِيُونٍ ينفذ مبعدا
بها جاء قِدَمًا من أَسِيَمًا مُصْعَدًا
محاسن رَبَّاتِ الْخُلُودِ تَوَقَّرَا

•••

فرأس الفتى لَمَّا بِمَحْنَتِهِ مُنِي
كزهرة خشخاش بيانع روضةٍ
فَتَنَّنَى عَلَى هَكْطُورِ طَفْقِيرُ رَمِيَه
وَأُنْفِذَ فِي أَرْحَفُطْلِيمَ بِنْدِيَه

بِمَغْفَرِهِ الْمَسْرُودِ أَثْقَلَ يَنْحَنِي
يُثْقَلُهَا طَلُّ الرِّبْعِ فَتَشْتِي ٤٥
فَصَرَّحَ تَنْشِي السَّهْمِ كَفُّ أَفْلَنَ ٤٦
فَأَهْوَى غَضِيضَ الْجَفْنِ مِنْقَصَمِ الْعُرَى ٤٧

•••

فهكطور صُدَّتْ طَامَحَاتُ خِيُولِهِ
فَعَادَرَهُ مُلَقَّى عَلَى فِرْطَ بَثَّهِ
فَأَلْفَى أَحْيَاهُ قَبْرِ يُونَ إِزَاءَهُ
وَأَلْقَى لَهُ صَرَعَ الْأَعْنَةِ وَائْتَبَا

وَأَرْمَضَ مِلْتَاعًا لَقَتَلَ زَمِيلِهِ
وَأَعْرَضَ عَنْهُ سَاعِيًا لِبَدِيلِهِ
فَأَصْعَدَهُ يَعْلُو مَحَلِّ فِتِيلِهِ ٤٨
إِلَى الْأَرْضِ بِالصَّوْتِ الْمُرَوِّعِ مُجْهَرَا

•••

تناول جُلْمُودًا وَأَقْبَلَ مَسْرَعًا
وَأَخْرَجَ طَفْقِيرٌ لَجِيْفًا مَقْدَدًا
وَبِالْوَتْرِ اجْتَرَّ الْمَرِيْشَ لِكْتَفِهِ
فَأَدْرَكَهُ الْجَلْمُودُ فِي الْمَقْتَلِ الَّذِي

يُرُومُ بِهِ طَفْقِيرَ قِتْلًا مُصَدَّعًا
وَأَوْفَقَهُ فِي الْقَوْسِ لِلرَّمْيِ مُزْمَعًا ٤٩
إِلَى حَيْثُ عَرَقَ الْعُنُقَ بِالصَّدْرِ أَوْدَعًا ٥٠
بَغَى عَنْهُ أَنْ يَرْمِيَ السَّرِيَّةَ مُصْدِرًا ٥١

•••

فراحته شُلَّتْ وَقَدْ قُطِعَ الْوَتْرُ

وَأَجْثِي الْقَوْسَ اسْتَطَارَتْ عَلَى الْأَثَرِ

فبادر آياسٌ يقيه بترسه
وبادر ميكستٌ وآستَرٌ معاً
وزفس ارتضى طروادة فتأثروا
وظفقيزُ بالأنفاس يشهق والزُفرُ
يقلّانه للفلك مضطرب البصر
أعاديهم حتى الحفير تأثرا

•••

وهكطورُ صدر الجيش يجري ويلعبُ
كأعصفٍ هول قد تأثر ضيغماً
فينشئه في صفحتيه وساقه
فولوا لديه جائزين وشيعهم
ويكسأُ في الأرداف من يتعقب
تدعرُ أوخرنوصَ بر يككبُ ٥٢
وينظر هل يلوي خطاه ويلجب
وخندقهم والسيف يبتأ أظهرأ

•••

وسائرهم دون السفين تربضوا
ويدوي بهاتيك البقاع دعاؤهم
ويقدح من عينيه نارا كأنها
فهاج بهيرا هائج الغيظ والأسى
يُببأُ بعضاً بعضهم ويحرضُ
وهكطور دون القوم بالخيّل يعرض
بمقلة غرغونٍ وآريسَ تومض
وصاحت بآثينا: أرى الخطب أسفرا

•••

أيا بنت زفس الدانيون في نكد
بهم رامت الأقدار سوءاً وخلصهم
أجل إن هكطوراً عما متممراً
فقال أثينا: «كاد سيف العدى لدى
فهلاً مددناهم وإن أبطأ المددُ ٥٣
بيدهم قرم بشدته انفرد
عليهم وجاز الحد واشتد واتقد» ٥٤
معسكره يلقيه ميماً معقراً

•••

ولكن أبي قد ساء فعلاً ومقصداً
وقاومني غدرأ وأفرط واعتدى

هرقل ابنه في حكم إفرست مجهدا
فيرسلني زفسن ملاذاً ومرشداً
لظل هرقل في الجحيم مُحَقَّرَا

وقد فاته كم قبلُ صنتُ حبيبه
يصعد أنفاساً ويندُب ضارِعَا
فلو أنِّي أنبئتُ قبلُ مرامه

•••

بهية إفرست كئيباً مذللاً
وليَّ المنيا من أريباً مكبلاً ٥٥
تقبَّله من ركبته توسلاً ٥٦
لينصر آخيل العتي المُدَثَّرَا

ولكنني أنقذته حين أرسلا
لأبواب آذيسٍ ليقْتاد كلبه
وذا زفس يحفوني وثيتيس يرتضي
وتلعب بين العارضين يمينها

•••

أثينا أَرْزَقَا المقلتين صَفِيَّتِي
لأحضر في مغناه للحرب شِكَّتِي
أيطرب إذ نبدو بصدر السرية ٥٧
لطير الفلا والكلب بالسيفِ تُبْتَرَى» ٥٨

ولا بد من يوم يناديني ابتي
ولكن بنا قُومي فخيْلِكْ هَيَّي
فأنظر هَيَّاج الترائك هكطُرا
لحوم بني طروادة وشحوئُها

•••

إلى الخيل تكسوها نُضَارِي عَدَّة
نقاباً بديعاً شائقاً هي وَشَّتِ
بشِكتِهِ تُصَلِّي أوار الحمية
طويل ثقیل العود يحطم عسكرا

وهيرةً بيضاء الذراعين هَبَّتِ
وألقت أثينا في بلاط وليها
بدرع أبيها استلأمت وتَدَجَّجَتْ
بها ركبت في كفَّها عامل له

•••

لأبواب دار الخلد في الجو تسبحُ

وهيرا تسوط الخيل والخيل تسرح

فمن نفسها دارت على عباتها
 (تحف بها الساعات وهي رقيقة
 تُكثَّفُ فيها الغيم والجو مظلم
 وأعلت صريفًا هائلًا وهي تُفْتَحُ
 على قبة الأفلاك لا تتحزحزح
 وتتشعه عنها فيبرز نيرًا) ٥٩

•••

فجاوزتا الأبواب بالخيَلِ مركبا
 فصاح بإيريس: «اذهبن لترجعَا
 وإلا فقد آليتُ والقول حازم
 وأرميهما من فوق عرش مبطن
 ومن طور إيذا زفسُ ينظر مغضبا
 ولا تأتياني فاللقاء تصعبا
 لأحطم بالنير الجياد مثربا
 بمركبة أذرو سحيقًا مُكسَّرًا

•••

وصاعقتي تنقض يذكو التهابُها
 فتعلم آئينا نكالًا ينالها
 وإنني على هيرا أقل تحدُّما
 فطارت إريس كالرياح بأجنح
 وعشرة أعوام يدوم عذابها
 بصدَّ أبيها مذعراها ارتيابها
 فقد ألفت صدِّي وزال احتجابها» ٦٠
 نُصَارِيَّةٍ نحو الأَلْمَبِ تحدُّرا ٦١

•••

فألفتهما في صدر أبوابه العُلَى
 علام تهيجان اضطرأًا وزفس لا
 وإلا فقد آلى بحتمٍ مؤكِّدٍ
 ويرميكما من فوق عرش مُذهَّبٍ
 وقالت: «إلى أين الحيثُ تنصُّلا
 يتيح لنا بين الأغارق مدخلا
 ليحطم بالنير الجياد مُفلِّلا
 بمركبة يذرو سحيقًا مُبعَثَرًا

•••

وصاعقة التكيل يذكو التهابُها
 وعشرة أعوام يدوم عذابها

فَتَعْلَمُ آثِينَا وَأَوْغَرَ صَدْرُهَا
وهيرا عليها دون ذلك غيظه
وَأَنْتِ أَيَا شَرِّ الْكِلَابِ وَقَاحَةِ

•••

وَمِنْ بَلَغَتْ إِيرِيسَ عَادَتْ لِحِينَهَا
فَقَالَتْ لِآثِينَا: «أَنَا لَسْتُ أَرْضِي
لَتَحْيِي وَتَفْنِي كَيْفَمَا خُطَّ حَظُّهَا
وَرَدَّتْ رَعُوسَ الْخَيْلِ وَالسَّاعِ سَرْمَدًا

•••

فَجَرَذْنَهَا حَالًا وَأَوْتَقْنَهَا لَدَى
وَمَرْكَبَةِ الْأَقْدَاسِ أَتَكَأَنَّهَا إِلَى
وَحَلَّتْ تَهِيحَ الرَّبَّتَانِ كَابَةً
وَزَفَسُ إِلَى الْأَوْلَمْبِ فِي طُورِ إِيْذَةٍ

•••

فَحَلَّ فُسَيْدُ الْخَيْلِ يَمْضِي بِسُرْعَةٍ
وَسَتَرًا مِنَ الْكَتَّانِ أَسْبَلَ فَوْقَهَا
وَتَحْتَ خَطَاهُ ارْتَحَّ ذِيَالُكَ الْفُضَا
وُجُومًا وَصَمْتًا تَطْرُقَانِ وَإِنَّمَا

•••

فَقَالَ: «لَمْ الشُّكُوى وَفَرَطُ التَّبَاعِدِ
وَلَمْ تُجْهِدَا نَفْسًا بِحَرْبِ الطَّرَاوِدِ

ولكن طُولِي امتد واشتدَّ ساعدي
وقد خُرْتُمَا قبل اشتداد المشاهد
فصدَّتْكُمْ عن منزل الخلد أدْهَرَا»

تَعَمَّدْتُمَا إهلاكهم ودمارهم
فلا ينشي عزمي لكل بني العلى
والا لَسَحَّتْ راعدات صَوَاعِيقِي

•••

تَرُومَانٍ لِلطَّرُودِ مُحَقًّا مُرَوِّجَا
حزاة صدرٍ مستشيطٍ تَوَهَّجَا
على كظم غيظٍ في حشاها تلجلجا
قُؤَاكْ علمنا لن تدين وتَصْغُرَا ٦٥

فأصعدتا الأنفاسَ عن جمرة الشجا
وأخفت أثينا ثائرَ الغيظِ تلتظي
ولكن هيرا تلك لم تقوَ ساعةً
فقلت: أبيت الوهنَ يا ابن قُرُونُسِ

•••

يبيدهم المقدور تحت المخافق ٦٦
نَمُدُّهُمْ بالرأي خوف البوائق
فقال لها رب الغيوم الدَّوَاقِ
أَسِيلُ دَمِ الإغريق دونك أنْهَرَا

ولكننا نرثي لحال الأغارق
أطعنا فلا نأتي الكفاح وإنما
والا فهذا السخط يجتث أصلهم»
«إذا بزغ فجر المنير رأييتني

•••

إلى أن يَهَبَّ القرم آخيل فيهم
لدى الفلك بالقومين يَسْرُبُ بالدم ٦٧
ولست أبالي ما تَحَدَّمَتْ فاعلمي
وراء الثرى والبحر أعماق طَرْطَرَا

وهكطور لا يَنْفَكُ يرمي ويرتمي
ومن حول فَطْرُقَلِ القَتِيلِ تلاحمٌ
بذا قضت الأيام يَنْفُذُ حكمها
وليس بعِيِّي أن تَوُمِّي مَغِيْظَةً

•••

يقيم وبالإذلال يافثُ يجلس

هنالك لو تمضين حيث قُرُونُسُ

ولا نسَمَاتِ الرِّيحِ تُخَيِّي وَتُوْنِسُ ٦٨
أَصَاخَتْ لَذَاكَ الْقَوْلِ لَا تَتَنَفَسُ
وَذَيْلُ الدَّجَى فِي الْأَرْضِ بَاتَ مُجَرَّرًا

•••

وَأَطْرَبْتُ الْإِغْرِيقَ بُشْرَى احْتِجَابِهَا
بَعِيدًا عَنِ الْفَلَكَ الْعِظَامِ مَضَى بِهَا
تُذَنِّسُ ذِيَّكَ الْفَلَا بَانْصَابِهَا
فَقَامَ خَطِيئًا أَمْرًا وَمُؤَمَّرًا

•••

ذِرَاعًا وَعَشْرًا عَزَّ شَكْلًا مِثْلُهُ
بَنْصَلٍ نَحَاسِي يَهْوِلُ صَليُّهُ
وَيَا حَلْفَائِي دُونَكُمْ مَا أَقُولُهُ
بِلَادِي وَأَفْنِي الْقَوْمِ وَالْفَلَكَ مُظْهَرًا ٦٩

•••

عَلَيْهِمْ وَأَنْجَاهُمْ فَلَا تَعْصِ أَمْرَهُ
وَهَيُّوا بِنَا لِلزَّادِ نَنْظُرُ أَمْرَهُ
تُسَاقُ وَخِرْقَانُ تُوَفَّرُ ذَخْرَهُ ٧٠
حَمَلْتُمْ مَعَ الْخَبْزِ الْمُدَامَ الْمَكْرَرَا

•••

إِلَى الْجَوِّ لِلْفَجْرِ الْمَنِيرِ مَدَى الدَّجَى

وَلَا الشَّمْسُ فِي الْآفَاقِ تَنْشُرُ نَوْرَهَا
لَمَّا رَابَنِي مَذَكَنْتَ شَرَّ سَلِيْطَةٍ»
وَمَا لَبِثْتُ أَنْ حَلَّتِ الشَّمْسُ بَحْرَهَا

فَبَرَحَ بِالطَّرَوَادِ مَرَأَى غِيَابِهَا
وَهَكْطُورُ نَحْوِ النَّهْرِ سَاقِ جِيوشِهِ
وَأَلَّفَ فِيهِمْ مَجْلَسًا حَيْثُ لَا دِمَا
تَرَجَّلَتِ الْفَرَسَانِ تُصْغِي لِقَوْلِهِ

يَمِيلُ عَلَى رَمَحٍ يُعَادِلُ طُولُهُ
تُطَوِّقُهُ مِنْ خَالِصِ التَّبَرِّ فَتَحَّةٌ
«أَلَا يَا بَنِي الطَّرَوَادِ يَا قَوْمَ دَرْدَنِ
حَسِبْتُ بِأَنِّي الْيَوْمَ أَدْخُلُ ظَافِرًا

وَلَكِنْ وَفَدَ اللَّيْلُ أَسْبَلَ سِتْرَهُ
فَحَلُّوا جِيَادَ الْكَرِّ يُزْجَى عَلَيْهَا
وَمَنْ قَدَسَ إِلْيُونٍ عَجُولٍ سَمِينَةٌ
وَعُودُوا إِلَيْنَا مِنْ مَنَازِلِكُمْ وَقَدْ

وَزِيدُوا وَقُودَ النَّارِ تَأْجُجَا

فيغون متن البحر في الليل مخرَجًا
وسُمراً تُغشِّيهم خضابًا مُضَرَّجًا
وغيرهم بالحرب لن يَنهَوْرًا

•••

بإليون حزم الولد والشيب شَدَدُوا
الحصون التي آل العلي قبلُ شَيَّدُوا ٧١١
منازلهن النار للصبح تُوقَدُ
تفاجئها الأعداء في سَنَةِ الكرى

•••

وإني بباقي الأمر أُنَبِّئُكُمْ غَدًا
ينيلوني نصرًا فأظفر بالعدى
يسوقهم داعي المنيا تعمَّدًا
هَبَبْنَا وَكَثَفْنَا القنا والسَنَوْرًا ٧٢

•••

أم الحتفَ يلقى من حدودِ مخافقي
به لورود الحتف أول سابق
صناديدُ خَرَّتْ باصطدام الفيالق
ولا نظرت عيناى مَوْتًا مُؤَخَّرًا ٧٣

•••

كما قد وثَّقتُ اليوم بالنصرِ في غَدِ

لئلا يرى القوم الفرار غيمة
فإن ركبوا صُبُوا عليهم سهامكم
بأوطانهم هم يلامون جِراحَهُمْ

ويا أصفيا زَفَسَ الْفُيُوجَ تعهدوا
وسوقهم طُرًّا لظاهرها على
وكل النساء الجازعات يُقِمْنَ في
فليس بإليون جنود وخشيتي

فحسبكم ذا القول مني مُرْشِدًا
سأدعو وزفَسَ لا مرء وآلُهُ
كلابٌ بَعَوْنَا فوق سود سفينهم
فأحيُوا الدُّجَى والفجرُ إن لاح نوره

ترى أذيوميدٌ إلى السور سائقي
غدا سوف ييلو بأسه وكأنني
يُجَنَدَلُ في صدر الرجال وحوله
فلا زارني شيبٌ يُلْمُ بعارِضي

ويا ليتني أوتيت علمًا بسُوْدُدِي

وَأَسْمَوْ سُمُوَ الشَّمْسِ فِي كُلِّ مَعْهَدٍ ٧٤
لَمَّا كَانَ مِنْ وَقَعِ الْحَدِيثِ الْمُنْصَدِّ
وَشَدُّوا الْعُرَى قَرَبِ الْعِجَالِ تَحَذَّرَا

وَأَعْلَوْ كَمَا تَعْلَوْ أَثِينَا بِمَجْدِهَا
فَلَمَّا انْتَهَى شَقُّ الْفَضَاءِ ضَجِجَهُمْ
وَحَلَّلُوا وَثَاقَ الْخَيْلِ يُسَبِّحُهَا الْعِيَا

•••

وَحَمَرٌ وَخَبَزٌ فِي الْمَنَازِلِ مُدَّخَرٌ
إِلَى الْجَوِّ رِيحُ السَّهْلِ تَحْتَ سَنَا الْقَمَرِ
جُمُوعُهُمْ مِنْ حَوْلِهَا زُمَرًا زُمَرٌ
مَدَى اللَّيْلِ يَرْجُونَ السَّنَاءَ الْمُبَشِّرَا ٧٥

وَجَاءَتْ سَمَانُ الضَّأْنِ فِي الْحَالِ وَالْبَقَرِ
وَأَوْرَوْا وَقُودَ النَّارِ تُغْلِي دَخَانَهَا
وَمِنْ فَوْقِ هَاتِيكَ الْبَطَاحِ تَأَلَّفَتْ
جُلُوسًا وَشُكَّاكََا بَصَلْدِ سِلَاحِهِمْ

•••

لَوَامِعِ نِيرَانٍ بِذَاكَ الْمُعَرَّسِ
يُوجِّعُهَا خَمْسُونَ فِي كُلِّ مَقْبَسٍ ٧٦
وَقُوفٍ عَلَى ذَاكَ الْقَضِيمِ الْمَكْدَسِ
بِهَا مَرَحَتْ حَتَّى الصَّبَاحِ تَفْجَرَا

فَبَيْنَ السَّفِينِ الرَّاسِيَاتِ وَزَنْثُسِ
تُوجُّ لَدَى إِلْيُونٍ فِي أَلْفِ مَقْبَسٍ
وَدُونَهُمْ بَيْنَ الْعِجَالِ جِيَادُهُمْ
شَعِيرٌ نَقِيٌّ فَوْقَ أَسْمَرِ حَنْطَةٍ

•••

بَقْبَةُ أَفْلَاكِ السَّمَاءِ لَوَامِعِ
وَلَا رَهَجٌ حَالٍ ذَرْتُهُ الزُّوَابِعِ
وَعَوْرٍ وَنَجْدٍ وَالْعَيُونُ هَوَاجِعِ

كَأَنَّ النُّجُومَ الْغُرَّ وَالْبَدْرَ سَاطِعِ
مُؤَلَّفَةً لَا غَيْمٍ يَحْجُبُ نُورَهَا
فَتَنْعَكِسُ الْأَنْوَارُ فِي كُلِّ سَبَبِ

هوامش

(١) فصلنا في المقدمة أسباب تنوعنا النظم في ترجمة الإلياذة. وقد نحونا في هذا النشيد وبضعة أناشيد أخرى نحوًا جديدًا عسى أن يروق المطالع اللبيب: من محاسن لغتنا العربية اتساعها لتأدية المعاني الفطرية وإن ضاقت دون الكثير من التعبيرات العصرية. وهي بهذا المعنى مخالفة للغات الإفرنج؛ فَتَفْضُلُهُنَّ في التعبير الجاهلي والوصف الفطري القديم، وَتَفْضُلُنَهَا في التعبير المدني والوصف العصري الحديث. ولهذا كانت أصلح منهنَّ لترجمة منظومة كالإلياذة كما أبنَّا في المقدمة. والداعي إلى هذا التنبيه افتتاح الشاعر نشيده بقوله: «كسا الجو وجه الأرض ثوبًا مزعفرا» فإن بعض نَقَلَة الإفرنج استصعبوا تأدية هذا المعنى بلغتهم شعرًا؛ بناءً على أن لفظة الزعفران لا تقع وقعًا حسنًا في نظمهم، فاضْطَرُّوا إلى استبدالها بلفظة الورد وما ماثلها، فحادوا بالمعنى عن وضعه المقصود مع كل ما فيه من بلاغة التشبيه. فعربيتنا والحمد لله لا تضطرننا إلى مثل هذا التكلف. وشعراؤنا الأقدمون تَفَنَّنُوا في وصف الطبيعة تَفَنُّنًا لم يسبقهم إليه السابق ولم يَفْقَهُهُمْ فيه اللاحق. ونفس هذا التشبيه وارد في الكثير من شعرهم. قال المعري وأبدع:

طلعتُ عليهم واليوم طفلٌ كأن على مشارفه جِسادا

والجساد هو الزعفران كما لا يخفى. وفي بيت المعري زيادة في
المعنى على بيت هوميروس في هذا الموضع. ولكنه دون قول هوميروس
في مطلع النشيد التاسع عشر إذ يقول:

ما اشتمل الفجر بثوب الجساد من يَمِّه يبرز فوق العباد ... إلخ

وقد أراد الشاعر بالجساد الزعفران الأحمر دون الأصفر وهو
كثير في بادية العرب.

قال المعري وهو يريد بلا ريب اللون الأحمر:

أقائدها تغص الجو نقعاً وفوق الأرض من علقٍ جسادُ

وقد أدمت هواذيلها العوالي وأنضبها التطاول والطراذُ

ومثله قول عنتره:

وما راعني يوم الطعان دهاقةً إلى مثل مَنْ بالزعفران يضرجُ

وليس بقليل أيضاً ذكر الزعفران الأصفر في الشعر العربي كقول

عبد الكريم النهشلي يصف الخيل:

وصفر كأن الزعفران خضابها ومن طرر الأقمار أوجهها الغرُ

(٢) الاعتقاد بأن موضع العذاب مظلم مُدْلِهَمٌ قديم في كثير من

الأديان ولعل اليونان أخذوه عن المصريين.

(٣) لا صورة شعرية في كل منظومات هوميروس تناولتها أيدي الشراح تناولها لهذه الصورة البديعة. وقد رمى بها الشاعر على ظاهر العبارة إلى المغالاة بعظمة زفس واقتداره. فعلق بها المفسرون فقدحوا زناد الفكرة وتأولوها تأويل ضربوا بها كل مضرب. قال أفلاطون: رمز الشاعر بتلك السلسلة الذهبية إلى الشمس فبأشعتها يتماسك الكون وتحبى الطبيعة. وروى أفستاثيوس أن زفس في معتقد بعض الأقدمين إنما هو الجلد والسلسلة الشمس فإذا أمسك زفس بها عجزت الأرباب طُرًا عن زحزحتها أما هو فلا أهون عليه من أن يجتذبها ويجتذبهم مع البحار والأرضين ويُبطل حركة العالم كما أن الجلد يخفف الحرارة من أشعة الشمس ولولا ذلك لجففت مياه البحار فتصاعدت بخارًا وطردت الرطوبة من جوف الأرض فوقفت حركة العالم وتلاشت كل قواه. وزعم القَدْرِيُّونَ أن المراد بزفس القضاء المحتوم لا مرد له مهما تَأَلَّبَ عليه من قوى السموات والأرض. وذهب آخرون إلى أن حلقات السلسلة عبارة عن أيام العالم تتعاقب بنور الشمس إلى أن تنتهي أما زفس وهو الجلد فلا يعبث ولن يعبث به عابث ولا باعث. وجاء في الرموز الهوميرية لهيرقليد أنه أشير بالسلسلة إلى دوران الكواكب حول الأرض. وارتأى پوپ عكس الرأي الأخير أي إن في تلك الصورة رمزًا إلى دوران الأرض والسيارة حول الشمس؛ فهوميروس إذن هو الذي أرشد كوبرنيك إلى معرفة النظام الشمسي. وهو قول بعيد الاحتمال بُعِدَ الشمس. ولو أذن

لنا أن نستنبط مغزى رمزياً لاستنبطناه وألقينا دلونا بين الدلاء ولكننا نعترف بالعجز عن إدراك مراد الشاعر لو كان في الأمر مراد خفي. وإذا توخى هوميروس الرمز في بعض أقواله جرياً على عادة أسلافه وقدماء المصريين فليس من اللازم أن يكون كل كلامه رمزاً ولغزاً. ثم إنه بصرف النظر عن التأويل والتفسير نراه قد أوضح رجحان زفس على سائر المعبودات ورسم لذلك الرجحان صورة شعرية يحار الشعور لتصورها فلم نخرجها تخريجاً علمياً ونُخسرُها الرونق الشعري؟ ولم لا نقول قول لوبريقوس إن الشاعر لم يقصد بما قال إلا ما قال على ظاهره وكفى به إعجازاً وإيجازاً.

(٤) كان هوميروس يُدَوِّنُ أساطير زمانه ويتحرى صدق الرواية وكلامه الحجة الوثقى في تاريخ بلاده وآدابها وعلومها ومعتقداتها. ولقد مرَّ بنا الجانب الأوفر من معتقدهم الخرافي ممَّا نبَّهنا عليه في مواضعه. على أننا لم ننبه إلى أنهم مع وفرة أضاليلهم كانوا يذهبون إلى أن العظمة والجلال والقدرة والكمال لإله واحد. فنسبة سائر الآلهة إليه كنسبة المخلوق إلى الخالق. ولا ريب أن هذا الاعتقاد قرَّب على أفهام عقبهم إدراك مواعظ بولس الرسول وهو يدعوهم إلى النصرانية ويُمَثِّلُ لهم من الربوة المحاذية للأكروبول في أثينا ومن مواقف أخرى عظمة الخالق ووحدته إذ يؤخذ ممَّا تقدَّم أنهم وإن كانوا مشركين كل الإشراك في الصورة فقد كانوا موحدِّين كل التوحيد في المعنى.

(٥) اليلامق، جمع يلمق: التروس وهي مُعَرَّيَّةٌ عن يلمه بالفارسية.

(٦) لم يكن أحد أحق من أثينا بالجواب على كلام زفس
فالحكمة تطف سؤرة الغضب وتخفف وطأة القضاء وإن لم ترده. ولو
بقي الجميع صامتين لانقطعت حلقة ذلك المجلس.

(٧) كان كلام أثينا عبارة عن استعطاف واسترحام، فهش لها
زفس وبش. ولا يخفى على المتأمل في كل أناشيد الإلياذة أن للدعاء
والصلاة دخلاً فعالاً في تفريج الأزمات واستدرار الخيرات. وحيثما بُوْشِرَ
في أمر بلا صلاة ونذر فالعاقبة بلاء عميم وشر عظيم.

(٨) إن زفس على عظمته يشد جياده بيده إلى مركبته، وهنا
إشارة إلى أنه لا يَكِلُ أمره إلى أحد.

(٩) غرغار أو غرغروس هو القمة الجنوبية من جبل إيذا في بلاد
طروادة كانت مشهورة بخصبها وكثرة مياهها وهيكلها المقام لزفس
واسمها الآن قازطاغ (جبل الأوز).

(١٠) لا يخفى أن معنى هذا البيت والبيتين التاليين مر في
النشيد الرابع. ولا عجب إذا كلف هوميروس به فكرَّره وهو من مكررات
الإلياذة التي وردت لِمَعَانٍ لا تكاد تقوم إلا بها. ولعل للحفَاطِ يدًا في
تكرارها.

(١١) إن السبب في تقديس ضحوة النهار أو ما تقدم الظهيرة هو أنهم كانوا يندرون ويقربون في خلال تلك المدة «أفستاثيوس».

(١٢) القسطاس الميزان. ليس هوميروس بأول من قال بوزن الحق لأعمال الخلق فهو مُعْتَقَدٌ قديم جاء مرارًا في نص التوراة واعتقاد اليهود وهو خير مميز يمثل به العدل ويتحقق به القسط حتى لقد يجعله النصارى في رسومهم من لوازم الحشر والمسلمون يعلمون أنه عز وعلا خلق الإنسان وَالسَّمَاءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ الْمِيزَانَ * أَلَّا تَطْغَوْا فِي الْمِيزَانِ * وَأَقِيمُوا الْوَزْنَ بِالْقِسْطِ وَلَا تُخْسِرُوا الْمِيزَانَ

(١٣) يظهر من كلام هوميروس أن الكفة الراجحة ليست بالكفة الراجحة؛ والسبب في ذلك حسبما روى أفستاثيوس أن الأرض مقر الشقاء ودار الفناء فميلان الكفة إليها يؤدي إلى ما خلق عليها. وأما السماء فهي دار الحياة والهناء فارتفاع الكفة إليها نعيم وبقاء. هذا مُعْتَقَدُ اليونان بنص هوميروس والرومان بنص فرجيليوس. وقد فسّر هوميروس ذلك في النشيد الثاني والعشرين إذ قال: إن كفة هكتور هبطت إلى الجحيم؛ أي إن

طالع سعدة توارى وراء طالع نحسه. وأما الإسرائيليون



محارب يوناني.

فالظاهر أنهم اعتقدوا العكس كما يُستَفَادُ من سفر دانيال إذ قال دانيال لبلشصر: قد وزنت فوجدت خفيفاً (أو ناقصاً). وجرى ملتن في «فردوسة» هذا المجرى فجعل الكفة ترتفع بإبليس دليلاً على الخفة والخفة بعكس الرجحان مجلبة للذل والهوان. وليس في الإنجيل ما يثبت ذلك أو ينقضه. وأما المسلمون فيقرءون فَأَمَّا مَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ * فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَاضِيَةٍ * وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ * فَأُمُّهُ هَاوِيَةٌ * وَمَا أَدْرَاكَ مَا هِيَتْ نَارٌ حَامِيَةٌ وهو مطابق لاعتقاد الإسرائيليين.

(١٤) ما أحسنها وسيلة اتخذها الشاعر لاندحار الإغريق. لم يكن يجدر بهم أن يَلْتَوُوا لعدو هو دونهم دُرْبَةً وعدداً إلا أن تكون هناك قوة فوق قوة البشر فجعل التواءهم لرفس دون الطرواد. ولم يكن زفس ليردهم على أعقابهم حتى ظهر بأعظم مظاهر عظمته وجبروته فأرعد من جانب الطور وأبرق، وأخذتهم الصعقة فكانت تلك الهزيمة لهم مجلبة عز وفخار لا مدعاة ذل وشنار.

وكأنني بهوميروس لمّا شرع في نظم هذا النشيد كانت قريحته مَلَأَى مما النقطه من الاعتقادات الْمُنبَتَّةِ في مصر وسائر بلاد المشرق أخذاً عن العبرانيين ومن عاصرهم فنقلها مزيجاً مشوباً بما خالطه من خرافات القوم؛ فالوحدة والميزان والإرعاد والإبراق كلها أمور ليست من مستبطاته، والوعيد بطرح المردة من أعالي النعيم إلى درك الجحيم ليس إلا بقية اتصلت إليه من تمرد إبليس وإهباطه من الجنة.

(١٥) لقد نبهنا الشاعر بوقوف نسطور مُضْطَرًّا بقتل جواده إلى جملة أمور يجدر التنبه إليها. أولها: أن نسطور على عجزه وهرمه كان يقاتل كالفتيان أي إن الشيوخ لم يكونوا ليحتزوا بموقف المشير الخبير بعيدٍ عن زعازع المعامع. والثاني: أنه مع انصباب الأهوال وضعضة الأحوال لم يعد نصيرًا يذود عنه ويخرج به حيًّا سليمًا؛ إشارةً إلى أنهم مع شدة الهول لم ينهزموا انهزام المرتاع أضاع شعوره وضل سبيله. والثالث: أن ذلك النصير المجير إنما كان الفتى الغض الشباب يقتحم مستبسلًا غمرات المنون، فلا هو بالمبالي بشديد المصاب ولا بالهيب من رعيد الأرباب.

(١٦) لم يكن أوديس ليقف مثل ذلك الموقف الحرج وهو الكهل الداهية الذي كان أعرف الناس بسوء مصير المتمردين على الأرباب «فجد يسوق الخيل للفلك لا يعي».

(١٧) التبع: التابع.

(١٨) مر بيان ذلك في النشيد الخامس.

(١٩) هذا كقول النمرى:

وَمُصَلَّتَاتٍ كَأَنَّ حَقْدًا مِنْهَا عَلَى الْهَامِ وَالرَّقَابِ

ومثله قول أبي تمام:

كَأَنَّمَا وَهِيَ فِي الْأَكْبَادِ وَالْغَةِ وَفِي الْكَلَى تَجِدُ الْغَيْظَ الَّذِي تَجِدُ

(٢٠) أَسْتَيْل: حَوْذِي ذِيوَمِيذ، وَأَفْرُوْمَذُون: حَوْذِي نَسْطُور، قَفْلًا بِمَرْكَبَةٍ نَسْطُور.

(٢١) طَمَحَ الْفَرَسُ: رَفَعَ يَدَيْهِ وَالْمَقْصُودُ هُنَا التَّجَفُّلُ.

(٢٢) لَشَعْرَانَا تَصْرَفُ كَثِيرٌ بِهَذَا الْمَعْنَى. فَمِنْ ذَلِكَ قَوْلُ أَبِي خِرَاش:

مَخَافَةٌ أَنْ أَحْيَا بِرَغَمٍ وَذَلَّةٍ وَلَلْمَوْتُ خَيْرٌ مِنْ حَيَاةٍ عَلَى رَغَمٍ
أَخَذَهُ أَبُو فِرَاسٍ فَقَالَ:

وَلَا خَيْرَ فِي دَفْعِ الرَّدَى بِمِثْلِهِ كَمَا رَدَّهُ يَوْمًا بِسُوءَتِهِ عَمَرُو

وَأَحْسَنُ مِنْهُمَا قَوْلُ الْحُصَيْنِ بْنِ الْحُمَامِ الْمَرِّي:

فَلَسْتُ بِمَبْتَاعِ الْحَيَاةِ بِذَلِكَ وَلَا مُبْتَغٍ مِنْ رَهْبَةِ الْمَوْتِ سُلَمًا
وَلَكِنْ خَذُونِي أَيَّ يَوْمٍ قَدَرْتُمْ عَلَيَّ فَحَزُّوا الرَّأْسَ أَنْ أَتَكَلَّمَا

(٢٣) الدَّرَادَنَةُ قَوْمُ آيَاسٍ سَكَنُوا دَرْدَانِيَا وَأَقْدَمُوا أَبْنَاءَ تِلْكَ الْبِلَادِ.

سُمُّوا بِذَلِكَ نِسْبَةً إِلَى دَرْدَانُوسَ بْنِ زَفْسٍ وَالْكَتَرَا. نَشَأَ فِي أَرْقَادِيَا وَابْتَنَى
دَرْدَانِيَا فِي آسِيَا الصَّغْرَى وَهِيَ مَدِينَةٌ كَانَتْ عَلَى مَقْرَبَةٍ مِنَ الدَّرْدَنِيلِ وَكَلَا
الْأَسْمِينَ مَنْسُوبٌ إِلَى دَرْدَانُوسِ الْمَذْكُورِ.

(٢٤) لم تكن كل صواعق زفس لتكبح جماح ذيوميذ حتى وقعت عليه صاعقة الفصاحة من منطق نسطور؛ فانشى وما كاد ينشئ بل كان المُنشئ نسطور. وهذا منتهى غرائب الاستبسال من وجه وغاية عجائب الأقوال من وجه آخر، لقد اتفق الناس على أن مهرة المصوّرين والرسامين استخرجوا من هوميروس الجانب العظيم من مواضيع صورهم. فتصوّر الوقائع وصورها لهم بأبداع ما تتخيله المدارك، فرسموها عنه على أهون منال. وأي مثال لاشتداد أزمة الحرب أوقع في النفس من هذا المثال. هنالك زفس على قمة الطور مُتَشِحًا بعدة الاقتدار مُسْتَلِمًا بشكة النصار تتعالى طوع أمره الغيوم المكفهرّة وتتوالى الصواعق المزمهرة فيستر مركبته منها بما شاء وينفذ باقيها إنذارًا بالويل والبلاء ويرعد ويرق فيبدد قومًا ويشدد آخرين فينجو من فسخ له في الأجل المقدور. وهنا هرم وقور وفتى جسور، يتحجب الأول لحول الأقدار، ولا يتهيب الثاني لهول الأخطار، يتدرع بالبأس ولو ريع كل الناس، وزُلزِلَت الأرض زلزالها، تنقض الصاعقة بين قدميه، وتزئثر لها جلود الإنسان والحيوان، وهو كفلة الحديد لا يحيد ولا يميل، إلى أن أدركه إرشاد ذلك الشيخ ببلاغته فنفذت فيه ولا نفوذ الآيات البيئات، وارعوى لها ولا ارعواءه لزراعة الأرضين وتفتّح السموات.

(٢٥) هذه أسماء جياذ هكطور ومعناها على ترتيها: الكُمية والطيار (سريع الخطى) والأشقر والساطع. ولا عجب إذا خاطبها

هوميروس؛ فالشاعر يخاطب الجبال والوهاد والحي والجماد، وأي موقع أحق بهذا الخطاب من بطل مغوار ثمل بخمرة الانتصار، وقد شام برق الأمل بالضربة القاضية على عدوه بعد أن عيل وقومه صبرًا وكادوا يهلكون؟ بل أي مقام أولى من هذا المقام بأدكاره سابق عنايته وتحوطه بها ادخارًا لها لمثل هذا اليوم. وما أحلى تلك الذكرى لديه وهي ملازمة لذكرى أنذروماخ وبها يفدي كما رأيت أمه وأباه وإخوته وذوي قرياه والأرض ومن عليها، وكم من مثل لنا بشعراء جاهليتنا يخاطبون خيلهم وتخاطبهم كقول عنترة:

فقلت لمُهرى والقنا يقرع القنا تَنَبَّهْ وكن مستيقظاً غير ناعسٍ
فجاوبني مُهرى الكريمُ وقال لي أنا من جِياد الخيل كن أنت فارسي

(٢٦) البُرُّ: الحنطة، ينبئنا هذا بما كان للخيـل عندهم من المنزلة حتى تُعد بنات الملوك ونساؤهم علفها بأيديهن وبما كان من تحبب الزوجات المخلصات إلى بعولتهن.

(٢٧) هي اللأمة التي غنمها من غلوكوس في النشيد السادس وكانت ذهبًا.

(٢٨) كان الآلهة الموالون للإغريق كثيرين ذوي صولة وبأس، ومع هذا فلم يكن منهم من يجسر على التصدر بطلب المدد لهم إلا

هيرا؛ ذلك لأنها زوجة زفس ودالة الزوجة فوق كل دالة، ولا سيما إذا كانت كما هيا لنا الشاعر هيرا جريئة الجنان ذرية اللسان.

(٢٩) أليقا: مدينة عظيمة بناها يون من أجداد اليونان في بلاد الإخاء وخربت بزلزلة. وإيغس: بليدة كانت على مقربة منها وكان في كل منهما معبد لفوسيد وتمثال عظيم.

(٣٠) المراد برفع هذا البُرد الأحمر بيد زعيم القوم استلفات الأنظار لأمر جلل. وشيوخ باديتنا لا يزالون يتشحون بهذا البرد الأحمر ولعله بقية توارثوها من عهد الجاهلية وهو كما لا يخفى شعار الملك والسلطان.

(٣١) الخلية: السفينة العظيمة، والأشرع: جمعة شرعة وهي السفينة أيضاً، صرح الشاعر بالمراد من إرساء سفن إياس وآخيل على طرفي الأسطول بقوله: شدة وتبسلاً لأنهما أشد القوم بأساً؛ فكان من الحكمة أن يكونا في أخرج المواقف. وأما إرساء سفن أوديس في منتصف الأسطول فالحكمة فيه كما قال الشراح: أنه أدهى القوم وأخدعهم والحرب خدعة، فلزم أن يتوسط ليكون أقرب الجميع إلى الجميع ليسهل عليه بث الآراء والأخذ بالحنكة والدهاء.

(٣٢) لمنوس أو لمني: جزيرة في الأرخيل الرومي تجمّع بها جيش اليونان وهم قاصدون بلاد الطرواد، وقد اشتهرت بمرفئها، حتى إن اسمها يفيد معنى المرفأ. وليؤذن لنا أن نبدي ملاحظة وإن انحرفنا

بالبحث قليلاً: فالمينا للمرفأ في العربية واللومان والليمان للسجن ألفاظ
مُعَرَّبَةٌ عن كلمة لمني اليونانية، فموضع الأخذ ظاهر لفظاً ومعنى، وليس
في مواد العربية ما يستخرج منه هذا المعنى. وأما اللومان فالسبب في
استخراج اسمه من كلمة بمعنى المرفأ: أنهم كانوا يحجرون على الأسرى
وبعض المسجونين في بعض الفرض أي في بعض المواني، فقولهم أُرْسِلَ
فلان إلى المينا أو اللومان كقولهم أُرْسِلَ إلى سجن الثغر. ولقد بحثت
في كتب اللغة فلم أر من وجّه هذا التوجيه إلا أن «محيط المحيط» نبّه
إلى تعريب اللومان ولكنه لم ينبه إلى تعريب المينا.



آريس إله الحرب.

(٣٣) من كلام أحد الخلفاء العباسيين:

أليس من العجائب أن مثلي يرى ما عَزَّ ممتنعاً عليه
وتؤخذ باسمه الدنيا جميعاً وما من ذاك شيء في يديه

(٣٤) الأرادم: المَلَاخُونَ.

(٣٥) كان النسر أصدق الطيور في طيرتهم. يفسره الشراح هنا بهكطور، والظبي بالردة أو الجيش المهزوم، وسقوطه قرب هيكل زفس إشارة إلى أن زفس يقيهم شر البلاء، وذو الوحي أو رب الوحي: لقب من ألقاب زفس لأنه في معتقدهم علام الغيوب لا يعلم منها سائر الآلهة والأنبياء إلا بإذنه، كانت الطيرة عندهم أشبه شيء بها عند العرب، وستأتي على البيان في النشيد الثاني عشر عند ذكر السانح والبارح. ولقد وهم من ظن أنها عقيدة عفت آثارها ولم يبلغ عصرنا إلا أخبارها، فهي لا تزال عند قبائل الطغة في الهند ولعل منشأها من تلك البلاد.

(٣٦) لما كان ذيويمد آخر المُولَّيْن لم يكن يجدر به إلا أن يكون أول المُقْبِلِينَ. وهنا انقلبت حالة الإغريق من الإدبار والدفاع إلى الهجوم والإيقاع.

(٣٧) كان طففير كما تقدم أخا إياس بن تلامون لأبيه وكان أرمى الإغريق كما كان فارس أرمى الطرواد، ولقد رأى الشاعر ويا نعم ما رأى أن يُفَرِّدَ لنا هنا نبذة في رمي النبال تنويعاً لمجرى القتال، فأبرز لنا طففير

غير مدرّع كسائر الجند يتوارى تحت مجن أخيه. ولقد ذهب أفستاثيوس وبعض الشراح إلى أنه برز كذلك لئلا تربكه اللأمة، على أنه يُستفاد من كلام هوميروس نفسه في النشيد الثاني أن الرماة لم يكونوا يستلثمون إلا إذا اضطروا للقتال في الطلائع كفاريس وإلا فهم في الغالب في الساقة بعيدين عن مشتجر الرماح وقرع السلاح فلا حاجة بهم إلى حمل ثقيل هم عنه في غنى.

(٣٨) لم يكن شاعرنا — وهو أعلم الناس بعواطف الناس — ليجهل أن تلاوة قصص الحروب تقسي القلوب؛ فلهذا تراه يلطفها حيناً بعد حين بكناية أو رواية أو تشبيه رقيق يهيج العاطفة ويلين تلك الخشونة، وحسبك مثلاً هذا التشبيه الذي يسحق تلك الصلابة ويرتفع بالفكرة من حضيض المشقة والمخاوف إلى سماء الرقة والعواطف. وإنه ليعجزك من وجه آخر أن تحكم أالفخر لطفقير بسداد مرماه وكيد أعدائه أم لأياس الذي أسبل عليه ذلك الستر المنيع، كانت العرب تتراعى على هذا النمط في بعض الأحوال فيتسر فارس لفارس، فقد جاء في أخبارهم أنه لما كانت الواقعة بين توبة بن الحمير وثور بن أبي سمعان كان عبد الله أخو توبة يتسر له كما كان إياس يتسر لطفقير. (أغاني ج ١٠ : ٧٠).

(٣٩) لقد نطق أغاممنون بما يجدر بكبار القواد، ولم يُغض من شأن طفقير بذكر نسبه على مسمعه؛ لأنه لم يكن يعيهم أن يكونوا أبناء السبايا، بل ربما كان في الأمر زيادة فخر ببأس آبائهم، إذ لم يكن يسي

السبايا إلا كل قرم باسل، وأم طفقير طروادية من خيرة الطرواد وهي ابنة لومذون وأخت فريام، سبها هرقل وكانت سهم تلامون جزاء بسالته وإبلائه، فطفقير إذن يوناني الأب طروادي الأم.

علمت مما تقدم من خطاب أغاممنون لخريس الكاهن في النشيد الأول أن السبايا مهما شُرُفْنَ أصلاً وَعَلَوْنَ قدرًا كُنَّ في أحوال كثيرة بمنزلة الإماء ولكن هذا الغض من قدرهن لم يكن ليحط من شأن ولدهنَّ بخلاف أبناء الإماء عند العرب؛ فإنهم إنما كانوا بمنزلة العبيد الأرقاء كأمهاتهم إلا إذا أنجبوا وأتوا أمرًا عظيمًا. وهذا عنترة بن شداد فارس العرب القائل عن نفسه:

أنا العبد الذي خبرت عنه

قضى زمن صباه وهو عبد أبيه لا ابنه ولم يحسبه في عداد أبنائه بعد إتيانه المعجزات حتى اضطر إلى استنفاره في يوم شدة فقال له كلمته المشهورة: «كُرِّ وأنت حر». راجع ما قلناه بهذا الصدد (ن ١) حيث أبنَّا ما كان للإسلام من الفضل في رفع شأن السبايا. قال مسكين الدارمي:

وكائن ترى فينا من ابن سبية إذا التقت الخيلان يطعنها شزراً
فما زادها فينا السباء مذلةً ولا خبزت خبزاً ولا طبخت قدرًا
ولكن خلطناها بخير نساءنا فجاءت بهم بيضاً غضارفة زهرا

(٤٠) المنصة قطعة مما كان يتهدى به سيأتي وصفها في
النشيد التاسع.

(٤١) الطروح: القوس الشديدة القذف البعيدة المرمى.

(٤٢) شهم سرية: أي سيد قومه.

(٤٣) الكناية والتشبيه بالكلب للشئمة والاحتقار مما ورد غير
مرة في الإلياذة. وإن ثقلت هذه اللفظة على آذان بعض النقلة فليعلموا
أن الشتم والتحقير لا يكونان باللفظ الرقيق والكلام الرشيق. قال
الأخطل:

أيشتمني ابن الكلب أن فاض دارم عليه ورادي صخرة ما يرؤمها

(٤٤) السرية السهم والنصل.

(٤٥) بمغفره: أي بخوذته، حسينا أن نستلفت نظر القارئ إلى
هذا التشبيه فهو يشرح عن نفسه ما لا يناله قلم الشراح.

(٤٦) صرّح: أخطأ؛ أي إن أفلون حوّل السهم عن هكطور.

(٤٧) لا يظل القارئ يعجب لإخطاء طففير هكطور مراراً متوالية
مع كل رمايته إلى أن يبلغ هذا البيت؛ فيعلم أن الواقي شر تلك السهام
إنما كان أفلون رب السهام.

(٤٨) كان قبريون ابناً طبيعياً لفريام فهو إذن أخو هكطور لأبيه.

(٤٩) اللحييف المقذذ: السهم الحاد وأوقفه أي وضعه بالفوق وهو فرض القوس.

(٥٠) المريش: السهم الملتصق عليه الريش ليحمله في الهواء.

(٥١) أي أصابه الحجر في عِرْقِ عنقه المتصل بالصدر كما جاء في البيت السابق.

(٥٢) يككب: يصرع. والأغصف: الكلب الكبير، إن هذا التشبيه مع ما يظهر فيه من أثره هوميروس لقومه بديع في نفسه يمثل تلك الهزيمة وذلك التعقب أصدق تمثيل يناله التصور، ولا سيما إذا عرف القارئ أنهم كانوا يُضَرُّونَ الكلاب لذلك العهد كما يضربونها اليوم في بوادي أواسط آسيا وكردستان والعجم وبعض بادية العرب، فتتقض على وحوش الفلوات ولا انقضاض الليوث. فإذا دُعرت السباع للنباح والصياح ولَّتْ مدبرة ولكن إدار الباسل الحذر، فتلتوي حيناً بعد حين محدقة بالفريسة والرعاة والحماة. وما أحسن ما قال بهذا المعنى أوس بن حجر وهو يصف الثور الوحشي والكلاب تتبعه:

ففاتهنَّ وأزمعن اللحاق به كأنهنَّ بجنييه الزنابيرُ

حتى إذا قلت نالته أوائلها ولو يشاء لنجته المثابيرُ

كرَّ عليها ولم يفشل يمارسها كأنه بتواليهنَّ مسرورُ

يشلها بذليق حده سلبٌ كأنه حين يعلوهنَّ موتورُ

ثم استمرَّ بباري ظله جزلاً كأنه مرزبان فاز مجبورُ

وعلى هذا فلا يدري القارئ أيكبر اقتحام الطرود أم انهزام الإغريق وهذه خطة جرى عليها الشاعر في أكثر إنشاده، فهو مع إعظامه بسالة الطرود فميله إلى الإغريق بيّن حتى في وصف انكسارهم واندحارهم. ولقد لامه بعض الشراح على هذا الميل ولا أرى اللوم سديداً لأنه لما كان الإغريق أوفر عدداً وأكمل عدداً، وكان لا بد لتقهقرهم من باعث قوي كان لا بد من التماس عذر لهم وإلا لظهروا بمظهر الأنكاس الجبناء.

(٥٣) الدانيون: الإغريق على ما تقدم.

(٥٤) لما يئست هيرا من معاضدة فوسيد اثنت إلى أثينا ولم تشرع أولاً باستنفار أثينا لأنها كانت على ثقة من انحيازها إلى الإغريق.

(٥٥) تحرير هذه الأحداث أن زفس كان أقسم بتولية مُلك أرغوس وميكينيا لأول مولود يُولد في زمن معلوم. وكان رامياً بضميره إلى هرقل ووالدته إذ ذاك في شهرها التاسع. فاحتالت عليه هيرا واستوثقت منه بقَسَمٍ أنه ليرنَّ يمينه ثم أولدت والدة أفرست للشهر السابع من حملها قبل مولد هرقل فاضطر زفس إلى توليته الملك وكان هرقل من جملة أتباعه. فخشي أفرست صولة هرقل وألقاه باثنتي عشرة تهلكة ففاز هرقل ونجا منهم جميعاً. تلك خرافة سابقة لعهد هوميروس ذكرها هنا

وفي النشيد التاسع عشر على أنه لم يذكر من الاثنتي عشرة مكيدة التي كِيدَتْ لهرقل إلا انحداره إلى الجحيم لاقتياد كلب أذيس. وكاد حينئذٍ يهلك لو لم تبادر أثينا إلى إغاثته بأمر زفس.

(٥٦) تقبيل الركبتين للاستعطاف لا يزال معمولاً به في بادية العرب وبعض البلاد الشرقية، مَرَّ بك أن ثيتيس أم آخيل كانت تود أن تنقل الوطأة على الإغريق إعلاءً لشأن ابنها وأخذاً بثأره منهم فإذا رجع إليهم بعد ذلك ونُكبت الأعداء كان كل الفضل فضله.

(٥٧) السرية: الكتيبة من الجيش، والترائك: جميع التريكة وهي الخوذة، وهياج الترائك: صفة من صفات هكطور لأنه كان إذا اشتد حرك رأسه يمنةً ويسرةً فتتراوح عذبات خوذه.

(٥٨) لا سبيل إلى توجيه خطاب أثينا وكله عتوّ وعصيان إلا أن يقال إنها إنما تكلمت بسائقة الهمة لا بسائقة الحكمة لأنها تمثل الحكمة والبأس معاً. أو أن يقال أنها انخدعت لكلام هيرا وقد يُخدع الحكيم.

(٥٩) لقد وردت معاني هذه الأبيات في النشيد الخامس.

(٦٠) لا بدع أن يشتد سخط زفس على أثينا دون هيرا، فتلک ربة الحكمة ويُنكر على الحكمة أن تأتي امرأةً إذًا. وهذه زوجة مَثَلَهَا الشاعر كثيرة الدلّ قليلة الانقياد وقد ألف زفس تمرداً فما هو بالمتأثر

لها ذلك التأثير. إذ يسخطك من العاقل ما لا يسخطك من الجاهل وإنما تعظم عليك فعلة العظيم.

(٦١) إيريس كما رأينا رسالة الآلهة عمومًا وزفس خصوصًا فطارت بأمره إلى الأولمب لأنه كان لا يزال على إيذا.

(٦٢) تجاوزت إيريس حدها في إبلاغ الرسالة إذ زادت عليها كلامًا لم يفقه به زفس. فكأنها ملكتها فرصة للتشفي من أثينا لحزازة في صدرها أو لعل كل هذا البيت دخيل وهو في الأصل بيتان.

(٦٣) لم تكن طاعة هيرا عن رغبة واختيار بل عن رهبة واضطرار، وما وقفت عند حد الخضوع بل أعلنت ما لا تُكِنُّ. وذلك شأن المخاتل الذي لا يسير في سبيل سويٍّ. وهي على ما ترى باتت لا تبالي بأوليائها الإغريق والحقيقة أنها إنما قالت ما قالت مداهنةً ورياءً يشهد عليها قولها وفعلها في ما يلي. أما أثينا فكفى بصمتها دليلًا على سمو عاطفتها فهي تأبى أن تبوح بما لا تفكر وتخشى أن تناضل حيث لا يجدي النضال.

(٦٤) الساع أو الساعات كناية عن الفصول والأوقات كما مر في النشيد الخامس وقد جَسَمَهُنَّ الشاعر كجاري عاداته.

(٦٥) هذا نفس الكلام الذي نطقت به أثينا في مبتدأ هذا النشيد، وقد التمس بعض الشراح للشاعر أعذارًا لا أراها بموقع سداد.

ولا أحوال العذر معقولاً إلا أن تكون هيرا أرادت التستر بكلام أثينا علماً
بمكانتها في نفس زفس وإلقاءً لتبعة التمرد عليها فأرادت الإيهام بأنها
تابعة غير متبوعة. أما زفس فلم ينخدع وأجابها بغير جوابه لأثينا.

(٦٦) المخافق: السيوف.

(٦٧) ينبئنا الشاعر هنا بما سيكون، ولا أوقع من أن يكون هذا
النبأ من لدن زفس. وقد اختلفت آراء الشراح في ما أشبه هذه الأنباء.
فمن مُدّع أنها تذهب بجانب من رونق القصة لعلم القارئ بها. ومن قائل
بالعكس أنها تزيد طلاوة السياق بما تزيد من تشويق المطالع إلى الإتيان
تفصيلاً على ما أشير إليه بالإيجاز.

(٦٨) قرونس هو زحل، خلعه ابنه زفس وأنفذه إلى أعماق
الطرطار أو الجحيم يقيم مع الطيطان أو الأبالسة. ومنهم يافت بن
أورانوس وأبو الأطلس. ومنهم هيفريون أبو الشمس والقمر والفجر ولم
تظهر كلمة هيفريون في التعريب لأنها في الأصل تفيد معنيين: فإما أن
تُعتَبَر الكلمة بلفظها علماً فيقال: الشمس ابن هيفريون (على تذكير
الشمس) وإما أن تُعتَبَر بمعناها فيقال: الشمس الساترة فوقنا وقد اخترنا
المفاد الثاني.

(٦٩) مظهر: منصور.

(٧٠) كل بلدة ذات معابد شهيرة كانت تُدعى قدساً ومقدسة.

(٧١) كانوا يعتقدون أن حصون إليون من أبنية الآلهة كما مر.

(٧٢) السنّور: الدروع. قال لبيد العامري:

وجاءوا به في هودج ووراءه كئائب خضر في نسيج السنّور

(٧٣) دعاء لنفسه بالخلود مع دوام الشباب.

(٧٤) تمنى أن يكون واثقاً ببلوغه مجد أثينا وسمو الشمس ثقته

بما سينال من النصر المبين، وهذا منتهى التحمس والادعاء، يُشعر من خطاب هكطور بالفرق بين حكم الإغريق وحكم الطرواد فهنا الأمرة المطلقة بكل عواملها وهناك الشورى بكل فضائلها وإن كان الأمر للملوك. ثم إن هكطور مع كل حماسه وحسن سياسته لا يذهل لحظة عن يقينه وعبادته فهو الجندي الخالص العقيدة يوقن أن النصر من عنده ربه يؤتيه من يشاء.

(٧٥) في بعض نسخ الأصل أربعة أبيات هنا رأينا أن نُغفلها

اتباعاً لمن أغفلها ومفادها أنهم ضحوا بالضحايا المئين فلم تقع لدى الآلهة موقع القبول لما استقر في نفوسهم من كراهة إليون وملكها وملته. ولا نظنها إلا دخيلة في النسخ التي أثبتتها لأن اندحار الإغريق في ما يلي يدل على أنها ليست في موضعها.



قرونس — زحل.

(٧٦) يستفاد من عدد المقابس أنهم كانوا خمسين ألفاً ويدخل حلفاؤهم في هذا الإحصاء؛ لأن أرصاد اليونان طرقت في الليل معسكرًا واحدًا عسكر فيه الطرواد وحلفاؤهم. فجيشهم إذن دون نصف الإغريق عددًا.

(٧٧) اتفق الشراح على الإعجاب بهذا التشبيه حتى قال بعضهم: إنه أرق ما جادت به قريحة شاعر في وصف بهاء الليل. إلا أن بعضهم اعترض أن القمر وهو بدرٌ لا تنجلي الكواكب حوله للنظر؛ ولهذا ذهبوا إلى أن الكلمة في الأصل لا تفيد البدر بل القمر على الإطلاق. ولو فطن الشاعر لهذا الاعتراض أو أراد أن يعبأ به لما زاد وصف الساطع على القمر فَسَيَّانٍ إذن عنده أن يكون بدرًا أو لا يكون. وعلى هذا فإن في التعبير تسامحًا قد يشفع له سمو التصور وبلاغة الوصف.

قال البحرى وكأنه أراد معارضة هوميروس:

وحسن دراريّ الكواكب أن تُرى طوالع في داجٍ من الليل غيهبٍ

ومثله قول جرير بهذا المعنى:

سرى نحوهم ليلٌ كأن نجومه قناديل فيهن الذبال المُقْتَلُ

وقول مسكين الدارمي:

وأقطع الخرق بالخرقاء لاهيةً إذا الكواكب كانت في السما سُرجاً

ومثله قول امرئ القيس:

نظرت إليهم والنجوم كأنها مصايح رهبان تُشَبُّ لِقْفَالِ

النشيد التاسع إرسال الوفد لاسترضاء أخيل

مُجْمَلُهُ

وهنت عزائم اليونان بعد اندحارهم في اليوم السابق ففاوض
أغاممنون الزعماء وارتأى العودة إلى الأوطان، فعارضه ذيوميذ ثم نسطور
فأقاموا الحرس وأولم أغاممنون للزعماء. فقام نسطور فيهم خطيباً يحثهم
على استرضاء أخيل بالاعتذار والهدايا، فأذعن أغاممنون لكلام نسطور
وأتى على تعداد ما يعد من التحف لآخيل على شريطة أن يرعوي ويلين.
فأرسلوا وفداً إلى أخيل يرأسه أوديس فحَقُّوا إليه وألفوه ينشد على نغم
قيثارته. فاحتفى بهم وأوَلَّم لهم، ولما فرغوا من الطعام خطب أوديس في
مجلس أخيل فذكره بوصايا أبيه وأطمعه بوعود أغاممنون واستحلفه أن
يرفق بقومه الإغريق وإن كان موغر الصدر على أغاممنون. فما كان من
آخيل إلا أن استشاط حنقاً وأبى الإقدام على الحرب لمعاوضة الإغريق.
فانبرى أستاذه فينكس وأعاد عليه ذكر صباه وما كان له من العناية به
حتى أصبح بمثابة ابن له، وأطال من الاسترضاء والاستصغار والالتماس
والاعتذار وتلاه آياس الأكبر فلم يغنهم كل ذلك من شيء بل ظل أخيل
مصرّاً على عناده. فعادت الرسل واستقص أغاممنون منهم الخبر فأنبئوه

بما كان، فانتصب ذيوميد وكلهمم كلامًا هاج حميتهم فصرفوا النظر عن
آخيل ونزعوا إلى الراحة والهجوع.

يستغرق هذا النشيد والنشيد التالي ليلة واحدة ومشهد وقائعه
على جرف البحر عند مرسى السفن.

النشيد التاسع ١

و فرط الأسى والبث هد الأخايا	تَمَنَّعَ فِي الطرود يخفّر جندهم
يلازمها داعي الفرار مباريا ٢	يُسَاقُ لَهُمْ مِنْ مَوْقِفِ الْخَلْدِ رَعْدَةٌ
إذا لقي البحر الرياح السوافيا	وَتَخْفُقُ أَحْشَاهُمْ كَمَا اللَّجُّ خَافِقُ
معًا هبّا فيه هبّوا مفاجيا ٣	وَمِنْ بَطْنِ إِثْرَاقِ دَبُورٍ وَشَمَالٍ
وتقذفها حتى تجوز الشواطيا ٤	فَتَرْكُمُ دُحُمُ الْمَوْجِ مِنْ فَوْقِ يَمِّهِ
يطوف بهم يدعو الدعاة تواليا	وَأَتْرِيزُ وَالتَّبْرِيحُ يَنْتَابُ لُبُّهُ
بأسمائهم للصّيد واجتاز عاديّا	وَيَأْمُرُ بِالشُّورَى بِأَنْ يَهْمَسُوا بِهَا
جلوسًا وصمت الحزن برّح باديّا ٥	وَيَبْلُغُ صَدْرُ الْجَنْدِ حَتَّى إِذَا بَدَوْا
تدفّق من عينيه كالسيل هاميا	عَلَى قَدَمَيْهِ قَامَ وَالدَّمْعُ هَامِرٌ
وفي زفرات الحزن صاح مناديّا	كَشَوْبُوبِ مَاءٍ شَقَّ مِنْ قَلْبِ صَخْرَةٍ
رمانى زفسن في حبال آتيا	«أَحْبَايِ وَالْأَقْيَالِ وَالصِّيدِ خَلْتُنِي
بأنّا بـإليون نذك المراميا	وَقَدْ كَانَ وَالْأَنْبِيَاءُ بِرَأْسِهِ
فمان وما أغراه فيما رمانيا	وَلَا نَنْتَشِي لِلْأَهْلِ إِلَّا بِسَبِّهَا

فقدتُ صناديد الرجال وقد قضى
نعم ذاك أمرٌ شاءه الأمر الذي
فهَيُّوا أطيعوني الهزيمة مغنم
وأصدقكم وعدًا يقينًا فلن نرى
أصاحوا وطال الصمت فوق وجومهم
«شططت أَّتْرِيدٌ وأول منكرٍ
فذا حق سُورانا وقبلُ بهمتي
بذا شهد المردان والشيب جملةً
فلم تئوت بأس الكفِّ والبأس أولُ
أأحمق هل خلت الأراغس أوهنوا
وذي السفن اللائي عزمت بهنَّ من
وسائرنَا لن نبرحنَّ بأرضنا
وإن آثرَ الكلُّ انهزامًا وعودة
نقاتلهم حتى نفوزَ بدكها
فضجت له الإغريق ضجة مُطَرَّبٍ
«سموتَ ذيوميذٌ ببأسك مثلما
فما لك في الإغريق لومةٌ لائم
فأنت فتى لو قيس عمرك لم يكن

عليَّ إلى أرغوس أرجعُ خاسيا
يُقَوِّضُ أركان البلاد العواتيا
بعودتنا إني أرى زفسَ قاضيا
معاقِلَ إليونٍ رُكَّامًا فوانيا» ٦
فصاح ذيوميذٌ أخو البأس عاليا
لقولك ذا لا تَحْنَقَنَّ أَرَانِيا
عَشِثَ وقد أعلنتَ عزميَ واهيا
على أن زفسًا قسَّم الرزق وافيا
وأوتيت فخر الملك والعزَّ ثانيا ٧
فإن رمت عودًا دونك السبل هاهيا
مَكِينًا تراها بالجدود رواسيا ٨
إلى أن نرى هذي الحصون بواديا
فإني وَأُسْتِينِيلُ نكفي الأعدايا
وينصرني ربُّ لحربٍ دعانيا ٩
وقام بهم نسطور يخطب تاليا
برأيك بالأتراب قد كنت ساميا ١٠
ولكنَّ فصل القول ما زال خافيا
لأحدث أنبائي الصغار مساويا

على أنك اخترت الحصافة منهجاً
واني وحسي الشيبُ دونك مفخرًا
ولن ألتقي بالقوم حتى زعيمهم
فلا شرع لا مأوى ولا أسرة لمن
فقد خيم الليل البهيمُ فهَيَّؤوا
ويخفّر من فتياننا حرسٌ على
لك الأمر أتريدُ أقمهم وأولمّن
فخيئك فاضت بالرحيق تسوقه
وعندك ما تبغي لخيرٍ وليمة
وعند التام القوم تجمع رأيهم
فما أحوج الإغريق للرأي والعدى
فَلَيْلَتْنَا هذي وَوَا حَظٌّ من رأى
أصاحوا وَلَبَّؤا ثم هَبَّتْ خفارةٌ
يقودهم من نخبة الجند سبعة
وَيَلْمِينُ عَسَقَالَافُ مِنْ وَلَدِ آرسٍ
وَلَيْقُومُ قُرْيُونٍ وكلُّ مُؤَمَّرٍ
فحلوا انتظامًا بين سور وخذق
وأتريدُ وافى بالشيخ لخيّمه
فلما بأيديهم قَصَّوْا من أمامهم

وصيد السرى خاطبتَ بالحق عانيا
سيجمع أطراف الحديث كلاميا
أخي المجد أتريدُ لقولي لاجيا
بِفَتْتِيهِ في القوم يُفسد عاثيا ١١
طعامكم وَلَنُحْكِمَنَّ التّصافيا
حفير خططناه لدى السور صاحيا
لشبيك منهم تأخذ الرأي شافيا
سفائن إثراقا بها جاء ضافيا
وعدةٌ غلمان تناهت تناهيا
وتتبع ما قد كان بالقصد وافيا
أُوارُهُم أضحى لدى الفلك واريّا
سَنَهْلُكُ فيها أو ننالُ الأمانيا « ١٢
بشكّيتها منهم تجدُ المساعيا
تَريسِيمُ نسطورَ الملقب راعيا
وَمُرْمُونُ ذيفيرُ كذاك أَفَارِيّا
على مئة منهم تَقُلُّ العواليا
وَأَذَكُوا لإعداد الطعام المذاكيا ١٣
لمأذبة فاضت طعامًا مُوافيا
وكلُّ الظما والجوع أَجْلِي نائيا

بدا من بهم فاق اختباراً وحكمةً
 «أَتَرِيدُ مولى الصيد أول من جرى
 توليت من زفس عصا الملك واليّا
 لك الرأي والإصغاء والأمر تنتقي
 وتنفذ قولاً قاله أئنا إذا
 فرأيتني أرايتني لست تؤتي نظيره
 أرددته منذ استلبت أخيلنا
 تولاك كيد النفس كبراً فلم تُصخّ
 وقمت وأغلظت المقال لسيد
 ومهما يكن من بُعدٍ منّا فلنجد
 نلين له قولاً به نستلينه
 فقال أغاممنون: «أخطأت إنما
 فإن فتى زفس اصطفاه وزادنا
 عثا بي داعي الشر حتى أهنته
 سأتحفه غر الهدايا وكلكم
 مناضد سبعا لم تر النار جُددًا
 ومن ذهب يغلو شواقل عشرة
 فيحرزها اثني عشر أجرد سلها

نبيلهم نسطور يخطب باديّا
 وآخر من يجري إليه مقاليا ١٤
 شعوباً سمت عدداً ونلت المعاليا ١٥
 بآرائنا ما شئت تأتيه راضيا
 مضى عن فؤادٍ ظل بالخير ساعيا
 وما هو في ذا الحين جالٍ باليا
 بريسا على رغم الأراغس باغيا
 لحكمي وقول فيه جئتُك ناهيا
 سما شرفاً حتى بني الخلد راقيا
 سبيلاً لنستصفيه يأت مصافيا
 ونثقفه من الصلات السوانيا ١٦
 أصبت بتشريبي ولست بمنكر
 وبالألمناهُ يُقاسُ بعسكر
 وعليّ إن أسْتَغْفِر الذنب يغفر
 شهود على قولي بحافل محضري
 وعشرين طساً ساطعاتٍ لمنظر ١٧
 وخير جياذ تُحرزُ السبق ضمر ١٨
 حبتني كُنوزاً في السباق المُكرّر ١٩

كنوزًا إذا ما نالها أيُّما امرئٍ
وسبع غوانٍ فُفْنٌ حسنًا وصنعَةً
وقد كُنَّ لي سهمًا وذلك عندما
كذاك بَرِيَسًا مُفْسِمًا ومُثَقَّلًا
فهذي صِلاتي اليوم يُخْرِزُهَا وإن
نضارًا وصفراءً يُؤْتِ مَلءَ سفينةٍ
بعشرين حُسْنًا فُفْنٌ غير هِلَانَةٍ
وإما رجعا للخصيبة أرغسٍ
يُجَلُّ كأورستَ الحبيبِ الذي نشا
ثلاثٌ بناتي هنَ أَخْرِيَسَ ثِمَّةٌ
ولست بباغٍ مهرها وأزيدها
فينزلها في دار فيلا وفوق ذا
فريس النقى إيرا الزهور وإنِّيها
وإيفيَةُ الحسناء فيداسُ كرمَةٍ
يُجَلُّ بأهليها كَرَبٌ حُطُورَةٌ
غنيمةً وأبقارًا تناهى عديدها
فكلُّ مَغِيْظٍ غير آذيسٍ يرتضي
كفى حنقًا مذ كنتُ أعظمَ رِفْعَةٍ
فقال له نسطور: «يا سيد الوري

ترفع عن شكوى شجِيَّةٍ مُعْسِرٍ
من اللاءِ في لسبوس نال بأبترٍ ٢٠
تولى عليها بالطَّعان المَدَمَر
بأني إليها القربَ لم أتصور
نل ذلكَ إليون بحكم مُقَدَّرٍ
وعند اقتسام السَّبي بالغيد يظفر
له بانتقاها خيرُهُ المتخير
يكوننَّ صِهْرِي بالمقام المُوقَّرِ
بأرغد عيشٍ في يسار مُوقَّرٍ ٢١
ولؤذيقُ أَفْيَاناسُ من يرضَ يَخْتَرِ
جدًا لم يجد فيه أبٌ منذ أدهر ٢٢
مدائن سبع فوق بَرٍّ معمَر
وقَرْدَمِلا أنثا الفجاج المنوَّرِ ٢٣
إزاء فلوسَ الكلِّ في جُرْفٍ أَبْجُرِ
ويؤتونهُ جَمَّ الخراج المُقَرَّرِ
فتلك هِباتي فَلَيْلِنَ ثم يحضر
لذاك قلاه الخلقُ عن شرٍ مخبرٍ ٢٤
وأكثرَ أيامًا لِيَدْعَنَ ويُقْصِرِ ٢٥
أجل جُدَّتَ فيما لا يهان ويُستَقَلُّ

فهيّ بنا ندْعُ الدعاة ليذهبوا
أنا أتقّاهم ففينكس قائد
كذا المُجْتَبَى أودس وفيجان هُدُيسُ
وبالصمت فأمرُ نَسْتَعِثْ زفسِ علّه
فصب على الأيدي الفُيُوجُ قراخهم
يُمَزُونُ منها طافحاتٍ وبعد ذا
ولمّا أراقوها على الأرض قرّبة
عدا رسلُهم من خيمة الملك عاجلاً
وحثّهم فردّاً ففردّاً وسيّماً
فسار رسولاً القوم فيمن تلاهما
محيطُ البرايا يستغيثان علّه
ولما إلى خيم المَرَامِدِ بُلّغا
بقشارة غناء قد شاق صُنْعُها
بقوس لجّين طوّقتْ وأنبِلَها
يقابله فطرُقُلُ بالصمت ريشما
إذا بأذيس يرئس الوفد داخل
وفي يده القيشارة انساب ناهضاً
فصافحهم قال: «السلام ومرحباً

لخيمة آخيل بن فيلا بلا مهل
لهم معه يمضي أياسُ الفتى البطل
وأورِبطْ وَلَنُغْسِلَنَّ على عجل ٢٦
يرق» فضجّ الجمع واستصوب العمل
وفيانهم بالخمير في أكؤس تُقلّ
يديرونها دورّاً بكلهم اتصل ٢٧
وفوق مرام النفس رشفُهم اكتمل
فقَلَّبَ نسطور بهم محديق المُقلّ
أذيسَ ليسترضوا أخيل الذي اعتزل
على جدّ بحرٍ عَجُّ أمواجه اقتتل ٢٨
يُبَدِّدُ حقداً بابين آياك قد نزل ٢٩
إذا بأخيل يُطْرِبُ النفس عن ملن
يُنْعَمُ في ذكر الجبابرة الأول
من الكسب مُذ في ذكّ إيتونة استقل
ملياً تطيب النفس من ذلك الرجل ٣٠
ففي دَهَشٍ من فوق مجلسه انتقل
كذلك فطرُقُلُ على القدم امثّل
فلا شك وافيتم لأمر لكم جَلَلْ

ومهما يكن من نفرتي فَلَأَنْتُمْ
وأجلسهم من فوق فُرُشٍ تَدَبَّجَتْ
وقال لِفَطْرُقْلٍ: «عليك إذن لنا
بكأس لكلٍّ من قراح مَلِيَّةٍ
فبادر فَطْرُقْلٍ وآخيلُ عامدٌ
ومد عليه صُلْبُ كَبِشٍ وَسَخْلَةٍ
وَأَفْطُومْدُونٌ مِمْسَكٌ وهو خازل
وَفَطْرُقْلٌ ذو الهمَّاتِ يضرَمُ وقده
فألقي على الجمرِ السفايد تحتها
ولما استتم النضجُ مد سِماطَه
لكل من الأضيافِ قَدَمَ فَفْعَةٍ
تُجَاهَ أَذْيَسٍ جالسًا لرفيقه
فللنار ألقى خيرَ لحمٍ ضحيةً
ولما انتهوا آياسُ أوماً داعياً
ففي كأسه صَبَّ المَدَامُ مُرَدِّدًا
«سَلامٌ آخيلُ لا بِحاجةٍ مطعمٍ
ففي خَيْمٍ أَتْرِبِدٍ يفيضُ شَهِيئُهُ
وما الآنَ أَنُ القولِ في طيبِ مأكَلٍ
وإنَّا لفي ريبٍ بأمرِ سفِيننا

لآخيل أدنى من يَوَدُّ ومن يُجَلِّ
بُيْسَطٍ من البرِّفِيرِ نادرة المثل
بأكبر دَنٍّ وَلَتَفِضُ قِسْمَةُ الجُحْلِ
فمن تحت سقفي خيرَ رهطٍ وَدَدْتُ حَلَّ
إلى وَصَمٍ قرب اللهبِ الذي اشْتَعَلَ^{٣١}
كذا صُلْبُ خِرَنُوصٍ سمينٍ لهم قَتْلٌ
وينظم في تلك السفايد ما خزل
إلى أن لهيب النارِ بُدِّدَ واضمحَلَّ
قوائِمُ والملحَ الذكيَّ بها جبل^{٣٢}
وَتَمَّ قَفَاعُ الخبزِ فَطْرُقْلُ قد حمل
وآخيلُ توزيعُ اللحومِ به اشتغل
أشار فباسترضاءِ آلِ العلى استهلَّ
وَمُدَّتْ أياديهم وكُلُّهُمْ أَكَلٌ^{٣٣}
فَنِكَسَ فَاوْذِيسُ أحاطَ بما سألَ^{٣٤}
بها نخبِ آخيلٍ ومن ثَمَّةً ارتجلَ: ^{٣٥}
نُرى فلدينا خير زادٍ مُيسَّرِ^{٣٦}
وعندك منه كلُّ أطيَبٍ أفخرِ
وقد راعنا وقعَ البلاءِ المُدَثِّرِ
أَتَهْلِكُ أم تنجو إذا لم تُشَمِّرْ

فقد عسكر الطرواد في حلفائهم
 يلوح لهم أنا وهيننا وأننا
 وذا زفس أورى البرق فوق يمينهم
 فأصبح لا يرعى إلها خلافة
 ويدعو فتاة الفجر تبرز عاجلاً
 وبذكي بها النيران ثم إزاءها
 تحدم غيظاً واستشاط وخشيتي
 ونهلك في منأى عن الوطن الذي
 فهب ابن فيلا إن ترُم نصر قومنا
 ستندم لكن لات حين ندامة
 أما قال فيلا يوم فارقت إفثيا
 أثينا وهيرا تُوليانك نُصرة
 فبالحلم كل الخير والفتنة أطرح
 نعم ذاك قول قاله الشيخ إنما
 وع الآن قولي إذ أعُد نفائساً
 مناصد سبعا لم تر النار جُددًا
 ومن ذهب يغلو شواقل عشرة
 فتحرزها اثني عشر أجرد سلها

لديها وقد أوزوا لهيب مسعر
 سنلقى عليها حتفنا بتفهقر
 دليلاً به يشتد ساعد هكطر
 ويرمقنا طراً بعين مُحقر
 ليقطع أطراف السفين ويترى ٣٧
 يُذبح كل العسكر المتصور
 يُتاح له فوز فيفري ويفتري
 غدا الخيل في مرج من الروض أخضر
 وإن يك جل الخطب واشتد وانبري
 فذا الحين حين الكر والذب فافكر
 إلى جيش أتريد: «بُني تبصر
 إذا شاءتا لكن على جاشك اصبر
 رعاية كل الشيب والمُرد تذخر»
 تناسيته فاذعن وقومك فانصر
 سيخيوك أتريد بأعظم مظهر
 وعشرين طساً ساطعات لمنظر
 وجُرد جياذ تألف السبق ضمر
 حبه كُنوزاً في السباق المُكرّر

كنوزًا إذا ما نالها أيُّما امرئٍ
وسبع غوانٍ فُفْنٌ حُسْنًا وصنعَةً
وَكُنَّ له سهماً وذلك عندما
كذاك بريسًا مُفْسِمًا ومُثَقَّلًا
فهذي صلاتُ اليوم تُخْرِزُها وإنْ
نُضَارًا وصفرًا تُؤْتِ ملءَ سفينة
بعشرين حَسَنًا فُفْنٌ بعد هِلَالَةٍ
وإمَّا رجعا للخصيية أرغسٍ
تُجَلُّ كأورِسْتِ الحبيب الذي نشا
ثلاث بناتُ المَلِكِ أَخْرِيسِثِمَةَ
وليس بباغٍ مهرها ويزيدها
فَتُنْزِلُها في دار فيلا وفوق ذا
فِرِيسُ التَّقَى إيرا الرُّهُورِ وإِنْيُفَا
وإيفيَةُ الحسَناء فيداسُ كرمَةٍ
تجل بأهليها كَرَبٌ خطورةٌ
غنمًا وأبقارًا تناهى عديدها
ولكنما إن كنتَ أَشْرَبْتُ بغضه
فرقَ لقوم سوف تُخْرِزُ رفعة
وَنَلْ ذروةَ المجد الرفيع مخلدًا

ترَفَّعَ عن شكوى شجِيةٍ مُعْسِرِ
من اللآءِ من لَسْبُسٍ سَبَّيْتُ بأبترِ
تَوَلَّيْتُهَا تحت الطعان المدمرِ
يقول إليها القرب لم يَتَصَوَّرِ
نَلْ ذِكْ إليونٍ بحكمٍ مُقَدَّرِ
وعند اقتسام السبي بالغيد تظفر
تَحْزُرُ بانتقاها خيرةَ المُتَخَيَّرِ
يرومك صهرًا بالمقام المُوقَّرِ
بأرغدٍ عَيْشٍ في يَسَارٍ مُوقَّرِ
وَلَوْ ذِيقُ أَفْيَانَسُ من ترضَ تختَرِ
ندى لم يَجُدْ فيه أَبٌ مُنْذُ أَذْهَرِ
مدائن سبعٌ فوق بَرٍّ مُعَمَّرِ
وَقَرْدَمَلَا أَنَّثَا الفجاج المُنَوَّرِ
تجاه فُلُوسَ الكل في جرف أبخرِ
وتُخْرِزُ مذخور الخراج المقررِ
فتلك الهدايا فاترك الغيظَ واحضُرِ
وإن تزدري هذي الهباتِ وتسخرِ
كربٌ لديهم أخرجوا في المعسكرِ
بمقتل هكطور الفتى الباسل الجري

إليك تدنّي حانقًا مُتَوَهِّطًا
قال آخيل: «يا أذيس الموانس
لي مقال فلن أحولنّ عنه
من يقل غير ما تيقن فكرا
فالذي قد أسررتُ هاكم جهارًا
ما بأتريد والأغارق جمعا
فلديهم سيان قمر عييد
ولديهم سهم الفتى الصنديد
والردى يحصد الجميع سواء
أي نفع جيت من قهر نفسي
كنت كالطير للفراخ يُوافي
كم ليالٍ أحييتكم من نهار
كل هذا حفظا لعرض نساكم
إنتي عشرة مدائن بحرًا
حيث عشرا وبلدة ثم دمر
ولأتريد سُفْتُ كل الغنائم
فجبا الصيد والقيول يسيرا
إنما من جميعهم ما استردّا

ويزعم ما في القوم ندّ به حري» ٣٨
لي فاسمع فإنني لا ألبس
فَعِه واطرحنّ عنك الوساوس
كان عندي من الجحيم أشرا ٣٩
لجميع الإغريق لست بناكس
من حقوق الأبطال بالحق يرعى ٤٠
وجبان عن الوغى متعاس ٤١
مثل سهم الهيابة الرعديد
متقي الهول والجسور الحمارس ٤٢
واقترحام الأهوال فتگا بأسي
بطعام عن نفسه هو حابس ٤٣
باصطكاك القنا أثرت أوارى
ولكم خضت فادحات الدراهم ٤٤
نلت ثم الطرود أأقلت برا
ت ومنها قسرا سلبت النفائس ٤٥
وهو بين السفين بالأمن قائم
وبجل الأسلاب قد ظل أنس
أنا من دونهم بسهمي استبدّا ٤٦

والى زوجتي استطال فدغّه
فعلام الإغريق هاجوا وماجوا
أفما في أطلاب هيلانّة قد
كل شهم لعُرسه يتودّد
وبعُرسى أنا كلفْتُ وإن لم
إن أترىذ غلّ سهمي منّي
بك أُوذيسُ والملوك لدرء الـ
بعْد بُعدي كم جاء أمرًا خطيرًا
ثم شاد الأبواب لكن أراه
قطّ ما جاز هكطر الزان قبلًا
بل إزاء الحصون ظل يُياري
للقائي بالحرب يومًا تربصُ
بيد أني لا أبغينّ له بغد
فلزفس وسائر الأرباب
وإذا شئتُم ارفُقنّ سفيني
بثقيّل الأحمال تمخر مخرا
وإذا شاء فوسدّ ثالث الأ
فبها قد غادرت مالًا وفيرًا

يتمتع بقربها وينافس ٤٧
وبحرب الطرواد ثار العجاج
جاء أترىذ بالكُمّة القوامس ٤٨
لم يكن ذا بالأترذين مقيّد
تك إلا من السبايا العطامس ٤٩
مثلما غرّني فلن يخدعني
ضيمّ عنه فليعقدنّ المجالس ٥٠
رفع السور ثم مدّ الحفيرا
من لقا هكطّر المدمر راعس ٥١
لا ولا باب إسكيا اجتاز فعلا
عندما كنتُ في صدور الفوارس
كاد يُصمى لكن نجا وتملّص ٥٢
مد كفاحًا فالعود بعد الحنادس ٥٣
سأضحّي غداً قبيّل المآب
جُسن قلب الغباب أيّ جوائس ٥٤
وبها الأردمون تخرق بحرا ٥٥
يَّام في إفثيا رسون أوانس
وإليه أضم كسبًا كثيرًا

ذهبًا ساطعًا حديدًا وصفراً
كل هذا أحرزت سهماً حلالاً
أبلغوه قولي جهاراً ليخزي
وهو مهما عتا ولم يتهيب
لا يرومن بعد قولي وفعلي
وَلَيْسِيرَنَ لِلْهَلَاكِ ثُبُورًا
هو عندي كشعرة باحتقارٍ
لو حباني عشرًا وعشرين مثلاً
أو حباني ما قد حوت أَرْحَمِيْنَا
تلك في مصرَ رحبة الأبواب
مئتا فارس على مركبات
أو حباني عدَّ الهبا والرمال
لن أحلَّ وسط نأديه حتى
بنَّه لو كَعْفُرُذِيَّتَ سَنَاءً
لن أرومَّهَها فغيري يلقي
فإذا عدت سالماً لِبِلَادِي
فَبِهَيَلَاذَةٍ وَفِي إِفْثِيَا عَنْـ
أَتَنَّقَى مِنْهُمْ مَنْ أَتَمْنَى
تلك لي زوجةً حلال تليني

والسبايا ذات القدود الموائس
وأغمامنون أجاز وغالاً
إن رأى بعد أن يدسَّ الدسائس
ذل عن أن يدنو ووجهي يقرب
لا يُطِيلَنَّ لي الحديث الخُلايسَ ٥٦
إن زفساً أباد منه الشعورا
وأنا كُلَّ ما به جاد باخسَ ٥٧
للذي رام والذي حاز فعلاً
أو حوت طيبةً القصور الطوائسَ ٥٨
مئةً قد علون مثل الروابي
وخول في كل باب حوارسَ ٥٩
لن أحولَنَّ عن بعيد اعتزالي
شر عقبى يلقي لتلك المدانس
أو أثينا الجلال كانت ذكاء
من يُجَارِي هواه بين الأراغس
ثمَّ فيلاً كُفءً لكل مرادي
صد الصناديد لا تقلَّ العرائس
وبزاهي جمالها أَتْهَنَّا
في ريش الشيخ الجليل الموائس

لا يوازي الحياة مالَ توفر
لا ولا كُـلُّ ما يَفِيئُـسَ في هَيْـ
يتسنى بالسيف كسب عجول
إنما النفس لا تعود إذا جا
أنبأتني ثِيْتِيسُ أُمي حَقًّا
خالدَ المجد بعد موت قريب
ذاك فيما إذا طلبت الطعانا
ومرامي حَثُّ الأراغِسِ طُرًّا
فاذهبوا أخبروا الأخاءَ جدًّا
زفسُ ألقى على القلوب يد الأمد
أبلغوا والبلاغ شأن الشيب
فعساهم ينجون إذ أخطأوا في
وفنكسُ هنا يبيت وإمَّا
بسفيني ساقلعنَّ يقينًا
فاستم الحديث والقوم طُرًّا
ثم فينكس والدموع هوام
«إن تكن عن تحلُّمٍ واحتدادٍ
وطلبت المآبَ يا ابني المُفدَّى

ضمن إليون قبل سوق المعسكر
كَلِ فيبُسُ رب السهام الطوامسُ ٦٠
وغنيم مناضد وخيول
زت خلال الأسنان يوم الدلامسُ ٦١
أنني للردى سبيلين ألقى
أو طويل الحياة والذكر طامسُ ٦٢
ثُمَّ هذا إن أبتغي الأوطانا
أن يَتَوَبُّوا إلى الديار نواكس
لن تنالنَّ بالطراود قصدا
ن وبالنفس ظل من فوق حارس
ينظروا في خلاف رأي مصيب
طلبي لست بينهم قَطُّ دائس
رام عودًا معي غدًا فَنِعَمَّا
عند طرَّ الصباح غير مُلايسُ» ٦٣
بوجوم خالوا التصلب مرًّا
لاشتداد الوبال قال مُصِرًّا: ٦٤
راغبًا عن لقاء جيش الأعادي
كيف ألقى على بَعادِكَ صبرا

فمعي قد بُعِثَتَ للحربَ لَمَّا
 باعتائني أَنَمِيكَ فَعَالَ فِعْلٍ
 يانَعَا كنتَ جاهلاً للطَّعَانِ
 وكذا جاهلاً مفاوضَ سُورَا
 لا فلنَ أَلْبِثَنَّ عَنْكَ بَعِيدَا
 ومحا شَيْبَتِي فعدتُ كَيَوْمِ
 يومٍ من فرط غيظِ آمِنُطُورِ
 هاربًا جئتُ مُذْ سَعَيْتُ إِلَى جَا
 فأشارت أُمِّي بِهَا لِي حَتَّى
 وعلى رَكِيَّتِي صُغْرًا ترامتُ
 فدرى بي أَبِي وبِاللَّعْنِ مَا لَا
 «رَكَبَتِيهِ لَا يَعْلَوْنَ غَلَامٌ
 فاستجاب الدعاءَ زَفَسُ الْجَحِيمِ
 فحدا بي غِيظِي فَكَدْتُ أَوَافِي
 إِنَّمَا رَاحَ بَعْضُ آلِ الْخُلُودِ
 خَشِيَّةً أَنْ يَقَالَ مَا بَيْنَ قَوْمِي
 غَيْرَ أَنِّي أَنْفِثْتُ طُولَ الْمَقَامِ
 يَبْدُ أَنْ الْخُلَّانَ وَالْأَهْلَ رَامُوا
 ذَبَحُوا لِلشُّوَا الْعَجُولَ السَّمَانَا

رامَ فَيَلَا تَوُؤُّمٌ أَتْرِيدُ قَدَمَا ٦٥
 وَخَطِيئًا قَوَالَ قَوْلِ أَبْرَأَ ٦٦
 حَيْثُ تَبْدُو شَجَاعَةُ الشُّجْعَانِ
 نَا وَفِيهَا يَعْلُو أَخُو الرَّأْيِ فَخْرَا
 لَوْ حَبَانِي رَبُّ شَبَابًا جَدِيدَا
 فِيهِ أَبْخَرْتُ مِنْ هِلَادَةِ قَسْرَا
 فَرَعَ أَرْمِينَ وَالِدِي وَأَمِيرِي ٦٧
 رِيَّةٍ رَامَ رَغَمِ أُمِّي نُكْرَا
 تَمُقَّتَ الشَّيْخَ إِنْ رَأَيْتَنِي مَقْتَا
 فَأَطَعْتُ الْهَوَى وَلَبَّيْتُ أَمْرَا
 وَنَبَاتِ الرَّدَى اسْتَغَاثَ وَقَالَ
 كَانَ مِنْهُ «وَقَامَ يَنْذُرُ نَذْرَا
 وَفُرُسُفَيْنِ هَوْلَ كُلِّ عَظِيمِ ٦٨
 هَ بِسَيْفٍ يَبْتَتُّ بَطْنًا وَظَهْرَا
 يُخِمِّدُ الْغِيظَ مِنْ فُؤَادِي الْحَدِيدِ
 ذَلِكَمَ كَانَ قَاتِلَ الْأَبِ كَبْرَا
 ضَمِنَ صَرْحٍ فِيهِ أَبِي بِاحْتِدَامِ
 بِالْتِمَاسِ أَنْ لَا أَغَادِرَ قَصْرَا
 وَالْخَنَانِيصَ فِي لَظْيِ بُرْكَانَا ٦٩

وخرافًا وخمرة الشيخ صَبُّوا
وأقاموا حولي ليالي تسعًا
ولدى باب غرفتي وباب الـ
غير أنني بعَاشِرِ الأيام
فَلَأَبْوَابِ حجرتي عامدًا قُمتُ
وعلى الفور جُرْتُ باب الدَّارِ
وطلبت الفرارَ في بَرٍّ هَيَلًا
فلقيتُ المليكَ فيلاً الحليماً
وَدَنِي وَدَّ رَبِّ مَالٍ وفيهِ
فجباني مالًا وشعبًا كثيرًا
لك وُدِّي من ثَمَّ تدري تناهي
لم تكن ترتضي بغير طعامي
أقطع اللحم باعتناءٍ وأعطيتُ
ولكم قد قذفتُ من فيك راحًا
ولكم قد أجهدتُ بالقهرِ نفسي
عالمًا كنت أن آل الرشادِ
فبك ابنًا قد رُمْتُ آخيلُ حتى
فاكظم الغيظ لا تر الحقد أبقي

بأباريقه وطابوا مقررًا
إن ينم واحدٌ فأخر يسمي
دَّارٍ لم يُطْفئوا مدى الليل جمرا
والدياجي قد خيمت بالظلامِ
تُ وقد أوصدت فكسرتُ كَسْرًا
خافيًا عن نَوَاقِدِ الأبصارِ
ذَّةً أَعْدُو لِإِفْثِيَا مستمرًا
وعليه نزلت ضيفًا كريمًا
بتناهي المشيب أنتج بِكْرًا
وبقوم الدُّولُون قُمتُ أميرًا
وبجُهدي بلغت ما أنت قدرا
جالسًا فوق ركبتي وأمامي
كَ بِكَفِّي هَذِي وأسقيك خمرا
فَبَلَلْتُ الثَّيَابَ مني مَزَاحًا ٧٠
ولكم قد لقيتُ بالجهد قهرا
حرموني من لَذَّةِ الأولادِ ٧١
تدفع العارَ إن عراني وتَدْرًا
إن نفس الأرباب تَدْعُن رِفْقًا ٧٢

ولهم ذروة الفضائل والمجـ
إن يقيم خاشعٌ لهم يتضرعُ
إن زفَسًا بنائِته الصلوات الـ
هن عُرجُ جُعْدُ الوجوه وخُسْرُ
إنما زلّةٌ لها السبقُ مذكا
تنهبُ الأرضَ حيث تُلقِي الوَبَالَ
فالذي عندما يوافينه يُبـ
إنما الويل للذي صدَّ صدًا
يتطلبن زلّةً منه تُهمِي
فاتَّقِيهِنَّ يا آخيلُ احترامًا
وبقينًا لو أن أترىذ لم يُسـ
أو توانى عن ذكر ما سوف يُسدى
لم أُرْم منك نُصرة القوم مهما اشـ
إنما الآن قد جبا وسيحبو
فخيار السَّرَاقِ جاءوك فاذعن
قد أتاننا عن سالف الأبطال
أنهم بين نَيْلِ غُرِّ الهدايا
وبذكراي حادثٌ مَرَّ قِدمًا
ذاك لما الكُورِبَتُ ثاروا على الإيـ

سد وبأس الذراع فالرفقُ أخرى
فالضحايا والنذرُ والخمر تشفعُ
ألاءٍ تعدو ورفقهُ تتَحَرَّى
يَتَعَقَّبْنَ زلّةً حين تعرو
نت خطاها أشد وقعًا وأجرى ٧٣
يَتَبَعَنَّهَا فَيُشَفِّينَ حالًا
سدي احترامًا فعنه يدفعن ضُرًا
فَلِزَفَسٍ يُعَدْنَ يَطْلُبْنَ رِفْدًا
فوق ذاك العاتي وبالأُ أَمْرًا
يَتَقَيَّهِنَّ كل قِرْم تَسَامَى
سد الهدايا الغراء تُذَخَّرُ دُخْرًا
بعد هذا أو ظل يشتدُّ حقدًا
تَدَّ فيهم وقع الرزِيَّةِ عُسرًا ٧٤
مُرْسَلًا في بلاغِهِ من تُحِبُّ
وخذِ الآن من بلاغي ذِكْرِي: ٧٥
عندما الغيظُ كاد صدرَ الرجالِ
والتماسٍ كانوا يلينون صُغْرًا
هاكُمُوهُ كما جرى وألَمَّا
تُول والحرب وقعها اشتدَّ حَرًّا

تحت أسوار قَالِدُونْ تلاقى
 فترامى الكوريت يُبْعُونْ فتحًا
 ذلك الخطب أرطميس أثارت
 إذ تغاضى عن أن يُقَدِّمَ باكو
 والضحايا المئات لما أتاها
 غفلة أم تغافلًا كان منه
 فاثارت بالغيط خرنوص برّ
 بعثو يجتث أصلًا وفرعًا
 فابن ويناس ميلغُر التقاه
 من بلاد الجوار رهط رُمّة
 رائعا كان لم يكن باليسير
 قتلوه من بعد قتل كثير
 بنزاع يبغون رأسًا وجلدًا
 وبهم طالما سَطًا ميلغُر
 فلا عادي ولو يزدون عدًا
 إنما الغيط وهو يعبث بالعد
 فاثارتَه نفرة واحتدّاما
 وبذات الجمال إكلِيْطرا

ذلك الجمع واستباحوا الشقاقًا
 وترامى الإيتول يخشون غدرًا
 حنقًا من ويناس والحرب ثارت
 رة زرع لها وأغفل برّا ٧٦
 لجميع الأرباب أذكى سواها
 ذلك الأمر إنما كان وزرا
 لأراضيه حيث عاث بكبر
 ويبيد الأشجار غصنا وزهرا
 قاتلا بعد أن أعد سُراه
 بكلاب لتدعر الوحش دُعرا
 صدّه في سلاح نذر يسير ٧٧
 واستتب الشقاق من ثم جهرا
 ذاك ما أرطميس رامته حقدًا
 نال قوم الإيتول فوزًا ونصرًا
 ما استطاعوا أن يبلغوا السور حدًا
 فقال بالكيد منه أوغر صدرًا
 أليّا أمه فعاف الصّداما
 زوجة قد خلا وعاف المَكْرًا

(أُمُّهَا غَادَةُ الْعَلَى مَرْفِيسَا
 وَأَبُوهَا إِيدَاسُ أَعْظَمُ قَرْمِ
 صَالٍ حَتَّى عَلَى أَفْلُونٍ لَمَّا
 أَبَوَاهَا مِنْ ثَمٍّ قَدْ لَقَّبَاهَا
 حَيْثُ مَرْفِيسُ فَيْبُسٌ قَدْ بَغَاهَا
 فَبَكَتْ تَلْتَظِي بِشِدَّةِ بؤْسِ
 حَانَقًا مِيلِغَرُ مِنْ ثَمٍّ ظَلَا
 ذَاكَ مَذْ أَلْثِيَا لِقَتْلِ أَخِيهَا
 تَضْرِبُ الْأَرْضَ حِدَّةً بِيَدَيْهَا
 وَأَذِيسَا وَفَرْسُفِينَا تَنَادِي
 لِإِرِينِيسَ فِي دَجَى الظُّلُمَاتِ
 ثُمَّ قَضَّ الْعَدَى الْحِصُونَ وَفِي الْأَبَدِ
 فَإِلَى مِيلِغَرٍ شَيْبُ الْبِلَادِ
 وَعَدُوهُ خَمْسِينَ فِدَانٍ حَقْلٍ
 وَوَنَاسِ الشَّيْخِ الْجَلِيلِ أَبُوهُ
 وَالشَّقِيقَاتُ أَلْيَا نَفْسَهَا وَالصَّحْبُ
 ظَلَّ حَتَّى بَبَابِهِ الْحَرْبُ شَبَّتْ
 فَتَبَدَّتْ لَدَيْهِ زَوْجَتُهُ الْمَيِّتُ
 وَتَرِيهَ كَمْ مِنْ وَبَالٍ تُعَانِي

مِنْ بَنَاتِ الْمَهِيْبِ إِيْفِينُوسَا
 كَانَ ذَاكَ الزَّمَانُ فِي الْأَرْضِ طُرَا
 رَامَ مَرْفِيسَ مِنْفَذًا فِيهِ سَهْمَا
 أَلْكِيُونَا لِحَادِثٍ كَانَ مُرَا
 مَثَلَمَا قَبْلَ أَلْكِيُونَا سَبَاهَا
 وَدَعَتْ بِنْتَهَا كَذَلِكَ ذِكْرًا ٧٨
 عِنْدَهَا نَارٌ سُخْطُهُ يَتَصَلَّى ٧٩
 أَوْسَعْتَهُ لَعْنًا وَشَتْمًا وَزَجْرًا ٨٠
 ثُمَّ تَدْعُو سُخْطًا عَلَى رُكْبَتَيْهَا
 أَنْ يَذِيْقَا ابْنَهَا حَمَامًا أَشْرًا
 بِأَرِيَا انْتَهَى صَدَى الصَّلَوَاتِ ٨١
 سَوَابِ عَجِّ الْعِجَاجِ طَعْنًا وَنَحْرًا
 بَعَثُوا بِالْكَهَّانِ لِاسْتِتْجَادِ
 حَيْثَمَا شَاءَهَا وَكَرَمًا أَغْرَا
 جَائِيَا عِنْدَ بَابِهِ يَرْجُوهُ
 وَالْأَهْلُ وَهُوَ يَزْدَادُ نَفْرًا
 خُرِقَ السُّورُ ثَمَّةَ النَّارِ شَبَّتْ
 سَاءٌ لِلرَّفَقِ مِنْهُ تَسْأَلُ عُذْرًا
 بِلَدَّةٍ ذُلَّلَتْ بِحَرِّ الطَّعَانِ

للمباني حَزَقًا وَلِلْقَوْمِ ذَبْحًا
 رَقٌّ وَارْتَدَّ يَرْفُذُ الصَّحْبَ رَفْدًا
 ولهذا ما نال غُرَّ الهدايا
 صاحِ قُمْ لَا تَكُنْ كَذَاكَ عَنَادًا
 والهدايا فاقبل وسِرْ معنا يُعْـ
 فإذا جئت عن مرامك آنس
 لن يُنِيلوك ما أنالوك تَوًّا
 قال آخيل: «أيها الشيخ صبراً
 إن زفَسًا أجَلَنِي وسيحمي
 هاك فصل الخطاب لا تُهَمِّ دَمْعًا
 لا تُحِبِّئْهُ وَأَنْتَ حَبِيي
 فاقْلِينِ الَّذِي قَلَانِي حَتْمًا
 هؤُلاءِ الْبَلَاغُ يُنْمُونُ حَالًا
 فإذا الفجر لاح نبحت فيما
 ولَفْطَرُ قُلْ مُؤَمِّمًا قَالَ يَأْتِي
 هب آياسُ قال: «أُوذِيسُ هَيَّا
 وعلينا نُنْمِي الجواب وإن سا
 إن آخيل قد تَصَلَّبَ طَبْعًا

والغواني وَالْوُلْدِ ذُلًّا وَأَسْرًا ٨٢
 شَكٌّ وَاشْتَدَّ وَالْعِدَى صَدَّ صَدًّا
 ولئن كان سام أعداه كَسَرًا
 قبل أن تَلْهَبَ السفينُ اتَّقَادًا
 لَوُكُ طُرًّا مَقَامَ رَبِّ أَبْرًا
 لَصَدَامٍ بِهِ تُزِيحُ الدِراهِمُ ٨٣
 لو تُبِيدُ الْأَعْدَاءَ بَرًّا وَبَحْرًا ٨٤
 ليس بي حاجة لما تَتَحَرَّى
 سُقْنِي بي ما دمتُ بِالْعِيشِ آنَسُ
 وَتَسْمُنِي فِي حُبِّ أَتْرِيدَ صَدْعًا
 إن تكن من محبِّي غير بائس
 ومعِي احْكُمُ أَشَاطِرَنكَ حُكْمًا ٨٥
 وَهَنَا بَتُّ عَلَى وَتِيرِ الطَّنَافِسِ
 نَرْتَيِيهِ لِنَغْتَدِي أَوْ نُقَيِّمًا ٨٦
 بفراشٍ غَضٌّ لِمَضْيِ النَّوَاطِسِ ٨٧
 لا أرى هَكَذَا الْمُنَى يَنْهَيَا
 ءَ فَإِنْ الْإِغْرِيقُ ظَلَوْا بِهِاجِسِ
 وَأَدَانِي الْخُلَّانِ مَا ظَلَّ يَرْعَى

عَظْمُوهُ مِنْ فَوْقِ كُلِّ عَظِيمٍ
كَمْ أَخِ يَفْتَدُونَ بِالْمَالِ وَابْنِ
وَأَهَالِي الْمَقْتُولِ إِنْ أَحْرَزُوا الْمَا
قَلْبِكَ أَكَمَدَ حَانَقًا لِفَتَاةٍ
وَعَدَا الْغَيْدَ بَاهِرَاتِ الْعَطَايَا
عَنْ جَمِيعِ الْإِغْرِيقِ جُنَا إِلَى كَا
نَحْنُ فِي بَيْتِكَ الَّذِي أَنْتَ فِيهِ
قَالَ آخِيلُ: «يَا أَيَّاسُ أَرَاكَ
يَبْدُ أَنْي لَمْ أَنْسَ أَتُرِيدُ يُزْرِي
كَلِمَا هَاجَ ذَكَرَ ذَلِكَ فَكْرِي
فَاذْهَبَا بَلَّغَا فَلَا قَمْتُ حَتَّى
فَهْنَا أَلْتَقِيَ ابْنُ فِرْيَامَ مَهْمَا
بَعْدَ أَنْ يَهْلِكَ الْأَرَاغُسُ ذَبْحًا
ثُمَّ قَامُوا مِنْ ثَمَّ لِلْقُرْبَاتِ
فَأَرَاقُوا وَلِلْسَفَائِنِ عَادَاتِ
وَالْجَوَارِي بِأَمْرِ فَطْرُقَلْ قُمْنَ
مِنْ جُلُودِ النِّعَاجِ تَحْتَ غَطَاءٍ
ثُمَّ فِينَكُسُ نَامَ يَرْقُبُ صَبْحَا
وَدُمَيْدَا مِنْ لَسْبُسُ بِنْتِ فُرْيَا

وَهُوَ عَاتٍ جَافٍ ظُلُومٌ قُنَاعِسُ ٨٨
وَيَظْلُ الْجَانِي بَرْغَدٍ وَأَمْنِ
لَ وَفِيرًا عَفَا وَعَافُوا الْمَرَا جِسُ ٨٩
وَأَتَيْنَا نَحْبُوكَ سَبْعَ بَنَاتِ
سَكَنَ الرَّوْعَ أَلَقَ عَنْكَ الْهُوَاجِسُ
بَغِيَةً أَنْ نَرَى أَحَبَّ لَدَيْكَ
فَاحْتَرَمَهُ وَارَعَ الضِّيُوفَ وَأَنْسَ ٩٠
فُهِتَ حَقًّا بِمَا حَوَاهِ نُهَاكَ
بِي كَأَنِّي فِيكُمْ دَخِيلٌ مُخَالِسُ
يَتَلَطَّى قَلْبِي وَيُوعِزُّ صَدْرِي
دُونَ خِيَمِي تَعْنُو الْعُدَاةُ الْعَطَارِسُ
صَالَ بِالْبَطْشِ مُسْتَجِيشًا وَأَذْمَى
وَبُكِّلَ السَّفِينِ تَذَكُّو الْمَقَابِسُ ٩١
بَكُوسٍ لِلْخَمْرِ مَزْدَوِجَاتِ
رَسَالُهُمْ تَقْتَفِي لِأَوْدِيَسَ إِثْرَا
لِفِينَكُسٍ غَضَّ الْفَرَّاشَ أَقْمَنَ
وَبَهْيُ الْكَتَانِ يُسَبِّلُ سِتْرَا
وَأَخِيلٌ إِلَى الزَّوَايَا تَنْحَى
سَ تَلِيهِ فِي مَرْقَدٍ شِيدَ خِلْدَرَا

ثُمَّ فَطَرُ قُلُوبَ فِي الْخَبَاءِ الْمَقَابِلِ
 مِنْ آخِيلِ أُتِيْلَهَا مَذْ غَزَا إِسْمَ
 وَإِذِ الْوَفْدِ خَيْمٍ أَتْرِبْدَ حَلًّا
 وَأَتَوْهُمْ بِأَكْوَسٍ مِنْ نَضَارٍ
 وَأَعَاظُمُونُ اسْتَهْلَ السُّؤَالَا
 أَارْعَوِي مَقْبَلًا لَصْدِ الْأَعَادِي
 قَالَ: «بَلْ غِيْظُهُ الْعَنِيفُ أَشَدُّ
 وَيَقُولُ اشْدُدْنَ فَيَمْنُ سِوَاهُ
 وَعَلَى جَمَلَةِ الْمُلُوكِ يَشِيرُ
 وَلَقَدْ قَالَ سَوْفَ يَقْدِفُ لِلْبَحْرِ
 قَالَ إِيْلَوْنَ لَا مَرَامَ إِلَيْهَا
 وَقُلُوبُ الْفِرْسَانِ فِيهَا لَقَدْ شَدَّ
 وَأَيَّاسًا كَذَاكَ فَيَجِيْكَ فَاسْأَلْ
 مَعَهُ رَاجِعًا يَسِيرُ إِذَا مَا
 فَأَصَاحُوا وَكَلَّهْمُ بِسَكِينَةٍ
 وَأَطَالُوا الْوُجُومَ وَالصَّمْتَ حَتَّى
 حَبَذَا لَوْ لَمْ تَبْغِ يَا ذَا الْجَلَالِ
 هُوَ عَاتٍ بِنَفْسِهِ وَغَشُومٌ

وَلَيْتَهُ إِيْفَيْسُ ذَاتِ الشَّمَائِلِ
 كَبِيرَسًا مِنْ إِيْفَيْسٍ وَأَحْرَزَ وَفَرَا
 نَهَضَ الْجَمْعَ مَكْرَمًا وَمُجِلًّا
 مَتَقَصِّينَ أَمْرَهُمْ كَيْفَ قَرَا
 «قُلْ أَذِيْسُ فَخَرِ الْإِخَاءَ حَالَا
 أَمْ بَغْلُ الْأَحْقَادِ يُكْمِنُ شَرًّا»
 عَنْ حَبَاءٍ تَحْبُو وَعَنْكَ يَصْدُ
 لِنَجَاةِ السَّفِينِ وَالْجَيْشِ أَزْرَا
 أَنْ يَتُوبُوا لِأَهْلِهِمْ وَيَسِيرُوا
 رَ بِأَشْرَاعِهِ وَيَقْفُلُ فَجَرًا ٩٢
 إِنْ زَفَسَا أَلْقَى يَدِيْهِ عَلَيْهَا
 شَدَّ هَذَا مَا قَالَ طِيًّا وَنَشْرَا
 مَا وَعَوْهُ وَثَمَّ فَيَنْكُسُ قَدْ ظَلَمَ
 رَامَ لَا مُخْرَجًا غَدًا فَهُوَ أَدْرَى ٩٣
 دُعِرُوا لِاضْطِرَامِ تِلْكَ الضَّغِينَةِ
 هَبْ ذُوْمِيْدُ صَائِحًا: «يَا ابْنَ أَتْرَا
 صَلَحَ آخِيلُ بِالْهَبَاتِ الْغَوَالِي
 وَلَقَدْ زَدَتْهُ عَتَوًا وَجَرًا ٩٤

فلندعه وشأنه أأقامَا	أم مضى سوف يَقَحَمَنَّ الصَّدَامَا
ذاك لَمَّا تهيجه النفس أم تَدُ	عُوهُ آلِ العلى فيأتي مِكرًا
فاستريحوا ذا الآن وأثَّوا الرُّقَادَا	إذ جميعًا طنبًا شرابًا وزادَا
فبهذا تُؤْتَوْنَ قوَّةً بأسٍ	وغدا الفجر فاسطُرَّ الجند سطرًا
والعجال اصْفُفْنَ أمام السِّفِينِ	ثمَّ في الصدر أَوْرِ نَارَ الْمُنُونِ» ٩٥
جاهروا بالشا أراقوا وكلُّ	راح يأتي فراشه مستقرًا

هوامش

(١) لقد أكثر علماء الأدب والفصاحة من إطراء بلاغة الخطب المدوّنة في هذا النشيد، ولا سيما في شطره الأخير أثناء التقاء آخيل بوفد الإغريق، وقد كتبوا في ذلك الرسائل المطولة وأوردوا منها الأمثلة الكثيرة أنموذجًا ليتحداه طلبة الخطابة مما سننبه عليه في مواضعه.

(٢) الرعدة والفرار رفيقان متلازمان، وهما هنا مُجَسَّمَانِ كما في سائر المواضع.

(٣) الدبور الريح الغربية كما لا يخفى. ولقد اعترض على هوميروس بقوله: إنها تهب من إثراقا حالة كون مهبها يتجه إلى إثراقا لا منها. وقد رد أفستاثيوس هذا الاعتراض بقوله: إن هوميروس قال هذا القول إما جريًا على ما تداولته أساطير ذلك الزمان من أن في تلك البلاد

ملتقى الرياح، وإما نظرًا إلى موقع طروادة منها وكلا الفرضين يذهبان بالاعتراض.

(٤) إن تشبيه الفؤاد المضطرب بالموج الذي تقذفه الأنواء إلى ما وراء الجرف لمن أبدع ما قيل في هذا الباب. وقال هوميروس في النشيد الثاني والعشرين بلسان زوجة هكتور: وقلبي خافقٌ حتى يكاد يطير ... ولا يقل عن قول هوميروس قول الشنفرى:
ولا خَرِقَ هَيْقِ كَأَن فؤادُهُ يظلُّ به المكاء يعلو ويسفلُ

فالخرق: الدهش، والهيق: الظليم (ذكر النعام) والمكاء: طائر. شبه الفؤاد المرتجف بشيءٍ مع طائر يعلو به مرة ويسفل به أخرى. ومثل هذا قول صاحب عفرأ:

كَأَن قِطَاةً عُلِقَتْ بِجَنَاحِهَا عَلَى كَبْدِي مِنْ شِدَّةِ الْخَفْقَانِ

(٥) أي إن أغاممنون عهد إلى الدعاة بحشد القوم إلى مجلس الشورى ثم بلغ بنفسه فيمن حوله وطافوا وهم يبلغون في أطراف الجيش وينادون كلاً باسمه همساً. وإنما أمر بالهمس دون النداء لئلا يسود الهرج فينكشف أمرهم للأعداء.

(٦) لعل المطالع اللبيب يَدْكُرُ أن هنا خطاباً ألقاه أغاممنون بلفظه ومعناه في النشيد الثاني وأنه تذرع به هنالك إلى إغراء الجيش على الذود والهجوم دون العود والوجوم على ما يوهم ظاهر العبارة. ولهذا

تشعبت آراء الشُّراح في القصد من هذا التكرار، ففريق إلى أنه نحا هنا ذلك النحو وفريق إلى أنه لا يصدق هنا ما صدق هناك. وليس من غرضنا الانتصار إلى إحدى الفئتين وإنما نرى أنه مهما يكن من صحة أحد الرأيين فالنتيجة واحدة لأن الشاعر أحسن التصرف فحصل الغرض من كلا الخطابين.

(٧) كأن المتنبى عارض هذا المعنى بقوله:

الرأي قبل شجاعة الشجعان هو أولٌ ولها المحل الثاني

وهو كقول أبي تمام: السيف أصدق أنباء من الكتب

(٨) الجدود أي الشواطئ، وهي في الأصل بعبارة معناها قرب البحر وقد فسَّرها أكثر النقلة بقولهم: «الراسية على الشواطئ» كما فسرناها نحن على أننا إذا اعتبرنا العبارة تهكمًا على أغاممنون كما قال بعضهم كان مراد ذيوميذ أن يقول: «إنك إنما أرسيت سفنك أدنى إلى اليم منها إلى الجرف ليسهل عليك الفرار عند الاضطراب» وعلى هذا يجب أن يقال «في العباب» عوض الجدود.

(٩) إذا ذهبنا مذهب القائلين بتواطؤ الزعماء مع أغاممنون على أخذ الجند خدعةً كما فعلوا في النشيد الثاني، فهذا التواطؤ يشفع في كل تحامل ذيوميذ على أغاممنون. وإذا ذهبنا مع الفريق الآخر إلى أن الشؤم بلغ حدَّه من نفس أغاممنون ولم ينوِ إلا ما قال، فخطاب ذيوميذ

أبلغ وأوقع إذ تكون حدة الشباب وشدة البأس ساقته إلى المجاهرة بكل ما في ضميره وكان كلامه مرآة تنعكس عنها ضمائر مغاوير الفتیان لذلك العهد. فشرع ييـث رأيه بلا مبالاة وغير متحامل بل متزلفاً بعض التزلف ثم استطرد إلى إثبات الحق المنصوص له بالاعتراض لأنه من مخولات دستور الشورى (وحكمهم وإن كان ملكياً فهو دستوري شـوري على ما تقدم) ثم اغتـنمها فرصةً للوم أغـامـنون على سابق تعنيفه إياه. وكأن تلك الذكرى هاجت به نـزق الصبا فنبذ واجب الرعاية والاحترام، وتـمادى فصـرح بكل ما استـمكن بضميره على غير عبء ولا مـداهنة وانتهى باستمداد النصر من لدن رب النصر وكم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً يَأْذِنُ اللَّهُ فـكان له تخلص حسن ولولاه عُـدٌّ مدعاه الأخير طيشاً وحمقاً.

(١٠) لا بدع أن يشهد نسطور ببأس ذيوميذ وهو الذي دون سائر الأبطال استهدف للبلاء فأنقذه من مخالب الموت.

(١١) حكمةً نطق بها نسطور فسارت مسير الأمثال، ولا بد لبيان متانتها ومكانتها من إيراد مفادها المقصود. فلا بد للمرء من وازع يزعه وهو شرعه، ومن كنَّ يأوي إليه وهو مأواه ووطنه، ومن فرقة يمتزج بها وهي أسرته وآل بيته. فإذا لم تجمع له تلك المزايا فهو المتشرد الفوضوي الجانح إلى بث النفاق ودس الشقاق. وحسبك بها من معرّة تأبأها نفس كل كريم. وكأن نسطور قال بعبارة أخرى أن الساعي بالفتن والقلقل كالعريّ من شعائر الشرع والوطنية وإباء النفس. فدل بقوله على

استحكام روابط الدستور عندهم وألمع إلى هول النزاع وما وراءه من سوء المصير.

(١٢) وفق نسطور بخطابه بين مرام الزعيمين ذيوמיד وأغاممنون، فامتدح الأول بما فيه ونبهه بالطف تعبير إلى اجتناب شطط قد تسوقه إليه رعونة صباه، ثم أتى بتلك الحكمة كأن وراءها قولاً خطيراً. ولم يكن في الحقيقة وراءها شيء جلل وإنما أتى بها تذرّعاً إلى إيكامهم جميعاً وإنفاذ بغيته. ولم يكن يحسن لديه إعلان تلك البغية على رءوس الملأ رعاية لأغاممنون؛ فأشار عليه بعد القول بوجوب إقامة الحرس بإيلاام وليمة للشيب دون الشبان، فأعاد فيها الكلام ونال المرام على ما سيجيء.

(١٣) أذكوا المذاكي أي أشعلوا النيران.

(١٤) أراد نسطور بقوله أن يعلم أغاممنون أن جل ما يرمي إليه بأقواله وأفعاله رعاية مكانة ذلك الزعيم ومصلحته. وهي عبارة كثيراً ما كانوا يستعملونها في أغانيهم وترانيمهم لآلهتهم.

(١٥) ترى من أمثال هذا البيت أن زفس كان الأمر المطلق وإن تعددت الآلهة. يولي الملوك ويتصرف بالكون كيف يشاء وليس من يقوى على معارضته.

(١٦) هذه أمنية نسطور التي حام حولها في مجلسين قبل أن ييوح بها لأغاممنون ألا وهي حملته على استرضاء آخيل وإحكام الوئام.

(١٧) الطس والطست والطشت: لإناء الغسيل معرب طست بالفارسية. شرع أوديس في تعداد التحف التي أعدها أغاممنون لآخيل إذا هو ارعوى وهبَّ إلى نصره الجيش فبدأ بالمناضد. وقد جعلنا المنضدة بمعنى المنصة أو النضد الذي يُرفع عليه متاع البيت تعريباً لكلمة (Τριπους) ومعناها ذات الأرجل الثلاث ومنها أخذ الإفرنج كلمة Trépied, Tripod وأمثالهما بسائر اللغات. وليس عندنا ما يقابلها إلا السببة المستعملة في سوريا للمرقاة المؤلفة من ثلاث قوائم متصلة بقرص في أعلاها. وهذه أيضاً من أوضاع العامة معربة سه يا بالفارسية ومعناها ثلاث أرجل. إلا أنه وإن اتفقت الكلمتان بالتركيب الوضعي فلا تتفقان بتأدية المراد.

كانت المناضد كثيرة الاستعمال عند اليونان، وقد وردت مراراً في شعر هوميروس والجم الغفير من كتابهم، وهي منقوشة في كثير من رسومهم وممثلة في عادياتهم. وهي ضروب شتى تُستعمل لمقاصد مختلفة وجميعها قائمة على ثلاث قوائم يعلوها إناءٌ له مقبضان من طرفيه. فمنها ما كان بمثابة القدور أو المراجل التي تعلق النار. ومنها ما كان لمزج الخمر بالماء وربما كان مراد الشاعر أحد هذين النوعين، الأول: لقوله إنها لم تَرِ ناراً، والثاني: لمقارنتها بالطسوت، وكلا النوعين مما كان يُتهادى به أو يُعطى مكافأة للمبرزين في الألعاب. ومنها ما كان للزينة في البيوت. ومنها ما يُتخذ في الهياكل للزينة أو للاستعمال أثناء

التضحية والاستخارة. وكثيراً ما اتخذوها أيضاً موائد وكراسي وأقاموها وسط البيوت أو علقوها على الجدران وهلمَّ جرّاً.

(١٨) يقدرّون قيمة الشاقل الذهبي في ذلك الزمن بنحو أربعة آلاف فرنك؛ فعلى هذا يكون في جملة ما أعد أغاممنون لاسترضاء آخيل أربعون ألف فرنك ذهباً.

(١٩) ذهب أفستاثيوس إلى أنه يُستفاد من هذه العبارة أنهم كانوا يتراهنون سباقاً أثناء الحرب وربما كان ذلك في مآتم بعض الأبطال، وإلا لو كانت تلك الجياد من ذوات السبق قبل الحرب لكانت هرمت وباتت غير صالحة للهدية. ويحسن بنا أن نذكر في هذا المقام أن سباقهم لم يكن كسباق العرب على ظهور الخيل بل كان جرياً بالعجال. أما من حيث شيوع تلك العادة عندهم فلم تكن تقل عنها عند العرب ولقد طالما أورثت النزاع والخصام كما سنرى في النشيد الثالث والعشرين على أنه لم يتصل بنا أنها كانت باعث حرب دامت أربعين عاماً كحرب بني عبس وفرارة على إثر سباق داحس والغبراء.

(٢٠) لا يكاد هوميروس يمدح امرأة صبيحة الوجدتين إلا إذا كانت صنّاع اليدين، وكثيراً ما يضيف إلى نعم الخلّاق محاسن الأخلاق بخلاف شعرائنا الأقدمين، وقل الحديثين أيضاً كأن المرأة إذا رزقت الجمال بلغت الكمال، فعسى أن يكون لنا من شعر جاهلي أعمى ما يرشدنا إلى سبيل ضللناه ونحن في حضارتنا مبصرون.

(٢١) أورست ابن أغاممنون.

(٢٢) المهر منذ القدم من حقوق العروس وأبيها أو من قام مقامه من ذويها، ولم يَصِرْ من حقوق الزوج في بعض الأحوال إلا في عصرنا أو ما ماثل ما ذكره هيرودوتس عن زواج البابليات، إذ كانوا يجمعون الأوانس الفتيات والعوانس اللاتي طال بهن القعود مرةً كل سنة، فيجتمع إليهنَّ كل عَزَبٍ وطالب، ثم يُنادى بأجملهنَّ وتدفع للدافع المهر الأعظم. ثم يُنادى بمن تليها حسنًا وهكذا إلى أن تنفق الجميلات فيؤخذ مهرهن جميعًا، ويُنادى بالباقيات مع إضافة مبلغ إلى كل منهنَّ وتدفع الفتاة التي لم ترزق الجمال للقانع بأيسر مبلغ إلى أن تتم المناقصة في الدور الثاني كما تمت المزايدة في الدور الأول. وهكذا فالجميلات يمهرن رفيقاتهن. وعلى كلِّ فليس من المهر شيءٌ للعرائس وذويهن، بل يؤدي لفريق من الأزواج ما يؤخذ من الفريق الآخر. على أن هذه الحكمة لم تُؤثَرْ إلا عن بابل. وأما العبرانيون والعرب فكانوا كاليونان. والمهر مهرا أحدهما للأهل والآخر للفتاة. فإبراهيم الخليل أهدى خرسًا من ذهب وسوارين إلى رفقة خطيبة ابنه إسحاق (تك ٢٤ : ٢٢) ويعقوب خدم لابان سبع سنين بمهر ابنته ليا وسبعًا آخر بمهر أختها راحيل (تك ٢٩ : ١٨-٣٠). والمهر في جاهلية العرب كان في الغالب لأبي البنت أو أهلها، حتى لقد كانوا إذا وُلِدَ لأحدهم بنتٌ يقولون له: «هنيئًا لك النافجة» أي المُعظمة لمالك لأنك تأخذ مهرها فتضمه إلى مالك فينتفج. وربما تجاوز الأهل

عن المهر لابتهم إذا كانوا من ذوي اليسار. والظاهر أن العرب لم يكونوا جميعاً على مذهب واحد من هذه الوجهة؛ إذ لو كانوا كلهم يرجون السعة وازدياد الثروة من وراء البنات لما فشت بين الكثير من قبائلهم عادة الوأد أو دفن البنات وهُنَّ حَيَّات.

أما القول بزواج البنت فكان لأبيها أو وليها يزوجه ممن أراد كما كانت العادة عند اليونان بقول أغاممنون، وربما رجعوا إلى خيار الابنة أو أكرهوها في خيارها كما روي عن ليلي عشيقه المجنون. قال صاحب الأغاني: «لما شهر أمر الجنون ويلي وتناشد الناس شعره فيها خطبها وبذل لها خمسين ناقة حمراء وخطبها ورد بن محمد العقيلي وبذل لها عشرًا من الإبل وراعيها فقال أهلها: نحن مُخَيَّرُوهَا بينكما فمن اختارت تزوجته، ودخلوا إليها فقالوا: والله لئن لم تختاري وردًا لنمثلنَّ بك فقال المجنون:

ألا يا ليل إن مُلِّكْتَ فينا	خيارك فانظري لمن الخيارُ
ولا تستبدلي مني دنيا	ولا برماً إذا حب القطارُ
يهرول في الصغير إذا رآه	وتعجزه ملماتٌ كبارُ

فاختارت وردًا فتزوجته على كره منها». ينبئك هذا السياق أن خيار البنت لم يكن حقيقةً لها إلا في حالات مخصوصة.

ولما جاء الإسلام أقر المهر والخيار كليهما للابنة وجعلهما لها حقًا يضمن لها الراحة بعد الزواج. وقسم المهر إلى قسمين العاجل وهو ما يُؤدَّى لها عند الزواج والآجل وهو ما تُعطاهُ فيما إذا طُلِّقَتْ فتستعين به على المعيشة بعد الطلاق.

(٢٣) المنوّر: المُخرج نوره أي زهره.

(٢٤) آذيس: إله الجحيم والموت لا تنفع الزُّلفى إليه؛ ولذلك لم تكن له عندهم عبادة ولم يشيدوا له الهياكل. كانوا يرسمونه على أوضاع شتى وهو فيهن جميعًا قابض على صولجان وعلى رأسه خوذة.

(٢٥) قد يلوح للمطالع أن أغاممنون سام نفسه حطة وذلاً بهذا الخطاب؛ لأنه شرع في الإقرار والاستغفار، ثم استطرد إلى استعطاف خصمه بالتحف السنية. على أنه في نظر الحكيم لا يزداد إلا وقارًا واعتبارًا؛ لأنه إذا كان نسطور أتى حكمة بإرشاده ونصحه فقد كانت حكمة أغاممنون أعظم بإذعانه وانتصاحه، والمقر بالخطأ لا يقل فضلًا عن المنبّه إليه. وترى من انتقاء تلك الهدايا أن أغاممنون كما قال أفستاثيوس لم يدع مطعمًا لأخيل إلا وعد بسدّه. فالذهب يُسكن من غيظه لو طمحت أبصاره إلى الثروة والمال. والسبايا الحسان وبنت الملك الأعظم تستميل قلبه لو كان مشغوفًا بريات الجمال. والمدائن السبع وما يتبعها من أبهة الملك تُبرِّد من حزازة صدره إذا كان طامحًا ببصره إلى عظمة الملك وواسع السلطان. وعلى الجملة فقد استجمع

أغاممنون كل كفارة يتصورها خصمه جديرة به. نقول: وأعظمها تزلفه إليه
بعد ذلك الشموخ وتلك الألفة.



آذيس إله الجحيم.

(٢٦) لقد أتى الشاعر حكمة باختيار أفراد هذا الوفد للمسير
إلى آخيل. ففينكس أستاذة وهو أكثر الناس نفوذًا وحرمة لديه. وأياس

أبسل القوم بعده ويجمعهما نسب باتصالهما إلى آياك. وأذيس داهيتهم. وهذيبوس وأريباطس فيجاهم المكرمان. فكأنه سير إليه الأبوة والبأس. والحكمة والدهاء. والحرمة والرعاية.

(٢٧) تلك سنة دينية كان لا بد منها قبل الشروع في الأعمال الخطيرة، وقد ذكرها هوميروس مرارًا ذكرًا إجماليًا وفصل هنا تفصيلًا لم يفصله في غير موضع. ذلك أنهم بعد أن غسلوا أيديهم دارت الفتية السقااة عليهم بكنوس الراح فكانوا يسقونهم بعد أن يمزؤا منها أي يشربوا نهلاً قليلاً، وتلك عادة شرقية لا نعلم مصدرها وإنما نعلم أن تحتها مغزيين: أحدهما أن الساقى إذا شرب من الكأس التي بيده أمن المسقى على نفسه من سمٍّ يُدسُّ فيها. ولا يزال سقااة العجم وأواسط آسيا يُجرون هذا المجرى في إسقاء القهوة وغيرها. ولا شك أنها بقية عادة قديمة تأصلت فكانت مصدر تلك السنة اليونانية. والثاني: وكنا نود أن نضرب عنه تأدبًا لولا وجوب ذكره إتمامًا للفائدة، وهو جنوح شارب الخمرة إلى التلذذ برشفها من كأس امتزجت بشيء من رضاب الساقى والسقااة في بلاد المشرق من خيرة الغلمان ونخبة الحسان. وقد سلف (ن ٥) أن زفس رفع غنيميد بن أطروس ملك طروادة إلى السماء فجعله ساقياً لفرط جماله.

(٢٨) ذكرنا أن الوفد مؤلف من خمسة نفر، ثم قلنا الآن «رسولا القوم» وهنا محل خلاف بين المترجمين؛ لأن الضمير في سار في

الأصل يحتمل أن يكون للمثنى والجمع، والأكثر على أنه للمثنى؛ فالرسولان بهذا الاعتبار أوديس وأياس وأما فينكس فإنما أُرسلَ عوناً لهما، والفيجان رفيقان لا بد منهما في كل رسالة.

(٢٩) محيط البرايا: لقب من ألقاب زفس.

(٣٠) قالت العرب: الغناء والغزف بآلات الطرب من أشرف الصناعات لأن صاحبها يتوصل بها إلى مجالسة الأمراء ومنادمة الملوك. وأما هوميروس فزادها شرفاً على ذلك بأن جعلها صناعة الملوك أنفسهم، وأشرف من ذلك أن جعلها للتغني بأعمال الأبطال وكبار الرجال، ولا مجلس أعظم هيبةً من مجلس بطل باسل وزعيم يتضرم لبّه للجهاد ويقعده عند الكيد والعناد. فإن ثناه القعود عن منازلة الفرسان فلا يطربه ويخفف عناه إلا تردد ذكرهم على هزج الألحان. ولا نديم أوفى وأكفى من رفيق كفطرقل ذي حمية وبأس يرضى بسراءٍ صاحبه وضرائه فيتخذ بؤسه بؤساً ونعيمه نعيماً.

(٣١) الوضم: الخشبة يقطع عليها اللحم.

(٣٢) الملح الذكي في الأصل الملح العلي أو الإلهي أي المقدس، وصفه هوميروس بهذا الوصف لأنه يقي الطعام من الفساد؛ وعلى هذا قول السيد المسيح: أنتم ملح الأرض فإذا فسد الملح فماذا يُملح. ومن هذا القبيل تسمية المصريين الملح بالمصلح.



آخيل يضرب على قيثاره وراءه فطرقل وتجاهه جاريتان.

(٣٣) هذه وليمة أولمتها ملوك لملوك، ولقد كاد يأنف بعض نقلة الإفرنج من ترجمتها زعمًا منهم بأن فيها غصًا من شأن الضيف والمضيف، فهناك الوفد يدخل على آخيل ولا حجاب لديه، فيقوم لهم ويصافحهم مصافحة الخلان ويجلسهم إليه ويولم لهم بيديه، وهنا صديقه فطرقل وحوذيه أفطوميدون يعاونونه معاونة الأصدقاء دون معاونة الأتباع، فأخيل يقوم مقام الندل (خدام الأكل) وفطرقل مقام الطهارة (الطباخين)

ولا غلام بينهم ولا عبد رقيق. تلك معيشة أولئك الملوك على سذاجتها ومع هذا فلم تأنف التواريخ من تدوين أعمالهم والشعراء من التغني ببسط حالهم. ولقد كانت تلك السذاجة في جاهلية كل أمة كما يتبين من التوراة ومن آثار العرب وحسبنا الرجوع بنظرنا إلى معلقة شيخ شعرائنا الكندي وهو لم يأنف على كونه من أبناء الملوك أن ينحر بيده ناقته بل افتخر في موضع آخر بقوله:
نمشُّ بأعراف الجياد أكفُّنا إذا نحن قمنا عن شواء مهضِبِ

(٣٤) لا عجب أن يكون أياس أول الداعين إلى الكلام وهو أحدث الوفد سنًا وأعظمهم بأسًا وأحرهم دمًا، فطبيعيٌّ أن يُعالَ صبرًا قبل رفاقه. وأما دعاؤه فينكس قبل الجميع فلعلمه بما له من دالة التربية على آخيل. وأما مبادرة أوديس إلى الخطاب قبل فينكس فدهاء منه لأن أوديس كان رأس الوفد فكان يجدر به أن يكون أول المتكلمين مع ما عنده من حسن التصرف، واستبقى فينكس مُتَكَبِّرًا يستند إليه إذا أخفق مسعاه.

(٣٥) النخب: الشربة من الخمر يشرب الرجل لصحة عشيره وليست كلمة «النخب» مذكورة بلفظها في الأصل ولكنها مُسْتَفَادَةٌ من سياق الحديث إذ يقول عوضًا عن «مرددًا بها نخب آخيل» «مستقبلًا بها آخيل».

(٣٦) بدا أوديس خطابه لآخيل بالسلام والعتاب كما فعل أمية بن الصلت إذ قال مخاطبًا لسيف ذي يزن تُبّع حمير:
سلامٌ أيها الملك اليماني لقد غلب البعاد على التداني

(٣٧) كانوا يزبنون مقدم سفائنهم بصور الآلهة فبقوله: «يقطع أطراف السفين» يشير إلى أنه يروم قطع تلك الصور وإحرازها ذخراً ثميناً يفتخر به ويعلقه في هياكل بلاده جرياً على عادتهم قرينةً من الظافر لمعبوده.

(٣٨) خطاب أوديس هذا هو أول حلقة من الخطب التي دارت بين آخيل ووفد الإغريق والتي يتمثل بها الأدباء فيتخذونها أنموذجاً لمناهج الخطابة. وحسبنا في هذا المقام إيراد مطالعة دلاموت عدو هوميروس. قال: لا خطب في الإلياذة أوقع وأدل على بلاغة هوميروس وعظمته من خطب هذا الوفد فإنها بصرف النظر عن كونها من لوازم المقام فإن فيها من حسن الوضع ودقة الانتظام ما يزيد المطالع رغبة في مطالعتها وارتياحاً إليها. يشرع أوديس في الخطاب فيحيط بحكمته بمقتضيات الحال وترتاح الفكرة إلى حسن انتقاء براهينه وحججه. فيجيب آخيل بحرية تشف عن إباء عظيم فترتفع بالفكر إلى عواطف الأبطال. فيأتي فينكس برقته فيتأثر القلب لكلامه. وهنالك يختتم أياص الجلسة بإنفة تشف عن عظمة وإباء. فتتفض الجلسة والعقل متلهب بهذا التعاقب البديع. ولا ريب أن هذا الترتيب يدل على عظمة الشاعر

وتسلطه على تحويل الفكرة كيفما يشاء بحسن تنسيق مادته. وإنني لعلّى يقين أنه ليس في الإمكان أن يكون إنموذج لحسن التنسيق خيراً من هذا. اهـ. قال يوب بعد إيراد ما تقدم: لا شهادة أعظم من هذه الشهادة على مكانة هوميروس لأنها كما ترى صادرة من كاتب اشتهر بعدوانه له وتحامله عليه.

(٣٩) ألمع آخيل هنا إلى دهاء أوديس الذي يُلجئُهُ إلى تقلب الكلام على أوجه شتى تَذَرُّعاً لنيل بغيته، فأراد آخيل أن يفهمه أنه من وجه غير غافل عن دهائه ومن وجه آخر يصرح مفصّحاً عما يخالج فكرته ليس إلا. وهو كلام ينطبق كل الانطباق على صفة الفتى الباسل ريبب المجد والحرية. قال قيس بن رفاعة الأنصاري:

أنا النذير لكم مني مجاهرةً كي لا ألامَ على نَهْيٍ وإنذارِ

وقال ميمون بن مبارك لعمر بن عبد العزيز: قل لي في وجهي ما أكره.

(٤٠) قال عنتره:

حلمت فما عرفتم حق حلمي ولا ذكرت عشيرتكم ودادي

ولعنتره كلام كثير بهذا المعنى كقوله:

ولا قيت العدى وحفظت قومًا أضاعوني ولم يراعوا جنابي

وقوله:

أذكر قومي ظلمهم لي وبغيهم وقلة إنصافي على القرب والبعد
بنيت لهم بالسيف مجداً مُشيداً فلما تناهى مجدهم هدموا مجدي

(٤١) قال السندي:

ولن يستوي عند الملمات إن عرت صبورٌ على لأوائها وجزوعٌ

(٤٢) الحمارس: المقدام، هذا المعنى مع اختلاف قليل وارد
كثيراً في شعر العرب كقولهم:
وما إن أرى الدهر في صرفه يغادر من شارخ أو يفن

(٤٣) انتقد بعض الشُّراح ضرب هذا المثل لما فيه من اللين
والرقة والمقام مقام شدة وعنف وهو انتقاد غير سديد إذ لا شيء أقرب
إلى تصور الحنق المستشيط من سابق رافة احتفظ بها على غير بارٍّ
بذمامه ونابذ حقوق وفائه.

(٤٤) الدراهس: الشدائد.

(٤٥) لأنهم قبل بلوغ إليون عاصمة الطرواد كانوا عاثوا في
أرضها ودمروا بلادها، يردد آخيل ذكرى بطشه ترديد عنثرة بقوله:
طرقت ديار كندة وهي تدوي دويّ الرعد من ركض الجياد
وبددتُ الفوارسَ في رباها بطعن مثل أفواه المزداد
وخثعمُ قد صبحناها صباحاً بكوراً قبلما نادى المنادي

غَدَوْا لما رَأَوْا من حَدٍّ سيفي نذير الموت في الأرواح حادٍ
وعدنا بالنَّهب وبالسَّبايا وبالأَسرى تكبَّلُ بالصفادِ

(٤٦) كانت العادة عند اليونان كما كانت عند العرب أن يتولى
زعيم القوم توزيع الغنائم، وغيظ آخيل هنا ووجده أشبه شيءٍ بغيظ العباس
بن مرداس إلا أنه أشد وأقوى. ذلك أنه لما وزع نبي المسلمين غنائم
حنين واستقل العباس سهمه أنشد:

كانت نهاباً تلافيتها بَكْرِي على المهر في الأجرع
وإيقاظي القوم أن يرقدوا إذا هجع الناس لم أهجع
فأصبح نهبي ونهب العبيد بين عينة والأقعر
وقد كنت في الحرب ذا تدروء فلم أَعْطَ شيئاً ولم أَمْنَعِ
وما كان حصن ولا حابسٌ يفوقان مرداس في المجمع
وما كنت دون امرئٍ منهما ومن تضع اليوم لا يُرْفَعِ

قال صاحب الأغاني: وقال رسول الله ﷺ: اقطعوا عني
لسانه. وأمر بأن يُعْطَى من النساء والنعم ما يرضيه ليمسك فأُعْطِيَ.

(٤٧) دعا آخيل بريسا السبية زوجته لأنه كان مصمماً على
اتخاذها زوجة لا لأنها كانت زوجته فعلاً.

(٤٨) القوامس: جمع قومس وهو الأمير، وفي كتب اللغة: القومس الأمير والقُمس الرجل الشريف. ولم تنبه أئمة اللغة على هاتين اللفظتين ولا أقرب من أن يكونا من (Comes) اللاتينية بمعنى الرفيق، ومنها كلمة كُوتت باللغات الإفرنجية للقب الشرف المعروف إذ كان أصحاب هذا اللقب مصاحبين للملوك وندماء لهم.

(٤٩) العظامس: جمع عطموس وهي المرأة الجميلة، هنا دليل آخر على احترامهم للسبايا في بعض الأحيان كما أشرنا في النشيد الأول فإن آخيل لم يأنف أن جعلها بالنسبة إليه كهيلانة بالنسبة إلى منيلاوس. (٥٠) يتهكم على أوديس وسائر الملوك، ويتكلم بأنفة الظافر بخصمه الذي يعلم أنه لا يسد مسدّه أحد.

(٥١) الراعس: المرتعش.

(٥٢) في ذلك إشارة إلى واقعة جرت بين آخيل وهكتور قبل حوادث الإلياذة.

(٥٣) أي إنه عزم أن يقلع إلى بلاده فجر ليلته.

(٥٤) جسن قلب العباب: أي شققه، من غريب وصف السفن المواخر في البحر قول طرفة:

يشق عباب البحر حيزومها بها كما قسم الترب المغايل باليدِ

وحيزوم السفينة صدرها. والمقابلة ضربٌ من المقامرة للعرب كانوا فيه يجمعون التراب ويدفنون فيه شيئاً ويعمد أحدهم وهو المغايل إلى شقه شطرين ثم يسأل عن الدفين في أيهما، فإذا أصاب المسئول قمر: أي ربح. شبه شق السفن الماء بشق المغايل التراب المجموع بيده. (٥٥) الأردمون النوتية.

(٥٦) الخلابس: الحديث الرقيق والكذب.

(٥٧) قد اختلف المفسرون في معنى كلمة (Xapoc) التي عرّبناها «بشعرة» فمنهم من فسرّها بهذا المعنى، ومنهم من فسرّها بقاريّ نسبةً إلى طائفة القاريين الذين كانوا من سكنة بيوتيا وكانوا يوصفون كزنكانة هذه الأيام (وهم النور أو العجر) بالخسة والبذاء لا يعاهدون ولا يوثقون، بل شأنهم شأن المرتزقة يؤجرون أنفسهم لموالة المستأجر بالمال. وكلا المعنيين يصحّ وضعاً للتعبير عن مرام آخيل. أما المعنى الأول فعندنا مثيله قول المتنبي:

أي عظيم أتقّي	أي محلّ أرتقّي
—هـ وما لم يخلق	— وكما قد خلق الله
كشعرة في مفرقي	محتقر في همّي

وأما المعنى الثاني فكثير في كلام الشعراء من كل الملل إذ يحملهم التحامل على أفراد أمة أو عشيرة على رميها كلها بالسبة والاحتقار كقول موزون بن عُمير:
يا باغي اللؤم إن اللؤم محتدُّ بنو قريظ إذا شابت نواصيها
تبلى عظام بني سكن إذا دفنت تحت التراب ولا تبلى مخازيها

وقول الآخر:

لا تمدحن بني سعد فإنهم نفوك عنهم وبعض القول مسموعٌ
لو أن قتلى تميم كلهم نشروا فأثبتوك لقييل الأمر مصنوعٌ

وأما بالنظر إلى الحقيقة التاريخية فقد قال لويريقوست: إنه لا يمكن أن يكون مراد هوميروس المعنى الثاني لأن القاريين لم يتسفلوا إلى تلك المهانة إلا بعد زمن هوميروس، وقد ذهب بعض المفسرين إلى رفض المعنيين وفسروا تلك الكلمة بالموت فيكون المعنى: هو عندي مثل الحمام بغيضٍ إلخ.

(٥٨) الطوائس: الجميلة. وأرخومينا بلدة قديمة كانت في بيوتيا وعلى أطلالها الآن بلدة قلباكي.

(٥٩) يدلّك هذا الكلام على معرفة هوميروس بأحوال مصر، فوصفه لثبس (طيبة أو طيوا) يقارب وصف هيرودوتس وغيره من المؤرخين.

(٦٠) الطوامس: البعيدة، فينوس اسم ذلفوس القديم. كان ذلك الهيكل يحوي من الرياش والذهب ما لا يحويه هيكل في العالم لتوارد النذور إليه من كل صقع ونادٍ فكانت التماثيل فيه من الذهب الصرف بقدر الإنسان والحيوان.

(٦١) الدلامس: الداهية، والمراد بها الموت. وقوله: خلال الأسنان كقول العرب: فاضت الروح من بين الشفتين، علمت مما مر أن آخيل هو الفتى المؤثر الموت على الحياة في طلب العلى والفخار، وهو إنما ينقلب هنا عن رأيه لا رغبةً في الحياة بل تشفيًا من عدوه وضنًا عليه بنصرته.

(٦٢) هذا مما يعظم قدر آخيل في تصور القارئ؛ لأنه لم يأت الحرب كسائر الأبطال معللاً نفسه بالفوز والنجاة معًا، بل أقدم وهو على يقين أنه لا يخرج منها سالمًا.

(٦٣) الملايس: البطيء، إلى هنا انتهى كلام آخيل الفتى الغضوب ولو اجتمعت مهرة الرسامين على استخراج رسمه لم تمثل لنا بصورة أملاً من هذه الصورة. رأيناهُ يشرع في الحديث شروع المترفع الناشئ منشأ ذوي الحسب والنسب أنوفًا واجدًا أول أمره وجدًا لا يشط به عن منهج الصواب، بل يتكلم بنوع من الإناءة والتروي رعايةً لأضيافه. فيذكرهم بما لقي من الإجحاف، ولا يكاد يذكر اسم أتريند حتى يلهبه الغيظ فيندفق كالسيل المنهمر ويستطرق إلى التهكم على سائر الأقيال

ثم إلى الوعيد والقول بالقول إلى الأوطان حيث يعيش قريير العين والبال. وكأن ذلك بعيد على مخيلته صورة حرمانه من المجد الباذخ فيتضور ويتهور وينهال بالسباب على أغاممنون وينبذ بأنفة واحتقار هباته وأمواله. ثم كأنه يتنبه إذ ذاك إلى تهوره فيجهد النفس بالتظاهر بالراحة والسكون فيرجع ويشير مرة أخرى إلى ما يلقي في بلاده من السعة ورغد العيش، ولا يرى وسيلة أروى لغيليله وأشفى لنفسه من الإعراض عن تزلف خصمه ردًا لكيده في نحره، فيتهدد بسرعة الإياب وذلك على ما يعلم أشد عقاب لخصمه.

(٦٤) لم يكن يجدر بأحد غير فينكس أن يجيب آخيل بعد ما ظهر منه من التصلب.

(٦٥) قالوا: إنه لما أرسل فيلا ابنه آخيل إلى الحرب كان في الثانية عشرة من عمره فيكون إذا ذاك في الثانية والعشرين. وكلام هوميروس هنا يدل على أن أستاذه إنما كان فينكس. قال أفستاثيوس: ويتضح من ثم أن ما قيل من أن آخيل كان ربيب خيرون إنما كان من مخترعات الأعصر التالية لزمن هوميروس.

قلت: وكيف يمكن أن يكون أقبل إلى طروادة وعمره لا يربو على الاثني عشر عامًا وله امرأة وولد.

(٦٦) ما أحسن ما قال تأبط شرًا بهذا المعنى:
سباق غايات مجد في عشيرته مرجع الصوت هدا بين إرفاق

حمال ألوية شهاد أنديّة قوال محكمة جوال آفاق

(٦٧) كان أرمين هذا ابن قرقافوس ملك الدولون في تساليا وهو مؤسس مدينة أورمينيوم.

(٦٨) لقد ذهب بعضهم إلى أن المراد بزفس الجحيم إله الجحيم على الإطلاق فيكون إذ ذاك آديس، وقيل: بل معناه الإله الأكبر لأن زفس كان رب الأرباب يمتد سلطانه إلى كل الأرجاء وإن كانت إقامته في السماء، وهذا ينطبق على معتقدتهم بوحدة الخالق، وقد أضيف هنا إلى الجحيم لطباق المعنى. ولكن كون فروسفين امرأة آديس يؤيد القول الأول.

(٦٩) لظى بركان أي النار لأن بركان (هيفست) هو إله النار واللفظة العربية مأخوذة من ثولكان وهو هيفست اللاتين.

(٧٠) اعترض بعض الشراح على هوميروس لإتيانه على هذا التعبير بزعمهم أن فيه بعض الغلظة التي يأنفها التصور. ولا أراها غلظة في الكلام عن طفل ولا سيما في عصر جاهلي، بل هي ذكرى وخير ذكرى لريبب شَبَّ بين يدي أستاذه وأنساه عنفوان الصبا مرارة طفوليته على ذلك الأستاذ.

(٧١) جاء في القرآن: الْمَالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وفي التوراة ترغيب كثير في كثرة النسل إذ وعد الله إبراهيم أن يجعل ذريته

بعدد نجوم السماء ورمل البحر. وفي الحديث: «لا رهبانية في الإسلام»
إشفافاً من ضياع النسل مع ورود مدح الرهبان في القرآن. وكان العرب
في الإسلام يعتزون بأبنائهم وينذرون النذور استزادة لذرايهم كما نذر
عبد المطلب لئن ولد له عشرة ولد ليذبحن أحدهم قرباناً. ولا يزال هذا
دأب الناس في كل ملة حتى يومنا هذا. ولا يُستثنى إلا ما أخذ من وجه
الزهد والورع كالتبتل في بعض الأديان. أما الرغبة عن الضنو من طريق
الفلسفة فقلّ من يقول فيه قول أبي العلاء:
هذا جناهُ أبي عليٍّ وما جئيت على أحد

(٧٢) قال بعضهم:

ولا أحمل الحقد القديم عليهم وليس رئيس القوم من يحمل الحقد

ومن هذا القبيل قول مالك بن أسماء:

نخلت له نفسي النصيحة إنه عند الشدائد تذهب الأحقاد

وقول عبدة بن الطبيب:

ودعوا الضغينة لا تكن من شأنكم إن الضغائن للقراصة تُوضَعُ

(٧٣) لم يجسم هوميروس تجسيماً أبدع من هذا التجسيم، فإنه

جعل الصلوات بنات زفس بالنفس. قال فينكس ذلك تهويلاً على آخيل
لإبائه إجابة ملتسمهم فذكره أنهن بنات الرب القدير، ووضعهن بالمقابلة
مع الزلة إشارةً إلى أنهن يتشفعن في الخطأ ويلتمسن الصفح. وقال: إنهنَّ

عُرْجٌ وجعد الوجوه وخُسْرٌ إشارةً إلى ضعفن وحزنهن وبطئنهن. وهن مع ذلك يتعقبن أُخْتَهُنَّ الزلة أو الخطيئة. (وقد فسرهما بعضهم بالإهانة أو الشقاء) ليدفعن ضررها ويتألفين شرها وهي كما ترى في البيت التالي بخلافهن قوية الجسم خفيفة البدن ولا يغنيها ذلك عنهن شيئاً لأن زفس من ورائهن.

(٧٤) لو رأينا في استعطاف آخيل بالهدايا مجرد الإطماع بالمال
لكان في ذلك ضعة من قدره على أنها لما كانت شعاراً للفخر وذل
الملتمس كانت مراقبة لإعلاء شأنه وإبلاغه منال الرفعة قبل منال الثروة.
قال المعري:

إن الهدايا كرامات لصاحبها إن كنَّ لسن لإسرافٍ وأطماعٍ
(٧٥) قال لبيد:

وفي غابر الأيام ما يعِظُ الفتى ولا خير في من لم تَعْطُهُ تجاربه
(٧٦) كانت باكورة الزرع في زمن هوميروس تُقَدَّمُ إلى أرطميس
ثم صارت بعد ذلك إلى ديونا.

(٧٧) يسير الأولى: بمعنى السهل، والثانية: بمعنى القليل.

(٧٨) أشار الشاعر بهذه الأبيات الستة إلى خرافة من خرافاتهم
مؤداها أن ألكيونة ابنة أيولس علق بها أفلون فسباها، ولما توفي بعلمها
ألقت بنفسها إلى البحر فمسختها ثيتيس طائراً. ثم إن أفلون سبي بعد

ذلك مرفيسا والدة ألثيا زوجة مليغر، فثارت الحمية برأس إيداس بعل مرفيسا فهب لقتال أفلون وانتهى الأمر بأن خيّرَ بين أفلون وإيداس فاخترت زوجها على عشيقها وأعيدت إليه، فلقت ابنتها كليوطرا بلقب ألكيونة لتشابه الحادثتين وكان الأولى أن تلقب به نفسها.

ذكر رواة العرب حادثة سبي كانت العاقبة فيها عكس ما كان من أمر ألكيونة. ذلك أن النعمان سبي ذراري بني تميم لامتناعهم عن دفع الإتاوة فلما دفعوها لأخيه الريان خير السبايا بين رجالهن وسُباتهن، وكانت بينهن بنت قيس بن عاصم فاخترت سابيها على زوجها. قال الميداني: فنذر أبوها ليدفن كل بنت تولد له فازداد وأد البنات بعد أن كاد يتلاشى من بين العرب قبل الإسلام.

(٧٩) يتصلى يتسعر ويتحرق.

(٨٠) يشير هذا البيت إلى أن ألثيا والدة مليغر كانت من قبيلة أعداء زوجها، وكانت لها يد في اشتداد الفتنة بين قبيلتين متناسبتين. ولنا في تاريخ اليونان والرومان والعرب أمثلة شتى على تناسب القبائل المتعادية والمتصافية التي تصبح متعادية بعد ذلك التناسب. فإن والدة طفقير أخي أبياس كانت أخت فريام ملك طروادة، وقراء رواية هوراس لراسين الفرنسي يعلمون أن أخت هوراس الروماني كانت خطيبة كورياس الألبى، وجليلة بنت مرة وأخت جساس كانت امرأة كليب الذي قتله جساس فأثار حرب البسوس الشهيرة في كتب العرب.

(٨١) أرينيس ومعناها المنتقمة: إلهة تتولى تعذيب الخطاة. وأربيا ومعناه الظلمات: يفيد على إطلاقه الجحيم وإنما هو نهر فيها. وكان أخا الليل (والليل إلهة أنثى) فتزوجها فولدت له النهار ثم كان في جملة العصاة على زفس فمسخه نهراً وأهبطه إلى الجحيم.

(٨٢) لا يزال شاعرنا كلما سنحت سائحة ييوح بميله إلى بنات الجنس الضعيف وإعظامه قدر الزوجية. فقد أَرانا هنا رجلاً حانقاً متحداً غيظاً تألَّب عليه أبوه وأمه وذوو قرياه وخلانه واستعطفوه بكل وسيلة فعادوا جميعاً خاسرين ولم يلتو ويلنْ إلا لالتماس زوجته. والوسيلة التي تَدْرَع بها الشاعر لإجابة ملتمسها من أرقِّ ما تتصوره العقول وأبعد ما تتخيله المدارك، أبرزت له كل ذلك بكلام موجز مثلت له به حالة البلاد المأخوذة عنوة فلم تُبق شيئاً يقال بعد قولها:

للمباني حرقاً وللقوم ذبحاً والغواني والولد ذلاً وأسراً

قال الشاعر العربي:

للسبي ما نكحوا والقتل ما ولدوا والنهب ما جمعوا والنار ما زرعوا

(٨٣) الدراهم: الشدائد. أي لو جئت من تلقاء نفسك لما أصبت مغنماً. أراد بذلك أن يستعجله للكفاح.

(٨٤) من كلام إبراهيم بن العباس:

إذا أنت لم تملك أخاك بقلبه وخافتك آمال به ومطالب

غدوت به مُرَّ المذاق وأَجَلَبْتُ عليك به في النائباتِ العواقبُ

قد انتُقد على هوميروس أن أطال الكلام بلسان فينكس بما تجاوز حدود الاعتدال. وهو انتقاد في محله لو لم يكن الحديث في ساعة من الليل قد سكن فيها الناس عن الحرب، ولو لم يكن يصلح أن يتخذ فينكس ذلك الإسهاب وسيلة لإخماد غضب آخيل لما يعلمه من عُتُوّه وتصلبه. ثم إنه ضرب له مثلاً رجلاً ليس في التاريخ من تُشبه أخلاقه أخلاق آخيل نظيره وهو ميليجر الإيتولي. وهذه القصة وإن اعترضَ على إيرادها في هذا الموضع فهي في حد نفسها قطعة تاريخية استنار بها كثيرون من الكتاب كسائر ما ورد في شعر هوميروس. ويرى أنصار صاحبنا ونحن في جملتهم أن له من وراء ما تقدم شافعاً عظيماً يشفع له بهذا الخلل إن كان ثَمَّة خلل.

(٨٥) يقول آخيل قول ربيعة بن مقروم الضبي:

أخوك أخوك من تدنو وترجو	مودته وإن دُعي استجابا
إذا حاربت حارب من تُعادي	وزاد سلاحه منك اقترباً
يؤاسي في كريهته ويدنو	إذا ما ضالع الحدثان ناباً

ومثله قول الآخر:

ولكن فتى الفتيان من راح أو غدا
لضر عدوّ أو لنفع صديق

(٨٦) قال أفستاثيوس: حثيما نظرت إلى كلام آخيل رأيت فيه تلك الطباع ممثلة تمثيلا. فإنه لما أجاب أوديس أجابه بكلام فظ متهدداً بالقول إلى الأوطان في فجر ليلته. على أنه لأن بعض اللين لفينكس ثم بعد كلام أياس نراه عزم على التبرص ولكن لا لنجدة الإغريق بل للذود عن حوض نفسه. وهكذا فقد أخذت سَوْرَةُ الغيظ تخمد خموداً قليلاً ولولا ذلك لظهر بمظهر الوحوش دون الناس وقد أخذ الشاعر على نفسه أن يخفف من شدته بالتتابع على مقتضى المجرى الطبيعي. ولو رأيناه أذعن دفعة واحدة للاح لنا تناقض عظيم بين ذلك اللين وذلك الخلق العنيف ولتأثر المُطَالِغُ من سرعة انتقاله من الغيظ إلى اللين.

(٨٧) النواطس: الرسل.

(٨٨) القناعس: العظيم الخلق، من كلام محمد بن عبد الله الأزدي:

وحسبك من جهل وسوء صنيعةٍ معاداة ذي القربي وإن قيل قاطعُ

ومثله قول كثير:

بصاحب لك ما داليت غلظت منه النواحي وإن عاتبته جحدا

وقول الآخر:

إذا سُمْتُه وصل القرابة سَامِنِي قطيعتها تلك السفاهة والظلمُ

وأحسن من كل ذلك قول إبراهيم بن العباس:

دعوتك من بلوى أَلَمْتُ ضرورةً فأوقدت من ضغن عليّ سعيها
وإني إذا أدعوك عند ملمة كداعية عند القبور نصيرها

(٨٩) قال أفسثاثيروس: إنه كان من عرفهم أن القاتل يُجلى عن بلاده سنة واحدة على أنه قد كان يتسنى له أن يسترضي أهالي المقتول بدية يدفعها إليهم فلا يُنفى من وطنه. تَدَرَّعَ بذلك أياس ليعنف آخيل على حقه لسبب هو دون القتل بكثير. وإن أياس بكلامه هذا القليل أفاد كثيرًا وكان أشد إلحاحًا على آخيل من سائر المتكلمين، كانت الدية فاشية عند العرب في الجاهلية وقد تَخَرَّصَ كَتَّابُهُمْ في أصلها تَخَرُّصَاتٍ كثيرة فقال بعضهم: إن أول من سنها عبد المطلب جد صاحب الشريعة الإسلامية لأنه نحر مئة من الإبل فداءً عن ابنه عبد الله. وقيل: بل أول من سن ذلك أبو يسار العدواني. وقيل: بل عامر بن الظرب. والصحيح أنها كانت فاشية بينهم قَبْلَ من ذُكِرَ بِأَزْمَانٍ. وكانت على أوضاع شتى، فتقل وتكثر على مقتضى الأحوال ونسبة القاتل إلى القتل. قال صاحب «الأغاني»: إن الغطاريف من الأزد كانوا يأخذون للمقتول منهم ديتين ولا يعطون إلا دية واحدة (١٢: ٥٠) وربما أبى أهل المقتول الدية على الإطلاق كما أبى قوم كليب أخذ ديته فثارت على أثر ذلك حرب بكر وتغلب. ولما جاء الإسلام أقر الدية ولكنه وضع لها أصولًا يُجْرَى عليها وقواعد يُرجع إليها في كل حال من الأحوال.

(٩٠) قال الشاعر العربي:

نزِيل القوم أعظمهم حقوقًا وحق الله في حق النزِيل

(٩١) هذا آخر خطاب ألقاه آخيل على الوفد، فنراه بأوله أذعن
إذعان الموافق لما رأى من صحة حجج أياس، ثم عاد فهاج غيظًا لتخيله
ذكر أغاممنون شأن الجريح الذي يسكن ألمه حتى يمس بموضع الجرح.
وهو مع ذلك في ما نرى أقرب للين منه قبلا إذ عزم على الإقامة في
موضعه بعد إصراره على الرحيل وهي خطوة كبيرة للرضاء والارعواء كما
لا يخفى.

(٩٢) الأشراع جمع شرعة وهي السفينة.

(٩٣) لم يبلغ أوديس أغاممنون إلا جواب آخيل الأول وهو
عزمه على الرحيل، ولم يقل شيئًا عن جوابه الأخير الذي عول فيه على
البقاء وهي حكمة من أوديس؛ لأن آخيل إنما قال بعزمه على البقاء
للدود عن حوض نفسه دون الإغريق؛ إذ لم يرم أن يهب لقتال هكتور
إلا بعد أن يكون قد نكل بأغاممنون وجماعته فكان من حسن دهاء
أوديس ألا يجعل أغاممنون يؤمّل بعون يأتيه من لدى آخيل ليشتد عزمه
وعزم جماعته بأنفسهم.

(٩٤) قال أبو الأسود:

بُلِيتُ بِصَاحِبٍ أَنْ أَدُنَّ شَرًّا يَزْدَنِي فِي تَبَاعَدِهِ ذَرَا عَا
أَبَتَ نَفْسِي لَهُ إِلَّا اتَّبَاعًا وَتَأْبَى نَفْسُهُ إِلَّا امْتِنَاعًا

ومن قول طرفة في معلقته:

فما لي أراني وابن عمي مالگًا متى أدنُ منه ينأ عني ويبعدُ

ومن لطيف كنايات ابن الرومي وقد شبه مخاطبهُ بالسهم:

توددتُ حتى لم أجد متودِّدًا وأفنيت أقلامي عتابًا مرددًا

كأنِّي أستدني بك ابن حنيّةٍ إذا النزع أدناه من الصدر أبعدًا

(٩٥) هذا ذيوميد الباسل والفتى المضطرم بنار الشبيبة والبأس

يفصل الخطاب ولم يكن يجدر بغيره أن يجاهر بهذا الاستغناء عن

آخيل، وليست بأول مرة أثبت فيها قوله بفعله فأتى خطابه هذا خير ختام

لهذا النشيد.

النشيد العاشر أوذيس وذيوميد يتجسسان العدو ليلاً

مُجْمَلُهُ

اضطربت أفكار أغاممنون لخيبة مسعاه في استرضاء آخيل، فلم يهجع طول ليله بل لبث يطوف في المعسكر ويوقظ القواد متبصرًا في السبل المؤدية إلى سلامة الجيش وفوزه على الأعداء. وكان أخوه منيلاوس أرقًا نظيره فأتاه يشد أزره وينفذ أمره، فأوقظا زعماء الجيش وذهب منيلاوس ونسطور وأوذيس وذيوميد يتفقدون الحرس فَأَلْفَوْهُمْ متيقظين فخطب فيهم نسطور ثم عقد مجلس الزعماء وأقروا بطلب نسطور على تجسس معسكر الأعداء. وألقوا عبء القيام بتلك المهمة إلى ذيوميد وأوذيس فذهبا تحت جناح الظلام.

وكان الطرواد قد فعلوا في معسكرهم فعل الإغريق فأنفذ هكتور ذواون يتجسس ليلاً. فقبض اليونانيان على الطروادي واستنبأه نبأ جماعته. ولما قضيا وطرحهما منه قتلاه وسارا إلى مضارب الشرايين فَأَلْفَيَاهُمْ نيامًا فقتل ذيوميد ملكهم ريسوس وألحقا به اثني عشر جنديًا من أجناده ثم رجعا بخيله. فاستيقظ الطرواد مذعورين ولكنهم لم يفوزوا

بطائل من القاتلين. فاختنفى الإغريق بهما واستقصوا الخبر فأخبراهم بما كان.

مجرى وقائع هذا النشيد في الليلة التي جرت بها وقائع النشيد السابق ومشهدها في المعسكرين.

النشيد العاشر

دون السفائن والدُجى قد خيمَا	هجم الهجوعُ على الجيوش مُنَوِّمًا
فتمتعوا بهنيئله لكنمّا	أتريدُ يَأْرُقُ بالهواجس مفعمًا ٢
كقرين هيرا إن أقام مهْيِّمًا	بردًا وسيلاً في البلاد عرمرمًا ٣
أو رام يستر ثلجُه وجه الثرى	أو تَفْعُرُ الحربُ المهْدَمَةُ الفَمَا ٤
في الجو تقصِفُ وامضاتُ بروقه	كفؤادٍ أتريدُ يهيجُ تَضَرُّمًا
لمعسكر الطرودِ يُلْفِتُ تارة	فيرى مقابِسَهُمُ بذِيَاكِ الحما
وعجيجهم وصدى ترسلهم على الد	شَبَابٍ والقصبِ الرخيمِ ترنمًا
فيعود مدعورًا وطورًا ينشئ	نحو السفائن ثم يُحْجِمُ مرغمًا
وشعوره بأصولها وفروعها	يجتثُ مبتهلاً لفرس تظلمًا
ويصعدُ الزفراتِ من لبِّ الحشا	متبصّرًا فيما عسى أن يُلْهَمَا
فبدا له أن الصواب بملتقى	نسطورَ علّ لديه رأيا أقومًا
ولعله بحجاه يدرك منقذًا	يُوقَى به الإغريقُ شرًّا أعظمًا

فاشتد منتصبًا وأدرك موثقًا
 وعليه ألقى جلد قسورة إلى
 وقضى منيلاً ليله أرقاً على
 يخشى على القوم الألى خاضوا العبا
 فعلى عريض الظهر ألقى مسرعاً
 وتريكته الفولاذ تعلو رأسه
 وعداً ليوقط سيد القوم الذي
 ألفاه في راس السفائن قائماً
 فبدا منيلاً بالخطاب: «أخي لما
 متجسساً يأتي العداة وخشيتي
 ولن وقعت عليه في قلب الدجى
 فأجاب: «أنت بحاجة وكذا أنا
 أفلا ترى زفساً تغير مؤثراً
 ما خلت ما بلغت قرماً غيره
 ما كان للأرباب ينسب مؤلداً
 فامض ادع آياساً وإيدمنًا كذا
 فعساه في الحراس يُنفذ أمره
 وعليهم من قبل أمرنا ابنه
 «أفانتظارك ألبشَنَ ليديهما

خفيه في رجليه وثقا مُحكمًا
 عقيبه يستره وقلّ اللهدما
 قلق يفكر ساهداً متألماً
 ب لأجله وأتوا يُريقون الدما
 برداً بهياً جلد فهدٍ مُعلماً
 وبضلب راحته السنان مقوماً
 كعظيم رب فيهم قد عظمأ
 مستبشراً لقدميه مستلماً
 ذا أنت مُدّرٍ أتبعي سيّدا
 أن لا ترى قرماً يُلبّي مفرداً
 فلذاك قلب لا يُراع من الردى
 لمصيب رأي نبتغيه مُنجداً
 قربان هكطّر فاجتياه مؤيداً
 أمثال هذا الويل أنزل في العدى
 وأنالنا الويلات تُذكر سمرّداً
 ك أنا إلى نسطور أذهب مُقعداً
 مذ فيهم قد كان أرفع سوّداً
 والشهم مريوناً فقال وقد عدا
 أم أبلغن وأرجعن مُخوّداً»

قال: «ابقِ ثَمَّةً فالمعسكر سُبُلُهُ
 سرٌّ صائِحًا بالجيش يصحُّ مناشدًا
 عَظْمُهُ لا متعظَّمًا واجهد فرَفَـ
 فكذا أغاممنون حَضُّ شقيقه
 ألفاه قرب خيامه وسفينه
 وتليه شِكْنُهُ البهية خوذة
 وكذاك لَأَمْتُهُ التي يجري بها
 شيخٌ وما أيامه بمُدْلَلَةٍ
 فَصَحًا يُمِيلُ الرأس متكئًا على
 «من أنت من بين السفان والحِما
 أفرمت بعض الصحب أم حراسنا
 فأجاب: «يا نَسْطُورُ يا فخر الأرا
 زَفْسٌ يهيل عليّ من دون الورى
 ولقد جفا طرفي الهجوع وساقني
 أبداً يورّقني وبأل رجالنا
 فالنفس بي جاشت وقلبي خافقٌ
 أفلا أتيتَ وأنت مثلي ساهدٌ
 فلعلهم في جُهدهم ونُعاسهم

شتى وأخشى أن نُضَلَّ بها الهدى^{١٠}
 كُلاً أباه ومُتَمَاهُ مَحْتِدًا
 من منذ نشأتنا قضى أن نُجْهَدًا^{١١}
 ولخيمٍ نسطور الحكيم تقدما
 وسِنًا على غض الفراش قد ارتمى
 والجوب والرمحانِ ثَمَّةً قُومًا
 للحرب في صدر الفوارس مُقْدِمًا
 لقواه بل ظلّ الكميّ الأيْهَمَا^{١٢}
 يده وأتريذا دَعَا مستفهما
 والناس ناموا في الدجى قد أسأدا^{١٣}
 لا تأتي بالصمتِ قل لك ما بدا^{١٤}
 غسٍ ذا أغاممنون فاعرفه اغتدى
 جهدا مدى عُمرِي يدوم على المدى
 قَلَقِي فجئتُك قاصداً مُسْتَنْجِداً
 والحرب قائمةٌ ومرجعهم غدا
 ومفاصلي ارتعدت وعزمي بُدِّداً
 تمضي إلى الحراس كي تَتَفَقَّدَا^{١٥}
 تركوا خِفَارَتَهُمْ وباتوا رُقِّداً

فمعسكر الأعداء ذاك ورُبَّمَا
فأجاب نسطور: «أيا مولى الورى
ولسوف يأخذه العناء إذ ارعوى
وَلَمْضَيْنَّ فَإِنِّي لَكَ تَابِع
ذا الرمح دُومِيذًا وَأُوذِيَسًا وَآ
ولنطلبنَّ الملكَ إِذْ مُمَّا وَآ
وكذا مَنِيلاس الذي أَجَلَلْتَه
ما كان أَجْدَرُهُ يَلِيكَ مُحَرَّضًا
أَفِيهَجَعَنَّ وَيَتْرَكَنَّ لَكَ الْعَنَا
فأجاب أتريد: «نعم يا شيخ كم
قد ينشئ حينًا ويلبثُ مُحَجَّمًا
لكنه أَبَدًا يُبَارِي مَوْقِفِي
وقد اغتدى قبلي وقد أَرْسَلْتُهُ
أَقْبِلْ نُؤَافِيهِمْ لَدَى الْحِرَاسِ فِي الد
فأجاب نسطور: «وما مِنْ لائِمٍ
ثم انشئ لِلدَّرْعِ يَلِيْسُهَا وَلِلـ
وردأوه بُرْدٌ مِنَ الصَّوْفِ الْكَثِيـ
بعراه شد يقلُّ رَمَحًا سَاطِعًا
ومضى يصيح فكان أَوَّلُ مَنْ دَعَا

في الليل أورى حربَه مُتَمَرِّدًا»
ما خلْتُ زَفَسَ مَرَامَ هَكَطَرٍ مُسْعِدًا
آخِيلُ يُخَمِدُ غِيْظَهَ الْمُتَوَقِّدَا
فنقيم هَاتِيكَ السَّرَاةَ الْهُجَّدَا
يَاسَ السَّرِيْعَ وَمِيْجَسَ الْمُتَجَلَّدَا
يَاسَ الْكَبِيْرَ ففِي السَّفَانِيْ أَبْعَدَا
ولئن تُغَطُّ فساَلْتَقِيَه مِنْدَدًا
أبطالنا مِتْرَلَفًا مِتْوَدَّدَا
والرُّزءُ بَرَّحَ وَالْوَبَالُ تَشَدَّدَا»
قبلاً سَأَلْتُكَ أَنْ تَلِيَهٍ مُفَنَّدَا ١٦
لا غفلةً وتَقَاعَسًا وتَعَمَّدَا
حتى يكون بحسنٍ مسراي اقتدى
بطلابٍ أَقْيَالٍ أَتَيْتَ مَعْدَدَا ١٧
أبوابٍ حَيْثُ لَهُمْ ضَرَبَتِ الْمَوْعِدَا»
يعصيه إِنْ يَأْتِ الْجُنُودَ مَشَدَّدَا»
حَقَّقَيْنِ يُوْثِقُ مُحَكَّمًا بَعْرَاهُمَا
فِ مِطْنٍ بِهَيِّ فَرْفِيرٍ سَمَا
فولأذه ثم السفائن يَمَمَا
أُوذِيَسُ ذِيَاكَ الْهَمَامَ الْأَحْكَمَا

فإذا به والصوتُ يخرقُ لُبَّه
 «فعلام ما بين السفائن والحِما
 فأجاب نسطور: «مَهٍ وانظر لما
 إلْحَقْ بنا ندع السَّرَاةَ ونرتني
 فلخيمه أوديس بالعجل انشى
 لِحما ابن تيزيس مضوا فإذا به
 ووساده زُرِّيَّةٌ ملفوفةٌ
 ورفاقه من حوله بهجوعهم
 ورماحهم أعقابها تحت الثرى
 فإليه نسطور تدنّى مُمَسِّكًا
 «قم يا ابن تيزيس أليالك كله
 أفخِلتَ جيشهم إزاء سفيننا
 هب ابن تيزيس وقال: «لكم أرى
 أفما بأبناء الأخاءِ فتيةٌ
 لكن أبيت سوى الجهاد ذريعةً
 فأجاب نسطور: «أصبت فإن لي
 لكننا في موقف حَرَجٍ على
 فاذهب وأنت فتى وتكفيني العنا

من باب خيمته عدا متكلمًا
 هذا التجول والظلام تلبدًا
 جيش الأراغس بالهلاك تهددًا
 أنكر أم تأوي الكتائب شردًا
 وأتى بمخوبه وأدلىج معهما
 بسلاحه تحت الفلا قد هوما
 وفراشه من جلد ثور أسحما ١٨
 كَلَّ تَوَسَّدَ تُرْسَه متجشما ١٩
 وطبا أَسَنَّتْهَا تَأَلَّقُ في السما ٢٠
 عقيه ثم دعا يصيح تهكما
 تكزى ومن لَعَبِ العدى ارتفع الصدى
 في السهل فوق هضابه قد أنجدًا
 يا شيخُ نفسك قد جهدت مُنْكَدًا
 يَسْعَوْنَ في استنهاض قومك رُودًا
 وعظيم بأسك للجهاد تعودًا
 وُلْدًا وغلمانا تُلَبِّي المقصدًا
 أمضى من المؤسى حياةً أو ردى ٢١
 أيقظ أياسَ وميجسًا مسترفدا

فعليه ألقى جلدَ قسورة إلى
فمضى أتى بهما وجمعهُم جرى
فبدا لهم زعماءُهم في يقظة
مثل النواهِس في الحظائر سُهَّدُ
فالوحش منحدر من الشَّمِّ العلى
والناس تقحّم والكلاب بصيحةٍ
فالنوم يهجرهم كما هجر الألى
أبدًا بذاك السهل يحرق طرفهم
فاهتز نسطورٌ لرؤيتهم على
«إيه بنيّ خفرتم فتيقظوا
واجتاز من ثَمَّ الحفيرَ وخلقه
وكذلك الشهم ابن نسطورٍ ومز
حلوا محلاً لم تدنسه الدِّمَا
فهناك مجلسهم تألف وانبرى
«أبكم فتى صحي بشتِ جنانه
فعسى يفاجئ منهم فردًا نأى
ويرى أعزُّمُهُم الثبث للوغى
أم عودةً لديارهم من بعدما
وعساه يسمع ثم يرجع ذاخرًا

عقيقه يستره وقال اللهمذا
يمضي إلى خراسهم مستعلما
بسلاحهم كلِّ حماه قد حمى
حول الخرافِ وسبعُ برٍّ هَمَّهُمَا ٢٢
في غابه ودجى الظلام تَقَتَّمَا
من حوله في الليل كي لا يَقَحَمَا
خفروا الجنود بجنح ليل أظلما ٢٣
مصغين خوف عدوهم أن يدَهَمَا
حذرٍ وقال مطيِّبًا متبسِّمًا
أو لا فتمسي للأعادي مورا»
صيدُ السُرى حتى تبتَّ وتبرَّما
يُونَا لذاك المنتدى استدعوهما
حيث التوى الليل هَكَطُرُ مُحَجِّمَا ٢٤
نسطورُ يفتح الحديثَ المفحِّما
عبءَ التجسس في العداة تقلِّدا ٢٥
أو عنهم يروي حديثًا أوردا
قرب السفائن شدةً وتوقدا
قد أعملوا فينا قنًا ومُهَنِّدا
في الأرض ذكرًا والسماء مخلدا

وكذاك نجبوه جَدًا لم يَحْوِه
من كل قيلٍ في السفائن نعمةً
ويكون في كل الولائم والمآ
فالصمتُ طال بهم فصاح ذِيَوْمَذٍ
فأنا أيا نسطور أخترق العدى
لكن معي إن سار من أصحابنا
إذ حيث سارَ اثنان بعضُهما بَدَا
والفردُ لو نظر السدادَ فربما عد
فلحاقَهُ الجُمُ الغفيرُ تَطَلَّبُوا
وكذا ابن نسطورٍ ومِرْيُونُ الفتى
أُذِيسُ ذِيَاكُ الهمام أخو النهى
كلٌّ يروم لِحَاقَهُ لَكِنَّمَا
«لَكَ يا ذِيَوْمِذُ الخيارُ فخذِ إذن
لكن حذارٍ بأن تعافَ جديَرَهُم
فبذاك أتريدُ أشار ترفَّقَا
أفلا أرى مولى أثينا أُوذِسا
وإذا بقلب النار كنتُ رفيقَه
فأجاب أُوذِيسُ: «مِهْ لَا تَمْدَحَنَّ

أحدٌ ولم يظفر بذِيَاكَ الجَدَا
سوداء ترضع خير جدي أسودا
دِبٍ من ذوي القربى الأعزُّ الْمُفْتَدَى
«قلبي يحدِّثني بأن أتجردا
فهم بمقربةٍ ولن أتردِّدا
أحدٌ أزيْدُ تشدداً وتجلدا
لا شك أدرك للمَرام وأرشدا
تاص السدادُ على حجاهُ وَعُقْدَا»^{٢٦}
ذاك الأيَّاسُ وذا الأيَّاسُ كلاهما
وكذا مَنِيَلَا مَن لِأَثَراسٍ انتمى
من لاختراق سرى العداة تحدَّمَا^{٢٧}
أَتْرِيذُهُم حسمَ الجدالِ مُحَكَّمَا
مَنْ رُمْتَ أبسلَهُم وأطولَهُم يَدَا
عطفاً على من كان أكرمَ مولداً»^{٢٨}
بأخيه قال: «لي الخيار إذا غدا
والعزم والرأي الرجيح مُسَدَّدَا»^{٢٩}
فبحزمه نلقى لمخرَجَنَا مَدَى
أو تَقْدَحَنَّ مُحَفِّضًا ومُصَعَّدَا

قد قمت ما بين الأغارق خاطبًا
 فالليل من أثلاثه ثلثين قد
 والفجر دان والظلام مُسارعٌ
 نهضنا وبالعد الثقل تدججا
 أعطى ذيويميدًا حسامًا قاطعًا
 ومجته وتريكة جلدية
 وأذيس مريون أعار سلاحه
 وتريكة جلدية بلفائفٍ
 وأدير من سن الخرائيص البهي
 قد كان عفتوليق في إبليين
 ولأفقداماس بإسقندًا حبا
 وأنا لها مؤلوس مريون ابنه
 فكذا برّواع السلاح تقدما
 رحم أثينا سيرته وفي الدجى
 فاهتز أوديس له مستبشرا
 «يا بنت رب الجوب كم أوليتني
 فالآن غوثك مذ علمت مآربي
 فنجشتم الطرواد قبل ما بنا
 ثم انبرى ذويميد يدعو بعده

وجميعهم عرفوا الصحيح المسندًا
 أفنى وأبقى منه ثلثًا أوحدًا
 والنجم مال فقم فقد قصر المدى» ٣٠
 والشهم ترسيميد قام إليهما
 حداه مئذ قد كان أعزل أقدمًا
 ملساء للفتيان كانت معلما
 قوسًا وجعبته وسيفا مخدما ٣١
 من داخل من فوق صوف أنعما
 صف عليها خارجًا قد نظمًا
 من صرح آمنطور أحرز مغنما
 فيها على مؤلوس ضيفًا أنعما
 وكذاك مريون لأودس سلما ٣٢
 وإذا بطير سار عن يمانهما
 سمعا وما رأيا يصيح مُنعمًا
 ووعا وخير الفأل فيه توسما: ٣٣
 عونًا جميع مسالكي قد مهّدًا
 ولنا أتيحي العود عودًا أحمدا
 مَضَضًا يذيقهم النكال مؤدًا
 «يا بنت زفس كذا اسمعي مني الندّا

ومعني فسيري مثلما في ثيبة
لما كُتبت لنا ثغور أسوفس
فقضى مآل رسالة سلمية
وقضى العجاب بعوده فكما أتي
ولقد نذرت ضحية بتبيعة
ولقد نذرت كذاك نذرًا صادقًا
دَعَوْا وسارا بعد بَثِّ دُعَاهُمَا
وتقدما أسدين بين ظلائم
أما الطراود فانبرى هَکْطُورُهُمْ
حتى إذا التأموا بمجلسه ارتأى
«من منكم إن يؤت خير هدية
فينال أكرم سَلَهَيْنِ لدى العدى
ويفوز بالشرف الرفيع إذا مضى
أهْمُ على ما عَوَّدُوا من يَقْظَةٍ
والعي أقعدهم وقد أنفوا السُّهَا
صَمْتُوا فقام فتى دَعَوْا ذُولُونَ أَوْ
فَیْجُ تَوَفَّرَ عنده بخزائن
ووحيد والده لخمس شقائق

رافقت قبلًا تَیْذُیُوسَ الأَمَجَدَا
حَلَّتْ إلى أبناءِ قُدُمَسْ أَوْفَدَا ٣٤
ثم انشئ قولتیه فَتَسَوَّدَا
والیت لي كوني الرفیق المرشدا
جبهاء ما رفعوا إليها المضمدا ٣٥
من فوق قرنيها أذُرُ العَسَجَدَا
ولدى أثينا حلَّ صوت دُعَاهُمَا
وجماجمٍ وملاحم تلقاهما
يدعو الأماثل خشيةً أن يهجعوا
أمرًا فقال لهم وكلَّ يسمع
عهدًا يعاهدني يُلَبِّي المطلَبَا
وأعزَّ مركبةٍ یَجِلُّ بها الحبا ٣٦
يتجسَّسُ الأعداء في طلب النَّبَا
أَمْ هَدَّ عزمهم النکال منکَّبَا
دَ مُعَوِّلِينَ على التملص مهربَا
مِیذِ فَبَرَزَ بالفئاس يطمعُ
فلولأذه ونُضَارُهُ الْمُتَجَمَّعُ
أعداهم جريًا ووجهًا أشنعُ

قال: «اصغ هكطورُ فإن بخاطري
وأسير للأسطول ليلي راصداً
فارفع عصاك إذن وأقسم مُثَقِّلاً
بجِئاد آخيل ومركبة بها
فأسير مخترقاً إلى لبّ الحما
حيث الملوك لدى أغاممنون قد
ما كنت تعلم ديدبانا جاهلا
رفع العصا بيديه هكطُرُ مقسماً
لن يعلون سواك خيل آخيل بل
ما كان هكطورُ ليقسم صادقاً
عجلاً مضى يأتي بقوس فارح
وبمغفر السنجاب يستر رأسه
لمواقف الأسطول سار وإنما
حتى إذا برح الحما والخيال والـ
فراه أودس قال: «يا دوميذ ذا
أترى أتى كي يرقب الأسطول أو
دعه إذن حتى يمر أماننا
لكن إذا ما اجتازنا عدواً ولم
واقطع سبيل قفوله لرجاله

جأشاً يحدثني بأن أناهباً
حركاتهم متحسّساً مترقباً
أني أثاب إذا عزمت مأوياً
فولأذه الصلب المؤلق ركباً
أعتان ثم لأبلغن المركب ٣٧
رأوا الفرار أو التبرص أرغباً
حتى لظنك بي أكون مخيياً» ٣٨
«استشهدن علي زفس المُرهباً
ستالها مني حالاً طيباً» ٣٩
لكنه ذولون شدد يُقنِعُ
وبفرو ذئب أبيض يتلفع ٤٠
وسنان عامله المثقف يلمع
هيهات من تلك الرسالة يرجع
فرسان جد مسيره يتسرّع
عين من الأعداء جاء مُحجّبا
من غدة القتلى يغل ويسلباً
فعليه نقبض حيث يُخرج مذهبا
ندركه بالرمح افتفيه مصوباً
والى السفائن رُدّه متعباً»

فتواربا زحفًا على القتلى على
حتى تناءى قيدَ ثَلَمٍ قاطعًا
(إن البغال لِشَقِّ قلب الأرض في الـ
فتنقَّياه فحلَّ وقع خطاهما
أملًا بأن سعاة هكْطَر وَجْهَتْ
لكن على مرمى القنا عرف العدى
كالخِيطَلَيْنِ مُثَقَّفَيْنِ تَأْتَرَا
ذو الناب بالناب الحديد مُرَوَّعُ
فَصَلَاهُ عن جيش الطراودِ نَائِيَا
دفعت فَلَاسُ دِيَوْمَدَا بعزيمة
ويكون ذاك القرم أَوَّلَ طاعن
هز القناة وقال: «قف أو لا فَخُذْ
فرمى يُصَرِّحُ فوق كاهِلِهِ بِهَا
فانهدَّ ممتقعًا وأَوْقِفَ هَالَعَا
وَبَا عليه ومن يديه أمسكا
«عَفَوَا وتَجَزَّلْ فدبتي ذهبًا وصُفِّ
وأبى يُبِيلُكُمَا الغنى إمَّا درى
فأجاب أوديسٌ بحكم دهائه

جَدَدِ الطريق وذاك جهلاً يهرع
مما تُثَلَّمُهُ البغال وتقطع ٤١
محراث من بقر الزراعة أَنْفَعُ
في سمعه فلوى الخُطَى يَسْمَعُ
بلحاقه فأتت تَجِدُّ وتسرع
فجرى وكلُّ منهما يتتبع
في الغاب أرنبةً وخشفاً يرتع ٤٢
والخشف يشأج واثبًا يتروّع ٤٣
حتى على العُصَّاسِ أوشك يُدْفَعُ
كي لا يصول عليه قَرْمٌ أَمْنَعُ
وذِيَوْمَدَّ بالطعن تالٍ يتبع
تؤتيك أَنْتُكَ الحمامَ مُقَرَّبَا
عمدًا فعاصت في الشرى تترعرع ٤٤
مُصْطَكَّةُ أسنانه يَتَلَعَلَعُ ٤٥
هُ فَقَالَ يشهق باكيًا يَتَخَضَّعُ
رًا والحديد مُثَقَّفَا ومُصَلَّبَا
أني على الأسطول حيٌّ في الخِجَا
«فاسكن ولا تخش الردى مُتَهَيِّبَا» ٤٦

قل صادقاً ما جئتَ ترقب مفرداً
أفجئتَ تسلُب أم بغى بك هكطُرُ
أم جئتَ من تلقاءِ نفسك خابطاً
«بل هكطُرُ أغرى وأورثني البلا
أفراسٍ آخيلٍ ومركبةً بها
لأسير والليل اذلهم مسارعاً
أسفينكم صنتهم كسابق عهدكم
والعي أقعدكم تعافون السُّها
فأجاب مبتسماً أذيسُ: «نعم فقد
لكنما هيهات إنسي على
إلا أخيل وذلك ابن إلهة
وسلاحه وخيوله وغيونه
أعلمت عزمهم التريُّص للوغى
أم عودةً لديارهم من بعد ما
فأجاب ذولونُ: «سأصدقك النبا
هكطورُ عن لعب الوغى في غزلةٍ
وهناك في شوره أهلُ المنتدى
لم ينظموا حرساً على جنباتهم
وأقام من حول المقابس ساهداً

والناس ناموا والظلام تقطَّبَا
عيناً لموقفنا أسير ليرقُبَا
فأجاب يخفق جازعاً يتهلَّلُ
إعدادُه صلةً يجلُّ بها الجبا
فولادُه الصلبُ المؤلِّقُ ركبَا
لمواقف الأعداءِ في طلب التبا
أم هد عزمكم الوبالُ مُنكبَا
د معولين على التملص مهرياً
أطمعت في صلةٍ تعزُّ تطلِّبا
تلك الجياد يطيق أن يتغلبا
فاصدُق وقل لي أين هكطُرُ كوكبا
ومعسكرُ الطرواد أين ترتبَا
قرب السفائنِ شدةً وتصلبا
قد أعملوا فينا الحسام الأشهبَا
عن كل ما قد رُمت تعلم مُعربَا
من نخبة الزعماء ألف موكبا
يقضون حول ضريح إيلو المُجتبى
لكنَّ جيشهم الهجوع تجنبَا
متكاثفًا متيقظًا متألِّبَا

لكنما الحلفاء ليس وراءهم
أَلْقُوا عَلَى الطُّرُودِ عِبَاءَ هُجُودِهِمْ
فأجاب أوديس: «وهل هُمْ جملةً
فأجاب: «من بعد اقتراع قِيُولِهِمْ
وكذا رماة فيُونيا وفلاسج
وكذلك اللَّيْلِجُ ثم يَثْمَرا
وكمأة خيل ميُونيا وفريجيا
وعلام ذا التقيبُ دونكما الهدى
فهنا الثَّراقَةُ جيشهم تَوَّأ أتى
ومليكنهم ريسوسُ خَلَتْ خيولُه
وعجيب مركبةٌ تُنِيرُ بعَسْجَدٍ
ما كان يجدرُ صُنْعُهُ ونَصَارُهُ
فِي اقصدِ الأسطولِ إما شئُما
وتحققا أصدقُ فيما قلْتَه
فعدا ذيوميذٌ يحملق صارخًا
بك قد ظفرنا لا ترمُ لك نجوةً
فإذا حييت مُسَرَّحًا أو مُقْتَدَى
لكن إذا أُورِدَتْ فِي الْعَجَلِ الرَّدى

ولد وأزواجُ تُرامُ فَتُسْتَبَى
ولفئُهُم عذبَ الهجوعِ استعذبا»^{٤٨}
أم كلُّ قومٍ في حماه تَكْتَبَا
في الجُرفِ عسكرَ قاريًا قد طَبَّبا
فَقَفُونَةَ والكل يهجع مُتَعَبَا
قد حل قَيْلَقُ لِقِيَا فوق الرَبى
وهناك عسكر ميسيا آل الطَّبى ٤٩
إن تطلبنا ثمَّ الولوجَ وترغبنا
طَرَفَ الحِمَا حَلَّوْا مَكَانًا أَقْرَبَا
كالثلجِ نُصْعًا والعواصفِ هُبَّبا
حول اللَّجَيْنِ على سلاحٍ أعجبا
بالإنسي بل وَيَزِينُ رُبًّا أَهْيَا
أو لا وثاقي فاشْدَدَاهُ واذهبَا
أم رمتُ عمدًا أن أروغ وأكذبَا
«لا تجعلَنَّ لك التملصَ مَأْرَبَا
ولئن بذلت لنا البلاغَ الأصوبَا
فلسوف ترجع راقبًا أو مُحْرَبَا
بين الأخاءِ لَن تَرْوَدَ وتضربَا»

فأشار ذولونٌ لعارضه يَمَـ
لكنْ ذيوميدٌ على العنق انتهى
فالرأس أهوى للحضيض مصدَّعًا
وكلا ذيوميدٍ وأوذسَ عامِدٌ
وكذاك جلدَ الذئب والرمح الطويـ
نذرًا لآئينا يقدم هاتِفًا
من كل آل الخلد أبناءِ العلى
وبنا إلى حيث الشَّرَاقَةُ عسكروا
وبجذع طرفاءٍ أناط مُكَنَّفًا
سِمَةً بَغَى في جنح ذِيَاك الدُّجَى
وتقدِّمًا بين القواضب والدِّمَا
وإزاءهم فوق الحضيض سلاخُهم
وإزاء كلِّ فَتَى جواداهُ وفي
ووراء مركبةٍ تليهِ أوثَقَتْ
فهناك أُوذِسُ كان أوَّل باصرٍ
«هاك الكَمِيَّ وهاكها أفراسه
فالبأس بأسك صُلْ فأنت مُدَجِّجٌ
حُلَّ الجياد وإن تشأ فأحلَّها
ويد ابن تِيذِيُسُ أثينا شَدَدَتْ

سُ بكفه متشفعًا يتضرع
بحسامه العَصَلَيْنِ قطعًا يَقْطَعُ ٥٠
مذ كان يهتف صارخًا يتصدَّع
لتريكةٍ والقوسَ منه يَنْزِعُ
لـ وكلها أُوذِيَسُ أمسك يرفع
«يا ربة اِقْبِلِي السلاح مُخْطَبًا ٥١
فلأنتِ أول من نروم تقْرُبَا
بخيولهم سيري فلن نَتَحَسَّبَا»
قصبًا وأوراقًا عليها تُجْمَعُ
لهما فلا تخفى به وتُضَيِّعُ
فإذا الشارقةُ بالهجوم تمَّعَّوا ٥٢
سطرًا ثلاثةً أسطر قد جمَّعوا
قلب الكُماة مليكُهم متمنَّع
أفراسُهُ الأنجَابُ لا تنفِرُ
فإلى ذيوميدٍ أشار يُشَجِّعُ
ذولونٌ لم يَكْ مائتًا متكدِّبًا
أو شأننا ذا اليوم أن نَتَنَكَّبَا
واضرب بأعناق الرجال مقصَّبًا»
فانقضَّ أسباب الرقابِ يُقْطَعُ

سَيْفٌ فَرَى وَدَمٌ جَرَى صَبَغَ الثَّرَى
كالليث فاجأ ثُلَّةً لم يرعَهَا
ما زال يبطُش فاتكًا حتى فرى
وأذيسُ ثَمَّةً كلما قُتِلَ امرؤُ
حرصًا على الخيل التي ما عُوْدَتْ
حتى إلى ريسوسَ ثالثِ عَشْرِهِمُ
أرداه وهو مُصْعَدُّ زفاراتِهِ
طيِّفًا بشكلِ ذِيومِدٍ فالاسُ قد
وأذيسُ حلَّ الخيل يقرنُها بمِضْ
ويقوسه يستاقها مذ فاته
حتى نأى فدعا ذِيومِدَ صافرًا
مترددًا أبجدعها يَجْتَرُّ مَرَّ
أم بين كلتا راحتيه يُقْلَعُهَا
وإذا بفالاسٍ إليه دنت تقو
فلرُبَّ رَبٍّ يوقظ الطرود في
فوعى ذِيومِدَ صوتها ثم اعتلى
فيألى الحمى طارا وربُّ النور فيـ
لم تخْفَهُ فالاسُ دُومِدًا تَلِي

وَتَصَدَّعُ وَتَوَجُّعُ وَتَفْجُعُ
راعٍ فمزقها وما هو مُقْلَعُ ٥٣
بحسامه اثني عشر قَرَمًا يَصْدَعُ
عقبه يَقْبِضُ والطريقَ يوسّع
عدواً على القتلى فلا تَتَضَعَّعُ
بلغا فجدله ذِيومِدُ يصرع
قَلْبُ لَطِيفٍ زاره يتجزع
بَعَثَتْ على رأسِ المليكِ يُوقِعُ ٥٤
مَدَّهَا وَجَدَّ بها يسير ويُقْلَعُ
سوطَ بمركبة أنيطَ مُرَصَّعُ
لكن ذِيومِدُ ظلَّ لا يتزعزع ٥٥
كبةً سلاحِ رِسُوسَ فيها يسطع
أم غُصَّةَ الموتِ الثَّراقِ يُجَرِّعُ
لُ: «ذِيومِدُ قد حان أن تتأوَّبَا
عجلٍ فتُخْرِجَ للهِزِمةِ مُرْعَبَا»
عَجَلًا وأوذِسُ بالحَيَّةِ يقرع ٥٦
بُسُ راقِبٌ حركاتها متطَّلِعُ
فانقضَّ محتدمًا وراح يُفَزِّعُ

وَأُفُوقُنَا مِنْ آلِ رِيسُوسٍ وَمُرَّ
 فَرَأَى يَهْبُ تَدْعُرًا مَا قَدْ جَرَى
 النَّاسُ تَخِيطُ بِالدَّمَاءِ أَمَامَهُ
 فَتَهَاft الطَّرَوَاذُ بَيْنَ ضَجِيجِهِمْ
 وَاسْتَعْظَمُوا قِحَةً بِهَا هَجَمَ الْعِدَى
 وَذُبُومِذٌّ وَأُذِيسُ لَمَّا بُلِّغَا الـ
 وَتَبَّ ابْنُ تَيْذِيسٍ تَنَاوَلَهَا وَفِي
 ثَمَّ اعْتَلَى وَالْخَيْلَ سَاطَ فَطِيرَتْ
 وَبِهِمْ بَدَا نَسْطُورٌ أَوَّلُ سَامِعٍ
 قَدْ دَبَّ فِي أُذُنِي وَقَلْبِي مُنْبِي
 فَعَسَى ذُبُومِذٌّ وَأَوْدُسُ أَقْبَلَا
 أَخْشَى التَّالِبُ فِي الْعِدَاةِ عَلَيْهِمَا
 مَا كَادَ نَسْطُورٌ يُتِمُّ كَلَامَهُ
 فَتَرْجَلَا وَالْكَلَّ جَاءَ مُسَلِّمًا
 فَبَدَا بِهِمْ نَسْطُورٌ أَوَّلُ سَائِلٍ
 «يَا فَخَرَ أَخَايَ الْمَبْجَلِ أَوْدَسَا
 أَمْ رَبُّ خَلْدٍ سَاقَهَا صَلَةً أَرَى
 فَلَقَدْ هَرِمْتُ وَخُضْتُ كُلَّ كَرِبْهَةٍ
 لَكِنِّي لَمْ أَلْفِ عَمْرِي مِثْلَهَا

شَدَّ قَوْمَهُ فِي الْحَالِ نَبَّهُ يُجْرِعُ ٥٧
 فِدَعَا رَسُوسَ رَفِيقَهُ يَتَوَجَّعُ
 وَالْخَيْلُ مَرِبطَهَا لَدَيْهِ بَلَقَعُ
 مَتَدَعَّرِينَ لَمَّا رَأَوْهُ وَأَسْمِعُوا
 فَسَطَوْا وَلِلْأَسْطُولِ لَيْلًا أَرْمَعُوا
 أَسْلَابَ حَيْثُ اسْتَبْقَيْتُ تُسْتَوْدَعُ
 عَجَلٍ إِلَى أَوْدِيسَ أَقْبَلَ يَدْفَعُ
 لِلْقَوْمِ يَحْمِلُهَا الطَّرِيقَ الْمَهْيَعُ ٥٨
 قَالَ «اسْمِعُوا يَا صَاحِبَ حَدْسِي مَا نَبَأُ ٥٩
 خَبَبٌ بِكَبْكَبَةِ الْجِيَادِ مُدْبِدِبًا ٦٠
 وَمِنْ الْعِدَى خَيْرَ الْجِيَادِ اسْتَصْحَبَا
 فَعَسَاهُمَا بَيْلِيَّةٌ لَمْ يُنْكَبَا»
 حَتَّى مِنَ الْبَطْلَيْنِ هَلَّ الْمَطْلَعُ
 بِيَمِينِهِ وَصَدَى الْمَدِيحِ يُرْجَعُ ٦١
 وَالْكَلُّ مُصْنَعٌ لِلْنَبَا مَتَوَقَّعُ
 هَذَا الْجِيَادُ فَقُلْ أَكَانَتْ مَكْسَبَا
 كَالشَّمْسِ تَلْهَبُ بِالشَّعَاعِ تَلْهَبَا
 وَأَبِيتُ عَمْرِي عَزْلَةً وَتَحْجُبَا
 فَلَرُبَّ رَبِّ مُجْتَبٍ لَكُمَْا حَبَا

فكلامكم للربّ زفس وبتيه
فأجابه أوديس: «يا نسطور يا
فالرب والأرباب آل كرامة
لكنّ هذي الخيل إثراقية
فديومدُ المقدام أردى قِيلَهُمْ
وكذا بثالثِ عشرهم فُزْنَا وكَا
عينُ أسيرٍ لهكُطُرٍ ورفاقه
واجتاز بالخيّل الحفير بغبطة
صحبوه حتى خيمةٍ لذيومدٍ
وهناك في الحب الشهيّ جياده
ومضى أديسُ بمنتهى أشراعه
نذرا يُعدُّ بها وكلّ منهما
ساقيه والفخذين يغسلُ دالِكا
حتى إذا ما اليمُّ رطب جسمه
مستأنفاً غُسلًا به متطيّبا
ثم اغتدى لطعامه وهناك ضا
منها يريق بأكؤسٍ مملوءةٍ

فالاس كان مقرّبا ومحبا
شرف الأخاء والحكيم الأنجا
لو شاء أتحفنا جيادا أطيّا
جاءت حديثا فانظرُن وتعبّا
وإزاءه اثني عشر قرما خصبا
ن إلى السفائن قادمًا متقربا
مستطلعًا أخبارنا متطلبًا
وكذا الجميع على المسرة أجمعوا
والخيّل فيها في المراط أودعوا
بمداودٍ نصبتَ لديها رثعُ
أسلاب ذولون الخضيبه يشع ٦٢
في البحر خاض مسارعًا يستتبع
عنقًا بها عرق يسيل ويهمعُ
للمسبح المصقول بادر ينزع
زيتًا به الجسم المرطب يمرع ٦٣
في الدنّ بالخمير الشهيّة مُشرعُ
نذرا لاثينا بها يتشفّعُ

هوامش

(١) نظمنا هذا النشيد على بحر واحد كأنه قصيدة واحدة قسمناها إلى قسمين: القسم الأول لوصف مجلس الإغريق وما تقدمه ووليه. والقسم الثاني لوصف مجلس الطرواد وما كان من بعده إلى آخر النشيد، وجعلنا كلاً من القصيدتين على قافيتين: إحداهما للأبيات المتضمنة قص الخبر، والثانية لأبيات الإنشاء أو الخطاب والجواب؛ فكان القارئ يقرأ قصيدة واحدة في أربع قصائد، وهو نسق لم نره في نظم شعرائنا ولعله يقع موقع القبول عند كرام القراء.

(٢) لا يفتح هوميروس نشيداً إلا ويأتي فيه ببيئة على سمو تصوره. فلقد رأيناه في استهلال النشيد الثاني يشير إلى عظمة الإله الأكبر وإلى تنبهه إلى أحوال الخلق، فيأخذ الناس والآلهة الهجوع ليلاً وهو لا تأخذه سنة ولا نوم. ونراه هنا يمثل تيقظ الزعيم المقدام بين البشر بمثل ذلك التيقظ والتنبيه. فقد هجع الجيش واستعذبوا الرقاد وأما أغاممنون فهو قلقٌ أرقٌ تنتابه الهواجس، يفكر في أمر جيشه ومصيره ويتشوف إلى وسيلة يدرأ بها الخطب المُلِمَّ. فليس مقامه هنا مقام الملك المعتر بباذخ مجده بل موقف الأب الرؤوف الساهر على أبنائه. وهي عظةٌ من جملة عظات هوميروس التي افتخر بها الأقدمون وتمثَّل بها المتأخرون.

(٣) قرين هيرا: زفس - وهو من غريب التعبير الهوميري ونادره - كثيراً ما سُمع في كلام العرب تكنية الرجل بابنته تكتنية الخليفة عثمان بأبي ليلى وتميم الداري بأبي رقية أو أمه كقول الفرزدق في زين العابدين: «هذا ابن فاطمة إن كنت جاهله». وربما انتسب فارسهم إلى أخته فوق من تقدم. ولكنه لم يرد عنهم التعريف بالزوجة إلا أن يراد به التعظيم في أحوال خاصة كأن يقولوا في الإمام عليّ: زوج فاطمة الزهراء. وهذا بخلاف قول هوميروس «زوج هيرا» إذ لم يُردّ تعريفه بها ولا تعظيمه، وإنما هو على ما يظهر اصطلاح مألوف في عصره.

(٤) إن هوميروس على كثرة تشابيه قليل الاستعارات ومع ذلك فإذا أتى باستعارة فإنما يوردها بأسلوب يطابق الواقع ويلدّ للسامع وأي أسلوب في وصف الحرب أبدع من استعارة الفم المفغور لالتهام أشلاء الرجال وأجساد الأبطال.

(٥) القسورة: الأسد، واللهزم: الرمح.

(٦) قال أفستاثيوس: إن منيلاوس إنما تَرَدَّى بفروة الفهد كما تردى أخوه أغاممنون بجلد الأسد؛ لأنهما إنما ذهبا في طلب مهمة لا في قصد قتال. ولا أظنها إلا هفوةً منه لأننا سنرى ذيوميذ البطل المقدم يتناول على منكبيه جلد الفهد أثناء هبويه من النوم وهو إنما يتقلده كما يتقلد السلاح ويخيل له أنه ذاهب للقاء العدو، وأبلغ من ذلك أننا رأينا

فَارِيس فِي النَشِيدِ الثَّالِثِ مُتَقَدِّمًا إِلَى بَرَّازِ مَنِيْلَاوَسَ وَعَلَى كَتْفِيهِ فُرُودَةٌ
فَهْدٌ.

(٧) سِيدُ الْقَوْمِ: أَيُّ أَغَامَمْنُونِ. يَسْعَى مَنِيْلَاوَسُ سَعْيَ أَغَامَمْنُونِ
كَأَنَّ خَاطِرِي الْأَخْوِينَ تَوَارَدَا عَلَى أَمْرٍ وَاحِدٍ. وَلَكِنَّ السَّبَبَ فِي تَوَارِدِهِمَا
مُخْتَلَفٌ فَهَذَا لِأَنَّهُ زَعِيمُ الْجُنْدِ وَذَاكَ لِأَنَّهُ سَبَبُ الْحَرْبِ.

(٨) لَقَدْ عَلِمْتُ أَنَّ كَثِيرِينَ مِنْ أَبْطَالِ الْيُونَانِ لَهُمْ عِلَاقَةٌ نَسَبٌ
بِالْآلِهَةِ وَأَمَّا هَكَطُورُ فَكَانَ بَشَرًا قَحَّاءً. وَلَعَلَّ أَغَامَمْنُونِ أَرَادَ بِقَوْلِهِ: «مَا كَانَ
لِلْأَرْيَابِ يَنْسَبُ مَوْلَدًا» أَنْ يَشِيرَ إِشَارَةً خَفِيَّةً إِلَى آخِيلَ، وَأُمُّهُ كَمَا تَقْدُمُ
مِنْ بَنَاتِ الْبَحْرِ.

(٩) لَدِيهِمَا أَيُّ لَدَى تَرْسِيمِيذِ ابْنِ نَسْطُورٍ وَمَرْيُونِ. وَالتَّخْوِيدُ:
الْإِسْرَاعُ فِي السَّيْرِ.

(١٠) يُؤْخَذُ مِنْ هَذَا الْبَيْتِ وَأَشْبَاهِهِ كَمَا مَرَّ بِكَ فِي أَوَّلِ النَشِيدِ
الثَّالِثِ وَالرَّابِعِ أَنَّ النِّظَامَ الْعَسْكَرِيَّ كَانَ بِالْعَمَلِ مُبْلَغًا عَظِيمًا فِي ذَلِكَ
الزَّمَانِ؛ لِأَنَّ السَّفَائِنَ كَانَتْ مَرْكَزَةً تَرْكِيزًا حَسَنًا صَفُوفًا مُتَفَصِّلَةً بَعْضُهَا عَنْ
بَعْضٍ يَتَسَرَّعُ لَهُمُ الْخُرُوجُ مِنْهَا وَاللِّيَازُ إِلَيْهَا وَالْإِقْلَاعُ بِهَا عَلَى أَهْوَنِ سَبِيلٍ،
وَالْمَعْسَكُ أَمَامَهَا مَرْتَبًا عَلَى أَحْسَنِ نَسْقٍ صَفُوفًا لَا يَخْتَلِطُ بَعْضُهَا بِبَعْضٍ،
فَلَا يَسْتَحُودُ عَلَيْهَا الْاضْطِرَابُ وَالْإِخْتِبَاطُ فِي الْهَجُومِ وَالِدِفَاعِ.

(١١) تقدمت لنا أمثلة كثيرة تشير إلى تساوي الأجناد وإن اختلفت الأنساب وتباينت الأصول. وهنا عظة أخرى من أغاممنون لأخيه يحظر عليه بها أن يتعظم وإن كان عظيمًا، وأما قوله: «فزفس منذ نشأتنا قضى أن نجهدا» فهو اعتقاد معظم الأمم منذ نشأتها. فالتوراة والإنجيل والقرآن وأشعار الأقدمين مشحونة بما يصرح بالاعتقاد بأن هذه الدنيا إنما هي دار عناء وشقاء. وما أحسن ما قال المعري بهذا المعنى:

تعبٌ كلها الحياة فما أعـ جبُّ إلا من راغب في ازديادِ
 إن حزنًا في ساعة الموت أضعا ف سرور في ساعة الميلادِ

(١٢) كثيرًا ما يتغنى شيوخ العرب ببأسهم تغني أغاممنون ببأس نسطور. قال المرار بن المنقذ:

عجبٌ خولة إذ تنكرني أم رأت خولة شيخًا قد كبر
 وكساه الدهر سبًا ناصعًا وتحنى الظهر منه فأطرب
 أن تري شيئًا فإني ماجدٌ ذو بلاءٍ حسن غير غُمُر

وقال حرثان ذو الأصبع العدواني:

إن تزعما أنني كبرت فلم ألف بخيلًا نكسًا ولا ورعًا

(١٣) أسأد: أي أغذ في السير.

(١٤) يؤخذ من هذا البيت أن شعار الليل لم يكن معروفًا في ذلك الزمن وإلا لما اضطر نسطور أن يسأل هذه الأسئلة، بل كان حسبه

أن ينطق بذلك الشعار، أقدم ما وصل إلينا من تاريخ العرب قبل الهجرة وبعدها يشير إلى أنه كان معروفًا في جاهليتهم. فقد كان شعار تنوخ لما نزلوا الحيرة «يا آل عبد الله» ولهذا سموا العباد (أغاني جزء ١١: ١٦٢) وقال علي بن برهان الدين في السيرة الحلبية (جزء ٢: ١٦٤) في الكلام على غزوة أحد: «فبينما المسلمون قد شُغِلُوا بالنهب والأسر» إذ دخلت خيول المشركين تنادي فرسانها بشعارها «يا للعزى يا لهبل» ووضعوا السيوف في المسلمين. إلخ.

(١٥) يظهر من سياق الحديث أن نسطور كان نائمًا عند قدوم أغاممنون فقوله له: «وأنت مثلي ساهدٌ» إنما هو من باب التلطف والرعاية ولقد يمكن أن يكون حقيقةً مستيقظًا لأنه كان السابق في الخطاب.

(١٦) مَفْتَدًا: أي لائِمًا.

(١٧) لا يذكر الشاعر منيلاوس مع أخيه إلَّا ويلتمس وسيلة لإبراز حنان أغاممنون على أخيه وشدة تعلقه به، حتى لقد ذهب حبُّه الأخوي مذهب الأمثال. ولا دفاع عن أخٍ أجمل من دفاع أغاممنون هنا فإنه أشار إلى تيقظ أخيه وأدبه وطاعته بقوله: إنه إذا أحجم فلا يحجم غفلةً وتقاعسًا بل رعايةً لأخيه الأكبر والتماسًا لأوامره وتمثلاً به، قال كل ذلك أغاممنون ولم يمسس بشيءٍ نسطور بل زاده إجلالًا وتوقيرًا؛ إذ

شرع في الموافقة على كلامه وتصويب رأيه ثم تملّص من لومه أطف
تملص.

(١٨) الزرية: الطنفسة، ويقول أهل العراق اليوم «الزولية»، ولم
أر لها استعمالاً في كتب اللغة ولعلها تصحيف الزرية أو إفسادها.
والأسحم: الأسود.

(١٩) لا يصف الشاعر حالة من الأحوال إلا ويُلْبِسها لبوسها.
أرانا نسطور هاجعاً وهو شيخ أضعفته الأيام فأبرزه على فراشه أعزل من
كل سلاح لا قبل له بحمله على فراش النوم. ولما أتى بنا إلى ذيوميد
وهو الفتى الصحيح الجسم القوي البنية هيأه لنا مُضْطَجِعاً بسلاحه
متهيئاً لأول ملمة ينتدب إليها. وكذلك لما وصف أرق أغاممنون صور لنا
أرق الراعي الساهر على خرافه القلق عليها. بخلاف أرق منيلاوس فهو
أرق المضطرب المتألم لكوارث الزمان والمشفق من انفلات الفرص من
بين يديه.

(٢٠) حسينا في بيان لطف هذا المعنى ورقة هذا الإغراق
البديعي أن نورد رواية لا بأس من تفكهة القارئ بها. ذلك أن السلطان
محمود الغزنوي كان يتقنص يوماً بحاشية عظيمة فيها العظماء والأمراء
والعلماء والشعراء، وكان له مضرب بديع الشكل عجيب الصنعة يقوم
على عمود طويل، فاستحسن أن يأمر الشعراء بوصف ذلك المضرب
وعموده الشائق، فقال العنصري قصيدة وثنى العسجدي بأخرى وقال

غيرهم مقاطيع وأشعارًا، وأما الفردوسي الملقب بهوميروس الفرس فأحرز
السبق بيت واحد تكاد تخاله أخذه حرفًا بحرف من أستاذه هوميروس
اليونان وهو:

فَرُّوْ شَدِّ بَمَا هِي وَبَرَّ شَدِّ بَمَا هَ بَنِ نِيْزَه وَبَقَّهْ بَارَكَاَهْ

ومعناه أن رأس العقب بلغ أسفله إلى السمكة (التي عليها الثور
الحامل الأرض على قرنيه) وأن قبة الملك بلغ أعلاها القمر. وزاد بيت
الفردوسي حسنًا بما فيه من الطي والنشر والجناس بين ماهي (السمكة)
وماه (القمر) وتعريبه شعرًا:

الكعب يدنو وتعلو قبة الملك من السماكين حتى مريض السمك

وقد اضطررنا إلى ما ترى من التصرف حفظًا للجناس المذكور.
وليس دون البيتين قوةً ومثانة بيت السموأل بوصف جبله وصفًا شبيهًا
بوصف رماح هوميروس وعمود الفردوسي وهو قوله:

رسا أصله تحت الثرى وسما به إلى النجم فرعٌ لا يُنال طویلُ

فإن لم نحكم بتوارد الخواطر بين هؤلاء الفحول جميعًا فنحكم
بلا ريب أن الفردوسي إن كان ناقلًا فهو ناقل عن السموأل دون
هوميروس لقرب المأخذ بين قمر الفردوسي ونجم السموأل، ولا غرو
فكل الصيد في جوف الفرى، فكلاهما في سماء أبيهما هوميروس.

(٢١) أي إن موقفنا بات حرجًا كأننا على صراط أحد من موسى فلم يبق إلا أن نميل إلى الجانب الواحد فنحيا أو إلى الجانب الآخر فنموت. «كراكب لجة إما وإما».

(٢٢) النواهس: الكلاب.

(٢٣) لما كان اليونان في حالة ضنك وشدة، كان هذا التشبيه أصدق وصف لحالهم فالحماة من الحيوان هم الحراس، والخراف الجند، والوحش المنحدر من الغاب هو هكتور، وجلبة الناس والكلاب اضطراب المعسكر، وكل ذلك صحيح المقابلة تام التمثيل.

(٢٤) زعم بعض المفسرين أن نسطور إنما اجتاز الحفير برهط الزعماء تنشيطاً للحراس؛ ليربهم أنهم لم يكونوا في موقف حرج. ولا نرى حاجة لهذا التخريج لأن الشاعر فسّر الكلام بنفسه إذ قال: «حلوا محلاً لم تدنسه الدماء» ولقد رأيت مراراً أن الورع وجهتهم في كل أعمالهم فاجتنبوا دنس الدماء عبادةً وتقرباً إلى آلهتهم.

(٢٥) إن في سؤال نسطور على هذا النمط لحكمة لا تخفى، إذ لو تكلف بنفسه انتقاء المتجسسين لهاج ريبة في النفوس وحسدًا لا حاجة إليه خصوصًا أن من ينتدب لهذه المهمة وإن كان له بذلك رفعة ومجد فهو بلا ريب مسوق إلى التهلكة ربما أوردته حتفه. فالقاء الخيار إلى الجند يدفع عنه مظنة الإيثار فيفسح المجال لطالب الفخار على خيرة منه.

(٢٦) قال محمد الوراق:

إن اللبيب إذا تفرق أمره فتق الأمور مناظرًا ومشاورًا
وأخو الجهالة يستبد برأيه فتراه يعتسف الأمور مخاطرًا

ومثله قول الآخر:

خليلي ليس الرأي في جنب واحدٍ أشيرا عليّ اليوم ما تريان

وأحسن منهما:

اقرن برأيك رأي غيرك واستشر فالحق لا يخفى على اثنين
المرءُ مرآة تريبه وجهه ويرى قفاهُ بجمع مرآتين

(٢٧) يظهر من هذا السياق ومن غيره أن تجسس الأعداء في تلك الأزمان لم يكن على ما نراه عليه في هذه الأيام. فهو لعهدنا مهمة يقوم بعبئها نفر من عامة الجند. وكان لذلك العهد مفخرة يتسابق إليها الملوك والرؤساء، وقد ورد مثل ذلك في أسفار العهد القديم إذ ذهب جدعون في سفر القضاة متجسسًا في معسكر المديانيين وهو إذ ذاك زعيم جند الإسرائيليين. وفي تواريخ العرب أنه لما خرج النبي من المدينة قادمًا لفتح مكة خرج من مكة ثلاثة من عظمائها متجسسين وهم أبو سفيان بن حرب وحكيم بن حزام وبديل بن ورقاء الخزاعي.

(٢٨) يؤخذ من كلام أغامنون أنهم كانوا ينظرون إلى الحسب والنسب نظر جاهلية العرب فأراد ألا يكون ذلك مانعًا يمنع ذيوهم من

تخير رفيق يكون أطول يدًا وأقوى جأشًا بصرف النظر عن أصله وفصله،
ولقد رمى بذلك إلى منعه عن انتقاء أخيه منيلاوس إشفافًا عليه لما
علمت من شدة شغفه بأخيه.

(٢٩) كان أوديس يلقب بمولى أثينا إلهة الحكمة لحسن تدبره،
وهي ماثرة امتاز بها ولم يكن له فيها منازع، ولهذا وقع خيار ذيوميذ عليه
موقع صواب من وجهين: الأول لأنه إنما صرح بإيثاره على من سواه
لحكمته لا لبأسه فلم يبق باعث الحسد من سواه، إذ لم يكن له مثل
بالحكمة والدربة إلا نسطور ونسطور شيخ هرم لا يصح انتدابه لهذه
المهمة. والثاني إشعارًا بأن المهام الخطيرة أحوج إلى أصالة الرأي منها
إلى البأس وهي عظة من صفوة عظات الشاعر.

(٣٠) إن التناسب جليٌّ في كل أقوال هوميروس فإذا أمنت
النظر في ما سبق في النشيد التاسع وهذا النشيد من خروج الوفد إلى
آخيل ورجوعه ونوم الجند وانعقاد المجلس وإصدار القرار؛ علمت أنه لا
بد أن يكون الشاعر قد قاس بحكمته الزمن اللازم لانقضاء تلك
الحوادث فمضى من الليل ثلثاه. ثم إنه غير خافٍ أن أصلح وقت
لتجسس معسكر عدوٍّ إنما هو الثلث الأخير من الليل حيث تكون
العيون قد هجعت بثقلة النوم. وإذا أضفنا إلى ذلك أن الشاعر راعى
الزمن اللازم لخمود تلك المقابس المشتعلة رأينا في كل كلامه تناسقًا
وتناسبًا لا تشوبهما شائبة.

(٣١) ومن دقة التصور وحسن التناسق أيضاً وصف نوع سلاح كل من العينين فذيوميذ وهو بطل مقدم قلّد سيفاً قاطع الحدين لأنه المتصدر للقتال المتصدي للأبطال، فالسيف سلاح المقاتل صدرًا بصدر لا بد له منه على كل حال. وأما أوديس وهو دونه صبرًا وقوة فلا بد له من قوس ونبال فهي أصلح لمن لا قبل له بقوى الفتیان. وأما الخوذة الجلدية فلكليهما خير في ذلك الليل من ترائك المعدن لأنها أستر لهم فلا تنبه ببريقها حرس العدو.

(٣٢) نرى الشاعر كلفًا بذكر تواريخ بعض القطع من عدد جماعته ككليفه، بذكر أنسابهم. فهو هنا يذكر تاريخ تلك التريكة كما لو كانت ذات شأن يجب تدوينه، ولا بدع فجاهلية القوم كانوا يفخرون بقدم سلاحهم كما يفخرون بقدم الجدود والجياد، وليس ذلك منحصرًا في يونان هوميروس بل لنا أمثال عليه كثيرة عند قومنا العرب، فإن ذا الفقار سيف علي بن أبي طالب والأبجر فرس عنترة العبسي جرت الأمثال بتاريخهما ووصفهما وأمثالهما كثير.

(٣٣) يتفاءل أوديس تفاؤل أبي نواس بقوله:
فالطير تخبرنا والطير صادقة
عن طيب عيش وعن طيب من العمر

(٣٤) أي إن تيديوس أبو ذيوميذ أوفد إلى أبناء قدموس إلخ. وقدموس هذا في أساطيرهم ملك من ملوكهم وحقيقة الأمر أن قدموس ليس سوى اسم وهمي، وأبناء قدموس المذكورون إنما هم جالية فينيقية

استوطنت سواحل اليونان وعلمتهم البحارة وشيئاً كثيراً من الصنائع. والكلمة فينيقية الأصل ومادتها في العربية كمادتها الفينيقية بمعنى القدم. وقد تكون من مادة ٢٦٦ (قَدِم) العبرانية بمعنى المشرق. فكأنهم أرادوا أن يقولوا قدماء الفينيقيين أو المشارقة فقالوا: أبناء قدموس ولذلك أمثلة كثيرة في التاريخ. ويرى فورستر (Forster)

في جغرافيته التاريخية لبلاد العرب أنه يراد بقدemos على ما في تاريخ أسطرابون قبيلة عربية هي نفس قَدَمَة المذكورة في التوراة. ولعلنا لا نعدم بعد هذا مؤرخاً يثبت أن أجداد اليونان البيوتيين بنو قدامة العرب من قضاة القحطانية.

(٣٥) التبيعة: البقرة في سنتها الأولى، والجبهاء: العريضة الجبهة، والمضمد: النير؛ أي إنها كما جاء في سورة البقرة: لَا ذُلُولٌ تُثِيرُ الْأَرْضَ وَلَا تَسْقِي الْحَرْثَ.

(٣٦) السهل الجواد الطويل وفي الأصل: «جوادين أجيدين» أي طويلي العنق، وإنما اخترنا السهل على الأجيد لأنه قد يُراد به الأجيد أيضاً وهي صفة ممدوحة في الخيل وكثيرة الورود في شعر العرب. قال زيد الخيل:

جلبنا الخيل من أجأ وسلمى تخبُّ نرائعاً خبب الذئاب
جلبنا كل أجرد أعوجي وسلهبة كخافية العقاب

قلنا: إن من مميزات لغتنا العربية توفر تعبيراتها الجاهلية والفطرية فهي بهذا المعنى أوسع لغة ولا تحاشي لغة هوميروس إذ كثيرًا ما يضطره الأمر كما يضطر كتبة الإفرنج الآن إلى تأدية معنى بكلمات نؤديهن جميعًا بكلمة واحدة، كقولنا هنا: السلهب أو الأجد للجواد الطويل العنق، واستعمالنا قبل أبيات قليلة التبيعة للبقرة ابنة سنة والجبهاء العريضة الجبهة وأشباه ذلك أكثر من أن تُحصَى. أما الحكم في كون ذلك من محسنات لغتنا ففيه نظر.

(٣٧) أعتان: أتجسس أو أصير عينا.

(٣٨) الديدبان: الرقيب والحارس والعين أي الربيثة، معربة ديدو بان بالفارسية.

(٣٩) كثيرًا ما رأينا عند ذكر الطرواد والإغريق تباينًا في وصف حالتهم إذا عمدوا إلى عمل واحد، ويظهر للمُنعم النظر أن الشاعر لم يتعد خطته خطوة واحدة في كل شعره. فقد أَرانا عند افتتاح النشيد الثالث انتظام الإغريق وتبريزهم على الطرواد بالفنون الحربية، وأَرانا بأماكن أخرى بالإشارة والتصريح ما كان من الحكم الشوروي عند اليونان والحكم الاستبدادي عند الطرواد. ولنا هنا مثال من لطف الأمثلة أثبتته الشاعر تلميحًا لا تصريحًا وقد تنبّه إليه أكثر الشراح لشدة جلالة ودقة برهانه. ذلك أنه لما عزم الإغريق على اعتيان أعدائهم عقدوا مجلسًا وقام فيهم شيخ حكيم يث رأيه ويدعو الأبطال للقيام بتلك المهمة وأما

الطرواد فيتكلم فيهم هكطور كلام المستبد المطلق. والإغريق يَعِدُونَ صاحب تلك المهمة بمال يسير وشرف كثير والطرواد يعدون بعتاء جزيل ولكنه عزيز المنال بعيد المطلب. والإغريق يتصدى أبطالهم لتلك المهمة طلبًا للفخار والطرواد يقوم ذولون بينهم طمعًا بالمال الغرار. فيتقدم أوديس وذيوميد ببأس وترؤ، ويتقدم ذولون بتهور وغرور. كل ذلك من الطباق العجيب دلالة على دستور القومين. وزد عليه أن بطلي اليونان لم يلتمسا عهدًا من نسطور على البر بعهد ذولون أخذ على هكطور العهد الوثيق والأيمان المغلظة. ونسطور وعد ما في الإمكان وهكطور وعد بما فوق وسعه.

(٤٠) القوس الفارج: البائنة عن الوتر وفي الأصل اليوناني: قوس حدباء.

(٤١) يُستفاد من كلام هوميروس في عدة مواضع يصف بها الحراثة والحراثين أن هذا الفن كان منذ ثلاثة آلاف سنة أرقى منه اليوم في كثير من الأقطار الشرقية.

(٤٢) الخيطل: كلب الصيد.

(٤٣) الحديد: أي الحاد، ويثأج: أي يصيح، ويتروع: يتخوف.

(٤٤) يصرح: أي يخطئ، وتترعرع: تهتز.

(٤٥) في كثير من شعر هوميروس مماثلات بين شعره وحكايته، ومن جملتها هذا البيت فإذا سمعه سامع عن الأصل تصور هيئة المرتعش خوفاً والمتهيب رعدة، ولقد حاولنا التشبه به في بضعة مواضع كما أشرنا قبلاً.

(٤٦) هذا كلام قاله أوديس لو قاله ذيوميذ لأفسده؛ فإنه في ظاهره تأمين لدولون على حياته، وسرى أنهما لم يؤمّناه عليها بل هدراً دمه، ولا شك أن دولون على اضطرابه أخذ المعنى على ما يريد لا على ما أراده أوديس؛ لأن قوله: «لا تخش الردى» مع ما فيه من التطمين لا يفيد تمام التأمين فقتلهما له بعد ذلك ليس بحنث ولا بخيانة على اعتقادهما.

(٤٧) ما أجمل الإقرار بالحق ولا سيما إذا نطق به العدو لعدوه، فترى في كل إنشاد هوميروس أنه لم يكن عدو منهم يخس قدر عدوه كقول أوديس هنا قد أعملوا فينا الحسام الأشهب، وليس هذا بالقليل في كلام شعرائنا الأقدمين كقول بعضهم:

سقيناهم كأساً سقونا بمثلها ولكنهم كانوا على الموت أصبرا

(٤٨) التمس الشاعر حجة ونعم الحجة لهجوع حلفاء الطرواد تقريباً لصدق روايته عن ولوج أوديس وذيوميذ بينهم؛ إذ لو كانوا متيقظين تيقظ الطرواد لما تيسر لهم ذلك.

(٤٩) آل الظبي: أي أصحاب الأسنة.

(٥٠) لعل القارئ يتوهم أن قتل ذولون مُخِلُّ بشرائع ذلك الزمان لأنه كان فيجاً على ما تقدم أي رسولاً، وربما كانت صفته هذه هي التي جرّأته على غير شهرة سابقة له في القتال على الإقدام على تلك التهلكة على أنه لا يخفى أنه لم يأت بصفة رسول بل بصفة رصد خفي، ولسنا نرى شرعاً حتى في أيامنا هذه يرفق بالجواسيس.

(٥١) لم يَرِدْ في التاريخ قبل هذا الموضع وما تقدم في النشيد السابع ذكر سلاح أهدي أو نُذِرَ لِإِله من الآلهة، ولكنَّ له ذكراً كثيراً في أزمنة مختلفة وأمم شتى بعد عهد هوميروس، ومن ذلك ما ورد في أخبار جاهلية العرب عن إهداء الحارث بن أبي شمر سيفين يقال لأحدهما: مخدّم وللآخر: رسوب إلى القلّس صنم بني طيء، وظلّاً معلقين عليه حتى أرسل نبي الإسلام عليّ بن أبي طالب في سرية إلى طيء في السنة العاشرة من الهجرة وأمره أن يهدم الصنم، فسار إليهم وأغار عليهم فغنم وسبي وكسر الصنم وأخذ السيفين وحملهما إلى النبي.

(٥٢) قال بشر:

وأما تميم تميم بني مرّ فألفاهم القوم رُوبي نياما

(٥٣) قال أبو مسلم الخراساني مفتخرًا باستئصال شأفة

الأمويين:

ما زلت أسعى بجهدي في دمارهم والقوم في غفلةٍ بالشام قد رقدوا

حتى طرقتهم بالسيف فانتبهوا من نومة لم يَنَمَها قبلهم أحدٌ

ومن رعى غنماً في أرض مسبعةٍ ونام عنها تولى رعيها الأسدُ

(٥٤) لقد يستغرب المطالع كيف تسنى لذيوميد أن يفتك كل هذا الفتك ولم يشعر به أحد ولكن الشاعر سبق فقال: إنهم كانوا متفرقين كلٌّ إلى جانب جواديه ومركبته فسهل عليه أن يبطش بكل فرد على حدته قبل أن يستيقظ الآخر. ولنا هنا برؤيا ريسوس ملكهم تصرف جميل يُستفاد منه بأسلوب شعري أن رؤياه لِطَيْفِ ذيوميد واقفاً على رأسه إنما كان يقظة لا حلمًا فعاجله ذيوميد بالقتل قبل أن يتمكن من استنفار قومه والدفاع عن نفسه والإيقاع بذيوميد، وما صدق على ريسوس لا يبعد أن يصدق على سائر القتلى.

(٥٥) ليس في ما نعلم ذكر للصغير ليلاً بين المتجسسين واللصوص والشرطة قبل هذا الموضع.

(٥٦) الحنية: أي القوس.



أثينا إلهة الحكمة.

(٥٧) يرى الناظر إلى كلام هوميروس نظرًا رمزيًا أن مراده بهذه الأبيات أن أثينا نبهت ذيوميذ إلى الكف؛ أي إنه كان من الحكمة وقد

دنا الفجر أن يرتد إلى قومه قبل أن يشعر به الأعداء، وأن أفلون أيقظ الشارقة أي إنه تجلى الصباح، وأفلون إله النور كما لا يخفى.

(٥٨) المهيع: الواسع.

(٥٩) نبا: أي أخطأ، لربما يستغرب المطالع أن يكون نسطور أول سامع لخب الخيل على هرمه الذي يقضي بضعف حاسة السمع، ولكنه لم يفتنا أن نسطور كان أعظم القوم تشوقاً إل استطلاع نتيجة تلك البعثة؛ لأنه المشير بها الملكي بذيوميد وأوديس إلى تلك التهلكة، المتنبه كل التنبه والمحصي الدقائق والثواني، ومع ذلك فليس في كل سياق الحديث ما يشير إلى ضعف حاسة من حواسه.

(٦٠) لو قرأ المطالع هذا البيت في الأصل اليوناني لرأى من مماثلة لفظه لمعناه ما يكاد يسمعه صوت وقع الجياد، ولعل في الترجمة العربية رائحة من تلك المماثلة التي حاول إثباتها كثير من الشعراء ولم يفلح منهم فلاح هوميروس إلا فرجيليوس بقوله:
**Quadrupedante putrem quatit ungula
campum** (أنياذة ن٨: ب٥٩٦).

(٦١) التسليم باليمنى أيضاً من جملة ما سبق هوميروس سائر الكتبة بالنص عليه، وكان نبي الإسلام يُسَلَّمُ بيمينه وببائعته الناس بيمينه، والمصافحة للسلام وغيره قديمة جداً عند العرب يدل عليها لفظها، فقد كانوا يتصافحون عند عقد البيع، ولا يزالون يفعلون ذلك في بلاد العجم

والعراق وبعض بلاد المشرق، ومن ذلك أخذت لفظة المُبايعة للاعتراف
بحكم الخلفاء، وكانوا يتصافحون أيضاً لعقد المواثيق وإبرام العهود من
ذلك أن ولي البنت كان يمدُّ يده إلى خاطبها إذا أراد أن يزوجهَا منه.

(٦٢) يشرع: يرفع.

(٦٣) يمرع: يدهن.

النشيد الحادي عشر المعركة الثالثة

مُجْمَلُهُ

لما بدت كوكبة الصباح سير زفس «الفتنة» فهاج الجيشان للقتال
فشكَّ أغاممنون بسلاحه واندفع بجيشه تحت رعاية أثينا وهيرا. وأما
الطرواد فأخذ زفس بيدهم وترىص هكتور لصد هجمات الأعداء
فالتحمت الحرب وأبرز أغاممنون من البسالة ما دُهِش له الطرواد فالتوا
أمامه وهو يتعقبهم ويفتك فيهم. فذهبت إيريس ببلاغ زفس إلى هكتور
تأمره باعتزال الحرب حتى يصاب أغاممنون بجرح أليم. وما عثم أن
جرح أغاممنون فاندفع هكتور وشدد عزائم جيشه فكادوا يظهرون على
الإغريق. وانبرى ذيوميذ لهكتور فصدّه وإذا بفاريس قد أطار على ذيوميذ
سهماً أقعده. فبادر أوديس لإغاثة وظلَّ يناضل حتى جرحه صوقوس وكاد
يهلك لو لم يسرع إليه أياس ومنيلاوس. وانقض أياس على قلب الجيش
الطروادي فهزمه فأسرع هكتور إليه من طرف الميسرة فانهالت السهام
على أياس كالمطر وجرح وقتل من زعماء الإغريق الجُم الغفير. وكان
أخيل يرقب عن بعد فأرسل فطرقل يتبين ما كان من أمرهم فقص عليه
نسطور ما نال القوم من الجهد والعناء، فعاد فطرقل إلى أخيل يتوسل إليه
أن ينهض بنفسه أو يلبسه سلاحه ليخدع به الأعداء ويرعبهم.

مجرى وقائع هذا النشيد في اليوم الثامن والعشرين
لافتتاح الإلياذة وستستمر وقائع هذا اليوم إلى النشيد الثامن
عشر. ومشهد الحوادث في ساحة القتال.

النشيد الحادي عشر

لما بدت غزالة الصباح	تنهض من مرقدها الفياح
وغادرت طيئون ذا الوجه الوضي	حتى على الجنة والناس تضي ٢
سير زفس فتنة الوبال	بيدها معالم القتال ٣
فانتصبت منتصف الأسطول في	مركب أوذيس الكبير المشرف
لتبلغ الفزعة كل العسكر	حتى أخيل وأياس الأكبر
إذ خيما وربطا القلاسا	في الجانبين شدة وباسا ٤
فدمدمت تدوي دوي الرعد	وشددتهم للقا المشتد
فآثروا الحرب وثقل المحن	على المآب لعزبز الوطن
فقام أتريد بهم وصاحا	بالقوم كي يقوّموا السلاحا
وشكّ في فولاذه الأغر	يلبس خفيه ببادي الأمر
وحول ساقيه بقديتين	أوثق حالا بعري اللجين
ولبس الدرع البهية التي	أهديها من قبل سير الحملة
من ملك قبريس كبير النّائي	تذكرة لمحكم الولاة ٥

مذ نبأ الإقلاع للطرواد
من أبدع السطور فيها اثنا عشر
ومن نحاس أبيض عشرون مع
وفي كلا الجنبين حتى العنق
حكى بقلب الغيم أقواس قزح
ثم على كاهله أتريذ قد
كلباه والحزام من أبهى الذهب
وقل تُرْسًا شائئًا بهيا
عليه دارت حلقات لامعه
وفيه عشرون من الحرابي
في وسطها حرباء فولاذ أغر
وحوله الهول ورسم الرعدة
يلتف في ثعبان روع أزرق
من ثم للمغفر أتريذ عمد
مربع الرأس بعرف أملس
وقل رمحين مثقفين
والرعد إجلالا له وشرفا
فأمرت فرسانه السُّيَّاسا
واندفعوا ماشين بالسلاح

على السفين شاع في البلاد
من النضار شائئات للنظر
عشرة أسحم فولاذ سطر
ثلاث حيات من الوشي النقي
بنياً زفس من السما طرح ٦
ألقى حسامًا بشعاعه اتقد
وغمده من فضة فيها العجب ٧
يستر كل جسمه قويا
عشر من الصفر البهي ساطعه
من النحاس الأبيض اللهب ٨
يبدو بها الغرغون رواع النظر
والدرع شدت بحزام فضة ٩
مثلث الرأس وحيد العنق
يلبسه من بعد هاتيك العدد
من شعر خيل هاج فوق القونس ١٠
حتى أعالي الجو ساطعين ١١
بأمر آئينا وهي را قصفا
تنظم قرب الخندق الأفراسا
بين صياح طرة الصباح

فانتظم الأبطال قرب الخندق
وزفس بينهم أثار اللغباء
أما بنو الطرود فوق الهضب
وحول فوليدامس المعصوم
وحول فوليب وأكاماس
والقيم المحمود أغنورا
وهكطر في صدرهم يدور
يخوض في ساقته فيأمر
ككوكب الهول الذي يستتر
يسطع بالحديد والفولاذ
فعند ذاك اشتبك الجيشان
فكلهم مثل الذئاب اندفعوا
تبتت الرءوس والأجساد
مد نظموا بزرعهم صفين
ولم يكن يشهد تلك الملحمة
وفي الألب سائر الأرباب
ولومهم لزفس طرا باد
لكن زفس ليس بالمبالي

تجري وراءهم عجال الفيلق
يمطر طلا بدم مخضبا ١٢
فانتظموا من حول هكطور الأبى
وآنياس المجتبى العظيم
فتى حكى الأرباب آل الباس
ثلاثة من ولد أنطينورا
في يده مجنّته الكبير
فيختفي ثم بصدر يصدر
في الغيم حينًا ثم حيًا يظهر
كبرق زفس اللامع الجاذ ١٣
وثار نقع الضرب والطعان
ولم يكن من للفرار ينزع
كسنبل يبتته الحصاد ١٤
في طرفيه متقابلين
بالبشر إلا الفتنة المهدمه
بشائق القصور باحتجاب
لميله لنصرة الطرود
يعتز في علياه باعزال

يحيط بالطرواد والأسطول
من البزوغ لارتفاع المشرق
وآن ما الحطاب يضوى تعباً
ويطلب الراحة بعد الغائلة
تألب الإغريق باشتداد
في صدرهم يجري أغاممنون
جندل أبيانور راعي الأمم
من فوق مركبته وثباً وثب
لكنما أتريد في الجبين
فحرق المغفر والعظم سحق
عراهما فلبثا ميتين
ثم انشئ يسطو على إسوسا
فذلك ابن غادة خليله
قد ركبا مركبة فذاكا
كليهما قَدْماً أخيل دهما
بيانع الخيزور أوثقهما
والآن أتريد إسوساً قتلا
وأنطفوس بحسامه قطع
فشائق الشبكة منهما سلب

والحرب والقاتل والمقتول
جند تردى وسهام تلتقي
في غابه وظمأ وسغباً
مهيئاً طعامه بالقائله ١٥
وخرقوا كتائب الطرواد
تسير في يمينه المنون
فتبعه السائق ويلوس الكمي
يلقى أغاممنون مشد الغضب
طعنه برمحه المتين
وبدد الدماغ والهامة دق
لاستر فوق ناصع الصدرين
من ولد فريام وأنطفوسا
لكن ذامن زوجه الحليله ١٦
ساق وهذا ولي العراكا
بطور إيذا يرعيان الغنما
ونال فديعة وأطلقهما
بطعنة في ثديه فجندلا
أذنه قطعاً فلأرض وقع
يذكر من أمرهما ماضي العجب

إذ كان قد رآهما في السفن
وصائلا مشى كليث داهم
يسحقها برائع الأنياب في
والأم تلك الظبية المرتجفه
مرتاعةً ملتاغةً تبغى المفر
تلهث عيًّا وتسيل عرقًا
كذاك في الطرود لم يكن أحد
ولّوا لدى الأراغس الفرارا
فيسندرا وإيفلوخًا دهما
من ولد أنطيماخس من منعا
إذ كان فارس رشاه ووهب
فعندما لديهما مثل الأسد
وارتجفت أيديهما فوقفت
فسجدا من فوق ذاك المجلس
«العفو والفداء فالتبر الأغر
فأنطماخ يجلز الهدايا
وبكيا تذلا وصغرا
«أليس أنطماخ والدكما

بأمر آخيل بذاك الزمن ١٧
خَشَفَةً واهنة العزائم ١٨
كناسها سحقًا بلا تكلف
لا حيلة لها برفد الخَشَفَةَ
في الغاب تجري بين ملتف الشجر
هالعةً من هول ذاك الملتقى
لولدي فريام ييذل المدد
وخلفهم أتريذ بأسًا ثارا
على مطا مركبة قد هزما
هيلانةً لزوجهما أن ترجعا
مالا وفيرا من متاع وذهب ١٩
لاح الجياد جمحت تحت العدد
أعنةً بها سناء سطعت
وصرخا بذلة الملتمس
والصفر والحديد طُراً مدخر
إن نبق حين على الخلايا» ٢٠
فلقيا منه الجواب المرا
بمجلس الطرود يومًا حكما

بقتل أوديس ومينيلًا وقد
ستلقيان الآن شر غدره»
جندله من فرق عرش العجله
رام انهزامًا وإلى الأرض وثب
بضربة عليه بالعزم اندفع
دفعه للأرض مثل الخشبة
تبعه كتائب الأجناد
فبطش الغلمان بالغلمان
وتحت وقع الخيل نقع ثارا
وتم أتريد يحض الجندا
هب على الأعداء مثل النار
تثيرها الريح وفي كل مهب
أمامه الطرود ولوا جزعا
وجامحات الخيل بالعجال
تدب ما ألم بالفرسان
أشهى هم الآن إلى العقبان
وزفس هكطور عن النقع حجب
وعن مدى النبال والنجيع
وظل أتريد على أعقابهم

جاءا رسولين وبالكيد اتقد
وطاعنا فيسندرا بصدرة
فإفلوخ بخفيف العجله
لكن أغاممنون بالسيف انتصب
ورأسه مع الذراعين قطع
وراح يجري بعظيم الكبكه
حيث تكثفت سرى الأعادي
وفتك الفرسان بالفرسان ٢١
في السهل للجو ذرا الغارا
مقتضبا مقتفيا مشتدا
شبت بغاب غضة الأشجار ٢٢
تلهم كل ما أمامها انتصب
وسيفه الرءوس قطعًا قطعًا
تضرب في السهل بلا رجال
تحت عجاج الضرب والطعان
منه إلى حلائل النسوان
وعن ضجيج القوم في ذاك اللجب
وعن تلاحم بهم فظيع
مشددًا يضرب في رقابهم

فدفعوا للتين ثم اجتازوا
لقبر إيلو ذلك الدردنسي
وآثرهم أترىذ دومًا جاري
يصيح حتى أبلغ الفرسانا
فوقفوا ييغون جمع الشمل
مثل العجول ذعرت فرارا
فأيها أصابه سحقه
يمتص لا مكتفياً دمائه
كذا أغامنون أصمى وسفك
ولوا ومشتدا عليهم حملا
ما بين مصروع من العجال
وعندما قارب إدراك البلد
من قبة السماء كالبرق انحدر
صاح بذات أجنح النضار
قال: «فطيري إيرس الرشيقه
فطالما أترىذ في صدر السرى
فليعتزل وليلق عبء الصد
لكن إذا بطعنة فاهقة

في وسط السهل وفيه انحازوا ٢٣
ييغون إليون بحر النفس
ملطخًا بالدم والغبار
أبواب إسكية ثم الزانا
وصحبهم تبعثروا في السهل
والليث في الليل لقد أغارا
محطماً بنا بابه عنقه
يزرد لا مشتفياً أحشائه
بساقة العدى بمن لاقى فتك
بالرمح يردي بطلا فبطلا
أهوى ومُسلنقٍ على الرمال
وسوره الشاهق في ذاك اللدد
زفس وفي إيذا بعلياه استقر
بيده عمود برق وار
وأبلغني هكطوراً الحقيقة
يبطش فيهم فاتگًا مدمرا
على سواه من سراة الجند
أصيب أو برميعة خارقة

وراح يعلو سدة العجال
لأولينه اشتداد البأس
لموقف الأسطول يسفك الدما
هبت هبوب الريح من إيذا إلى
ألفته في مركبةٍ منتصبا
يا عد زفس زفس بالرسالة
فطالما أترى في صدر السرى
فاعتزلن وألق عبء الصد
لكن إذا بطعنةٍ فاهقة
وراح يعلو سدة العجال
ليؤتينك اشتداد البأس
لموقف الأسطول تسفك الدما
غابت وهكطور إلى الأرض وثب
يرمح في كل السرى مستنهضا
فانقلبوا لساحة الهيجاء
واعتصب الإغريق واصطفوا فرق
مبرزاً عن سائر الشجعان
ولي فقلن يا بنات الشعر
ذاك ابن أنطينور الطويل

هكطور أولي نصره القتال
يكسحهم حتى غروب الشمس
حتى يرى قدس الدجى قد خيما»
إليون هكطور توافي عجلا
قالت: «أيا هكطور خذ مني النبا
أنفذني فاستمع المقالة
يبطش فيكم فاتكاً مدمرا
على سواك من سراة الجند
أصيب أو برميةٍ خارقة
هكطور تُؤتى الفوز في القتال
تكسحهم حتى غروب الشمس
حتى ترى قدس الدجى قد خيما»
يهز أطراف القنا بادي الغضب
مدججاً مشدداً محرضاً
مقابلين زمر الأعداء
واشتدت الحرب وأترى انطلق
مروعاً في ذلك الميدان
من جاء يلقاه بدء الأمر
أفیدماس الباسل النبيل

سبط لِكَيْسِيسَ أَبِي ثِيَانُو
لديه في إثراقفة الغنيم
وعند ما ترعرع استبقاه
لكنه غادرها على الأثر
أتى لفرقوت بشتي عشره
من ثم إليون أتاها برا
تقابلا حتى دنا التلاقي
فصرح الزج وفي الحال انثنى
أصاب تحت الدرع بالحزام
وظل لا يقلته من يده
في عروة اللجين بالوسط استوى
فعند ذا أتريذ كالليث وثب
واجتره منه وبالسيف قطع
يهجع مصروعًا هجوع الأبد
وأويحه عن عرسه الفتية
نأى وما إن كاد وهو ناءى
لها الصلات الغر قد كان ادخر
ويحماه العنز والغنيم

من شاع ذكرًا حسنًا الفتان
والخصب طفلاً شب في النعيم
في حجره وبنته أعطاه ٢٤
مذ شاع عن حرب الأراغس الخبر
سفينةً ينزل فيها عسكره
فذا الذي أتريذ رام كبرا
فزجه أتريذ بالمزراق
أفيدماس ويعنف طعناه ٢٥
فدفع العامل باحتمام
معتمدًا على قوى عضده
وكالرصاص اللدن في الحال التوى
وذلك الرامح بالرمح اجتذب
عنقه فغائر الطرف وقع
بذبه عن قومه والبلد
في البعد قد أميت شر ميتة
يلو شعار الحب والوفاء
مبتدئًا بمئة من البعر
لم يحصها عد ولا تقويم

خيرها منها بألف رأس
جندله مجردًا من شكته
فالخطب لاح لأخيه الأكبر
فذاب بثا وأسا عليه
فانساب لا يراه أترىذ هذا
فخرق الزج الحديد الحد
وصاح يدعو صحبه إليه
وفوقه قد أسبل المجنا
فارتاع أترىذ ولكن ما ارتدع
طعنه بالعامل الروّاع
على أخيه خر ميتًا فضرب
وهكذا فالأخوان انحدر
وظل أترىذ الوغى يبارى
يخوض ما بين الأعادي صائلا
حتى إذا ما ذلك السيل انقطع
واخرقت قواه آلام ولا
ترمي به بنات هيرا الظلم
ينفذ بالأعراض والإرماض
بشدة البث اعتلى ملتاعا

والآن أترىذ الشديد البأس
يرجع فيها لسرايا حملته
قاوون الفتاك والشهم السري
وأسود نور الشمس في عينيه
صفحته والرمح فيه أنفذا
مؤخر الساعد تحت الزند
مجتذبًا أخاه من رجليه
يدفع ضررًا وبقية طعنا
ثم على قاوون بالعزم اندفع
طعنة مقدام طويل الباع
عنقه بالسيف والرأس اقتضب
لدار آذيس بحكم قدرا
بالسيف والعامل والحجار
ودمه السخين يجري سائلا
ويبس الجرح تولاه الوجع
آلام سهم خارق قد أرسل
ألاشيئات التي لا ترحم
ويصدع المرأة بالمخاض ٢٦
وقال للتبع «ابتغ الأشرعا»

وصاح بالصوت الجهور العالي
عليكم الآن بإبعاد العدى
فإن زفس قد أبى إصداري
فطارت الخيل بسوط السائق
صدورهن قد كسين زبدا
ومذ رأى هكتور أتريد التوى
«يا آل دردانوس والطروادا
إيه فأنتم قادة الهيجاء
أبسل من في القوم طرا غربا
شدوا على الإغريق بالعجال
فهاجت النفوس بالجحافل
يثيرها صاحبها هياجًا
وهكذا هكتور عد آرس
وهو بصدر جيشه يثور
كأنه الإعصار من فوق اندفق
فيا ترى من أولا وآخر
أولهم كان الفتى آسيس
فابن قليطيس زلفس أورس

«يا صحب يا قيول يا أبطالى
عن موقف الأسطول والفوز بدا
بصدركم لآخر النهار» ٢٧
تجري وأتريد بقلب خافق
ونقع وقعهن للجو اغتدى
فصوته كالرعد بالقوم دوى: ٢٨
ويا بنى ليقىة الأمجادا
وسادة الإيقاع والإبلاء
وزفس لي نصرًا مبيّنًا وهبا
وادخروا مجددًا بلا زوال»
هياجها في أنفاس الخياطل
في إثر خرنوص وليث فاجا ٢٩
أثار طروادًا على الأراغس ٣٠
بشدة البأس بهم يسير
وفي عباب البحر قلب اليم شق
أباد مذ زفس تولى ناصرا
فعفط: نوس وكذا أوفيتس
وآغلأوس وأوفلطييس

وهيفنويس وإيسمن السري
لكنما قتلاه بين الجند
هب بهم ولا هبوب العاصفه
فتدفع الدبور غيما ركما
فتفلق اليم وتنشر الزبد
فاشد وقع الخطب والأمر انجلى
فصاح أوديس: «ذيوميد علا
لئن يفز أعداؤنا بالسفن
هي فكرٌّ معي:» قال وما
لكننا هيهات أن نؤتى الظفر
كر وثمريس في الشدي رمى
وتبعه مليون أيضاً قتلا
لا يشهدان الكر والنزالا
نظير خرنوصين كاسرين
فاعملا بين الأعادي الأسلا
ثمة عنق فارسين ضربا
من ولد ميروفوس من فرقوت
قد عصيا أباهما العرافا
ساقهما داعي الردى فأقبلا

وكلهم من زعماء العسكر
فتلك لا تحصي بحصر العد
تثيرها أنواء ريح قاصفه
نوطوس في السحاب لما هجما ٣١
كما رءوس القوم هكطور حصد
وكادت الإغريق تضوى فشلا
م بأسنا ولى برزء ثقلا ٣٢
وأخزية العار وثقل المحن
يهولني العدو مهما ازدحما
فإنما الطرواد زفس قد نصر»
فخر للأرض وأوذس هجما
وغادراهما على تلك الفلا
وانشيا من بعد ذا وصالا
على كلاب الصيد مرتدين
واهتزت الإغريق طرا جذلا
واستلبا مركبةً قد ركبا
أبسل من في القوم من رتوت ٣٣
واتبعوا إلى الوغى الأحافا
على ذيوميد الفتى فجنடلا

أحمد أنفاسهما وراحا
وأودس جنبدل هوفيداما
وزفس في إيذة بالمرصاد
فاصطدم الأبطال من كل الفرق
وغسطروف بن فيون جرحا
قد خاض مغتراً سرى الطلائع
والخيل والسائق في الساقة قد
هناك هكطور رأى وانصدعا
واندفعت من خلقه كل السرى
قال: «أرى هكطور رواع الملا
قف ندفعنه» وبالعزم وقف
ف فوق رأس البيضة الرمح وقع
والقونس المثلث الأطراف
ذلك من فيوس فضل أعظم
وارتد هكطور وبالجمع اختلط
ليده مستنداً حيث التوى
وريشما هب ذيوميذ وشب
أفاق هكطور وبالفور اعتلى

من بعد ذا يستلب السلاحا
وهيفريخاً يصطلي احتداما
فوازن القوات في الأعادي
وزمر العدى ذيوميذ اخترق
برمحه في حُقه فانطرحا
برجله يخوض في المعامع
ظلت وعنه انقطعت عرى المدد
وصاح في الأبطال ثم اندفعا
حتى ذيوميذ الهمام ذعرا
يا أودس فوراً علينا أقبلا
مسدداً ونحو رأسه قذف
لكنما الفولاذ فولاداً دفع
عن رأسه رد السنان الجافي
فهو بهذا المغفر قدماً منعم
وفوق ركبتيه للأرض سقط
وأظلمت عيناه منهه القوى
يطلب رمحه وفي الأرض نشب
وساق بين الجمع يأبى الأجلا

فصاح ذوميذ وبالقناة
يا كلب كاد عاملي يصميكا
لست تؤمُّ الحرب عفوًا أبدا
لكنني سوف أليقك الردى
قد فاتك الفوت فرح والآنا
ولاستلاب ابن فيون عكفا
مقتلَعًا مغفره ثم المجن
فَاتَكَا القوس على العمود
وأرسل السهم فشق القدم
وزوج هيلانة من حيث ولج
مفقهَهَا متهجًا مفتخرا
يا حبذا لو غاص في أحشاك
أنت الذي كلهم منك ارتعد
أما ذيوميد فجاش وانتشى
سدوت مغترًا بذي القوس ألا
حتى ترى يا أخسأ النبال
وأنها لن تدفعن عنك الأسا
أنا لك السر بإدراك القدم
ما ضرر سهم خاسئ رعييد

جری: «أأيضًا فزت بالنجاة
لو لم يبادر فيبس يقيكا
إلا به مسترقدًا مستنجدا
إن تؤتني الأرباب يومًا مددا
سأبتغي سواك أيًا كانا»
فجرد اللأمة ثم انعطفا
إذا ياسكندر خلصة كمن
في قبر إيلو الشيخ فخر الصيد
وغاص في الأرض بسيال الدما
في ذلك الكمين في الحال خرج
«لم أخطئ المرمى وسهمي صدرا
ليأمن الطرود من ملقاكا
كرعدة الماعز من بطش الأسد» ٣٤
قال: «وما غرك يا وجه الخنا
ما جئتني وجهًا لوجه مقبلا
أنك لا تعد في الرجال
وإنما حاملها زير نسا
مني وهل يذعر ذا أهل الهمم
يهلع كالأوغاد أو كالغيد

وأين أنت من مرامي أسلي
أزواج من خر منهم أيامي
ودمهم يسرب والأجساد
وحولهم طير الفلا تحوم
وانقض أوديس يقيه فجلس
فاشتدت الآلام فيه فاعتلى
فبات أوديس كذا منفردا
مذ شمل الرعب قلوب الأرغس
«ويلاه ما الحيلة إن أنهزم
وإن تربصت وزفس الأعظم
لا كنت يا هاجس دعني هل ترى
وليس للباسل أن ييالي
وبينما يجول ذا بفكره
إذا بدراع العدى تجمهروا
كفتية بزمرة الكلاب
فيرز الوحش ويصلي غضبا
يصر بالأسنان والقناص قد
فما هم يخشون منه الدركا

ينفذن مذ يصدرن سهم الأجل
وولدهم في بؤسهم يتامى
ييدها في أرضها الفساد
من بعد أزواج بهم تهيم»
يخرج ذاك السهم من حيث انحبس
وقال للسائق: «عد بي عجلا»
ليس له من يتغيه عضدا
فنفسه ناجى بحر النفس
فالعار كل العار بين الأمم
بدد قومي فمصيري أشأم
غير الجبان النكس ولّى مدبرا
أصاب أم أصيب في النزال»
مكتبًا مفكرًا بأمره
وبينهم أس بلاهم حصروا ٣٥
تقنص خرنوصًا بطن الغاب
ويشحذ الناب ويبدو مرعبا
داروا عليه وهو بالغيط اتقد
وهو بمن أصاب منهم فتكا

وهكذا أوديس بالرمح وثب
ثُمَّ ثوون وأنوم قتلا
فهب من مركبةٍ يبغيه
رماه تحت الترس في سرته
ثم انثنى وابن هفاس طعنا
فانقض صوقوس أخوه الأيهم
يا زبدة الإقدام والدهاء
إما حمام ولدي هفاس
هذا وإما من قناتي الردى»
فنافذ السنان في الترس مرق
لكن أبت فالاس بالخفاء
ولم يفت أوديس أن الجرحا
وصاح في صوقوس يا هذا الشقي
ألجأتني حينًا إلى ترك اللقا
وبصقيل عاملي إن تقتل
فارتاع صوقوس وقد رام الهرب
ورمحه ما بين كتفيه ولج
فخر في صلصلة الحديد
«صوقوس ما أنجتك هبات المفر

وذيفيت بين كتفيه ضرب
فجاءه خرسيدم مشتعلا
وأودس في الحال يلتقيه
فخر مصروعًا على راحته
خرس يلقى صريعًا مثخنا
وصاح يدوي: «يا أديس القيم
فالיום تبلي أيما إبلاء
والسلب والفخار بين الناس
ثم أتاه طاعنًا مسددا
واللحم تحت الدرع بالخصر احترق
نفوذه لداخل الأحشاء
ما كان قتالا لذا تنحى
شر بلى مني سوف تلتقي
لكن بك الحنف البهيم أحذا
لآذس النفس تدم والفخر لي» ٣٦
موليًا لكن أوديس وثب
ومن شعاب الصدر في الحال خرج
وأودس مرتفع الهديد
فالموت أعدى منك جريًا وأشر

وبحك لم يتح لوالديكا
خلوت للطير فظفر ينشب
لكنني إن مت فالإغريق
واجتر من مجنه والشاكلة
فجرت الدماء واشتد الألم
فلاشتداد الخطب عاد القهقري
دعا ثلاثا يطلب الغياثا
مال إلى رفيقه أياس
صوت أذيس أذني حالا طرق
وشددت أزمته عليها
أخاف مهما صال يضوى مفردا
وسار أولا منيلا وتلا
فألفيا أوذيس والطرواد قد
كأنهم من حوله ثعالب
في الإبل القناس سهما أنشبا
فغاب عن مرآه والشمالي
تروم فتكا وهو لا يرام
فطالما تجري به قوائمه

أن يغمضا يوم الردي عنيكا
والأجنح الغضة ضربا تضرب ٣٧
غص بهم في مآمي الطريق
سنان صوقوس بتلك الغائلة
وحوله جيش العدى طرا هجم
وصاح يدوي صوته حتى السرى
وعى منيلا صوته ثلاثا
قال: «يا أياس رب الباس
كأنما أخرج ما بين الفرق
هي نبادر عجلا إليه
فنرث الأحران عنه سرمدا»
أياس كالأرباب أبناء العلى ٣٨
تكأوا عليه عدا وعُدَدُ
على الجبال إيلا تراقب
لكنه ما نال منه الأربا
من حوله تجري على التوالي
يجري ولا يلويه الازدحام
لا تلتوي لجرحه عزائمه

لكن إذا ما الدم في الجرح برَدُ
فازت به في الطود فوق الغاب
يذعرها ذعرًا فتلوي هربا
كذا أذيس وهو ما بين العدى
بادر آياس بذياك المجن
ففرت الطرواد في كل مفر
واجتره من بين تلك القتل
وصال آياس ودروقل قتل
ثم لسندرا وفيراس رمى
كالسيل من شم الجبال اندفقا
يفيض للسَّهل زُعبًا يندفع
ولعباب البحر يدفع الزبد
طغا بذاك السهل كالزعباب
وهكطر في ثغر إسكامندر
يقضب الأعناق وسط الفيلق
وقد علا لديه صوت اللغب
وهو بمركبته محتدم
لكنما جيشهما ما برحا
قد كان كالليث يصول وإذا

وعن خفيف لجري بالعَيِّ قَعْدُ
إذا بليثٍ فاتكٍ قضاب
وهو به يخلو منالا طيًّا
عن نفسه يدفع بالرمح الردى
كالبرج يحميه وقد كان وهن
ثم منيلا لذراعاه ابتدر ٣٩
وتبعه أدنى إليه العجله
نَغْلٌ لفريام وفندوقوس فل
كذاك فيلرت يفجر الدما
تمطره أنواء زفس غدقا
والأرز والملول عنقًا يقتلع
كما أياس اشتد فيهم واتقد
يبتت ظهر الركب والركاب
يصول في صدر الجناح الأيسر
ولا يرى نكال هذي الفرق
حول إذومن ونسطور الأبي
كتائب الفتيان حطْمًا يحطم
يدفع حتى ماخوون جرحا
في كتفه اليمين سهم أنفذا

مثلث الأطراف للإسكندر
فقوم أرغوس أولو الإقدام
فيفتك العدى بذياك البطل
«نسطور يا ذا المجد والجلال
وسر وسوقن إلى الأسطول
هذا النطاسي الذي يستخرج
وفوقه يذر بلسم الشفا
فهب نسطور وما إن كذبا
وساط والجياد كالطير سعت
وقربون تبع هكطور عرف
أبصرهم من فوق عرش العجله
«نحن هنا في طرف المعسكر
وثم آياس المنايا نشرا
نعم فذا مجنه الكيبر
فقم نسق لمأذق الهيجاء
هناك حيث اصطدم الشجعان
وشدد السوط على الجياد
تخبط بالقتلى وباليلامق

زوج هلانة الجميل الشعر
خافوا انقلاب موقف الصدام
فصاح إيدومين بادي الوجمل
هي فهبن على العجال
بماخوون الماجد النييل
سهماً بكرات الصدام يولج
بجحفل يقاس إن تألفا» ٤٠
وبابن أسقليب حالا ذهباً ٤١
تسوق للرجوع من حيث أتت
منقلب الطرواد في ذاك الطرف
إزاء هكطور لذا أوعز له
نفتك فتك الباسل المدمر
والخييل والفرسان ذعراً دَعرا
من حول كتفيه أرى يدور
حيث علت عجاجة الأعداء
تلاحم المشاة والفرسان»
فاندفعت لساحة الجلال
على نجيع من خطاها دافق

حتى جناحا سدة المركبة
تخضبت دماً بنقع فائر
وهكطر للفتك يصلى نارا
يطعن فيهم قاتلا مجندلا
وظل كرات الوغى يجاري
وهو على ذياك البأس أبى
خشية أن يغاز زفس إن برز
لكن زفس في المقام الأرفع
فدهشاً أطرق والجوب على
بطرفه جيش العدى يياري
وخطوة فخطوة يلوي القدم
والناس والكلاب في الأسحار
تسهر كل الليل كي لا يرتعا
ينقض مدفوعاً بفرط السغب
يصده وبل من النبال
حتى إذا ما الفجر لاح أحجما
وهكذا آياس ملتاغاً نأى
لموقف السفائن الحدباء
يمشى الهوبنا مثل جأب دخلا

وقوسها من تحت تلك السدة
من دور دولاب ووقع حافر ٤٢
فغار ما بين العدى وثارا
حتى سراياهم جميعاً بلبلا
بالسيف والعامل والحجار
لقاء آياس لذا تنكبا
لفارس أبسل منه وأعز ٤٣
روح آياس بهول المصرع
كاهله ألقى وعاد وجلا
يخطو وينشي كوحش ضاري
كأنه الضيغم في الليل هجم
تحرس حول غنة الأبقار ٤٤
بشحمها ولحمها ويرجعها ٤٥
لكن يفوته نوال الأرب
ولهب المقاييس المنهال
مكتنباً مرتعداً محتدما
عن ساحة القتال والعود ارتأى
يخشى عليها كرة الأعداء
زرعاً من الحنطة يبغي أگلا ٤٦

فتنهض الصبية بالعصي
لكنه ما كان كي يكثرثا
يلبث في تلك المراعي يرتع
وهكذا الطرواد والأحلاف
وهو يصدهم بجوب أكبر
يحجم حينًا ثم حينًا يهجم
وصدهم في كل ذاك الزمن
يحجز مشتدًا على الأعادي
وصيب النيازك القتالة
فبعضها عن شدة العزم حذف
وبعضها عنه منالا قصرا
ولم يكد يراه أوريفيل
أتاه لا يعبأ بالسهم
وأرسل المزراق من حيث انطلق
كبده مزق ثم راحا
فانتهاز الفرصة فارس وقد
في حقه أنفذ سهمًا فانكسر
لصحه التوى ببراح الألم

تسحق فوق متنه القوي
بلعب الصبية مهمما عبثا
وينثني مذيكتفي ويشبع
من حول آياس بعزم طافوا
ألبس سبعة جلود بقر
بأسه المعتاد ثم يهزم
صدًا ذريعًا عن بلوغ السفن
بين الأخائيين والطرواد
عليه من أيدي العدى منهاله
يغل غلا وعلى الترس يقف
مرتكرًا يغوص في قلب الثرى ٤٧
حتى انبرى لرفده يصول
تنهال فوقه كوبل هام
وآفمون القرم في العنف اخترق
يسلبه الشبكة والسلاحا
أشغل أوريفيل في تلك العدد
نضيه والدم بالجرح انفجر ٤٨
يأبى الردى وصاح يُنهض الهمم

«يا نخبة الأبطال جند الباس
وحولته تألبوا فخشيتي
ومذ لذلك النداء انصدعوا
ودون أيـد جلن بالعوامل
وانضم آياس إليهم وانقلب
وكان آخيل على البعد رقب
يشهد ما قد حل بالأبطال
أبصر نسطور الحكيم انطلقا
مع ماخوون ينهب الطريقا
صاح بفطرقل فمن خيمته
كآرس من بابـه صاح: «وما
قال أخيل: «يا أود الخلق لي
على دني ركبتي صغرا
والآن نسطورا قصدن مسرعا
ما إن نظرت وجهه لكنه
قد مرت الجياد من أمامي
ولم يكـد يتم حتى كرا
ونسطر وماخوون وصلا
وتابع الشيخ أريميدون حل

قفوا ادفعوا الحمام عن آياس
يصميه وبل من سهام صبت»
حول أريفيل الجريح اجتمعوا
يلا مق ألصقن بالكواهل ٤٩
واشتد وقع الحرب والطعن انتشب
وفي مؤخر السفينة انتصب ٥٠
من قومه من محن القتال
على الجياد السابحات عرقا
فعرف السائق والرفيقا
لبى وهذا مبتدا محتته ٥١
رمت ابن فيلا من ندائي للحما»
قد بلغ الإغريق أقصى الفشل
سينحنون سائلين عذرا
واسأله مع أي جريح رجعا
أشبه ماخوون طبقاً متته ٥٢
طائرة لمضرب الخيام»
فطرقل يعدو ويلبي الأمر
خيمة نسطر بها ترجلا
جياده وذهبـا بلا مهـل

ينشفان العرق السيلالا
لخيمة الشيخ وفيها جلسا
(تلك الرحلة البديعة الشعر
أهديها جزاء رأي أصوبا
قامت لإعداد الشراب عامدة
جميلة مصقولة القوائم
من ثم ألفت فوقها دسيعة
ومزجت فيها على الفور البصل
ووضعت إزاءها كوبًا أغر
وهو على قائمتين انتصبا
وفوق كل من عراه الأربع
وذلك الكوب إذا ما يطفح
لكنما ذيا لك الشيخ الصفي
وراحت الصبية السبية
تصب فيه خمر إفرمنا على
بمبرد النحاس جنب السخل
وفوقه ذرت دقيقًا صافي
فشربا وارتويا وجلسا

على نسيم البحر ثم مالا
وهيكميذا بنت أرسينوسا
لنسطر كانت نصيًّا مدخر
لما أخيل تيندوس خربا
لديهما تنصب أبهى مائدة
زرقاءها تبذ لوم اللائم
مؤلّق نحاسها بديعة ٥٣
وخالص الدقيق مع صافي العسل
كان لدى نسطور من قبل السفر
وبمسامير النضار التهابا
طير حمام من نضار ألمع
هيهات غير نسطر يزحزح
يحملة حملا بلا تكلف ٥٤
بحسبها كالربة السنية
ماء وفوقه تفت عجلا
وتقتل المزيج خير قتل ٥٥
ثم دعتهمما للارتشاف
وبأطاريף الحديث أنسا

إذا بفطرقل كرب ظهرأ
وقام عن سدته الوقادة
ثم دعاه للجلوس فأبى
عفوًا فلست بمبلي الأمر
قد يصطي عفوًا بسورة الغضب
سيرني أسأل منك الخبرا
سأقفلن راجعًا ذا الحينا
فقال نسطور: «وأين يلقي
أما رأى أن فناءهم باد
وخير من فيهم ففي الأشرع
فذا أبو البأس ذيوميذ البطل
وذاك أوديس وأتريذ خرق
وهاك أوريفيل بالعنف انكسر
وها هنا ترى الكمي الباسلا
لكن أخيل على شدته
أمتقاعسًا يظل حتى؟
وتلهب النيران بالأسطول
وا أسفا الشباب ولّى ومضى
وفاتني الإبلاء والإيقاع

في الباب فالشيخ رأى وابتدرا
بيده يأخذ حكم العادة
وقال: «يا مُريد زفس الأنجبا
فشأن أخيل نظيري تدري
ويتهم البريء عن غير سبب
بأي مجروح أتيت مدبرا
مذ قد عرفت الشهم ماخوونا»
أخيل بالإغريق هذا الرفقا
واشتملوا بحللة الحديد
بين جريح وطريح ناعي
ألمه السهم وبالرغم قفل
جسمهما العامل والدم اندفق
بفخذه نبل به الجرح انفجر
به جريحًا جئت تَوْ قافلا
ليس يبالي ببني لحمته٥٦
يبتنا سيف الأعادي بتا
تبيدها بالجنود والقيول
والبأس والإقدام عني أعرضا
كما استطالت قبل مني الباع٥٧

يوم الإليون على صوارنا
صلنا عليهم واغتمنا البقرا
ابن هفيروخ الذي قد كانا
فقال مني طعنة نال الردى
وخلت الأنعام في السهل لنا
ومثلها من أحسن الأبقور
ومثل ذا الغنيم سقنا في الغلس
شقراء طرا ترضع الأمهارة
كنت فتى واهتز نيلا طربا
وصاحت الدعاة في من طلبا
فاحتشدوا واقتسموا القليلا
حيث الإفيون على قلتنا
وقبل ذا بأحؤل قد صالا
ومن بنى نيلا وكانوا اثني عشر
فزاننا العدو غدرا واعتسف
وفي اقتسام الكسب نيلا أفرزا
سرب شياه برعاتها التي
فدمة الأعداء كانت مثقلة

سطوا فأججنا لظى أوارنا
فجاءنا إيتومن مستعرا
يحكم في أليذة السكانا
بها وولى القوم طرا شردا
خمسون سربا ماعزا مسمنا
ومثلها من أسمن الخنزير
ومئة أيضا وخمسين فرس
سقنا لفيوس نؤم الدارا
أبي لعودي غانما مكتسبا
من ذمة الأعداء مالا سلبا
وذاك نذر من كثير نيلا
صالوا بفيلوس على جملتنا
هرقل فينا يذبح الأبطالا
سواي لم يبق لديه ابن ذكر
وبأساليب اللدادات قذف
قطيع أبقار له وأحرزا
أبقى له ترعى ثلاث مئة
له بدين رام أن يحصله

إذ كان قد أرسل للسباق
يأمل أن يفوز بالرهان
لكن مولى الناس أفعياسا
كذلك المركبة الغراء
لذاك نيلا اغتم والوفر ادخر
بأن نضحي لبني الأرباب
وثالث الأيام فاجانا العدى
والملينان قائد الفرسان
وفي ثغور أليفا في طرف
بلدة إثريون حاصروها
وفي الدياجي انحدرت أثينا
ونبهتنا للوبال المحقق
وخالني نيلا صبيًا غرًا
فخيلي الجياد أخفى وحظر
فراجلا بعونها سرت ولي
سرنا إلى حيث لدى آرينسا
للفجر ظلت ترقب الخياله
ثم تكتننا وعند الظهر
من ثم أعددنا الضحايا الغرا

أربعة من أكرم العتاق
بقدرهم ونذب الفرسان ٥٨
معتسفًا قد حبس الأفراسا
والسائق المستاء فلذا جاء
ووزع الباقي بعدل وأمر
شكرًا على أطايب الأسلاب
بخيلهم لا يحصرون عددا
غران للطعان جاهلان
فيلوس قامت فوق تل مشرف
يغنون بالعنوة أن يفتوها
وهم بذاك السهل يضربونا
فهم بالهمة كل الفيلق
وخاف أن أكر فيمن كرا
علي أن أجري على ذاك الأثر
كان لدى الفرسان أسمى منزل ٥٩
يصب نهر قد دعوا مينيسا
تعقبها كتائب الرجاله
طرًا نزلنا فوق قُدى الثغر
لزفس نستمند منه النصرا

وَأَلْشَسَ التَّهَرَّ لَهُ أَذْكِينَا
لِفَوْسَدٍ وَعَجَلَةٌ تَبِيعُهُ
ثُمَّ تَنَاوَلْنَا الطَّعَامَ وَرَقَدَ
وَحَالَمَا بِرَاحٍ مِنْ خَبَائِهَا
بِزَفْسٍ لَدُنَا وَأَتَيْنَا وَمَضَى
أَمَّا الْإِفْيِيُونَ فَحَوْلَ الْبَلَدِ
فَتَحًّا يَرُومُونَ وَلَكِنْ نَظَرُوا
فَأَوَّلَ الْفَرَسَانَ مَطْعُونًا وَقَعَّ
(مَلْيُوسٌ وَهُوَ صَهْرُ أَفْغِيَّاسَ
مَنْ كَنَهُ نَبْتَ الْأَرْضِ طَرًّا سَبَرَتْ
جَنْدَلَتَهُ فَخَرَّ مِنْ مَرْكَبَتِهِ
وَصَلَتْ صَدْرًا لَجِيْشٍ وَالْأَعْدَاءُ
رَاعَهُمْ أَنْ زَعِيمَ الْعَجَلِ
وَفِيهِمْ هَبَيْتُ كَالْإِعْصَارِ
وَفَوْقَ خَمْسِينَ مِنَ الْعَجَالِ
فَتَكَّتْ طَاعِنًا وَأَوَّلَيْتِ الرَّدَى
وَكَدْتُ أَوْلَى وَلَدِي أَكْثَرَا
لَكِنَّمَا جَدَّهُمَا فَوْسِيذٌ فِي

عَجَلًا كَذَا بآخر ضحينا
لربية الحكمة والشفيعه
كل مدججا على ذاك الجدد
للأرض أرسلت سنا ضيائها ٦٠
للحرب جيشنا على ذاك الفضاء
تألبوا بَعْدَدٍ وَعُودٍ
شدة آريس بنا وذعروا
بنصل رمحي عندما نحوي اندفع
وبعل آغاميزدة الإيناس
وللعقاقير جميعا خبرت)
وواثبا علوت في منصته
وَلَوْأُ وَفِيهِمْ عِلَّتِ الضُّوْضَاءُ
وَأَبْسَلَ الْأَبْطَالُ بِالْحَتَفِ بُلَى
أَذْبَحَ كُلُّ سَارِحٍ وَسَارِ
بِمئة من أمنع الأبطال
ومَنهم اغتَتمت تلك العُدَدَا
ومَلِينًا بَعَامِلِي الثُّبُورَا
مكثف الضباب فيهما خفي

ولم نزل نكسأهم في السهل
نذبهم ونسلب السلاحا
حتى وطئنا أرض بفراسا النعم
وعند تل آلس أثينا
عدنا ولكن بعد ما بمخفقي
وفي مآبنا الأخائيونا
لzf في الأرباب أبناء العلى
فذاك أني كان يوم المحن
لكن أخيل ليس بالشفيق
فاذكر منتيوس وما قال لك
ألم أكن وأوذس في القصر
يوم ذهبنا نحشد العمالا
ودار فيلا كنت مع أيكا
والشيخ فيلا في فناء الدار
يحرق أفخاذاً من الثيران
وفوقها يريق من كأس الذهب
وأنتم اللحوم تقطعوننا
فقام أخيل وفي أيدينا
واذ قضينا من شراب ضافي

ونصر زفس فوقنا يستعلي
والخيل فينا تنهب البطاحا
وصخر أولينيس َ ذلك الأشم
بدت لعود عاجل تدعونا
حتفًا لقي آخر جندي بقي
شكرًا وحمدًا كلهم يسدونا
وللفتى نسطور ما بين الملا
إن لم يكن كالحلم ماضي الزمن ٦١
وسوف يبكي نكبة الإغريق
في إفثيا الفيحاء مذ أرسلكا
نسمع ما تسمعه من أمر
بين الأخائيين والأبطالالا
فيها وآخيل الفتى يليكا
مؤجج فيها لهيب النار
لzf يسترضيه بالقربان
مدامة سوداء من صافي العنب
من مدخل الباب نظرتموننا
أمسك راجبًا بنا يدعونا
وخير زاد حق للأضياف

إليكما وجهت قلوبي علنا
فقال فيلا لأخيلا: «يا بني
ثم منتيوس تلا يقول
«فاقك بأسًا نسبًا وقدرًا
«فانصحه خيرًا وله كن مرشدا
فذاك أمر الشيخ لكني أرى
بلغ أخيل قبل إدراك الدرك
فَرُبَّ رَبِّ مَالٍ للترفق
وإن يكن يخشى حلول البؤس
فبك فليبعث مع المرامدة
والبس سلاحه عسى الطرواد
إن نظروه فيك والإغريق
جيشك إذ مل من القعود
بذا تقى السفين والخيم وعن
لذاك فطرقل أسًا تفتطرا
وإذ لأشراع أذيس عرضا
حيث أحلوا مجلس الأعيان
بدا أريفيلا لديه عارجا

فرمتما اللحاق في الحال بنا
بَرَزَ على الأقران يوم الطعن»
«رفيقك الباسل ذا أخيل
وزدته عمرا وزدت خُبرا
يطع لما تريه من سبل الهدى» ٦٢
أنك قد نسيت أمرا أمرا
قلولي عساه مصغيا يذعن لك
والخير في نصح الرفيق المشفق
بوحى ثيتيس له عن زفس ٦٣
عسى بكم لنا تتم الفائدة
يروعهم لذلك الجالاد
يبدو لهم للراحة الطريق
يبطش في جيش العدى المجهود
عاتقنا تدرأ أثقال المحن» ٦٤
وكر يبتغي أخيل مخبرا
حيث أقام القوم ديوان القضا
ونصبوا مذابح القربان
من ساحة الحرب جريحًا عارجا ٦٥

يرشح من جبينه سيل عرق
والدم أسوداً سخياً يجري
فرق فطرقل لذاك المنظر
«وا أسفا يا زبدة الأغارق
عن داركم نائين والأصحاب
قل لي أريغيل: أفي الإغريق
أم ثقلت وطأة هكطور فلا
قال: «فل قد قضى الأمر ولا
بين جريح وطريح غادي
هي أغثي واصحني للخيم
والجرح فاغسله بماء فاتر
سر حفظت عن أخيل وهو عن
أما طبياننا ففؤذا لئُر
وماخوون ذاك بادي العطب
فقال فطرقل: «سرى الوبال
فها أنا أمضي إلى أخيل
لكن أراني عنك غير ناء
ومن ذراعيه بلطف حملة
ومذ لدى الأتباع في القرب ظهر

والسهم باد عضل الحق اخترق
لكنه معتصم بالصبر
وقال ملثاعاً لهول المخبر
أتهلكنكم ظبي المخافق ٦٦
لتذهبوا مطاعم الكلاب
بقية لعبير ذا المضيق؟
مرد للخزي الوييل فشلا
مناص وانظر تلق خير النبلا
وقوة الطروداد في ازدياد
وأخرج السهم يزل عني الألم
واسكب عليه بلسم القناطر
أستاذه خيرون في ماضي الزمن
ما بين دُرَّاع العدى محصور
في حاجة أضحي إلى التطب
ويلاه ما الحيلة والمآل
أبلغ قول نسطر النبيل
وأنت تحت الأزمة اللاواء
ولخيامة سليماً أوصلة
مدوا له الفراش من جلد البقر

ألقاه فطرقل عليه وقطع بالسيف نصل السهم من حيث وقع
وغسل الجرح وعَرَقًا مُرًّا بيده فَتَّ وحوالا ذَرًّا
فالتأم الجرح وأوقف الدم وأورفيل زال عنه الألم

هوامش

(١) أراحنا الشاعر أثناء نشيدين متتاليين من معامع القتال وجندلة الأبطال. فأتى في النشيد التاسع على ما مر بك من بعثة الوفد إلى أخيل، وفي العاشر على بث الأرصاد وما كان من أمرهم. فَفَكَّه القارئ تفككه شوقته إلى استئناف قصص وقائع الحرب فاستأنف أبداع استئناف، وأعدَّ السامع لمواقع شداد بمقدمة في هذا النشيد وطأ بها توطئة عجيبة؛ لاشتداد الأزمة على الفريقين، وارتفاع الصيحة بما لم يسبق له مثيل، إذ جعل الفتنة هي الرافعة معالم القتال، وهيرا وأثينا هما المرعدتان المبرقتان لاشتداد الوبال. وأطال بوصف أغاممنون إنباءً بما سيكون له من الهيبة والجلال، وما سيبيديه من شديد البأس وعزة النفس عند اشتباك الرجال، فكان كلامه من أوله إلى آخره كسلسلة آخذ بعضها برقاب بعض لا تفوتك حلقة منها إلا وترسخ في ذهنك وتتلوها حلقة أخرى تحل محلها وتزيد في رونقها، فقد غادرنا القومين في آخر النشيد الثامن متيقظين ليلهم مترصدين لحلول الفجر لإعادة الكرة، فكان لا بد

إذْن عند بزوغ الفجر بعد حصول ما حصل من أن يندفعوا جميعاً كالسيل المنهمر، ولم يفت هوميروس ذلك فدفعهم على ما ترى.

(٢) الجنة الجن. عبرنا بقولنا غزالة الصباح عن الفجر وهو في معتقدهم من إناث آلهتهم وطيثون زوجها كان في الأصل إنسيًا من بني لومذون أبي فريام، فعشقتة إلهة الفجر لجمالها واستأذنت زفس فاتخذته بعلا.

(٣) إن إيفاد زفس ربة الفتنة لهو من قبيل احتدام الجيشين وتحرقهما للحرب - ذكر الشاعر في هذا البيت معالم القتال ولم يذكر ما هي على أنه يستفاد مما جاء في النشيد الثامن، أنه كان لهم نوع من الراية الحمراء يرفعونها استنفارًا للحرب، والاحمرار إشارة على سفك الدم والبيت الذي أشرنا إليه هو قوله يصف أغاممنون: فخاض صفوف الخيم والفلك رافعًا بساعده بردًا من الخز أحمرًا

والظاهر من كلام هوميروس أن اللواء إذا عقد لكبير قوم فمن مظاهر عظمة ذلك الكبير أن يرفعه بيده كما فعل أغاممنون فيما تقدم، وكما فعلت الفتنة هنا وهي ربت على ما علمت. وهذا شأن جميع الأمم في تلك العصور وما وليها من أيام الجاهلية؛ إذ لم يكن يعهد بالراية إلا لرئيس همام وفارس مقدم. قال صاحب السيرة الحلبية وغيره من مؤرخي العرب: «إن راية بني هاشم (يوم بدر) أي التي كان يقال لها في الحرب: العقاب. ويقال لها: راية الرؤساء ولا يحملها في الحرب إلا رئيس القوم

كانت لأبي سفيان أو لرئيس مثله، ولغيبة أبي سفيان في العير حملها السائب لشرفه». وقال في موضع آخر: «ودفع صلّى الله عليه وسلّم اللواء وكان أبيض إلى مصعب بن عمير. وكان أمامه صلّى الله عليه وسلّم رايتان سوداوان؛ أحدهما مع علي بن أبي طالب كرم الله وجهه، ويقال لها: العقاب وكانت من مرط لعائشة». وفي غزوة أحد: «عقد صلّى الله عليه وسلّم ثلاثة ألوية؛ لواء للأوس وكان بيد أسيد بن خضير، ولواء للمهاجرين وكان بيد علي بن أبي طالب كرم الله وجهه، ولواء للخزرج وكان بيد الحباب بن المنذر». وكان للعرب أعلام كثيرة في زمن السلم ينصبونها على أبواب بيوتهم؛ لتعرف بها، وكانوا يفتخرون بالرايات الصفرة ثم الحمر؛ أما الأولى فلأنها كانت لملوك اليمن، وأما الثانية فلأنها كانت لأهل الحجاز. وفي أوائل الإسلام اتخذوا الراية السوداء والراية البيضاء؛ لأن راية صاحب الشريعة كانت سوداء، وكان له أيضًا راية بيضاء كما تقدم، فلما تولى الأمويون رجعوا إلى راية الحجاز الحمراء. وأما العباسيون فإنهم اتخذوا الراية السوداء اقتداءً بصاحب الشريعة وحزنًا على شهدائهم ولهذا سُمّوا بالمشوّدة؛ لأن السواد كان شعارهم حتى في ملابسهم فلما عدل المأمون عن لبس السواد اتخذ الراية الخضراء. وأما دعاة الدولة العلوية والطالبيون من بني هاشم فكانت رايتهم بيضاء؛ ولذلك سموا بالمبيضة.

(٤) قلاس: جمع قلس، وهو حبل السفينة - هذا تكرار لما جاء

في النشيد الثامن وهو قوله:

وأشراع أخيل وأياس أرسيت على طرفيه شدةً وتبسلاً

(٥) لا يحيد الشاعر في شيء من روايته عن الحقائق التاريخية مع كثرة ما يذكر من الوهميات الشعرية والخرافات الميثولوجية، فقد أفادنا بهذا البيت وإفادته صحيحة أن ملك قبرص لم يكن بينهم؛ لأن القبرصيين لم يلجوا تلك الحرب. وفي إهداء تلك الدرع إلى أغاممنون إفادة أخرى تاريخية وهي أن معادن قبرص كانت كثيرة منذ تلك الأيام.

(٦) لا يخفى على المطالع اللبيب من هذا الكلام أن رؤية قوس قزح كانت تشير إلى أمر ذي بال عند قدماء اليونان، كما كانت عند الإسرائيليين بعد أن جعله الباري عز وجل وثيقة لأبينا نوح، بامتناع حدوث الطوفان مرة أخرى. ولعل هوميروس أخذ تلك الرواية مشوّهة في رحلته إلى مصر لأنه سيذكر (ن ١٧) أنه لم يكن بشير خير بل نذير سوء.

(٧) كلبا السيف هما المسماران في قائمه.

(٨) الحرابي جمع حرباء والمراد بها هنا قُتر الترس أي مساميره.

(٩) لما أراد الشاعر أن يظهر أغاممنون بكل مظاهر العظمة والجلال أطنب، حتى في وصف شكته وجعل مجنه شبيهاً بترس زفس كما مر بنا في النشيد الثامن.

(١٠) عرف المغفر: ناصية الخوذة والقونس بيضتها.

(١١) قال مزّرد بن ضرار السعدي يصف شكته على نحو ما

وصف هوميروس سلاح أغاممنون:	وآها القتير تجتويها المعابلُ
ومسفوحة فضاضة تبعية	سنانٌ ولا تلك الحظاء الدواخلُ
دلاصٌ كظهر النون لا يستطيعها	لها حلقٌ بعد الأنامل فاضلُ
موشحة بيضاء دانٍ حيكلها	إذا جُمعت يوم الحفاظ القبائلُ
مشهرة تحني الأصابع نحوها	دُلمصة ترفض عنها الجنادلُ
وتسبغة في تركة حميرية	مصاييح رهبان زهتها القنادلُ
كأن شعاع الشمس في حجراتها	وأبيض ماضٍ في الضريبة قاصلُ
وجوب يرى كالشمس في طحية الدجى	ذليقًا وقدته القرون الأوائلُ
سُلاف حديد ما يزال حسامه	ذرى البيض لا تسلم عليه الكواهلُ
وأملس هنديّ متى يعلّ حدّه	وقد سامه قولاً فدتك المناصلُ
إذا ما عدا العادي به نحو قرنه	ولا أنت إن طالت بك الكف ناكلُ
ألست نقيًا ما تُليق به الذرى	صفيحته مما تنقى الصياقلُ
حسام خفي الجرس عند استلاله	تغشاه منباع من الزيت سائلُ
ومطرّد لدن الكعوب كأنما	كما مار ثعبان الرمال الموائلُ
أصمُّ إذا ما هزّ مارت سراته	هلال بدا في ظلمة الليل ناحلُ
له فارطٌ ماضي الغرار كأنه	

شرع في وصف الدرع فقال: إنها مصبوبة واسعة من الدروع
التبعية تكرهها السهام؛ لصلابتها. وهي دلاص، أي: سهلة لينة لا تنفذ
فيها الأسنة. موشحة حسنة السبك. يشار إليها بالأصابع لشهرتها - ثم
أتى على وصف الخوذة، فذكر التسبغة، وهي نسيج الحلق الذي يكون
تحت البيضة. ثم الخوذة فنسبها إلى حمير، وقال: إنها على كونها
دلامصة، أي: لينة، ترفض عنها الجنادل، وهي لصفائها إذا أصابتها
الأشعة تألقت في جوانبها كالمصاييح - ثم ذكر الجوب وهو الترس
بشطر واحد، وانتقل إلى السيف فوصف حده القاطع وحديده النقي
القديم وأطال بوصف فعله في الحروب - وانتهى بالرمح فقال: إنه
مطرّد، أي: مضطرب للينه تخال الزيت سائلا عليه للمعانة، يمور لمرونته
كالثعبان المحاذر، وكأنه لشدة لمعان حده القاطع هلال يسطع في
الظلام الحالّك.

(١٢) إن أمثلة مطر الدم كثيرة في تواريخ الأقدمين، وكلّ ينتحل
لها تفسيراً ليس من الصحة على شيء حتى قال بعضهم: إن ذلك الطل
كان حقيقة أحمر لتبخره من دماء القتلى، وهو قولهم في زمن كان العلم
فيه قاصراً عن إثبات الخلاف. ولقد ذهب بعض العلماء العصريين أنه قد
يمكن أن يكون الطل الأحمر منبعثاً من أجساد نوع من الفراش، إذن
نقف من بيضة وتطاير في الهواء خرجت منه مادة حمراء. ومهما يكن من

هذه التأويل فسقوط الطل الأحمر كان في عرف كل الأمم إشارة إلى سفك الدماء.

(١٣) لقد أحسن الشاعر وأي إحسان بوصف زعيم الطرود بهذه الخفة والهمة السماء، بعد أن وصف زعيم الإغريق بتلك الهبة والعظمة الغراء. فهذا فتى في ريعان الصبا يقود كتائب لم تبلغ شأواً مذكوراً في الانتظام الجندي، فلا بد له من أن يخترق الصفوف، وينادي بالحتوف، وذلك كهل زعيم أمم بلغ منها التفنن مبلغاً عظيماً وحسبه أن يشدها بمثاله فتقتفي أثره وتسير على منواله.

(١٤) قال بوب: لا ندرك جمال هذا التشبيه إلا إذا علمنا كيف كانوا يزرعون ويحصدون؛ ذلك أن الزراع أو الحصاد كانوا ينقسمون شطرين متساويين، يشرعان في العمل من طرفي الحقل فيلتقيان في وسطه، فهذا كثيراً ما كان يحصل التسابق والتنافس بينهما لبلوغ كل من الفئتين حده قبل الفئة الأخرى، وهو تشبيه صادق كل الصدق على جيشين زاحفين كلٌّ من وجهته.

(١٥) يستدل من هذا الكلام أنهم لم يكونوا يحسبون ساعات الليل والنهار، إلا بأعمال يعملونها فيها أو أحوال تنهياً عنها كبزوغ الفجر وارتفاع الشمس. فضحوة النهار من الباب الثاني وراحة الحطاب من الباب الأول. وساعات النهار عند العرب جميعها مأخوذ من معانٍ تدل عليها، وهي المجموعة بقول الشاعر العصري الشيخ ناصيف اليازجي:

أول ساعة من النهار هي البكور والبزوغ طاري
والرأد والضحي المتوع بعدُ ظهيرة ثم الزوال عدُّوا
ثم الأصيل العصر ثم الطفل وبالحدور والغروب تكملُ

ومثل ذلك قوله في ساعات الليل:

أول ساعة من الليل الشفق وبعدها العشوة يتلوها الغسق
فهذأة ثمة شرع ثم قلُ جنح وزُلْفة هزيع يا رجل
وبعد ذاك غبش وسحرُ والفجر والصبح الذي ينفجرُ

وكلها تدل على معان مخصوصة كما ترى.

(١٦) يستفاد من هذا الموضع، وعدة مواضع أخرى في هوميروس أنهم لم يكونوا يفرقون كثيرًا بين أبناء الحلائل والخلائل، فابن الهوى عندهم يكاد يكون كالابن الشرعي. ولقد ذهب بعض الشراح إلى أن هوميروس جعل بين الفريقين تلك المساواة؛ لأنه لم يكن له أبٌ معروف على أن هذا الظن بعيد الاحتمال؛ لأن هوميروس لم يسلك بشيءٍ في شعره على هوى نفس معلوم، بل مثل أحوال عصره وأطوار أبنائه على علائها، ولم يصدق شاعر صدقه من هذا القبيل.

(١٧) هذه رواية من جملة الروايات التي زين بها الشاعر شعره، فاستفاد منها المطالع إفادات ثلاثًا؛ الاطلاع على قصة من قصصهم، والتفككة بواقعة يشغل الفكر بها برهة عن مناظر الفتك والسفك، وترديد

ذكر آخيل بطل الرواية النائي حتى الآن عن مضارب السيوف ومواقع الطعان.

(١٨) الخشفة: جمع خشف، وهو ولد الظبي.

(١٩) يعلم المُطالع أن بدء الإلياذة في السنة العاشرة لحرب طروادة، ولكن من تصفحها من أولها إلى آخرها علم منها أمورًا كثيرة جرت قبل ذلك الزمن، أشار إليها الشاعر إشارة لطيفة، كإشارته هنا إلى ما كان من أنطيماخوس، من قوله بمنع الطرواد عن إرجاع هيلانة إلى زوجها، فيعلم من ذلك ومما سيأتي بعد أبيات بلسان أغاممنون أنهم أوفدوا وفودًا إلى الطرواد لحسم الخلاف صلحًا قبل الإقدام على الحرب.

(٢٠) هذا هو القول الذي قاله ذولون في النشيد السابق توسلا إلى أوديس وذيوميد أن يعفوا عنه.

(٢١) قال عنتره:

ودنت كباشٌ من كباشٍ تصطلي نار الكريهة أو تخوض لظاها
ودنا الشجاع من الشجاع وأشرقت سمر الرماح على اختلاف قناها

(٢٢) قال أبو النجم العجلي:

إنّا لتعمل في الرءوس سيوفنا عمل الحريق بياض الحلفاء

ومثله قول عنتره:

إذ أدبروا فعملنا في ظهورهم ما تعمل النار في الحلفا فتحترقُ

(٢٣) اختلف المفسرون بموقع ذلك التين فمن قائل: إنها التلة المحاذية للبرج التي أشار إليها الشاعر في النشيد السادس، ومن قائل: إنها بقعة وعرة مزروعة تينًا في ذلك السهل، وهذا مذهب إسطرابون القائل: إن اليونان إنما دخلوا إليون من ذلك الموضع.

(٢٤) إذا كان أفيداماس سبط كيسيس، أي: ابن بنته، وكيسيس أبو ثيانو الحسناء، وأزوجه من أختها، فيكون أفيداماس زوج خالته، كما ترى، ولم يكن ذلك منكراً عندهم.

(٢٥) صرح، أي: أخطأ.

(٢٦) هذا من جملة التشايبه الصادقة على شدة الألم، والكثيرة الورود في أسفار العهد القديم، ومع ذلك فقد انتقد على هوميروس إirاده لوصف آلام بطل مقدم في ميدان الصدام، ولعله أحسن وقعًا في كلام أوس بن حجر؛ إذ شبه الأصوات في الحرب ترتفع تارة وتنقطع أخرى بصوت المجاهدة في الولادة بقوله:
لها صرخةٌ ثم إسكاتهٌ كما طرقت بنفاسٍ بكر

الإليشيات بنات هيرا، وكانت هيرا إلهة الزواج وكن إلهات الولادة والنفاس، كانوا يمثلونهن وبأيديهن سهام تنفذ في أحشاء المرأة

ساعة مخاطها، ولهن مزية أخرى وهي أنهن يسهلن الولادة، وأما شعراء اليونان المتأخرون فلم يذكروا منهنَّ إلا واحدة ذهبوا إلى أنها نفس أرطيميس.

(٢٧) لم يكن ارتداد أغاممنون عن موقف القتال بأقل عظمة من اندفاعه بصدر الجند، فإنه على شدة ألمه دفع قومه وبشرهم بالفوز بعبارة تشير إلى أن جرحه لم يكن قتالا ليطمئنوا ولا يأخذهم القنوط لاحتجابه.

(٢٨) هنا انتقل بنا الشاعر من بطش أغاممنون إلى بطش هكتور، ولقد رأينا فيما مضى أن زفس أمره ألا يتقدم إلا إذا اعتزل أغاممنون القتال، فأتمر بذلك الأمر، وزاد ذلك في عظمة أغاممنون حتى في بعده عن مواقف الرجال واصطكاك النبال.

(٢٩) مهما أنصف الشاعر أعداء قومه بوصف بسالتهم، فإن في نفسه أثر للإغريق لا تكاد تخفى، فقد مثلهم لنا هنا ملتوين أمام الأعداء، ولكن التواء الليث أمام الكلاب، التي يثيرها أصحابها عليه، وقد جرى هذا المجرى في أكثر الإلياذة.

(٣٠) العد هو النظير.

(٣١) نوطوس: ربح الشمال كما تقدم.

(٣٢) مر بنا أن أوديس كان موالياً لذيوميذ في كل النشيد السابق، وكان الموقف موقف تجسس لا موقف حرب، وها هو الآن

موالٍ له في هذا المحل، لا لأنه أبسل القوم؛ ولكن لأن الموقف موقف تهلكة والبسالة فيه أحوج إلى الرأي والحكمة منه في كل موقف.

(٣٣) الرت: السيد والمقدام.

(٣٤) أَرانا الشاعر غير مرة أن رمي النبال لم يكن محل فخار لسراة الأبطال، ثم إنه لم يرنا في كل إنشاده بطلا يقهقه قهقهة فاريس، وإن كانوا يتهكمون بعضٌ على بعض في عدة مواقع، ومع أن فاريس هو الفاتك هنا وذيو ميذ هو المفتوك به، فإنك ترى من خطاب الجراح وجواب المجروح ما يشير إشارة بينة إلى عجزٍ ورقاعة في الأول وإنفة وشجاعة في الثاني.

(٣٥) قد رأينا الشاعر يشير حينًا بعد حين إلى ما تقدم تلك المواقع من الحوادث، كما أنه يشير إلى ما عقب تلك الحرب مما لم يدخله في منظومته، حتى لا تفوت المطلع على شعره فائتة من الحقائق الجلى، سابقة كانت أو لاحقة، فإن في وصفه أوديس بكونه أس بلاء الطرواد إشارة إلى الرواية التاريخية، القاضية بأنه هو الذي تسبب في آخر الأمر في فتح إليون، وقهر الطرواد باحتياله على مفاجأتهم بنفر من الجند أدخلهم إليون بالفرس الخشي المشهور.

(٣٦) لله در أبي الفوارس القائل:

لي النفوس وللطير اللحوم وللـ ووحش العظام وللخيالة السلبُ

(٣٧) زاد عنثرة زيادة حسنة على هذا المعنى بقوله:

وأجساد قوم يسكن الطير حولها إلى أن يرى وحش الفلاة فينفز

(٣٨) حينما يبرز الشاعر أياس يبرزه رجل فعل لا رجل قول، فهو

على شدة بأسه قليل الكلام، يصمت حيث ينطق غيره، ولا يضع ثانية من الزمن في الخطاب؛ حيث تستغزه الكوارث للبطش والإقدام، فهنا منيلاوس يستغيثه فيبادر ويقول بسرعة الإقدام ما لا يعبر عنه بكثرة الكلام.

(٣٩) لا يخفى على المطالع اللبيب ما في هذه التشابيه من دقة

المغزى، ورقة المعنى، فالأيل أوديس، والشعالب الطرواد، والليث الفاتك أياس.

(٤٠) كان ماخاوون طبيباً وجراحاً. ولنا هنا من كلام إيدومين ما

يدل على شدة رعايتهم للأطباء، فلقد رأينا الملوك تتألم لجراحها، والأبطال تخر أفراداً وزمراً، ولم نر منهم إشفافاً يوازي هذا الإشفاق على ماخاوون، وقد ابناً في غير هذا الموضع مكانة الطب والأطباء عندهم، وهنا لنا دليل آخر على صحة ذلك القول.

(٤١) أسقليب أبو ماخاوون. انظر رسمه: ١

(٤٢) قال أبو الطيب المتنبى وأحسن:

وخاض بالسيف بحر الموت خلفهم وكان منه إلى الكعبين زاخره

حتى انتهى الفرس الجاري وما وقعت في الأرض من جثث القتلى حوافره

ولشعراء العرب تصرف كثير بمثل هذا المعنى، قال عنترة:
والخيـل سود الوجوه كالحـة تخوض بحر الهلاك والخطر

وله أيضاً:

وعاد بي فرسي يمشي فتعثره جماجمٌ نشرت بالبيض والأسل

وأحسن من ذلك قوله:

حتى رأيت الخيل بعد سوادها حمر الجلود خضبن من جراحها
يعثرن في نـقع النـجـيع جوافلا ويطأن من نار الوغى عظامها

ومثله قول الحصين المري:

لـدن غـدوة حتى أتى الليل ما ترى من الخيل إلا خارجاً مسوماً
يطأن من القتلى ومن قصد القنا خباراً فما يجرين إلا تجثماً

ولأبي تمام من هذا القبيل:

واكتست ضمـر الجيـاد المذاكي من لباس الهيجا دمًا وحميما

(٤٣) هذا البيت ساقط من بعض النسخ ولعله دخيل.

(٤٤) العنة للبقر: هي الحظيرة.

(٤٥) لقد أحسن امرؤ القيس بوصف اللحم والشحم بقوله:

وظلَّ العذارى يرتمين بلحمها وشحم كهـداب الـدمـقس المـفـتـل

(٤٦) الجأب: الحمار - قد كان هذا التشبيه على بلاغته مما

انتُقد بسطه على هوميروس، على أنه فات المنتقدين أن الشاعر يتكلم بلسان قوم لم يكن الحمار ممتهناً في عرفهم، ولا شك أن هذا الامتهان حديث العهد، فإن العرب - وهم أرباب الأنفة - لم يأنفوا من أن يلقبوا الخليفة مروان بالحمار إعظاماً لبأسه وصبره على المكاره والشدائد. وفي التوراة أن يعقوب لما بارك أبناءه لقب ابنه إيساكر بالحمار الضخم، وأي مثال أصدق من هذا المثال لوصف بطل كأياس، تتألب عليه الجموع فلا يبالي، بل يثبت في مكانه ثبوت الحمار الجائع العابث بالزرع، فلا تهوله عصي الصبية وزعقاتهم، ولا ينشئ إلا وقد قضى وطره كما ترى في الأبيات التالية.

(٤٧) لم أرَ وصفاً شعرياً لبطل من الأبطال في الإلياذة وغيرها

أبلغ من وصف أياس في هذا الموضع، فإن الشاعر أبرزه في أول أمره دهشاً مطرقاً هاماً على الرجوع بصولة زفس الإله الأعظم، ولم يكن شيء يتهيب له لولا تلك الهيبة العلوية، وهو مع ذلك يباري العدو وينشئ خطوة فخطوة ملتوياً كالضيغم، تتألب عليه الرجال من كل صوب، فلا يهوله تألبها، وتنهال عليه النبال، فلا يروعه انهيالها، ويلبث صابراً ليلته حتى إذا لاح الصباح ولم يبلغ منيته ارتد كئيباً يحرقه الغيظ، ولم يكفه الدفاع عن نفسه بل بقي وهو في تلك التهلكة يفكر في رد هجمات الأعداء عن السفن، فكان يلتوي أمامهم، ويمشي الهوينا غير مرتاع لويل

نبالهم وممر قتالهم، كأنهم نسبةً إليه غلمان تكأكأت على حمار يرعى زرعاً
وقد برّح به السغب، فيحجم ويهجم بثبات ولا ثبات الأسود، فحمى
نفسه وقومه وسفنه وفعل وحده ما تعجز عنه الفيلق، وألقى في قلوب
العدى هيبة ولا هيبة كل جيشه المجتمع، ومع كل هذا فلم تغن بلاغة
شاعرنا وحسن تصرفه عن انتقاد المتقدين.

(٤٨) النضي: النصل.

(٤٩) اليلامق: التروس.

(٥٠) ينتقل بنا الشاعر هنا كجاري عادته إلى مشهد آخر بعد أن
أطال في ذكر الفتك والسفك والكر والفر، فيوطئ لنا بأسلوب حسن إلى
ارعواء آخيل، فالأزمة قد اشتدت في جيش الإغريق، وباتوا على شفا
جرف المهالك، واعتزل الكفاح خيرة حكمائهم؛ كنسطور، وأوديس،
وأمرائهم؛ كأغاممنون، وذيوميذ، وأوريفيل، وبرحت بهم الجراح فأمسوا لا
يصلحون للكر والكفاح، وزد على ذلك إعراض الآلهة عنهم، وموالة
زفس لأعدائهم، فكانت من ثم جميع الظواهر تشير إلى شر العقبي، وهو
تصرف بديع من الشاعر؛ بغية أن يزيد في هيبة آخيل، ويظهر شدة
حاجتهم إليه، ويبرز فطرقل بمظهر لا يفوقه مظهر إنسان بالحماسة
والغيرة والحنان، وأخيراً بالبأس وحسن السياسة.

(٥١) أي: محنة فطرقل. في ذلك إشارة إلى أن فطرقل سيقتل

على ما سيجيء.

(٥٢) متنه: بدل بعض من كل من مخاوون - كل كلمة من كلام

آخيل تمثل شدة الغيظ وحدة الحقد والكيد، فهو مع كل ما نال الإغريق من الفشل لم يرق لهم، ولم يخفف من ثورة غضبه ولا يزال جانحًا إلى الانتقام، ولا شك أنه أبصر كل ما حلَّ بهم فلم يحرك فيه كل ذلك عاطفة، وإن كان أحب استطلاع أمر ماخاوون فذلك لود خاص به، وقد تعددت أقاويل الشراح في سبب ذلك الود ولم يقل أحد منهم في ما نعلم إن ماخاوون كان أقرب إلى آخيل بصناعته من سائر الجند؛ لأن آخيل وإن لم يكن بنفسه طبييًا معروفًا في زمانه فلقد كان يسره أن ينتمي إلى زمرة الأطباء لما كان لهم من المكانة على ما رأي، ولا شك أنه كان قد درس تلك الصناعة وأخذ منها شيئًا كثيرًا عن أستاذه خيرون وكانت له معرفة خاصة ببعض أسرارها كما سيأتي بعد أبيات.

(٥٣) الدسيعة: الجفنة الكبيرة.

(٥٤) تضاربت أقاويل الشراح في هذا القول؛ إذ لا يعقل أن

نسطور وهو شيخ عاجز يقوى على حمل ما لا يحمله غيره، ولا أحوال هذين البيتين إلا دخيلين، وهما من الإلياذة نفسها ومعناها منقول عن محل آخر.

(٥٥) السخل: هنا العنز.

(٥٦) اللحمة: القرابة.

(٥٧) لا ينفك نسطور يتحسر على شبابه تحسر منصور النمري

بقوله:

ما تنقضي حسرة مني ولا جزعُ إذا ذكرت شباباً ليس يرتجعُ
بان الشباب وفاتتني بشرته صروف دهر وأيام لها خدعُ
ما كنت أوفي شبابي كنه غرته حتى انقضى فإذا الدنيا له تبعُ

ويفتخر بسابق بأسه افتخار معارك ابن مرة العبدى بقوله:

أتطمع في هضمي لدن شاب عارضي وقد كنت آبي الضيم إذ أنا امرؤ

(٥٨) النذب: هو خطر الرهان في السباق، وهي عادة كانت

جارية لهم كما كانت في جاهلية العرب، ويقال: إنهم كانوا يجرون فيها
على غير نمط السباق في الألعاب الأولمبية التي شاع أمرها بعد ذلك
الزمان.

(٥٩) بعونها: أي بعون أثينا، وهي وليته ووليّة أوديس في كل

مغازيهما.

(٦٠) براح علم للشمس، والجدد في البيت السابق الشاطئ

والعجلة التبعة في البيت الذي قبله العجلة لحول واحد.



هرقل ساعة راحة.

(٦١) هذا من التشابه المتواترة في كل الألسنة، قال أبو تمام:
ثم انقضت تلك السنون وأهلها فكأنها وكأنهم أحلام

ومثله قول البحري:

وأيامنا فيك اللواتي تصرمت مع الوصل أضغاث أحلام نائم

(٦٢) إنما ذكر نسطور فطرقل بذلك ليبين له أنه لا يبرئه من تبعة تقاعد آخيل ليزيده همة على استنهاض همته.

(٦٣) هذا تهكم لطيف على آخيل ورمي له بالجبن؛ لأن ثيتيس كانت أوحث إلى ابنها أنه يقتل في هذه الحرب، وهي أبلغ عبارة نطق بها نسطور في كل هذا الخطاب وأدعاها إلى استنفاره.

(٦٤) إن هذا الخطاب مع ما في مقدمته وخاتمته من الحكم البليغة لا يخلو من دواعي الانتقاد؛ لإسهاب نسطور بحديث طويل عريض لم يكن له موضع هنا؛ لأن الموقف موقف حرج، لا مجال فيه لهذا الإكثار مهما دافع المدافعون عن شاعرنا، ولكن فيه مع ذلك خلا الفوائد التاريخية فائدة أخلاقية تعلمنا أن الشيخ العاجز يجنح إلى كثرة الكلام مهما وفرت حكمته وعظمت مهابته. وإذا لا يبقى له سبيل إلى إتيان الأعمال الخطيرة، وإبراز الهمم الكبيرة، فلا أقل من أن يفخر بما سبق له من صلب الذراع وطويل الباع.

(٦٥) عارجا الأولى من العرج، والثانية من العروج، أي: الميل.

(٦٦) ظبي المخافق، أي: مناصر السيوف.

النشيد الثاني عشر

واقعة الخندق

مُجْمَلُهُ

استظهر الطرواد على الإغريق، فدفعوهم إلى داخل معقلهم، وهزموهم إلى سفنهم، وألقى هكطور الرعب في قلوبهم، فخارت عزائمهم وهانت قواهم، أما هكطور فدفعته الحمية إلى اجتياز السور والخندق إلى السفن، فهياً قومه لذلك، وارتأى فوليداماس أن يترجل الجميع ويندفعوا مرة واحدة مشاة، فاستصوب الطرواد رأيه، وتكتبوا خمس كتائب، كل كتيبة بزعامة رئيسها إلا أسيوس فإنه ظل على مركبته فقتل، ولما اندفع الطرواد إلى أبواب المعقل وقف لصدّهم بطلان من أبطال اليونان، فأبرزوا من البسالة ما يفوق الوصف، وإذ أوشك هكطور أن ينقض على المعقل ظهر لهم على ميسرة الجيش الطروادي نسر ممسك بمخالبه حية حية، فارتاع فوليداماس لذلك وأشار بالكف عن القتال، فوبخه هكطور ولبث على كرته فثبت الإغريق في موقفهم وأمطروا على الطرواد وبل نبال وامتاز الآياسان بالبأس والبطش بين الإغريق، كما امتاز سرفيدون وغلوكوس بين الليقيين نجاد الطرواد، ثم جرح غلوكوس فانهزم، وبقي سرفيدون وحده، فحرق السور وفتح منفذاً فيه لجماعته فكادوا ينفذون فيه لولا بسالة آياس، فكسر الفتك والقتل فانحاز حينئذ زفس إلى الطرواد، وتقدم

هكطور ورمي بصخر على أحد الأبواب فسحقه وولج مع كل جيشه
معسكر الإغريق، ولم يزل يتعقبهم إلى أن لجأوا إلى سفنهم.

النشيد الثاني عشر

فطرقل عند أرفييل بخيمته	يعنى به ويداويه بحكمته
والحرب في مأزق ضاقت مسالكه	على الفريقين ألقى ثقل وطأته
أما الأغارق فالحصن المتين بنوا	والخندق احتفروا من حول خطته
ليدفعوا عن خلاياهم ومحملها	من الغنائم ما يغلو بقيمته

•••

لكنهم حين شادوا سورهم غفلوا	عن الضحايا مئات بئس ما فعلوا
فما إذا هو واقبيهم بمنعته	من الأعادي إذا كروا وإن حملوا
فلا يقوم بناءً لا تحيط به	عين العناية إلا شابه الخلل
قد دام ما دام هكطور وما بقيت	إليون واشتد آخيل بنفرتيه

•••

وعندما فتحت إليون واندرت	من بعد عشرة أعوام بها حصرت
والأرغسيون هاتيك السفائن في	من عاش منهم إلى أوطانهم مخرت
فوسيد فورًا وآفلون انحدر	وكل أنهار إيذا فوقه انحدرت
ريسوس روديس قاريس إيسفس	والهفتفور بضافي سيل ضفته

•••

والإسكندر إغرائيق يتبعه	وسيمويس انجلي يهوي تدفعه

عن جنة سطعت أو بيضة لمعت
وفيس حول الأنهار قاطبة
وزفس أمطر شؤبواً يقوضه
أو قرن ربّ بذاك الجد مصرعه ٢

•••

وفوسد وعصا الأنواء في يده
يدك أركانه من أسها وبها
يستأصل الصخر منها والجدوع إلى
فأسبل الرمل يعلوها وقد رجع الـ
يطغي السيول عليه في توقده
لليم يقذف معتزاً بسؤدده
أن ساوت الجرف في مألوف معهده
أنهار كلّ إلى محدود جدّته

•••

ذاك الذي سوف يديه لنا القدر
ترتج أبراجه من عنف كرّهم
يروعهم سخط زفس مذ أصابهم
لا زال يعصف فيهم مثل عاصفة
والآن من حوله الطروادة استعروا ٣
والأرغسيون في الأسطول قد حصروا
وهكطر ذاك أس الروع والخطر
وقوم طروادة اشتدوا لشدته

•••

كأن خرنوص برّ صال أو أسدا
به تحيط السرايا والكلاب وقد
فيستجيش بقلب لا يروعه
بل ينثني وهو حيث انقض منقبضاً
لم يعبان بجمع حوله احتشدا
أهمت حواليه من أسهامها برداء
بأس فلا يلتوي للخطب مرتعدا
أو صال شقت سراياهم لصولته

•••

كذاك هاج بهم هكطور يندفق
يصيح في القوم هيّوا الخندق اخترقوا

لكنما خيله في الجرف جازعاً
وأطرقت صاهلات لا تطيق به
وكيف تعدو وحول السور هاويةً
ترددت مذ تراءى دونها العمق
وثباً فتجتاز أو عدواً فتطلق
يحوطها السد إحكاماً لمنعته

•••

هيهات تحت العجال الخيل تقطعها
لذاك فوليدماس جاء هكطر والد
«يا هكطر يا سراة الجند كيف ترى
لكنما لمشاة الجيش مرجعها
فرسان نادى بقرب الفوز يطمعها
فوق الحفير جياذ الخيل ندفعها
أوتادها غضةً من ضمن سدته
وراء السور والأركان قد رفعت

•••

فكيف نزل في هذي العجال إلى
لئن نل من لدى زفس إبادتهم
فإن عبرنا وصدونا لوهدته
هذا الشفير ولا نلقى به فشلا
ونشر خزيهم فليهلكوا عجلا
فأي زُرء يوافينا وأي بلا
ناج لإليون ينمي شر محنته
والحق أصدقكم لن ينجون بنا

•••

فالرأي عندي أن نقي الجياذ لدى
ونحن نتبع هكطوراً بجملتنا
فالأرغسيون إما حان مصرعهم
مكتفين على أكتافنا العددا
لن يستطيعوا سبيلا للقا أبداً
حتى ترجل هكطور لساعته
فلم يكذ ينتهي والقول راقهم

•••

وكل فرسانهم ألقوا عجالهم
لساسة الخيل تستبقى حيالهم

تقام في الجرف صفًا واحدًا وهم
فقداد أولها هكطور أولهم
وقبريون وقد أبقى الجياد لدى
فئى لهكطور من أعراض فتيته ه

•••

كتيبة تلك ضمت جلهم عددا
وقاد ثانيها فاريس يصحبه
وحاز ثالثها من ولد ملكهم
هيلنس ثم ذيفوب الذي طلعت

•••

كذا ابن هرطاقس آسيس البطل
من بر آرسبة من جد سيلس قد
وانضم رابعها جيشًا على حدّة
وأكماس ابن أنطينور يصحبه

•••

وخامس الفرق الغراء قد جمعت
وعسطروف بغى عونًا له وكذا
كمأة بأس بلا هكطور وقعهم
قد قصر الكل عن إدراك شأوهم

•••

وعندما التأموا تزهو يلامقهم
تقدموا ومرام النفس سائقهم

وأيقنوا أن أعداهم وقد وهنوا
بصدق فوليدماس كلهم وثقوا
سوى ابن هرطاقس ما زال معتليًا
تبيدهم في خلاياهم مخافتهم ٧
على اختلاف سراهم وهو صادقهم
يليه حوذئُهُ من فوق سدته ٨

•••

أم السفائن مغترًا على حمق
فلن يرى بعد إليونا ويفخر بل
يسرى السفين مضى حيث الأغارق قد
أغار تتبعه الأجناد لا غِبَّةً
بخيله وبشر الحنف لم يثق
برمح إيذومن حكم القضاء لقي ٩
آبوا بخيلهم من أفسح الطرق
وأيقنت في العدى فوزا بغارته

•••

للباب كروا ومصراعه ما زلجا
ودونه من بني اللافيث يحرسه
لينطس عد آريس وفولفت
قاما كأنهما ملولتان على
بل فيه قوم يباري من عدا ونجا
قرما نكال على هز القنا درجا
لصده وقفاه فيه وما اختلجا
طود وقد قامتا من فوق قمته

•••

فإن أصلهما في الأرض ينتشر
تربصا للقاءه لا يهولهما
فكر يتلوه يامين وآدمس
واينماوس تعلوهم يلامقهم
ولا يروعهما ريح ولا مطر
أنصاره وإن اشتدوا وإن كثروا
كذا ثوون وأورست الأولى اشتهروا
وجيشهم لغبًا داو بصيحتة

•••

والأرغسيان لا يلويهما الجزع
صاحا بمن ضمن ذاك المعقل امتنعوا

وكاد جيش العدى للسور يندفع
مكافحين وأسهم العدى تقع
يصل للوبل يهمني فوق صفحته

فما أجاب مجيب والتووا قلّقا
فبرزا خارج الأبواب وانفردا
وفوق صدريهما الفولاذ متقد

•••

بين الخياطل والقناص مذ حصرا
كيدا ويستأصلان الفرع والشجرا
حين لم يلقيا في المعرك القدرا
ربعا لكل قوى جيش وكثرته

كأن في الشم خرنوصين قد ذعرا
فيسحقان بطن الغاب ما لقيا
وبعيلان صريف الناب ما بقيا
فهكذا اشتد ذان الباسلان وما

•••

وبأس من قام فوق السور خلفهما
وبلا من الصخر من فوق العداة همي
على الرءوس بغيث بالنبال طما ١٠
والنوء هب فتهمي تحت هبته ١١

كانا على ثقةٍ من بأس ذرعهما
جند مُدافعةً بالعنف دافعةً
ومن كلا الجحفلين الرمي منطلق
كصيب الثلج تنهال الغيوم به

•••

للجو عنها وعن أجوابهم صعدا ١٢
فصاح يلطم يضويه العنا كمدا
قرمين فذين لم نبغهما أمدا
والنحل لا يتخلى عن خليته

والبيض ترجع عن وقع الحجار صدى
ففات آسيسا ما كان أمله
«أكنت يا زفس خداعا وكيف أرى
مثل الزناير ذبت عن خشارمها

•••

أو بين فتاك أيدينا إذا وقعا» ١٣

فلن يكفنا ترى إلا إذا صُرعاً

لكن زفس وهكطورًا بنصرته من دونهم خص ذاك الصوت ما سمعاً^{١٤}
وسائر الجيش لم ينفك مضطرباً بأساً على سائر الأبواب مندفعاً
من لي يالهام ذي علم فينبئني كم هامة وقعت في حرّ وقعته^{١٥}

•••

من كل فج لدى السور الأوار علا وارتاع للخطب أهلوه وقد ثقلا
فلم يروا غير حسن الذود من مددٍ ورهط أنصارهم في الخلد قد وجلا
لكنما ولدا اللافيث حولهما قد أعملا في الأعادي السيف والأسلا
واجتاح فولفت داماس مبتدراً بطعنة نفذت في بطن خوذته

•••

ما صدها ذلك الفولاذ بل خرقتُ حتى الدماغ وأم الرأس قد سحقتُ
من ثم أتبعه فيلون يلحقه أرمين عن طعنة في جوفه مرقّتُ
كذا لينطس في لدن القناة مشى رمى وفي خصر هيفوماخس فهقتُ
فاستل من غمده السيف الحديد وفي قلب العدى كر يلقي روع كرته

•••

فانطفأت فرى يلقىه منقلبا من ثم كر ومنيون الفتى اقتضبا
واجتاح أورست تُسقى الأرض من دمه والقرم يامين ثم استقبل السلبا
وهكذا فيا اللافيث قد فتكا فتگا ذريعًا وحازا بعده النشبا
وهكطر إثره الفتيان لا غبةً وإثر فوليدماس تحت إمرته

•••

(كتيبة تلك ضمت جلهم عددا جندا تمد إلى كيد العداة يدا)

كادت حفيرهم تجتاز عابرةً
 إذا بطير لها تحت السماء بدا
 فاستوقفت جزعاً في الجرف حائرةً
 تطير أو هو عن يُسرى السرى وردا
 نسر مخالبه في الجو قد نشبت
 بأفعوان خضيبٍ تحت قبضته

•••

فالأفعوان وفيه لم يزل رمق
 ما بين أظفاره في الجو يصطفق
 حتى عليه التوى بالعنف يلسعه
 في بارز الصدر حيث التفت العنق
 فصاح عن ألم مر وأفلاته
 وراح تحت مهب الريح ينطلق
 والأفعوان هوى للأرض مختضباً
 حيا وطروادة ارتاعت لرؤيته

•••

فتلك من زفس نجوى رامها علنا
 ونحو قرمهم فوليدماس دنا
 وقال: «عُودَتْ هكطورٌ معارضتي
 إذا اقترحت مقالا بيننا حسنا
 لا يجدرن بنا أن نستطيل إلى
 مداك أو نرتقي ما لا يلوح لنا
 لكنني كيفما دارت مباحثنا
 مهما أقل فمقالي ثق بصحته ١٦

•••

لا خير بالفتك في الإغريق بالسفن
 إن صح حدسي ففيه فادح المحن
 ألم نر النسر يسرى الجيش مرتفعاً
 بحية حية مشتدة الإحن
 أما رأيناه ألقاها مخضبة
 فريسة تلك فاتته ولم تهن
 ولم تكن لفراخ قد خلون بها
 بوكره فانشئ يخلو بخيبته

•••

وهكذا فلئن نظفر بسورهم
 وخرق أبوابه خرقاً برغمهم

ولو هزمناهم لن يرجعن بنا ١١
 بل سوف نلوى شتاتًا تاركين لهم
 أجناد من حيث كروا بانتظامهم
 فذاك تفسير هذا النجو يخبره
 أخو الهدى تهتدي الدنيا بخبرته» ١٧

•••

فمال هكطور شزرًا وهو يلتهب
 فإن تكن قلت ما قد قلت عن ثقةٍ
 غيظًا وقال: «أللإحجام تنتدب
 لأنت أولى برأي أصوب فعلا
 لا شك رشذك أبناء العلى سلوا
 تلك القضايا التي بلغتها سلفًا
 م رمت أني قضايا زفس أجنب
 مذ مال بالرأس إعلانًا لنصرته

•••

أرمت أني أطيع الطير إن رمحت
 لمطلع الشمس عن يمناي إن سنحت
 سيان تعلم عندي كيفما سرحت
 فلا نطيعن إلا من أطاع جميع الـ
 أو يسرتي لدياجي الغرب إن برحت
 وليس للمرء من فأل يدين له
 جن والإنس والدنيا به انتصحت
 خير من الذود عن أوطان نشأته ١٨

•••

علام تخشى الوغى جنبًا وتضطرب
 فلسست بالقرم يأتي مؤقفًا حرجًا
 وأنت في الأمن لن يتناكب العطب
 لكن إذا ما اعتزلت الحرب مجتنبًا
 حتى ولو جملةً أجنادنا نكبوا ١٩
 أو ما بنصحك رمت الجند تجتنب
 فاعلم فروحك في رمحي وطعنته» ٢٠

•••

وكر والجيش طرا إثره حملا
 وزفس من طور إيذا ريحه حملا

هبت بعثيرها من فوقهم ومضت
فتلك من فضل زفس نصره وثقوا
فهدموها وأطراف الوشيح رموا
تذروه فوق العدى توليهم الوجلا ٢١

•••

وزعزعوا صخر أركان بدت عمدا
وشددوا العزم في استئصالها أملا
لكنما عسكر الإغريق ظل على
مدت يلامقهم حصنًا يذود به
من تحت أبراجه قامت لها سندا
بمنفذ منه يؤتون العدى الشددا
أبراجه مستجيش العزم مجتهدا
يرمي العداة الأولى آلا بخذلته ٢٢

•••

آياس يجري وآياس على القل
طورًا بلين حديث للأولى اعتزلوا
«يا أول الصيد أبطالًا وثانيهم
لم يمنح الكل بأسًا واحدًا ولكم
يستنهضان السرى بالقول والعمل
وتارة بملام الفارس الوجل
بأسًا ومن لم يخول قوة البطل
في يومنا الذود كل جهد طاقته

•••

عرفتم ضيق هذا الموقف الحرج
لا يصدعنكم قرم يسوقكم
بل شددوا بعضكم بعضًا ولا تهنوا
به نذل عدوًا قد ألم بنا
لا تلتون بقلب هد مختلج
إلى سفينكم في خائر المهج
لعل زفس منيل النصر والفرج
يصمى ويذبح حتى باب بلدته»

•••

فهاج قولهما الأجناد فاعتصبوا
وماج من فوق ذاك المعقل اللجب

حجارة من كالا الصويين طائرة
كأن يوم شتاء زفس كان له
فتسكن الريح والثلج الكثيف على
في الجو في موقف الجيشين تنسكب
بالقر فيه على كيد الورى أرب
وجه الثرى صبياً هام بوفرتة

•••

يهمي فيستر وجه السهل والجبال
والشعر حيث زغاب الموج يمحقه
لكن هكطور والطرواد ما ظفروا
إلا بهمة سرفيدون هيجه
والمرج والزرع والأرياف والسبلا
وسائر الأرض منه ألبست حلا
بالسور والباب بالمزلاج قد قفلا
أبوه زفس ببادي بأس همته

•••

جرى كليث على سرب الثيار جرى
مؤلّق مستدير دق صانعه
مبطن بجلود الثور دار على
به مشى بيديه عاملان مضى
أمامه مجوب فولاذ بهرا
قتيره دق حذق يدهش البصرا
أطرافه قضب من عسجد نشرا
عُجَبَا يهزهما أثناء مشيته ٢٤

•••

كضيغم بين شم الراسيات ربي
ينقض حتى مباني الناس مبتغياً
لا ينثني لكالب الحي إن نبحت
وليس يرجع إلا نائلا وطرا
وبرحت بحشاه آفة السغب
فريسة بفؤاد غير مضطرب
أم بادرتة رعاة القوم بالقُضْب
أو هالگًا بقناهم قبل عودته

•••

وهكذا انقض سرفيدون ممتحنا
خرق المراقب والسور الذي حصنا ٢٥

في ليقيا كان صدر القوم مجلسنا
والناس مثل بني العليا تبجلنا
والكرم والزرع يسقى ملء حاجته

فقال لابن هُفُولُوخ: «علام ترى
والكأس تُتَرَعُ واللحم السمين لنا
علام في ثغر زنتِ أرضنا اتسعت

•••

صدر السرى حيث نلنا منتهى الشرف
«نعم الملوك علوا عن حطة الضعف»
والراح إذ وقفوا في موقف التلف»
وخط الشيب وموت بعد وخطته

فلا يسوغ لنا إلا التريص في
حتى كتابينا تعتز قائلة
«فليهنأوا بسمين اللحم مأكلمهم
وهل ترى لو أبينا الكر ننقذ من

•••

وما بغيتك في ذا المَاقِطِ اللجب ٢٧
يأتي بأي سبيل كان أو سبب ٢٨
أو راقب من سقانا غُصَّةَ النُوبِ» ٢٩
وكرر تتبعه أبطال أمته

لو كان ذا غُفْتُ شر الحرب والحرب
لكنما الموت منه لا مناص وقد
فلنقدم فإن المجد راقبنا
لبى غلوكس لا يرتاع مطلبه

•••

هَمَّا إلى برجه بالعزم واقتحما
قرمًا يروم به عونًا يصدهما
قد بارح الخيم طففير يرومهما
ما اشتد من لغبٍ يصمي بضجته

فهال مرآهما مينستسا وهما
فسرح الطرف حول السور مبتغيًا
ألفى الأياسين لا يضويهما تعب
ولم يكن من سبيل للنداء على

•••

يغنون إدراكك ذلك السور للدرك

حيث الطرواد قد ثاروا بمعترك

أبواب قرع دوى في قبة الفلك ٣٠
وقال: «طر بمقالي غير مرتبك
فليأت آياس يرفدني بنجدته ٣١

وفي اليلامق والبيض المعذب والـ
فصاح مينستس بالفيج ثوطس
وادع الأياسين أو مهما بدا لهما

•••

وقوم ليقية انقضوا على أثري
فليأتني ابن تلامون أبو الظفر
فأسرع الفيج ينمي صحة الخبر
كليكما فأجياه لدعوته

والرأي هذا فعندي موقف الخطر
وإن يكن جل وقع الخطب عندهما
وليأت طفقير رب القوس يصحبه»
قال: «ابن فيتيس حيناً يرومكما

•••

إذ قوم ليقية انقضوا على الأثر
فليأته ابن تلامون أبو الظفر
لبى كبيرهما يجري بلا حذر
ليحسن الذود فيهم حين غيبته: ٣٢

والرأي ذا فلدبه موقف الخطر
وإن يكن جل وقع الخطب عندكما
وليأت طفقير رب القوس يصحبه»
ومال نحو ابن ويلوس يشدده

•••

وحرضا الجند لا تأب الوغى جينا
وإن دفعتهم دفعاً رجعت هنا
أخاه وابن أبيه النابل الفطنا
وراء طفقير يجري في حنيته ٣٣

«قف يا آياس وفوليميد لا تهنا
أمضي فأبلو بأعداء هناك عتوا
وسار يصحب طفقير الفتى معه
كذلك الشهم فنديون متبع

•••

في برجه فإذا بالأمر قد فدحا

من داخل السور أموه وما برحا

تسلقوا بوحى يشند أي وحى
أفكلس خل سرفيدونهم طرحا
يدا فتى رب بأس في شبيته

وقوم ليقية مثل العواصف قد
فقل آياس صخرًا هائلًا وعلى
جلمودة من رجال العصر ما رفعت

•••

رحاه ثم على رأس العدو دفع
فغائصًا من على البرج المتين وقع
رام التسلق مشد القوى وطلع
فأرسل السهم يعرفها برميته

فذلك الصخر من ضمن الوشيع رفع
فدق هامته من تحت خوذته
كذاك أبصر طفقىر غلوكس قد
وقد بدت يده البيضاء عارية

•••

كي لا يرى الجرح أعداءه ويفتحروا
منآه لكنه ما ناله الضجر
يقف وعاجله بالرمح يتدر
يصل فولاذه من فوق جثته

فشب للأرض واهي العزم يستتر
فأثقل الغم سرفيدون حين رأى
وألقماوون تسطور أصاب فلم
واجتر عامله من صدره فهوى

•••

إحدى دعائم سطح السور فاضطربا
عن منفذ لبني طروادة رحبا
طفقىر يرمى بسهم فيه ما نشبا
ينفذ وزفس تلافاه بقدرته ٣٤

من ثم بين يديه ممسكًا جذبا
وأسقطت من أعالي الحصن وانكشفت
فانقض آياس يغييه وباده
حزام جنته الكبرى أصاب فلم

•••

نكاله وأياس ثار مشتعلًا

لم يرض موت ابنه قرب السفين ولا

وكر يطعن والرمح الحديد مضى
فصدَّ يرجع سرفيدون بعض خطى
بل ظل يأمل نصرًا وانثنى عجلًا
في ترسه وإلى الأعضاء ما وصلا
عن خطة السور لكن لم يهن وجلا
يصيح في من تلاه من عشيرته

•••

«يا قوم ليقية هل خار عزمكم
وهل تيسر لي ما صلت منفردًا
هيو اتبعوني فخير الأمر ما اجتمعت
فجملة وجلوا من عذل ملكهم
فقد فتحت سبيلا في وجوهكم
أمهد السبل للأشرع دونكم ٣٥
على تطلبه القوات تلتئم»
وفار فائزهم من حول فورته

•••

والدانويون قد ضموا كتائبهم
فما هم دافعوا أعدائهم صبيًا
ولا أولئك منهم نائلو وطرٍ
وليس يفصلهم إلا الفواصل في الـ
من داخل السور لا يلوون غاربهم
عن ثغرة جعلوا فيها مضاربهم
ولا سبيل ليحتلوا مراكبهم
سور الذي اشتبكوا من حول فرجته

•••

كزارعين بحقل بعد ما قسما
ولا يظلان في جهدٍ وفي عملٍ
كذا تعادلت القوات يسرب من
كم جنة سحقت في صدر حاملها
تنازعا كل شبر في حدودهما
حتى يوازنه المقياس بينهما ٣٦
كلا الفريقين سيالا نجيعهما
ولأمة خرقت من تحت جنته

•••

وكم فتى مدبر قد بان كاهله
فالسهم واصله والرمح قاتله ٣٧

وما استطاع بنو الطرواد صدهم
كمراءة عالت الأطفال عادلة
لا تخسر الصوف مثقالا تضن به
بل استوى في مجال الفتك هائله
قد أمسكت عود ميزان تعادله
عن العيار الذي ألفت بكفته ٣٨

•••

لكن زفس ذرى المجد الرفيع ذخر
فكر أولهم كرا يصيح بهم
والسور فاخترقوا والنار مضرمه
فهاجت النفس والسور المنيع رموا
لهكطر فيالى الحصن المنيع عبر
«إيه فُكروا بني الطرواد خير مكر
ألقوا فلا تبق من أسطولهم وتذر»
يهز كل فتى رُمحا براحتيه

•••

وهكطر حجرًا في الباب قد ثقلا
جلمود صخر إذا ما رام يحمله
ما بلغا رفعه إلا بجهدهما
لكن هكطور يرحوه بغير عنّا
محدد الرأس ضخم قعره حملا
قرمان من خير ما في عصر نارجلا
من صفحة الأرض حتى يبلغ العجلا
إذ زفس أذهب عنه كل ثقلته ٣٩

•••

نظير جزة كبش خف محلها
كذاك صخرته هكطور محتدما
قد أحكموا قفل مصراعيه إذ رتجا
وقد تعارض قفلاه ووسطهما
هيهات في راحة الراعي تنقلها
عنفا رماها لصفق الباب يرسلها ٤٠
حتى يعز على الأعداء مدخلها
تقب تخلص مزلاج بفرضته

•••

فهكطر مذ أتاه أثبت القدما
مفرجا بين ساقيه رحا ورمى

فراح ما بين صفقيه وقد سحق الـ قفلين ينفذ والصفقان قد حطما
والرزتان استطارت قائماتهما والباب يصرف من عنف به صدمما
فانقض هكطور بالفولاذ متشجًا كالليل يذعر ذعرًا في دجنته

•••

يهز بين يديه عامله ولا يصده غير رب عندما حملا
واجتاز وثبًا وعيناه شرارهما وارٍ وألفت يدعو قومه عجلا
تلوه ما بين عاد قد تسلق أو في الباب جار لداوي الصوت ممثلا
والأرغسيون للأسطول قد لجأوا في مآزق ضاق مشد بأزمته

هوامش

(١) هذا أشبه شيء بقول المزمير: إن لم يبنِ الرب البيت
فباطلا يتعب البناءون، وإن لم يحرس الرب المدينة فباطلا يسهر
الحراس، ويقرب منه قول الشاعر العربي:
كذلك من لم يشكر الله لم تزل معالمه من بعد ساحته تعفو

(٢) قرن رب، أي: نظير رب، وهي صفة كثيرًا ما يصف بها
هوميروس أبطاله الأشداء، وقد خص سيمويس من بين الأنهار بالجنن
والبيض، أي: الدروع والخوذ المنقذة مع مياهه؛ لكثرة ما وقع فيه من
القتلى بدوران رحي الحرب على ضفتيه.

(٣) تلك إشارة من جملة إشارات الشاعر إلى ما كان مزمعاً أن يقع بعد الحصار، وقد أدخلها هنا بمعرض نبوءة سبقت الإشارة إليها في النشيد السابع، والظاهر أنه في زمن هوميروس لم يكن لذلك السور من أثر باق، أو هو خرافة تناقلت إلى أيامه، ولا حاجة إلى إعادة ما قدمنا في هذا الشأن في النشيد السابق المذكور، وإنما نجتزئ هنا بالتبنيه إلى الأسلوب البديع، الذي اتخذته صاحب الإلياذة إلى محق آثار ذلك السور، فجعل الأمر متأثراً عن تعاون الآلهة، وليس بالأمر العسير عليهم أن يبيدوه، وأتى بكل هذا بصورة رمزية تفيد أن اليونان في زمانه كانوا يدركون جانباً من أسرار الطبيعة، فإن فيوس وهو الشمس يحول الأنهار، وزفس وهو في بعض الأحوال الرقيق يهيم الأمطار، وفوسيد وهو البحر الهدار يثير الأنواء في البحار، كل ذلك من الأصول العلمية التي يحسن تأويلها حتى في أيامنا هذه.

(٤) قد خالف الشاعر عادته هنا بتشبيهه هكتور بطل الطرواد بالليث بين الكلاب مع دوام أثرته لقومه، ولكنه لا يبقى محل للاستغراب إذا علمنا أن مراده أن يشدد الأزمة على الإغريق، وينكل بهم تنكيلاً، حتى إذا هب آخيل إلى نصرتهم وفاز بقتل هكتور كان له بذلك فخر على فخر، وزادت أناشيد الإلياذة وآخيل بطلها بلاغة على بلاغة.

(٥) قبريون هذا حوذي هكتور، وإذا كان بطلاً باسلاً استبقى المركبة لفتى آخر من أعراض الفتية، وتولى قيادة كتيبة من الجيش مع

هكطور، وليعلم المطالع أنه شتان ما بين حوذي ذلك الزمان والحوذي
في أيامنا، فسائق المركبة إذ ذاك كان رفيقًا وقرينًا لصاحبها، يشبه به اليوم
رديف العرب في البادية كما تقدم.



فوليداماس يشير إلى هكطور أن لا يجتاز الخندق راكبًا.

(٦) جد سيلس، أي: ضفة نهر سيلس وشاطئه.

(٧) الخلايا: السفن، والمخافق: السيوف.

(٨) ابن هرطاقس، أي: أسيوس.

(٩) تلك إشارة إلى مقتل أسيوس في النشيد التالي.

(١٠) شبه معقر بن حمار البارقي الرءوس المضروبة عند التقاء

الجيشين بالحدج النقيف، وهو الحنظل المشقوق بقوله:

كأن جماجم الأبطال لما تلاقينا ضحى حدجٍ نقيفُ

(١١) شبه النبال المتطائرة بالثلج المتناثر، ومثله قول أبي العيال

الهدلي إذ شبهها بالسنبيل:

فترى النبال تغير في أقطارها شمسًا كأن نصالهنَّ السنبيلُ

وأحسن منه قول العبيسي، إذ ذكر السيوف والسهام والدروع،

وشبه السهام بالجراد، قال:

يدعون عنتر والسهام كأنها لمع البوارق في السحاب المظلم

يدعون عنتر والسهام كأنها طش الجراد على مشارع حوم

يدعون عنتر والسهام كأنها حلق الضفادع في غدير ديجم

(١٢) الأجواب: جمع جوب التروس. والبيض: الخوذ.

(١٣) إن خطاب أسيوس لزفس من باب الكفر والاستطالة، ولعل

الشاعر وطأ به ليجعل قتل أسيوس في ما يلي عقابًا على كفره، كما زعم

بعض المفسرين. ولا أرى هذا التفسير ثبوتًا؛ لأنه يلوح أن لوم الآلهة ساعة

الغضب لم يكن بالخطأ القاتل، ولنا في الإلياذة أمثلة كثيرة على ذلك

فقد جاء مثل هذا الكلام بخطاب ذيوميذ في النشيد الثالث إذ يقول:

من كل آل الخلد مثلك لم يكن يا زفس معتسف بمقدوراته

ونفس أغاممنون الزعيم الورع رمى زفس بالكذب والخداع مرتين
بقوله في النشيد الثاني والنشيد الحادي عشر:
فمان وما أغراه فيما رمانيا وأمثال ذلك كثيرة

(١٤) قوله: «وهكطوراً بنصرته من دونهم خص». جملة
معتضة.

(١٥) كل انتقال من الخبر إلى الاستفهام كما ترى في هذا البيت
يشير إلى أمر خطير يليه، وأكثر ما يستعمل الشاعر ذلك عند تعداد
أسماء كثيرة لا بد في استحضارها من ذاكرة يحكمها محكّ جديد.

(١٦) نرى فرقاً بين خطاب فوليداماس هنا وخطابه السابق
في هذا النشيد، فقد تكلم هنالك كلام الأمر الناطق بالحق، الذي يجب
أن يتبع فييدي رأيه بلا تزلف غير متوقع لوماً واعتراضاً، وأما هنا فيشرع
في التلطف والاستعطاف؛ لأنه موقن أنه وإن نطق بالحق والصواب كما
نطق في الموضع الأول، فهو هناك مثبتٌ أمراً يميل إليه هكطور وموردٌ
هنا رايّاً يعلم أن نفس هكطور تأباه؛ لأنه قد عيل صبراً، ولا يرى إلا
الساعة التي بها يبدد جيش أعدائه حالة كون فوليداماس يأمره تطيراً
بذلك النجو أن يكف عنه، فكان لا بد من ثم من توطئة يستميله بها.

(١٧) النجوى: السر — العيافة، أو زجر الطير والتفاؤل والتشاؤم بوجهتها في الطيران من أقدم المعتقدات، وهي ليست من استنباط اليونان بل أخذوها فيما أخذوا عن تقدمهم من البابليين والأشوريين، على أنه لم يكن لها عند اليونان ذلك الشأن الخطير، الذي كان لها بعد حين عند الرومان والعرب، حيث كانت من أسمى خصائص الكهان، فكان الرومان يتدبون لها رجالا من ذوي الوجاهة والكرامة، وكانت في جاهلية العرب لبني فهد يتكهنون بها كيف شاءوا، والظاهر أن اليهود عملوا بها زمناً بدليل تحريمها في سفر اللاويين، ولم تنتسخ من بين العرب إلا بقوة الدين، وفي الحديث: «لا طيرة في الإسلام».

والمشهور من طريقة العرب في العيافة أنهم كانوا يرمون الطائر بالحصاة، أو يصيحون به فإن ولى القوم ميامنه تفاءلوا به وإن ولاهم مياسره تشاءموا، ومنه قولهم التيمن والتشاؤم توقعاً لخير أو شر من اليمين والشمال، وكانوا إذا أرادوا السفر خرجوا من الغلس والطير في مواقعها على الأرض والشجر، فيطيرونها فإن أخذت يميناً أخذوا يميناً، وإن أخذت شمالاً أخذوا شمالاً، وإلى ذلك يشير امرؤ القيس بقوله:
وقد اغتدى والطير في وكناتها بمنجرد قيد الأوابد هيكَل

وكانوا يسمون الطائر الآخذ من اليسار إلى اليمين سانحاً، والآخذ من اليمين إلى اليسار بارحاً، وربما تشاءموا أو تفاءلوا لظهور طائر بصرف النظر عن وجهة طيرانه، وأكثر التشاؤم بالغراب، وأضافوه إلى البين،

فقالوا: غراب البين، وزعموا أن منه الغربة والاعتراب، ولهم في ذلك أشعار لا تحصى في الجاهلية والإسلام، فمن ذلك قول أبي الأسود الدؤلي، وفيه ما يشير إلى إنكار ذلك المعتقد.

زعم العواذل أن فرقنا غداً وبذاك أنبأنا الغراب الأسود

وأكثر التفاؤل بطير القارية، وهو طائر قليل الانتشار في باديتهم؛ قصير الرجلين، طويل المنقار، أخضر الظهر يستبشرون برؤيته للمطر، كأنه رسول الغيث، وقد يتيمنون به لقضاء الحاجات.

ولكن الشعراء تلاعبوا في هذه المزاعم وأمثالها واشتقوا لكل طائر من اسمه ما يدل على الخير أو الشر، فإذا شاء الشاعر جعل العقاب عقي خير وإن شاء جعله عقي شر، وإن شاء جعل الحمام حماماً، أي: موتاً وإن شاء قال: حُمَّ اللقاء، وهلمَّ جرّاً، وقد يختلط على الرواة كثير من مقاصد الشعراء بطول العهد أو للاختلاف في الرواية، فمن هؤلاء الرواة من زعم مثلاً أن الأخيل وهو الشقراق طائر شؤم، إذا وقع على بعير يؤسوا منه، وإن كان سالماً وإذا لقيه المسافر تطير، واستشهدوا ببيت الفرزدق القائل لناقته قطن:

إذا قطن بلغتيه ابن مدرِكٍ فلاقيت من طير العراقيب أخيلاً

فقالوا: إن العرب تسمي كل طائر تتطير منه الإبل طير العراقيب؛ لأنه يعرقها، ومثل ذلك قول أعرابي:

ريني وعلمي بالأمر وشيمتي فما طائري فيها عليك بأخيلاً

ومنهم من استشهد بيت الفرزدق هذا لعكس المعنى، وأورده ببعض
خلاف وهو:

إذا قطن بلغتيه ابن مدرك فلاقيت من طير الأخائل أخيلاً

وقال: إنه يدعو لناقته بأن تلاقي هذا الطائر المبارك إذا بلغته ابن
مدرك (انظر المطالعة التالية).

(١٨) علمت مما تقدم مذهبهم في التسعد والتشاؤم، وفي قول
هكطور الآن ما يدل على أن الأخذ بذلك المذهب لم يكن من
مفروضات الاعتقاد الديني، وإلا لما جاهر هكطور بنبذه، وهو من أشد
القوم استمساكاً بأذيال دينه، ولم يعدم الناس في كل عصر قيام أفراد
يفندون خرافاتهم وينددون بها، فقد روي عن شيشرون الخطيب الروماني
أنه وضع كتاباً مخصوصاً في تسفيه مزاعم العافة، مع أنه كان بنفسه
عائفاً، ومن هذا القبيل قول لبيد:

لعمرك ما تدري الطوارق بالحصى ولا زاجرات الطير ما الله صانع

وطرق الحصى ضرب آخر من التكهن عند العرب، ومثله قول
طرفة بن العبد:

إذا ما أردت الأمر فامض لوجهه وخلّ الهوينا جانباً متنائياً

ولا يمعنك الطير مما أردته فقد خط في الألواح ما كنت لاقياً

وإلى مثل ذلك يشير أبو تمام في قصيدته التي التزم بها الرد على المنجمين إذ يقول:

ابن الرواية بل ابن النجوم وما صاغوه من زخرف فيها ومن كذب
تخرصًا وأحاديثًا ملفقةً ليست بنبيعٍ إذا عُدت ولا غرب

(١٩) يرمي هكطور فوليداماس بالجبن ويعنفه على ما قال، ويقول له تهكمًا: إنه بمأمن من القتل؛ لأنه لا يعرض نفسه لمواقف المهالك، وليس من المغاوير المعدودين تتأثره المنايا في الحرب على حد قول العبسي:

وأما القائلون قتيل حربٍ فذلك مصرع البطل الجليد

(٢٠) رأينا فوليداماس في أوائل هذا النشيد يرتئي الرأي الحسن بترجل الجند واستبقاء المركبات لدى ساسة الخيل، فيأتمر الجميع بأمره حتى هكطور، ولا يشذ عنه إلا ريسوس؛ لحماقة كانت برأسه، وإنا لنراه هنا يرتئي رأيًا آخر تسوقه إلى بثه حكمته وسابق خبرته، فيتثنى إليه هكطور مقررًا تقريبًا عنيفًا، بخطاب تشف كل كلمة منه عن جذوة نار ملتهبة في صدره، تحرقه للبطش بالأعداء وقد آنس من قوتهم وهنًا وفشورًا ورمى رفيقه فوليداماس بالعجز وهو يعلم أنه أطول باعًا منه في تلك التأويل، ولجأ إقناعًا للجند بفساد تفسير فوليداماس إلى تذكيرهم بأنه وافاه البلاغ اليقين من زفس بالنصر المبين، فلا محل بعد ذلك للتفاؤل بسائح أو التشاؤم ببارح، ولو لم يشتد تلك الشدة على

فوليداماس ويوطد ما له من الهيبة والنفوذ، لانحلت عزائم الجيش بعد ما سمعوه من بطل مغوار يعتقدون به الحكمة والبأس. كل ذلك من بديع تصرف الشاعر فإنه أنبأ بما سيكون من وجه وأوضح من وجه آخر ما يسعر صدر هكطور من البأس الذي لا يرده مرد.

(٢١) لو قال الشاعر: اصطلى الأوار، وتعالى الغبار، لأفاد المراد ونطق بحقيقة لا بد منها بتصادم جيشين، ولكن أبت بلاغته كجاري عاداته إلا أن يفرغ الكلام بقلب شعري تمكيناً لوقعه في النفوس، فقال: إن زفس هو الذي نشر ذلك العثير، وأبرز ذلك المظهر الرهيب.

(٢٢) أي: قتل السور.

(٢٣) جعل هوميروس حصون الإغريق يلامقهم، أي: تروسمهم، وأبلغ من ذلك جعل المعازل من الرماح والسيوف، كقول لبيد:
معاقنا التي نأوي إليها بنات الأعوجية والسيوف

وقد جمع ربيعة بن مقروم المعنيين بقوله:

وثغر مخوف أقمنا به يهاب به غيرنا أن يقيما
جعلنا السيوف به والرماح معاقنا والحديد النظيم

(٢٤) كلما أراد الشاعر أن يهیی بطلا لعمل خطير يشرع في تنبيه المطالع، فيصفه وصفًا فخيمًا؛ ليصدق عليه ما يلي من المقال، وهذا سرفيدون الذي يصدر لبراز فطرقل، لا بد أن يكون من صفوة الفرسان، ولهذا نبهنا الشاعر إليه بمقال مخصوص.

(٢٥) المراقب: قلل السور.

(٢٦) هذا المعنى كثير الورد في حماسيات العرب، وهو مكرر كثيرًا في شعر عنتره، كقوله:
إذ لا أبادر في المضيق فوارسي حتى أوكل بالرغيل الأول

وقوله:

وأكرّ فيهم في لهيب شعاعها وأكون أول وافد يصلهاها
وأكون أول ضارب بمهندٍ يفري الجماجم لا يريد سواها
وأكون أول فارس يغشى الوغى فأقود أول فارس يغشاها

وأبلغ منه قول الأعشى:

وإذا تجيء كتيبةً ملمومةً يخشى الكماة الدارعون نزالها
كنت المقدّم غير لابس جنة بالسيف يضرب معلمًا أبطالها

(٢٧) وهذا من المعاني المطروقة كثيرًا في الشعر، كقول زهير:
ومن هاب أسباب المنايا ينلنه ولو رام أسباب السماء بسلم

وقول عنتره:

وعرفت أن منيتي أن تأتني لا ينجني منها الفرار الأسرع

وقول أبي فراس الحمداني:

إذا لم يكن ينجي الفرار من الردى على حالة فالصبر أرجى وأكرم

(٢٨) كقولهم:

ومن لم يمت بالسيف مات بغيره تعددت الأسباب والموت واحد

(٢٩) إن في خطاب سرفيدون لغلوكوس لأنفةً وعظمة تنبه

إليهما أكثر الشراح، قالوا: إنه لما كانت الملوك قوادًا للجيش في ذلك الزمان كان من المفروض عليهم أن يعرضوا أنفسهم إلى المخاطر، ويستنهضوا الهمم باستقبال العدو في صدر الفيالق وفاءً بما ينالونه من رعايتهم وإكرامهم، وهكذا فقد قال سرفيدون: يعظمننا قومنا تعظيم الآلهة، فعاز علينا أن نتصرف تصرف البشر، بل علينا أن نتفوق عليهم، فنفضلهم بهمتنا وفضيلتنا، كما فضلناهم بمقامنا، وهو كلام يتضمن إباء نفس ما فوقه إباء، وينطوي تحته العدل والوفاء وهكذا، فالعدل لمقابلة المثل بالمثل والوفاء لمقابلة رعاية الرعية لولي أمرها بالإكرام والأنفة؛ لاذراء الموت والتهالك في سبيل المجد

(٣٠) البيض المعذب، أي: الخوذ ذوات العذبات.

(٣١) حيثما ورد ذكر أياس وحده، فهو يفيد أياس الكبير ابن تيلامون.

(٣٢) ابن ويلوس: أياس الصغير.

(٣٣) الحنية: القوس، أي: قوس طفقير - قد استنجد مينستس بأياس وطفقير؛ لأن الأول أبسلهم، وطفقير أرامهم، فذلك للقرب، وهذا للبعد.

(٣٤) الجنة: الترس.

(٣٥) أي: إنني مهما اشتددت بأسًا، فيستحيل عليّ وحدي تمهيد السبيل إلى السفن أمامكم.

(٣٦) حسينا استلفات نظر المطالع اللبيب إلى صحة هذا التشبيه وصدقه على جيشين متلاحمين لا يبلغ أحدهما من الآخر أربًا.

(٣٧) الجنة: الترس، والالامة: الدرع - قال أبو الطيب:
كم مقلّة ولغت فيها أسنته ومهجة ولجت فيها بواتره
وحائن لعبت سمر الرماح به فالعيش هاجره والنسر زائره

(٣٨) قال أفستاثيوس: كان من المأثور عند القدماء أن الشاعر إنما أتى بهذا التشبيه تخليدًا لذكر والدته، وإعلانًا لحرصها على الصدق والعدل؛ لأنها كانت أرملة تكد وتجد؛ لتعول نفسها بعرق جبينها، وهو تشبيه بالغ في العدل؛ لأنه ما من شيء يوضح القسط كالقسطاس، وأبلغ

من ذلك أنه لم يجعله بيد ذات ثروة ومقام؛ لأنها في الغالب لا تكون مبالاة إلى تمام التوازن، ولا بيد أمة مملوكة؛ لأنها لا تكون حريصة على ذلك الإنصاف، ولكن بيد امرأة فقيرة تكد لتعيش بالستر والحلال، فهي لا تغش ولا تُغش؛ فتحرر ميزانيتها تحرير الصادق المتيقظ.

(٣٩) لنا هنا شاهد آخر على أثره الشاعر لقومه، فإن الحجر الذي رفعه أياس إنما رفعه بقوة ذراعيه، وهذا حجر هكطور لا يتسنى له رفعه إلا بعون زفس.

(٤٠) صفق الباب: مصراعه.

النشيد الثالث عشر

الواقعة الرابعة

مُجْمَلُهُ

دفع زفس هكطور وأنصاره إلى الثغر فاشتد الكفاح.
وغادروهم في لظى ناره وحوّل وقاد أبصاره

ففتك الطرواد بالإغريق، وهاجت العاطفة فوسيد فهم خفيةً عن
زفس بمعاونة الإغريق، فاتخذ هيئة كلخاس العرّاف، واستنهض همة
الآياسين ونفرًا من المقاتلة، فالتف الإغريق حول آياس بن تيلامون،
وقاتلوا قتالا مرًا فصدوا هكطور وأتباعه، فجرح هكطور ودفع عن مرسى
السفن بعد أن قتل أمفياخوس، وامتنع فوسيد لموت هذا البطل، فهب
مرة أخرى وتمثل لأيدومين بهيئة ثواس وألهب لبه، فشك في سلاحه
وسار بمريون حوزيه إلى ميسرة الجيش وظل الآياسان في القلب،
فاضطدم الجيشان وخرت القتلى أفواجًا، وزفس منحرف إلى الطرواد
وفوسيد إلى الإغريق، وكان ذلك اليوم يوم أيدومين فبرز ببسالة أحرز بها
قصب السبق وجندل الأبطال وهزم الأقيال، وكادت ترجح كفة النصر
للإغريق، فثبت هكطور بموقفه وتألّبت عليه الأعداء فلم تفر منه بطائل،
وزحف عليه الآياسان بجيشهما وانهاالت النبال كالمطر على الطرواد،
حتى كادوا يهزمون، فأشار فوليداماس بجمع الزعماء؛ للوقوف على

رأيهم فيما إذا كان الأولى لهم أن يتفقهروا، أو يتصبروا فخاض هكطور
الصفوف وعنف أخاه فاریس، ثم انقضا معًا انقضاؤا الأسود، فلم يظفرا
بخرق كئاب الإغریق فالتقى الجيشان.
وعجُ الخمیسین شق الفضا إلى حیث فی الجوّ زفس اضا
مجرى وقائع هذا النشید فی الیوم الثامن والعشرین أيضًا،
ومشهدها بین معقل الإغریق والساحل.

النشید الثالث عشر

وأنصاره والكفاح صدع	إلى الثغر هكطور زفس دفع
وحوّل وقّاد أبصاره	وغادرهم فی لظى ناره
ومیسة مهد قروم الجلاذ	لإثراقة أرض خیر الجیاد
أباة النفوس غداة اللبن ١	ونحو الإفوملغ أهل الفطن
وعن حصن إلیون صد ومال	ونحو الأیین رهط الكمال
بأن بني الخلد من آله	وما كان یخطر فی باله
لنصرة أي فریق یروم	یثور بهم أحد ویقوم
فسیذ جمیع البلاء أبصرا	ولكن مزعزع ركن الثرى
وأقبل یرقب حر الأوار	لقد كان شق عباب البحار

وَأَمَّ سَمِثْرَاقَ أُمِّ الشَّجَرِ
فَلاَحَتْ لَهُ كُلَّ إِيْذَا وَأَبْصَرَ
وَأَحْدَقَ مُسْتَعْجَبًا وَهُوَ عَابِسُ
فَهَبَّ مِنَ الْقَمَةِ الْوَعْرَةَ
وَتَحْتَ خَطَاهُ ارْتِجَاجٌ شَدِيدٌ
ثَلَاثًا خَطَا فِي الذَّرَى الشَّاسِعَةَ
هَنَالِكَ شِيدَتْ صُرُوحُ النُّضَارِ
فَشَدَّ لَشَائِقَ مَرْكَبَتِهِ
حَوَافِرَهَا دُكْرَةً تَلْمَعُ
وَحَلَّ بِإِبْرِيْزِ شَكَّتِهِ
فَرَاَحَتْ بِقَلْبِ الْعَبَابِ تَلْجُ
وَخَلَقَ الْبَحَارَ وَقَدْ شَعْرَا
مِنَ الْقَعْرِ حَيْتَانِهِ تَثْبُ
فَطَارَتْ بِجَذْعٍ بِهَا اتِّصَلَا
سَرَاعًا بِهَا خَيْلُهَا رَامَحَاتِ
وَفِي اللَّحْجِ مَا بَيْنَ تَيْنِيْذَسِ
تَوْسُطَ مَنْ تَحْتَ ذَاكَ الطَّرِيقِ

لَأَشْمَخَ طُودَ بِهَا وَاسْتَقَرَّ
سَفِينِ الْبَحَارِ وَالْيُونِ وَالْبَرِ
وَشَقَّ عَلَيْهِ نَكَالَ الْأَرَاغِسِ
بِنَفْسٍ عَلَى زَفْسٍ مُسْتَعْرَةٍ
لَهُ الشَّمِّ وَالْغَابِ طَرَا تَمِيْذٌ
فَأَدْرَكَ إِيْغَاسَ فِي الرَّابِعَةِ
لَهُ خَالِدَاتُ بَقْعَرِ الْبَخَارِ
جِيَاذًا تَطْيِيرَ بِمَرْحَلَتِهِ
وَعَسَجَدَ أَعْرَافُهَا يَسْطَعُ
وَسُوطَ النُّضَارِ بِسَدَّتِهِ
لَهَا الِيمُ مَبْتَهَجًا يَنْفَرُجُ
بِوُطَاةٍ مَوْلَاهُ إِذْ عَبْرَا
لَمَرَّاهُ يَأْخُذُهَا الطَّرِبِ
وَمَا سِيْمَ فَوَلَاذِهِ بِلَلَا
لِتَبْلُغَهُ السَّفْنُ الرَّاسِيَاتِ
وَذَاتِ الْجَلَامِيْدِ أَمْبِرْسِ
عَلَى الْبَحْرِ فِي الْقَعْرِ كَهْفٍ عَمِيقِ

هنالك أوقفها ثم حلا
وقيدها ذهباً يبهـر
لتلبث ثم له بانتظار
فألـفى الطراود قد هرعوا
بصوت جهير وقلب يفور
يرومون أخذ الأساطيل قهرا
ولكن فوسيد من قبضا
من اليم أم الأراغس رفقا
ونحو الأياسين مال بحدـة
«أياس أياس ألا فاحملا
ألا فاذكرا شأو بأسكما
فلست بخاش ذراع العدى
فهم حيثما عبروا السور جهرا
ولكنما خشيتي ها هنا
يفاجر أن كان من نسل زفس
ويوليكم العزم في ملتقاه

ومد لها علف الخلد حلا
فليس يحل ولا يكسر
ونحو الأغارق بالنفس ساره
على إثر هكطور واندفعوا
كنار تشور ونوء يدور
وذبح الأخاء ثمة طرا
على الأرض من فوره اعترضا
فماثل كلخاس شكلا ونطقا
فزادهما شدة فوق شدة
فحملكما فيه درء البلا
نعم وانبذا الرعب خلفكما
وإن كثفوا حولنا العدا
يصدهم قومنا الغر قهرا
وهكطور كالنار نار بنا
فرب إله يقوم ببأس
وضم القيول لكف أذاه

يغادر أسطولكم فشلا
ومن ثم مسهما بعصاه
شديد ذراع وثبت قدم
وحالا تواري بسرعة صقر
ويرمح طي الجناح الخفيف
ففيه أحس أياس الصغير
«من الخلد لا شك ربّ نهض
لنوري الأوار ونحمي السفينا
تبينت وهو يسير خطاه
فنفسي ماجت لسفك الدم
فقال: «نعم، وأنا الآن أُلقي
ورجلي بي شدة تشب
تحرقني لبراز يجل
فذاك حديثهما طربا
وراح لساقه جيش الأراغن
فقامت مفاصلهم تنعش
إزاء الأساطيل يضوون غما

وإن كان أغراه مولى العلى» ٦
وأولاهما قوة من قواه
وخفة جسم وكل الهمم
على الفور ينقض من صلد صخر
إلى الواد في إثر طير ضعيف
ونبّه يدعو أياس الكبير: ٧
ومائل عرافنا لغرض
فما هو كلخاس فاعلم يقينا
وأمر يسير بيان الإلاه
وهاجت يدي وعدت قدمي
برمحي تهتز للفتك كفي
وروحي للنقع تضطرب
مع القرم هكطور من لا يكل
وفوسيد قلبهما ألهبا
يشدد كل فتى متقاعس
وكانت على عيها ترتعش
وبالصور جيش العدو ألما

يرون ويذرون دمعًا سخينا
ففوسيد بينهم اندفقا
وبادر يدعو قروم الرجال
وفينيل ذيفير فخر الكماة
كذا أنطلوخ وبكتهم
«ألا أي عار أرى أي عار
ظننت بكم إن ثبتم جهادا
وإلا فإن تجبنوا في الكفاح
أتبصر عيني عجابًا خطيرا
علينا الطراود منتصرة
تتيه بعجز بغاباتها
إلى أن تروح بسوق النصيب
أهم هم ولم يك مَنْ منهم
أهم هم وقد غادروا البلدا
وذاك لان المليك عثر
فحول سفائنهم يذبحونا

وبالحتف قد أصبحوا موقينا
يحسبهم فرقا فرقا
كليطس طفقى ربّ النبال
وثاوس مريون هول العداة
بقول أثار عزيمتهم
أفتيتنا يا حماة الذمار
وقاية أسطولكم أن يقادا
ففجر انتصار الطرواد لآخ
تيقنت رباه أن لن يصيرا
وهم قبل إيالة فررة
ولا عزم يدفع آفاتها
طعام ابن آوى وفهد وذيب
إينا ولو لحظة يقحم
وساموا عمارتنا النكد
فغيظ الجنود وسيموا الضجر
وللذود عنهن لا ينهضونا

وهب أن أتريذ كان امتطى
هلمو بنا نتلافى العرض
وليس جديرًا بصيد الرجال
ولا أعذل النكس إن قعدا
تقاعسكم سيزيد البلا
ألا تنظرون الصدام الشديدا
بأرتاجنا فاز والقفل حطم
فهاجوا وحول الأياسين ضمت
صفوفًا تشوق انتظامًا أريسا
تربص صيد جماهيرهم
نصال القنا لنصال القنا
وَبِالْمِغْفَرِ الْمِغْفَرُ اتصلا
برصهم الخوذ اللامعات
ومن دون صلد أناملهم
فهيوأ بهنَّ بثبت جنان
وهب الطراود والتصقوا
كجلمود صخر قد انتزعا

ياغضاب آخيل متن الخطا
فعقل أخي الفضل يأبى المرض
مغادرة الكر يوم النزال
ولست بعاذركم أبدا
ألا فاذكروا العار بين الملا
وهكطور ذاك العميد العنيدا
وحول السفائن صال وصمم» ٨
كتائبهم للصدام وهمت ٩
وفالاس يوم تثير الوطيسا
لصد العداة وهكطورهم
وفوق المجنَّ المجنَّ انحنى
وقد لاصق البطل البطلا
تلاقت تموج بها العذبات
تلاقى اهتزاز عواملهم
تضرم نارًا لحر الطعان
وفي الصدر هكطور مندفق
من الشم سيل به اندفعا

له الغاب مرتجة ترتجف	إلى القعر حيث بعنف يقف ١٠
وقد كاد هكطور يسفك سفكا	على الخيم والفلك للبحر فتكا
ولما بتلك الصفوف اصطدم	على رغمه ثبطته القدم
وجيش الأخاء هم إليه	يهيل القنا والسيوف عليه
فصدوه وانكفأ القهقري	يصيح ويدعو قيول السرى
«طراودتي وبني ليقيا	ويا آل دردانس الأصفيا
قفوا فالعدو قريباً يدين	وإن رُصَّ رُصَّ الحصار المتين ١١
لئن كان خير بني الخلد طُراً	نعم بعل هيرا المعظم قدرا ١٢
هو الدافعي لنكال العدى	فإن لهم بسناني الردى»
فهاجوا لذا النطق نفساً ولُبا	وبرز ذيغوب يختال عجا
بجنته مستجيش القوى كُر	يحث الخطى وبها يتستر
فلقاه مريون صلد سنانة	فمد المجن اتقاء طعانه
فمن نصله الرمح عنفاً تكسر	ومريون بين ذويه تفهقر
مغيظاً لرمح قد انصدعا	ونجوى العدو المبين معا
وللفلك والخيم حالا سعى	يروم قناة بها استودعا
وقوم أخاي بكرتهم	يعج الفضاء بصيحتهم

وطفقيِر أول من ظهرا
(هو ابن لمنطور حاوي الجياد
وزوج لميديسكستا الجميله
فعند انتشاب الوغى قفلا
وحل لفريام ضيفًا كريمًا
فأرداه طفقيِر بالأذن
فخر كدردارة نبتت
يميل بها النصل حين برى
كذلك إمريوس التوى
وطفقيِر هم يروم السلب
وأقبل يرميه بالعامل
تنحى فراح السنان يطير
«فتى أقطياط أبوه وكانا
فخر يصل وهكطور كرا
ولكن آياس عامله
فلم يبلغ الرمح جسمًا تردى
ولكن بمتن المجن وقع

بإمريوس الفتى ظفرا
بفيذية كان قبل الجهاد
فتاة لفريام غير حليله ١٣
لإليون حيث كما بطلا
على حرمة كنيه مقيما
وجر القناة ولم ينثن
على رأس طود به ثبتت
بغض الغصون لوجه الثرى
بصلصلة الدرع واهي القوى
ولكن هكطور حالًا وثب
وطفقيِر ما كان بالغافل
لصدر الفتى أمفماخ المقيِر
لأقطور ينسب نسلا وشانا» ١٤
ليسلب خودته حيث خرا
أطير عليه يعاجله
حديدًا يصد العوامل صدا
وهكطور بالعنف رغمًا دفع

فظل القتيلان حيث هما
ففي أمفماخ منست الموقر
وإمبريوس إلا ياسان سارا
كليشين من تحت ناب الكلاب
لغض الغياض قد احتملاهما
كذا بين أيديهما رفعاً
وظل ابن ويلوس يشتد حقدا
فهامة إمبريوس اقتضب
فدارت ولا كرة حيث مرت
وفوسيد منتقماً لحفيده
فهب إلى الفلك والخيم يجري
فأبصر إيذومناً قفلاً
يعالج حيناً فتى طرحاً
فمن بعد أن حملوه إلى
وألقيه إيذومنٌ للإسى
يشك بها بثقل السلاح

وقوم أخاي خلوا بهما
وإستيخيخس قفلاً المعسكر
به يقدحان احتدما شرارا
قد انتزعا سخله وسط غاب
وما بين فكيهما أعليهما
وشائق شكته انتزعا
لقتل الفتى أمفماخ المفدى
رحا ورمها شديد الغضب
وتلقاء هكطور في الترب قرت^{١٥}
يعد لطرود شر وعيده^{١٦}
يهيج النفوس لوقع أمر
إلى الحرب من بعد ما اعتزلا
ببطن شظيته جرحاً
خيامهم عجلاً عجلأ
لخيمته جدّ بادي الأسى^{١٧}
ويقبل مقتحمًا للكفاح^{١٨}

تلقاه فوسيد يعدو بباس
ثواس الذي كان ملكًا كبيرًا
على كالدونة أم الجبال
فقال: «أأيذومن أين ما
بيأس يقد الطرواد قداً
أجاب: «ولست أرى أن يلام
كررنا جميعًا وما من أحد
فلا شك زفس القدير استطابا
ثواس وأنت الفتى الباسل
فلا تألون برشدك جهدا
فقال: «أأيذومن من بغى
عسى أن يعز عليه المآب
فشك وهي اتلنى مسرعا
فأعجز ما في الرجال لدى
وزد أننا بقروم الرجال
ولما انتهى راح وجهته
فألقي زهي السلاح عليه

بشكل ابن أنذرmon ثواس
وساد الإتول أميرًا خطيرا
كذلك فلورونة بالجلال
لفيف الأخاءة قد زعما
وعيد أراه قد انهذ هداً
بنا أحد لا عزال الصدام
عن الحرب جنباً وذلاً قعد
نكالا وعاراً لنا واغترابا
بنصحك يسترشد الخامل
وحض الفوارس فرداً ففردا
قعوداً عن الكر في ذا الوغى
ويبقى هنا مضغة للكلاب
عسى الفوز في أن نكر معا
تكافلهم يحرزون القوى
إذا اشتدت الحرب لسنا نبالي
وأيذومن أم خيمته
وهب برمحين بين يديه

كصاعقة زفس من عنده
يطير لها في الألمب شرر
شعاع حكته على صدره
فأبصر تابعه الشهم أضحي
فصاح «ابن مولوس مريون حبي
علام برحت الصدام الأصم
أم الآن تحمل لي خبرا
أبيت التخلف بين خيامي
فقال: «أبيت نعم عاجلا
فإن قناتي قد انقعرت
فقال: «هنا خيمتي ادخل تنقي
صفوفاً بها علقت ساطعات
لأنني مقتحمٌ أبدا
ففيها تروس وفيها رماح
أجاب: «وفي خيمتي وبفلكي
ولكنه والعدو استطال

على الأرض يدفع من زنده
فينبئ بالشؤم بين البشر
صفائح العر في كره
لدى الخيم يطلب من ثمّ رمحا
أعز الفوارس من كل صحي
أصابك سهمٌ وزاد الألم
ألسّت تراني مستعرا
ويدفعني عاملي وحسامي»
أرى في خيامك لي عاملا
على ترس ذيغوب وانكسرت»
قناةً وإن شئت عشرين تلقى
بأكنافها من سلاح العداة
بوجهي وجه غُلوج العدى ١٩
وبيض ولاّم بزاهي الصفاح» ٢٠
سلاحٌ كثيرٌ ذخرت بفتكي
عسير المنال لبعد المجال

وإنني مثلك افتخر
وأنني يوم الطعان أرى
فغيرك إن أبل قد لا يراني
فقال: «ومثلي من خبرك
علمت بأننا إذا ما أقمنا
هنالك حيث يكون المحك
هنالك حيث الجبان امتقع
بمهجته هلعًا يحقق
وتصطك أسنانه ويقف
وأما الجسور فليس ليعبا
يعال وقد رصد القوم صبرا
هنالك من ذا الذي يجد
فأما طعنت وإما ضربت
فليس بظهورك وقع سلاح
ولكن دع البحث في صدد
هلم ادخلن عزيزًا مكينا
لئن يرم ما مثله نابل

بأنني بأسي أذكر
إذ التحم النقع صدر السرى ٢١
ولكن إيدومنا قد بلاني
فلست لتُمني لي خبرك ٢٢
كميًا له صفوة البهم رمنا
فيعرف من صك ممن فتك ٢٣
ومن جوفه قلبه ينخلع
ومن خشية الموت يصطفق
فتقعده ركبٌ ترتجف
ولا يتغير لوننا وقلبا
إلى الكر والبطش طعنا ونحرا
عليك سبيلاً فينتقد
قريبًا إذن أو بعيدًا أصبت
وصدرك ذاك محط الرماح ٢٤
نلام عليه ولا نجتدي
ومن خيمتي اقتل سنًا متينا ٢٥
وإن كر فهو الفتى الباسل

فهم كفء هكطور مهما طغى
ومهما يكن عزمه لن يهونا
فلا نالها غير زفس إذا
ولا بشرٌ من جميع البشر
ويغذي نتاج الثرى مستمراً
وليس بغير السباق يطال
فقم فنسير إذا لليسار
ومريون حالاً كرب القتال
ودون الطراود مذ ظهرا
وتابعه بالسلاح المتين
هناك السرى اشتبكت والغبار
وقد ستر السبل سحق ربيع
كأن الرياح قد اصطدمت
كذا اشتبكوا فوق تلك الفلا
رماح تمزق صدر الرجال
ولمع الدروع وغر التروس

فلن يبلغن بهم ما بغى
عليه المنال فيوري السفينا
رماها بمقباس نار الأذى
يؤلّمه عاملٌ وحجرٌ
يطيق لآياس ذلاً وقهرا
ولو نفس آخيل بالعزم صال
لنولي أو نحن نولى الفخار»
تقدم يجري إلى حيث قال
يضرّم إيذومن شررا
تراموا بكبحهما مجمعين
إزاء السفائن للجو ثار
فتنسفه لعباب الرقيع
بنوءٍ تفاقم فالتطمت
وقارنت الأسل الأسلا
وأفئدةً لهبت للنزال
وزهر الترائك فوق الرءوس

وقد عانق الفيلق الفيلقا
وليس سوى الفاتك الباسل
وكلُّ من ابني قرونس رام
فزفس لإعزاز شأن أخيل
ولكنه لم يشأ أن يبيدا
بل اختار إجلال ثيتيس قدرا
وفوسيد سرًّا من البحر هبًّا
يؤلمه أن زفس جنف
هما ابنا أبٍ واحدٍ ليس إلا
ولكنما البكر زفس غدا
لذلك فوسيد ما جسرا
فجباب يخوض الصفوف خفيًّا
وأورى الإلاهان نار نكال
بأطرافه كلهم وقعوا
وخرت سراة كتائبهم
هنالك إيذومن سخطا
لقلب العداة بثت القدم

بمنظره يبهـر الحدقا
يسر لذا المشهد الهائل
خلاف مرام أخيه الهمام ٢٦
لهكطور كان مليًّا يميل ٢٧
بإليون قوم الأخاء بعيدا
كذاك أخيل ابنها الشهم جهرا
ليحيي الأراغس نفسًا وقلبا
عليهم ونحو العداة انحرف
وثم التكافؤ فرعًا وأصلا
وقد فاق علمًا وطال يدا ٢٨
بجيش الأراغس أن يظهر
يمائل بين الكماة كمًّا
له بسطا جبل حربٍ سجال
فقطعهـم وهو لا يقطع
لديه بعنف تجاذبهم ٢٩
وإن كان بالشيب قد وخطا
دعا قومـه حنقًا وهجم

وهَدَّ عزائمهم مذ قتل
فَتَّى من قبيسة قد أقبلا
بكسندرا ربَّة الحسن هام
وما ساق مهرًا لها بل وعد
ومذ وعد الشيخ أبهى بناته
مضى شامخًا بعزيمته
وغار السنان بمهجته
فناداه إيذومنُ يفتخر
فتبع خبرك بالخبر
فإن كان فريام أبدى العهد
على دك إليون إن لنا
ونجعل عرسك أجمل بنت
هلم إلى الفلك نبدي القرار
ومن ثم وافاه مجتذبًا
وأسيسُ راجلاً أقبلا
ومن خلفه الخيل يحرسها

بكرته أثريون البطل
حديثًا ونيل العلى أملا
فخاطب فريام في ذا المرام
بقهر العدو وحفظ البلد
يزوجه انقض فوق عداته
فلم يقه صلب جتته
فخر يصل بشكته
«أيا أثريون لئن تنتصر
علمتك خير بني البشر
فنحن نبرُّ كذا بالوعود
فعهدك نوثقه علنا
لأتريذ من أرغليذة تأتي
فأحمأونا لن يشابوا بعار ٣٠
بساقٍ فزاد العدى لغبا
لينقم وانقضَّ مشتعلا
فتى قد علاه تنفسها

فهِمَّ وَإِيدُومُنْ سَبَقَا
فَمَالَ أَمَامَ الْجِيَادِ يَصْرُ
كَأَرْزَةِ طُودٍ وَحُورَتِهِ
تَمِيلُ بِفَأْسٍ لَهَا شَحَذُوا
وَسَائِقَهُ ظَلَّ مَضْطَرِبَا
وَرَمَحَ ابْنُ نَسْطُورٍ وَافَى يَمِيدَ
فَأَهْوَى إِلَى الْأَرْضِ يَشْهَقُ شَهْقَا
وَسَارَ بِهَا لِلْحَمَى مَغْنَمَا
لَأَسِيسٍ هَبَّ يَطْلُبُ ثَارَا
وَإِيدُومُنْ مَذَّ رَأَى تَقَدَّمَ
«مَجْنُنٌ يَغْشِيهِ جِلْدُ الْبَقْرِ
لَهُ مَقْبُضَانِ مَتِينٌ كَبِيرُ
فَلَامَسَ بَطْنَ السَّنَانِ الْمَجْنُنَا
وَعَلَّ وَمَا طَاشَ إِذْ صَدْرَا
فَأَنْفَذَ يَصْمِيهِ بِالْكَبَدِ
فَرَّاحٌ بِخَيْلَةٍ مَفْتَخَرِ
«نَعَمْ دَمَ آسِيسٍ مَا انْهَدَرَ

بَزَجَ بِحَلْقُومِهِ مَرْقَا
بَأَسْنَانِهِ لِلْحَضِيضِ يَخْرُ
وَمَلُولَةٍ فَوْقَ قَتْنَتِهِ
لَصْنَعِ السَّفَائِنِ تَتَخَذُ
وَحَازَ فَلَمْ يَنْهَزَمْ هَرَبَا
بَأَحْشَائِهِ فَوْقَ دَرَعِ الْحَدِيدِ
وَأَفْرَاسِهِ أَنْطَلُوخٌ تَلْقَى
وَذَيْفُوبٌ إِيدُومُنًا يَمَّمَا
مَشَى وَعَلَيْهِ السَّنَانُ أَطَارَا
وَزَجَّ فَتَحَتِ الْمَجْنُ تَلْمَلِمُ
وَفُلُولَاذِهِ سَاطِعٌ لِلنَّظَرِ
يَحْفُ الْقَتِيرُ بِهِ مُسْتَدِيرُ
وَطَارَ وَمِنْ وَقَعِهِ الثُّرْسُ رَنَّا
إِلَى ابْنِ هَفَاسَسٍ إِفْسِينَا
وَذَيْفُوبٌ يَشْهَدُ عَنْ بَعْدِ
يَصْحِيحُ بِنَعْرَةٍ مُنْتَصِرُ
وَإِنْ أَمْ آذِيسٍ هَوْلُ الْبَشَرِ

سيأمن ضمن المقام العميق
فساء الأراغس ذاك النعير
على بشه راح والصبر عيلا
وآلسطر ومكست أسيرا
وإيدومن ظل في حزمه
فإمّا ليردي كمياً ببأسه
أصاب سليلاً لزفس الأغر
لأنخيس قد كان صهراً صفيّاً
فتاةً بصرحهما أبواها
وما كان بين لدات الزمان
وفاقت بوشي وعقلٍ وحسنٍ
فرقّت إليه ولكنمّا
فحل قواه وغشى البصر
وظل بغير حراكٍ مقيم
بدرعٍ مراراً وفته الردى
فمزقها الزج مذ رشقا

لأنّي أتبعته برفيق»
وأورى حشا أنطلوخ السعير
يقي بالمجن الخليل القتيل ٣١
به للسفائن يعلي الزفيرا
يكر بعزمٍ على عزمه
وإما ليفدي ذويه بنفسه
بألقاث بن إسيت اشتهر
على بنته البكر هيفوذما
بمنزل قلبهما أنزلاها
لها مثلٌ في العذارى الحسان
كما فاق ذاك بضربٍ وطعن
أبى الربّ فوسيد أن يسلمّا
فضاق المفرد وحال المكر
كركنٍ مكينٍ وجذعٍ عظيم
فلم تقه الآن طعن العدى
وفي الصدر من دونها مرقا

فصلت وخر وكيف المناص
وعود السنان إلى الكعب ماد
وما زال يهتز حتى تلاشى
«أذيفوب ها قد فرى ساعدي
علام التشدق أقبل هنا
ألم يأتك العلم عن نسبي
وأهل إقريط مينوس جدي
وأن بإقريط باعي شديده
أتيت أريك هنا وأباك
فنازع ذيفوب في أمره
أيبرز فلذا إلى ملتقاه
فعوّل في شدة المعمة
فألفاه في طرف الفيلق
يؤلّمه أن فريام أزرى
فوافاه قال: «إذن فهلما
فإن كنت ترعى حقوق النسب
فكم بك في سالف الزمن

وفي قلبه العامل اللدن غاص
بعنف اشتداد وجيب الفؤاد ٣٢
وإيدومنّ صاح يشتدّ جاشا
ثلاثة صيدٍ لقا واحد
فتعلم أي ابن زفس أنا
وأن ذقليون كان أبي
بزفس أبيه رقى طود مجد
لملكي دانت شعوب عديده
وكل الطراود سبل الهلاك»
مرامان ردّد في فكره
أم الرأي أن يلتجي لسواه
يلوذ بأنياس يأتي معه
تقاعد من شدة الحنق ٣٣
به وبإقدامه لم يبرّا
أأنياس صدر الطراود علما ٣٤
فذا صهرك الآن بادي العطب
وقد كنت طفلاً قديماً عني

وَأَلْقَاثَ إِيدُومَنْ أَدْرَكَا
فَهَاجَ بَأْنِيَّاسَ لَبُّ الْحِشَا
وَإِيدُومَنْ مُسْتَجِشًّا مَكْثَ
أَقَامَ كَخِرْنُوصٍ بِرِّ خَبِرْ
بِمَنْفَرَجٍ فِي الْبِرَاحِ تَرِيَّصْ
فِيْلَهَبِ عَيْنًا وَيَعْقِفُ ظَهْرَا
وَيَذْخِرُ بَطْشًا بَعِيدَ الْمَنَالِ
كَذَلِكَ إِيدُومَنْ وَقَفَا
وَنَادَى الرِّفَاقَ بِصَوْتٍ جَهِيرِ
وَآفَارِسٍ عَسَقْلَافِ الْبَطْلِ
هَلُمُّوا رِفَاقِي فَلَيْسَ لَدِيَّا
هُوَ الْقَرْمُ يَبْلِي بِجَمٍّ غَفِيرِ
خَشِيتَ وَلَمْ أَحْشَ لَوْ كَانَ تَرْبِي
فَلَا شَكَّ كَانَ النِّزَالُ سَجَالِ
فَحَرَّكَهُمْ عَامِلٌ وَاحِدٌ
فَهَبُوا إِلَيْهِ بِأَصْنَافِهِمْ

فَقَمَ ذُبَّ عَنْهُ فَقَدْ هَلَكَا
وَنَحَوِ الْعَدُوَّ الْأَلْدَ مَشَى
وَلَمْ يَرْتَعِدْ كَالْغَلَامِ الْحَدَثِ
قَوَاهُ فَقَامَ بِطُودٍ أَعْرُ
لِيَرْقُبَ مِنْ جَاءِهِ يَتَقَنَصُ
وَيَشْحَذُ نَابًا وَيَكْمُنُ شَرًّا
لَذِيحِ الْكِلَابِ وَكَبْحِ الرِّجَالِ ٣٥
لَأَنْيَاسَ مَذْحَنًّا زَحْفَا
كَذِيْفِيزِ مَرِيُونِ ذَاكَ الْجَسُورِ
كَذَا أَنْطَلُوحٍ وَصَاحَ: «الْعَجَلِ
مَعِينٌ وَأَنْيَاسُ خَفَّ إِلَيَّا
وَمَا زَالَ غَضُ الشَّبَابِ النَّضِيرِ
وَذَا الْعِزْمِ عِزْمِي وَذَا الْقَلْبِ قَلْبِي
فَأَمَّا يَعَالُ وَإَمَّا أَعَالُ»
وَهَزَمَهُمُ الْجَلَلُ الْوَافِدُ
وَأَجَابَهُمْ فَوْقَ أَكْتَافِهِمْ

وَأَنيَاس صَاحِ بِمَنْ لِمَحَا
فَهَبَّ أَغِينُورَ ذِي فُوبِ فَارِسْ
كَمَا تَبَعَ الْكِيشَ سَرَبَ الشَّيَاهِ
وَأَنيَاسَ بَادِي السَّرُورِ رَقَبِ
وَمَنْ حَوْلَ أَلْقَاثِ اصْطَدَمُوا
وَفَوْقَ الصَّدُورِ دُرُوعٌ تَصَلُّ
وَأَفْتَكِهِمْ كَانِ إِيْذُومَنَا
كَآرِيْسَ فِي بَاسِهِ انْدَفَقَا
فَأَبْصَرَ إِيْذُومُنَّ وَاحْتَفَزَ
فَلَمْ تَكْ بِالطَّعْنَةِ الصَّادِرَةِ
وَبِالْمَرْحِ إِيْذُومُنَّ رَشَقَا
فَفِي الدَّرْعِ غَاصَ وَشَقَّ الْحِشَا
وَإِيْذُومُنَّ اجْتَرَّ ذَاكَ الْمُثْقَفَ
فَإِنْ السَّهَامِ عَلَيْهِ هَمَّتْ
فَلَا قُوَّةَ لِلتَّقَاطِ الرَّجَاجِ
وَلَكِنْ فِيهِ بَقِيَّةُ حَزْمِ
وَذِي فُوبِ أَبْصَرَهُ يَتَقَهَّقِرُ

يَنَادِي السَّرَاةَ بِذَاكَ الْوَحِي
وَمَنْ خَلْفَهُمْ هَبَّ كُلُّ الْقَوَامِسِ
تَعَاَفَ الْمَرَاعِي لَوْرْدِ الْمِيَاهِ
كَمَا هَزَّ رَاعِي الْغَنَمِ الطَّرْبَ ٣٦
صَدَامَ الْكُوَاْسِرِ وَازْدَحَمُوا
بِضَرْبٍ يَحُلُّ وَطَعْنٍ يَفْلُ
وَأَنيَاسَ كُلِّ لِكَلٍ دَنَا
وَأَنيَاسَ عَامِلِهِ سَبَقَا
وَفِي الْأَرْضِ رَاسُ السَّنَانِ ارْتَكَزَ
وَإِنْ أَنْفَذَتْهَا يَدٌ قَادِرَةٌ ٣٧
عَلَى وَيْنِمَاسَ فَمَا زَهَقَا
فَخَرَّ عَلَى الْأَرْضِ مَرْتَعَشَا
وَهُمَّ يَجْرُدُهُ فَتَوْقُفٌ
وَبِالْعِيْ أَعْضَاؤُهُ وَهَنْتْ
وَلَا لِفَرَارٍ بِذَاكَ الْعَجَاجِ ٣٨
بِهَا يَدْفَعُ الْحَتْفَ عَنْهُ وَيَصْمِي
وَقَدْ كَانَ حَقْدًا عَلَيْهِ تَسْعَرُ ٣٩

وزج فطاش السنان وطار
فحل بعاتقه فتلقى
ولم يدر آريس أن فتاه
لقد كان فوق الألمب احتجب
هنالك زفس بحكم القدر
وحول القتل الوغى صدعا
ولكن كآريس مريون خف
فمنه التريكة في الحال فرّت
وهب إليه هبوب العقاب
وفوليت بين يديه رفع
إلى حيث سائقه قد تخلف
فراحت لإليون فيه تطير
وسائرهم فوق ذاك الفجاج
فأفارس بن قليطور راما
فأنياس من فوره وثبا
فمالت على الصدر هامته

إلى عسقلاف ابن رب البدار
براحته الأرض يخفق خفقا
بذا الملتقى فارقتة الحياه
تحيط به سحب من ذهب
على الخالدين القتال حظر
وذيفوب مغفرة انتزعا
على يده بالقناة قذف
وصلت على الأرض حيث استقرت
ومن يده الرمح جر وآب
أخاه القليل وفيه رجع
بمركبة دونها الخيل أوقف
على ألم ودم وزفير
يعج بهم بالصدام العجاج
بأنياس فتگا فألقى الحماما
برمح بحلقومه نشبا
وأهوى المجن وخوذته

وأحْدق فيه ظلام الرّدى
ورام ثوون فرارًا فأحْدق
بطعنته ابتت حبل الكتد
يمدُّ ذراعيه مستنجدا
وينظر حويله في صخه
وفوق المجن العريض البديع
وما مسّه من ظباهم ضرر
وما ارتاع فانصاع بل ظل فيهم
يفكر إما يزج وإما
وأما أداماس آسيّسا
فزجَ برمّجٍ إليه يطير
وفوسيد ياأبى منيّته
وعود القنّاة وفيه انصدع
وشطرٌ بمتن المجن التصق
وأما أداماس فانقلبوا
ولكن مريون مذ كان أعدى
فأنفذ حيث أريس يهيل

فأخمد أنفاسه سرمدا
به أنطلوخ وكاهله شق
فمستلقيا في التراب رقد ٤٠
وقاتله ينزع العددا
فكر الطراود في طلبه
ظبات حداد وقرع ذريع
ففوسيد واقيه كل الخطر
يجيل مثقفه ويليههم
يشق الصفوف بسيف أصمّا
فأدرك ما بالخفا هجسا
فغاص بقلب المجن الكبير
فأوقف في الترس طعته
فشطرٌ إلى الأرض منه وقع
حكى وتدًا باللهيب احترق
إلى قومه يتقي العطبا
له بالسنان الشحيذ تصدّى
على الإنس موتًا أليما وييل

بأسفل حالبه فسقط
كثورٍ على جبلٍ ربطا
وما دام هذا الوجيب وطال
فما انتزع الرمح حتى انسدل
وهيلينسٌ صدغ ذيفير فل
أطار تريكتةً تدحرج
بها من ذويه خلا نفر
فشق فؤاد منيلا الأسى
وهزَّ القناة وذاك حنى
فهيلينسٌ سهمه نشبا
وحلَّق وانطاد ثُم وقع
وذو الزرع في بيدرٍ عاجلا
فبين الرياح وجهد المذري
ولكنَّ رمح منيلا استقر
فأنفذ منها وفي القوس غاصا
فوافاهم النصل في يده

إلى الأرض مصطفًا وخطب ٤١
بعنفٍ على رغمه ضغطا
سوى لحظاتٍ قصارٍ قلل
على مقلتيه ظلام الأجل
بسيفٍ يثراقيةً قد صقل
إلى قومه بالدماء تضرَّج
وأظلم في عينه البصر
وأقبل يطلب هيلينسا
حنيتُهُ ومعا طعنا ٤٢
بلأمة أتريد ثم نبا
كما الحب بين المذاري اندفع ٤٣
ذرى الحُمص اليبس والباقلي
تدافع حبٍ إلى الأرض يجري
بكفَّ بها لا يزال الوترُ
فأمَّ ذويه يروم الخلاصا
يقوض ركن تجلده

فأقب فوراً أغينور يخرج
ومن صوف مقلاع تابعه حل
وفيسندر انقض متقدا
لديك منيلا رماه القدر
كلا البطلين مشى ورشق
وفيسندر رمحه وقعا
بفولاذ الصلب ما صدرا
ولكن فيسندراً طربا
فسل منيلا حساماً ترصع
وذلك تحت المجن قبض
بفولاذها بدعت عملا
فما كان إلا أن اقتربا
فمن بيضة الخوذة الفأس حلت
ولكن منيلاً بطعنته
فأولج والعظم سحقاً سحق
وطيرتا بخضيب الدّم
فقوس ظهرا وخرّ صريعا

برقته النصل من حيث أولج
ضماًداً على ذلك الجرح أسبل^{٤٤}
وللحتف ساقته أيدي الردى
لتعمل فيه حسام الظفر
ولكن رمح منيلا زهق
على الترس لكّنه ارتدعا
ومن كعب نصلته انكسرا
لما خال من نيله الأربا
قتير لجين بهي وأسرع
على فأسه وإليه ركض ٥٤
وزيتون مقبضها صقلا
وكل بشدته ضربا
على عذبات بهنّ تحلّت
أحلّ السنان بجبهته
ومن مقلتيه النجيع اندفق
من الرأس حتى ثرى القدم
وقاتله الصّدْر داس سريعا

وجرده من بهي السلاح
«ألا يا طراودة يا لئام
ألا هكذا ستعافون قهرا
علام إضافة عارٍ لعار
فهلا غنيتم عن الغدر نفسا
إلاه القرى من سيهدم هدا
وزوجي لما رعتكم ضيوفا
ألا ما اجتزأتم بما قد سبق
فالالا ومهما اضطرتم غرورا
أيا زفس يا من بسامي النهى
بقدرتك استعصم المكروه
جنوا وسيجنون طول الزمن
فرقص السرور وعذب المنام
وكل سرور وإن طمحا
فلا بدَّ صاحبه أن يملأ
ولما أتم مقالته

ومفتخرًا صاح أي صياح:
ويا ظمئين لورد الصدام
سفائنا اللأء يمحرن مخرا
تحريرتم يا كلاب الشنار
وهلّا خشيتم إثارة زفسا
دياركم إذ جنيتم ظلما
فررتم بها والكنوز صنوفا
لتوروا السفين وتردوا الفرق
ستلقون تحت العجاج الثُّبورا
على الإنس والجن طرًا سما
فكيف تلي زمرًا غدره
ولا يرتوون وغبي وفتن
وطيب الأغاني وكلُّ هيام
له المرء فوق شرور الوحي
ولكن من العيث طراودة لا» ٤٦
وجرد ذلك شكته

وأدلى بها لرفيق بطل
فهرليون بن فيليمن
وراء أبيه لإليون قدما
فبادر أتريد في طعنته
ونحو ذويه التوى ينظر
فما كاد ينصاع حتى تلقى
بأيمن فحذيه بالعظم مرًا
فألقى ووجه التراب تروى
فألفاه خلّانه بالحضيض
فحف به البفلغون ذووه
وألقوه من فوق مركبة
لإليون ساروا أمامهم
فإذ ذاك مقتله عظمًا
لقد كان قبلًا نزيلاً لديه
فزوج وكان هناك فتى
همامٌ بقورنشٍ ذو ريش
لأن أباه فليذ النيل

وعاد فبرز بين الأول
بدا للقواضب لا ينثني
أتى ليوافي القضاء الملمًا
فلم ينفذ الرمح في جنته
حواليه خوف العدى تغدر
مثقّف مريون يخرق حُفًا
وشقّ مثانته واستمرًا
دمًا وارتمى دودةً تنلوى ٤٧
بطرفٍ غضيض وروح تفيض
وبين أكفهم رفعوه
يهدهم فادح المحنة
أبوه مآقيه تنسجم
على نفس فاريِس فاقتحما
فشقَّ عظيم المصاب عليه
بأوخينٍ بينهم نُعتا
وأيقن بالحتف منذ استجاش
مرارًا له قال قبل الرحيل

«فَإِذَا الْحَمَامُ بَدَاءَ عِضَالٍ
فَلَمْ يَرْضَ دَاءٌ يُورِقُّهُ
فَجَاءَ وَفَارِيسُ فِيهِ فَتَكَ
فَأَوْدَى عَلَى لَهَبِ الْغُمَرَاتِ
هَنَاكَ كَاللَّهْيَبِ السُّرَى اقْتَلَوْا
وَلَمْ يَدْرَ أَنْ يَسَارَ السَّفِينِ
وَكَادَ الْعَدَى يَحْرُزُونَ الظَّفَرَ
فَإِنْ مَزَعَزَعَ رُكْنَ الشَّرَى
وَهَكَطُورٌ مَا زَالَ حَيْثُ انْدَفَعَ
هَنَالِكَ حَيْثُ جَرَى حَنْقًا
وَحَيْثُ سَفِينٌ فَرُوطَسَلَسَ
وَقَدْ جَذِبَتْ لَجْدُودَ الْبَحَارِ
هَنَاكَ الْفَوَارِسُ وَالْخَيْلُ مَالَتْ
هَنَالِكَ هَكَطُورٌ كَالنَّارِ شَبًّا
وَصَدُوهُ عَنْهَا وَمَا ظَفَرُوا
بَصَدْرِهِمْ زَعْمًا وَهُمْ

وَإِذَا لَدَى الْفَلَكَ يَوْمَ الْقِتَالِ» ٤٨
وَعَذَلًا وَحَزَنًا يَحْرِقُّهُ
بَزَجٍ تَلْجَلِجٍ تَحْتَ الْحَنَكِ
وَهَامَ عَلَى أَوْجِهِ الظُّلُمَاتُ
وَهَكَطُورٌ مَقْتَلُهُمْ يَجْهَلُ
عَثَتْ بِذَوِيهِ أَيَْادِي الْمُنُونِ
وَفُوسَيْذٌ فِيهِمْ يَهِيغُ الزُّمَرُ
لِنَصْرَتِهِمْ بِقَوَاهِ انْبَرَى ٤٩
بِهِمْ أَوَّلًا وَالصَّفَاقُ اقْتُلَعَ ٥٠
وَفِيلَقٌ دَرَاعُهُمْ خَرَقَا
لَقَدْ قَرَنْتَ بِخَلَايَا أَيَّاسٍ
تَحَاذِي أَدَانِي ارْتِفَاعُ الْحَصَارِ
بِجَمَلَتِهَا لِلصَّدَامِ فَجَالَتْ
عَلَى فَلَكِهِمْ فَتَلَقَوْهُ غَضَبِي
يَا جَلَائِكُ فَلَهُ صَبْرُوا
تَخَوُّضُ الْمَنَايَا وَتَقْتَحِمُ

هناك البيوتة جند أثينا
منستس قائدهم وفداس
ومسترسلو الالم يونانهم
إليهم قد انضم قرب الخلايا
وميدون في قومهم آمر
(فميدون كان فتى رب باس
بها هام ويلوس من غير حل
لفيلاقية كان مذ قتلا
فهاجت لذا إريفيس استعارا
وفوذرقس بن إفقلوس كانا
ويصحبهم باسلو لقريبا
لإمرته كلهم ذعنا
وأما الأياسان فاندفقا
كثورين في مزرع أسحمين
جرى محرت الأرض خلفهما
فيثلم ثلما وينشيان
ولكن لدى ابن تلامون ثارت

بصدر طلائعهم يصدرونا
يليه وإستيخييس وبياس
تصدّر للطعن فيانهم ٥١
بنو أفثس بلفيف السرايا
وفوذرقس البطل القاهر
لويلوس من غير أم أياس
وميدون عن موطن الأهل أجلي
أخا عرس والده رحلا
فأخلى البلاد وعاف الديارا
سليلاً لفيلاقس عزّ شاناً
ومبجيس قاد بني إيفيا
وإدراقس ولأفنيئا
معاً لحظةً قط ما افترقا
بنبرٍ لقد قرنا كفوئين
بعزمٍ تعادل بينهما
وصدراهما رقاً يرشحان ٥٢
عصابة بأس حواليه دارت

لجنته تتأوب حملاً
وأما رجال ابن ويلس فما
فما لبني لقريباً مهج
فليس لهم خوذةً سابحات
وليس لهم جننٌ من صفاح
ولكنهم أقبلوا للقتال
وتلك المخاذف تحكم جدلاً
بعدتهم تلك هم أبدا
فضل مجيلو السلاح الكثير
وهم خلفهم جحفاً ثانيا
فربك وجه العدو الألد
وكاد الطرود ينكفئونا
ولكن فوليدماس سبق
عتوت فلا ترعوي لمقال
أمد كنت هكطور تسمو بعزمك
ألم تر آل الخلود العظام

لتخفض من ثقلة العي حملاً ٥٣
جروا خلفه عندما هجما
بصدر الكتائب كي يلجوا
على صلب فولاذها العذبات
أديرت ولا أسلٌ ورماح
بتلك القسي وتلك النبال
من الصوف تمطر في الحرب وبلا
نكال كتائب جيش العدى ٥٤
يصدون أعداءهم بالصدور
يظلل وبألهم هامياً
وأوهى عزيمته والجلد
إلى حصن إليون مكتئبنا
فصاح بهكطور بين الفرق
أأنت سبوقٌ بكل مجال
زعمت بأنك فقت بعلمك
ينيلون هذا فخار الصدام

ويؤتون ذلك صوتاً رقيقاً
وذِيَاكَ زفس الحكيم يزين
فذيَاكَ ذيَاكَ خابرٌ تقسه
إذن خذ مقالِي رأياً صواباً
فأصحابنا منذ عبر الحصار
ونزِرٍ لجيش العدى صدرا
فعدوا عقدن من الصيد محضر
أبا لفلك فتكاً بزحفٍ وكرٍ
أم العود عنهن منقلبيننا
فإني أخشى إشار الأعداي
هنا قرب فلكهم رجل
وظنّي لا يلبثن طويلاً
تلّقاه هكطور رأياً مصيباً
«هنا أوقفنّ خيار الجنود
أثير بقومي نار الكفاح
وهب بخودته يستطير
وخاض يصيح بصوتٍ جفا

وقيّارةً ثم رقصاً أنيقاً
يثاقب فكرٍ وعقلٍ رزين
وواقِي الذمار ونافع جنسه ٥٥
فحولك نار القتال النهابا
هم بين معتزل لا يياري
وحول السفائن قد ذعرا
لنبحث فيما به نتدبّر
لعلّ إلهاً بنيل الظفر
ونحن بأرواحنا سالمونا
لنكبة أمس بحر الجلال
من الفتك لا يرتوي بطل
فيرز للحرب سخطاً وبيلاً» ٥٦
وقال لفولدماس مجيباً: ٥٧
إلى أن أكرّ أنا وأعدود
وأرشدهم لسبيل الصلاح»
كطودٍ من الثلج راح يسير ٥٨
صفوف الطراود والحلفا

فكلّ أصاخ لوقع النداء
وعن آدماس بن آسيّسا
وذيفوب لكن أتيح القضا
فمن بطل بطعان الأراغس
ومن باسل لم تغله المنون
فأبصر فاريسا المجتبى
يكر ويدفعهم للقتال
«ألا يا شقيّا بديع الجمال
ألا أين ذيفوب هيلينس
كذا آدماس بن آسيّسا
أشماء إليون تم المصاب
فقال كرب يفيض جمالا
أفي مثل ذا اليوم بأسى أنسى
فمذ سرت بالقوم قرب العماره
فمن رمت من دون هيلينسا
بنا الآن سر حيث شئت فإنّا

ومن حول فوليدماس عدا
يسائل عن هيلنوس الهمام
وآسيّس نجل هرطافسا
فبعض جريح وبعض قضى
قتيل أمام السفائن راكس
جريح بأكناف تلك الحصون
يسار الجناحين ملتهبا
فعاجله بأمر مقال
وعشاق خداع غيد الدلال
كذا أثريون الفتى الأكيس
وآسيّس نجل هرطاقسا
بك اليوم حتما يحوق الخراب»
«أخي البريء اتهمت محالا
وأمي ما ولدتني نكسا
فنحن هنا بطعان وغاره
وذيفوب عنهم ورثنا الأسى

وحقك لن نبرحن الرهانا
فمهما عتا القرم لن يجدا
لذا لان هكطور ثم زحف
وحيث الفتى قريون ضرب
بأمسهما أقبلا بدلا
ونجلا هفتيون قد ثبنا
وفوليدماس وفلميس كرا
وذان جريحان قد رغما
وزفس إلى الحرب حثما
كأن من الجو نوعاً شديدا
يعيث ببر ويهوي لبحر
فيركم موجاً ويزيد يما
فذاك اندفاع لفيف الشرى
صفوف تدفع دهم صفوف
وهكطورهم عد آريس في
مشى بمجن جلود البقر
ومن حول صدغيه خوذته

وزفس من الحنف صانها
لك التابعون قراغا وطعنا
نكر إلى أن تكل قوانا
سبيلاً إلى البطش إن جهدا» ٥٩
وفاريس حيث اصطكاك الحنف
وفلقيس ثار وأرئيس هب
وفولفت ذو الجلال استقرا
مروس وعسقانيوس الفتى
لرهط لعسقانيا رحلا ٦٠
وجمع السرى واحدا هجما
به زفس يقذف طي الرعيد
ويدوي بصعقة هول ويجري
تدافع مرتفعاً مدلهما ٦١
على أثر الصيد مستبشرا
تألق فولاذها للخشوف
زعامتهم باهر الشرف
كسته وفولاذه قد بهز

وهكطور بين الطلائع هام
دنا جائلاً يسبر القوم سبرا
فما راعهم هولُهُ وتقدّم
«هلم إلي وألق الوسائس
بلونا القتال بثبت الخطى
توهمت أن تنهب الفلك نهبا
وتسبق مفتحاتٍ حماكم
ولم يبق ظني إلاّ اليسير
تلوذ بزفس وكلّ إليه
فتلقيك خوف العدو المفاجي
وما كاد يفرغ حتى تراءى
هو النسر من فوق هامته
فضج الأراغس للفأل بشرا
ولكنّ هكطور حالاً أجاب
هرفت أياس بما قلته
ألا ليت لي أن أقول بنفسي

تهيجُ فتسطعُ جبهتُهُ
يرى هل يذلهم اليوم قهرا
أياس يحث الخطى وتكلم
علام كذا رمت دعر الأراغس
ولكنّما صوت زفس سطا
وفينا أكف تقيهنّ ذبّا
ومغتلماتٍ جزيل غناكم
أهكطور حتى فرارا تطير
ليجري خيلك جري البزاه
بإليون تحت غمام العجاج»
بقلب الفضاض طائرٌ يتناهى
يبشر خيرا بحومته
لما أنسوا فيه من خير بُشرى
«أثرثارة زاغ غثّ الخطاب ٦٢
وقد خاب ما أنت أملتُهُ
بأني من ولد هيرا وزفس

ويا ليت لي باعتزازي يقينا	كعزة آفلن وأثينا
كما أنني موقنٌ بـوار	لفيف الأخاءة في ذا النهار
فإما اغتررت وعرضت نفسك	لرمحي تؤتى على الرغم بؤسك
يمزق جلدك ماضي سناني	فتلقى لدى الفلك ميت الهوان
وفي شحمك الغض واللحم ترتع	نواهس إليون والطير تشيع»
ومن ثم هم وفيهم تصدر	وفي إثره زعماء المعسكر
بهم خلفه ارتفع الصخب	ومن خلفهم جحفلٌ لجب
وجيش الأخاءة بأسًا تدرع	بموقفه ظلٌّ لا يتزعزع
تربص يلقى علوج العدى	بنقع لقلب الفضا صعدا
وعج الخميسين شقَّ الفضا	إلى حيث في الجو زفس أضأ

هوامش

(١) الأفوملغة: قبيلة من السكيثيين، كان معظم غذائهم لبن الخيل، وكانت مواطنهم على رواية إسطرابون في شمالي أوروبا- تضاربت الأقوال في تحويل أنظار زفس عن مواقف القتال؛ فمن قائل: إنه إنما حوّل نظره عن الطرود إيداناً بنصرة الإغريق، ومن قائل عكس هذا القول، على أننا لا نرى سبيلاً لكل هذا التأويل، فإن الشاعر يمثل بزفس عظمة الخالق، فيجدر به إذن حيناً بعد حين أن ينظر إلى أمم أخرى، كما

رأيناه فيما سلف شخص إلى الأثيوبيين، وغادر المتحاربين وشأنهم إذ لا يعسر على مدبر الأكوان أن يتطلع إلى أحوال الخلق في آن واحد على حد قول الشاعر:

ليس على الله بمستنكرٍ أن يجمع العالم في واحدٍ

(٢) في التوراة: اللهم عند خروجك قدام شعبك، عند بروزك في القفر سلاه رجفت الأرض قطرت السماء من وجه إله سيناء من وجه الله إله إسرائيل (مز ٦٧).

(٣) إيغاس هذه كانت على رواية إسطرابون جزيرة وعرة، بين تينوس وصافس، وكان فيها هيكل لفوسيد إله البحر — يتصور المطالع هيبة فوسيد بارتجاج الغاب والجبال تحت قدميه، وسيزيد ذلك هيبة ما سيأتي من وصفه ووصف مركبته، وهي تشق قلب العباب والحيتان تتواثب من حولها جذلا به إلى آخر ما سترى مما يغني عن البيان، وإن وثوبه من أعلى قمم سمشاقة إلى إيغاس بثلاث خطوات يذكرنا بما جاء عندنا من الأثر عن خطوات أبينا آدم؛ إذ كان يجتاز من عدن إلى سرنديب خطوة واحدة، أو كما قال الثعلبي في قصص الأنبياء: إن خطوته كانت مسير ثلاثة أيام.

(٤) الخيل الطيارة كثيرة في أساطير الأمم، وعندنا في أقاصيص ألف ليلة وليلة من غرائب سرعة الفرس السحري ما لا يقصر عن خيل إله البحار، بل ربما يربو عليه بأن فرسنا لا يشعر بحاجة الطعام

والشراب، وليس له قيد يقيد به، ولعل صاحب ألف ليلة وليلة قرأ أو سمع شيئاً من إنشاد الإلياذة، فأفرغها لنا بقلب يشبه أن يكون جديداً.

(٥) لا أرى الباعث على اتخاذ فوسيد ذلك الطريق للحلول ما بين جيش الإغريق، إلا أن يكون الشاعر قصد أن يزين شعره بتلك التصورات البديعة التي ترتاح إليها نفس السامع، ولا سيما في عصر كعصره كان الناس فيه أقرب إلى التشوف، إلى تلك الغرائب، وإلا فما كان على فوسيد إلا أن يخطو خطوة خامسة، فيحل حيث شاء.

(٦) إن في كلام فوسيد هذا لدربةً ودهاءً، فإنه إذ كان يمثل بطلاً من أبطال الإغريق لم يكن يجدر به إلا أن يأتي حكمة يمكن أن تؤثر عنه، ولا عبارة أقوى من عبارته لاستنهاض همم ذينك البطليين الباسلين؛ إذ أثبت لهما أن الجيش في كل أطرافه بمأمن من الفشل إلا في موقفهما لشدة بطش هكتور، وإذ كانا يعلمان أن هكتور مندفع بقوة علوية ألقى في صدريهما أمل تحيز بعض الآلهة إلى الإغريق، وأثبت قوله بالفعل بما أوحى إلى صغيرهما كما سترى.

(٧) تساءل البعض عن سبب تنبيه أياص الصغير قبل أياص الكبير لتلك القوة الخارقة! فقال بعضهم وهو قول حسن: إن أياص بن تيلامون بطل مقدم لا يهاب الموت، وهو كالبرج الثابت لا يتزعزع، ولهذا كان قليل التنبيه لما سوى دفع الكرات، وخوض الغمرات حالة كون أياص الصغير خفيف الروح والجسد، فهو أولى بسبق النظر.

(٨) صمم، أي: فتك — من الحكمة في هذا الكلام أن نسب قائله وهن الجيش إلى سأم ألم بهم؛ لنزاع سبق بين أغاممنون وآخيل، لا لفتور في همهم، فكأنه التمس لهم من أنفسهم عذراً على ذلك الفتور، وفتح لهم مخرجاً يخرجون منه على أهون سبيل.

(٩) لا بأس بتفككة القارئ برواية رواها فلوتارخوس وفيلوستراتوس وغيرهما، قالوا: إن غانكتور بن أمفيداماس ملك أوييا أجرى بمأتم أبيه ألعاباً ومخاطرات كثيرة، كجاري عادتهم وخص الشعر بجائزة سنية، فدارت المشاعرة بين هوميروس وهسيودس، وأنشد كل منهما أبياتاً من نظمه، فكانت الغلبة بكل الإنشاد لهوميروس باتفاق الجمع، وكان فانيذس أخو الميت من جملة المحكمين، فأمر كلا من الشاعرين بإنشاد أجود شعره في ظنه، فأنشد هسيودس شيئاً من مطلع نشيده الثاني، وأنشد هوميروس الأبيات التالية، فآثر فانيذس كلام هسيودس السلمي على شعر هوميروس الحربي خلافاً لإجماع الحضور على تفضيل شعر هوميروس، وحكم بالجائزة لهسيودس، وعلى هذا انهال جميع الشراح على فانيذس باللوم والسباب، ولم يكن منهم إلا من أورد هذه الرواية، وإن تكن غير مثبتة مع ثبوت إقامة أسواقهم العكاظية هذه.

(١٠) لو قرأت هذين البيتين في الأصل اليوناني لظننت أنك تسمع هدير ذلك السيل المندفق، والصخر المتحدر فوقه ترتجف لانحداره الغاب، ولسمعت صوت اندفاعه الدفعة الأخيرة ووقوفه فجأة،

وصدى صوته بعد ذلك الوقوف، ولعل لنا حظاً طفيفاً من مشاكلة شعر
الشاعر اليوناني، أما التشبيه بحد نفسه فلا يفوقه تشبيه في كل إلباذة
هوميروس وغيرها، وأي وصف أليق بوصف هكطور المنقض كالشهاب
الثاقب والمندفق كالسيل الزاغب، إلى أن تتألب جماهير الإغريق حول
الأياسين فتصده دفعة واحدة، وتقف به وقوفاً لم يكن بالبال والخيال،
ولقد أجهد شعراء الرومان والإفرنج قرائحهم بالتشبه بهوميروس بنظم هذا
المعنى، ولكنهم لم يدركوا شأوه، ولم يصيبوا المرمى إصابته، ولم يحسن
منهم أحد إحسان شيخ شعراء العرب القائل في معلقته بوصف جواده:
مكرٌّ مفرٌّ مقبلٌ مدبرٌ معاً كجلمود صخرٍ حطه السيل من علٍ

على أن امرأ القيس زاد في المعنى الإقبال والإدبار، وأغفل
ارتجاف الغاب والوقوف.

(١١) الحصار: المعقل، وقول هكطور: إنهم رصوا كالحصار
المتين شهادة أخرى بانتظام فيالقهم، وتشبيه الجيش المتألب بالبنيان
المرصوص كثير في كلام العرب، وفي الحديث: «المؤمن للمؤمن كالبنيان
يشد بعضه بعضاً».

(١٢) لقد عرّف هوميروس هنا زفس مرة أخرى بزوجه، وقد أشرنا
إلى ذلك في النشيد العاشر:

(١٣) ذكرنا في ما تقدم أن أبناء السفاح لم يكونوا على شيء من الحطة التي نالتهم في ما ولي عهد هوميروس، وهنا شاهد على أن بنات السفاح لم يكنّ دونهم في المنزلة، ولولا ذلك لحاذر هوميروس أن يقول: إن مديسكستا كانت زوجة لزعيم من كبار الجيش، ولا يستخرج من كلام هوميروس كيف كانت حالة المسافحات لذلك العهد، ولم يقل أكانت والدة مديسكستا خصيصة به، أم كانت كبغايا العرب اللواتي كن يبحن أنفسهن لكثيرين، فإذا ولدن اجتمع إليهنّ أولئك الرجال، فكان المولود لمن ألحقته به منهم، كما فعلت أم عمرو بن العاص؛ إذ كانت بغية وكان قد لازمها العاص، وأبو لهب، وأمّية بن خلف، وأبو سفيان بن حرب، فألحقت المولود بالعاص؛ لأنه كان ينفق على بناتها «السيرة الحلبية ١: ٤٦».

(١٤) أقطور: لقب لفوسيد إله البحر، ومعناه القائد والدليل.

(١٥) قال عمر بن كلثوم يشبه الرءوس المقطوعة بالكرات التي يدرجها الغلمان الشداد في مطمئن من الأرض:
يدهدون الرءوس كما تدهدي حزاورةً بأبطحها الكرينا

(١٦) حفيد فوسيد، أي: أمفيماخس.

(١٧) الأسى: جمع آسي الأطباء، ويظهر من هذه العبارة أن أطباءهم كانوا كثيرين، أو كان لكل قبيلة منهم أطباء معلومون فضلاً عن

ماخاوون وفوذالير، اللذين كانت لهما رئاسة الأطباء؛ لأننا رأينا فيما تقدم أن أخيل وفطرقل كان لهما أيضًا إلمام بفن الطب.

(١٨) من عادة الشاعر إذا أراد أن يبرز بأس بطل من أبطاله أن يأتي بمقدمة تمثل أخلاقه تمثيلاً، وهو هنا يريد أن يبرز لنا أيدوميناوس، وهو ملك ذو شأن قد وخط الشيب عارضه، ولكن فيه بقية بأس لمكافحة الأبطال، وإننا لنراه هنا قبل بداره إلى القتال، يعني بفتى جريح يؤاسيه ويداويه، ومما جاء في الأثر أنه لما اجتمعت الملوك للحرب طلب أيدوميناوس مشاطرة أغاممنون الزعامة الكبرى، ينبئنا ذلك بما كان له من علو المنزلة وبسطة الجاه، وهو على رفعة شأنه محب لجنده شفيق عليهم كما رأيت، وقد أنبأنا الشاعر بتلك الأخلاق دون أن يصرح بها.

(١٩) كقول أبي تمام:

حرامٌ على أرماحنا طعن مدبر وتندقُّ قدمًا في الصدور صدورها
محرمة أعجاز خيلي على القنا محللة لباتها ونحوها

(٢٠) كان من أعظم مفاخرهم أن يذخر الفارس منهم شيئاً كثيراً من سلاح أعدائه، وكلما كثر سلبه عظم قدره بين ذويه، فلا تعجب بعد ذلك إذا رأيناهم في معمة القتال يكون على قتلاهم ليجردوا سلاحهم، وإن كان الأعداء محدقين بهم من كل صوب «راجع ١».

(٢١) قال عنتره:

ما زلت ألقى صدور الخيل مندققاً بالطعن حتى يضحَّ السرج واللبُّ

(٢٢) خبرك الأولى بمعنى عرفك.

(٢٣) صك، أي: جبن.

(٢٤) قال العلوي صاحب الزنج:

يلقى السيوف بنحره وبوجهه ويقيم هامته مقام المغفر
ويقول للطرف اصطبر لشبا القنا فعقرت وكن المجد إن لم تعقر

(٢٥) اقتل، أي: اختر.

(٢٦) قرونس هو زحل كما تقدم، والمراد بابنيه زفس وفوسيد
كما سترى.

(٢٧) مفاد ذلك: أن زفس كان يروم أن ينكل هكطور بالإغريق،
حتى تضيق عليهم المسالك، فينهض أخيل لنصرتهم، ويكون فوزهم عن
يده، فينال أخيل بذلك المقام الأرفع والفخر الأعظم.

(٢٨) إن إيثار البكر على سائر الأبناء من سنن الطبيعة التي
استنت بها كل البشر، حتى لقد استن بها الآلهة أنفسهم، ولا سيما حيث
ليس في الأسرة إلا موضع واحد للملك، فلا يصح أن يستأثر به سوى
واحد، ولا يصلح أن يكون هذا الواحد إلا البكر لسبقه في الرشد، فإذا
كان ذلك نظامًا ماثورًا فلا سبيل بعده إلى النزاع، وهذا هو الأصل في
إيثار البكر على إخوته، ومن ثم سرت العادة إلى ذوي المقامات، ومنهم

إلى سائر الناس، وسرت على مناهج شتى مرجعها جميعًا إلى إثثار البكر على إخوته حسًا ومعنى، وعلى هذا كان اليهود يخصون البكر ببركة أبيه، ويضاعفون سهمه في الميراث، أما العرب فالظاهر أنهم لم يزدوا في حقوق البكورة شيئًا كثيرًا عما كان عندهم؛ لحرمة التقدم في السن من الرعاية المعنوية، ومع هذا فقد كان البكر يستأثر بما لا يحتمل القسمة من متروكات أبيه، ولكن الإسلام ساوى بين البنين جميعًا.

(٢٩) أي استعارة أجمل من هذه الاستعارة لفتنين متحاربتين متلاحمتين تلاحمًا لا يكاد يفرق فيه بين القاهر والمقهور، والملتوي والمنصور، فالحرب بينهما يتجاذبان أطرافها كحبل بأطرافه كلهن وقعو فقطعهم وهو لا يقطع

وهي من استعارات هوميروس القليلة بإزاء تشابيهه، ولكنها ليست في شيءٍ دونهن قوةً واستحكامًا.

(٣٠) لا يخفى ما في هذا الكلام من التهكم على خطيب ابنة فريام القتيل، ولقد عيب هوميروس على عبارات كهذه؛ إذ ليس من الإباء وشيم النفوس الكبيرة أن تتهكم على عدو ظفرت به، ولا سيما بعد موته، ولكنه قد يشفع لشاعرنا أنه إنما كان يصور أخلاق بني زمانه؛ حسنًا وقيحًا، فهي عادة جرت لهم فأثبتها على علائها.

(٣١) أي: خوفاً عليه من الأعداء أن يجردوه سلاحه ويخلوا

بجيشه.

(٣٢) الوجيب: الخفقان - لقد آلى بعض الشراح على أنفسهم

أن يفسروا كل كلمة من كلام هوميروس تفاسير طويلة عريضة، لم تمر على مخيلته، كاستنتاج بعضهم من كلامه هذا أنه كان أول عالم بعلم التشریح، واستنتاج البعض الآخر أنه لم يكن يعرف منه شيئاً، وشرّح كلُّ لإثبات مدعاة قلب الإنسان، وأفاض بما يخرج كل الخروج عن هذا البحث، أو لا يكفي ما في هذا الكلام على ظاهره من البلاغة حتى نتأول له التآويل التي ما أنزل الله بها من سلطان؟

(٣٣) من المعلوم أن فرجيليوس الشاعر الروماني بنى منظومته

على مثال إلياذة هوميروس، وجعل بطلها آنياس، كما جعل هوميروس بطله الأعظم أخيل، وكأني بفرجيليوس وقف عند هذا البيت وهو يتلو الإلياذة، فكان له منه المحرك الأول لنظم الإلياذة «نسبة إلى آنياس»، لأنه كان متواتراً على ألسنة الناس خبر نبوءة يزعمون أنها كانت شائعة في أيام حرب طروادة، تشير إلى أن فريام كان عالمًا أن آنياس وذريته سيحكمون بلاد الطرواد، وكلام هوميروس هنا يؤيد هذا القول، ولما كان من المأثور تاريخياً أن آنياس كان رأس الأسرة الرومانية بعد تلك الحرب لا يبعد أن تلك النبوءة لم تكن شائعة في أيام الحرب، بل تصورها القوم كأنها كانت عندما حققها التاريخ - ومهما يكن من صحة هذا الزعم، فلا

عجب أن يكون فريام - وهذا اعتقاده - حذرًا من أنياس نازعًا إلى الغض من قدره وأن يكون أنياس حانقًا ساخطًا معترلاً كما قال الشاعر: «في طرف الفيلق».

(٣٤) كثيراً ما يطلق الشاعر لقب الطرواد عليهم وعلى حلفائهم، كما يطلق لقب الإخاء والأragس على جميع المحاصرين، وأنياس هذا بطلٌ مغوار، قال فيلوستراتوس: إنه لم يكن دون هكتور بشيءٍ إلا بشدة البأس، ولكنه كان يفوقه حكمةً ويساويه في كل ما سوى ذلك، وكان شاعرًا بما كان له في القدر بعد ذلك طروادة لا يعرف الخوف ولا تروعه الحروب. وإذا أحدق به خطر لا يتزعزع صوابه ولا يتغير، فكما أن هكتور كان ساعد الطرواد كان أنياس رأسهم يدبر أمورهم بدراية فوق تدبير هكتور باندفاعه وبأسه. وكلا البطلين متشابهان سناً وشكلاً، وأنياس وإن كان أقل بأساً وإقداماً فقد كان أربط جأشاً وأثبت عزيمة.

(٣٥) قال لبيد يصف البقرة الوحشية دافعةً عن نفسها هجمات

الرماة وكلابهم بما يشبه دفاع خرنوص هوميروس:

فَتَوَجَّسَتْ رِزَّ الْأَنِيسِ، فَرَاغَهَا	عَنْ ظَهْرِ غَيْبٍ، وَالْأَنِيسُ سَقَامُهَا
فَعَدَتْ، كِلَا الْفَرَجَيْنِ تَحْسِبُ أَنَّهُ	مَوْلَى الْمَخَافَةِ، خَلْفَهَا وَأَمَامُهَا
حَتَّى إِذَا يَنَسَّ الرَّمَاءُ، وَأَرْسَلُوا	غَضًّا دَوَاجِنَ، قَافِلًا أَعْصَامُهَا
فَلَحِقْنَ، وَاعْتَكَرَتْ لَهَا مَدْرِيَّةٌ	كَالسِّمْهَرِيَّةِ حَدُّهَا وَتَمَامُهَا
لِتَذُودَهُنَّ، وَأَيَقَنْتْ إِنْ لَمْ تَذُدْ	أَنَّ قَدْ أَحَمَّ مَعَ الْخُوفِ حِمَامُهَا

فَتَقَصَّدَتْ مِنْهَا كَسَابٍ، فَضَرَجَتْ بِدَمٍ، وَغُودِرَ فِي الْمَكْرِ سَخَامُهَا

قال: إن البقرة تسمعت صوت الرماة القادمين لصيدها فراعها ذلك، واستعدت للقاء، فلما عجز الرماة عنها بسهامهم أرسلوا عليها الكلاب، فرأت أنه لا بد من الدفاع، فقابلت تلك الكلاب بقرن كالرمح، وقتلت منها كلبتين تدعى إحداهما كساب، والأخرى سحام.

(٣٦) يعلم الرعاة أنه كلما كثر شرب الماشية كانت أقرب إلى الصحة، ولهذا يسرون إذا اندفعت للموارد بعد الاكتفاء من المراعي، وهذا الذي أشار إليه هوميروس بقوله: «هز راعي الغنم الطرب».

(٣٧) الصادرة: المصيبة النافذة.

(٣٨) الزَّجَاج: جمع الزج، وهو السنان.

(٣٩) إذا أشار الشاعر إلى أمر مشهور في عصره، فقلما يفصله تفصيلاً كافياً، مثال ذلك ما تقدم معنا في الكلام على آنياس، ومثله قوله هنا: إن ذيغوب تسعر حقداً على أيذومين، ولم يذكر السبب لاشتهاره في زمانه، ذلك أنه كما قال أفستاثيوس: كان بين أيذومين وذيغوب رقابة غرام، وقد كان كل منهما طامعاً بهيلانة المسببة، وهذا القول يطابق كلام فرجيليوس؛ إذ ذكر أنه بعد موت فاريس زفت هيلانة إلى ذيغوب.

(٤٠) الكند: ما بين الكاهل إلى الظهر.

(٤١) إن في هذا البيت في الأصل اليوناني من المشكلة الشعرية ما يكاد يريك ذلك القتل، وقد انقطعت أنفاسه ولعل في الترجمة العربية رائحة من ذلك.

(٤٢) الحنية: القوس، أي أن أحدهما طعن برمحه، والآخر أنفذ سهمًا.

(٤٣) انطاد: علا في الجو صعدًا.

(٤٤) ليس في الإلياذة ذكر للمقلاع أو المخدقة إلا مرتين في هذا النشيد، ولهذا ذهب بعض الشراح إلى أن الكلمة هنا تفيد معنى آخر، ولكن هذا الزعم غير ثبت؛ لأن المقلاع من أقدم آلات الحرب، وإن لم يكن كثير الاستعمال عندهم، فالأنه لم يكن له مجال واسع مع النبال والرماح، ولقد رأيناهم مع ذلك يقذفون الصخور عن قرب بأيديهم، فالحجر إذن كان من جملة أسلحتهم ولعلمهم لم يكونوا أحكموا رمي المخدقة إحكام داود النبي قاتل جليات.

(٤٥) ما قيل عن المقلاع يصلح أن يقال هنا عن الفأس؛ لأنها كانت قليلة الاستعمال، تعتبر سلاحًا خشنًا لا يستخدمه الجنود المنتظمون بعد إتقانهم الطعن بالرماح والضرب بالسيوف والفأس كانت مع ذلك سلاح الأمازونة.

(٤٦) حيثما تكلم منيلاوس رأينا كلامه يشف عن حزازة نفس ليست في صدر غيره، ألا وهو الجريح الذي لم يصب بجرحه سواه، فإذا تشفى بعض التشفي من قتل طريح أو عدو جريح فما ذلك ليروي غلة صدره، وهو ما زال بعيداً عن نيل بغيته القصوى يتألم تألم صاحب الجميل، الذي نبذ أجره وبخس قدره، وقوبل بأشنع الغيالات، وكأنه يبرد غلالة لبّه بملامة زفس؛ لاعتقاده أنه بقدرته استعصم المكرة الغدوة، ثم كأن ذلك الملام لا يغنيه فتيلًا، ولا يشفي له غليلاً، فيرجع إلى وصف عدوه بكلام وإن كان سهلاً بسيطاً فهو أمر ما وُصف به إنسان، وأشر ما دل على الغدر والنكران؛ إذ لا أدل على الظلم من ملالة المرء أموراً طيبة حالاً كالرقص والنوم والغناء والسرور، مع عدم ارتوائه من أمور أخرى متعبة مزعجة محرمة كالغيث والفساد - ويجمل بنا في هذا المقام أن ننبه إلى أن الرقص كان عندهم على نوعين؛ أحدهما: الرقص الممدوح للفرسان والفتيان، وهو الذي سنته لهم أثينا، والآخر: رقص الخلاعة والتهتك ولا شك أن منيلاوس أراد هنا النوع الأول.

(٤٧) ليس تلّوي هرفليون ألمًا، كتلوي صخر الخضري صباباً بالمنازل؛ إذ يقول:

ألّوى حيازيمي بهن صباباً كما تتطوّى الحية المتشرق

(٤٨) هنا فتى كأخيل يقدم على الحرب مع علمه بأنه يقتل فيها، ولكن شتان ما هذا العلم وعلم أخيل، فأخيل أنبأته أمه بعمر مديد وعيش

رغيد، إذا لبث في مكانه فآثر قصر الحياة مع المجد الأثيل والعناء على طولها مع العمر الطويل والرخاء، وأوخينور أنبأه أبوه بالموت بداء عضال إذا تقاعد عن الحرب، وكل فتى يؤثر الموت في ساحة النزال على الهلاك على فراش الأوجاع بداء عضال.

(٤٩) مزعزع ركن الشرى: لقب من ألقاب فوسيد إله البحار، كانوا يمثلونه بصور شتى، وهو في أكثرها إما ممتطٍ صهوة مركبة بهيئة صدفة تجرها جياذ البحر، وبه تحيط الحور الحسان، وإما راكب دلفينه كما ترى في الرسم، والصولجان المثلث الأطراف ملازم له في كل صورة.

(٥٠) يريد صفاق الأبواب.

(٥١) اللأم الدروع - اليونان ملة هاجرت إلى أغباله قبل حرب طروادة بنحو مئتي عام، ورجعت إلى بلادها في الأتيكة بعد تلك الحرب بمئتي عام، وبقي اسمهم عليهم وما هم إلا فرقة من تلك الأمم المتضافرة، ومن الغريب أن العرب أطلقوا اسمهم على جميع تلك الملل مع أن من تقدمهم من الرومان وغيرهم لم يغلبوا هذا التغليب.

(٥٢) أي: تشبيهه أصدق لبطلين متساويين قوة وشدة من هذا التشبيه، وإن كان لا يشبه به في أيامنا فلم يكن هوميروس ليالي برقة أبناء هذا الزمان.

(٥٣) الجنة: الترس، كما لا يخفى، وإذا كانت تلك العصاة تتناوب حمل تلك الجنة؛ لتخفف من ثقلتها حيناً بعد حين عن آياس، فلأن ثقلتها كانت شيئاً مذكوراً لأنها وأمثالها كانت تستر جميع الجسم، فلا بدع أن تكون ثقيلة مزعجة، ولا سيما في حين يكل فيه أشد السواعد لكثرة كره وقتاله.

(٥٤) نعلم من هذه الآيات أن كل فرقة أتت بسلاحها الذي لها في أوطانها، فمنهم السيف والرماح، ومنهم النبال وحملة المخاض، أي: المقاليع، ولا بدع أن يكون هؤلاء بلا دروع لقلة احتياجهم إلى ملاقات الأعداء صدرًا لصدر.

(٥٥) أي: صاحب الفكر الثاقب والعقل الرزين، كانوا يعتقدون أن الآلهة تقسم على الناس الأخلاق، كما توزع عليهم الأرزاق، وفي مثل هذا المعنى يقول ليبيد العامري:
فاقنع بما قسم المليك فإنما قسم الخلائق بيننا علامها
وإذا الأمانة قسمت في معشرٍ أوفى بأوفر حظنا قسامها



فوسيد أو فوسيدون.

(٥٦) تلك إشارة إلى أخيل، يهيبى الشاعر المطالع لرؤية أخيل بأعظم مظاهر الهيبة والجلالة، هنالك يوفد الإغريق له الوفود لاسترضائه، وهنا أشد الأعداء بأسا كفوليداماس وهكتور يقفان عند ذكر اسمه، وعمما قليل سنراهم منهزمين لرؤية فطرقل شاكا بسلاحه ظننا منهم أنه هو هو.

(٥٧) هنا في بعض النسخ بيت يقول: إن هكطور وثب إلى الأرض من مركبته. وإغفال هذا البيت من نسخ أخرى صواب؛ لأن سياق الكلام يدل على ترك الطرواد عجالهم خلف الحفير، فذل كاليبت إذن دخیل فی الإلیاذة.

(٥٨) لو أخذ معنى الشطر الأخير على ظاهره لكان بلا ريب أبرد من الثلج المشبه به هكطور، ولكن المقصود منه لا بد أن يكون إشارة إلى بريق سلاحه أو ارتجاف قونس خوذته؛ إذ يلعبه هوميروس في مواضع كثيرة بهياج الخوذة.

(٥٩) ترى من كلام الأخوين ما بين أخلاقهما من الفرق، فهناك هكطور العتي الصارم، يشدد المقال ويلوم حين لا محل للوم، وهنا فاريس أخوه يطلطف كجاري عادته ويؤانس مؤانسة الأخ الأصغر والعشيق الأمهر.

(٦٠) نعلم من هنا أنه كما كان البحر مفتوحًا للإغريق، تأتيهم به النجدة والذخيرة كان البر مفتوحًا للطرواد يتناوب في طريقه نجّادهم.

(٦١) قال عنتره وأجاد بتشبيه الجيش بالبحر والنصال بأمواجه: ففاض عليّ بحرٌ من رجالٍ بأمواج من السمر الدقاق

(٦٢) لم يكن ذلك النسر ليروع هكطور؛ لأنه على ما تقدم في النشيد السابق لم يكن كثير الاعتقاد بالطيرة.

النشيد الرابع عشر مكر هيرا ببعلها زفس

مُجْمَلُهُ

كان نسطور في المعسكر يعنى بتمريض ماخاوون الجريح، فخرق
أذانه قرع الحراب فارتاع وخرج من مضربه يتشوف، فشهد مشهدًا هاله
ولقيه أغامنون وأوديس وذيوميد وكلهم جريح، فتشاوروا فرأى أغامنون
أن الغنيمة في الهزيمة لميل زفس إلى الأعداء، فقبح أوديس رأيه وارتأى
ذيوميد وجوب العودة إلى ساحة القتال لعلهم إذا عادوا بين أجنادهم
يشربون بهم ثائر الحمية فكان كذلك. وظهر فوسيد بهيئة جندي شيخ
ونشط أغامنون وثبت الإغريق، وكانت هيرا قد ارتاعت لانحراف بعلها
زفس إلى الطرواد، فتهيأت لأعمال الحيلة فاستعارت حزام الزهرة ومضت
إلى لمنوس، والتمست معاونة «الكري» أخي «الموت» على زفس،
فتمنع الكري بادئ بدء عن إجابة سؤلها فلم تزل تخادعه حتى أذعن لها
وسكب طله على عيني زفس فاستولى عليه السبات بين يديها، وطيرت
الخبر إلى فوسيد فاغتمها فرصة خير فرصة ودفع الإغريق، فقضوا على
الطرواد وجرح إياس هكطور فأقصاه أتباعه عن موقف النزال، وطلبه
الإغريق فلم ينالوا منه ماربًا، وهناك ازداد الإغريق بأسًا ففتكوا بأعدائهم

وصدوهم وأبعدوهم عن مواقف السفن وملأوا السهل أشلاء من قتلاهم
 لانهزم الطرود من أمامهم وأياس في أعقابهم تخر الأبطال بين ذراعيه.
 يتدئ هذا النشيد وينتهي أيضاً في اليوم الثامن والعشرين ومشهد
 وقائعه في مضارب اليونان فطور إيذا ثم في ساحة القتال.

النشيد الرابع عشر

كان نسطور لدى كأس الشراب مصغياً يسمع عَجْاً واصطخاب
 فلما خاوون قال: «أفكر فما علة ينجم عن قرع الحراب
 حول تلك الفلك فتیان الوحي نقعهم يعلو مه لا تبرحا
 واشرب الخمرة صرفاً ريثما هيكميذا لك تحمي المسبحا ١
 وتنقي الجرح من هذا الخضاب

...

وأنا ماض أرى ماذا جرى بالسري» واقتال ترساً أكبرا ٢
 كان ترسيميد قد غادره مؤثراً ترس أبيه نسطرا
 وعلى رمحٍ طويلٍ قبضا بسنانٍ قاطعٍ صفراً أضاً
 وإلى الباب عدا مستشرقاً فله لآح القضا أي قضا

بني الإغريق قد جلّ المصاب

...

دفعوا دون عدوٍ مندفع خلفهم من خلفه السور صدع

لبث الشيخ على هاجسه خامد الجأش كبحرٍ متسع
بدنو النوء في الجو شعر يُمُّه فأربدَّ لوننا واكفهر
لا يعجُّ الموج فيه مائلا أي ميلٍ قبل ما زفس انتهر

ريحه تنقضُّ من فوق العباب ٣

•••

هكذا الشيخ على أمرين جاش لبلوغ الجيش من فوق الرشاش ٤
ألحاقًا بأغـامـنون أم بالحواشي حيثما اصطك الكباش ٥
فعلى ذاك أخيرًا عوَّلا واشتباك السمر يصمي النبال
يقرع الجنات في دراعهم أبتـر ماضٍ ورمحٌ صقلا

نافذ الحدين رِيَّان الذباب ٦

•••

فإذا في الثغر جرحى الأمرا من بني زفس تراءوا زمرا
كذيوميذ وأوذيس وأتـ ريذ من فلـكـهم أُموا السُرى
فلـكـهم عن موقف الطعن المبيد أرسيت بالجرف في بونٍ بعيد
دـرنـها للسـهل فـلكٌ أدنيت دونهنَّ السُّورُ بالإحكام شيد

معقلًا يمنع أن جدَّ الطلاب

•••

ذلك الجرف العريض المتسع كل هاتيك الخلايا ما وسع
خوف تضيق مجالٍ حال من دونها فيه السرايا تجتمع
فصفوفاً كن في ذاك الخليج بينهن النفس في الصيد تهيج

فانبروا كلَّ على عامِلِه يتوكأ راقبًا عَجَّ الأجيح

وإذا بالشيخ نسطور المجاب

•••

فالتظوا طرًّا لمراه أسي وأغاممنون نادى يسًا:

«يا ابن نيلا فدوة الإغريق لم عدت من قرع القنا محترسا

خشيتي ويلاه إنفاذ وعيد ذلك الفتاك هكطور العنيد

يوم في شوره آلى أنه يحرق الأشراع والقوم يبيد

قبل أن ينوي لإليون المآب

•••

وعده رباه فيه اليوم بر وفؤاد الجيش بالغيط استعر

كأخيل كلهم لاح وقد عذلوني وأبوا دفع الضرر» ٧

قال: «ها قد قضى الأمر فلا نفس زفسٍ دافعٌ هذا البلا

ذلك السور به منعنا وتراه اندكٌ والنقع علا

ولدى الأسطول ميدان الضراب

•••

فأجل طرفك في كل طرف لا ترى أين بنا جلّ التلف

حيثما تنظر فالقتلى هوت وهديد القوم في الجو قصف

فلنرم رأيًا به نؤتى الفلاح إن يكن ذا الحين للرأي صلاح

إنما الحكمه في عزلتنا ما على المجروح إتيان الكفاح» ٨

فأغاممنون ملتاعًا أجاب:

•••

«إن يكن ذِيَالِك السور الخطير» ما وقى ضرّاً ولا صدّ الحفير
أو تكن خابت أمانينا به بعد إجهاد قوى الجيش الكثير
أو يكن ثار الوغى دون السّفين إنما من زفس ذا الذل المهين
نصره عاينت قبلاً مثلما قد شهدت اليوم ذا الخذل المبين

موقناً بالحتف في دار اغتراب

•••

غل أيدينا وأعدانا الثقال عز آل الخلد إجلالاً أنال
فلنجرنّ من الأسطول ما كان أدناه إلى الجرف مجال
ويقلب البحر نرسيه إلى أن نرى جيش الدياتجي أقبالا
فإذا أوقف كرات العدى سائر الفلك اجتذبنا عجالا

وكفينا شر فضّاح العذاب

•••

ففرار المرء أولى أبداً من نكال الأسر في أيدي العدى
ليس عارٌ لا ولا في الليل أن يتوارى المرء عن خطب بدا» ٩
قال أوديس وبالغيظ اشتعل: «يا أخا العي فما هذا الملل
لك أولى إمرةً الأنكاس لا إمرةً في البهم من كل بطل

شيخهم يبطش كالغض الشباب ١٠

•••

زفس قد علمنا سل السيوف بصابنا وإلى يوم الحتوف» ١١

أبنا رمت ارتدادًا وترى بحما إليون قتلتنا ألوف
 مه فلا يسمع سوانا بالفرق نطق عجز ما به قط نطق
 لا أخو ذوقٍ ولا قيلٍ ولا قائدٌ مثلك للحرب اندفق

جيشه الجرّار كاللّب اللّب ١٢

•••

ألى اليم نسوق الأغربه والوغي للجو أعلى صخبه ١٣
 إنما الأعداء ذي منيتهم ولئن فازوا بحكم الغلبه
 فإذا ما نحن باشرنا العمل ما الذي يدفع أهوال الفشل
 وإذا الأجناد من خلفهم أبصرونا وجلوا أي وجل

والتووا ... لا لا فما هذا الصواب» ١٤

•••

قال أتريد: «لقد كلمتني بمقالٍ فيه قد كلمتني ١٥
 أنا لا أرغم قسرًا جندنا أن يسوقوا راسيات السُّفنِ
 فليقم أيكم لا فرق إن كان غض العمر أو شيخًا مسن
 ويوافينا برأيٍ صالحٍ أتلّقاه بقلب مطمئن» ١٦

فانبرى يلقي ذيوميد الخطاب:

•••

«ذونك انظر فهنا المرء المراد فاستمعه إن ترم قول السّداد
 لا يعيظنكم نصح فتّى فبه فخرًا سما فضل التلاذ
 فأبى تيزيس الشهم الصحيح من له في ثيبة سامي الضريح

جَدُّهُ فَرْتُوسُ فِي أَفْلُورِنَا وَكَلِيدُونَا حَوَى الْمَلِكُ الْفَسِيحَ

وَبِهَا مَغْنَاهُ بِالْإِعْزَازِ طَابَ

•••

وَلَدَهُ أَغْرِيسٌ ثُمَّ مَلَّاسُ وَوَنُوسٌ خَيْرُهُمْ عِزْمًا وَبَاسُ

ذَاكَ جَدِّي ظَلَّ فِي أَوْطَانِهِ وَأَبَى أَرْغُوسُ مِذْ أَجْلِي دَاسُ ١٧

قَدَّرَ مِنْ زَفْسٍ وَالْأَرْيَابِ كَانَ فَلَهُ تَيْذِيسٌ بِالرَّغْمِ دَانُ

ثُمَّ فِي غَرْبِهِ تَمَّ عَلَى بِنْتُ أَدْرِسَتْ لَهُ عَقْدَ الْقِرَانِ

وَتَوَى فِي مَنْزِلٍ زَاهِي الرِّحَابِ

•••

مَلِكُ الْأَرْيَافِ وَاحْتَازَ الْحَقُولَ خَصْبَةً فِيهَا مَوَاشِيَهُ تَجُولُ

وَيَهْزُ الرَّمْحَ مَا مِثْلُهُ أَحَدٌ وَالْحَقُّ تَدْرُونَ أَقُولُ

فَإِذَا مَا كُنْتُ بِالْفَرْعِ الضَّئِيلِ لَا وَلَا فِي الْحَرْبِ مَهْيَابًا ذَلِيلُ

وَلِذَا لَا تَحْقِرُوا قَوْلِي إِنْ قُلْتُ لِلْهَيْجَاءِ فَلَنَلْقَ السَّبِيلُ

وَلَثْنٌ ظَلَّتْ دِمَانًا بَانَسْرَابَ

•••

فَالضَّرُورَاتُ لَهَا حَكْمٌ عَظِيمُ إِنَّمَا عَنْ مَوْقِفِ الطَّعْنِ نَقِيمُ

بَاعْتِزَالٍ فِيهِ لَا يَدْرِكُنَا فِي الْوَعْيِ جَرْحٌ عَلَى جَرْحِ أَلِيمِ

نَدْفَعُ الْجَنْدَ وَنَدْعُو لِلْمَدَدِ مِنْ هَوَى النَّفْسِ بِهِ جِنًا قَعْدُ ١٨

فَأَصَاحُوا وَوَعُوا حَتَّى انْتَهَى وَجَرُوا وَالْقَلْبُ بِالْحَزْمِ اتَّقَدُ

خَلْفَ أَتْرِيذٍ بِقَلْبٍ لَا يَهَابُ

•••

إنما فوسيد عن قربٍ رقب فحكى شيخاً جليلاً واقترب
وأغاممنون وافى قابضاً يده اليمنى برؤواع الغضب
قال: «يا أتريد آخيل الحقود فرحٌ بالفتك في بهم الجنود
فليمت وليضمحلن على غيه واعلم فأبناء الخلود

لم يسوموك قلى يولي العقاب

•••

سوف يربد على السهل الغبار بيني الطرواد ييغون الفرار»
ثم من دونهم انقض على هدة كالرعد تشتد وسار
بصديد صاح من صدر حديد عن وحي تسعة آلاف يزيد
بل وحي عشرة آلاف إذا صد يوم الطعن دراع الحديد

فالتظى الإغريق للحرب التهاب:

•••

من ذرى الأولمب عن عرش النصار نهضت تلفت هيرا للأوار» ١٩
فأخاها أبصرت مندفعاً وجوراً قلبها الميمون طار ٢٠
ولأيذا أرسلت طرف المها فرأت زفس الذي ألمها
فرر معترراً على قتته فكترت في هاجس كلمها ٢١

علها تغريه في أمر عجاب

•••

فارتأت مذ أعملت فكرتها لتعدن له زينتها

فإذا ما جاءها مفتتًا بسناها أنفذت حيلتها
وعلى عينيه إن تلق السبيل سكبت روح السبات المستطيل
ثم أمّت غرفةً شادَ لها نجلها الصّانع هيفست النّيل

لسواها قطّ لا يفتح باب

•••

فوق أبراجٍ علت أرتاجُها لا يرى إلا لها مزلاجُها ٢٢
أقفلت مذ دخلت ثم خلت بطيوبٍ نفحها وهّاجها
طهرت أعضاءها بالعنبر ثم بالزّيّت العلي الأذفر ٢٣
أرجّ أيّان مسسته يدّ فاح من قبّة زفس الأكبر

عابقًا في الأرض يسمو للسحاب

•••

وانثنت تجدل برّاق الضفور يديها بعد تسريح الشعور
نظمتها حلّقًا هذابة فوق ذاك الرّأس فتانًا يدور ٢٤
وارتدت مسبلّة بردًا رقيق صنع آئينا به وشيّ أنيق
بعرى العسجد زرت وانثنت لنطاق يشمل القد الرشيق

مئة أهدا به غُرّ العصاب

•••

ثم قرطين جمالًا شائقين مهلاً ناطت بكتنا الأذنين
كل شنفٍ بيتيماتٍ ثلا ثٍ بديع الصنع غص المقلتين
ونقابُ الحسن وهّاج على رأسها كالشمس في جوف الفلا

ثم خفًا أوثقت يسطع في كل رجل بسناها اشتعلا

وانبرت تبرز من طي الحجاب ٢٥

•••

ثم عفرد وذيت ناداتها إلى عزلة عن كل أرباب العلى ٢٦

ولها قالت: «أتصغين إذن أم تسوميني ابتناه الفشلا

حنفًا مني لإيثار الأخاء مذ بني الطرود أوليت الولاء»

فأجابت: «كل أمرٍ رمته كان مقضيًا بطيبٍ ورضاءٍ

إن يطق أو كان مما يستجاب»

•••

قالت الربة والحيلة قد أكنمت: «إيه إذن منك المدد

لهب الشهوة والحب الذي بقلوب الجن والإنس اتقد ٢٧

لأقاصي الأرض أزمنت ارتحال لأوفي أبوي رهط الكمال

أوقيانوس وتيثيس اللذي من أشباني على كف الدلال

فعسى أربأ مصدوع الشعاب

•••

طال عهد الكيد في بعدهما واطراح الود في حقد هما

لهما مذ قبل ألقنتي ربا عيا بي منتهى جهدهما

عندما أقرونسًا زفس العظيم غل تحت الأرض والبحر العقيم ٢٨

فإذا باللين وسدتهما وسد الحب فلي الفضل العميم

وذرى الحظوى ومرعى الجناب»

•••

فأجابتها ببشرٍ وابتسام: «أو مثلي لا يلبي ذا المرام
كيف لا يا ربة زفس لها بسط الذراعين مفتونًا وهام»
ثم حلت من على الصدر النطاق معلم الطرز موشى بانتساق
تعلق اللذات في أكنافه من هوى نفسٍ ووجدٍ واشتياق

وأطاريف الحديث المستطاب

•••

وبه من كل خلاب الشعور منطقٌ يعث بالشيخ الوقور
بيد الربة ألقته وقا لت ببشرٍ شف عن بادي السرور:
«دونك الآن انتطاق المعلما كل حرزٍ رمت فيه رؤسا ٢٩
فعلى صدرك أخفيه فقد لاح لي في الغيب أن قد حتما

لك بالإقبال من قبل الإياب»

•••

بسمت هيرا له مستبشره ثم ضمته وأما الزهره
فانثنت تأوي إلى منزلها ثم هيرا انبعثت منحدره
من ذرى الأولمب كالبرق تطير لإفيريا على الروض النضير
فإمائيًا فأطوادٍ ياث — راقه فرسانها اليهم تغيّر

واكتست ثلجًا يغشيه الضباب

•••

كل ذاك البون طافته ولم تطأ الأرض بوضّاح القدم

وجرت من شم آثوس إلى حيث يم البحر بالموج التطم
بلغت من بعد تطواف البلاد لمنسًا حيث ثواس الفضل ساد
فبها قرّت بملء البشر إذ لقيت فيها أخوا الموت الرقاد. ٣٠

فتلقته بألفاظٍ عذاب:

•••

«يا ولى الجن والإنس ومن قد حباني الفضل في ماضي الزمن
زدني الآن عليه منة تولني للدهر مذخور المنن
ألق لي في مقلتي زفس السُّبات إن على زندي بوجد الحب بات
ولك العهد إذا لبيتني صلةً من دونها غرُّ الصلات

من لباب التبر عرشٌ لا يعاب

•••

يُفرغ الصنعة فيه والحكم نجلي الأعرج هيفست الحكم
ويليه مدوسٌ تبسطه زمن الأدبة من تحت القدم»
قال: «مهلاً» وحلى النوم لديه «أي رب شئت أستولي عليه
ومجاري أوقيانوس الذي كل شيء كان منه وإليه ٣١

لي تعنو أبداً دون ارتياب

•••

بيد أني زفس لا أولي الكرى أبداً إلا إذا ما أمرا
حكمةً علّمتني من قبل مُد طرفه الحوَّاط طيفي خدراً
يوم إليون هرقل اكتسحا ومضى يقلع عنها فرحا

زفس بي أغفلت حتى تنزلي بانبه القوَام خطبًا فدحا

ثم هجت البحر فورًا باضطراب

•••

وهرقلٌ بين تبريحٍ وضيق حلَّ قوصًا لا يرى فيها صديق
فعلى الأرباب بالغيط التظلى زفس لمَّا هبَّ فيهم يستفيقُ
هدهم هداً ومن دون الجميع في اطلابي هاجه السخط الفطيع
كاد يلقيني من الجو إلى لجة البحر إلى القعر صريع

إنما الظلمة حالت باحتجاب

•••

لذت فيها وهي حيث الليل قر هابها كل إلهٍ وبشر ٣٢
فترؤى زفس في حدته ورعى حرمتها ثم غفر
أو بعد الخبر ذا رمت المحال فأجابته بدلٍ وجلال:
«أكذا ظنك غيظًا يلتظي ألزفس جيش طروادٍ تخال

كابنه يدينهم فضل انتساب ٣٣

•••

إيه قم أعطك زوجًا تستباح بهجة إحدى الخريجات الصباح ٣٤
تلك سعديك فسيثيا وكم رمتها وجداً مساءً وصباح
قال يهتز حورًا: «أقسمي لي ياستكس الرهيب الأعظم
وضعي كفيك كمًّا في الشرى ثم كمًّا فوق بحرٍ مظلم

يشهد الأيمان أربابٌ رهاب ٣٥

...

أن تعدي لي زوجًا تستباح
بهجةً إحدى الخريدات الملاح
فتيليني فسيثيًا التي
أتمناها مساءً وصباح» ٣٦
أشهدت تقسم بالحلف العظيم
حفل أقرونس أرباب الجحيم
جملة الطيطان والقوم الأولى
رهطهم في قعر طر طارٍ يقيم
أنها لم تؤتِه قولًا كذاب ٣٧

...

ثم طارا تحت أذيال الغمام
وسريعًا أدركا حد الختام
من على لمنوس حتى لميرو
س إلى إيذا الينايع العظام
فلدى لقطوس حيث الوحش ذاع
غادرا البحر وسارا في البقاع
وفروع الغاب من وقعهما
قلقت ترتج في تلك البقاع ٣٨
وبتلك الغاب رب النوم غاب

...

واختفى عن مقلتي زفس على
أرزة شمّاء تعلو في الفلا
حل في مشتك الأغصان طيد
رًا رخيم الصوت يأوي الجبال
قد دعاه الجن خلقيس العبر
وقمنديس يسميه البشر
رقيت هيرا أعالي غرغرو
س وزفس من معاليه نظر
فلها وجدًا كيوم الوصل ذاب

...

يوم في الخفية عن أم وأب
علقا حبا وفازا بالأرب

قال: «لم جئت وغادرت الأله
لأقاصي الأرض أزمعت ارتحال
ب وأين الجرد» قالت: «لا عجب^{٣٩}
لأوافي أبوي رهط الكمال
أوقيانوس وتيثيس اللذي — من أشباني على كفّ الدلال

فعسى ألام مصدوع الشعاب

•••

طال عهد الكيد في بعدهما
وإطراح الود في حقدتهما
وعلى مركبتي أسعى على الـ
سبر والبحر إلى رفدهما
بيد أني الجرد أبقيت لدى
سفح إيذا منك أبغي المددا
خوف أن يأخذك الغيظ إذا
خفية أزمعت أبغي منتدى

أوقيانوس إيابًا وذهاب»

•••

فلها ركام غيم الجو قال: «سوف تمضين فما ضاق الجال
إنما الآن بنا هبي إذن
قطّ ما أرقني حرّ اضطرام
مثلما حرقني اليوم الغرام
قط ما إن همت في إنسيّة
قبل أو جنيّة هذا الهيام

لا أحاشي كل ربّات النقاب

•••

لا أحاشي زوج إكسيون من
ولدت فيرثيسًا رب الفطن
أوذنيًا بنت أكريس التي
ولدت فرسئسًا فرد الزمن ٤٠
لا أحاشي بنت فينكس التي
ردمنثًا ومنوسًا ربّت

أو بثبسٍ أَلْقَمِينَا الحسَن من حبلت لي بهرقل القوّة

أو سميلًا أم ذيون الشراب ٤١

•••

لا وذيमितير ما قَطَّ بها همتُ أولًا طونةٍ ذات البها ٤٢

لا ولا في حسنك الفتان ما قَطَّ كالיום فؤادي ولها»

فأجابت تكمن الحيلة: «هل لوصال الحب في إيذا محل

أفما الدنيا ترانا علنًا أولًا ربُّ رآنا وقَفَلْ

وديار الخلد بالأنباء جاب

•••

أي دارٍ لك آتِي أيّ دار بعد أن يلحقني هذا الشنار

إنما تعلم هيفست ابنك الـ صانع الحاذق شيّاد المنار

غرفةً محكمة الأبواب شاد لك قامت فوق أركان العماد

فإلى سترتها هي بنا إن يكن لا بد من هذا المراد

أكف في الخلوة فضاح المعاب»

•••

قال: «لا تخشى هنا وشي رقيب من بني الإنسان أو ربٍ رهيب

لأظلمن غمائمًا شائئًا من نضار دونه الشمس تغيب»

ضمها والأرض جادت بالربيع من خزام نشر ريّاه يذيع

وحواشي زعفرانٍ كسيت حندقوقًا بله الطل البديع

يتللا تحت منثور الحباب

•••

بهما النور عن الأرض ارتفع وغمام التبر بالنور سطع
وحباب القطر من أكنافه كحبوب الدر للأرض وقع ٤٣
فأبو الأرباب في ظل النعيم هكذا ظلَّ على إيذا مقيم
خامد الحس بذرعي عرسه بهجوعٍ وغرامٍ في نظيم

رطب أزهارٍ علت بسطاً رطاب ٤٤

•••

ولميدان الوغى عذبُ الكرى جد للأسطول ينمي الخبرا
ولفوسيدنا قال: «أيا ملگًا زعزع أركان الثرى
كلل الإغريق بالمجد الخطير وابل ما شئت ولو حينًا يسير
خلبت هيرا نُهى زفس وفي قربها يهجع بالطرفِ القريزُ

وعلى جفنيه طلي بانسكاب»

•••

ثم جد السير يسعى في الورى وانبرى فوسيد في صدر السرى ٤٥
صاح مشتدًا على شدته: «أأخائيين ما آهًا أرى
ألهكطور نتيحن الظفر يحرز الأسطول والمجد الأغر
تلكم منيته اغترَّ بها مذ رأى آخيل بالحقد استعر

وعن الهيجاء أمسى باجتئاب

•••

قط ما منآه أولانا البوار إي نعم لوكلنا كل آثار

فأصيحوا الآن طرًّا وانهضوا يحمل الكبَّار أجوًّا كبار
تسطع الخوذات في هاماتهم وطوال السمر في راحتهم
وأولو العزم الأولى جناتهم صغرت فلينبذوا جناتهم ٤٦

للأولي ينقلهم هول الصعاب

•••

فاتبعوني واحملوا طرًّا فلا صدنا هكطور مهما اشتعلا
فأصاخوا جملة وانقض في إثره للحرب رهط النبال
وذيوميذ وأوذييس الفلاح وأغامنون في دامي الجراح
رتبوا الجند وما أقعدهم دمهم بل وازنوا حمل السلاح

وبهم جابوا يعُبُون العياب

•••

فبدا ذو الطول بالحمل الكثيف وضعيف العزم بالثقل الخفيف
وبلوا شككتهم حتى إذا وازنوها اندفعوا الدفع العنيف
صدرهم فوسيز في راحته عامل كالبرق في حدته
ليس من كفٍ يلاقيه به بل ترع الخلق من رؤيته

إنما هكطور لم ييغ انسياب

•••

كتب الطرود مشتد النداء مثلما فوسيز نادى بالبلاء
فكلا القرمين قوَّام فذا بين طرودٍ وهذا في الأخاء ٤٧
زحف الجيشان والبحر اصطقق قاصفًا والجيش بالجيش التصق ٤٨

ولدى عجم عَجُّ العبا ب إذا الموج على الجرف اندفق

بشمالٍ لم يكن طيِّ الحساب

•••

لم تكن في جنب هذات الفرق عندما الكلُّ على الكلِّ انطلق

تذكر النيران في زهزمةٍ حين بطن الغاب بالشم احترق

لا ولا صَهْصَلُ الرِّيح اكتف باسق الملول من كل طرف ٤٩

فالتقى الجمعان في صدرهم واثبًا هكطور بالرمح قذف

لأياس مذ إلى ملقاه آب

•••

نشب الرمح بقلب المحملين حيث بالصدر استظالا ضخمين

محملٌ للترس لاقى محملا لحسامٍ بحرابي اللجين

وقياه شرَّ تلك الطعنة والتوى هكطور بادي الخيبة

يتقي في قومه هول الردى وأياسٌ بأبي الهمة

إثره انقضَّ كخطاف الشهاب

•••

ولجلمود من الصخر عمد من صفًا بدَّد في تلك الجدد ٥٠

(بعضه قد ظل ما بين الخطى وأقيم البعض للفلك سند)

فرحاه فمضى وهو يشور مثلما دوَّامة الوغد تدور ٥١

وعلى جنة هكطور لدى عنقه في صدره أهوى يمور

فهوى منقلبًا أي انقلاب

•••

فكما ملولة الطود اقتلع زفس والأنواء بالعنف دفع
وفشا من حولها الكبريت في صاعد الريحه والعجُ ارتفع ٥٢
وقلوب الناس في جبرتها خفقت رعبا لدى رؤيتها
هكذا هكطور في سقطته أفلت الصعدة من شدتها

والتوى مستلقيا فوق التراب

•••

ظلت الخوذة والترس لديه وصدى شكته صلّ عليه
وينو الإغريق في نعرتهم هرعت أفواجهم تجري إليه
بغيةً أن يظفروا فيه وقد أمطروا الأسهم تهمي كالبرد
إنما لم يدركوا بغيتهم إذ سعى كالبرق يؤتیه المدد

نخبة الطرود والغر الصحاب

•••

أسبلوا من حوله صلد المجان ووقوه هول هطال الطعان
بينهم فوليدماس وكذا أنيأس وغلوكوس الجنان
ثم سرفيدون قوأم بني ليقيا ثم أغينور السني
حملوه حيث ظلت جرده في ذرا عن قرع تلك الجن

وإلى إليون ساروا باكتئاب

•••

فعلى مركبةٍ فيه تسير حملوه وهو مشند الزفير

وَأَتُوا شَقَّافَ زَنْثِ الْمَلْتَوِيِّ بِمَجَارٍ صَبَّهَا زَفْسُ الْقَدِيرِ
وَضَعُوهُ ثُمَّ وَالْمَاءَ الدِّفَاقِ بَارِدًا صَبُّوا عَلَيْهِ فَأَفَاقَ
وَجْثًا يَفْتَحُ عَيْنَيْهِ وَمَنْ دَمَهُ الْأَسْوَدُ قَيْءً وَانْدِفَاقَ

جَارِيًا مِنْ فِيهِ يَنْصَبُ أَنْصَابُ

•••

ثُمَّ فَوْقَ التُّرْبِ مَغْشِيًّا عَلَيْهِ خَرَّ وَالظُّلْمَةُ غَشَّتْ مَقْلَتَيْهِ
صَدْمَةً مَا ارْتَاحَ مِنْ صَعْقَتِهَا زَمْنًا إِلَّا لِتَوْهِي رَكْبَتَيْهِ
وَبَنُو الْإِغْرِيقِ مَذْهَكُطُورِ رَاحٍ هَاجَ فِي أَلْبَابِهِمْ وَجَدَ الْكِفَاحِ
وَابْنُ وَيْلُوسٍ أَيَّاسٌ كَرَّ فِي عَامِلٍ ثَقَفَ مِنْ شَهْبِ الرِّمَاحِ

كَعْبُهُ يَهْتَزُّ فِي صَدْرِ الْكَعَابِ

•••

شَقَّ ذَاكَ الرَّمْحَ مِنْ تَحْتَ الْكَتِفِ خَصَرَ قَرْمَ بَسْتِنْيُوسَ عَرَفَ
أُمُّهُ الْحَوَارِءَ نَائِيَسَ التِّي لَأَنُوفٍ قَبْلَ كَانَتْ تَزْدَلِفُ
رَاوُدَتُهُ حِينَ وَافَى قَدَمًا جَرَفَ سَتْنِيُوسَ يَرْعَى الْغَنَمَا
وَنَتَاجَ الْحَبِّ ذِيَاكَ الْفَتَى رَمَحَ آيَّاسَ حَشَاهُ اخْتَرَمَا

وَحَوَالِيهِ اخْتِضَامٌ وَاخْتِضَابُ

•••

فَجَرَى فَوَلِيدِمَاسٌ وَأَطَارَ عَامِلًا صَلَدًا لِأَخْذِ الثَّارِ ثَارَ
فَعَلَى كَاهِلِ إِفْرُوثُونِرٍ غَاصَ يَلْقِيهِ مَغْشَى بِالْغَارِ
صَرَخَ الظَّافِرُ وَالْفَخْرُ انْتَحَلَ: «لَمْ يَطْشَ رَمَحَ ابْنِ فَنُثُوسِ الْبَطْلِ

شق من قلب العدى قلب فتى موكنًا يلقى فيه أيان ارتحل

لمشاوي صرح آذيس الرحاب» ٥٣

•••

فالتظى الإغريق من هذا النعير سيما الفتاك آياس الكبير

دونه خر الفتى فانقض في طلب القاتل بالرمح الشهير

فالتوى فوليدماس ونجا ولأرخيلوخ فوراً عرجاء ٥٤

خرق الباديل من مفصله وبقلب العظم فيه أولجا

قاضباً أعصابه شر اقتضاب

•••

خر والهامة قبل القدم لخضيب الترب أهوت ترتمي

وأياس صاح في نعرتة: «يا ابن فنثوس المليك الأعظم

قل ألم أفتك بعليج أكبر كان كفوء ابن أريليق الجري ٥٥

إي نعم ما لاح لي إلا فتى عالي الهمة سامي المعشر

ولأنطينور يدينه اقتراب

•••

فهو لا شك ابنه القرم البطل أو أخوه الشهم ثقاف الأسل»

قال ما قال أياس عالمًا قبل ذاك القول من كان قتل

فحشى الطرواد بالبت التهاب وأخو الميت كاماس وثب

ورمى يردي فروماخ الذي جثة المقتول قد كان سحب

ثم نادى بأساليب السباب

•••

«يا بني الإغريق حدّاف النبال وأولي الدعوى غرورًا واختيال ٥٦
لم تكن كل المنايا سهمنا فلكم منها نصيبٌ ومنال
أفما خلتم فروماخ السري بعد أرخيلوخ بالحتف حري
أفما كل امرئ منكم صبا لأخٍ من بعده مثَّـر

أبدًا مرتقبٍ قطع الرقاب» ٥٧

•••

حرق الإغريق ذيّاك الفخار سيِّما الملك فنيلاس فثار
وأكاماس رمى لكن أكّا ماس ولّى يبتغي سبل الفرار
فبإليونئيس الرُّمح صدر فرع فرباس الوحيد المدخّر
مجتبى هرمس في طروادة من حباه بغنيمٍ وبقـر

وعليه هال موفور الرغاب

•••

خرق الحاجب والعين قذف ولبب العظم في الرّاس وقف
خرّ للترب يديه باسطاً وفنيلاس انتضى السيف وخف
قطع الهامة في خوذتها فهوت والرمح في مقلتها
وحكت في كفه خشخاشةً قطعت تجتثّ من منبتها

قال يعليها على ذاك النصاب

•••

«أصدقوا طرواد هول الخبر والديه يذرفا الدمع الذري

مثلما عرس فرومّاخ إذا آبت الإغريق بعد الظفر
لا تراه سار حين الجيش سار وبه تحظى بهاتيك الديار»
نظر الطرود من حولهم يتغى كل سبيلاً لقرار

ثم ولوا بارتعادٍ وارتعاب

•••

يا بنات الرب زفس من على قمة الأولمب يشهدن الملا
لي فقلن الآن من خلته بينهم شق الصفوف الأولى
مذ إلى الإغريق إبان النزال كفة الرجحان فوسيد أمال
ذاك آياس على هرتيس فرع غريّاس بالبدء استطل

والمسيون عليه بانتحاب

•••

ثم أنطيلوخ فلقيس قتل وعلى مرميرس الهول حمل
ثم مريون مريسّا وكذا هيفتيون بحد السيف فل
ثم طفقيير فريفيت ضرب وفروثوون واحتاز السلب
ومنـيـلا رام هيفيرينـرا ومن الشاكلة الجوف اقتضب

فمن الجرح هوت روح المصاب

•••

إنما أعدى فتى بين السرى لم يكن إلا آياس الأصغرا
كر في إثر العدى مستقبلا جيشهم فاجتاحه مستدبرا
حيثما خفت خطاه أدركا طالب النجوى وفيه فتكا

خَرَّت الدَّرَاعُ فِي كِرَاتِهِ تَتْرَامِي مِنْ خَمِيسٍ هَلَكَا
سَامَهُ زَفْسٌ انْخِذَالًا وَانْقِلَابٌ

هوامش

(١) غسل النساء للرجال ووقوفهن في خدمتهم أثناء استحمامهم من جملة ما اتخذ قدماء اليونان من عادات الأثوريين وغيرهم من ملل الشرق، ولقد أكثر هوميروس من ذكر ذلك في الأوديسة، وهو على ما يظهر من غرابته عادة لا تزال مألوفة في أطراف البلاد الشرقية؛ كإيران والهند وبعض البلاد العثمانية، وقد شاعت لعهد قريب في قلب البلاد الأمريكية فإن في مدن منها؛ كشيكاغو ونيويورك تقوم الدالكات من النساء مقام الرجال في بعض الحمامات المعروفة بالحمامات التركية، وليس هذا بأغرب من عادة سقطت من أوروبا منذ نحو قرن، حيث كانت عقائل الفرنسيين وفتياتهم يتخذن غلماناً يلسونهن ملابسهن، أما الآن فقد اقتصرن منهم على المزيّنين والضافرين عوضاً عن المزيّنات والضافرات.

(٢) هذا نسطور الحكيم يتدبر كل شأن، ولا يلهيه شيء عن شيء فهو بحنانه، يعطف على مجاريح الزعماء ويعني بأمرهم، وبناقب فكرته وسابق اختياره يتأمل في وسيلة لتفريج الأزمات ودفع النكبات. وهو على هرمه لا يقعه العجز والضعف عن خوض الصفوف وورد

الحتوف، فبعد أن أمن على حياة ماخاوون تدرع ببقية بأسه، واندفع اندفاع الفتى اليافع ولم يهله ثقل ترس ترسيميد ابنه فعدا به إلى الباب متطلعاً، ثم انطلق انطلاق المستبسل على ما — سنرى — كل هذا من بدائع متممات الخطة التي اختطها هوميروس لنفسه بأن يجعل الرسم مصداق المرسوم بكلياته وجزئياته.

(٣) لا صورة بين صور الطبيعة بجملتها أوقع في النفس من هذه الصورة؛ لوقوف الحائر المتردد بين أمرين قبل التعويل على أحدهما، فصدر المتردد أو فكره كبحر، اكفهر الجو فوقه قبل أن تعبث به الأنواء، فيريد ويسود مرتجاً غير متجه إلى وجهة معلومة إلى أن تهيجه العاصفة، فتجري به أمواجه على مجراها، وفي منظومات شعرائنا من وصف حالة المتردد الحذر شيء كثير كقولهم:

كريشة في مهب الريح ساقطة لا تستقر على حال من القلق

وقول مضر بن ربيعي:

كأن على ذي الظن عيناً بصيرة بمنطقه أو منظرٍ هو ناظره

يحاذر حتى يحسب الناس كلهم من الخوف لا تخفى عليه سرائره

على أنه ليس في شيء منها يقاس بتشبيه هوميروس.

(٤) المراد بالرشاش انهيار النصال إشارة إلى اشتداد القتال.

(٥) الكباش: الأبطال، أي: إن نسطور تردد بين أن يلحق بأغاممنون، وهو جريح كما مر بك في النشيد الحادي عشر، أو يقصد الجند حيث حمي وطيس الحرب فعول على اللحاق بأغاممنون كما سيأتي.

(٦) الجنات: التروس. والذباب: الحد.

(٧) لا ينسب أغاممنون كشفة قومه لضعف وعجز فيهم، أو لشدة وبطش في أعدائهم بل لامتناعهم عن الإبلاء حقداً عليه لتحامله على أخيل، وهو تخلص حسن من تبعة الفشل، وتصرف أحسن من الشاعر إذ يرسم حيناً بعد حين في ذهن المطالع عظمة أخيل وسمو مكانته.

(٨) يشير نسطور عليهم باعتزال القتال وتدبر الأمور في خلوة؛ لأنهم لما كانوا جميعاً جرحى كانوا أصلح لبث الرأي والتشاور منه لخوض ميدان القتال.

(٩) ليس في شعر فرسان العرب ما يشير إلى إبطار الهزيمة على الأسر، واستحسان الفرار في مثل هذا الموقف إلا أن يكون القول ممن وصف بالجبن، ولم تسبق له سابقة بخوض ميادين القتال، وأكثره على سبيل المجون كقول أبي دلالة:

أخاف على بطيختي أن تحطما ألا تلمني أن فررت فأبني
وجدك ما باليت أن أتقدما فلو أنني أبتاع في السوق مثلها

ومنه قول الآخر:

يقول لي الأمير بغير علم تقدم حين جد بنا المراسُ

ومالي إن أطعتك من حياة ومالي غير هذا الرأسُ رأسُ

وأما ما قيل في وجوب التروي وعدم محاولة المحال فكثير كقول

ورد بن زياد:

وإذا توعر بعض ما تسعى له فاركب من الأمر الذي هو أسهلُ

ومثله قول بعض بني الحارث بن كعب:

لعمرك ما صبر الفتى في أموره بحتم إذا ما الأمر جلَّ عن الصبر

وقول عمرو بن معدي كرب:

إذا لم تستطع شيئاً فدعه وجاوزه إلى ما تستطيعُ

وقول عمرو بن ضبيعة:

ألا ليقُل من شاء ما شاء إنما يلام الفتى في ما استطاع من الأمر

لما فتح نسطور باب البحث، كان من الحكمة أن يكون

أغاممنون أول خاطب فيهم، فشرع في التملص ثانية من تبعة الفشل

وألقاها هنا على عاتق زفس، ثم أبدى رأيًا لا يسعني مع كل إعجابي بشعر

صاحبنا أن أستحسن إيراده هنا، لأنه سبق له إبداء مثل هذا الرأي مرتين في النشيد الثاني والنشيد التاسع، فإن كل مراده التواري عن وجه العدو فهو غير جدير به وإن كان استجلاء ميل أصحابه، ففي ما مر ما يغني عن الإعادة، ولا أرى وجهًا لدفع ضعف القول إذا كان لا بد من دفعه إلا أن يكون قاصدًا أن موقف الزعماء مختلف هنا عن سابق مواقفهم؛ إذ كانوا قبلًا بعافيتهم وسلاحهم، وهم الآن مصابون بجراح برحت بأجسادهم وأنهكت قواهم، فهم أقرب إلى اليأس منه إلى البأس.

(١٠) قال لبید:

فبنی لنا بیتًا رفیعًا سمکھ فما إليه کهلها وغلأمها

ومثله قول السموأل:

وما قل من کانت بقایاه مثلنا شباب تسامی للعلی وکهل

وقال حاتم بن سحیم وأجاد:

ألا هل أتى أهل العراق مناخنا نقسم بین الناس بؤسی وأنعما

بأبيض معقود به التاج ماجد وفتیان صدق لا یهابون مقدا

ونضرب صندید الکتیبة فی الوغی وترکب أطراف الرماح تکرما

ومثله قول عمرو بن کلثوم:

نصبنا مثل رهوة ذات حد محافظلة وکنا السابقینا

بشبان یرون القتل مجداً وشیب فی الحروب مجربینا

وأمثال ذلك كثيرة.

(١١) قال النابغة الجعدي:

وإنا لقومٌ ما نعود خيلنا إذا ما التقينا أن تحيد وتنفرا
وليس بمعروف لنا أن نردها صحاحًا ولا مستنكرًا أن تعقرا

(١٢) أي: كله صفوة شجعان.

(١٣) الأغربة: جمع غراب. السفن والصخب الجلبة.

(١٤) لعل الشاعر وطأ بذلك الضعف في كلام أغاممنون لهذه الشدة في كلام أوديس، ثم لا تفوتن القارئ الحكم التي أنطق بها أوديس، ولم تكن تصلح لسواه، فكلهم مغوار باسل، ولكن شتان بين بسالة وبسالة، ففتاهم يندفع إلى القتال حبًا بالقتال، وكهلهم الحكيم كأوديس يتحمس حماسة الفتيان ولكنه يبيني كل أعماله على الحكمة والتروي، كما رأيت فلا يأمر بالتثبت إلا لعلمه بسوء مصير الإدبار في مثل ذلك الحين.

(١٥) كلمتني الأولى بمعنى جرحتني.

(١٦) قال أفستاثيوس: إن ذلك من قبيل عادة كانت لقدماء

الأثينيين؛ إذ كانوا لدى اشتداد الأزمت ينادي مناديهم فيدعو كل أبناء

الوطن من أي فئة كانوا ومهما كان سنهم إلى إبداء رأيهم بلا تكلف ولا محاذرة.

(١٧) يشير هوميروس في الشطر الأخير من هذا البيت إلى رواية كانت شائعة في زمانه، وهي أن تيزيس أبا ذيوميذ قتل أحد إخوته ثم غادر بلاده فاراً إلى أرغوس، على أن الشاعر لطف الهزيمة فعبر عنها بالجلاء وأغفل ذكر القتل على الإطلاق، وهو من لطيف تصرف الأبناء في ذكر مساوئ آبائهم، ثم جعل ذيوميذ ينتحل لأبيه عذراً في البيت التالي بإلقاء عبء الأمر على القضاء والقدر. قال ثوبة بن المفرس الخنوت:

تجوز المصيبات الفتى وهو عاجزٌ ويلعب صرف الدهر بالحازم الجلدِ

وقال ابن الرومي:

طامن حشاك فان دهرك موقعٌ بك ما تخاف من الأمور وتكره
وإذا حذرت من الأمور مقدراً وفررت منه فنحوه تتوجهُ

(١٨) لم يفت المتقدمين أن يخطئوا هوميروس على إدراج مقدمة لخطاب ذيوميذ، زعموا أنه لم يكن لها باعث؛ إذ كان كلهم عالماً بحسبه ونسبه، وهو لا شك أمر غريب لو جرى من شاعر في هذا العصر على أنه لم يكن منه بدٌ في تلك الأعصار، حيث كانوا يرددون ذكر أنسابهم ووقائع آبائهم وأجدادهم في كل حديث، فهي محط فخارهم

وفكاھتهم في كل مكان؛ سواءً في ذلك أكانوا في ساحة القتال أم في
مناضلة وجدال أو في مسامرة ومشاورة لا يكل راويها، ولا يمل سامعها
فكأنما غدوها مع اللبن فألفوها بل شغفوا بها، وهو شأن أكثر الأمم في
زمن جاهليتها وأبان شيوبيتها، ألا ترى أن شعرنا الجاهلي لا تكاد تخلو
منه قصيدة من هذه الأفاصيص وتلك الحماسة، وهذا شعر السموأل
والشنفري وأصحاب المعلقات وأمثالهم مشحونة بمثل هذه الحماسيات،
وإليك منها مثلاً من معلقة عمرو بن كلثوم:

ورثنا مجد علقمة بن سيفٍ	أباح لنا حصون المجد دينا
ورثت مهلهلاً والخير منه	زهيراً نعم زخر الذأخرينا
وعتاباً وكلثوماً جميعاً	هم نلنا تراث الأكرميننا
وذا البرة الذي حدث عنه	به نحى ونحى المحجريننا
ومنا قبله الساعي كليبٌ	فأي المجد إلا قد ولينا

ثم إن لذيوميد باعثاً آخر على إيراد نسبه، فإنه لما بدأ نسطور
فاقترح البحث وعقبه أغاممنون فأبدى رأياً لم يستحسنه أوذيس فاستأنف
أغاممنون الكلام، كان من الجدير به أن يستفز ذيوميد؛ لأنه شعر بميل
نسطور وأوذيس، ولم يعلم بعد ما يكون من ميل ذيوميد فتكلم وعرض
تعريضاً يشعر منه أنه يود أن يسمع رأي ذيوميد، وإلا فلم تكن ثمة حاجة
إلى قوله:

فليقم أيكم لا فرق إن كان غض العمر أو شيخاً مسن

ولما كان ذيو ميذ موقفًا بصحة رأيه، وإن كان أصغرهم وطأً لحديثه توطئة حسنة بالإشارة إلى سمو نسبه؛ ليكون كلامه أوقع في نفوسهم، فلا يأنسون الحطة من الاستكانة إلى فتى حديث السن، فقضى الشاعر فرضاً سامياً وتكلم بلسان الجميع، وأفاد المطالع فائدة كبرى؛ إذ أوضح له أنه لا يُستخف بالرأي الأصيل وإن كان صادرًا من غير أهله بين أهله، ذلك على حد قولنا: لا تنظر إلى من قال، وانظر إلى ما قال.

(١٩) لقد مرت بك أساليب وأعاجيب يتفنن الشاعر في تغيير المناظر واستهواء المشاعر تفكهاة لسامع شعره، واستجماعاً لأساطير زمانه، ووصف الخلق، والخلق وتميل العلويات والسفليات، وفي الجملة لوصف كل ما يدركه الحس وتشعر به المخيلة، على أنه ليس في كل إنشاده أسطورة أعجب وأغرب من الحكاية الآتية، وهي على ما فيها من دقيق التصور الذي تحار له الألباب لم تخلُ من انتقاد حساد هوميروس، ولكن غاية ما آخذوه به أن الرواية غير معقولة، فهي كثيرة الأغراب بمعانيها بعيدة الاحتمال، كأن سائر خرافات الأولين مبنية على النص المعقول، ومهما يكن من محل هذا الانتقاد وسواء كانت حكاية هيرا وبعلها زفس من مخترعات الشاعر، كما يزعم البعض، أو من روايات أزمان متقدمة على زمانه، كما ثبت في الأثر، فإن فيها فضلاً عن المحاسن الشعرية كنزاً من فلسفة الأخلاق وأثرًا تاريخياً لأمر كثيرة يعسر الاطلاع عليها في غيرها، ولا أظنني مخطئاً بجعلها على علاقتها في

المقام الأول بين كل أقاصيص شاعرنا غير مستثنى سوى وداع هكتور لامرأته في النشيد السادس.

(٢٠) قوله: أخاها، أي: فوسيد نصير الإغريق.

(٢١) كلمها بمعنى ألمها، أي: إنه لما أعيت الحيلة هيرا باستمالة زفس إلى جانب الإغريق، ويئست من إعلاء شأنهم بقوة السلاح عمدت إلى سلاح الضعيف، ألا وهو الحيلة التي يغل بها ذراع المرأة الضئيل عضلات سواعد الرجال.

(٢٢) الارتاج: الأبواب. والمزلاج: القفل.

(٢٣) جعلنا العنبر تعريب إمبروسيا (Αμβροπχ) لتشابه اللفظتين وتقارب مدلولهما، والكلمة اليونانية مؤلفة من كلمتين معناهما عديم الموت، أي: الخالد والأصل في استعمالها للدلالة على طعام الآلهة، لا يموت آكله ولو كان حيواناً كالخيل السماوية، ثم توسع في استعمالها للدلالة على طيب الآلهة، ومواد أخرى مما يستعمله بنو الخلد، ولعل للكلمة العربية علاقة باللفظة اليونانية لما بينهما من الشبه— يستفاد من هذا البيت أن عادة التطيب كانت مألوفة بين اليونان، وسترى من تطيب ملابس أخيل في النشيد الثامن عشر أنها لم تكن منحصرة بالنساء، وقد كان ذلك شأنها في جميع أمم الشرق، ومن أمثال سليمان الحكيم: «إن الدهن والبخور يفرحان القلب». وللعرب في الجاهلية والإسلام شغفٌ عظيم بالطيب وتفننٌ باستعماله. قال امرؤ القيس:

إذا قامت تَضُوع المسك منهما نسيم الصبا جاءت بريا القرنفل

وقال أيضاً:

وتضحى فثيت المسك فوق فراشها نثوم الضحى لم تنتطق عن تفضل

ومن قول المرار بن منقذ:

وهي لو يعصر من أردانها عبق المسك لكانت تعصر

وقال الأخطل:

كأنما المسك يهبو بين أرجلنا مما تَضُوع من ناجودها الجاري

والنساء البدويات في الجاهلية كن يتطين وتدّخر كل منهن قشوة طيب، وهي قفة من خوص تجعل فيها أدواتها وتحملها معها، وكانت الطيوب من مواد متنوعة؛ كالمسك، والعنبر، والمر، واللبان، والأفاويه العطرية مما يستورد من بلاد الهند، أو يستنبت في اليمن وأفخر طيوبهم الغالية، وهي مزيج من أنواع مختلفة، قال الأبيشهي في المستطرف: قال رسول الله ﷺ: «أطيب الطيب المسك». وعن عائشة رضي الله عنها قالت: «كأنني أنظر إلى ويبص الطيب في مفارق رسول الله ﷺ وهو محرم»، وذكر المقرئ: «إن خلفاء الفاطميين كانوا يصرفون لبعض رجال دولتهم مبلغاً من الطيب يومياً حتى يتطيوا به قبل دخولهم على الخليفة»، وأورد صاحب الأغاني أسماء بعض المولعين بالطيب كمحمد بن أبي العباس قال: «كان يغلف لحيته بأوراقٍ من الغالية، فتسيل على

ثيابه فتصير مسمرة، فلقبه أهل البصرة أبا الدبس». وروي عن ابن عباس أنه كان يطلي جسده، وكان ابن مسعود إذا خرج من بيته إلى المسجد عرف جيران الطريق أنه مر من طيب رائحته، وبلغ حب التطيب من العرب أنه جرت للبنات عادة بالوقوف للفتيان وبأيديهن الخلق، أي: الطيب يخلقنهم به، أي: يطيبهم عند رجوعهم من الغزوات.

(٢٤) ترى من وصف ضفر الشعر في هذين البيتين أنه لم يكن يختلف عنه كثيراً في أيامنا، وكانت نساء العرب في الجاهلية يجمرن شعرهن، أي: يجمعنه ويعقدنه في قفاهن، ويرجلنه، أي: يسرحنه ويضفرنه غدائر وذوائب، ولا يزلن يفعلن ذلك في البادية، ويغلب عندهن أن تستر المرأة شعرها بمنديل ونحوه. وأما العذارى فلا يحرجن على ستر الشعر بل كثيراً ما يبرزنه، ولا سيما القصّة وهي طرّة تقص من المفروق وتبرز فوق الجبين، وأحسن ما وصل إلينا من وصف شعر النساء بمثل ما وصفه هوميروس قول امرئ القيس في معلقته:

وفرع يزين المتن أسود فاحم أثيث كقنوّ النخلة المتعشّكل
غدائرها مستشزراتٌ إلى العلى تضل العقاص في مثنى ومرسل

قال: إن شعرها يزين ظهرها إذا أرسلته عليه، ثم شبهه بعذق النخلة؛ لأنّ ثائته وكثافته وربما أراد به فوق ذلك تجعده، وقال: إن غدائر ذلك الشعر أو ضفائره مستشزرة، أي: مرتفعة إلى فوق بما يفيد شداها كجاري عادتهن بخيوط على الرأس، وأن العقاص، أي: تقاصيب ذلك

الشعر تغيب في شعر بعضه مثني على الرأس وبعضه مرسل على الظهر لوفرتة.

(٢٥) هذه ربةٌ بل زوجة تتهياً لاختلاب لب بعلمها توصلاً إلى قضاء وطرٍ تسعى إليه، فهي إذن تبرز مستكملة لديه جميع معدات الزينة، ومع هذا فقد رأيت أنها بعد أن تطيت لم تتجاوز من الحلي الشنوف، ومن الكساء البُرد والبرقع والنطاق، مع ما فيها من الوشي والحاشية، ولا يزيد على ذلك إلا الخف الخفيف، ولو كان في ما يستحب من حلي النساء وملايسهنَّ شيءٌ فوق ما ذكر لما أغفل هوميروس ذكره، فيتضح مما تقدم أن بذخ المشاركة من البابليين ومن جاورهم، والمصريين ومن خالطهم من اليهود، وغيرهم لم يَفْشُ وبأوه في بلاد اليونان إلا في ما ولي عصر هوميروس، برزت هيرا عطلاً حتى من حلي بنات البادية الجاهليات، فما هي بالمتخمة بإصبعها ولا سوار في ساعدها، ولا معضد في معصمها، ولا حجل في رجلها، ولا خلخال، وليس في عنقها قلادة، ولا خزام في أنفها، ولا كحل في عينيها، ولا وشم في وجهها وصدرها ويديها، وليس لديها حجاب تجمع فيها حليها، وما يتبعه من أدوات الزينة، ولا يثقلها شيءٌ كثير مما كانت تتألق به بنات إسرائيل من الخلاخل، والأهداب، والأهلة، والنطفات، والأسورة، والرُّعل، والعصائب، والمصاعيد، والمناطق، وآنية الطيب، والأحراز، والخواتم،

وأحراس الأنوف، والخلع، والعطف، والمحازم، والأكياس والوذائل،
والأقمصة، والتيجان، والأزر (اشعيا - ٢٣).

ومما يستلفت النظر أن هوميروس لا يذكر المرأة كأن المرء لم
تشع بين اليونان إلا بعد حين، ثم انتشرت ذلك الانتشار العظيم في كل
صقع وناد، حتى لم يكن بخلو منها خدر ولا خباء في بادية العرب،
وتغنى بها شعراء الجاهلية، قال سويد بن أبي كاهل الإشكري:

تمنح المرأة وجهًا واضحًا مثل قرن الشمس في الصحو ارتفع
صافي اللون وطرفًا ساجيًا أكحل العينين ما فيه قمع
وقرونا سابقًا أطرافها غللتها ريح مسكٍ ذي قنع

(٢٦) عفرذيت: من أسماء الزهرة كما تقدم

(٢٧) لما كانت الزهرة إلهة الغرام استنجدتها هيرا لتقوى على
استدلال زفس بسطوته القهارة، غير أنها إذ كانت تخشى أن الزهرة تأبى
عليها ذلك إذا علمت أن المراد زفس انتحلت سببًا آخر، وما أمهر
النساء في انتحال الأسباب، فادّعت أنها إنما تريد التوفيق بين
الأوقيانوس وزوجته تيثيس.

(٢٨) ربا في البيت السابق: الأرض - تقدمت الإشارة إلى خلع
زفس لأبيه قرونس (ن ٨).

(٢٩) هذا نطاق الزهرة الذي كان يعتقد اليونان بتعجزات أفعاله

في الأفئدة، وهي أحبولة لم تخل من مثلها أساطير ملة من ملل الأرض، فإن المرأة ميالة بالطبع إلى اختلاب الألباب، فإذا عجزت بجمالها عمدت إلى مقالها، وإن أعيتها الحيل الأرضية لجأت إلى القوى السماوية، فكان ذلك سبب ابتداع طلاسم الغرام ورقاه وتعاويذه على اختلاف أنواعها من محمول وملبوس ومأكول ومشروب، وغير هذا مما استعمل منه العرب كسائر الملل شيئاً كثيراً، على أن أبدعها استنباطاً هذا النطاق الذي وضعه هوميروس على صدر الزهرة، فتناولته أيدي الشعراء من الخلف، ورامت النسخ على منواله، فقالت مثل قول هوميروس وغير قوله بلغات شتى وصور مختلفة: لا موضع لها هنا. وحسبنا إيراد استعارة بديعة لبوالو في منظومته «الصناعة الشعرية» إذ قال يمدح هوميروس:

**On dirait que pour plaire, instruit par la
nature, Homere ait a Venus, derobe sa
.ciculture**

ومعنا: كأن هوميروس وقد ثقفته الطبيعة استلب نطاق الزهرة؛

ليختلب به الألباب، فشتان على ما رأيت من خصائص هذا النطاق بينه وبين حوط الجاهليات، وهو النطاق الذي كن يتخذنه من خيط مفتول من لونين أسود وأحمر يضعن فيه شيئاً من الخرز، فيشدونه إلى وسطهنَّ حرزاً من إصابة العين.

(٣٠) تضاربت أقوال الشراح في ما حمل هوميروس على جعل مقر «الرقاد» بلمتوس، فمن قائل إن منابت الكرامة كانت كثيرة فيها، فكانت من ثمَّ جديرة أن تكون مثوى «الرقاد»، ومن قائل إن لمتوس كانت موطن معشوقة «الرقاد» فسيثيا فكان يأوي إليها حبًّا بها، ومن قائل إن ذلك وقع اتفاقاً بشعر هوميروس، وهو قول غير معقول بالنظر إلى سياق الحديث، ومن يعلم بعد ما تقدم أن هوميروس لم يقل ما قال تهكمًا على اللمنوسيين، وإن كانت ظواهر فعالهم تدل على بطش وإقدام، ومثل ذلك ما جاء في شعر أريوستو إذ جعل الملاك يجد «الشقاق» في أحد الأديرة. وقول بوالو في منظومته لوترين "Lutrin" إذ جعل مقر الترف في غرف منامة الرهبان بدير القديس برنردوس (بوب).

وأما القول بأن الرقاد أخو الموت فكثير في كلام الأقدمين، فمن ذلك ما روى بلوترخوس عن سقراط أنه قال: **O θανατος εστι** ومثله قول **πχραπλησιος τω υπνώ βαθυτχτω** فرجيليوس **et consanguineus Leli sopor ...** (لويفرفرست) قلت: وكل هذا بمعنى قول هوميروس ومثله قول العرب «الموت أخو النوم»؛ لأنه يشبهه في ركود الحواس، وقولهم: «نام نومةً بلا حلم» بمعنى قولهم مات. وعليه قول المعري: أراني الكرى أني أصبحت بناجد إلا أن أحلام الرقاد ضلالٌ

وبين الردى والنوم قربى ونسبةً وشتان برءً للنفوس وإعلالً

(٣١) كان معتقد اليونان أن منشأ كل شيء من الأوقيانوس، ومرجع كل شيء إليه، ولهذا دعوا البحر «الأب الأكبر» لأن أصل الكائنات سائل ولا بد من السائل لحياة كل مخلوق، فالجراثيمة الحيوانية سائلة والنباتات تغذي برطوبة الأرض والشمس والكواكب، وإن كانت باعتقادهم نارًا فهي تتغذى بالأبخرة المتصاعدة من الماء، ولهذا كان الماء أصل كل المخلوقات عندهم.

(٣٢) أتى الشاعر في مواضع شتى على ذكر مكانة الليل، وقال هنا: إنه حيثما حل ظلامه «هابه كل إله وبشر»، ولم يستثن حتى زفس كبير الآلهة؛ لأن الظلام كان باعتقادهم متقدمًا في وجوده على النور فهو جدير برعاية كل متأخر عنه، ولهذا كان زفس يرعى له حرمةً جريًا على سنة احترام الفتى للشيخ والحديث للقديم.

(٣٣) أرادت هيرا أن تخمد خشية «الرقاد» من زفس، فقالت: إن زفس لا يبالي بالطرواد مبالاته بهرقل؛ لأن هرقل كان ابنه فكان خليقًا به أن ينقم له، وأما الطرواد فلا نسب يدينهم إليه، فما هم حقيقون بتلك المبالاة ولا جديرون بتلك الموالاة.

(٣٤) البهجات أو الخرائد كائنات علوية تقدم ذكرهن ورسمهن (ن٥). وكان «الرقاد» هائمًا بإحداهن فأطعمته هيرا بها، ومن نادر الاتفاق أن لفظ (Χαριτες) اليوناني ولفظ الخريدة العربي واحد،

وذلك مع عدم وجود مسوغ للقول بأن أحدهما منقول عن الآخر، ومع ذلك فورودهما لمعنى متقارب في اللغتين مما يستلقت نظر الناظرين في التعريب؛ ولهذا أضفنا كلمة الخريدات هنا مع أن لفظة البهجات أكفى وأدل على المرام.

(٣٥) كان الآلهة إذا أقسموا بمياه الستكس، وهو نهر الجحيم كانت يمينهم أبر الإيمان، ولم يكتف «الرقاد» باستحلاف هيرا به بل رغب إليها أن تلقى إحدى كفيها على الأرض والأخرى على البحر استغلاظاً ليمينها؛ إذ تكون جميع الكائنات من جامد وسائر ومنظور وغير منظور شاهدة عليها، وما بعد تلك اليمين يمين مغلفة.

(٣٦) إن التكرار وإن كان مكروهاً فله هنا وقع لطيف، فإن هيرا لما بلغت ذكر معشوقة «الرقاد» أخذت بمجامع لبه، فأراد أن يستوثق من جهة بصحة أحلامه، وأن يتلذذ بذكرها من جهة أخرى غير مبال بما وعدت هيرا من عرش ومدوس ولا مكترث بعد هذا الوعد بوعيد زفس ولسان حاله يقول قول ابن الفارض:

أعد ذكر من أهوى ولو بملامي فإن أحاديث الحبيب مداми

(٣٧) الشيطان أبناء أورانوس وجيا (أي السماء والأرض)، ومن جملتهم يافت وهيفريون وقرونوس (زحل) أبو زفس. تألبوا بزعامة قرونوس على أبيهم أورانوس فخلعوه ثم كان بينهم وبين قرونوس خلاف أدى بهم

إلى محاربته، وكادوا يظفرون به لو لم يقيم زفس ويشد أزره، فظفر بهم وطرحهم في وادي الظلمات.

(٣٨) قال الشاعر: إنهما طارا، ثم قال: إن فروع الغاب، قلقت: ترتج من وقعهما. قال أفستاثيوس: إن الشاعر لم يرد أنها ارتجت لوقع أرجلها عليها بل حرمةً وتهيباً لإلاهين عبرا فوقها.

(٣٩) الجرد: الخيل — كان زفس قد علق بحب هيرا، فاجتمعا خفيةً ونار الغرام مستعرة في فؤاده، فلما اتخذها زوجة لم يكن بدُّ من انطفاء تلك الجذوة على توالي الأيام، ولكنها عادت هنا فاضطربت بفضل نطق الزهرة، ولهذا تغاضى عن إقبالها عليه بلا استئذان، وكأنه أشفق أن لا تأتيه على مركبتها السماوية فبادرها بالسؤال عن خيلها.

(٤٠) ليس لفرسيس هذا ذكرٌ في غير هذا الموضع من الإلياذة، ويظهر من نعته بفرد الزمن أنه كان ذا شهرة طائرة في زمن هوميروسن فهو على رواية مؤسس مملكة ميكينا نحو سنة ١٤٣٠ ق.م. وهو صاحب فيغاسوس الفرس الطيَّار الذي ركبه بليروفون إذ سبق لقتل الحميرة.

(٤١) ذيون اليونان هو باخوس الرومان إله المسكر. انظر رسمه ١

(٤٢) ذيميتير اليونان هي سيريس الرومان إلهة الزراعة. انظر

رسمه ٢



محاربة زفس لليطان وهو يرميهم بصواعقه.

(٤٣) لا أرى في الشعر تصورًا أجمل من مفاد هذين البيتين،
ولعل بيتي الصاحب بن عباد لا يقصران عنهما كثيرًا بقوله:
أقبل الجو في غلائل نور وتهادى بلؤلؤ منشور
فكأن السماء صارت الأر ض فصار النشار من كافور

(٤٤) تلك رواية تناول هوميروس جرثومة خبرها عن السلف من
المصريين واليونان، وشاد عليها بناءً شامقًا رصعه بزخرف تتقاصر عن
ابتداعه مدارك كل شاعر سواء، وكأني به قد آلى على نفسه أن يثبت أن:
«التي تهز السرير يمينها تهز العالم بيسارها»، وأن يبين مواطن الضعف
من الذكور ومواضع القوة من الإناث والوسائل التي تتذرع بها النساء؛
لبلوغ مآربهن واستدلال رجالهن، فكأنه يقول إذا دان كبير الآلهة صاغراً
لزوجته، وما هي بالزوجة الوحيدة فما قولك بوحدان البشر كبارهم
وصغارهم.

كانت هيرا جانحة بكليتها إلى نصرة الإغريق وقد سدت السبل
في وجهها لما كان من ميل زفس إلى الطرواد، فلم يكن لها بد لبلوغ
أمنيتها من إحدى ثلاث؛ إما أن تقوى عليه وهو صاحب الحول والطول،
وإما أن تفحمه وهو رب الحجة والبرهان، وإما أن تصيب منه غفلة
فتأخذه على غرة وهو الحذر اليقظ. فتخيرت الخطوة الثالثة على بعد
شقتها لعلمها أن عامل الجمال إذا غشي بصر الحكيم وأنفذ فيه سهم
الغرام غشي على بصيرته فتمكن منه الغفلة والذهول.

فقامت لساعتها وأخذت تتأهب تأهب الواصل بالفوز المبين. ومن
ثم أخذ الشاعر يصف دقائق حركاتها وسكناتها بما يجب أن يتخذ عبـرة
للمعتبرين والمعتبرات. عمدت إلى التبرج والتزين فانفردت إلى عزلة لا
تنفذ إليها أنظار إنسي ولا جني. وأوصدت باب حجرتها بمزلاج لا يرمقه
بصر غير بصرها كأنه أراد أن يقول: إن الحياء زينة النساء فمن قامت
منهنَّ إلى إعداد زينتها فلتحتجب عن الأبصار، وإن الرجال أشغف ما
يكونون بالنساء إذا برزن لهم بثوب الاحتشام.



فرسيس: والفرس الطيار.

والتهتك يطفئ جذوة الغرام، وليس للمرأة أن تحقر قدر التزين
لزوجها فإنما زينتها وحليها له لا لسواه، وهي عظة حسنة للواتي يتبرجن
ويتبرجن لكل رجل غير رجالهنَّ كأن الزوج غير خليق بالنظر إلى حلاوة
امراته وحليها ما لم يتوسل إلى ذلك بوجود قريب أو غريب، ولما خرجت

هيرا بذلك المظهر البديع وعلمت أن لها به درعاً، ولا درع الفولاذ الصلب بقي عليها أن تتقلد السلاح الذي تقاتل به بنات جنسها، فمالت إلى الزهرة وسألتها أن تلقي إليها شيئاً من الرمن «نطاق الغرام» وانتحلت لذلك سبباً يتسار به النساء ويساررن به رجالهن، وهو الكلام في شقاق الأزواج، ولم يكن لهيرا أن تختلق سبباً أوقع في قلب الزهرة وزفس من ذلك السبب فادعت أنها راغبة في التوفيق بين «الأوقيانوس وامراته»، فأمنت غيرة الزهرة؛ إذ لم يكن لها حاجة بذلك الشيخ الهرم ودرأت شبهة زفس؛ إذ كان يعلم بصحة ذلك الخلاف، وأن لهيرا مأرباً حقيقياً في إزالته وفاءً بجميل سابق لذينك الزوجين عليها.

وإن لنطاق الحب هنا فضلاً عن بدائع محاسنه مزيةً أخرى يجدر بنا التنبيه إليها، وهي أن الشاعر جعله تكملة لمحاسن المرأة، إذ لا يكفي أن تكون حسنة البزة جميلة الخلق، بل لا بد أن تكون على خلق تسترق به قلب الرجل وأن لا تحفر مجاملته بلين القول، شأن اللواتي يترفعن عن التودد إلى رجالهنَّ خوفاً من أطماعهم بهن أو طلباً للتخفيف من سلطتهم عليهنَّ، ويغيب عنهن أن مكانن الأحقاد وراء الكلام الخشن وعذب المقال يزيل الضغائن من صدور سليطات النساء وظلام الرجال.

ولما استتمت هيرا معدات الهجوم والدفاع، وأيقنت بالفوز صرفت همها إلى بلوغ وسيلة تمكئها من التلذذ بشمرتة، فسعت إلى «الرقاد» علماً منها أن زفس لا تؤخذ غرته إلا إذا هجع، فلم تزل بالرقاد

حتى استمالته كما مر بك ولم تأت زفس إلا وقد تمهدت لديها جميع
العقبات.

ولما ظفرت بالتسلط على مجامع لبه وأفضى الأمر بينهما إلى
المداعبة أظهرت وأظهر من حب التستر ما يجب أن يكون أمثلة لذوات
البعولة وذوي الزوجات، الذين قد يتجاوزون آداب المجاملة أمام
الأجانب فيتعدون حرمة المحاسنة إلى التداعب ويثبون وثبة واحدة من
كثرة الأدب إلى قلة الأدب. وأما ما يراه بعض الشراح من المغازي
الرمزية في هذه الحكاية فلا أحب أن أجهد النفس في البحث فيه بل لا
أحب أن أراه، فخيرٌ عندي أن أرى زفس، وهو أبو الأرباب قد بسط
ذلك الفراش الوثير من نبات الأرض الفياح وأسبل من فوقه تلك الكلة
الشائقة من غمام النضار يتساقط من أكنافها حباب القطر، كحبوب الدر
من أن أسعى وراء خيال تراءى لهم في مخيلاتهم، فقالوا: إن زفس ممثل
الرقيع وهيرا ممثلة الهواء، فلما اجتمعا أخرجنا نبات الأرض وفقاً
لمعتقدهم، فإن التوجيه حسن لو كان بنا حاجة إليه، ولو كان في رقة
المعنى الظاهر، وما يحتاج معه إلى التأويل والتخريج وقس على ذلك
سائر ما تأولوه مما يشوه محاسن الرواية.

(٤٥) لما قضى «الرقاد» مهمته، لم يبق محل لبقائه في
المعسكر، ولهذا قال الشاعر: «ثم جد السير يسعى في الورى»؛ لأنه لا
محل للرقاد في ساحة الكر والجلاد، ولم يكن فوسيد ليحسر أن يندفع

في صدر الإغريق وزفس في يقظته، فانتهاز فرصة تلك الغفلة من زفس لمعاوضة هيرا على قضاء لباتنها فتصدر في الجيش، ومع ذلك فإنه لم يقاتل بنفسه وانحصرت مؤازرته بالحث والتحريض كما سنرى.

(٤٦) الجنات: التروس تلك حكمة بإلقاء التروس الكبيرة والسلاح الثقيل لدوي البأس والقوة، خصوصاً أنه كان من شرعهم أن يعاقب الجندي الذي يرجع بلا ترس، وأما الذي يلقي عنه سيفه ورمحه، فلا عقاب عليه؛ ذلك لأنهم كانوا يؤثرون وسائل الدفاع على وسائل الهجوم، ويقدمون حفظ النفس على قتل العدو. قال كثير:
على ابن أبي العاصي دلاصٌ حصينة أجاد المريء نسجها وأذالها
يود ضعيف القوم حمل قتيورها ويستطلع القرم الأشم احتمالها

والدلاص: الدرع. والقتير: مساميرها.

(٤٧) حيثما أورد الشاعر ذكر هكطور فإنه قرن ذكره بالبسالة والإقدام، وتفنن بوصفه بالتشابه والاستعارات والكنائيات؛ ليرفع مقامه في نظر السامع والمطالع، ولكنه ذكره هنا ذكرًا بسيطاً فجعله في مقدمة الطرواد بمنزلة فوسيد بمقدمة الإغريق، أي: إنه جعله قريباً لرب قهار، فكان هذا الذكر البسيط أبلغ وصف لبسالته في كل الإلياذة، وفيه توطئة للمغالاة بقوة ساعد إياس الذي كاد يظفر بهكطور على كونه بتلك المثابة العليا.

(٤٨) انتقل الشاعر من مظهر ترف وسكون إلى مظهر شدة وجلبة فغير اللهجة، كجاري عادته تنبيهًا للسامع قبل الإتيان على مشهد الحرب، فأخذ يكثر من التشابيه المتوالية كما سنرى، أما اصطفاق البحر عند اصطدام الجيشين على ما ذكر في هذا البيت فقد قال أفستاثيوس: إنه إنما كان معجزة بقوة فوسيد رب البحر فإن أمواجه تلاطمت هيبَةً له.

(٤٩) أي: إنه بجانب عج الجيشين لم يكن عج البحر شيئًا مذكورًا، ولا زهزمة النيران المضطربة ببطن الغاب على رءوس الجبال، ولا عصف الرياح المتلاعبة بالشجر، فجمع بهذه التشابيه الثلاثة بين الماء والنار والهواء.

(٥٠) أي: إنه أخذ حجرًا من الحجارة المتبعثرة في تلك الطرق.

(٥١) الوغد: الولد. واللعب بالدوامة، وهي الفلكة يرميها الصبي بخيط أو بغير خيط، فتدوم على الأرض، أي: تدور على نفسها وهي من أقدم لعب الصبيان. ويقال: لها بلغة عامة سوريا البلبل وتسمى بمصر النحلة.

(٥٢) المراد هنا اقتلاع الملولة، أو تحطيمها بالصاعقة، يُعلم ذلك من ذكر الكبريت والرائحة الصاعدة في البيت التالي.

(٥٣) يريد أن يقول: إن رمحي بات موكنًا يتوكأ عليه القتيل، إذا انحدر إلى الجحيم وظاهر المراد من هذه العبارة أن الرمح أصاب كاهله

فاخترق البدن وبرز من الجهة الأخرى، ولا يخفى ما في قول الظافر هذا من التهكم والتشفي.

(٥٤) أي: الرمح.

(٥٥) ابن أريليق: هو أفروثونور القتييل الإغريقي.

(٥٦) حذاف النبال: تعريب (ιομωρος) وهي لفظة مركبة من كلمتين، فالفريق الأكبر من المترجمين يجعلها مؤلمة من ιος وμωρος فتكون بالمعنى الذي عربناها به، ومنهم من يجعل اللفظ الأول منها مأخوذاً من (ια) بمعنى صوت، فيكون معناها حينئذٍ ذوي الجلبة والصوت المرتفع، وهي على كلا الحالين كلمة قذف؛ لأن المقاتلة بالنبال أخط شأناً، وأدنى بأساً من المقاتلة بالسيوف والرماح، أما وجه السباب في المعنى الثاني فواضح.

(٥٧) أي: أفما كل منكم يروم أن يكون له من يأخذ بثأره إذا قتل، كما أخذت بثأر أخي أرخيلوخ.

النشيد الخامس عشر الواقعة الخامسة وبسالة آياس

مُجْمَلُهُ

تجاوزت الطرواد حد الخنادق يصلمهم فيها حسام الأغارق

فاستيقظ زفس وعلم أن حيلة هيرا قد جازت عليه، فانهال عليها بالتقريع والتوبيخ، فادعت أن فوسيد نكل بالطرواد منبعثًا بمجرد هوى نفسه، فأمرها باستدعاء إيريس وأفلون وإنفاذهما لاستنهاض الطرواد، فرجعت إلى السماء وأطالت على مسمع الآلهة شكواها من زفس، وأنبات آريس بما كان من موت ابنه عسقلاف، فهاج آريس وماج فثيتطته آثينا، وطار أفلون وإيريس إلى إيذا عملاً بأمر زفس، فبعث بإيريس إلى حومة الوعى تتوعد فوسيد، فاضطر إلى مغادرة ساحة القتال وعاد أفلون بهكطور مستعراً بالغیظ والبسالة بعد أن بسط أفلون مجنه أمام الإغريق وهد قلوبهم بمنظره، فانقضت الطروادة على الإغريق وذبحوهم ذبحاً، فالتوى الإغريق إلى معسكرهم وتقدم هكطور بجيشه يصحبهم أفلون، فاجتازوا الخندق ووقع الرعب في قلوب الإغريق فتضرع نسطور إلى زفس فأرعد وأبرق، فتفاءل الطرواد بذلك، وما زال هكطور متقدماً بفيلقه حتى بلغ السفن. وكان فطرقل يشهد كل هذا من مضرب أوريفيل فجداً

مسرعًا إلى أخيل يستنهضه ليفرغ لقومه، وقام الإغريق فقاتلوا قتال
الأسود على أنهم ما لبثوا أن اضطروا إلى الهزيمة فانشى آياس بنزر من
صحبه وثبت أمام الطرواد، واشتد القتال ثانيةً فخرت الأبطال من
الفريقين، وحال آياس دون بلوغ الطرواد سفن قومه، وهم هكطور بإحراق
السفن وكان يبلغ منها مأربه لو لم يقف آياس فيصد الأبطال ويجندل
الرجال.

لا تزال وقائع هذا النشيد في اليوم الثامن والعشرين.

النشيد الخامس عشر

تجاوزت الطرواد حد الخنادق	يصلهم فيها حسام الأغارق
وحول العجال استوقفوا وتألّفوا	برعدة مدعورٍ وصفرة خافق
ومن طور إيذا هبّ زفس ودونه	صفيته هيرا فهاج ظنونه ١
وألفت والإغريق أبصر عقبوا	عداهم وفوسيد بطن الفيالق
وأبصر هكطورًا به القوم أحدقا	ومن فيه سيّال النجيع تدفقا
على الترب ملقى خامد الحس خافقًا	وما صرعه كف أضرع خافق ٢
فهزت أبا الأرباب والناس رافة	ولاحت لهيرا منه بالغيظ نظرة
وقال: «نعم هكطور مكرًا أبنته	عن الحرب فارتاعوا لقرع المخافق
تحدثني نفسي أهيل عقوبتي	فتجنين قبل القوم عقبى الخديعة
أفاتك أن علقت قبل مهانةً	لبل رقيع الجو بين البوارق

يداك وسندانان في أخمص القدم
 وهل كان من يوليك نصرة شافق
 من السدة العليا صريعاً إلى الثرى
 أنلت هرقلاً في السنين السَّوابق
 تقاذفه الأنواء فيها منكلاً
 لأرغوس مَمْنُوءاً بأدهى البوائق ٣
 مخاتلتني فيما ابتغييت بجاني
 فليس بمغنٍ عنك مكر المنافق
 «يمينا عليّ الأرض تشهدُ والسما
 يمين لنا لم يأتها غير صادق
 يكن قسمي إلّا إذا أثقل القسم ٤
 فما كان مبعوثي ولا كان لاحقي
 لجيش لدى أسطوله قد تدعراً ٥
 لحيث قضى زفس مثير الصواعق»
 بني الخلد لو رأيي ارتأيت مؤبداً
 لأذعن وانقاد انقياد الموافق
 لمؤتمر الأرباب ألقى أوامري
 وفيوس هيال النبال الذوالق

وغلت بصلد القيد من عسجد القدم
 وآل العلى حوليك ذلوا وأشفقوا
 ولو فعلوا ألقيت أيهم اجترا
 وما كان هذا خافضاً غضي لما
 به رمت سوءاً ثم أهبيت شملاً
 وأحللته قوصاً ومنها أعدته
 ألا ادكري تلك الشئون وجاني
 برحت مقام الخلد تشجينني جوًى
 أجابته هيرا تقشعر تظلماً:
 وتحتهما إستكس يشهد يُمّه
 ورأسك والعقد الذي بيننا ولم
 لئن سام فوسيد الطراود ذلةً
 وما ساقه إلّا فؤادٌ تفتطرا
 فمرني فأمضي بالبلاغ فينشي
 فهش لها زفس وقال بمنتدي
 ففوسيد مهم كان من نزعاته
 فإن كنت أخلصت المقال فبادري
 فتحضر إيريس الرشيقة عاجلاً

فأنفذ إيريسًا لفوسيد مبلغًا
وفيبوس هكطورًا يسكن روعه
فيكتسح الإغريق بكساحم إلى
ويرسل فطرقلًا فيفتك فيهم
ويجتاح سرفيدون قري ويقحم
فيطعنه هكطور طعنة قاتل
ويقتل هكطورًا ومن ثم تلبث
إلى حين آثينا تتيح بحذقها
على أنني ما دام آخيل لم ينل
ولست براصٍ أن يقوم برفدهم
بذلك قد عاهدت ثيتيس عندما
لإعزاز آخيل دعتني ترفقًا
فلبته هيرا واستطارت بلحظة
كفكرٍ يجوب الشرق والغرب طارقًا
وأمت سراة الخلد في منتداهم
فمذ أبصروها جملةً نهضوا لها
أبت رشف هاتيك الكئوس وإنما
فتلك إليها سارعت مستقصّة:
فلا غير زفس راعك اليوم غاضبًا»

إلى يمه يأوي ويطرح الوغى
ويوليّه حزمًا لاختراق الحزائق ٦
أساطيل آخيل فيشفق للبلأ
ويدمي وصمي في لباب الغرائق ٧
ويبطش للأسوار يصمي ويهزم ٨
فينهض آخيل بهبة حانق
أخاءة في الطرواد تعشو وتعبث
لهم فتح إليون بحكمة حاذق
مناه فلن أولي الأغارقة الأمل
من الخلد قوأم بتلك المضايق
ترامت ومست ركبي تظلما
فأومأت بالإيجاب إيماء رافق ٩
إلى قمة الأولمب من طور إيذة
بلادًا وفيه ذكر تلك المطارق ١٠
بمربع زفس في سمو علامهم
وقارًا وحيًا بالكئوس الدوافق
لكأس ثميس الحسن مالت تكرمًا ١١
«أرى جئنا في غصة المتضايق
فقال: «دعي عنك التحري جانبًا

عرفت عتوًا شأنه وصلابةٌ
وفي أدبة الأرباب مجداً تصدري
أمورٍ قضاها أزعجت كل آدبٍ
ومن ثم حلت عرشها ولفيفهم
فهشت ولكن عن جبينٍ مقطبٍ
وقالت وجمر الغيظ ميزها: «فوا
وأحمق منه زعمنا خفض جأشه
ولكنه في عز عزلته ولا
وأن له بالبطش فيكم سوابقاً
فهذا أريسٌ قيم الحرب نابيه
أعز البرايا عسقلاف سليله
فهب أريسٌ ثائر الجأش لا طما
«أيا معشر الأولمب لا تلحونني
سأنزل لو صم الصواعق تنزل
وأوعز للهول العظيم ورعدةٍ
وشك بيزراق السلاح ولو مضى
ولكن أثينا من على عرشها انبرت
وهبت إلى تلك التريكة تقتلع

فعودي إلى بسط الطعام الشوائق
أبثكم من خبره شرَّ مخبرٍ
من الإنس والجن الكرام المعارق
تألم من زفسٍ وزفسٍ مخيفهم
على سود أجفانٍ بحمرٍ الحمالق
حماقتنا في كبح زفس وما نوى
بمأزق بأسٍ أو بقول مما ذق
ييالي ادعاءً أنه فوقنا علا
فذوقوا نكالاً عاديات اللواحق
مصائبٍ وما أدراكم ما أصابه
صريعٌ وما أغناه ظهر اليلامق» ١٢
بكفيه فخذيه يولول ناكما:
إذا ما لثأر ابني أثرت مرافقي
وفوق خضيب الترب صعقاً أجندل»
ياعداد هاتيك الخيول العتائق ١٣
لأرعد زفسٌ في الألمب وأومضا
إليه تلافي هول تلك الطوارق
عن الرأس والجوب المحدث تنزع

وعامله الجياذ من صلد كفه
«تعست وما أغواك هل فاتك النداء
أغادرك الحس المنبه والحياء
ألم تفقه الأنباء هيرا بها أتت
أشاقك أن تمضي وقد هذك البلا
وتدفع زفسًا للألمب معضاء
فيحطمنا حطمًا وما هو بيننا
فجأشك خَفَضَ واكظمنَ فكم بطل
وهل من سبيلٍ دافعٍ غصص الردى
فأجلس مرغومًا وهيرا بحقّة
ونادت أفلونًا وإيريس خارجًا
وزفسًا بأعلى إيذة الآن وافيّا
وعادت وحلت عرشها فتسابقا
فما لبثا أن أدركاه بأنور
وما غيظ أن جاءاه إذ لبّيا ندا
فقال: «أأريس الرشيقة فاسبقي
وقولي له عن موقف الحرب ينشي
فإن لم يرد إلا اتباع مراده
فليس بكفنى ما استطال فإن لي

أماطت تريه شر تلك المزالق: ١٤
وأصممت واخترت الهلاك المؤبدا
وأصدق نطقٍ قاله خير ناطق
ومنذ يسير زفس بالنفس غادرت
وترجع موقوذ الخطوب النواعق
وعن جملة القومين أغضى وأعرضا
إذا ما اقترفنا أو برئنا بفارق
من ابنك خيرٌ جندلته ظبا الأسل
عن الخلق ما امتدّت حياة الخلائق»^{١٥}
من المجلس انسابت لموقف عزلة
وقالت: «ألا سيرا بحقّة بارق
يلقنكما الأمر الذي كان خافيّا»
لإيذة في جهد الكدود المسابق ١٦
ذرى غرغروسٍ في غمامٍ معنبر
صفيّته هيرا ياذعان واثق
لفوسيد بالأنباء مني واصدقي
لشورى العلى أو يمه المتلاصق
ليفكر بما يوليه شر عناده
مزية بكر بالمكانة سابق ١٧

ولكنه ما زال يطلب إسوتي
فلبت وطارت في قضاء بلاغه
ومن طور إيذا كالعواصف هبت
كما انهال غيث الثلج والبرد الذي
وفوسيد نادى: «يا محيط العوالم
فيأمر أن تأبى المعامع لاحقًا
فإن لم ترد إلا اتباع مرادكا
فإياك والعصيان إنَّ له سمت
وأنت على هذا المساواة تزعم
فأن أنين السأم ثم أجابها:
أيزعم إرغامي وقد ضمنا النسب
رياً أمنا طرّاً وثالثنا غدا
ثلاثة أقسامٍ جميع العوالم
فإن أديس ظلمة الموت قسمةً
وزفس له الأفلاك والغيم والسما
فإن ذرى الأولمب والأرض بيننا
فمهما سما بأساً ومجدّاً وسؤددا
ليطبق على أنبائه وبناته

وإن قلق الأرباب طرّاً لخشيتي»
مصفقةً مثل الرياح الصوافق
وما لبثت أن ثغر إليون حلت
به الريح هبت من غيوم غوادق
أتيتك من زفسٍ بأنباء صارم
بشورى العلى أو لجك المتلاحق
سيأتيك مقتصاً لشر عنادكا
مزيّةً بكرٍ بالمكانة سابق
وإن أكبر الأرباب طرّاً وأعظموا»
«لئن ساد خلقاً فهو فظ الخلائق
ثلاثة إخوان لنا إقرنوس أب ١٨
أديس ولي الموت بين الودائق ١٩
قسماً اقترعاً بالقдах الرّواغم
وفزت ببحرٍ مزبدٍ اليم دافق
ليهناً قريـر العين فيها معظماً
مشاعٌ فلا ألوي له جبل عاتقي
فلمست بمرتاعٍ ولا أبسط اليداً
يدينوا ويرتاحوا ارتياح المطابق»

أجابت: «وهل هذا المقال أقوله
تحامقت لكن ذو الحصافة يرعوي
وللسن فضلٌ فالموارد سرمدًا
فقال: «نعم بالحق فهت وخير ما
سأدعن كرهًا لآعج الغيظ مكمنا
ولكنَّ لي قولًا بقلبي أقوله
على رغم فالاسٍ وهيرا وهرمس
إذا صان إليونًا وصد عداتها
وأقلع يبغي لجّة البحر فاستعر
وزفس لآفلون قال: «ألا إذن
ففوسيد في بطن العباب قد التجا
والا لأهمت فاتكات أكفنا
وكان اصطدامٌ بالعوالم يحدق
فيا نعم مسعاه له ولعزّتي
وهج جويي المزدان في حلق الذّهب
وملّ نحو هكطورٍ فشده يندفع
فإن تم هذا كله سوف أنظر
فلبّي أفلون وطار كباشق
فهكطور ألقى جالسًا وقد انتعش

له علنًا أو هل لديك بديله
وينبذ عنه خلّة المتحامق
حوارس بكرٍ أحرز السبق مولدًا» ٢٠
يكون رسولٌ عالمٌ بالحقائق
لكبر إلهٍ لم يكن فوق ما أنا
فعيه إلى يوم انبتات العلائق:
ورغمي وهيفست الملي المرأس
سنفتق فتقًا ليس زفس براتق»
لمنآه أبناء الأحاء على الأثر
لهكطور طرّ في مثل لحظة رامق
ومن نار غيظي في حزارته نجا
بنا عرفا يهمي به كل عارق ٢١
ويزعج أرباب الجحيم ويقلق
فإنّا كفيّنا فلق تلك الفلائق ٢٢
فلا يبق في الإغريق الأمن ارتعب
وراءهم للفلك خلف الخنادق
بأمرهم فيما عساي أقدر»
على الورق منقض بشم الشّواهق
يحاط به والرّشح جفّ وما ارتعش

رعاية زفسٍ أسكت زفراته
«علام ابن فريام بجهد التقاعد
أبرح فيك الغمُّ قل» فأجابه
«أيا خير ربِّ جاءني الآن يسأل
أياس وقد أقبلت أذبح قومه
فغيب إحساسي فضاقت نفسي
فقال أفلون: «اطمأن وطب وثق
أنا فيبس رب الحسام المذهب
فكم صنت إليونا وصنتك فامثل
أثر جملة الفرسان بالخيال يقبلوا
أمامكم أجري أمهد سبلها
أفلون هاتيك العزائم مانح
كمهر عتي فاض مطعمه على
ويضرب في قلب المفاوز طافحاً
يروض فيه إثر ما اعتاد نفسه
ويشمخ مختالاً بشائق حسنه
وتجري به من نفسها خطواته
كذا كان هكطور بنصرة فيبس

فقال أفلون بلهجة وامق:
أمثلك من يوهيه جهد المجاهد
بصوت خفيف الجأش خافي المناطق:
فمن أنت قل هل كنت أمري تجهل
بجلمودة كالطود أقبل راشقي
وأيقنت أني زائر دار آدس» ٢٣
فرفس إليك الآن بالبشر سائقي
فهل بعد ذا ترتاع من هول مضرب ٢٤
وهب لإعمال الطعان الموارق
على موقف الأسطول والسيف يعملوا
وأهزم أبطال الأخاء البطارق»
وهكطور للإبلاء والحرب جانح
مرابطه يبتها وهو جامع
إلى حيث وجه الأرض بالسيل طافح
ويطرب أن تبدوا لديه الضحاح ٢٥
يطير وأعراف التواصي سوايح
إلى حيث غصت بالحجور المسارح ٢٦
يسوق سرى فرسانه ويكافح

كأن كلاب الصَّيد والصَّيد أقبِلت
وقاه ببطن الغاب جلمود صخرة
فأقبل في إثر الصديد غضنفر
كذا كانت الإغريق خلف عداتها
فلما بدا هكطور في حومة الوعى
فهب ثواس الفضل من زانه التَّهى
ثواس الذي ما بالإتولة عده
وما فاقه بين السَّراة بلاغة
فصاح: «أجل ربَّاه لاح لناظري
حسبنا أياس اجتاحه بصفاته
فثم إله صانه لتروعننا
فهاكم سداد القول فأتَمروا له:
ونحن أولي العزم الصحيح نصده
فمهما عتا واشتد ظني يرعوي
أصاخوا ولُّثوا واسجاش أولو العزم
وحول أياس استبسلوا وإذومن
بصد العدى آلوا وأعراض قومهم
وأبناء طروادٍ تكثَّف جيشهم
ومن دونه فيوس وسط غمامة

على سخله أو إيلٍ وهو سارح ٢٧
وما خطَّ في الأقدار يصميه ذابح ٢٨
فولَّوا ولم تغن النفوس الطوامح
بسمِرٍ وببيضٍ باتراتٍ تكاشح
بهم قلقَت رعبًا تجيش الجوانح
ونطقٌ فصيحٌ بالحصافة راجح
إذا هو بالبتَّار أو هو رامحُ
سوى التَّزر إن فاضت تسيل القرائح
عجابٌ فذا هكطور ذو البأس لائح
فها هو وافى تنقيه الجوائح ٢٩
به مثلما قبلاً عرتنا المذابح
لتمض إلى الفلك الجموع الجوامح
عسى في عوالينا له اليوم كايح
وتتنيه عن خرق الجيوش الجوارح»
يعبُّون أبطال المقاتلة البُهم
وطفقير مريونٍ وميجيس ذي الحزم
مضت تتوارى فوق لفلكهم السُّحم ٣٠
رصيًّا وهكطورٌ يحثُّ خطى العظم
يعد مغازي ذلك الفيلق الدهم

وفي يده الجوب المروع الذي بدت
هي الجنة الكبرى لزفس أعدها
تكاثفت الإغريق يلتف جيشهم
طعان مضت عن كل ساعد أيهم
فمن نافذ في صدر كل مدجج
ومن ناشب في الثرب قبل بلوغهم
تساوت مرامي الطعنوا الفتك ما استوت
ولما على الإغريق فييوس هاجها
تخلعت الأحشاء في مهجاتهم
كأنهم الأبقار والضأن أجفلت
فتذهب أشتاتاً وفي كل مهمة
وفييوس في أعقابهم دافع العدى
فهكطور إستيخيسا كر قاتلاً
وثنى بأركيسيل عد منستس
(مدون بن ويلوس لغير حليلة
بها ظل في منفاه مذراح قاتلاً
وثنى بياسوس بن إسفيل بوفيل
وفوليدماس اجتاح ميكست صادراً

حرايه من تحت هدايه الضخم ٣١
هفست لإرعاب الخليقة والنقم
وفي ملتقى الجيشين عج إلى النجم
ووبل سهام عن بطون الكلى يهمي ٣٢
من المرد فهاق سريره تصمي
وإن طار غرثاناً على العظم واللحم ٣٣
بغير حراك جنة النوب السهم ٣٤
وصاح بهم صوتاً يهد قوى الجسم
وولوا يزيد الرعب وهماً على وهم
يفاجئها ليشان في الدجن القتم
تضل ولا راع يدافع أو يحمي
وفي كل قرم قد أحل قنا قرم
زعيم البيوتيين مدرعي اللأم
وإيناس وافاهم مدون الفتى يرمي
بفيلاقه قد كان في غربة السأم
أخا إريفيس زوج ويلوس ذي الحكم
زعيم الأثينيين والبطل الشهم
بصدر السرى يرمي وقلب العدى يدمي

وفوليت إخيوسًا وكرَّ أغينرُ
وذيوخس ولَّى ففاريس زجَّه
وأقبت الطرود للسلب مغنمًا
فولَّوا فالولَّ للحفير فسدَّهم
فصاح بهم هكطور صيحة حانقٍ:
ومن غادر الأسطول أوليته الردى
فلا يضرمون النار من تحت جسمه
وساط جياذ الخيل فاندفعت به
وفي إثره كرَّت عجالهم على
أمامهم فيوس في حَفَّة الطرف
برجليه هاتيك التلال تساقطت
سبيل لهم إن يقذف السهم نابِلٌ
عليه مضى يجري صفوفاً خميسهم
فقوض ذاك السور لا متكلِّفاً
بنى لا عبًا بالزَّمَل تلاً وسامه
كذا يا أفلون نقضت معاقلاً
وسقت بني أرغوس للفلك حيشما
وصاحوا يمدون الأكف تضرعاً
ونسطور قوَّام الأخاء رافعاً

فجنبدل إقلونيس الشيم الشم
بمزراقه في الكتف ينفذ في العظم
وهزمن الإغريق في ذلك الهزم ٣٥
إلى السور والأعداء لاهون بالغنم
إلى الفلك فالأسلاب من رامها خصمي
وأهليه والإخوان غادرت باليتم
وللكلب يقي مطعمًا شائق الطعم» ٣٦
ليستهض الهَمَّات في العسكر الجم
هديدٍ نما للجو عزمهم ينمي
يهدم حافات الحفير بلا عنف
إلى جوفه حتى استوى الجوف بالجرف
فما اجتازه ذِيَالك السهم بالقذف ٣٧
وبالجوب فيوسٌ أمامهم يكفي
كطفلٍ بجرف البحر يلهو بلا إلف
برجليه أو كَفَّيه خسفاً على خسف ٣٨
بتشييدها كان العنا فائق الوصف
دنوا فاستجاشوا ثم صفًا على صف
إلى زمر الأرباب للرفق واللفظ
ذراعيه للزرقاء صاح على لهف:

«لئن كانت الإغريق قبل توسّلت
وسوق سمان الضأن والثور أحرقت
فلا تنس يا مولى الألب وصنهم
فأسمع زفسن صوت نسطور ضارعًا
وأما بنو الطرواد فاشتدّ عزمهم
وجازوا على الخيل الحصار بنعرةٍ
كأنهم الأمواج والنوء ساقها
فمن حاذفٍ فوق العجال بعامِلٍ
ومن قاذفٍ بالفلك في أسل ثوت
ظل فطرقل أورفيل يجاري
برقيق الحديث يلهيه حيًّا
إنما عندما رأى الطروادا
وجيوش الإغريق ولّت شتاتًا
صاح بالويل لأطمًا فخذيّه
«أورفيل لا بد لي أنثني عنـ
بك فليعن من صحابك غيري
جل وقع البلا فعلًا أخيلًا
رُبَّ رَبِّ أنالني منه سمعا

إليك أيا زفس بعودٍ لدى الرّحف
وأومات بالإيجاب إيماءك العرفي
من الحتف واصرف عنهم فادح الصرف
وأسمع رعدًا في الفضا داوي القصف
وكرُّوا بجيشٍ ثائر الجأش ملّف
لفلك العدى فاصطكت الكف بالكف
فتعلو صفاح الفلك تبعث بالسجف
تذلّق حدّاه وأنفذ بالحذف
هناك لحرب البحر تنذر بالحتف
بينما النقع ثائرٌ بالحصار ٣٩
ويداوي كلومه ويداري
عبروا السور بالعجال طرادا
بصياحٍ وذلةٍ وانكسار
بدموعٍ تنهال من عينيه:
ك وإن كنت لي بفرط اضطرار
وأنا ذاهبٌ بخفّةٍ سيّري
إن أهجه يهج لدفع الشّنار
فكلام الصّديق يحسن وقعا»

ثم جدَّ المسير يبغيه والإغـ
فخميس العدى وإن قلَّ عدًا
وهو لم يلق للسَّفين وللخيـ
بل تساوت بهم مرامي الكفاح
سـطرتها كفَّ أنارت أثينا
هكذا حول ذلك الأسطول
وترامى هكطور قرب غرابٍ
لا أياس يطيق دفع كمي
لا وهكطور لم يكن للخلايا
وقليطور هم في مقباس
خرَّ تحت الصَّليل والنار فرَّت
فتلظى هكطور لمَّا رآه
«آل طرواد يا بني ليقيا يا
إيه ضاق المجال كُرُّوا جميعا
بادروا لا تجردنه الأعادي
ورمى طاعنًا أياس فخابا
لأياس قد كان خير رفيقٍ
من قثيرا مهاجرًا جاء قـبلا
لم يزل في ولاء آياس حتَّى

مريق ظلَّت بفلـكها بانحصار
ما استطاعوا إليه دفعًا وصدًا
م سبيلًا بكشفةٍ وانتصار
كاستواء الخطوط في الألواح
بذكاء لوشرِ فلك البحار ٤٠
قد تساوى اشتداد تلك القيول
وأياس رمى الأسود الصَّواري ٤١
كـرَّ يسطو بعون ربِّ قوي
من سبيلٍ يلقى لدس النَّار
فتلقَّى في الصَّدر رمح أياس
من يديه والنقع في التـرب جاري
ودعا كالزَّعيد يذوي نـداه: ٤٢
دردنين دافعي الأخطار
فابن إقليطـيوس خرَّ صريعا
واحملوه فاليوم يوم البدار
إنما الرمح لقرفون أصابا
ونزيلٍ له برحب الدَّار
مـذ لقيـلٍ بها تعمَّد قتلا
صـرعتـه نوافـذ الأقـدار

يتلوّى تمرُّغًا في التراب
جَتَّ وآياس صاح في طفقار:
جاء هكطور بيننا الآن يصمي
مثل آل القربى عزيز المنار ٤٣
أين تلك النبال تنمي الهلاك
ـبة يهمي السهام كالأمطار
بقليطوس بن فيسينورا
جرد فوليدماس المغوار
وجيوش الطرواد هاجوا وماجوا
ر بكسب الثنا ونيل الفخار
ورمته المنون رغم ذويه
جامحات بين العجال الجواري
ولأستينوس ألقى الصُّروعاً
ـني فإني ماضٍ أثير أواري»
يبتغي في نفس هكطور قتلا
لانتهدت حربهم بذاك النهار
لم يشأ أن ينال طفقىر نصرا
فوقاه شرَّ المنون الطواري

خر مستلقياً أمام الغراب
وظبابة القناة هامته شـ
«أي قرم أخى أجل أي قرم
ابن نسطور من أقام لدينا
أين قوس فيوس قبل حباكا
هم طفقىر بالحيّة والجعم
ورمى ينفذ القضا المقدورا
كان بين الجيوش ساق مغيراً
حَثَّها حيث ثارَ يعلو العجاج
طامعاً منهم ومن لدن هكطو
خرق السهم جیده يردیه
خرَّ للأرض والجياد أغارت
جدَّ يجري فوليدماس سريعاً
قال: «لا تنأيا ابن إفروطيا عـ
ثم ألقى طفقىر في القوس نبلا
لو رماه وأنفذ السهم فيه
إنما زفس وهو بالغيب أدرى
كان طيَّ الخفاء هكطور يرعى

هم طفقير رامياً فتبتت
ومضى السهم طائشاً فتلظى
«ثم رب أياس يأبى القلاحا
كم بها رمت خرق صدر عدو
قال: «دعها فإن ربنا حسوداً
خلها واحتمل مجناً ورمحاً
ناد في القوم يثبتوا في الجهاد
لا ينيلوهم السفائن إلا
كر طفقير للخيام فألقى
خوذةً أرسلت لها عذباتٌ
ومجناً ألقى على عاتقيه
وقناةً شحيذة الحد وانقـ
فرآه هكطور ألقى النبـ
«آل طرواد يا بني ليقيا يا
حول هاتي السفائن الحدباء
هاكم التائبـل النبيل وزفسـ
لم يكن في الأنـام أمراً عسيرا
ففريقٌ لذروة المجد يرقى
صاننا اليوم والعدى سام قهرا

وتر القوس وهي للأرض فرّت
مستشيطاً وصاح بالإدبار:
تلك قوسٌ أوترتها ذا الصبّاحا
وأراها مفتلة الأوتار»
نبلها افتلّ راغباً أن تبدا
ثم كُرنّ بالقنا الخطّار
ويذودوا لكبح جيش الأعادي
بعد قرع القنا وفتك الشفار»
قوسه والسلاح فوراً تنقى
سابحات يفرعها الطيّار
وجلود الأبقار دارت عليه
ض يجاري أياس في المضمار
فعلا صوته الجهور وقالـ:
دردنيين سادة الأمصار
لا تكّلوا فالיום يوم البلاء
كاده أحـدقت به أبصاري
أن يقولوا من زفس وإلى نصيرا ٤٤
وفريقٌ يشقى بذل البوار
كثفوا للعمارة الجيش كـراً

وليموتن بالجهاد سعيًا
فإذا أقلع الأراغس ذلا
ظلّ في الأمن زوجته وبنوه
فاستجاشت بهم جميع النفوس
«أي عارٍ قد أصبح اليوم فينا
لا مناصّ لنا فإمّا المنايا
أفإن نالهنّ هكطور خلتن
أفما جاءكم دويّ نده
ليس للرقص قام يدعوهم بل
ما لنا غير أن نكرّ سريعًا
ذاك خيرّ من جهد حربٍ سجالٍ
فالعدى دوننا بقرع البئوس»
وتلاقوا وصوت هكطور يدوي
فرمى ذاك إسخذئوس مولى
ورمى ذا لورذماس بن أنطى
والسري الفتى أطوس القليني
قل إيفية وإلف محبّيسٍ
ورماه لكنّما الطروادي

بطل الذود عن عزيز الذمار ٤٥
في سفين بها يؤمّون أهلا
وينوهم في سالمات الديار
وأيّاس نادى بوجه عبوس:
محددًا يا أراغسا أيّ عارٍ
لا وإمّا بالذود صون الخلايا ٤٦
عودةً للديار فوق القفار
ويحرق السفين يغري سراه
لاشتباك القنّاة بالبتار
نرد الحتف أو نعش جميعا
أجهدتنا بدار إليه بدار
فاستجاشوا لدفع تلك البئوس ٤٧
وأيّاس كالضغيم الزّار
فوقيا والحمام في الحال أولى
نور رأس المشاة زاهي الشعار
فولداماس ساقه للمنّون
فمحيسُ انشى لأخذ الثّار
صد والرمح غل بين الأعادي

قد وقاه فيوس لكن مضى الرُّم
ذاك إقرسمسٌ فخرٌ قتيلا
فدهاه ذو البأس ذو لفس لمفس
زجَّه طاعنًا بجوبٍ كبير
لأمةً تلك قبل صانت أباه
تحفةً من أُفيت كانت سيَّه
حين وافى إفيرة حيث يجري
ومجيس انثنى وزج فمزَّق
دفع الرمح للثرى عذباتٍ
وذلفسٌ ما زال بالفوز يطمع
ما رآه ذلفس حين أتاه
أنفذ الرمح فيه ظهرًا لصدر
والمليكان ثمَّ ينتزعان الـ
صاح هكطور في بني لومذونا
فارسٌ من فرقوط قبل الوغى قد
ثم لما الأسطول حلَّ البلادا
ولفريام كان ضيفًا كريمًا
قال يرميه بالمام العنيف:
أفما مقتل ابن عمك يوري

سُح إلى صدر فارسٍ جبار
ومجيس احتاز السلاح الصقيلا
من بني لومذون القهار
صدَّ عن درعه بصلد القتير
فيليوسًا في سالف الأعصار
نالها فيليوس منه هديَّة
سيليس المغبوط في الأنهار
قونس المغفر الذي يتألق
قد كساها البرفير ثوب احمرار
ومنيلاً لرفد ميحيس يهرع
وهو عادٍ عن عينه متواري
فعلى الأرض خرَّ والنَّقْع يجري
عدد الشائقاتِ للأنظار
سيِّما ميلنيف هيقطوونا
كان يرعى بها سوام الصوار ٤٨
فلإليون ثائر الجأشٍ عادا
ودَّه ودَّ ولده الأظهار
«أثوى الجين في حشا ميلنيف
في حشاك اللهيف ذاكي الشرار

أفما خلّتهم تراموا عليه
فاتبعني لم يبق في الحرب بدّ
نتبارى ليهلكوا خاسئينا
خفّ يجري وخلفه ميليف
صاح آياس في جيوش الأخاء:
وليقيم بعضكم بحرمة بعض
متقي العار ذو الحياء يقينا
أنما لا فخر يبقى ولا أمـ
فيهم ثارت الخميّة طرّا
وأقاموا حول السّفائن بالفو
إنما زفس دافع الطّرواد
«أبغض الشباب والجري والبأ
أفما رمت في الطرواد قرما
هاجته وانتشى فبرّز كرا
مشرّبا جرى وقد زجّ زجا
فالتوا والقناة قد أنشبت في
خرقت ثديّه فخرّ قتيلا
وابن نسطور همّ ينتزع الشـ

لانتزاع السلاح من عاتقيه
من وقوع الفرار فوق الفرار ٤٩
أو يدكوا بموتنا إلينا
كإلاه يجري على الآثار
«صحب صبرا تدرعوا بالحياء
وتوالوا في فادح الأدعار ٥٠
ظلّ أدنى إلى النجاة أمينا
من لنكس يوم الوغى فرار» ٥١
بفؤادٍ للدّود يلهب جمرا
لاذ حصنا مؤلّق الأنوار
ومنيلاس أنطلوخ يُنادي:
س يجاريك بيننا من مجاري
بظباة القناة يرمى فيصمى
أنطلوخ كالضّيغم الهصار
وخميس العداة قد عجّ عجّا
ميليف المنتقض كالتيار
وعليه السلاح صلّ صليلا
كّة لا ينشني لوقع الحرار

كالسِّلوقي ظيئةً رامَ غنما
فرآه هكطورٌ فانقضَّ يجري
فلمرآة أنطلوخُ ارتاعا
لم يقف لانقضاء كرتِه بل
مثل وحشٍ سطا بقلب المراعي
ثم ينصاع قبل أن تقبل النّاء
فتقفُّوا آثاره بالصّديد
وهو لا ينشي وما زال حتّى
زفس هذي أقداره المنويّه
فترامى الطرود للفلك مثل الـ
نالهم نصره وذلّ عداهم
لابن فريام أحرز المجد حتّى
كلُّ هذا استجابةً لدعاءٍ
ففقضى زفسُ بالنّوائب حتّى
فيزيح الطرود عنها ويولي
فبهذا قضى وهكطور أغرى
كرّ يحكي آريس ذا الرمح أو نا
فمُة مزبّدٌ وعيناه نارٌ
وحوالي صدغيه حاجت هياجاً

وهي عند الكناس بالسّهم ترمى
لا يُيالي بالعسكر الجرّار
ثم من ساحة القتال انصاعا
فرّ من وجهه حيث الفرار
يقتل الكلب أو يبيد الرّاعي
س عليه بفزعةٍ وانتهارٍ
وبوبل من النبال شديدٍ
قرّ في صحبة أمين القرار
نافذاتٌ أحكامها مرعية ٥٢
أسد تنقضُّ في طلاب الرميّة
فرماهم بعاديّات الرزيّة
يضرّم النّار في السّفين الرّسيّة
أنفذته ثيتيس أسُّ البليّة
يصر النار ألّهتٌ بخليّة
قوم أرغوس نصرّة علويّة
للأساطيل واريّا بالحميّة
رأ بغابٍ شبّت بشمّ عليه
ثارتا من أجفانه الوحشيّة
خوذةً بالبريق أجّت بهيّة

من عباب الرِّقيع زفس وقاه
إنما يومُهُ دنا وأثينا
كرَّ حيث الصفوف رصَّت كنفًا
وبغى خرقهم فصدَّته جنْدُ
لبشوا لا يرووهم منه كرَّ
كصفاءٍ بالشَّعرِ ليست تُبالي
لاهبا هب ناحيًا كل نحوٍ
ودهامم كما دها الموج في اليـ
بشراعٍ بالريح منتفحاتٍ
فتلوح المنون منبعثاتٍ
هكذا كانت الأغارق تتنا
ثار فيهم كالليث بين صوارٍ
لا تطيق الرُّعاة ذودًا فيجري
يقنص الليث منه ثورا وباقيـ
هكذا فرَّت الأراغس منه
فل هكطور منهم فارسًا فـ
فيرفيت الذي أتى من مكينا
لهرقلٍ من لدن أفرستس الملـ

ورعاه من دون كل البريِّه
بابن فيلا أدنت إليه المنية
وتلالت مناصل السَّمهرية ٥٣
كالبناء المرصوص صفت سويه
لا ولا همَّة وكف قوَّه
برياحٍ وموجةٍ مائيَّه ٥٤
بسراهم كجمرة محمَّه
مَّ غرائبا بهبة نويه ٥٥
وصفاحٍ بغثيه مغشيَّه ٥٦
دانياتٍ لأعين التوتيه
بُ حشاها شجيَّة وشجيَّه
راتعٍ في حدود هورٍ عذيَّه ٥٧
بينه وهي رعدة ضاويَّة ٥٨
هـ فلولاً يفرُّ في البريه
بل ومن زفس ذي القضايا الخفيه
إذا فلولوا بأضلعٍ محنيه
وابن قفريس الذميم الطويه
ك مضى بالرسائل الوديه

لم يكن فيرفيت مثل أبيه
فاق بين الأقران عدواً بأساً
فلهذا قد نال هكطور في مقد
هم في جنة إلى قدميه
حصنه في الكفاح كانت وصدت
ملفتاً كان فالتوى بخطاه
خر مستلقياً فصلت عليه
خف هكطور منقذاً رمحه في
فناظروا أسى ولكنّه لم
لجأوا في صفاح أول صف
والعدى في الأعقاب تضرب حتى
وقفوا ثم عصبة أوقفتهم
وتوالوا بعض يحرض بعضاً
وملاذ الكماة نسطور يستح
صحب لا تشغلوا بالكم ألسن الخلد
واذكروا الولد والنساء وملگا
واذكروا أهلكم أماتوا بادوا
لا تزيدوا الشكوى بحق عيال
فاسجاشت نفوسهم وأثينا

بل حميد الخلال ذو ألمعيه
ثم حلتاه حكمه ورويه
تله المجد في السرى الدردييه
قد تشئت أهدابها المثنيه
عنه تحت القراع كل أذيه
عائراً في أطرافها الملوئيه
خوذة كلتته فولاذيه
صدره بين جند كل السريه
ييق فيهم لرفده من بقيه
من خلايا العمارة الأرغسيه
حصروهم حول الخيام الخليه
خشية العار والمنايا الدنيه
بعجيج للجو أعلى دوييه
لف كلا بالأهل والعصبيه:
سق وذودوا ذود الرجال الأبييه
لكم في تلك الديار القصيه
أم هم في قيد الحياة الرضيه ٥٩
لبثت خلفكم ثبت الشكيه
قشعت عنهم الغيوم الملييه

سحب صلبها ركائماً عليهم
بددتها قفاض في السهل والأسد
فلهم لاح نائر الجأش هكطو
ولهم لاح من توانى عن الحر
وأياسٌ بعزة النفس يأبى
غادر الجند ثم حثَّ خُطاه
رمحه طولَه اثنتان وعشرو
نافذ النصل محكم الوصل زَاه
كر يعدو كفارسٍ كر يعلو
ضمها ثم حثها في طريق الـ
وضواحي البلاد غصت رجالاً
وهو في جريها بغير عناءٍ
هكذا طار بالسفين أياسٌ
يستثير النفوس للفتك ذوداً
وابن فريام رامح مثل نسرٍ
يدهم الرهو والغرائيق والبـ
هكذا عن سراه برز هكطو
زفس أغراه دافعاً مستثيراً

رب هول دجنهً لياليه
طول نورا أشعة شمسيه
ر بجندٍ تكرر طرواديه
ب ومن خاضها بصادق نيه
عزلة في المواقف العسكريه
في سُطوح السفائن الصّدرية
ن ذراعاً للكرة البحريه
بحراييه الحسان الزّهيّه
أربعاً من عتاق جردٍ سويّه ٦٠
خلق في السهل حثّة سلهيه
ونساءً تجل تلك المزيه
واثبٌ من مطية لمطيّه ٦١
داوي الصوت للذرى الجويه
عن أساطيلهم بنفسٍ جريه
شق أسراب طير برٍ شقيه
ط بأكناف جدّة نهريّه
ر يؤم السفائن الدانويّه
خلفه سائر الجنود الكفيه

فتلاقوا كأنهم ما تلاقوا
لو رأيت النفوس كيف تلطّأت
والأمانى هجن مختلفات
وفريقٌ يرى الأعادي اضمحلت
وابن فريام كالشهاب انبرى يقد
مركبٌ فيه جاء أفرطسيلا
حوله استحکم التلاحم لا تر
بل تراموا بمديّة وسنانٍ
كم حسامٍ أهوى بكف كمي
والثرى اسودّ وابن فريام قد قا
«دونكم ناركم وكرؤا كثافاً
إنما اليوم يوم قشع الرزايا
أوسعنا مذ أوفدوها خطوباً
حال بيني وبينها بجنودي
إن يكن زفس قبل أعمى حجانا
فاستشاطوا وأقبلوا وأياس
سئم العيش لا يطيق ثبوتاً
(مقعدٌ قاس سبع أقدام طولٍ
ظل مستطلعاً يصد برمح

قبل ما بين عاملٍ وحيه
قلت ذي كرة لهم أوليه
ففريقٌ يرى المنون جليه
والخلايا براسخ الأمنيّه
بض أطراف مركبٍ مرخيّه
س بلا عودةٍ عليه هنيه ٦٢
ويهم الشهب والحنايا الرويه
رق حدّه والسيوف الوضيه
أو بكتف الفوارس المرميه
م على الفلك صائحاً بالقيه:
إنما اليوم زفس يرعى الرعيه
واحتلال السفائن المحميّه
رغم آل الميامن العليه
جبن هيبة الشيوخ الغيه
فله اليوم بالهجوم مشيه» ٦٣
حوله الرّمي كالغيوث الحيّه
فالتوى نحو مجلس البحرّيه
وعليه ملاحه الجنديّه
من ترامى منهم بنار ذكيه

داوياً صوته: «ألا صحب كروا
 حصنكم باسكم وليس سواه
 لا ولا معقل يصد المنايا
 لا ولا بلدة نلوذ إليها
 قد نأينا عن الديار وأضحى
 فالأمان الأمان بين أكفٍ
 ثم هز القنا وهكطور يغري
 ما تصدى بها فتى منهم حـ
 فأيس برمحه أهبط اثني

يا بني دانووس الأريه ٦٤
 خلفكم نجدةً بجندٍ عتيه
 إن ترامت به الجنود القميّه
 وبها نبتغي عصاباً وليّه
 دوننا البحر والأعادي العديه
 فاتكاتٍ لا في الأكف البطيّه ٦٥
 صحبه بالمقابس الناريّه
 تى تخلّى بمهجةٍ مفرّيه
 عشر قرماً للظلمة الأبدية

هوامش

(١) انتقل بنا الشاعر إلى مشهد جديد مثل به يقظة زفس بعد هجوعه تمثيلاً، يهئى للسامع هيئة الصاحي من سكرته، المستفيق من غفلته، الحنق لسقوطه في أحولة نصبت له خفيةً بيدٍ عجزت عن البروز لوجهه، فتستجمع حواسه لملاقاة ما فات والاقتصاص ممن ألقى عليه ذلك السبات. تلك كانت حالة زفس عند هبوبه من النوم جعلها الشاعر توطئة لإيراد حوادث أحيأ بها جانباً كبيراً من آثار قومه كما سترى.

(٢) الأضرع: الجبان. والنجيع في البيت السابق: الدم.

(٣) لقد مرت الإشارة إلى هذه الأسطورة في النشيد السابق؛ إذ ذكرها «الرقاد» وذكر هيرا بما ناله من عقاب زفس، وزاد الشاعر هنا ما نال هيرا من ذلك العقاب، وقد تهافت الشراح على حل معميات ذلك العقاب حلًا رمزيًا بما يطول معه الشرح.

(٤) ما قرأت هذه اليمين مرة إلا تذكرت أيما بني كعب في العراق العجمي لعهدنا هذا، فإن هيرا قد غلظت الحلف فأقسمت بالأرض والسماء والإستكس، وما يعد اليمين بهن يمين مغلظة، وكأنني بزفس مع هذا لم يجنح إلى التصديق إلا حين أقسمت برأسه والعقد، أي: عقد النكاح. وهكذا الكعبي إذا أقسم بالله فلا يزعم ولا يتوهم غيره أنه صادق، ولكنه لا يقسم برأس شيخ عشيرته إلا صادقًا، فإذا اتهم بسرقة أو جناية وسبق أمام الشيخ واستحلف وأراد الإنكار قال: «والله وبالله لم أفعل.» فكأنه لم يزد على قوله لم أفعل، فإذا أعيد عليه السؤال قال: «والنبي والوصي.» أو «وحق محمد وعلي.» فإذا أراد إغلاظ يمينه قال: «وحق العباس.» وإذا بقيت شبهة في صدقه وأراد درأها أقسم برأس شيخه، وهو أعظم أيماهم لا يقسمها أحدهم إلا صادقًا — والسبب في ذلك أنه إذا ظهر كذب الحالف برأس الشيخ كان عقابه القتل، فالشيخ يقتص لنفسه عاجلاً حالة كونه لو أقسم الرجل كاذبًا بالعباس ومن فوقه إلى الخالق جل وعلا، فعقابه مؤجل إلى يوم الحشر حيث يقتص صاحب القسم من الحانث يمينه، والرهبة من الحد العاجل

بيد المخلوق أوقع منها في النفس من الحد الآجل بيد الخالق، وقد كان أعظم الأقسام في جاهليتنا ذمة العرب لا يُحلف بها إلا عن صدق. قال متمم بن نويرة:

نعم القاتل إذا الرياح تناوحت تحت الإزار قتلت يا ابن الأوزر
أدعوته بالله ثم قتلته لو هو دعاك بذمة لم يغدر

(٥) تملصت هيرا تملص الداهية يمينها، فلم تنكر علمها بما كان وأشركت فوسيد بالذنب ولم تزده جرماً؛ لأن موآزته للإغريق كانت ظاهرة بل التمسست له عذراً بأن الرأفة هي التي دفعته إلى الأخذ بيدهم، فأقسمت ولم تكذب. ثم تزلفت إلى زفس ولم تلبث أن استمالته بقولها: إنها متأهبة لقضاء أوامره، وهي لا تزال تنوي إنفاذ أمرها كما سترى فيما يلي، وذلك منتهى الدهاء في النساء.

(٦) الحزائق: الجماعات.

(٧) الغرائق: الفتيان.

(٨) كان سرفيدون من أبناء زفس وستأتي تنمة سيرته في النشيد التالي.

(٩) يشير زفس في مقاله هذا إلى ما سيكون، وهو يلهج فيه لهجة العزيز القدير جل شأنه الذي «إذا قضى أمراً فإنما يقول له كن فيكون». وقد كثر الأخذ والرد بين الشراح في ما إذا كان هوميروس

مخطئًا أو مصيبًا بالأبناء بما سيعقب تلك الحوادث، فزعم قومٌ أن علم المطالع بها ولو مجملًا يذهب بشيءٍ من طلاوتها عند وقوعها، وقال آخرون ونحن في عدادهم: إن الأمر بخلاف ما زعم الفريق الأول؛ لأن هوميروس لا يورد قصة غرامية لا يستوقف فيها نظر المطالع إلا في نهايتها، وإنما يقص على معتقد أهل زمانه تاريخًا مشهورًا، فإشارته هنا إلى ما سيقع ليست إلا توطئة يرتاح المطالع إلى الوقوف بها إجمالًا على ما سيقع تفصيلًا. وتزيد على ذلك أنها ليست بأول ولا آخر مرة رأينا فيها الشاعر يورد مثل هذه النبوءات، فهي على ما نرى من مزينات قصصه ومثبتات اعتقادات ذلك الزمان، وهي خطة اتخذها كُتّاب جميع الكتب القديمة منزلة كانت أو غير منزلة، ولا يخفى ما فيها فضلًا عما تقدم من شدة التأثير في النفس بإثبات عظمة الناطق بها واقتداره، وهي محسنة أخرى من محسنات الشعر.

(١٠) لم يغادر هوميروس أبدًا ولا شاردة من بدائع الطبيعة إلا أشار إليها ودونها، وهو هنا قد وصف السرعة بما لا سبيل بعده إلى مزيد، فقد رأينا ورأينا سائر الشعراء يشبهون بسرعة الطائر والريح والبرق وما أشبه، ولكننا لو أضفنا إلى تشابيههم سرعة الكهرباء والنور لما كانت شيئًا بالنسبة إلى سرعة الفكر الذي يجوب السموات والأرض وما فيهن بلحظة من الزمن، وما بساط الريح بإزائه بالشيء المذكور، قال ابن المعتز بمثل هذا المعنى مع اقتضاب:

أسرع من ماءٍ إلى تصويبٍ ومن وقوع لحظه المريب

ومن نفوذ الفكر في القلوب

(١١) يؤخذ من هذين البيتين أن الآلهة كانوا في مجلس أنس وطرب. يشير هوميروس هنا إلى أن ثميس وهي إلهة العدل هي التي كانت تصدر في مآدب الآلهة وحفلاتهم، فما أحرأها أن تصدر في محافل البشر.

(١٢) اليلامق: التروس، لا تزال هيرا محفوظة على زفس ناقمة منه، وهو الآن في يقظته فلا تستطيع أن تخالف أمره فتغفل إبلاغ رسالته، فهي ستبلغها بعد أبيات مقتضبة اقتضابًا، ولكنها آلت على نفسها قبل ذلك أن تشير حقد سائر الآلهة عليه لعلها تبلغ منه مآربًا بوسيلة أخرى، وهي من وجه تشير إلى اقتداره وضعفهم ومن وجه آخر تبالغ في وصف استبداده وتعسفه؛ لتزيدهم نفرة واشمئزازًا وهو نوع من أنواع تشفي الضعيف من القوي إذا قصرت باعه عن مسه بسوء.

(١٣) يمثل هوميروس الهول والرعدة بشخصين، وهما ماردان في خدمة آريس إله الحرب.

(١٤) الجباز: القواطع. والمزالق: الزلات. لما كان آريس إله الحرب كان أقرب إلى الطيش ممن سواه، وهيرا تعلم ذلك فأرادت أن تهوره ووجهت مقالها إليه، وكاد يتهور بإغصاب زفس لو لم تقم أثينا

وتصدده، ولم يكن بين الآلهة أجدر منها بذلك؛ لأنها إلهة الحكمة، ولا يخفى ما في كل ذلك من اتساع المغزى.

(١٥) يشير بذلك إلى أنه لم يكن بد من موت عسقلاف، قالت: ذلك تخفيفاً لألم أريس أبيه. وما أكثر هذا المعنى في الشعر. قال الإبيرد الرباحي:

وكل امرئ يوماً سيلقى حمامه وإن نأت الدعوى وطال به العمرُ

وقال المتنبي:

كثير حياة المرء مثل قليلها يزول ويبقي عمرها مثل ذاهب

ومثله قول الآخر:

وكل ابن أنثى لو تطاول عهده إلى الغاية القصوى فللقبر ذاهب

(١٦) تسابقاً، أي: أفلون وإيريس.

(١٧) كان ثالوث اليونان مؤلفاً من زفس وفوسيد وأذيس وهم ثلاثة أشقاء، أكبرهم زفس ولهذا كانت له مزية كبيرة على أخويه بحق البكورة، وسترى من كلام فوسيد بعد أبيات كيف اقتسموا حكم العوالم.

(١٨) أقرنوس أو قرونوس: هو زحل كما تقدم، يقول فوسيد: إنه هو وزفس وأذيس ثلاثة إخوان أشقاء ضمهم النسب، فلا مزية لزفس على الآخرين إلا الرئاسة التي خولته إياها البكورة كما أشار زفس بنفسه. قال الشريف الرضي يخاطب القادر بالله الخليفة العباسي:

عطفاً أمير المؤمنين فإننا في دوحه العلياء لا نتفرق
ما بينا يوم الفخار تفاوت أبداً كالنا في المفاخر معرق
إلا الخلافة قدمتك فإنني أنا عاطل منها وأنت مطوق

(١٩) الودائق: ج وديقة، ومعناها: شدة الحر.

(٢٠) الموارد: جمع مارد. كانوا يعتقدون أن لكل بكر حراساً من
الموارد يحرسونه، فيدراون عنه الضيم ويعينونه على قضاء حوائجه. راجع
ما قلناه بشأن البكورة (ن ١٣) قال عبد الله بن طاهر في أخيه الحسين
يشكو شكوى فوسيد من زفس:

يقول أنا الكبير فعظموني ألا ثكلتك أمك من كبير
إذا كان الصغير أعم نفعاً وأجلد عنه نائبة الأمور
ولم يأت الكبير يوم خير فما فضل الكبير على الصغير

(٢١) العارق: العرق.

(٢٢) الفلائق: الدواهي.

(٢٣) أي: أيقنت أنني مائت لا محالة؛ لأنه لا بد لكل ميت من
المرور بمملكة إديس إلاه الجحيم.

(٢٤) فييوس هو نفس أفلون كما تقدم.

(٢٥) الضحاضح: رقارق المياه.

(٢٦) أي: حيث غصت المراعي بإناث الخيل — إن هذا التشبيه بديع في نفسه كما لا يخفى، ولكن هذه الأبيات قد مرت في النشيد السادس، وهي أطبق هناك على باريس منها هنا على هكطور. وقد ذكرنا في الحواشي وجه موافقتها لباريس ولعل هذا التكرار دخیلاً خصوصاً أن في ما يلي تشبيهاً لهكطور بالعضنفر لا يبقى معه حاجة إلى زيادة.

(٢٧) الصيد: جمع أصيد، وهو السيد. والسخلة هنا: العزة.

(٢٨) تعلم من الشطر الأخير من هذا البيت أنهم كانوا يعتقدون أن العناية الإلهية ترمق بنظرها الحيوان الأعجم، وتعين أجله وتُعني به عنايتها بالإنسان، وهو اعتقاد نصّت عليه جميع الكتب المنزلة؛ ففي التوراة: إن رفق الباري عز وجل بالحيوان كان من جملة الدواعي لإرجاء خراب نينوى؛ إذ جاء في سفر يونان: «أفلا أشفق على نينوى المدينة التي فيها أكثر من اثنتي عشرة روبة من أناس لا يعرفون يمينهم من شمائلهم ما عدا بهائم كثيرة» (يونا ١١: ١٤)، وفي الإنجيل نص أصرح بقوله في أنجيل متى في الفصل العاشر: «أليس عصفوران يباعان بفلس ولا يسقط أحدهما إلى الأرض إلا بإذن أبيكم»، وفي القرآن نصوص شتى منها قوله: أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ فَوْقَهُمْ صَافَاتٍ وَيَقْبِضْنَ ۚ مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا الرَّحْمَنُ ۚ إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ بَصِيرٌ. (سورة الملك)

(٢٩) الجوائح: الدواهي، أي: حسبنا أن أياس قتله بصخرته، فإذا هو حيٌّ يرزق.

(٣٠) أي: إن أبطال الإغريق وقفوا لصد العدو، وأما أعراضهم، أي: ضعفائهم فلجأوا إلى السفن، وهنا انعكست آية القتال فبات الغالب مغلوبًا، وحمل الطرواد على الإغريق حملةً أوهنت قواهم، فكانت موقعة أبدع الشاعر في وصفها إبداعًا، ومهد لها تمهيدًا ينطبق على معتقد أبناء ذلك الزمان ويلذ للمطالع بعدهم في كل زمان، لم يقل قولًا بسيطًا أنه لما اشتدت الأزمة بالطرواد لاحتجاب هكطور الجريح وهنت عزائمهم، وما زالوا يلتنون صاغرين أمام الإغريق حتى انتعش هكطور، وانثنى فيهم انثناء المستبسل فاندفع واندفعوا وراءه، حتى كان ما كان بل أفرغ ذلك بقالب شعري، فقال: إنه لما غادر فوسيد ساحة الوغى مضطرًا بوعيد زفس صغرت نفوس الإغريق، وقدم فيبوس في صدر الطرواد، فغاب نصير الإغريق وقام للطرواد نصير يماثله فصار الأولون إلى مصير الآخرين، وقد تصرف الشاعر بكل ذلك تصرفًا يقرب الوهم من الحس وترتاح إليه النفس.

(٣١) الجوب: الترس. والحراي: المسامير. والجنة في البيت التالي: الترس أيضًا.

(٣٢) الكلى: جمع كلية، ويراد بها القسي.

(٣٣) غرثاناً، أي: جائعاً ومفاد هذين البيتين أن السهام المتطائرة كان بعضها ينفذ في صدور الفتية المدججة بالسلاح فيفحق بالدم، وبعضها ينشب في الترب قبل أن يبلغهم، وقد وصف هنا السهام بالتضور جوعاً للحم الأبطال، وهي استعارة حسنة عندنا كثير من أمثالها كقول الجميع:

في كفه لدنة مثقفة فيها سنان محرب لحم

يقول: إن سنان رمحه محرب، أي: مغيظ (قال الأصمعي: ومنها سميت الحرب حرباً؛ لأن أهلها يحرب بعضهم على بعض، أي: يغتاض) ولحم، أي: قرم إلى اللحم، ومثله قول عنتره:
فدونك يا عمرو بن ودٍ ولا تحل فرمحي ظمآن لدم الأشاوس

(٣٤) أي: إنه لم يظفر أحد الفريقين بالآخر قبل تحريك ترس زفس.

(٣٥) الهزم: السهل.

(٣٦) أي: لا تحرق جثته بعد موته، وهو عار عندهم كبير كما علمت.

(٣٧) أي: إن فييوس لما ردم الخندق بمادة التلال القائمة على حافة ونساوى جوف الحفير بجرفه، فتح للطرواد طريقاً على مسافة أكثر من مرمى نبل.

(٣٨) لما فرغ فيبوس من ردم الخندق، وفتح للطرواد سبيلاً «عليه مضى يجري صفوفًا خميسهم» بقي عليه أن يهدم السور؛ لينفسح لهم المجال فقوض أركانه غير متكلف، كما يخسف الطفل كثية من الرمل يلهو لاعبًا برفعها ودفعها، وليس في الإمكان إيراد تشبيه كهذا التشبيه في هذا الموضع، ولا أصح منه معنى لتمثيل سور يتداعى فتقوض أركانه بلحظة من الزمن، ويزيده رونقًا أن وجه المقابلة بالرمل مأخوذ مما يلوح لنظر المطالع؛ إذ السور قائم على الجرف فوق كتبان من الرمال، فالمقابلة مستعارة مما يلوح لدينا لأول وهلة.

(٣٩) الحصار: السور، انتقل بنا الشاعر إلى موقعة فريدة في بابها وهي ترامي الفريقين حول السفن وهي راسية، فلا هي بحرية ولا هي برية، وكأنه أشفق أن يمل القارئ طول هذه المواقع فرجع به إلى فطرقل الذي أتى أوريغيل مداويًا ومداريًا في النشيد الحادي عشر، فكانت بذلك فائدتان للمطالع أولاهما: التفككة والاستراحة من عناء ذكر القتال والمقتول فتمضي عليه برهة قبل أن يستأنف الشاعر وصف الموقعة التالية، فيتلقاها المطالع بلا عناء، والثانية: التذكير بفطرقل وأخيل وإعداد الفكر لتلقيهما والحين ساحة القتال.

(٤٠) أي: إن الفريقين تساويا في مرامي الكفاح كاستواء الخطوط في الألواح تسطرها كف صانع حاذق ببناء السفن، فلا ميل فيها

ولا عوج، إشارة إلى أن كفة النصر لم تمل هنا أقل ميل إلى جهة دون أخرى.

(٤١) الغراب: السفينة.

(٤٢) يدوي صوت هكطور كالرعد دوي صوت عنتره إذ قال:
وصرخت فيهم صرخة عبسية كالرعد تدوي في قلوب العسكر

(٤٣) عبارة مطروقة كثيرًا بوصف المبالغة بإكرام الضيف، قال
العتيبي يذكر الأمير أبا الفوارس لما قدم على السلطان محمود الغزنوي:
وأقام عليه قرابة ثلاثة أشهر ضيفًا لا يتميز عن الأذنين أرحامًا وشيعة
وأنسابًا قريبة.

(٤٤) أي: إن ظواهر الحال تشير إشارة بينة إلى من يراعه زفس
ومن الا يراعاه، أراد أن يقول كفة النصر راجعة لنا فتقدموا ولا تخشوا
ضميرًا.

(٤٥) أنشد المفضل الضبي إبراهيم بن عبد الله بن الحسين في
المعركة يوم حمل فقتل وكان آخر العهد به:
أقول لفتيان العشى تروحوا على الجرد في أفواههن الشكائم
قفوا وقفة من يحبى لا يخر بعدها ومن يحترم لا تتبعه اللوائم
وهل أنت إن باعدت نفسك منهم لتسلم فيما بعد ذاك لسالم

(٤٦) الخلايا: السفن، قال عنتره:

ولأجهدن على اللقاء لكي أرى ما أرتجيه أو يحين قضاءي

(٤٧) بنوس الأولى: جمع بأس، والثانية جمع بؤس، أبرز لنا

الشاعر هذين الزعيمين المغوارين هكطور وإياس كلاً على قومه خطابه بما وافق موقفه، فهكطور وقد افتر له ثغر النصر ووثق برعاية زفس يستنهض الهمم ويمتني صبه بالحظ الأسمى والسعادة الكبرى للميت والحي، فالمقتول يخلف ذكراً حميداً ويموت سعيداً ميتة «بطل الذود عن عزيز الدمار»، وله الحظ الأوفى أنه إذا هلك «ظل بالأمن زوجه وبنوه وبنوهم بسالمات الديار»، وذلك غاية ما يرى لقوم ضيق عليهم الأعداء وحصروهم ببلادهم، فلا حاث يحثهم على الاستبسال في ميدان النزال أعظم من الرجاء بنيل تلك الأمنية، وقد اجترأ الشاعر هنا بذكر عاقبة النصر لبلد المحصور؛ لأن الطرواد في موقف الفوز، ولا يخفى أنه أشار في النشيد التاسع أبلغ إشارة وأوجزها إلى عاقبة الخذلان إذ قال:

للمباني حرقاً وللقوم ذبحاً والغواني والولد ذلاً وأسرا

وأما إياس فقد جمع خطابه أبلغ ما يقال لدفع جمع منكوب،

وجيش مغلوب، فإنه صور له الرزايا المحدقة به من كل صوب من حرمان العودة إلى الأوطان، والموت موت الذل والهوان وذهاب السفن طعمة للنار وخلود الخيبة والعار ولا أمل لقتيلهم الهالك بسيف الطرواد أسيراً أو مهزوماً بحظ قتيل الطرواد الهالك كراً وهجومًا، فلا وافي لهم إذن وقد

سدت في وجوههم جميع السبل ولا أمل لهم بمدد يأتيهم إلا التفاني في
صد غارة العدو. وختم الخطاب بكلمة تبعث فيهم روح الحمية،
وتستحث النفوس الخاملة، فقال: إن الطرود دونكم بأسًا، فذكرهم سابق
نصرهم بأوجز عبارة، وهو في الجملة خطاب لا يتصور أو في منه بالمرام
في مثل هذا المقام.

(٤٨) الصوار: قطع البقر.

(٤٩) الغرار: الحد.

(٥٠) الأدعار: جمع دعر، الشرور.

(٥١) أي: إن الجبان أقرب إلى النجاة؛ لأنه لا يقذف بنفسه إلى
المخاطر ولكنه لا يخلف ذكرًا حميدًا. قال المتنبي:
إذا كنت ترضى أن تعيش بذلة فلا تستعدن الحسام اليمانيا
ولا تستطينن الرماح لغارة ولا تستجیدن العتاق المذاكيا
فما ينفع الأسد الحياء من الطوى ولا تتقي حتى تكون ضواربا

(٥٢) سيشرح الشاعر هنا في وصف آخر موقعة من مواقع
هكطور العظمى؛ ولهذا أبرزه بأعظم مظاهر البأس والإقدام، ودفعه إلى
ساحة الصدام وعليه رهبة الظافر الفتاك، عيناه تقدحان شرارًا وفمه يزيد
غيظًا واستعارًا كأنه إله الحرب قوة واقتدارًا، وكأن غضبه أوار شرار، أو
نوء آثار لجج البحار، وهو يعيث بجيش العدو عيث الأسد بصوار

الأبقار، فلا يخفى أن الشاعر يرتفع بذهن المطالع مع تلك التشابيه
المتعاقبة إلى حيث لا يبلغ التصور مع أي وصف كان لو خلا من هذا
الزحف الخلاب.

زفس كبير الآلهة، يمثلونه غالبًا جالسًا على عرش من عاج،
والصولجان بيسراه والصاعقة بيمناه وإلى جانب العرش نسر.



زفس.

(٥٣) قال الطرماح:

كل مستأنسٍ إلى الموت قد خا
ضَ إليها بالسيف كل مخاضٍ

وقال العباس بن مرداس:

أشد على الكتيبة لا أبالي
أحتفي كان فيها أم سواها

(٥٤) الصفاة: الصخرة.

(٥٥) الغراب: السفينة.

(٥٦) الغثي: زبد الموج.

(٥٧) الجدود: الشواطئ. والهور: مستنقع المياه.

(٥٨) بينه، أي: بين الصوار، وهو القطيع.

(٥٩) أي: اذكروا أهلكم من كان منهم حيًّا ومن مات فادكار

الأحياء يهيج العواطف، ويشير الحنان فيبعث على الإقدام، وادكار
الأموات يبعث على الأنفة من العار، وطلب الفخار، والحرص على
استبقاء الذكر الجميل، وقد جمع نسطور بهذا الخطاب الوجيز كل ما
يمكن أن يقال وعدًّا ووعيدًا لبث روح الحمية في الجند.

(٦٠) أي: كفارس يركب أربعة من جياذ الخيل.

(٦١) المظية: الظهر، إن هذا التشبيه فضلًا عما فيه من لطف

التمثيل ينبئنا أن فن الفروسية كان بالغًا أعظم المبالغ في زمن هوميروس،

حتى لقد كان يتأتى لبعض مروضي الجياد أن يثقفوها تثقيفًا يصعب الإتيان بمثله في هذا الزمن؛ إذ كان الفارس الواحد يسوق أربعة منها، ويشب من متن أحدها إلى متن الآخر وهي مغيرة، ويؤخذ من قوله: «حتثها بطريق الخلق إلخ» أنهم إنما كانوا يفعلون ذلك كما يفعل فرسان الملاعب في هذا الزمن، ولعلهم كانوا يفعلونه للافتخار دون التكسب.

أورد الشاعر هذا التشبيه بلسانه لا بلسان المتحاربين، فلا يصح إذن أن يكون دليلاً على نبوغهم في ترويض الخيل إلى هذا الحد أيام الحرب الطروادية، وللشاعر أن يشبه مجريات الأعصار الغابرة بما شاء من أحوال زمانه ومكانه على شرط أن لا يرويه عن أبناء تلك الأعصار.

(٦٢) إنما أحل الشاعر هكتور بمركب أفروطسيلاس دون سواه لئلاً يضطر إلى رمي أحد زعماء الإغريق بالجبن والخذلان، وأما أفروطسيلاس فقد قتل قبل حين ولا بأس على أحد منهم بحلول هكتور سفينته (أفستاثيوس).

(٦٣) إن خطاب هكتور مع ما فيه من نخوة القائد المعتادة في مثل هذه الحال يشف عن أمرين؛ أحدهما: شعور هكتور بموالة زفس في كل مواقع النهار، وإعلان ذلك بملء الحمد والشكر. والثاني: رغبته في رد ما ربما يعترض عليه به من الإحجام عن مهاجمة السفائن حتى يومه، فتملص من تلك التبعة بإلقائها من وجهه على عاتق شيوخ قومه الجبناء، وإحالتها من وجه آخر على مشيئة زفس.

(٦٤) الآرية: نسبة إلى آريس إله الحرب.

(٦٥) إن موقف طارق بن زياد بعد أن انحدر من الجبل المنسوب إليه، قاصدًا غزو الأندلس بأمر موسى بن نصير، فقدم رودريغ لمحاربته بجيش جرار. قال ابن خلكان: فحث طارق المسلمين على الجهاد ورغبتهم في الشهادة، ثم قال: أيها الناس، أين المفر والبحر ورائكم والعدو من أمامكم، فليس لكم والله إلا الصدق والصبر، واعلموا أنكم في هذه الجزيرة أضيع من الأيتام في مآدب اللثام، وقد استقبلكم عدوكم بجيشه وأسلحته وأقواته موفورة، وأنتم لا وزر لكم غير سيوفكم ... إلخ.

النشيد السادس عشر المركة السادسة ومقتل فطرقل

مُجْمَلُهُ

دخل فطرقل على أخيل ووقف لديه موقف الضارع الباكي يتوسل إليه أن يسلحه بسلاحه ليذهب لمقاتلة الطرواد، فأجابه أخيل إلى طلبه على شريطة أن لا يتجاوز الحدود بل يصد الطرواد عن السفن، ولا يتقدم إلى ما وراء ذلك، وكانت الأعداء قد تألبت على آياس وخارت قواه فجعل يتقهقر، وأضرمت النار بإحدى السفن وأخيل ينظر ذلك؛ فنادى فطرقل وهو يشك في سلاحه وأمره بسرعة المسير، فركب مركبة أخيل وإلى جانبه أفطوميدون رفيقه وحوزيه يسوق الجياد الخالدات، وجمع أخيل قومه المرامد وخطب فيهم ودعا وصلى فانقض بهم فطرقل على الأعداء فهزمهم، وأطفأ النيران المضطربة بالسفن، وجرى آياس في طلب هكطور فاجتاز الطرواد وهم مدبرون الخندق، وفطرقل في أعقابهم يشير الكفاح ويعمل السلاح ولم يقف في وجه فطرقل من الطرواد إلا زعيم الليقيين، وكان زفس ينقذه من يد فطرقل لو لم تتصدَّ هيرا فتمنعه، فاحتمد غلوكوس الليقي وتقدم بقومه صيانة لجثة زعيمهم فما أغناهم ذلك من شيء بل انتهى الأمر بالتوائهم، واستيلاء الإغريق على أسلاب ذلك الزعيم، وأما جثته فطار بها أفلون إلى ليقيا، فشمّل فطرقل بخمرة

الانتصار، ولم يأخذ بأمر أخيل بل تعقب الأعداء في هزيمتهم، وهم بتسلق أسوار المدينة فدفعه أفلون وأرسل إليه هكتور، فقتل فطرقل حوذي هكتور فتقدم أفلون بنفسه وضرب فطرقل وجرده من سلاحه، فبات أعزل لا يقوى على الدفاع قطعنه أوفرب وأجهز عليه هكتور، وجرى في طلب خيل أخيل، فأرخی لها أفطوميذ الأعنة فطارت به وتوارت.

وليست لتدرك بين الملا عناقٌ بها زفس فيلا حبا

وقائع هذا النشيد أيضًا في اليوم الثامن والعشرين.

النشيد السادس عشر

بذاك الغراب استطار الوحي	وفطرقل نحو أخيل عدا
تساقط عيناه دمعا سخينا	كأسحم ماء بصخر جرى
فهزت أخيل لرؤيته	عواطف رفق وفرط أسى
فمال إليه وقال: «إذن	أفطرقل قل لي علام الشجى

•••

شهقت كطفل جرت تسرع	ومن دونها أمها تهرع
فتعلق في ذيل أثوابها	ومقلتها صبيها تهمع
وترسل طرفا بليلا إليها	عساه بذلتها يشفع
وتجذبها وهي ضارعة	لتحملها فتكف البكا

...

أَعْنَدُكَ مِنْ إِفْثِيَا خَبِرْ	لَهُ قَوْمُنَا وَأَنَا نَذْعُرْ
فَإِنْ مَنِّيُوسَ مَا زَالَ حَيًّا	بِذَلِكَ قَدْ أَنْبَأَ الْأَثْرُ
وَفِيلَا كَذَا بِمَرَامِدِهِ	عَزِيْزُ وَإِمْرَتُهُ ائْتَمَرُوا
هَمَامَانِ لَا شَكَّ مَوْتَهُمَا	بَلَاءٌ عَلَيْنَا وَأَيُّ بَلَا ٢

...

أَمْ ائْتَابَكَ الْبَثُّ حَزْنًا عَلَى	لَفِيفِ الْأَخْيَاءِ مَذْ فَشَلَا
تَجَاهَ عَمَارَتِهِمْ جِيْشَهُمْ	جَزَاءَ مَظَالِمِهِ خَذَلَا
فَبِحْ بِحَقِّيْ ضَمِيرِكَ لِي	أَحْطَ بِالَّذِي رَمَتْهُ عَجَلَا»
فَقَالَ وَصَعَّدَ أَنْفَاسَهُ:	«أَجَلٌ يَا أَشَدَّ قُرُومِ الْوَرَى

...

دَعِ الْكِيدَ فَالْخَطْبُ جَلٌّ وَقَدْ	تَدَفَّقَ نَقْعُ جِرَاحِ الْعَمْدِ
ذُبُومِيْذِ أَقْعَدِهِ دَمِهِ	وَأَوْذِيْسِ رَبِّ الطَّعَانِ قَعْدِ
وَأَتْرِيْذِ أَلْمِهِ جَرْحِهِ	كَذَاكَ أَرْيَفِيْلَ أَلْقَى الْعَدْدِ
أَحَاطَتْ بِهِمْ بِسَفَائَتِهِمْ	لِضْمَدِ الْجِرَاحِ خِيَارِ الْإِسَى ٣

...

وَأَنْتِ عَلَى الْكِيدِ صُلْدُ الْفَوَادِ	فَلَا كَانَ لِيْ قَطُّ هَذَا الْعِنَادِ
أَيَا فَاسِدِ الْبَاسِ قُلْ لِيْ لِمَنْ	تَعْدُ ائْتِدَادُ الْبُئُوسِ الشَّدَادِ

إذا لم تزح عن لفيف الأخاء عميم البلاء بيوم الطراد
فلالا فما أنت من بشرٍ ولست ابن فيلا الفوارس لا

•••

وثيتيس ليست بأملك أصلا بل اخترت في لجة البحر أصلا
ومن كبد الصخر كنت وليداً لأن فؤادك كالصخر فعلا
فإما خشيت المقادير فيما روت لك أمك عن زفس نقلا
فبي فابعثنّ وفي إمرتي لفيف المرامد أسد الشرى

•••

عسى بسلاحك إن أقبل يخالوك وافيتهم تصطلي
فينجوا الأخاء وطروادةً تفرُّ وكربتنا تنجلي
ونكتسح القوم نكسأهم لإليون بالبيض والأسل
فإنّا وليس بنا من عياءٍ ندد جيشاً رماه العيا

•••

لتلك أمانيه عن دفع نفس إلى الحتف ساقته في يوم بؤس
فأنّ أخيل وقال له: «أفطرقل حدسك ليس بحدسي
فلست لأخشى المقادير فيما روت لي أمي عن حكم زفس
ولكن بي غصة حرّقت فؤادي الكليم بحر اللظى

•••

وما زلت ألهب منذ انتصب زعيم الشرى وفتاتي اغتصب

وما هو إلا قريبي مقامًا
وما هي الأجزاء النَّصب
حباءً جاني الأراغس لما
فتحت البلاد ونالوا الأرب
وأترىذ معتسفًا رامها
كأنى دخيلٌ بذاك الحمّا

•••

ولكن لنغض عن الغابر
ونله بموقفنا الحاضر
فإني وإن كنت آليتُ قبلاً
بأن لا ألين إلى الآخر
إلى أن تحيط بفلكي العدى
وتبدو لديّ ظبا الباتر
فما كان للمرء مهما التّظّى
بأن يكمن الغيظ طول المدى ٧

•••

فقم بسلاحي وسر بالمرامد
فقد أدرك الفلك جيش الطراود
وبالثرغ قد حصروا قومنا
فضاق عليهم مجال المجاهد
وإليون خلفهم اندفعت
كأن لها النصر ألقى المقالد
وما لقيت بطلائعهم
تريكة آخيل تلقى السنا

•••

فلو أن أترىذ لم يعتسف
لما خلت جيش العداة يقف
وولوا وصرعى كتائبهم
ببطن حفائرنّا ترتجف
وها هم أحاطوا بدرّاعنا
وعنهم ذيوميذ عنقاً صرف
وليس براحتيه عاملٌ
يهيج احتدامًا لدفع الأذى

•••

وليس لأتريذ من قبح نطق
ولكن لهكطور صوت دوى
وقد فاز بالنصر أعداؤنا
فكّر وق الفلك من نارهم
به نفثات الخبائث يُلقى
يشقّ الفضاء بغربٍ وشرقٍ
وضحوا وعجوا ونادوا بسبق
لبغنا الوطن المرتجى

•••

لأمرى ائتمر ومرامى أجر
وتحمل لي بالجلال فتاتي
عن الفلك صدّ العدو وعد
ولا تندفع في العدى مفردًا
فتحرز لي كلّ مجدٍ وفخر
على تحف ونفائس غرّ
ولو زفس أولاك أعظم نصرٍ
فتبخس قدري بين الورى

•••

ولا يدفعنك طيش القتال
فربّ إلهٍ ولي العداة
إذن حالما الأمن تضمّنه
فعد ودّع الحرب يضرّمها
لإليون بالجيش تحت النبال
كفيوس أخلّى الألب وصال
لأسطولنا وتصدّ الرجال
سواك وبادر إليّ هنا

•••

أيا زفس ربّ العلى يا أثينا
أبيدوا الطرود فوق الأخاء
ولا يبق حيًّا سوانا بإليو
فذاك حديثهما ها هنا
وفيبوسًا السادة الأعظمينا
ة يفنوا برمتهم صاغرينا
ن تخلو ودكًا ندك الحصونا» ٨
وئمة عزم أياس ارتخى

•••

توالت عليه طعان العدى	وزفس قُوى بأسه بددا
وفوق تريكتيه انهملت	نبالهم شاسعات الصدى
ويسراه بالجوب قائمة	يكاد من العي يلوي يدا ٩
وماكل جيش العدى بقناه	بدافعه عنهم القهقري

•••

وفوق جوارحه العرق	من الجهد كالسَّيل يندفق
فشق تردد أنفاسه	عليه وقد كاد يختنق
وسيم على أزمة أزمة	وزاد على القلق القلق
ألا ليت شعري كيف الأوار	علا الفلك قلن قيان العلى ١٠

•••

لآياس هكطور جرياً جرى	وعامله بالحسام برى
فأهوى السنان بثعلبه	يصل صليلاً لوجه الثرى ١١
فبات أياس بعودٍ ضئيل	وفي سخط آل العلى شعرا
وقد خال زفس برى دونه	عماد القتال لنصر العدى

•••

لذاك التوى عن مرامي الطبأ	وبالفلك أورى العدى للها
بكل الغراب السعير فشا	وفي سطح وجهته نشأ ١٢
فصاح أخيل لذا لا طمأ	بكفيه فخذييه مضطربا:

«بدار أفطرقل يا فرع زفس بدار أيا فارسًا قد سما

...

أرى الفلك بالنار تلهب
فأعداؤنا جملةً وثبوا
فألهفي هل ينالونها
ويمنع في وجهها الهرب
فقم بسلاحي إذن ريشما
أعبي كتائبنا واذهبوا» ١٣
ففطرقل شك بزاهي سلاح
ببراق فولاذه قد أضأ

...

فأوثق خفين بالقدمين
ساقيه شدت عرى من لجين
وألقى على صدره لأمةً
لأخيل روعة الفيلقين
وألقى حسامًا يرصّعه
قتير لجين على العاتقين
وجنته تلك ذات الوبال
تناولها ثم فيها أكمى

...

وتلك التريكة والعذبات
تطير بقونسها سابحات ١٤
رماها على ثبت هامته
تذل لرؤيتها العزمات
وقام يهز قنيًا ثقلاً
تخفّ عليه لدى الأزمات
كذا غير صلد قناة أخيل
جميع سلاح أخيل حوى ١٥

...

فما كان في القوم غير أخيل
فتى ذلك الرمح منهم يجيل
وعامله زانئة قطعت
بقنة فليون عودًا ثقیل ١٦

وخيرون أهدي لفيلا سلاحًا على رقيات العداة وبيل
ومذ شك فطرقل أفطمذاً لشد الجياد سريعاً دعا

•••

فتى كان يوم انتياب الشدد ولياً وفيأله وسند ١٧
وما كان يرعى فتى مثله من الصيد بعد ابن فيلا أحد
فهـب للزنـس يقرنـه بـاليس بهـي العـدد
جوادان عنقاء أمهما وقد علقت من نسيم الهوا

•••

نعم تلك فوذرغة وهي تسعى على ضفة الأقيانس ترعى
كذا حملت والجوادان شباً كعاصفة الريح جرياً وطبعاً
وللتير شد فـداس الـذي أخيل بإيتين نال سقعا
جواذ وإن كان رهن الردى فجري جـياد الخـلود جـرى ١٨

•••

وبالخيم طار أخيل وصاح يعبي مرامده للكفاح
فهـبوا كسـرب الذئـاب الكواسـ ر يدفعه البأس دفع الرياح
ممزق فوق الذرى إيلاً وأفواها داميأت الصفاح
وتنضم جيشاً جرى والفأ بسلط اللسان بماءٍ حلا

•••

فتنبذ في الماء تلك الدما وتروي ولا ترتخي همما ١٩

كذا حول فطرقل كبارهم
 وبينهم خلٌّ زفس أخيل
 بخمسين فلگا أتى بهم
 لفيهم دار وانتظما
 يحض الكماة حماة الحما
 بخمسين كل غرابٍ أتى

•••

بخمسة صيدٍ بهم وثقا
 فأولى جرائدهم نظمت
 (هو ابن الجدول إسفر خيوس الـ
 ولكنما أمه فولدورا الـ
 بامرته كفل الفيلقا
 بإمرة مينسيتيوس اللقا
 لذي كان من زفسٍ انبثقا
 جميلة وابنة فيلا النهى

•••

ومن بعد ذاك الإلاه بغاها
 فكانت له علنا زوجةً
 وثانية الفرق انتظمت
 هو ابن فُلَيْمِيْلَة ابنة فيلا
 بروس بن فيريسٍ وحبها
 وشاع بأن فتاه فتاهها
 لأفدور من جل بأسًا وجاها
 س من ولدته بشرخ الصبا

•••

بديعة حسنٍ بمغنى الطرب
 رآها تغني وترقص بين الـ
 فقاتل أرغوص هام بها
 وأولدها ولدًا نابغًا
 بها هرمسٌ بالغرام التهب
 عذارى لدى ذات قوس الذهب ٢٠
 وفي ذروة القصر فيها احتجب ٢١
 إذا ما عدا وإذا ما رمى

•••

ولما تبدَّى لشمس النهار	وثم إليثيةً بانتظار ٢٢
إحكليس أكتور أنزلها	بمنزله بأجل شعار
وفي حجر فيلاس ظل الغلام	يشبُّ ربيًّا عزيز المنار
وثالثه الفرق اجتمعت	لقيندر بن ممال الفتى

•••

فتى لم يفقه بهز القنا	بهم غير فطرقل إن طعنا
وفينكس رابع قوَّادهم	هو الفارس الشيخ إلف العنا
وخامسهم أقميذ بن الفيـ	س من عاديات الوغى امتحنا
كذلك آخيل كتَّـبهم	وصاح يشبتهم للوغى:

•••

«مرامدة اذكروا كم على	عداكم صديد الوعيد علا
فكلكم عاذلي كلِّما	حنقت وكلّ قلبي وتلا:
«أيا ظالمًا يا ابن فيلا فأمـ	ك قد أرضعت مرةً وقلا
«تصليت لبَّا وقسرًا حجرت	رفاك عن أشرف الملتقى

•••

«هلم بنا للديار وإلا	فماذا التحامل حقداً وغلا»
لتلك أقاويلكم جملةً	فدنكم جذوة الحرب تصلى
وتلك أمانيكم فليكرَّ	إليها الذي كان للكر أهلا»

فهبوا ولبّوا ملّيكهم كتائب رُصّت كِرصّ البنا

•••

كصخرٍ بصخرٍ قد اتصلا بحائط دارٍ سمت للعلی
وأحکم بناؤها رصفها فلسيت تبالي بنوءٍ ولا
كذاك تألب جيشهم وقد لاصق البطلُ البطلا
وبالخوذة الخوذة اشبتك وفوق المجن المجنُ انحنى ٢٣

•••

بهبتهم عذباتُ القوانس تلاقت تموج بهام القوامس
وفطرقل شك وأفطمدّ وقد برزا لالتقاء الدّراهس
همامان همّهما واحدٌ نكال العدو بصدر الفوارس
وأما أخيل فلمّا استتم انـ ستظامهم للخيام انشئ

•••

هناك غطاء خزانتـه أماط يئوج بهجتـه
فتلك الخزانة قد أتحفتـه بها أمـه يوم غزوتـه
وقد شحنتها بأرديةٍ تصد الهـواء بهيتـه
وأكسية وطنافس غرّ تشوق برؤيتها من رأى

•••

فأخرج كوّبا بديعاً سنـاه به ليس يشرب خمراً سواه
لزفس به الرّاح ترفع صرفاً وتهرق من دون كل إلاه

بنار الكباريت طهره
ومن بعد غسل يديه به الخمر
وغمسه بنقي المياه
ر سوداء صبّ بكل اعتناء

•••

وبين السرى قام يرفعه
يشير بعينه نحو السماء
«أيا زفس رب الددون ومولى الـ
ويا ملكاً بددونه حيث أز
ويعلو لزفس تضرّعه
وزفس يراه ويسمعه:
فلا سح من بان مربعه ٢٤
مهرّ على القوم قرّ الشتا

•••

وحيث سرى السلة السهد
فلم يغسلوا لهم قدماً
دعوتك قبلاً فأعزّزني
ألا فاستجبني أيضاً ولا
رواتك من حولك احتشدوا ٢٥
وغير الثرى ما لهم مرقد
بذل الأخاء وقد جهدوا
تخيني يا سميع الدعا

•••

فها أنا ما بين فلكي مقيم
يقود مرامدتي للوغى
وصلبه لبّاً فيعلم هكطو
وهل لا يكر ويبطش إلّا
فيزمع فطرقل خلي الحميم
فخوله نصرّاً أزفس العظيم
ر هل هو كفؤ لرغم الغريم
إذا ما وراء أخيل انبرى

•••

وشدده حتّى إذا ما انتصر
وعن موقف الفلك زال الخطر

يَأُوبَ إِلَيَّ هُنَا سَالِمًا بعسكره وسلاحه الأغر»
لَزَفَسَ دَعَاءَ أَخِيْلَ رَقَى وزفَسَ وعى جابرًا وكسر
فَخَوَّلَ فَطْرَقْلَ صَوْنَ الْخَلَايَا وأما سلامته فأبى

•••

وَأَمَّا أَخِيْلَ فَمَذَّ أَكْمَلَا فَرَوْضَ عِبَادَتِهِ قَفَلَا
بِمَوْضِعِهِ الْكُوبَ أَوْدَعَ ثَمَ إِلَى بَابِ خِيْمَتِهِ أَقْبَلَا
وَوَظَلَ هُنَالِكَ مَرْتَقَبًا مَنَازِلَةَ الْجَحْفَلِ الْجَحْفَلَا
وَفَطْرَقْلَ وَالْجَيْشَ مَنْتَظِمَ بِأَمْرَتِهِ لِلْكَفَّاحِ مَشَى

•••

كَأَنَّهُمُ الدَّبَرُ ثَارَ يَمُورَ وَخَشَرَمَهُ بِسَبِيلِ الْعَبُورِ
وَتُمَّةٌ وَلَدَتْ تَحْتَحْتَهُ لِيَبْعَثَ مَنْتَشِرًا بِالشَّرُورِ
يَمُرُّ عَلَى جِهَالِهِ عَابِرٌ فَيُدْفَعُهُ فَعْلِيهِ يَثُورُ
يَذُبُ عَنِ الْبَيْضِ مُسْتَبْسَلًا حَدِيدًا لِحِمَاتِ شَدِيدِ الْقَوَى ٢٦

•••

سَرَى الْمَرْمَدُونَ بِشَدَتِهِمْ كَذَا انْبَعَثُوا مِنْ عِمَارَتِهِمْ
وَفَطْرَقْلَ يَصْرُخُ مَذَّ أَقْبَلُوا يَعِجُ الْفَضَاءُ بِضَجَّتِهِمْ:
«مَرَامِيدَ لَيْسَ لِقَوْمِ أَخِيْلَ بَأَنْ يَنْشُوا عَنْ عَزِيمَتِهِمْ
عَلَيْنَا وَنَحْنُ سَرَاهُ بَأَنْ نَجَلَّ أَجَلٌ فَتَى بِالسُّرَى

•••

ليعلم أتريدُ ما اجترحا
فهاجت لذاك حميتهم
وكرُّوا وصاحوا وصيحتهم
وفطرقل يزهو وأفطمذَّ
بحط أشد قروم الوحي»
وكلهم للقا طمحا
صداها بفلكهم صدحا
بصدرهم بهي الحلى

•••

فخار الطرود وارتعبوا
وخالوا أخيل ارعوى مقبلاً
فكلهم التاع مستشرفاً
ومعظمهم عَجَّ حيث غراب
لمنظر فطرقل واضطربوا
عليهم وقد فاته الغضب
يرى كيف ينجو به الهربُ
فروطسلاس الأبى رسا

•••

هنالك فطرقل حيث خطاه
فأدرك بالكتف فيرخم مولى الـ
بهم من أميدون من جدَّ أكسـ
فخرَّ وخارت كتائبه
وأرسل يقذف صلد القناه
فيونة صيد الجياد العتاه
يُس خفَّ معتصماً بقواه
وولوا شتاتاً بعرض الفلا

•••

مقابسهم غادروا بالتهاب
ففطرقل أخمدها والعدى
وهبَّ الأخاء بتلك الخلايا
عن الفلك شتَّ العدو وقد
وقد لهمت نصف ذاك الغراب
تبَدَّد شملهم باصطخاب
وهدة نعرتهم للصحاب
بدا فرجٌ بعد طول العنا

...

سحابًا به شامخ الطود يريد	كأن مثير الصواعق بدد
وبطن الوهاد ونجدٌ وفدغد	فتبدوا الضواحي وشُمُّ الرّواسي
بلب الرقيع شعاعًا توقّد ٢٧	وينفتح الجو والنور يلقي
بشدّتها غايّة المنتهى	ولكنما الحرب ما بلغت

...

فغادرت الفلك تبغي الفرار	فطروادة ساق حكم اضطرار
على كل قرمٍ عميدٌ أغار	وظلّت تذود وفي إثرها
على عرليق السنان أطار	وفطرقل في صدر جند الأخاء
إلى العظم فانقض فوق الثرى	فأنفذ في حقه والجّا

...

وعن صدره الجوب كان أميل	وخرّ ثواس برمح منيل
مجيس تلقى برمح صقيل	وأمفقل رام مجيس ولكن
فخر غضيض الجفون قтил	فبتّت قلب شطيّته
يسًا فلدى قدميه التوى	وأنطليخ شق خصر أتمنـ

...

فخفّ لجشّته ليقيه	فحرّق ماريـس موت أخيه
ولكن بدا ترسميد يليه	وقد كاد يطعن أنطليخًا
فرى اللحم والعظم ينفذ فيه	فبادر عاتقه بسنانٍ

فخرَّ وصلَّ بشكته وعينه غشى ظلام الردى

•••

كلا الأخوين رمى الأخوان
وذا نك فرعا أميسودر
حليفًا ودادٍ لسرفيذ
هما لأريبا كذا انحدر
فمن ولد نسطور ذي الفضل دان
سليل خميرة هول الزمان ٢٨
وشهمان قرمان يوم الطعان
وقد غادرا قرع صم القنا ٢٩

•••

كذاك أياس بن ويلوس كر
تربَّك يبغي الفرار فوافي
فواراه في جیده فقراه
وليقون رام فنيلا وكل
إذا إقليوبول حيًّا ظهر
أياس بماضي غرارٍ أغر
وأخرج يلهب والقرم خر
رمى وكلا العاملين نبا

•••

فكرًا وكلِّ براحتيه
فعامل ذاك أصاب التريك
ولكن فنيلا فرى الجيد والرأ
فغادره نور مقلته
حسامٌ فخفَّ بضربته
ة فانقضَّ من كعب قبضته
س علق يهوي بجلدته
وفوق الحضيض صريعًا هوى

•••

ومريون مذ أقبل السهل ينهب
فألقي بعاتقه طعنةً
أكاماس أدرك إذ همَّ يركب
فجنبدل عن طرفه النور يحجب

وايذومن إرماس أصاب بفيه وفيه السرية غيب
فشقت العظم تحت الدماغ وأسنانه فلقلت في اللثى

•••

فمن منخريه النجيع تفجر ومن فيه والطرف بالدم محمر
ومن فوقه الموت ألقى سحابًا كثيفًا بسترتة قد تستر
وجيش الطراود ولّى شتاتًا وقد فاته البأس والذب والكر
وإثرهم انقض جند الأخاء وكل زعيمٍ زعيمًا فرى

•••

كسرب ذئابٍ بشم الخبال قد انقضَّ يبغي قطع السخال
وقد فرَّقته الرعاة بجبلٍ فيدهمه بفسيح المجال
ويبطش فيه يمزقه وليس له مهجة للنضال
فذا شأنهم وأياس حشاه لإدراك هكطور فيه التظلى

•••

ولكن هكطور وهو الهمام وقد حنَّته ضروب الصدام
أصاخ بسطرة جنته لقرع القنا وهزبز السهام
وقد شهد النصر رجحانه لقوم العداة فهام وحام
تثَّبت يفكر في صحبه يروم لهم نجوة ترتجى

•••

فمن موقف الفلك بالعنف ثار هديد الوغى وصديد الفرار

كما اندفع الغيم بالجو في يو م صحو به زفس نوءًا أطار
وفيلق إليون قد فرّ حتى ال حفير بغير هدى وقرار
بهكطورهم جمحت جرده فألقته عنهم بعيد المدى

•••

ويينهم بات ذاك الحفير لهم حاجزًا عن حيث المسير
فكم من عجال به سحقت وقد غادرتها الجياد تطير
وفطرقل يُنخي كتائبه لسحق جيوش العدى وبغير
فولّوا بعرض الفلا شرّدًا وقد ولولوا والفؤاد وهى

•••

فعجّ عجاجهم للسحاب وفطرقل يطلب لبّ العباب
فكم فارسٍ بات تحت العجال وقد خرّ يخفق فوق التراب
وكم فرسٍ غادر المركباتِ تخبُّ ووجهة إليون آب
ولم تك جردُ أخيل لتعبا بذاك الحفير العميق الهوى

•••

تعدّته كالبرق رامحةً من الجرف للجرف سابعةً
سلاهب خلد بنو الخلد كانت لفيلا الفوارس مانحةً
ومهجةً فطرقل ما لبثت لإدراك هكطور طامحةً
ولكن هكطور والخيّل شطت به جامحات الصدور نأى

•••

وخیلهم وهي منطلقه	تغیر وتصلهل مندققه
كأن الغيوم بيوم خريفٍ	بنوءٍ على الأرض منطبقه
فيهمر زفس السيول انتقامًا	من الخلق إذ تنبذ الشفقه
وتقضي القضاة بمجلسها	ولا قسط في حكمها والقضا

•••

وقد فاتها حممًا أن تهاب	بني الخلد إن نهضت للعقاب
فتطغى مجاري المياه وتطمو الـ	سيول وتنقض فوق الهضاب
تغادر شمَّ الجبال زعابًا	إلى البحر يعلو لظهر زعاب
تعيث وتفسد في الأرض حتّى	عنا النَّاس يصبح طرًا هبا ٣٠

•••

وفطرقل بين الصدور صدر	وساق إلى الفلك تلك الزمر
على رغمهم دون عودتهم	لأليون حال وأجرى العبر
وجندهم بين مرسى الخلايا	وسيموس والحصار حصر ٣١
وصال وأوّل صـولته	على أفرنوس الهمام سطا

•••

بدا صدره تحت جنّته	وفطرقل خفّ بطعنته
فجندله لا حراك به	وأهوى يصلُّ بشكته
وثنى بشطور إينفس لما	تلملم من فوق سدّته

تضعضع خوفًا فأرخی العنان

وفطرقل في إثره مضى ٣٢

•••

بصفحة وجنته الرمح ألقى

فغاص وشقَّ النَّواجد شقًّا

ومن ثمة اجتَرَّه بالسنان

عن العرش بالرمح يلصق لصقا

كما اصطاد بالشص من فوق صخرٍ

فتى سمك البحر والشص دقا

فألَقاه والرمح يفغر فاه

على وجهه ثم عنه اغتدى

•••

فإربال ألقى إليه ابتدر

فبادره قاذفًا بحجر

فحل ببطن تريكتيه

وهامته شقَّ ثم انحدر

فخرَّ صريعًا ومن حوله الـ

حمام مبيد الحياة انتشر

ومن ثمَّ أتبعه بقروم

على بعضهم بعضهم قد ثوى

•••

فمنهم إريماس أمفوطروس

وإفيلط إيفيسٌ إِيخيوس

وإطلوفلتم فريس كذاك

فليميل أرغيس إيفوس

فلما رأى صجبه سرفذون

بهم لعبت عاديّات البئوس

تحدّم يصرخ في قومه:

«فوا عاركم يا بني ليقيا

•••

قفوا لا تفرُّوا علام الوجل

فإني أطلب هذا البطل

لأعلم من ذا الذي عاث فينا

ومنا العديد الوفير قتل»

رَأَاهُ تَرْجَلٌ يَمُودُ وَفَطْرَقْلٌ لَمَّا
كَأَنَّهُمَا عِنْدَمَا اصْطَدَمَا

•••

يَهْبَّانِ هَبَّةً مَظْفَر
يَصْرَّانِ صَرْصَرَةً وَيَشَبَّانِ
وَزَفَسٌ بَعَزَلَتُهُ رَاقِبٌ
فَقَالَ لَهُمَا شَقِيقَتُهُ
بَعَقَفَ الْمُخَالِبَ وَالْمَنْسَرَّ ٣٣
نَ مِنْ فَوْقِ ذِيَالِكَ الْحَجَرِ
فَهَاجَ بِهِ الرِّفْقَ بِالْبَشَرِ
وَزَوَّجَتْهُ: «آهَ حُلِّ الْقَضَا

•••

أَرَى سَرَفْدُونَ أَحَبَّ الْعِبَادِ
يَنَازِعُ قَلْبِي أَمْرَانِ إِمَّا
وَالْقَاؤُهُ وَهُوَ حَيٌّ مَفْدَى
وَإِمَّا السَّمَاخَ بِمَقْتَلِهِ
إِلَيَّ بِعَامِلِ فَطْرَقْلٍ بَادٍ
مَوَارَاتِهِ عَنْ مَجَالِ الْجَلَادِ
إِلَى قَوْمِهِ فِي خَصِيبِ الْبَلَادِ
فَيَبْلُغُ فَطْرَقْلٌ مِنْهُ الْمَنَى»

•••

فَقَالَتْ: «وَأَيُّ مَقَالٍ تَقُولُ
فَتَى مِنْ بَنِي الْمَوْتِ حَكَمَ الرَّدَى
فَأَنْفَذَ مَرَامِكَ إِنْ رَمْتَ لَكِنْ
فَدُونِكَ مِنِّي مَقَالَةٌ حَقٌّ
أَيَا ابْنَ قَرُونَسٍ قِيلَ الْقِيُولُ
رَمَاهُ وَأَنْتَ تَجُوزُ الْأَصُولُ
بَنُو الْخُلْدِ لَا يَظْهَرُونَ الْقَبُولُ
فَأَلْقَ مَقَالِي بِسَامِي الْحَجَى

•••

إِذَا سَرَفْدُونَ إِلَى الْأَهْلِ حَيًّا
أَعَدْتَ فَآلَ الْعُلَى تَتَهَيَّأُ

وتطلب إنقاذ أبنائها
فإن أنت أحببته سمتهم
فخل حنوك وأذن إذن
من الحنف مثلك شيئاً فشيئاً
على مضض الكيد غيظاً وغيّاً
ففطرقل ينفذ حكمًا مضى

...

فإن غادرتَه الحياة وباد
إلى ليقيا يحمله سريعا
فيدفن في اللحد حرًا كريمًا
فذاك جزاء الأولى جاهدوا
مر الموت فورًا وعذب الرقاد
لإخوته والصحاب البعاد
ونصبُ الكرام عليه يشاد
وماتوا كرامًا ونعم الجزا»

...

فأذعن زفس لها ثم أمطر
قيامًا بإجلال فرع حبيب
فكرًا وفطرقل ثرسملاً
تلا سرفدون بسوق الجياد
على الأرض طلاً من الدم أحمر ٣٤
سيردى غريبًا وفطرقل يفخر
رمى بالصفاق فمن فوره خر
وكان حليف الصبا المرتضى

...

وعامله سرفدون قذف
فخرًا لوجه الثرى صاهلاً
فأزعج مصرعه الفرسين
وصرع عنانيهما التف فاست
ولكن بكتف فداس وقف
وقد زهقت روحه وارتجف
فشبًا ونيرهما قد قصف
لأفطمذ سيفه وانتضى

...

فعادا لروعهما والطراد
ن في حومة الحرب قرمي عناد
فعن كتف فطرقل يسراه حاد
أطار وما إن أطار سدى

وخف وبست رباط الجواد
وعاد الكميان للضرب والطع
رمى سرفذون مثقفه
ولكن فطرقل عامله

•••

على عضل القلب حيث انتصب
بأسنانه والحضيض اختضب
وباسقة الأرز فوق الهضب
ر فلك متين الجدوع برى ٣٥

ففي سرفذون السنان انتشب
فأهوى يصر أمام العجال
كملولة أو كصفصافة
بها نفذ الحد في كف وشا

•••

عتا وعليه الغضنفر ثار
يخور إلى أن ترج القفار
ومن كف فطرقل ألقى البوار
علا صوته بجهير النداء:

وخر كثور بصدر الصوار
ومن تحت صكة أنيابه
كذا خر مولى بني ليقيا
ولكنه بتجلده

•••

لذا الحين حين الصدام العنيف
فلا تصب إلا لقرع السيوف
لدى سرفذون أوار الحتوف
قلوب السرى بسعير الجدى

«ألا يا غلوكس خير أليف
لئن كنت ذا مهجة وجنان
أثر بقبول بني ليقيا
وذودن عني وللحرب ألهب

...

والأ وبهم العدى صرعوني
سأورثك الدَّهر خزيًا وعارًا
ومن ثم أحمـد أنفاسه
وفطرقل داس على صدره
وجندلت في وجه هذي السفين
إذا ما العدى شَكَّتي سلبوني»
وأغمض عينيه ستر المنون ٣٦
لينتزع العامل الممتهى ٣٧

...

فأخرج يعلق ذاك العضل
وهم المرامد في عجلٍ
عتاقٌ وغادرها فارساها
وأما غلوكس فالتاع بثًا
بحد السنان وروح البطل
ليستوقفوا الجرد تحت العجل
فحثحثها للفرار الوجـل
لذاك النداء وحشاه انفأى ٣٨

...

لقد بسط الكفَّ فوق الذراع
فما زال يؤلِّمُهُ نبل طفقيـ
فألقت يدعو أفْلون ربَّ السـ
فحيث تكن أنت يبلغك صوتُ
وليس به قوَّةٌ للدفاع
ر لما تسلق فوق القلاع
هـام: «ألا رب جد باستماع
كئيبٍ تلهَّف مثلي أنا

...

أفي ليقيا كنت أرضِ اليسار
فأنت ترى ألمي وجراحي
تثقلُ كففي من هز رمحي
أم اخترت إليون دار قرار
وسيل دمٍ من ذراعي فاز
إذا ما علا بالبدار الغبار

وذا سرفدون العميد ابن زفس وما صانه زفس ألقى السوى ٣٩

•••

فآلامي الآن سكن وخفف
لكي استحثّ بني ليقيا
دعا فاستجيب الدعا ومسيل
وآلامه سكنت وحشاه
وبأسًا أنلني والدم جفف
وحول القтил الرماح نكشف»
الدماء على الفور بالجرح أوقف
ببأس شديد ذكا واصطلى

•••

فمالت به هزّة الطرب
بصيد بني ليقيا طافي يستن
وبين الطّراود جال فمال
وأنياس ألقى فحثّ وخفّ
لما نال من بلغة الأرب
هض البهم للذّود والطلب
لفوليدماس الهمام الأبى
إلى آغور الفتى المُجتبى

•••

وهكطور وافى بقلب الحديد
«أشأنك هكطور عن حلفاء
بحبك قد هلكوا وعداهم
فذا سرفدون المليك الذي
يؤج فصاح بصوتٍ شديد:
ك تغضي وصيد سراهم تبيد
عن الأهل والدّار بون بعيد
حوى البأس والعدل غضًا ذوى

•••

أريس براحة فطرقل قد
ألا ما كررتم وقلبكم الـ
رماه وحرّقنا بالكمـد
تباعًا بحرّ الأوار اتقد

ألا ما خشيتم أن المرام — سد ينتزعون زهبي العدد
ويولونه الذلّ منا انتقامًا — لبهم أبدنا بغر الطبا»

•••

فهذ الطراود ذاكي اللف — على سرفذون وفاض الأسف
فقد كان وهو دخیلٌ بهم — لهم منعةً من عوادي التلف
مشى إثره البهم جيشًا وليس — له بهم شبهةٌ أو خلف
فهاجوا وهكطور في صدرهم — تحدم غيظًا يحث الخطى

•••

ولكن فطرقل بين الأخاء — عدا يستحثهم للقاء
وأقبل يدعو الأياسين لكن — فؤاد الأياسين يذكو اصطلاء:
«ألا الآن دونكما الذود مذكد — تما خير كل قروم البلاء
فذا سرفذون الفتى من إلى الـ — معاقل قبل الجميع رقى

•••

عسى أن نفوز بجثته — نجردها لمذلتته
ونفري بحد الغرار الأولى — يذبون من جند عصيته»
فهبًا ومن كل صوبٍ تكث — ف جيشٌ يجيش بهمته
وحول القтил اصطدامٌ عيف — وعجٌ مخيفٌ وصلُ الشبا ٤٠

•••

بنو ليقيا ولفيف الطراود — وجندُ الأخاء وجيش المرامد

جميعهم اندفعوا دفعة
وزفس على فرعه حسرة
فأحرق فيهم وقد كيد كيداً
بصلصلة ووحى متصاعد
تحرّق يبغى اشتداد الشدائد
وأسبل ستر ظلام دجا ٤١

•••

ففي البدء جيش القتيل اندفق
فبين المرامد خر إفيجـ
لقد كان قبلاً ببوذية
مضى فاتكاً بابن عم له
وصدّ الأخاء الحداد الحدق
يُس بن أغكليس فخر الفرق
فغادرها تحت جرم سيق
وعند ثئيس وفيلا التجا

•••

إلى حرب طروادة سيّراه
لقد رام سلب القتيل وهكطو
وهامتـه بتريكتـه
ومن فوره خرّ فوق القتيل
لأخيل خرّاق جيش الكماه
ر فوراً بجلمود صخرٍ رماه
لشطين شقّ فألفى رداه
وحرقّ فطرقل فرط الشدّاء ٤٢

•••

حكى مذ مضى في الطلائع صقرا
وسرب العقاقع من وجهه
فسعديك يا ابن منتيوس هزم
بني ليقيا والطراود طراً
لديه الرّازير يفررن فرّاً
شتاتاً تساق به حيث كراً
ت كلّ فئى هالماً مقشعرا
قهرت انتقاماً لآلف كبا

...

وعنق ابن إيثيمينٍ إستيل
ففرَّ الطراود في وجههم
إلى أن أبينوا على روعهم
على العنف يرمي به طاعنٌ
دققت بصخرٍ قذفت ثقیل
كذلك هكطور ولّى ذلیل
على بعد مرمى سنانٍ صقیل
بدار الوغى أو بعرض اللّهی ٤٣

...

ولكن غلوكس ثم انتشى
وأصمى بثكلييس خلوكون من
وما كان بين الطّراود من
لقد كاد يرمي غلوكس لمّا
وعاد فأعمل شهب القنا
بهیلاذة ناعمّا سكنا
حكاہ بهم ثروةً وغنى
وراء العداة حثيثًا سعى

...

فعاد غلوكس والرّمح زج
على بأسه خرّ فارتجّت الأر
ولكنّ جيش العدى فرحًا
وأما الأخاء فلم ينشوا
وفي الصّدر حدّ السنان ولج
ضُ والتهمت بذويہ المهج
تكثّف من حوله وابتهج
بل اندفعوا كزعابٍ طغاء ٤٤

...

ومريون بين العدى ظفرا
هو ابن أنيطور كاهن زفس
أصيب على مقتل الأذن فانق
بقرم بلوغونسٍ شهرا
يايذا ومن مثله وقرا
ضّ لا رمقّ فيه فوق الثرى

فبادر أنياس يطعن مريو ن لكنّ ذاك السنان هفا ٤٥

•••

لقد كان مريون مستترا بجنّته عندما ابتدرا
فمال عن الرمح والنّصل زلّ ومن خلفه للحضيض سرى
وظلّ هنالك مرتعشاً على ذلك العزم إذ خدرا
رمته ذراعٌ لها البأس ينمي فأنفذ لكن ببطن النقا ٤٦

•••

وأنياس صاح مغيظاً: «أجل أمريون فاتك سهم الأجل
وإلا فمهما تفوّقت رقصاً لو النّصل وافاك عزمك فل» ٤٧
فقال: «أنياس هيهات تصمي جميع العداة وأنت بطل
وأنت رهين الحمام عسى أصيبك مهما حشاك عسا ٤٨

•••

فإمّا زمتك طبا أسلي وقد أدركتك انتهى أملي
فلا شك تهبط في فشل لاذيس روحك والفخر لي
ولكنّ فطرقل سيء فقال يؤنب مريون بالعجل:
«علام أخي ذا المقال المهين وأنت بلوتك سامي النّهي

•••

أترزم أن حديد الكلام يصد الطراود يوم الصدام
فماذا بدافعهم عن قتيلى حواليه تصطك لأمّ بلام

ولن يرجعوا عنه حتّى يضاف
فللحرب فعلٌ وللسلم قولٌ
صريعًا لذاك الهمام همام
وهذا أوان الوغى لا اللغا» ٤٩

•••

فحفّ ومربون في الإثر خف
وفي السهل للبيض والسمر قرعٌ
كأن بأذرع حطّابةٍ
وحول القتيل استطار العجاج
كربٌ وللجيش جيشٌ زحف
بفولاذهم وإهاب الححف ٥٠
بغابٍ فنوسًا صداها قصف ٥١
وويل الدما والنصال همى

•••

من الرأس غشّاه حتى القدم
وفيلق كل فريقٍ لديه
كأنهم بالربيع ذبابٌ
وقد حام من حول ألبانها
فما كان يصير بين الرمم
بهذّته الكفاح ازدحم
يطنُّ طنينًا بيت النعم
إذا ما الإناء رآه امتلا ٥٢

•••

وزفس بشامخ تلك الذرى
ولكنّه لم يزل راقبًا
يجيل بأمرين هاجسه
فيقتله فوق ذاك القتيل
عن الحرب ما حوّل النظرا
بمقتل فطرقل مفتكرا
أيدفع هكطور مستعرا
ويسلبُ منه سلاحًا زها

•••

أم الحرب عنفًا شديدًا يزيد
وفيها قروم الرجال يبيدُ

ك بالهم إلف أخيل العميد
لإليون من تحت قرع الحديد
فهب لمركبه واعتلى

فعول أن يستحث إلى الفت
فيدفع هكطور والجيش طرًا
لذلك أوهن هكطور قلبًا

...

وأوجس من زفس عنه ازورار
أميلت ودور الدوائر دار
غدوا لا يقر لهم من قرار
فولوا وقد جلت الأربى ٥٣

وولى ونادى بهم بالفرار
درى أن كفة ميزانه
وعزم بني ليقيا خار حتى
وراعهم صرغ ملكهم

...

ومن فوقه جثث النبلا
قضى زفس أن يذلهم البلا
ته وإلى فلكهم أرسل
ألا يا ولي الوداد كفى

رأوه طعين الحشا جنடلا
حواليه خر الصناديد لما
فجرده قوم فطرقل شك
فصاح بفيوس زفس: «إذن

...

سر الآن فورًا وجد المسير
إلى عزلة قرب ماء غزير
وأنزله في ماء ذاك الغدير
ملا بس لا يعتريها الفنا

إلى سرفدون الأمير الخطير
فإن جنته فامضين به
وطهره من دنيس الدم حالًا
وبالعبر ادهنه ثم اكسه

...

لا سرع قادة كل العباد
 به ألقى يحتملاه سريعاً
 فيدفن في ليقيا ضمن لحدٍ
 فذاك جزاء الأولى جاهدوا
 إلى التوأمين الرّدى والرقاد ٥٤
 لإخوته والصحاب العباد
 ونصب الكرام عليه يشاد
 وماتوا كراماً ونعم الجزاء» ٥٥

•••

فلبى أفلون طوعاً يسير
 أتى سرفدون وسار به
 وطهره من دم دانسٍ
 وطيبه عنبراً وكساه
 ومن طور إيذة هب يطير
 إلى عزلة فوق سيلٍ غزير
 ونقاه في ماء ذاك الغدير
 ملابس لا يعتربها الفنا

•••

لأسرع قادة كل العباد
 به راح يلقي فطارا به
 ليدفن في اللحد حراً كريماً
 فذاك جزاء الأولى جاهدوا
 إلى التوأمين الردى والرقاد
 لإخوته والصحاب العباد
 ونصب الكرام عليه يُشاد
 وماتوا كراماً ونعم الجزا

•••

وفطرقل أفطمذا والخيول
 وبالنفس ألقى لتهلكةٍ
 فلو لأخيل ارعوى ما انبرت
 ولكن زفس إذا ما نوى
 وراء العدى حثّ فوق السهول
 وضلّ ضلال الغبي الجهول
 عليه عوادي الحمام تصول
 فما للورى رد ما قد نوى ٥٦

...

فقد يدفع الفارس البطلا ليوليه الذلّ والفشلا
لذلك فطرقل حث وأغرى ليبلغ في كره الأجلا
ألا قل أطرقل من آخرًا ومن أنت جندلتَه أوَّلًا:
عدا وبأذرت ثم بأوطو نووس وإيخيكلوس بدا

...

كذاك ابن ميناس فيريم ثما فلرتس ثم إفتور أصمى
وإيلاس موليّا ميلنقّا وسائرهم للهزيمة همّا
وكان الأخاءة إليون يفتـ تحون بهمة فطرقل رغما
ولكن رقى الحصن فيوس ينوي له الشرّ والحصن منه وقى

...

ثلاثًا لركن الحصار اندفع وفيوس عنه ثلاثًا دفع
براحته صدّ جنّته فما ارتدّ عن عزمه وارتدع
بل انقض رابعة كإلاه فما خال إلا الدويّ ارتفع
وفيوس صاح: «ألا عدّ أيا فر ع زفس فما لك ذا المنتسا ٥٧

...

فما دك إليون في الغيب لك ولا لأخيل الذي فضلك»
تقهقر فطرقل مضطربًا لخشيته سخط ذاك الملك
وهكطور في باب إسكية على جرده فاكّر بالدرك

أيدفعها للجهاد أم القو م يجمع للذود خلف الربى

...

وإذ كان يفكر مضطربا إليه أفلون اقتربا
دنا وحكى خال هكطور آسـ يُسًا فرع ديماس متدبا
شقيق لايقاب من ثغر سنغا رس بفريجا بشرخ الصبا
وصاح: «علام اعتزلت الكفاح أهكطور ليس بشأنك ذا

...

فلو زفس لي بقواك حكم لأوليتك الآن مرّ الندم
فعد وجيادك حثّ عسى وفطرقل ترمي بحدّ أصم
لعل أفلوز يوليك نصرًا وفطرقل ترمى بحدّ أصم
ومن ثم عنه الإلاه تواری وكالبرق بين الجيوش سرى

...

وهد قلوب الأخاء هداً وطروادةً بالولاء أمداً
وفي قريون بن فريام صاح يردّ الجياد إلى الحرب ردًا
فساط وهكطور من دون كل الـ أراغس يقصد فطرقل قصدا
ولكنّ فطرقل ما ارتاع بل ترجّـل محتفـزًا للقا

...

بيسراه عامل رمح متين كذا حجرّ خشنّ باليمين
رماه فأخطأه ومضى إلى قريون أخيه الأمين

فأدركه وهو مستمسكٌ بصرع أعتَّه بالجين
فقض العظام على الحاجبين وعيناه طيرتا للبرى ٥٨

•••

فخر عن الخيل كالبرق يسري إلى الأرض يهوي كابر قعرِ
وفطرقل صاح به ساخرًا: «فيا للباقتة كيف يجري
فلو من سفينته واثبًا إلى اليم غاص للجَّة بحر
لصاد حلزًا ولو صدع النَّوء يكفي الجماهير شرَّ الطوى ٥٩

•••

لئن غاص بالبر من تي العجال فغاصة طرواد نعم الرجال
ومن ثمة انقضَّ فوق القتل كليث بقلبِ الحظائر صال
فيدركه السهم في صدره ويلقي به بأسه للوبال
فويحك فطرقل من صائلٍ على قريون تهيج صالا ٦٠

•••

وهكطور عن خيله نزلا وفي طلب الجثَّة اقتتلا
كليثين بينهما طيبة بها فتكا فوق طودٍ علا
كلا البطلين يهيج احتدامًا ليعمل في نده الأسلا
فهكطور بالرأس مستمسكٌ وفطرقلُ بالقدمين كذا

•••

وحولهما اصطدم الجحفلان بنقع علا تحت قرع الطعان

كَأَنَّ الصَّبَا عَرَضَتْ لِلْجَنُوبِ بَغَابٍ تَشَامَخُ فَوْقَ الْقَنَانِ
تَزْعَزَعُ دَرْدَارُهَا وَالْقَرَا نِيَا وَكَذَا الزَّانُ بَيْنَ الرِّعَانِ ٦١
فِيَلْتَفُ غَصْنٌ بِغَصْنٍ فِينَا قَضُ بَيْنَ حَفِيفٍ وَقَصْفٍ دَوَى

•••

كَذَا اشْتَبَكُوا وَالْوَعَى التَحْمَا يَشِيرُ بِهِتَّةٍ الْهَمَمَا
طَعَانٌ تَشَقُّ الدُّرُوعُ وَغِيثٌ سَهَامٌ بَعَرَضِ الْفَلَا التَّطْمَا
وَصَخْرٌ يَقْضُ التَّرَائِكَ حَوْلَ الدِّ قَتِيلَ الَّذِي خَرَّ هَامِي الدِّمَا
سَهَا عَنْهُمْ تَحْتَ عَشِيرِهِمْ وَلِلدَّهْرِ عَنْ جَرْدِهِ قَدْ لَهَا

•••

تَسَاوَتْ مَرَامِيهِمْ مَا اسْتَوَتْ بِرَاحٍ بِقَلْبِ السَّمَاءِ وَعَلَتْ ٦٢
وَلَمَّا دَنَا آتَانُ حُلِّ الشَّارِ وَمَالَتْ فَجَنْدُ الْأَحْيَاءِ ارْتَمَتْ ٦٣
وَرَغِمَ الْقَضَاءُ بِجَشْتِهِ خَلَّتْ وَبَهَا لِلْبَرَّاحِ جَرَتْ ٦٤
وَشَكَّتْهُ انْتَزَعَتْ وَانْشَتَتْ وَفَطَّرَقَلَ كَيْدَ الْعِدَّةِ انْتَوَى ٦٥

•••

ثَلَاثًا كَارِيسٌ كَرَّ يَصِيحُ بِصَوْتٍ دَوَى فِي الْفَضَاءِ الْفَسِيحِ
ثَلَاثًا ثَلَاثَةَ صَيْدٍ رَمَى وَأَقْبَلَ رَابِعَةً يَسْتَبِيحُ
فَوَيْكَ فَطَّرَقَلَ قَدْ قُضِيَ الْأَمُّ رُفَا لِيَوْمِ قَتْلِكَ حَتْمًا أَبِيحِ
وَفِيَسُوسُ وَافَاكَ مِنْحَدْرًا بِظِلِّ السَّحَابِ بِطَيِّ الْخَفَا

•••

ومن خلفه جاء مستترا
وألقى على ظهره يده
ودحرج للأرض خوذته
فصلّت ودنست العذباتُ
لذلك فطرقلُ ما شعرا
فعيناه ألهبتا شررا
أمام خطى الخيل فوق الثرى
بنقع الحضيض وسيل الدما

•••

تريكة آخيل تلك وما
ولم تك إلا لذاك الجبين الـ
وزفس قضى أن تجلجل هامـ
ولن تلبثن له غير حينٍ
إلى الأرض قط هوت قدما
سذي بالفخار سما عظما
ة هكطور لمّا هنا أقدما
لأنّ الحمام إليه دنا

•••

وعاملُ فطرقل في كفه
وجنته بحمائلهـ
وحلّت عن الصّدر لأمته
فأوقف يهلّع رعبًا وخارت
تسحق ينذر في حتفه
أميلت إلى الأرض عن كتفه
بصرف أفّلّون لا صرفه
قواه وغشّى حجاؤه العمى

•••

وثمة كان فتّى دردني
بأوفرب فنشوس يُعرّف وهو
لقد كان وهو يكرّ فتّى
تفوّق في فيّة الزّمنِ
أخو البأس والعدو والخُصن ٦٦
تحنكه ساحه المحن

رمى عن صدور العجال من الصبي د عشرين قرماً لظهر الحنى ٦٧

•••

فذلك ذلك فطرقل قد أتاك وظهرك بالزُرح قد
وذلك أول قـرم رماك ولكنه خاب فيما قصد
فعامله اجتـرّ ثم جرى يفر إلى قومـه وارتعد
لقد سمتـه الرعب حتى اتقى وإن كنت أعزل لا تتقي

•••

ولكن فطرقل هد قواه سنان القنـاة وروع الإلاه
لذاك تنصّل خوف المنون إلى صـحبه لائـذاً بسراه
وهكطور لـمّا رآه جريحاً تقفّاه بيـنهم ورمـاه
فشق الصفاق لأحشائه فخر وقلب ذوبـه ذكا

•••

كأن على الشم خرنوص بر دهاه على الورد ليثٌ فكر
وفي طلب الوشل اقتتلا فما انكفأ الليث حتّى انتصر ٦٨
كذلك هكطور فطرقل أصمى وهـدّ به صائـحاً وافتخر:
«زعمت أفطرقل أن لك الجـد و من فوق إلـوننا قد خلا

•••

أحلت بدك معاقلنا تفوزُ وسـبي عقائلنا
لقومك بالفلـك تحملهنَّ أفاتك طعن ذوابلنا

تعمست ألم تدر أن بهكطو ر تنساب جرد صواهلنا
ليرفع عنهنّ ذلّة رقّ برمح بقلب العداة مضى

•••

هلكت فرح مطعمًا للصقور فهلّا كفّاك أخيل الثبور
كأنّي به قال حين الوداع بتلك الخيام مقال الغرور:
«إلى الفلك فطرقل لا عود ما لم تمنّ العداة بأدهى الشرور
«تمزق عن صدر هكطور درعًا كستها الدماء خضيب الكسا»

•••

أجل قوله ذاك مذ أرسلك وأنت اغتررت بما قال لك»
أجاب على زفرات المنون: «على العجب فوزك قد حملك
بصولة زفس وفييوس فطرق ل لا بأس هكطور حتما هلك
هما عريّاني من عدّتي وإلا أريّتك قطع الطلّي ٦٩

•••

بعشرين هكطور مثلك لا أبالي إذا ما الغبار علا
أصلمهم وسنان قناتي شحيذّ لهم يحمل الأجل
فإن الردى وابن لاطونة وأوفرّب هم علتني والبلا ٧٠
وما كنت أنت بطعنك لي سوى ثالثٍ قد تلا ووني ٧١

•••

ومني خذ نبأ صدقا ففطرقل بالحق قد نطقا

فما أنت بعدي حيّ طويلاً فإن الردى بك قد أحدا
وقد حان حينك فاشق به قريباً بكف أخيل اللقاء» ٧٢
ومن ثم أسبل ظلّ الظلام عليه ستار الردى فطفأ ٧٣

•••

هوت روحه صبيّاً تستطير لرب الجحيم بوادي الزفير
هنالك تندب حكم القضاء وتلك القوى والشباب النضير
وهكطور ما زال يزرى به: «علام بحتفي كنت النذير
فمن قال عمرُ ابنِ ثيتيس لا بحد قناتي قبلي انقضى»

•••

وعامله اجتزر من صدره وألقاه فيه على ظهره
وفي نفسه قتل أطمذ فأقبل ينقض في إثره
ولكنّ ألف أخيل بخيل أخيل توارى على قهره
وليست لندرك بين الملا عتاق بها زفس فيلا حبا

هوامش

(١) أي: كالماء الأسود المنبثق من الصخر، ولا يخفى أن الماء لا يكون أسود، وإنما أراد الماء المنفجر من الصخر الأسود فيشف عن الصخر فيظهر بلونه، وذلك على نحو ما جرت به عادة العرب من تشبيه

الدمع بالدم والعندم، واستعارتهما له إشارةً إلى حمرة العين، وأكثر ما يكون ذلك في كلام المولدين، كقول عز الدين الموصلي:
ملفّقٌ مظهر سري وشان دمي لما جرى من عيوني أو وشا ندمي

وأحسن منه قول الآخر:
ولئن بكيناه يحق لنا أولاً ففي سعة من العذر
فلمثله بكت العيون دماً ولمثله جمدت فلا تجري

(٢) منتيوس والد فطرقل، وفيلا والد أخيل كما علمت، ولقد قدم أخيل على نكبة قومه جزعه على أبيه وأبي حبيبه فطرقل، يدل ذلك على منزلة برهم بالوالدين.

(٣) الإسي: جمع آسي الأطباء.

(٤) قال معن بن أوس:
ستقطع في الدنيا إذا ما قطعني يمينك فانظر أي كفّ تبدل
وفي الناس إن رثت حبالك واصلّ وفي الأرض عن دار العلى متحول
إذا أنت لم تنصف أخاك وجدته على طرف الهجران إن كان يعقل

وأقرب من هذا لقول هوميروس قول جرير:
بأي نجاد تحمل السيف بعدما قطعت القوى من محمل كان باقيا
بأي سنان تطعن القوم بعدما نرعت سناناً من قناتك ماضيًا

(٥) تشبيه الفؤاد بالصخر والحديد وما أشبه كثير في كلام

الشعراء، كقول عنترة:

خلقت من الحديد أشد قلبًا فكيف أخاف من بيض وسمرٍ

ومثله قوله:

خلقت من الجبال أشد قلبًا وقد تفتى الجبال ولست أفتى

ومن هذا القبيل قول بعضهم:

أمرٌ بالحجر القاسي فآلثمه لأن قلبك قاسٍ يشبه الحجر

(٦) قال المعري:

تهاب الأعادي بأسه وهو ساكنٌ كما هيب مس الجمر قبل اضطرامه

وقوله:

ويضحى والحديد عليه شاكٍ وتكفيه مهاتيه النزالا

ومثله قول عنترة:

ولو أرسلت رمحي مع جبانٍ لكان بهيتي يلقي السباعا

(٧) قال الرضي:

لويت إلى ود العشيرة جانبي على كظم داءٍ بيننا متفاقمٍ

ونمت عن الأضغان حين تلاحمت جوائف هاتيك الندوب القدائم

وأوطأت أقوال الوشاة أخامصي وقد كان سمعي مدرجًا للنمائم

وسالمت لما طالت الحرب بيننا إذا لم تظفرك الحروب فسالم

(٨) جرى على ألسنة القوم منذ القدم ذكر تواد أخيل وفطرقل وتواتقهما مجرى الأمثال، حتى لقد روي أنه لما شخص الاسكندر لزيارة أضرحة أبطال اليونان الهالكين بحرب طروادة أخذ إكليلاً، فوضعه على قبر أخيل فعمد صديقه هفستيون إلى إكليل آخر فوضعه على قبر فطرقل إشارة إلى أنه مقيم على ولاء الإسكندر إقامة فطرقل على ولاء أخيل. ويروى عن الإسكندر إذ ذاك قوله: إن أخيل أدرك منتهى السعادة بصديق كفطرقل يتفانى بحبه حيّاً، وشاعر كهوميروس يخلد ذكره ميتاً. وإن لنا هنا بمحاورة أخيل وفطرقل رسمًا ناطقًا رصعه الشاعر بلآلي تصوراته فمثل البطلين تمثيلاً.

يتفطر فؤاد فطرقل لهفًا على مصاب قومه فيقبل على أخيل فتخنقه العبرة، فتهز أخيل عواطف الرفق لرؤيته على تلك الحال، وهو الفتى الصلد الفؤاد الذي لم يهتز رفقًا لصرع الألوف من قومه وتمزيق فيالقههم، فكأن تلك العبرات المتساقطة من مقلتي حبيبه كانت أحر على فؤاده من نيران الأعداء اللاهية بسفن اليونان، ثم بادره بالخطاب فكان أول ما افتتح به كلامه بعد سؤاله عن حاله ذلك التشبيه الذي يتدفق رقة وحناناً، وهو وإن يكن مرّ على بصر كل شاعر قبل هوميروس وبعده، فلم نر أحداً أفرغه بذلك القالب البديع على سذاجته غير هوميروس، ومن ذا الذي لم ير طفلة تعلق باكية بثوب أمها لأمر تروم، فلا الأم تقوى على صدها بالعنف مهما كانت شواغلها، ولا الطفلة تعرف ملاذاً غيرها تلوذ

إليه، فلا تجد لأمرها عذراً عن قضاء حاجتها، وهي في نظرها المصدر والمآل القادرة القاهرة المطيعة المطاعة في كل الأحوال، ثم أخذ أخيل يستطلع فطرقل طلع أمره فافتتح بالسؤال عن والد صديقه، ثم عن والده فيلا، كأنهما الشاغل الصحيح الذي يشغله وثنى استطراداً بالسؤال عن قومه، كأنه إنما فعل ذلك رعاية لحبيبه.

أما فطرقل فلم يكن يهجس في صدره إلا أمر واحد صرف نفسه إليه بكُلِّيتها، وهو استنفار أخيل لنصرة قومه فأراد أن ينهال عليه بالتوبيخ والتنديد بدالة الود، فوطأ بتعظيم المصاب، فذكر ما أَلَمَّ بزعماء الجند مبتدئاً بذيوميد لما كان يعلم من علو منزلته في نظر أخيل، وأتى خلسة بين الأواخر على ذكر أغاممنون بلقبه أتريد دون اسمه، وذلك اللقب كما علمت يتناول أغاممنون وأخاه منيلاوس كأنما أراد أن يخفف ثقل وطأة ذلك الاسم على مسامع أخيل. وباقي كلام فطرقل مع ما فيه من التوبيخ والتهكم يشف عن إكبار لبأس أخيل عظيم؛ إذ يلقي بين يديه فوز الإغريق واندحارهم فهو وحده كفؤ لصد جيش عجزت عنه الدول المتآلفة والكتائب المكتتبة، وأعظم من ذلك أنه إذ أراد أن يسد على أخيل جميع المخارج رغب إليه إذا أبى إلا الاعتزال أن يقلده سلاحه، وينفذه لنجدة القوم، فتأخذ الأعداء الرعدة لمراى ذلك السلاح ظناً منهم أن أخيل قد أقبل وما بعد هذا إطراءً للمخاطب وتفانٍ للمتكلم.

وأما أخيل فأول ما شرع به جوابًا على هذا الخطاب دفع تهمة
فطرقل؛ إذ رماه بالجبن بقوله:

فأما خشيت المقادير فيما روت لك أمك عن زفس نقلًا
فبي فابعثنّ وفي إمرتي لفيف المرامد أسد الثرى

ثم أعاد عليه سبب اعتزاله حقدًا على أغاممنون، وكأن عبارات
فطرقل أصابت منفذًا في فؤاده، فأجابه إلى بعض ما سأل وأذن له بتقلد
سلاحه، وهنا حاجته الحمية فتحفز وتحمس وافتخر بما له من البأس،
ولم يذكر بالشماتة إلا ذيوميذ وأغاممنون؛ أما الأول: فلأنه كان مقدمًا
مغوارًا يؤخذ مما تقدم أنه كان بينه وبين أخيل شيء من التحاسد الخفي؛
إذ لم يكن ذيوميذ من اللاجئين إلى استرضاء أخيل. وأما الثاني: فلسابق
سخطه عليه. ولهذا وصفه بعبارة تحقير أجلّ عنها ذيوميذ، ولما انتهى
أخيل من تلك المقدمة أخذ يلقي أوامره على فطرقل فحظر عليه بعد صد
العدو عن السفن أن يندفع بطيش القتال إلى ما وراء الحصون؛ لأنه إنما
كان يود أن يكون هو القاتل لهكطور الفاتح لبلاده فضلًا عما كان
يخشى من أن لا يكون فطرقل كفؤًا لتلك الصدمة فيقتل فيكون الرزء
رزئين؛ قتل الصديق الحميم، وذهاب السلاح سلبًا للعدو اللدود، ولم
تكد تمر على مخيلة أخيل تلك الهواجس حتى زاحمته بلابل الأفكار،
وعاودته قوارس الكيد فختم داعيًا باضمحلال صديقه وعدوه، وهو شأن

اللدود الذي يطوحه كيده إلى الإيقاع بما طالته يده فيعمي الغيظ باصرته وبصيرته وذلك مصداق جانب من صفات ذلك البطل الباسل.

(٩) الجوب: الترس. والتريكة: الخوذة.

(١٠) القيان: ربّاب الإنشاد انظر رسمهنّ ١. هنا مثال آخر لانتقالات هوميروس البديعية عندما يشرع في شرح أمر خطير.

(١١) ثعلب الرمح: عوده.

(١٢) الغراب: السفينة، ووجهته مقدمها أو صدرها.

(١٣) رأينا فيما مضى كم تزلف القوم إلى أخيل، وأتوه صاغرين مستجبرين، فكانوا كأنهم يكلمون صخرًا أصم، ولم يلن بعض اللين حتى استصرخه فطرقل بهامي العبرات، وما هو هنا إن رأى بعينه الذهب المضطرم بالسفن حتى استغزته الحمية من تلقاء نفسه فأنّ وتلهف وانقلب يستعجل فطرقل ويكتب جنوده، كل تلك مشاهد أعدها الشاعر بدقة شعوره، فأفاد المطالع أن الأمور تؤتى من أبوابها، فما وساطة ألف وسيط بمؤثرة تأثير عاطفة يثيرها صديق حميم، وما أثارة تلك العاطفة بشيء إزاء تمثيل المشهد حيّا يراه الإنسان بعينه، وإن رؤية فقير ذي عاهة يتضور جوعًا وهو عارٍ بقارعة الطريق لتكلمك كلامًا لا تستوفيه بلاغة ألف شفيع يندب لديك حالة ذلك المسكين.

(١٤) التريكة: الخوذة. والعذبات: أهداها المتدلية. والقونس: بيضة الخوذة.

(١٥) أي: إنه استلأم بلأمة أخيل (أي: درعه) وتقلد كل سلاحه إلا قناته، فقد كان يصعب اعتقالها لثقلها إلا على أخيل، تلك مزية أخرى من المزايا التي تفرد بها أخيل.

(١٦) فليون: جبل بتساليا.

(١٧) قوله: فتى، أي: أفطميز.

(١٨) لما كان دأب الشاعر أن يميز أخيل في كل شئونه، فقد ألبس مركبته من الزخرف حلة شائقة، وجعل جواديها زنثس وباليث من جياذ الخلد، ثم جعلهما من نتاج العنقاء (وهي في الأصل «هربية» *Αρπυια* مخلوق خرافي ذو جناحين) والنسيم، ثم قرن إليهما احتياطاً جواذاً ثالثاً من جياذ الخيل الفانية، وأشار إلى أن أخيل نال ذلك الجواد الشهير بإحدى غزواته.

والاعتقاد بوجود خيل من نتاج الريح قديم ذكره بلينيوس وغيره، وليس عندنا مما يشبهها بعض الشبه إلا الفرس المسحور بألف ليلة وليلة، وأما عنقاء مغرب أو العنقاء المغرب فهي عند العرب طائر معروف الاسم مجهول الجسم، كانوا يستعيرونها للإخبار عن الأمر الباطل، وفي ذلك يقول أبو نواس:

وما خبره إلا كعنقاء مغرب تصور في بسط الملوك وفي المثل

يحدث عنها الناس من غير رؤية ترى صورة ما أن نمرّ وأن تحل

ولهذا اتخذناها لتعريب «الهرية» اليونانية الدالة على الطائر الخرافي السابق الذكر.

(١٩) لم يكن له بعد أن تمادى على المرامدة زمن العطلة، وهم يتحرقون لنصرة قومهم إلا أن يشبههم وهم واثبون للكفاح بالذئاب الكاسرة، ويستطرد إلى ذلك الوصف الرائع.

(٢٠) ذات قوس الذهب من ألقاب أرطيمس.

(٢١) قاتل أرغوص، هو: هرمس، وأرغوص هذا هو من ولد أيناخوس ورابع ملوك أرغوص، كان الغالب عندهم في المنازل الكبيرة أن يجعلوا غرف النساء في أعالي البناء، وبعبارة أخرى كان الحرم في الطبقة العليا، قال أفستاثيوس: كان اللقدموثيون يدعون الغرف العليا أوا (OIA) ومعناها أيضاً البيض، ولعل الخرافة القائلة: إن هيلانة ولدت من بيضة نشأت من هذا المعنى.

(٢٢) إليشية ابنة هيرا، كانت في اعتقادهم تحضر ساعة المخاض حتى تلد المرأة، ولعلها ليليت أوميليتا البابليين ربة الليل والولادة.

(٢٣) مرّ هذا الوصف في النشيد الثالث عشر.

(٢٤) بان هنا بمعنى بعد، والمربع: المقام، والددون، والفلاسج:

امتان.

(٢٥) السلة: رواة زفس أو مفسرو أوامره. كان الكهنة ينتحلون هذا اللقب لأنفسهم في الاستخارة وغيرها.

(٢٦) الحمات: ج حُمة، إبر النحل والدبر، جماعة النحل والزنابير، والمراد هنا الزنابير، وخشرمه خليته أو بيته، من معجزات هوميروس أنه إذا شبه أمرًا كبيرًا بشيء صغير هيأه بصورة تنطع في النفس، فما تشبيه الجنود البواسل بالأسود الكواسر بأوقع في النظر من تلك الزنابير الحقيرة، وهي تأثره تلك الثورات وكلّ منها. يذب عن البيض مستبسلًا حديد الحمات شديد القوى

وللشغري أبيات جميلة بهذا المعنى أوردناها في النشيد الثاني.

(٢٧) كل ذلك إشارة إلى انفراج الأزمة عن الإغريق.

(٢٨) الخميرة: حيوان خرافي مر ذكره ورسمه في النشيد السادس.

(٢٩) أربيا: محل الظلمات في الجحيم.

(٣٠) يرى بعض الشراح إشارة في الأبيات السالفة إلى الطوفان الذي كان يعتقد القدماء، وهو موافق لما نصت عليه التوراة، وسببه هنا كسبه هناك تمادي الناس في الغي والشرور.

(٣١) الخلايا: السفن، والحصار: السور، أي: حال فطرقل بين الطرواديين وإليون، وحصرهم بين مرسى السفن ونهر سيمويس.

(٣٢) أي: فأذن لفطرقل أن ينفذ حكم القدر القاضي بموت سرفيدون قتيلاً بساحة القتال — كان سرفيدون أعظم محتدا وأشرف مولداً من جميع زعماء الفريقين؛ لأنه لم يكن من أبناء زفس بطل سواه في تلك الحرب، ولهذا أطل الشاعر في حكاية مقتله كما ستري، وأطنب في ما مضى وما سيأتي من مدح صفاته إجلالاً لقدره، فهو حيثما ظهر الفتى الباسل والقائد الحكيم، لا يشوب محامدُه منقصة، فما هو بحقد أخيل ولا بتسرع ذيوميذ، وهو مع فصاحته بالكلام رجل بطش وإقدام، ولقد غاظ مقتله زفس فوق مقتل كل بطل سواه حتى أراد أن يحول عنه حكم القضاء السابق النافذ بقتله فتصدت لزفس زوجته هيرا وأثبتت له أنه لا بد من نفوذ القضاء المبرم وإلا لقامت قيامة الأرباب، وسعى كل منهم في الإفراج عن ولده، وهنا بحث للشرح طويل في القضاء والقدر باعتقاد الأقدمين، فقالوا إن كان نفوذ القضاء حتماً، فليس لزفس وهو الذي سطر لوحه المحفوظ أن يمحوه، وإلا فلا معنى لوجوده، وليس المقام مقام إطالة في هذا الباب فقد تقدم لنا كلام بهذا المعنى، ولهوميروس كلام كثير يشير إلى أن أعمال البشر إنما هي الباعث على انصباب الويلات وتفاقم الشرور.

(٣٣) المظفر: الآخذ بظفره.

(٣٤) لقد مرت على حرب طروادة وزمن هوميروس ألوف السنين، وعامة الناس لا تزال تعتقد أن المطر المحمر دليلاً على غضب

إلهي، مع أن رد ذلك الاحمرار إلى أسباب طبيعية قديم جداً، وقد مر بنا مثل هذا المطر الدموي في النشيد الحادي عشر.

(٣٥) أي: إن القتيل سقط سقوط إحدى هذه الشجر وقد قطعها بناء السفن.

(٣٦) كثيراً ما يستعمل هوميروس أمثال هذه الاستعارة للتعبير عن الموت، كقوله: أسبل الموت ستره وخيم ظلام الحمام، ومن هذا القبيل قوله قبل أبيات: ومن حوله انتشر الحمام مبيد الحياة، وكلها استعارات لطيفة يألفها الذوق، ولها في العربية أمثالٌ من أرقها قول بعضهم:

ورنقت المنية فهي ظلٌّ على الأبطال دانية الجناح

قال في أساس البلاغة: فيه بيان جلي أن ترنيق المنية مستعار من ترنيق الطائر (أي: رفرفته وخفقه بجناحيه)؛ حيث جعل المنية كبعض الطير المرنقة بأن وصفها بوصفه من التظليل ودنو الجناح.

(٣٧) الممتهى: الصقيل

(٣٨) انغأى: انفطر.

(٣٩) التّوى: الهلاك.

(٤٠) الشبا: حدود المناصل، وهي جمع شباة.

(٤١) في الأصل: «سترة ليل دجا»، إشارة لطيفة إلى الغبار المنتشر من تلاحم القوم حول القتيل.

(٤٢) الشدا: الحر، ويراد به هنا الغيظ.

(٤٣) اللهى: جمع لهوة، والمراد بها هنا الألعاب والملاهي.

(٤٤) أي: كالسيل المتدفق.

(٤٥) هفا أي: طاش.



ميرا زوجة زفس.

(٤٦) النقا: الرمل.

(٤٧) يقول له ذلك تهكمًا عليه، لأن قوم مريون الأكربيين

كانهم مشهورين بالرقص.

(٤٨) عسا: غلط واشتد.

(٤٩) اللغا: الكلام، وفي الأصل «ما هذا أوان القول بل أوان الفعل»، وهي عبارة جرت مجرى الأمثال في أكثر اللغات يقول اللاتين: **Non verbes, sed facto opus est**. ومن هذا القبيل قول العرب في أمثالهم: هذا أوان شدكم فشدوا. وقولهم: هذا أوان الشد فاشتدي زيم.

(٥٠) إهاب الحجف: جلد التروس.

(٥١) خطابة: جمع خطاب.

(٥٢) قد تقدم لنا مثل هذا المعنى، وهو من التشابيه التي عيب عليها الشاعر على غير حجة، ثبته راجع ما قلناه بهذا الصدد (ن٢)

(٥٣) أي: عظمت الشدة.

(٥٤) قال في النشيد الرابع عشر: إن الموت والرقاد أخوان، وزاد هنا أنهما توأمان.

(٥٥) في أقاصيص اليونان إن سرفيدون قاتل أخاه مينوس على ملك أكريت، فغلبه مينوس عليها فبرحها وبعض أشياءه إلى ليقيا وغلب زعماء بعض أطرافها عليها، واستقل بها ملكاً وتوفي بها وكان قبره معروفاً في تلك الأزمان. وإذ كان من شأن هوميروس أن لا يخرج بشعره في شيء عن روايات عصره التاريخية صاغ لدفنه في ليقيا بعد مقتله في طروادة ذلك القالب الجميل.

وليس في الأمر غرابة؛ لأن القدماء كانوا كأبناء زماننا حريصين على دفن جثثهم في بلادهم ولعين بإقامة الأنصاب عليها؛ ولذلك أمثلة شتى في أهرام مصر وتوراة الإسرائيليين وكتب العرب، فإن إبراهيم الخليل ضم يوم وفاته إلى مدفن امرأته سارة، وحفيده يعقوب استحلف ابنه يوسف أن لا يدفنه في مصر، فأرسله إلى مدافن آبائه في بلاده، ولم يرو للعرب ولع وشغف بمثل هذا، كاليهود والمصريين بل كانوا إذا بعدت الشقة أبقوا الميت في مكانه، كما استبقوا هاشمًا جد صاحب الشريعة في غرة عند وفاته بها، ومع هذا فكان يستحب عندهم جمع الأقارب في موضع. قال صاحب مشكاة المصابيح في الحديث: ويستدل على ذلك بقوله عليه الصلاة والسلام: «ادفنوا إليه من مات من أهلي». وفي الحديث عن جابر أنه قال: لما كان يوم أحد جاءت عمتي بأبي لندفنه في مقابرنا فنادى منادي رسول الله ﷺ: «ردوا القتلى إلى مضاجعهم» كل هذا يدل على أنهم كانوا يستحبون جمع موتى العشيرة إذا لم يكن هناك مشقة وعناء. وأما إقامة النصب على القبور فلم ترو عن عرب الجاهلية، ومع هذا فقد روي استحسان جعل علامة على القبر يعرف بها، وذلك كما روى صاحب (مشكاة المصابيح): لقوله عليه الصلاة والسلام: «أعلم بالحجر قبر أخي».

(٥٦) قال السموأل:

ولسنا بأول من فاته على رفقہ بعض ما يطلبُ

وقد يدرك الأمر غير الأريب وقد يصرع الحول القلب
ولكن لها أمر قادر إذا حاول الأمر لا يغلب

وما أحسن ما تمثل به الخليفة عمر وهو على المنبر:
هوّن عليك فإن الأمور بكف الإله مقاديرها
فليس بآتيك منهئها ولا قاصر عنك مأمورها

وقال عبد الله بن يزيد الهلالي:
ما أقرب الأشياء حين يسوقها قدر وأبعدها إذا لم تقدر

(٥٧) أي: تلك الشقة البعيدة.

(٥٨) البرى: التراب.

(٥٩) الطوى: الجوع شبه سقوطه من سدة المركبة يهوي إلى الأرض بالصياد الوائب من السفينة إلى قعر البحر، ثم قال: لو وثب تلك الوثبة لصاد من المحار ما يقري الجماهير، ولم يعبأ بتلاطم الأمواج واستطرد بقوله في البيت التالي إن كان هذا غوصه بالبر من ظهر المركبة، فلا ريب أن في الطرود غاصة مهرة، وفي هذا الكلام من التهكم على القتل ما لا يخفى. ولهذا ذهب البعض إلى أن هذا التشبيه دخیل في ثنايا الأصل خصوصاً أن ليس من شأن فطرقل أن يتهمك هذا التهكم وهو القائل قبل أبيات:

علام أخي ذا الكلام المهين وإنني بلوتك سامي النهى

- (٦٠) الصلاة: النار فكأنه قال تتحرق.
- (٦١) الرعان: الجبال، ج رعن، وما قبل ذلك أسماء أشجار.
- (٦٢) براح: علم للشمس.
- (٦٣) أي: لما مالت الشمس للمغيب. هكذا كانوا يعبرون عن ساعات النهار راجع شرح النشيد الحادي عشر.
- (٦٤) للبراح، أي: للعراء.
- (٦٥) انتوى: بمعنى نوى.
- (٦٦) جمع: حصان.
- (٦٧) الحثى: التراب.
- (٦٨) الوشل: الماء.
- (٦٩) الطلى: الرقاب.
- (٧٠) ابن لاطونة: أي فيبوس.
- (٧١) وني: فتر وضعف.
- (٧٢) كانوا يعتقدون أنه إذا احتضر المرء خَفَّتْ نفسه، وأدرك المغيبات فتبأ ولهذا أنبأ فطرقل ساعة موته بموت هكطور قتيلاً بذراع أخيل.
- (٧٣) طفا: مات.

النشيد السابع عشر المعركة السابعة حول جثة فطرقل

مُجْمَلُهُ

تحرق منيلاوس لقتل فطرقل فتقدم يدافع عن جثته وكان أوفرب
يجردها من السلاح فقتله منيلاوس، وإذا بهكطور مقبلٌ بإيعاز أفلُون
فتقهقر منيلاوس واستعان بآياس، فأقبل آياس وهكطور يوشك أن يقطع
رأس فطرقل فصدده آياس فأقبل غلوكوس يؤنب هكطور لتخليه عن
سرفيدون والتوائه أمام آياس، فشك هكطور بسلاح أخيل ونادى صحبه
فانقضوا مع الإغريق وفرع لمنيلاوس الأبطال من قومه والتحم القتال
حول القتل، وكلهم طامع في الاستيلاء على شأوه، فالتوت الطرود أمام
إياس ولم يكن النبأ قد طار بعد إلى أخيل بمقتل حبيبه، ولما توارت جياذ
أخيل عن ميدان الحرب ذرفت الدموع حزناً على فطرقل، فَرَّقَ لها زفس
وأهبط عليها قوة جديدة فانشى أفطوميد بها إلى ساحة القتال، ثم ألقى
بالأعنة إلى رفيقه القيميد وأخذ يقاتل راجلاً فاندفع هكطور وأنياس ونفروا
من أبطال الطرود في طلب تلك الجياذ، واشتد الكر والفر وجرت جياذ
أخيل مسرعة فتوارت بالمركبة عن الطرود، وأخذت أثينا بيد منيلاوس
وأفلُون بيد هكطور وأرعد زفس فأرعب الإغريق فاستظهر عليهم الأعداء،
وأرسل منيلاوس ينمي إلى أخيل موت فطرقل ونكبة الإغريق، وظل

الأياسان يدفعان العدو عن جثة القتيل فسار بها منيلاوس ومريون إلى
المعسكر، وانهزمت الإغريق إلى ما وراء خندقهم.
وغادرت في الحاف والحفير ما انهال من سلاحها الكثير

وقائع هذا النشيد في مساء اليوم الثامن والعشرين.

النشيد السابع عشر

لم يخف إلف آرس منيلا	هلاك فطرقل الفتى قتيلا ١
فخف في صدر السرى إليه	بعدة تألقت عليه
ودار حوله العدى يياري	كأنه ثيئة الصوار ٢
قد نتجت بكرًا عليه حنت	وانعطفت من حوله وأنت
قناته وجوبه الثقيا	مد يروم للعدى تنكيلا
لكن أوفرب الفتى ما زال في	فطرقل فأكرا بذاك الموقف
لذا على مقربة منه وقف	يخاطب الشهم منيلا بصلف:
«يا إلف زفس سيد القيل	تخل لي عن شلو ذا القتل
إذ كنت في الطرواد والأحلاف	أول طاعن له حذاف
فخلني أحرز جميل الشرف	أولا فأيقن بويل التلف»

فنفس أترىذ ذكت توقّدا
ما أقبح الغرور بالنفوس
لا خيلاء الير والليث ولا
لكنّ هذا الكبر والغرورا
لم تهنه غضاضة الشباب
وقال إني ساعة الإبلاء
غداً ولا عرساً وأما وأبا
فدن إذن وولّ من أمامي
ولذ إلى قومك من قبل اللقا
فلم يزد أوفرب إلا حقّاً
غرّك أن بات أخي صريعا
فعرّسه الهدي في أقصى الغرف
وقد أذقت أبويه غصصا
لكن سأروي غلّة الحداد
لدى فرنثيس وفنشوس يرى
والآن فصل القول فالبدار
وأطلق الرّمح ففي الجوب وقع
وصاح: «يا زفس الأب المسوّدا
فما حكى كبر بني فنشوس
رت الفلا المغوار روع الملا
ما وقيا الفتى هفير ينورا
لّمّا تصدّى لي بالسباب
أجن من في زمرة الأخاء
يتهجون بلقاه طربا
فليس يغني العجب من إقدامي
أولاً فوق الخطب يشفي الحمقا»
وصاح: «يا أترىذ أدركت الشقا
لتؤخذن بدمه سريعا
أرملة باتت وما كادت تُزفّ
ظلّ بها عيشهما منغصا
حين بعيد العود للبلاد
رأسك والسلاح في تلك الذرى
يعقبه الفوز أو الفرار»
لكن عن النحاس في الحال ارتدع

فزفس أترىذ دعا وشهرا
 وزج زج واثقٍ عמיד
 فصل لما خرَّ والنقع جرى
 غدائر كشعر حورا العين
 كأنه فرخٌ من الزيتون
 ينعشه النسيم والزهور
 لكنما الإعصار فوراً هبت
 فخر أوفرب يحاكي مذ وثب
 ولم يكن في قوم أوفرب أحد
 كأنه ضيغم غابٍ وثقا
 ففرس الغرة منها وسحق
 ومزق الأحشاء وامتنص الدما
 لا تستطيع الذود عنها فالجزع
 وكاد أترىذ يفوز بالمنى لكن
 كقيم الكيكون ميتيس نهض:
 جريت تبغي خيل آخيل ولا
 ألا ترى أترىذ عن فطرقل ذب
 ثم مضى عنه وفي الجيش ذهب
 نصلاً وأوفرب يسير القهقري
 فقطع النصل جبال الجيد
 يكسو بديع الشعر ثوباً أحمر
 ضفرن بالعين وباللجين ٦
 غضٌ على مجتمع العيون
 بيضاء في فروعه تمور
 فاستأصلته من زوايا العزلة ٧
 عليه أترىذ لإحراز السلب
 يلقي منيلاً وهو يخلو بالعدد
 بيأسه وفي الصوار اندفقا ٨
 عنقها ما بين ناييه ودق ٩
 والناس والكلاب عجت في الحما
 من رؤية الليث قلوبها خلع
 ذكت غيرة فيوس هنا ١٠
 «وصاح يا هطور أخطأت الغرض ١١
 يبلغ منهم سواه الأمل
 وأبسل الطرواد أوفرب ضرب»
 وقلب هكطور من البث التهب

سَرَّحَ ما بين الجموع النَّظْرا
ذاكَ صرِيحٌ دمه ينفجر
فشار يحكي نار هيفست التي
وانقض في صدر الشُّرى مدججًا
فهاج بئًا نفسه يناجي:
أُبْرَح الآن وذا فطرقل من
فمن من الإغريق لو رآني
وإن دعتني عزة النفس إلى
فخلف هكطور بنو الطروداد
لا كان ذا الهاجس من لاقى الأولى
بحكم آل الخلد هكطور هجم
آه ولو لي صوت آياس نمي
أنا وآياس نخوض الشددا
بشلو فطرقل إلى أخيلا
وينما هاجسه يثور
فغادر الجثَّة ثمَّ انصاعا
كاليث للمربط يومًا لاحا
وثمّة القرمين حالًا أبصرا
وذا إلى تجريده ميتدر ١٢
ما إن خبت قطّ إذا ما هبَّتِ
بهْدَّةٌ لها منيلا اختلجا
«ما حيلتي في القدر المفاجي
في الذود عن عرضي وافته المحن
أحجمت عنه الآن ما لحاني
كفاح هكطور الذي قد حملا
طرًّا على أني بانفراد ...
صانتهم آل العلى لاقى البلا
فمن يلومني إذا ألوي القدم
لاقتحمت دهم الرزايا هممي
حتى ولو ربُّ للقيانا بدا
نمضي فيمسي خطبنا محمولاً» ١٣
وافى العدى في صدرهم هكطور
ملتفتًا إليهم ملتاغًا
فقابل النباح والرماحا

وارتد مغتمًا على الأعقاب
حتى إذا في قومه حل وقف
لما رآه قام أقصى الميسره
وهدهم فيوس طرًا رعبا
نذود عن فطرقل حول جثته
لعلنا وإن عرت عن العدد
فهاج آياس أسى ثم انطلق
فألفيا هكطور ثم جرّدا
ليأخذ الهامة باقتضاب
يجوبه كالبرج آياس جرى
ثم اعتلى وصاح: «ألقوا لي في
لكن آياس بسط الجوب على
كلبوة في الغاب بالأشبال
تقطب الجفن على مقلتها
وقام أتريند لدى آياسا
فجاء هكطور غلوكس الفتى
صاح به يرمقه ازورارا:
يعزي لك البأس جزافًا إنما

كما انثنى أتريند باكتئاب ١٤
مستشرقًا يطلب آياس وخف
مستنفّرًا إلى الصدام عسكره
صاح: «ألا فورًا آياس هبّا
فإن هكطور خلا بشكته
لألفه آخيل نمضي بالجسد»
يجري وأتريند إلى صدر الفرق
شكة فطرقل وجر الجسدا
ويدفع الجثة للكلاب
فعاد هكطور إلى قلب السرى
إليون ذا السلاح يسمو شرفي ١٥
جثة فطرقل وما تقلقلا
حلّت فبالكمأة لا تبالي
صائلةً تحمي حما فتيها ١٦
يذكو حشاه كأبةً وباسا
قيل بني ليقية ميكتا
«ما كنت إلا هالعا فرّارا
حالك شفت عن فؤاد أحجما

ألك في جماعة الطرود	من دوننا حماية البلاد
فقومنا في وجه أبطال العدى	لن يقفوا حول الحصون أبدا
إذ قد أطالوا الحرب والإبلاء	ولم يوافقوا فيكم وفاء
ويحك أنى بك عرض الجند	خيرًا ترجي بعد هذا الصدّ ١٧
وضيفك الحبيب سرفذونا	غادرت غنمًا للأخائينا
وقاكم من أزمة الدّراهس	وما وقيته من النواهس ١٨
فرأى الآن على أصحابي	بأن يعدوا أهبة المآب
عنكم إلى الأوطان ينشونا	فينزل الويل على إيونا
فلو لكم بسالة الشجعان	في ذودهم عن ساحة الأوطان
لجملة صلنا ونحو البلد	سرنا بفطرقل بلا تردد ١٩
بسرفذون والسلاح الأزهر	يؤمننا العدى بلا تأخر
إذ إن فطرقل أعزّ الناس	لدى أخيل القرم رب الباس
لكن لآياس الذي تراه	وهنت عزمًا قبل أن تلقاه
هيهات هيهات فلن تنفردا	له وتدرى أنه أسمى يدا»
فقال منعّمًا حديد النظر:	«كفاك يا غلوكس أن تفتري
خلتك ذا عقلٍ رجيحٍ قد سما	فق بين ليقيةٍ إن حكما
لكن أرى الخلاف فيما تزعم	أنى لدى آياس جنبًا أحجم

ما راغبي الطعن ولا وقع خطي
 وهو ولي الأمر قد يخذل من
 فادن إليّ الآن واشهد تنظر
 أكان مهياً كما تقول
 يذلّ قسراً كلّ صنيديّ بطل
 وصاح يعلو صوته بين الزمر:
 يا آل دردانوس هبوا وقفوا
 وإنني ماضٍ أشك مقبلاً
 تلك التي سلبت من فطرقل
 فصحة أدرك من بعد أمد
 فثم عن وقع القنا بمعزل
 يأمرهم أن يحملوها للبلد
 ذاك سلاحٍ ليس بعروه البلاء
 ولا بنه مذ شاخ تلك العدد
 وعندما هكطور زفسٌ نظرا
 آجال رأسه بنجوى نفسه:
 هكطور قد كاد يوافيك الأجل
 صرعت إلفه النبيل الأبسلا
 جرد الوغى لكنما زفس سطا
 يحث للإقدام في حر الفتن ٢٠
 ذا اليوم من هكطور حق المخبر
 أم هو محراب وغى يصول
 للذود عن جثة فطرقل حمل
 «طرواد ليقون أبناء الظفر
 بئسكم فذاك ذاك الموقف
 بعدة القمر أخيل عجلاً
 ثم انثنى يعدو حثيث الرجل
 من قبل أن تبلغ إليون العدد
 ألقى لهم شكته في العجل
 وشك في سلاح أخيل وجد ٢١
 حباه آل الخلد فيلا البطلاء
 ظلت ولن يشيخ فيها الولد ٢٢
 معتزلاً بدرع أخيل انبرى
 «واويحه شت الردى عن حدسه
 وأنت في حلة رواع الملل
 ونلت عنفاً منه تلك الحللا

جزاء ما أوتيك من حمامي
عرسك كي تلقي لها السلاحا»
فناسبت أعضاء هكطور الحُلل ٢٣
فتكًا وبالبأس حشاه اضطرما
يسطع بالنحاس والحديد
يحث للإيقاع فردًا فردا
وثرسلوخ ثم ميدون السَّري
فرقيس ذيسينور إخروميسا
يثير في أحشاهم النفوسا:
أحلافنا والجيرة العميدة
لتلبثوا حشدًا بلا جدوى هنا
ذودًا عن النسوة والأولاد
لكم لتعملوا القنا المجردًا
والحرب إمَّا ظفرٌ إمَّا ردى
بشلو فطرقل ولو ميتًا لنا
وهو قريني شرفًا وقدرًا»
واندفعوا دفعة صفٍّ واحد

لكنني موليك نصري السامي
إذ لن ترى في صرحك ارتياحا
ومؤمنًا بجفنه زفس اعتدل
وحل آريس به فاحتمدا
فهَبَّ بالأحلاف بالهديد
يخوض في صفوفهم مشتدًا
كمستليس وغلوكس الجري
وعسطروف ثم هيفوثوسا
كذلك العرَّاف اينوموسا
«سمعا أيًا قبائلًا عديده
لم أدعكم من دوركم طرًا أنا
بل لتصلولوا في لقا الأعادي
أنفدت رزق الجند زادًا وجدا
فاندفعوا بالبأس في وجه العدى
فأيكم أياس صد وانتشى
أحيوه نصف الغنم مني أجرا
فقوموا السلاح فوق الساعد

لينقذوا الجثة من آياس
فكم كمى منهم سيمسى
وبمنىلا صاح آياس: «ألا
ما جزعى لشلو فطرقل لى
فإن فطرقل قريًا يغتدى
وذا غمام الحرب فوقنا انطبق
فقم وناد صفوة الأبطال
فصاح أترىذ بهم يقول:
يا من على موائد ابني أترا
ومن حباكم زفس عالى القدر
كيف أراكم وعجاج القسطل
فطرقل كاد الغصف والضواري
فما انتهى حتى ابن ويلوس عدا
تلاه إيذومين ثم القرم
كماة باسٍ لا يحيط الفكر
ونحوهم جند العدى تقدموا
بهدةٍ مثل عجيج البحر
فتدفع الأمواج فوق الجرف

وأويبهم فى ذلك الوسواس
من فوق فطرقل فقيد الحس
ما خلت أنا قد بلغنا الأجل
كجزعى الآن عليك وعلى
للطير طعمًا وكلاب البلد
هكطور وهو حيثما حل حرق ٢٤
لعلهم يسعون للنضال
«يا صحبُ يا رتوت يا قيول
من قسمة الجند رشفتم خمرا
فقمتم بين السُرى بالأمر
يستر عني كل جند الجحفل
ينهشنه هُبوا لدرء العار»
أولهم ملىّا ذاك النداء ٢٥
مريون والكل تباعًا هموا
بعدهم فانبثوا وكروا
فى صدرهم هكطور ذاك الأيهم
يقذف بالموج لثغر النهر
منتشراتٍ بشديد القصف

تقدم الإغريق نفسًا واحده
وزفس ألقى فوقهم ضبابا
أجت وأغراهم بصون الجئة
لديه منذ لأخيل انتسبا
فيشبع الكلاب في إلونا
فانهزموا عن ميثهم بالقسر
أن القتل ظل في أيدي العدى
بهم وفي طليعة الجيش دنا
أجملهم وجهًا وأعلى شانا
والغضب والفتية طرًا بددًا ٢٦
لما بفطرقل جميعًا أحرقوا
بحمله فورًا إلى ديارهم
فرع الفلاسجي ليشوس الأغر
حمالة وهم بالقنول
تقرَّبًا لسادة الطرود
لم يملكوا لدفعه مجالا
ثم على الخوذة بالرمح قذف

ودون هاتيك الجيوش الوافده
حول القتل كثفوا الأجوابا
يستر برَّاق الترائك التي
لأن فطرقل عزيزًا حسبا
فكره الإغضاء عنه حيناً
ودفع الإغريق بدء الأمر
ولم يسمهم من الضر سوى
لكنما آياس في الحال انتشى
آياس من بعد أخيل كانا
فانقض كالرث بغابٍ عربدا
كذا تبددت لديه الفرق
إذ يحسبون منتهى فخارهم
وكان هيفوثوس الشهم الأبر
أدار حول قدم القليل
يجتره لداخل البلاد
فكان ذا على الفتى وبالا
إذ إن آياس على الفور زحف

فخرق الدماغ هول المضرب
فأفلتت من يده الحماله
ويا لها عليه من مصيبه
إذ لم يتح له إداء الشكر
فهبَّ هكطور وبالرُمح حذف
فحل في بأديل إسكيدُيسا
قد كان يرعى أممًا كثيره
فصلَّ مذ خرَّ صريعًا يرتجف
وهب إياس وفرقيس ضرب
فنفذ السنان في مهجته
فانهزمت طليعة الطرواد
والأرغسيون وراهم عربدوا
وكادت الطرواد تلوي ذعرا
ويظفر الأغارق انتصارا
لكن فيوس انبرى على الأثر
(ألفيج فيريفاس من شاخ لدى
له انتمت إصالة الآراء)
«أما أتاك كيف تُحمى الدارُ
حتى ولو قاومت الأقدارُ

بلوت في طي زمانٍ قد خلا
وباسٍ أجنادٍ ثقلٌ عدًا
وكلكم أحجم بالجبن وفر»
بأنه رب السهام مطلقا
«هكطور يا طرود يا أنصار
تجاه إليون بعزمٍ هُدا
رب تصدَّى لي بالخطاب
ظهيرنا إليه فأحسنوا المكر
يلقوا به لفلكهم طريقا»
والجيش من وراه طرًا زحفا
يردي ليقريط بن آرسباس
فهاجه البث ونحوه جرى
أفيسوون بن هفاس القرم
وكان من فيونةٍ قد برحا
فتى حكاه في أولى الصفوف
فلم ينل من الأخاء مأربا
وراء معقلٍ من التروس

بالكر مثل كرة القوم الأولى
بالعزم والإقدام جدُّوا الجدًا
زفس لنا أحرز مذخور الظفر
فلم يفت أنياس لمَّا أحدقا
فصاح يعلو صوتهُ الهدار:
العار كل العار أن نرتدَّا
والآن لي لاح من الأرباب
وقال: إنَّ زفس قيم الظفر
فطرقل ذا لا تدعوا الإغريقا
وانقضَّ في صدرهم ووقفوا
فزجَّ عن ساعدٍ باسٍ قاس
وكان ليقومينذ إلفه يرى
وأرسل العامل رميًا يرمي
فحل في كبده فانطرحا
ولم يكن من بعد عسطروف
فثار عسطروف ثم وثبا
تدرعوا بشدَّة البؤوس

ويسطوا من حول فطرقل القنا
 «عن شلو فطرقل إلى الورا
 ولا تهبنَّ إلى الأمام
 فاشتبكوا والنقع كالسيل جرى
 وانبسطت فوق الثرى الأشلاء
 أفلهم قتلَى الأخائيينا
 يدرأ بعضٌ وافد المنون
 والتحم القتال كالأوار
 حتى كأن الشمس بادت والقمر
 لكنَّهم في سائر الأطراف
 لا غيم يعلو الأرض والجبالا
 بينهم بوونٌ فهم يبلونا
 وظلمة النقع بحر الحرب
 وولدا نسطور في الجناح
 بل حسبنا فطرقل في الصدور
 جيشُهما انحل فخلف الجحفل
 بأمر نسطور الحكيم عملا
 ودام حول جثة الجدِيل

إذا بآياس يصيح علنا:
 لا تلتووا يا معشر الأخاء
 بل حوله ذودن بالإقدام»
 فألبس الحضيض ثوباً أحمرأ
 رُصَّت كئافاً ما لها إحصاء
 إذ هم قاموا متكاثفينأ
 عن بعضهم كراسخ الحصون
 وانتشرت سحابة الغبار
 مما لدى فطرقل في الجو انتشر
 تلاحموا تحت رقيع صافٍ
 والشمس يزهو نورها جمالا
 غباً وهول الحرب يتقونا ٣٠
 ما فتكت إلَّا بجند القلب
 ما شعرا بالنبأ الفضَّاح ٣١
 حيًّا دهى الأعداء بالشبور
 ظلًّا يذودان اتقاء الفشل
 إذ بهما إلى الخلايا أرسلأ
 مشتجر الرماح للأصيل

من عيها وسبحت بالعرق
خارت تقلُّ القدمَ المضويَّه
والجسم طرًّا سابحٌ معقَّر
بأمر سَيِّدٍ لهم مطاع
والشحم سيَّالٌ عليه امتدًّا
والشحم للجلد مليًّا رشحا ٣٢
جثَّةً فطرقلٌ بجهد العاني
ولحما إليون آخرونا
بهمةٍ ما عليها آريس
فالاس بالثريب والمام ٣٣
والخيل أورى جذوة الجهاد
أجت على مقربة الحصون
بما بفطرقل هنا أَلَمَّا
فينشي ويحسن المآبا
لبأس فطرقل يدين أبدا
ذلك سرٌّ من تيسٍ سمعه
مخفيةً مصاب إلفه الأبر

حتى وهت أعضاء تلك الفرق
فالتوت الرُّكبة والشظيه
وكفَّت الكفُّ وكُفَّ البصر
تألَّبوا تألب الأتباع
داروا حوالي جلد ثورٍ مدًّا
تجاذبوا حتى البلال نضحا
وهكذا تجاذب القومان
قومٌ به أسطولهم ييغونا
بينهم قد حمي الوطيس
ولا رمتها آن الاحتدام
يومٌ به زفس على الأجناد
والحرب في بونٍ عن السفين
لذاك لم يحط أخيل علما
بل ظنه حيًّا أتى الابوابا
إذ لم يكن في الغيب أن البلدا
حتى ولو أخيل انقضَّ معه
أوحت إليه غيب زفس في القدر

هناك ظل نافذ السنان
يشجع الإغريق بعضُ بعضا:
خيرٌ لنا يا قوم أن ينشقّا
من أن نرى قتيلنا يغيّبُ
وضجت الطرود في الصفوف:
حتى ولو طرّاً أبادنا القدر
وفي الرقيع طار فوق المعمه
هذا وصافنات آخيل انبرت
بأن رؤّاض متونها هلك
لم يجد أفطيمذ سوط الجبر
وقد أبت تسير نحو البحر
بل لبثت صماء كالعمود
أو قير ذات عزة وشان
وهي لدى المركبة العجيبة
والدمع من بين مآقيها جرى
وانبسطت أعراقها المخضبه
فلأساها رق زفس وانعطف
وقال في نجواه: «أؤّاه لما

يصمي فيصطكُ به القومان
«للفلك عود العار أنى نرضى
جوف الثرى وفيه طرّاً نلقى
بين العدى وسعينا يخيب»
«لا تنشوا عن موقف الحتوف
من حول فطرقل وفاتنا الظفر
لقبّة النحاس صوت القعقه ٣٤
في عزلةٍ تذرف دمعا مذدرت
وفيه هكطور أخو البأس فتك ٣٥
على تطفٍ بها أو زجرٍ
للفلك أو نحو السرى أن تجري
على ضريح سيد عميد
وأطرقت في الأرض بالبحران ٣٦
بلا حراكٍ تنذب المصبيه
من كبدٍ حرى إلى وجه الثرى
مسدولةً من فوق عرش المركبه
وهاج رأسه على ذاك اللّهُف
بكم حبونا الملك فيلا قدما

فهو مليكٌ لبني الموت انتمى
ويحكم أكان ذا في القدر
إذ ليس فيما دب أو تنفا
لكن مه فلن يرى هكطور
فلن أتِيَحَنَّ له هذا كفى
وها أنا في هول ذياك اللجب
لتنقذوا من ساحة الهيجاء
إذ قد أتحت الفتك والتكيلا
حتى يوافي الغروب المؤنس
ونفخ القوة فيها فمضت
طارت وأفطميدُ منقضُّ بها
لم يشه البثُّ على الرفيق
كرًّا وفرًّا جُرْدُه تطير
يهزمهم وليس يصمي أحدا
إذ لم يكن في حيز الإمكان
أبصره الشهم ابن لا يرق فهب
قال: «أأفطميد من أغواكا»

وأنتم لا هرم ولا فنا
حتى تمنوا بشقاء البشر
أشقى من الإنسان بؤسا وأسى
بكم على مركبةٍ يغيرُ
أن تاه في درع أخيل شرفا
موليكم قوة قلبٍ وركب
سائقكم للسفن الحدباء
للقوم حتى يبلغوا الأسطولا
من ثم يتلوه الظلام الأقدس ٣٧
وعن نواصيها غبارًا نفضت
مثل العقاب البط في الجو دها
عن موقفِ الطرواد والإغريق
وهو على غير هدى يسيرُ
مد ظلّ في كرسية منفردا
تدبر العنان والسنان ٣٨
ومن ورائه على الفور انتصب
وأي ربّ سالبٌ هداكا

دفعت مفردًا بصدر الفيلق
أورده الردى ابن فريام وظل
قال ألقميد من في الجند
سواك من بعد الفتى فطرقل من
لكمما فطرقل أوّاه مضى
فدونك الصروع والسوط هنا
فاحتلّ ألقميد بطن العرش
فصاح هكطور لدى مرآه
وقال: «يا أنياس يا عضيدي
مطهّمي أخيل منقادين
فإن تكن أنت ظهيري في الطلب
فما لسائقيهما من شدة
فانقض آياس وما ترددنا
بجننٍ فيها على سبت البقر
معهما استطار إخروميّس
طرّا بغوا بالفارسين شرّا
ضلّوا فما هم قطّ راجعونا
زفس دعا يضرع أفطميذ

آه على إلفك فالتحف لقي
يعتز مذ بشوب أخيل رفل»
يثير أو يكبح جرد الخلد
آل العلى حاكي ذكاء وفطن
ينفذ فيه الموت أحكام القضا
حتى على الأعداء أنقضُ أنا»
وأفطميذ انحاز عنه يمشي
ذاك بأنياس الذي حاذاه
انظر فقد أبصرت من بعيد
لسائقين في الوغى غرّين
أحرزهما غنمًا ويا نعم السلب
على لقائنا ودفع الصدمة»
واندفعا قرمين قد توقدا
صفائح النحاس تبهر النظر ٣٩
وذو المحاسن الفتى إريّس
والعود في تلك العتاق ذخرا
ما لم يريقوا الدم خاسرينا
فاشتد ثم صاح: «ألقميذ:

«بهذه الجياد قربي ظلاً
فإنما هكطور لا ينفك ما
ويدفع الجياد والجنودا
أو إننا في صدر جيش النبلا
من ثم صاح: «يا أياس الأکبرا
عن جثة القتيل عبء الصد
وأدركونا نحن حيّان وقد
بصفوة الطرواد طراً أقبلوا
لكنني أبلبي ولا أبالي
رمى ورمحه مضى يغلُ
ما صدّه المجنُّ بل منه مرق
فهبَّ هبةً ومن ثم انحرف
كأنما ذو شدةٍ وبأس
من منبت القرنين بت العرقا
فخف هكطور وفوراً طعنا
فذهب السنان من فوق الكتف
وأوشك القرمان يسطكان

بعاتقي أنفاسها تحلاً ٤٠
لم ينل النصر ويسفك الدما
يفلّها مبدداً مبيدا
نظفر فيه خاسراً مذلاً
ويا منيلا يا أياس الأصغرا
ألقوا به لخير بهم الجند
برز هكطور وأياس وفد
ونحونا كل قواهم حولوا
على ولاء زفسٍ اتكاي» ٤١
وفي حشا إريتسٍ يحلُ
إلى نجاده وأحشاه اخترق
مسلنقياً والنصل مرتجاً وقف
قابل ثوراً بشحيد الفأس
فهبَّ ثم خرَّ ثم اسلنقى
لكن أفطميذ في الحال انحنى
مرتكراً في الأرض عنفاً يرتجف
بالسيف دون الرمح والسنان

لولا إلا ياسان اللذان اندفعا
فارتاع هكطور وصاحباه
منطرخًا ممزق الأحشاء
وجرد العدة عنه وابتدر
وإن يكن فطرقل لا يقاس
ووضع العدة فوق العجله
مخضب اليدين والرجلين
هناك عج حول فطرقل الوحي
وانحدرت فالاس من أعلى السما
أنفذهما لتتصر الأخاء
وسط سحابة من البرفير
كأن في قلب السما قوس قزح
ينذر بالحرب وقر العام
فانخرطت بينهم في السحب
ثم حكّت فينكس شيخًا أكملًا
«العار والشنار أن تمزقا
قم لا يززعك هزيع الحرب
قال: «أجل يا أبتا الشيخ ألا
لرفد أفطميذ لما سمعا
وانقلبوا والميت غادراه
فهب أفطميذ كالأنواء
يصيح: «عن قلبي انجلي بعض الكدر
بذا الفتى ولو بلاه الناس»
ثم اعتلى منتصبًا بالعجله
كاليث ثورًا رض بالكفين
يثير خطبًا فادحًا مبرحًا
بأمر زفس لإراقة الدما
إذ شاء أن يبدل القضاء
حلت على شأن لها خطير
ألقاه زفس منبًا بما سمح ٤٢
وأزمة الحارث والسوام ٤٣
تحثهم من طي تلك الحجب
تخاطب الشهم منيلا أولا:
غضف العدى خل أخيل الأصدقا
وصل مثيرًا بأس كل الشعب»
ليت أثينا عضدي في ذا البلا

حتى تبين وابل النبال
فإن موته فؤادي فطرا
ولم يزل يعمل باري الحد
فطربت إذ ذاك مما وجهها
فشددت بالحزم منكيه
وحام حول الميت حيث انبعثا
يدفعه المرء فلا يظل
كذا منيلا الدم بالبأس سفك
وكان في الطرود علج يسعى
ذو دولةٍ وصولةٍ يجله
لم يرع مثله فتى فذاكا
ولى فغاص النصل في نجاده
فخر والعدة صلت وعدا
فجاء آفلون هكطور على
من صرح آميدوسة قديما
فقال: «من هكطور يخشاك إذا
ما إن عهدت البأس فيه قبلا

عني ففطرقل أقي في الحال
لكنما هكطور كالنار انبرى
لأن زفس خصّه بالمجد»
دعاه قبل بني الخلد لها
وصلت بالعزم ركبتيه
كأنه الذباب غرثا عشاء
يمتص من دم لديه يحلو
بنصل رمحٍ حيثما حل فتك
بفودس بن إيتيون يدعى
هكطور وهو ضيفه وخله
أورده أتريد الهلاكاه
لجوفه يمرق من فؤاده
يجتره أتريد من بين العدى
شكل ابن آسيوس فينفس العلا
ضيقا لهكطور أتى كريما
حاذرت من سطوة أتريد الأذى
وهو تراه قد جرى وأبلى

واجتر من بين سراكم مفردا
 غشّى ابن فريام غمام الغم
 إذ ذاك زفس هزّ للإرهاب
 فغشيت إيذة دهم السحب
 يشير للطرواد بالغنيمه
 ولّى فنيلاس البيوتي أوّلا
 فرجه فوليدماس الباسل
 وانقض هكطور وليطوس ضرب
 ملتفتًا من كل صوب يئسا
 في إثره هكطور كالبرق ركض
 بطعنة بالثدي كادت تنشب
 فصاحت الطرواد والمطعون
 قد كان واقفًا على مركبته
 إلى فتى مريون قيرانوسا
 كان إذومين من الخيام
 وأوشك الطرواد يحرزونا
 لكن قيرانوس وافى بالعجل
 من العدى أنجاه لكن ما نجا
 جثة فودس الذي أولى الردى»
 فانقضّ يجري بالسلاح الجم
 مجنّهُ الباهر ذا الهداب
 بالبرق والرعد المخوف المرهب
 ولبنى الإغريق بالهزيمه
 مذ كان في صدر السرى مستقبلا
 فشق حتى العظم منه الكاهل
 بقبضة الكف فولّى وهرب
 من ملتقى العدى بزند ييسا
 لكن إيذومين في الحال اعترض
 لكن بطن الدرع قض الثعلب
 زجّ فما أصيب إيذومين
 فمال والنصل مضى بشدّته
 تابعه الأمين من لقطوسا
 قد جاء عاديًا على الأقدام
 بموته نصرًا لهم مينا
 إليه فامتطى على خير العجل
 ونصل هكطور بفيه ولجا

فِي الْفَلَكَ تَحْتَ الْأُذُنِ وَالْأَسْنَانَا
 فَخَرَّ وَالْعَنَانُ مِنْ يَدَيْهِ
 تَنَاوَلَ الصَّرْعَ وَإِيذُومِينَا
 أَمَا رَأَيْتَ النَّصْرَ عَنَّا وَلَّى
 فَخَفَّ نَحْوَ الْفَلَكَ بِالْجِيَادِ
 رَأَى مِنْيَلَا وَأَيَّاسَ حَالَا
 وَقَدْ حَبَاهُمْ بَيْتَاتِ النَّصْرِ
 «ذُو الْعِلْمِ وَيَلَا وَالْجَهُولُ أَبْصَرَا
 فَكُلُّ سَهْمٍ مِنْهُمْ طَارَ قَتْلَ
 فَإِنَّمَا زَفْسٌ هُوَ الْمَصُوبُ
 فَلِنَفْكَرَنَّ الْآنَ مَهْمَا كَانَا
 لَعَلَّ جُنْدَنَا تَسْرُ طَرِبَا
 هَدَّاهُمْ لَا شَكَّ فَرَطُ الْحَزَنِ
 فَمَا يَخَالُونَ بِنَا مِنْ شِدَّةِ
 بَلْ حَسْبُوهُ لَنْ يَكْفَى حَتَّى
 آهًا أَلَا نَلْقَى لَنَا رَسُولَا
 ظَنِّي بِهِ لَا زَالَ يَجْهَلُ الْخَبَرَ
 سَحَقَ ثُمَّ اسْتَأْصَلَ اللِّسَانَا
 أَهْوَى فَمِرْيُونُ انْحَنَى عَلَيْهِ
 دَعَا: «أَلَا سَطَّ وَاطْلُبِ السَّفِينَا ٤٧
 فَمَا إِلَيْهِ مِنْ سَبِيلٍ أَصْلَا»
 مَرْتَعِدًا مَنخَلَعَ الْفُؤَادِ
 أَنَّ الْعَدَى زَفْسٌ إِلَيْهِمْ مَا لَا
 فَصَاحَ آيَّاسُ بِضَيْقِ الصَّدْرِ:
 زَفْسُ اجْتَبَى الْيَوْمَ الْعَدَى وَنَصْرَا
 سَيَّانُ إِنْ رَمَاهُ نَكْسٌ أَوْ بَطْلُ
 وَسَهْمُنَا يَطِيشُ حَيْثُ يَذْهَبُ ٤٨
 بَرْدَ فَطَرَقْلَ إِلَى حَمَانَا
 بَعُودُنَا فِيهِ وَإِنْ سَاءَ النَّبَا
 لَمَّا رَأَوْا مِنْ هَوْلِ هَذَا الْمُحَنِّ
 لَصَدَّ هَكَطُورُ بِهِذِي الشَّدَّةِ
 يَعْלוُ الْخَلَائِيَا وَالسَّرَى يَبْتَا
 يَطِيرُ بِالْأَنْبَاءِ لَا بِنَ فَيَلَا
 بِقَتْلِ إلفٍ وَدَّ مِنْ فَوْقِ الْبَشَرِ

فما إلى الرسول من سبيل
على السرى والخيل والعجال
أَنِرْ على الإغريق حتى يبصروا
ثم امحهم إن شئت وسط النور»^{٤٩}
وبدد الضباب والغيم قشع
شمس العلى بنورها الوضّاح
علّك أنطيلوخ تلقى حيّا
يمضي إلى أخيل الغشوم» ٥٠
أجلى عن حظائر الأبقار
ترصده الليل وما تخلت
فصدّ غرثانًا لذاك اللحم
شهب القنا ولهب المقابس
ممتعضًا ولى بكيد النحر
غادر يخشى وقع خطبٍ أدهى
ولّوا وفي أيدي العداة يقع
يا زعماء الجيش لا تبنوا
برقّة الجانب للكل اتّسم
له قبيل الحتف بالقضاء»

أَوَاه لكن كيف بالوصول
فحجب الظلام بانسدال
يا زفس أيها الإلاه الأكبر
من جوك امحق حندس الديجور
فرق للدموع زفس وانصدع
وسطعت في ساحة الكفاح
فصاح آياس: «منيلًا هيّا
فقل له بالخبر المشئوم
لبى منيلًا ومضى كالضّاري
صدّته غضفٌ ورعاةٌ ظلت
ولم تبج له سمين الشّحم
تهمي عليه في الظلام الدامس
لم يجده الباس وقبل الفجر
كذاك فطرقل منيلًا كرها
يخشى إذا الإغريق هدّ الجزع
فصاح: «يا آياس يا مريون
وادكروا أخلاق فطرقل وكم
واويحه كم من يدٍ بيضاء

كالنسر أحدق الطيور بصرا
أبصر خرنقًا بوعر الغاب ٥١
وأنشب المنسر في لمح البصر
سرّحت ما بين السرى ارتيادا
حيّا فتجري نحوه وتعدو
يستنهض الهمات للجهاد
يا أنطلوخ الصادع المفطرا
جل وظني بك تدري جلّا
وانحاز عَنّا للعدى انتصارا
ميتٌ وهَدَّ القوم منه المصرع
ينهض في طلاب عاري جثته
لأن هكطور استباح العدداً»
وظلّ صامتًا يطيل الفكر
وصوته الهدّار في الحال انقطع ٥٢
من بعدما سلاحه حالًا نزع
ظهيره وسائق الجياد
بنبأٍ جلّ وخطبٍ دهما

ثم انبرى مستشرقًا حيث جرى
ذاك الذي من قلّة السّحاب
ومن عباب الجو كالبرق انحدر
كذا منيلا لحظك النّقّادا
عل ابن نسطور لديك يبدو
إذا به ميسرة الأجناد
فخف نحوه وصاح: «ادن ترى
خطبٌ بنا يا ليتَه ما حلّا
تدري لنا أعدّ زفس العارا
فطرقل ذياك الهمام الأروع
طر لأخيل علّه في حسرته
قل سوف يلقي جسمه مجردا
أصاخ أنطلوخ واقشعرّا
ففاض دمعهُ وقلبه انخلع
لكّنه لبّى منيلا وهرعُ
ألقي به للوذق الجواد
وغادر العسكر والدّمع همى

أبعدت أنطلوخ يا منيلا
ساء بني فيلوس أن قد نرحا
أمر فيهم ترسميد المجتبى
ولم يقف حتى الأياسين أتى
أنفذت أنطلوخ بالأنباء
لكن على هكطور مهما اشتعلا
إذن علينا عهدة التبصر
والعود عن مشجر السيوف
قال أياس بن تلامون: «أجل
أنت ومريون احملا الفقيدا
خلفكما نقارع الأعدادي
إني وآياس الفتى قرنان
فكم كبحنا قبل علجًا أروعا
وما انتهى حتى سريعًا عمدا
فضجت الطرواد ثم اندفعت
تعقبت رتًا جريحًا طمعت
وانهزمت يدفع بعض بعضا
تأثروا الإغريق بالمغاول

ولم تقم مقامه بديلا
عنهم وجهد العي فيهم برحا
ونحو فطرقل عدا منقلبا
فقال: قد أنفذت للفلك فتى
إلى أخيل المستبد النائى
غلا فهل نراه يبلى أعزلا
بحمل فطرقل إلى المعسكر
تملصًا من داهم الحتوف»
بمثل هذا القول من قال عقل
واندفعنا عنا به بعيدا
صدًا لهكطور وللطرواد
بالأس واسمًا متشابها
وكم تحالفنا على الكر معا
ورفعنا الجثة ثم ابتعدا
كالغضف دون فتية الصيد سعت
فيه فمال نحوها فجزعت
كمسكر الطرواد لَمَّا انقضا
نفحًا وخزًا بظبى العوامل ٥٣

كلا الأياسين لهم ووقفا
وجملة عن طلب الشلو سهوا
خفًا به فثار نفع الفتك
في بلدٍ جم الذرى فسيح
وهدر النوء على المباني
خلفهما في طلب الأسطول
كما من الشم جرى بغلان
أعدَّ فوق الغاب للسفين
بعرقٍ في الجهدِ رشحًا يجري
قد حكيًا في بطنٍ وادٍ علما ٥٤
فصاغراً عنه سريعاً يعطف
صدًا سرايا جيشها المندفق
أنياس يغريهم وهكطور يثب
وانهزمت بالرُّعب تستجيش
ولّت لدى منظر صقرٍ كاسر
فانهزمت من وجهه انهزاما
مدعورةً ولّت على ذلتها

حتى إذا ضاق المجال انعطفا
فامتقعوا لونًا وخاروا ووهوا
وذانك القرمان نحو الفلك
كالنار شبت تحت قصف الريح
فالتهمت منازل السكان
ذلك عجُّ الجيش والخيول
ولبثا بالشلو يجريان
جدًا بجذع حملا متين
توغلا بشدةٍ في الوغر
أمّا الأياسان فَمِن خلفهما
في وجه مجرى النهر جبارًا يقف
كذا الأياسان بوجه الفرق
لكنما الطرواد ظلّوا في العقب
قرمان ضجت لهما الجيوش
حكوا سحابةً من الزرازر
رأت به موتًا لها زؤاما
كذلك الإغريق في كشفها

وغادرت في الحاف والحفير ما انهال من سلاحها الكثير
وليس هذا منتهى القتال وعبث الأزيمة والوبال ٥٥

هوامش

(١) كل هذا النشيد مصاولة وكفاح، لا تتخلله نكات وغرائب كسائر إنشاد الإلياذة فهو وحيد في بابيه بهذا المعنى، ولقد افتحه الشاعر بالتغني بأعمال منيلاوس؛ لأنه لم يكن يجدر بهذا الفارس وهو المستنفر إلى حرب طروادة إلا أن يستلقت الأنظار ببأسه وإقدامه وسمو صفاته حيناً بعد حين، وقد لقبه الشاعر بإلف آريس إله الحرب إشارةً إلى أنه لم يكن بالفتى الهَيَّاب كما زعم بعض أعدائه.

(٢) الثنية: البقرة الفتية.

(٣) هيفيرينور ابن فثووس وشقيق أوفرب قتله منيلاوس (ن ١٤).

(٤) العرس الهدي: العروس حين زفافها تُهدى إلى زوجها. وقوله: «في أقصى الغرف» إشارة إلى إقامتها في الحرم. راجع ما قيل بهذا الباب في حواشي النشيد السابق.

(٥) فرنثيس: أم هيفيرينور.

(٦) العين: الذهب، واللجين: الفضة. ذكرنا في ما تقدم أن فتیان بعض قبائلهم كانوا يرسلون شعورهم أو يضفرونها كبدو العرب (ن: ٢)،

ولكننا لم نر قبل هذا أن غدائر الفتيان كانت تصفر بالفضة والذهب يتخذونها حلية كحلي النساء، على أن في جاهلية الأمم كثيرًا من أمثلة تحلي الرجال بالشنوف والخلخال وسائر أنواع الحلي، ولا أخال الرجل في أول أمره إلا متخذًا الحلي لنفسه قبل المرأة؛ إذ كان يستأثر بقوته بكل ما يروقه ثم أخذ يتجاوز عنها إلى المرأة من باب الإثارة أيضًا؛ إذ جعل يأنس بالنظر إليها وهي رفيقته فوق ما كان يأنس بالتلبس بها بنفسه، وكان كلما تقدم في الحضارة ينبذ منها جانبًا إلى أن استبقى منها السهل الذي لا يزعه حمله كالخواتم والسلاسل، وأبقى لها ما يوجب الحرص والأذى وثقب الأذان.

(٧) كثيرًا ما يشبه الشاعر البطل الخار صريعًا في ساحة القتال بالشجر الشامخ الفروع المتين الجذور كالأرز والملول، وأما تشبيهه أوفرب بفرخ الزيتون الغض فإنما كان لجماله وغدائره المسترسلة، وهي مصفورة بالفضة والنضار. قولوا: إنه كان لفيثاغورس شغف خاص بهذه الأبيات يتغنى بها على نغم القيثارة حتى تملأ به هذا الشغف، فادعى أنه أوفرب بالذات قمصت إليه نفسه بعد موته.

(٨) الصوار: قطيع البقر.

(٩) غرة الشيء: خياره.

(١٠) يراد بأتريذ هنا: منيلاوس.

(١١) أي: إنه تشبه بميتيس زعيم الكيكونيين.

(١٢) أي: منيلاوس وأوفرب.

(١٣) أعجب كثيرون من الشراح بكلام منيلاوس في هذا الموقف وهو يناجي نفسه، ولا بدع فإن فيه من براعة تصرف الشاعر ما لا يكاد يتصوره شاعر آخر، أقبل هكطور تتبعه سرايا قومه فأوجس منيلاوس خيفة في نفسه فتردد في الاستواء أمام ذلك الجيش العرمرم، ولم يأخذه الرعب حتى مر على ذهنه أن لهكطور وجنده عضداً إلهياً لا تصده قوى البشر، ومع هذا كله فقد تمنى أن يكون إياس إلى جانبه فلا يبالي إذ ذاك بذلك الجيش الجرار ولو تقدمهم بطله المغوار وفيوس الرب القهار، وفي هذا التدرج ما فيه من الفخر لمنيلاوس وإياس كليهما.

(١٤) يقال: رب انكسار خير من انتصار. وهكذا فإن ارتداد منيلاوس كالليث الملتوي أمام الرماح والنباح لا يغض من شأنه شيئاً.

(١٥) أي: سلاح أخيل. أرسل هكطور ذلك السلاح إلى إليون قبل أن يتقلده ليراه قومه ويكون نبأ لهم عظيماً.

(١٦) قال عنتره

ولي بأس مفتول الذراعين خادر يدافع عن أشباله ويحامي

(١٧) عرض الجند، أي: عامتهم.

(١٨) الدراهمس: الشدائد، والنواهمس: الكلاب. يقول غلوكوس
هذا القول؛ لأنه لم يكن يعلم ما كان من أمر سرفيدون وذهاب أفلون به
ليدفنه بأمر زفس في وطنه.

(١٩) أي: نحو إليون.

(٢٠) قال بعضهم:

وما كل ما يخشى الفتى نازل به ولا كل ما يرجو الفتى هو نائل
فوالله ما فرطت في جنب حيلة ولكنّه ما قدر الله نازل
وقد يسلم الإنسان من حيث يتقي ويؤتى الفتى من أمنه وهو غافل

(٢١) ذهب القدماء إلى أنه كان من مهارة هوميروس أن أوقع
سلاح أخيل مغنماً بيد هكتور؛ ليتساوى البطلان، وإلا لما كان لأخيل
الفخر بقتل هكتور، وسلاح أخيل صنع الآلهة وسلاح هكتور صنع
البشر، وهنا أمر آخر يحسن التنبيه إليه وهو أن الشاعر وطأ بهذه
المقدمة إلى الإتيان على الوصف البديع للسلاح الذي سيصنعه هيفست
لأخيل في النشيد التالي.

(٢٢) أي: لن يبلغ سن الشيخوخة؛ لأنه سيقتل شاباً.

(٢٣) لا يفوت الشاعر محل انتقاد إلا ويتنبه إليه ويتلافاه؛ إذ قد
يمكن أن يعترض بأن عدة معدة لرجل لا تحسن لكبر أو صغر أو قصر

أو طول لرجل آخر، فقال الشاعر: إن زفس جعلها كأنما صنعت
لهكطور، وهو التقدير على أكثر من ذلك.

(٢٤) يشبه هكطور بغمام الحرب، وهو تشبيه غريب؛ ولهذا
ذهب بعضهم إلى أن هذا البيت دخيل. قلت: ولا أراه غريبًا بتصرفه به
هذا التصرف.

(٢٥) ابن ويلوس هو إياس الأصغر، كان أول قادم، إما لأنه كان
أعداهم كما تقدم، وإما لأنه كان إلف إياس الأكبر، فكان أول مجيب
لندائه.

(٢٦) الرت: الخنزير. والغصف: الكلاب.

(٢٧) ثعلب الرمح: عوده.

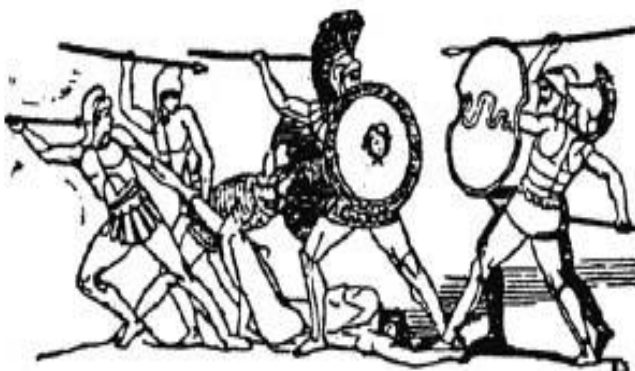
(٢٨) أي: حمالة السيف التي أراد أن يجر بها جثة فطرقل.

(٢٩) أي: فرقيس وهيفوثوس.

(٣٠) غبًا، أي: حينًا بعد حين.

(٣١) ترسيميد وانطيلوخ.

(٣٢) يعلمنا هوميروس هنا كيف كانوا يسيطون الجلود، وهو أول
من ذكر ذلك فيما نعلم.



القتال حول جثة فطرقل.

(٣٣) أي: إن فالاس وهي آثينا ربة الحكمة لا تجد مرمى للوم والشريب، وإن كانت مغيظة، تلك إشارة إلى أن حدة الغيظ تدفع حتى البصير الحكيم إلى كشف معايب غيره، وهي طرفة من طرف هوميروس الكثيرة.

(٣٤) أي: إلى السماء.

(٣٥) لا عجب إذا مثل لنا هوميروس جياد أخيل تذرف العبرات أسى وحرناً على فطرقل، وهي من الجياد الخالدة، فلقد روى الرواة في كل الأعصر أن الخيل تبكي وتتحرق لهفةً على فرسانها، ذكر أمثال هذا أرسطاطاليس ولبيناس، وذكر سولينوس مثله عن الفيلة إذا أخذت من مواطنها، وقال هذا القول عن الحيوان بعض المتأخرين، وقد حذا حذو هوميروس باستبكاء الجياد فرجيليوس فقال:

Post bellalor equus, Positis insignibus
Æthon

It lacrymans, guttisque humectat grandibus
ora

وأما شعراء الإفرنج فقد لطفوا المعنى؛ إذ أضربوا عن ذرف
الدموع وعبروا عن جزن الخيل بجمود العين وتنكيس الرأس، وما أشبه
كقول راسين في روايته فدر

L'œil morne maintenant et la lète baissée
Semblaient se conformer à sa triste pensée

وممن استبكى الخيل من شعرائنا عنترة العبيسي بقوله:
ولقد تركت المهر يدمي نحره حتى التقتني الخيل ثاني جدعم
ما زلت أرميهم بثغرة نحره ولبانه حتى تسربل بالدم
فازور من وقع القنا بلبانه فشكا إليّ بعبرة وتححم
لو كان يدري ما المحاورة اشتكى وكان لو علم الكلام مكلمي
وأما استبكاء الحمام والورق وما أشبه من الطيور فقد صار في
لغتنا من المبتذلات السواقط.

(٣٦) إن عادة النُصب على قبور الأموات رجالاً ونساءً
قديمة جداً كما ترى. راجع النشيد السابق.

(٣٧) سبق لنا ذكر السبب في تقديس الظلام (ن ١٤).

(٣٨) لما قتل فطرقل أصبح أفطميذ منفردًا في كرسي المركبة، فكان يغير بغير هدى على الأعداء فيهزمهم، ولا يقتل أحدًا منهم؛ إذ لم يكن بإمكانه أن يكافح ويطارد في آن واحد.

(٣٩) الجن: التروس، والسبت: الجلد المصنوع.

(٤٠) يقول لا تبعد عني بالجياذ بل سر دائمًا على مقربة مني حتى أشعر بنفسها على عاتقي.

(٤١) حيثما نظرنا إلى الإلياذة رأينا فيها الأدلة الساطعة على خالص الاعتقاد بالقضاء والقدر، ووجوب التسليم إلى العناية على حد قول المعري:
سلم إلى الله فكل الذي ساءك أو سرَّك من عنده

(٤٢) قوس قزح هنا نذير سوء لا يشير خير كما جاء في التوراة.

(٤٣) القر: اشتداد البرد، والسوام: الدواب والأنعام.

(٤٤) الغرثان: الجائع، وعثا: أفسد.

(٤٥) لعل الإتيان بفودس هنا ومقتله مقصودان من الشاعر بإزاء قدوم فطرقل ومقتله؛ لأن هذا خليل أخيل بطل الإغريق، وذاك خليل هكطور بطل الطرواد.

(٤٦) أي: أسبوس الذي تمثل أفلون بهيأته.

(٤٧) الصرع: العنان.

(٤٨) قال البحترى:

متوقد يفري بأول ضربة ما أدركت ولو أنها في يذبل
وإذا أصاب فكي شيءٍ مقتل وإذا أصيب فما له من مقتل

(٤٩) لما كان الجو قد أربد واكفهر بما كثف زفس فيه من الضباب، وتساعد من الغبار المتكاثف كالسحاب، سدت سبل البطش في أوجه الأبطال، فقال أياس في دعائه هذا القول البديع؛ إذ لم يلمس نجاةً لنفسه ولقومه، ولا عوناً علوياً يستمده من زفس، بل جل ما رام وتمنى أن تنقشع السحب فيتسع له المجال للكفاح، ولا حرج عليه بعد ذلك إذا مات قتيلاً وهو يجاهد ويطارد.

(٥٠) الغشوم: الظالم وقع اختيار أياس على أنطيلوخ بن نسطور؛ لكونه صديقاً حميماً لأخيل.

(٥١) الخرنق: ولد الأرنب.

(٥٢) لا وصف أبلغ للحنن من هذا الوصف الوجيز: اقشعراؤ، وصمت، وفكرة، ودمع، وانخلاع قلب، وانقطاع صوت.

(٥٣) المغاول: السيوف، وظبي العوامل: نصال الرماح.

(٥٤) العلم هنا الجبل.



أياس الكبير يحمل فطرقل ليدفعه إلى منيلا ومريون.

(٥٥) إن التشابيه الشائقة متلازّة متزاحمة في آخر هذا النشيد،
تزاحم الفرسان في حومة الميدان، وحسب المطالع أن يعيد النظر عليها،
فيرى بدائع التراكيب وغرائب الأساليب قد تطايرت من قريحة الشاعر
بأبياتٍ قصار تطاير النبال عن سواعد الأبطال.

النشيد الثامن عشر

تفجع أخيل على فطرقل ووصف الترس الذي صنعه له إله النار

مُجْمَلُهُ

جرى أنطيلوخ إلى أخيل فأنبأه بموت فطرقل، فبكى أخيل وانتحب، وأخذ منه الحزن كل مأخذ، فسمعت أمه ثيتيس أنينه وهي في لجة البحر، فصعدت إليه مع بنات الماء فأخذت تصبره وهو لا يتصبر، ولا يرى إلا الانتقام لرفيقه وحببيه، وكان فطرقل قد ذهب بسلاح أخيل فبقي أعزل لا قبل له بالتقاء الأعداء على تلك الحال، فشبّطته أمه ريثما تحضر له شكّة في اليوم التالي مع صنع إله النار، فصرفت زميلاتها وصعدت إلى الأولمب فتلاحم الجيشان حول جثة القتيل، وكاد هكتور يظفر بها لو لم تأت إيريس من قبل هيرا، وتأمّر أخيل بالإقبال من بعيد على الطرواد، فأقبل إلى حافة الخندق وصاح ثلاث صيحات فارتاع الطرواد وانهزموا وخلا الإغريق بجثة فطرقل، وأتوا بها قبيل المغرب إلى خيمة أخيل، وعقد الطرواد مجلسهم فأشار فوليداماس بالتحصن في المدينة فأبى هكتور إلا البقاء خارجها، ففقدوا ليلتهم متيقظين والإغريق وأخيل يندبون فطرقل فغسلوه وطيبوه، وأما ثيتيس فدخلت صرح إله النار فرحبت بها زوجته، ثم أتاها بنفسه فبثت له شكواها والتمست

سلاحًا لابنها، فدخل معمله واصطنع الترس العجيب والدرع والخوذة والخفين وألقى بهن إليها، «فاندفعت بها اندفاع الصقر».

وقائع هذا النشيد في اليوم التاسع والعشرين وليلة الثلاثين، ومجرى حوادثه في مضارب أخيل وفي منزل إله النار.

النشيد الثامن عشر

صدامهم كأوار النار محتدم	وأنطلوخ به قد خفت القدم
ألقى أخيل لدى الأسطول يخبط في	بحرانه قلقًا ممًا بدا لهم ١
يئن وهو يناجي النفس مضطربًا:	«ويلا علام أرى الأرغوسة انهزموا
ولّوا عباديد نحو الفلك شاردةً	هل جلّ خطبٌ به الأرباب قد حكموا ٢
خطبٌ به أوعزت ثيتيس قائلةً:	«بهم المرامد يلقي الحتف خيرهم ٣
«يغيب عنه ضياء الشمس فاتكةً	به الأعادي وحي أنت عندهم»
لا شك فطرقل أودى ويحه أفلم	أقل له دونك النيران تضطرم
أحمد شرارتها وارتدّ مجتبًا	هكطور لا تنخرط إياك وسطهم»
تلك الهواجس هاجت بئّه فإذا	بأنطلوخ بدا والدمع ينسجم
قال: «ابن فيلا مصابٌ قد دهمنا به	يا حبذا لو بنو العلياء ما دهموا
فطرقل ملقى وهكطورٌ بشكتيه	والجسم عارٍ عليه النقع ملتحم» ٤
فما انتهى أنطلوخ من مقالته	حتى محيًا أخيل غشت الغمم ٥

وفوق طلعتَه الغراء وهامته
فاسود منه محياه وقد علقت
أكب يشغل ميدانًا بقامته
وحوله انطلقت تبكي مولولةً
غيدٌ أخيلٌ وفطرقلٌ بئسهما
لظمن بض صدورٍ والنوين أسى
ذريه أمسك حتى لا يشور أسى
فأنَّ عن ألمٍ من ضيمه فمضى
فصعدت من عباب البحر زفرتها
وحولها ثم في الأعماق قائمةً
غلوكةً قيمدوكا ثاليا وثوا
صفيةً نيسيا أكتا قموثة
أمفيشوا دينمينَا ذكسمينا ذتو
وحولها ياربا ميليت آغيبا
وأفسذيس نميريتيس قلينسا
ياناسُ يا نير إقليمين أورثيا
كهفٌ لها أبيض حسنًا فارتكمن به
ولولن ولولة ثم التظمن معًا
صاحت: «أخيَّات سمعًا وانتبهن إذا

براحتيه سناجًا ذرٌ يلتطم ٦
بطيب أثوابه آثاره السحم ٧
تمرُّغًا وهو زاهي الشعر يصطلم ٨
تلك السبايا التي غصَّت بها الخيم ٩
قد أحرزا سلماً يا حبذا السِّلْم ١٠
فسحَّ من أنطلوخ المدمع الرِّذْم ١١
ونحره يلج الصَّمصامة الخدم ١٢
حتى لثيتيس ذاك الضيم والألم ١٣
حيث استقرَّ أبوها نيرس الهرم ١٤
في اليم كلُّ بنات اليم تلتئم
وآليا من بعين الحور تتسم
لمنورةً دروسٌ فانوب أمفمنم
غلاطيا الحسن من شاعت لها الشيم
فيروز قليانرا إفروط تزدحم
أماثيا من بشعر زانها وسمو
ما ير والكلُّ ضمن الكهف ينتظم ١٥
وفيه كل بنات البحر ترتكم
وولولت عن فؤادٍ كاد ينفصم
لنقمةٍ قد عرتني دونها النقم

وبلاه وبلاه من أم لقرم وغى
أنشأته مثل غصنٍ طاب منبته
بالفلك أنفذته للحرب واحربا
ما زال حيًّا عليه الشمس ساطعة
لا أستطيع له عونًا وها أنذا
أرى الحبيب فأدري ما ألم به
وغادرت كهفها يصحبها وغدا
حتى إذا ما بلغن السهل سرن إلى
وحيث حويله قد أرسوا عمارتهم
دنت وأنت وضمت رأسه لهفًا
«بني ماذا الأسى ما الدمع تذرفه
ألا ترى زفس ذاك الوعد برَّ به
ناشدته مذ عن الإغريق بنت إذن
فأنَّ عن كبِدٍ حرَّى وقال: «أجل
لكن إذا اخترمت أبطال صيدهم
فطرقل أرفعهم شأنًا وأعلقهم
بهامتي كنت أفديه فوا لهفي
من بعد مصرعه في صلد شكته

عن شأوه قصَّر الأبطال كلهم
في روضةٍ فإذا بالسادة اختصموا ١٦
والآن موطن فيلا دونه حَرْمٌ ١٧
وفي حشاشته من ضيمه ضرم
فورًا لرؤيته ذا الحين أغنم
من محنةٍ وهو عن قرع القنا وجم»
أمامهنَّ عباب البحر ينقسم
حيث المرامد تلك الفلك قد نظموا
فأسمعت زفراتٍ هاجها السأم
وكلمته تجاري دمعها الكلم: ١٨
بُخ لي فبُشك عني ليس يكتم
لَمَّا بسطت له كفيك تظلم
في وجه فلكهم كيدًا يكيدهم» ١٩
قد بر وبلاه فيما قد أذاقهم
ما نالي والفتى فطرقل مخترم؟ ٢٠
بمهجتي لا تضاهيه قرومهم
عدمته مثلما كبارهم عدموا
هكطور ذو القونس الطيَّار محتكم ٢١

سلاح خلدٍ من الأرباب أهديه
فيضًا أنالوه لَمَّا كنت قسمته
فلو بقيت ببطن البحر قاطنةً
وما تألمت لابنٍ لن يأوب إلى
لا عيش لي فسناني اليوم تنفذه
صاحت وسحَّت على الخدَّين عبرتها:
هلاك هكطور يتلوه هلاكك لا
يا حَبْذا الموت إذ غلت يدي سلقًا
فطرقل أودى ولم أبرز لجانبه
فلم أصدَّ زوام الموت عنه ولم
فالموت فالموت لا عودٌ ولا وطنٌ
حملاً على الأرض لا جدوى لثقلته
لئن يفق بسداد الرأي بعضهم
فلتهلك الفتنة الدَّهما التي عبثت
وليهلك الغيظ من بين الأنام فكم
كالشهد في الصدر يجري وهو منتفخٌ
أتربذ حدَّ مني غيظًا وذاك خلا
نعم سأطلب هكطور الذي فنكت
حتى إذا شاء زفسٌ في بطانته

فيلا فما حصرت تقويمه القيم
يا حَبْذا لو له إنسيَّة قسموا ٢٢
ما نلت من إنس أهل الأرض ضيمهم
أوطانه وهو بحر الموت يقتحم
كفِّي لهكطور عن فطرقل أنتقم»
«إذا حياتك كادت آه تنصرم
مرى» فقال: «إذن يا حَبْذا الشبم ٢٣
عن صون إلفي لَمَّا اشتدَّت الإزمُ
أقيه من صدماتٍ تحتها اصطدموا
أرد عن فتيةٍ هكطور فلَّهم
إذ لم أهبَّ إلى الهيجا أصونهم
ظللت دون أساطيلي تجاههم
فإنني بقراع الصم فقتهم
بالجن والإنس حتى افتلَّ شملهم
أغرى وأوغر منقادًا حكيمهم
مثل الدخان به أهل العيون عموا
فلنغض ولنمض مهما برَّح الأضم ٢٤
كفَّاه في قمَّةٍ تعنو لها القمم
موتي فإن حياتي تلك دونهم

زفسِ فأودى وإن أولوه ودَّهم
 فالألق ميتًا إذا كانت كذا القسم
 إلّا ادخار على تسمو به الهمم
 لهنّ دمعٌ سخينٌ جريه ديم ٢٥
 حاجت تلهفهنّ الأبؤس الدهم
 أعداء بوني وإنّي الآن بينهم
 قالت: «أجل أحكمت في قولك الحكم»^{٢٦}
 أزاح بالبأس خطبًا جلّ هالهم
 عدى وهكطور فيها الآن متسم
 علمت ساعته حانت وما علموا
 حتى تراني غدًا والفجر يتسم
 أعود فأبل بها وافتلّ جمعهم
 مَ الشيخ والدنا بالصبر معتصم
 هيفست أطلب فهو العهد يحترم
 في الخلد حيث استقر المجد والعظم
 من وجه هكطور المدمر تنجلي
 وقتيلها تحت النبال الهمل
 بعجاله ولفيف ذاك الجحفل

هرقل لم يغن عنه بأسه وولا
 أصابه كيد هيرا والقضاء إذن
 وليس من شاغلٍ ذا اليوم يشغلني
 والدردنيّات بضّات الصدور يرى
 يمسخن ما سخّ عن غض الخدود وقد
 يعلمن أن اعتزالي طال فاغتمن الـ
 ما أنت مهما بذلت النصح مانعتي»
 وافخر من عن سراياه وأسرته
 لكنّ شكتك الغراء فاز بها الـ
 ما خلته يتمادى عهده زمناً
 فلا تلج لجج الهيجاء مقتحمًا
 في شكّة من لدى هيفست شائقة
 وغادرته وقالت للحسان: «إلى
 لجن العباب إذن بلغنه وأنا
 فغصن وهي استطارت تبتغي مددًا
 ما زالت الطرود تحت القسطل
 بلغت على صلتقاتها أسطولها
 كشرارة هكطور هب يرومه

أحنى ثلاثًا قابضًا قدميه وهـ
وكذا ثلاثًا صدّه عزم الأيا
لكنه ما انفك عن عزماته
متربصًا طورًا يهدُّ وتارةً
لم يبلغا أربًا به لكنّه
كاليث ضوره الطوى بفريسةٍ
ولربما بمناه عاد مظفّرًا
أمت أخيل من الألمب فأقبلت
هيرا أسارتها فلم يعلم بها
قالت: «أخيل وأنت مغوار الوغى
دون السفائن تحت مشتجر القنا
ما بين حامٍ يستشيط وحائمٍ
وأشدهم هكطور يدفعه المرا
من ثم تعرض للهوان على القنا
كرّن أو فطرقل بين نواهسٍ
فإذا بها عبثت فأية حطة
فأجاب: «إيريس ومن أسراك لي»
لم يدر بي زفسٌ وسائر من ثوى
فأجاب: «آه وكيف أفتحم الوغى

و يصيح يا جند الطراود أقبلي
سين المذل عزم كل مذل
متدرعًا بزماع قرم قيل
يلج العباب بكرة المستبسل
من حول ذاك الشلو لم يتحوّل
يخلو ويزري بالرعاة البسل
لو لم تلح إيريس ترمح من عل
كالريح تنذر بالوبال المقبل
زفسٌ ولا أرباب ذاك المحفل
للذود عن فطرقل كرّ وعجل
حوليه كم قرم يخزّ مجنّد
بالشلو إليونا يروم ويصطلي
م لفصل هامته وبِت المفصل
أفتلبشّن عن الكفاح بمعزل
في ساحة الأعداء جتته تلي
أبدًا تسومك ذلة المتذل
قالت: «حليلة زفس ذي الطول العلي
بذرى ألمبٍ بالثلوج مكلل»
وأخوض لجتها براحة أعزل

ملك العدى عددي وأمي حتمها
حتى أراها أقبلت في شكة
أولا فأى فتى بشكته أرى
وأياس من حول القتيل إخاله
قالت: «علمنا كل ذلك إنما
ذعروا وصحبك يانسون بجهدهم
ضاقت منافسهم وفي دار والوحي
طارت فهبَّ فألبسته مجنَّها
وعلى محيَّاه غمامة عسجدٍ
فكأنما بلدٌ بقلب جزيرةٍ
خرجت بنوه إلى مبارزة العدى
حتى إذا برحت براح تألَّقت
أملًا بجيرتهم ترى فتمدَّهم
وكذا أخيل لهيب هامته سما
فوق الحفير أقام لا يطأ الوغى
بالقوم صاح وصوت فالاسٍ علا
كالصور خلف السور ينفخه العدى
صدعوا وأعراف الجياد تطايرت

أبقى هنا بتربص المتحمل
قد دقها هيفست أعظم صيقل
غرضي خلاف مجن آياس الملي
قد حام يطعن في الخميس الأول»
إن تبد للطرواد دون المعقل
فعلى البروز لدى سراهم عول
هيهات تؤمل راحة لمؤمل»
فالاس في هدأبه المسترسل
ألقت يفيض لها لهيب المشعل
حصرت علا منه الدُخان المعتلي
وقضوا نهارهم بقرع الأنصل
نيرانهم من تحت ليلٍ أيل ٢٧
بعمارة تجلي العدو المبتلى
حتى الرقيع لمقلَّة المتأمل
إذ عن مقالة أمه لم يغفل
فتقلقل الأعداء أيَّ تقلقل
تحت الحصار تبينوا الصوت الجلي
جزعًا وفرت خيلهم بتجفل

بعجالها انقلبت تفر بساقه
من حول هامته أثينا أججت
فوق الحفير علا ثلاثاً صوته
وتجندل اثنا عشر من أبطالهم
فحلا بفطرقل الأغارق وانشوا
وضعوه فوق سريره وتقاطرت
وافاهم آخيل منتحباً على
هو ساقه للحرب فوق جياده
فهناك هيرا أنقذت شمس العلى
فشبَّط الإغريق عن هجماتهم
تخلفت الطرواد لما الدجى أربدا
وقوفاً قبيل الزاد حشداً تألفوا
لقد هالهم أن ابن فيلا بدا لهم
بهم فولداماس الحكيم ابن فنش
نظور لما يأتي خبير بما مضى
لقد ولدا في ليلة بيد أنه
فقال: «أصحابي اقتفن نصيحتي»
لدى الفلك في ذا السهل للفجر لا أرى
لقد كانت الأرعوس أسهل مأخذاً

ذعرت لذياك اللهيب المنجلي
ذاك السعير يروع عين المجتلى
وكذا ثلاثاً أجفلوا بتبابل
برماحهم تحت العجال العجل ٢٨
نائين عن مرمى الرماح الدبل
خلانه تبكي لهول المقتل
إلف به لعبت حدود المنصل
لكنه وا ويحه لم يقفل
فتخللت بطن العباب لتختلي
وتربصوا تحت الظلام المسبل
مغيراً وحلوا من عجالهم الجردا
ولم يجلسوا رعباً وإن أثقلوا جهدا
وبعد اعتزال الحرب قد عاد مشتداً
تبدى خطيباً يفقه الحل والعقدا
ولي لهكطور ومن رهطه عدداً
بدا دونه بأساً كما فاته رشدا
هلموا إلى إليون ذا الحين نرتداً
مقاماً وعنا السور تدرون قد ندداً
وآخيل مشتد بعزلته حقداً

وكم شاقني إذ ذاك ليلي بقربها
ولكنني أخشى وأدري بأنه
يجوز مرامي الجحفلين مغادرًا
صدقتم نصحا فسيروا بنا فإن
ولكن إذا ما أصبح الصبح وانبرى
لإليون من ولى فمستبشرا نجا
فلا طرقت هذي النوازل مسمعي
إذا فلنقم في الليل حشداً مكتفيا
فأبراجها الشما وأرتاجها التي
وعند بزوغ الفجر بالعدد الأولى
فهيهات آخيل يفوز إذا بدا
يعود إذا ما أجهد الخيل حولها
ستفرسه غضف الكلاب قبيل أن
فأحرق شزراً فيه هكطور صارخاً:
أندخل إليونا فهلاً عييت من
لقد ملأ الأسماع ما أرضنا حوت
وقد نفدت جلى الكنوز وبددت
يافريجيا بيعت وأرض ميونة

على أملٍ بالقرب أن نبلغ القصد
بحدته لن يرضين هنا الحد
ليمتلك الأسوار والأهل والولدا
يكف فذاك الليل في وجهه اسوداً
بعده أيقنتموه الفتى الفرد
ويشبع طير الجو والغصف من يردى
ولكن علمي ذا وإن ساءكم جدًا
بإليون أسباب الوقاية نعتداً
بأصفاقها زلجن نجلي بها الوفدا ٢٩
تألغن نبذو فوق معقلنا حشداً
بممتنع الأسوار مهما علا جهداً
مغاراً إلى أسطوله لاهباً وجداً
يحلّ بهنّ اليوم أو يعمل الحداً»
«لقد جئت أمراً فولداماسنا إذاً
مقامك من خلف المعقل منهذاً
نضاراً بهيا أو نحاساً بها صلداً
فلست لها تلقى بأفنائها عهداً
على حين عنا زفس منتقمًا صداً

وها هو عني الآن راضٍ منيلني
تعست فضه لا تخدع الجند لن يروا
هلموا إذن للزَّاد لا تتشتتوا
ومن بات في خوفٍ على المال فليقم
فخبرٌ لنا نلهو به جملةً ولا
وإن طرَّ وجهُ الصبح دجج جيشنا
فإن كرَّ آخيلٌ إلى ساحة الوغى
أبارزه لا هالِعًا أو مولِيًا
لكل همام كانت الحرب منهلا
فضجت له الطرود جهلاً وما دروا
وهكطور طرّاً وافقوا يغفلون ما
ومالوا وما زالوا بملء انتظامهم
وأما بنو الإغريق آناء ليلهم
ويينهم آخيل في زفراته
على صدر ذاك الإلف ألقى أكفه
كأن ببطن الغاب أشباله بها
وهبَّ على آثاره بحزازة
فصاح: «ألا ربّاه واعظم موعدٍ
بمنزله عاهدته لأفنتس

من النصر ما للفلك يطردهم طردا
برأيك نصحاً أو أردّهم ردّاً
وكل فتى في حينه يحسن الرصد
ويجمع لديه المال يطعمه الجندا
نمتع بالأموال أعداءنا اللدا
فتعقد دون الفلك كرته العقدا
رأى عجباً من قبل أن يرد الورد
ولا بد منا ماجدٌ يحرز المجدا
فكم بطل فيها يصدُّ العدى أصدى ٣٠
بأن أثينا قد أضلتهم عمدا
لهم فولداماسٌ بحكمته أبدى
لزادٍ لهم ما بين تلك السرى مدّاً
فقد لبشوا في مآثم هدّهم هدّاً
يحن لفطرقلٍ وقد أكبر الفقدا
يحاكي إذا ما أحدق الأسد الورد
خلا قانصٌ فاربدٌ واشتدَّ واحتدّاً
تحدّره وهدّاً وتصعده نجدا
وعدت منتبوساً ولن أصدق الوعدا ٣١
أعيد ابنه من بعد أن يقهر الضدّاً

ويهدم إليونا ويرجع غانمًا
بإليون قد خط القضاء بأن من
فلن يتلقاني أبي الشيخ عائداً
أفطرقل مذ سقت لذا الترب أعظمي
فلست متما مأتماً لك قبل أن
وشكته تلقى لديك ورأسه
ومن حولها اثني عشر رأساً بصارمي
فظل إذن ملقى لدى الفلك ريشما
فكم ثم طرواديّة درديّة
ينحن عليك اليوم والليل كله
وأوعز أن يعلى على النار مرجلاً
فلبوا وفيه الماء صبوا وأشبعوا
ولما غلى في ساطع القدر ماؤهم
ونقوه من تلك الدماء وبادروا
وفي كل جرح أفرغوا بلسماً مضى
وألقوه من فوق السرير وأسبلوا
ومن فوقه ستر من النسج أبيض
فقال لهيرا زفس في قبة العلى:

وهيهات زفس كل آماننا أسدى
دماء كلينا الأرض محمرة تندى
وثيتيس أمي بعد أن أعظما البعدا
وبعدك لي قد خط أن أنزل للحداء
أذيق الردى هكطور قاتلك الجلدا
فأذكي لك النيران مدخراً حمدا
أقضب من طروادة فتيّة مرداد ٣٢
أبر فذا عهدي ولن أخلف العهدا
سينا بدار بأسنا فوقها امتداً
ويلظمن بض الصدر والنحر والخذاء
وفي غسل جسم الميت من حينهم ييدا
له النار تذكو من جوانبه وقداء
ففي غسله جدّوا وقد أحسنوا الجدا
لزيت كثيف يدلكون به الجلدا
لتسعة أعوام تقادمه عهدا
من الرأس حتى تحت أقدامه بردا
وناحوا وآخيل مدى ليلهم شهدا ٣٣
«فلحت فأخيل لقد أنف الصدا

فلا ريب في أن الأغارق قد نموا
فقلت: «ألا يا ظالمًا قد هزأت بي
ولم يبلغوا من راسخ العلم علمنا
وإني وإن ما كنت أسمى إلهة
فلم أعط أن أولي الطراود ذلةً
إليك وأضحى منك طارفهم تلدا» ٣٤
وللإنس تلقى الإنس قد أحسنوا العضدا
ولا مثلنا أوتوا بأرضهم الخلدا
وبعلي أخي من لا أقيس به ندا ٣٥
ولا قوم أرغوس أنيل هنا رفا»



ذاك الحديث في السماء يجري
ونحو هيفستِ ثيس تجري
حيث بني الأعرج زاهي القصر
صرحًا من النحاس عالي القدر ٣٦
في الخلد يسمو راسخًا للدهر
ألفته سح عرقًا فوَّارًا
يدير منفخًا ويذكي نارا
مناضدًا عشرين قد أدارا
على الجدار تبهر الأبصار ٣٧

مرفوعةً على عجال تبر
حتى بها بأعجب العجاب
من نفسها لمجلس الأرباب
تسرع بالذهاب والإياب
تمت سوى مقابض الأجباب
مع عراها الشائقات الغر
أمامه قد حمي الوطيس
يشغله إذ أقبلت ثيس
فأبصرتها عرسه خاريس
فبادت بقرعها تميس

وصافحتها بعظيم البشر:
«يا ربة المقنعة المسدولة
يثيس يا خلتننا الجليله
علام أنت عندنا نزيله
على خلاف عادةٍ جميله

هي بنا حيث الضيوف نقري»

وأجلسَها طَلقةَ الإِنِساسِ عرْشًا بديعًا محكمَ القِياسِ

قتيره من اللجين القاسي ذا موطئ لأرجل الجلاس ٣٨

وزوجها نادت بصوت الجهر:

«هيفست قم ثيتيس عونك ابتغت» فقال: «أهلا بإلاهة سمّت ٣٩

تلك التي الكربة عني فرّجت لما من السماء بي أمي رمت

تكنم عاهتي بشرّ الكبر

فهي وافر ينومة الإحسان بنت المحيط الجازر الهتان

بالبشر والأنس تلتقاني أولا فما كان إذن أشقاني

ووارتاني في عباب القعر

حللت كهفًا حوله قد دارا مجرى الخضم مزبدًا هدارا

كم صغت فيه لهما سوارا خواتمًا قلائدًا أزارا

تسعة أعوام بطي الستر

سواهما في الأرض والسماء لا أحد درى مقام النائي

هما هما قد خففا شقائي وآلآن ثيتيس هنا إزائي

أنّي أدّي حق فرض الشكر

خاريس وافيها بواجب القرى حتى أريح منفخي وأحضرا»

وغادر العلاة عنها مدبرا تخمّع ساقاه به فأخرًا ٤٠

منفاخه عن حر واري الجمر

وأودع العدة درج فضة يعمد من ثم إلى إسفنجة

يمسح صدره وعالي الجبهة كذا يديه ومتين الرقية

ثم اكتسى بردًا وعاد يسري

بصولجانٍ شائقٍ صلبٍ ذهب معتمدًا على وصيفتي ذهب ٤١
أعطيتا صوتًا وعقلًا وأدب لخدمة الأرباب في كل أرب

كغادتين ازداننا بالفكر

وليتا هيفست من حيث انثنى حتى إلى تيتيس بالجهد دنا
حل على عرشٍ بهيٍ معلنا ترحابه لها ومن ثم انحنى

مصافحًا لها بقول الحر:

«يا ربة المقنعة المسدوله تيتيس يا خلتنا الجليله
علام أنت عندنا نزيله على خلاف عادة جميله

مري فإنني رهين الأمر»

قالت تسيل الدمع: «هل مثلي ترى شقية ما بين ربات الورى
دون بنات الماء زفس قدرًا علي أن أصيب بعلاً بشرا

فيلا وأمضى أمره بالقسر

فيلا لقد أقعده فرط الكبر عجزًا وزفس كادني كيدًا أمر
أعطيت نجلًا فاق أبطال البشر أنشأته كالغصن في روضٍ أغر ٤٢

فشارت الحرب على ما تدري

أنقذته في الفلك للطعان آه فلن يعود للأوطان
قصّر عن إمداده بناني حيًا ولكن ثائر الأشجان

يرى سنا الشمس قصير العمر

حبه عادةً بنو الآخاء جزاء حسن الذود والإبلاء
فراهمها أترى بالدهاء أقعده الكيد عن الهيجاء

فشهر الطرواد سيف النصر

ودفعوا الإغريق للأسطول فهبت الصيد إلى أخيل

تطمعه بنائل جزيل أبى قبول تحفة القيول

لكن دعا فطرقل للمكر

ألبيه شگته سالاها فهب في أصحابه وراحا

فكافحوا عداهم كفاحا لسور إليونهم اكتساحا

فأوشكت تعنو لهم بالقهر

لكنما فيوس فطرقل قتل لما رآه مرق الجيش وفل

وخول النصر لهكطور البطل لذاك بادرت إليك بالعجل

أبسط فوق ركبتيك عذري

أحسن إذن لولدي الحبيب من سيلقي الموت عن قريب

بخوذة ومجوب عجب ولأمة مع هذا قشيب ٤٣

تحرز ثنائي وجميل الأجر»

قال: «اطمئني آه لو يوم القدر يتاح أن أقيه أهوال الخطر

كما يتاح الآن في هذا المقر إعداد عدة له أي نظر

إلى سناها بسواها يُزري»

ثم مضى يدير نحو الكور منافخا دارت بلا مدير

فأججت بمثل لمح النور عشرين موقدا لظى السعير

تفرغ ما يحتاجه بالقدر

تهب طورا هبة الأنواء وتارة تنفخ بالإبطاء

ثم رمى بالعسجد الوضاء للثار فوق الفضة الغراء

فوق فلزه وصلد الصفر

وإذ دحى سندانه المهيا
ففي يدٍ مطرقه الثقيا

وفي يدٍ ملقاطه الطويا
أعلى وقام شاعلاً مشغولا

يشرع في المجن بدء الأمر
ترسٌ عظيمٌ شائق الأوصاف
وطوقه البهي فوق الحاف ٤

يكنفه مثلث الأطراف
على حمائل اللجين الصافي

يزهو على خمس طباق الظهر
أودعه نقشاً به تحار
لحسنه الأنظار والأفكار

فالأرض والسماء والبحار
منهن لاحت فوقه الآثار

وساطع الشمس وتم البدر
وصاغ فيه جملة الدراري
مثل الثريا الجمّة الأنوار

والدبران ولقا الجبار
دبّ دعوا مركبةً دوار

من دونها لا يرتوي بالبحر ٥
ويلدتين غصتا بالناس
إحداهما بالبشر والإناس

زف بها الزوجان بالأعراس
بين غناء وسنا مقباس

ورقص فتية لهت وصقر ٦
ونغمة الرباب والشباب
تصدح والنساء في الأعتاب

وقفن للزفة بالإعجاب
وغير هذا الحشد بانتصاب

حشدٌ بشوراهم عسير الحصر
هنالك اثنان استطلا جدلا
لدية حَقّ قتيْلٍ قتلا

هذا ادعى إيفاءها مكّلا
يعلن ذاك الأمر ما بين الملا

وذاك منكرٌ أشد النكر

كلاهما يطلب حكم القاضي والناس بين ساخطٍ وراضٍ
ضجوا لأي ساعة التقاضي أحسن والفيوج باعتراض

تأمر بالصمت لحسم الأمر
هنالك الشيوخ من ضمن حرم على مقاعدٍ من الصخر الأصم
قاموا بأيديهم على مرأى الأمم صوالج الفيوج ييدون الحكم

قاضين عن روايةٍ وخبر
فردًا ففردًا الأحكاما أمام هاتيك السرى قياما
وشاقلان ذهبًا تمامًا بينهم قد أودعت إكراما

لمن محا بالعدل شير الوزر ٤٧
والبلدة الأخرى هفست رسما جيشين حولها عليها هجما
جيشٌ لقد آلى بأن تُهدما وذاك نصف المال يبغي مغنما

وأهلها تحصنوا بالسر
كمينهم يمينهم أعدوا وفوق سورهم أقام الولد
والأهل والشيوخ ثم امتدوا أمامهم ربُّ الكفاح الصلدا

كذا أثينا ملجأ المضطر
(كلاهما من ذهبٍ وضّاح بالجسم والملبس والسلاح
تراهما العين على البراح أعظم قداً من سرى الكفاح

ما مسّ آل الخلد شين الصغر
فبلغوا جدّة نهرٍ جاري مورد غر الشاء والثار ٤٨
فوقفوا بالرمح والبتار وأرصدوا عينين للصّوار ٤٩

ليرقبا عند ورود النهر

فأقبلت أمام راعيين بنغمة المزممار لاهيين

عن ذلك الكمين غافلين فوثبوا وقتلوا الغرّين

ونحروا السوام شرّ النحر

فارتفعت عجاج الضوضاء فبلغت مسامع الأعداء

فأقبلوا بغارة شعواء واشتبكوا وانهمال باللقاء

غيثٌ من النصال فوق النغر

بينهم فتنة والغوغاء كذا ميّد الأمم القضاء

يعلو على كاهله رداء تسيل من أطرافه الدماء

يفر عن هذا وذاك يفري

وآخرًا أمسك بالأقدام يزيح عن مواقف الصدام ٥٠

تلك رسوم بذاك الرسام ترى على المجن كالأجسام

تسحب موتاهها وبريًا تبرى

ودون هذا الرسم رسم حقل خصبٍ ثلاثًا حرثوا بالفعل

رجاله قامت بعبء الشغل قد عمقوا الثلم بسطرٍ عدل

يرتشفون من لذيذ الخمر ٥١

في منتهى الأرض انبرى غلام إذا انقضى ثلمهم التمام

ناولهم كأسًا وهم قيام فانقلبوا ونيهرهم أقاموا

بكل وجهةٍ بملء الصبر

والأرض سوداء تلوح للنظر وإن تكن من ذهبٍ تلك الصور

كأنما الفلاح في الحال عبر نعم فذي معجزةً ممّن قدر

أن يخضع العسر لأمر اليسر

وقربه يانع زرعٍ بادي دارت به مناجل الحصاد
ومن وراها زمرة الأولاد تجمع ما يلقى على التماذي

وخلفهم ثلاثة تستقري
تضم ما ألقوا لهم ضمن حزم وثم رب الأرض ما بين الحشم
قد قام صامتًا يرى تلك الهمم معتمدًا على عصاه فابتسم

ينظر بالبشر لوفر الذخر
وتحت سندية قام النذل يهئون الرّاد في ذاك المحل ٥٢
قد ذبحوا ثورًا به الكل اشتغل وعاونتهم النساء في العمل

على لحومه الدقيق تذري
كذاك كرمٌ بدوالي ذهب قامت فمالت تحت ثقل العنب
سمكه من فضةٍ لم تشب قد سطرت دون وشيعٍ أشهب ٥٣

يكنفها وخندقٍ مغبر
ليس له إلا طريقٌ رسما يعبره الكرام أيّام النما
وللرد تبدي والعذارى الهمما تجني وفي السلال تلقي كل ما

جنته من قطفٍ ذكا محمر ٥٤
بينهم فتى يعود قاما مرددًا بنقصره الأنعاما
نشيد لينوس الذي تسامى فرددوا النشيد والأقداما ٥٥

في الأرض دقوا وفق ذاك النقر
ودون ذا سربٍ من الثيار من الفلز ومن النضار
مندفعٌ يزار للبراري يرى لدى نهري على مجار

محاطةً بالقصب المخضر

رعاته أربعةً من عسجد وتسعةً كلابه للرصد
وثم ليثان مروعاً المشهد قد فرسا ثوراً فكرت تغدي

رعاته وغضفه في الإثر
قد مزقاه مغنماً بينهما وازدردا الأحشاء وامتصّا الدما
فأوغر الرعاة من خلفهما كلابهم فها لها بطشهما

هرّت رهدّها شديد الذعر
ودون ذا في مرجة خضراء صرائفٌ محكمة البناء ٥٦
لدى حظائرٍ تسرُّ الرائي بين مراتعٍ لغر الشاء

كذا غياض فوق روض نضر
وقرب هذا رسم مغنى طرب كأنه نادٍ بديع العجب
ألف في أكنوس ذيذال الأبي لحظ أربانا بماضي الحقب ٥٧

من فتيةٍ ومن عذارى زهر
رداهم المنسوج كالزيت برق وبرقع الحسان بالحسن نطق
وحليهم سيفٌ من التبر انطلق على نجادٍ فضة هيفست دق

لكن حليهن تاج زهر ٥٨
تعاضدوا بالكف والإبهام فرقصوا بالعلم والإلمام
كأنهم بحقة الأقدام محال خزّافٍ رماه الرامي ٥٩

ثم جروا سطرّ وراء سطر
حولهم حشدٌ وفي وسطهم قام مغنٍ بشجي النغم
إن نقر العود فمن بينهم قرمان دارا بخفيف القدم

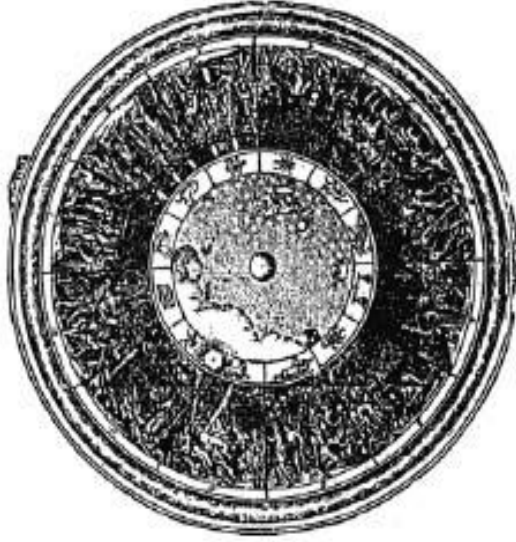
رقصاً يرددان لحن الشعر

وعند ما أتم هاتيك البدع مجاري المحيط في الحاف وضع ٦٠
فأكمل المجن من ثم ابتدع درعاً سناها كسنا الشمس سطع
ما صلحت إلا لذاك الصدر
وخوذةً بقونسٍ جميل من عسجدٍ ومحملٍ ثقیل
لاقت لذاك البطل الجليل ومن نحاسٍ لينٍ مصقول
طرق خفين تمام البر
واذ أتم كل تلك الغرر ألقى بها لأم آخيل السري
من لدن رب تحفة للبشر فانحدرت من الألبم الأزهر
واندفعت بها اندفاع الصقر

ترس أخيل

مقسومًا إلى اثني عشر جزءًا

- ثلثه منها لبلدة مسالمة: (١) حفلة زفاف، (٢) مجلس شوری، (٣) مجلس قضاء.
- وثلثه لبلدة محاربة: (٤) حصار، (٥) رعاة وكمين، (٦) قتال.
- وثلثه للزراعة: (٧) حراثة، (٨) حصاد، (٩) كرمة.
- وثلثه لرعاية المواشي: (١٠) سباع وأنعام، (١١) خراف، (١٢) رقص وطرب.



(ترس أخيل).

هذا هو الترس العجيب الذي أطنب هوميروس بوصفه، وكأنه لم يكتف بجعله إسطرلابًا للأفلاك، فأودعه جميع مخلوقات الله من أجرام وسماء ويبس وماء، وأخاله اختار الترس مستودعًا لتلك البدائع دون سواه من قطع السلاح؛ لأنه كان من عادتهم أن يزخرفوا تروسهم رسوم ونقوش. وقد نسب لهسيودس الشاعر وصفًا من هذا القبيل، ثم أنه فضلًا عن ذلك لم يكن يصلح سواه لرسم الكون بأجمعه، وهو سواءً كان بيضيًا كما

ذهب البعض أو مدورًا كما هو في الرسم يصح به تمثيل كروية الأرض والسماء.

ولقد أصاب هذا الترس من نقد النقاد وهذر الحساد ما أصاب غيره من اللآلئ الهوميرية، كقولهم مثلاً: إنه لم يكن يعقل أن المناضد تدور من نفسها على عجالها، كأنه لا يسوغ لشاعر يروي أعجوبة لرب باعتقاده قدير أن يتصور أمرًا تقول الشعراء أعظم منه لبشر باعتقادهم قصير الباع مقيد الذراع، كقول أبي الطيب لسيف الدولة:

إذا كان ما تنويه فعلاً مضارعاً مضى قبل أن تلقى عليه الجوازُ

وقوله في محمد بن زريق الطرسوسي:

لو كان ذو القرنين أعمل رأيه لما أتى الظلمات صرن شموسا
أو كان لج البحر مثل يمينه ما انشق حتى جاز فيه موسى
أو كان للنيران ضوء جبينه عُبدت فكان العالمون مجوسا

وإذا أردنا مجاراتهم وأتينا الأمر من حيث أتوه طلبًا لإثبات الممكن المعقول، أفلا يكون ذلك ممكنًا ونحن نرى من ألعيب الصبية ما يسير بنفسه، والعجب أن الذين قالوا هذا القول صمتوا عن مغالاة الشاعر بارتجاج السموات، وزلزال الأرضين، وانفجار البحار بإشارة من أربابهم ذوي الهيبة والاقتدار، وكقولهم: إن الترس لم يكن ليتسع لكل تلك الرسوم والنقوش البارزة، كأنه لم يكن بوسع ذلك الصيقل العلوي أن

يكبر ويصغر حسبما يشاء، وهي كما تراها بادية على رسم صغير مع أنه يؤخذ من نص هوميروس وغيره أن مجانهم كان كبيرها يستر الجسم من الرأس إلى ما تحت الركبة.

وقد أثبتنا هنا صورة الرسم الذي صنع ليوب فأدرجه بترجمته الإنكليزية المطبوعة سنة ١٧٢٠ وإليك تفصيله تنمة للفائدة:

الظاهر من كلام هوميروس أنه شرع في بسط المعدن خمس طبقات فأكمل المجن وطوقه طوقاً. يكفنه مثلث الأطراف على حمائل اللجين الصافي

ثم أخذ يرسم وينقش فبدأ به من وسطه فرسم فيه الأرض، وفي دائرة من حولها القمر والكواكب، وفي دائرة أخرى الشمس والبروج، وجعل ما وراء ذلك دائرة أكبر أودعها المألوف من أحوال البشر فكانت اثني عشر جزءاً.

الجزء الأول: البلدة المسالمة

وبلديتين غصتا بالناس إحداهما بالبشر والإيناس...

ترى في الرسم العروسين يتقدمهما حملة المصاييح ويكنفهما الراقصون والراقصات ووراءهما العزفة والمغنون. ونغمَةُ الرِّبَابِ والشَّباب تصدح والنساء في الأعتاب وقفن للزفة بالإعجاب

الجزء الثاني: مجلس شورى الأمة

هنالك اثنان استطالا جدلا لدية حق قتل قتلا ...

رسم فيه والد القتل والقائد والشهود والحضور، والمدعي والمتهم.

كلاهما يطلب حكم القاضي والناس بين ساخط وراض

وهذا الجزء مع الذي يليه في حلقة واحدة، وفيها المجال يتسع لتصور أمهر المصورين.

الجزء الثالث: مجلس الشيوخ أو القضاء

هنالك الشيوخ من ضمن حرم على مقاعد من الصخر الأصم

الشيوخ في وسط الرسم يتكلم أحدهم واقفاً وقد هم الآخر بالوقوف ليشرع في الكلام، والجمع محقق بهم بين سامع ومنفرد.

الجزء الرابع: البلدة المحاربة

والبلدة الأخرى هفت رسما جيشين حولها عليها هجما

جيشٌ لقد آلى بأن تهدما وذاك نصف المال يبغى مغنما

وأهلها تحصنوا في السر

يعبر عن البلدة بما يبدوا للنظر من مجموع الرسم وزعماء

الجيشين أمام الأسوار، أخذ فريق منهم بمقابض السيوف وهم ينظرون

إلى البلد إشارة إلى أنهم يرومون فتحه عنوة، والفريق الآخر يهون عليهم الأمر وينهاهم عن ذلك، أما أهالي البلد فقد ذعروا.

... .. وفوق سورهم أقام الولد

والأهل والشيوخ ثم امتدوا أمامهم ربُّ الكفاح الصلد

كذا أثينا ملجأ المضطر

وقد ميز الشاعر بين رسوم الآلهة ورسوم البشر كما جرت به عادة أبناء ذلك الزمان، فأفرد لرب الحرب وربة الحكمة وصفاً خاصاً وجعلهما أعظم قدماً كما كانا أرفع قدراً.

الجزء الخامس: الكمين

فبلغوا جدّة نهرٍ جاري مورد غر الشاء والثمار ...

إن اعتراض هذا القسم بين الذي تقدمه والذي يليه يمثل أويقات الراحة والسكون في زمان الحرب، فإن فيه نهرًا وعلى إحدى ضفتيه شجر تنفياً الجنود بظله، وعلى الضفة المقابلة رقيبان يرصدان الماشية. فأقبلت أمام راعييين بنغمة المزممار لاهيين

عن ذلك الكمين غافلين

الجزء السادس: القتال

فوئبوا وقتلوا الغرين ...

في صدر الرسم الراعيان قتيلان والسوام منحورة وباقيه صدام
وكفاح واهم ما فيه صورة «القضاء مبيد الأمم».
يعلو على كاهله رداء تسيل من أطرافه الدماء

الجزء السابع: الحرث

ودون هذا الرّسم رسم حقل خصبٍ ثلاثًا حرثوا بالفعل ...

في الرسم صورة الحرث والحارث وأرضه وآلات الزراعة، وأبدع
ما فيه من مؤثرات النظم الهوميري ذلك الغلام الذي قام في طرف
الأرض المحروثة.

إذا انتهى ثلمهم التمام

ناولهم كأسًا وهم قيام فانقلبوا ونيرهم أقاموا
بكل وجهةٍ بملء الصبر

الجزء الثامن: الحصاد

وقربه يانع زرعٍ بادٍ دارت به مناجل الحصاد ...

فالحصاد في صدر الرسم محولون وجوههم نحو الجمع المحقق
بهم، وخلفهم الفعلة والأولاد يجمعون ويرزمون، وفي وسط الرسم رب
الأرض قام بينهم آمرًا مطاعًا يشير بعصاه وتليهم سنديانة قام تحتها
الخدم.

يهيئون الزاد في ذاك المحل

قد ذبحوا ثورًا به الكلُّ اشتغل وعاونتهم النساء في العمل
على لحومه الدقيق تذري

الجزء التاسع: الكرمة

كذاك كرمٌ بدوالي ذهب قامت فمالت تحت ثقل العنب
هنا الكرمة بدواليها وقطوفها ووشيعها وسمكها وخذقها وفيها
الغلمان والعذارى.
تجني وفي السلال تلقى كلما جنته من قطفٍ ذكا محمرّ

وبينهم فتى ينقر عوده وينشدوهم إذا غناهم صوتًا طربوا.
فرددوا النشيد والأقداما بالأرض دقوا وفق ذاك النقر

ليس على المجن رسم أوقع في النفس من هذا.

الجزء العاشر: الحيوانات

ودون ذا سربٌ من الشيار ... مندفع يزأر للبراري ...

سوام ورعاة وكلاب وسباع، فالأسود في وجه الرسم قبض أحدها
على ثور والآخر آخذ في تمزيق ثور آخر، والرعاة تشير الكلاب للذود

عن القطيع، وأمام هذا المشهد مشهد قطع آخر منهزم رعباً ووراءه
رعاته وكلابه والنهر في ما وراء ذلك.

الجزء الحادي عشر: الخراف

ودون ذا في مرجة خضراء صرائفٌ محكمة البناء
لدى حظائرٍ تسرُّ الرائي بين مراتعٍ لغر الشاء
كذا غياض فوق روض نصر

لم يكن للشاعر بد بعد هول منظر الجزء السابق من إراحة
المخيلة بمشهد عزلة وسكون، تسرح فيها الفكرة بين مناظر الطبيعة،
فأتى بهذا التخييل البديع.

الجزء الثاني عشر: المرقص

وقرب هذا رسم مغنى طرب كأنه نادٍ بديع العجب ...

جعل هوميروس هذا المشهد خاتمة المشاهد التي نقشها على
ظهر المجن، وحسب المطالع الرجوع إلى المتن شرحاً وافياً للإعجاب
بهذا المنظر الراقص المرقص، فالفتية والعداري بأبهى الملابس، حلي
الفتية السيوف وحلي العداري أكاليل الزهر وقد:

تعاضدوا بالكف والإبهام فرقصوا بالعلم والإمام
كأنهم بحقة الأقدام محال خزافٍ رماه الرامي

ثم جروا سطر وراء سطر

وهناك على ربوة صاحب العود يضرب ويطرب ثم هو:
إن نقر العود فمن بينهم قرمان دارا بخفيف القدم
رقصاً يرددان لحن الشعر
أفلا يليق أن تتخذ هذه خطة تتبع حتى في أيامنا هذه.

حاشية المجن

وعندما أكمل هاتيك البدع مجاري المحيط في الحاف وضع
لم يزد الشاعر على هذا الكلام بوصف حاشية المجن، وفيه ما
يغني عن الإطناب وقد استبقى المحيط إلى الحاشية تتكنف المجن كما
تكنف المياه اليابسة، فكان مجنه جامعاً رسوم العالمين من علويات
وسفليات.

هوامش

(١) الأسطول بمعنى الطائفة من السفن معرب Zπολος
(ستولس) باليونانية.

(٢) عباديد، أي: شراذم ذاهبين في كل وجه.

(٣) البهم: الأبطال ج: بهمة.

(٤) يتخذ الإفرنج هذين البيتين مثلاً لبلاغة الإيجاز ودقة التعبير، فإن أنطلوخ أنبأ أخيل بمقتل فطرقل، وذكر اسم القاتل وفوزه بسلاح أخيل، وتجريد جثة القتيل والتحام الحرب من حولها، ذلك كله بيت واحد وطأ له بيت آخر هيأه فيه لسماع ذلك الخطب الجلل، ونبه إلى أن ذلك، إنما كان بمشيئة لا مردّ لقضائها فكأنه قال له فوق هذا بوجوب التأسّي والإذعان.

يتمثل اليونان بهذين البيتين كما يتمثل اللاتين بقول يوليوس قيصر *veni, vidi, vici*. ومعناها: أتيت فرأيت فظفرت. وهي كلمات ثلاث كتبها إلى مجلس الشيوخ برومية عندما حمل فائزاً من مصر على بلاد مشربداتس في آسيا فاكثسحها.

وعندنا في العربية أمثلة كثيرة لجمع المفاد الطويل بالكلام القليل، كقول امرئ القيس:

قفا نبك من ذكرى حبيب ومنزل

فإنه وقف واستوقف وبكى واستبكى وذكر الحبيب والمنزل بشطر واحد.

وقول بعضهم:

رأى فحب فرام الوصل فامتنعوا فسام صبراً فأعبى نبيله فقضى

فجمع الغرام من النظرة إلى الحسرة إلى الصبر إلى القبر.

وقول شوقي الشاعر العصري:

نظرة فابتسامة فسلام فسلام فموعد فلقاء

والإيجاز في محله كالإطناب في محله منتهى البلاغة، فالموقف موقف سرعة واهتمام، لا موقف بحث وكلام كما مر بنا في النشيد التاسع؛ إذ أوفد الوفود إلى أخيل، وأخذوا يتجاذبون أطراف الحديث يقضون به ليلتهم والحرب خامدة والأعين هاجدة بظلام الليل.

ثم إن في بلاغ أنطلوخ نكتة أخرى قلّ من ينتبه إليها، وهي أنه أخبر أخيل بمقتل حبيبه فطرقل بعبارة لا تثقل على السمع، فقال: «هكطور ملقى» ولم يقل: ميت أو قتل؛ كقوله في سائر المواضع.

(٥) الغمم: جمع غمة، أي: الأكدار.

(٦) السناج: ما يعلق على الحائط من أثر الدخان، وفي الأصل «ذر رمادًا أسود» ولعلنا أصبنا بقولنا: السناج.

كان القدماء من أمم الشرق يذرون الرماد على رءوسهم عند حلول المصائب، ويتمرغون على التراب ويجلسون على المزابل، وسيرد ذكر ذلك بيان أجلى في النشيد الثاني والعشرين.

(٧) السحم: السود ج: أسحم. تقدم ذكر الطيب (ن: ١٤).

(٨) ليس في الإلياذة كلها ما يفيد أن أخيل كان جباراً عظيم الجثة، كعمالقتنا وعليه فلا أرى بقوله هنا: «يشغل ميداناً بقامته» إلا إشارة بغلو للفسحة التي كان يتمرغ عليها.

(٩) قالوا في سبب ولولة السبابا: إنهن فعلمن ذلك؛ إما حزناً على فطرقل؛ لأنه كان يعاملهن بالتؤدة والرفق؛ لما عرف به من الدعة والحنان، وإما لأنهن انتهزتها فرصة لنذب حالهن وهن في ربة الأسر. قلت: والأولى أن يقال: إنهن إنما فعلمن ذلك جرياً على العادة المألوفة في ذلك الزمان، من ندب الميت والولولة عليه على ما هو جارٍ في زماننا في مصر وغيرها من بلاد الشرق، حتى لقد تُستأجر النادبات فينحن ويولولن وهن لا يعرفن الميت، وليس بهن عاطفة حنان عليه، وسنرى ذلك بأكثر إيضاح في النشيد الأخير بمأتم هكتور.

(١٠) السلم: الأسر والأسير.

(١١) الرذم: السيل.

(١٢) الصمصامة الخدم: السيف القاطع. أي: إن أنطلوخ أمسك بذراعي أخيل؛ لئلا يولج أخيل سيفه بنحره فيقتل نفسه من شدة الحزن.

(١٣) لما كانت ثيتيس والدة أخيل من بنات البحر — وهن كما علمت من زمرة الآلهة — لم يكن بالعسير عليها أن تسمع أنين ابنها، وهي في قعر البحر.



بنت الماء.

(١٤) نيرس: هو الماء، ثم مثل شخصاً فجعل رب الماء أو ملك الماء — قلما تخلو أساطير أمة من قوم يأوون إلى قاع البحار، ويساكنون أسماكها ونباتها، وعندنا في ألف ليلة وليلة من أخبار السمندل ملك البحر وقومه ما يربو على أقاصيص نيرس وبناته.

(١٥) يمثلون بنات اليم ممتطيات ركوبة يسمونها فرس البحر يرسمونه بصور مختلفة، والغالب إما أن يجعلوه بوجه إنسان أو يصوروه كما ترى في الرسم.

(١٦) المراد بالسادة: الآلهة.

(١٧) أي: حرم عليه الرجوع إلى موطن فيلا أبيه.

(١٨) يقال في هذا البيت ما تقدم في أول هذا النشيد عن خطاب أنطيوخ، فقد جمع فيه عواطف الأمهات وحركاتهن بأبلغ ما يمكن من الإيجاز وصدق التعبير.

(١٩) جهلت ثيتيس أو تجاهلت موت فطرقل، وقالت له تخفيفاً لو طأة الحزن عليه: إن كنت تتصور لهفةً وأسى على مصاب الإغريق، فقد كنت أنت المتسبب به؛ إذ توسلت إلى زفس أن يذيقهم مر العذاب، فها هو منيلك مرامك فتفجعك إذن عبثٌ وفضول.

(٢٠) ما: استفهامية.

(٢١) القونس: بيضة الخوذة، وذو القونس الطيار لقب من ألقاب هكطور، وقد عبرنا عنه في غير هذا الموضع بلفظ هيّاج التريكة، أي: الخوذة.

(٢٢) أي: إن الأرباب أهدوا ذلك السلاح إلى فيلا والد أخيل إكراماً لثيتيس لا لفيلا نفسه.

(٢٣) الشيم: الموت.

(٢٤) المصائب مرآة المعاييب، يتصف المرء بصفة يمقته لأجلها الناس، فلا يبالي حتى إذا نالته من ورائها مصيبة أفاق، ورأى تلك الصفة بأقبح مظاهرها، وهكذا فإن أخيل لم ينش لنصائح نسطور وفينكس

وأوديس، وعمي عن رؤية كل ما قالوه بشأن شر الفتنة ووبال الغيظ، فلم يفقه شيئاً من كلامهم حتى ضربته الرزية بحليف وده فطرقل، فتنبه من تلقاء نفسه وقال ما قال بوصف الفتنة والغضب.

(٢٥) يقول: إن الدردنيات أي نساء طروادة سيبتئسن لما أولاهن من المصائب بقتل أزواجهن.

(٢٦) أطال الشراح الكلام على ما حوى جواب أخيل لأمه في هاتين القطعتين من روائع الألفاظ وبدائع المعاني، فإن فيهما مرآة ناطقة بشعائر الشهم الأبى العظيم، والصديق الوفي الحميم، والابن الشفيق الكريم يتأفف ويلوم نفسه على تقاعده، وينسى ما كان من أذى أغاممنون ويغضي عن زلة منه مضت، ويلعن الفتنة والغضب، ويقدم على خوض ميدان القتال غير منشٍ ولا هيَّاب، ولو علم أنه سيلقى حتفه يتمنى لو افتدى فطرقل برأسه أو مات عقاباً له؛ لتقاعده عن البروز مع صديقه كتفاً لكشف، يتفجع لغمة والدته ويتمنى لو لم يعرفها والدته؛ لأنها لو لم تلد ابنها الإنسي وهي جنّة لما عرفت الضيم والأسى، ثم أنه لا يتمثل وهو البطل الباسل إلا بالبطل العظيم هرقل الذي طبقت شهرته الآفاق، وهو مع تلك الأنفة السماء والشعور بطول باعه لا يأنف من الإقرار أن بين قومه أفراداً يفوقونه حكمة وسداداً، وهو إقرار يزيد قوله في الفخر وقعاً ورجحاناً. لم أر لأخيل في كل إنشاد الإلياذة كلاماً يشف عن دقة إحساس ورقة عاطفة واستسلام للقضاء المبرم كهذا الكلام حتى إنه لما استطرد

إلى التهديد والوعيد لم يقل بجندلة الأبطال وصرع الأقيال بل أشار إلى ما يعقبها من نحيب النساء، وذرف العبرات ومسح ما سح منها على الوجنات. وليقل حساد هوميروس بعد هذا: إن أخيل لم يكن إلا بطل كر وقلب صخر.

معارضة

بين بعض ما جاء من قول بطل العرب موافقاً لقول بطل اليونان في هذا الموضع
قال أخيل:

وليهلك الغيظ من بين الأنام فكم أغرى وأوغر منقاداً حكيمهم
وقال عنترة:

لا يحمل الحقد من تعلو به الرتب ولا ينال العلى من طبعه الغضب
قال أخيل:

وليس من شاغل ذا اليوم يشغلني إلا ادخارٌ على تسمو به الهمم
وقال عنترة:

دعني أجد إلى العلياء في الطلب وأبلغ الغاية القصوى من الرتب
قال أخيل:

والدردنيات بضات الصدور يرى لهنّ دمع سخين جريه ديم
يمسح ما سح عن غض الخدود هاجت تلهفهن الأبؤس الدهم

وفد

وقال أيضاً بعد أبيات:

فكم ثم طرواديةً دردنيةً
ينحن عليك اليوم والليل كله
سبينا بدارٍ بأسنا فوقها امتدًا
ويلطمن بضّ الصدر والنحر والخذًا

وقال عنترة:

سلي عنا الفزاريين لما
وخلينا نساءهم حيارى
شفينا من فوارسها الكبودا
قبيل الصبح يلطمن الخدودا

وقال أيضاً:

ويل لشييان إذا صبحتها
وخاض رمحي في حشاها وغدا
وأصبت نساؤها نواذبًا
على رجال تشتكي نزاعها
وأرسلت بيض الظبي شعاعها
يشك من دروعها أضلاعها

وقال:

وحولك نسوة يندبن حزناً
ويهتكن البراقع واللقاعا

قال أخيل:

يعلمن أن اعتزالي طال فاعتنم الـ
أعداء بوني وإني الآن بينهم

وقال عنترة:

سكتُ فغر أعدائي السكوثُ
وظنوني لأهلي قد نسيْتُ

قال ذلك وهو في موقف موحدة واعتزال كموقف أخيل؛ إذ خرج
عن قومه غضبان فنزل على بني عامر وأقام فيهم، فأغارت هوازن وجشم
على ديار عيس فأرسلوا يستمدون عنترة، فأبى وامتنع حتى إذا عظم
الخطب على بني عيس خرجت إليه جماعة من نساء القبيلة، وطلبن إليه
أن ينهض معهنَّ لمقاومة العدو وإلا تشتت شمل العشيرة، فاحتمس
ونهض وأنشد أبياتاً استهلها بالبيت السالف الذكر.

قال أخيل:

موتي فإن حياتي تلك دونهم	حتى إذا شاء زفسٌ في بطانته
زفس فأودى وإن أولوه ودهم	هرقل لم يغن عنه بأسه وولا
فاللق ميتاً إذا كانت كذا القسم	أصابه كيد هيرا والقضاء إذن

وقال عنترة:

فكيف يفر المرء منه ويحذر	إذا كان أمر الله أمراً يقدر
وضربته محتومةٌ ليس تعبر	ومن ذا يرد الموت أو يدفع القضا

قال أخيل:

بمهجتي لا تضاهيه قرومهم	فطرقل ارفعهم شأنًا وأعلقهم
عدمته مثلما كبارهم عدموا	بهامتي كنت أفديه فوا لهفي
كفاه في قمةٍ تعنو لها القمم	نعم سأطلب هكطور الذي فتكت

وقال عنترة في رثاء زهير بن جذيمة العبسي:

تولى زهير والمقانب حوله	قتيلاً وأطراف الرماح الشواجر

وكان أجل الناس قدرًا وقد غدا
أجل قتيل زار أهل المقابر
فوا أسفا كيف اشتفى قلب خالد
بتاج بني عبس كرام العشائر
وكيف أنام الليل من دون ثائره
وقد كان ذخري في الخطوب الكبائر

وإن من تصفح ديوان عنتره ليعجب من كثرة المشاكلة بين كلامه
وكلام أخيل، وقد أوردنا شيئًا من ذلك في مواضعه، وأضربنا عن ذكر
الكثير خوف الإطالة، وإننا مشبتون الآن أبياتًا قالها عنتره في رثاء مالك بن
زهير العبسي صديقه، يرى المطالع اللبيب شبهها القريب برثاء أخيل
لفطرقل في هذا النشيد، ومواضع أخرى من الإلياذة:

فلله عيًّا من رأى مثل مالكٍ
عقيرة قوم أن جرى فرسانٍ
فليتھما لم يجريا نصف غلوةٍ
وليتھما لم يرسلا لرهان
وقد جلبا حينًا لمصرع مالك
وكان كريمًا ماجدًا لهجان
وكان لدى الهيجاء يحمي ذمارها
ويطعن عند الكر كل طعان
به كنت أسطو حينما جدت العدى
غداة اللقا نحوي بكل يمان
فقد هد ركني فقدته ومصابه
وخلى فؤادي دائم الخفقان
فوا أسفا كيف انثنى عن جواده
وما كان سيفي عنده وسناني
رماه بسهم الموت رام مصمم
فيا ليت له لما رماه رماني
فسوف ترى إن كنت بعدك باقيًا
وأقسم حقًا لو بقيت لنظرةٍ
لقرت بها عيناك حين تراني

(٢٧) برحت براح، أي: غابت الشمس. يقول: إن الدخان يعلو من الجزيرة نهارًا، فإذا غابت الشمس ظهرت النيران؛ لأن النار لا ترى عن بعد نهارًا، فلا يظهر اللهب حتى تغيب الشمس، وذلك على نحو ما جاء في سفر الخروج: وكان الرب يسير أمامهم نهارًا في عمود من غمام ليهديهم الطريق وليلاً في عمود من نار ليضيء لهم ليسيروا نهارًا وليلاً (خر ١٣: ٢١).

وما أحسن ما قال أبو تمام وقد ذكر ضوء النهار وظلمة الدخان في الحريق:

ضوءٌ من النهار والظلماء عاكفةٌ وظلمة من دخان في ضحى شحبٍ
فالشمس طالعة من ذا وقد أفلت والشمس واجبة من ذا ولم تجبِ

كانوا يتفاهمون بالإشارات النارية، كما يتفاهمون الآن على أسلاك البرق، والنار المقصودة هنا إنما هي نار الحرب، وقد كان لها شأن عظيم في جاهلية العرب وأوائل الإسلام، ومنها النار التي أوقدها سهل بن صباح العبسي في حصار بعلبك. قال: فطلعت إلى ذروة الجبل فعلوته، وأشرفت على العسكرين، وجعلت النظر إلى حربهم وقتالهم وقد طمعت الروم في العرب ... فأسرعت إلى جراثيم الشجر، فجعلت أكسرها وأعبي الحطب بعضه على بعض، وعمدت إلى زناد كان معي فأوقدت النار وعبيت حطبًا أخضر وبابسًا، حتى علا منه دخان عظيم،

وكانت علامتنا إذا أردنا أن يجتمع بعضنا إلى بعض بأرض الشام في الليل
وقود النار وإنارة الدخان. قال: فما هو أن علا الدخان وتصاعد إلى
الأفق حتى نظر إليه سعيد بن زيد وأصحابه، وضرار بن الأزور وأصحابه،
فنادى بعضهم بعضاً الحقوا الأمير أبا عبيدة (الواقدي).

لم أر في الإلياذة إلا نارين من النيران المعروفة عند العرب؛ وهما
نار الحرب هذه، ونار القرى ذكرت تلميحا غير مرة ولا ريب أنه كان لهم
نيران أخرى لم يذكرها الشاعر، أما نيران العرب فكثيرة جمع جلها الشيخ
ناصر اليازجي بقوله:

أول نار عندهم نار القرى	وذكر نار الوسم بعدها جرى
ونار الاستسقاء والتحالف	والصيد والحرب لدى التراحف
ونار غدر وسلامة تعد	ونار راحل كذا نار الأسد
والنار للسليم والفداء	فجملته النيران هؤلاء

فنار القرى كانت توقد للضيوف إذا حضروا أو إرشاداً لهم إلى
محل الضيافة، ونار الوسم هي التي توقد ليحمى بها الميسم التي كانوا
يسمون بها إبل الملوك لترد الماء أولاً، ونار الاستسقاء كانوا يوقدونها
تبركاً طلباً للمطر أخذاً عن المجوس، ونار التحالف توقد عن التحالف
على أمر، ونار الصيد توقد للظباء لتعشى أبصارها، ونار الحرب توقد
على جبل إعلماً للأحلاف الأبعد كما ذكر هوميروس، ونار الغدر كانوا
يوقدونها بمنى أيام الحج إذا غدر الرجل بصاحبه، ثم يقولون: هذه غدره

فلان، ونار السلامة توقد للقادم من سفر سالمًا، ونار الراحل توقد للمسافر إذا لم يحبوا أن يعود، ونار الأسد توقد عند الخوف من سطوة الأسد حتى إذا رآها ينفر منها، ونار السليم، أي: الملسوع توقد له ويكره على السهر على ضوئها، ونار الفداء توقد لنساء الأشراف كانوا إذا سبيت نساء الأشراف منهم وفد وهنَّ يخرجوهن ليلاً ويوقدون لهن نارًا يستضئن بها.

(٢٨) ذلك مبلغ ذعرهم رهبةً من أخيل حتى تبلبت الرجال وانقلبت الجياد بالعجال، واختلط عليهم الأمر فباتوا لا يعون أمرًا، وكانت نصالهم تنفذ في صدورهم فتصرعهم بأيديهم وهم لا يشعرون.

(٢٩) الأرتاج: الأبواب، والأصفاق: المصاريع، وزلجن: قفلن.

(٣٠) أصدى: مات.

(٣١) منتيوس: والد فطرقل.

(٣٢) هذا نذر ينذره أخيل قبل أن يقيم مأتم هكتور، وسير به كما سترى. وفي أخبار العرب كثير من أمثال ذلك في أيام الجاهلية والإسلام، روي أنه لما قُتل حمزة بن عبد المطلب في غزوة أحد، وكان قاتله وحشي مولى جبير بن مطعم، عظم قتله على صاحب الشريعة الإسلامية، فنذر أن يقتل به سبعين رجلًا من قريش وكبر عليه في الصلاة سبعين تكبيرة.

(٣٣) ييسط لنا الشاعر في الأبيات السالفة كيف كانوا يغسلون الميت ويطيبونه ويكفنونه.

(٣٤) نموا: نسوا. والطارف: الحديث، والتلد: القديم. لا يخفى ما في هذا البيت من التهكم الظاهر والوعيد الخفي.

(٣٥) كان زفس بلع هيرا وأخاها. قالت: إني وإن كنت أعظم الآلهة وبعلي الذي هو أخي أسمى إله، فلم يسعني أن أنصر أوليائي الإغريق، ولا أن أخذل أعداءهم الطرواد، كأنها قالت: إنك لا تذخر لي رعاية ولا تحفظ لي حرمة. يمثل هوميروس تنافر الزوجين بخلوتهما وإن كانا في مصاف الآلهة.

(٣٦) الأعرج لقب هيفست، ويلقب أيضاً بالحداد، وهو إله النار، ومطرق الصواعق ومثير البراكين، لقب بالأعرج لأنه ولد قبيح الصورة فألقت به أمه من أعالي السماء كما سيأتي بعد أبيات — هذا سبب تلقيبه بالأعرج بحسب نص الرواية الميثولوجية، أما سبب تلقيبه بالحداد فمأخوذ من صناعته، على أن الباحثين في التعليل الرمزي لأصل العبارات ذهبوا في ذلك مذاهب نعتمد منها على رواية هرقليدس؛ إذ قال: إن هيفست ممثل النار، وأبوه زفس ممثل الأثير، وأمّه هيرا ممثلة الهوا فالنار سقطت إلى الأرض من الهواء والرقيع، إما بفعل الصواعق، وإما بوجه آخر. لقب بالأعرج؛ لأن النار لا تشتعل بلا وقود كما أن الأعرج لا يستطيع المشي ما لم يستند إلى عضد يعضده. وأما قول

هيفست عن نفسه في ما يلي: إنه لولا ثيتيس وأفرينومة لكان هلك، فتأويله أنه لو لم تقع النار في محل يمكن حفظها فيه لاضمحلت وتلاشت - قيل: أخذ اليونان عبادته عن المصريين حيث كان يسمى فتالي، وإلاه النار عند البلاسجة والطرواد، ثم الرومان تدعى فستا تطرقت إليهم عبادتها من الفرس. ومن الغريب أن يكون هذا التشابه بين المعبودين وأحدهما ذكر والأخرى أنثى، والأغرب من ذلك أن أول صيقل لجميع المصنوعات الحديدية والنحاسية في التوراة هو توبل قاين (تك ٤: ٢٢) وتوبال أو طوبال باللغات التترية، ومنها التركية الأغرج وقين باللغات السامية ومنها العربية الحداد وكلاهما لقب هيفست مع أن توبل قاين كان قبل عهد هوميروس بحسب نص التوراة بنحو ألفي عام، ولم أر من انتبه إلى هذا التفسير مع أنهم بحثوا فيه بحثاً طويلاً واستخرجوا أصل قاين السامي.



هيفست إله النار.

(٣٧) تقدم لنا بحث وافٍ في المناضد ن ٩.

(٣٨) قتيه، أي: مسامييه.

(٣٩) مما يروى عن سبيل التفكه أن أفلاطون كان في صغره

مغرمًا بنظم الشعر تحدثه نفسه بالتشبه بهوميروس، فينظم القصيدة، ثم

يقابلها بمنظومات هوميروس فيظهر له البون الشاسع فيعدل عنها إلى غيرها، وهكذا إلى أن تحقق أنه لم يكن ذا سليقة شعرية سامية، فأخذ منه اليأس كل مأخذ، وجمع كل ما سطر من الشعر وألقى به إلى النار. على أنه لم يتمالك وهو على تلك الحال أن ذكر شيئاً من منظوم هوميروس نفسه فعلق بذهنه هذا الشطر، ولكنه عوضاً عن أن يقول:

هيفست قم ثيتيس عونك ابتغت

قال:

هيفست أفلاطون عونك ابتغي

قالوا: وهذا هو السبب في كراهة أفلاطون للشعر وتنديده به شأن من تقبح على الحسناء جمالها لاعتصامها عليه.

(٤٠) العلاء: السندان.

(٤١) الوصيفة: الجارية.

(٤٢) تشبه ثيتيس ابنها أخيل بالغصن. وما أحسن ما قالت

الخنساء في نفسها وفي أخيها صخر:

كنا كغصنين في جرثومة بسقا حيناً على خير ما ينمي له الشجرُ

حتى إذا قيل قد طالت عروقهما وطاب غرسهما واستوثق الثمرُ

أخني على واحد ريب الزمان وما يبقى الزمان على شيءٍ ولا يذرُ

(٤٣) المجوب: الترس. والأمة: الدرع. والقشيب: الجديد.

(٤٤) الحاف: جمع حاقّة.

(٤٥) أي: من دون تلك الدراري.

(٤٦) رسم بلدين إحداهما دار سلم والأخرى دار حرب لتحسن المقابلة، ثم مثل أحسن ما يحصل أثناء السلم في الواحدة، وأقبح ما يحدث أثناء الحرب في الأخرى، فأخذ أعظم مزايا البلد الأمين، فأورد أفراح الأعراس وإقامة القسطاس للعدل بالناس كما سترى.

زعم الأقدمون أنه أشار إلى أثينا؛ لأنها كانت السابقة إلى وضع سنن الزواج وهي أول بلدة عندهم جعل فيها عقاب القاتل القتل.

(٤٧) في الأبيات السالفة قطعة تاريخية بوصف هيئة تقاضيتهم في تلك الأيام.

اختلف النقلة بقوله: «وشاقلان ... أودعت إكرامًا لمن محا بالعدل شر الوزر». فقال بعضهم: إن ذينك الشاقلين يعطيان للقاضي الناطق بالحكم العادل، وقال الآخرون، وهو الأصلح: إنهما يعطيان لمن ثبت الحق في جانبه.

(٤٨) الجدة: الشجر.

(٤٩) العين: الرقيب. والصوار: القطيع.

(٥٠) لا فائدة من مجازاة الشراح على التخرص لمعرفة البلدة التي أشار إليها الشاعر دارًا للحرب، ولعله لم يشير إلى محل معين، ولكنه لا بد من الإشارة إلى براعة الشاعر بالإحاطة بأسباب الحرب ووقائعها ولواحقها بهذا الإيجاز البديع، وأبدع منه وصف القضاء قبل الانتقال إلى مشهد آخر، فلقبه «بمسيد الأمم» وهياًه بصورة شخص يعلو كاهله رداء تسيل الدماء من أطرافه، وهو بلا سبب معقول يفر عن هذا، ويفري ذاك ويمسك بقدمي الآخر يزيحه عن موقف الصدام، وأي: وصف يصدق عليه كهذا الوصف اللهم إلا أن يكون قول زهير:

رأيت المنايا خبط عشواء من تصب ثمته ومن تخطئ يعمر فيهرم

(٥١) انتقل الشاعر إلى منظر آخر، أبان فيه أنه لم يكن بالقرع والصرع أعلم منه بالزرع والضرع فوصف الحالة الزراعية بدقائقها، كأنه آلى على نفسه أن لا يطرق بابًا إلا ويلج مكتشفًا كل ما بدا وراءه، وما استتر كأنه استجمع له في صدره كل ما وسع زمانه من مكنونات العقل ومذخورات النقل.

(٥٢) الندل: خدمة الطعام.

(٥٣) السمك: الأوتاد. والوشيع: الحجار المعروف بالسياج.

(٥٤) القطف: العنقود.

(٥٥) لينوس في أساطيرهم أول من نطق بالشعر، أبوه أفلون أو هرمس (عطارد) وأمه قليوبا أو أورانيا، كان معلمًا لهرقل وشميريس وأرفيوس، فانتهر هرقل يومًا لتلاهيته فضربه هرقل ضربة كانت القاضية عليه، ويقول الشيبون بوجود لينوس آخر أقدم من هذا كان يناظر أفلون بالإنشاد فاهلكه أفلون.

وكان من عادة اليونان أن يقيموا للينوس مآتمًا سنويًا ينحرون فيه عليه، كما يقام مأتم عاشوراء في هذه الأيام، ذلك ما أشار إليه هوميروس بقوله: «نشيد لينوس إلخ».

(٥٦) الصرائف: الأكواخ.

(٥٧) ذيذال: شخص خرافي ينسبون إليه كثيرًا من خوارق الأعمال، ويزعمون أن النساء لم يكنَّ يرقصن مع الرجال، فأخذ سبعة فتيان وسبع فتيات فعلمهم الرقص على النمط الذي يشير إليه هوميروس، ولا يزال مستعملًا في بلاد اليونان، وإني إخال الكدريل الإفرنجي ضربًا منه.

(٥٨) وأي حلي أبهج من تلك الحلي: للرجال السيوف، وللعداري تيجان الزهر.

(٥٩) المحال: جمع محالة، وهي الدولاب.

(٦٠) إلى هنا انتهى الشاعر من وصف الترس، فأودعه من
مكنونات الطبيعة ما لم يبق معه موضع لإسهاب، فأتى على سائر القطع
موجزًا كل الإيجاز بعد هذا الإطناب الوحيد في شكله الفريد في بابه.

النشيد التاسع عشر مصالحة أغاممنون وأخيل

مُجْمَلُهُ

ما اشتمل الفجر بثوب الجساد من يمه يبرز فوق العباد

حتى انبرت ثيتيس إلى ابنها أخيل بالشكة التي اصطنعها إله
النار وحسنت له مصالحة أغاممنون، وأفرغت بمنخري فطرقل مادة
تحفظها من الفساد أثناء غيابه، فحشد أخيل الجمع وتصالح مع
أغاممنون وأنبأ القوم أنه على أهبة القتال في تلك الساعة، فاعترف
أغاممنون بخطئه وألقى تبعة فعلته على القضاء والقدر، ورغب إلى أخيل
أن ينتظر ريشما يؤتى له بالتحف التي مر تعدادها، فأبى أخيل إلا الكر بلا
توان لما بلغ منه الغيظ على مقتل حبيبه فطرقل، فاعترضه أوديس محتجاً
أنه لا بد للجيش من تناول الطعام، ودعا أخيل إلى الغذاء في مضرب
أغاممنون فألى أخيل أن لا يذوق طعاماً قبل الأخذ بثأر فطرقل، فأكل
الجيش وأحضرت تحف أغاممنون ومعها بريسا سبية أخيل، وأقسم
أغاممنون أمام الجمع أنه لم يمسسها أثناء إقامتها عنده، وأرسلت
التحف إلى خيام أخيل وأخذت الجواري وبريسا يبكين فطرقل ويندبنه،
وأخيل كل تلك الآونة متوجع متفجع لا يرى إلا القتال ومن حوله الملوك
يرومون له تعزية، فلا يتعزى بل يندب وينتحب كالطفل، ثم تقدم أخيل

بالجيش مستلماً درع هيفست وشد أفتوميد الخيل إلى مركبته فاعتلى،
وعنف الجياد فنطق أحدها وأنبأه بمصرعه القريب فلم يعبأ بنبوته.
وحث في صدر السرى جرده بهدة تدوي بتلك النجاد
مجرى الوقائع في اليوم الثلاثين.

النشيد التاسع عشر

ما اشتمل الفجر بثوب الجساد من يمه يبرز فوق البلاد ١
يرمقه معبودها والعباد
حتى انبرت دون الخلايا تيس في تحف الرب هفست تيس ٢
فأبصرت آخيل فوق الثرى معانقاً فطرقل واري الفؤاد

...

يشهق بالعبرة هامى الجفون وحوله أصحابه يندبون
وسطهم حلت بتلك الشجون
ويده اجترت وقالت: «ألا مهما طما الخطب وطمّ البلا
دع ثم فطرقل على الترب إذ في قدر الأرباب بالغيب باد

...

بني قم وارفل أذاك السلاح من لدن هيفست زهى الصفاح ٣
ما قط إنسيّ به قبل لاح»
من ثم ألقته لديه فصل وهذّ قلب المرمدون الوجل ٤
لم يستطيعوا رمق أنواره بل عنه صدوا جملة بارتعاد

...

لكنما آخيل مذ أحدقا فيه حشاه غلّه مرقا

وطرفه نارًا ذكت ألقا

مستبشراً قلبه في يديه ينظر بالبشر ملياً إليه

وقال يا أمّاه ليست سوى تحفة ربّ جاد فيما أجاد

...

هيهات إنسيّ كذا يبتدع وها أنا من ساعتى أدّرع

لكن فؤادي جملةً ينخلع

لهاجسي بالشلو إنّ الذباب يعيث ما بين جراح الذباب ٥

وينشر الدود به عابثاً فيعتري جسم الحبيب الفساد» ٦

...

قالت: «دع الفكرة إنّي أزيل عنه جراثيم الذباب الويل

تلك التي تنهش لحم القتل

حتى ولو عامّاً هنا الجسم ظل ما خلت ذا التشويه إلّا اضمحل

فناد للشورى كبار السرى وصاف أترىذ وألق العناد

...

وشك وألبس ثوب بأسٍ منيع» وألهيته بالزراع الذريع

ثم انثنت تلفت نحو الصريع

في منخريه أفرغت عنبرا وسلسبيلاً صافياً أحمر

ليسلم الجسم وفوراً جرى آخيل فوق الجرف يذكوا تقاد ٧

•••

وصاح صوتًا بالسرايا قصف فكلهم لسبي مجيًّا وزف

حتى الذي بالفلك دومًا وقف

ومن على السكان ظل المقيم ومن على الأرزاق كان الزعيم

طرًّا إلى الشُّورى سعوا مذ بدا آخيل للهيحاء بعد البعاد ٨

•••

ثمة ما عثم أن عرجا يعرج أوديس إمام الحجا

كذا ذيوميذ الفتى المرتجى

توكأ على كعوب الرماح بشدة الضيم وهول الجراح

تصدَّرا في الناد ثم انبرى بعدهما أتريذ ربُّ القياد

•••

أثقله جرح كوون الهمام يوم علا النقع بحر الصدام

وما إن انضموا وتم النظام

حتى بهم آخيل فورًا نهض وصاح: «يا أتريذ بئس الغرض

ما كان أولى السلم ما بيننا مذ ثارت الأحقاد توري الزناد

•••

يا حبَّذا لو يوم كدت العداه بقهر لرئيسا وسبي الفتاه

من أرطemis فخر صيد الرماه

أدركها في الفلك سهم الردى لما بنا جلت خطوب العدى

وعضت الترب صناديدنا ونالت الطرواد منا المراد

•••

أقعدني الغلُّ بيون بعيد تلك إذا عقبى الخصام الشديد

يذكرها الإغريق دهرًا مديد
قد فدح الأمر فدح ما ذهب ولنغض ولنخمد سكير الغضب
فلست بالحافظ حقداً مضى فقم إذن أضرم أوار الجهاد

•••

واحمل على الأعداء حتى أرى أطلب الأسطول تلك السرى

لكنني أدري ومثلي دري
أن الذي منهم هزيمًا نجا من عاملي يأنس حيث التجا» ٩
فضجت الإغريق بشرًا له إذ غادر الأضغان تواء وعاد

•••

فقام أتريد ولم يمثّل في الوسط بل من عرشه يرتجل:

«يا صحب أتباع أريس المذل
يا دانويون اصمتوا للختام فليس باللائق قطع الكلام
فكلُّ نادٍ قد علا ضجةً لا مستفيد فيه ممن أفاد

•••

مهما علا صوت خطيبٍ خطب واتقدت نار حجاه اضطرب ١٠

آخيل ليبت إلى ما انتدب
فاصغوا فكم لمتم بمرّ الكلام ولم أكن أهلاً لذاك الملام
ما الذنب ذنبي حين حرمانه فتاته إذ قد حرمت الرشاد

•••

بل ذنب زفس ذا وذنب القدر والظلمة الدهماء ذات العبر

فهم هم أعموا عليّ البصر
وما ترى قد كان في طاقتي
لما استباححت فتنةً باحتي
فتاة زفس تلك غدارةً
تفود من شئت وليست تقاد ١١

•••

تجري وفوق الترب ليست تدوس
لكنها تهشم شمم الرءوس
وتبتلي الناس بدهم البئوس
وزفس قوأم الدني والعلی
أدركه منها عميم البلا
مذ بهرقل ألقمينا أتى الـ
مخاض في ثيبة ذات العماد

•••

زوجته والت وثيق الولاء
فأعملت فيه دهاء النساء ١٢
إذ قال معتزاً بدار البقاء:
«أرباب يا ربّات سمعاً لما
نفسى تناجيني بأن يعلموا
«رأس المواليد إليّ»
ترئس هذا اليوم أسمى ولاد ١٣

•••

«في الإنس من ذريتي أيهم
بالأس فيهم سائداً يحكم»
قالت له هيرا اللّها تكتم:
«كذبت لن تنفذ هذا المقال
أو لا فأيمانك أغلظ ثقال
«بأن من تلقّيه إنسيّة»
ذا اليوم منك الإنس بالأس ساد»

•••

فأغلظ الأيمان زفس وما
أدرك مغزاها فيا بئسما

فاندفعت هيرا كسيل طما
تجري وتدري أن في أرغا
عرس ستينيل فتى فرسا
حبلى شهوياً قد خلت وهي في
أوائل السَّابع دون ازدياد

•••

فولدتها الطفل من قبل حين
واستوقفت في ألقمينا الجنين
وزفس جاءت بالبلاغ اليقين:
«يا قاذف البرق اسمعني فقد
أقبل من نسلك ذاك الولد»
إفرستس يدعى وحق له
أن يحكم الإغريق أنى أراد»

•••

فنفسه جاشت على قهرها
وفتنةً أمسك من شعرها
آلى بأن تُنفى مدى دهرها
من مجلس الأولمب والأصفياء
وللثرى ألقى بها قاذفاً
ومن رقيع بالدراري أضاء
من بعدما بالكف عنفاً أماداً

•••

وكم تلظى زفس لما احتكم
إفرستس ثم فثاه حكم
يسومه الأمر بجافي العظم
كذاك لما للخلايا اندفق
هكطور يصمي بين تلك الفرق
لكنما لي الآن حسن ارتداداً
ما كان لي طاقة ردُّ لها

•••

أضلني زفس وعقلي انحرف
لكن لك اليوم تهال الطرف
فكر إن تزحف فكلّ زحف

وكل ما أمس أديس وعد لا زال طرًا لك عندي معد
فإن تشأ فالبث يسيرًا ترى وإن تعل صبرًا لقرع الصعاد

•••

فليحضرن الآن تلك الغرر قومي من الفلك وعينًا تقرر» ١٧

فقال: «يا أتريد مولى البشر

أنت ولي الأمر والمرجع إن شئت فامنح أو تشأ فامنح» ١٨

لكنما ذا الحين حين الوغى فلا نضع باللغو وقت الجلال

•••

مكرئنا تدرون ما أنجزا كروا تروا آخيلكم برزا

بعامل يفري ولن يعجزا

كروا وكل منكم فليصل مبارزًا منهم كميا عتل» ١٩

فقال محتجًا على قوله أوديس ذو الحكمة رب السداد:

•••

«آخيل يا عد سراة الخلود مهما تحدمت فخل الجنود

لا تدفعن الجيش دون الحدود

وهم صيام فإذا النقع ثار واصطدم الجيشان تحت الغبار

وهاجت الأرباب كل السرى يطول لا ريبة أمر الطراد

•••

فمر إذن يؤتى بزداد وراح فذاك يولي البأس يوم الكفاح

فمن إلى المغرب منذ الصباح

يقوى على الإبلاء فوق السغب مهما علت همته والتهب» ٢٠

ينهكه العيُّ على رغمه وهو بلا قُوتٍ ضئيلٍ وصاد ٢١

•••

لكنّه إمّا اكتفى وارتوى نهاره قاتل جمّ القوى

بقلبٍ بأسٍ لم ينله الطوى

ولا ييالي باصطدام الطغام من غرّة الكرة حتى الختام

فوزع الجند على فلکهم وممرِ إذن يؤتى براحٍ وزاد ٢٢

•••

وليحضرن أترىذ للمجلس ما لك من ذخرٍ حوى أنفس

في مشهد القوم به تانس

وواقفًا بالجند فليحلف أن بريسا قط لم يعرف

من ثم في خيمته فليقم مأدبةً تضمن صافي التواد

•••

ويحسم الأمر فترضى إذا تطيب نفسًا وتعاف الأذى

وأنت يا أترىذ من بعد ذا

أنصف فمن قوَّام قومٍ أهان لا بدع إن يسترضه كل آن»

فقال أترىذ: «أيا أودسٌ أديت بالحكمة كل المفاد

•••

أجل يميني صادقًا أحلف أمام ربِّ كنهها يعرف

ولست بالحاتث لكن قفوا

وأنت يا آخيل مهما استطار في لبك الذاكى شرار الأوار

مه ريثما تبدو الهدايا هنا فبكرم العقد لعهد الوداد

•••

وأنت يا أوديس بالأمر سر من نخبة الفتيان وفداً أسر

للفلك يأتونا بذخرٍ ذخِر

أعددتَه لابن أياك أنا وتلثيوس يضحي لنا ٢٣

رتْ لزفس ولشمس العلى واستقدموا كل السبابا الخراد» ٢٤

•••

فقال: «يا أتريد هذا المجال نخوضه بعد اصطدام الرجال

في هدنةٍ تبدو عقيب القتال

إذ تسكن الغلة في مهجتي أما ترى صيد سرى الحملة

صرعى فرى الحديد أجسادها مذ زفس هكطورٌ به القوم كاد

•••

شافكما الزاد فلا لن أحول أحرص الآن جميع القيول ٢٥

للكر لا زادٌ قبيل القفول

نؤجل الأدبة حتى المغيب من بعد أن ننقم عمن أصيب

فالقوت والمشرب لن يدخلا فمي وما إن خضت تلك الوهاد

•••

كيف وفي الخيمة إلفي يرى مخضَّباً بحد نصل فرى

من حوله الصحب بدمع جرى

قد حوّلوا رجليه للمدخل آه فلن يحلو ذا اليوم لي ٢٦

إلا انفجار النقع والبطش والـ إبلاء بين الزفرات الشداد»

...

فقال أوديس: «ابن فيلا أجل قد فقتني بأسًا وفقت الملل

لكن لي فضل رشاد أجل
حنكي العمر وطول اختبار
فانظر إلى قلبي بعين اعتبار
تضوى القوى أيا ن تمضي القنا
في الهام كالسنبل وقت الحصاد

...

ولا يهون الأمر حتى يميل ميزانه زفس لأمر جليل

فليس للإغريق ندب القتل
بالصوم إذ في كل يومٍ تخر
قتلاهم أنى إذن نستقر
ندفن قتالنا ونبكي أسى
يومًا ولا نضوي ونألو اجتهاد

...

ومن يعيشوا بعد ذاك القراع عليهم أن لا يظلموا جياع

ليدركوا قهر العدى بالزّماع
فذاك رأيي لا تطيعوا سواه
من ظلّ بين الفلك وافي بلاه
نكر طرًا كَرَّ عزم على
أعدائنا رَوّاض جرد الجياد»

...

وما انتهى أوديس حتى اندفع في ولد نسطورٍ إمام الورع

ثواس ميجيس ومريون مع
ليقومذٍ يصحبهم ميليف
فسارعوا طرًا بسير خفيف
خيم أغاممنون أموا إلى
أوديس ينقادون أيّ انقياد

...

عادوا بما أترىذ فيها اذخر مناخذ سبغ تشوق النظر

يكنفها عشرون طسًا أغر
ومن بنات السبي سبع حسان قد أبلغتهن بريسا الثمان
طرًا تثقفن بصنع النسا كذلك اثنا عشر رأسًا جواد

•••

أمامهم أوديس في عشرة شواقل من ذهبٍ عُدت

سائرهم في سائر التحفة
ساروا وألقوها أمام الحضور فقام أترىذ المليك الوقور
وثلثيوس هناك انبرى إليه والخرنوص في الحال قاد

•••

من ثم أترىذ انتضى مديّة إزاء غمد السيف ملويّة

أدى فروضًا صان مرعيّة
ناصية الخرنوص مذ قص مد يديه من زفس يروم المدد
وسائر الإغريق أصغوا له يعتقدون الخير خير اعتقاد

•••

ثم تلا ينظر نحو العلى: «بزفس إنني مقسمٌ أوّلا

أجل آل الخلد بين الملا
بالأرض والشمس كذا أقسم وبينات النار من تعلم
حقائق الأمر وتحت الثرى بكيدها الحالف زورا يكاد

•••

أن بريسا لبثت باحترام ما قط مستها يدي في الخيام

لا لفراش أو لأمر يرام
وإن أمن فالألق كل الخطوب
شأن الذي يقسم وهو الكذوب»
وعنق ذاك الرت رمياً رمى
فوراً بنصل ساطع الحد حاد

...

وتلثيوس تلقى الذبيح
يطرحه في قعر بحر فسيح
في اليم للأسماك قوتاً أبيح ٢٧
فصاح بين الجمع آخيل: «كم
يا زفس فوق الخلق هلت النقم
لو لم تشأ نكبة أبطالنا
ما سامني أتريد قطّ احتداد

...

كلاً ولا حمقاً فتاتي استباح
لكن مضى الماضي وآن الرواح
هبوا إلى زادكم بارتياح
ثم على أعدائنا نحمل
طراً» كذاك انصراف المحفل
وارفضت الجند وكل مضى
يجري إلى أسطوله باشتداد

...

وقوم آخيل حثشي القدم
ساروا بذياك الحبا للخيم
وأجلسوا الغيد وبعض الحشم
ساقوا جياذ الخيل بين الجموع
فاندفعت تذري بريس الدموع
مذ أبصرت فطرقل قد مزقت
أعضاءه صم الحدود الحداد

...

أهوت عليه بالبكا والعويل
تلطم ذياك المحيا الجميل

وصدرها البض وجيدا أميل
كأنها الزهرة في المشهد
جللها فرع هوى عسجدي
صاحت: «أيا فطرقل ويلاه يا
خل فتاة لازمتها النآد ٢٨

...

ألم أغادرك قبيل الذهاب
حيًا فألقيتك عند المآب
ميثًا فكم يتلو مصابي مصاب
أبي وأمي أنكحاني فتى
قد أبصرته مقلتي ميتا
دون الحصون اخترمته القنا
مكافحًا يحسن عنا الزيادة

...

وإخوتي لَمَّا استطار الغبار
ثلاثة بادوا بذاك النهار
وعاث آخيل بتلك الديار
بلدة مينيس العظيم اكتسح
وفي التحام الحرب بعلي ذبح
ولم تبح لي آه فطرقل أن
أهمي عليه عبرات الحداد

...

عللتني أن أحيلاً يسير
لإفثيا بي فوق فتك تطير
يولم للأفراح حتى أصير
عرساً له يا معدن اللطف آه
وانفجرت أجفانها وانبرت
كل السبايا حولها باحتشاد

...

يندبن في الظاهر فطرقل بل
يندبن خطبًا جل فيهن حل ٣٠
وحول آخيل سراة الملل

ساعون في استرضائه أن ينال شيئاً من القوت فبالث قال:
«أستحلف الأحباب أن يرعوا ولا يسوموا ما أقول انتقاد

...

لا قوت لا شرب فقتل الحبيب أجح في قلبي أوار اللهب
أصوم حتى الشمس عنا تغيب وليس يؤذيني طول انتظار»
وصرف القوم وظل الكبار طور إذومين فنكس الجواد ٣١
أتريد أتريد أذيس ونس طور إذومين فنكس الجواد ٣١

...

ظلو وراموا سلوةً تجمل يلهوا بها وا بُعد ما أملوا
سلوانه أن الوغى تثقل وطأتها فكَرَ في نفسه
وأن مغتَمًا على بؤسه وصاح: «واويك يا ذا الذي
قد كنت لي إلًا وثيق العهد قد كنت لي إلًا وثيق العهد

...

كم قبل في خيمي بذلت الهمم في أدبةٍ تقيم يوم النقم ٣٢
مذ طلب الجيش العدى واقتحم وأنت ذا الآن طعين طريق
كلاً فنفسى الزاد لا تسبيح ما عشت لن يتابني حادث
يبدو كما ذا الحادث اليوم باد يبدو كما ذا الحادث اليوم باد

...

كلا ولو يومًا أتاني النبا أن أبي في إفثيا قد خبا
ذاك الذي بالدمع دومًا صبا فيها يثير الحرب تحت الحزاب
لابن نأي عنه بدار اغتراب فيها يثير الحرب تحت الحزاب

وذاك من آثار هيلانة أس الرزايا والعوادي الغواد

•••

كلًا ولو أنبتت فرعي الوحيد نفطولم رب الجمال الفريد

إن لم يمت للآن أضحي فقيد
أملت لكن خاب كل الأمل أني بإليون أوافي الأجل
أودي بعيدًا عن حمى أرغس وأنت يا فطرقل حيّ تزداد

•••

إسكيرسًا أملت أن تطلبها حيث ترى نفطولمًا قد ربا

أملت من ثمة أن تذهبها
لإفثيا في فلكك الأسحم ليده تدلي بما ينتمي
لي من عقار أو سبايا ومن منازل شاقّت وكل العتاد

•••

فإن فيلا لهم لا شك مات أو إنه في جرف اللحد بات

يشفق دومًا أن توافي الثقات
مبلغه حتفي له بغثة» وجاد بالدمع وهم جملة ٣٣
هزتهم الذكرى لأوطانهم وكلهم بفائض الدمع جاد

•••

فرق زفس لهم وانشئ نحو أثينا رفقته معلنا:

«لم يا ابنتي ألقيت عبء العنا
بالشهم آخيل ألم ألفه في خيمه يبكي على إلفه
كلهم لاهون في زادهم وهو عن الخمرة والزاد صاد

•••

هبي اسكبي العنبر والكوثرا في صدره الضامر كي يصبرا»

فانبعثت من شم تلك الذرى

كنسر بحر في عظيم الجناح يدوي بساحات الرقيع الفساح

قد هاجها زفس وفي نفسها ودٌ لا خيل فلا تستزاد

•••

فأفرغت في صدره كوثرًا وعبر الخلد لكي يصبرا

والجيش يستلثم مستبشرا

عادت إلى صرح أبيها الرّفع ومن خلال الفلك هب الجميع

فانتشروا كالثلج في شمألٍ ترمي به فامتدَّ أيّ امتداد

•••

ترائكُ تسطع من فوق هام من دونها زان العوالي ولام

وصم أجواب تصد الحمام ٣٤

فطفقت تبسم تلك البطاح يشق فيها الجو لمع السلاح

وارتجت الأرض لوقع الخطى وصبر آخيل اعتراه النفاد

•••

أسنانه صرّت صريرًا وطار من لحظ عينيه أوار الشرار

ولبة للبطش بالقوم ثار

وسطهم هبَّ إلى شكّته من فضل هيفست ومن صنعته

فزرّ خفيه لساقيه في عرى لجينٍ شائقاتٍ جداد

•••

ثم كسا الصدر بدرع تير وبين كتفيه الحسام الخطير

من فضةٍ قد دق فيه القتير
والجوب ذاك الجوب أنى ارتفع
كالبدر بدر التم نوراً سطع
في قبة الجو مضى لامعاً
ينير أطراف الرقيع البعاد

•••

كأنه والنوء عنقاً قصف حتى إلى اليم بفلكٍ قذف

وعن مجال الأمن فيه انحرف
لهيب نارٍ في محل اعتزال
يبصره الملاح فوق الجبال
وبعد هذا خوذة قد غدت
ككوكبٍ في أفق الجو غاد

•••

قونسها الواري عليه أدار هيفست تزهو عذبات النضار

ثمت في الشكة آخيل دار
يخبرها هل وافقت جسمه
أو أزعجت في ثقلها عزمه
إذا بها مثل الجناحين قد
خفت بها يرتاد كل ارتياد

•••

وسل من غمدٍ سنانا صقيل يثقل كل البهم إلا أخيل

أهداه خيرون لفيلا الجليل
قناته قد كان قبل انتقى
من رعن فليون ليوم اللقاء ٣٥
مرآنةٌ شماء أهوالها
عادت على الأبطال أدهى معاد ٣٦

•••

وأفطميذ الخيل في الحال شد وألقميذ بهي العدد

فألجمت والصرع لما استند
للعرش أفطميذ في الكبكه في سوطه هبَّ إلى المركبه
تلاه آخيل كشمس الضحى عدته تزهو وتجلو السواد

•••

بصوتيه الهذَّار بالجرد صاح: «يا نسل فوذرغة نسل الفلاح

زنث أباليس بجنح النجاح
بي للحمى عودا إذا ما ارتويت لا تتركاني إن أمت ثم ميت
نظير فطرقل» فرنث انحنى يطرق بالمضمد تحت القلاد ٣٧

•••

قال وهيرا خوَلته المقال وللشرى أعرافه بانسدال:

«أجل أخيل اليوم شرَّ النزال
نقيك لكن المنايا إليك دنت ولم نجن بهذا عليك
لكنما الجاني إلاه سطا وقدر ما ردَّه قط راد ٣٨

•••

فإن يكن فطرقل قد جردا فلا لعجز من كلينا بدا

ليطونة تلك فتاها اعتدى ٣٩
رماه في صدر السرى إذ أغار يولي ابن فريام شعار الفخار
فالريح إن نسبق فإن الردى في الغيب محتوم فلا يستعاد

•••

لا بدَّ أن يصميك تحت النصال ربُّ وقرم بقوى الرّب صال» ٤٠

وصوته أخفت بنات الوبال
فما بحرفٍ بعد هذا نطق
فقال آخيل بملء الحنق:
«لم بالرّدى يا زنت أنبأتني
فمنك ذا المنطق لا يستجاد

...

فلست بالجاهل حكمًا مضى
عليّ بالموت غريبًا قضى
فلا أبالي لا ولن أعرضاً
حتى أرى الطرواد سيموا الجزع
وثقلة العي عليه تقع»
وحث في صدر السرى جرده

بهذه تدوي بتلك النجاد

هوامش

(١) الجساد: الزعفران، والمراد به الزعفران الأحمر الذي ينبت في بلاد اليونان وجبال أوروبا. راجع ما قلناه بهذا الصدد ن ٨. مثل الفجر شخصاً يبرز من يم البحر مشتملاً بثوب يشبه الزعفران باحمراره.

(٢) الخلايا: السفن.

(٣) إن القول بإهداء الآلهة شيئاً من أسلحتهم للبشر قديم وكثير باعتقاد الأمم الخالية، وقد أشار هوميروس إلى ذلك غير مرة ووصف السلاح الذي أنعم به زفس على فيلا أبي أخيل، ووصف فرجيليوس السلاح الذي ألقت به الزهرة إلى ابنها آنياس، وفي الفصل الخامس عشر من سفر المكابيين الثاني وافى أرميا النبي يهوذا بالرؤيا: «وناوله

سيفاً من ذهب وقال: خذ هذا السيف المقدس هبة من عند الله به تحطم الأعداء» ع ١٥ و ١٦. ورواية التوراة لا تتعدى حالة الرؤى العادية على أن فيها إشارة إلى شيوع ذلك المعتقد؛ إذ لا يحلم بشيء غير معروف أو مسموع.

(٤) أي: فصل السلاح وارعب المرمدون قوم أخيل.

(٥) الذباب الأولى: الهوام المعروف، والثانية يراد بها: حدود المناصل.

(٦) كانوا يحتفظون كل الاحتفاظ بجثة الميت؛ لئلا يدركها الفساد قبل أن تحرق أو تدفن، ولهذا ترى الشاعر حريصاً على تدوين ذلك المعتقد، وحيثما أراد حفظ كرامة ميت تذرع بكل الوسائل لحفظ جثته نقية سليمة، فيستعين بالآلهة لئلا يتجاوز المعقول بعرفهم، فهنا ثيتيس تباشر الأمر بنفسها، كما عني زفس وغيره من الآلهة بحفظ جثة سرفيدون في النشيد السادس عشر، وسترى الزهرة وأفلون محتاطين بجثة هكطور في النشيد الثاني والعشرين — أما قولهم أن ثيتيس حفظت جثة فطرقل من الفساد لأنها من بنات البحر، فيفيد أنهم ملحوه فحفظوه، وهذا من باب التكلف الذي لا حاجة بنا إليه خصوصاً وأنه قال بعد هذا: إنها أفرغت بمنخري القليل العنبر والسلسيل.

(٧) كانوا يعتقدون بوجود مأكول ومشروب للآلهة يدعون الأول Ambrōdōn (أمبروسيا) وهو مادة لطيفة لذيدة الطعم تقتل الموت

فيخلد آكلها، وقد تقدم ذكرها (ن ١٤). والثاني Νεχταρ (نكتار) وهو نوع من الخمر الأحمر شائق بطعمه ولونه ذكيّ برائحته وكلاهما مضاد للفساد، وقد عربنا الأول بالعبر لتقارب اللفظين، والثاني بالسلسيل لتقارب المادتين، وربما يحسن تعريب هذا بالكوثر كما سيأتي بعد أبيات.

(٨) يقول: إن جميع الجيش التفّ متهافتًا للقتال إجابة لنداء أخيل حتى الذين كانوا يقعدون عن الهيجاء جنبًا، فيلجأون إلى السفن أو يقيمون على سكان السفينة، أي: دفتها أو يتولون تقسيم أرزاق الجند، كل ذلك لما كان لصوته من الوقع في نفوسهم.

(٩) أي: إنه لا ينجو من بطشه إلا من فاز بالهزيمة فيأنس بذلك الفوز — إن في كلام أخيل من الأنفة وعلو الهمة ما شاء؛ إذ أغضى عن كل ما مضى وهو لا يرى إلا الثأر ودفع العار.

(١٠) أي: يضطرب الخطيب للغط والغوغاء.

(١١) أي: الفتنة بنت زفس.

(١٢) أغرت الفتنة هيرا فخدعت هيرا زفس، كما أغرت الحية حواء فخدعت حواء آدم.

(١٣) إلهة المواليد، وقد تقدم ذكرها.

(١٤) لأن فرسيس والده من نسل زفس.

(١٥) لا نكاد نجد أمة من أمم الأقدمين لا تعتقد بوجود ملاك كإبليس أهبط من السماء فكان على الأرض علة السرور والبلاء، وهذه «فتنة» هنا بنت زفس ألقى بها زفس من قبة الزرقاء إلى وجه الغبراء، فكان منها ما كان وقد رأينا فيما مضى كيف نكل زفس باليطان (ن) (١٤).

(١٦) لها، أي: للفتنة، يشير إلى أنها استولت عليه حتى غاظ أخيل على كره منه ولم يكن في ذلك مختارًا.

(١٧) إن موقف أغاممنون هنا لمن أخرج المواقف؛ إذ لا بد له من الاعتذار والاسترضاء مع الاحتفاظ بهيبة الملك ورئاسة الزعماء فجمع بين الأمرين، قام ولا قيام غيره بل لبث على سدته يخطب واسترعى الأسماع وأطال الكلام في إلقاء تبعة ما فات على الآلهة والقضاء، ووصف الفتنة ذلك الوصف البليغ تهوينًا على أخيل، ثم مثل بفعلها مع من هو أعظم شأنًا منه ومن أخيل، (أي: زفس وهيرا)، ونص الخرافة القائلة: إن زفس أنبأ الملاء الأعلى يوم ميلاد هرقل أن أول مولود من نسله بين البشر في ذلك اليوم سيكون ملكًا عظيمًا، فاستوثقت منه هيرا وزوجته بالإيمان ليبرنً بذلك الوعد، وولدت زوج ابن فرسيس بن زفس في أول شهرها السابع فاضطر زفس إلى توليته بدلًا من هرقل، ثم كان ما كان من أمرهما مما أثبتناه في النشيد الثامن، وقد قصد أغاممنون بهذا الإسهاب تحويل غيظ أخيل بما لا يحط من قدر كليهما، ولما أنس

تحقيق مرامه وتأثير كلامه أمر بإحضار الطرف التي أعدها لأخيل، وهو دهاء ما فوقه دهاء.

(١٨) من أحسن ما قيل بهذا المعنى قول أبي نواس:
يرجو ويخشى حالتك الوري كأنك الجنة والنار

(١٩) الكمي العتل: الفارس الشديد.

(٢٠) السغب: الجوع.

(٢١) صاد، أي: عطشان.

(٢٢) يشبه كلام أوديس هنا خطاب أبي عبيدة بن الجراح في جند المسلمين، وهو على حصار بعلبك. قال غياث بن عدي الطائي:
فلما صلينا صلاة الفجر نادى مناد من قبل أبي عبيدة رضي الله تعالى عنه يقول: عزيمة مني على كل رجل من المسلمين لا يبرز إلى حرب هؤلاء القوم حتى يبرز إلى رحله، ويصلح له طعامًا حارًا يأكله، ليكون بذلك شديدًا على لقاء العدو (الواقدي).

(٢٣) إياك نجد أخيل وقد مرَّ مثل هذه التكنية بالجد دون الأب.

(٢٤) الرت: الخنزير، كان من عادتهم أن يضحوا بخنزير في بعض الأحوال، فأخذ الرومان عنهم تلك العادة وجعلوا التضحية بالخنزير دليلًا على التحالف والتوافق

(٢٥) يريد بقوله: شافكما، أغاممنون وأوديس.

(٢٦) تلك عادة كانت متبعة في أزمانهم.

(٢٧) القوا بجثة الخنزير إلى البحر؛ لأنه كان محرماً عليهم أكل الذبائح التي تنحر توثيقاً لأيمان.

(٢٨) النّاد: الداهية والمصيبة.

(٢٩) إن في ندب بريساً قطعة تاريخية تمثل حالة السبايا في تلك الأزمان، هنا سبية أميرة قتل أخيلُ بعلها وأخوتها، ودمر بلادها تعلق النفس باتخاذها بعلًا؛ إذ لم يكن لها إلا الرضاء بذلك أو الاستسلام للرق المؤبد، ولا شك أن فتاةً هذا شأنها في عصرنا يغلب أن تؤثر الرق، على أن لكل زمان أخلاقاً وعادات بل كانت بريساً تذرف عبرات الشجي على رجل كان بعلها نبيل تلك الأمانة، وقد باحت بها في الختام تذكيراً لأخيل بوعده لعله ينجزه، وقد أرجعت الآن إليه وصارت في قبضة يديه.

(٣٠) لم يكن نواح السبايا كنواح بريساً؛ إذ لم يكن فيهن من يطمع بالعتق والنجاة من الرق.

(٣١) قوله: أتريد وأتريد، أي: أغاممنون ومنيلاوس.

(٣٢) لا عجب أن يتذكر أخيل في هذا الموقف همة فطرقل في المآدب والجند لاهون بطعامهم، ولعل هذه الذكرى كانت سبباً آخر لامتناعه عن مشاركة القوم في طعامهم.

(٣٣) كان فطرقل خليلاً كفوًّا حسبًا ونسبًا وسنًا وبأسًا، وهو مع هذا يلزم أخيل ملازمة الأخ النصوح والخدام المطيع، يقرأ أوامره بعينه فيلي الأمر قبل أن ينطلق من شفتي أخيل، وهذا أخيل رواع الأبطال يبكي بكاء الأطفال، ويتمنى لو أتيح له أن يفديه برأسه وأبيه ووحيدده، وأن يموت دونه وهو حي، يقوم لأبي أخيل مقام الولد ولابنه مقام الوالد، فلا عجب بعد هذا أن تضرب الأمثال مدى الدهور بهذا التواد، ولقد جمع أخيل برثائه خليله فطرقل رثاء الأبيرد الرياحي بقوله:

فليتك كنت الحي في الناس نادبًا وكنت أنا الميت الذي غيب القبرُ

ورثاء كعب بن سعد الغنوي بقوله:

أخ كان يكفيني وكان يعينني على نائبات الدهر حين تنوب

وقول الحادرة:

أبعد من ولدت نسيبة أشتكي ذو المنيّة لو أرى أتوجعُ
ولقد علمت ولا محالة أنني للحادثات فهل تريني أجزعُ

وقول الهذلي:

فوالله لا أنساك ما عشت ليلة صفّي من الإخوان والولد الحتم

وقول الآخر:

أجاري لو نفس فدت نفس ميت فديتك مسرورًا بنفسي وماليا
وقد كنت أرجو أن أملاك حِقْبَةَ فحال قضاء الله دون قضائيا

ألا ليمت من شاء بعدك إنما عليك من الأقدار كان حذاريا

وقول البحري:

فوا أسفا ألا أكون شهادته
فخاست شمالي عنده ويميني
وإلا لقيت الموت أحمر دونه
كما كان يلقي الدهر أغبر دوني
وإن بقائي بعده لخيانة
وما كنت يوماً قبله بخئون

وقول الحطيئة:

ولو عشت لم أملل حياتي فإن تمت
فما في حياتي بعد موتك طائل

(٣٤) الترائك: الخوذ، والعوالي: الرماح، واللام: مخفف اللام
الدروع، والأجواب: التروس.

(٣٥) أي: من جبال فليون.

(٣٦) يظهر أنهم كانوا أحياناً يتخذون غمدًا لسنان الرمح، كما
يتخذ الغمد لنصل السيف — ترى من هذه الأبيات أن رمح أخيل لم
يكن صنع هيفست بخلاف سائر قطع سلاحه، وقد مرَّ أن فطرقل ذهب
بكل شكة أخيل الأولى ما عدا هذا الرمح؛ لأنه لم يكن يقوى على حمله
فبقي عند أخيل، ولم يكن بهيفست حاجة إلى اصطناع رمح آخر
وخصوصًا أن هيفست كان حدادًا، ولم يكن نجارًا ليصنع القناة.

لا يفوتن القارئ النظر إلى هيبة مشهد أخيل وهو يشك بسلاحه.

(٣٧) أردنا بالقلاد حلقة المضمّد وهو النير.

(٣٨) يمثلون الأقدار إلهات إناثًا ثلاثًا بأيديهن المغزل يغزلن عيها الأعمار، ثم يقطعن حبال الحياة عند حلول الأجل، ولهنّ شأن عظيم في أعمال الخلق ورقابة العالم والثواب والعقاب، يذكرهن هوميروس مرة واحدة بصيغة الجمع (ن ٢٤) وفي ما سوى ذلك يعبر عن القدر بإلهة واحدة.

(٣٩) فتى ليطونة، أي: ابنها هو أفلون.

(٤٠) رأينا فيما تقدم جوادي أخيل يذرفان الدمع حزناً على فطرقل، وها هنا أحدهما يتكلم بل ويتنبأ — ولا غرو فإن الشاعر أعد السامع لرواية الغرائب عن هذين الجوادين منذ ذكرهما لأول مرة؛ إذ قال: إنهما من جياذ الخلد، فكان لا بد أن يميزهما عن سائر الخيل تمييزه للآلهة عن البشر، ثم هو ينسب إلى هيرا إيلاءهما قوة الكلام ليققل من غرابة الرواية.



الأقدار أو إلهات القدر.

إن أمثال هذا الكلام المروي عن الحيوانات كثيرة عند الأقدمين، فقد روي بليينوس كلامًا لثورين، ولا نساوي بتلك الحيوانات حمارة بلعام وظيفية القاع، فكلامهما لا يزال مرويًا باعتقاد.

النشيد العشرون تحفز الآلهة للقتال وبطش أخيل

مُجْمَلُهُ

عقد زفس مجلسه وأذن للآلهة بمعاوضة أي شأوا من الفريقين،
فانحازت هيرا وأثينا وفوسيد وهيفست إلى الإغريق، وآديس وأفلون
وأرطميس ولاطونة وزنثس والزهرة على الطرواد، فاتخذ أفلون هيئة
ليقاوون وحث آنياس على البروز لأخيل، فرامت هيرا أن تنفذ فوسيد
وأثينا لشد أزر أخيل ولكن أفلون رأى أن الأجدر بهم أن تحتنب الآلهة
قتال البشر وترقبهم عن بعد، ولما رأى أخيل آنياس مقبلاً عليه أنذره
بالقتل إن لم يرجع فأبى إلا مبارزة أخيل، وكاد يهلك لو لم يبادر فوسيد
إلى إنقاذه فغشي على بصر أخيل، فاحتمد أخيل غيظاً وأقدم يستحث
صحبه على الفتك بالأعداء، وهكطور من الجهة الأخرى يستنهض همم
صحبه وهم بالإقبال على أخيل لو لم يصدده أفلون، فرجع وانقض أخيل
على الطرواد يذبهم ذبحاً حتى فتك بأحد أبناء فريام الملك، فلم
يتمالك هكطور عن الكر للطلب بثأر أخيه، وكاد البطلان يصطدمان لو
لم ينقذ أفلون هكطور ويواريه في سحابة، ولما لم ينل أخيل منالاً من
هكطور جعل يبطش يمنة ويسرّة بجنود الطرواد حتى جرت مركبته فوق
القتلى.

وبراحتيه وقد تخضبتا تقع العجاج على الدما جمدا

مجرى هذه الواقعة في اليوم الثلاثين أيضاً.

النشيد العشرون ١

لَكَ يَا ابْنَ فَيْلَا الْبَاسِلِ احْتَشَدَا	حَوْلِكَ قَوْمُكَ يَنْظُمُ الْعِدَدَا
أَنْتُمْ إِزَاءَ الْفَلَكَ قَابِلُكُمْ	فَوْقَ الْهَضَابِ يَعِجُ جَيْشُ عَدَى
وَتَمِيسُ زَفْسٍ دَعَا فَأَنْفَذَهَا	تَدْعُو ذَوِيهِ لِمَجْلِسِ عَقْدَا ٢
طَارَتْ مِنَ الْأَوْلَمْبِ جَائِبَةٌ	كُلُّ الْوَرَى تَسْتَقْدِمُ الْعَمْدَا ٣

...

لَبَّوْا وَغَيْرِ الْأَوْقِيَانَسِ لَا	نَهَرٌ تَخْلُفُ بَلْ جَرَوْا عَجَلَا ٤
لَمْ يَبْقَ مِنْ حَوْرِيَّةٍ سَكَنَتْ	نَبْعًا جَرَى أَوْ جَدُولًا جَدَلَا
أَوْ غَابَةً أَوْ رَوْضَةً نَضَرَتْ	إِلَّا سَعَتْ فَوْرًا لَتَمْتَثَلَا
فَإِذَا بِهِمْ وَالصَّرْحُ غَصَّ بِهِمْ	مِنْ حَوْلِ زَفْسٍ بِمَحْفَلٍ حَشَدَا

...

جَلَسُوا عَلَى سَدَدِ تَفْيِيزِ سَنَا	لَأَبْيِهِ هَيْفَسَتْ النِّبِيلُ بَنَى
وَمَزَعَزَعَ الْأَرْضِينَ مِنْ لَجَجِ الْ	أَعْمَاقِ هَبِّ مَلْبِيَا عَلَنَاهُ
ثُمَّ انْبَرَى إِذْ قَرَّ وَسْطُهُمْ	مُسْتَفْسِرًا عَمَّا دَعَاهُ هُنَا:
«يَا ذَا الَّذِي يَرْمِي الصَّوَاعِقُ مَا	أَفْضَى لِحَشْدِ بَنِي الْعَلَى وَبَدَا

•••

والحرب بينهم ستشعر»
أدركت ما علقت به الفكر
حتى ولو هلكوا ولو دمروا
فوق الألمب إذا اللظى اتقدا

أبذينك القومين تفتكر
فأجاب ركام الغيوم: «نعم
ما زلت دوّمًا عانيًا بهم
فأنا أسرح ناظري جدلاً

•••

وبسلك أي شئتم انتظموا
آخيل لو فذًا بدا لهم
أضحى على فطرقل يحتدم
قصد القضاء خلاف ما قصدا» ٦

وجميعكم بين السرى انقسموا
ما خلت طروادًا تطيق لقا
مرآه راعهم فكيف وقد
لا بدع إن دك الحصون وإن

•••

وتطايروا كل كما رغبا
فالاس ثمة فوسيدّ ذهبها
جبار هيغت القوي عقبا
ساقاه حملاً إن جرى وعدا

فبهم أوار الفتنة التهبها
للفلك هيرا أسرع وكذا
وكذلك القوام هرمس والـ
يجري يخمع لا تطيق له

•••

أمّ الطراود بادى الحنق
مع عفوذيت الميسم الطلق ٧
من ضفتيه جرى مندقق

وأريس ربّ القونس القلق
مع أرطميس في كنانتها
وكذاك لا طونا وزنث جرى

وكذاك فييوس من انسدت

تزهو غدائره لكل مدى ٨

•••

وقبيل ما آل العلى انحدروا

كرت سرى الإغريق تفتخر

آخيل عاد عقيب عزلته

ولهول رؤيته العدى صغروا

ألفوه مشتداً بشكته

كأريس هول الإنس يستعر

وبنو العلى بالناس ما اشتبكوا

حتى غمام الفتنة التبدوا

•••

فالاس بين الثغر والحفر

صاحت تشدد جملة الزمر

وأريس هبَّ هبوب عاصفة

يغري طراوده على الأثر

بهضاب سيموس يهدُّ وفي

قبل المعازل واري الشرر

فكذلك الأرباب فنتهم

صدعت وزفس من العلى رعدا

•••

فتنوا سرى الجيشين فاصطدما

وفسيذ هزَّ الأرض محتدما

فارتج إيذا من دعائمه

حتى أماد بميده القمما

وتزعزعت طروادة وغدا

بالفلك وجه اليم ملتظما

حتى بجوف الأرض آذس عن

عرش الجحيم اهتزَّ مرتعدا

•••

بالويل صاح وهاله الخبر

يخشى فجاج الأرض تنفجر

ومنازل الظلمات ظاهرة

تبدو يراها الجن والبشر

تلك الوهاد الالاء مخبرها
ولذاك زلزال العوالم إن

حتى بنو العليا له ذعروا
بسرى العلى عادى الشقاق عدا

•••

لفسيد ملك الهول مذ ظهرا
ولهرمسٍ لاطونةٌ برزت
ولزوج زفس بدت شقيقة من
هي أرطميس تميد ساطعةً

فيوس بين سهامه صدرا
والى أثينا آرس انحدرنا
فى القاصيات سهامه نشرا
قوس النصار بكفها ميدا ٩

•••

وعلى هفست انقض مصطفقا
فى الخلد زنت جرى اسمه وكذا
هذى هى الأرباب فنتهم
للقاء هكطور وخرق سرى

ذىالك النهر الذى اندفقا
بالإسكندر فى الورى انطلقا
وأخيل ظلَّ يؤج محترقا
تلك الكتائب صبره نفدا

•••

يذكر ليروي فى تحدُّمه
لكن فيبوسًا أثار له
فى شكل ليقاؤون خاطبه:
آليت للطرواد مرتشفًا

رب الوغى السِّفاك من دمه
أنياس يعصم بأس معصمه
«أنياس أين صلى تعظمه
لتلاقين أخيل منفردًا» ١٠

•••

قال: «ابن فريام علام على

رغمى إليه تسوقني عجلا

ليست بأول مرة ثبتت
في إيذة من وجه صعدته
لما استباح صوارنا ورمى

•••

لكن زفس مشددا زكى
أولاً فكان أبادني عجلا
توليه نصرتها ليقضب الـ
ما كان إنسيّ له كفؤاً

•••

إن يرم صانوه وحيث رمى
فلو أنهم ما بينا عدلوا
حتى ولو صلبت مفاصله
فأجاب فيوس: «أدع أنت إذن

•••

فلعفريذيت ساقك النسب
فإذن لك الرجحان عن ثقة
فهلهم بادره بنصلك لا
من ثم أفرغ فيه قدرته

•••

قدمي لديه فأمني فشلا
وليت قبلاً هالغاً وجلا
لرئيسة وفداس مضطهدا ١١

وقوأي أنقذني من العطب
وأمامه فالاس في الحجب
ليليغ والطرواد بالقضب
وبنو العلى كانوا له عضدا

طارت مناصله تسيل دما
ما سامني ذلاً كما زعما
مثل النحاس وصال واقتحما»
رهطاً بأكفاف العلى خلدا

ولبت شيخ البحر ينتسب
حسباً وزفس لعفريذيت أب
يأخذك من نعراته الرعب»
فانقضّ لا يرتدّ مبتعدا

فرأته هيرا باررًا يثب
فدعت إليها من بطانتها
قالت: «أئينا فُوسدُ انتبها
أنياس رام أخيل مدرعًا

•••

من جيشه لأخيل يقترب
من نصره الأرغوسة اطلبوا
لمآل حربٍ دونها الحربُ
بأسًا على فيوس معتمدا

فيوس فلندفع بلا مهل
ويحولنه فوق شدته
فيرى عيائنا صيد أسرتنا
وجميع أحلاف الطراود ما

أو بعضًا فورًا أخيل يلي
بأسًا ويعصمه من الوجمل
أولوه ودًا جل عن مثل
هالوا وعنا يقصرون يدا

•••

أفما انحدرنا للكفاح هنا
فإذا كتمنا الأمر ثم بدا
فمناظر الأرباب مرعبةٌ
من ثم فليرد الحمام كما

لنقي أخيل اليوم كل عنا
في وجهه ربُّ عتا جينا ١٢
ولأي إنسيٍّ بدت وهنا
غزل القضاء سنيه مذ وجدا»

•••

فأجاب فوسيد: «دعي الشططا
ما رمت إذ كنّا أشدَّ قوًى
للإنس خلي الحرب نرقبها
وإذا أريس وفيبس اعتديا

ما كان شأنك أعهد الغلطا
حرب العباد نلي فننخرطا
من فوق ذاك التل طي غطا
فورًا عمدنا مثلما عمدا

•••

فهنالك بأس أكفنا صدعا
نلقاهما لسرى العلى رجعا
هرعوا إلى السور الذي ارتفعا
فالاس والطرواد مذ جهدا

وأخيل إن ردا وإن ردعا
وهناك ظني للعلی هلعاً
من ثم فوسيدٌ بأسرته
سور لأجل هرقل قبل بنت

•••

لَمَّا عَلَيْهِ هَاجِماً خَرَجَا
فِي طِي حَجَبِ غَمَامَةٍ وَلَجَا
فِيَسُوسُ مَالٍ وَآرِسُ عَرَجَا
حَوْلِيَهُمَا فَوْقَ الرِّبَى قَعْدَا

مِنْ وَجْهِ وَحْشِ الْبَحْرِ فِيهِ لَجَا
فَهْنَاكَ فَوْسِيْدٌ بِمَنْ مَعَهُ
وَإِلَى رِيَاضِ هَضَابِ سِيَمِيْسٍ
بِجَمِيْعِ أَنْصَارِ الطَّرَاوِدِ مِنْ

•••

لبثت سرى الأرباب ناقمة
عن ساحة الهيجاء واجمة
قاضي بأن تنقض هاجمة
أجت ونقع خطاهما صعدا

وكذا من الصويين قائمة
ظلت عناك بظل عزلتها
لكن زفس بعرش عزته
وصفائع الجيشين ساطعة

•••

مادت لوطأة هاته الملل
بطل تحدّم أيما بطل
آخيل رب البيض والأسل

والأرض تحت الرجل والعجل
من كل جيش زف مقتحما
أنياس رب البأس قابله

هز القناة مبرزاً وعدا

أنياس في الميدان منجردا

•••

في رأسه أعراف خوذته

قد هاج يرفع صلد جنته

فانقضَّ آخيل كليث شرى

نهض الجموع لكسر شوكته

فرعت لهم كل البلاد فلم

يعبأ وظلَّ على سكينته

حتى رماه بهم فتيهم

بقنًا فأحرق مرغياً زبدا

•••

حنقًا تقدّم فاغرا فمه

يصلي بمهجته تضرُّمه

أسنانه صرّت ومقلته

بشرارها تذكي تحدُّمه

ولذيله في صفحته غدا

قرع يروع من توسمه

فيهب منقضًّا ليهلك أو

ليبد من أبطالهم عددا

•••

فلذاك آخيل تحرقه

للقاء أنياسٍ يشوقه

حتى إذا ضاق المجال أتا

ه مخاطبًا بالعنف يرمقه:

«أنياس جيشك لم أراك كذا

برزت عنه إليّ تسبقه

أزعمت فريامًا يشاطرك الـ

أحكام في طروادة أبدا

•••

كلًّا فلن يجزيك ذاك فما

هو قاصرٌ حكمًا بما حكما

كلًّا وإن ما بي ظفرت هنا

فلديه أبناء سموا عظما

من أرضه لك يجزل الكرما
خصب فتحشد كل ما حصدا

ولعله إن بي فسكت إذن
بقعًا زهت كرمًا ومزرعها

•••

أفما لوك مثقفي هربا
إبذا فررت لديّ مضطربا
تنفت فردت وراءك الهضبا
هدمت من لرئيسة العمدا

هيهات تدرك ها هنا الأربا
أفما اذكرت اليوم يوم على
إذ عن سوامك قد فصلتك لم
فلجأت في لرئيسة وأنا

•••

إذ واصلاني عدت مغتتما
حريّة متعنّها قدما
أنيس حتى ناجيًا سلما
فيه فصانوه كما اعتقدا

زفسن وآئينا بعونهما
وسبيت منها الغيد مستلبًا
لكن زفس وآله حفظوا
وإخالهم ذا الحين ما عبؤا

•••

تصدّ لي فتسام شرّ بلا
إلا إذا بهوانه اتصلا
فظ الكلام فذلك ابتذلا
أو خلت تلقى ها هنا ولدا

فارجع نصحتك بين قومك لا
فالغر ليس بذاعن أبدا
قال: «ابن فيلا لست أعجز عن
أزعمت إرعابي بقولك ذا

•••

ما غاب عَنَّا العلم والخبر

إن غاب عن أبصارنا الأثر

فنقد روى الراوون قبل لنا
لأياك إمّا كنت متصلاً
للزهرة الغراء منتسبي

آثار أسلافٍ لنا اشتهروا
وكذا لثيتيس كما ذكروا
والشهم انخيسٌ أبى عهدا

•••

لا بد إحدى الأسرتين ترى
ما كان لغو القول فاصلنا
ولئن ترم تحقيق نسبتنا
فاعلم فدردنوس وهو فتى

ذا اليوم نادبةً فتى قهرا
عن موقف الطعن الذي استعرا
وفقاً لما قد ذاع وانتشرا
زفس بنى دردانيا بلدا

•••

إليون في ذيّالك الزمن
والناس قد كانت منازلهم
من ثم دردانوس منه نشا الـ
أثرى الورى طرّاً مسارحه

في عرض هذا السهل لم تكن
في سفح إيذا الشامخ القنن
مولى إرخشون فتى الفطن
مرحت بهنّ خيوله رغدا

•••

ألفٌ وألفا حجرة سرحت
برياس هام ببعضها فحكى
فعلقن باثني عشر ما سحقت
وإذا هبين على البحار فمن

من خلفها أفلاؤها مرحت
مهرّاً نواصيه لقد سبحت ١٣
قمم السنابل حيثما رمحت
فوق المياه وثبن مطردا

•••

أطروس من طروادةً حكما
غانيمدُ أبناءُ العظما
رفعتَه أبناء العلى فما
فلذاك في أولمبهم سعداء ١٤

هذا إرخثونٌ ومنه نما
إيلوس عساراقسٌ وكذا
غانيمد لجمال طلعتَه
ليكون ساقى زفس بينهم

•••

وللومذون طشونٌ انتسبا
هقيطوون ولمبس النجبا
قافيس جدي من علا رتبا
فريام هكطوور فتاه غدا

إيلوس كان للومذون أبا
وكذاك فريام قليطيسٌ
وينجل عساراقس عرفوا
فأبي ابنه أنخيس كان كما

•••

ولزفس ذلك قيم الأمم
ما شاء أو هن عالي الهمم
كالولد فيه ساقط الكلم
ذلِّقا ومهما يبتغي سردا

هذا فخاري نسبتي ودمي
إن شاء أعلى همّة وإذا
فهنا مجال الطعن ليس لنا
فلسان كل فتى بفيه يرى

•••

وسبابهم من أسمعوا سمعوا
مئة أرادمه ولا يسع ١٥
سفها بموقع حطة نفع

ميدان هذا اللغو متسع
إن نبغ يشحن لغونا فلگا
فعلام كامراتين أشربتا

شتمًا تفاذتنا بقارعة

كذبًا على صدق بغير هدى

•••

كأً فليست برائعي جزعا

أقبل نجل صم النصال معا»

من ثم أرسل رمحه فمضى

وعلى المجن سنانه وقعا

فعليه صلّ وفوق هامته

آخيل صلد مجنه رفعاً

قد خاف أن الرمح يخرقه

لكنما ذا الخوف كان سدى

•••

هيهات عجز الإنس يعمل في

ما أولت الأرباب من تحف

وقف السنان على النضار فلم

ينفذ ولولا ذاك لم يقف

خمسٌ طباق الترس طرّقها

هيفست تدفع آفة التلف

نضد اثنتين من الفلز على

ظهر المجن ونعم ما نضدا

•••

وعليهما لوحٌ من الذهب

ومن النحاس صفيحتا عجب

خرق النحاس النصل يرجع عن

لوح النضار رجوع مضطرب

فرمى أخيل سنانه فمضى

في جوب أنياس ولم يخب

في صفحةٍ حيث النحاس عليه

له السبت رقٌ وطائرًا صردا ١٦

•••

متلملمًا أنياس مستترا

مدَّ المجن أمامه حذرا

فقتاة فليون به نفذت

والجوب ماد يصلُّ منكسرا ١٧

والنصل أنياسٌ رآه إلى
فلق الحضيض يغلّ مرتعشًا

وجه الثرى عن وجهه صدرا
فيه وكاد يفلق الكتد ١٨١

•••

فجبا ولكن صدره انتفضا
سلّ الحسام وفي حرازته
بطلين تجهض في زمانك ذا
ومزعزع الأرضين بأسهما

وأخيل صاح ودونه اعترضا
أنياس هائل صخرة قبضا
فبها بغير تكلف نهضا
من حيث فرّ مراقبا شهدا ١٩١

•••

لـولاه أنياسٌ بحدته
ولكان صان أخيل مجوبه
ولكان سيف أخيل في يده
لكن فوسيدا بأسرته

لرمى أخيل بصلد صخرته
أو خوذة لمعت بجهته
أنياس أدنى من منيته
في الحال صاح ينيله المددا:

•••

«أنياس آخيل سيقته
فيوس أغواه فدان له
فعلام وهو البر تدهمه
ما قط عن بث الفروض لها

أسفا ونحو أذيس يرسله
جهلاّ وذا فيوس يغفله
نوب الأنام ونحن نهمله
بين العباد لكل من عبدا

•••

لا شكّ زفس يغاظ إن سفكا

دمعه أخيل فاتقوا الملكا

يأبى القضاء له الهلاك هنا
أو كيف دردانوس أسرته
وهو الذي من نسل زفس له

...

فعلى بني فريام قد غضبا
فلذاك سوف يسود محتكماً
وبنوه ثم بنوهم وكذا
قالت له هيرا: «برأيك رم

...

لكنما فالاس أقسمت
أن لا نعين بني الطراود لو
فانقض فوسيدً لمشتجر الـ
حيث ابن أنخيس بصخرته

...

فلدى أخيل غمامةً نشرا
ومن المجن اجتر زانتة
وبوثبة فوق الرجال ومن
فيأذا به طرف الكتائب حيـ

وسليل دردانوس ما هلكا
طراً تبيد وتألف الدركا
في الإنس عهد الود قد عقدا

زفس وأنياس اجتبى وجبا
بين الطراود كيفما رغبا
من بعدهم من ولدهم نجبا» ٢٠
أو نجوةً أو كشفة وردى ٢١

ولكم أنا أقسمت من جهتي
إليون بالنيران ألهبت
أرمح حيث الصم صلصلت
وحسامه آخيل قد جردا

غشيت نواظره فما نظرا
وأمامه ألقى بها وجرى
فوق العجال بنده عبـرا
ث معسكر الففقونة انتضدا

...

قال: «ابن أنخيس وأي سري
آخيل آل الخلد تـؤثره
أولا فدار أذيس تبلغها
وسواه في الإغريق لا بطلٌ

•••

صدر الكتائب باطشًا وصل
وخلاف هذا القول لم يقل
تلك الغياهب عنه في العجل
لهفًا يناجي النفس والخلدا:

وإذا القضاء أباده فجل
من ثم غادره بموقفه
وأنا حول أخيل فانقشعت
فرأى وصعد حر زفرته

•••

طرفي فذا رمحي الذي انطلقا
كفي أروم هلاكه حمقًا
لبنّي العلى فإذا به صدقا
ابدًا فهذا الورد لن يرد ٢٢

«رباه أيّ عجيبة رمقا
لا أبصر القرم الذي طعنت
قد خلت أنياس انتمى خطأ
إن ينج حينًا حسبه فرجٌ

•••

لي عنه في بهم العداة غنى
علنا يمنيهم بليلى منى:
كل امرئ منهم فنى طعنا
أردى وأحطم جحفلاً أجد ٢٣

ولأدفعن كتائبى وأنا
ومضى يجوب صفوف فيلقه
«هلاً رأيت بني أخاي هنا
ما كان لي ما صلت منفرداً

•••

أو نفس فالاس تصدّهم
ويدي أصول بهم ولا أجم
في همة من دونها الهمم
هذا اللقاء هنيهةً حمدا

لا آرسُ ذا الجمع إن هجموا
سأكُرّ ما ثبتت قوى قدمي
وأخوض كل سرى كتائبهم
خا خلت من يلقي ظبي أسلي

•••

وهناك هكطورُ بطانته:
تخشوا تبجحه وصولته
رهطُ الخلود أهين حرمة
بات الهمام أمامهم خردا ٢٤

فهنا أخيل يحثّ عصيته
«نبلاء طروادٍ أخيل فلا
وأنا أطيق كذاك عن حمقٍ
لكن إذا بدت القنا علنا

•••

فبسائر الأقوال قد هرفا
كالنار كَفَّاه كما وصفا
أو كالحديد الصلب لو وقفا
سمر القنا مشتدة جلدا

إن قال بعض القول ثم وفي
فلأبرزنَّ له لو التهبت
كالنار لو كَفَّأ ألهبتا
فارتدت الطرواد مسبله

•••

لكن جرى فيوس بينهم
جدة هنا إيّاك تقتحم
إذ غص بالدّرّاع حشدهم

وتكتفوا وعلا هديدهم
قال: «ابن فريام أخيل على
قابله في قلب السُرى أبداً

أَوْ لَا فَإِنْ فَاتَتْكَ صَعْدَتُهُ

مَاعْنِكَ حَدُّ حَسَامِهِ شَرْدًا» ٢٥

•••

فَارْتَاعَ هَكَطُورٌ لَمَّا سَمِعَا

وَانْصَاعَ بَيْنَ جُنُودِهِ هَلْعَا

وَأَخِيلَ صَاحِ تَرْوَعِ هَدْتِهِ

وَبِعِزْمِهِ بَيْنَ الْعَدَى اِنْدَفَعَا

بَسَلِيلِ أَطْرَنْتِ إِفْتَيْنِ

مَنْ خَيْرِ صَيْدِ جُنُودِهِمْ شَرْعَا

فِي سَفْحِ إِيمُولٍ بِهَيْذَةِ ذَا

تِ الْخَصْبِ مِنْ حَوْرِيَّةٍ وَلِدَا

•••

لَا قَاهِ أَخِيْلٌ بِكَرَّتِهِ

بِالْرَمْحِ يَفْلُقُ صَلْبَ هَامَتِهِ

فَهَوَى يَصْلُ سِلَاحَهُ وَعَدَا

أَخِيْلٌ مَفْتَخِرًا بِنَصْرَتِهِ:

«يَا أَشْجَعَ الْأَبْطَالِ أَنْتَ هُنَا

مِيتٌ نَأَى عَنْ أَرْضِ نَشَاتِهِ

عَنْ بَحْرِ غَيْفَسٍ حَيْثُ هَيْلَسُ وَالْ

بَهْدَارِ هَرْمَسٍ قَدْ سَقَى الْجَدْدَا» ٢٦

•••

غَشَى ظِلَامُ الْمَوْتِ مَقْلَتَهُ

وَالْمَرْكَبَاتُ تَرْضُ جُثَّتَهُ

وَأَخِيْلُ ذِيْمُولُ بْنُ اِنْطَرِ

ذَا الْبَاسِ أَوْرَدَهُ مَنِيَّتَهُ

فِي الصَّدْغِ وَارَى رَمَحَهُ فَمَضَى

لِلْعَظْمِ مَخْتَرَقًا تَرْيَكَتَهُ

قَضَّ الدَّمَاعُ فَقَضَّضَهُ بَطَلَا

وَارَى الْعَزِيْمَةَ بِاسْلًا نَجْدَا

•••

وَهَفُودِمَاسُ رَمَاهُ مَذْ وَثْبَا

عَنْ خَيْلِهِ مَتَمَلِّصًا هَرَبَا

فِي ظَهْرِهِ فَأَكَبَّ يَزَارُ مَثْ

لِ الشُّورِ قَيْدَ لِفَوْسَدٍ قَرَبَا

ومزعزع الأرضين يجذل في
وكذاك عج هفودماس إلى

هيلقة لعججه طربا ٢٧
أن فارقت أنفاسه الجسدا

...

ومن ثم آخيل انثنى وسعى
من ولد فريام وأحدثهم
وأحبهم طرًا إليه لذا
فجری بصدر الجيش مفتخرًا

وفليذر ابن مليكهم صرعا
سنًا وأعداهم إذا طلعا
منع الوغى عنه فما امتنعا
في عدوه حمقًا وما رشدا

...

آخيل وافاه بعدوته
حيث النجاد هناك يكنفه
نفذ السنان إزاء سرّته
أمعأؤه اندلعت فأمسكها

في الظهر ينفذ حدّ صعده
حلق النضار ووصل لأتمه
فأكبّ يشهق فوق ركبته
بأكفه للأرض مستندا

...

فرآه هكطور فهاج أسى
فانقضّ مثل النار يؤلمه
بشحيذ منصله انبرى ومضى
قال: «اطمئني نفس هاك بدا

فورًا وعينيه الظلام كسا
أن ظل من آخيل محترسا
يجري آخيل وباللقا أنسا
من قد أذاب حشاشتي كمدا

...

ذا قاتل الخل الحبيب دنا

فعسى هنا فصل الخطاب لنا

ما بعد هذا القرب من فرج
ومن ثم أحدق ثم صاح به:
فأجابه من غير ما جزع:

بلياذنا بالجيش يفصلنا»
«هيّ ادن فالموت الزؤام هنا»
«أفخلت تلقى ها هنا ولدا؟»

•••

لن تجزعني هاته الكلم
لن أبخسك طول باعك لا
لكنما الأرباب عصمتنا
ولعل ذا النصل الشحيذ إذا

لن يعجزني شتم من شتموا
إذ فقتني والبههم كلهم
يؤتون من شاءوا ولاءهم
وفاك في أحشائك اطردا»

•••

ورمى القناة وفي الخفا وقفت
رجعت لدى قدميه ساقطةً
فعدا أخیلٌ ثائرًا حنقًا
لكن فيوسًا بقدرته

فالاس تنفخ حينما حذفت
وعن ابن فيلافي الهوى انحرفت
في هدةٍ بين السرى قصفت
وولائه هكطورًا افتقدنا

•••

بغمامةٍ دهماء حجبه
فعدا ثلاثًا ضاربًا حنقًا
ثم انبرى كالرّب رابعة
«ذي نجوةٍ أخرى وذاك جدا

وأخیل منقصًا تعقبه
بطن الغمام يضيع مضربه
بهديده يوري تلهبه:
فيوس يا كلبًا وأيُّ جدا ٢٨١

...

إِلَّا لَجَأَتْ لِعَوْنِهِ سَلْفَا
مَا عَدَتْ إِلَى مِنْكَ مُتَصَفَا
فِي كُلِّ مَا بَلَغَتْ يَدِي وَكَفَى
وَارَى فَأَهْوَى يَكْدُمُ الثَّأْدَا ٢٩

مَا خَضَتْ نَقَعَ الْحَرْبِ مَزْدَلْفَا
فَلَنْ أَتْلُ نَصْرَ الْأُولَى نَصْرُوا
وَالْآنَ لِي بِسَوَاكَ عَنْكَ غَنَى
وَبَجِيدَ ذِرْيَوْفٍ مُثَقَّفَه

...

ذِي مُوَحَّسًا وَافِي وَقَدْ قَفَلَا
فَرَمْتَهُ ثُمَّ بِسَيْفِهِ حَمَلَا
وَلَدِي بِيَّاسٍ عَمْدَةَ النَّبَلَا
لَوْ غَوَسَ مِنْ لَوْ قُوْدِهِ فَنَدَا ٣٠

وَسَالِيلَ فِيلِيْتُورِ الْبَطَلَا
فِي طَعْنَةٍ نَفَذَتْ بِرَكْبَتِهِ
وَعَلَيْهِ أَجْهَزُ ثُمَّ كَرَّ عَلَى
أَلْقَرَمِ دَرْدَانُوسٍ يَصْحَبُهُ

...

وَكَلَاهُمَا خَرًّا بِصُلْصَلَةٍ
بِمُثَقَفٍ لِلْمَوْتِ مُنْصَلَتِ
رُوسٍ لَدَيْهِ بِقَلْبٍ مَعْمَعَةٍ
أَحْنَى وَمِنْهُدَّ الْقَوَى سَجْدَا

فَكَلَاهُمَا كَانَا بِمَرْكَبَةٍ
هَذَا يَرَاهُ بِالْحَسَامِ وَذَا
وَعْدَا فَلَاحَ فَتَى أَلْسَطَرِ أَطْ
فَلَرْكَبَتِي آخِيْلَ مَرْتَمِيَّا

...

مَذَكَنْتَ تَرْبِكَ وَاحْقَنْ دَمَا
أَنَّ ابْنَ فَيْلَا قَطَّ مَا رَحَمَا
بِحَسَامِهِ ذَكَ النَّدَا حَسَمَا

قَالَ: «اعْفُ وَارْفُقْ بِالصَّبَا كَرَمَا
وَاجْهَلْهُ قَدْ فَاتَهُ حَمَقًا
لِنَدَائِهِ مَا رَقَّ يَسْمَعُ بَلْ

في طعنة فهقت بسيل دم

واستخرجت من جوفه الكبد

•••

من ثم من مولى اقتربا

وبصعدة ذك الفتى ضربا

خرقته من أذن إلى أذن

فأكب فوق الأرض منقلبا

وتلاه إيخكلوس أغنر

بمهند في رأسه نشيا

والسيف حتى كعب مقبضه

بدم القتيل بكفه ومد ٣١

•••

وبزند ذوقليون البطل

وارى السنان بمجمع العضل

فأميل ساعده بثقلته

فشوى يراقب وافد الأجل

بحسامه آخيل هامته

أنأى بخوذته ولم يمل

متناثرا طار الدماغ ومن

ه الجسم ظل هناك منجردا

•••

وتلاه رغموس بن فيرس من

كانت له إثراق خير وطن

فسنانه آخيل أنفذ في

رئيه لَمَّا بالسنان طعن

فارتاع آرېثوس سائقه

فلوى العنان وللفرار ركن

في ظهره آخيل بادره

فأكب والخيل انثنت زؤد ٣٢

•••

هذا أخيل وتلك سطوته

كالرب صال تروع صولته

حيث انبرى أجرى سيول دم

واجتاحت الأعداء كرتته

مثل اللهيب بقنة كسيت أجمًا بها تشتد هبته
حيث الرياح جرت به التهم الـ أشجار يحطم كيفما وقد

•••

وكأنما في بيدر طرقا ثوران فوق السنبل انطلقا
يسط الشعير لديهما فغدا بخطاهما يندق منسحقا
داسا وعجًا تحت نيرهما ومن السنابل حُبها اندفقا ٣٣
وكذا بمركبة أخيل جرى فمضت تدوس البهم والزردا

•••

ومن المحالات النجيع غدا ومن الحوافر طائرًا أمدًا
متفجرًا سيلاً يخضب ذا ك الجذع تحت الخيل والعددا ٣٤
وأخيل للشرف الرفيع وللـ عز المنيع به المرام حدا
وبراحيته وقد تخصّبتا نفع العجاج على الدما جمدا ٣٥

هوامش

(١) إن من ضعف عجزه الشعراء أن يفرغوا جعبة تصوراتهم في بدء قصائدهم، فلا تأتي على ربع المنظومة إلا وترى مخيلة الناظم قد فرغت من كل معنى بليغ أو تصور مبتكر، وهذه الإلياذة تقرأها من أولها إلى آخرها فلا تفرغ من نشيد منها وتشعر في تلاوة الآخر حتى تخال الشاعر كالفارس المتصور للحرب بعد الراحة المستطيلة لم ينفد شيء

من قواه المدخرة، فإذا كرر معنى قائماً يكرره بزيادة أو تعديل يشوق السامع، وإذا أعاد نوعاً من الإطراء، فإنما يعده ليأتي بأحسن منه، وإذا أكثر من ذكر شيء فلا يزعجك بالإطناب الممل فينوع الأساليب وينتقل تنقلاً بنسيك ما كان من ذلك الإطناب والإسهاب بل يشوقك أن تتمنى لو زادك منه، فجميع شعره كسلم لا تبرح درجة منه حتى تطأ درجة أعلى.

رأيناه يصف بسالة أخيل وهو بمعزل عن مواقع الكفاح، ومشتجر السلاح بما يسوق إلى الظن أنه لم يبق ولم يذر، وأنه سيبدو بعض الضعف بوصفه حاملاً على الأعداء وسترى في ما يلي أن ما قيل قليل بالنسبة إلى ما سيقال، نسب في أوائل الإلياذة فشل الإغريق إلى اعتزاله حتى اضطروا إلى إيفاد الوفود إليه، فلم يفلحوا (ن ٩)، ثم فاز الطرواد ذلك الفوز المبين فكادوا يلتونون فشلاً لمجرد توهمهم أن أخيل يراهم، (ن ١٣) ثم ارتدوا مخذولين وكان يحطم بعضهم بعضاً لمجرد نظرهم إلى سلاحه ومركبته، (ن ١٦) وما هو أن أشرف عليهم أعزل وصاح بهم صوتاً حتى تخلعت قلوبهم وولوا مدبرين (ن ١٨).

تلك هيبة أخيل ولم يأت بعد أمراً مذكوراً فما عسى أن يفعل وقد أقبل مدججاً بسلاحه؟ لم يبق وهو يخوض تلك الغمرات إلا أن ترتج السموات والأرضون، وتهيج البحار وتفيض الأنهار وتنقض الأرباب

لمواقع الضراب، ذلك ما سيبسطه الشاعر استجماعاً لأساطير ذلك الزمان.

(٢) ثميس إلهة العدل، لم يكن ألبق منها لتأدية الرسالة.

(٣) العمدة: الرؤساء، والمقصود الآلهة.

(٤) الأوقيانوس أصل الأصول وأبو جميع الأرباب، أطالوا البحث في سبب تخلفه بما لا محل لبسطه هنا، وكفى بكونه الأب الهرم المعتزل سبباً لاجتناب حفلات البنين.

(٥) يريد بمزعزع الأرضين: فوسيد.

(٦) انتقد البعض على هوميروس قوله هذا؛ إذ لا يمكن تحويل القضاء باعتقادهم، وأطال آخرون في الدفاع عنه، ولا أرى وجهاً لذلك الانتقاد، فالرجل يتكلم بالشعر، ولا يتسع مجال للتأويل والتخريج اتساعه للشاعر، وفضلاً عن ذلك فقد جاء مثل هذا الكلام في الشعر والنثر حتى وفي الكتب المنزلة. قال ابن هاني للخليفة المعز لدين الله:

ما شئت لا ما شاءت الأقدار فافعل فأنت الواحد القهار
فكأنما أنت النبي محمد وكأنما أنصارك الأنصار

وقال أبو الطيب المتنبي في ممدوحه ابن زريق:

بشر تصور غاية في آية تنفي الظنون وتفسد التقيسا
لو كان صادف رأس عازر سيفه في يوم معركة لأعيا عيسى

ومثل ذلك قول المعري وقد تكلم بلسان منجمي زمانه، وكأنه
عبر تعبيراً هوميئياً إذ قال:

إذا البرجيس والمريخ راما سوى ما رمت خانهما الكيان

والبرجيس المشتري، أو زفس، والمريخ آريس إله الحرب كما لا
يخفى.

(٧) عفرذيت هي الزهرة، يمثلونها عريانة على صورٍ شتى.

(٨) علل أفستاثيوس سبب انحياز كل من الآلهة إلى أحد
الفريقين تعليلاً لطيفاً قال: جعل هوميروس في جانب الإغريق هيرا وأثينا
وفوسيد وهرمس وهيفست، أما هيرا فلأن من خصائصها حفظ العلائق
الزوجية ومعاقبة الخائن، ومعلوم أن سبب الحرب خيانة زوجة وعشيقها،
وأما أثينا فلأنها إلهة الحكمة والحرب ومن جملة شئونها تعقب الغادر،
وفوسيد إله البحار وكان اليونان في عداد أتباعه لكون معظمهم سكنة
جزر وسواحل بحار، وهرمس من مزاياه النظر في خدع الحرب ومعلوم أن
الإغريق لم يظفروا بطروادة إلا بخدعة أوديس وحصانه الخشي،
وهيفست عدو الفسقة والفجار ورب الصناعة فسبب ميله إلى الإغريق
ظاهر.

وجعل في جانب الطرود آريس والزهرة وأرطيميس ولاطونة وزنتس وفيوس، فأريس رب الحرب ومن خصاله السلب والنهب وقد بدأ بهما الطرود، والزهرة ربة الجمال والفسق وأمرها مع هيلانة وفاريس مشهور، وأرطيميس من جملة مميزاتها الرقص وكان الطرود أمهر فيه من اليونان، وزنتس نهر طروادي فهو أولى بقومه، وفيوس رب النبال وجل اعتماد الطرود كان على رماتهم، وأما لاطونة فما من سبب ظاهر لانحيازها إلى الطرود إلا أن تكون مالت إليهم مشوقة بميل أولادها.

(٩) إن لهوميروس تنبهاً غريباً إلى كل منقول ومعقول حتى أثناء الخوض في أبعد الخرافات، فقد أنزل في قتال الآلهة كل شيء منزلته، قال أفستاثيوس: برز أفلون لفوسيد؛ لأن أحدهما ممثل الرطوبة والآخر اليبوسة. وبرز آريس لأثينا؛ لأنه ممثل الغلظة، وهي ممثلة الحكمة. وبرزت هيرا لأرطيميس إشارة إلى تضاد الزيجة والعزوبة. وهيفست وزنتس يمثلان النار والماء.

ويظهر من سياق الكلام أن الآلهة تهيأوا كما تقدم، كلٌ لنده وتحفzوا تحفzراً ولم يتقاتلوا، وهذا موضع انتقاد عظيم على هوميروس؛ إذ لم تسفر هذه المقدمات الهائلة عن نتائج طائفة، ولكن هذا الانتقاد مدفوعٌ بقتالهم في النشيد التالي.



الزهرة.

(١٠) أي: أقسمت للطرواد وأنت ترتشف الكأس.

(١١) الصوار: قطع البقر - كم من قطعة تاريخية ورواية خرافية

حفظ لنا هوميروس يادماجها في منظوماته، كقوله في هذا الموضع: إن
أخيل غزا لرئيسة وفداس.

(١٢) أي: إذا كتمنا عن أخيل ولاءنا له ثم بدا له ربُّ من الأرباب فربما يهوله فيجبن.

(١٣) برياس أو بوريس ريح الشمال، وهو من جملة الآلهة، وقد تقدم ذكره.

(١٤) مرَّ ذكر غنيمذ ورسمه ن ٥١.

(١٥) الأرادم: الملاحون.

(١٦) السبت: جلد الترس. وصرد: نفذ.

(١٧) فليون: هو الجبل الذي قطعت منه قناة أخيل على ما مرَّ.

(١٨) الكند: مجتمع الكتفين أو الكاهل.

(١٩) مزعزع الأرض: لقب من ألقاب فوسيد إلاه الجحيم.

(٢٠) هنا رواية تاريخية بحثة سبكها هوميروس بقالب نبوءه أنطق بها فوسيد، ذلك أن أعقاب أنياس كانوا لعهد هوميروس يحكمون قسمًا عظيمًا من بلاد طروادة، اتصل إليهم الملك بانقراض سلالة فريام بعد أن دك الإغريق حصون إليون ودمروها، وكان من أمر أنياس عند تبديد شمل القوم أن استقل أباه الهَرَم أنخيس على كاهله ولاذ بالهزيمة، ثم جمع زمرة من شذاذ قومه وأبحر بهم يطلب أرضًا ينزل بها فساقتة الأقدار إلى قرطاجة ومنها إلى إيطاليا، فأنزله الملك لاتينوس منزلًا رحبًا وزوجه ابنته لافينيا في خبر طويل ثم استخلفه على الملك، وقد زعموا أن من عقبه

روملوس مؤسس رومة ولهذا كان يفخر قياصرة الرومان بإعلاء نسبهم إليه.

وكان اسم أنياس في زمن هوميروس مرادفًا للبسالة والورع والبر بالوالدين، ولهذا وسط هوميروس فوسيد في أمر مع أن فوسيد كان عدوًا لدودًا للطرواد إشارة إلى أن العناية الإلهية لا تهمل عبدًا برًا وبشرًا اتقى.

ولا يخفى أن أنياس هذا هو بطل منظومة فرجيليوس الكبرى هذا فيها حذو هوميروس بوصف بسالة أنياس، ونقل منها نبوءة هوميروس حرفًا حرفًا وأطنب بتقوى أنياس إطنابًا لم يبلغه أحد من الشعراء.

(٢١) الكشفة: الفشل، تقول: افعل ما شئت فلك أن تنجيه أو تهلكه.

(٢٢) أي: لن يعرض نفسه بعد للقائي.

(٢٣) أجدا: أي قويًا.

(٢٤) الخرد: الجبان.

(٢٥) الصعدة: سنان الرمح.

(٢٦) الجدد: جمع جدة وهي الساحل والشاطئ.

(٢٧) هيلقة بلدة كانت في أخايا، وكان فيه هيكل لفوسيد

يحتفلون فيه سنويًا بنحر ثور، فإذا عج الثور وهم يقودونه للذبح تفاءلوا

خيرًا وأيقنوا بنيل بغيتهم، وإن لم يعج تشاءموا وأيقنوا بسخط معبودهم
فاسترضوه بوسيلة أخرى.

(٢٨) الجد: الكرم. يقول: فييوس وراك بكرمه وفضله.

(٢٩) الثأد: الثرى.

(٣٠) فئد: اضطرب فؤاده خوفًا.

(٣١) ومد: حمي.

(٣٢) زؤد: رعبًا.

(٣٣) لا يزال الزراع في كثير من أرياف مصر، وبلاد العراق،
وبعض أطراف سوريا، وغيرهنّ من بلاد الشرق يدرسون الحبوب كما
كانت تدرس منذ ثلاثة آلاف عام

(٣٤) قال أبو الطيب:

تركن هام بني عوفٍ وثعلبةٍ على رءوس بلا ناس مغافره
وخاض بالسيف بحر الموت خلفهم وكان منه إلى الكعبين زاخره
حتى انتهى الفرس الجاري وما وقعت في الأرض من جئت القتلى حوافره

(٣٥) يشبه ختام هذا النشيد ما اختتم به الشاعر النشيد السابع

عشر، من حيث تراحم التشابه وتراصها بعض فوق بعض، وله أمثال
ذلك في بعض أثناء النظم إذا انتقل من باب إلى آخر، كأنه إذا اختتم

بحثه بقيت قريحته مالأى بالتصورات فيفرغ منها ما شاء إلى أن تطيب
نفسه.

النشيد الحادي والعشرون وقائع أخيل وقتال الآلهة

مُجْمَلُهُ

انهزم الطرواد أمام أخيل حتى بلغوا ضفة نهر زنش، وساد بينهم الرعب فاندفع بعضهم إلى المدينة وألقى الجم الغفير منهم بأنفسهم إلى النهر، وقبض أخيل على اثني عشر فتى غض الشباب ليقتلهم بدم فطرقل، ثم التقى بليقاوون بن فريام فقتله وطرحه في النهر، فحقن النهر وحث عسكرووف على قتاله فظفر به أخيل وقتل كثيرين من صحبه، فسالت الدماء في النهر وارتفعت فيه الأشلاء، ثم هاج وماج وطغى على أخيل ليغرقه، واستغاث أخيل زفس فبادرت أثينا وفوسيد لإغاثته، فنجا من طغيان زنش، فاستصرخ ذلك النهر نهر سيمويس المحاذي له وتألبا على إغراق أخيل، فكاد يهلك لو لم تبادر هيرا إلى إنقاذ ابنها إلاه النار أخذًا بيده، فانقض هيفست واشتعل وألهب الضفتين وجفف المياه الطاغية في السهل، فالتمس النهر رحمة هيرا صاغراً فتشفعت له، وهناك انحدر الآلهة إلى حومة الوغى والتحم القتال بينهم، فبرزت أثينا لإلاه الحرب وصرعته وبادرت الزهرة فذهبت به، فتعقبته أثينا ولطمتها، وبرز فوسيد إلى أفلون، ثم انبرت هيرا فلطمت أرطميس واجترت من على كتفها قوسها وكنانتها، فشكت أرطميس أمرها إلى أبيها زفس فطيب خاطرها وسكن بلبالها، ثم دخل أفلون إلى إليون ورجعت الآلهة إلى

الأولمب وظل أخيل مندفعًا كالسيل وفريام يراه من فوق البرج فأمر
الحرس بفتح الأبواب ليتسنى لشذاذ الجيش المنهزمين أن يدخلوا،
وأنهض أفلون البطل أغينور فتربص للقاء أخيل، وكاد يهلك لو لم يبادر
أفلون لإغاثته فواراه ثم تمثل بهيئته وانهزم أمامه فأبعده عن الحصون
حتى لجأ جميع الطرواد إلى مدينتهم.

«ولم ينج إلا حثيث الخطا»

لا تزال وقائع هذا النشيد في اليوم الثلاثين.

النشيد الحادي والعشرون ١

لدى ثغر زنت الذي اندفقا	زلاً ومن زفسٍ انبثقا ٢
أخيل جيوش العدى بددا	فشطرّ تدافع مرتعدا
لإليون فوق السهول التي	بها أمس أرغوسة ولّت
وهامت بقلبٍ قد انخلعا	وهكطور من خلفها اندفعا
فوق الطراود هيرا البخار	أثارت لتثقلهم بالفرار ٣
وشطرّ بمجرى المياه العميق	ترامى بصلصلةٍ وشهيق
يموج بفضي موجٍ يمور	له يقصف اليم حتى الثغور
صراخٌ شديدٌ ورجع صدى	وجندٌ تراموا بغير هدى
كأنهم بحثيث المفـر	جراد من النار للنهر فر

يثور اللهيب على أثره
كذاك أخيل الطرواد ساق
خليطاً بهم غصّ ذاك المجال
وألقي بعامله فاستند
وكرّ بصارمه المنتضى
وخاض العباب بيت الرقابا
وما ثم إلا زفير كمّاه
فمن وجهه اندفعوا بالشبور
كأنهم سمك ذعرا
فأم الشقوق بنغر أمين
ولمّا من الفتك كلت يده
من اللجة استخرج اثني عشر
وكل فتى بزهي نطاقه
لفطرقل كفارة تدخر
إذا بلقاوون قد خرجا
(هو ابن لفريام كان أسر
دهاه إلى تينة قد عمد
وغض الغصون لقد قطعها

فيلجأ للماء من شرره
إلى زنت فوق المجاري العماق
كباش رجال وجرد عجاله
على أثلة فوق تلك الجدد
كربّ بدهم البئوس قضى
ويقتل كل كمّي أصابا
ونقع يخضب وجه المياه
إلى النهر والتجأوا للصخور
لدلفين هول وراه جرى
لينجو من شر موت مبين
ونال مناه بكيد العداة
غلاماً كخشف الفلاة اقشعر
هنالك أحكم شد وثاقه
إلى الفلك أرسلهم ثم كر
من النهر يحسب أن قد نجا
أخيل قديماً بليلى عبر
بأرض أبيه بنصل أحد
لأكناف مركبة صنعا

فبيع بلمنوس ممتنها
وإيتين الإمبروسي افتداه
لأرض أرسبا فمناها انهزم
نهار بأوطانه حيث قر
لآخيل ينفذه للجحيم)
قواه العياء وسح العرق
قنا ومجننا وخوذته
فبادره صائحا دهشا:
أمن أرض لمنوس ذا القرم آب
من اللجج الدهم سوف يعود
وإن عاق بالرغم أرفاقه
لنعلم هل بعد ذا يرجعن
تبيدنه كرثيث الرفات»
وذياك نجوته التمسها
وآخيل أوما بصعدته
وفي الأرض غرثانة وقففت ٧
يمس بإحدهما ركبتيه

وأركبه معه السفنا
هناك ابن إيسون منه شره
وأرسله بعد بذل الكرم
وعاش قريبا لثاني عشر
فسيق بحكم إلاه عظيم
وما عبر النهر حتى سحق
فألقي على الجرف شكته
وألماه آخيل مرتعشا
«لعيني رباه لاح العجاب
إذن من أبدت بهم الجنود
نعم آب واليم ما عاقه
إذن حد ذا النصل فليجرعن
أو الأرض هدأمة العزمات
فهاجس آخيل ذا هجسا
دنا يرتمي فوق ركبته
فأهوى وعن ظهره انحرفت
فمد لقاوون كلتا يديه

وتلك بها النصل عَنَّا قبض
فها أنذا لاثمٌ ركبتيكا
عليك له حقُّ حقِّ الولاء
قبيل المسير بهذا الأسير
نعم بي ظفرت بروضٍ أغن
وما نلت من ثمني المستفاد
فإن تعف عني فحقُّ الفداء
نهاري ثاني عشر نهار
وقد ساقني ليدك القدر
أجل آه أُمي لعيشٍ قصير
(لووثوة بنت ألتيس من
وشاخ بفيداسةٍ حيث ساد
لفريام زوجًا غدت ولكم
فأُولَدَهَا عنده ولدين
فليذر من كإلاه صدر
وبي قد رمى بعض آل العلى
ألا ما رحمت فكنت العتيقا
وما ولدتني أمٌ فتى

وصاح: «أخيل أصبت الغرض
فرق لمرءٍ ذليلٍ لديكا
فقد ذاق زادك قبل الجلاء»
يباع بلمنوس عبدًا كسير
وأنأيتني عن أبي والوطن
سوى مئة من عجلٍ البلاد
مئات ثلاث وصدق الولاء
به عدت بعد العوادي الكبار
فكم قد قلاني مولى البشر
لقد ولدتني وويل كثير
على ثغر سستينويس قطن
قروم الليغ رجال الجلال
له غيرها زوجةٌ مذكم
وأنت ستشكلها البطلين
برأس المشاة ببأسك حر
إليك لأجرع كأس البلا
فلمست لهكطور تدري شقيقا
حشاك لفطرقل قد فتيا»

ذليلاً فأسمع مر الجواب:
ففطرقل قبلك قد فقدنا
أسرت وبعث ولم أقتل
بقبضة كفي أي إله
بنو الملك فريام حامي الحمى
ففطرقل أرفع شأنًا ومات
وفيلأ أبي الشيخ شخص الكمال
وماكل ذا ليقيني الحمام
وإما مساءً وإما صباح
يجندلني أو بسهم طرير» ٩
ومن جوفه لبه انخلعا
وآخيل في الحال مال عليه
بترقوة الجيد من تحت نحره
ووجه الثرى من دماه ارتوى
إلى النهر مختضبًا بدمه
يمص بهامي الجراح دمك
هنا الإسكندر فيك يسبح

كذاك لقاوون ألقى الخطاب
«تعست فلا تذكرن الفدا
فكم بكم قبل من بطل
ولكنني اليوم أيًا رماه
بيد ذليلاً ولا سيمًا
فمت صاح مت ودع الحسرات
ألم تر قدّي وهذا الجمال
وأمي من الخالدات العظام
ولا فرق إمّا نهارًا يتاح
فلا بد قرمّ بنصلٍ يطير
فخر لقاوون ممتعًا
وعاف القناة ومد يديه
بسيف بحديه غاص بصدرة
فخر على وجهه والتوى
وآخيل ألقاه من قدمه
وصاح: «فرح مطعمًا للسمك
فلا أم ثم عليك تصيح

فيلقيك للبحر حيث يدب
 ومن شحمك الغض يؤتى الغدا
 تفرون دوني وسيفي يفل
 فليس بواقيكم النهر ذا
 ولا ما ذبحتم له من عجول
 نعم ستييدون طرًّا هنا
 وجندٍ بسيفكم قتلوا
 كذا قال والنهر زاد احتداما
 وكيف بصد أخيل يزيل
 ولكن أخيل بالرمح زف
 (هو ابن فليغون من نسبا
 فأكسيس النهر قد كان هام
 ألا وهي ذات المكان المكين
 له عسطروف بوارى الزماع
 برمحيه قام يروم لقاه
 وكم كاد زنت أخيل بما
 ولما تدانى بذاك البراح
 «أيا ذا الذي لم يرعه جلاذ
 إليك من اللج حوتٌ يشب
 أجل فلتييدن طرًّا كذا
 كذاك بإليونكم نستقل
 بقضي مجراه شر الأذى
 ولا ما طرحتم به من خيول
 فداء لذي البأس فطرقنا
 وآخيل إذ ذاك معتلزل»
 وفكر كيف ينال المراما
 عن القوم شرَّ الهلاك الويل
 على عسطروف سليل الشرف ١١
 لأكسيس وإلى فيربا
 بها فحبتة بذاك الغلام ١٢
 وبكر بناتٍ لدى أكسمين
 ترئص محتدماً لا يراع
 وزنت ببأسٍ شديدٍ جباه
 به من خيار الجنود رمى
 كلا البطلين فأخيل صاح:
 أخيل فمن أنت من أي ناد

فويل أبٍ لم يهني ابنه
فقال: «وما بانتسابي تروم
فيونا الخصية منها الرجال
ومنذ بلغت لهذا المقر
وجدي أكسين خير نهر
وأنبئت أني سليل فتاه
فأقبل إليّ» فأوما أخيل
فزجّ هنا عسطروف إليه
وقد كان يحكم زج النصال
فنصلّ بظهر المجن وقع
ونصلّ ذراع أخيل قشر
وغلّ يغوص بفرط ظماه
فأخيل بالرمح فوراً قذف
وغاص إلى وسطه باضطراب
فسلّ أخيل حساماً صقيلا
ورام الفيوني اقتلاع القناه
ولما انتشى خاسراً وبدا

فلا شك ينهكه حزنه»
فداري البعيدة دار القروم
معي أقبلوا برماح طوال
بيهمي ذا اليوم حادي عشر
بماء زلالٍ على الأرض يجري
فليغون ذي البأس رب القناه
عليه يعود القناه الطويل
بكلتا قناتيه من راحتيه
بكفّ يمينٍ وكفّ شمال
بعسجد هيفست حيث ارتدع
فمنه يسير النجيع انفجر
إلى النقع فوق الحضيض إزاه
فطاش إلى الجرف حيث وقف
من العنف يرتجّ فوق التراب
على جنبه الصلب كان أميلا
ثلاثاً فخابت ثلاثاً مناه
عياه إلى كسرهما عمدا

لولها ولكن أخيل وثب
فخر وأجفانه انطبقت
ففي صدره داس يدخر
«هنا مت فليس يهون على
فإن كنت من نسل نهرٍ كبير
أبي قيل المرمدون الحميد
لرفس عنا كل ربّ فخور
فذا زنت دونك هيهات أن
ومن ذا الذي دون رفس يقف
ونفس المحيط أبي كل بحر
إذا رفس من جوه رعدا
وجرّ مثقفه وهناك
على الجرف من حوله تندفق
تقاطر مندفعات لديه
وقوم الفيونة مذ أبصروا
وزند أخيل رماه قتिला
وخلقهم ابن أياك انطلق
كثر سيلخ ميدنٍ إينوسا

عليه بتياره وضرب
ولالأرض أحشاؤه اندفقت
صفائحه وهو يفتخر:
بني النهر حرب سليل العلى
فإني من آل زفس القدير
أبوه أياك بن زفس المجيد
وأبناؤه فوق ولد النهور
يقيك ويدفع عنك المحن
ومنه أخلوس يرتجف ١٣
ونهر وينبوع ماء وبئر
تراه بلجته ارتعدا
ثوى عسطروف بغير حراك
مياه بنيانها تصطفق ١٤
لكي تنهش الشحم من رئيته
زعيمهم دمه يهدر
لديه على زنت ولوا فلولا
يبيد القروم بتلك الفرق
أفيلست عسطفيل ثرسوسا

كذا إمنسوس ولولا تصدى
 تصدى له حانقًا وخرج
 وصاح بصوتٍ دوى بالجدود:
 لقد فقت بالبأس بهم الزمر
 إذا زفس أولاك قهر العدى
 فدعني فسيلى هذا الدفاق
 فلا منقذٌ لغصيص زعابة
 كفاك صدقتك فتكٌ ذريع
 فقال: «أمرت وأنت المطاع
 على أنه ليس لي من مرد
 وهكطور ألقى ببأسٍ شديد
 وهب كرب وراهم يصول
 «أيا رب قوس اللجين الأغر
 أما بك أرسل معتمدا
 تدافع حتى براح تغيب
 وأما أخيل فما ارتدعا
 هنا لك زنت احتدامًا طنا

له النهر فلَّ الجموع وأردى
 بزى فتَّى من عباب اللجج
 «آخيل رعتك سراة الخلود
 كما فقتهم بعثو وشر
 أما لك في السهل كل المدى
 بأشلاء قتلى الطراود ضاق
 إلى البحر ممتزجًا بعبابة
 فقد راعني منك هذا الصنيع»
 أيا إسكمندر في تي البقاع
 إلى أن أردهم للبد
 ييد به أو حياتي ييد»
 فصاح بفيوس زنت يقول:
 أفاتك مطلب زفس الأبر
 إلى قوم طروادة عضدا
 ويسيل ستر الظلام القريب» ١٥
 وللنهر من ثغره اندفعا
 وأزبد منتفخًا ورغا

وثار وعجَّ كثورٍ يخور
وفاض على جثث طرحا
فمن مات ألقاه في ثغره
وحول ابن فيلا جحافاً جرافا
بـه قدماه تقلقلتا
تشبَّث بالمهجة الزَّاهقه
فمالت وآصلها تنفكك
ويانع أغصانها انتشرا
وظلَّت كجسرٍ عظيمٍ يحول
فريع أخيل وفرَّ يطير
ولكن تقفاه ذاك الإلاه
يروم له ذلَّةً وانخذال
فخفَّ أخيل كطير يدفَّ
كحالك نسرٍ عثا بالطيور
وراح يفرُّ على ذعره
وفي إثره النهر حيث التوى
كأن امرأً بنضير الغياض
فطَهَّر قبل انصباباته

بتيَّاره مستشيطاً يمور
بمجرَّاه أخيل مجترحاً
ومن عاش وراه في قعره
تدافع حتى على الجوب طافا
فما بهما بعد ذا ثبَّتا
بـدردارةٍ غَضَّةٍ باسقه
إلى الأرض أهوت به تبتَّك
ووجه الحضيض بها انقشرا
وصدَّت مجاري تلك السيول
إلى السهل فيه حثيثاً يسير
بتيَّاره المـدلهم وراه
فيكفي الطراود شرَّ الوبال
على بعد مرمى الرماح يزفَّ
وقصَّر عنه هفيف الصقور
يصلُّ السلاح على صدره
تعقبه طاغيّاً ودوى
سقى بدفاق العيون الرياض
مجاري المياه بمسحاته

تدافع فوق حصّى تترقق	فما خلت إلّا انبجاسًا تدقق
يسيح ودافعه قصرا	وخر خريّرًا مذ انحدرًا
بآثاره زنت سدّ السبيل	كذا حيث دار أخيل يميل
لهم أبدًا بموالي الملا	ولا بدع فالناس لا قبلا
لزنث يرى هل إذن يتخلص	فكم مرة بخطاه تربص
عليه ليخذله الهرب	وهل كلّ آل العلى اعتصبا
إلى كتفيه بتلك الترع	فما كان من زنت إلّا ارتفع
بأزمته فعلا الهضبا	فهلب ومحتفزًا وثبا
فموقف آخيل فيه انخسف	ولكنّ زنت التراب جرف
فأنّ وصاح يروم النجاه:	هناك التوت هلعًا ركبته
يرقّ لحالي به أستجير	«أيا زفس هل لا إلاه قدير
عليّ بلا النوب الهمل	فإن أنج من زنت فلينزل
كأمي من سامني ذلة	فليس بآل العلى جملة
وكم زعمت باشتداد الخطوب	فكم خدعتني بقول الكذوب
بسهم أفلون ألقى المنون	بأني قبالة هذي الحصون
هلكت وأخبره البطلا	علام بعامل مكطور لا
لقليل همائمهما ضرب	لو اجتاحني وسلاحي سلب

على أنني اليوم في ذا المكان
كراعي خنايص غرّ ولج
فلما انتهى فوسدّ أسرعاً
بهيئة إنس له اعترضاً
فخاطبه فوسدّ أولاً:
إلاهان رفدك راما هنا
بنا زفس أسرى إذن فاسمع
فرنث ستلقيه عاف أذاكا
فلا تغمد السيف حتّى ترى
وهكطور تصمي وللسفن
هما انقلبا للعلى والبطل
ومن حوله السهل حيث لمح
غشا بسلاحٍ عليه يطوف
فكرّ وما بعد ذا ناله
أثينا أنالته عزماً جديداً
فبرّح بالنهر ذاك الغرور
وصاح بسمويس مستنجداً:
هلمّ كلانا هنا نعتصب

أموت بهذا النهر موت الهوان
خليجاً فما منه قط خرج» ١٧
لنجدته وأثينا معاً
وبالأنس راحتته قبضاً
«ألا يا ابن فيلا دع الوجلا
أثينا بحكمتها وأنا
وكلّ نصائحنا فاتبع
وما كان في الغيب فيه رداكا
بإليون جيش العدى انحصرا
تعود بمجدٍ رفيع سني»
بجملته للكفاح اشتعل
بما فاض من زنث طراً سبح
وأشلاء قتلى ابترتها السيوف
خمولّ وزنث فما هاله
فما راعه بعد منه الهديد
فزاد اضطراباً وعجّ يفور
«أخيّ هلمّ فعجزي بدا
على رجل واحدٍ ونثب

له والطراود سيموا الفشل
وأجر السيول غزاراً غزار
فتفتر عزيمة ذا المفتري
وعاث اعتسافاً يهيل الثور
ولا بصـفـائحه مـبـتغاه
بقعر المياه دفين الغرين ١٨
عليه يهال قضـيـض الزبد
فلا يهتدي قـوـمـه لعظامه
له يوم يلتزمون الحداد»
ودمد يدوي بذاك الفجاج
وتياره احمرّ تحت الجثث ١٩
وهيرا بسـدّتها ترقب
عليه فأوشك أن يغرقا:
فقرنك زنـث فقيه استعر ٢٠
وأغري الجنوب أنا والدبور
فتلهم نارك كل مكان
وتفني صفائحهم والـرـؤوس

والأ فمعقل فريام ذل
هلم وفض بالعيون الكبار
وفض الصخور على الشجر
عـتـا مـسـتـبـدّاً كـرـبّ فـخـور
فلا نال في حسنه وقواه
سيلث ذاك السلاح المتين
وأطمر بالرّمـل ذاك الجسد
هناك يقيم بشر مقامه
وأكفيهم عبء قبر يشاد
ومن ثم هاج عليه وماج
رغا زبداً ودماً وخبث
وماد بآخيل يضطرب
فصاحت تولول مذ أطبقا
«بنـيّ حـبـيـي الأـعـيرج طـر
هلم انجدنا بنارٍ تشور
من اليم بالنوء تصطدمان
تذيق الطراود دهم البؤوس

فلا تبق في ثغره شجرا
ولا يغرينك لا بفديد
ولا تخمدن أوار السعير
فأرث بالسهل نارا ذكت
كماة رماهم أخيل العنيد
فما خلت إلا لثرى يسا
كروض سقاه الحياء تهف
فيجدل زارعه طربا:
أدار على زنت نار الشرار
فدرداره باد من أصله
كذا السعد والسدر والخيزران
برمتها اتقدت شررا
وأسماكه كل حيتانها
تغوص فلولاً بضيق النفس
وفي قلب زنت استطار يعيث
«هيفست بنارك مالي قبل
كفى كف وليفتك ابن أياكا
فما لي وهذا الوبال الألد»

وفي قلبه انقض مستعرا
ولا بالتماس ولا بوعيد ٢١
إلى أن أصبح بصوت جهير»
بأشلائهم أولا فتكت
وما كان أكثر ذاك العديد
وطغيان زنت به انجسا
شمال خريف به فيجف
ومن ثم هيفست ملتهبا
فثار بمجره واري الأوار
بصفصافه وكذا أنله
بأصلها والفروع الحسان
فلم تبق عينا ولا أثرا
وحياتها فوق نينانها
لهول المهب وحر القبس
حميم الصلا فدعا يستغيث:
فأي إله تطلبت ذل
بطروادة فيذيع الهلاك
كذا صاح لكن هفست استبد

وأج بغدران زنت ففار
يسيح بها شحم رتّ سمين
ومن تحتها يابس الحطب
كذا زنت لَمّا به اشتعلا
ولم يجرب بل فار متقدا
«علام بحقك دون سوايا
أمن كل أنصار طرود هل
فإن شئت لا جئتهم بعد ذا
ولن أبتغي بعد رفدهم
ولو كل طروادة احترقت
فهيرا استجابت وصاحت: «كفى
فما فوق ذا جاز أن نشجنا
فأحمد هيفست نيرانه
وهيرا بغل مرارتها
فتمّ بكشفه زنت الوفاق
فقامت لهم ضجةٌ وعجيج
وزفس لفتتهم والصخب

كقدرٍ تفور بنارٍ تثار
على حافها يسرةٌ ويمين
بموقده قدح اللهب
سعر هفست علا وغلا
فهيرا دعا يطلب المددا:
سليك هبّ يروم أذايا
تخالين أني المسيء الأضل
كفاه كفى فليكف الأذى
باك نعم علنا أقسم
بنار الأخاءة وامحقت
بُنَيّ فقِف ذاك حد الجفا
بني الخلد من أجل قوم الفنا» ٢٢
وأجرى كذا زنت غدرانه
إليه سعت بوساطتها
وثار بآل الخلود الشقاق
من الأرض للجو يعلي الضجيج
لقد هزه بعلاه الطرب ٢٣

وما لبث الخطب أن فدحا
وأولهم خارق الجنن
أثينا أتى بشحيد الدباب
علام بنا هجت هذا اللدد
أنسيت يوم ذيوميد صال
وسددت عامله فاستطار
وإذ ذاك عامله دفعا
مجنّ وهيئات تفعل به
فما كان إلا أن التوت
هنالك ذا الصخر منذ القديم
ثوى هائلاً حالگًا خشنا
فحلقومه دق فانقلبا
فعقر بالترب ذاك الشعر
فصاحت إذ ابتسمت جذلا:
وفاتك حمقًا سمو قوايا
فذق من صلي أمك اللعنات
جزاء اطراحك رفد الأخاء
وعنه بالحاظها أعرضت

فهبوا يثيرون تلك الوحي
أريس تصدّر للفتن
وصاح: «اخسئي يا ذباب الكلاب ٢٤
بشر عتوّ عدا كل حد
عليّ وأغريته للنضال
ومزّق جلدي فثارّ بشار» ٢٥
ففي ظهر محبوبها دفعا
صواعق زفس على غضبه
وجلمود صخرٍ تناولت
لتلك المعالم حدًا أقيم
رمته به بيسير العنا
وسبعة أفديّة حجا ٢٦
وصل السلاح عليه وصر
«جهلت وما الحق أن تجهلا
فأقبلت مستهدفًا لبلايا
لظى أزماّت على أزماّت ٢٧
وعون الطراود أس البلاء»
هنا عفريت له عرضت

وقادته من يده تتدفق
وهيرا على البعد تبصرها
«ألا فانظري قحة الزهرة
عليك بها فلقد أدبرت
فهمت أثينا وقد طفحا
براحتها صدرها لطمت
كذا عفريت وآريس ظلا
هما لبثا بعنا وزفير
«كذا فليد من لطرود مال
فلو أن جملة أنصارهم
بعزم كما عفريت بدت
لكف القتال العيف الويل
فهيرا لذا ابتسمت واستطار
«أوار سراة العلى مضطرم
أنرضى الهون وعار القفول
إلى الحرب فيوس قم وتهيا
تقدمت عهدًا وزدت اختبار

دماه بحسّ تضعضع يشهق
فصاحت بفالاس توغرها:
تفاقم والحرب مستعرة ٢٨
بآريس هو الملا وجرت
لذا لب مهجتها فرحا
فخارت قوى عزمها وارتمت ٢٩
طريحين فوق الثراب وذلاً
وفالاس صاحت بداري النعير:
وسام الأغارق شرّ النكال
إلى الحرب ثاروا بكبارهم
لنجدة آريس مذ عريت
وإيون دكت لعهدٍ طويل ٣٠
إلى سيد النور ربّ البحار: ٣١
لماذا إذن نحن لا نصطدم
لقبة زفس بهذا الخمول
فإنك أحدث سنًا فهيّا
فبادر فحقك بدء البدار ٣٢

فهلأ اذكرت أأحمق كم
بنا زفس أرسل دون الجميع
لنعمل عامًا بخدمته
فشدت الحصون الحسان الفساح
وأنت سرحت بتلك البقر
ولما عنا جهدنا اكتملا
وأقبلت الساع بالفرج
فأرسلنا خاسئين وأقسم
وهمم بغلك رجلاً وزندا
تعمد شر خيانتنا
أمن أجل هذا وليت بنيه
لئنفي طروادة الكافرة
فقال: «أفوسيد هل خلتنى
فمن أجل من أنا أبرز لك
وما الإنس في الأرض إلا ورق
معيشته من نتاج الثرى
فدعنا إذن من ويل النضال
وعنه تفهقر محتجبا

بإليون برح فينا الألم
إلى لومدون فجئنا نطيع
فنقبض معلوم أجرته
تعز امتناعًا ولا تستباح
على شم إيذا الكثيف الشجر
وحان لنا نقبض البدلا
أبى لومدون لما نرتجي ٣٣
وهمم بآذنا أن تصلم
وبيعك في جزر البحر عبدا
فعدنا بغل حزازتنا
ولم تنتقم مثلنا من ذويه
وأبناءها والنسا الطاهرة» ٣٤
قصير الحجى فاقد الفطن
أمن أجل إنس ثواه الدرك
تراه نشا يانعا ويسق
ولكنه صاغرا دثرا ٣٥
ودعم يجولوا بحرب سجال»
لقاء أخى زفس مجتبيا

فَلاحَتْ هَناكَ لَه أُخْتَه
«أَراكْ اَنهَزمَتْ أَرامِي السَّهامِ
لَمَذا بَرَزَتْ بِقَوسٍ طَحُورِ
فَهَلْ بَعَدَ ذَلكَ ذَا تَزَعَمِ
فَصَدَّ وَلَمْ يَلِقْ بَنَتَ شَفَه
عَلى أَرطَمِيسِ اَنثَنَتْ بِالخَطابِ
وَصاحَتْ: «أَيا كَلبَةً يا وَقاحِ
سَتَصِلينِ نيرانَ غِياظي وَإِنِ
جُعَلَتْ نَعَمَ لَبوَةً لِلنَّسا
أَلا ما فَتَكَتْ بِوَحْشٍ رِبا
وَعَفَتِ البروزَ بِحَمَقِ الشُّطَطِ
أَرَمَتِ إِذْنَ خَبَرَ هَولَ المَكْرِ
هَنا قَبَضَتْ مَذا تَدَنَّتْ إِلِياها
وَمالَتِ بِيَمَني عَلى مَنكِياها
وَباسِمةً أَذَنها ضَربَتِ
وَدارتِ بِجَمَلَتِها تَنتَثِرِ
وَعادَرَتِ القَوسَ وَاَنهَزمَتِ

قَنيصَ الضَّوَاري تَبَكَّته: ٣٦
وَحَوَّلَتْ فَوَسِيزَ كَلِّ المَرامِ
وَأَبَرَزَتْ بَينَ الصَّدُورِ الغُرُورِ ٣٧
بِباسِكَ فَوَسِيزَ تَقَتَّحَمِ
وَهَيرا اسْتَطارَتْ بِها الأَنفَه
تَعَنَّفَها بِشَدِيدِ السَّبابِ
أَفي ظِلِّ وَجَهي هَذا الصِّياحِ
بَرَزَتْ بِقَوسٍ لَغيري تَرنِ
تَيلَينِ مَن شَتَّتْ مُرَ الأَسى ٣٨
بِشَمِ الجِبالِ وَغَرِ الطِّبا
لَمَن لا تَطيقِينَ لَقِياها قَطِ
خَذيها إِذْنَ عَبرَةً تُعَابرِ
بِيسَري يَديها عَلى مَعصِمِيا
تَجَرَدَ قَوسًا تَوُجُّ عَلِياها
بَتَلَكِ الكَنانَةِ فاضطَربَتِ
وَأَسَهاماها دَوَهاها تَنثَثرِ
بَذَلَّتِها وَالدموعَ هَمَتِ

كورقاء يذعرها وجه صقر
وما كان قبل له قدرا
وصاح بلاطونية همرس:
فمن رام عرس أبي السحب
فأمي بني الخلد وافتخري
ففوراً لجمع النبال انبرت
وسارت على أثر ابنتها
وإذ للألمب أتت أرطميس
بعبرتها أقبلت تسبح
ومن حولها البرقع العنبري
إلى صدره ضمّها وابتدر
«من الخلد من ذا عليك افتري
فقلت: «أبي تلك زوجك من
كذا بحديثهما اشتغلا
لئلا يدك العداة الحصار
وسائر آل العلى رجعوا
لدى زفس ذاك بنصرته
وظل أخيل بحر الجلال

تزفّ لتلجأ في شق صخر
بها قط أن ينشب المنسرا
«بحربك هل خلتي آنس
بسوء فقد ضلّ في مذهبي
عليّ بأسك والظفر» ٣٩
عن الأرض من حيث قد نثرت
بفارجها وكنايتها ٤٠
بقصر النحاس تبدّت تميس
على ركبي زفس تنطرح
تألق يسطع للنظر
يهش لها واستقصّ الخبر:
كما لو أتيت ابنتي منكرا
أثارت بآل السماء الفتن
وفيروس طروادة دخلا
برغم القضاء بذاك النهار
لأولمبهم حيثما اجتمعوا
طروبوّ وذا بحزازته
بيد كماء العدى والجياد

وحيث بدا لهم فتكا
 كنار بغيط بني الخلد شبت
 وأعلت دخاناً رقى للرقيع
 وفي البرج فريام منتصبا
 إذا بالطراود قد دعروا
 فمن ثم مكتئباً نزلاً
 «ألا فافتحوا كل أبوابكم
 فلول السرى. فأخيل هجم
 وإن لجأ الجند طراً إلى
 لئلاً يحل بحر العراك
 ففتح في الحال كل رتاج
 وشذاذ طروادة شرد
 يغشيهم نفعهم والصدى
 وفيوس خف أمامهم
 وراهم أخيل حديد الفؤاد
 وكاد يجوز بعسكره
 فأغرى أفلون أغرا
 بهم ودماءهم سفكا
 ببلدة قوم عصاة فهبت
 فسيم الجميع البلاء الفطيع ٤١
 على البعد أخيل قد رقا
 وكلهم شرذاً أدبروا
 يحذر حراسه وجلا:
 إلى أن تدوس بأعتابكم
 مغيراً ووا هول هاتي النقم
 معاقلنا فاقفلوا عجلاً
 أخيل بها وهناك الهلاك»
 وقد رفعوا منه كل زلاج ٤٢
 قضيضاً فلاعهم وردوا
 يحرق مهجتهم كمد ٤٣
 يسهل ثم انهزامهم
 يجيل حدود الحديد الحداد
 معاقلهم بتسغره
 أخوا العزمات ابن أنطرا

والهلب بالبأس مهجته
إلى زانه قربه استندا
لأخيل آغزُ وقفنا
وفي نفسه قال: «إن أجم
كما جندنا هلعًا هربت
وإن أعتزلهم وشأنهم
واضرب بهذا السهل مجتهدا
وفي بعض آجامة أستتر
وفي النهر أغسل رشيح العرق
أفز ناجيًا - لا فماذا الصواب
أليس يراني طلبت الخلاص
ومن أين لي عدوه وقوى
إذا فلا أقف دون هذي القلاع
فليس له غير نفسٍ تنال
نعم زفس عظمه إنما
ومن ثم تحت السلاح تلملم
كبيرٍ قد انقضَّ من أجمه
فلا يلتوي لشديد النباح

وبالسحب حلَّ قبالتة
ليدراً عنه ثقیل الردى
ولكنَّه مع ذا ارتجفا
لأخيل آه وأنهم—ز
لديه فمقني لا شك بت
وآخيل مكتسح لهم
حيثُ لا يئذة مبتعدا
نهاري ومن بعد ذا أنحدر
وأرجع لإليون عند الغسق
ولا لا علام أنا بارتياب
فينقضُّ إثري وأبن المناص
بها الخلق طرًا لديه سوا
للقياه محتفزًا للدفاع
وجسمٍ يشق بحد النبال ٤٤
علمنا لقوم الفناء انتمى» ٤٥
بقلبٍ لحرب ابن فيلا تضرَّم
على قانص واري العزمه
ولا للصياح ولا للسلاح

وليس يذلّ ولو نفذاً
فإمّا البلوغ لمنيته
كذاك ابن أنطنر لبشا
فهزّ القناة ومدّ المجنّا
فهل خلت ذا اليوم إلوننا
تعست فمن دون ذا غمرات
أباة حماة لأوطانهم
إذن أنت أنت ستلقى رداكا
وآخيل بالرمح فوراً طعن
ومرتدعاً بالفضاء انطلق
فهمّ ابن آياك يستعر
ولكن فيوس في الحال حال
وأرسلته سالماً يذهب
وجاء آخيل بحيلته
لديه على السهل ولي يهيم
وراوغه طيّ بون قليل
على إسكمندر راح يجد
بعاتقه منصلّ شحذا
وإمّا ليوم منيته
لصد أخيل وما أكثرنا
وصاح: «ابن فيلا هنا أقبلنا
تذلّ فتبلغ منها المنى
تمنّى بها وكماة ثقات
وأولادهم ولنسوانهم ٤٦
هنا اليوم مهما استطالت قواكا»
ففي ساقه بالصفائح رن
وكيف نحاس هفست يشق
وكاد بآغنر يظفر
فحججه بغيوم ثقّال
أمينّا وما مسه عطب
كآغنر تحت هيئته
لينئيه عن فل جيش هزيم
ليطمعه بارتواء الغليل ٤٧
وآخيل في إثره مبتعد

وطرودة بمناسرها	وهلّ جند عساكرها ٤٨
لهم لاح في بعده الفرج	بغير هدى سورهم ولجوا ٤٩
لدى الباب لا أحدًا أحدا	ترى يرقب مفتقدا
ليعلم من باد ممن سلم	وكلهم هالغ منهمزم
فغصّت وماجت بهم لغطا	ولم ينج إلا حيث الخطى

هوامش

(١) ترى من مجمل هذا النشيد أنه كله قراع وصرع، فتخال أنك مقبل على تلاوة وصف معارك؛ كالتى سلفت فتشاءم بالملل لكثرة الخوض بهذه المواقع، على أنك لا تكاد تتلو بعض أبيات حتى ترى أنك في روض من التصور بديع لم يحط البصر بشيء من مثله في سائر الإنشاد، ولهذا قيل: إن قوة الابتداع الفكري والاختراع الشعري لم تتوفر لشاعر توفرها لهوميروس في هذا النشيد.

يشهد هنا الكفاح ولا اشتداده في ما سلف: أبطال تتحرق، وأشلاء تتمزق، وأنهار تتدفق، ونار وماء وأرض وسماء، ومعمعة بين الثرى والسحاب تتجاول فيها البشر وتتصاول الأرباب، كأن كل ما في السماء والأرض جذوة نار اتقدت إجلالاً لبطل الرواية، كل هذه أمور على غرابتها وبعدها عن مألوف الذوق العصري تشوق المطالع وتلذذ السامع لما يرى

فيها من التفنن في التبويب وتطبيق المقول على المعقول بعرف أبناء تلك القرون.

(٢) زنث أو زنثس (Ξανθος) ومعناها الأشقر أو الأصفر نهر في طروادة، قال هوميروس في موضع آخر: إن الآلهة يسمونه بهذا الاسم ويدعوه البشر إسكمندر. واسمه الآن مندرسو وقرق كوزلر. قال: إنه انبثق من زفس؛ لأن زفس ممثل السماء ومنها تنهمل الأمطار فتملاً الأنهار.

(٣) تثير هيرا البخار لأنها ممثلة الهواء.

(٤) كان من عادتهم إذا انتاب الجراد مزارعهم أن يوقدوا له نيراناً عظيمة، فينهزم منها مندفعاً إلى الماء، وقد دفعه هوميروس هنا إلى النهر كما دفع في التوراة إلى البحر، وكما زفاه في البر بجير بن بجرة بقوله:

كأنهم والخيـل تتبع فلهم جرادٌ زفته الريح يوم ضباب
إذا ما فرغنا من ضراب كتيبة سمونا لأخرى غيرها بضراب

(٥) أي: أبطال رجال، وجياد مركبات.

(٦) قال عنتره:

بحسامٍ كلما جردتهُ يميني كيفما مال قطع

(٧) غرثانة، أي: جائعة للفتك. وهي استعارة مر نظيرها (ن ٨ ون ١٥).

(٨) كان من مألوفهم حفظ كرامة النزول، كما كانت عادة العرب، ولا تزال في البادية، فمن ذاق زادك فقد وجبت عليك رعايته وامتنع عليك الغدر به وأصبح متذمماً بك وجاراً لك. قال قائد بن سليم الأسدي:

فنعشت قومك والذين تدمموا بك غير مختشع ولا متضائل

ومثله قول حسان بن نشبة:

أبو أن ييحووا جارهم لعدوهم وقد ثار نقع الموت حتى تكوثرأ

قال ابن الأعرابي: «والعرب تحلف بالملح والماء تعظيماً لهما، ويقال بين الرجلين: ملح وملحة، أي: حرمة وذمام. ويقال: مالحت فلاناً، أي: آكلته، وهي الممالحة».

(٩) في كلام أخيل من الحماسة وحققر الموت ما يدل على ما وعى صدره من الهمة الشماء والنفس الأباء، يقول: إنه لا بد أن يفاجئه الموت فلا يبالي به أيان أتاه، ثم يختتم بقوله: إنه لا بد أن يجند له بطل من الأبطال بنصل يطير أو بسهم طرير إشارة إلى أنه لا يجسر أحد أن

يقابله وجهًا لوجه، بل جل ما تبلغ الفرسان من قتاله أن تحذف بالنصال عليه عن بعد خوفًا من بطشه.

(١٠) كانوا في بعض الأحوال يطرحون في الأنهر جياذًا حيةً، وهي عبادةٌ ظلت شائعة في كثير من بلادهم، حتى زمن الرومان من بعد، وكما كان المصريون من قبل يلقون في النيل بأنواع الضحايا من الإنسان والحيوان إلى أن أبطلها المسلمون في خلافة عمر بن الخطاب؛ إذ أنفذ عمرو بن العاص علم بن سارية الخمس إلى المدينة، فلما قضى مهمته قال: «يا أمير المؤمنين إن عمروًا يسلم عليك، ويقول لك: إن القبط كانوا استنؤوا سنة في نيلهم كل سنة، وذلك أنهم كانوا إذا أبطأ عليهم الوفاء في النيل يأخذون جارية من أحسن الجوار، ويزينونها بأحسن زينة، ويرمونها في البحر، فيأتي الماء ويوفي النيل، وقد قرب ميقات ذلك، ولا يفعل عمرو شيئًا إلا بإذنك. فكتب عمر بن الخطاب: بسم الله الرحمن الرحيم، من عبد الله عمر بن الخطاب أمير المؤمنين، إلى نيل مصر، أما بعد فإن كنت مخلوقًا لا تملك ضرًا ولا نفعًا، وأنت تجري من قبل نفسك وبأمرك فانقطع، ولا حاجة لنا بك، وإن كنت تجري بحول الله وقوته فاجر كما كنت والسلام. وأمره أن يدفع الكتاب إلى عمرو بن العاص يرميه فيه وقت الحاجة ... وتوقف النيل عن الوفاء، وقد أيس الناس من الوفاء في تلك السنة فمضى عمرو إلى النيل وخاطبه ورمى فيه

كتاب عمر بن الخطاب رضي الله عنه، فلما رماه فيه هاج البحر وزاد إلى فوق الحد ببركة عمر رضي الله عنه» (واقدي).

(١١) زف: أسرع.

(١٢) أكسيس نهر في مكدونيا كانوا يعدونه يدعى الآن وسترتزا.

(١٣) أخلويس: إله نهر كانوا يعتقدون بقوته وجبروته.

(١٤) النينان: الحيتان والأسماك.

(١٥) براح: علم للشمس.

(١٦) جحاف جراف، أي: سيل جارف أخاذ يذهب بكل شيء. يقول: إن النهر طغا وتدافع وتدفق سيلاً جارفاً، واكتنف أخيل حتى طاف على ترسه، إن في الأصل اليوناني لهذه الأبيات من حكاية الصوت ما يدهش له السامع، ولعل في التعريب شبهاً أو أثراً من تلك المشاكلة.

(١٧) إن في هذا الدعاء مرآة ينعكس عنها ما تكنه صدور الأبطال من الزماع، وطول الباع، وهو يشبه دعاء إياس (ن ١٧) إذ أريد الجو وتكاثفت فيه الظلمات، وضاق الإغريق ذرعاً فقال مخاطباً زفس: من جوك امحق حندس الديجور ثم امحهم إن شئت وسط النور

تلك أمنيهِ إياس، وأخيل تمنى هنا لو رماه أفلون بسهم فأهلكه أو طعنه هكطور، فجندله ذلك خير له من أن يموت غريقاً لا يقوى على صراع ولا دفاع.

(١٨) الغرين: الطين.

(١٩) قال جرير:

وما زالت القتلى تمجُّ دماءها بدجلة حتى ماء دجلة اشكلُ

(٢٠) نريد بالأعيرج هيفست إله النار، وهو لقبٌ له كما مر

(ن ١٨).

(٢١) الفديد: الصياح.

(٢٢) إن في قتال أخيل وزنش على غرابته شيئاً من الحقيقة

صاغها الشاعر.

(٢٣) لقد يعجب المطالع لطرب زفس وارتياحه لفتنة الآلهة،

ويتشوف لمعرفة سبب ذلك الارتياح — قال افستانيوس: إن زفس وهو

سيد المخلوقات ورب الطبيعة وما حوت من أرض وسماء وماء وهواء

يرتاح إلى نزاع الآلهة؛ لأن توازن الاتفاق لا يحصل إلا بهذا الشقاق

فالأرض في نزاع مع الماء والهواء مع الأرض والماء مع كليهما،

والخلاف لا بد منه أبداً بين الحر والبرد والرطوبة والجفاف، فيحصل من

هذا التنازع تعادل في قوى الطبيعة والنتيجة خصب الأرض وارتداء

السهول ولجبال بثوب الجمال والاعتدال.

(٢٤) ذباب الكلاب (Κυνάρια): لفظة تحقير كما لا

يخفى، وقد تحاشى أكثر نقلة هوميروس ذكر ألفاظ كهذه، كما أسلفنا

غير مرة، إما لعجز في لغاتهم، وإما لوقوعها موقعاً خشناً في الشعر، على
أني رأيت أن لا أشوه الأصل بمثل هذا الخروج عن جادة الاستخراج.

(٢٥) يشير إلى حادثته مع ذيوميد في النشيد الخامس؛ إذ طعنه
ذيوميد بإغراء أثينا.

(٢٦) أي: إن جسمه امتد على مسافة سبعة أفدنة، وهذا التعبير
على ما فيه من الغلو ليس على شيء من الغرابة بإزاء ما في خرافات
كتابنا من وصف ملائكتنا بل وبشرنا أيضاً؛ كالعمالقة وعوج بن عناق
الذي كان يتناول السمك من البحر ويشويه في الشمس.

(٢٧) الصلّى: النار، وأم آرس هيرا: وهو كان منحازاً إلى فئة
أعدائها فكان نكبته كانت عقاباً له على مخالفتها.

(٢٨) الزهرة: هي عفريت.

(٢٩) أي: إن أثينا لطمت براحتها صدر الزهرة.

(٣٠) تريد أن تقول: إن آرس والزهرة ضعيفا العزم واهيا العزيمة.

(٣١) أي: إلى فيبوس فوسيد.

(٣٢) أي: إن الفتى الحدث أولى بالشروع في القتال لنزقه
وحدته، فلا يتأني ويتروى — فيبوس لقب أفلون إلاه النور، وله مزايا
شتى ذكر هوميروس شيئاً منها كقوله: «رب السهام» و«مطرب الآلهة».

كانوا يمثلونه دائماً بصورة فتى جميل الطلعة، ذي شعر طويل مرسل،
وبيده قوسٌ وسهامٌ أو قيثارٌ كما ترى في الرسم.

(٣٣) الساع: الساعات، وقد مر ذكرها مؤلهة (ن ٥).

(٣٤) في أساطيرهم أن زفس غضب يوماً على أفلون وفوسيد،
فطردهما من السماء وأنفذهما خدمة لوميدون أبي فريام ملك طروادة بعد
أن نزع منهما سلطان الأرباب، فبنيا له حصونها وأقاما له سدودها، أي:
إن زفس سخر للوميدون الشمس والبحر فأعاناه بصفاء الجو وسكون
البحر على إتمام العمل، وقد مرّ ذكر هذه الخرافة في النشيد الخامس.

(٣٥) بسق: ارتفع، مر تشبيهه الناس بورق الشجر في النشيد
السادس ص ٤٤٧، ولكنه أشار هناك إلى التلاشي والتجدد معاً؛ إذ
قال: و

كلُّ على إثر كلٍّ مشى فجيلٌ تلاشى وجيلٌ نشأ



فيبوس (أفلون).

وأما هنا فأكثر مرماه إلى الاضمحلال كقول يزيد بن الحكم:
ما عذر من هو للمنو ن وريها غرض رجيم
ويرى القرون أمامه همدوا كما همد الهشيم

ويجرب الدنيا فلا بؤس يدوم ولا نعيم

ومثله قول عدي بن زيد:

ثم أضحوا كأنهم ورقٌ جفَّ فالوت به الصبا والدبور

وقول ربيعة بن مقروم:

وأضحت بتيماء أجسادهم يشبهها من رآها الهشما

ويجري مجراه قول لييد:

وما المرء إلا كالشهاب وضوؤه يحور رمادًا بعد إذ هو ساطع

(٣٦) أخت أفلون أرطيميس، ولقبت بقنيص الضواري، أي: صيادتها؛ لأنها كانت إلهة الصيد.

(٣٧) القوس الطحور: البعيدة المرمى. وقوله: الصدر، أي: صدور الجيش.

(٣٨) لقبت أرطيميس (وهي ديانة الرومان على ما علمت) بلبوة النساء؛ لأنهم كانوا ينسبون إليها كل موت فجائي يصيب النساء، كما ينسبون إلى أفلون موت الرجال، وهي فضلاً عن ذلك ممثلة القمر ورقبية المواليد لعلاقة القمر بالحمل والولادة.

(٣٩) قالوا: إن هرمس (عطارد) لا يقاتل لاطونة؛ لأنه كوكب، وهي إلهة الظلام، وليس للكواكب أن تقاتل ظلام الليل؛ لأنه لولا الليل لما سطع للكواكب نور.

(٤٠) الفارج: القوس.

(٤١) كأني بهوميروس يشير بهذين البيتين إلى ما روي له أثناء إقامته في مصر عن سدوم وعمورة على ما جاء في التوراة، أو اتصلت إليه رواية هلاك عاد، قالوا: إنه لما رأى قوم عاد أنه لا غالب لهم من الناس تجبروا واحتقروهم، فبعث الله إليهم هودًا فأبوا أن يكفوا عن الظلم وكذبوا وتمادوا فأمسك الله عنهم المطر ثلاث سنين حتى هلكت مواشيهم وأصابهم الضر الشديد، ثم أهلكهم بنار كنار هوميروس انبعثت في الجو من غمامة سوداء، وكان أول من نظر ما في تلك السحابة امرأة منهم يقال لها: مهد، فصفقت بيديها ونادت بأعلى صوتها ويلكم عليكم بهود، فقد أتاكم العذاب وأنشدت:

إنني أرى وسط السحاب نارا	تنثر من ضرامها الشرارا
يسوقها قوم على خيول	تهتف بالأصوات والصهيل
وهي عذاب يال عاد فاعلموا	فوحدا الله لكى ما تسلموا
ثم استجبروا بالنبي هود	نبي رب واحد معبود
فقد أتاكم عن قريب داهيه	فليس تبقي منكم من باقيه

فلما أراد الله إهلاكهم أمر خازن الريح العقيم أن يخرج منها مقدار ثقب الخاتم، فسخرها الله عليهم سبع ليالٍ وثمانية أيام متتابة،

فلم تدع من عاد أحدًا إلا أهلكته، وقد فصلنا هذه الرواية في دائرة المعارف (مجلد ١١: ٤٢٨).

(٤٢) الرتاج: الباب، والزلاج: القفل.

(٤٣) الصدى: العطش، والنقع: الغبار.

(٤٤) من خرافات الميثولوجيين أنه لما ولد أخيل، أمسكته والدته برجله وغمسته بنهر الستكس، فبات السلاح لا يعمل في شيء من جسده إلا في عقبه؛ حيث حالت يد ولدته دون الماء — تلك خرافة قال المحققون: إنها لم تكن معروفة في زمن هوميروس، وإلا لما كان به حاجة إلى ذلك السلاح، وتلك الصفاح، ولما أثر له فضل مغوار الأبطال في حومة القتال.

(٤٥) المراد بقوم الفناء البشر، أي: إنه لا يستحيل قتله وهو إنسان.

(٤٦) قال الحطيئة وأجاد:

أولئك آباء الغريب وغانة الـ صريخ ومأوى المرسلين الدرادق
أحلوا حياض الموت فوق جباههم مكان النواصي من وجوه السوابق

(٤٧) أي: طاولة ولم يكن يبعد عنه كثيرًا.

(٤٨) مناسر الجيش طلائمه.

(٤٩) لو روى هذه الرواية مؤرخٌ لقال: فرَّ أغينور من وجه أخيل
فاختفى في غابة، وشغل أخيل تعقبه عن صد الجيش فاتسع المجال
للطرواد، فلجأوا منهزمين إلى معاقلهم، ولكن قول الشاعر غير قول
المؤرخ.

النشيد الثاني والعشرون

مقتل هكطور

مُجْمَلُهُ

لم يبق من الطرواد خارج الأسوار إلا هكطور، فانقض أخيل عليه
فشهد فريام ذلك واستحلف ابنه أن يتقي الخطر ويدخل السور فلم يصغ
هكطور إلى كلام أبيه، فأخذت أمه هيقاب تتوسل إليه وتندره بالخطر
المحذق به فلبث مكانه لا يتزعزع تتقاذفه الأفكار، وإذا بأخيل كاد
يدركه فانهزم مرتاعاً، فجرى أخيل في أثره حتى دار ثلاثاً حول إليون،
فرق زفس لهكطور ومال إلى إنقاذه فعارضته أثينا وأبت إلا إنفاذ القدر
المحتوم، فأذعن زفس لها فاندفعت أثينا من السماء وحاول أفلون أن
ينقذ هكطور، فأخذ زفس فسطاسه فوزن قدر الفريقين، فإذا بأجل
هكطور قد حل فتخلى عنه أفلون، وتمثلت أثينا بصورة ذيغوب أخي
هكطور فحسنت له التربص لملاقاة أخيل، ولما التقى البطلان رام
هكطور أن يتواثق وأخيل، على أن القاتل منهما لا يدنس جثة القتيل،
فأبى أخيل موافقته على شيء فتبارزا فأطلق هكطور رمحه فلم ينل من
خصمه إرباً، فالتفت إلى أخيه وإذا به قد توارى فعرف الخدعة واستبسل
وقاتل حتى خر صريعاً، وقبل أن تفيض روحه سأل أخيل أن يعيد جثته
إلى أهله، فشتمه أخيل فتنبأ له هكطور ساعة الموت بالحمام القريب،
فاجتمع الإغريق حول الجثة ومثلوا بها، ثم ربطها أخيل إلى مركبته ودار

بها حول البلد والطرود ينظرون ويتوجعون والنساء يندبن وينتحن،
 وكانت أندروماخ امرأة هكطور غافلة لا تعلم بما جرى فسمعت عويل
 حمايتها فصعدت إلى البرج تستطلع الخبر فرأت الجثة، فأغمي عليها
 ورثت زوجها رثاء تنفطر له الأكباد:
 وكل نساء إليون ذرفن لنوحها العبرا

لم تنته حتى الآن حوادث اليوم الثلاثين.

النشيد الثاني والعشرون ١

قضيض الجيش مذ ذعرا	هزيمًا كالظبا نفرا
إلى إليون حيث هنا	ك خلف حصاره انحصرا
يجفف في ظلال قلا	عه عرفًا به سبحت
كتائبه ويروي غلة	فيها قد استعرا
وراءهم الأخاءة والـ	جواشن في عواتقهم ٢
جروا لكن هكطورًا	تربص يرقب القدرا
لدى أبواب إسكيا	قضاء الشؤم ثبطه
وبابن أياك آفلون	أحدق يصدق الخبرا: ٣

...

«علام وأنت من بشر	جريت تجد في أثري
أتجهل أننى ربُّ	فثرت بلاهب الشرر

تركنت هناك طروداً
وجئت هنا فالألا أن
فلسنت بمائتٍ أبداً»
«أزجّاح السهام وشرّ
أرى أنأيتني عن سو
فتى عضّ الحضيض قبيـ

تفرُّ إلى معاقلهـا
تفوز تعست بالظفر
فقال آخيل متقدّاً:
آل الخلد والكبر
رهم مكرّاً وإلا كم
ل ما بحصاره استترا



بغدرك للحمى دخلوا
ولم تخش العقاب فآه
ونحو السور راح بكـ
مجلّ بالعجال طوى
وكان الشيخ فريامّ
فلاح له بكرّته
ككوكبة الخريف إذا
تخال الزهر لا نورّ

ومجدي شابه الخل
لو بك كان لي قبل
—ره يسعى كلهميم
المجال وفاته الملل
على الأبراج يرقبه
عليه تسطع الحل
بديجور الدجى ظهرت
حواليها لها ظهرا



(دعوها الكلب جبّاراً
تؤج وإنما يصلى الـ

لما عن شؤمها دارا
—ورى من حرّها ناراً)

فَأَنَّ الشَّيْخَ مَلْطَمًا
وَهَكَطُورَ الْحَيِّبِ دَعَا
وَلَكِنْ ظَلَّ هَكَطُورُ
لِحَرْبِ آخِيلِ مَضْطَرَمًا
فَمَدَّ أَبْوَهُ كَفِيهِهِ
حَبِييَ لَا تَقُمْ فَذَا

وَمَدَّ يَدِي ضَرَاعَتَهُ
وَوَجَدَا قَلْبَهُ فَارَا
لَدَى الْأَبْوَابِ مُحْتَدَمًا
لِيَدْرَأَ بِاللِّقَا الْعَارَا
إِلَيْهِ وَصَاحَ مَكْتَبًّا:
«لَاخِيلُ فَتَنِدْحَرَا»



نَعَمْ هُوَ فَائِقُ عَزْمَا
نَعَمْ وَيَلَاهُ مَا أَعْتَا
فَلَوْ آلَ الْعَلَى وَدَو
كَالَابِ الْبَرِّ وَالْعَقْبَا
وَفَارِقُ مَهْجَتِي ضَيْمٌ
أَقَاصِي الْبَحْرِ وَاهْفِي
وَأَيُّنَ الْآنَ لِيَقْبَاوُو
فَلَوْلُ الْجَيْشِ لَكْنِي

فِيؤْتِيكَ الرَّدَى رَغْمَا
هَ فِي سَفْكَ الدِّمَا ظَلْمَا
هَ وَدِي خَلَّتْ جَشْتُهُ ٧
نَ تَنْهَشُ لِحْمَهَا حَتْمَا
يَبْرَحُ بِي لَوْلَدٍ فِي
عَبِيدًا بَاعَ أَوْ أَصَمِي
نَ أَيُّنَ فَلْيَنْذِرْ فَنَهَا
لِلذِينَكَ لَا أَرَى أَثَرَا



أَفِي جَيْشِ الْعِدَاةِ هَمَا
نَحَاسًا أَوْ نَضَارًا فِي

لَنْجَزَلُ فِي فِدَائِهَا
خَزَائِنَ مَنْزَلِي رَكْمَا

فإن الشيخ ألتيسا
لووثا عين أزواجي
أم انحدرًا بموتهم
وثم البث والحسرا
ولكن للعزاء ترى
إذا لم يقض آخيل

...

فلذ للسور لذ عجا
وذذ عن جنود طرواد
ولا تتعرضن إلى الـ
فتلبسه حلى المجد الـ
ورق لوالد هـم
بيد بعيد أن يدها
إبادة ولده طرًا
ونهب منازل فيها

...

وكنات بذلتها
وأطفال بكف الظلـ

حبا من قبل ابنته
جزيل كنوزه كرمها
إلى ظلمات آذيس
ت تدهمني وأمهمها
سبيلاً كل أسرتنا
بموتك ها هنا الوطرا

حبيبي واتق الفشلا
ونسوة جندها النبلا
حمام بوجه آخيل
أثيل ويبلغ الأملا
نصوح زفس قدّر أن
ه كل بلا وأي بلا
وذل بناتنه أسـرًا
العدو يعيث منتشرا

تجر على مرارتها
م ترمي من أسرتها

هناك أبوك تهلكه
بِتَّار الأعادي أو
فأطرح دون أعتابي
غذوت بظل أبوابي
دمي تمتصُ ناهشةً
وثمَّ تمام ملاءى دو



لئن مات الفتى الجلد
صريعًا ظل لكن جـ
ولكن حيث شيخ العجـ
كلاب دسن شبيته
فتلك النكبة الدهما
بمرء البؤس ما اشتدَّت
وظل ينوح مصطلماً
وهكطور يصد كأنـ



هنالك أمه اندفعت
لديه صدرها كشفت

الحتوف وسوف تدركه
بسهم من كنانتها
تمزقني كلابٌ قد
حماةً لي بجملتها
فتروي حرَّ غلتها
ن لحمٍ بينها انتشرا

وفيه أنفذ الحدَّ
ل فيه الحسن والمجد
ز حرمة قد انتهكت
وناصع لحية تبـدو
ء لا رزء يشـاكلها
بـه أرزأؤه الأد» ٩
بكفِّي عجزه شعراً
ه بأبيه ما شعرا

بهاطل عبـرة همعت
وثديها له رفعت

وصاحت: «آه هكطوور»
وهذا الصدر فارغ فكم
وهذا الثدي فاذا ذكر كم
تعال تعال فالأسوا
إليها لذ وقاتل ذ
ولا تتربصن لله



فإن دمك السخين سفك
تنوح أنا وعرسك حو
ولكن تغتدي عند الـ
طعامًا للكلاب بذلـ
كذلك كلاهما انتحبا
وظل بوجه ذاك القر
كأفعى الشم حول الوكـ
ترى ملتفة حنقًا



وتلبث في انتظار فتى
كما هكطور في وجه الـ

بنّي ارفق بوالدة
بعهد صباك قبل رعت
رضعت فنحت مبتهجًا
ر في وجه العدى امتعت
لك العاتي بسترتها
وحيلاً واتق الخطرا

فلا نعش يهياً لك
له والحتف قد صدعك
سفائن نائياً عنا
ة فيها الشقي هلك» ١٠
ولكن صم هكطوور
م لا يخشى عنا ودرك
ر نقع السم في فمها
وتقدح عينها شررا

عليها بالسلاح أتى
عدو بأرضه ثبنا

فأتكا جوبه للسو
«لئن ألح الحصار ففو
يعنفني على منعي الـ
وسيف آخيل لاح لنا
فلم أفقه نصيحته
مرام النفس فامحقت



وربّ معارضٍ جحد
يقول: «عتو هكطور الـ
فكلّاً لن أعود إذن
وإمّا مصرعي بالعز
وما ظني إذا ألقى الـ
وأتكى عاملي للسو
وأطمعه برّد هلانـ
وما فاريِس قبل أتى



فتلك العلة الكبرى
وممّا في خزائننا

ر يخط في هواجسه:
لداماسّاً أراه عتاً ١١
طراود عن معاقلهم
بذاك الليل متصّلنا
وإن حسنت وسرت على
سرايا الجيش وانكسرا

أمام الغيد والعمد ١٢
مكابر علة الشدد
فإمّا قتل آخيل
في ذودي عن البلد ١٣...
تريكة والمجنّ هنا
ر منبعثاً بلا عدد
ةٍ وجميع ما ذخرت
به في الفلك وأدخرا

ليخل بها بنو أترا
نبيح لهم كذا شطرا

وكبار الشيوخ يمي—
بأنهم عليها جم—
شططت فتلك أضغات
فعذري لن يروق لعي—
فيبطش بي بغير ترد
إذا عريت من عدد

•••

فما هذا المجال هنا
فأبذل في الخطاب له
كما شاق الحديث فتى
لدى ملولة أو صخ—
فليس لنا سوى قرع الـ
فيظفر من أبو الأولم—
كذلك ثار هاجسه
كرب الحرب هياج الـ

•••

بريق الدرع قد سطعا
تألق أو كنور الشمـ

من صدق يغلظون لهم
لله ما أسبلوا سترأ ١٤
بها قلبي يحدثني
لنه إن ألتمس عذرا
د فأبيد كـامراً
تصد الخطب حيث عرا

مجالاً للحديث لنا
عميق السر والعلنا
وغانيةً بلا حرج
رة في ظلها أمنا
نصال أجل بلا مهل
ب زفس دماءه حقنا» ١٥
وآخيل بعامله
ترائك للوغى ابتدرا

عليه كـارق لمعا
س في كبـد السما طعلا

وهكطور لرؤيته
ففرّ وخلفه آخيه
كبار يطلب الورقا
وما جرى بزاة الشم
تعقبها بصرصرة
فراغت وهو منقضّ

•••

كذا الأبواب هكطور
تطير به خطاه وهـ
فجازا مرقب الأرضا
على جدد العجال حيا
إلى أن بلغا الحوضيـ
بينوعين من زنيث
فينبوع سخين والـ
وينبوع بماء كالـ

•••

هناك مغاسل الصخر
لها قد كانت الغادا

تقطع وصل عزمته
ل طيار الخطى اندفعا ١٦
ء وهي تزف هالعة
طير في الفلا ارتفعا
تذيب لباب مهجتها
بنافذ مخلب شـهرا

تجاوز وهو مذعور
و دون آخيل مدحور
د حتى التينة العظمى
ل خط فوقه السور ١٧
من حيث الماء منبجس
تؤم رباهما الحور
ببخار عليه منتشر
جليل تخاله انفجرا ١٨

لغسل ملابس غر
ت من قبل الوغى تجري

تعداها كـلا البطليـــــــــــــــــ
شجاعٌ فرٌّ ممن كاـــــــــــــــــ
وما انبريا بميدان الـــــــــــــــــ
لذبحٍ يحرز العداـــــــــــــــــ
ولكن السباق هناـــــــــــــــــ
ثلاثًا حول إليـــــــــــــــــون



كسباق القياديـــــــــــــــــد
إلى غرضٍ على أمدٍـــــــــــــــــ
وجائزة المجليـــــــــــــــــ تلـــــــــــــــــ
وإما غادةٌ مسبيـــــــــــــــــة
وآل الخلد قاطبـــــــــــــــــة
فصاح أبو سراة الخلـــــــــــــــــ
«أرى بشرًا أحب تعقـــــــــــــــــ
لهكطور الفتى الورع الـــــــــــــــــ



فكم في إبذةٍ قدماـــــــــــــــــ
بخير الثور لي ضجـــــــــــــــــي

من ذا عادٍ وذا تـــــــــــــــــالٍ
ن أشجع منه بالكر ١٩ـــــــــــــــــ
ـرهان لجلد ثور أوـــــــــــــــــ
ء يوم الفوز بالنصر ٢٠ـــــــــــــــــ
على أنفاس هكطـــــــــــــــــور
إزاء حصاها عـــــــــــــــــرا

تغير بمأتم الصيد ٢١ـــــــــــــــــ
يقام لهنٍّ محددـــــــــــــــــ
لك إما خبر منضـــــــــــــــــدة
من صفوة الغيـــــــــــــــــد
من الأولمب راقبـــــــــــــــــة
سد والناس المناكيدـــــــــــــــــ
ـبوه حول إليـــــــــــــــــون
ـفؤاد أراه منفطـــــــــــــــــرا

وفي أبراجها الشمـــــــــــــــــا
يسيل اللحم والشمـــــــــــــــــا

وهناكم خلفه آخيه
عليه فاحكموا فيما
أنرجعه سـليماً أم
فأثينا انبرت تحتج:
أتنقذ من زؤام المو
فإن تفعل فما في الخلـ



فقال لها أو السُّحب:
فما شئت ابتغي عـجلاً
فثارت فوق ثورتها
وهكـطـورّ وراه آخيه
كأغضف رام ريمًا في الـ
لديه ضاربًا في الطو
فلا أزياف تحميه
وحيث جرى ففي أعقا

ل منقـضًا بخفته
عسى أن نصدر الحكمـا
بأس آخيل نهلكه»
«ذاك إذن غدا ظلمـا
ت من حتم القضاء له
سد ربّ خلته شكرًا»



كذا هكـطـور ما وجدـا
فآخيل على آثـا

«بغـيـظك لأقضي أربي
وسيري وا أمني غـضـبي»
وطارت عن منصّتها
ل ظل يجد في الطلب
كناس فهب منبعثًا ٢٢
د بين مشاعب الهـضـب
ولا أيـك يواريه
به داعي المنون جرى

سـبـيـلا للنـجـاة بـدا
ره مـسـتـظـهـر أبـدا

فكم من مرة أبوا
بغى لتهال أسهمها
وكم من مرة آخى
هزيمًا فوق ذاك السهـ
كما لو في الكرى طيف
وإما رمتـه فصّر

•••

فلا هذا نجا هربا
وإنّ بعدو هكطور
ولا بدع فآفلو
وخفته لكى لا يلد
وآخيل بعزته إلى
قفوا كى لا بهكطور
لئلا يحرز الشرف الـ
سواه فلا ينال فحـا

•••

واذ بلغا متابعه
موازن النصار أبو الـ

ب إليون ومقلها
بوجه عدوه بردا ٢٣
ل قام بوجهه فعدا
ل عن إليون مبتعدا
بغاك فم تطق هربا
ت عنه كيفما صدرا ٢٤

ولا ذا مدرك أربا
بذيك المدى عجا
ن أفرغ فيه قدرته
توي بفراره تعبـا ٢٥
الأجنـاد أوما أن
يرى نصل لهم نشبا
ررفيع بقتله علنا
ر ذاك اليوم والظفر ٢٦

إلى العينين رابعة
عباد أقام ساطعة

بها قدحي ردّي ألقى
ولاحت كَفّه في وسـ
فهكطورٌ أميلت للـ
وفيس صدّ عنه وبا
أت آخيل قالت: «يا
بأن نجو الخميس بنصـ

...

فهكطورًا بشدّته
فيهلك دون أسطول
ولن يجد المناص ولو
على قدمي حفيظ الجو
هنا قف واسترح حتّى
بحربك فانشئ أخـ
وقام إلى القناة هنا
أتت هكطور في زيّ

...

وصاحت: «يا أخيّ كفى
سامك بالهزيمة والـ

لذا سـهمّ وذا سـهمّ
طها في الحال رافعة
جحيم هناك كَفّته
درت فالاس هارعة٢٧
حليف المجد حان لنا
رة ما مثلها انتصرا

نميت بوجه أسـرته
الأخاءة في مذلتـه
أفلّون ارتمى وجلاً
ب مزدلّقنا لنجدتـه٢٨
أوافيه وأغريـه
ل مبتهجّـا بجملتـه
ك مسـتنداً وآثينا
به ذيفوب قد شهر٢٩

أرى آخيل زاد جفـا
فرار أمامـه الضـعفا

فقف تتربصن له
فسكن روع هكطور
قدرتك فوق سائر ولـ
فأنت شقيق هكطور الـ
وكيف وقد شهدت الخطـ
معاقلهم قد انحصروا

...

فقال: «يا أخَيَّ أبي
وكل الصحب حولهما
يروعهم روزي خا
سكوني في معاقلهم
أبت نفسي البقاء وأنـ
فأقبل نشحذنَّ له
إخال دمائه هدرت
مضى في جثينا ظا

...

وراحت تحت سترتها
تسير أمامه فخطا

فيرجع خاسنًا عنّا
وقال لها وقد وقفنا:
ـد فريامٍ وإيقابٍ
ـشفيقٍ ومن به كلفا
ـب والطرواد طرًّا في
أتيت إليَّ منحدرًا»

وأمي قبلاً ركبني
بقلب هـد مكتئب
رج الأسوار فالتمسوا
بدمعٍ سحٍّ منسكب
ـت منفردٌ لآخيل
صقيل النصل والقضب
برمحك أو لأسـرته
فرًّا ودماءنا هـدرا

لنعمل كل خـدعتها
يجدُّ وراء خطوتها

وحين تقابل البطلا
آخيل هاك نفسي الآ
أبت من بعد أن تنصا
ثلاثاً حول إليون
وإن الآن حد الفصا
ونعقد عقد ميثاق

...

ونستشهد بني الخلد
فهم خير الشهود على
لئن أوتيت نصراً من
تموت وأن تجرد من
ولكنني أزدك للـ
أذى عدني إذا في مثـ
فأحقد فيه شزراً يلـ
ولا تذكر وفاقاً لا

...

أبين الناس والأسد
وهل خلت العهـ

ن صاح يقول هكطور:
«ن جاشت في حميتها
ع هالعةً كما نفرت
أمامك في هزيمتها
ل لكن فلنقم علناً
ونقسم ها هنا جهرا

على الأيمان والعهد
الورى في القرب والبعد
لدى زفس فحسبي أن
زهى سلاحك الصلد
أخاءة لا هوان ولا
ل هذا صادق الوعد»
تظي آخيل قال: «صه
وفاق بينا ذكرا

وفاق محكم العقد
بين الذئب والنقد ٣٠

فكلُّ قلبه بضغاً
كقلبٍ بيننا في غلـ
ولا عهد لنا إلا
فيجرع آرس دم من
فأبرز بالبراز لنا
وقوم رمحك العالي



أثينا الآن تبتدر
لهم قد أبدت وأنـ
وأطلق رمحه فمضى
فجاوز رأسه للأر
ولكن بادرت فالأ
وترجعته لآخيل
فصاح فتى الطراود: «قد
بعلم من لدى زفسٍ



ألفت المين والكذبا
فلسـت بطاعنٍ ظهري

ئن الأحقاد مُتقد
ة الأضغان متقد
نصال الصم نعملها
ثوى في هاته الجدد
قواك ولا مناص هنا
وأعمل سيفك الذكرا ٣١

برمحي منك تنثر
ت بالهيجاء تستعر» ٣٢
وهكطور انحنى حذراً
ض لا ينتابه ضـرر
س تنزعه على عجلٍ
وعن هكطور تستتر
شططت وتدعي زوراً
بما لي في القضا سطرأ

لشني همّتي رعباً
ولست بمنشٍ هرباً

ودونك للقا صدري
وذا رمحي عسى ألقا
فوا طرب الطراود إن
وبعدم حربهم لا أز
وزج فطار عامله
وعنه ارتد لا يلبس

•••

فهكطور التظى قهرا
فصاح يروم ذيفوب
ولا أثر لذيغوب
جوارحه وأدرك كنس
وصاح يقول: «وا لهفا
علي فخلت ذيفوب
فلم يتعد أسوار الـ
على عيني غشت والـ

•••

فلا نجوى وزفس قضى
وكم قد أولياني قبـ

إذا زفس بذاك قضى
ه في أحشاك منتصبا
تمت فلأنت آفتهم
مة فيها ولا حربا
لقلب مجن آخيل
قى العدو بنصله الضررا

لنصل زاهقا طرا
ويطلب صعدة أخرى ٣٣
يلوح لديه فاضطربت
ه ذاك النكر والمكرا
أرى الأرباب قاضية
إلي مسارعا جهرا
حصار وتلك فالاس
حمام أراه منتظرا

وآفلون ما اعترضا
ل ظل حماية ورضا

ولكن القضاء أتى
مرد وخلته ما حط
أموت بعزة ترى
ومجدٍ باذخ بي فو
وسلَّ حسامه من غم
بقلب لا تغيره الـ

...

كنسرٍ من على السحب
على حملٍ يرى أو أر
وآخيل انبرى متضر
بجنته التي في الكو
وخوذته التي من صنـ
تهيج منيرةً وبهيـ
وصعدته تـؤج كما
تفوق الزهر كوكبة الـ

...

فسرَّح طرف مقلته
ليصر منفذاً فيه

فأهلاً بالقضاء فلا
من هممي ولا خفضاً ٣٤
لأجـال فأجـال
ق أبراج العلى نهضاً ٣٥
ـده بلباقـةٍ ومضى
ـخطوب ولا يرى الغيرا

يزف إلى رُبى كـثب
نـبٍ في مشعب الهضب
مَّا غيظًا بعزمته
ن أضحت آية العجب
ـع هيفست بهامته
ـج فيها قونس الذهب
بليـلٍ حالـكٍ سطعت
ـمساء وتبهج النظر ٣٦

بهكـطـورٍ وشـكـته
يـواري حد صـعدته ٣٧

وهل تمضي النصال بعد
وما هي قط غير سالا
فأبصر بعد حين نحا
فبين الجيد والكتفي
فغاص سناناه في مخ
ولكن في مجاري الصو

•••

فخر وللثرى ضرجا
«أخلت تعست فطرقلًا
أغرك أنني قد كنـ
ولم تعلم لفطرقلٍ
فتى وافاك محتدماً
فبدت ولم تزعزعه
فرح طعم النواهس والـ
بمأتمه لفيف الجيـ

•••

فقال بغصة الحتف:
بحرمة والديك وركـ

ة فطرقل كـر بها
ح آخيل ولأتمته
ـره برزت مفاصله
ـن باده بطعنته
ـرج الأرواح منتصبًا
ت والأنفاس ما صدرا

وصاح آخيل مبتهجا:
بيد هنا ولا حرجا
ت يا هكطور معتزلا
ظهيرا يقحم اللججا
من الأشراع منتقمًا
قواك ولا لها اختلجا
ـصقور وثم فطرقل
ـش سار بحرمةٍ وسرى»

«بروحك مصرعي يكفي
ـبتيك عليك باللطف

وخذ ما شئت من أبوي
فلا تخلو الكلاب بجثـ
وجد لهما بجسمي يد
فتحرق أعظمي وعليّ
فصاح آخيل: «ويلك لا
بقبله ركبتيّ تجا



وددت لو أنني غضبا
لما جرعتني غصصا
فلا غير الكلاب تشق
فداءك عشر أو عشريـ
ولو فريام أدى ثقا

من ذهب ومن صفر
تي في ذلك الجرف
هبان به لصرحهما
يهمر وابل الطرف»
بحرمة والديّ ولا
ب يا ذا الكلب معتذرا

بلحمك أقتل السفبا
وما أورثتني كربا ٣٨
رأسك لو هم بذلوا
من فدية ميت ذهبـ
ل جسمك عسجدا صرفا

تفيض شجّي وتنتجبا»
س: «آه أجل بلوتك ذا
يلين أسّى وينكسرا



يهال عليك غيث محن

فأمك حول نعشك لن
فقال بزاهق الأنفا
جنانٍ كالحديد فلن
ألست الآن تخشى أن

وتنقم لي سراة الخلد

وتنكب يوم فاريس

بقتلك يخمدان صلي احـ

وأسبل فوق مقلته

وأمت روحه سقرًا

وتندب بأسه وشبا

هناك وصاح آخيل

...

«ألا مت صاغراً وأنا

وروحي حين يقضي أمـ

وجر سنانه من نحـ

وجرده السلاح فنا

وأقبلت الأخاء حو

جمالاً زان طلعتـه

يقول: «ألا اعجبوا ما كان

سفائننا فها هو لا

...

وآخيل منذ انتزعا

د منك ولو عقيب زمن

وفيووس ياسـكيا

تدام بالفؤاد كمن» ٣٩

ظلام الموت سـترته

تطير على أسى وشجن

به ومصيره فثوى

بذاك الفوز مفتخرًا:

...

أموت إذا الحمام دنا

ر زفس تفارق البدنا»

ره يلقىـه في طرفـ

ل أبعد بغيةٍ ومنى

ل ذاك القـرم مكـبرةً

كلّ طعنةً طعنا ٤٠

أروعـه وقـد أوري

يروع ولا صلاه يـرى»

...

جميع سـلاحـه هرعا

يصيح بذروة من حيـ
«ألا يا صاحب أقيـ
لكم من زاد هولاً عن
ألا ما رمتم إليـ
لنعلم ما عليه أهـ
أينصاعون منحازيـ
أم ارتأوا البقاء وثـ



علام العزم قد هجسـ
وفطرقل صريع لا
ولا قبر يواريه
فنفسي آه لن تنسـ
سأذكره ولو في منـ
ولو كل سلاكل الـ
بنا يا فتية الإغريـ
بهكطور على نغم الـ



«قتلنا القرم هكطورا

ث سائر جيشه سمعا:
ل فالأرباب قد دفعت
جميع الجيش مجتمعا
ن بالبتار ندهمها
لها والخطب قد صدعا
ن عن أبراج معقلهم
بروا في عزمهم كبرا

بصدري الكر ملتمسـ
يفيض عليه دمع أسى
ولا أحباب تبكيه
ه ما بي رددت نفسـ
تهى أعماق أذيس
أنام هناك إن حيسـ
ق سيروا للسفين إذا
نشيد تفرج الكدرا:

وعاد الجيش منصورا

فأين فتى الطراود من
وبالغ في الهوان فشـ
بسير للعجال وظلّ
وحل بعرشه وسلا
وساق الجرد فاندفعت
وحالك فرع تلك الها
عليها وهي سائلة

•••

كذلك زفس ألقاه
يدنّس حسن طلعتـه
وايقابُ ببرقعها
تقطع شعرها وتصيـ
وفريام لجانبها
وحولهما علا وبكلّ
وضج الجيش منتجبًا
سعر النار ألهبها

•••

وكاد الشيخ ينهزم

كربٍ كان مقدورا» ٤٢
سق كعيه يشدهما
رأس الميت مجرورا ٤٣
ح هكطـور براحتـه
تثير النقع ديجورا
مة الحسناء منتشر
دماها تلطم الحجرا

هناك لهون أعداه
بعثـر أرض منشاه
رمت تبكي مولولـة
صح نائحه لمـرآه
يئنُ بغل حسرتـه
تلك الأرض منعاه
كما لو كل إليون
وكل ربوعها دمرا

من الأبواب رغمهم

فصـدوه وما كـادوا
فخـر على السـماد تـمر
وذـلك مسـتغيثًا ثـم
بحقـكم دعوـني أبـ
إلى فـلك العـدة ولو
لدى ذـيالك العـاتي
أذـل فربـما لهـما

...

فإن له أبـا هـمـا
ويا لـخليفةٍ أهـمت
ومهمـا نـالكم مـن شر
فكم لي فـي الشـباب الغـ
بكيـتهم وأبـكـيهم
جميـعًا لا تـوازي حـز
أيا هـكـطور حـزنك سـو
ألا ما بـين أذـرنا

...

لكـان هـنا العـزا دارا

وفـي أحشـائه ضـرم
غـًا مسـتـحلفًا هـذا
قام يصـيح بـينهم: ٤٤
«رح الأـبراج مـنـفـردًا
بعـادي الآـن سـاءكم
بشـيبي وانـحنا ظهـري
بعـين عـناية نـظـرا

نظـيري يـدرك الهـمـا
علينا الأبـؤس الـدهـما
هـ فـلبـتـي أدهـى
ض أفـنى فـتيـةً بهـما
ولـكن كـل حـسـرتهم
ن هـكـطور فـوا غـما
ف يـنـزل بي إـلى قـبري ٤٥
صـرمت بـموتـك العـمـرا

فأشـبع لـاعـجًا ثـارا

بقلب أبٍ وأمٍّ يـ
وغص بفائض العبرا
ومن حوليه دمع القو
وبين نساء طرود
بُنَيِّ عالم أشقى بالـ
وأنت بني مت وكـ
فخاري وابتهاجي وابـ

...

وكنـت ظهيرنا البرا
تكاد تكون بالإجلا
ودفّاع البلا عن بهـ
فها قد غالك الحـف الـ
وأما أنـذروماخ
بأن القمر هـكـطـوراً
وكانت في أعالي القصـ
تبطنه وتنقش فـو

...

وقد قامت جواريهـا

رفان الدمع مدرارا
ت والحسرات منتحـبا
م بحرا فاض ذخارا
بدت إيقاب نادبة:
«حياة وألتظي نارا
ت في يومي وفي ليلي
تهاج جميع من حضرا

تشيد لقومك الفخرا
ل معبود السرى طرّاً
م طرود ونسوتها
مريع بحكمه قسرا» ٤٦
فما إن جاءها نبأ
وراء حصاره خرّاً
ر تنسج ثوب برفير
قه من وشيها غررا

لدى النيران تذكـها

وتحمي الماء في قدرٍ
فيا لمصابها لم تد
بكف آخيل لا غسلٍ
فقامت ضجةً في البر
فخارت بين بليلة
وكفأها الوشيعة منـ
وصاحت بالحسان وشعـ

•••

«ألا ممنكن ثنتان
لننظر ما جرى فبكى
فقلبي خافقٌ حتى
وثقله ركبتي تكا
أرى خطبًا فظيعًا دا
فلا طرقت نواعي الخطـ
كأنني بابن فيلا
وفي آثاره في السهـ

•••

نعم هكطور آه لا

ليسبح زوجها فيها
ر آثينا به فتكت
لعل لن يوافيها
ج بين بكى وولولة
وأشجان تلظيها
هما سقطت بدهشتها ٤٧
هرن جدائلاً ضفرا:

معي فوراً تسيران
حماتي هاج أشجاني
يكاد يطير فوق فمي ٤٨
د تطرح جسمي العاني
هيا أبناء فريام
ب آه وآه آذاني
ل دون قفول هكطور
ل صال عليه مهتصراً

يذل لمحنة أصلا

ويقتحم المعامع في الـ
ومن ثم انبرت تعدو
جرين وراءها حتى
فسرّحت النواظر في
به خيل ابن فيلا قد
رأت وجفونها انطبقت
وهوت فوق وجه الأَر

•••

ومن فوق الثرى انتشرت
جدائل طرة وضفا
وهذّاب الذوائب والـ
لها من قبل عفروذيـ
وخفت وانبرت من حو
وكلُّ نساء إخوته
على راحتهن رفعـ
وما لبثت أن انتعشت

•••

وصاحت تظفر المهجا:

— صدور ولا يرى ذلاً
بغير هذى ونسوتها
علون المعقل الأعلى
السهول فلاح هكطور
طوت واويله السهلا
وفي أنفاسها شهقت
ض لا جبساً ولا بصرا

حليّ الفرع وانتشرت ٤٩
ئر في وفرة وفرت
شباك وخير مقنعة
ت يوم زفافها ادّخرت ٥٠
لها أخوات هكطور
تجلّ الخطب مذ نظرت
—نها والـنفس زاهقة
وغيث دموعها انهمرا

«أيا هكطور وا وهجا

أطالعك الشقي بطا
ولدنا أنت في طروا
وفي ثيبا أنا في صر
نشأت وليتني ما إن
فيا لـشقا ابنة وشقا
فأنت الآن يا هكطو
وزوجك أيما تبقى



وهذا الطفل في المهد
فلن تجديه نفعاً أنـ
فإن هو من خطوب الحر
يحيق به وكم عاتٍ
تعيث به مطامعه
وما إن لليتيم يرى
فيطرق ذلة وتسيـ
طلاب رفاق والده



يجر رداء ذا خجلا

لعي من يومه امتزجا
د بين قصور فريام
ح إيتين لعيش شجي
نشأت بنعمة لأبي
أب بنشـوئها ابتهجـا
ر منحدرٌ إلى سقرٍ
بصرحك تلتظي سقرا ٥١

نتاج الغم والجهـد
ت وهو النفع لن يجدي
ب ينجوكم بلا وبلا
تجاوز خطاة الحـدّ
فيسـلبه مزارعـه
صديقٌ صادق الود
ل أدمعه ويذهب في
إذا ما ذل وافتقـرا

ويسحب برد ذا وجلا

وإن ما نال منهم نا
ييلُ بمائها شفيتها
وهيهات اللّهاة على
وربّ فتّى فخورٍ في
على الأدبات يلطمه
لُعنت فما هنا لأبيـ
فيرجع أستياناس

•••

بحجر أبٍ وأي أب
على مخّ وشحمٍ من
وإن أجفانه انطبقت
على راحت مرضعه
فاضحى الآن وا ويلا
أيا هكطور إلف عنا
دعوه أستياناس
وبتّ الآن طعم الغضـ

•••

وعرياناً لدى السفن

ل كأسا ما روت نهلا
ه ظمآنّا على ظمأٍ
صداها ترتوي بلا
أبيه وأمه قحه
ويصرخ فيه: «قم عجلا
ك حظ في ولائنا» ٥٢
إليّ ينوح منتهرا

يغذيه على الركب
سمين الضان قبل ربي
نعاساً وارتوى لعباً
ينام بفرشه القشب
ه إذ يتّمته طفلاً
عقيب اللهو والطرب
لذودك عن معاقلهم
ف والديدان محتقرا ٥٣

غدوت بزي ممتهن

وكم من حلةٍ لك في الـ	ـديار تجلُّ عن ثمن
سأطرحها جميعاً لـ	ـلهيب وليس لي أرب
بها من بعد أن حرمت	على ذيَّالك البدن
لتذهب حرمة لك من	لدى الطرود محرقه
لذودك طول عمرك عن	ذمار الأهل والوطن»
كذلك أنـذروماخُ	بلاهب لبها ناحت
وكل نساء إليون	ذرفن لنوحها العراء ٥

هوامش

(١) الأولى: أنه بيت قصيد الإلياذة يتضمن أهم حوادثها فكل ما تقدمه توطئة له وكل ما يليه ذيل. بنيت الرواية على غضب آخيل وكيده، ويتلو ذلك في الخطورة مقتل هكتور، وكلا الأمرين باديان فيه بأجلى بيان.

والثانية: أنه جمع بين السهولة والبلاغة والشدة والرفقة، وأحاط بكل ما يتسنى للمخيلة أن تدركه في جميع الأبواب التي طرقها الشاعر، فبينما تراه يصعد إلى قمم الهام المنتصبة على الهمم السماء، إذا به ينحدر إلى أعمال القلب فيشير العواطف ويهيج البكاء؛ ولهذا قال كثيرون: إنه أجمل الإنشاد.

ولست أرى نشيدًا يصلح مثله أن يكون منظومة مستقلة لا تفتقر في تلاوتها إلى ما قبلها وما بعدها، فأناشد المطالع اللبيب إذا وقع نظره على هذه الحاشية أن يتصفح هذا النشيد دفعة واحدة من أوله إلى آخره، فإذا صدق ظني به وظني أنه بصدق فليقل لله در هوميروس على هذا الاستنباط البديع الغريب، وإلا فليقل سامح الله الناقل فقد قصر في التعريب.

(٢) الجواشن: التروس.

(٣) إياك جد أخيل كثيرًا ما يعرفه الشاعر به.

(٤) اللهميم: الجواد المبرز في الرهان. والمجلي: السابق. وسيأتي وصف سباقهم في النشيد التالي.

(٥) كثيرًا ما يشبه العرب السيد العظيم بين السادة الصغار بنور كبير بين أنوار ضئيلة، كما قال هوميروس في هذا الموضع.

قالت مريم بنت جرير ترثي أخاها:

كنا كأنجم ليل بينها قمرٌ يجلو الدجى فهوى من بينها القمر

وقال جرير في رثاء الوليد بن عبد الملك:

أمسى بنوه وقد جلت مصيبتهم مثل النجوم هوى من بينها القمر

وقال أبو تمام:

كأن بني تمام يوم وفاته نجوم سماء خرّ من بينها البدر

على أن هوميروس يصف هنا آخيل حيًا ويزيد تشبيهه بلاغةً ما
استطرد إليه في البيت التالي بقوله: تَوَجَّ وإنما يصلى الورى من حرها نارا
كأنه أراد أن يقول: إنه وإن شاق منظره وعظمت هيئته ففيه
النكال في الهيجاء والوبال على الأعداء.

(٦) فذًا، أي: منفردًا.

(٧) يقول ودوه ودي تهكمًا، أي: أبغضوه بغضي.

(٨) أحس فريام بالخطر المحدق به، فتكلم كلام المتنبي بما
سيناله وبلاده من البلاء العميم بعد مقتل هكتور، وفوز الإغريق فسرد
الدواهي الدهم التي تنتاب الأمة المغلوبة على بلادها، وقد سبق للشاعر
مثل هذا المعنى في النشيد التاسع؛ إذ قال:
للمباني حرقًا وللقوم ذبحًا والغواني والولد ذلًا وأسرا

ولكن الشاعر زاد هنا في التفصيل فأكثر بلسان فريام من ذكر
المللمات الشداد كبحًا لجماح هكتور.

(٩) مهما قيل في استعطاف أب لابنه لا يمكن أن يقال أبلغ من
خطاب فريام لهكتور، ملكٌ كبير وشيخٌ هرم ذو بسطة وجاه وسلطان،
برحت به الأيام فهذت أركان همته وعزيمته وقوضت دعائم مجده،
وناطت بقية آماله بولد يراه على قاب قوسين أو أدنى من الموت الزؤام،
ومن وراء ذلك دك البلاد والفتك بالعباد فتتوالى عليه الذكرى لما سلف،

ويأخذه الإشفاق من الخطب الفادح القريب فيجمع بقية حواسه وينهض لدراء الخطب، وقلبه يتلظى تلهفًا على ابنه ومحط آماله، ثم على آله وبلاده ونفسه فيشرع في تحذير هكطور من خصمه الباسل، ولا يكذب يذكر اسم ذلك الخصم حتى تتوارد على خاطره سوابق فتكه فيتوجع ويتفجع ويتمنى لو راحت جثته مطعمًا للطير والكلاب، وهو على كل ما ناله من المصائب يرى سبيلًا إلى العزاء إذا نجا هكطور من ذلك المأزق الحرج، ولما كان فريام على يقين أن هكطور لا يرضى عار الاحتجاب ولو انتصب له الموت التمس له عذرًا عظيمًا، بأن في لياذه إلى السور شرقًا أرفع ومجالًا أوسع لإبراز بأسه وقوة ساعده حيث يقيم مقاتلاً، فيذود عن البلاد والجند ويحفظ الأهل والولد، وشرح له بعد ذلك ما يكون من عقبي عناده لو بقي خارج السور، وأتى بكلام يخرق اللب على وصف ما يأول إليه أمر المنازل والمعازل والبنين والبنات والأطفال والكنات، ثم أخذ في رثاء نفسه ووصف مآل أمره لما يعلم من حب هكطور له وبره به، واختتم بتلك المقابلة الفريدة بين هلاك الفتى قتيلاً خالد الأثر رفيع المنار، وهو يذود عن الأوطان، وموت الشيخ ذليلاً مغلول الذراع بأكناف الديار ميتة الضعة والهوان.

(١٠) لئن أتى فريام بأبلغ أقوال الرجال والآباء فقد أتت زوجته بأبلغ أقوال الأمهات والنساء، وكفى بكشف صدرها خطابًا ناطقًا لا تعادله بلاغة في مقال، ثم هي الأم الشفيقة لا تتفجع إلا على ابنها، وما

تتول إليه حالها من بعده، فلا تتخطى بكلامها هذا الحد فناحت نوح النساء، وناح فريام نوح الرجال وحفظة الذمار والملوك الكبار.

(١١) يقول ذلك إشارة إلى الجدال العنيف الذي جرى بينه وبين فوليداماس في النشيد الثامن عشر، حيث أشار عليه فوليداماس باللياذ إلى المعازل فأبى هكطور واستكبر.

(١٢) الجحد: قليل الخير، والمراد بالعمد: الرؤساء.

(١٣) هذه آخر مبارزة في الإلياذة وبها تنتهي وقائعها، والمبارزات في ما سلف وإن كانت تعد بالعشرات فليست بحصر المعنى من باب البراز البحث إلا في ثلاثة مواضع؛ أولها: وأجدرها بالذكر براز مينلاوس وفاريس، في النشيد الثالث؛ إذ كان يترتب عليه حقن الدماء وإخماد الفتنة لو بر الطرواد بميثاقهم، وهو من وجه آخر براز معقول لوقوعه بين زوج سبية وسابيها. والثاني: وإن لم يكن أقلها خطورة فهو أقلها تأثيراً بمجرى الوقائع؛ لأنه من المبارزات التي تقع كل حين بين المتبارزين في الحروب، لا يترتب عليها عقد سلام وغمد حسام، نعني به براز هكطور وإياس في النشيد السابع، والثالث: هو أعظمها براز هكطور وآخيل هذا لوقوعه بين بطلين، كلٌّ منهما عماد جبينه على الإطلاق. وهو وإن لم يكن من لوازمه كف الكفاح ووضع السلاح، فقد كانت فيه الضربة القاضية على فريق من المتحاربين.

وفي كتب العرب من مثل هذه المبارزات أشباه لا تحصى ببعض خلاف. ذكر صاحب الأغاني (٨٠:١٠) برازاً لجميل وتوبة من أجل بثينة نوره لغرابته، قال: «كان توبة قد خرج إلى الشام فمر ببني عذرة، فرأته بثينة فجعلت تنظر إليه فشق ذلك على جميل، وذلك قبل أن يظهر حبه لها فقال له جميل: من أنت؟ فقال له: أنا توبة بن الحمير. قال: هل لك في الصراع؟ قال: ذلك إليك، فشدت عليه بثينة ملحفة مורسة فاتزر بها ثم صارعه فصرعه جميل، ثم قال: هل لك في النضال (رمي السهام)؟ قال: نعم، فناضله فنضله جميل، ثم قال: هل لك في السباق؟ فقال: نعم، فسابقه فسبقه جميل. وقال له توبة يا هذا إنما تفعل هذا بريح هذه الجالسة ولكن اهبط بنا الوادي فلما هبطا صرعه توبة ونضله وسبقه»

وفي وقعة بدر الكبرى جرت مبارزات كثيرة بما يدل على شيوخ تلك العادة في الجاهلية، ثم بقيت في الإسلام، وكان لها فيه شأن عظيم. (١٤) أي: نعطيه علاوة على أموال هيلانة، وما أتى به فاریس يوم سباها نصف ما في خزائننا من أموالنا، ويقسم الشيوخ أنهم لم يخفوا شيئاً منها.

(١٥) تلك مناجاة هكطور لنفسه يتردد تردد الشاعر بقرب الأجل، ثم يؤثر الموت وهو يكافح العدو على النجاة نجوة الهزيمة والعار.

(١٦) قد كنت أود أن لا يشوه جمال هذا النشيد بفرار هكتور من وجه آخيل، ولا أراها إلا هفوة من أستاذنا هوميروس مهما أمكن أن يقال في الدفاع عنه، وسبحان المعصوم؛ لأن بطلاً كهكتور يتحرق نهاره وليله لقتال آخيل، ثم ينجي نفسه تلك المناجاة، ويعول على ورود كأس الحمام مؤثراً ذلك على الهزيمة، ويتقدم لبراز خصمه، ثم ما هو أن رآه حتى فر منهزماً، لا يجدر به أن يكون بمقام هكتور، ولقد التمس الشراح لهوميروس أعذاراً كثيرة منها قولهم: إنه لو لم يكن محل لهذا الفرار لما تحداه فرجيليوس، وجعل طورنوس يفر من وجه أنياس، ومع كل ذلك فما قرأت قط هذه الفقرة إلا وددت أن لا تكون.

(١٧) جدد العجال: طريق المركبات، ومرب الأرصاء الموضع المشرف الذي كانوا يرقبون منه العدو.

(١٨) يظهر جلياً من كلام هوميروس أنه كان يجري إلى نهر زنش ينبوع ماء حار، وليس كذلك الآن ولعل هذا ينبوع كان موجوداً في أيامه، فغار في الأرض بعد ذلك.

(١٩)

هزبر مشى يبغي هزبراً ومغلباً من القوم يغشى باسل القوم أغلباً

(البحثري)

(٢٠) أي: لذبيحة يضحي بها.

(٢١) القياديد: الطوال من الحيوان، والمراد هنا الخيل. والصيد الزعماء — كان من عادتهم أن يتراهنوا ويتسابقوا في المآتم، كما سترى في النشيد التالي بمآتم فطرقل.

(٢٢) الأغصف: الكلب، وكناس: الريم أو الظبي بيته.

(٢٣) أي: إن هكطور كان يحاول أن يدفع آخيل إلى الحصون، حيث يمكن أن تدركه نبال الطرواد، وآخيل يقف بوجهه فيصدّه عن الجري وجهة إليون.

(٢٤) قال أبو النجم العجلي:

طيف سرى يخبط أفنان السمر أنى اهتدى مضجع حيران حسر
ولم يكن إلا كما ارتد النظر كالكوكب انقضّ أو البرق خطر

بقدر ما تفر وجدي ونفر

(٢٥) كان آخيل أعدى أهل زمانه، فلم يكن من المعقول أنه يعجز عن إدراك هكطور، ولهذا قال الشاعر: إن أفلون أفرغ في هكطور قدرته فبطل العجب ودفع الاعتراض، قال هذا حتى لا يقول: إن المنهزم يطلب النجاة أجد في السير من الساعي للانتقام.

(٢٦) في المقطوعة السابقة يحاول هكتور أن يدفع آخيل إلى مرمى النبال، وهنا آخيل يومئ إلى صحبه أن لا يرموه بنصل ولا بنبل، فذاك سابق فار يطلب النجدة، وهذا لاحق كار يأبأها بل يخشاها؛ لأن له ثأراً يود أن يأخذ به بيده لا بيد قومه وطمعاً بفخار يضمن به على غيره.

(٢٧) أبو العباد: زفس، أي: إن زفس ألقى قدحي موت في كفتي ميزانه الذهبي؛ ليرى بموت أي البطلين يقضي، فهبطت كفة هكتور دلالة على أفول نجمه وحلول أجله. راجع ما تقدم في حواشي النشيد الثامن.

(٢٨) حفيظ الجوب: رب الترس وهو زفس، أي: نقتل هكتور ولو توسط له أفلون فتراعى على قدمي زفس.

(٢٩) ذيفوب من إخوة هكتور.

(٣٠) النقد: صغار الغنم، ويراد بها الغنم على الإطلاق.

(٣١) قال بعضهم:

وردوا إليك الرسل والصلح ممكن وقالوا على غير القتال سلام
فلا قول إلا الضرب والطعن عندنا ولا رسل إلا ذليل وحسام

(٣٢) لا غرو أن يكون هذا التباين بين كلام هكتور وآخيل، فهكتور الفتى الباسل الورع الغيور على حفظ مقامه حياً وميتاً، وليست في صدره تلك الحزازة على آخيل، بل قد روى غلته بالفتك بفرسان

الإغريق، وأخيل المغوار الغضوب الواثق بالفوز عليه فلا يعاقده ويوائقه،
ولا يبرد غله أن يظفر به حيًّا بل يسوقه الغيظ والثأر إلى أن يكسوه رداء
الحطة والشنار ميتًا.

(٣٣) الصعدة: النصل

(٣٤) قال شبيب بن البرصاء:

دعيني أماجد في الحياة فإنني إذا ما دعا داهي الوفاة مجيب

(٣٥) لا كلام أشد تأثيرًا من كلام هكتور هذا، تخلت عنه
جميع القوى العلوية، فغادره أفلون وصرف زفس وجهه عنه، وأيقن بدنو
أجله وهو لا يفكر ساعة موته إلا أن يموت ميتة البطل الباسل، عظيم
الأجر خالد الذكر.

(٣٦) يريد بكوكبة المساء الزهرة، ويدعوها أيضًا كوكبة الصباح،
وكوكبة الراعي.

(٣٧) كانت على هكتور شكة آخيل التي ألبسها فطرقل فلم
يكن من سبيل لا اختراقها بضرب وطعن، ولهذا تشوف آخيل وأحدق ليرى
له منفذًا بجسم هكتور يطعنه به.

(٣٨) السغب الجوع. قال عمر بن أبي ربيعة عن لسان عائشة
بنت طلحة:

حتى لو أستطيع مما قد فعلت بنا أكلت لحملك من غيظ وما نضجا

ويقرب منه قول ذو الأصبع العدواني:

لو تشربون دمي لم يرو شاربكم ولا دماؤكم جمعاً ترويني

(٣٩) يتنبأ هنا هكطور ساعة موته بدنو أجل آخيل، كما تنبأ

فطرقل وهو يحتضر بدنو أجل هكطور، وفي هذا دليل آخر على أنهم

كانوا يعتقدون أن نفس المحتضر تنطق بالمغيبات - وكأن هكطور يقول

لآخيل قول الحارثة بن بدر:

يا أيها الشامت المبيدي عداوته ما بالمايا التي عيرت من عار

تراك تنجو سليماً من غوائلها هيهات لا بد أن يسري بك الساري

أو قول الفرزدق:

إذا ما الدهر جر على أناسٍ كلاكله أناخ بأخرينا

فقل للشامتين بنا أفيقوا سيلقى الشامتون كما لقينا

(٤٠) يستفاد من هذه العبارة وما أشبهها أنهم كانوا يمثلون

بالقتلى، كسائر الأمم في العصور الخالية — كانت المثلة كثيرة في

جاهلية العرب، حتى لربما خرج النساء إلى ميدان القتال ومثلن بقتلى

الأعداء أشنع مثله، قال ابن الأثير: «ووقعت هند وصويحباتها (في غزوة

أحد) على القتلى يمثلن بهم، وقد اتخذت هند من آذان الرجال وآنافهم

خزماً وقلاند». ولكن الإسلام بعد تلك الغزوة نهى على المثلة، ذلك أنه

لما قتل حمزة بن عبد المطلب عم النبي ﷺ، ووقف عليه النبي

صلى الله عليه وسلم وقد مثل به كان منظره موجعاً لقلبه فقال له: «رحمك الله أي عم، فقد كنت وصولاً للرحم فعولاً للخيرات، فلئن ظفرتني الله بالقوم لأمثلن بثلاثين رجلاً منهم». قال مؤرخو العرب: فنزلت الآية: وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُمْ بِهِ ۖ وَلَئِنْ صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِلصَّابِرِينَ فصبر النبي ونهى عن المثلة.

(٤١) أي: لن أنساه حتى ولو مت وانحدرت إلى أعمال الجحيم، حيث ينزل كل ميت وحيث ينسى كل إنسان جميع الناس - هذا آخيل ثمل بخمرة الانتصار يفتك بالذ خصومه، وتذل له أعداؤه، وتبتهج به أحباؤه، فلم يبق من ثمة مانع يمنعه من ذلك معاقل الطرود، وكلهم هالغ رعباً فيهم بالاندفاع إلى إليون مع جيشه المنتعش، وإذا بذكرى فطرقل تهيجه أسي فيرجى ذلك إلى أن يتم الاحتفال بمأتم حبيبته، فيؤثر واجب الولاء على إبادة الأعداء، وهو تصرف من الشاعر بديع؛ إذ أسلف أن تدمير إليون لا يتم على يد آخيل فلم يكن يصح أن يخالف ماضي قوله، فالتمس لآخيل بالعودة عذراً هو أجمل الأعذار.

(٤٢) إن سير الجماعات على نغم الإنشاد عادة متبعة منذ القدم في جميع الأمم، ولا سيما إذا كانوا سائرين في مهمة لأمر جلد، يشبه غناء الإغريق هنا وهم راجعون إلى سفائتهم. تغني بنات إسرائيل عند رجوع داود من مقتل جلياد الجبار الفلسطيني؛ إذ هتفن وقلن: «قتل شاول ألوته وداود ربواته» (١ مل ١٨: ٧)، والغالب في هذه الأغاني أن

تكون عبارات مختصرة تكرر وتتردد مراراً، كما هي العادة اليوم في بادية العرب، يقول واحد أو أكثر من المنشدين قسمًا منها ويردد الباقيون ما بقي، وعلى هذا فلا أخال إلا آخيل منشداً وحده قوله:
فلننا القرم هكطورا وعاد الجش منصورا

والباقيون يرددون قوله:
فأين فتى الطراود من كرب كان مقدورا

وتعرف هذه الأناشيد عند عرب البادية لعهدنا باسم «الهوسة» يدعونها بهذا الاسم؛ لأنهم يتهوسون به لأمر خطير، ولكل عشيرة منهم هوسة خاصة بها، فهوسة عنزة «القلايع ياسبقة. خيال العشوة مطرفي» يتحمسون بذلك على أخذ قلائع الفرسان. وهوسة شمر «وصبيان زوبع يا هلي» يقولون ذلك من باب المنافرة والحماسة. ولهم فضلاً عن ذلك هوسات ينظمونها عند مسيس الحاجة، كقول عشائر الهندية وهي تحارب مدحت باشا والي بغداد بقيادة شيخها وادي: «قم وادي وبغداد ارتجت» وهي عبارة يرددونها مئات وألوفاً من المرات.

(٤٣) شق آخيل كعبي هكطور ليربطه إلى المركبة فيجره، كما كان يروى في جاهلية العرب عن ربط الأسرى والقتلى بأذنان الخيل، وهي مبالغة في الهوان وغير جدية بمخلوق يدعي أنه إنسان، ولكنه لم يكن بد من ذكر ذلك استكمالاً لعتو آخيل وجريه على مألوف ذلك العصر، ولربما تنبه القارئ مما رأى قبل هذا أنه حيث اضطر الشاعر إلى

ذكر شيء من الفظائع ذكرها استتماماً للفائدة، ولكنه لا يلبث أن يستهجنها ويشمئز لها، كقوله في هذا الموضع: «وبالغ في الهوان» كأنه يريد أن يقول: إن الفطيع من الأعمال إنما يذكر تنفيراً لناس منه وليس ارتياحاً لحفظ الرواية عنه.

(٤٤) كانت عادة الأقدمين إذا أصيبوا بمصيبة أن يذروا التراب على رؤوسهم، ويجلسوا على الرماد والسماد، فإن أيوب لما ابتلي جلس على الرماد، ولما عاده أصحابه: «رفعوا أصواتهم وبكوا، وشق كلٌّ منهم رداءه، وذكروا تراباً فوق رؤوسهم نحو السماء، وجلسوا معه على الأرض» (أيوب ٢: ١٢-١٣).

(٤٥) كثيراً ما يقال هذا الكلام عند اشتداد الحزن على فقيد، قالت الخنساء:

فلا والله لا أنساك حتى أفارق مهجتي ويشق رمسي

(٤٦) ما أشبه رثاء إيقاب برثاء أم بسطام بن قيس لابنها بسطام

المقتول يوم الشقيقة بين بني شيان وبني ضبة بن أد، قالت:

ليك ابن ذي الجدين قيس بن وائلٍ فقد بان منها زينها وجمالها

إذا ما غدا فيهم غدوا وكأنهم نجوم سماء بينهن هلالها

عزير المكر لا يهد جناحه وليث إذا الفتيان زلت نعالها

وحمال أثقال وعائد محجرٍ نحل إليه كل ذاك رحالها

سيبك عانٍ لم يجد من يفكه ويكيك فرسان الوغى ورجالها

وتبكيك أسرى طالما قد فككتهم وأرملة ضاعت وضاع عيالها
مفرج حومات الخطوب ومدرك الـ حروب إذا صالت وعز صيالها
فقد ظفرت منا تميم بعثرة وتلك لعمري عثرة لا تنالها

(٤٧) الوشيعه: خشبة النسخ.

(٤٨) راجع ما تقدم لنا بهذا المعنى (ن ٩). قال الشماخ:
وبات فؤادي مستخفًا كأنه خوافي عقاب بالجنح خفوق

ومن هذا القليل قول عنترة:
كأن فؤادي يوم قمت مودعًا عبيلة مني هاربٌ يتفجج

(٤٩) الفرع: الشعر.

(٥٠) يظهر من وصف هوميروس لحلي شعر النساء أنهم كنَّ
يجدلن شعرهن ويضفرن الوفرة التي في مقدمة الرأس، وحول الصدغين،
ويلقننها مضمفورة على قمة الرأس، ويجمعن إليها الذوائب، ويسبلن على
كل ذلك شبكة تجمعها، ثم يضعن البرقع، أو القناع على الوجه، وفي
ذلك من حسن الذوق ما لا يفوقه تفنن بنات عصرنا.

(٥١) من رثاء عاتكة بنت عمرو بن نفيل لزوجها عبد الرحمن بن
أبي بكر الصديق:

فأليت لا تنفك نفسي حزينه عليك ولا ينفك جلدي أغبرا

فتى طول عمري ما أرى مثله فتى أكرَّ وأحمى في الهياج وأصبرا
إذا شرعت فيه الأسنة خاضها إلى القرن حتى يترك الرمح أحمرأ

(٥٢) تتلهف أنذروماخ على ما سينال ابنها اليتيم من الذل في
الولائم، وذلك مصداق قول العرب «أضيع من الأيتام في موائد اللئام»-
الظاهر من مواضع كثيرة في الإلياذة أن مآدب القوم كانت كثيرة الأشكال
مختلفة الأحوال، يعنون بها ويفخرون، ولكنه لم يفصل أنواعها كما جاء
أكثرها مفصلاً في كتب العرب، وقد جمعها صاحب مجمع البحرين
بقوله:

للفسء الخرس والعقيقة	للطفل عند عارف الحقيقة
كذلك الإعذار للختان	وذو الحذاق حافظ القرآن
للخطبة الملاك والوليمه	للعرس والميت له الوضيمة
وللبناء جعلوا الوكيرة	وهلال رجب العقيـره
وقيل تحفة لرائر يرد	وشندخ لما يضلُّ إذ وجد
كذا نقيعة القدوم من سفر	ثم القرى للضيف عندما حضر
وحيثما لم يك من ذاك سبب	فإنها مآدبة عند العرب
وإن تعم دعوة فالجفلى	تدعى وإن خصت فتلك النقرى

(٥٣) الغضف: الكلاب، ومعنى استيناس ملك المدينة، وهو الاسم الذي يسمي به الطرود ابن هكتور، أما الاسم الذي كان يعرفه به أبواه فهو اسكمنديوس. (راجع ن ٦).

(٥٤) لا أحاول وصف بدائع المعاني بل معجزاتها في منائح أبي هكتور وأمه وامراته، فقد تستحيل عليّ توفيتها حقها، وإني مجتزئ باستلغات نظر المطالع إلى تصرف الشاعر، الذي لا يفوته جزئي ولا يغفل عن كلي فيضع كل شيء موضعه، كأن الشعر بين يديه طينة يحيل منها ما شاء لما شاء.

أبرز لنا بادئ بدء فريام الشيخ يستطلع طلع الأخبار شأن الملك الساهر على رعيته، فكان أول شاهد لمقتل ابنه فأخذه الجزع واليأس، وما بعد ذلك إلا أن يتمرغ على الأرض ويلتطم وينوح، ويهم بالإنقاذ بنفسه إلى خارج الأسوار بغير هدى فرارًا إلى قاتل ابنه، يستوهبه إياه ميتًا ليحتفل بمأتمه قيامًا بواجب الملك القاضي بإجلال ذكر الأبطال، وواجب الأبوة القاضي بإعلاء ذكر البنين، ثم بدت لنا إيقاب تندب ابنها ندب الأمهات اللائي علمن بعجز رجالهن ورمين بكل أبصارهن إلى أبنائهن البارين بهن المشفقين عليهن، وإذ انتهى من ذلك مثل لنا أندروماخ فكان بمرآها وبمكاها صورة ناطقة للمرأة الأيتم وبين يديها طفلًا يتيم، لا يعي شيئًا من ذلك المصاب الأليم، وإنما ستكون حياته كلها ألمًا ومصابًا، فكان حزنها فوق حزن الأمهات والآباء، وبلاؤها فوق كل بلاء،

ولم يوقفها مع من وقف على السور؛ إذ أراد أن يبين أنها أشغل بزوجها منه بسواه حيًا وميتًا، فهي تنسج له (أو لابنه) ثوبًا من البرفير، وبين يديها الجواري يعدون له الماء ليغتسل من غبار المعارك، وله بذلك مأرب آخر وهو أن يوطئ تلك التوطئة ليلبغها الخبر فجأة، فيكون له في نفسها ذلك الوقع ليرسم الحزن بأشقى حالاته، وما هي أن بصرت بزوجها صريعًا حتى شهقت «وأهوت فوق وجه الأرض لا حسًا ولا بصرا»، وما انفتح جفناها حتى أخذت تنوح تلك المناحة التي تنفتت لها الأكباد، ويتفطر الجمامد بعبارة ترى على سداجتها صاعدة من لب الفؤاد.

النشيد الثالث والعشرون

ماتم فطرقل

مُجْمَلُهُ

شرع آخيل في التأهب لماتم حبيبه فطرقل، فأمر بإعداد الطعام، فسأله أصحابه أن يغتسل من الدماء التي تخضب بها فأبى إلا أن يبقى على حاله إلى أن يدفنه، وبعد اللتيا والتي تناول شيئاً من الطعام في مضربه، ولكنه لم يغتسل وأرفض الجمع كل إلى مرقدده، فظهر فطرقل في الرؤيا لآخيل وطلب إليه أن يعجل بدفنه، فمدَّ آخيل يده ليقبله فاستيقظ وإذا به حلمٌ، ولما بزغ الفجر أسرع الجند إلى جبل إيذة للاحتطاب فجمعوا الوقود وألقوا عليه الجثة، فقص آخيل شعره ليحرق مع القتل، وذبح خيلاً واثنى عشر فتى من الطرواد ليحرقوا فوق جاحمه، وأما هكطور فحفظته الزهرة وأفلون من الفساد، وأضرمو النار فلم تضطرم إلا قليلاً، فتضرَّع آخيل إلى الرياح فبادرت وأضرمت اللهب، ولما احترقت الجثة جمعت العظام ودفنت، ثم تهيأوا للألعاب المعتادة وأعد آخيل الجوائز فتسابقوا بالعجال، ثم برزوا للكام والصراع والسباق عدوًا، والبراز بالسلاح والتخاطر بقذف الكرة والمناضلة وزج الرماح، وهكذا انتهت الحفلة.

ينتهي اليوم الثلاثون في أول هذا النشيد وفي الليلة التالية يظهر

فطرقل لآخيل، واليوم الحادي والثلاثون للاحتطاب، والثاني والثلاثون
لإحراق الجثة، والثالث والثلاثون للألعاب، ومجرى ذلك على شاطئ
البحر.

النشيد الثالث والعشرون ١

إليون بالنحيب والحداد	وفيلق الإغريق بارتداد
للثغر والسفين حيث انتشروا	كل إلى أسطوله يبتدر
لكن أبى آخيل أن ينحلاً	خميسه بل في سراه ظلاً ٢
قامت على انتظامها الصفوف	فصاح وهو بينهم يطوق:
«مرميد يا فرسان يا رجالي	لا تفصلوا الخيل عن العجال ٣
بل قريوهم بهذا المجال	نبكي وترثي غرة الأبطال
فطرقل فالندب بلا محال	فرض على ميت صريع خال
فإن رويناً غلة النكال	حلت وهياناً بلا بلبال

وضيمَةً نَعْدُهَا فِي الْحَالِ ٤

فهطلت دموعهم جميعاً	وخفَّ آخيل بهم سريعا
وحول فطرقل ثلاثاً داروا	بخيلهم ودعمهم مدرار
تزيدهم ثيتيس حزنًا عيلاً	فولولوا وأكثروا العويلاً
حتى جرى ما سخَّ من تلك العبر	غيثاً على السلاح والسهل انهمر

يشهق قرب خله الحبيب
بينهم أكفه القتاله:
وإن تهم في سقر هياما
أبرُّ بالوعد هنا تماما
وسوف ألقيه هنا طعاما
والنار إذ تذكو لك اضطراما
من حولها اثني عشرًا كراما» هـ
على هوان المجتبى هكطورا
حيال نعش الميت في وجه الثرى
ونزعوا زاهي السلاح الصلد
وذلك الزاد الشهى اقتسموا
هالعةٍ تحقق عند النحر
أمامها الجزار بالنصل يقف
تسيل شحمًا باللظى اللهاب ٦
وأقبل الصيد إلى ابن فيلا
على حبيبه تلظى ألما
صاحوا على الفيوج أجمعينا
ويوسعوا الجاحم بالأوار ٧

أمامهم آخيل بالنحيب
عليه ألقى يكبر المقاله
«أقربك يا فطرقلاً السلاما
فها أنا والجيش حولي قاما
فساعدي هكطور ذلاً ساما
للكلب يفري اللحم والعظاما
أذبح من طروادة انتقاما
وزاد وهو لاهبٌ سعيرا
فكبه لوجهه مغفرا
من ثم حلوا صاهلات الجرد
وحول فلك ابن أياك التأموا
فمن خرافٍ وثيارٍ غر
ومن عنوز ثاغيات ترتجف
ومن رتوتٍ صلدة الأنياب
دماؤها كذا جرت سيولا
وذهبوا به وماكادوا لما
وإذ أتوا خيم أغاممنونا
إن يرفعوا المرجل فوق النار

لغسل ما لَطَّخه من الدم
«بحق زفس السائد المخلد
ما لم أشد ضريح خلي الأوحـد
حيث له أقص شعري العسجدي
أسى كهذا اللأعج المتقد
إلى اقتسام الزاد في ذا المشهد
على ابن أتراس المليك الأـمجد
في طلب الوقود ثم نبتدي
من فوره إلى الظلام الأبدـي
ذابت وفزنا بجميل المقصد
لبوا وكلُّ هـب يبغي الزادا
حتى إذا ظمأه ولَّى والسَّـغـب
وفي فجـاج قرب جرف البحر
آخيل والعـي به قد برحا
أنهكه العدو ورا هـكـطـورا
فروح فطرقل بطيف الحـلم
بقده والحـلل المسـدوله
لكن أبي يغـلظ برَّ القسم: ٨
أقسم لا قطرة مسَّت جسدي
من بعد أن أحرقه في كمـدي
مهما أعش فلن تلظى كبـدي ٩
فأرضخ الآن على توقّـدي
لكن إذا طرَّ الصـباح من غد
أن ينفذ القوم بلا تردّد
بمأتم حقّ لميتٍ يغتـدي
حتى إذا جئـة ذاك السيـد
للحرب عدنا بزهي العـدد»
فقال منه سـهمـه المعتادا
لخيمه في طلب النّوم ذهـب
لدى دوي المـوج فوق الثَّغـر
ما بين جيش المـرمـدون انطرحا
فنام في ظل الكرى قـريـرا
قامت على هامته كالجسم
وصوته والمقل الجميله ١٠

قالت: «آخيل له طاب الكرى
 أهملني ميتًا فهلاً ذكرا
 بادِر إلى دفني حتى أعبرا
 صدّتي الأرواح عن أن أصدر
 فرحت هائمًا بلجات الثرى
 فانهض وأعدد لي صلى تسعرا
 آه فقد فات زمان غبرا
 في عزلةٍ فيها تحاشينا السرى
 فغالي وفيه قدماً سطر
 أجب إذا ملتمسي مهما جرى
 من يوم مينيوس بي غراً سرى
 من وجه رهطٍ رامي مثرا
 وقد لعبنا بالكعاب عسكرا
 ومثلما قبلاً أبوك استبشرا
 في حجره كما نشأت الأصغرا
 معاً فلا تنحلّ هاتيك العرى

حتى عن الحبيب غصّ النظرا
 وداده لي وأنا حيّ أرى
 أبواب آديس ولا أحقّرا
 ما بينهنّ فأخوض الأنهرا
 وجئتُك الآن ودمعي انهمر
 فبعد ذا لن أبرحنّ سقرا ١١
 حين فيه نعقد المؤتمرا
 منذ نشأت كان هذا القدر
 حتفك في أكناف سورٍ حصرا ١٢
 فمثلما معاً قضينا العمرا
 لصرح فيلا من أفنطٍ مدبرا
 لمّا قتلت (وصلي الجهل عرا
 فرعاً لأفيدامسٍ مستكبرا ١٣
 بي فنشأت ناعمًا موقرا
 دع هكذا رفاتنا أن تقبرا
 ولتلق في حقّ لديك ادخرا

من لدن ثيتيس نضارًا بهرا» ١٤
 فقال آخيل: «علام يا منى نفسي أتيتني بهذا البحث هنا

فكلّما رمت سيجرى علنا فادنّ وعانقني فلا عج العنا

نوري ونروي بالعناق الشجنا»

ومدّ كَفَّه إلى العناق لكِنَّه فطرقل لم يلاق

فروحه مثل الدخان طارت صافرةً وفي الثَّرى توارت

فقام آخيل وكَفَّيه صفق بدهشةٍ ثم لسانه انطلق:

«نعم نعم ربّاه حتى لسقر يسري مثالنا وأراح البشر

لكنما الحياة في ذاك المقر ليس لها بعد الممات من أثر

فإن فطرقل مدى الليل ظهر بروحه لي بشقاءٍ وكدر

حكته حتّى قلت بالنفس ابتدر مقترحًا يأمرني بما أمر»

وما انتهى حتى جهير الندب من حوله عمّ جميع الصحب

ولبث الدمع سخينًا يجري حتى بدا ورد بنان الفجر

هنا أغاممنون هبّ حالا وأنفذ الرجال والبغالا

فبادروا فورًا إلى الذهاب بأمر مريون للاحتطاب

ساقوا يجدّون إلى الجبال بقاطع الأفؤس والجبال

أمامهم تلك البغال مسرعة متهمّة منجدةً مندفعه

ضاربةً في وعر تلك الهضب وعقبات مشعبٍ فمشعب

حتى علت إيذة في الصعيد فأعملوا مناصل الحديد

بشامخ الملول فالفروع خرت تشق تحتها الجذوع

وقطعوه قطعاً وشدوا
 واشتأقت البغال للسهول
 وراءها كل فتى جذعاً حمل
 والثغر فيه كدّسوا الوقودا
 حيث آخيل رام أن يعينا
 وصاح بالمرميد أن يجدّوا
 وأن يشك الكل في السلاح
 فسارت العجال في الميدان
 خلفهم المشاة كالسحاب
 ساروا به تستره النواصي
 ومن ورائهم آخيل رفعاً
 وأنزلوه المنزل المعهودا
 وعنهم آخيل منحازاً عدا
 وقص فرعاً زاهياً جميلاً
 وصاح محققاً بلج اليم
 «يا نهر إسفرخيس الكبير
 نذرًا لك انتوي أبي شعوري
 ومن ضحايا الغنم المذكور
 أحمالهم من فورهم وارتدوا
 فانحدرت في الوعر بالقفول
 أمر لمريون له الكل امثل
 وانتظموا من حوله قعودا
 مدفن فطرقل وفيه يدفنا
 وللعجال خيلهم يشدوا
 كأنهم في حومة الكفاح
 بساسةٍ وسادةٍ فرسان
 وصحب ذاك الميت باكئاب
 قصت له دلالة الإخلاص ١٥
 هامة فطرقل بلبّ خلعا
 وبادروا فهيأوا الوقودا
 لغرضٍ في نفسه مبتعدا
 للنهر إسفرخيسٍ أطىلا ١٦
 مضطرباً يصلي أوار الغم:
 واخيلة القربان والنذور
 ومئة من نخبة الأبقور ١٧
 خمسين عند هكل البخور

في مرجك المقدس المبرور في القرب من منبعك المأثور
 بكل ذا آلى لدى مسيري لوطني بالبشر والسرور
 فما استجبت سؤل مستجير ولم تكن من الردى مجيري
 ولن أدوس باب تلك الدرر لذا على فطرقل والسعير

أطرح فرع وفرتي الموفور»
 وبين كفي خله ألقاه وجيشه طرًا علا بكاه
 وأوشكوا حتى غروب الشمس أن يندبوا بكربة وبؤس
 لكن آخيل لأتريذ دنا وصاح ما بين الجموع علنا:
 «أتريذ قد حق لك الخضوع فمر إذن تكفكف الدموع
 ومن هنا تنصرف الجموع يهيئوا الزاد فلا يجوعوا
 فإن مضوا فنحن نستطيع وصيدنا الأصول والفروع ١٨

نحرق ميتًا ودّه الجميع»
 ففضّ أتريذ الجموع فمضت إلى سفينها وعنهم أعرضت
 وحوله ظلّت سراة الموكب تركم للميت وقود الحطب
 حتّى له شادوا على السهل هرم قياسه عشر وتسعون قدم
 ورفعوا لقمة الإباله فطرقلهم بأدمع منها له ١٩
 وسلخوا الثيار والخرافانا ليحرقوها معه قربانا
 وخفّ آخيل لقطع الشحم يسبله من فوق ذاك الجسم

وحولہ ألقى بلا إبطاء
 من بعد ذا صب قوارير العسل
 وزاد وهو لاهب الفؤاد
 وفي كلابه التي في نعمته
 من تسعة من فوره اثنين ذبح
 وهام الاثني عشر بالسيف قطع
 وأرث النيران حتى تلتهم
 «أقربك يا فطرقلًا السلاما
 فها أنا والجيش حولي قاما
 وها هنا تلتهم التهاما
 لكن هكطور فلا ضراما
 لحومها وسائر الأعضاء
 والزيت فوق نعش ذياك البطل
 أربعة من ضمير الجياد
 قد نشأت أعمل حد شفرته
 وللوقود جثتيهما طرح
 من بهم إليون وبئس ما صنع ٢٠
 وصاح والدمع سخينا ينسجم:
 وإن تهم في سقر هياما
 أبر بالوعد هنا تماما
 نيرانك اثني عشرًا كراما
 يذكي له بل يغتدي طعاما

للكلب يفري اللحم والعظاما» ٢١

لكنما الكلاب لم تدن إلى
 فأنما الزهرة بالمرصاد
 وأفرغت قدسي عطر الورد
 وفيبس من قبة السماء
 حتى يظل ترف المجس
 والنار في الوقود لم تذك ولا
 جثة هكطور بهاتيك الفلا
 تدفع كل صادر وغاد
 فيه فلا يعطب خلف الجرد
 جلّله بغيمة سوداء
 ولا يجف بشعاع الشمس ٢٢
 أوارها من حول فطرقل علا

فلوسيلة آخيل عمدا	وانحاز عن جمهوره مبتعدا
واستنجد الدبور والشمالا	لتلهيها الإباله اشتعالا
وتلهم الأجساد ثم نذرا	غرّ الضحايا لهما وابتدرا
يريق فوق الأرض صرف الخمر	بكأس عسجدٍ تمام البر
وصوته إيريس لما سمعت	لمنتدى الرياح حالاً أسرع
إذا بهم في مجلس السرور	على وليمه لدى الدبور ٢٣
فنهضوا طرّاً لها إجلالا	وانتدبوها للقوى احتفالاً
فوقفت في عتبات الصخر	تأبى وقالت بجميل العذر:
«ما لي إلى الجلوس من سبيل	فإنني بنيّة الرّحيل
لشعب إثيوبيّة النّيل	فهو على المحيط بالتّجيل
ب مئة ضحّى من العجول	لنا فلا ندحة من قفولي
وللشمال من لدى آخيل	وللدبور جئت كالرّسول
لتعصفا بالقبس المشعول	تحت شلا فطرقل القتيّل
حيث بنو الإغريق بالعويل	ولهما جزاء ذا الجميل

آلى بنذر شائق جزيل»

ثم توارت عنهما فقصفا	وبددا الغيوم حيث عصفا
وزمزما في لجة العباب	فهاج وجه اليم باضطراب
واندفعوا في السهل يقصفان	فارتفعت زهزمة النيران

فالنوء كل الليل فيها قد قصف
خمرًا بكوب عسجدٍ مزدوج
وهو يناجي روح فطرقل ومن
فهى على أعظمه تشور
كوالدٍ يحرق أعظم ابنه
على فراش العرس قد مات الفتى
وإذ بدت بالنور في أوج العلى
وخلفها امتدَّ سناء الفجر
أخمدت النيران والنوآن
ببحر إثراقة مرًّا فاختلج
فارتاح آخيل إلى الهجوع
أنهكه العي فبالنوم استكن
حتى استفاق لعجيج الجند
فهب ثم قام ثم ارتجلا:
خمركم السوداء صبوا عجلا
ثم اجمعوا أعظم فطرقل الأولى
(والناس والخييل خليطًا جعلًا
نودعها حقًا من التبر غلا
وليله آخيل سهرانًا وقف
يسقي الثرى من حب تبرٍ بهج ٢٤
حول ضرام النار بالبت يئن
وهو لديها لاهبًا يدور
بكفه مختنقًا بحزنه
وقلب والديه حزنًا فتيا
كوكبة الصبح تبشر الملا
بحلة الجساد فوق البحر ٢٥
كهفهما أمًا يدمدمان
ملتطمًا في يمه الموج وعج ٢٦
في عزلةٍ عن لغط الجموع
ولم يكد يذوق لذات الوسن
من حول أتريد الزعيم الجلد
«أتريد يا صيد السراة النبلا
تخمد وقودًا باللهيب اشتعلا
تبرز إذ في الوسط كان اعتزلا
في الحاف فيه لهب النار علا
والشحم ستران عليها أسبلا
نودعها حقًا من التبر غلا

تبقى بذاك الحق حتى أنزلا	للظلمات يوم ألقى الأجلا
ولا تشيدوا القبر قبرًا أمثلا	بل فاعتوا به اعتناءً مجملا
ومن يعيش بعدي من هذا الملا	يشد ضريحًا شائقًا مكملًا» ٢٧
لبوه طرًا وأراقوا الخمر	حيث ذكت نار الوقود جمرا
فجرفت تلا من الرماد	وابتدروا بغلّة الفؤاد
أعظمه البيضاء يجمعونا	وعبرات الحزن يذرفونا
فأودعت حقًا من التبر غلا	والشحم سترين عليه أسبلا
ألقوه في الخيام تحت أزر	من النسيج الشائق الأغر
ورسموا في موضع اللهب	دائرة الضريح بالنحيب
ووضعوا الأساس ثم رفعوا	تلاً من التراب ثم رجعوا

الألعاب

فاستوقف الجمع آخيل وعمد	لرسم مجلسٍ به الكل قعد ٢٨
واستحضر الجوائز السنية	آنية مناضدًا بهيه
والخيل والبغال والعجولا	والغيد شدت منطقتًا جميلا
وناصع الحديد من ثم انطلق	يلقي لديهم أولًا كل السبق ٢٩

السباق

تفاخرت بوشـيها النساء
قياسها اثنان وعشرون جرى
في عامها السادس بغلاً حملت
ما تحته بعد علا اللهب
وشاقلان ذهباً للتالي
من ذهبٍ في النار قط لم يلج ٣٠
«أترى يا أرغوس آل الشان
فلو تخاطرنا لميت ثاني
فما جيادي من نتاج فاني
بها حبا في غابر الزمان
لذاك لا حاجة للبرهان
قد نده آه قابض العنان
يغسل بالماء بلا تواني
بالزيت يطليها بجهد العاني
قد أسبلت بفائض الأحزان
فأنتم يا نخبة الفتيان

فللمجلى عادة حسناء
ومعها دسيعة ذات عرى
وللمصلي حجرة ما ذلت
وللمسلي مرجل قشيب
أربعةً يملا بالمكيال
وصلة المرتاح كوبٌ مزدوج
وصاح يغري طالي الرهان:
هذي ترون تحف الفرسان
أحرزت حتمًا خطر الرهان
ولا لها كفوٌ بهذا المكان
فوسيد فيلا فبها حباني
حتى بها هذا العنا أعاني
ذاك الذي قد كان بالإحسان
أعرافها وأكثر الأحيان
فهـي هنا بدمعها الهتان
فوق الثرى نواصي التيجان

فمن يشق منكم بهذا الآن بعجلٍ محكمة المباني

وخيله يبرز إلى الميدان»

وما انتهى حتى انبرى السَّوَّاق إفمیل أذمیت الفتى السابق

رؤاض جرد الخيل هب الأولا ثم ذيوميذ أخو الباس تلا

بخيل طرواد التي كان اغتتم في الحرب من أنياس بالنصل الأصم

لما أفلون وقى الطروادي ينثيه عن مواقف الجالاد ٣١

ثم ابن أتراس منيلا الأشقر بفروسي رهانه يتدر

فوذرعسٍ حصانه الثمين وإيثيا حجر أغاممنون

تلك التي بمضمد العجال تشتاق خوض شاسع المجال

كان ابن أنخيس إخيفول جبا بها أغاممنون لَمَّا انتدبا

للحرب تحت معقل الطرواد قبلاً ليعفي من عنا الجهاد

وفي ربي سكيونة قريرا يظلّ معتدًا غنّى وفيرا ٣٢

وأنطلوخ رابعًا هب إلى جياده القلب وشدّ واعتلى ٣٣

خيل عتاق جمّة الأعراف من فيلس كريمة الأوصاف

إزاءه والـده الجليل نسطور قام نحوه يميل

يرشده ويحسن التعليما وإن يكن بنفسه حكيمًا: ٣٤

«بنّي قد ودّك زفس وارتضى وفوسذ وثقفنا منذ الصبا

وعلماك الجري بالجرد فلا حاجة أن أزيدك العلم أنا

نبغت في استقبال نصبٍ يبتغى
أخشى بها ينالك اليوم البلاء
لكنك السابق في سبل الهدى
ولا تقف بنيَّ عن نيل الجزاء
بالحذق والصنعة ليس بالقوى
بفلكه في البحر في وجه الهوى
فمن يثق بخيله ضلَّ وما
وراح في البراح يجري وغدا
لكنما الحاذق حتى لو على
فالنصب نصب عينه دوماً يرى
لا يغفل العنان كيفما انشئ
يرقب من أمامه قسراً غدا
فالنصب هاك ليس في طي الخفا
جدعٌ ولم يعث به دهرٌ خلا
يعضده صخران أبيض الصفا
وحوله المضمار بالعدل استوى
أو علمًا كان قديماً مثلما
فإن تدنيت فسط وانحز إلى

لكنما خيلك يعروها البطا ٣٥
وسائر الجياد أعدى في المدى
أقدم إذن بحزم ميقاد الحجى
فإنما الخطأب نال المرتجى
كذلك الربان بالحذق سرى
والفارس الفارس بالحذق رمى
تراه للسيل في الجري اهتدى
لا يستطيع كبجها ولو بغى
خيّل تراءت دون سباق السرى
حتّى لديه ينشئ إلى الورا
يديره بثبت كفٍّ وكذا
وها أنا أريك حدَّ المنتهى
باعاً عن الحضيض فانظره تنا
من شامخ الملول أو أرز الفلا
حيث طريق السهل ضاق والتوى
لعله قبرٌ به قيل ثوى
قد رامه آخيل ذا اليوم لنا
يسراك في الكرسي وصح صوتاً دوى

أطلق عنانه بذئك الفضا
حتى تخال القطب والنصب سوى^{٣٦}
دنوت كيلا يعتري الخيل الأذى
وأنت بين القوم يغشاك الحيا
وجزته ولم يضعضعك العيا
وراك أريون الجواد المجتبي
أو خيل لومذون التي حوى

والفرس اليمين سق فإن جرى
وباليسار مل إلى النصب هنا
وحاذر الصدمة بالصخر إذا
أو يسحق النير فيشمت العدى
بنّي كن ثبّتًا فإن نلت المنى
لا سائق جارك حتّى لو عدا
جواد أدرست ومن نسل العلى

بهذه الأصقاع تنهب الشرى»

عاد إلى مجلسه وقعدا
مريون في جياده العتاق
يحيّلها آخيل استقساما
فسهم إفمیل فأتريذ الأغر
أبسّلهم ذيومذ الشهير
يريههم في السهل بارز الغرض^{٣٧}
فينكس رؤاض خيول فيلا
وينثي بصادق الأخبار
جيادهم طرّا معًا وانبعثوا
نائبة عن موقف الأسطول

كذاك نسطور ابنه مذ أرشدا
وهبّ خامسًا إلى السباق
ثم اعتلوا وطرحوا الأزلاما
فسهم أنطيلوخ أوّلًا ظهر
وبعده مريون والأخير
فانتظموا صقًا وآخيل اعترض
وأنفذ المحنك النبيل
ليرقب الفرسان في المضمار
فرفعوا سياطهم وحثّثوا
فاندفعت تضرب في السهول

تحت الصدور ثائر الغبار
أعرافها تطير في الهواء
حيناً ترى بالأرض رامحات
وراءها الفرسان فوق السدد
صاحوا فراححت بهم تغير
وعندما انتهت وعادت تجري
هناك ثارت همّة الفتيان
فبرزت خيل ابن فيريس ولم
بجرد طرودا فزقت عقبه
تنفخ في عاتق إفمیل النفس
طارت وهامها على هامته
حتى بها أو شك أن يجتازا
لكن فيبوساً بسخطه سطا
فخيله ونت وتلك انطلقت
ولم تفت فالاس تلك الحيلة
أعادت السوط له وجددت
ثم انبرت حانقةً وسحقت

كالغيم أو عجاجة الإعصار
وخلفها العجال كالأنواء
وتارةً في الجو سابحات
تحقق قلباً لبلوغ الأمد
بعثيرٍ فوقهم يطير
منقلباتٍ نحو ثغر البحر
فأطلقوا أزمّة العنان
تكد فإثرها ذيوميذ هجم ٣٨
كأنها راقيةٌ للمركبه
حرّاً كأنه بظهره قبس
ألقت تباريه على غارته
ذيوميذٌ أو مثله يمتازا
والسوط من يديه حالاً أسقطا ٣٩
وملء عينيه الدموع اندفعت
فابتدرت تدراً شرّ الغيله
عزمًا به جياده تشدّدت ٤٠
مضمد إفمیل وعنه انطلقت

فسقط المضمد والخيّل جرت
ونفس إفمیل علی التراب
يسیل من فيه ومنخريه
وانفضخت جبهته حين وقع
ومن أمامه ذيوميذ اندفق
تفرغ آثينا القوی بالجرد
تلا منيلا ففتی نسطورا
يصيح: «هلاً تفرغان كلّما
سبق ذيوميذ نعم لن أزعما
فالاس تعلی مجده لكنّما
فأدرکاه أفلا أخرجلتما
شأنكما السبق فلم أبطأتما
عن سابقات الخيل إن قصّرتما
لا خلتما نسطور يعني بکما
إيه إذن فانبعثا وعندما
نعمل فيه حيلةً فنقحما
فجزعا لهول ذاك الزجر
فأنطلوخ أبصر المضيقا

جامحةً وفي البراح نفرت
أهوى من الكرسي للدولاب
نجيعه كذاک من يديه
وفاضت العبرة والصوت انقطع
وسائر الخيل مبرزاً سبق
حتى تنيله أعالي المجد
مطهميه سائناً مغيرا
عدوا لمثل الحين ذا أعطيتما
ففرساه اليوم طارت بهما
وراء أتریذ استفزّا الهمما
وإيها حجر جرت دونكما ٤١
لأقسمنّ وأبرنّ قسما
وغير أطراف الجزا لم تغنما
بل بطبي أنصله أهلكتما
تبلغ ذيّاك المضيق المظلما
لما أضلّه السيل الأقوما» ٤٢
واندفعّا حيناً بطن البر
حيث السيول هدّت الطريقا

وانحدرت جوارف الأمطار
 بنفسه من ثم أترىذ انحدر
 بهوّة تنذر بالأخطار
 فأنطلوخ من على الكرسي انحرف
 منفردًا يخشى لقا الخيل الآخر
 فصاح أترىذ بملء الجزع:
 وغادر المنهج يبيغيه وخف
 جيادك اكبح للطريق الأوسع
 «أنطلوخ لم أرك لا تعي
 فسوف تجتاز بذاك المهيع ٤٣

فإن تراحمني كالنا نقع»
 فلم يصخ وساط ثم اندفعا
 بخيله كأنه ما سمعا
 فاجتاز مرمى كرة قد قذفا
 بها فتى بأسٍ عليها أتلفا
 فارتدعت خيل منيلا القهقري
 ولم يسق خشية خطبٍ اكبرا
 خشية أن تصطدم العجال
 فتسقط العجال والرجال
 وهكذا في طلب الفخار
 تعفر الأوجه بالغبار
 وصاح أترىذ بغل الكدر:
 «أنطلوخ بين كل البشر
 ما قط حاكاك شقيّ مفتري
 وهم يخالونك بالعقل حري
 ندّ عن الإغريق صدق المخبر
 وهم يخالونك بالعقل حري
 فلن تفوزن مهٍ بالظفر

أو تقسم الآن أمام الزمر»
 وفرسيه ساط ثم صاح: «لا
 يورثكما الغم حذار الملا
 دونكما مذكيان أثقالا
 سنّا وسوف يجهدان عجالا» ٤٤
 فجزعا لصوته وثارا
 وأنطلوخ أدركا تكررارا

وظلت الصيد بتلك الحلقة
تنهب قلب السهل والعجاج
وكان عنهم لليفاع انعطفا
فأبصر الخيل وهم لم يبصروا
فعرف الفارس عن بعد الأمد
في وجهه الغرّة لاحت كالقمر
«يا صحب يا عصابة الأقيال
أرى جيادًا برزت حيالي
فالسّابقات أصبحت توالي
رأيتها والنصب بادٍ عال
اسرح الطرف على الأطلال
لا شك عند العود والإقبال
أو جمحت فيه ولم تبال
ولّت فألقته على الرمال
فلم أكن ظني بالمغالي
قيل الإتول الشائع الأفضال

ترقب تلك الضمر المندفقه
للجو من وقع الخطى وهّاج
قيل إكربت ومنه أشرفا
وسمع الصوت الذي يزدجر
والأشقر السابق في تلك الجدد
فقام ثم صاح يصدق الخبر:
ألكم بدا الذي بدا لي
وفارسًا غير الذي في البال
لا شكّ ألفت قدرًا ذا بال
جازته والآن بلا انفصال
كأنني أسعى إلى المحال
طار العنان من يد الخيال
وقصّمت النير وبالإجفال
قوموا اجتلوا حقائق الأحوال
وخلتني أبصر في الأوالي
روّاض متن الجرد ذا الأهوال

ذيومذ القرم أخوا المعالي»

وصاح فيه حانقًا محتدًا:

هنا ابن ويلوس له تصدّى

«أَيُّدْمِين لَمْ تَكُن بِالْمَنْصَفِ هَرَفْتَ أَلْفَيْكَ بِمَا لَمْ تَعْرِفْ
فَتَلُكَ تَلُكَ الْخَيْلُ شَمَّ الْمَعْطَفِ تَنْتَهَبُ السَّهْلَ وَمَا الْأَمْرُ خَفِي
مَا كُنْتَ بِالْغَضِّ الشَّبَابِ التَّرَفِ بَلْ شَابَ أَنْظَارُكَ عَيْبَ الضَّعْفِ
وَالْهَذَرِ عَوْدَتِ بِقَوْلِ الْمَرْجَفِ أَفَقَّتْ أَهْلُ الْحَكَمِ فِي ذَا الْمَوْقِفِ
حَتَّى تَشَدَّقْتَ بِهَذَا الصِّلَفِ فَخَيْلٌ إِفْمِيلُ نَعَمْ لَمْ تَخْتَفِ
بَلْ لَمْ تَزَلْ فِي الصَّدْرِ لَمْ تَنْحَرَفِ يَدِيرُ صَرْعَهَا بَلَا تَكْلِفُ
فَقَالَ إِيذُومِينُ يَصْلَى حَنْقًا: «أَيَّاسُ تَسْمُو قَحَّةً وَحَمَقًا
وَمَنْطَقًا بِكُلِّ خَبَثٍ ذَلَقَا وَفِي سِوَى ذَاكَ عَجَزْتَ مَطْلَقًا
فَقُمْ وَخَاطِرُنِي فَأَيُّ صَدَقَا يَحْرُزُ قَدْرًا أَوْ إِنَاءً نَمَقًا
حَتَّى إِذَا أَتْرَيْذُ عَدَلَا نَطَقَا هُنَاكَ تَدْرِي خَاسِرًا وَمَنْفَقَا

أَيُّ جَوَادٍ فِي الرِّهَانِ سَبَقًا»
فَهَبَّ أَيَّاسُ عَلَى الْأَقْدَامِ يَثُورُ لِلْجَوَابِ بِاحْتِدَامِ
وَكَادَتِ الْفِتْنَةُ تَذْكُو ضَرْمَا لَكِنَّ آخِيلَ تَصَدَّى لَهُمَا
فَقَالَ: «إِيذُومِينُ أَيَّاسُ كَفَى لَا كَانَ مِنْ مِثْلِكُمَا هَذَا الْجَفَا
سِوَاكُمَا لَوْ حَلَّ هَذَا الْمَوْقِفَا عَنفَتُمَا فَاجْلَسَا وَانْعَطَفَا
أَقْبَلْتَ الْخَيْلَ انْظَرَاهَا تَعْرِفَا سَابِقُهَا مِنَ الَّذِي تَخْلِفَا» ٥٤
ثُمَّ ذِيَوْمِيذُ هُنَاكَ لَا حَا مَنِهَبًا بِخَيْلِهِ الْبَطَاحَا
تَسْبَحُ فِي الْهَوَاءِ وَالسُّوْطِ عَلَى أَكْتَافِهَا وَالنَّقْعِ لِلْجَوِّ عِلَا

وراءها مركبة المغار
طارَت فأضحى أثر الدولاب
حتى إذا بينهم حل انتصب
ومن صدورِها إلى الأرض اندفق
والسوط للمضمد ألقى وابتدر
فالبكر والدَّسيعة المكتسبه
إذا بأنطلوخ للقوم بدا
لكنه ما ند عنه وسبق
(إذا لدى مركبة القيل اندفع
قد كان مرمى كرة عنه ابتعد
ولو مجالهم يسيرًا طالا
ثم على مرمى مثقفٍ أتى
فليس ذا سلاهٍ كرام
وآخر الحلبة مقطوع الصله
وخيله يسوق في مجنته
وصاح ناهضًا: «أرى الجديرا
فلا نضع إقدامه المبرورا

تسطع بالنحاس والنضار
يوشك أن يخفى على التراب
ثم عن الكرسي للأرض وثب
كذاك من أعرافها رشح العرق
من فوره إستينلٌ إلى الخطر
ألقى لصحبه وحل المركبه ٤٦
قبل منيلا خدعةً لا مطردا
إلا كما الجواد بالنير النصق
وذيله حول المحالات ارتفع) ٤٧
لكن مضى بإيشا يجري وجد
لأحرز السبق وفخرًا نالا
حوذيُّ إيذومين مريون الفتى
وليس بالمضمار ذا إلمام
لاح ابن أذميت يجر العجله
فرق آخيل لدى رؤيته
بالسبق أضحى ها هنا الأخيرا
ذلك نال الخطر الخطيرا ٤٨

فلنجعل الثاني ذا الأمير» ٤٩

فاستصوبوا وكاد يعطي الحجر
وصاح: «يا آخيل إني أنقم
تحرمني حقي وأنت تزعم
قد أصبحت عن السباق تحجم
رام لما كان أخيراً يقدم
ففي خيامك المنال الأقوم
والغيد والخييل بها والنعم
من صلتني أوفى نعم وأعظم
كل السرى أنك أنت المنعم
ومن يعارضني به فالحكم
فهش آخيل له منتصبا
وقال: «مذ قد رمت أن أنيلا
فالآن يعطى الجوشن الثقيل
ذاك الذي طرحته قتيلاً

لو لم يعارض أنطلوخ جهرا
منك إذا اعتديت فيما تحكم
إفمیل فيه الخيل وهو الأيهم
فلو سراة الخلد عوناً منهم
فإن به تعنى وأنت الأكرم
من ذهبٍ ومن نحاسٍ يركم
أما له إن شئت فيها مغنم
عاجله بالبر إذن فتعلم
لكنني في مغنمي لا أرغم
ما بيننا الصم بها نستعصم»
إذ كان إلف وده منذ الصبا
من منزلي جائزة إفميلا
جوشن عسطوروف الصقيلا ٥٠
حلقه صفر زها جميلا

وهو جزاء خلته جليلا»

ثم إلى أفطومذ أشارا
فهبَّ من ساعته وسارا
وأحضر الدرع وإفمیل حبا
بها ففاض جذلاً وطربا
لكن منيلا قام واري اللهب
على ابن نسطور وبادي الغضب

من كف فيج صولجاناً قبضا
وصاح: «أنطلوخ يا ذا العقلِ
وسمت شاني الخذل شر الخذل
جزت سراحبي الكرام الأصل
هَيُّوا افصلوا ما بيننا بالعدل
«غدرًا منيلا قد غدا يستعلي
«والبأس لا بالجري فوق السهل»
ولا إخالني رهين العذل
قم أنطلوخ وفق عرف الأهل
والسوط ذا السوط الذي من قبل
يدًا على الخيل أمام الكل

يأمر بالصمت السرى مذ نهضا ٥١
لم اجترحت اليوم شرَّ الفعل
أخرجت خيلي وبخيلٍ خطل
فيا سراة القوم آل الفضل
كي لا يقال بعد هذا الفصل:
وأحرز الحجر بفضل النبل
وهاكم حكمي بذا المحل ٥٢
إذ إنني بالحق حكمي ألمي
وقف هنا قرب الجياد مثلي
سقت به اقبض بيدٍ وخل
واخلف بهدَّام الورى الأجل

فقال: «صبرًا يا منيلا صبرا
فنزق الشباب تدري خيرا
جهل الصبا هذا وأنت أدرى
أنت إذن بالعفو كنت الأحرى
وإن تشأ زدت صلاتٍ أخرى
من أن تسومني قَلَى وهجرا

أنك لم تغدر ولم تحتل لي»
جاوزتني سنًا وفقت قدرا
يدفع فورًا ويضلُّ الفكر
فالطيش فيه علَّةٌ لا تبرأ
فدونك الحجر فخذها جهرا
فذاك خيرٌ لي يا ابن أترا
وعند آل الخلد أجنبي وزرا» ٥٣

وقادها بيده يلقىها
ومثلما السنبُل (والطلُّ فرش
كذاك يا أترىذ بُبُك انشرح
وقال: «أنطلوخ عفت الغضبا
قد كنت دوّمًا ذا حجّى مهذبًا
لا تخدعن بعد قليلًا أنجبا
غُلّي وقد شاهدت فيما ذهبًا
أنت وثرسيميد ذاك المجتبى
عذرك قد قبلته مستصوبا
ليشهد الإغريق في هذي الربى
ثم إلى رفيقه نومونا
لذاك بالمرجل أترىذ ذهب
إذ كان تاليًا أتى على أمد
لذاك بالكوب آخيل راحا
«خذ أيها الشيخ فهذا الذخر لك
ولن تراه بعد في هذي الدرك
عجز فلن تكون ممن اشترك

إليه فاعتز بها بدورها
حبابه في مائد الزرع) انتعش ٥٤
وغلة الغم على الفور أطرح
والآن لي الإذعان والغيط خبا
لكنما بالعقل قد عاث الصبا
منك فلا سواك فورًا أذهب
كم نصبًا عانيتم ونصبا
والشيخ نسطور وكنت السببا ٥٥
والحجر لي خذها حالًا طيبا
أن جناني العسف والكبر أبى»
ألقي بها فاقنادها مأمونا
وخصّ مريون بشاقلتي ذهب
وصلة المرتاح لم ينل أحد ٥٦
يهدي إلى نسطور ثم صاح:
ذكرًا لفطرقل الذي آه هلك
إليك قد أهديته إذ أثقلك
لا بلكامٍ أو صراع أو سلك

في العدو والطعن بهذا المعترك» ٥٧

والكوب ألقاه له فطابا
«بني قد نطقـت بالحـق نعم
آه فيا ليت شبابي ما انصرم
لما الإفيون ببفراس النعم
وولده قد أجزلوا والحشد تم
فلم يكن في كل هاتيك الأمم
كذا من الإيتول من معي انتظم
معي لكأما فانشئ واري الألم
نحوي صراعاً فانشئ بادي الندم
بعده قصّر عني واعتصم
وفولذوراً جزت مأثور العظم
أفـز وإن كان له القدر الأهم
قبلي يغـمـان خير مغـتـم
والتوأمان انبريا فذا اقتحم
ذلك شأني كان من قبل الهرم
أتمم إذن مآتم إلفك الأحـم
ذحرك إذ أكرمت يا نعم الكرم

نفسًا ومن ساعته أجابا:
قد وهت الكفّ وخارت القدم
ودام لي إقدام غابر القدم
سعوا إلى دفن عمار نقا الحكم
جوائز الألعاب حتى تقتسم
منهم ومن فيلوس أرباب الشيم
فياقلطوميذ بن إينفس اصطدم
ثم الفلوروني أنقاص هجم
ثم إفكلوس الفتى من اتسم
ثم بزج الرمح فيلاس الأشم
لكنني بسبق العجال لم
فولدا أكتور أدركا العلم
والفوز للكثرة بالفضل حكم
بسوطه وذا الأزمة استلم ٥٨
والآن للفتيان إبراز الهمم
وها أنا أقبل بالبشر الأتم
حرمة شيخٍ كان من أهل الحرم

فلتجرك الأرباب موفور النعم»

الملاكمة

فبعد أن أصغى إلى نسطورا
مستحضراً جائزة اللكام
ماريض بل يوشك أن لا يقربا
وصاح: «أي اثنين فاقا الجندا
فليرزا فذا الجزأ أعداً
وشهد الجمع له فيهدى

آخيل راح يخرق الجمهورا
بغلاً عتا في سادس الأعوام
وقدحاً لمن عياناً غلبا ٥٩
وفي أساليب اللكام اشتداً
فمن بنصر فيبس أمداً
إليه ذا البغل القوي جدّاً

والكأس للمغلوب حقاً يسدى»

فقام قرم باسل كير
ألقى على البغل يدًا وقال:
فلا سواي البغل منكم نالا
حسبي أن لا أحسن القتالا
قلت وإنني صادقٌ مقالا
وليعدد الصّحب له الرجالا
فصمتوا طرّاً سوى فريال
فرع مكست بن طلاووس ومن
قد كان في مآتم أوذيب ظهر
ونحوه ذيومذ مستهضاً

إفيوس فانوف الفتى الخبير
«يا من يروم القدح ابرز حالا
فتى ومثلي خاض ذا المجالا ٦٠
من ذا الذي كلّ مجالٍ جالا
من قام لي قطعته أوصالا
تحمله مثقلاً نكالاً»
عدُّ بني الخلد أبي الأهوال
قد كان من أعظم لكّام الزمن
في ثيبةٍ وآل قدمسٍ قهر
بادر يبغي فوزه محرضاً

شدَّ له النطاق حول الخصر
فنزلا الساحة يرفعان
حتى هناك الجمع بالجمع اشتبك
فانقضَّ إفيوس وفريال لطم
فلم يطق لهولها احتمالا
كالحوت والنوء بشمألٍ عصف
لكنَّ إفيوس انحنى عليه
وصحبه خفَّوا به والتوت
يسيل وهو لا يعي شعورا
كذا به ساروا بملء اليأس

والجُمع غشَّى جلد ثورٍ برِّي ٦١
كفيهما معًا ويلكمان
ورشح الأعضاء واصطك الحنك
بوجهه لطمَةً صنيديّ غشم
وارتجفت أعضاؤه ومالا
في الجرف بين زبد البحر ارتجف
يرفعه ما بين ساعديه
ساقاه والهامة أيضًا أهوت
نجيعه من فمه غزيرا
ولم يفتهم أخذ تلك الكاس ٦٢

الصراع

ثم انبرى آخيل للخطاب
يري القروم تحف الصراع
للصارع الفائز مرجل أغر
وللصريع غادة مروّعه
وصاح: «يا أبطال من منكم رغب
فقام أولاً أياس الأكبر

متدبًا لثالث الألعاب
محثّثًا لهولته الرّوّاع
قيمته اثنا عشر من البقر
قيمتها لا تتعدَّى الأربعه
بخوض ذا الميدان حالاً ينتصب»
ثم أذيس السائس المدبر

والنقيا واشتبكا يدًا بيد
في السقف بالبناء قائمين
لصد فعل الغيث والأنواء
والرشح سأل كغيث منهم
على الصفاح وفقار الظهر ٦٣
للفوز بالنصر وذاك الرجل
ولا أياس نال منه وطرا
فعند ذا صاح ابن تيلامونا:
وإن تشأ رفعتك الآن أنا

تمنطقا وبرزا بلا عدد
تلاصقا تلاصق الجسرين
قد رسخا بحكمة البناء
حتى عرى الأضلع كادت تنكسر
وكلف الدماء حمرا تجري
والكل وارٍ بأوار الأمل
فلا أذيسٌ بأياسٍ ظفرا
فضجر الحضار أجمعونا
«أذيس طال الأمر فارفعني هنا

وزفس موكول له باقي العنا»

ولم يكن ذاك لينسى خدعه
فالتوت الركبة ثم انقلبا ٦٤
والجمع يستعجب مما صنعنا
لكنَّه لم يقو أن يقلقله
كلاهما خرا يعفران
لكنما الأمر آخيل حسما:
كلاكما قد أبرز الحميه
كفَّا إذن لتبرز البقيه»

ثم على الفور أياسٌ رفعه
عنفاً على الساق أياساً ضربا
وفوق صدره أذيسٌ وقعا
ثم أذيس رام أن يحتمله
حتى لوى الركبة والقرمان
ثالثةً همّا بأن يصطدما
«كفى صراعاً وكفى أذيه
فلكما الجزاء بالسويه

وانفصلا وغادرا الصراعا
كلّ رداه ومضى فجلسا ٦٥

فسمعا وأمره أطاعا
ونفضا الغبار ثم لبسا

الحضر

حقّا من اللجين كان أحرزا ٦٦
ما مثله حق بذيالك الزمن
قوم فنيقيا به على اللجج
حيث به القيل ثواس أتحفوا
به ابن فريام لقاوون افتدى
والآن قد أبرز في مآتمه
وخير ثور قارح للأحق
من ثم بين القوم ناهضاً خطب
بخوض ذا الميدان حالاً ينتصب»
ثم أذيس اللبق النبراس
وانتظموا صفّاً على اقتراب
فانبعثوا انبعاث عداٍ ركض
لكن وراءه أذيس طبّقا
لصدرها قد دنت الوشيعة ٦٧

وخطر الحضر آخيل أبرزا
منهم مكيله سناً وزن
زخرفه أبناء صيدا وخرج
حتّى إذا لمنوس جاءوا وقفوا
وإفنس بن إيسن بين العدى
لذاك فطرقل عفا عن دمه
أعدّه خليله للسابق
وللأخير نصف شاقل ذهب
وصاح: «يا سراة من منكم رغب
فانتصب ابن ويلس أياس
فأنطلوخ سابق الأتراب
ولهم آخيل أعلن الغرض
إذا بأياس سريعا سبقا
يدنوا كما النسّاجة البديعه

(إذا بهما بنولها أمرت
خطاه في خطى ابن ويلس تقع
يجري على أعقابه ونفسه
والقوم طرًا يرتجون الغلبه
حتى إذا على الختام أشرفا
«عونك يا ربة قوي قدمي»
فشددت بالعزم معصميه
وحين همّا أن يصيبا الخطرا
أكبّ في خشي ثيارٍ ذبحا
به امتلا فوه وأنفه وخف
وأسرع ابن ويلس يليه
لقرن ذاك الثور حالًا مالا
«واخيصة الهمة والإقدام
وعن أذيس أبدًا تحامي
فارتفعت فقههة الجمهور
قال لهم مبتسمًا مسرورا
«هلاً أيا صحب خبرتم خبري

سلگا به تحوك ثم اجتريت
من قبلما العشير عنهن ارتفع
برأس آياس يثور قبسه
له وضجوا وهو عادٍ عقبه
أذيس فالاس دعا وهتفا:
وذلك الدعاء في الحال نمي
وخففت بجريه رجليه
آياس فالاس رمت فعثرا
آخيل في مآتم فطرقل ضحي
أذيس أولًا إلى أولى التحف
والخشي حشو أنفه وفيه
وصاح وهو يتفل الدمالا ٦٨
فربةً تلك لوت أقدامي
كالأم منذ غابر الأيام»
وأنطلوخ صاح بالحضور
وإن غدا مغنمه الأخير:
آل العلى تجلُّ قدر العمر

أياس فاتني نعم بنزر
شيخ ولكن ذو جنانٍ نضر
لكن أديس إلفُ ذاك العصر
ما معه قطُّ بهذا الدَّهر

خلا آخيل من مجارٍ يجري» ٦٩

أجاب آخيل لذا الإطراء:
«ما كنت مدَّاحي بلا جزاء ٧٠
لذاك قد زدتك من جبائي
وعاجلاً نفحه بالذهب
نضار نصف شاقِلٍ وضَاءٍ»
فراح معتزاً بملء الطرب ٧١

الطعان

ثم أتى بعاملٍ طويل
سلاح سرفدونٍ الذي استلب
بين الجموع طرح الجميعا
ل من في القوم قرماً صد
إلى الطعان بين كل الجند
بطعنه فوق الحديد الصلد
ذاك الذي اكتسبته بجدي
لكن سلاح سرفدون نهدي
ولهما مني جميل الوعد
فقام آياس التلاموني
وخوذةٍ ومجوب ثقیل
فطرقل لمَّا ذلك القرم غلب
وصاح يستهضهم سريعاً:
فليرزا بكل ماضي الحد
ومن هنا سالت دماء الند
نعطيه سيف عسُطروف الجلد
قتيره الفضیُّ زاهي الوقْد
إلى كليهما شعار مجد
في الخيم أدبة بضافي الرغد
ثم ذيوميذ الفتى السري

وبرزا بروز ليثِ واثب
بأعين قادحةٍ شرارا
لهوله ارتاع جميع العسكر
ظبي القنا ثم أياس طعنا
في الجسم بل في اللأمة الرمح اختلج
به أياس طالبًا مقابلا
من تحت ترس ذلك الصنديد
وأمرؤ بالكف خوف الباس
لكن آخيل بلا إبطاء
والغمد والنجاد ثم قاما ٧٢

تسلحا في طرف الكتائب
يحتدمان للقاء أوارا
تدانيا ووقع ذاك المنظر
كرًا ثلاثًا وثلاثًا أعلنّا
فخرق المجوب لكن ما ولج
ثم ذيوميذ أجال العاملا
يرقب فرصة لشتى الجيد
فأشفق القوم على أياس
وقسمة الجزاء بالسواء
ألقى إلى ذيوميذ الحساما

الكرة

هائل أكرة من الحديد ٧٣
من قبل أن تدركه المنون
بفلكه استقل كل ما ملك
منك ألا ما الآن فورًا أسرع
مهما نما مزرعه واتسعا
لبلدٍ يبغي الحديد المودعا

يلقي على مرأى جميع الصيد
كان بها يقذف إيتيون
به أخو البأس آخيل مذ فتك
فصاح: «من بذل الجزاء طمعا
فهو لمن أبعد مرمى رفعا
ما بعد ذا خمسة أعوام سعى

لحارث الأرض وللذي رعى
فهَبَ فوليفيتَّ الجبار
ثم أياس الأكبر المغوار
أولهم إفيوس ألقى بالكره
فقهقه الجمع وبعده قذف
وإذ بعزم زنده مشتدا
لكن فوليفيت لَمَّا ألقى
فانبعثت بمشهد الحضور
كبعد مرمى محجن البقار
والجمع ضجَّ وبتلك الصلة

النضال ٧٥

ثم آخيل صاح بالنبال
عشرين من صلد الحديد قد أعد
ثم على مسافة في السهل
بمسدٍ دقَّ عليها علَّقَا
حتى تكون الغرض المقصودا
«الأفؤس الأولى لمن أنيلا

بل فيه ما يكفيه هذا المطمعا» ٧٤
ثم لينط الباسل القهَّار
والقرم إفيوس وصفا داروا
فاندفعت دائرة منتشرة
بها لينط ثم آياس وقف
رمى بها مرماهما تعدَّى
بها على الجميع حاز السبقا
مبعدةً عن مجلس الجمهور
يغلُّ فوق راتع الثيار
لفلكه أصحابه بادرت

يطمعهم بالأفؤس الغوالي
عشراً بحدَّين كذا عشراً بحد
ساريةً أركز فوق الرَّمْل
حمامةً برجلها قد أوثقَا ٧٦
ثم دعا يستهض الجنودا:
بأن يصيب الطائر الذليلا

ثم يصيب المسد المفتولا»
مريون تبع إيذمين واعترض
فلاح طفقىر بيدء الأمر
لكن عن التذور عفواً غفلا
من غرر القربان أكبار الغنم
إذ إن فيسسا بغى إرغامه
مريشه والجبل في الحال انقطع ٧٧
حلّق في الجو وكل الجمع ضج
يديه سهمه بلا توقّف
ضحيةً لذي السهام تُدّخر ٧٨
مسدداً والطير في السحاب
ثم لدى مريون في الترب ارتكز
أهوى هديل الجبح لاوي الجيد ٧٩
وللثرى عنهم بعيداً سقطا
عليه راقبته باستعجاب
نال وباقيها لطفقىر خلا ٨٠

وذى لمن يخطئه قليلا
فهبّ طفقىر الأمير ونهض
فاستقسما بخوذةٍ من صفر
بالعزم والزّماع سهماً أرسلّا
لفيسسٍ لم ينو عندما عزم
فلم يصب بسهمه الحمامه
لكن إزاء الرجل في الجبل وقع
ومال والطائر مذ نال الفرج
فانتاش منه القوس مريون وفي
ومئة الخراف أبكاراً نذر
ورشق النبل بلا اضطراب
فمن جناح الطائر السهم برز
والطير فوق الدقل الموتود
فخمدت أنفاسه وهبطا
وأعين الجميع بانصباب
لذاك مريون الفئوس الأولى

المراشقة

ثم آخيل عاملاً مثقفا ألقى وألقى مرجلاً مزخرفاً
مزيناً بصور الأزهار لم يعمل قط بعد فوق النار
جائزةً للزَّامح المجيد بالرشق بالصعاد من بعيد ٨١
فقام ذو الطول أغاممنون كذا انبرى منتصباً مريون
فصاح آخيل: «وهل منّا أحد يجهل يا أتريد كم فقت العمد
وكم بزج وقى كنت الأشد إذن لك الجزاء بالحق معد
خذه إلى فلكك من غير مرد وإن تشأ ما شئت في هذا الصدد

فلنحب مريون بذأ الرمح وقد

بذاك أتريد له أبدى الرضا والرمح مريون جباه فمضى
ثم استقلَّ الخطر النفيسا يلقي به للفيج تتيوسا ٨٢

هوامش

(١) يرى الجرم الغفير من شراح هوميروس وقرَّائه أن هذا النشيد والذي يليه لم يكونا في الأصل من الإلياذة، وإنما أضيفا إليها بعد حين، وحجتهم في ذلك أن وقائع الإلياذة انتهت بمقتل هكتور، وليس في هذين النشيدين شيء من مواقع الطعان، ومواقف الجيشين حول إليون وهي محصورة؛ ولهذا خطأ بعضهم هوميروس على إضافة هذين النشيدين، وقال آخرون: بل هما من نظم شاعر آخر ألصقهما بالإلياذة.

وكلا القولين فيما أرى خطأ فاحش؛ أما القول بكونهما لشاعر متأخر فغير معقول، وأي قريحة تنتج من مثل هذه اللآلئ ولا تحرص على إحراز فخر ابتداعها فتنسبها إلى غيرها، وإن قيل: إنه ربما ذهب اسم الناظم ضياعاً بتقادم العهد فهوميروس أقدم عهداً على ما يعلمون، وفضلاً عن ذلك فلسسة الإلياذة حلقات آخذ بعضها برقاب بعض، فحينما بدا تراخ ولو طفيف في تلاحمها ظهر ذلك ظهور الشمس كما أبنا الأمر في مواضعه. وأسلوب نظم هذين النشيدين ولغتهما والتصرف بمعانيهما وارتباط حوادثهما بما سلف، كل ذلك يؤيد القول بأنه لا يمكن أن يكون ناظمهما إلا ناظم ما تقدمهما من الإنشاد كما أسلفنا في المقدمة.

أما تخطئة هوميروس على إلحاقهما بالإلياذة فخطأ أعظم؛ لأنه لم يفت القارئ اللبيب أن موضوع المنظومة غضب آخيل، وليس مقتل هكتور، وذلك يبين من أول بيت في أول نشيد، فلو اقتطع الشاعر منظومته عند مقتل هكتور لكان في وقوفه نقصٌ يلام عليه؛ إذ لم يبد بعد من أوجه الغضب إلا أوجه العنف والانتقام، فلو وقف بنا الشاعر هنا لمثل لنا آخيل - وعليه بنيت كل المنظومة - وحشاً ضارياً لا بطلاً أنوفاً أبيّاً تزينه على خشونة الأبطال مزايا أكرم الرجال - كان آخر عهدنا به يشق عقبي هكتور، فيشده إلى مركبته فيجرره على الثرى جر الهوان بعد أن شفى غلته بقتله، وهي فعلة لامه عليها نفس الشاعر، ولم تر بعد شيئاً من حلمه وسكينته وعفوه ورفقه بوالد هكتور الشيخ اليفن، ودفعه إليه

جثة ابنه لتدفن دفن الرفعة والإجلال، أفيكون النشيدان دخيلين لا أصليين، وفيهما هذه الحلية الرفيعة والحلة البديعة.

ثم لا يفوتن أولي الأدب أن هوميروس لم يكن راوية قصاصاً يحوم بالمطالع حول ضالته، وهي دفينه في ثنايا مخيلته ويظل يراوغه إلى آخر الرواية، حتى إذا استنزف صبره أبرزها له في الختام على أحد صورها، وغادره وشأنه يطلق لفكرته عنان التصور بقياس ما سيكون على ما كان، بل هو شاعر مؤرخ يفرغ التاريخ بقالب شعري، ويدون روايات كان معظمها معروفاً في عصره فوشاها ورصعها وما ابتدعها، وإنما ابتدع فيها أبحار المعاني، وشاعرٌ مهذب حكيم يأتيك بالحكمة من حيث لا تدري وبمثلها لك تمثيلاً فلا تُمحي من ذاكرتك، فينطق لك الحي والجماد وما هو منطق غير الخلق العظيم، وشاعرٌ عالم يحيطك علماً بما بلغه عصره من معرفة، وما ادخره من علم ضاع لولاه، وشاعر مطرب مجيد اجتمعت فيه علاوة على ما تقدم كل مزايا الشعراء، فلم يكن من شأنه أن يتر منظومته في آخر النشيد السابق ويلقي علينا عبء التكهن بما سيكون من مآتم فطرقل ومناحة هكطور، وما يتبع ذلك من فوائد لم يستبقها لهذا الموضع إلا لعلمه أن مدخر لها موضعها.

ولا بدّ من التنبيه إلى فائدة أخرى لا تحصل إلا بتلاوة النشيدين الأخيرين، فلطالما رأينا الشاعر أثناء تدوين مواقعه يضع نفسه موضع سامعه، فإذا أنس منه ملأاً من إطالة شرح فُكْهة بقصة تعترض في

الحديث أو نكتة تلهيه هنيهة أو حكمة تصرف عنه العناء، فينتقل مع جلسه من باب إلى آخر، وهذا دأبه أبداً حتى لا تأخذ السامع السآمة فيظل متشوقاً إلى ما يلي، متشوقاً إلى استتباع البحث، فإذا كان هذا شأنه في كل نشيد من إنشاده فما الظن بمجمل منظومته، لقد كان هوميروس أعظم من أن يجهل أن من أتى على تلاوة آلاف من الأبيات، ورأى ما رأى فيها من طراد، وجلاد، وأسنة حداد، وأزمات شداد، لا بد أن يتوق إلى الابتعاد عن مواقف الحرب، ويغادر الطعن، والضرب ليأنس بمشهد جديد يخفف به عن نفسه، ويسكن تأثر حسه، وإن لم يكن من محسنات هذين النشيدين إلا هذا لكفى.

(٢) الخميس: الجيش، والسرى: رؤساء الكتائب. رأينا في النشيد السابق أن آخيل قتل هكتور، وهم بالهجوم على إليون، ثم فكر بفطرقل فارتد بالجيش ليقم له مأتماً ويدفنه، فانحل عقد الإغريق، ورجع كلٌّ إلى سفينته، وأما هو فحفظ نظام جنده إجلالاً لرفيقه، وهذا ما يدعونه اليوم بتأدية واجب الشرف العسكري (Honneurs Militaires)

(٣) نظمنا هذا النشيد من بحر الرجز، واتبعنا فيه أسلوباً جديداً فجعلنا قوافيه في الخبر كسائر الأراجيز المزدوجة، أي: مصرعة شطرين شطرين، وأما في الإنشاء فأراجيزه مقفاة؛ إذ تتوالى القوافي إلى أن يتم الخطاب كما ترى في تعريب كلام آخيل هنا.

(٤) الوضيمة: طعام المآتم، وهي في اليونانية (Ταπον)

ومعناها المدفن، ويراد بها طعام المآتم على الإطلاق سواء كان قبل الدفن، كما ترى هنا أو بعده، كما سيأتي في النشيد الأخير بمآتم هكطور، إن إقامة اللوائم في المآتم عادة قديمة جدًا أخذها الرومان عن اليونان، ووصفها شاعرهم فرجيليوس، ولا تزال متبعة في كثير من بلاد الشرق وأفريقية، وكان لها شأن في جاهلية العرب. راجع مآدب العرب (ن: ٢٢).

(٥) مما قال المهلهل بعد قتل أخيه كليب:

ولأوردن الخيل بطن أراكه ولأقضين بفعل ذاك ديوني
ولأقتلن حجا حجا من بكركم ولأبكين بها جفون عيوني
حتى تظلّ الحاملات مخافة من وقعنا يقذفن كل جنين

وما أبلغ ما قاله الإمام علي عند دفن امرأته فاطمة: «السلام عليك يا رسول الله، عني وعن ابنتك النازلة في جوارك والسريعة اللحاق بك، قلّ يا رسول الله عن صفيتك صبري ورقّ عنها تجلدي إلّا أن لي في التأسّي بعظيم فرقتك وفادح مصيبتك موضع تعزّ، فلقد وسدتك في ملحودة قبرك وفاضت بين نحري وصدري نفسك، إنا لله وإنا إليه راجعون، فلقد استرجعت الوديعة وأخذت الرهينة، أما حزني فسرمد، وأما ليلي فمسهد إلى أن يختار الله لي دارك التي أنت بها مقيم، وستنبئك ابنتك بتضايف أمتك على هضمها فأحقها السؤال واستخبرها الحال، هذا

ولم يطل العهد، ولم يخلُ منك الذكر، والسلام عليكما سلام مودع لا قال ولا سئم، فإن أنصرف فلا عن ملالة، وإن أقم فلا عن سوء ظن بما وعد الله الصابرين».

(٦) الرتوت: الخنازير.

(٧) الجاحم: الوقود.

(٨) كان القدماء يتفننون بمظاهر الحزن والحداد على الميت، فقد جاء في التوراة أمثال ذلك كلبس المسوح، والإمساك عن الأكل، والتمرغ في التراب، والامتناع عن الغسل، وفي أخبار عرب الجاهلية شيء كثير من هذا القبيل، قالوا: إن المهلهل إذ بلغه خبر قتل أخيه كليب جز شعره، وقصر ثوبه، وهجر النساء، وترك الغزال، وحرّم القمار والشراب إلى أن يأخذ بثأر أخيه، وكان العرب يحرمون الخمر على أنفسهم إلى أن يدركوا ثأرهم، وفي مثل ذلك يقول امرؤ القيس وقد ظفر ببني أسد ثأراً بأبيه:

لا تسقيني الخمر إن لم يروا	قتلي فثاماً بأي الفاضل
حتى أير الحي من مالك	قتلاً ومن بشرف من كاهل
ومن بني غنم بن ذودان إذ	نقذف أعلاهم على السافل
نعلوهم بالبليض مسنونة	حتى يروا كالخشب الشائل
حلت لي الخمر وكنت امرأ	عن شربها في شغل شاغل

(٩) أي: لن تتلظى بحذف التاء، وهو كثير في كلام العرب سواءً كانت التاء الأولى للتأنيث كما قال الفرزدق:
ألا قطع الرحمن ظهر مطية أتننا تمطى من دمشق بخالد
أي تتمطى، أو للخطاب كما جاء في سورة النساء: «واتقوا الله الذي تساءلون به» أي: تتساءلون.

(١٠) إن في ظهور روح فطرقل لآخيل لمشهدًا جديدًا من أجمل مشاهد الإلياذة، والاعتقاد بظهور أرواح الأموات للأحياء نشأ مع نشوء الإنسان، ولا يزال في أكثر الملل والنحل، وقد أراد الشاعر هنا أن يبلغ بالسامع إلى منتهى درجات التواد والتواثق بين الخليين، فلم يقف عند ذكر ما تقدم من تفاني فطرقل حيًا بخدمة آخيل، ووفاء آخيل وتفجعه على فطرقل وتمنيه لو فداه بنفسه، واقتحامه غمرات الموت انتقامًا له واشتغاله مع كل الجيش بمأتمه، بل أراد أن يظهر أن ذلك الود الصميم لبث مستقرًا في روح فطرقل بعد انفصالهما عن جسمه على حد قول بعضهم:

ولو وقفت ليلي بقبري وقد عفت معالمه واستفتحت بسلام
لحنت إليها بالتحية رمتي ورنيت بترجيع السلام عظامي

(١١) يتضح من هذه الأبيات أنهم كانوا يعتقدون أن لورع الأحياء دخلًا بسعادة الأموات، وهو ما لا يزال يعتقد فريق عظيم منا،

إلا أنهم يزعمون أن إقامة المآتم تعجل بتخفيف وطأة العذاب عن الميت، وقد تقدم أنه لا بد لكل نفس من أن تنحدر بعد الموت إلى الظلمات، ومن ثم فإما أن تبقى هناك وإما أن تعبر نهر الستكس إلى مقام الصلاح، وتظل الروح هائمة إلى أن يحرق الجسد أو يدفن، وإذا بقي الجسد في العراء فإن الروح تبقى مئة عام هائمة على وجهها.

ومن هذا القبيل ما كان يعتقد العرب من أنه إذا قتل الرجل ولم يؤخذ بثأره خرج من رأسه طائر يسمى الصدى، ويسميه بعضهم الهامة، فلا يزال يصيح على قبره اسقوني حتى يؤخذ بثأره، ومنهم من كان يزعم أن ذلك الطائر هو نفس الإنسان تنشط من جسمه إذا مات أو قتل، قال المجنون:

فلو تلتقي في الموت روحي وروحها ومن دون رمسينا من الأرض منكبٌ
لظل صدى رمسي وإن كنت رمةً لصوت صدى ليلي يهش ويضطربُ

وقال آخر:

فيا رب إن أهلك ولم ترو هامتي بليلى أمت لا قبر أعطش من قبري

ومن مزاعم العرب أيضاً أن الميت يبعث بجسده من قبره، فكان عندهم من لوازم رعايته أن يعقلوا ناقته عند قبره ويتركوها حتى تموت يزعمون أنه يركبها إذا بعث من القبر، وفي مثل ذلك قال المجنون يرثي أباه وقد مات قبل اختلاط المجنون وتشوشه:

عقلت على قبر الملوح ناقتي بذئ السرح لما أن جفته أقرابه

ويسمون الناقة المعقولة هكذا البلية.

(١٢) كانوا يعتقدون أيضاً أن روح الميت لا تظهر للأحياء وتخطبهم إلا أثناء هيامها في لجج الأرض، أي: قبل أن تنخرط بين الأرواح في سقر، وإذا خاطبتهم فقد تنجلي لها الغوامض فتتطق بما هو مكنون في الغيب، كإنباء فطرقل آخيل هنا بأنه قد سطر في القدر أن يقتل في أكناف سور إليون.

(١٣) أي: صفنا الكعاب عسكرياً نلعب بها، ولعب الكعاب إن لم يكن أقدم لعب الصبيان فهو بلا ريب من أقدمها.

(١٤) يرمي فطرقل بل روحه في هذا الكلام المؤثر إلى غايتين: أن يسارع آخيل إلى إقامة مأتمه، وأن يدفن رماد الخليلين في حق واحد حتى يظلا مجتمعين حيين وميتين. وهذا الأمر الأخير كان ولا يزال مطمع جميع المتحابين في كل ملة ودين. قال مجنون ليلي:
ألا ليتنا نحيا جميعاً وإن نمت نصير إذا متنا ضجيعين في قبر

ومثله قوله:

ولو شهدتني حين تأتي منيتي جلا سكرات الموت عني كلامها
فيا ليتنا نحيا جميعاً وإن نمت تجاوز في الهلكى عظامي عظامها

راجع (ن ١٦).

(١٥) أسبل الجند على جثة فطرقل نواصي الشعور كما نسبل على النعش في أيامنا أكاليل الزهور، ولقد علمت مما مر أن عادة إطلاق الشعر كانت شائعة عندهم، كما كانت شائعة بين أكثر أمم المشرق كالعبرانيين، ومن ولهم من العمونيين والموابيين والأدوميين والعرب، وكما هي شائعة لعهدنا عند الصينيين وبعض قبائل البادية، وفي الأثر أن الإسكندر قص شعره حزناً على صديقه هفستيون، كما فعل آخيل حزناً على فطرقل، ومن الروايات المشهورة في كتب العرب أن المهلهل قص ناصيته حين بلغه خبر قتل كليب أخيه كما تقدم. وكانت النساء أيضاً يحلقن شعورهن حزناً على الميت، ومعنى قولهم دعاءً على الرجل: «أملك حالق»، أنهم يدعون عليه بالموت، إلا أن قص الشعر لم يكن دائماً إشعاراً بالحنن بل ربما كان لحادث آخر من نحو دهشة وفرح ووفاء بنذر وما أشبه، ويقص العرب أيضاً ناصية الأسير، وفي مثل ذلك قول الخنساء:

جززنا نواصي فرسانها وكانوا يظنون أن لا تجزاً
ومن ظن ممن يلاقي الحروب بأن لا يصاب فقد ظن عجزاً

ومثله قول زهير في هرم بن سنان:

حذب على المولى الضريك إذا نابت عليه نوائب الدهر
عظمت دسيعته وفضله جز النواصي في بني بدر

ويقال عكس ذلك في الملل التي لم تكن تطلق شعر الرأس، فإنها إنما كانت تطلقه لأمر جلل، وهذا من قبيل الإمساك عن التزين مدة من الزمن في هذه الأيام لحلول مصاب، أما الطرواد فيظهر أنهم كانوا يقصون شعر الرأس ولكن بعضهم كان يتزين به أخذًا عن الإغريق، ولقد رأينا هكطور في النشيد الثالث يعير أخاه فاريس على إطالة شعر رأسه حلية.

(١٦) أسفرخيوس نهر في تساليا (اسمه الآن هلاذا) كانوا يعبدونه عبادة المصريين للنيل، وقد كان فيلا نذر له شعر آخيل كما نذر ممنون المصري شعره للنيل.

(١٧) الأبقور: البقر.

(١٨) أي: إنه أراد صرف الجموع ليتفرغ زعماء الجيش لإقامة مأتم فطرقل.

(١٩) الإبالة: حطب الوقود.

(٢٠) ذكر هوميروس قطع رءوس الاثني عشر فتى من أسرى الطرواد تدوينًا لجريهم على خطة ذبح الأسرى، ولكنه لم يفته أن أعلن استهجانه تلك العادة القبيحة، ولهذا استدرك بقوله: «وبئس ما صنع». كان العرب في جاهليتهم يقتلون الأسرى إلا من كان بينه وبين أسرهم موأكلة وممالحة فإنه يؤمن، وربما أخذوا عقال الأسير، أي: فكأكه

وأطلقوه بعد جز ناصيته، وكانت في مكة سوق لبيع السبايا والأسرى، أما السبايا فكُنَّ يستبقين إماء وزوجات، وأما الأسرى فكانوا إلا فيما ندر يباعون لذوي الثارات عليهم أو على عشائهم، فيقتلون بمن قتلوا، أو يفتديهم ذووهم وأصحابهم بمال يدفعونه إلى أسرهم، وكان افتكاك الأسرى من أعظم مفاخرهم، قال الحارث بن حلزة الإشكري:
وفككنا غل امرأ القيس عنه بعد ما طال حبسه والعناء

ولما جاء الإسلام بطل الأسر والسي من الإسلام، وفي الحديث: «لا سباً على عربي ولا سباً في الإسلام ولا رق على عربي في الإسلام». ولكن الأسر والسي ظلا مباحين للمسلم من غير المسلمين.
(٢١) كرر آخيل هنا نفس الخطاب الذي خاطب به فطرقل، ولكنه زاد عليه تشفيه من هكطور توطئة للأبيات التالية.

(٢٢) المراد من هذه الأبيات الخمسة أن جثة هكطور بقيت سليمة، فلو كان هوميروس مؤرخاً لقال: إن الهواء كان جافاً بارداً فلم يعترها الفساد، وكانت محاطة بالجند فلم تدن إليها الكلاب، ولكنه الشاعر المتصرف بالمعاني المتلاعب بالأفكار الموشي شعره برموز عصره، فأدخل فييس والزهرة وجعلهما العانيين بحفظ الجثة، أما الأول فلأنه ممثل الشمس، وهي التي تتصاعد بحرارتها الغيوم فأظلمت بسحابة حفظته من الحر، وأما الثانية فلأنها ربة الجمال، فكانها هي التي أولته تلك المحاسن وهكطور مشهور بحسن طلعته وطلق محياه.

(٢٣) الدبور: الريح الغربية، والرياح كانت كسائر ممثلات الشاعر أشخاصًا ناطقة بل آلهة فائقة، وهي كالشمس ذكور لا أناث، ولهذا استعملنا لها هنا وفيما يأتي ضمي العاقل فقلنا: «إذا بهم» ولم نقل: بها أو بهنَّ.

ويؤخذ من هذا الموضع وأمثاله من الإلياذة أن الآلهة كانوا يكثرون من المآدب والمآكل، وهو دليل على أنها كانت في تلك الأعصر الخوالي من أعظم أسباب المسرات والملاهي.

(٢٤) الحب: الخابية، وهي الزير يعرف أهل مصر.

(٢٥) الجساد: الزعفران من غريب ما استلفت نظري مرارًا في شعر هوميروس تنبهه إلى الكلي والجزئي، مما يعلق بمعاني شعره، فإذا كرر قولًا أو معنى فلا بد أن يلصق به ما يلائمه ولو بإشارة خفية، فقد ألبس الفجر ثوب الجساد في النشيد الثامن فقال:

كسا الفجر وجه الأرض ثوبًا مزعفرًا وزفس أبو الأرباب في أرفع الذرى

فكان المكسو وجه الأرض؛ لأنه كان يصف الأرباب وهم في معتصمهم العالي ينظرون إلى البر والبحر، وقال في النشيد التاسع عشر: ما اشتمل الفجر بثوب الجساد من يمه يبرز فوق البلاد

حتى انبرت فوق الخلايا

فأبرز الفجر صاعدًا من اليم بتلك الحلة؛ لأنه كان يصف ثيتيس بنت البحر، وهي صاعدة من اليم فجر يومها، وهو هنا يقول: بحلة الجساد فوق البحر

لأن الموقف في ساحل بحر وبين السفن.



حرق جثة فطرقل.

(٢٦) لو جردنا هذا الكلام من حلته الشعرية لقلنا: إن الرياح كانت ساكنة، فلم تلتهب النيران، ثم ما لبثت الرياح أن عصفت فأضرمت الوقود وعلا اللهب، حتى التهمت النار جثة فطرقل، ولكن

الشاعر حام حول هذا المعنى على جاري خطته، وإليك حل رموزه
حسبما شرحها افستاثيوس قال: إن إيريس ممثلة قوس قزح تدل على
الأمطار والرياح، ولهذا كانت هي الداعية للرياح فلبي نداؤها وقضيت
حاجتها: «ونهبوا طرًا لها إجلالًا» أي: إنه إذا ظهر قوس قزح تتحرك
الرياح.

فوقفت في عتبات الصخر تأبى وقالت بجميل العذر
ما لي إلى الجلوس من سبيل فإنني بنية الرحيل

أي: إن قوس قزح لا يقيم طويلًا ولكنه سريع الظهور سريع
الزوال، وولجت المحيط أو الأوقيانوس. أي: إن مادة قوس قزح من
الماء فلم يكن يصلح لها أن تمثل والجة في اليبس. وقوله:
إذا بهم (أي الرياح) في مجلس السرور على وليمة لدى الدبور

إشارة إلى أن طبيعة الرياح واحدة أو أن الغالب في تلك البلاد
هبوب الريح الغربية، وأما وقوف إيريس في عتبات الصخر وامتناعها عن
ولوج كهفهم، إشارة لطيفة إلى أن قوس قزح يظل سابحًا على سطح
الأرض فلا يتخلل الأعماق.

(٢٧) أراد آخيل بقوله هذا أن ينفذ وصية فطرقل فيودع رماده
في حق من الذهب ويدفنه، ثم لا يشاد الضريح على ما يجب إلا إذا
مات آخيل وضم رفات أعظمه إلى رماد أعظم فطرقل، فيقام لهما ضريح

واحد، وهكذا فإنهم على ما ترى كانوا يجمعون بين حرق الجثث ودفن رفاتهما، وقد تقدم لنا بحث في منشأ تلك العادة (ن ٧).

ومن بدائع فلسفة أبي العلاء المعري قوله مستحسنًا حرق الجثث:

فأعجب لتحريق أهل الهند ميتهم وذاك أروح من طول التباريح
إن حرقوه فما يخشون من ضيع تسري إليه ولا خفي وتطريح
والنار أطيب من كافور ميتنا غبًا وأذهب للنكراء والريح

(٢٨) أمامنا الآن بحثٌ جديد ووصف شائق للألعاب التي كانت تقام في المآتم، وقد أشار إليها في ما مر وهو الآن يفصلها ويوبئها، فشرع في السباق وأسهب فيه، ولا بدع فقد كان له المقام الأول في جاهلية معظم الأقسام.

(٢٩) السبق: جائزة السباق، ترى أن آخيل هو الذي يرأس هذه الحفلة مع أن الزعامة لأغاممنون، ولكن الشاعر خص آخيل بتولي هذه المهمة؛ لأن المآتم يكاد يكون مأتمه، وله خلا ذلك فخر النصر في ذلك اليوم، وقتل البطل المغوار هكتور الذي كانت ترتعد لهيبته فرائص الإغريق.

(٣٠) المجلي: هو السابق الأول من الخيل، والثاني المصلي، والثالث المسلي، والرابع المرتاح، وفي قول التالي وهكذا إلى العاشر،

فإن لكل منها اسمًا خاصًا به، وأما في الأصل اليوناني فقد عبر عن المجلي بالأول، ثم بالثاني والثالث والرابع، ولم أر هذا التخصيص بأسماء خيل السباق في لغة غير لغتنا، وقد جمعها الشيخ ناصيف اليازجي بقوله:

أول سابق هو المجلي	ثم المصلي بعده المسلي
تال ومرتاح عليه يقبل	والعاطف الخطي والمؤمل
كذلك اللطيم والسكيت	فاحفظ فما أعطيت قد أعطيت

(٣١) مر بيان ذلك في النشيد الخامس.

(٣٢) هنا إشارة إلى عادة كانت متبعة عند اليونان، ولها أمثلة بعدهم في تاريخ الرومان، ذلك أنه كان يقضي على كل رجل صحيح البدن أن يزحف في من زحف للحرب، وإذا بدا له أن يتخلف فعليه أن يقدم بدلًا عنه فرسًا أو فارسًا أو أكثر، وهو ما نعرف الآن بالبدل العسكري، ويؤخذ في بعض البلاد نقودًا، وكان البدل مألوفًا في جاهلية العرب، فإن أبا لهب بن عبد المطلب لم يحضر غزوة أحد بل أرسل من ينوب عنه فيها.

(٣٣) الجياد القب: الضامرة الرقيقة الخصر، وفي الأصل السريعة.

(٣٤) علم القراء مما مر ما لنسطور الحكيم في نفس الشاعر من التجلة والإعظام، فهو دائماً دائب على أن يجعل له في كل مقام مقالاً، وفي كل ميدان مجالاً؛ إظهاراً لفوائد فضله واستدراكاً لفرائد عقله ونبله، فلم يعدم وسيلة ينظمه بها بين فتية الفرسان في ميدان الرهان، فانطقه بهذا الخطاب الذي لم يكن يصح لغيره، فأوضح حالة الشيخ الذي إذا ضعفت ذراعه قويت حجته، وبهرت حكمته فيسد قوله المسند إلى مدخر دربته على توالي الأيام، مسد بأس ساعده الواهن بتقادم العهد وتتابع الأعوام، ومثل حالة الأب الحريص على تثقيف ولده المشفق عليه من الفشل أكثر من إشفاقه على نفسه من دنو الأجل، فلا تلوح له لائحة خير أو شر إلا ونبه إليها فمال به عنها، أو أقبل به عليها، حتى تكاد تخال أن البارز إلى ميدان السباق هو الأب دون الابن، وأنه هو الممتطي صهوة المركبة يميل بها يميناً ويسرى، ويجاول ويصاول ويسارع ويصارع ويهب ولا هبوب ابنه انطلوخ، ورسم صورة الحكيم الذي يفرغ قصارى جهده بإفاضة روح حكمته على ولده من بعده، فيعلمهم أن الرأي قبل شجاعة الشجعان والفوز للعقل والجنان دون اليد والبنان، خطة يختطها لهم بحياته يود أن يسيروا عليها بعد مماته، وهو غرس سيرينا الشاعر ثمره عما قليل، فإن جوادي انطلوخ، وإن لم يكونا من خيار الجياد فقد برزا بالطراد وفازا بالسبق فكأنما السابق حكمة نسطور دون همة أنطلوخ وفرسيه.

تلك هي الحيلة التي تدرع بها الشاعر لخرط نسطور بين هاته الفتية وما أجملها حيلة.

(٣٥) النصب: العلم المنسوب في منتهى الميدان.

(٣٦) المراد بالقطب: دولاب المركبة.

(٣٧) قوله: انتظموا صفًا فيه نظر، ذهب الأقدمون من رواة هوميروس إلى أن المتسابقين وقفوا صفًا يتقدم فيه أحدهم على الآخر، وإلا لما كانت بهم حاجة إلى الاستقسام لو كانت مواقف الجميع متساوية، وقالت مدام داسيه بل وقفوا صفًا متساويًا جنبًا لجنب، والفائدة من الوقوف أولًا أن للمتقدم مزية في قصر المسافة؛ إذ أن المضمار كان على شبه دائرة، وكلما بعد الراكب عن قطبها كان شوطه في الجري أبعد.

(٣٨) ابن فيريس أفميل.

(٣٩) لا يبرح من الدهن أن أفلون لا يزال ساخطًا على ذيوميذ لوقوفه في وجهه في النشيد الخامس.

(٤٠) أي: إنه أوقف الجياد وتناول السوط من على الأرض. وإنما وسط الشاعر فالاس إلهة الحكمة ليصبح سبق ذيوميذ لأفميل في ما يلي.

(٤١) يقول عرب باديتنا: «راعي الفرس سابق، وراعي الحصان مسبوق». يريدون بذلك أن الحصان وإن كان أحيانًا أعدى من الحجر

فإنه يجد في جريه حتى يبلغها، فإذا أدركها بقي وراءها، ولم يتعدها، ولهذا يؤثر في الغزو والسباق إناث الخيل على ذكورها.

ويستدل من كلام أنطيلوخ هنا أن الأمر كان بعكس ذلك عند اليونان؛ إذ أنه يعيب على جواده سبق حجر منيلاوس وهي أنثى.

(٤٢) لقد أنكر بعض الشراح على هوميروس إنطاق أنطيلوخ جياده بهذا الخطاب، وما هذا الإنكار إلا لجهل هؤلاء المنكرين مزايا الذوق الشعري، والذي يخاطب الأطلال والآثار هو أولى بمخاطبة الجياد في حلبة المضمار، وإليك مثلاً من الحريري يخاطب به أبو زيد السروجي مطيته بنفس خطاب أنطيلوخ ونفسه فيحث حثه ويقسم قسمه قال:

سروج يا ناق فسيري وخدي	وأدلجي وأوبي واسئدي
حتى تطا خفاك مرعاها الندي	فتنعمي حينئذ وتسعدي
وتأمني أن تتهمي وتنجدي	إيه فدتك النوق جدي واجهدي
وافري أديم فدفد فدفد	واقتنعي بالنشح عند المورد
ولا تحطي دون ذاك المقصد	فقد حلفت حلفة المجتهد
بحرمة البيت الرفيع العمد	إنك إن أحللتني في بلدي

حللت مني بمحل الولد

(٤٣) المهيح: الطريق المتسع.

(٤٤) المذكي: الفرس المسن.

(٤٥) هذا مشهد آخر من مشاهد السباق لا بد منه في كل مضمار، فقد أبان الشاعر فيه حالة الواقف موقف الشاهد؛ إذ لا بد له من أن يتمنى الغلبة لفريق دون آخر، إما لضلع له معه أو لغرض آخر، أو لميل تدفعه إليه نفسه، وهو لا يعلم مصدره، فلا غرابة إذن في مثل هذه الأحوال أن تتباين الأميال فيحصل الجدل، وقد يشتد فيعقبه القتال، وهذا ما أراد الشاعر إثباته، ولكنه جعله سليم العقبي بوساطة آخيل، ولو كان بين عبس وفزارة حكم كأخيل لما ثارت بينهم الحرب على إثر سباق داحس والغبراء.

(٤٦) استينيل رفيق ذيوميذ وحوزيه والخطر جائزة الرهان، أي: إن ذيوميذ وصل الأول، ولم يكن له معارض فبادر رفيقه إلى استلام الخطر المعد للمجلي، وهو الغادة البكر والدسيسة.

(٤٧) أي: إن أنطيلوخ كان بمزاحمته منيلاوس قد ابتعد عنه مسافة مرمى كرة (أو قرص)، أي: سبقه شوطاً غير يسير، ولكن منيلاوس جد وراءه فأدركه ولصق به، كما يلصق الجواد بمضمد المركبة، ويرتفع ذيله فوق دواليبها.

(٤٨) قوله: ذلك، أي: ذيوميذ.

(٤٩) لقد راعى آخيل بقوله هذا جانب الوجدان والرفق دون الحظ والعرف؛ لأن أفيمل وهو من أشهر فرسانهم كانت خيله أجود خيلهم جميعاً، وكان السابق في الشوط الأول، وإنما تأخر عرضاً لحادث طرأ له.

(٥٠) الجوشن: الدرع، فارسية معربة بلفظها.

(٥١) كانوا إذا أراد أحدهم أن يخاطب فيهم قبض على صولج وأشار به فيصمتوا، والغالب أن يتكلموا وبأيديهم صوالج الفيوج (وهم الرسل والمنادون)، وقد مرت أمثال ذلك (راجع ن ٢)

(٥٢) يقول: إذا حكمتم لي فاحكموا لي بالعدل، ولا تنحرفوا معي فتتيلوني الجزاء، لعلمكم إنني أشد بأساً من أنطيلوخ أو أرفع قدرًا منه فنحن في حلبة رهان فيجب أن نحسب متساويين.

(٥٣) يمثل لنا الشاعر أنطيلوخ بن نسطور الحكيم فتى طابت فطرته، وأحسن تربيته، ولكن نزع الصبا، وحب الفخار يدفعانه إلى الاسترسال في الغلواء، على أنه لا يكاد ينبه إلى خطئه حتى يرعوي بكرم عنصره، ويرى أن تلافي الوصمة أقرب إلى العصمة، وأن الإقرار خيرًا من الإصرار وأبقى.

(٥٤) أي: إن منيلاوس انتعش انتعاش السنبل إذا فرش الطل حباه على سنبله القائم في الزرع المائد.

(٥٥) يريد أن يقول: أعرف لكم صنيعكم بجهادكم معي في هذه الحرب، التي اضطرمت بسببي على هيلانة.

(٥٦) لم ينل أحد صلة المرتاح وهو الرابع؛ لأن جياد أفميل أتت رابعة وحكم له آخيل بالسبق كما رأيت، ثم حباه بصلة من عنده فبقي الكوب المعد للرابح بلا صاحب، ولم يكن أجدر به من نستور فأهداه آخيل إليه، وإن لم يكن له دخل في ألعابهم، وهي مراعاة لا أوقع منها في محلها.

(٥٧) هذا سباق اليونان لا يكاد يختلف عن سباق العرب بشيء من كلياته، إلا أن هذا على سهوات الخيل وذاك على سدد العجال، والسباقان في ما سوى ذلك متشابهان، فالحلبة والخطر والمضمار والخدع والشهود كلها تتشابه في الفريقين، حتى لقد يتشابه ما يحتاله المتخاطرون لإحراز قصب السبق على غير السبيل المشروع، فإن أنطليوخ احتال بما رأيت على منيلاوس، وقد حصل ما يشبه ذلك في سباق داحس والغبراء؛ إذ عقد قرواش بن هانئ العبسي وحمل بن بدر الفزاري رهناً على سباق هذين الفرسين، وكان أحدهما لقيس بن زهير العبسي والآخر لحذيفة بن بدر الفزاري، ثم أرسلوهما في المضمار، وكان حمل الفزاري قد أقام كميناً في الطريق حتى إذا سبق داحس ينفره لتسبق الغبراء، فكان كذلك ووقع الخلاف بين الحيين، فنشبت على أثره حرب قتل فيها خلق كثير في حديث طويل ليس هذا موضعه، وهم يتشابهون

أيضاً بإرسال الخيل وحشها ومخاطبتها بأسمائها، إلى غير ذلك مما يكاد يستوي به أكثر الناس مهما تباعدوا.

(٥٨) هذا نسطور كجاري عادته بل كجاري عادة الشيوخ يذگر القوم، ويفاخرهم بماضيه حيث لا يسعه أن يتفوق عليهم بحاضره، أشار بحديثه إلى خطر سابق كان الراح في كل أبوابه ما خلا السباق، واعتذر عن ذلك بغلبة الكثرة على القلة، وفي هذا القول إبهام لا يتضح للقارئ إلا إذا رجع إلى أصل هذه الحكاية في أساطيرهم، قالوا: إن مخاطر نسطور في ذلك الرهان كان فتى بل فتیان، لاصق أحدهما بالآخر منذ خلقا فلما برزا لسباق نسطور طلب أن يبرز معه فارس فذُّ مثله، فالفراس له يدان ولهذين التوأمن أربع أيدٍ فلهما مزية على الفراس الفرد، فلم يعبأ القوم باعتراض نسطور فجرى معهما وقصر وهذا تفسير قوله:
والفوز للكثرة بالفضل

والتوأمان انبريا فذا افتحم بسوطه وذا الأزمة استلم

قال الراعي:

فلست بالأكثر منهم حصى وإنما العزّة للكاثر

(٥٩) ترى أن الجوائز في جميع الألعاب كانت توزع على الغالب والمغلوب، حتى إذا أحرز الظافر فخر الغلبة، وعاد بصلة نفيسة،

لا يحرم المغلوب صلة دونها تجبر كسرهُ وتثبت أنه من ذوي الخطارة؛
لأنه لا يتبارى إلا الأكفاء أو الذين يكادون يكونون كذلك.

(٦٠) لا يصلح أن يكون الرابع في هذا المجال إلا بغلاً يجاز
بغلاً، وكأن هوميروس فطن لذلك فاختار للكّام عتلاً ضخماً الجثة قوي
الهامة، لم يكن له شيءٌ من الشأن في مضارب الفرسان، وأجاز هذا
البغل بغلاً نظيره.

(٦١) الجُمع: الكف حين تقبض. كان ذيوميد صديق أفريل،
ولهذا بادر إليه يحرضه وينشطه، ويلبسه لباس اللّكّام، فشد له النطاق
على حقويه وأعطاه قفاز الجلد ليغشي به كفه كما يفعل المتلاكّمون في
هذه الأيام.

(٦٢) هذا بلا ريب أقبح أنواع الرياضة، ولا أعلم وجه الحكمة
في بقائه حيّاً في بلاد تعد في مقدمة البلاد الحية، وأكثرها تفنناً في
الألعاب الرياضية، ولا أرى له أثراً في مخاطرات العرب في جاهليتهم.

(٦٣) يظهر من رؤية كف الدماء على جسدي المتصارعين أنه لم
يكن عليهما من اللباس إلا السترة المعتادة في مثل هذه الأحوال، وهو
ما لا يزال جارياً في بلاد العجم بين مصارعيهم (أو بهلوانيتهم).

(٦٤) هذه خدعة كثيرة الاستعمال بين المتصارعين، وهي حيلة
يلجأ إليها الأقل قوة، الأخف حركة، والعرب يقولون: ضربه الشغبية أو

الشعرية، إذا لف ساقه على ساق خصمه، وتقول عامة أهل الشام: «فركشه» ويقولون في مصر: «شكهُ مقلب».

(٦٥) حكم آخيل للمتصارعين بالجزاء على السواء، ولم يقل الشاعر كيف تساوت القسمة؛ إذ كان الجزاء مرجلاً قيمته اثني عشر ثوراً، وسبية قيمتها أربعة من الثيران، ولقد استاءت عقيلة داسيه لهذا البخس في قدر بنات جنسها، ولكن فاتها أن المراد هنا سبية رقيقة والأرقاء من الذكور كانوا يباعون بتلك الأثمان وأبخس منها، وفاتها أيضاً أن هوميروس وإن ذكر للنساء حطة كما قال في هذا الموضع، فقد بؤاً المرأة أعلى مراقي الرفعة في مواضع أخرى، أوليس هو القائل عن هيلانة: ليس بدعاً أن كان هذا سناها وعليها تلاحمت أمتان

لا شك أن الصراع أقدم ما مر وما سيجيء من الألعاب؛ لأنه الأصل في أسباب الهجوم والدفاع، كان له شأن عظيم عند العرب، كغيرهم وذكروا كثيرين ممن اشتهروا بقوة ذراعهم، وخفة بدنهم، ومن أشهرهم هلال بن الأشعر المازني ذكر له صاحب الأغاني وغيره أخباراً من قبيل الخوارق بغرابتها.

(٦٦) الحضر: العدو أو الركض.

(٦٧) الوشيعه: خشبة الحائك، أي: إن أوديس كان مطبقاً وراء أياس يكاد يلصق به، كما تكاد تلصق الوشيعه بصدر النساجة وهي تحوك، قال ذلك اطراءً لسرعة المتسابقين، ولا يخفى أن صناعة النسيج

والحياكة كانت من خصائص النساء عند الأقدمين، ولهذا قال هوميروس:
الحائكة، ولم يقل الحائك. ومثل ذلك قول المسيب بن علس؛ إذ شبه
سرعة مطيته بسرعة يدي المرأة التي تحوك ثوبًا، وقد همت قبل المساء
بإكمال جدّاده، أي: باقي خيوطه:
مثل السريعة بادرت جدّادها قبل المساء تهتم بالإسراع

(٦٨) الدمال: الخشي، أو روث الحيوان.

(٦٩) لم يكن أنطيلوخ بالفتى المكابر كما علمت من محاورته
مع منيلاوس، ولكنه غالبًا ومغلوبًا فتى لبقٌ متجمل بحكمة أبيه نسطور،
التمس لنفسه عذرًا حسنًا بتقصيره عن نديه، وختمه بمدح آخيل مدحًا
استماله فيه إليه.

(٧٠) إنه وإن كانت الإلياذة خلوا من البحث في مدائح الشعراء
وجوائز الملوك، فإنه يظهر من قوله: «ما كنت مدّاحي بلا جزاء» وأمثالها
أنهم كانوا يجيزون المدح بالمال الوافر نظير العرب، ولكنهم لم يغالوا فيه
مغالاة أصحابنا سامحهم الله.

(٧١) الحضر أيضًا مما كان يتنافس به العرب، ولهم عدّاءون
مشهورون، كالشفري، وشيبوب العبسي أخو عنتر، وتأبط شرًا، ولكن
أعداهم الحارث بن عمرو التميمي الملقب بسليك السلكة، قيل له
ذلك؛ لأن أمه كانت تلقب بالسلكة، وهي أنثى الحجل، وكانت العرب
تسميه سليك المقانب، وهي جماعات الخيل؛ لأنه كان أعدى العرب

على رجله لا تلحقه الخيل الجياد، وله بهذا المعنى أخبار عجيبة لا محل
لإيرادها.

(٧٢) يستفاد من ثلاثة مواضع بيان الطعان، أنه لم يكن
المقصود منه أن يقتل أحد المتطاعين الآخر، بل أن يجرحه فقط؛ إذ
قال أولاً: «إن الذي يسيل دم مباريه ينفخ بالجزء الأول». ولم يقل: إن
الجزء للقاتل، ثم جعل جزاء للطاعن والمطعون دلالة على أنهما ببقيان
حيين، وأرانا الشاعر بعد ذلك أنهم كانوا يراقبون المتطاعين، حتى إذا
خيف البطش بأحدهما فصلوهما، كما يفعل بلعبة السيف والترس في
بعض البلاد الشرقية وبالمبارزين بالسيوف في بعض بلاد الغرب، ومهما
كان من خشونة هذا البراز فهو أقل حماقة وأكثر معنى ولباقة من اللكام.
(٧٣) إن لفظة (Σολος) باليونانية لا تعني إلا كرة أو الكرة،
كما عربناها ولا تفيد القرص كما فسرهما الأكثرون، ولكن معناها قطعة
حديد على الإطلاق، فعربناها بكرة لقرب اللفظة إلى مفهومنا وعرفنا،
وفسروها بالقرص لقربها إلى لفظة (Δισκος) ومعناها القرص.

(٧٤) يقول: إن من ربح هذا الجزاء، فحديده يكفيه خمسة
أعوام مئونة السعي إلى المدن في طلب الحديد لمحراث أو سكين، وما
أشبهه.

(٧٥) النضال: المباراة في رمي السهام.

(٧٦) المسد: الحبل.

(٧٧) مريشه، أي: سهمه المريش.

(٧٨) ذو السهام: أفلون.

(٧٩) الدقل: السنارية.

(٨٠) قد رأينا أن طفقير كان أرمى رماة الإغريق، ومع هذا فقد قصر في نضال مريون، وذلك لأنه اتكل على براعته ومعرفته، ولم يتوسل إلى مولاه فكان الفائز مريون، وإنما فاز بتقواه دون قواه، وهي حكمة ينبه إليها الشاعر كلما سنحت له سانحة، ولقد رأينا قبل بضعة أبيات أن أوديس الكهل كان أعدى من فتيين، أطرأ الشاعر خفة أقدامهما مراراً، ولكن أوديس لم يتكل على خفة قدمه بل دعا فاستجيب دعاؤه. كان النضال من أسمى أسباب المنافسات في جاهلية العرب، وقد تقدم لنا ذكر نضال جميل وعتبة عشيقى بثينة (ن ٢٢).

(٨١) الصعاد: الحراب.

(٨٢) أحسن الشاعر أيما إحسان باستبقاء أغاممنون إلى آخر الحفلة، واستنهاضه للخطار بأمر يتبارى به الملوك والزعماء، فأدى الشاعر مفاداً كثيراً بهذا الكلام الوجيز؛ إذ أثبت أنه لم يكن يليق بأغاممنون، وإليه منتهى الرئاسة أن يبقى بمعزل عن القوم، فلا بد أن يمتاز بأمر خطير، ولم يكن يجدر به أيضاً إلا أن يهتم لمأتم فطرقل رعاية

لآخيل، ولم يكن يصح أن تختتم الحفلة على غير يده ففعل وكان الفائز، ثم وجب على آخيل بعد هذا أن يرعى حرمة أغاممنون فأجله وحكم له بالجزاء فوراً، وهي مجاملة لم يبدها لأحد غير أغاممنون، فثبت من كل ما تقدم أن التصافي قد أحكم بين الخصمين وزالت كل أسباب الخلاف.

النشيد الرابع والعشرون

إعادة جثة هكتور إلى أهله

مُجْمَلُهُ

أرفض جيش الإغريق إلى سفنهم يستطيعون الزاد والرقاد.
وظل آخيل والكرى قاتل الأسى بذكره فطرقلًا يؤرقه السهدُ

ولما لاح الصباح دار ثلاثًا حول قبر فطرقل بجثة هكتور،
فعطفت الآلهة على هكتور وسعت في إنفاذ هرمس لرفع الجثة،
فعارضتهم هيرا وأثينا، فاستدعى زفس ثيتيس فحاسنها وأنبأها بأنه يود أن
يعيد آخيلُ جثة هكتور إلى والده الشيخ، فذهبت ثيتيس بالأمر فاستمع
آخيل مطيعًا، ثم أنفذ زفس إيريس إلى فريام يأمره بافتداء ابنه، فأخبر
فريام امرأته بذلك فعارضته، ولم تدعن حتى اطمأنت برؤية نسر أرسله
زفس، فركب فريام مركبته واستصحب أذيوس وأدركه هرمس في السهل
ورافقه حتى أدخله إلى خيمة آخيل ولم يشعر به أحد، فقبل آخيل الفداء
وسلم فريام الجثة ووادعه أحد عشر يومًا ليتسنى له القيام بمأتمه، ولما
أظلم الليل أيقظ هرمس فريام وسار به قافلًا إلى إليون، ولما قارب البلد
أبصرت كسندرة ابنته جثة أخيها يعود بها أبوها، فصاحت وناحت واندفع
الناس أفواجًا لملاقاة ملكهم، فدخل فريام واستقبله الجمهور، ورثت
هكتورَ امرأته أندروماخُ وأمه إيقاب وامرأة أخيه هيلانة، ثم بادر الجمع

إلى الاحتطاب وأضرمو النار وقضوا بالمآتم عشرة أيام، ثم جمعوا عظامه
ودفنوها في قبر أعده له.
ولهم قسم المليك طعاما كان في مآتم الفقيد ختاماً

يستغرق هذا النشيد ثلاثة وعشرين يوماً منها اثنا عشر يوماً أثناء
إقامة جثة هكطور خيمة آخيل، وأحد عشر يوماً مدة الهدنة ومجرى
الحوادث في خيمة آخيل وإليون.

النشيد الرابع والعشرون

إلى الفلك لما ارفضّ ذيالك الحشد	تفرق يبغي الزاد والوسن الجند
وظلّ آخيل والكرى قاتل الأسى	بذكراه فطرقلاً يؤرقه السهد
ينوح على إقدامه وزماعة	وكل سجاياه لخاطره تبدو
ويذكر كم حرباً بها جُهداً معاً	وكم يعاب البحر نالهما الجهد
يكب فيستلقي يسيراً فينشي	على صفحتيه والهواجس تشتدّ
فينهض ملتاغاً تسح دموغّه	وفي الجرف يجري جري من فاته الرشد
فهام إلى أن أبلج الفجر ساطعاً	به يستضيء البحر والغور والنجد
لمركبه شدّ الجياد وخلفه	لقد شدّ هكطور على الترب يمتدّ
على قبر فطرقل ثلاثاً به جرى	وعاد ابتغاء النّوم للخم يرتدّ
وغادر هكطوراً مكباً على الثرى	ولكن فيوساً به هاجه الوجد

فمَدَّ عَلَيْهِ عَسَجْدِي مَجْنَه
فساءت بني العليا مهانتَه لذا
على أن آثينا وهيرا وفوسدًا
(على قدس إليون وفريام لبهم
ففاريِس سام الرِّبَّتَيْنِ مهانَةً
غدا قاضيًا بالفضل للرِّبَّة التي
ومذ لاح ثاني عشر فجرٍ مقالَه
«بني الخلد آل الجور كم ساق سخلةٍ
فها هو ميتٌ ليس من تستفرُّه
فترمقه زوجٌ وأمٌّ ووالد
يقومون بالفرض الأخير وحوله
فآخيل آثرتم وآخيل ما أرى
كليثٍ غشومٍ فاتكٍ متغشمرٍ
فما هو ذو رفيقٍ وقد غادر التقى
فقد يفقد المرء ابنه وشقيقه
فيسلو وللأقدار حكمٌ إذا مضى
وهذا آخيل منذ قَتَلَ عدوه
فما ذا ليجديه ومهما عتا فهل

فلا مَسَّهُ ضَرْ ولا مُزَّقُ الجلدُ ٢
لدى هرمسٍ طرًّا بإنقاذه جدُّوا ٣
تصدوا ولكن ليس يجديهم الصد
وأقوامه ما زال يلهيه الحقد
بمرعاه قدماً وهو غَضُّ الصبا وغدُ
أباحَت له بئس المنى ومضت تغدو ٤
أفلون ألقى يستشيط ويحتدُّ:
وثورٍ لكم هكطور من قبل أحرقا
لإنقاذه نفسٌ تجيش ترفقا
وطفلٌ وشعبٌ هامٌ جدًّا ليرمقا
تألق نيران الوقود تألقا
به أثرًا للدين والعدل مطلقا
دهى السرب منقضًّا وعاث ومزقا
نعم والحيا أس السعادة والشقا
وخلا فيكي ناحبًا متحرقا
رأيناه قلب الخلق للصبر شوقاه
يجرره حول الضريح معلقا
بأمنٍ غدا من أن نغاظ ونحنقا

ونستاء من إفراطه بإساءة
فصاحت به هيرا: «ولو كفؤًا غدا
فذاك غدت إنسيةً بلبانها
بحجري قد أنشأتها وأبحتها
حضرتم جميعًا للزفاف وليمة
وقد كنت بالقيثار في العرس عازفًا
فعارضها زفسٌ وقال لها: «قفني
فهكطور لن نرى كآخيل إنما
مدى عمره لم يسه عن قرباته
ولم يخل يومًا مذبحي من مدامةٍ
وما أنا باغٍ أن نواريه خفيةً
فثيتيس بالمرصاد في كل ساعةٍ
فيقبل من فريام آخيل فدية
فايريس هبت كالرياح تغوص في
وما بين ساموس وإمبرس مضت
كما دون قرن الثور غاصت رصاصةً
فثيتيس ألفت في غيابة كهفها
تنوح على ابنٍ في بعيد اغترابه
فصاحت أثيتيس انهضي زفس ذو النهى

لجسمٍ فقيد الحس بالترب ألحقا»
لآخيل هكطور مقالك صدقا
وذا ربةً ربّت وفي المجد أعرقا
لفيلا الذي مرقاة وذكّم رقى
بها كلكم حول الطعام تأنّقا
أربّ الخنى إلف الأولي نبذوا النقى» ٦
أهيرا وأبناء العلى لا تعنفي
بإليون لا مرء كهكطور نصطفي
لنا وعن التبجيل لم يتوقّف ٧
وشحم وإيلام بحسن تصرّف
فما الأمر عن آخيل قط ليختفي
عليّ بها أسترضها بتلطف
ويدفع هكطورًا إليه ويكتفي»
خضم عباب البحر يدوي لها الجدّ
إلى القعر حيث اليم في اللج مريدّ
لأسماكه فيها المنية تعتدّ ٨
وحشد بنات الماء من حولها عقد ٩
من الموت في طرود ليس له بد
لقاءك يبغي فاستطيري إلى اللقا»

فقال: «وماذا رام ذو الطول إنني
ولكن بنا سيري فمهما يهج أسى
ومهما يكن من نطقه ومقاله
وإيريس سارت وهي طارت وراءها
أمامها انشقَّ العباب فهبَّتْ
وحيث ميامين العلى منتداهم
لدى زفس فوراً أجلستها بعرشها
وهشَّتْ تعزيها وألقت بكفتها
ولمّا قضت منه ارتشافاً وأرجعت
«أثيتيسُ إنني بالتياحك عالمٌ
سراة العلى شقَّ الشقاق لفيها
وهرمس حشت أن يسير بخلسةٍ
ومذ رمت أستصفيك ودّاً وحرمةً
فطيري إليه بلغي غيظ قومنا
فهكطوراً استبقى لدى الفلك حائناً
وها أنا إيريساً لفريام منقذٌ
فيتحف آخيل بما طاب قلبه
فلبت وهبَّتْ من ذرى الطود تنشي

أنا أتحاشى مجلس الخلد والبقا
فؤادي ففي زفس الجلال تحقّقاً
بغير صوابٍ لن يفوه وينطقاً
عليها نقابٌ حالك اللون مسودٌ
من الجرف للعلياء حيث ثوى الخلد
به زفس رب المجد كلله المجد
أثينا وهيرا أقبلت نحوها تعدو
لها قدحاً يزهو بعسجده الوقد
لهيرا فزفسٌ صاح يبلغ ما القصد:
وقد جئتني طوعاً فبغيتي اعرفي
لتسعة أيامٍ ولم تتألف
بحشة هكطور الصريع فتشتفي
لآخيل أبغي فضل هذا التعطف
ومن فوقه غيظي وفرط تأسفي
ليرجعه خوف السخط إن يتخوَّف
ليمضي إلى الأسطول حق القدا يفى
به من عتاد شائق ومزخرف»
لخيم ابنها القته أكمده الكمد

وقد ذبح الأنصار إذ ذاك نعمةً
فحققت تحاذيه ومنها تزلّقا
وقالت: «إلى م القلب تقضم كأبة»
ولا بأس أن تلهو آخيل بغادةٍ
بُنَيّ وزفس اختصّني برسالة
فغيظوا وزفس اشتدّ يلهب غيظه
به ادفع وخذ عنه الفكاك بديله»
ليات إذن من يبذل المال فديةً
فهذا حديث الأم في الفلك وابنها
بلاغي من شم الأولمب به اذهبي
ليذهب إلى الأسطول هكطور يفتدي
ولا يمض معه غير فيجٍ معمر
ويرجع فيها قافلاً بابنه الذي
ولا يضطرب خوفاً ولا يرهب الرّدى
فذاك دليلٌ معه يذهب آمناً
وآخيل لن يغتاله متعسفًا
فلا هو ذو جهلٍ ولا ذو حماقةٍ
فإيريس مثل الريح فريام يَمُمت
ولم تلف غير النوح بلت ثيابهم

وداروا حواليه وزادهم مدّوا
تدور على أعطافه الكف والزند
ولا زاد تبغي أو فراشاً منمقا ١٠
فسهم المنايا موشكٌ أن يفوقا ١١
فحقّك أرباب السيادة أقلّقا
لحفظك هكطوراً لدى الفلك موثقاً
فقال: «قضى زفسٌ ولا ريب مشفقاً
فيرجع فيه شائناً ومشوقاً» ١٢
وزفس دعا إيريس قال لها: «ادلفي ١٣
وفريام في إليون بالأمر كلّفي
وآخيل يسترضي وبالغرّ يتحفٍ
لسوق بغال المركب الآن مسعفٍ
قد اجتاح آخيل بحد المثقف
فقاتل أرغوصٍ نسير فيقتفي
لمنزل آخيل بآمن موقف ١٤
ويحميه ممن رامه بتعسف
ولا نابذ التقوى بشر التعجرف ١٥
فألفته وسط الدّار من حوله الولد
دموعهم والعزم بالحزن منهّد

وفريام مما قد حشا متمرغاً
وفي صرحه كَنَاتِه وبناتِه
تَدَنَّتْ إِلَيْه وهو منتفض أَسَى
وقالت برفق: «يا ابن دردانسٍ فلا
ولكن بخير العلم زفس أسارني
يقول امض للأسطول مكطوراً افتدى
ولا معك يمضي غير فيجٍ معمِرٍ
فيرجع فيها قافلاً بابنك الذي
ولا تضطرب خوفاً ولا ترهب الرّدى
فذاك دليلٌ معه تذهب آمناً
فآخيل لن يؤذيك منه تعسفٌ
فلا هو ذو جهلٍ ولا ذو حماقةٍ
ولكنّه يرعى ولا ريب حرمةً
طارت وفريام لساعته أمر
ولها تشدُّ بغالها وتعلّق الـ
هي غرفةٌ عطريّةٌ جدرانها
قد كان ثم أعدّ كل نفيسةٍ
إيقاب نادى قال: «من شم العلى

يدنسه خشي ويكنفه بردٍ ١٦
ينحن لبهم بعدهم عظم البعد ١٧
برعدته مما به برّح الفقد
تخف فبأنباء الأسى لم أكلف
نعم وهو أسمى مشفقٍ لك منصف
وآخيل فاسترضى وبالغر أتحف ١٨
لسوق بغال المركب الآن مسعفٍ ١٩
قد اجتاح آخيل بحد المثقف
فقاتل أرغوصٍ يسير فتقتفي
لمنزل آخيل بآمن موقف
ويمنع حتمًا عنك كل تعسف
ولا نابذ التقوى بشر التعجرف
لمن جاءه في ذلّة المتزلف»
أبناءه لتعدّ مركبة السفر
زنبيل ثم لحجرة النوم انحدر
شماء بالأرز ازدهى بانيها
وثمينة يشتاقي رؤيتها البصر
زفسٌ إليّ إلهةٌ قد أرسلنا

لأسير للأسطول وابني أفتدي
فإذن بفكرك لي سريعاً صرحي
والقلب يدفعني إلى فلك العدى
«ويلاه أين حجي عرفت به لدى
أتسير وحدك للسفين إلى فتى
لا شك قلبك كالحديد ألا ترى
فلئن رآك أتيت لا رفق ولا
فلندين بصرحنا في معزل
وله الهلاك أتيج منذ ولدته
وفريسة للغضف وبلا يغتدي
من لي بذا السفاك أقضم كبده
إن يقض هكطور فلا نكساً قضى
في الذود عن طروادة ونسائها
فأجابها بجلال ربّ عظمًا:
لن تصرفي عزمي فلا تقفي إذن
لو جاءني بالأمر عراف هنا
لرغبت عنه وقلت ذلك كاذبٌ
لكن تلك إلهة أبصرتها
ولقد رضيت بأن يوافيني الردى

وآخيل أتحف ما يشاء من الغرر
أما أنا فلذاك غاية مطمحي
وجيوشهم» قالت ومدمعها انهمر:
طروادة حتى وفي قوم العدى
لك كم فتى بطلٍ همامٍ قد قهر
آخيل غداراً عتا وتجبّرا
عطفٌ لديه وخلته فوراً غدر
فسوى الهوان له القضا لم يغزل ٢٠
في البعد عنا لا تبلى العبر
بحمّا عتيّ ظالمٍ متمرد
قضماً فلا أبقى عليه ولا أذر ٢١
لكن لكل كريهة متعرضا
ما انتابه جزعٌ ولا عرف المفّر» ٢٢
«خلي الملام فقد نويت مصمما
كوقوف طير الشؤم في هذا المقر
أو كاهنٌ أو عائفٌ متكهنّا
وصرفت فوراً عن مقالته النظر
وسمعتها وبذا اليقين أطعتها
بين العدى إن كان ذا حكم القدر

أشفي ليفتك بي آخيل بذلتي»
 من كل منضود بهنّ اثني عشر
 وكذاك من زريها ودثارها
 وكذا جفانّا أربعا كان اذخر
 إثراقةً قدماً إليه أهدت
 فأضافها لفكاك هكطور الأبر
 فمضى يعنفهم بمر خطابيه:
 أفلم يرح في مقامكم الكدر
 حتى تزيدوني أسّى بزفيركم
 زفس وأبسل فتيتي هكطور خر
 إذ بتم مذ مات أسهل مأخذا
 من لي بزجي قبل ذلك في سقر»
 من وجهه وبنيه أقبل يزجر ٢٣
 فمّون ذيفوبّا أغاثون الأغر
 وكذاك تاسعهم ذيوس الأيهمّا ٢٤
 حنقّا وكلهم بحدته انتهر:
 يا ليتكم طرّاً فداك البطل
 لي كان في إليون قرم ذي خطر

فلئن أضم ابني الحبيب وغلتي
 ثم الخزائن قام يفتح مخرجاً
 من بردها ونقابها وشعارها
 وأعدّ من ذهبٍ شواقل عشرة
 ومنصتين كذلك الكأس التي
 وبها حبه وافداً برسالةٍ
 وتكأ كأ الطرود في أبوابه
 «عني أيا قوم الهوان افرنقوا
 أو ما لكم من تندبون بدوركم
 أوليس حسبي أن يلظيني أسّى
 ولسوف تلفون إلا ذي كل الأذى
 لا أبصرت عيناى دك معاقلتي
 واستاقهم بالصّولجان فادبروا
 هيلينسّا فارس هيفوثوسّا
 أنطيفنّا فوليت سفّاك الدما
 ألقى أوامره عليهم ساخطاً
 «عجلاً أولد السوء يا رهط الفشل
 ويلاه واعظم الشقاء فكم فتى

لم يبق لي أحدٌ فلا لهفاه لا
وأبو الفوارس إطرويل ومنيتي
قد كان أشبه بابن ربٍ معرق
طرّاً أبادهم الوغى مستبقياً
رئامه رقاصه كذابه
أفلا شددتم مركبي ونضدتم
جزع البنون لزجره وتألّبو
طيّارة صنعت حديثاً وازدهت
والنير نير البقس كان على الوتد
فاتوا به وكذاك بالسير الذي
بالنير رأس الجذع حالاً أدخلوا
من تحت ذاك الجذع أحكم عقده
منه استقلوا يشحنون المركبه
قروا لها بغلين من ميسية
من بعد ذا عمدوا إلى فرسين في
فينفسه مع فيجه في صرجه
وأته إيقاب يحزقها النصب
وقفت أمام الخيل تندبه إلى
قالت: «إليك الكأس خذها واسكب

مسطور ذاك القرن قرن بني العلى ٢٥
هكطور من ربّاً غداً بين البشر
منه بمولودٍ لإنسيّ شقي
لي زمرة وأقبحها بين الزمر
وبني البلاد سوامها سألابة ٢٦
هذا المتاع لكى أسير على الأثر»
ولشد مركبة البغال تأهبوا
فبسطحها الزنبيل في الحال استقر
محقوقف في ظهره حلق العدد
فيه وتسعة أذرع طولاً قدر
والسير حوليه ثلاثاً حوّلوا
من ثم كلهم إلى الصّرح ابتدر ٢٧
بفكاك هكطور لآخيل هبه
فريام نال هديةً وبها افتخر
أكناف عنته غذا بتلطف ٢٨
في الحال شدهما ولم يرع الكبير ٢٩
بشهي صرف الراح في كأس الذهب
صب المدامة قبل أن يلج الخطر
زلفى وحسن العود من زفس اطلب

من طود إيذا حيث في عليه قر
لك طيره الميمون ذا الطول العلي
ورأيته جئت العدة بلا حذر ٣٠
وبذي الرسالة منه لم بيد الرضا
مهما رغبت ولب مهجتك استعر
بسط الأكف لزفس نعم التوطئه
فوراً لجارية بخدمته صدر
ماء الطهور على يديه تسكب
فوق الحضيض لزفس دقاع الضر
في وسط تلك الدار يصرخ هاتفاً:
يا من لأمر جلاله الكل ائتمر
لي طيرك الميمون ذا الطول العلي
ورأيته جئت العدة بلا حذر
في الحال أصدق كل أطياف الفلا
بالأسمر الفتاك في العرف اشتهر
شمام في صرح الغنا مبنية
لما يميناً فوق إليون ظهر
كرسيه بحميل بشراه اعتلى

من زفس من إليون يرمق طرفه
تمضي على رغمي فسله يرسل
فيذا أتاك إلى يمينك سانحاً
لكنما إن ظلّ زفس معرضاً
لا أغريتك أن تسير لفلكهم
فأجابها: «لن أعصينك يا امرأة
فلعله عطفاً يرق» وأمره
فدنت بإبريق وطسّ تذهب
والكأس من بعد الوضوء أراقها
وإلى السماء أقام ينظر واقفاً
«أبا العوالم زفس من إيذا علا
سكّن أخيل فلي يرق وأرسل
فيذا أتاني عن يميني سانحاً
فدعاه زفس استجاب وأرسلا
نسرًا زفيلاً كاسراً ذا قتمة
جناحه قد نشر كصفقي حجرة
فتسم الطرود خير ظهوره
فهناك فريام لساعته على

واستاقها فمضت تغير بداره
وأمامه حثّ البغال وأسرعاً
جرّياً باليون وكل ذويه في الـ
حتى إذا اجتازا بأسواق البلد
والى ديارهم انثنى الأبناء والـ
لما رأى زفس والشيخان قد ولجا
نادى ابنه هرمس المحبوب قال: «لكم
وإن تشأ تستجبهم فاصحبّ إذن
لا يعلمنّ به بين الملا أحدٌ
لبّاه قاتل أرغوص وفي عجلٍ
(خفان من عنبر صيغا ومن ذهب
والصولجان الذي يلقي السبات على
به مضى مثل لمح الطرف ينزل في
وراح يحكي أميراً جدّ نحوهما
وقبر إيلوس لمّا جاوزا وقفوا
همّا بأن يوردا للنهر خيلهما
رأى الإله فنادى: «يا ابن دردنس
أرى امرأً جاءنا بالحتف هل هرباً
أو فوق ركبتّه نحني ومرحمهً

ورتاجها من وقع ذاك الجري صر ٣١
إيدوس معتلياً محالاً أربعاً ٣٢
آثار تندب ندب من ميّاً قبر
للسهل جدّاً لا يحوطهما أحد
أصهار مع كل الجماهير الآخر
في السهل رقّ لفريام وهاج شجا
أحببت بين بني الإنسان أن تلجا
فريام فهو إلى الأسطول قد خرجا
حتى إذا جاء أخيّلا فلا خرجا»
خفيه أوثق في رجليه مبتهجاً
في البحر والبر مثل الريح قد درجا ٣٣
من شاء أو يوقظ الوستان إن خلجا ٣٤
تلك السهول بجرف البحر مدلجا
عذاره خط في شرخ الصبا بلجا ٣٥
وقد أغار على الغبراء جيش دجى
مع البغال فهبّ الفيح منزعجا
تروّ وانظر وقفنا موقفاً خرجا
نلوي الجياد وفوراً نطلب الفرجا
نرجو عساه لنا أن يستجيب رجاً»

فارتاع فريام خوفاً واقشعرَ أسى
لكن دنا هرمس يهوي على يده
«علام يا أبتا والناس قد وسنت
هنا الأخاءة هلاً خفت شرهم
ما بالك الآن لو وافاك أيهم
ما كنت غصّ ضبابٍ والرفيق أرى
فلا تخف ضرري بل فائق بي عضداً
فقال فريام يعلوه الجلال: «أجل
لكن أرى بعض آل الخلد قد بسطوا
إليّ أسروا بسيّار نظيرك ذي
أهلاً وطوبى لأهل أنت فرعهم»
فأطلعني طلع الأمر أين ترى
أتطلبنّ بقاصي الدّار مؤتمناً
فرمتهم هجرها لما نأى وقضى
فقال: «من أنت من أي الأرومة يا
أجاب: «يا شيخ هل ذاك امتحانك لي
فكم بصرت به للفلك مكتسباً
وكم رأينا وأكبرنا ومانعنا

وقد غدا مزبئر الشعر ملتعجا
يلقي السؤال بلين القول ممتزجا:
بذي البغال وهذي الخيل ترتحل ٣٦
وكلهم لك بالعدوان مشتعل
بذا الرياش وستر الليل منسدل
شيخاً فما لك في دفع الأذى قبل
لك انبرى وأباه فيك يمثّل» ٣٧
بني غير مقال الحق لم تقل
عليّ كفهم في الموقف الجلل
قد وحسن وعقل نادر المثل
فقال: «يا شيخ خير القول ترتجل
يساق في الليل هذا الحليّ والحلل
لهنّ أم كلّ إليون عرا الوجلل
هول الأخاءة هكطور ابنك البطل»
من ذكر حتف ابني المنتاب ييسط لي»
إذ جئت خبري عن هكطور أمثل ٣٨
جيش الأخاء وسيف الحتف يمثّل ٣٩
آخيل غيظاً على أتريدنّ نقتل

في قوم أعوانه وافيت منتظمًا
أبي فلطور من أهل اليسار غدا
فعنده ستة ظلوا وسابعهم
لما اقترعنا فسهمي دون أسهمهم
والآن أنفذي للسهل مرتقبًا
سيحملون على إيون من غدهم
فقال فريام: «إما كنت منتسبًا
أجسم هكتور آخيل رمى قطعًا
فقال: «لا منسرّ لا ناب عاث به
في القرب من فلك آخيل لقد بزغ
فلا عراه فسادٌ أو تخلله
وكلما طر فجرٌ حول صاحبه
لتعجبنّ إذا أبصرته ترقفًا
كم طعنةٍ فهقت فيه قد اندملت
لا شك ودوه حتى بعد مصرعه
فطاب قلبًا وصاح الشيخ: «وا ولدا
لم ينس ما عاش أرباب الألب ولا
فهذه الكأس خذ مني وكن عضدي
حتى لخيمة آخيل تبلغني»

بفلكه وإلى المرميد أتصل
شيخًا حكاك بنوه سبعةً كملوا
أنا حملت مع الإغريق مذ حملوا
بدا فأمر آخيل جئت أمتثل
فقد عرا القوم من كف الوغى الملل
والصيد عن ردعهم ضاقت بها الحيل»
إلى ابن آياك فاصدقني بلا مهل
للغضب أم قرب تلك الفلك لم يزل»^{٤٠}
لكنّ جثته للخيم قد حملوا
سنا عشر فجرًا عليه وهو معتقل
دود تخلل بهمّا في الوغى قتلوا
آخيل طاف به بالعنف يجتذل^{٤١}
لا تقع دنسه والجرح مندمل
كأن آل العلى تلك الدّما غسلوا
عن ذلك البطل القهار ما غفلوا»
يا حبذا البر للأرباب من عمل
هم أغفلوه ولو بعد انقضا الأجل
يعون آل العلى في هذه السبل
فقال هرمس: «ليست شيمتي النحل

مهما أكن حدثًا ما أنت تطمعني
أحشاه والنفس تأبى أن تمدَّ يدي
لأصحبك حتى لو بغيت إلى
وليس برًا وبحرًا ما ظللت على
وهب هرمس للكرسي واستلم الد
وهمة الخيل أورى والبغال وبالد
ألقى العيون أعدت زادها فعلى
وراح يفتح أرتاج الحصار بلا
وبالهدايا وفريام ومركبه
حتى إلى الخيمة الشما التي رفع ال
من أسوق السر وشيدت تحت أعمية
وحولها الدار شيدت تحت أعمدة
ثلاثة منهم بالعنف تدفعه
بوجه فريام خفَّ الرب يفتحه
وصاح من بعد ذا لما ترجل: «يا
أبي نصيرًا إليك اليوم أنفذني
لن أظهرنَّ لآخيل فما لبني ال
وأنت رح وانطرح من فوق ركبتك

بنائل عن آخيل خفيةً تصل
لسلبه إن عقبى ذلك الفشل ٤٢
بلاد أرغوس ذات الشأن تنتقل
عهدي تمسك من كف العدى الأسل»
عنان والسوط ثم استاق منتهجا
حفير حالًا لأسوار الحمى اتلجأ ٤٣
أجفانهم صب تهجاءً بها اندمجا ٤٤
عنا ويدفع أزلاجًا بها زلجا ٤٥
أم الخيام وفي بطن الحمى زلجا ٤٦
ممرمد لابن أياكٍ ملكهم عرجا
من المروج بها البردي قد مرجا
والباب مزلاج سروٍ واحدٍ رتجا ٤٧
لكنما دفعه آخيل ما زعجا
وبالهدايا إلى ذاك الفنا ولجا
ذا الشيخ هرمس من والاك لا رجل
وها أنا الآن ماضٍ عنك أنفصل
على جهارًا ولاء الإنس تبتذل
وسله رفقًا عسى يصغي لما تسلُ

وباسم فيلا وثيتيسٍ ونفطلمٍ ناشده يرُنْ لدمعٍ منك ينهمل ٤٨

•••

هكذا هرمسٌ أتم الخطابا وتواری إلى الألمب وآبا ٤٩

فعدا الشيخ راجلاً وأنابا
إيدبوساً فظل عند العجال عانيًا في جيادها والبغال
ومضى يقصد ابن فيلا فألفا ه تنحى وعنه أنأى الصحابا

•••

ما لديه غير الفتى أطميد وكذا فرع آرس أقميد

كان عن زاده ورشف النبيذ
قام والزداد لا يزال لديه وهما قائمان بين يديه
كلهم ما رأوه فانسل وانص ب على ركبتى آخيل انصبا

•••

وبديه اللتين كم من فتى جل من بنيه أبادتا قبل قبل

دهشوا عندما على الفور أقبل
دهشة القوم من وفود غريب ساقه فادح القضاء المريب
قاتلاً من بلاده فرَّ يلجا لديار امرئ تعلّى جنابا ٥٠

•••

فأجالوا الأبصار باستعجاب وهو ألقى خطابه باكتئاب:

«يا ابن فيلا مقرب الأرباب
اذكر اذكر بشييتي والدًا لك درك العجزز آه مثلي أدرك
ربّ جارٍ أصابه ببلاءٍ وهو لا عون صدّ عنه المصا

•••

إنما للسرور يلقى سيلا ذاك إن أبلغوه حيّا أخىلا

فيرجى له معادًا جميلا
ليراه من بعد طول اغتراب وأنا آه ألتظي بالتهاب
كم فتى باسلٍ بإليون لي كا ن فطرًا بادوا وأضحوا ترابا

...

عندما جاءت الأخاء بحرا حسبوا لي خمسين عدًا وحصرا
من نساءٍ شتى وتسعة عشرا
عصبه إخوة أشقاء كانوا جلهم بالجهاد للتحف دانوا
واحدٌ ظل منهم بذباد عن سرانا يقى البلاد الخرابا

...

ذاك هكطور من قتلت أخيرا وهو يحمي ذماره والعشيرا
ذاك ما ساقني هنا مستجيرا
فأممت الأسطول في ذا السبيل ولقد جئت بالفكاك الجزيل
فسراة العلى آخيل اتقي وار فق بحالي واذكر أباك اهتابا

...

لا جدير في الخلق بالرفق مثلي لا ولا في الورى امرؤ ذلّ ذلّي
هذه الكف أس يؤسى وخذلي
وبها ابني أضحي قتيلاً جديلا وأنا قد قبلتها تقبىلا» ٥١
فبذا الشيخ حاج مدمع آخى ل لذكرى أبيه فيلا اكتابا

...

فيرفق أنآه عنه وأجرى عبراتٍ سحت على الفور حرى
فكلا القيمين ناح لذكرى

ذا لهكطور ساجدًا لآخيلًا وأخيل فطرقل ييكى وفيلًا

لبشا ينحبان ثمة حتّى لهما اهتزت السقوف انتحابًا

•••

وأخيل لما روى بنحييه غلّه قام مغضيًا عن كروبه

أنهض الشيخ رافقًا بمشييه

وله وجه الخطاب فقالا: «إي نعم سامك القضاء وبالا

كيف قل لم تخف فجئت إلى الفلدك وحيدًا لمن بنيك انتابا

•••

لك قلبٌ مثل الحديد الصليب فانهض اجلس ولنبق طي القلوب

غصص النفس لاشتداد الخطوب

ليس يجدي بكاؤنا والنحيب فالرزايا لكل مرء نصيب

ليس يخلو سوى بني الخلد من هدمٌ ولكن لنا أعدّوا العذابا

•••

فباعتاب زفس قارورتان ذي لخيرٍ وذي لشرّ الهوان

فيهما كل قسمة الإنسان

فالذي منهما مزيجًا أنالا زفس يلقي خيرًا ويلقي وبالا

والذي لا ينال إلّا من الشّـمـر فتتابه الخطوب انتيابا

•••

بطواه يطوي البلاد كليلا تائهًا في عرض الفلاة ذليلا

من بني الخلد والورى مخذولا ٥٢

فلفيلًا الأرباب خير الهبات أجزلوا مذ بدا لهذي الحياة

فاق جاهًا وثروةً وعلى المر ميد أضحي قبيلاً مطاعاً مجابا

•••

ولئن كان فانيًا وابن فان أنكحوه إلهة ذات شان

وعلى ذا منوه بالأشجان
بحماه لم يعط قط بينا بعده في بلاده يحكمونا
فرعه واحدٌ سيقضي قريبًا غير مجدٍ مشييه حين شابا

•••

كيف أجدي وقد شططت ديارا وبإليون قمت والهول دارا

لك أهمي وآلك الأكدارا
وكذا أنت فد روى الراوونا لك يا شيخ طالعا ميمونا
كنت ذا دولةٍ ومالٍ وأبنا بشرخ الصبا سموا أنجابا

•••

من ذرى لسبسٍ مقر مقار لفريجا لجرف هذي البحار ٥٣

سدت جم القوى رفيع المنار
إنما منذ ذا القتال الوييل لا ترى غير قاتلٍ وقتيل
فاعتصم بالعزاء لا تجعل الضيـ م أسى فيه تقطع الأحقابا

•••

ليس يجديك حزن هكطور نفعا لن تقيمته بذرفك دمعاً ٥٤

رب خطب إليك من بعد يسعى ٥٥
قال يحكي فريام آل الخلود: «يا ابن فيلا لا تدعني للقعود
إن هكطور في خيامك لا قبـ ر يواريه في التراب احتجابا

•••

أعطيته حتى بعيني أراه وجزى ل النفائس اقبل فداه

فيها قد أتيت أبغي شلاه
منك يا من حيا قد استبقاني انظر النور ساطعاً بالأمان
فبها اهنأ عساك ترجع لالأو طان من بعد ما نأيت اغترابا»

•••

عند هذا آخيل أحقد شزرا قال: «يا شيخ لا تغظني قسرا

لك هكطور سوف يعطى فصرا
بنت شيخ البحار أمتني من لدى زفس أمره بلّغتني
وأنا عالمٌ بأن إلأها بك حتّى الأسطول جاء فغابا

•••

أي مرء ولو بشرخ الشباب يخرق الجيش قاصداً أبواي

عن عيون العيون طيّ الحجاب
أو أزلا جنا له يتهيا دفعها اصمت إن شئت تلبث حيا
لا تهجنني فزفس أعصي ولا أر عى ذليلاً همّاً وشيخاً مصابا» ٥٦

•••

جزع الشيخ للوعيد مطيعا وآخيل كالليث هبّ سريعا

غادر الخيم أمراً متبوعا
معه من رفاقه تبعان بعد فطرقل أقرب الفتيان
أفطيذٌ وألقيمذ أخو العز م جميعاً عدوا وجازوا البابا

•••

ذلك الفيح أدخلوا وأحلّوا مجلساً والبغال والخيال حلّوا

ومن المركب الرياش استقلوا

غير بردين شائقين جمالا وشعار مزخرفٍ يستللا
رام آخيل أن يكفّن هكطو ر بها عندما يتيح المآبا

•••

والجواري لغسل هكطور نادى ولتطيهه هناك بعاااا

خشيةً أن يرى الأب ابناً أبادا
فيشور الأوار ضمن فؤاده وآخيل يشدد داعي اشتداده
وبه يعمل الطبي لا ييالي أنهى زفس أم أنيل العقابا

•••

غسلته وطيتهه الجواري ويرد كففّه وشعار ٥٧

وآخيل ألقاه خلف الدار
فوق نعشٍ وذان باستعجال رفعاه لظهر كبرى العجال
عند هذا بكى آخيل وفطرق ل دعا قال: «لا تسمني عتابا

•••

لا تغظ إن بلج آديس ينمى لك أني أعدت هكطور رغما

فأبوه أدّى الفكاك الأتما
وأنا منه سهمك المعتادا سوف أبقي» وللصريفة عاااا ٥٨
حلّ في عرشه البهي لدى الحا ئط يلقي ألفاظ نطق عذااا:

•••

«لك يا شيخ قد أعيد فتاكا وهو في نعشه فنل مبتغاكا

فإذا الفجر بكرةً وافاكا
فمليّا تراه عند المعاد إنما الآن حان وقت الزّاد
فنيوبا لم تسه عن زادهها في صرحها مذ أصابها ما أصابا ٥٩

•••

ولدها اثنا عشر بربع الحياة فتيّة ستّة وستّ بنات

فنكتّ أرطيميس بالغادات

وبقوس اللجين فيبوس أردى وأباد الفتيان غيظًا وحقدا

ذاك إذ فاخرت نيوبا لطونا الـ حسن يومًا بضنوها إعجابا ٦٠

•••

فلها اثنا عشر وتلك اثنان إنما قد أفناهم هذان

أنهراً تسعةً بموت الهوان

لبشوا لا قبر فزفس جهارا مسخ الناس حولهم أحجارا

وسراة الخلود عاشر يومٍ دفنوهـم والأم تجرع صابا

•••

شعرت بالطوى بجهد البكاء وهي لآلآن تلتظي بشقاء ٦١

نالها من لدى سراة السماء

بعد أن أصبحت بسيفيل صخرا بجبالٍ شمّ يروّعن ذعرا

حيث مثوى الحور اللواتي على جر ف أحلّوس لها الرقص طابا

•••

وكذا نحن زادنا نأتيه وابنك القرم باكرًا تكيه

عندما للبلاد ترجع فيه

فهناك الدموع ما شئت تهمر» ثم شاءَ بيضاء أقبل ينحر

وذووه من بعد أن سلخوها أربوها وسقّدوا الآرابا ٦٢

•••

واشتووها بلاهب النيران ثم مدوا الشواء فوق الخوان

والفتى أطمئذ للضيفان
وزع الخبز بالقففاع امتثالاً
وآخيل اللحوم قسم حلالاً
والأيادي مدت إلى الزاد حتى
أنفوا الزاد جملةً والشرابا

...

وابن دردانسٍ آخيل تأمّل
يعظم القد والجمال المكمل ٦٣
ومحيّا الأرباب إن هو أقبل
وآخيل فريام أعظم قدرا
لوقارٍ ومنطقٍ زان فكرا
لبشا برهة وكلّ بكلّ
مصدق مكبر له استعجابا

...

ثم فريام قال: «آخيل دعنا
بلذيذ الهجوع ذا الحين نهنا
فأنا لم أغمض لعيني جفنا
مذ قضى هالكا بساعدك ابني
بل ببشي ما زلت أشقى بحزني
أتلوى على الدمال بصحن الـ
مدار أصلى لظى الأسى اللهابا

...

إن أذق زادك الذي لي تهياً
أو تراني رشفت كأس الحميا
فإلى الآن لم أذق قط شيئاً
فآخيل في الحال أصدر جهرا
للحواشي واللسبيات أمرا
أن يعدوا في الباب فرشاً ويلقوا
لحف البرفير الحسان قشابا

...

ويمدوا فوق الفراش الزرابي
وعليها مكشف الأثواب ٦٤
فالجواري جرين للأعتاب
معهن المصباح للباب رحن
وفراشين في المجاز طرحن

ولفريام قال إذ ذاك آخيه — ل يريه مخافةً وارتياها:

•••

«أيها الشيخ خارجًا نم فريرا خشيةً أن تلقى بخيمي أميراً

فأدماً في الدجى هنا مستشيراً
فهنا في أبحاثنا نستفيد ذاك عرف جرى عليه الصيد

فإذا ما رأوك في الليل أتريد — لذرى والأمر باتت صعباً ٦٥

•••

ولعل المليك يرجي الفكاك — فقل الآن لي صريحاً مناكا ٦٦

كم نهاراً تبغي لدفن فتاك
قل فنفسى أضدُّ عن أهوائي وأرد السرى عن الإبلاء»

فعلى ذا فريام وهو يحاكي بوقار ربُّها مهيباً أجابا:

•••

«إن تبح أن حفلة الدفن تجرى — تلك آخيل منَّة منك ترى

قد حصرنا تدري ياليلون حصرا
والمدى شاسعٌ لقطع الوفود بالرؤاسي والرعب هد جنودي

ولنا للبكاء تسعة أيَّام — م بها نذرف الدموع انسكابا

•••

ثم يومٌ للدفن والإيلام — ثم يومٌ للرَّمس والإتمام

وإذا ما اقتضت دواعي الخصام
نتهيا للحرب إن نأت فجرا بعد هذي الأيام ثاني عشرا»

قال: «ما شئت فليكن وبهذا الد — حين نلوي عند الحروب الحرابا»

•••

ثمَّ يَمْنَى فَرِيَامَ أَمْسَكَ عَهْدًا لَوْفَاقٍ جَرَى وَأَبْرَمَ عَقْدًا ٦٧

خَشِيَةً أَنْ يَسُومَهُ الرُّعْبَ جَهْدًا وَبِظُلِّ الرُّوَّاقِ بِالْأَمْنِ نَامًا
وَآخِيلَ فِي عِزْلَةٍ بِحِمَاهِ وَبِرِيسَا طِيبِ الْهَجْوِ اسْتَطَابَا

•••

وَجَمِيعَ الْأَرْبَابِ وَالنَّاسِ طَرًّا هَجَعُوا وَالظَّلَامَ أَسْبَلَ سَتْرًا
إِنَّمَا ظَلَّ هَرْمَسٌ لَا يَكْرَى عَنْ حَمَى الْقَوْمِ لَا تَرَاهُ الْعَيُونُ
فَعَلَى رَأْسِهِ اسْتَقَرَّ وَنَادَا هُ: «أَيَا شَيْخٍ هَلْ أَمِنْتَ الطَّلَابَا

•••

نَمَتْ بَيْنَ الْعَدَى بِأَمْنِ آخِيلَ وَلَقَدْ جَدْتَ بِالْعَطَاءِ الْجَزِيلَ
لَا فَتَكَكَ ابْنُكَ الْكَرِيمَ النَّبِيلَ إِنْ تَلَاقَيْ هُنَا أَغَامَمُنُونَا
عَنْكَ يَعْطُونَهُ ثَلَاثَةَ أَضْعَا فِ الَّذِي قَدْ أُدِيتَ مَا لَّا لِبَابَا» ٦٨

•••

قَامَ فَرِيَامَ يَنْهَضُ الْفَيْجَ رَعْبَا وَلَشَدَّ الْعَجَالَ هَرْمَسَ هَبَّا
وَبَهَا جَدٌّ يَنْهَبُ السَّهْلَ نَهْبَا فَآتَوْا أَمْنَيْنِ مَجْرَى الْمَاءِ
فَوْقَ جَرْفٍ فِيهِ تَدَفَّقَ زَنْثُ الْـ مَمْتَمِي نَشَاءً لَزَفْسٍ انْتِسَابَا

•••

لِأَعَالِي الْأَوْلَمْبِ هَرْمَسَ رَاحَا وَبَدَا بَرْقَعُ الْجَسَادِ صَبَاحَا

فهنا الشيخان استباحا النواحا
ثم حثّا الجياد نحو البلاد وبغلاً قلّت جدّيل الجلال
جربا لا يراهما بعد مرة أو فتاةً في الأهل حيث اجتابا

•••

•••

بهما ما درى بذاك المجال غير كسندرا فتاة الدلال

من تجلّت كعفرذيت الجمال
أشرفت من فرغام فوق الوهاد فأبأها رأت وذاك المنادي
وأخاها رأت على نعهشه في ه اذلّعت بغاله إذلّعبا ٦٩

•••

ولولت والدموع ملء المآقي ثم جدّت تصيح في الأسواق:

«يا رفيقات يا خيار الرفاق
إن تكونوا حيتم هكطورا وهو حيّ بعوده منصورا
وجدلتم بملتقاه جميعاً فانهضوا رحبوا به ترحابا»

•••

•••

أكبروا الخطب والأسى والوبالا وإلى الباب بادروا استقبالا

كلهم كلهم نسا ورجالا
وأمام الجميع زوجٌ حليله أعظمت خطبه وأم جليله
بعويلٍ وقطع شعرٍ ونذب جاءتا النعش تلمسان النطابا ٧٠

•••

وحواليهما الجموع تبوح بأساها وبالنحيب تصيح

أوشكوا كلّ يومهم أن ينوحوا

بين تلك الأبواب من حول نعشه إنما الشيخ صاح من فوق عرشه:
«افتحوا لي السبيل للصَّرح من ث مَّ اسكبوا الدمع فوقه تسكابا»

•••

فله وسعوا الطريق فجداً وأتى القصر خلفه القوم حشداً

وضعوا الميت فوق نعش أعداً وأقاموا حوليه نَدابيناً
بشجي الأنعام توري الشجوناً ٧١ ينشدون الرثاء بين نساء
وفق ذاك النشيد نُحْنُ كتاباً

•••

وانبرت أولاً فعَمَّ العويل أنذروماخ والدموع تسيل

فعلى رأسه ترامت تقول: «مُتَّ بعلاه بالشباب النصير
وأنا أيَّمَّ بهذي القصور وهنا الطفل طفلنا ونتاج الـ
حزن لن يدركنَّ آه الشبابا

•••

•••

قبل ذاك الزَّمان خلت الديارا أصبحت قفرةً وباتت دمارا

إن تمت لا سواك يحمي الزمارا وجميع البنين والأطفال
والعذارى والمحصنات الخوالي سوف يمسين في الخلايا سبايا
وأنا بيـنهنَّ وأوصابا

•••

•••

وكذا أنت يا بنيَّ ستمسي حيث أمسي تعنو بذلَّ وبؤسٍ

لفَتَى ظالم عتا ذي بأس أو عدوَّ سيم الوبال الثقيل
يتوَحَّى لك الحمام الوبيلا

بك يلقي من فوق برج فيشفي غلة كادت النفوس الغضابا

...

بابن هكطور يشتهي في انتقام لأب أو أخ رمى أو غلام

فهما قد كان أي همام

ولكم باسل بجيش الأعادي كدم الأرض دونه في الجهاد ٧٢

فلهذا بكته طرود طرًا وعليه الفؤاد بالبث ذابا

...

جلَّ عن واجب التأسي أساكا ولقد هدَّ والديك رداكا

إنما لي فوق الجميع شجاكا ٧٣

آه لو فهمت لي بعض الكلام تبسط الكفَّ لي أوان الحمام

لتذكرته نهاري وليلي ودموعي تنصب عمري انصبا»

...

ثم غصَّت بفائض الزفرات والعذارى يجُدن بالعبرات

ثم صاحت إيقاب: «وا حسراتي

وا أعزَّ البنين وا هكطورا كم رعتك الأرباب حيَّا قريرا

وهي من بعد فاجعات المنايا بك تعني تجلَّة وثوابا

...

بأقاصي البحار في إمروس أو بساموس أو ربى لمنوس

باع من فتي آخيل البئوس

كل من في يديه أضحي أسيرا إنما أنت مذ رماك مغيرا

بك ما زال طائفًا حول رمس لخليل أنفذت فيه الذبابا ٧٤

•••

كل هذا لم يحي ذاك الخليلا وأمامي أراك رطبًا جميلا

مثلما لو ذا الحين رحت قتيلا

مثل من فيبسّ أباد بسهم دقّ عن صولج الحنية يرمي» ٧٥

وعلا النوح ثم هيلانة ثا لثة ولولت تزريح النقابا:

•••

يا أحمّ الأصهار إلف الوداد أعلق الأهل كلهم بفؤادي

لم أر مذ عشرين عامًا بلادي

منذ فارس مجتبى الخالدينا ساقني قادمًا إلى اليوننا

ليتي قبل أن أفارق شعبي وبني أسرتي انشعبت انشعابا ٧٦

•••

شأنك الرفق بي لقد كان دوما قطّ ما سمتني المهانة يوما

وإذا كادني سبابًا ولوما

أي صهرٍ أو زوجه أو شقيقه أو حماتي يقاب تلك الشقيقه

(غير فريام من بدا كأب لي) كنت رفقا عني تزريح السبابا

•••

سوف أبكيك سوف أبكي شقائي ليس لي راحمٌ وإلف ولاء

قد قلاني الجميع فوق بلائي» ٧٧

وبكت والجموع ناحت جميعا ثم فريام صاح فيهم سريعا:

«يا سرة الطرود قوموا فسيروا واجمعوا وافر الوقود احتطابا

•••

لا تخافوا من الأخاء غدرا فأخيل لي قال أن لن يكرًا

قبل فجر يلوح ثاني عشرا»
أسرعوا جملةً لشد البغال وقوي الثيران حول العجال
ثم ساروا بهنَّ فوراً وجدُّوا وإلى السور أقبلوا أسرابا

•••

أنهراً تسعةً بجمع الضرام لبثوا ثمَّ عاشر الأيام
رفعوا الميت والعيون هوام
فرق ذاك الوقود ثم النارا أضرموها به تَوَجُّ أوارا
ولهم حين لاح ورد بنان الـ ففجر من حوله أقاموا عصابا

•••

حيث هبت لواهب النيران أخمدها بصرف خمر الدنان
ولفيف الإخوان والخلان
جمعوا كلَّ أعظم الميت جمعا بكئيب الفؤاد يذرون دمعا
أودعوها من ثمَّ حقَّ لجينٍ وكسوة برفيرهم جلبابا

•••

أنزلوها في حفرةٍ حفروها ويجلمود صخرهم طمروها
ثم شادوا الصريح إذ دفنوها
وحواليه أوقفوا الأرصادا من سراة السرى قروماً شدادا
خشيةً من عدوهم أن يفاجي بغتةً حين غفلةٍ واحتسابا

•••

وإذ القبر أكملوا وأتموا صرح ذاك المليك فريام أموا
حيث حوليه للعزاء انضموا
ولهم هيأ المليك طعاما كان في مأتم الفقيد ختاماً

ذاك ما كان من مناحة هكطو ر الذي رؤض الجياد الصالبا ٧٨

تتمة حوادث الإلياذة

يتشوف القارئ وقد أتم تلاوة الإلياذة إلى الإلمام بمآل الأعيان من أولئك الرجال، وهاتيك النسوة، وما كان من عقبى الحرب المضطربة بين الإغريق والطوراد، مما هو مروي في الأثر.

بنيت الإلياذة على غيظ آخيل، فأخذ الشاعر بجميع أطراف ذلك الغيظ، حتى إذا قضى وطره استتم خبره ختم الكلام. وإننا موردون الآن بأوجز عبارة ما كان من خاتمة الحرب ومصير كبار القوم.

لما انقضت المواعدة استأنف الفريقان القتال؛ وإذ أعيت الإغريق الحيلة في فتح إليون لجأوا إلى خدعة هيأها لهم داهيتهم أوديس، فصنعوا حصاناً كبيراً من خشب على شكل كبش مما كان يستعمل في الحروب، ونصبوه لدى أبواب البلد، وفيه الكمأة المدججون بالسلاح، ومن جملتهم صاحب الخدعة وذيوميذ ونيفطوليم ابن آخيل، وكان قد لحق بقومه في أخريات أيام الحرب، وهو بعد صبي، ثم تظاهروا بالسأم والملل والتأهب للانصراف فانخدع الطوراد وخرجوا فأدخلوا الحصان، فلما كان الليل خرج منه رجال كمينه وقتلوا الحراس وفتحوا الأبواب،

فدخل الإغريق البلد ودمروه واستباحوه نهياً وقتلاً وسيئاً، ولم ينجُ إلا نفرٌ قليل ممن لاذ بالهزيمة.

أما آخيل فقتل قبل فتح البلد بسهم رماه به فارس فأصابه بعقبه، فتنازع أوديس وإياس الكبير على سلاحه ففاز به أوديس فغيظ إياس وانتحر كيداً.

وأما سائر الزعماء فتفرقوا وعادوا كلٌّ إلى بلاده ولكنهم تَجَرَّعُوا مَضَضَ الأهوال وهلك معظمهم.

فأغاممنون غدرت به زوجته ومعشوقها اغستوس، وكان قد استعمله أغاممنون على بلاده أثناء غيابه.

وأخوه منيلاوس رجع بامرأته هيلانة، فوصل بلاده بعد عناء ثمانية أعوام، ولم يَقم طويلاً حتى مات.

وذيوميذ كاد يصيبه من غدر زوجته ما أصاب أغاممنون لو لم يلجأ على الفرار، فشخص إلى إيطاليا بشرذمة من أتباعه وبني فيها عدة مدائن.

وإياس الصغير عصفت الريح بسفائنه، وهو راجع بها فأغرقتها، فلاذ إلى صخر وقف عليه، ثم ما لبث الصخر أن انشق تحت قدميه فمات غرقاً.

وأوذيس لعبت بسفنه العواصف فهام عشرة أعوام على وجه المياه
في حديث طويل بنى عليه هوميروس منظومته «الأوذيسية»، وكانت امرأته
بديعة الجمال طاهرة الذيل فطمع بها عظماء قومها، فحاولت وطاولت
إلى أن عاد زوجها فشكت إليه أمرها فقتلهم جميعاً، ومات أوذيس قتيلاً
بيد ابنه تليغون قتله في معركة وهو لا يعلم أنه أبوه.

ونسطور عاد إلى بلاده سالمًا ف قضى بقية أيامه بأمن وسلام.

أما فريام ملك طروادة فذبحه نيفطوليم بن آخيل أمام الهيكل بعد
فتح إليون، وابنه فاريس مات قتيلاً قبل الفتح.

وزوجه إيقاب كانت في سهم أوذيس عند اقتسام السبايا
فاسترقها.

وابنته كسندرا كانت من سبايا أغاممنون.

وكنته أندروماخ امرأة هكتور استأثر بها ابن آخيل، وعاد بها إلى
بلاده وتزوجها ثم طلقها، وأزوجها هيلينوس أحد أبناء فريام، وأما ابنها
استياناس فألقى به ابن آخيل عند فتح البلد من شاهر، كما كانت تقول
متشائمة وهي تندب هكتور (ن ٢٤).

وهيلانة بقيت مع منيلاوس في إسبارطة إلى أن توفي فاضطرت
إلى مغادرة البلاد، فذهبت إلى رودس فشنتقتها إحدى أرامل الأبطال
الذين هلكوا بحصار إليون.

وأوفر رجال القومين حظاً وأحسنهم منقلباً كان أنياس بطل منظومة فرجيليوس، فإنه تمكن من الفرار وأسس دولة كبيرة كما تقدم (ن) (٢٠).

هوامش

(١) يتضمن القسم الأول من هذا النشيد وصف حالة آخيل بعد أداء ما عليه من واجب الأخاء وقضاء حق الوفاء بمأتم فطرقل وانشاءه إلى جثة قاتله هكتور يسومها الذل والهوان، وقيام الآلهة للبحث في هذا الأمر. وقد جعلنا قوافيه مختلفة باختلاف السياق والموضوع.

(٢) مضى على مقتل هكتور اثنا عشر يوماً وهي مدة تنحل فيها أعضاء الجثث وتفسد، ولم يكن هوميروس ليجهل أنه يعترض عليه بمثل هذا فاستدرك بقوله:

أن أفلون حفظه «ومد عليه عسجدي مجنه فلا مسّه ضرّ ولا مزق الجلد»

وهو قول إذا أخذ على ظاهره يستفاد منه أن فيبوس وهو ربّ قدير حفظ الجثة من الفساد، وإذا لجأنا إلى التأويل قلنا: إن فيبوس (أو أفلون) ممثل الشمس ومن جملة مزاياه أنه ولي الطب والأطباء، وآخيل مريد خيرون رأس الأطباء، فأما أن يكون آخيل عالج الجثة بدواء يقيها الفساد ريثما يروي غلته بزيادتها هواناً وتحقيراً، وإما أن يكون بعض عبدة أفلون فعل ذلك، وعلى كل حال بطلت الغرابة ببقاء الجثة سالمة طول هذه المدة، وهي غاية الشاعر.



رسم وهمي للحصان الخشبي الذي اصطنعه أوديس.

(٣) هرمس رسول الآلهة.

(٤) أراد بقوله: «الربة التي أباحت له بنس المنى» الزهرة وإن لم يسمها، وفي هذه الأبيات الثلاثة إشارة إلى خرافة قديمة. قالوا: إنه لما حملت إيقاب بفاريس رأت في الحلم أن في أحشائها جذوة نار تلتهب فتضطرم بها آسيا وأروبا، فقصت رؤياها على زوجها فريام فلما ولد الولد هم فريام بإهلاكه، فوارته إيقاب عنه وائتمنت عليه رعاةً في جبل إيذا، فشب بينهم يرى الأنعام، وفي تلك الأثناء حدث الخلاف المشهور في

أساطيرهم بين أثينا وهيرا والزهرة، فتقاضين إلى باريس ورغبن إليه أن يحكم في جمالهنّ فاستمالته الزهرة ربة الهيام فقضى لها.

(٥) يجمع معنى هذين البيتين قول الشاعر العربي:
بليت وفقدان الحبيب بليّة وكم من كريم يتلى ثم يصبر

(٦) تقول هيرا: إن هكطور ليس كفؤاً لآخيل، فلا يجب أن نحفل به وننزله منزلة آخيل؛ لأن ذلك إنسيّ ابن إنسية، وهذا وإن كان إنسيّاً فأمه من بنات الخلود، ثم أيدت قولها بذكر الحفلة التي أقيمت لزفاف ثيتيس إلى فيلا، ولا بأس من إيراد هذه القصة: كانت ثيتيس أجمل بنات الماء فهام بها الأرباب، وفي مقدمتهم زفس وأخواه أفلون وفوسيد، وكادوا يختصمون عليها لو لم يروا في علم الغيب أنها ستلد أبناً يفوق أباه سطوةً وجاهاً، فأحجم الأرباب عنها وقضوا بزفها إلى إنسي، فتولت هيرا الأمر واختارت لها فيلا بعلاً، فأبت ثيتيس بادئ بدء أن تكون عرسه، ثم اضطرت إلى القبول في حديث طويل، وأقيمت للزفاف حفلة شائقة حضرها جميع الأرباب إلّا «الفتنة»؛ لأن زفس كان قد أجلاها من السماء وأقصاها عن محافلهم، فنقمت عليهم وأضمرت السوء، ثم انتهزت فرصة غفلة منهم وطرحت بينهم تفاحة ذهبية نقش عليها: «هذه لأجمل الربات» فادعتها هيرا وأثينا والزهرة، وتخاصمن إلى باريس فقضى للزهرة كما تقدم.

(٧) القربات جمع قريبة، ما يتقرّب به إلى المعبود من برّ وطاعة.

(٨) أي: إن إيريس غاصت في اليم كما تغوص الرصاصة المعلقة بالشص إذا طرح الشص في البحر لصيد السمك، وقرن الثور طافٍ على وجه الماء.

كان صيَّادوهم كصيادي هذا الزمان يربطون رصاصة فوق الشص لتغوص به في الماء، ولكنهم كانوا يتخذون قطعة من قرن أو نحوه بدلاً من قطعة الفلين، وما أشبهها مما يعلق الآن على مسافة من الشص ليبقى طافياً على وجه الماء، ويستدل باضطرابه على نشوب الشص بالسمكة.

(٩) الغيابة: القعر.

(١٠) القضم: الأكل والكسر بأطراف الأسنان، وقضم القلب كأبة وحرناً استعارة غريبة، ولكنها ذات وقع، ولم أر لها مثلاً في العربية منع ورود قضم الجمر وعض الأصابع غيظاً أو حرناً، كقول أبي الطيب: تقضم الجمر والحديد الأعادي دونه قضم سكر الأهواز

أو كقول الوأواء الدمشقي:

واسترجعت سألت عني فقيل لها ما فيه من رمق دقت يدًا بيد
وأمرت لؤلؤًا من نرجس وسقت وردًا وعضت على العناب بالبرد

(١١) زعم البعض أن هذه العبارة دخيلة في الإلياذة؛ لأن هوميروس أحرص الشعراء على أدب الأخلاق فلم يكن من شأنه أن ينطق والدة آخيل بهذه العبارة الدسمة، ولكن من تأمل في مجريات ذلك

العصر عصر الزهرة، لا يعجب لورود عبارة كهذه، بل يعجب لإسباله الستار على الكثير مما هو أعظم وأدسم، ويعلم أن هوميروس كان أرقى أهل زمانه عِفَّةً وأدبًا، فثيتيس قد قالت قولاً مرت عليه وانتقلت منه مسرعة إلى بحث آخر، وليس الأمر كذلك عند رواة الأقدمين من الكلدان إلى المصريين إلى العبرانيين إلى اليونان إلى الرومان إلى العرب، فهوميروس بهذا المعنى أسبلهم ستراً وأحرصهم.

(١٢) هذا جواب مقتضب من آخيل يدعن فيه حالاً لإشارة أمه، إذعائاً لمطلب زفس فلا يطاول ولا يحاول بل يبادر إلى الرضوخ بلا ممانعة، فكأن نفسه طابت وروى معظم غلته بتدنيس جثة هكتور، والآمر زفس ولا مرد لأمره فأجاب صاغراً لعلمه أن المكابرة لا تجدي، وقد أحسن الشاعر بجعل هذا الحكم صادراً من زفس وإلا فلم يكن ثمة سبيل لحمل آخيل على إخماد سورة غضبه وإجابة فريام إلى طلبه.

(١٣) ادلفي: أسرع.

(١٤) قاتل أرغوص هو هرمس سفير الآلهة كما قدمنا، كان علاوة على اختصاصه بالسفارة رب المنطق والفصاحة، وكانوا يمثلونه تارة بصورة رجل تنبعث من فيه سلاسل تعلق بأذان السامعين، وطوراً بصورة فتى جميل الطلعة على رأسه قبعة وله جناحان على كاهليه، وجناحان بعقبه، وفي يده صولجان الفيوخ يلتف عليه أفعوانان — رأينا الشاعر في كل ما مر يرمي إلى إكبار آخيل وإعظام شأن اليونان، وهنا قد كادت

الإلياذة تبلغ حد الختام، فأراد أن يبقى الأمران في ذهن السامع فاستنبط هذه القصة فبلغ بها مراميه، أما آخيل فلا أسمى لإكباره من جمع الآلهة للبحث في أمره واشتغال سكان السماء والأرض في استمالاته وتسكين غيظه، وأما الإغريق فقد أبدى الشاعر ضمناً ما كانوا عليه من اليقظة والانتظام حتى لم يكن مخلوق دون الآلهة يصلح أن يخترق صفوفهم، ويبلغ آخيل سالمًا وإن كانوا في زمن موادة ومأتم عظيم.



هرمس (عطارد) سفير الآلهة ورب المنطق والفصاحة.

(١٥) كانوا يقولون: إن أسبابًا ثلاثة تحمل الإنسان على إتيان الخطيئة، وهي الجهل والحماقة والكفر، أو قلة الورع، ولم يكن آخيل على شيء من ذلك فلا بد إذن من أن يرضخ لأمر زفس.

(١٦) أي: إنه كان متمرغًا بالدمال ولا بسًا مسحًا — راجع ما قلنا بهذا الصدد (ن ٢٢).

(١٧) البهم: الأبطال.

(١٨) أي: أتحفه بالهدايا الغر فكأًا لهكطور.

(١٩) أي: لا يذهب معك غير فيج، أي: رسول مسن يعينك على سوق بغال المركبة

(٢٠) تقدم (ن ٢٠) ذكر غزل العمر، وغزل الهوان هنا من ذاك القبيل.

(٢١) تقدم لنا ذكر شواهد بهذا المعنى (ن ٢٢)، تمت أم هكطور أن تأكل كبدا آخيل، وقد فعلت هند بنت عتبة امرأة أبي سفيان تلك الفعلة بعد إيقاب بنحو ألفي عام، وكان ذلك في غزوة أحد التي تقدم ذكرها؛ إذ بقرت بطن حمزة بن عبد المطلب، وتناولت كبده فلاكتها ومضغتها فلم تقدر أن تسيغها فلفظتها، ومن قبيل تحرق إيقاب تحدم سلافة بنت سعد بن سهيل؛ إذ نذرت حين قتل عاصم بن ثابت

ابنها يوم أحد المذكور لئن قدرت على رأس عاصم لتشربن في قحفه
الخمير. قال عنترة:

وإني قد شربت دم الأعادي بأقحاف الرءوس وما رويْتُ

(٢٢) رسم الشاعر بحديث فريام وإيقاب صورة الزوجين
أضعفهما كرور الأعوام، وانتابتهما الرزايا العظام، فيتشاكيان ويتشاوران،
فالرجل قانطٌ من حياته لا يرى إلا أن يموت ببقية من سالف مجده قير
العين ببلوغ أمنية يتمناها، والمرأة وقد عدمت العون والنصير ترى حياتها
بحياة ذلك الزوج، فبرزت إيقاب هنا بصورة المرأة الظنون والأم الحنون
والزوجة الشفيقة على زوجها المشفقة على نفسها، علمت أنه متكل على
زفس بذهابه إلى العدو، فلم تعباً بهذا الاتكال، بل ربما توهمت أنها
حيلة اختلقها فريام ليخفف عنها، فشكت وبكت ولامت وقامت تحول
بينه وبين أمنيته، وأعظمت عليه الأمر حتى إذا أتت على ذكر آخيل قاتل
ابنها ثار بها نائر الغيظ، فنددت وعددت، فإذا به كله قبائح، ولما أتت
على وصف ابنها أسبل الحنو ستره على بصرها فلم تر فيه إلا الجلال
والكمال، وأنساها الحب الوالدي فراره من وجه آخيل، فوصفته وصف
الخنساء بقولها:

يا صخر أنت فتى مجدٍ ومكرمةٍ تغشى الطعان إذا ما أحجم البطلُ
كاليث يحمي عريناً دون أشبله ثبت الجنان إذا ما زعزع الأسل
خطاب أندية شهاد أنجية لا واهن حين تلقاه ولا وهلُ

ضخم الدسيعة سهل حين تطرقه لا فاحش يرم نكس ولا خطلُ

(٢٣) علمت أن فريام كان ملكًا رفيع الشأن عظيم السلطان كثير الولد قوي الجند، أخنى عليه الدهر فزعزع أركان مملكته، وضعضع أحوال دولته، وعاث العدو ببلاده، وبطش بأولاده، وأراه هكطور وهو مطمح أبصاره وحامي ذماره قتيلاً يسام شر الهوان، فلا بدع بعد ذلك أن يرى النور ظلامًا ويفقد الرشد وتنهال شتائمه على القريب والبعيد، كأن الأرض في عينه بقعة سوداء لا تحمل إليه إلا الأعداء وهذا منتهى الجزع.

(٢٤) عربنا كلمتي (*Διον αγαυον*) بذيوس الأبهم أو الباسل على ما جرى عليه الأكثرون، ولكن بعض النقلة جعلوا العلم الكلمة الثانية، فقالوا: أغابون الإلهي أو العظيم. وهكذا قال مونتي (*Agavo di divina sembianza*).

(٢٥) القرن: السيد، والقرن المقارن الكفوء.

(٢٦) الرنام: المترنم.

(٢٧) يصف الشاعر عنا أجزاء المركبة وكيفية إعدادها، فالمراد بالزنيل صندوق من القصب وما أشبهه يلقي على المركبة، إما مجلسًا للركاب، وإما محملاً للمتاع، والنير كنير الحرّاة وفي أعلاه حلق تمر به الأعنة منفصلة إلى فكي الحيوانين، والسير الذي يناط بالنير كان يبلغ

طوله تسعة أذرع؛ لأنه كان يلف ثلاث مرار حول الجسر أو الجذع (العريش)، وهكذا فكانت الحيوانات تنجر المركبة بالجذع وليس بالسيور.

(٢٨) العنة: الحظيرة.

(٢٩) لا بد من التنبيه هنا إلى أن فريام ذهب بمركبتين إحداهما تحمل الرياش والمتاع المعد لفكاك هكطور وتنجرها البغال، والأخرى لركبوه وتنجرها الجياد.

(٣٠) تقدم لنا ذكر السانح والبارح (ن ١٢).

(٣١) الرتاج: الباب الكبير.

(٣٢) المحال: الدواليب أو العجل، كانت مركبات الحمل على أربعة دواليب، ومركبات الركوب والحرب على دولابين.

(٣٣) العنبر: هو تلك المادة السماوية التي تقدم الكلام عليها (ن ١٤). والظاهر أنه يكاد يستعمل لكل غرض من أغراض الآلهة، فهو طعامهم كما ذكر في غير موضع، وطعام خيلهم كما مر في النشيد الخامس، وطيبهم الذي يتطيئون به؛ إذ تطيبت به هيرا (ن ١٤)، ودواؤهم؛ إذ استعملته ثيتيس (ن ١٩)، مضادًا للفساد فأفرغته في منخري فطرقل وهو قتل، وهو هنا داخل في ملبسهم، ولا يسهل علينا

تأويل كل تلك المزامع على اختلافها إلا إذا رجعنا إلى معنى اللفظة في الأصل وعرفنا أنها تفيد الخلود.

(٣٤) خلع: حرك، أشباه هذا الصولجان كثيرة في روايات القصص، حتى وبعض المؤرخين وليس هذا الصولجان الذي يتصف باليقظة والوسن بأعجب من خاتم المارد الذي يعمل كل نوع من المعجزات، أو القضيبي الذي يحرك بساط الريح ويطيّره، وهلمَّ جرًّا.

(٣٥) البلج: الطلق المحيا.

(٣٦) لا يزال شبان الترك وغيرهم من أبناء الشرق إذا خاطبوا شيخًا قالوا له: يا أبتاه، كما قال هرمس. فيقال لهم: يا بني، كما أجاب فريام فيما يلي.

(٣٧) يمثثل: يتصور.

(٣٨) أمثثل: أُبَيِّن.

(٣٩) امتشل السيف: استله.

(٤٠) لا غرو أن يشفق فريام من طرح جثة ابنه هكطور للغصف، أي: الكلاب لما كان يعلم من تحدم آخيل غيظًا عليه. في تواريخ العرب أن سليمان بن علي عم السفاح العباسي قتل بالبصرة جماعة من بني أمية، وأمر بهم فجروا بأرجلهم وألقوا على الطريق فأكلتهم الكلاب.

(٤١) يجتذل: يطرب.

(٤٢) كأني بهوميروس وهو ينظم هذين البيتين، قد ألقى بروح النبوءة أمثولة على الحجم الغفير من عمال حكومات هذا الزمان ينبئهم بها، كيف كانت أداب الأمور في زمانه، وعظمة يقيدهم بها إن كل صلة ينفخ بها التابع، فتمد إليها يده خفية عن المتبوع تعد رشوة وسرقة، وكل رشوة تؤخذ إنما تعد اختلاسًا من بيت المال؛ لأنها توجب نقصًا في دخله؛ إذ لو قبل هرمس هدية فريام وأخذ منه الكأس لنقصت من التحف المهداة إلى آخيل.

(٤٣) أتلعج: ولج.

(٤٤) أي: ألقى الأرصاد متأهبة لتناول الطعام، فصب الهجوع على أجفانها هذا التعبير الأخير من التعبيرات الهوميرية المألوفة.

(٤٥) الأرتاج: الأبواب، والأزلاج: الأقفال، وزلج الباب: أغلقه بالأزلاج. والمراد بالحصار: السور الذي بناه الإغريق وراء السفن.

(٤٦) زلج: خف وأسرع.

(٤٧) الأغمية: السقوف. والمزلاج: المغلاق، ورتج: أقفل.

يصف لنا الشاعر خيمة آخيل أو صريفته؛ إذ لم تكن مصنوعة من القماش بل كانت مبنية من سوق شجر السرو ومسقوفة بالبردي، (وفي الأصل القصب ذي الزغب) المقطوع من تلك المروج تحيط بها دار متسعة قائمة على أعمدة. ويستفاد من هذا الوصف، ومما تقدمه في

النشيد التاسع أنها كانت مقسمة عدة أقسام ففيها الحرم، وفيها المضيف، وفيها غرف أخرى، فلما أوفد أوديس وجماعته لاسترضاء آخيل وبات فينكس عنده أفرزت له غرفة وبات فطرقل وحظيته بغرفة، وآخيل بغرفة أخرى هذا خلا منازل السبايا، والمضيف الأكبر، وهي أشبه شيء بصرائف شيوخ العرب النازلين في البقاع الزراعية كبر العراق لأيامنا هذه إلا أن الغالب في هذه الصرائف أن يكون المضيف فيها منزلاً متسعاً منفصلاً عن الحرم.

ولا شك أن أمثال هذه الصرائف لم يكن يقام إلا للزعماء في أزمئة الحصار الطوال.

(٤٨) أي: ناشده باسم أبيه وأمه وابنه.

(٤٩) قضى هرمس رسالته وأبلغ فريام سلفاً إلى منزل آخيل، ثم توارى وقفل عنه راجعاً.

يرى حفظة التوراة لأول وهلة شبهاً غريباً بين رسالة هرمس ورسالة الملاك الذي رافق طوبيا، وقد أرسله أبوه إلى غليلوس بمدينة راجيس بأرض الماديين، وهو يجهل الطريق: «فبينما خرج طوبيا إذا بفتى بهي قد وقف مشمراً كأنه متأهب للمسير فسلم عليه، وهو يجهل أنه ملاك الله، وقال: من أين أقبلت يا فتى الخير؟ قال: أنا من بني إسرائيل. فقال له طوبيا: وهل تعرف الطريق الآخذة إلى بلاد الماديين؟ قال: أعرفها، وقد سلكت جميع طرقها مراراً كثيرة، وكنت نازلاً باخينا غابيلوس المقيم

براجيس مدينة الماديين». فدخل طوبيا بالملاك على أبيه فسأله أن يذهب بابنه دليلاً إلى راجيس على أن يؤدي له أجرته: «فقال له الملاك: آخذه وأعود به إليك؟ فقال له: أخبرني من أي عشيرة؟ ومن أي سبط أنت؟ فقال له رافائيل الملاك: أفي نسب الأجير حاجتك؟ أم في الأجير الذي يذهب مع ابنك؟ ولكن لكي لا أقلق بالك أنا عزريا بن حننيا العظيم». فرافق طوبيا وجرت المعجزات على يده ورجع به سالمًا إلى والديه، ولما سئل أن يأخذ أجرته قال: «إني رافائيل الملاك ...، والآن قد حان لي أن أرجع إلى من أرسلني ...، وبعد أن قال هذا ارتفع عن أبصارهم، فلم يعودوا يعاينونه بعد ذلك». (سفر طوبيا، فصل: ٥ - ١٢). وأمثال ظهور الملائكة للبشر كثيرة في التوراة والإنجيل والقرآن، كقوله: فَأَرْسَلْنَا إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا. ولهذا قال بعض الشراح: إن هوميروس أخذ هذه الرواية عن التوراة؛ إذ كان عالمًا بما تلقنه من اليهود أثناء إقامته بمصر أن الباري عز وجل قد ينفذ ملائكته رسلاً إلى البشر.

ولا أخال هذا الزعم صادقاً في كلياته، وإن أمكن صدقه في هذه الرواية؛ لأن الاعتقاد بالصلة بين الخالق والمخلوق عامٌ لجميع الأديان منزلة كانت أو غير منزلة، فإنشاد هوميروس لا يكاد يخلو منها نشيد من مخاطبة أو رسالة بين الآلهة والبشر، وجميع الآثار الباقية من كتاب اليونان الذين أحاطوا علمًا بمعتقدات اليهود أو لم يحيطوا ملأى بمثل

هذه الروايات، فضلاً عن روايات من هم أقدم منهم من المصريين والكلدان والآشوريين.

(٥٠) أي: إن آخيل وأصحابه دهشوا لرؤية فريام قادماً عليهم، وليس بحسبانهم أنه قادم كما يدهش القوم في دار رجل ذي عزوة وشأن إذا دخل عليهم فجأة رجل جانٍ يطلب اللياذ، فهم على ما ترى كأبناء البادية؛ إذ كانوا ولا يزالون يحمون الصريخ وينزلونه منزلة الجار والنزيل، وإن عظمت جنايته وضعفت عزوته. قال الكميت:

وجيش نصير جاءنا عن جناية فكان علينا واجباً أن يزورا

أي: أن يكرم ويؤخذ بيده، ومثله قول سليم بن محرز:
ونمنع سرب الجار إن رامه العدى جهاراً بخطي تهز سلاهبه

وقول عنترة:

وإني لأحمي الجار في كل زلة وأفرح بالضيف المقيم وأبهج

(٥١) مهما رسم الرسامون من مثال لمنتهى الشقاء والذل، فما هم بآتين بمثل هذا المشهد المهيّب: ملكٌ نبيلٌ، وشيخٌ جليلٌ يجزر شبيه على قمى فتى فتاك، ويقبل اليد التي سلبته نعيم الدنيا، وبطشت بولدٍ هم صفوة أبطال زمانهم، ومهما شحذت القرائح فما هي بمنتجة أبلغ من خطاب فريام لآخيل وأوقع منه في النفس حتى هاج مدمع ذلك القلب الصلب، فاجأ فريام آخيل وقومه وما أحسوا إلا أن هو بينهم، فبهتوا

فانسل وأهوى على ركبتى آخيل، وأخذ يقبل يديه، وقبل أن يبسط مرامه افتتح كلامه بقول يلين الجلمود؛ إذ أمر على مخيلته بعبارة وجيزة ذكرى أبيه فيلا، وهو كما علمت أعز الناس على آخيل وقد أدركه العجز وكساه الشيب حلة الجلال، ثم قابل بين حالته وحالة ذلك الشيخ الناء، فإذا هو أجدر بالرفق بما لا يقاس، ثم مر عجلًا على ذكر مقتل أبنائه حتى إذا أنس من آخيل ارتياحًا أتى على ذكر هكطور ومقتله، ولم يذكر من مناقبه إلا أنه كان يحمي ذماره وعشيرته، وليست سواها منقبة تعلي قدره لدى آخيل وتعطفه عليه، وإن كان عدوه الألد ووطًا للختام بتكرار ذكر فيلا، واختتم بعبارة أخذت بجميع أطراف المذلة والتعاسة وهي قوله:

هذه الكف أسُّ بؤسى وذلي
وبها ابني أضحى قتيلاً جديلاً وأنا قد قبلتها تقبلاً

فلا بدع بعد ذلك أن ينتحب آخيل على عزة نفسه، وقد نصبت لعينيه كل هاتيك الرسوم.

(٥٢) يقول: إن في أعتاب زفس قارورتين (أو دنين)؛ قارورة جعل فيها شراب الخير، وقارورة شراب الشر، فيسقي الناس؛ إما من أحدهما، وإما من كليهما، فالذي يُسقى مزيجًا من الخير والشر يلقي خيرًا ويلقى شرًا، والذي يسقى من الشر لا يلقي إلا الشر والشقاء.

وفي هذا التوزيع حكمة صادقة قلَّ من ينتبه إليها، وهي أنه لم يقل بوجود بشر يسقى من قارورة الخير وحدها إشارة إلى أنه لا راحة تامة لأحد من بني الإنسان.

هذه خرافة من خرافات القوم، ولكنها تتضمن حقيقة راسخة، وفيها استعارة لطيفة ورد أمثالها في التوراة؛ إذ ذكر صاحب المزامير كأساً بيد الحق جلّ جلاله، ونكاد نجد في كلام شعرائنا كأساً لكل محمود ومكروه، قال عنتره:

لا تسقني كأس الحياة بذلة بل فاسقني بالعز كأس الحنظل

وقال ابن الفارض:

سقتني حميا الحب راحة مقلتي وكأسي محيا من عن الحسن جلتِ

ومن مرويات الزمخشري:

ما أرجي بالعيش بعد أناسٍ قد أراهم سقوا بكأس حلاق

والمراد بكأس حلاق: الموت.

(٥٣) كانت مملكة فريام ممتدة من سواحل بحر هيبلا (الدردنيل) شمالاً إلى لسبوس جنوباً إلى فريجيا شرقاً، وذكر إسطرابون أنها كانت تسع ممالك منضمة جميعاً تحت لواء فريام، فقول هوميروس هنا قول عالم بجغرافية زمانه محقق.

(٥٤) قال أراكة:

لعمري لئن أتبعْتَ عينك ما مضى به الدهر أو ساق الحمام إلى القبر
لتفتقدن ماء الشئون بأسره وإن كنت تمر بهنَّ من ثبج البحر
تأمل فإن كان البكا رد هالكا على أحدٍ فاجهد بكاك على عمرو

(٥٥) لقد أكبر الشاعر بطله آخيل بهذا العطف على فريام فوق
إكباره إياه بسائر ما قال؛ إذ أبرزه هنا ذا عاطفة وحكمة وحنان فبات
المستعطفُ المستعطف، وهي براعة من الشاعر نادرة المثال؛ إذ أضاف
إلى مناقبه منقبة هي أعظمهن وأبعدهن عن ذهن المطالع، فلا يأتي على
ختام الإلياذة إلا وقد رسخ في تصويره أن آخيل من أعظم الخلق بأسًا
وكرامة وعزة وشهامة، وهو وإن كان صعب المقاد صلب الجنان، فلا
يخلو عنصره من أصفى جواهر الكرم والورع والإحسان.

(٥٦) عيون العيون: نواظر الأرصاد. هذه آخر شرارة قذفها
آخيل عن زناد غضبه الذي بنيت عليه الرواية، وهنا خبت ناره فبات دعة
وكرمًا بعد ذلك الاحتدام الوهاج.

(٥٧) قد علمت مما مر من التمثيل بجثة هكتور ووعيد آخيل
وهديده، أنه كان ينوي لها شر النيات، أما الآن وقد انطفأت جذوة غيظه
وارعوى إلى الصواب، فقد رجع إلى إجراء الواجب بعرفهم من رعاية
جثث الموتى، فأمر بتكفينه وتطيبه على ما يليق بمقامه. تلك كانت حالة
العرب في جاهليتهم فقد كانوا إذا اشتد بهم الكيد يمشلون بالقتلى مثلة

قبيحة، ولكنهم كانوا فيما سوى ذلك يحترمون جثث القتلى ولو من أعدائهم. قد جاء في الأثر أن جَسَّاسًا لما قتل كليبًا وضع على جثته حجارًا لئلا تأكلها السباع. والتمثيل بالقتلى مما نهى عنه الإسلام كما تقدم، وفي الحديث عن عائشة: «كسر عظم الميت ككسره حيًّا» أي: إنه لا يهان كما لا يهان الحي. ومن مرويات الحديث أيضًا: «لأن يجلس أحدكم على جمرة فتحرق ثيابه فتخلص إلى جلده خيرٌ له من أن يجلس على قبر» ومن هذا القليل قول المعري:

خفف الوطء ما أظن أديم الـ أرض إلا من هذه الأجساد
وقبيح بنا وإن قدم العهدـ ـ هوان الآباء والأجداد

(٥٨) حبذا لو ذكر الشاعر في جملة خطاب آخيل لفطرقل أمر زفس بالتخلي عن هكطور؛ لأن ذلك يجمل عذره لديه، فهو أقرب إلى إظهار الاضطرار من قبول الفكاك واستبقاء سهم فطرقل منه.

(٥٩) أشار آخيل إلى قصة مشهورة في خرافاتهم مؤاساةً لفريام، وحثًا له على تناول الزاد؛ ذلك أن نيوبا ابنة الطنطال وامرأة أمفيون ملك ثيبة كانت تعتر بكثرة أولادها، وهم ستة بنين وست بنات، ففاخرت بهم لاطونة عشيقة زفس، ولم يكن للاطونة سوى ولدين فييوس (الشمس)، وأرطميس (القمر)، فحنقت لاطونة وأغرت ولديها فقتلا جميع أولاد نيوبا، فلبثوا تسعة أيام مجندين على التراب بدمائهم لا يضمهم لحد؛ لأن زفس كان يمسح كل من دنا إليهم حجرًا، ولما كان اليوم العاشر

دفتهم الآلهة، ثم مُسخت نيوبا، كما تحولت امرأة لوط نصب ملح على ما جاء في التوراة (تك ١٩: ٢٦)، ولكن نيوبا بقيت على كونها جمادًا تتألم.

يقول آخيل لفريام: إن مصاب نيوبا بأولادها فوق مصابك، ومع ذلك فقد شعرت بالجوع وأكلت، فهذا وقت الطعام، وللنوح والبكاء وقت آخر.



نيوبا وأحد أولادها.

(٦٠) الضنو: الأولاد.

(٦١) الطوى: الجوع.

(٦٢) أربوها: قطعوها، والآراب: القطع، وسفدوا: شكوا في السفافيد.

(٦٣) ابن دردانوس: فريام.

(٦٤) الزرابي: الطنافس والبسط.

(٦٥) يقول آخيل: إنه قد جرت عادة الزعماء (بعد مقتل هكطور) أن يجتمعوا لديه يتشاورون في أمرهم، ولهذا أمر أن يعد فراش فريام خارج الساباط لئلا يراه أحد، فيعلم به أغاممنون والجيش فيصعب عليه الخلاص بعد ذلك.

قصد الشاعر بقوله هذا أن يثبت مرة أخرى كرم أخلاق آخيل، وأن يعيد ذكرى ما له من علو المقام بين الرؤساء، وإن لم تكن الرئاسة له وأن يوطئ توطئة حسنة لما يلي؛ إذ لو كان فريام داخل الخيمة لما تيسر له الفرار ليلاً كما سيحيى.

(٦٦) يرجي: يؤخر، وأراد بالمليك أغاممنون.

(٦٧) التوائق بالتصافح قديم العهد. راجع مطالعتنا بهذا الباب (ن ١٠).

(٦٨) أي: إذا درى بك أغاممنون وقومه بذلوا لآخيل ثلاثة
أضعاف ما بذلت، وأخذوك فقتلوك فتزيد مصاب أبنائك الباقين بعد
هكطور.

(٦٩) إذلعبت: جدت.

(٧٠) النطاب: الرأس، أي: رأس هكطور.

(٧١) يظهر من كلام هوميروس في هذا الموضع ومن مظان في
التوراة وكتب العرب أن النياحة كانت مهنة تحترف بها طائفة من الناس،
وهي من لوازم المآتم، وقد ذكر صاحب الأغاني جماعة كانت هذه
مهنتهم كابن سريج وغريص وغيرهما، وفضلاً عن ذلك كان النساء يندبن
الموتى صارخات ومغنيات وعازفات. ذكر ابن الأثير وغيره من مؤرخي
العرب أن نساء المشركين خرجن بعد غزوة بدر وبأيديهن الدفوف ينقرن
عليها ويندبن الموتى، وقد قضت الحضارة على هذه العادة فتلاشت من
أكثر البلاد، وهي مع ذلك لا تزال فاشية في الأقاليم المصرية وبعض
البلاد الشرقية.

(٧٢) كدم الأرض للقتيل، وعض الثرى، وأكل التراب من
المجاز المألوف في أكثر الألسنة، قال عنترة:
كم شجاع دنا إليّ ونادى يا لقومي أنا الشجاع المهيّب
ما دعاني إلا مضى يكدم الأرض ض وقد شققت عليه الجيوب

(٧٣) لا غرو أن تقول أندروماخ: إن مصابها بهكطور فوق
مصاب أبيه وأمه وسائر ذويه، وهو قول يصدق على كل أيم، قالت جليلة
بنت مرة ترثي زوجها كلياً:

يا قتيلاً قوض الدهر به	سقف بيتي جميعاً من عل
ورماني قتله من كذب	رمية المصمي به المستأصل
يا نسائي دونكن اليوم قد	خصني الدهر برزء معضل
خصني قتل كليب بلطى	من ورائي ولطى مستقبل
ليته كان دماً فاحتلبوا	درراً منه دمي من أكحلي

(٧٤) الذباب: حد النصل، أشارت بقولها: لخليل إلى فطرقل.

(٧٥) الصولج: الفضة، والحنية: القوس، أي: لا أزال أراك رطباً
جميلاً غير مشوه بالجراح، ولا معفر بالتراب، كمن أماته فيبوس بسهم
دقيق رماه به عن قوسه اللجيني، أو بعبارة أخرى كمن مات حتف أنفه.

(٧٦) انشعبت: مت.

(٧٧) لا حاجة بنا إلى إيراد مطالعة على مناحة زوجة هكطور
وأمه وامرأة أخيه، فقد تقدم لنا كلام بهذا المعنى (ن ٢٢) يصدق مجملاً
على هذا الموضع، وإنما تنبه إلى أن الشاعر لم يُنطق فريام هنا بشيء
مما أنطقه هناك؛ لأنه لم يكن لكلامه موضع بعد أن أفرغ كنانة حزنه في
كل أجزاء هذا النشيد، ولم يكن بد من إنطاق هيلانة؛ لأنه لا يصح أن

تختتم المنظومة وقد سدل عليها ستار النسيان وهي سبب كل هذا
البلاء، وهكذا فإن الشاعر جعل الوصف كاملاً والحزن شاملاً واختتم
هذا النشيد، وفيه ختام الإلياذة بمشهد من أشد المشاهد تأثيراً في
النفوس، فالأمة كلها قائمة قاعدة للاحتفاء بملقى هكطور ميتاً، وشقيقته
كلها جزع وحزن قلقه على شرفات الأبراج، وأبوه الشيخ الهرم عائد به
بعد أن خاطر بحياته لأجل جثته، وزوجه ترثي رثاء الأيم المتوقعة غدرات
الزمان، وأمه تندب الجمال والكمال وتن أنين الرءوم، وهيلانة تنوح نوح
الفاقدة النصير الموقنة بسوء المصير، وعلى الجملة فإن الدنيا برمتها
متمثلة للقارئ عناء وشقاء.

(٧٨) لم يطل الشاعر في وصف مأتم هكطور؛ لأنه لم يبق محل
لذلك بعد أن أسهب ذلك الإسهاب في مأتم فطرقل.

الفهرس

٤	إهداء الكتاب
٥	ديباجة الكتاب
٩	مقدمة
٢٨٧	النشيد الأول
٣٤٧	النشيد الثاني
٤٢٦	النشيد الثالث
٤٨٢	النشيد الرابع
٥٢٥	النشيد الخامس
٥٩٠	النشيد السادس
٦٥٤	النشيد السابع
٦٩٣	النشيد الثامن
٧٣٩	النشيد التاسع
٧٩٥	النشيد العاشر
٧٩٦	النشيد العاشر
٨٣٣	النشيد الحادي عشر
٨٨٤	النشيد الثاني عشر
٩١٥	النشيد الثالث عشر

٩٦٧	النشيد الرابع عشر
١٠١٩	النشيد الخامس عشر
١٠٦٢	النشيد السادس عشر
١١٢٠	النشيد السابع عشر
١١٥٧	النشيد الثامن عشر
١٢٠٩	النشيد التاسع عشر
١٢٣٨	النشيد العشرون
١٢٧٠	النشيد الحادي والعشرون
١٣٠٨	النشيد الثاني والعشرون
١٣٥٦	النشيد الثالث والعشرون
١٤٢١	النشيد الرابع والعشرون